



الكسى تولستوى

درب الآلام

ثلاثية
الكتاب الاول

الشقيقة تان



دار التقدم
موسكو

لذلك الزمن ، وكاتبه . (رواية «قلب قلق» وتخصص بعنوان «مكان منسى» . وبعد ذلك جملة من كتب للأطفال وأكثرها شعبية هو «الصديقة» ...

انقضت طفولتي في ضيعة زوج امي المسماة سوسنوفكا . بستان ، وبرك يحيط بها الصفصاف ، وينمو فيها القصب . والنهر السهبي تصاعرا . والرفقاء هم اولاد القرية . وخيول الركوب والسهب المشوشب ، حيث الربي وحدها كانت تكسر خط الافق الرتيب ... وتماقب قصول العام مثل احداث ضخمة وجديدة دائما . ان كل ذلك ولا سيما ثمتاتي وحيداً قد وسعت دائرة احلامي .

حين كان الشتاء يحل ، وتتراكم الثلوج في البستان وحول البيت كان عواء الذئاب يرتفع في الليل . وحين تغني الريح في مداخن المواقد ، يضاء مصباح معلق فوق مائدة مستديرة في غرفة الطعام ، وهي حجرة مجصصة الجدران ومفروشة بشكل بانس ، ويقرا زوج امي في العادة نكراسوف ، وليف تولستوي وتورغينيف بصوت عال ...

وكانت امي تصغني وهي تحيك الجوارب . وكنت ارسم او اللون صورا ... ولم تستطع اية حادثة ان تخسرق صوت تلك الامسيات في ذلك البيت الخشبي القديم حيث تفوح حرارة المواقد المجصصة ، المدفأة بالروت المجفف او القش ، وحيث لا يد من شمعة للتقليل من حجرة مظلمة الى اخرى ...

لم اقرأ كتب اطفال غالبا . فمن المحتمل انها لم تكن لدي . وكان كاتبى المفضل تورغينيف . وقد بدأت اسمعه في امسيات الشتاء وانا في سن السابعة تقريبا . ثم ليف تولستوي ونكراسوف وبوشكين . (كان اهل البيت يظفرون الى دوستوفسكى بشيء من الرعب باعتباره كاتباً «فاسيا») .

وانا في نحو العاشرة اخذت اكثر المطالعة ، كسل ما لهؤلاء الكلاسيكيين . وبعد حوالي ثلاثة اعوام حين ادخلوني بصعوبة (لاننى حصلت في امتحانات القبول على درجة منقوت تامة تقريبا) في مدرسة ثانوية استطعت الحصول في مكتبة المدينة على جيول فيون وفيينمور كوبر وماين ريد والتمتهم بتعلمش ، رغم ان امسى وزوجها كانا يتعيان على هذه الكتب قفاهما .

وقبل دخولي الى المدرسة الثانوية كنت اتعلم في البيت ، فقد استقدم زوج امسى من سامارا معلما هو اركادى ايفانوفيتش سلفواخوتوف وهو طالب مدرسة ثانوية دينية ، وكان مجدورا احمر كالنار وشخصا ممتازا انسجنا معا ولكننا درسنا العلوم على مهل .

ذات شتاء ، وكنت في نحو العاشرة ، نصحتنى امي بكتابة قصة . وكانت تود كثيرا ان اصبح كاتباً . وقد قضيت امسيات كثيرة منكبا على مغامرات الصبي ستيبكا ... وانا لا اذكر شيئا من هذه القصة غير عبارة : كان الثلج يتلالا تحت ضوء القمر كالاماس . وانا لم ار الاماس قط ، ولكن هذا التشبيه اعجبني . ولم تكن قصة ستيبكا موفقة على ما يبدو ، فلم تكرهنى امي مرة اخرى على الكتابة .

قبل الثالثة عشرة ، قبل دخولي الى المدرسة الثانوية عشت حياة تأملية حاملة . ولم يعنى هذا بالطبع من ان اقضى اياما كاملة في حصد العشب ومكان حصاد الحبوب ودراسها ، وعند النهر مع اولاد القرية ، والتردد شتاء الى المعارف من الفلاحين لاستمع الى الحكايات والحواديت والاغاني ، ولعب الورق والكعاب ، والعراك على اكوام الثلج بالقبضات ، والتقمص في اعياد الميلاد ، وركوب الخيول غير المروضة بلا لجام ولا سرج ، والى غير ذلك .

تركزت سنوات المجاعة الثلاث من عام ١٨٩١ حتى عام ١٨٩٣ اذ عميقا في ما زلت احسه حتى الان ، كانت الارض انذاك مشققة . والخضرة قد ذبلت قبل الاوان وتناثرت ، والحقول صفراء محروقة . وفي الاق عتمة كدرة احقرت كل شيء .

وفي القرى تعرت سطوح الاكواخ لان الناس استخدموا قشها علغا للماوى ، وربطت المواشى النحيلة السليمة بالسيور الى الزوافد ... في تلك السنوات نجت ضيعة زوج امي بالكاد من الخراب ... ومع ذلك فقد اضطر بعد بضع سنوات الى بيعها ... ان ولاية سامارا كلها اصبحت تعود الى كبير مالكي الاراضى شاخوبالوف الذى كان يشتري اراضى الاعيان كلها ويأخذ من الفلاحين اجور الاستئجار السنوى بالقدر الذى كان يشتنيه ...

في عام ١٩٠١ انهت المدرسة الثانوية في سامارا وسافرت الى بطرسبورغ للاستعداد لامتحانات القبول ، واديت امتحان القبول الى المعهد التكنولوجي ودخلت فرع الميكانيك .
ارجع تجاربي الادبية الاولى الى سن السادسة عشرة ، وهي عبارة عن اشعار هي تقليد عاجز لنكراسوف ونادسون . وانا لا استطيع ان اذكر السبب الذي حداني الى كتابتها ، فقد يكون الحلم الطائش الذي لم يجد شكلا له ، كانت الاشعار فجأة فتركت العكوف عليها .

ولكنني كنت اشتاق مرة بعد اخرى الى عملية خلق لم تتبلور بعد . واحببت دفتر العبر والريشة . وعندما كنت طالبا كنت اعود بين الفينة والاخرى الى تجربة الكتابة ، ولكن ذلك كان بداية شيء ما لا يستطيع ان يتشكل ، ان يكتمل . . .

تزوجت في وقت مبكر ، في التاسعة عشرة ، طالبة في معهد الطب ، وعشنا سويا بعيشة طلابية عاملة اعتيادية حتى نهاية عام ١٩٠٦ . واشتركت مثل الجميع في الاضطرابات والاضرابات الطلابية ، وانضمت الى كتلة الاشتراكيين الديموقراطيين ، والى لجنة مطعم المعهد التكنولوجي . وفي عام ١٩٠٣ كدت اقتل بحجارة طائرة اثناء مظاهرة عند كاتدرائية قازانسكي ، فانقذني كتاب كنت قد حشرته تحت المعطف على صدري .

وعندما اطلقت المعاهد التعليمية العالية سافرت في عام ١٩٠٥ الى درزودن ، حيث قضيت سنة في مدرسة تكتيكية . وهناك عدت الى كتابة الشعر مرة اخرى ، وكانت هذه تجارب ثورية وغنائية . في صيف ١٩٠٦ عدت الى سامارا ، واطلعت والدتي عليها . فقالت في اسي انها جميعا غثة جدا . ولم احتفظ بهذا الدفتر . ان لكل عصر شكله الذي يصوغ به الافكار والمشاعر والاعراف . ولم يكن لدى هذا الشكل الجديد ولم اكن قادرا بعد على خلقه .

في صيف ١٩٠٦ توفيت امي الكسندرا ليونتييفنا بالتهاب السحايا . فرحلت الى بطرسبورغ لاتباع دراستي في المعهه التكنولوجي .
وبدا عهد الرجعية ، ويطلع الرمزيون معا على اضواء المسرح .

عند ذلك ، في ربيع ١٩٠٧ ، كتبت اول ديوان لي وهو اشعار «منحلة» . وكان ذلك كتيباً تقليدياً ساذجا دينيا . ولكنه بالنسبة لي شققت به الطريق الى فهم «الشكل الحديث للشعر» . وبعد عام اصدرت الديوان الثاني : «وراء الانهار الزرقاء» . وانا لا اتبرا منه حتى يومنا هذا . فان «وراء الانهار الزرقاء» حصيللة اول تعرفي بالفولكلور الروسي ، بالابداع الشعبي الروسي . وقد حينذاك يدات تجاربي الاولى في النشر «حكايات القمع» . وقد حاولت فيها ان اصف على شكل حكايات انطباعاتي في الطفولة . ولكن استطلعت بعد سنوات عديدة ان اوفق في ذلك بقدر اكثسر كما لا في قصة «طفولة نيكيتا» .

وانا مدين ببداية عملي ككاتب قصي لصلتي بالشاعر والمترجم م . قولوشين . في صيف ١٩٠٩ سمعت فولوشين وهو يقرأ ترجماته من هنري دو ريشيه . وقد بهرنى سبب الصور . ان الرمزيين في بحثهم عن الشكل والجماليين ، مثل ريشيه ، اعطوني مبادئ الشيء الذي لم يكن لدى آنذاك . ولا سبيل للابداع والشكل والتكنيك بدونه .

في خريف ١٩٠٩ كتبت اول قصة طويلة لي هي «اسبوع في ضيعة تورغينيفو» وهي احدي القصص التي دخلت فيما بعد في كتاب «ما وراء القولغا» وبعد ذلك في المجلد الموسع «تحت اشجار الزيزفون القديمة» وهو كتاب عن تقليدات حياة الاعيان من ذلك القسم من اصحاب الاطيان الذين طحنهم سلاطين الارض الجدد - آل شايخولوف . لم يمس كتابي الاعيان المترسخين على الارض الذين انتقلوا الى الاشكال المكتفة من الاقتصاد . فلم اكن اعرفهم . ثم تتبع ذلك روايات «السيد الاعرج» و«غريبو الاطوار» . وبذلك ينتهي عهدي الاول في الفن القصصي ، المرتبط بالبيئة التي كانت تحيطني في صباي .

استنفدت موضوع الذكريات ، واقتربت تماما من الواقع المعاصر . وهنا منيت بالفشل . فقد كانت قصص واقاصيص الواقع المعاصر فاشلة وغير نموذجية . والآن ادرك سبب ذلك . فقد واصلت العيش في دائرة الرمزيين الذين لم يكن فتحهم الرجعي تحقبل الواقع المعاصر الغائر بعنف وتهديد في اتجاهه نحو الثورة .

ابتعد الرمزيون في التجريد ، في العفوس قابعين في «الابراج العاجية» حيث كانوا يتنون انتظار انتهاء ما كان يزحف .

لقد احببت الحياة ، وكرحت بكل جوارحي التجريد والمذاهب المثالية . والذي كان نافعاً لي في عام ١٩١٠ اضرتني واعاقني في عام ١٩١٣ .

كنت ادرك جيدا ان من المستحيل الاستمرار في ذلك . كنت اعمل كثيرا دائما ، والآن اعمل باصرار اشد ، ولكن النتائج كانت بانسة : فانا لم ار الحياة الحقيقية للبلاد والشعب .

وبدأت الحرب العالمية الاولى . وكنت في جبهات القتال كمراسل حربي لجريدة «روسكيه فيدموستي» ، ووزت انجلترا وفرنسا (عام ١٩١٦) . وانا منذ زمان بعيد لا اعيد اصدار كتاب اللوحات الادبية عن الحرب لان الرقابة القيصريه لم تسمح لي بكل قوة ان اقول ما رأيته وما شعرت به . ولم تدخل غير يضع اقايصص ذلك الوقت في مجموعة مؤلفاتي .

ولكنني رايت الحياة الحقه ، وساهمت فيها بعد ان نزعنت عنى رداء الرمزيين الاسود المسدل كليا . ورايت الشعب الروسى . في الاشهر الاولى من ثورة شباط تحولت الى موضوع بطرس الاكبر . ومن المرجح ان سليلقة الفنان اكثر من الوعى هسى التى جعلتنى ابحث في هذا الموضوع عن مفاتيح لغز الشعب الروسى ، والدولة الروسية .

وانا ارجع بداية عملي المسرحى ككاتب مسرح الى الايام الاولى من الحرب . وقبل ذلك ، في عام ١٩١٣ ، كتبت كوميديا «المغتصبون» وعرضتها على مسرح «مالي» في موسكو . . . وقد اثارت حماسا في قسم من المشاهدين ، وسرعان ما منعت من قبل مدير المسارح الامبراطورية .

ما بين عام ١٩١٤ و١٩١٧ كتبت وعرضت خمس كوميديات : «الطلقة» و«الشيطان» و«السنونو» و«الصاروخ» و«اللون المر» .

ومع قيام ثورة اكتوبر عدت الى النثر مرة اخرى ، وانهى المسودة الاولى ل«يوم بطرس» وكتب قصة «كوتونا رحما» ! التى هى اول تجربة لنقد المثقفين الليبراليين الروس في ضوء لهيب اكتوبر ،

وفي خريف عام ١٩١٨ سافرت مع العائلة الى اوكرانيا ، وفضينا الشتاء في اوديسا ، حيث كتبت كوميديا «الحب كتاب ذهبي» وقصة «كاليوسترو» . ومن اوديسا سافرت مع العائلة الى باريس ، وهناك بدأت في تموز عام ١٩١٩ بكتابة ملحمة «درب الآلام» .

كانت الحياة في الهجرة اتسسى فترة في حياتي . هناك ادركت ما تعنى ان تكون منبوذا ، انسانا مقطوعا عن الوطن ، بلا وزن ولا ثعرة ، ولا حاجة لاحد بك في كل الاحوال .

وكتبت بخماسة رواية «درب الآلام» (الجزء الاول «الشقيقتان») وقصة «طفولة نيكيتا» و«مغامرات نيكيتا روتشني» وبدأت عملا كبيرا امتد عدة اعوام : اعدت من جديد عمل كل ما هو ثمين مما كتبته حتى ذلك الوقت . . .

وكان باكورة عملي بعد العودة الى الوطن مؤلفان : قصة «على العنبة» . وبذلك انقطعت في الحال كل صلاتي بالكتاب المهاجرين . و«لبس الحداد على» اصدقائي السابقون . وفي ربيع ١٩٢٢ وصل من روسيا السوفييتية الكسى مكسيموفيتش بشكوف * . وانعدت بيننا علاقات ودية .

في فترة اقامتي في برلين كتبت رواية «آيليتا» وقصص «الجمعة السوداء» ، و«مقتل انطوان ريفو» و«المخطوطة المكتشفة تحت السرير» . وهى اكثر هذه الاعمال اهمية من حيث الموضوع . . .

في ربيع ١٩٢٢ سافرت مع العائلة الى روسيا السوفييتية . وكان باكورة عملي بعد العودة الى الوطن مؤلفان : قصة «ايبكس» وقصة غير طويلة هى «المدن الزرق» . . .

في عام ١٩٢٤ عدت الى المسرح : كوميديا «طرد الشيطان الضال» ومسرحيتا «مؤامرة الامبراطورة» و«آزيف» وكوميديا «عاجيب في المنخل» و«الشمباج العائد» وتحويلات مسرحية «تمرد الآلات» و«انا كريسيتي» و«رجل اعمال» (حسب موضوعات مسرحيات الشاعر الالمانى غازينكليفر) .

* مكسيم غوركى .

وفي عام ١٩٢٦ كتبت رواية «هيبربولويد المهندس غارين» ،
وبعد عام بدأت بكتابة الجزء الثاني من رواية «درب الآلام» وهو
«عام ١٩١٨» .

وفي نفس الوقت لم أكف عن تحرير وتنقيح كل ما كتبه من
قبل ...

في عام ١٩٣٠ كتبت الجزء الاول من رواية «بطرس الاول» .
وبعد عام ونصف العام الرواية الهجائية : «الذهب الاسود» التي
اعدت صياغتها في عام ١٩٣٨ ونشرتها تحت عنوان «المهاجرون» ،
وانهت الجزء الثاني من «بطرس الاول» في عام ١٩٣٤ .

ان كلا الجزئين التي نشرتهما من «بطرس الاول» ما هما الا
مدخل الى الرواية الثالثة ، الى العمل الذي بدأت به (في خريف
١٩٤٣) .

ما الذي ساقنى الى ملحمة «بطرس الاول» ؟ ليس صحيحا انني
اخترت ذلك العهد لتفسير الواقع المعاصر . لقد جذبتني الاحساس بكمال
القوة الفؤادة والابداعية للحياة التي تفتح فيها الخلق الروسي
بصنوع فريدة .

ان اربعة عهود تجذبني الى التصوير لنفس هذه الاسباب :
عهد ايفان الرهيب ، وعهد بطرس الاول ، والحرب الاهلية
١٩١٨-١٩٢٠ وعهدنا العالي المنقطع النظير بسعة نطاقه واهميته .
ولكن الكتابة عنه رهن بالمستقبل . ولهم سر الشعب الروسي
وعظمته يجب ان يُعرف ماضيه معرفة جيدة وعميقة : ان يُعرف
تاريخنا ، وعقده الجذرية ، والهمود التراجيدية والابداعية التي
تشكل فيها الخلق الروسي .

في عام ١٩٣٥ بدأت بكتابة قصة «الخبز» التي هي ثقلة
ضرورية بين رواية «عام ١٩١٨» ورواية «صباح غائم» التي كنت
اعمل الفكرة فيها في ذلك الوقت . وانهت «الخبز» في خريف ١٩٣٧ .
وقد سمعت الى العديد من الانتقادات لهذه القصة ، وهي في غالبيتها
تنحصر في انها جافة و«عملية» . ولتبرير ذلك استطيع ان اتقول
شيئا واحدا هو ان «الخبز» كانت محاولة لتمثيل مادة تاريخية
دقيقة بوسائل فنية ، ومن هنا جاء جموح الخيال . ولكن من الممكن
ان تتفع هذه المحاولة احدا من الناس في وقت ما . وانا ادافع عن

الحق للكاتب في التجربة وفي الاخطاء المرتبطة بها . ويجب احترام
تجربة الكاتب ، فلا فن بلا جراءة . والطريف ان «الخبز» شأنها
شأن «بطرس الاول» يمكن ان تترجم الى جميع لغات العالم تقريبا ،
وربما في اعداد كبيرة .

وسوية مع هذه الاعمال الادبية اقوم باعداد خمسة اجزاء من
الفولكلور الروسي لدار النشر للاطفال . وانا ارفض تحرير وتنقيح
الحكايات . وباحفاظي ببقاء القصة الشفاهية اربط روايات الموضوع
المروي في موضوع واحد مع الاحتفاظ بجميع خصائص الكلام
الشعبي ومع تنقية الموضوع من جميع التفاصيل والهوامش التي
ادخلت اما بان يعيد الراوي على ادخال تفاصيل حكايات اخرى
بشكل آلي ، واما بسبب عدم تضوج الراوي ، واما بسبب خصائص
الكلام المحلية غير المميزة .

في اليوم الذي بدأت فيه الحرب الوطنية الكبرى ، يوم ٢٢
حزيران ١٩٤١ ، قرغت من رواية «صباح غائم» . وعند اعدادي
الثلاثية كلها للطبع قمت بتنقيح الكتابين الاولين من هذه الملحمة .
وقد كتبت الثلاثية خلال اثنتين وعشرين عاما . وموضوعها العودة
الى البيت ، الطريق الى الوطن . والواقع ان كتابة السطور الاخيرة
والصفحات الاخيرة من «صباح غائم» يوم كان وطننا في نار الحرب
تقنعني بان سبيل هذه الرواية صائب .

عندما اعود بنظري الآن الى السنتين الرهيبتين المدمرتين
من الحرب اجد ان الايمان بقوى شعبنا التي لا تنضب ، الايمان
في صحة طريقنا التاريخي ، الطريق الباهظ والصعب والمستقيم
والانساني نحو الحياة العظيمة ، وحب الوطن وحده ، والتألم
المحض بعذاباته ، وكراهية العدو- كل هذا قد اعطى القوى
للنضال والنصر . وقد امنت بانتصارنا حتى في اصعب الايام من
تشرين الاول- تشرين الثاني عام ١٩٤١ . ويومذاك بدأت في
رَبِّعَتِكِي (على مقربة من مدينة غوروكي على شاطئ الفولغا) قضيت
الدرامية «افغان الرهيب» . فكانت ردا على المهانة التي عرض الالمان
وطنى لها . فاخرجت من العدم الروح الروسية الملتزمة- ايفان
الرهب- لاسلح «ضميرى المضطرب» . وواصلت كتابتي المقالات ،
وانا اعمل في هذه المسرحية ، ومن بين اكثر هذه المقالات صدى :

وايه ، ايها الارض الروسية ! ..
من قصيدة ملحمة قديمة بعنوان
«حديث عن قصيلة إيفورا»

ان اى انسان غريب على بطرسبورغ يدخلها بعين مراقب من احد الشوارع الضيقة المعرشة بأشجار الزيزفون لأية بلدة نائية سينتأبه ، في لحظة الانتباه ، شعور معقد من الانفعال الذهني والانسحاق النفسى .

انه يجوب شوارع مستقيمة ضبابية ، ويمر بيوت كنيية ذات نوافذ داكنة ، على بواباتها حجاب ناعسون ، ويطيل النظر الى انبساط نهر النيفا الغزيرة المياه العابسة ، والى الخطوط المزرقة للجسور ذات المصابيح التى تضاء قبل هبوط الظلام ، والقصور غير المريحة الغالية من النهضة المزينة واجهاتها بالاعمدة ، ويتطلع الى كندرائية بطرس ويولس بارتفاعها الشاهق غير المألوف للهندسة الروسية والى القوارب البائسة المترائبة فى الماء الداكن ، والى المراكب التى لا حصر لها مثقلة بالخشب الرطب ، وممتدة على الشطآن الغرانيتية ، ثم ينقل بصره فى وجوه المارة الشاحبة المهمومة ذات العيون الكدرة كدرة المدينة ذاتها ، ان هذا المراقب الدخيل بعد ان يمتلأ بصره وسمعه بكل ذلك سيخفى رأسه عميقا فى ياقته ، اذا كان حسن النية ، اما اذا كان سيئ النية فانه سيتصور ان افضل شيء ان تسمدّد ضربة قاضية على كل هذه الفتنة الجامدة وتمزق اربا .

ذات مرة فى عهد امبراطور بطرس الاول تملك الرعب الشديد سماسا من كنيسة ترويتسكايا القائمة حتى الآن على مقربة من جسر ترويتسكى ، حين رأى فى الظلام ، وهو نازل من برج الجرس ، شبح ساحرة نحيلة حاصرة الرأس ، وفيما بعد صرخ فى حانة :

كانت بطرسبورغ ، مثل أية مدينة أخرى ، تعيش حياتها الخاصة المتوترة المثقلة بالهموم . وكانت القوة المركزية فيها توجه هذه الحياة ، الا انها لم تكن مندمجة مع ما يمكن ان يدعى بروح المدينة : لقد كانت القوة المركزية تسعى الى استتباب النظام ، والهدوء ، والعقلانية ، بينما كانت روح المدينة تسعى الى تخليص هذه القوة . وكانت روح التهديم منتشرة في كل مكان تغذى بالسم الفتاك المضاربات الهائلة في البورصة لساكيلمان الشهير ، والحقن القاتم في نفس العامل في مصنع الفولاذ ، والامنيات المشوها لشاعرة على الموضة جالسة حتى الساعة الخامسة صباحا في قبو «الاجراس الحمراء» للفنانين . وحتى اولئك الذين كان عليهم ان يكافحوا هذا التهديم كانوا دون وعي منهم يأتون كل شيء لتسعيره وزيادة حدته . ذلك زمن كان فيه الحب ، والمشاعر الطيبة والسليمة تعتبر ابتداء ومن مخلفات الماضي ، وكان الناس فيه لا يجنون ، بل يشتهون الحب ، ويتهاونون ، كالمسومين ، على كل ما هو حاد ومثير للآلم في بواطنهم .

كانت الفتيات يخفن بكارتهن ، والازواج وفاهم . وكان التهديم يعتبر اشارة على حسن الذوق ، والاعياء العمصي علامة على رهاقة الحس . وكان المروجين لذلك كتاب على الموضة كانوا يبرزون من العدم خلال موسم واحد ، وابتكر الناس لانفسهم الموبقات والانحرافات لمجرد انهم لا يريدون ان يعتبروا عاديين . تلك هي بطرسبورغ في عام ١٩١٤ . كانت متفكرة بليالي السهر ، تفرق سامها بالخمور والذهب ، والحب الفارغ ، بانغام التانغو الممزقة لنياط القلب والحسية اللامتناهية - رقص الموت - فكانها كانت تعيش على انتظار يوم مهلك رهيب . وكانت لذلك يوادره : فان شيئا جديدا غامضا كان يتسلل من كل الشقوق .

٢

نحن لا نريد ان نتذكر شيئا . نحن نقول : كفى ، ولندبر ظهورنا الى الماضي ! ومن وراء ظهري ؟ فينوس دو ميلو ؟ وهل هذه يمكن ان تؤكل ؟ ام تستطيع ان تطيل وتسمى شعري ؟

انا لا افهم لماذا انا بحاجة الى هذا العملاق الرخامي ؟ ستقول انه الفن ، الفن . كفى . انا تزال معجبا بدغدغة هذه الفكرة لك ؟ انظر الى عينيك وشمالك ، والى امامك ، وفي موضع قدميك . انك تحتذي حذاء امريكا ! عاشت الاحذية الامريكية ! ان الفن هو سيارة حمراء ، واطارات من المطاط ، وصفيحة من البنزين ، وسبعون ميلا في الساعة . فان ذلك يثير في نفس التهام المسافات . والفن ايضا اعلان مساحته ستون ذراعا بصور فني اتقا عليه قبة عالية مشعة كالشمس . والفن خياط فنان ، عبقري يوهنا هذا ! انا اريد ان التهم الحياة ، وانت تطعنني ماء سكر بوصف لمن يعانون من الضعف الجنسي

ارتفع ضحك وتصفيق من نهاية القاعة الضيقة وراء الكراسي ، حيث كان طلاب من الدورات الدراسية ومن الجامعة يقفون متزامين . عدل المتحدث سيرغي سيروغيفيتش سابوچكوف من وضع نظارته الانفية الناطة على انفه الكبير ، متبسما من فم ميلل ، وهبيل درجات المنبر البلوطي الكبير بحركة رشيقة .

كان اعضاء «جمعية الامسيات الفلسفية» يجلسون على جانب من القاعة وراء منضدة طويلة يضيؤها شعدانان خماسيا الشموع وهؤلاء هم رئيس الجمعية انتونوفسكي الاستاذ في اللاهوت ، ومعاضد اليوم المؤرخ فليامينوف ، والفيلسوف بورسكي ، والكاتب الماكر ساكوتين .

وكانت «جمعية الامسيات الفلسفية» قد تعرضت في هذا الشتاء الى هجوم شديد من جانب شبان معومرين ولكنهم ذوو السنة لاذعة ، هاجموا الكتاب الموقرين ، والفلاسفة المحترمين بضراوة عنيفة ، وقالوا اشياء جريئة ومغرية جعلت الفيلاد القديمة مقس الجمعية في شارع فورتناكا تفض بالناس ايام السبت ، حين تكون الدعوة مفتوحة للجميع .

وهذا ما حدث اليوم ايضا . عندها اختفى سابوچكوف في الخشد وسط تصفيق صعد الى المنبر اكوندين ، وهو رجل قصير ذو جبهة حليلة الشعر نائنة ، ووجه فني اصفر بارز الوجنتين . كان حديث العهد في الحضور الى مثل هذه الامسيات ، وافر الحظ من النجاح ولا سببا في الصفوف الخلفية من القاعة . وكان العارقون

يبتسمون بغموض حين يتساءل المشائلون : من هذا ومن اين جاء ؟ وعلى اية حال لم يكن اكوندين اسمه الاصل ، وقد جاء من خارج الحدود ، ولم يكن تحدثه في هذه الامسيات يخلو من غرض . اجال اكوندين بصره في القاعة التي حُجم عليها السكنون وهو يداعب لعينه الهزيلة الشعر ، واخذت شفاهه تشفقان عن بسمه خفيفة ، وشرع يتحدث .

في تلك الاثناء كانت فتاة شابة تجلس في صف المقاعد الثالث عند الممر الاوسط تسند ذقتها بجمع يدها . كانت ترتدى فستانا اسود من الجوخ عاليا حتى العنق . وكان شعرها الناعم الرمادي مرفوعا فوق اذنيها ، ومعقوصا في عقصة كبيرة ، يسندها مشط . كانت الفتاة تشمخ في الجالسين وراء المنضدة الخضراء دون ان تتحرك ولا تبتسم ، واحيانا كانت عيناها تستقران على الشموع .

وعندما ضرب اكوندين المنبر البلوطي ، وصاح : «الاقتصاد العالمي يوجه اول ضربة من قبضته الحديدية الى قبة الكنيسة» زفرت الفتاة زفرة خفيفة ، وانزلت قبضتها من تحت ذقتها المحمر قليلا في اسفله ، ووضعت قطعة ملابس في يدها .

وتكلم اكوندين :

... واتمم ما تزلون تحلمون اعلاما غامضة عن ملكوت الرب على الارض . بينما هو ماض في سباته رغم كل جهودكم . ام لعلمكم تاملون انه سيستيقظ في آخر الامر ، ويتكلم مثل اتان بلعام ؟ اجل ، انه سيستيقظ ، ولكن لا على اصوات شعرائكم المعسولة ، ولا على دخان البخار . بل ان صافرات التصانح وحدها تاديرة على اعياق الشعب . انه سيستيقظ ، ويتكلم وسيكون صوته غير مريح لاسماعكم . ام لعلمكم تعتمدون على سباتكم وجهالتكم ؟ اذكر لكم انكم تستطيعون ان تسلدوا فيها نصف قرن آخر . ولكن اياكم ان تسموا ذلك الخلاص المنتظر . ان ذلك ليس هو المستقبل بل الماضي . هنا في بترسبورغ في هذه القاعة الفاخرة اختلقوا الفلاح الروسي على اوهايم ، وكتبوا عنه مئات المجلدات ،

* حسب الانجيل تكلمت اتان بلعام بصوت انساني احتجاجا على قربات انزلت عليها . (المترجم) .

والفوا الاوبرات . وانا اخشى ان تنتهي هذه التسليمة بدم كثير يراق ...

الا ان رئيس الجمعية اوقف الخطيب في هذه اللحظة . ابتسم اكوندين ابتسامة باهتة ، واخرج من جيب سترته متديلا كبيرا ، ومسح جمجمته ووجهه بحركة معتادة . وصدرت اصوات من اقصى القاعة :

- دعه يتكلم !
- من الغلظة ان يغللق فم انسان .
- هذه سخريه !
- اسكتوا ، ايها الجالسون في الخلف !
- اسكتوا اتم !

واستمر اكوندين يقول :

... الفلاح الروسي تقطع تجذب افكار الكثيرين . اجل . ولكن اذا لم تكن هذه الافكار مرتبطة ارتباطا عضويا بمطامعهم العريضة ، وبمفهومه الفطري عن العدالة وهو مفهوم الانسانية جمعاء ، فانها ستقع كالثقل على صدورهم . وطالما بقي الناس لا ينظرون الى الفلاح الروسي كاتسان ذي معدة خاوية ، وظهر موقر بالعمل ، ولا يجردونه من خصائصه المسيحية التي الصقها به بعض السادة في حقبة من الزمن ، فسيبقى القطبان على وجودهما الماساوي : افكاركم الفخمة التي ولدت في ظلام المكاتب ، والشعب الذي لا تريدون ان تعرفوا شيئا عنه . . . ونحن هنا لا نريد حتى ان توجه نقدا حقيقيا لكم . فسيكون غريبا ان نضيع الوقت في اعادة النظر في هذه الكتلة الضخمة - هذه النزوات الانسانية . لا ، بل نقول لكم اتقدوا انفسكم قبل فوات الاوان . لان افكاركم وكنوزكم ستلغى في مزيلة التاريخ دونما اسف . . .

لم تجد الفتاة ذات الفستان الاسود في نفسها الرغبة لتفكر فيما قيل من على المنبر البلوطي . فقد كان يبدو لها ان جميع هذه الاقوال والمناقشات مهمة جدا بالطبع ، وكثيرة الدلالة ، الا ان الاكثر اهمية شي آخر لم يتحدث عنه هؤلاء الناس . . .

وفي غضون ذلك ظهر رجل آخر وراء الطاولة الخضراء . جلس متسولا الى جانب الرئيس ، واحنى راسه يمينا وشمالا بالتحية ،

مال فليامينوف على الطاولة ونشر ذراعيه فوقها فألقت الشموع
لعنانا على صلحته ، اخذ يتحدث عن الخطيئة التي سيتردى العالم
فيها ، وعن القصاص الرهيب المقبل . وسرت نحنحة في القاعة .

حلت فترة الاستراحة فخرجت الفتاة الى المشرب ، ووقفت في
بابه معسبة ومستقلة بنفسها ، كان بعض الحاميين وزوجاتهم
يشربون الشاي ، ويتحدثون بأصوات اعلى من اصوات الآخرين ،
وكان الكاتب الشهير تشيرنوبيلين يأكل السمك بمرق التوت قرب
الوقود مديرا عينيه الغيبيتين التلمتين على الراحيين والغادين بين
لحظة وأخرى . وعند منصة المشرب وقفت سيدتان في منتصف العمر
من المستغلات في الادب لهما عقدان قدران وعقدتان كبيرتان على
راسيها تلو كان الشطائر . وكان القساوسة يقفون في منأى ويتقوى
ولا يختلطون باهل الدنيا . بينما وقت تحت الشرايا رجل و"حط الشيب"
شعره المنقوش بافراط وقد طوى ذراعيه خلقه تحت سترته الطويلة
مهتزا على كعبيه . انه الناقد تشيريفا ينتظر ان يتقدم احد من الناس
اليه . دخل فليامينوف ، فاندفعت احدى السيدتين الادبيتين نحوه ،
وتسببت بكمه ، وكفت الاخرى عن مضغ الطعام ، ونفضت عنها
الفتات ، واحنت راسها ، ووسعت عينيهما . فقد تقدم بيسونوف منها
موزعا الانحناء المؤبدة من راسه ذات اليمين وذات الشمال .

احست الفتاة ذات القستان الاسود بكل جلداه ان الادبية
قد انكشمت بشدة داخل مشدها النسائي . قال بيسونوف شيئا
لها ببسمة كسلي . فبسطت هذه ذراعيها الممتلئتين ، وضحكمت
مقلبة عينيهما .

هزت الفتاة كفتها ، وتركت المشرب . سمعت من يتناديها .
كان شاب اسمر نحيل في سترته من المخمل يشق الجمع نحوها .
انحنى لها فرحا ، وغضض انفه اماراة على القبضة ، وامسك يد ها .
كانت كفه رطبة ، وعلى جبينه تدللت خصلة مبللة من الشعر ، بينما
كانت عيانه السوداوان الطويلتان تنظران اليها بركة طرية . ان
هذا الفتى يدعى الكسندر ايفانوفيتش جيروف . قال لها :

— ها هدا ؟ ماذا تفعلين هنا ، يا داريا دميترييفنا ؟

— عتل ما تفعل انت .

ثم مرر يده المحمرة على شعره الكتاني المبلل من الثلج . وبعد
ان اخفى يديه تحت الطاولة جلس منتصباً في سترته السوداء الضيقة
جدا . كان لهذا الرجل شعر طويل وكثيف مثل قبعة ، ووجه نحيل
كامد له حاجبان مقوسان ، تحتهما عينان رماديتان وسبعتان محاطتان
بظليل ، بيسونوف كان نسخة طبق الاصل للصورة التي نشرتها له
مجلة اسبوعية في عددها الاخير .

والآن لم تعد الفتاة ترى غير هذا الوجه الجليل بشكـل
يبعث على الفجور . كانت تتمعن بما يشبه الرعب في تلك التقاطيع
الغريبة التي كثيرا ما راودت احلامها في ليالي بطرسبورغ العاصفة .
ها هو الآن قد قرب اذنه من جاوه ، وابتسم بسمة مشبوبة
بسذاجة ، ولكن الغرور والعجرفة ، وشيئا آخر لم تستطع ان
تشبهنه ، وان كان اشد ما يثير قلقها لاح في منحنيات منخرجه
الديقيين وحاجبيه المقرطين اوتوة ، وفي تلك الجاذبية الناعمة الخاصة
المطلعة من وجهه .

وفي اثناء ذلك كان المحاضر فليامينوف ، وهو رجل احمر
الوجه مرسل اللحية ، ذو نظارة مذهبة وخصلات ذهبية شائبة
تحيط ببجمته الكبيرة يرد على كوردين قائلا :
— انت محق احقية الانهيار الجليدي في تدهوره من الجبال .
ونحن نتنتظر منذ زمن بعيد حلول العهد الرهيب ، ومنتبها بانتصار
حقيقتكم .

انتم ستتغلبون على عناصر الطبيعة ، لا نحن . ولكننا نعلم ان
العدالة المثلث التي تصرخون لعدوتها بصغارات المضاعف ان تكون الا
كومة من حطام ، وفوضى يتيه فيها انسان مصعوق . ان هذا الانسان
سيقول «انا عطشان» لانه سيكون خلوا من اية قطرة من الفيض
الالهى . فحذار ، وهذا رفع فليامينوف اصعبا طويلة كالعقلم ،
وراح ينظر الى صفوف المستمعين بعده من خلال نظارته ، — انتم
تريدون ان تحلوا الانسان في الجنة التي تحلمون بها وباسم هذه
الجنة الى آلة حية ، الى رقم كذا — الانسان الى رقم — وفي هذه الجنة
الرهيبية يكمن خطر ثورة جديدة ، افطع كل الثورات ، ثورة الروح .
فقال كوردين من مكانه ببرود :

— تحويل الانسان الى رقم هو مثالية ايضا .

ردت الفتاة عليه بذلك ، وحررت يدها منه ، ودستها في الفرا
الذي تدفئ فيه يديها ، ومسحتها بالمنديل الذي كان في داخله .
فهقه الفتى ، وزادت نظرة عينيه رقة :

- عجيب اذا كان ساويجكوف لم يعجبك في هذه المرة ايضا !
انه تكلم اليوم كئيب . وما يشارك منه حدته وطريقته الفريسة في
التعبير . ولكن جوهر تفكيره ، ليس هو ما نريد في سرنا ، ونخشى
ان نبوح به ؟ بينما هو يملك الجراءة على قوله . اسمعي :

كلنا شباب في شباب
وفي المعدة جوع والثهاب
غدا سنلتهم المراب . . .

انه يا داريا دميتريفنا شيء غير اعتيادي . جديد ، وجريء ليس
من المعقول انك لا تحسبن بذلك ! شيء جديد كل الجودة يشق
طريقه ! انه منا ، جديد ، نهم ، جريء . وكذلك اكوندين . حقا انه
مفرط في منطقيته ، لكنه جاد وجارح في تعابيره . وما هو الا شتاء
او شتاءان او ثلاثة من مثل شتائنا هذا حتى ينهار كل شيء ،
ويتفتق ! عظيم جدا !

كان الشباب يتحدث بصوت خفيض ، ميتسما بحلاوة ونعومة .
واحسنت داشا * بان كل شيء فيه يرتعش ارتعاشا دقيقا ، وكأنه
من انفعال رهيب . احنت له رأسها دون ان تدعه يكمل كلامه ،
وزاحت تشق طريقها نحو مشجب المعاطف .

كان الحاجب الغاضب المزين صدره بالمديليات ، المو كل عن
حفظ المعاطف مشغولا يتسلسم المعاطف والكالوشات فلم يعر
التفاتا الى داشا التي كانت تمد القيشمة له . كان عليها ان تنتظر
طويلا ، وكان تيار من الهواء البارد يهب على قدميها من خلال باب
دائما الانفتاح مفض الى رواق فارغ . وقف فيه حوزية طولان في
تقاطين زرق مبللة يعرضون خدماتهم على الخارجين بمرح ووقاحة :
- على حسان سريع ، يا صاحب المقام !

* صيغة التحبب والتصغير لداريا ، وسترد هذه الصيغة كثيرا فيما
بعد . (المترجم) .

- اركب معي ، الى منطقة بسكيه .

وفجأة صدر من وراء داشا صوت بيسونوف واضح ، ياردا :

- يا حاجب ، مات معطفي ، وقبعتي ، وعصاتي .

واحسنت داشا بمثل الأبر الدقيقة في ظهرها . ادارت رأسها
بسرعة ، وحدقت بعيني بيسونوف . قابل بيسونوف نظرتها بهدوء
كئيب ، يستحقه ، الا ان جنفيه رفا ، وظهرت نداوة حية في عينيه
الرماديتين ، وكأنهما استسلماتا ، وشعرت داشا بخفقان قلبها .

قال بيسونوف وهو ينحني لها :

- احسب اننا التقينا عند اختك ، ام انا مخطيء ؟

- نعم ، التقينا .

واختلطت معطفا من الحاجب ، وركضت الى المدخل الرئيس .
وفي الخارج حركت الريح الرطبة الباردة توبها ، ورشقتها بقطرات
صدفة . التفت داشا بياقتها الفرائية حتى عينيتها . سبقها شخص ،
وقال في اذنيها : « يا للعينين ! »

حنت داشا خطاها على الاسفلت المبلل ، عبر الاشرطة المهترئة
من الضوء الكهربائي . وترامت الى سمعتها انغام الكمان من بساب
مطعم مفتوح . انها انغام للفالس جعلتها تدندن مع نفسها من
خلال موفة الفراا الضعثة التي تدفئ فيها يديها :

- ليس بالامر السهل ، لا ، ابدا ، ابدا !

٣

سالت داشا خادمتها لوشا ، وهي تفك ازرار معطفا الفرائي
المبلل :

- لا احد في البيت طبعاً ؟

وكانت لوشا تلتقب بالمغزى العظيم لوجهها العريض الوجنتين
كوجه صنم ، والمعطى بطبقة كثيفة من البودرة . اجابت لوشا بصوت
نحيل وهي تنظر الى المرأة ، بان السيدة غائبة حقا ، الا ان السيد
بالبيت في غرفة مكتبه ، وانه سيتناول العشاء بعد نصف ساعة .
ذهبت داشا الى غرفة الجلوس ، وجلست الى البيانو ، ووضعت
ساقا على ساق ، وطولت ركبتها بيديها .

ما دام نيقولاى ايفانوفيتش زوج اختها فى البيت ، فمعنى ذلك انه قد تشاجر مع زوجته ، وانه الآن وعق المزاج وسيشكو لها . والساعة الآن الحادية عشرة ، وليس لديها ما تفعله حتى الساعة الثالثة حين يراود النوم مقلتها . فهل تزجى الوقت بالقرائة ؟ ولكن ماذا تقرا وليس لها من رغبة فى القراءة ؟ ام تظفل جالسة تفكر ، وذلك ابهظ على نفسها . حقا ، ما اتعب الحياة فى بعض الاحيان !

زفرت داشا ، وفتحت غطاء البيانو ، وجلست مولية جنبها الى المفاتيح ، وراحت تسترحج فى يد واحدة لحننا لسكرياين . ان الانسان ليجد عسرا فى الحياة اذا كان فى سن غير مريحة كان يكون فى التاسعة عشرة ، ولا سيما اذا كان فتاة ، وذكية جدا ، وصارمة كثيرا ، بسبب من نقاه ابله ، مع اولئك الذين كانوا يبدون رغبتهم فى تهديد شجر الفتاة ، وما اكثرهم !

فى العام الماضى وصلت داشا الى بطرسبورغ قادمة من سامارا لتدخل دورات الحقوق ، واقامت عند اختها الكبيرة يكاترينا دميترييفنا سموكوفنيكوفا التى كانت متزوجة من محام يتمتع بشهرة كبيرة ؛ فكانت حياتهما صاخبة ومهرفة .

كانت داشا اصغر من اختها بحوالى خمسة اعوام ، وكانت ما تزال صبيبة حين تزوجت اختها ، وكانت لقاات الشقيقتين فى الاعوام الاخيرة قليلة ، والان بدأت بينهما علاقات جديدة : علاقات محبة عند داشا ، وعلاقات حنان عند يكاترينا دميترييفنا .

كانت داشا فى البداية تعاكى شقيقتها فى كل شىء ، وتعجب بجمالها ، وذوقها ، وقدرتها على التصرف مع الناس . وكانت تحجل فى حضرة اصداقائها ، ولكن حياها كان يجعل كلامها لاذعا مسع بعضهم . كانت يكاترينا دميترييفنا تسعى الى ان تجعل بيتها نموذجا للذوق والجدة التى لم تصل بعد بين عامة الناس . وكانت لا تترك معرضا دون ان تشهده ، وتشتري اللوحات لرسامين مستقبليين . ومن جراه ذلك كانت لها مع زوجها احاديث شديدة فى السنسنة الاخيرة ، لان الزوج كان يحب اللوحة التى تمن عن فكرة عميقة ، بينما كانت الزوجة بكل حماسها النسوى تفضل ان تعانى فى سبيل فن جديد على ان تعثر متأخرة فى الذوق .

وكانت داشا ايضا معجبة بتلك اللوحات الغربية المعلقة على جدران غرفة الجلوس ، الا انها كانت تقول لنفسها مفرحة : ان هذه الشخصى الربعة بوجوها الهندسية وبعدد من الايدي والارجل اكثر من اللازم ، وتلك الالوان الباهتة كالصداع ما هى الا نوع تقليد هازى من الشعر اعلى بكثير مما تستوعبه مخيلتها الخاملة . جرت العادة ان تجتمع فى بيت آل سموكوفنيكوف كل ثلاثاء مجموعة من الضيوف صاخبة مرحة لتتناول المشاء فى غرفة الطعام المؤنثة برياش مصنوع من خشب التيقب . كان بينهم محامون من هوانا الكلام ، ووزير نساء ، ومتبعون متحمسون للتيارات الادبية ؛ وضغفيان او ثلاثة علمون فهاون باصول ممارسة السياسة الداخلية والخارجية ؛ والناقد العصبى المزاج تشيرفا المبيث ابداء لكارئة ادبية اخرى . وفى بعض الاحيان كان ياتى فى وقت مبكر شعراء شبان كانوا يتركون دفاتر اشعارهم فى جيوب معاطفهم فى رواق البيت . وقبيل بدء العشاء كانت تصل شخصية شهيرة ، وتتقدم من ربة البيت على مهل ، وتتخذ مجلسها فى مقعد وتير معظمة وقار . واحيانا ، والعشاء فى منتصفه كان الضيوف يسمعون خشخشة كالوشين جلدتين يخلغان فى الرواق ، وصوتا مخمليا يقول :

«السلام عليك ، ايها المغوى العظيم !» وبعد ذلك كان وجهه حليق ذو خيشومين متدليين ، وجه فنان يمشل على الدوام دور العاشق ينحني على كرسى ربة البيت ، ويقول :

- يا عزيزتى كاتيوشا * ، هاتى يدك !
كانت داشا تعتبر اختها الشخص الرئيسى فى هذه الحفلات ، وتحقق على من كان لا يعيرها اهتماما كبيرا ، وهى العذبة ، الطيبة ، الصافية القلب ، وتغار ممن يفرط فى التودد اليها ، فتحديه بعينين غاضبتين .

ثم اخذت داشا تنفذ بالتدرج الى هذا العدد المدخل من الوجوه . فصاروا الآن تزدري مساعدي المحامين ، اذ لم تر شيئا منها فيهم عدا سترهم الطويلة الوباء ، واربطتهم البنفسجية ،

* او كاتيا صيغة التحجب والتصغير لاسم يكاترينا . (المترجم) .

ومفارقهم عبر رؤوسهم كلها . كما كرهت الفنان العاشق ، لأنها لم تر له الحق في أن يسمى اختها يكاترينا بـ«كاتيوشا» ولا أن يدعو المغول العظيم بلقبها البيتي هذا ، ولا أن يقول وهو يضيّق عينيه المرتخيتين صوب داشا ، ويجرح كأس الفودكا :

«أشرب نخب شجرة اللوز المتفتحة»

وكانت داشا تتميز غيظا كلما أقدم الرجل على ذلك .

كانت وجنتاها متوردتين حقا ، ولكنها لم تستطع التخلص من لون زهر شجرة اللوز هذا ، اللون الملعون ، فكانت وهي وراء المائدة تحس وكأنها دمية خشبية ملونة .

ولم تسافر داشا في الصيف إلى إيبها في سامارا المغيرة الفائظة ، وقبلت بفرح أن تظل عند اختها على ساحل البحر في سيسترووريتسك . فالتقت هنا بنفس الناس الذين التقت بهم في الشتاء ، لكنهم كانوا يلتقون أكثر من قبل راكبين الغوارب ، سابحين ، جالسين في الغاية يأكلون الدوندرمه . وفي الأماشي كانوا يستمعون إلى الموسيقى ، ويتناولون عشاءهم تحت النجوم ، في شرفة الكازينو مضموضين صاحبين .

وكانت يكاترينا دميتريفنا قد أوصت لداشا على ثوب أبيض مطرز بالساتان ، يتوسطه نطاق حريري عريض ينتهي بعقدة كبيرة عند ظهرها ، وقبعة كبيرة من الكريشة البيضاء معاطة بشرط أسود . وإذا بداشا تجد نفسها موضع حب تكاتور يوريفيتش كوليشتيك مساعد زوج اختها ، وكأنه فتحوا عيني هذا الرجل فجأة .

إلا أنه كان من «المحترمين» . وتميزت داشا غيظا ، ودعته إلى الغاية ، ودون أن تتركه يتفوه بكلمة واحدة في الدفاع عن نفسه (كل ما استطاع هو أن مسح بمنديل يشد عليه قبضته) قالت له أنها لن تسمح لأحد بأن ينظر إليها كـ«ثمن» ، وأنها حانقة ، وتعتبر شخصا ذا مخيلة فاسقة ، وأنها ستشكوه اليوم حالا إلى زوج اختها .

وقد شكّت إلى زوج اختها في ذلك المساء ذاته . اصغى نيقولاي إيفانوفيتش إلى قصتها كلها ، وهو يمسد لحيته المعنى بها جيدا ، ناظرا بدهشة إلى وجنتيها المتوردتين من الغيظ ، وإلى

قبعتها الكبيرة المتهتزة غيظا ، وإلى كل قوامها الرشيق في ثوبها الأبيض ، ثم جلس على الرمل عند الماء ، وراح يقيهه حتى أخرج منديله من جيبه ، وسمح به عينيه قائلا :

— أذهبى ، يا داريا ، أذهبى ، ستجعلينى أموت من الضحك !

فانصرفت داشا غير فاهمة شيئا ، في حيرة وارتيباك . ومنذ ذلك الحين لم يجرا كوليشتيك على أن يرفع عينيه إلى داشا ، وقد نحل ومال إلى الوحدة . وانفذ شرف داشا . إلا أن هذه القصة كلها أثارَت فجأة مشاعر كانت غافية في أعماق مغزيتها . واختل التوازن الرقيق ، وكان ذاتا أخرى خائفة ، حاملة ، عديمة الشكل ، كربة قد نمت في جسم داشا كله من الرأس حتى أخمص القدم . فاستشعرته بكل جلدها ، وتعذرت وكأنها من دنس ، واستولت عليها الرغبة في أن تزبل عن نفسها نسج العنكبوت غير المرئي هذا وتعود من جديد غضة ، مشردة ، خفيفة .

وصارت تقضى ساعات بكاملها في لعب التنس ، وتسبح مرتين في اليوم ، وتستيقظ في الصباح الباكر حين تكون قطرات الندى الكبيرة ما تزال متلاثلة على أوراق الشجر ، والبخار يتصاعد من البحر الليلي ، الضفيل كالجمرة ، المقاعد الندية موزعة على الشرفة الفارغة ، والمحرات الرملية الرطبة مكتوسة .

إلا أن تلك الذات الغافية كانت ترتد حية بعد أن تتدفق الشمس ، أو في الفراش الناعم ليلا ، وتتسلل إلى قلب داشا بهجر ، وتعضها بينها الطرية . وكان من المستحيل اتصاؤها عنها ، أو إزالتها ، تماما مثل الدم على المفتاح المسحور في حكاية اللحية الزرقاء .

وصار جميع المعارف ، واختها الأولى بينهم ، يرون داشا قد رقت محاسن في هذا الصيف وهي تزداد حسنا كل يوم . وذات صباح جاءت يكاترينا دميتريفنا إلى شقيقتها ، وقالت :

— ماذا سيكون علينا أن نفعل بعد الآن ؟

— ما الأمر ، يا كاتيا ؟

جلست داشا في قميص النوم على السرير ، ولوت شعرها في عقدة كبيرة .

- أنت تزادين حسنا ، فماذا ستفعل بعد هذا ؟

حدقت داشا الى شقيقتها بعينها الصارمتين المظلمتين بزموض طويلة ، واعرضت عنها . ولون الدم وجنتيها واذنها .

- لا اريد ، يا كاتيا ، ان تتحدثي معي على هذا النحو . فان ذلك يضايقني . اتفهمين ؟

جلست يكاترينا دميتريفنا على السرير ، وضغطت خدها على ظهر داشا العاري ، وضحكت مقبلة شقيقتها ما بين دفتي كتفيها . وقالت :

- ما اسرع الغضب اليك ! من انت ؟ قنفذ او هرة برية ؟ ذات مرة ظهر في ساحة التنس رجل انجليزي نحيل ، حليق ، بارز الدنن ، طفولي العينين ، في قيافة لا شانبة فيها جعلت بعض الشبان من بطانة يكاترينا دميتريفنا في جرح من اهرهم . دعا الانجليزي داشا الى اللعب ولعب معها كالألة . وبدأ للفتاة ان ملاعبها لم يلق نظرة عليها خلال اللعب كله . بل كان ينظر خلالها . وخسرت داشا اللعبة ، وعرضت عليه ان يلاعبها مرة اخرى . طوت داشا كمي يلوزتها البيضاء لتكون اخف حركة . وخلال اللعب تدلت خصلة شعر من تحت طاقيتها من البيكة ، ولكن داشا لم تعدها الى موضعها . وفكرت في سرها وهي تصد الكرة بضربة قوية قرب الشبكة تماما :

«للفتاة الروسية البارعة رشاقة لا تلمح في كل حركاتها ، وتورد الوجنتين يلائم مجيها» .

وربح الانجليزي للعبة الثانية ايضا ، وانحنى لداشا بمنتهى الجفاف . واشعل سيكارة شذبة الرائحة ، وجلس على مقربة ، بعد ان طلب لنفسه قنحا من شراب الليمون .

ولعبت داشا اللعبة الثالثة مع طالب مدرسة مشهور ، وكانت اثناء اللعب تلقى من طرف عينيتها نظرات على الانجليزي ، فترآه جالسا وراء طاولة صغيرة وقد وضع ساقا على ساق واطوق بيديه رسع قدمه بجوربها الحريري ، ودفع قبعة القش الى مؤخرة راسه ، وراح يحدق في البحر دون التفات .

وفي الليل ، حين كانت داشا مضطجعة على سريرها استرجعت كل ذلك ، متصورة نفسها بوضوح وهي تقفز في ساحة اللعب ،

محمرة الوجه ، متهدلة خصلة الشعر ، فاذا بها تبكي من كبريالها الجريئة ، ومن شيء آخر كان اقوى منها .

وكتت عن الخروج الى التنس منذ ذلك اليوم ، حتى قالت لها يكاترينا دميتريفنا ذات مرة :

- يا داشا ، ان مستر بيلس يسال عنك كل يوم لماذا كتفت عن اللعب ؟

فغرت داشا فاهما من شدة الفزع . ثم قالت حانقة انها لا تريد ان تسمع «اقاويل حقا» ، وانها لا تعرف شخصا بهذا الاسم . ولا تريد ان تعرف ، وهو ، بصراحة ، وقع اذا كان يتصور انها بسببه قد كتفت عن الاشتراك في «لعبة التنس الحقا» هذمه . ورفضت داشا الخروج الى الغداء ، ووضعت في جيبيها خبزا وجبات من عنب العلب ، وخرجت الى الغابة . وبينما كانت تمشي في ذلك الحرش الصنوبري الفواح برائحة صمغ حار ، بين الاشجار الطويلة الحمراء الجذوع واعاليها المتمايلة مع خفيف الريح قررت مع نفسها ان اية امكانية لم تبق للتماذي في اخفاء الحقيقة المؤسفة : غراها بالانجليزي ، وتعاستها اليانسة .

وهكذا نما الشخص الثاني في نفس داشا ، ورافعا راسه شيئا فشيئا . في بسادي الامر كان وجوده كرييا كالدنس ، مؤلما كالدماز . وبعد ذلك تعودت داشا هذه الحالة المعقدة ، مثلما تعودت النساء في الشتاء على المشد والثيراب السمكية بعد انهاء الصيف والتنسيم الطري ، والماء المنعش ببرودته .

وقضت داشا اسبوعين في جها الاونف للانجليزي . كانت تكره نفسها ، وتحقق على هذا الرجل . وقد رآته عدة مرات من بعد لعب التنس بتكاسل وبراعة ، ويتعشى مع البحارة الروس ، فكانت تقول لنفسها انه اكثر رجال الارض جاذبية على الاطلاق .

الا ان فتاة فاعرة الطول نحيلة ترتدي لباسا من الفانيلة البيضاء ، ظهرت الى جانبها فجأة . انها خطيبته الانجليزية . واذا بهما يرحلان . وقضت داشا ليلة مؤرقة ، وبغضت نفسها بغضا مشويا بانستنار ضار . وقبيل الصباح قالت لنفسها : لتكن هذه آخر غلطة في حياتي .

وهذات بهذا التفكير ، بل وادهشها ، فيما بعد ، ان يزول

كل ذلك يمثل هذه السرعة والسهولة . ولكن لم يزل كل شيء .
فقد اوضحت تحس الآن وكان «الشخص الثاني» ذاك قد اندمج فيها ،
وذاب في داخلها ، واختفى ، وهي الآن فتاة أخرى : انها كما كانت
من قبل خفيفة ، غضة ، ولكن كيانها كله كانا اضحى اطرى وارقي ،
وأكثر غموضا ، وبشرتها اوضحت اشرف ، حتى انها لم تعرف على
وجهها في المرأة . ثم ان عينها بوجه خاص ، عينيها الرائعتين
اضحتا عيني أخريين ، اذا نظر المرء فيها صعد الدوار الى راسه .
في اواسط آب انتقل آل سموكونيكوف مع داشا الى شقتها
الكبيرة في شارع بانتليوموفسكايا بطرسبورغ . وعادت من جديد
حفلات العشاء أيام الثلاثاء ، ومعارض الصور او حفلات العرض الاول
الصاخبة في المسارح ، ودعواى الفضائح في المحاكم ، وشراء
اللوحات ، وتفخيخ الماضي ، والرحلات الليلية الى العجر في مطعم
«سمرقتند» . وظهر الفنان العاشق من جديد وقد لقي عن جسمه في
مصعب المياه المعدنية ثلاثة وعشرين رطلا . وازيقت الى كل هذه
المسرات اللغوية شائعات مبهمة ، مثيرة وسارة عن حدوث تحول
وشيك .

ولم يعد لداشا متسع من الوقت للتفكير ولا للشعور : في
الصباح كانت تكتفل الى المحاضرات ، وفي الساعة ، الرابعة تخرج
للتنزه مع اختها ، وفي المساء للمسارح والحفلات الموسيقية ،
والدعوات الى العشاء ، والناس ، ولا دقيقة واحدة تخلو فيها الى
نفسها .

وفي اسمية من اسميات الثلاثاء ، بعد ان فرغ الضيوف من
العشاء ، وراحوا يحتمون خمرة «الليكور» دخل الكسى الكسيسيفيتش
بيسونوف غرفة الجلوس ، ولما وقع بصر يكاترينا دميتريفنا
عليه قرب الباب صبغت وجهها حمرة قانية . وقطع الضيوف
حديثهم المشترك ، جلس بيسونوف على الأريكة ، وتناول فنجان
القهوة من يد يكاترينا دميتريفنا .

جلس بالقرب منه محاميان ، هما من المتضلعين في الادب ،
الا ان بيسونوف ابتدر يقول على غرة ، وهو يرمق ربة البيت
بنظرة طويلة غريبة ، ان الفن لا وجود له على الاطلاق ، بل هناك
دجل ، وشعوذة جاو يجعل قردا يتسلق السماء على جبل .

«ولا يوجد شعر ، ان كل شيء قد انقرض منذ زمان قديم :
الناس ، والفن . اما روسيا فهي فطيسة يحوم عليها سرب من
الغربان في وليمة للغربان . وجميع الذين يكتبون الشعر سيبدخلون
جهم» .

كان يتكلم بصوت واطمئ التبرة خال من الزين ، وتوردت
يقمتان على وجهه العائق الشاحب . وكانت باقة قميصه مدعوكه ،
ورواد السيكاتر متنازرا على سترته . وكانت القهوة تنسكب على
البساط من القدح الصغير الذى يسكه .

كان متضلعا الادب يريدان اثاره جدال ، الا ان بيسونوف
ظل يتابع يكاترينا دميتريفنا بعينين غمشتها دكنسة ، دون ان
يعيرها التفاتا . ثم نهض وتقدم نحوها ، وسمعت داشا قوله :
- انا لا اطيق مجتمع الناس ، فاسمحي لى بالانصراف .

طلبت اليه يكاترينا دميتريفنا بوجع ان يقرأ شيئا . فنهز
راسه . ووقف طويلا صافطا يدها الى شفتيه . يودعها ، حتى احمر
ظهرها احمرارا شديدا .

وبدا النقاش بعد انصرافه . اجمع الرجال على ان : «هناك
حدودا ، على اية حال ، ولا يجوز له ان يتنقر مجتمعنا بهذا الشكل
السافر» . وتنقل الناقد تشريفيا من واحد الى آخر ، وهو يكرر :
«ايها السادة ، انه سكران قليلا» . واتفقت السيدات على ان
«بيسونوف سواء اكان سكران ام منساقا مع مزاجه الخاص فانه
رجل مثير على حد سواء ، وليكن ذلك معلوما للجميع» .

في اليوم التالى قالت داشا عند الغداء انها تعتبر بيسونوف
واحدا من اولئك الأشخاص «العقبيين» تعيش حلقة يكاترينا
دميتريفنا باسرها على انفعالاته ، وآثامه ، وذوقه ، وكانها على
الضوء المنعكس منه . «انا افهم ، يا كاتيا ، ان مثل هذا الرجل
يمكن ان يفتقد المرأة صوابها» .

ارتبك نيولاي ايفانوفيتش وقال : «مجرد ان شهرته قد
سمعتك ، يا داشا» . واعتصمت يكاترينا دميتريفنا بالصمت .
وسند ذلك العين لم يزر بيسونوف آل سموكونيكوف . وشاع انه
يطيل البقاء في غرفة الممثلة تشناراديفا وراء كواليس المسرح .
وذهب كوليشتيك مع اصحابه ليروا تشناراديفا نفسها ، فاصبوا

بخيبة ظن ، فقد كانت نحيلة كالهيكال العظمى مجرد تنسورات
مدنتلة .

ذات مرة التقت داشا ببيسونوف في احد المعارض . كان
واقفا عند النافذة يتصفح فهرس المعرض بلا مبالاة ، بينما وقفت
امامه طالبتان قميئتان تنظران اليه بابتسامتين خامدتين ، وكانهما
امام شمال في متحف الشمع . مرت داشا به بطيئة الغلطي ، ودخلت
القاعة الأخرى وجلست على مقعد ، فقد شعرت بتعب في قدميها ،
وبكآبة .

وبعد هذا الحادث اشترت داشا تصوير ببيسونوف ، ووضعت
على الطاولة . وقصائده - المجموعة في ثلاثة دواوين صغوية بيضاء ،
الغلاف - قد تركت في نفسها بادي الأمر شعورا بالتسمم : قضت
ثلاثة ايام غير متمالكة شعورها ، وكانها اضحت شريكة في قضية
سرية خبيثة . الا انها بعد ان اعادت قراءة قصائده صارت تجد
متعة في تلك الاحاسيس الموجعة بالذات وكان احدا يمس لها
داعيا اياها لان تفقد صوابها وترتخي ، وتنتثر شيئا ما غاليا ،
وتجن الى شيء لن يكون .

وبسبب ببيسونوف اخذت تتردد على جمعية «الاسميات
الفلسفية» . وكان ببيسونوف يأتي الى الجمعية في وقت متأخر ،
ويتحدث بتدور ، الا ان داشا كانت تعود الى البيت في كل مسرة
مستثارة وكانت مسرورة اذا رأت في البيت ضيوفنا . صمعت
كبرياؤها المهانة .

واليوم كان عليها ان تسترجع الحان سكراباين في وحدة .
كانت الأصوات ، كالكرات الثلجية ، تتساقط ببطء ، داخل
صدرها ، نافذة الى اعماق تلك البحيرة المظلمة التي لا قعر لها .
وحين كانت تسقط كانت تغضض سطح الماء وتفرق . ويصير الماء
بين مد وجزر ، وفي الظلمة الساخنة ، يدق القلب دقا اجوف
مدعورا ، وكان شيئا مستحجلا سيحدث عاجلا ، الآن ، في هذه
الحظة .

ارخت داشا ذراعها على ركبتيها ، ورفعت راسها . في الضوء
الهادئ لطليلة المصباح البرتقالية كانت وجه قمرية ، منتفخة ،
ذات عيون جاحظة تطل من الجدران ، وكانها اشباح فوضي مسا

قبل الطوفان ، المتشعبة بعطش بسياج جنة عدن في اليوم الاول
للخليقة .

قالت داشا لنفسها : « نعم ، يا مولاتي ، ان قضيتنا
لخاسرة» . وتحركت اصابعها سريعة في سلم موسيقي من اليسار الى
اليمنى ، ثم انزلت غطاء البيانو دون ان تحدث صوتا ، واخرجت
سبكارا من علبة يابانية ، واشعلتها . وسعلت ، وسحقتها في
النفاسة .

صاحت داشا بصوت يمكن ان يسمع عبر اربع حجرات :

- يا نيقولاى ايفانوفيتش ، كم الساعة ؟

سقط شيء في المكتب ، ولم تلتق داشا جوابا . ظهرت
«المغولى العظيم» ، واعلنت ، وهي تتطلع الى نفسها في المرأة ،
ان النساء جاهز .

جلست داشا في غرفة الطعام امام زهرية فيها زهور ذابلية .
واخذت تقطعها باصبعها فتساقط اوراقها على مفرش المائدة .
قدمت «المغولى العظيم» الشاي ، واللحم البارد ، والبيض المقلي ،
واخيرا جاء نيقولاى ايفانوفيتش في بدلة زرقاء جديدة ، ولكنها بدون
ياقة . وكان شعره غير مصفف ، ولحيته مائلة الى اليسار ، وقد
تعلقت فيها ريشة من وسادة الاربعة .

انحنى نيقولاى ايفانوفيتش لداشا عابسا ، وجلس في طرف
المائدة ، وقرب منه مقلاة البيض ، وشرع ياكل بنهم .

وبعد ذلك اسند مرفقه الى حافة المائدة ، ووضع خده على
قبضته الكبيرة المشعرة ، وثبت عينيه غير الرائيتين الى كومة الوريقات
المقطوعة ، وقال بصوت واطى غير طبيعي تقريبا :

- في الليلة الماضية خانتني اختك .

٤

ان شقيقتها ، كاتيا ، اقرتفت شيئا رهيبا ، غامضا ، اسود .
في الليلة الماضية استقر راسها على وسادة ، وقد اعرض عن كل
شيء ، حتى ، عزيز ، دافى ، بينما انسحق جسدها ، وتشوه . على هذا

النحو فهمت داشا ، وهي ترتعش فزعاً ، ما سماه نيقولاى ايفانوفيتش خيانة . وفوق كل ذلك لم تكن كاتيا في البيت ، كأنما لم يعد لها وجود في الدنيا .

في الدقيقة الاولى كادت داشا تغيب عن الوجود ، وأظلم بصرها . وانتظرت مكتومة الانفاس ان ينفجر نيقولاى ايفانوفيتش منتحبا ، او يصرخ بشئ مفرح . الا انه لم يصف كلمة اخرى الى ما اعلنه ، وراح يدير بين اصابعه حمالة الشوكات . ولم تجرؤ داشا على النظر في وجهه .

وبعد فترة طويلة من الصمت دفع الكرسي عن المائدة بحركة حادة وذهب الى مكتبه . وقالت داشا لنفسها : «سيطلق النار على نفسه» . ولكن هذا ايضا لم يحدث . وتذكرت داشا بانفس حاد خاطف يده الكبيرة المشعرة على المائدة . ثم اختفى عن بصرها ، وظلت داشا تكرر : «ما العمل ؟ ما العمل ؟» ورث في رأسها ؛ كل شئ ، كل شئ قد فسد وتحطم .

ظهرت «المغولى العظيم» من وراء ستارة الجوخ تحمل صينية ؛ نظرت داشا اليها ، وادركت في الحال ان «المغولى العظيم» لن تكون بعد الآن . فاخذت دموعها من عينيها ، وصكت اسنانها بقسوة ، وركضت الى غرفة الجلوس .

هنا ، كانت كل الاشياء ، حتى اصغر الدقائق ، قد رتبته ، وصفتها يسدا كاتيا في رعاية وحب . الا ان روح كاتيا قد غادرت هذه الغرفة ، وانقلب كل شئ فيها حوشيا وخاليا من الحياة . جلست داشا على الأريكة ، واستقر بصرها بالترديد على لوحة اشترت منذ وقت قصير . ولاول مرة رأت داشا وفهمت ما كان مرسوما فيها .

كانت اللوحة تصور امرأة عارية رسمت بلون احمر متقبح ، وكان جلدھا مسلوخ . فيها منحرف الى جانب ، وفي موضع انها ثقب مثلث ، ورأسها مربع ، وقد الصقت بها قطعة قماش . والساقان مثل خشبتين مستديرتين منفصلتين . وفي اليدين زهرة . وبقية التفاصيل قطيعة . واطلع ما في اللوحة الركن البنى الكدر الذى جلست فيه المرأة منفرجة الساقين . وقد اطلق على اللوحة اسم «حب» . وكانت كاتيا تسميها فينوس الحديثة .

«لهذا السبب ، اذن ، كانت كاتيا معجبة كثيرا بهذه الأثني القاسفة . وهي الآن مثلها ، تحمل وردة في ركن» . انبسطت داشا ، ووجهها الى الوسادة ، واخذت تبكي عاضة على شفيتها لتكتم صوت بكائها . وبعد برهة من الوقت دخل نيقولاى ايفانوفيتش غرفة الجلوس . باعد بين ساقيه ، وراح يضرب زناد قداحته في غضب ، وتقدم من البيانو واخذ يدي على مفاتيحه . واذا بدلقانه تحول فجأة الى اغنية بسيطة . وشعرت داشا ببرودة تسرى في اوصالها . صفق نيقولاى ايفانوفيتش غملا البيانو ، وقال :

— كان يجب توقع ذلك .

اعادت داشا هذه الجملة في سرها عدة مرات ، ومحاولة ان تفهم معناها . وفجأة رن الجرس رنة حادة في السرواق . امسك نيقولاى ايفانوفيتش لحيته ، الا انه قال بصوت مكتوم : «او- او- او» . ولم يفعل شيئا سوى انه اسرع في الدخول الى مكتبه . وارسلت خطوات «المغولى العظيم» في الدهليز صوتا مثل صوت الحوافر . ووثبت داشا من الأريكة . غامت الدنيا امام عينيها ، وقلبها يخفق بشدة ، وخرجت الى الرواق .

كانت يكاترينا دميترييفنا هناك تفك الاشرطة الليلقيصة لقلنسوتها القرائية باصابع خدرها البرد ، وكانت تغضن انفها . عرضت لاختها عددا المتورد البارد لتقبله ، الا انها لم تتلق القبلية المرجوة فنفضت رأسها لتلقى القلنسوة عنه ، وتفركت عينايها الرماديتان باختها . وسالت بصوتها الواطئ العميق العذب الفاتر ابدا :

— هل حدث شئ عندكم ؟ هل تشاجرتما ؟

اخذت داشا تنظر الى كالوش نيقولاى ايفانوفيتش الجلدى ، وكان يسمى في البيت بـ«الكالوش المتحرك بذاته» . وكان في تلك اللحظة يقبع مهملًا ، وارتعش ذقن داشا .

— لا ، لم يحدث شئ . مجرد مزاج .

فكت يكاترينا دميترييفنا بيده الازرار الكبيرة على معطفها من فراء السنجاب ونضته عنها بحركة من كتفيها العاريتين ، وما هي بكليتها دافئة ، حنون ، تعبى . وانحنت بشدة لتفك حذاءها الطويل ، وقالت :

- تبيللت قدامى ، وانا ابحت عن سيطرة .
عندئذ سألت داشا بحدة ، وهى مستمرة فى النظر الى كالوش
نيقولاي ايفانوفيتش :

- اين كنت ، يا كاتيا ؟

- فى عشاء ادبى ، يا عزيزتى ، تكرىما لشخص لا اعرف حتى
اسمه ، قسما بالله . نفس النمط . انا تعبة الى حد الاعياء ، وارىد
ان انام .

ودخلت غرفة الطعام . واثقت حقيقتها الجلدية على المفروش ،
ومسحت انها الصغير ببنديلها ، وسالت :

- من قطع وريقات الزهور ؟ واين نيقولاي ايفانوفيتش ؟
اهو نائم ؟

وتملك الحيرة داشا ، فان شقيقتها لا تشبه المرأة الفاسقة
فى اللوحة مطلقا ، ولم تكن غريبة عليها ، بل وهى اليوم ، لسبب
ما ، اقرب اليها من اى وقت مضى ، حتى لودت لو تمسد عليها
بكليتها .

ومع ذلك فقد قالت داشا بكل ما فى روحها من حضور ،
واظفرها يغدش المفروش فى الموضوع الذى تناول فيه نيقولاي
ايفانوفيتش البيضى المغلى قبل نصف ساعة :

- يا كاتيا !

- ماذا ، يا عزيزتى ؟

- انا اعرف كل شيء .

- ماذا تعرفين ؟ بالله ، ما الذى حصل ؟

وجلست يكاترينا دميترييفنا الى المائدة ، ماسة بركبتها
ساقى داشا ، متطلعة اليها بفضول من الاسفل الى الاعلى .

قالت داشا :

- كسفت لى نيقولاي ايفانوفيتش كل شيء .

ولم تنظر الى وجه شقيقتها ، لترى ما يعصف فى داخلها .
وبعد صمت طويل جدا يكاد يفتك بالنفس قالت يكاترينا

دميترييفنا بصوت حائق :

- اى خير عاصف اعلن نيقولاي ايفانوفيتش ؟

- انت تعرفين ، يا كاتيا .

- لا ، لا اعرف .

وقد فاهت ب«لا اعرف» هذه ، وكان كرة تلجبة تكورت من
هذه الكلمة .

وفى الحال هوت داشا على قدميها :

- اذن ، فقد يكون ذلك غير صحيح ؟ كاتيا ، يا عزيزتى ،
ويا مهجى ، يا شقيقتى الجميلة ، قولى لى : كل ذلك غير صحيح ؟
وغطت داشا بالقبل السريعة يد كاتيا الرقيقة ، العابقة
بالعطر ، ذات العروق الزرقاء كالجداول .

اجابت يكاترينا دميترييفنا ، مغمضة عينيها فى ونى :

- غير صحيح ، طبعا . وها انت تبكين فورا . وغدا ستصبح
عيناك حمراوين ، وانفك متفوحا .

ورفعت داشا ، وظلت تطبق شفثيها على شعرها طويلا .
وهستت داشا فى صدرها :

- انا حمقا !

وفى تلك اللحظة صدر صوت نيقولاي ايفانوفيتش العالى
الواضح من وراء باب مكتبه :

- انها تكذب !

التفتت الشقيقتان فجأة ، الا ان ياب المكتب كان مغلقا .
قالت يكاترينا دميترييفنا :

- لذعبي للنوم يا صغيرتى ، اما انا فذاهبة لاستوضح
الأمر . يا له من أمر ممتع ، وانا لا اكاد اقف على قدمى .

رافقت داشا الى غرفتها ، وقبلتها ساهمة ، ثم عادت الى
غرفة الطعام ، فاحتظفت محفظتها ، وعدلت من وضع المشط على
راسها ، ودقت ياب المكتب باصبعها يهدوء .

- افتح ، نيقولاي ، ارجوك .

الا انها لم تتلق جوابا . كان صمت منحوس ، اعقبه نخير
من انف ، وقلقلة مفتاح ، ودخلت يكاترينا دميترييفنا ، فرأت ظهر

زوجها العريض . لم يلبثت اليها ، بل سار نحو الطاولة ، وجلس
فى المقعد الجلدى ، وتناول سكيننا من عظم العاج ، ومرره بحدة

على كتاب (هو رواية فاسيرمان «رجل الاربعين»).

فعل كل ذلك وكان يكاترينا دميترييفنا لم تكن في الغرفة . جلست يكاترينا دميترييفنا على الأريكة ، وجذبت تنورتها على ساقيها ، وانخفضت منديلها في المحفظة ، وسدت قفلهما . وبتلك الحركة ارتجفت خصلة الشعر على هامة نيقولاى ايفانوفيتش . قالت يكاترينا دميترييفنا :

- شي واحد لا افهمه . انت حر في ان تظن ما تشاء من الظنون ، ولكنى ارجو الا تشارك داشا في امزجتك .

عندئذ استدار على مقعده بحمية ، ومد رقبته ولحيته ، وقال من خلال اسنانه :

- اذن ، عندك الوقاحة الكافية لتسمى ذلك مزاجي ؟

- انا لا افهم .

- رائع ! لا تفهمين ؟ اما ان تتصرفى كأمراة رخيصة ، فانت

تفهمين ، كما يبدو ؟

فتحت يكاترينا دميترييفنا فمها قليلا عند سماعها هذه الكلمات . وقالت يهدوء وهي تنظر الى وجه زوجها المحمر بشدة حتى تضمد بالعرض وجهه المشوه غيظا :

- قل لى ، متى بدأت تتحدث معي بهذه اللهجة المهينة ؟

- ارجو المعذرة ، يا مولائى ! ولكننى لا اجيد التحدث بلهجة اخرى . وباختصار اود لو اعرف التفاصيل .

- اية تفاصيل ؟

- لا تكذبى على في وجهى .

- هذا ما تعنيه اذن ، - قالت ذلك ، وتقلبت عيناهما الوسيعتان وكان ذلك من منتهى التعب ، - اليوم قلت لك شيئا ما . . . ونسيته مطلقا .

- اريد ان اعرف مع من حصل ذلك .

- انا لا اعرف .

- مرة اخرى ارجو الا تكذبى . . .

- انا لا اكدب . ولا داعي للكذب عليك . ولكننى قلت . وما

اكثر ما اقول ساعة الغضب ! قلت ، ونسيته .

خلال هذا الكلام كان وجه نيقولاى ايفانوفيتش جامدا كالحجر ، الا ان قلبه غاص ووجب من الفرح : «حمدا لله ، كانت تكذب على

نفسها» . والآن كان من الممكن بآمان ان يتظاهر في صخب بانها لا يصدمق شيئا تنفيسا عن كرب قلبه .

نهض من مقعده ، وراح يتمشى على البساط ، متوقفا بين الجبن والآخر ، شاقا الهواء بضربات من سكينه العاجية ، وهو يتحدث عن سقوط العائلة ، وفساد الخلق ، وعن الواجبات المقدسة المهمة الآن ، واجبات المرأة - الزوجة ، ام اولادها ، ومساعدة زوجها . ولام يكاترينا دميترييفنا على خوالها الروحي ، وعلى تبديرها الأهرج للنقود المكتسبة بالدم (صححت يكاترينا دميترييفنا : «ليس بالدم ، بل بتحريك اللسان») . لا ، بل وانكسر من الدم ، بحرق الاعصاب . ووبخها على عدم عنايتها باختيار الاصحاب ، وانعدام الترتيب في البيت ، وولعها ب«تلك الليله» المغولى العظيم ، وحتى باللوحات التي تثير قرنى في غرفة جلوسك المبتذلة .

وباختصار ، نفس نيقولاى ايفانوفيتش عمسا في صدره . تجاوزت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل . وعندما يح صوت الزوج وصمت ، قالت يكاترينا دميترييفنا :

- لا يمكن ان يكون هناك ابغض من رجل سمين وهستبرى . ونهضت ، ودخلت مخدعها .

الا ان نيقولاى ايفانوفيتش لم يتكدر الآن حتى من هذه الكلمات . خلع ملابسه ببطء ، وعلقها على ظهر المقعد ، ودور الساعة ، وانفس في الفراش النظيف المفروش على الأريكة الجلدية ، وارسل زفرة خفيفة .

فكر وهو يفتح كتابا ليهدي نفسه بالقراءة انتظارا للنوم : «اجل ، ان نمط حياتنا ردى . ويجب ان نعيد تنظيم حياتنا كلها . مؤلم ، مؤلم» . الا انه انزل الكتاب في اللحظة التالية ، وارفع سمعه . كان الهدوء يسود البيت . مخط شخص من انفه ، فوجب قلبه لهذا الصوت . وفكر مع نفسه : «انها تبكى ، اى ، اى . يبدو اننى تعاديت في القول» .

وعندما اخذ يسترجع كل حوارهما ، وتمثل كاتيا جالسة تصغى ، اخذها الاشفاق عليها . رفع جسمه على كوعه ، واستعد

للخروج من تحت الدثار ، الا انه شعر باسترخاء يذب في جسمه كله ، وكأنه من تعب ايام كثيرة ، فالتقى راسه على الوسادة ، وغفا . خلعت دأشا ملابسها في غرفتها النظيفة المرتبة ، واخرجت المشط من شعرها ، وعزت رأسها حتى تطايرت دبائيس الشعر فورا ، وانسلت في فراشها الأبيض ، وسحبت الغطاء حتى ذقتها ، وتلصقت بعينها ، وقالت لنفسها : «شكرا لله ، كل شيء على ما يرام ! وليس لي الآن ما يشغل بالي ، فلأنم» . وتصورت امامها وجها صغيرا مضحكا . فابتسمت ، وعكفت ركبتها قليلا ، وطلقت الوسادة . وغشتها سئنة لذيذة مظلمة من النوم ، وفي الحال ترددت في ذاكرتها صوت كاتيا بوضوح : «غير صحيح ، طبعاً» . فتحت دأشا عينها ، «لم اقل لكاتيا كلمة واحدة . سألتها فقط : صحيح ام غير صحيح . فأجابتنى وكأنما كانت تفهم تماما مدار الحديث» . وكان الوعي يوخز جسمها كله ووخز الأبر : «فدعتنى كاتيا !» ، وبعد ان تذكرت كل دقائق الحديث ، وكلمات كاتيا وحركاتها رأت بوضوح ان في الأمر خدعة حقا . واحسنت دأشا بصدمة . لقد خانت كاتيا زوجها ، ولكنها بعد اقتراف خيانتها ، وانمها ، وكذبها ، اوضحت اكثر فتنة . والأعمى وحده لا يستطيع ان يلاحظ فيها شيئا جديدا ، ورقة وافية ذات نكهة خاصة . وهي تكذب بطريقة تأخذ باللب ، تغري بالحب . ولكنها جانية . انا لا افهم شيئا ، لا افهم . وقلقت دأشا وتحويرت . شربت ماء ، واشعلت المصباح ، ثم اطفأته ثانية ، وظلت تتقلب على الفراش حتى الصباح شاعرة بأنها لا تستطيع ان تدبر كاتيا ، ولا تدرك ما اقترفته .

ولم تستطع يكاترينا دميتريفنا ايضا ان تغفو في تلك الليلة . انطرحت على ظهرها خائرة القوى ، ملقبة ذراعها فوق الدثار الحريري ، وبكت ، دون ان تسمح دموعها ، على احساس ميهم في نفسها سبباً ، وغير نظيف ، ولكنها غير قادرة على ان تغير من الأمر شيئا ، ولأنها لن تكون مثل دأشا ابداً متقدمة العاطفة وقوية الخلق ، كما بكت لأن نيقولاى ايفانوفيتش نعمتا بالمرأة الرخيصة ، ووصف غرفة الجلوس بالابتدال . وبكت من البكاء لأن الكسى الكسينيفيتش بيسونوف اخذها في منتصف الليلة الماضية على عربة سريعة الخيول الى فندق خارج المدينة ،

وهناك امتلكها غير عارف ، ولا محب ، ولا شاعر بكل ما كان قريبا اليها ، عزيزا عليها ، امتلكها بتساهل وترف وكانها دمية وردية ، من تلك الدمى الموضوعة في مخزن مدام دوكلية للازياء الباريسية في شارع مورسكايا .

٥

اتخذت جمعية اطلقت على نفسها اسم «المجمع المركزي لمكانحة العرف السائدة» مقرا لها في شقة المهندس ايفان ايليتش تليغين في الطابق الخامس من بيت حديث البناء في الشوارع التاسع عشر في جزيرة فاسيليفسكي .

وكان تليغين قد استأجر هذه الشقة «للسكن» لمدة عام ، يسعر مخفض . فخصص له غرفة واحدة . اما سائر الغرف الموثقة بأسرة حديدية ومناضد ومقاعد من خشب الصنوبر فقد خصصت للمستأجرين من «العزاب ايضا ، وسحاق المرح حتما» . ولم يجد صديقه وزميل صفه السابق السابق سرغيفيتش سابوجكوف كبير عناه في ان يوفي هؤلاء له .

فسكن الشقة طالب كلية الحقوق الكسنندر ايفانوفيتش جيروف ، والمخبر الصحفي انتوشكا ارنولدوف ، والرسام فاليت ، والأنسة الشاببة يلزافيتا راستورغريفيا ، التي لم تجد حتى الآن مشاغل على ذوقها .

كان نزلاء الشقة يستيقظون في وقت متأخر - ساعة عودة تليغين من المصنع لتناول فطوره ، وكان كل واحد منهم يقبل على عمله متهاطلا . كان انتوشكا ارنولدوف يستقل الترام الى مقهى في جادة نيفسكي ، ليعرف آخر الأخبار ، ثم يذهب الى مقر جريدته ، ويجلس فاليت في العادة ليرسم صورة شخصية له . ويعلق سابوجكوف عليه الباب ليعد خطبا ومقالات عن الفن الجديد . وكان جيروف ينسل الى غرفة يلزافيتا كيبينا ، ويناقش معها امور الحياة بصوت ناعم كاللواء . وكان يكتب اشعارا ، ولكن كبريائه تأبى عليه ان يطلع احدا عليها . وكانت يلزافيتا كيبينا تعتبره نايبة .

كانت يلزافيتا كييفنا ، الى جانب احاديثها مع جيروف والنزلاء الآخرين تحرك من صوف متعدد الالوان اشربة طويلة لا تنفص لأغراض محددة ، وتغنى بصوت عميق قوى زائف اغاني اوكرانية ، او تبشكر لنفسها تصفيقات شعر غير مالوفة ، او تكف عن الغناء ، وتقل شعرها ، وتستلقى على السرير تطالع كتابها ، وتغتم في المطالعة حتى تصاب بضداع . ويلزافيتا كييفنا جميلة فارعة مزودة الخدين ، تبدو عيناها القصيرات النظر وكأنهما مرسومتان على صفحة وجهها ، ولايسها لا تنم عن ذوق ، فكانت موضع نقد حتى من نزلاء شقة تليفين .

حين كان يظهر شخص جديد في البيت كانت تدعوها الى عرقفتها ، ويبدأ حديث يدير الراس ، قائم بكليته على التطرف في الحدود ، وبعد ذلك كانت تستمرج محدثها لتعرف هل هو متعاطف الى الجريمة ؟ وهل هو مقتدر على القتل ، مثلا ؟ وهل يستشعر في نفسه «التحريض الذاتي» ؟ فقد كانت تعتبر هذه الخاصية علامة على روعة الانسان .

بل ان نزلاء شقة تليفين علقوا هذه الاسئلة على باب غرفتها ، لقد كانت يلزافيتا كييفنا ، عموما ، فتاة غير راضية ، وكانت دائما تتوقع «تحولات» و«احداثا مروعة» تجعل الحياة جذابة تعاش بكل كيان الانسان ، بدلا من الملل قرب نافذة صغيرة اعتمها المطر .

وكان تليفين نفسه يجد غير قليل من التسلية في مرافقة نزلاءه ، ويعتبرهم جماعة من الممتازين وذوى الصنّوات ، الا انه لم يشترك في ملاحظتهم الا قليلا ، بسبب قلة الوقت .

وذات يوم في عيد الميلاد جمع سيرغى سيرغيفيتش ساويجكوف نزلاء الشقة ، والقي عليهم الخطبة التالية :

- ايها الرفقاء ، ان اوان العمل قد حان . نحن كثيرون ، ولكننا مبعثرون . واعمالنا حتى الآن تتسم بطابع التشتت والتهيب . وعلينا ان نؤلف فصيلة ، ونسدد ضربة الى المجتمع البرجوازي . ولهذا الغرض ينبغي اول الامر ان نكون من بيننا الجماعة المبادرة ، وبعد ذلك نذيع هذا البيان ، وفيه نقول : «نحن الكولمبسيون الجدد ! نحن الدعاة الثوابح ! نحن بذور الانسانية الجديدة ! نحن نطالب المجتمع البرجوازي السابح في الدسم ان يثبذ

كل الخرافات . منذ الآن لن يكون هناك وجود للفضائل - تلغى العائلة والاعراف الاجتماعية ، وغقد الزواج . اننا نطالب بذلك . يجب على الانسان ، امرأة كان او رجلا ، ان يكون عاريا طليقا . والعلاقات الجنسية ملك للمجتمع . ايها الشبان والشابات ، ايها الرجال والنساء اخرجوا من حجوركم ، واطلعوا عراة سعادا الى الرقص تحت شمس الحيوان المتوحش ! ..»

وبعد ذلك قال ساويجكوف ان الضرورة تستدعي اصدار مجلة مستقبلية باسم «طبق الآلهة» سينقدم تليفين قسما من المال الصروف عليها ، والقسم الآخر يجب ان يتزعم من فوكو اليرجوازين - والمجموع ثلاثة آلاف روبل .

وعلى هذا النحو اسس «المجمع المركزي لمكافحة العرف السائد» ، والاسم من ابتكار تليفين الذي ضحك بشدة من مشروع ساويجكوف ، حين عاد من المصنع ، وجرى في الحال الاعداد لاصدار العدد الاول من «طبق الآلهة» . قدم بعض رعاية الفنون الاغنياء ، والمحامين ، وحتى ساشكا ساكيلمان نفسه المبلغ المطلوب - ثلاثة آلاف روبل . ووصى بطبع استمارات على اوراق للف تحمل اسما غريبا هو «المركز التابذ» ، وبدأت الدعوات توجهه الى المحررين اللازمين ، وصارت المواد تجمع للمجلة . واقترح الرسام قالييت ان تشوه جدران حجرة ساويجكوف التي حولت الى مقر لهيئة التحرير ، بالرسوم الماجنة . فرسم على الجدران اثنتي عشرة صورة شخصية له ، ونوقشت مسألة تائيث الفقة مناقشة طويلة ، واخيرا اخلت الفرقة الا من طاولة كبيرة الضمكت عليها اوراق مذهبة .

وبعد صدور العدد الاول من المجلة بدأ الناس في المدينة يتحدثون عن «طبق الآلهة» ، فأعلن البعض عن سخطه ، واكد آخرون على ان الامر ليس بالبساطة الذي يبدو فيها ، وفي المستقبل القريب قد تودع اعمال بوشكين في الارشيف . واصيب الناقد تشيرفا بالذهول ، فقد نعت في «طبق الآلهة» بالوعد . واسرعت بكاترينا دعترينيفنا بالاشتراك في المجلة لسنة كاملة ، وعزمت على ان تنظم عشاء يوم ثلاثاء مع المستقبلين .

اوفد «المجمع المركزي» سيرغى سيرغيفيتش ساويجكوف للعشاء في بيت سموكوفنيكوف . فجاها مرديا ستررة طويلة قدرة

من الفستيان الأخضر اخذها بالاستعارة من حلالة المسرح ، وكانت قد استعملت في مسرحية «مانون ليسكو» . واكل بافراط مبالغ فيه في العشاء ، وضحك ضحكا مجلجلا بغیضا حتى لسمعه هو ، وسمى النقاد ، وهو ينظر الى تشويقا ، بـ«نكات آوى اكلة الفطاس» . بعد ذلك استرخى ، وراح يدخن آعدلا نظارته الانفية على انفه الجبل . وبشكل عام كان الحضور يتوقعون اكثر من ذلك .

بعد صدور العدد الثاني تقر إقامة حفلات عشاء تحت اسم «التدنیسات الراجعة» . وقد شهدت داشا احدى هذه التدنیسات . فتح جبروف الباب الامامي لها ، وانشغل بها في الحال . اخذ منها كالرشما ، ومغظفها الفرشي ، بل ورفع خيطا صغيرا كان عالقيا بثوبها من الجوخ . ودهشت داشا لرأحة الكرب في الرواق . سار جبروف وراها في العمر جنبا الى مكان التدنیس ، وسألها :

— خیرینی یای العطور تتعطرن ؟ عطر رائع الشدی .

ثم ادعت داشا رخصن كل هذه الجسارة المعلن عنها بضوضاء . حقا لقد كانت تتناثر على الجدران عيون ، وانوف ايد ، وشخص مستعجبة ، وناطحات سحب متهاوية ، وباختصار ، كل ما يؤلف اجزاء صورة فاسيلي فاليت الذي كان واقفا هناك صامتا ، وعلى خديه رسم خطان منكران . وكان المضيفون والضيوف — ومن بينهم الشعراء الشبان الذين كانوا يحضرون عشاءات الثلاثاء في منزل سموكوفنيكوف بجموعهم تقريبا — يجلسون على الواح غير مسحوجة وموضوعة على كتل خشبية (هبة من تليغين) ، وكانوا يقرأون الشعر باصوات مبالغ في وقاحتها عن سيارات تدب على قبو السماء ، وعن «بضقة على المصاب بالزهرى السمارى» ، وعن فكین فتيین كسر بهما الشاعر قباب الكنانس ، كما يكسر الجوز ، وعن جندب غير مفهوم ابدا لایس معظفا غالبا يقفز من النافذة الى الرصيف وهو ممسك بمنظار مكبر ودليل سياحة . الا ان كل هذه البشائع بدت لداشا شوهاء . ولم يعجبها بصدق الا تليغين . تقدم منها اثناء الحديث ، وسألها بابتسامة خيبة عما اذا كانت تريد شاييا وشطائر .

— الشای والسبق عندنا اعتياديان ، يعنى جيدان .

كان وجهه ملوحا ، حليقا ، عليه مسحة من السذاجة ، اما عيناه الزرقاوان الطيبتان فيبدو انهما ذكيتان وقاسيتان عند الضرورة .

وفكرت داشا بانها ستسره اذا قبلت بعرضه ، فنهضت ، ودخلت غرفة الطعام ، حيث رات مائدة عليها صحن الشطائر ، وسماور مبعوج . اسرع تليغين في جمع الصحن المستعملة ، ووضعها على الارض في احد اركان الغرفة ، والتقت باحنا بعينيه عن خرقة ، ومسح المائدة بتدبيله ، وصب لداشا قديم شاي ، وانثقي لها «الذ» شطيرة . وقد قام بكل ذلك على مهل بيديه الكبيرتين القويتين ، وتكلم ، وكانما يعهد نفسه بشكل خاص لتكون داشا هراحة وسط هذه القفارة :

— شيرونا البيتية قوضى لا نظام لها . هذا صحيح ، ولكن الشاي والشطائر من العرجة الفاغرة ، مشتترة من مخزن يلسييف الشهير . وكانت هناك حلويات الا انها التهمت ، ولكن . . . وهنا اطبق شفقتي ، ونظر الى داشا ، ولاح في عينيه الزرقاوين خوف ، ثم تصميم ، وقال — هلا سمحت لي ؟ — واخرج من جيب صدره ملبستين ملفوفتين بورقتيهما .

وفكرت داشا مع نفسها «مع مثل هذا الرجل لا يتردى الانسان» ، ولكني تسره ايضا قالت :

— هذا النوع الذى افضله من الملبس .

ثم جلس تليغين مقابل داشا بانحراف ، واخذ يحلق في علبة الخردل بانباته . ونسخ العرق على جبينه العريض الكبير من التوت . اخرج منديله يحذر ، ومسح جبينه .

وافترت شفقتا داشا عن ابتسامة لا ارادية : ذلك لان هذا الرجل الكبير الجميل كان على درجة من انعدام الثقة بالنفس تجعله يود ان يتوارى وراء علبة الخردل تلك . وتخيلت داشا ان امه المعوزة التنظيف الملباس تعيش في هدينسة ارزاماس ، كما بدا لها ، وتكتب له من هناك رسائل حادة حول «عادته المستاصلة في تسليف نقوده لمختلف الحقي» ، وتعظه بان «احترام الناس» يا ابني العزيز ، لا يمكن ان نكسبه الا بالتواضع والمثابرة» . وهو ، على ما يبدو ، يتأفف من هذه

الرسائل ، مدركا كم هو بعيد عن الكمال . واستشعرت داشا رقة تجاه هذا الرجل . سألته :

— اين تشتغل ؟

رفع تليفون عينية في الحال ، وراى ابتسامتها ، فابتسم هو الآخر ابتسامة عريضة .

— في مصنع البلطيق .

— وهل عملك ممتع ؟

— لا اعرف . اعتقد ان كل عمل ممتع .

— اطن ان العمال يحبونك كثيرا .

— لم افكر في ذلك قط . ولكن لا اطن انهم يحبوني . ولماذا

عليهم ان يحبوني ؟ فانا شديد معهم . رغم ان علاقتنا طيبة بالطبع ، علاقات وفاقية .

— قل لي هل اعجبك عن صدق كل ما جرى في تلك الغرفة ، اليوم ؟

زالت غضون من على جبين ايفان ايليتش ، وانفجر ضاحكا بصوت عال .

— صبيان . اشقياء طاشون . فتية رافعون . اننا راض عن نزلاء شفتي ، يا داريا دميتريفنا ، في بعض الاحيان تحدث .

منفصت في عملنا ، واعدو الى البيت منزجعا ، فاجدهم هنا تسد ابتكروا هراء من هراءاتهم . . . وفي اليوم التالي حين اتفكر ما حصل

اضحك وابتهج .

قالت داشا بلهجة حازمة :

— اما انا فلا تعجبني هذه التدنيسات ايدا . انها سفاهة محض .

نظر في عينيها بدهشة . فاكدت قولها : «لا تعجبني ايدا» . قال ايفان ايليتش مفكرا :

— انا المذنب في ذلك بالطبع . فانا الذى شجعتهم عليه .

حقا ، ان تدعى ضيوفا ، وتقضى النساء كله في قول سفاسست امر . . . من المؤلم جدا ان كل هذا لم يعجبك على هذا النحو .

حدثت داشا في وجهه مبتسمة ، واحسنت بانها تستطيع ان تقول ما تشاء لهذا الرجل الغريب عليها تقريبا .

— اتصور ، يا ايفان ايليتش . انك لا بد ان تهوى شيئا

مختلفا تماما . يبدو لي انك رجل طيب ، احسن بكثير من تصورك انت لنفسك ، حقا ، حقا .

وركزت داشا كوعها على المائدة ، ووسدت حنكها على كفيها ،

ومست شفتيها بخصرها . كانت عيناها تبتسمان ، الا انها ،

بدتا له مخيفتين ، جميلتين الى حد مذهل ، عينيّن رماديتين واسعتين باردتين قليلا . ولذهو له الشديدي لوى ملعقة شاي تم عدلها .

ولحسن حظه دخلت الغرفة يلزافيتا كييفنا ، كانت تلقى على كتفيها شالا تركيا ، وقد ضفرت شعرها فوق اذنيها بصفيرتين

كقرني الخروف . مدت لداشا يدا طويلة مقدمة نفسها باسم «راستورغويفا» وجلست وقالت :

— تحدث جيروف عنك كثيرا جدا . واليوم درست وجهك . وارى انك قد شعرت بالسأم ، وهذا شىء جيد .

اسرع ايفان ايليتش يسالها :

— يا ليزا ، انريدن شيئا ياردا ؟

— لا ، يا تليفون . انت تعرف اننى لا اشرب الشاي ايدا . . .

اذن قد تسالين نفسك ، بالطبع ، اى مخلوق غريب هذا الذى يتحدث معك ؟ انا لا احد . شخص حقير ، انا فاسدة وبليدة .

كان ايفان ايليتش واقفا عند المائدة ، فاشاح بوجهه يالسا . وغضت داشا من بصرها . فامعنت يلزافيتا كييفنا فيها النظر

مبتسمة .

— انت انيقة ، مرفهة وبارعة الجمال . لا تنكري ، فانت تعرفين ذلك بنفسك . انت موضع حب عشرات الرجال ، بالطبع . ومن المؤلم ان كل هذا سينتهى بغاية من البساطة . سياتى الذكر ،

فخلدين له اولادا ، ثم تموتين . فما اضجر ذلك !

ارتعشت شفتا داشا تكذرا . واجابت :

— انا لا اريد ان اكون خارجة عن المالوف ، ولا ادري لماذا

والذين يتحملون قليلون جدا ، وعن شفقة فقط كما يفعل تليغين مثلا . فتمت تليغين دون أن يرفع رأسه :

- اى هراء هذا الذى تتحدثين به ، يا ليزا .

- انا لا اطالب بشئ ، يا تليغين ، فهدئى من روعك . -

والتفتت الى داشا مرة اخرى :- هل عانيت عاصفة ذات مرة ؟ اما انا فقد عانيت واحدة ، كان هناك رجل ، وكنت احببه ، وكان يكرهنى بالطبع . وكنت آنذاك اعيش على البحر الاسود . وتارت عاصفة . وقلت لذلك الرجل : « لنخرج الى البحر ... » فخرج معى موجدة وحقا . وحملنا الى عرض البحر ... ما اروعها من تسلية ... وخلعت عنى ثوبى ، وقلت له ...

قال تليغين مغضبا شفتيه وانفه :

- اسمعى ، يا ليزا . انت تكذبين . لم يحدث ذلك ، انا

اعرف .

عندئذ نظرت يلزافيتا كيفنا اليه بابتسامة مبهمة ، واخذت تضحك قجاة . وضعت كوعها على العائدة ، واخفت وجهها بينهما ، وضحكت ، واهتزت كفافها الممثلةتان . نهضت داشا ، وقالت لتليغين انها تريد ان تذهب الى البيت ، وتصرف دون ان تودع احدا ، اذا امكن ذلك .

وقدم ايفان ايليتش لداشا معطفها بعذر شديد ، وكان المعطف جزء من كيانها ايضا . ونزل الى الاسفل على السلم المظلم ، مشعلا طوال الوقت اعواد النشاب ، مبتكرا من حلقة الظلام وهبوب الريح ، وزلق الارض ، واوصل داشا الى ركن الشارع ، واجلسها فى عربة لاجة . كان الحودى عجوزا ، والثلج يعصر حصانه . ظل ايفان ايليتش وقتا طويلا واقفا فى البرد حاسر الرأس ، وبلا معطف ، ينظر الى الزلافة الواطئة وهى تتلاشى وتذوب فى الضباب الاصفر ، ومعها يتلاشى ويذوب شبح الفتاة الجالسة فيها . وبعد ذلك عاد الى البيت متمهلا ، ودخل غرفة الطعام . فرأى يلزافيتا كيفنا فى جلستها تلك ، ووجهها بين يديها . حك تليغين ذقنه ، وقال عابس الاساور :

- ليزا .

عندئذ دفعت ليزا رأسها بسرعة شديدة .

- ليزا ، لآى سبب ، وارجو المعذرة ، تخوضين دائما فى

حديث يجعل الجميع فى حرج ونجل ؟

قالت يلزافيتا كيفنا بصوت خافت وهى لا تفتأ تتحدق فيه

بعينها الحزيبتين ، الضميرتى النظر ، اللتين تبدوان مرسومتين على

صفحة وجهها :

- احببت . رابت ذلك من الوهلة الاولى . اوه ، يا للضجر .

قال تليغين وقد سعد الدم الى وجهه :

- هذا غير صحيح البتة . غير صحيح .

- اذن ، فانا متأسفة .

ونهضت بتكاسل ، وخرجت ، ساحبة وراءها على الارض شالها

التركى المغبر .

سار ايفان ايليتش بعض الوقت مغمورا فى افكاره ، شرب

شايا باردا ، ثم رفع المقعد الذى جلست عليه داريا دميترييفنا ،

وحمله الى غرفته . وهناك تروى ، ووضعه فى احد الاركان ،

واحتوى كل انفه براحته ، وقال ، وكانما قد صعق صعقة هائلة :

- هراء ... سخافة ا

كان هذا اللقاء بالنسبة لداشا مجرد لقاء من لقاءات

عديدة . التقت برجل طيب ، وانتهى الامر . كانت داشا فى سن لا

يرى فيها البرء ولا يسمع بشكل جيد : فان سمعه موقر بضجيج

الدم فى عروقه ، وعيناه فى كل مكان - وحتى فى وجه انسان امامه -

لا تريان الا صورته هو ، وكانها انعكاسه فى مرآة . والقبح وحده

فى مثل هذه السن يثير الغيالى ، اما جمال الناس ، ومناظر الطبيعة

الغلاية ، وجمال الفن المتواضع فان كل ذلك يعتبر حاشية الحياة

اليومية لملكة فى التاسعة عشرة من العمر .

ولم يكن الامر كذلك مع ايفان ايليتش . والآن ، وقد انقضى

اكثر من اسبوع على زيارة داشا ، فقد اخذ يتعجب من ان تظهر

فى سمكتهم هذه الفتاة ذات البشرة الوردية الرقيقة ، والثوب الاسود

من الجوخ ، والشعر الاشقر الشاحب المرتفع فوق راسها ، والقم

الظفونى المتكبر ، وتظهر دون ان تلاحظ (حتى انه لم يسلم عليها

راسا) تظهر ببساطة (فقد دخلت ، وجلست ، وضعت على ركبتها

هوفة الفراء التى تدق) بها يديها . ولم يكن مفهوما كيف وافته

العزيزية ليتحدث معها ببساطة عن السجسج المشتري من مغازن
يليبسيف .

والمليستان الدافئتان اللتان أخرجهما من جيبه ، وعرض
عليها أن تأكلهما ؟ فيا له من نحس !

كان إيفان ايليتش خلال حياته (تخطى التاسعة والعشرين قبل
حين) قد أحب ست مرات : عندما كان تلميذا في المدرسة الثانوية
في قازان أحب فتاة ناضجة ، هي ماروسيا خفويفا ، ابنة طبيب
بيطري ، كانت تجوب الشوارع الرئيسية في الساعة الرابعة ، ولزمن
طويل ، دون قاندة ، وهي في معطف واحد لا يتغير مصنوع من قماش
البليش . الا ان ماروسيا خفويفا لم تكن في وضع يقبل التمازج ،
فنبذته ، وانصرف هو عنها ، دون مرحلة انتقالية ، الى آدا تيليه
الفتاة المتجولة التي انتزعت دمهشة اهل المدينة بظهورها في جميع
الاوربريات ، من كل العصور ، على قدر الامكان بنوب سباحة ، وهو
امر ابرزته ادارة المسرح في اعلانتها : «آدا تيليهس الحائزة على
المدالية الذهبية لجمال ساقها» .

وتجرا إيفان ايليتش حتى على ان ينفذ الى بيت الفتاة ، ويحمل
اليها باقة من الزهور ، المقطوعة من حديقة البلدية . الا ان آدا تيليه
اعطت هذه الزهور لتشمها كلبتها الصغيرة الغريبة الشعر ، وقالت
لايفان ايليتش ان معدتها قد مرضت تماما من الطعام المحلى ، وطلبت
اليه ان يهرع الى الصيدلية . وبهذا انتهى الامر .

وبعد ذلك ، حين صار طالبا في بطرسبورغ مال الى طالبة
الطب فيلبوشيفيتش ، بل وكانت له مواعيد معها في مسرح
التضريح ، الا ان ذلك بعد ذاته لم يأت بنتيجة مرجوة ، وغادرت
فيلبوشيفيتش لتعمل في مستشفى احد الاقضية .

وذات مرة اغرمت به فتاة تدعى زينوتشكا تعمل في مخزن كبير
للقبعات ، غراما شديدا اسلمهما الى الياس . واستجاب إيفان
ايليتش لكل ما رغبت فيه ، لارتياكه ورقة قلبه . الا انه تنفس
الصعداء حين رحلت الفتاة الى موسكو مع الفرع الذي تعمل فيه من
الشركة . فقد مضى معها شعور كان يراوده دائما بان ثمة واجبات
لم يقم بها .

ويرجع تاريخ آخر عاطفة حب مست قلبه الى حزيران قبل

عامين . فقد كانت هناك فتاة نحيلة شاحبة تظهر كل يوم قبيل
الغروب في النافذة المقابلة لنافاذته المطلة على الفناء ، وتفتح
النافذة ، وتتنظف بالفراشة ، ويحرص شديد ، ثوبها البني الذي لا
يتغير ، ثم ترتديه ، وتخرج لتجلس قليلا في المنتزه .

وفي المنتزه ، في اوائل الخسق ، تحدث معها إيفان ايليتش ،
ومنذ ذلك الحين اخذا يتنزهان سويا كل مساء ، ويديان اعجابهما
بلمحظات الغروب في بطرسبورغ ، ويتجاذبان اطراف الحديث .

كانت هذه الفتاة ، واسمها اوليا كوماروفا ، تعمل في مكتب
كاتب عدل ، وكانت وحيدة دائمة المرض والسعال . وقد تحادثا
عن هذا السعال ، والمرض ، وعن الوحشة التي تهبط على صدر
الانسان الوحيد عند المساء ، وعن صاحبة لها تسمى كيرا ، احبت
رجلا طبيا ، ورحلت معه الى القرم . وكانت احاديثهما كئيبة . وكانت
اوليا كوماروفا بالنسة من امرها حتى انها لم تتجمل ان تبوح لايفان
ايليتش بافكارها المكنونة وهي متروعة احيانا ان يقع في غرامها
فتاة ، ويتزوجها ويأخذها الى القرم .

وكان إيفان ايليتش يشفق عليها كثيرا ، ويكن لها الاحترام ،
الا انه لم يقدر ان يعيها ، ولو انه بعد احاديثها احيانا كان يفكر
وهو مستلق على الاريكة في الظلمة بأنه انسان اتاني ، سمي ،
وبلا قلب .

وفي الخريف اصيبت اوليا كوماروفا بنزلة صدرية ووقعت
طريحة الفراش . وقد اخذها الى المستشفى ، ومن هناك الى
المقبرة ، وقبيل موتها قالت له : «هل ستتزوجني اذا شفيت ؟»
فاجابها إيفان ايليتش : «كلمة شرف ، سأزوجك» .

ولم يكن شعوره نحو داشا يشبه مشاعره السابقة . لقد
قالت له بلزاقيتها كيبينا «احببت» . ولكن الانسان يمكن ان يحب
من يفترض ان يناله ، وليس من الممكن ان يحب تمثالا او غيمة .
وقد شعر نحو داشا بعاطفة فريدة ، جديدة عليه ، ومشوية
بالعموض ، لان الاسباب الداعية لها قليلة - بضع دقائق من
الحديث ، ومقعد في ركن من الغرفة .

كما ان هذه العاطفة لم تكن على قدر كبير من العدة ، الا ان
إيفان ايليتش صار الآن يحس في نفسه بالرغبة في ان يكون

فريدا ، ويبدأ بالاهتمام بنفسه كثيرا . وكان غالبا ما يقول لنفسه :
«قريبا سايبلغ الثلاثين ، وأنا ما ازال اعيش لنفسى وبلا
غاية . خواد رهيب . اناية ولا مبالاة ازاء الناس . يجب ان
اتماسك قبل فوات الاوان» .

في اواخر اذار ، وفي يوم من ايام بواكير الربيع ، الطالعة
بفتحة على المدينة البيضاء من الثلج ، المتدثرة طليا للدفء ،
حين تلمع قطرات الجمد منذ الصباح وتقطر من الافاريل السطوح
ويشرشر الماء في انايبب تصريف المياه من اعالي النبايات ، ويطلع
في البراميل الخضراء الموضوعه تحتها ، ويهش الثلج في الطرقات ،
ويتصاعد البخار من الاسفلت ، وتجب بقع منه ، ويحس المسره
بثقل المعطف الشتائى على كتفيه ، وبين الحين والآخر تقع العين
على رجل ذى لحية مدبية يسير بدون معطف ، واذا بالناس كلهم
ينظرون اليه ويبتسمون ، وحين يرفع المرء راسه يرى السماء لا يسير
لها عمق ، زرقاء كأنها غسلت بالماء ، في يوم كهذا اليوم ، وفي الساعة
الثالثة والنصف بعد الظهر خرج ايفان ايلييتش من الدائرة الهندسية في
جادة نيفسكى ، وفك معطفه ذا العاشية الفرائية ، وقلص عينيه
اثناء الشمس .

«الحياة زائفة على اية حال» .

وفي تلك اللحظة وقع بصره على داشا . كانت تسير على حافة
الرصيف وثيابة الغطى ، ترتدى معطفا ربيعا ازرقي ، وقبعة زرقاء
شدت عليها زهورا اصطناعية بيضاء . وكانت تزرج طرفا يديها
اليسرى فكانت الزهور على قبعتها تتمايل . وكان التأمل والحزن
يطفخان من محاسبا . ومن ورانها كانت الشمس الهائلة الشعثاء
النور ، المتوهجة بوهج ربيعي في السماء الزرقاء النائية تنعكس على
برك الماء ، وتخلوط الترام ، والزجاج ، وظهور السابله . وتحت
اقدامهم ، وعلى معاوار عجلات العربات .

بدا داشا قد خرجت من هذه الزوقة والنور ، وقرات
لحظة ، لتختفى بعدها في جمهور الناس . نظر ايفان ايلييتش طويلا
في تلك الناحية . وسمع قلبه يدق في صدره ببطء . كان الهواء
كثيفا ، لاذعا ، يدير الرأس .

سار ايفان ايلييتش ببطء الى الناصية ، ووضع يديه وراء

ظهره ، ووقف طويلا امام اسطوانة الاعلانات . وقرأ : «مغامرات
جاك الجديدة الطريفة ، منتزح الاحشاء» ، و فكر بأنه لا
يفهم شيئا ، وبأنه سعيد سعادة لم يذقها في حياته كلها .

ولما ابتعد عن اسطوانة الاعلانات رأى داشا ثانية . عادت
على حينها تلك : الزهور البيضاء على قبعتها ، والطردي في يدها ،
وقدمها تسيران على حافة الرصيف . تقدم منها ، وخلع قبعته .
- داريا دميترييفنا ، ما اروع هذا اليوم ...

جفلت داشا قليلا . ثم رفعت اليه عينين باردتين قليلا لمعت
فيهما من جراء النور نقاط خضر . وابتسمت برقة ، ومدت له يدها
المقفرة في قفاز ابيض من جلد الجدى ، وصافحته بقوة ومودة :
- لطيف ان التقى بك . بسل وفكرت اليوم فيك ...

صدقتى ، لقد فكرت ، - وهزرت راسها ، واهتزت الزهور البيضاء على
قبعتها .

- كانت لدى مهمة في جادة نيفسكى ، وانا الآن حر طوال
اليوم ، يا داريا دميترييفنا . ما اروع الطقس اليوم ... - وغضن
شفطيه محاولا بكل طاقته الا تنفرجا عن ابتسامة .

سالت داشا :

- يا ايفان ايلييتش هل تستطيع ان توصلنى الى البيت ؟
وانعطفا في شارع جانبي ، وسارا الآن في الظل .

- ايفان ايلييتش ، هل سيبدو لك غريبا لو اسالك عن
شيء ؟ لا ، بالطبع ، انا استطيع ان اتحدث معك . شرط ان تجيبنى
راسا . اجبني دون تردد ، وعلى الفور . اجبني في اللحظة التي
اسالك فيها .

ولاح الهم على وجهها ، وقطبت حاجبيها . وقالت ، وهى تشق
الهواء بذرعاها :

- من قبل كنت اتصور ان هشاك لصوصا ، وكذابين
وقتل ... وهم موجودون في مكان ما ، مثل التعابين ، والعناكب ،
والفتران . ولكن البشر ، كل البشر - وقد تكون لهم مواطن ضعف ،
ولزوات ، الا انهم جميعا طيبون ، واضحو ... انظر الى تلك الفتاة
القادمة . انها كما تراها وباطنا . وكان العالم كله يبدو لي وكأنه
ملون بالوان فاتنة . هل انت تفهمنى ؟

- ذلك شيء رائع ، يا داريا دميترييفنا . . .

- على مهلك . اما الآن فكأنني اغوص في هذه الصورة ، الى الظلام واحتباس الهواء . . . انا اعرف ، قد يكون الانسنان جذابا ، بل لطيفا ، حلوا حلوة يمكن ان تتلمسها ، ولكنه في نفس الوقت يذبذب ذنوبا نظيفة . وانا لا اتصد انه يسرق الفطائر من الدولاب ، بل ياتم اثما حقيقيا : يكذب ، - واشاحث داشا بوجهها ، وارتمس حنكها - ان هذا الرجل فاسق بامرأة متزوجة . وانا اريد ان اسالك : هل يجوز هذا يا ايفان ايليتش ؟

- لا ، لا يجوز .

- ولماذا لا يجوز ؟

- لا استطيع ان اقول ذلك الآن ، ولكنني اشعر بأنه لا يجوز .

- وهل تظن انني لا اشعر بذلك ؟ منذ الساعة الثانية وانا اهيمن حزينة . الجو اليوم صاف منعش ، بينما انا اتصور ان في هذه البيوت ، وراء الستائر ، يختفي اناس سود القلوب . وعلى انا ان اعيش معهم . هل تفهم ؟

اجاب بسرعة :

- لا ، لا افهم .

- كلا ، على ان اعيش معهم . آه ، ما اعظم الحزن في قلبي . اذن فانا مجرد فتاة صغيرة . وهذه المدينة لم تشيد للفتيات الصغيرات ، بل للكبار .

وتوقفت داشا عند مدخل البيت ، وراحت تدفع على الاسفلت ، براس حذائها العالى ، جيئة وذهويا ، علبة سيكارة فارغة رسمت عليها سيده باللون الاخضر تفتت الدخان من فيها . واحسن ايفان ايليتش ، وهو ينظر الى راس حذائها الصنقيل ، وكان داشا تذوب ، وتتلشى كالصباغ ، وكان يود لو يبقيه معه ، ولكن باى قوة ؟ وكان يعرف ان هناك مثل هذه القوة ، ويشعر انها تمصر قلبه ، وتأخذ بخناقه . ولكن كل شعوره بالنسبة لداشا مجرد ظل على حائط ، لانه هو نفسه ليس الا « ايفان ايليتش الطيب واللطيف » .

- والآن ، مع السلامة ، وشكرا لك ، يا ايفان ايليتش . انت لطيف وطيب جدا . انا لم اشعر باى ترويح ، ولكننى شاكرا لك جزيل الشكر ، على اية حال . لقد فهمتني ، اليس كذلك ؟ تلك هي امور الدنيا . يجب ان اصبح راشدة ، ولا مفر من ذلك . زرنا في وقت فراغك ، ارجوك .

وايتسمت ، وهزت يده ، ودخلت البيت ، وغيبها الظلام .

٦

فتحت داشا باب غرفتها ، ووقفت مذهولة . فقد شممت في الغرفة رائحة زهور رطبة ، وفي اللحظة التالية وقعت عينها على سلة زهور عالية المقض ، مزينة بشريط ازرق ، موضوعة على منضدة الزينة الصغيرة . ركضت نحوها ، وغمرت وجهها فيها . انها زهور بفسنج مسحوقه مبللة .

وانفعلت داشا . كانت منذ الصباح تريد شيئا لا تعرف ما هو بالضبط ، اما الآن فقد ادركت انها كانت تريد زهر البنفسج . ولكن من ارسل هذه الزهور ؟ ومن فكر فيها هذا اليوم باهتمام شديد حتى حزر ما كانت هي نفسها لا تعرف ما هو ؟ الا ان الشريط وحده لم يعجبها ، فقد كان في غير محله . وفكرت داشا ، وهي تفكك :

« فتاة لا باس بها ، ولو كانت منفعلة . ستسير في طريقها الخاص ، مهما اقترفتن من ذنوب ، ايها الامون . ربما تظنون انها تشسخ بانفها اكثر من اللازم ؟ ولكن هناك اناسا سوف يفهمون الالاف الشامخ ، بل ويقدرونه . »

وتبين ان ورقة سميكة قد حشرت في الشريط كتب عليها : « احبى الحب » . وفي الوجه الاخر من الورقة : « تربية زهور في نيس » . اذن ، فقد كتب شخص في محل بيع الزهور هذه جملة « احبى الحب » . وخرجت داشا الى الدهليز وسللة الزهور في يديها ، وعتمت :

- يا مغولى ، من جلب لي هذه الزهور ؟

نظرت «المغولى العظيم» الى سلة الزهور ، وتنهدت بصدق .
فإن هذه الاشياء لم تكن تعنيها على الاطلاق .

- جليها صبي من محل الزهور ليكاترينا دميتريفنا . ولكن
السيدة المرزنى ان احملها لك .

- ألم يقل ممن ؟

- لم يقل سوى : سلميتها الى السيدة .

عادت داشا الى غرفتها ، ووقفت عند النافذة . كان الغروب
يلوح من خلال زجاج النافذة ، غمر السماء من اليسار . من وراء
العائط الأجرى للبيت المجاور ، ثم اخضوضر ، ونحل . وظهرت
نجمة في ذلك الغلاء الأخضر ، وتواضعت ، ولمعت وكانها قد غسلت
لثوبها . وفي الاسفل ، في الشارع الضيق ، الذى اخذ الضباب يملاء
ارجاهه ، انيرت المصابيح الكهربائية مرة واحدة على امتداده كله ،
الا انها لم تكن ساطعة النور بعد ، ولا متألقة . وزقت سيارة في
مكان قريب ، ورات داشا انها كانت تسيير عبر الشارع مختفية في
ظلمة المساء .

تلبد الظلام في الغرفة تماما ، وفاحت زهور البنفسج رائحة
ناعمة . لقد ارسلها ذلك الرجل الذى اتمت كاتيا معه . كان ذلك
واضحا . وقتت داشا تفكر بانها كذباية وقعت في شيء مثل تسييج
العتكبوت ، وقيق ، ومغوى . ان هذا «الشيء» كان في رائحة الزهور
الرطبية ، وفي الكلمتين المصطنعتين ، المثيرتين : «احبى الحب» ،
وفي السحر الربيعي لهذا المساء .

وفجأة حقت قلبها حققانا سرعيا قويا . وشعرت داشا وكان
اصابعها تمس شيئا معرما ، سرسا ، لاذع الحرارة وتراه ،
وتسمعه . وتحسه . واذا بها تطلق العنان لمواطنها ، وكانها قد
صممت على ذلك بكل كيانها . وكان من المستحيل ان تفهم كيف
وجدت نفسها في تلك اللحظة في الجانب الآخر . ذابت الصرامة ،
ذلك الجدار الجليدى ، وتحولت الى ضباب ، مثل ذلك الضباب في
نهاية الشارع ، حيث انطلقت السيارة بلا صوت حاملة سيدتين في
تبعثتين بيضاوين .

لم تشعر الا يهققان قلبها ، وبدوار خفيف في رأسها ، بينما

رنت في جسمها كله موسيقى تلقائية مثل موجة برودة بهيجة :
«انا احيا ، احب ، البهجة ، الحياة ، كل الدنيا لي ، لي ، لي !»

فتحت داشا عينيها ، وقالت بصوت مسموع :

- اسمعى ، يا عزيزتى . انت ما تزالين في نقاب عذرتك ،

وخلقتك وعق لا يحتمل ...

ومشت الى ركن الغرفة البعيد ، وجلست في مقعد وثير
كبير ، وراحت تسترجع كل ما حدث في الاسبوعين ، وهي تفرض
الورقة عن قطعة شوكلاته بتأن وبطء .

لم يتغير شيء في البيت . بل واصبحت كاتيا تعامل نيقولاى
ايفانوفيتش بمزيد من الرقة . وكان مرح الاعطاف ، وبنوى بناء
بيت ريفي في فنلنديه . وكانت داشا وحدها تعاني صامتا هذه
«العاساة» لانسانين اصيبا بالعمى . لم تجرأ ان تفتح اختها في
الحديث . واختها التى كانت داشا شديدة الالتفات الى تقلب امرجة
داشا ، لم تطفن لها مرة الى شيء . اوصت يكاترينا دميتريفنا
على بدلتين لها ولاختها بمناسبة عيد الفصح ، فكانت تقضى ساعات
عند محل الخياطة وصناعة القمصان ، وتشتترك في اسواق البر
والاحسان ، وتتنظم برجاء من نيقولاى ايفانوفيتش ، امسية ادبية
لغرض سرى ، هو جمع المال لمنفعة لجنة الجناح اليسارى للحزب
الاشتراكى الديموقراطى - او من يسمون بالبلاشفة - وتجمع
الضيوف في ايام الخميس فضلا عن ايام الثلاثاء ، وباختصار لم
تكن لديها دقيقة فراغ واحدة .

وخطبت داشا نفسها : «وانت قد جيتت في هذا الوقت ، ولم
تستقرى على شيء ، ورحت تفكرين في اشياء انت فيها كالنعجة ، لم
تفهميها ولن تفهميها حتى تحترق جناحيك» ، وضحكت داشا
بخفوت . ومن تلك الجيرة المظلمة التى كانت تتساقط فيها كرات
الجليد الصغيرة ، والتي لم يكن من الممكن ان يرمى منها خير ،
نهضت صورة بيسونوف اللاذعة العائقة ، كما كان يحدث كثيرا في
هذه الايام . اباحت هى نفسها ، فاستولى هو على افكارها . وهذات
داشا ، وتكتكت الساعة في الغرفة المظلمة .

ثم صُفِّق باب في مكان بعيد في البيت ، وسمعت داشا صوت
اختها وهى تسأل :

- هل عادت منذ وقت طويل ؟

نهضت داشا من المقعد ، وخرجت الى الدهليز ، واذا بيكاترينا دميترييفنا تقول في الحال :

- لماذا انت محيرة ؟

كان نيقولاى ايفانوفيتش يخلع معطفه السميك وهو يروى ملحمة لاذعة من مَلِّح عاشق المسرح . نظرت داشا نظرة كره الى شفقيه الكبيرتين الرخوتين ، وتبعت كاتيا الى مخدعها . وجلست هناك الى منضدة الزينة الانيقة الرقيقة كائ شىء في هذه الحجرة ، وراحت تسمع كلام اختها الطويل عن المعارف الذين التقت بهم اثناء النزهة .

وكانت بيكاترينا دميترييفنا اثناء الحديث ترتب الاشياء في دولابها ذى المرأة ، الحافل بالقفازات ، وقطع الدنتلا ، والبراقع ، والاحذية الحريرية - مجموعة كبيرة من الاشياء التافهة العابثة بالعطور التى تستخدمها : « يظهر ان كرينسكى خسر القضية مرة اخرى ، وهو الان بلا نقود . التقيت بزوجته . انها تتشكى ، وتقول الحياة اضحت صعبة . وفي بيت تيميريازيف حصة . وشينبيرغ عاد الى امراته الهستيرية مرة اخرى ، بل ويقال انها اطلقت النار على نفسها في شقة . هذا هو الربيع ا وما اجمال الطقس اليوم ا جميع الناس يتجولون في الشوارع كالسكارى . عندى خبر آخر . التقيت باكوندين ، وهو يؤكد بان الثورة ستندلع عندنا في القريب العاجل . الهيجان في المصانع ، والقرى ، وفي كل مكان . ليتها تقع في اقرب وقت . فرح نيقولاى ايفانوفيتش فرحا شديدا حتى انه اخذنى الى مطعم «بيقاتو» ، فشرينا هناك زجاجة شمبانيا ، ونخب الثورة المقبلة ، هكذا ، راسا .

كانت داشا تستمع الى اختها صامتة ، وهي ترفس وتنزل غطاءات القوارير البلورية . ثم قالت فجأة :

- كاتيا لا حاجة لاحد بى كما انا خلقت .

فالتفتت بيكاترينا دميترييفنا وجوبها الحريري في يدها ، وتفردت في اختها . فتابعت هذه قولها :

- والشئ المهم اننى انا ايضا ، لست بحاجة لنفسى وانا

على طبيعتى هذه . انا كمتن قرر ان يعيش على الجزر النى ، واعتبر نفسه ارفع بكثير من الآخرين .

قالت بيكاترينا دميترييفنا :

- انا لا افهمك .

نظرت داشا الى ظهرها ، وتنهت .

- جميع الناس ، حسب راى ، سينون . وانا ادينهم ، بعضهم حقى ، وبعضهم مقرفون ، والبعض الآخر قدرون . وانا وحدى الفاضلة . انا هنا غريبة ، وذلك يرهقنى كثيرا . انا ادينك انت ايضا ، يا كاتيا .

فسالته بيكاترينا دميترييفنا بهدوء ، دون ان تلتفت اليها :

- لاي شىء ؟

- ارجو ان تفهمينى . انا اسير شامخة الانف ، وهذا كل ما لى . ان ذلك حماقة صرف ، وقد سحرت من غربتى بين الناس . وبالتصنار ، انا معجبة كثيرا برجل ما .

كانت داشا تتحدث بذلك متنكسة الراس ، فقد دست اصبعها في فم قارورة بلورية ، ولم تستطع ان تخرجها منه .

- حمدا لله ، يا فتاتى ، على انك معجبة برجل . ستكونين

سعيدة ، فان لم يسعدك الله فمن يسعد ؟

وارسلت بيكاترينا دميترييفنا تنهيدة خفيفة .

- ولكن ذلك ليس بهذه البساطة . اظن اننى لا احبه .

- اذا كان يعجبك فسوف تحبينه .

- تلك هى المسألة . انه لا يعجبنى .

عند ذاك سدت بيكاترينا دميترييفنا باب الدولاب ، وتوقفت

عند داشا .

- قبل لحظة قلت انك معجبة ... يا للغرابة ...

- ارجوك ، يا كاتيا ، الا تسرعى في لومى . انت تذكرين

الانجليزى الذى كان في سيسروروتسك . لقد اعجبك به ، بل احببته . ولكننى كنت آنذاك على طبيعتى . خنقت ، وتوارىست ، وبكيت في الليالى . اما هذا الرجل : ... انا لا اعرف هل هو الذى ... نعم ،

هو ... هو ... هز سكينه نفسى ... وانا الآن فتاة اخرى كلية ،

كاننى سمعت مبخرة ... لو دخل اى غرفتى الآن لاستطاع ان يفعل كل ما شاء دون اى اعتراض من جانبي ...

- ما هذا الذى تقولينه ، يا داشا ؟

وجلست يكاترينا دميترييفنا على مقعد اى جانب اختها ، وجذبتهما نحوها ، وامسكت يدها العازة ، وقبيلت باطن كفيها ، الا ان داشا تحررت من طوقها ببطء ، ورفرت ، واسندت راسها على يدها ، وحدقت طوليا فى النافذة ، المصطبغة بالزرقة ، والى النجوم .

- داشا ، ما اسمها ؟

- الكسى الكسيفيتش بيسونوف

عندئذ انتقلت كاتيا الى مقعد مجاور ، ووضعت يدها على حنجرتها ، وجيدت فى جلستها . لم تر داشا وجهها ، فقد كان كله فى الظل ، ولكنها شعرت بانها فاضت لها بشئ مريع .

«هذا افضل» فكرت داشا مع نفسها ، وهى تستدير بجسمها . وامتعت بعد هذه الجملة بخفة وشوا .

- قولى لى ارجوك ، لماذا يستطيع الآخرون كل شئ ، وانا لا استطيع ؟ منذ عامين وانا اسمع عن الف اغراء واغراء وطوال حياتي لم اذق طعم القيل الا مرة واحدة ، قبلنى فيها تلميذ فى المدرسة الثانوية فى حلية الترحلق .

وتنهدت بقوة ، وصممت . وكانت يكاترينا دميترييفنا فى تلك اللحظة تجلس منحنية الظهر ، وبداها على ركبتها . قالت :

- بيسونوف شخص سيئ جدا . انه قطيع . يا داشا . هل تسمعيننى ؟

- نعم .

- انه سيحطمك كلنيا .

- وما العمل الآن ؟

- انا لا اوريد ذلك . دعى الاخريات ... لا انت ، لا انت ،

يا عزيزتى .

قالت داشا :

- يقولون ان الغراب الصغير سيئء لانه اسود جسدا وروحا .

قولى لى : بم بيسونوف سيئء ؟

- لا استطيع ان اقول ... لا اعرف ... ولكن الرجفة تسرى فى جسدى ، حين افكر فيه .

- ولكنك ، انت ايضا كنت معجبة به بعض الشئ ؟

- ابدا ... انا اكرهه ! .. فليحفظك الله منه .

- اذن ساقع فى شركه لا معالة . ساقع فى حباله .

- ما هذا الحديث ؟ .. لقد جئنا ، كلثانا .

الا ان داشا راق لها هذا الحديث بالذات ، وكانها كانت تسير

على لوحة ضيقة على اطراف اصابعها . التذت بانفعال اختها . ولم

تفكر فى بيسونوف تقريبا ، الا انها تعمدت اظهار عواطفها نحوه ،

ووصفت لقاءتهما ، ووجهه . وضخت كل ذلك ، وبدا وكأنها

تقضى الليالى بطولها مؤرقة تفكر فيه ، وهى الآن مستعدة للارتقاء

فى اخضانه . واثيرا بدا الامر مضحكا لها نفسها ، وودت ان تمسك

كاتيا من كتفيها ، وتقبلها قبلا كثيرة قائلة لها : «اذا كانت ثمة

حقاء ، فهى انت ، يا كاتيا» . الا ان يكاترينا دميترييفنا انزلت

فجأة من المقعد الى البساط ، وطوقت داشا ، ووضعت وجهها على

ركبتها ، وصرخت بصوت مفرع ، وجسمها كله يرتعش :

- اعذرينى ، اعذرينى ... داشا اعذرينى !

وهلعت داشا . انحنت نحو اختها ، ومن الفزع والشفقة اخذت

تبكي هى ايضا مجهشة بالبكاء ، وراحت تتسائل : عم تتحدث ،

وعلى اى شئ اعذرها ؟ الا ان يكاترينا دميترييفنا كزت على

اسنانها ، واكفت بملاطفة اختها ، وتقبل يديها .

اثناء الغداء نقل نيقولاى ايفانوفيتش بصره من واحدة الى اخرى ،

وقال :

- طيب . وانا ايضا لا يجوز ان اعرف سبب تلك الدموع ؟

ردت داشا فى الحال :

- سبب الدموع هو مزاجى المتعكر . فاطمن ، ارجوك ، فانا

اعرف بنفسي ، دون معونتك ، اننى لا اساوى خنصر زوجتك ،

وجاء ضيوف فى وقت احتساء القهوة . بعد الغداء . فقرر

ليقولواى ايفانوفيتش ان من الضروري الذهاب الى احد المطاعم

بسبب حالة العائلة النفسية . واخذ كوليتشيك يتلفن الى الكراج ،

وطلبوا من كاتيا وداشا الذهاب لتتھيا للخروج . وجاء تشريفنا ، ولما عرف انھم ينوون الذهاب الى مطعم اعتراه غضب مفاجئ .
- من المتضرر في نهاية الامر بنتيجة المناامسات التي لا تنتھي ؟ الابد الروسي ، بالطبع .
الا انھم اخذوه هو ايضا في السيارة مع الآخرين .

كان مطعم «يلميرا الشمالية» مخصصا بالناس وصاحبيا . وكانت قاعته الهائلة في الطابق الارضي مترعة بالضوء الساطع المشع من التريات البلورية . وكانت المرايا - الجدران تضاعف بانعكاسھا التريات ، ودخان السيكائر ، المتصاعد من الأسفل ، والموائد المصفوفة بعضها قرب بعض ، والرجال في بذلات الفراك ، واكتاف النساء العارية ، والباروكات الملونة على رؤوسھن - خضراء ، وليلقية ، وشاذية ، والزركشة الناصعة البياض في قبعاتھن ، والابحار الكريمة ، المتلألئة على نحوھن واذانھن ، بلايا ، برتقال ، وايزي ، وياتوتي ، والتدلل المارقين في الظلام ، وشخصا مھزولا رافعا ذراعيه ، وعصاه السحرية تشق الهواء امام ستارة المخمل القرمزي ، والتماج ادوات الموسيقى النحاسية ، كل ذلك قد ضاعفته المرايا اضعافا مضاعفة ، حتى بدا وكان البشرية كلها ، والعالم اجمع يجلس في منظورات لا نهاية .

كانت داشا تراقب الموائد وهي تمتص الشماليات من خلال قصبه . ها هو رجل حليق ميودر الخدين يجلس امام جردل شمبانيا مثلج ، وتضور سراطين البحر . عيناه نصف مغمضتين ، وقمھ مزوم بازيدوا . والظاهر انه في جلستھ هذه يفكر بان الكهريساء ستنتفضن آخر المطاف ، ويموت جميع الناس ، ولا يستحق ان يفرح الانسان بشيء .

وها هي الستارة قد اهتزت ، وانفجرت الى الجانبين . وقفز الى المسرح يابانسي صغير ذو غضون مفرغسة ، ولاحث في الهواء حوله كرات زاهية الالوان ، وضجون ، ومشاعل ، وفكرت داشا مع نفسه : «لماذا قالت كاتيا : اعذريني ، اعذريني ؟» وفجأة شعرت وكان راسھا يضغط ، وقلبيها يتوقف عن الخفقان . «مفعول ؟» غير انھا هزت راسھا طاردة الافكار ، وتهدت بعمق ، واجبرت نفسها على الا تفكر بهذه «المفعول» . ونظرت الى اختھا .

كانت يكاترينا دميترييفنا تجلس في الطرف الآخر من الهائلة ، متعبه ، حزينة ، وجمييلة الى درجة جعلت عيني داشا تتلذذ بالدموع . رفعت اصبعي الى شفطيتها . ونفخت فيها خلسة . وكانت هذه اشارة متفق عليها . وقد رأتھا كاتيا وفهمتھا ، فابتسمت ببعداء ابتسامه عذبة .

وحوالي الساعة الثانية بدأ الجدل حول المكان الذي سيذهبون اليه . طلبت يكاترينا دميترييفنا ان تستأذن بالعودة الى البيت . وقال نيقولايف ايفانوفيتش انه يلتزم بقرار الجميع . وقرر «الجميع» الاستمرار في السهرة .

وعندئذ وقع بصر داشا على بيسونوف من خلال جمع الناس المتضائل . كان يجلس الى مائدة وقد وضع كوعه عليها في بقعة بعيدة ، وهو يصغي باهتمام الى الكوردين الذي كان يحدتھ عن شيء ما بجد . مخططا بظفره على غطاء المائدة ، وفي قمھ سيكاره نصف مضغوطة . وكان بيسونوف ينظر الى ذلك الظفر المتحرك . كان وجهه شاحبا يادئ الاستغراق . وبد لداشا انها سمعت من خلال الصخب : «نهاية ، نهاية لكل شيء» . ولكن نادلا تتريا عظيم البطن حجبتها كليھا عن بصرھا في اللحظة التالية . نهضت كاتيا ونيقولايف ايفانوفيتش ، وناديا على داشا ، والغضول والانفعال ما برحسا يعذبانھا .

خرجوا الى الشارع فاذا بالقرس يباغتھم برائحة متعشة حلوة . كانت النجوم تتلألأ في السماء السوداء الليلية . وسمعت داشا من ورائھا شخصا يقول بضحكة مقتضبة : «ياھا من ليلة فاجرة على نحو شيطاني !» وتقدمت السيارة من الرصيف ، وطلع من ورائھا من شمامة البنزين المحروق رجل رث الثياب ، واختطف طاقيته ، وبحركة راقصة فتح باب السيارة امام داشا . القت داشا نظرة عليه ، وهي تدخل ، فرأته رجلا نحيفا ، وجهه غير حليق ، وقمھ معوج ، وجسمه كله يرتعش ، وكوعامه مضمفوطان على جيبتھ .

- تھاني على الامسية السعيدة في معبد الترف وملسذات الحواس !

هتف الرجل بصوت اجش وبحيوية ، ولفق بحذق قطعة نقود

صغيرة القيت له ، وادى التحية بطاقيته الممزقة . وشعرت داشا
وكان عينيه السوداوين الغاضبتين تخدشانهما ينظرتهما .

وصلوا الى البيت في ساعة متأخرة . استلقت داشا في السرير
على ظهرها ، ولكنها لم تنم ، بل هومت ما بين اليقظة والنوم ، وكان
جسمها كله قد تغدر تغيا شديدا .

وفجأة ازاحت الدثار عن صدرها بانة ، وفتحت ، وفتحت
عينيهما . كانت الشمس تسطع على النافذة على ارض الغرفة ... «يا
الهي اى رعب كان منذ لحظة ؟» وكادت تبكي من شدة الفزع ،
ولكن حين استجمعت شتات نفسها كانت قد نسيت كل شيء . ولم
يبق الا ألم في القلب من حلم رهيب كرهه .

خرجت داشا ، بعد الفطور ، الى الدراسة ، وسجلت اسمها
لتقدم امتحانا ، واشترت بعض الكتب ، وانعمرت في حياة عملية
صارمة حقا حتى وقت الغداء . ولكنها في المساء اضطرت مرة اخرى
ان تلبس جوربا حريريا (في الصباح كانت قد قررت ان تلبس
جوارب قطنية فقط) ، وتبدر يديها وكتفها ، وتعيد تصفيف
شعرها . «جميل لو استطع ان ارتب عقدة من الشعر في قفاى ذلك
لان الجميع يصيحون : اعطى تصفيفه شعر عصرية ، وكيف عملها
والشعر يتهافت تلقائيا» . وباختصار عذاب في عذاب . والتقطت
عينها بقعة من اثر الشمبانيا في مقدمة ثوبها الحريري الازرق
الجديد .

وفجأة شعرت بأسف شديد على هذا الثوب ، بل وعلى حياتها
الضائعة ، حتى انها جلست وفي يدها تنورتها التالفة ، وراحت
تنطح . مد نيقولاي ايفانوفيتش رأسه من الباب ، غير انه رأى
داشا في قميصها الداخلي تجلس باكية ، فاستدعى زوجته . جاءت
كاتيا راكضة ، واختلطت الثوب وقالت «لا تفرعى» ستزول اللطخة في
العالم» . ونادت المغولى العظيم ، فجات هذه بينزين وماء ساخن .
ونظف الثوب ، وارادته داشا . وزعت نيقولاي ايفانوفيتش
من الرواق غاضبا : «انه العرض الاول ، ولا يجوز التأخر» . ولكنهم
ناخروا عن بداية المسرحية ، بالطبع .

جلست داشا في المقصورة الى جانب يكاترينا ديمتريفنا .
فشاهدت على المسرح رجلا ضخما ذا لحية مستعارة ، وعينين

متسعيتين على نحو غير طبيعي يقف تحت شجرة مسطحة يقول لفتاة
في رداء وردي زاه :

«احبك ، احبك» وامسك الرجل يدها ، ورغم ان المسرحية لم
تكن شجيرة ، الا ان داشا كانت تغالبها العبوة طوال العرض ، مشفقة
على الفتاة ذات الرداء الوردى الزاهي ، وكان يؤلها ان سير
المسرحية لا يجرى هذا المجرى . فقد اتضح من سياقها ان الفتاة
قد تجبه ولا تجبه . كانت تجابه عناقه بضحكة حورية الماء ، وتهرب
الى وفد كان ينظرونه الابيض يلوح في آخر المسرح . امسك الرجل
برأسه ، وقال انه سيحرق مخلوطة ما ، عمل العصر كله ، وينتهي
الفصل الاول من المسرحية .

جاء معارف الى المقصورة ، وبدا حديث مألوف ، سريع ،
ومنتشط .

وصف شينبرغ المسرحية بأنها مشوقة . وشينبرغ رجل ضئيل
الجسم اصلع الجمجمة ، ذو وجه حليق متعفن يبدو وكأنه يوشك
طوال الوقت ان ينط من ياقته المنشأة .

- مشكلة الجنس مرة اخرى ، ولكنها مطروحة بحددة .
والبشرية يجب ان تتخلص من هذه المسألة اللعينة في نهاية الامر .
فرد عليه بوروف ، المحقق في القضايا الهامة جدا ، وهو
رجل ضخم جهم ، ليبرالى النزعة ، هربت زوجته في عيد الميلاد مع
صاحب اسطبل لخيول السباق :

- ذلك يتوقف على الاشخاص . فالمسألة بالنسبة لى
محلولة . المرأة تكذب بجوهر وجودها ذاته ، والرجل يكذب بمعونة
الفن . المسألة الجنسية حقارة محض ، والفن هو احد انواع الجرم
الجنائى .

فهقه نيقولاي ايفانوفيتش ، وهو ينظر الى زوجته . فتابع
بوروف حديثه بكآبة :

- حين يحين الوقت يصنع الطائر بيضة ويؤدهى الذكر بذيل
زاه . وهذا كذب ، لان ذيله الطبيعي رمادى وليس زاهيا . وعلى
الشجرة تنفتح زهرة ، وهذا كذب ايضا ، خداع ، والحقيقة هناك ،
في الجذور الشموها ، تحت الارض . والانسان اكثر المخلوقات كذبا .
فالزعرور لا تنمو عليه ، وليس له ذيل يؤدهى به ، فيضطر الى ان

يستخدم لسانه : ما يسمى بالحب كذب مضاعف ومقرف ، وكذلك كل ما لف حوله . انها اشياء محاطة بالقموض فقط للفتيات في سن غضة - ورمق داشا يظرف عينه - وفي زماننا المتقل بالجماعة ينشغل الجديون من الناس بهذه السخافة . اجل ، ان الدولة الروسية تعانى من قساة المعدة .

وانكب على علية الحلويات بتقطيبة مرضية ، وحشر بأصبعه فيها ، ولم يقع اختياره على قطعة ، ورفع الى عينيه منظارا بحريا كان متعلقا بسير من رقبته .

وتحول الحديث الى الركود في السياسة والرجعية . وقص كوليتشيك بهمس منفعل آخر فضيحة في البلاط .

فقال شينبيرغ بسرعة :

- فطاعة ، فطاعة .

ولعلم نيقولاى ايفانوفيتش ركبته ، وقال :

- نحن بحاجة الى ثورة ، ايها السادة ، الى ثورة فورا . وإلا فسنختنق كليا . وعندي معلومات - وخفض هنا صوته - في المصانع اضطراب شديد .

طارت اصابع شينبيرغ العشر كلها في الهواء من شدة الانفعال .

- ولكن متى ، متى ؟ من المستحيل ان ينتظر الانسان الى ما لا نهاية .

فقال نيقولاى ايفانوفيتش بمرح :

- سنرى حتما ، يعقوب الكسنندروفيتش ، وسنشهد لك وزارة العدل يا صاحب المعالي .

سئمت داشا من الاستماع الى هذه القضايا ، والشواتر ، والمناصب الوزارية . وضمت كوعا على مخمل المقصورة ، وطوقت باليد الأخرى خصر كاتيا ، وحدقت في قاعة المسرح ، عازة رأسها لمعارفها بابتسامة بين العين والآخر . كانت داشا تعرف وترى انها واختها موضع اعجاب الناس ، فكانت تلك النظرات المندمسة بين جمع الناس - نظرات الرجال الرقيقة ، ونظرات النساء الحاقنة - وتنف العبارات ، والابتسامات تخلف في نفسها ما يخلفه هواء الربيع من احساس بالسكر . ووزايلها مزاجها الباكى . ودغدغت خصلة من شعر كاتيا خدها قرب اذنها .

همست داشا :

- كاتيا ، انا احبك .

- وانا ايضا .

- هل انت مسرورة لأننى اعيش معك ؟

- جدا .

وفكرت داشا بشئ آخر لطيف تقوله لكاتيا . وقبحة وقع بصرها على تليغين في الأسفل . كان واقفا يرتدى ستره سوداء ، ويحمل في يديه ثعبته ، وبرنامج العفلة ، وكان منذ وقت طويل يختلس النظر الى مقصورة آل سموكونفنيكوف ، دون ان يرفع رأسه مخافة ان يلاحظ . وكان وجهه الملوح القوي يبرز واضحا بين الوجوه الأخرى اما لشمته بياضها ، او هزالها . وكان شعره أكثر شقرة مما كانت تتصوره . فقد كان بلون الشوفان .

التقت عيناه بعيني داشا فانحنى تحية لها في الحال ، ثم استدار ، الا ان قبضته سقطت منه . ولما انحنى ليرفعا ، اصطنع بسيدة بديئة جالسة في مقعد وثير ، فاخذ يعتذر ، وصعد الدم الى وجهه ، وتراجع وداس على قدم محرر المجلة الجمالية «جوتسة النوزيات» . قالت داشا لاختها :

- هذا هو تليغين .

- آراه ، انه لطيف جدا .

- من لطفه وددت لو اقبله . ليتك تعرفين اى ذكاء له ، يا

كاتيا .

- داشا ، هذا . . .

- ماذا ؟

الا ان اختها صمتت . وفهمت داشا فصمتت ايضا . وعاد قلبها الى انقباضه ، وسرى الاضطراب داخل قوتحتها . سرحت حثيئة ، وبعد ان نظرت من جديد الى تلك الاعماق ، رأت الظلام والرهبة هناك .

وحين انطفأت الانوار ، وانفجرت الستارة على الجانبين ، تنهدت داشا ، وكسرت كسرة من شوكلاته ، ووضعتها في فمها ، واخذت تصفى بانثباه .

مازال الرجل ذو اللحية المستعارة يهدد بحرق المخطوطة ،

والفتاة تسخر منه ، وهي جالسة الى البيانو . وكان واضحا ان من الضروري ان تتزوج هذه الفتاة باقضى سرعة ممكنة ، لكي لا يجرب الحبل خلال ثلاثة فصول .

رفعت داشا عينيها الى سقف القاعة ، فرات عليه صورة امرأة حسناء نصف عارية تطير بين السحب ، وعلى ثغرها ابتسامة صافية . وقالت لنفسها : « يا آلهي ، ما اشبهها بي ! » وفي الحال رأت نفسها بعين اخرى : مخلوقة في مقصورة تاكل الشوكولاته ، وتكذب ، وتتورط ، وتنتظر ذلك الشيء غير المألوف يحدث من تلقاء نفسه . ولكن لا شيء يحدث « ولا حياة ! حتى اذهب اليه ، واسمع صوته ، واحس بكل كيانه . اما سائر الاشياء فكذب . المهم ان يكون المرء نزيهاً .

ومنذ ذلك المساء كفت داشا عن التردد . لقد عرفت الآن انها لا بد ذاهبة الى بيسونوف ، وخشيت تلك الساعة . عزمته مرة ان تسافر الى ابوها في سامارا ، الا ان فكرت بان الالف والخمسمائة كيلومتر ، لا تحميها من الغواية ، فهزت يدها ، وكانها تقول وليكن ما يكون .

وحققت انوثتها العذراء الناضجة بالعافية ، ولكن ما كان في وسعها ان تفعل شيئا ازاء «الشخص الثاني» في داخلها اذا كان العالم كله يعينه عليها ، واخيرا كان مهينا على نحره لا يطاق ، ان تعذب وتفكر طويلا جدا بيسونوف هذا ، الذي لا يريد حتى ان يعرفها ، ويعيش خالي اليال مستمتعاً بحياته في مكان قرب جادة كامينواوستروفسكي ، وينظم الاعمار عن فنانة تردى تنورات مدتلة . بينما هي ، داشا ، قد امتلأت به الى آخر قطرة ، وذابت فيه .

واخذت داشا ، الآن ، تعتمد تصنيف شعرها مبسطة ، وتلله كالعقدة على عليائها ، وتلبس ثوبا قديما - مدرسيا - جلبته من سامارا ، وتستظهر القانون الروماني حزينة جهما ، ولا تخرج الى الضيوف ، وتمتنع عن التسليات . ولكن التمسك بالنزاهة لم يكن بالأمر الهين كما تبين . فقد جنت داشا في الواقع .

في مساء منعش البرودة في بداية نيسان ، سارت داشا من الجزر الى البيت ماشية ، وكان الغروب قد خفت ، وشععت السماء

الليلقية الضاربة الى الخضرة ، بنور فسفوري ، دون ان تلقى ظللا .

في البيت قالت داشا انها ذاهبة للدراسة ، وفي الحقيقة انها ركبت الترام الى جسر يلاغين ، وقضت المساء كله تجوب الممرات الجرداء الاشجار ، وتعبير القناطر ، وتنتظر في الماء ، وفي الاغصان الليلية المسطحة في وهج الغروب البرتقالي ، والى وجوه المارة ، والى اضواء العربات ، وراه جذوع الاشجار المطعبلية . وكان فكرها خاليا ، وخطواتها متندة .

كانت السكينة ترين على نفسها ، وهواء البحر الربيعي العالج قليلا يتغلغل في كل كيائها . تعبت قدمها ، ولكنها لم ترد ان تعود الى البيت . كانت العربات تنطلق عدوا في جادة كامينواوستروفسكي ، وتقرق السيارات مرققا ، وبتمشي المتزهون جماعات متبادلين النكات والضحكات . وانعطفت داشا في شارع جانبي .

كان الشارع هادئا تماما وخاليا . وكانت السماء فوق سقوف البيوت خضراء . وكانت الموسيقى تتسرب من خلال الستائر المسدلة في كل بيت . في هذا البيت يتعلم احد عزف سوناتة ، ومن ذلك تأتي موسيقى فالس مألوفة اليفة ، ومن تلك النافذة للعملية المصطبغة بجمرة الغروب الكامدة صدح كمان .

وشعرت داشا ، وقد افعمت الاصوات قلبها ، بان كيائها كله يترنم ايضا ، ويغن . وبدا وكان جسدها قد اسمى خفيفا تقيا . استدارت في منعطف ، وقررت رقم دار على الحائط ، وتبسمت . وتقدمت من بابها الامامي الذي دقت عليه تحت راس اسد برونزي بطاقة زيارة كتب عليها « ا . بيسونوف » . وقرعت الجرس بقوة .

V

كان الحاجب في مطعم «فيينا» يساعد بيسونوف على خلص معطفه ، فقال له بلهجة ذات معنى :

- يا الكسي الكسيفيتشي ، ان شخصا ينتظرلك .

- من ؟

- انسى .

- من هي ؟

- لا نعرفها .

سار بيسونوف الى الركن القصى من قاعة المطعم ، وهو يشلر فوق الرؤوس بعينين فارغتين . احبى لسكوتكين رئيس النادل سبلتيه الجانبيتين الشيباوين على كتفى بيسونوف ، وقال ان طبق اليوم الممتاز هو من لحم الضأن . فقال له بيسونوف :

- لا اريد ان اكل ، قدم لى بيئدى الابيض المفضل .

وجلس يادى الوقار ، مرفوع الصدر ، واضعا يديه على الخوان . فى هذه الساعة ، وفى هذا المكان كانت تنتابه فى العادة حالة متكررة من الالهام الكئيب . كانت جميع انطباعات اليوم تندمج فى شكل منسق مدرك ، وفى داخله ، فى اعماق المتأججة بعزف الكمانات الرومانسية ، وروائح العطور النسائية ، واحتباس الهواء فى قاعة المطعم المكتظة بالناس كان يظهر ظل لهذا الشكل الاثى من الخارج ، وهذا الظل هو الالهام . وكان يشعر بانه يتوصل الى المعنى الخفى للاشياء والكلمات بحاسة تلمس داخلية عمياء .

رفع بيسونوف قذح التبيد ورشف منه دون ان يباعد بين اسنانه . كان قلبه يخفق ببطء ، وكان يخامر شعور بالراحة لا يوصف متغلغلا فى كامل كيانه المتشبع باصوات الموسيقى والناس .

وعلى مائدة مقابلة قرب المرأة كان يعثى سابوجكوف ، وانتوشكا ارنولدوف ، ويلزافيتا كييفنا . وكانت هذه قد ارسلت الى بيسونوف بالأمس رسالة طويلة ، وحددت له موعدا للقاء هنا ، وهى الآن جالسة محمرة متفعلة . كانت ترتدى ثوبا من قماش مخطط بالاسود والاصفر ، وتضع فى شعرها عقدة بهذا اللون . وحين دخل بيسونوف احسبت بضيق فى نفسها .

- كوني على حذر ، انه هجر النائفة ، وهو الآن من غير امرأة ، وخطير ، كالنسر ، - همس لها ارنولدوف كاشفا راسا عن اسنانه الذهبية والمسوسة .

وضحكت يلزافيتا كييفنا ، واهتزت عقدتها المخططة ، وسارت بين الموائد الى بيسونوف ، تحت نظرات الناس وتكثيراتهم .

اوضحت حياة يلزافيتا كييفا فى المدة الاخيرة مضجرة للغاية ، كانت الايام تتابع دون ما عمل تتغير به ، ودون اصل فى حال افضل . وبكلمة واحدة سام محض . وكان واضحا ان تليفين ينفر منها . كان يعاملها بلطف ، ولكنه كان يتجنب ان يتحدث اليها او يلتقى بها على افراد . بينما كان هو يشعر بانها بحاجة اليه بالذات . فكانت ، اذا تردد صوته فى الرواق ، تحددق فى الباب تحديقة نافذة . وكان يسير فى العمر على اطراف اصابعه دائما . بينما كانت هى تنتظر ، واجمة القلب ، والباب يتراى ذائبا امام بصرها ، الا انه كان يمر بها ، شأنه كل مرة ، دون ان يتوقف ليطلق الباب على الاقل ويطلب عود تقاب .

قبل بضعة ايام اشترت احد كتب بيسونوف ، مناكدة جيروف الذى كان يعيب كل شىء فى هذه الدنيا بعنقز قط ، قطعت اوراق الكتاب بمكواة الشعر وقرأته عدة مرات متتابة ، ودلقت عليه القهوة ، وجعدته وهى تقرأ فى السرير ، واخيرا اعلنت ، عند الغداء انه عميرى . . . انفلع نزلاء شقة تليفين . ووصف سابوجكوف بيسونوف بانه دملة فى جسم البرجوازية المتفسخ ، وتضخ عرق على جبين جيروف . وكسر الرسام قلوبت صحننا . وبقي تليفين وحده غير ميد اهتماما . وعند ذلك حدث فى نفسها ما يسمى «الحظنة استغزاز النفس» . فراحت تفقهه ، وذهبت الى غرفتها ، وهناك كتبت الى بيسونوف رسالة متحمسة سخيفة ، تطلب فيها ان تلتقى معه ، وعادت الى غرفة الطعام ، والقت الرسالة على المائدة ، صامتة . قرا النزلاء الرسالة بصوت عال ، وتناقشوا طويلا . وقال تليفين :

- رسالة جريئة جدا .

عندئذ سلمت يلزافيتا كييفنا الرسالة الى الطباخة ، لترهيبها فى صندوق البريد فى الحال . وشعرت بانها تندفع فى هاوية . والآن ، وهى تتقدم من بيسونوف ، باذنه قائمة بخفة :

- كتبت لك ، فحجت . شكرا .

وجلست قبالة في الحال ، مديرة جنبها الى المائدة ، واضحة
ساقا على ساق ، مركزة كوعها على الخزان ، مستندة ذقتها على راحة
يدها ، وانفثت تنظر الى بيسونوف يعيشها المرسومتين على ما
تبدوان . لزم بيسونوف الصمت . جلب النادل قنعا ثانيا ، وصب
فيه النبيذ ليلزافيتا كيفنا : قالت الفتاة :

- ستمسال ، طبعاً ، لماذا اردت ان اراك .

- لا ، لن اطرح هذا السؤال . اشربني نبيذك .

- انت محب ، فليس عندي ما اقوله . انت تحبها ، يا

بيسونوف ، وانا لا . مجرد اثني ضجرة .

- ماذا تمارسين ؟

- لا شيء . - وضجكت ، وصعد الدم الى وجهها في الحال . -

يضجرتي ان اصبح محظية . انا لا اعمل شيئاً . انا في انتظار ان

تصدق ابواقى ، ويندلع الوهج . . . ابيدو ذلك غريباً لك ؟

- ومن انت ؟

لم تجب ، واطرقت براسها ، وازداد احمرار وجهها ، ثم

همست :

- انا طيف .

ابتسم بيسونوف ابتسامة متكلفة ، وفكر مع نفسه : « بلهاء
انها بلهاء » . الا ان لشعرها الذهبي مفرقاً محبباً للنفس ، مفرق
آنسمة ، وبدت كثفها الممثلتان المكشوفتان بشدة نقيتين حتى
ان بيسونوف ابتسم مرة اخرى اكثر طيبة ، ومص قدح النبيذ من
خلال اسنانه ، وتولدت في نفسه رغبة مفاجأة في ان ينثف على هذه
الفتاة الساذجة دخان خياله . فذكر لها ان ليل العقاب الرهيب في
سبيله الى ان يخيم على روسيا ، وانه يتحسس ذلك ، بامارات
خفية منحوسة .

- لا يد انك قد شاعدت في المدينة اعلاناً ملصقاً على

الجدران يصور شيطاناً مقهقها يتدفع هابطاً سلماً هائلاً على اطار

سيارة . . . اتفهمن ما يعنى هذا ؟

نظرت يلزافيتا كيفنا الى عينيه الثلجيتين وقمه الانثوي ،

وحاجبيه النحيلين الرفوعين ، والى ارتجاف اصابعه الخفيف وهي

تحمل القدح ، والى احتسائه النبيذ بنهم وببطء . ودار راسها

دورانا ممتعا . وعلى مسافة بعيدة بدا ساوبوجكوف يرسل الايماءات
ليها . وفجأة التفت بيسونوف ، وسال عبوساً :

- من هؤلاء الناس ؟

- انهم اصدقائي .

- لم تعجبني ايماءاتهم .

عندئذ قالت يلزافيتا كيفنا دون ترو :

- لنذهب الى مكان آخر ، الا ترهب ؟

تقرس بيسونوف فيها ، كانت عينها محولتين قليلاً ، وفيها

يفتر عن بسمة خفيفة ، وقد ظهرت حبات عرق صغيرة على

صدغيتها . وفجأة احس بلهفة الى هذه الفتاة القوية والمعافة

القصرية النظر ، فامسك بيدها الكبيرة الحارة التي كانت مستقرة

على المائدة ، وقال :

- اما ان تصبري الآن . . . واما ان تلزمني الصمت . تعالى -

من الضروري التصرف على هذا النحو .

اكتفت يلزافيتا كيفنا بان ارسلت زفرة قصيرة ، وغاض

الدم من وجنتها . ولم تشعر كيف تهضت ، وامسكت بيسونوف

بيدها ، وسار الاثنان بين الموائد . وحين جلسا في العربة لم

تستطع الريح نفسها ان تبرد جلدها الملهتهب . قرقعت العربة

على بلاط الشارع . استند بيسونوف على مقبض عصاه بكتلتا

يديه ، ووضع حنكه عليهما ، وقال :

- عمرى خمسة وثلاثون عاماً ، ولكن الحياة انتهت ولن

يخدعني الحب بعد الآن . اى شيء اكاب من ان يكتشف المرء فجأة

بان جواد الفارس ما هو الا حصان من خشب ؟ وما يزال الى الامام

وقت طويل جدا - اجرجر نفسي في هذه الحياة كالجيشة - والتفت

وانفجرت شفقتاها عن بسمة هائلة - يبدو ان على ايضا ان انتظر

مشك حتى تصدح ابواق اربعا . حسناً ، جميل لو يرتفع فجأة من

هذه المقبرة صداح ابواق ! وينتشر الوهج في ارجاء السماء . . .

نعم ، يبدو انك على حق . . .

وصلا الى فندق خارج المدينة . قادها النادل الناعس عبر

دهليز طويل الى الغرفة الوحيدة التي بقيت شاغرة . وهي غرفة

واظنة السقف اوراق جدرانها حمران ، مشمقة ، مبقة . وكان ثمة

سرير كبير قد وضع عند الجدار تحت ظلييلة حائلة اللون ، وعند
قدمي السرير مقسلة تصديرية . وكانت الحجرة تفتح برطوبة
محيوسة ، وعطن تبغ . سألت يلزافيتا كيفنا ، وهي عند الباب ،
بصوت لا يكاد يسمع :

- لماذا جئت بي الى هنا ؟

سأوع بيسونوف بعيب :

- لا ، لا ، سنرتاح هنا .

خلع معطفها ورتبعتها ، ووضعها على مقعد مخلوع . جلب
النادل زجاجة شمبانيا ، وتفاحات صغيرة ، وعنقود عنب معفر
بالشمارة الفليشية ، ونظر الى المغسلة ، واختفى عبوسا كما كان .
أزاحت يلزافيتا كيفنا الستارة عن النافذة ، فزات مصباحا
غازيا يضيء وسط العراء الرطب ، وصهاريج ضخمة يسوقها أناس
متكورون تحت ظليلات الخيش . ابتسمت بكأبة وأقبلت على
المرأة ، واخذت تسوى شعرها بحركات جديدة غير مألوفة اليها
نفسها . وفكرت مع نفسها هادئة : «غدا حين أئوب الى رشدي ،
أجن» وعذلت العقدة المخططة . سال بيسونوف :

- اتريدن نييذا ؟

- نعم ، اريد .

جلست على الاريقة ، وأتمى هو عند قدميها على البساط ،
وقال في تأمل :

- ان لك لعينين مخيفتين : وحشيتين وبديعتين . عينتان
ورسيتان . اتحبينني ؟

وعاودها الدهول مرة اخرى ، الا انها حدثت نفسها في اللحظة
التالية : «لا ، ذلك هو الجنون بعينه» . تناولت القمح من يديه ،
مترعا بالنبيذ ، وشربت ، وفي الحال دار رأسها ببطء ، وكانها
تنهار . قالت وهي تتسمع كلماتها وكانها ليست كلماتها وكانها تتردد
من بعيد :

- انتي اخاف منك ، وسأكرهك لا بد لا تنظر الى هكذا ،

تخجلني .

- انت فتاة غريبة .

- بيسونوف ، أنت رجل خطير جدا . انا من عائلته على

المذهب الديني القديم ، وانا اؤمن بوجود الشيطان . . . اوه ، يا آلهي ،
لا تخدق بي هكذا . انا اعرف ، لماذا اردتني . . . انا اخشاك .

وضحكت بصوت عال ، وارتج كل جسدها من ضحكها ،
وطرطس النبيذ من القمح في يدها . وانزل بيسونوف وجهه على
ركبتها . وقال بصوت يئس ، وكان خلاصه كله الآن في يديها :

- احبيني . . . اتوسل اليك ان تحبيني . . . انا مرهق . . .

واحس بالرغبة . . . رهبة الوحدة . . . احبيني . . . احبيني . . .

وضعت يلزافيتا كيفنا يدها على رأسه ، واطمضت عينها .
قال انه في كل ليلة تتملكه رهبة الموت . ويجب ان يستشعر
وجود انسان قريبا منه ، الى جانبه ، يأسو له ، ويدفؤه ، ويهب
نفسه له . ذلك عقاب ، عذابات . . . «نعم ، نعم ، اعرف . . .
ولكنني قد فقدت الحس بسبب البرد . وقلبي قد توقف . ادفئيني .
انا بحاجة الى القليل . واشفقني على ، فانا اموت . لا تتركيني
وحيدا ، ابنتا الفتاة الطيبة ، الطيبة . . .»

صمتت يلزافيتا كيفنا رعبا واضطرابا . بينما راح
بيسونوف يقبل راحتيها بقلبات تزداد طولا . وصار يقبل ساقها
الكبيرتين القويتين . شدد الفتاة على نفسها اقوى ، وبدأ وكان
قلبا قد توقف من الخجل الشديد .

ونفجاة لفت نار صغيرة كل كيانها . فقد صار بيسونوف يبدو
قريبا الى النفس ، بالناس . . . رفعت رأسه قليلا ، وقبلت شفتيها
بقوة وبهم . وبعد ذلك وقد زابلها الخجل خلعت ثيابها بعجالة ،
واضطلجت على السرير .

وحين غفا بيسونوف ، واضعا رأسه على كتفها العارية ، ظلت
تحدق طويلا بعينيها قصيرتي النظر في وجهه الشاب الصفر الذي
انتشرت تجاعيد التعب عليه كله ، على الصدغين ، وتحت الجفنين ،
وعند الفم الطبقى . وجه غريب ، ولكنه الآن حبيب الى الأبد .

كان النظر الى النائم متعبا جدا حتى ان يلزافيتا كيفنا اخذت
تبكي .

تصورت ان بيسونوف ، اذا ما استيقظ ، ورأها في السرير ،
ممتلئة ، غير جميلة ، ذات عينيّن منتفختين من البكاء ، فأنه
سيسعى الى التخلص منها في الحال ، ولا يمكن ان يعيها شخص

بعد الآن ، وسيتيقن الجميع من انها امرأة متحللة ، يلهاء ، رخيصة ، وانها ستتعهد ان تفعل كل ما من شأنه ان يجعلهم الى التفكير بانها تحب رجلا واحدا ، بينما منحت نفسها لرجل آخر ، وهكذا ستكون حياتها دائما مملوءة بالكدر والقذارة والاهانات الموجهة . اخذت يلزافيتا كيينفا تنتحب بحذر ، وتمسح عينيها بظرف المقرش . حتى غلبها النوم ، على هذه الحال ، والدموع في عينيها .

استنشقت بيسونوف الهواء من نفسه بعمق ، واستدار الى ظهره ، وفتح عينيها . كان جسمه كله يئن تحت وطأة انقباض لا يوصف من خمار البارحة . وكان من المقرف التفكير بضرورة الشروع في يوم جديد . امعن النظر طويلا في كرة السرير المعدنية ، ثم تجرد على النظر الى يساره . كانت امرأة تنبطح الى جانبه ، على ظهرها ايضا مغطية وجهها بكوعها العاري .

«من هي؟» وشحن ذاكرته المضطربة ، غير انه لم يتذكر شيئا . سحب علبة سنيكائره من تحت الوسادة بحذر ، واشعل سيكارة «اوه ، يا للشيطان ! نسيت ، نسيت ، فو ، فطاعة» .

قال بصوت متلطف :

- يبدو انك قد استيقظت . صباح الخير .

لزمتم المرأة الصمت ، ولم ترفع كوعها . فتاجح يقول :

- بالأمس كنا غريبيين ، ونحن اليوم مربوطان بالعرى الخفية لهذه الليلة .

وتعيس . كان كل ذلك نوعا من الابتدال . والشئ الرئيسي انه لا يعرف ماذا ستفعل الفتاة الآن . اتبدي ندما وتبكي ، ام يستولى عليها فيض من مشاعر القربى ؟ مس كوعها بحذر . وتنحى . يبدو ان اسمها مارغريت . قال مهموما :

- هل انت غاضبة ، يا مارغريت ؟

عندئذ جلست مستندة على الوسائد ، واخذت ترقمه بعينيها الجاحظتين الضميرتي النظر ، وهي تمسك على صدرها قميصها الليلي الساطع . كان جفناها منتفخين ، وفيها الممتلئ ، معوجا في ابتسامة هازلة . وتذكر كل شيء واحس برقة كرقعة اخ . قالت :

- لست مارغريت ، بل يلزافيتا كيينفا . انا امقتك . انزل من السرير .
انسل بيسونوف من تحت الغطاء فورا ، واخذ يرتدى ملابسه ، على نحو ما ، وراء سدل السرير ، قرب المغسلة العفنة ، ثم ازاح الستارة عن النافذة ، واطفا الصباح الكهربائي . وتمتم :

- هناك لحظات لا تنسى .

ظلت يلزافيتا كيينفا تتابعه بعينيها الداكنتين . وحين جلس على الاريكة يدخن سيكارة ، قالت ببطء :

- ساذهب الى البيت ، وساسم نفسي .

- انا لا افهم مزاجك ، يا يلزافيتا كيينفا .

- لا احتاج الى ان تفهمي . اخرج من الغرفة ، فانا اريد ان ارتدى ثيابي .

خرج بيسونوف الى الدهليز حيث كان يسرى تيار قوى مسن الهواء ، وتفوح رائحة غاز الكاربون . واضطر الى الانتظار طويلا . فجلس على افريز النافذة يدخن . ثم سار الى نهاية الدهليز ، حيث تنهات اليه من مطبخ صغير اصوات واطقة لتادل وخادمتين يتبادلون الحديث ، وهم يحتسون الشاي ! قال النادل :

- ملات اسماعنا يقريتك . انها ليست روسيا . انت لا تفهمين شيئا ! تجولي ليلا في الغرف ، وستترين روسيا امامك . الجميع اوغاد . اوغاد واوباش .

- كن ارق في تعابيرك ، يا كوزما ايفانيتش .

- اذا كنت تعمل في هذه الغرف ثمانية عشر عاما ، فمعنى ذلك ان لي حقا في ان اتكلم هكذا .

فقل بيسونوف عائدا ، فرأى باب غرفته مفتوحا ، والغرفة قارعة . وكانت ثبعته ملقاة على الارض .

وفكر : «ليكن . هذا افضل» ، وتثاب ، وتمطى معدلا عظامه .

وهكذا بدا يوم جديد . وكان يختلف عن اليوم الفائت بان زيجا قوية منذ الصباح بددت السحب الممطرة ، وساقتها نحو الشمال ، فتلبدت هناك كتلا بيضاء واسعة . كانت المدينة المبللة تضرر بسيول باكرة من نور الشمس وكانت الغيلان الهلامية الخفية

عن العين - نزلات البرد والسعال ، والعلل الخبيثة ، وعصيات
السل السوداء تتكور على نفسها ، وتشوى ، وتغيب عن الوعي ،
وحتى الميكروبات شبه الغامضة للنيورستينا السوداء لذات وراء
الستائر ، في ظلام الغرف والاقبية الرطبة . وكانت ريح خفيفة
تهب على الشوارع . وفي البيوت كانت النوافذ تنظف وتفتح . وكان
البوابون في قصاتهم الزرق يكسسون الارصفة . وفي جادة نيفسكي
كانت فتحات الشوارع ذات الوجوه المنضرة يعرضن للسايبة
باقات من زهور الثلجية المعطرة بانواع رخصه من ماء الكولونيا .
وفي المخازن كان يرقع ما هو شتوي على عجل ، وتظهر في الواجهات
الاشياء الربيعية البهيجة مثل الازهار الاولى .

طلعت صغف ما بعد الظهر كلها تحبل العناوين : «مرحبا
بالربيع الروسي» . وكانت بعض القصائد اذواجية المعنى بشكل
بالغ . وباختصار استقبلت الرقابة .

وفي آخر الامر سار في شوارع المدينة المستقبلية من
جماعة «المجمع المركزي» وسط صيف الاولاد وصيحاتهم . وكانوا
ثلاثة : جبروف ، والرسم فالت ، واركادي سيميسفيتوف الذي
لم يكن معروفا لاحد آنذاك ، وهو شاب طويل القامة له وجه
حصان .

كان هؤلاء المستقبليون يرتدون بلوزات قصيرة بلا احزمة من
المخمل البرتقالي اللون المخطط بخطوط ملتوية سوداء ، وقد حمل
كل واحد منهم منظارا احادي العدسة ، ورسم على خده سمكة ،
وسهما ، وحرف «ر» . وفي حوالي الساعة الخامسة اعتقلهم مفتش
الشرطة في منطقة ليتينايا ، وحملهم في عربة الى مركز الشرطة
للتحقيق في هوياتهم .

كانت المدينة كلها قد خرجت الى الشوارع . سارت العربات
اللامعة وسيول الناس في شارع مورسكايا ، والكورنيش ، وجادة
كامينواومستروفسكي . وكانت كثرة كاثرة من الناس تتصور ان
شيئا غير اعتيادي لا بد سيحصل اليوم : لما ان يوقع على بيان
في قصر الشتاء ، او يسنف مجلس الوزراء بقنبلة ، او عموما
«سبيدا» في مكان ما . . .

الا ان الغسق قد خيم على المدينة ، واهيئت الانوار على طول

الشوارع والقنوات عاكسة على الماء الاسود ابرا متعرجة من الضوء .
ولاح غروب هائل ، داخن غائم ، من على جسور النيفا وراء مداخن
مصانع انشاء السفن . ولم يحصل شيء . وومضت آخر لمعة على
اشبيل قلعة بطرس وبولس ، وانتهى النهار .

عمل بيسونوف في هذا النهار كثيرا وبشكل طيب . انعشته
الانفاعة بعد القطور ، فاخذ يطالع جوته طويلا ، وقد اثارته
المطالعة واقلقتة .

سار بين رفوف الكتب ، وفكر بصوت مسموع ، وجلس بين
الحين والآخر الى مكتبه يسجل الكلمات والاييات . جلست مدبرة
البيت العجوز التي كانت تعيش معه في شقة العزوبة ابريقا من
الصيني يتصاعد منه بخار قهوة الموكا .

كان بيسونوف في لحظات من التبعل . فقد كتب ان الليل
يخيم على روسيا ، وتنفج ستارة الامساء ، والشعب الذي يعبد
الله يتحول بمعجزة شان القوزاني في قصة غوغول «الانتقام
الرهيب» الى متمرد على الله ، ويرتدي قناعا رهيبا . ويجري
الاعداد للاحتفال بالقداس الاسود على نطاق الشعب كله . وتنفج
الهاوية . وما من خلاص .

انقض عينيه وتصور حقولا مقفرة ، وصلبانا على المدافن ،
وسقوبا يبددها الريح ، وفي المدى البعيد ، وراء التلال ، هالة
نيران الحرائق . امسك راسه بكلتا يديه ، وفكر بانة على هذه
الصورة بالذات يجب تلك البلاد التي عرفنا عن طريق الكتب
والصور فقط . تغطي جبينه بالغموض العميقة ، وامتلا قلبه برعب
التنبؤ . وبعد ذلك وضع السيارة المشتعلة بين اصبعيه وكتب
ورقات مخشخشة يخله الكبير .

وعند عيوط الظلام استلقى بيسونوف على الاركة دون ان
يشعل الضوء ، والقلق ما يزال يستولى على كيانه ، ورأسه ملتعب ،
ويدها نديتان . وبهذا انتهى عمله اليومي .

انتظمت دقات قلبه شيئا فشيئا ، وصارت اكثر هدوا . والان
كان عليه ان يفكر كيف يمضي هذا المساء والليلة . اوف . . . لا
احد تلقى له ، ولا زاره . يتعين عليه ان يصارع شيطان السام
وحده . ومن الطابق العلوي ، حيث كانت تعيش عائلة انجليزية ،

كان ينتهي الى سماعه عزف بيانو ، وقد بعثت هذه الموسيقي في نفسه رغائب غامضة مستجيبة .

وفجأة رن جرس الباب الخارجى في صمت البيت . وسمع بيسونوف خلق خطوات فعال مدبرة البيت على الارض . وصوتنا نسانيا معقدا :

- اود ان اراه .

ثم توقفت خطوات خفيفة دؤوب عند الباب . ارتسم بيسونوف هائلا ، ودون ان يتحرك . انفتح الباب قبل ان يطرق ، ودخلت الغرفة فتاة هيفاء نحيلة اضاءها من الخلف ضوء الدهليز ، كانت تضع على راسها قبعة كبيرة غرزت فيها زهور بيضاء نائفة .

توقفت وسط الغرفة ، وهي لا تميز شيئا من الضوء ، وحين نهض بيسونوف من الاريكة صامتا ، تراجع قليلا ، الا انها هزت راسها بعزيمة ، وقالت بنفس النبرة العالية :

- اتيت اليك في امر مهم جدا .

تقدم بيسونوف من المكتب ، واضاء المصباح . تنورت ظليلة المصباح الزرقاء بين الكتب والمخطوطات ، ومالت الغرفة كلها بضوء خافت هادئ .

- ما الذى استطيع ان افعله لك ؟

قال الكسى الكسيفيتش ذلك ، وهو يشير للقادمة الى مقعد ، وجلس هو على كرسى مكتبه بهدوء ، واضعا يديه على مرفقى الكرسى . كان وجهه شديد الشجوب ، وتحت جفنيه ازرقاق . رفع عينيه الى زائرتة على مهل ، وجفل ، وارتجفت اصابعه . وقال بخافت الصوت :

- داريا دميترييفنا ، لم اعرفك في اللحظة الاولى .

جلست داشا على المقعد بنفس الحزم الذى دخلت به ، ووضعت على ركبتيها يديها المعقرتين بقفازين من جلد الحبل ، وقطبت حاجبيها ؛

- انا سعيدة في زيارتك ، يا داريا دميترييفنا . انها هدية كبيرة جدا .

قالت داشا دون ان تسمعه :

- لا تتصور ، ارجوك ، اننى من المعجبات بك . ان بعض تصانك تعجبني ، وبعضها الآخر لا يعجبني ، انا لا افهمها ، ولا اجبها ابدا . وانا لم اجب مطلقا لاتحدث عن الاشعار . . . بل جئت لانك قد عذبتنى .

وخضت راسها كثيرا ، فلاحظ بيسونوف ان عنقها قد احمر ، وكذلك مصعها ما بين نهاية القفازين وكفى الثوب الاسود . لزم بيسونوف الصمت ، ولم يبد حراكا .

- وبالطبع ان ذلك الامر لا يعنك . وكم اود انا ايضا ان لا يعنينى . ولكننى اضطر الى ان اعانى ، كما ترى ، لعظات مؤلمة جدا . . .

ورفعت راسها بسرعة ، وحدقت في عينيه بعينها الصارمتين الصافيتين . فاسبل بيسونوف جفنيه ببطء .

- لقت ولجت على كالمروض . انا دائما اجد نفس افكر فيك وذلك . في آخر الامر ، فوق مستوى طاقتى . كان من الافضل ان اجب ، واتولى لك بصراحة . واليوم قد وطدت عزمى على ذلك .

وها انا قد جئت لاعلم لك عن حبيبى . . .

وارتمشت شفتاها ، واسرعت فاشاحت بوجهها ، وراحت تنظر الى الجدار ، حيث علق قناع بطرس الاول مضاء من الاسفل يعننيه المطبقين وبانسانمة ترف على فمه المطبق ، وكان محبوبا لدى جميع الشعراء في ذلك الحين . وفي الطابق العلوى كانت عائلة الكاهن الانجليزى تغنى رباعية : «نموت» . «لا ، نظير» . «في السماء البلورية» . «في الفرح الخالد المخلد» .

وتكلمت داشا بسرعة وحرارة :

- وان اخذت تؤكد لي بانك تحمل مشاعر ما تحوى فانتى ساعادرا على التو . انك لا تستطيع حتى ان تضمر لي الاحترام ، هذا شيء واضح . فان النساء لا يتصرفن تصرفى هذا . ولكننى لا اريد شيئا ، ولا اطلب شيئا . كنت اريد فقط ان اقول انسى احبك حبا مبرحا وعنيفا جدا . . . وقد هد هذا الحب كيانى . . . ولم يسبق حتى على كبريائى . . .

وقالت لنفسها : «والآن جميل لو انهض واحبى بهزة ابيسة من راسى ، واخرج» . الا انها ظلت جالسة تحدد في القناع الباسم .

صرخت داشا :

- ماذا؟ ماذا قلت؟

ووثبت من المقعد ، وتوقفت امامه . لم يدرك بيسونوف
انفعالها ، ولم يحسن تأويله . شعر بأنه فاقد صوابه لا محالة ،
استنشقت منخراه طيب عطرها ، وتلك الرائحة غير المحسوسة
تقريباً ، والقاهرة في الوقت ذاته ، رائحة بشرته انفى تختلف من
شخص لآخر .

- هذا جنون . . . انا اعرف . . . لا استطيع صبراً . . .
همس بذلك باحثاً عن يدها ، الا ان داشا انتزعت نفسها ،
وركضت . وعند العتبة نظرت بعينين وحشيتين ، واختفت .
وصفقت الباب الخارجى بقوة . تقدم بيسونوف من مكتبته بخطوات
بطيئة ، ونقر باظافره على علية بلورية ، وتناول سيكارة . وبعد
ذلك ضغط كفه على عينيه واحس بكل قوة خياله المخيفة بأن
الراهب الابيض المهيب للمعركة الحاسمة قد بعث له هذه الفتاة
الغامضية ، الرقيقة ، المغرية ، ليجذبه ، ويحوله ، وينقذه . الا
انه واقع في قبضة الراهب الاسود على نحو ميتوس منه ، ولا خلاص
له الآن . فقد كان الجشع الذى لا يشبع والندم يحرقانه ببطء
كسهم يجرى في دمه .

٨

- اهذا انت ، يا داشا ؟ ممكن ، ادخل .

كانت يكاترينا دميترييفنا واقفة امام امرأة الصوان ، تشد
عليها المشد . ابتسمت لداشا بسهموم ، وتابعت الدوران بجهد
واحدة البساط بتعليها الضيقين . كانت في ملابسها الداخلية
الرشيقة بالشرائط والمخمرات ، وذراعاها الجيلاتان وكفاهما
مبودرة ، وشعرها مصفف على شكل تاج فاخر . وعلى منضدة واطئة
الى جانبها وضع قديم مانعار ؛ وهما وهناك مقصات للاظافر ومبارد ،
واصابع احمر الشفاه وكحل الجفون ، وحقق البودرة . واليوم كان
النساء بلا منهاج ، ويكاترينا دميترييفنا انشغلت «في تنظيف
ريشها» كما تعود اهل البيت ان يسموا ذلك .

وتملكها تعب طاغ يشملها حتى عن رفع يدها ، واحست في تلك
اللحظة بكل جسمها ، ويوقره ودفنه . وقالت في سرها ، وكانها في
حلم : «اجب ، اجب الآن» . غطي بيسونوف وجهه بكفه ، واخذ
يتحدث بصوت خافت مكتوم كما يتحدثون في الكنيسة .
- لا استطيع الا ان اشترك بكل روى على هذا الشعور .
ان مثل هذه اللحظات ، مثل هذا الشذى الذى غمرتنى به ، لا ينسى
ابداً . . .

قالت داشا من خلال اسنانها :

- لا يراد منك ان تتذكرها .

صمت بيسونوف ، ونهض ، وابتعد سائدا ظهره على خزانة
الكتب .

- لا يسعنى الا ان انحنى لك اجالا ، يا داريا دميترييفنا .
انا لا استحق ان اصغى اليك . ولعل لم العن نفسى من قبل ،
مثملا العتها في هذه اللحظة . لقد بددتها ، وبذرتها ، واعتصرت
نفسى كلها . بم ارد عليك ؟ اهدوك الى فندق خارج المدينة ؟
ساكون نزيها معك ، يا داريا دميترييفنا . ليس لى ما احب به .
قبل بضعة اعوام كنت واقفا من اننى ما ازال قادرا على ان انهل
من الشيباب الابدى ، وما كنت لا تسمح لك بان تغادرينى .
احست داشا ، وكأنه يغرر فيها ابرا . فقد كان في كلماته
عذاب مستظليل . . .

- الآن ابدد الشراب العالى ليس الا . ولا يد انك تدركين
ما يكلفنى ذلك . ان امد يدى واتناوله . . .

همست داشا على عجل :

- لا ، لا .

- بلى . وانت تعرفين ذلك . ليس هنالك اجلى من اثم
التبذير . والتبديد حتمى . وهذا ما جنت اى من اجله . من اجل
تهديد كاس العفاف . . . وقد قدمت لى . . .

وقلص عينيه ببطء . نظرت داشا الى وجهه مرعوبة مكتومة
الانفاس .

- اسمعنى لى بان اكون صريحا معك ، يا داريا دميترييفنا .

انت شديدة الشبه باختك ، حتى من الوهلة الاولى . . .

قال وهي تشد جوربها :

- تصورى ان المشدات ذات الصفيحة المعدنية المستقيمة
يبطل استعمالها الآن . انظرى الى هذا المشد الجديد من مدام
ديوكليه . البطن اكثر تحررا بمقدار كبير ، بسـل وبارؤ بعض
الشيء . اعجبك هذا ؟

اجابت داشا : «لا ، لا يعجبني» . وتوقفت عند الجوار ،
ووضعت يديها وراء ظهرها . رفعت يكاترينا دميترييفنا حاجبها
مندهشة .

- احقا لا يعجبك ؟ يا للأسف . ان لبسه مريح .

- ما هو المريح ، يا كاتيا ؟

- لعل المخرومات لا تعجبك ؟ يمكن استبدالها بأخرى ،
عجيب ، على اية حال . لماذا لا يعجبك ؟

وادارت مرة اخرى جنبها الايمن ثم الايسر الى العراة . قالت
داشا :

- ارجوك ، اسألى غيرى هل تعجبه مشداتك .

- ولكن نيقولاى ايفانوفيتش لا يفهم شيئا فى هذا الأمر .
لا يبخس الأمر نيقولاى ايفانوفيتش ايضا .

- ما الخبر ، يا داشا ؟

بل وفغرت يكاترينا دميترييفنا فاما اندهاشا . لاحظت الآن
فقط ان داشا لا تكاد تتمالك نفسها ، وتتكلم من خلال اسنانها ،
وعلى خديها بقع ملتهبة .

- يبدو لى ، يا كاتيا ، ان من الاخرى بك ان تكفى عنـن
الدوران امام المرأة .

- ولكن ينبغي على* ان اكون فى مظهر لائق .

- لمن ؟

- ما هذا الذى تقولينه . . .

- تكذبين .

وبعد ذلك لزمتم كلتنا الشقيقتين الصمت وقتا طويلا . رفعت
يكاترينا دميترييفنا من المقعد مبذلا من وبر الجمل له بطانة حريرية
زرقاء ، وارقدته ، وربطت حزامه ببطنه . راقبت داشا حركاتها
باهتمام ، ثم قالت :

- اذهبى الى نيقولاى ايفانوفيتش ، واخبريه بكل شىء فى

صديق .

ظلت يكاترينا دميترييفنا واقفة تتحسس حزامها . وكان
واضحا ان فصصا قد تصاعدت الى حلقومها عدة مرات ، فكانت
تبلع ريقها وكانها تبتلع طعاما . وسال بغفوت :

- داشا ، هل عرفت شيئا ؟

- كنت لتوى عند بيسونوف (وهنا نظرت يكاترينا دميترييفنا
يعينين غير مبصرتين ، وشحبت فجة شحوبا مرعبا ، وهزت كتفها)
يكنك ان تظمنى . لم يحصل معى شىء . لقد اعدن لى فى اللحظة
المناسبة . . .

رفعت داشا قدما ، ووضعت اخرى .

- منذ وقت طويل حدثت انك . . . مع بالذات . . . الا
ان ذلك كله مقرر جدا بحيث لا يصدق . . . لقد جنبت وكذبت .
وانا لا اسطيع ان اعيش فى هذه الوضاعة . . . اذهبى الى زوجك ،
واخبريه بكل شىء .

ولم تستطع داشا ان تواصل كلامها ، فقد كانت شقيقتها
تقف امامها مطاطاة الرأس . وكانت داشا تنتظر كل شىء الا طاطاة
الرأس المستغفرة الطائعة هذه .

سألت كاتيا :

- هل اذهب الآن اليه ؟

- نعم ، هذه اللحظة . . . يجب ان تفهمى بنفسك . . .
ارسلت يكاترينا دميترييفنا تنهيدة قصيرة ، وسارت نحو
الباب ، وهناك ابطأت خطاها ، وقالت :

- لا اسطيع . يا داشا . - الا ان داشا لزمتم الصمت -
حسنا ، ساخبره .

كان نيقولاى ايفانوفيتش يجلس فى غرفة الاستقبال يطالع ،
وهو يحك لحيته بسكين عاجى ، مقالة اكوندين المنشورة فى العدد
الجديد لمجلة «روسكيه زايسكى» («المذكرات الروسية» .

كانت المقالة مخصصة لذكري وفاة باكونين . وكان نيقولاى
ايفانوفيتش يستمتع بها . حين دخلت زوجته هتف :

- كاتيوشوا ، اجلسى . واسمعى ماذا يكتب . هذه هى

الفقرة . . . «ان سحر هذا الرجل (يقصد باكونين) * لا يكمن في طراز تفكيره ولا في اخلاسه القسيتية في النهاية ، بل في الحساس الذي طبق افكاره في الحياة العملية ، والذي تشعبت به كل حركة من حركاته ، والمناقشات المساهمة مع برودون ** ، والشجاعة التي تقم بها لهيب النضال ، وحتى هذا العمل الجميل الذي صوب به ، وهو الرجل الخارجي ، مدافع المنتفضين النمساويين ، قبل ان يعرف جيذا ضد من ولاجل اي شيء يناضلون . ان حماس باكونين هو رمز لتلك القوة الجارية التي تنزل بها الطبقات الجديدة الى حلبة النضال . ومهمة العصر الطالع هي تجسيد الافكار ، لا انتزاعها من تحت اكوام الحقائق الغامضة لزخم الحياة الاعمى ، ولا سنجها الى عالم مثالي ، بل عملية عكسية هي امتلاك العالم المادي بعالم الافكار . ان الواقع هو كومة من الوجود ، والافكار شرارات . وهذان العالمان المنفصلان والمتعاديان يجب ان يتعدا في لهب الانقلاب العالمي . . . » فكرى بذلك ، يا كاتيوشا . . . انه واضح كيبياض على سواد : عاشت الثورة . مرحى ، يسا اكوندين ! انه الواقع الذي نعيشه ، بلا افكار كبيرة ولا عواطف كبيرة . الحكومة منساقاة بشيء واحد فقط : الخوف الجنوني على المستقبل . والمثقفون مهالكون على الطعام والشراب . ونحسن نقض اوقاتنا بالثرثرة ، ولا شيء غير الثرثرة ، يا كاتيوشا ، بينما نحن غائضون بالحاجة الى آذاننا . والشعب يتعفن حيا ، وروسيا جمعاء قد تأكلها السفلس والوردكا . روسيا متهزئة ، سنتحول الى ركام من نفخة واحدة . والعيش على هذا النحر غير ممكن . . . نحن نحتاج الى نوع من حرق النفس ، التطهير بالنار . . .

كان نيقولاى ايفانوفيتش يتكلم بصوت منقلع رخيخ ، شاقا الهواء بالسكين ، وعيناه قد استدارتا . وقتت يكاترينا دميترييفنا

* باكونين مخائيل الكسندروفيتش (١٨١٤-١٨٧٦) منظر الفوضوية وعدو لدود للماركسية . (الترجم) .

** برودون بيير جوزيف (١٨٠٩-١٨٦٥) اشتراكى فوضوى فرنسى من البرجوازية الصغيرة (الترجم) .

على مقربة ممسكة بظهر مقعد . وحين فرغ من كلامه ، وعاد يشق صفحات المجلة بالسكين تقدمت منه زوجته ووضعت يدها على شعره :

- نيقولاى ، سيؤلمك كثيرا ما سأخبرك به الآن . اردت ان اخفيه ، ولكن اقتضى الامر ان اخبرك به . . . اطلق نيقولاى ايفانوفيتش راسه من يدها ، وامعن النظر فيها .

- نعم ، انا مصغ ، يا كاتيا .

- انت تذكر اننى قلت لك في ساعة غضب حين تخاضمتنا ذات مرة بانك يجب الا تشق بى كثيرا . . . ولكنى عدت فنفت ذلك .

- نعم ، أتذكر .

ووضع الملحة ، واستدار في مقعده استدارة كاملة ، وتقلبت عيناه ذعرا وهي تلتقيان بنظرة كاتيا البسيطة الطمئنة .

- حسنا . . . لقد كذبت عليك آنذاك . . . لم اكن مخلصه معك آنذ . . .

غضضن وجهه بشكل يثير الرثاء ، محاولا ان يبتسم . وشعر بجفاف في حلقه . وحين لم يعد البضى في الصمت ممكننا ، قال بصوت لارنة فيه :

- حسنا فعلت حين قلت لى . . . شكرا ، يا كاتيا . . .

عندئذ امسكت يده ، مستها بشفتيها ، وضغطتها على صدرها ، الا ان اليد انسلت منها ، ولم تعبد هي الى الاحتفاظ بها . وبعد ذلك قدمت يكاترينا دميترييفنا على البساط بهدوء ، ووضعت راسها على ذراع المقعد الجلدي وقالت :

- الا تريد ان افضى اليك باكثر من ذلك ؟

- لا ، اذهبى ، يا كاتيا .

لهضت ، وخرجت ، وعند باب غرفة الطعام اندفعت داشا اليها على غوة ، وتشبثت بها ، وعصرتها ، وهمسست مقبلة شعرها ، وجيدها ، واذنيها :

- اعذرينى ، اعذرينى . . . انت رائحة ، مذهشة . . . سمعت كل شيء . . . اتصفحني عني ، يا كاتيا ، تعذرينني ؟ كاتيا ؟

تحررت يكاترينا دميترييفنا منها بحدو ، وتقدمت من المائدة ، وعدلت نثية كانت على المفرش ، وقالت :

- نفذت امرك ، يا داشا .

- كاتيا ، اتصفحن عني يوما ما ؟

- كنت على حق ، يا داشا . فان ذلك افضل .

- لم اكن على حق في شيء ! فعلت ذلك عن حقد ... عن حقد ... والآن ادرك ان ما من احد يجرو على اذانتك . لا يهم اتنا جميعا نتعذب ، واننا سننالم ، لكنك على حق ، وانا اشعر بانك على حق في كل شيء ... اعذريني ، يا كاتيا .

وسالت على خدى داشا دموع كبيرة كجبات الحصى . كانت تقف الى الخلف ، على بعد خطوة من شقيقتها ، وتتكلم بصوت عال :

- اذا لم تصفحني عني ، فانني لا اريد ان اواصل الحياة . التفتت يكاترينا دميترييفنا اليها بسرعة .

- ماذا تريدن مني ايضا ؟ انت تريدن ان يعود الصفاء والمودة الى كل شيء ... ساقول لك اذن ... لقد كذبت وكتمت

لانه بذلك فقط كان من الممكن اطالة حياتي مع نيقولاى ايفانوفيتش قليلا ... اما الآن ، فقد انتهى كل شيء . هل فهمت ؟ مضى زمن طويل وانا لا احب نيقولاى ايفانوفيتش ، ولا اخلص له . وانا لا اعرف ان كان يحبني او لا يحبني ، ولكن لا قرابة بيننا . هل فهمت ؟

اما انت فكالمشرب تطفين راسك تحت ابطك دائما لكيلا تسرى الاشياء الفلظية . بينما اريتها وعرفتيا ، ولكنني عشت في هذا القدر . لاننى امرأة ضعيفة . ورايت كيف تبتلعك هذه الحياة ، انت الاخرى . وقد حاولت ان اصونك ، ومنعت بيسونوف من زيارتنا ...

كان ذلك حتى قبل انه ... ولكن لا اهمية لذلك ... الآن انتهى كل شيء ...

ورفعت يكاترينا دميترييفنا راسها فجأة ، مرهفة السمع . شعرت داشا بالبرودة تسرى في ظهرها من الذعر . فقد ظهر نيقولاى ايفانوفيتش عند الباب خارجا بجانبه وراء الستارة . كان يخفى يديه وراء ظهره .

- بيسونوف ؟

- سال ذلك هازا راسه بايتسام . ودخل غرفة الطعام .

لم تجب يكاترينا دميترييفنا . تبقع خداهما ، وبسبت عيناها ، وانطبق فمها .

- يبدو انك تظنين ، يا كاتيا ، ان حديثنا قد انتهى . انه ظن خاطئ .

- وتابع يقول مبتسما :

- داشا ، اتركينا وحدنا ، ارجوك .

- لا ، لا اخرج .

- وبقيت داشا الى جانب اختها .

- لا ، ستخرجين ، اذا طلبت منك ذلك .

- لا ، لن اخرج .

- في هذه الحال ، سيتعين على ان اغادر البيت .

اجابت داشا ناظرة اليه نظرة ضارية :

- غادر .

احمر نيقولاى ايفانوفيتش ، ولكن في اللحظة التالية عاد الى عينيه التعبير السابق - الجنون المرح .

- هذا افضل ، ابقى . المسالة على هذا النحو ، يا كاتيا . . . قبل برهة كنت جالسا في المكان الذى تركتني فيه ،

وإذا اردت الحق ، فاننى خلال بضع دقائق عانيت ما تصعب معاناته . . . وانتهيت الى استنتاج وهو ان علي ان اقتلك . . . نعم ، نعم .

حين سمعت داشا هذه الكلمات اسرعت فالتصقت بشقيقتها مقلقة اياها بذراعيها ، بينما راحت شفتا يكاترينا دميترييفنا .

ترتفجان ازدها .

- انت في هستيريا . . . انت بحاجة الى ان تتناول قطرات التاردين ، يا نيقولاى ايفانوفيتش . . .

- لا ، يا كاتيا ، في هذه المرة ليست هستيريا . . .

صرخت يكاترينا دميترييفنا ودفعت داشا عنها ، واقتربت من نيقولاى ايفانوفيتش تماما صانحة :

- اذن ، افعل ما جئت من اجله . عيا ، افعل . ها انا اقول لك في وجهك : انا لا احبك .

تراجع خطوة ، واخرج من وراء ظهره مسدسا «نساءيا» صغيرا ، ووضع على الخوان ، ودس اطراف اصابعه في فمه ، وغضها ، واستدار وسار نحو الباب . راقبتة كاتيا بصرها ، وسمعته يقول دون ان يلتفت :

- انا متالم . . . متالم . . .

عند ذاك اندفعت نحوه ، وامسكت كتفيه ، وادارت وجهه اليها :

- انت تكذب . . . تكذب . . . وتكذب الآن ايضا . . .

غير انه هز رأسه ، وخرج . جلست يكاترينا دميترييفنا عند المائدة :

- ذلك ، يا داشا ، مشهد من الفصل الثالث ، وفيه طلقة

مسدس . ساتركه .

- الله معك . . . كاتيوشا .

- اتركة ، لا اريد ان اعيش بهذا الشكل . بعد خمسة اعوام سيدركنى الكبير ، ويقوف الاوان . لا اريد ان اعيش هكذا . . . قذارة !

وغطت وجهها بيديها ، وانزلته من بين مرفقيها المستندين

الى المائدة . جلست داشا على مقربة منها ، وقبلتها من كتفها قيلات سريعة حذرة . رفعت يكاترينا دميترييفنا رأسها :

- اتظنين اننى لا اشفق عليه ؟ انا اشفق عليه دائما .

ولكن تصورى ، اذا ذهبت اليه الآن ، فسيجرى بيننا حديث طويل ، زائف كليا . . . كان شيطاننا يتدخل بيننا ، ويؤذي . الحديث مع نيقولاي ايفانوفيتش مثل العزف على بيانو مختل . . . لا ، ساترك البيت . . . آه ، يا داشا ، داشا ، ليتك تعرفين اى شقاء اعانى ! . . .

ومع ذلك في آخر المساء ذهبت يكاترينا دميترييفنا الى

زوجها في مكتبه .

كان الحديث مع زوجها طويلا ، وقد تحدث كلاهما بصوت خافت ، وبسجي ، وخالوا ان يكونا نزيهين ، ولم يرحم احدهما الآخر ، ومع ذلك فقد شعر كلاهما بانهما بهذا الحديث لم يتوصلا الى شئ ، ولم يتفاهما على شئ ، ولم يقترب احدهما من الآخر .

وبعد ان ترك نيقولاي ايفانوفيتش وحده لبث جالسا الى مكتبه حتى الفجر متاوها . وقد عرفت كاتيا فيما بعد انه في خلال هذه الساعات فكر واستعرض كل حياته . وكانت نتيجة هذا رسالة مطولة الى زوجته ختمتها بالآتى : «اجل ، يا كاتيا ، كلنا في زقاق خلفي مسدود . في الاعوام الخمسة الماضية لم اشعر بشعور قوى واحد ، ولم اقم بخطوة كبيرة واحدة . وحتى حبي لك وزواجنا مرا وكانما في عجالة عاجلة . كيان تافه نصف هستبرى ، تحت فعل مخدر مستمر . وهناك مخرجان : اما قتل نفسى ، واما تمزيق هذا الغشاء الروحي المُشْتَقَل على افكارى ، وعلى مشاعرى ، وعلى وعى . ولست انا في وضع اقوى فيه على ان افعل هذا او ذلك . . .»

وقد حدثت الكارثة العالمية بمباغتة شديدة ، وانهار العالم البيتى بسهولة يسيرة وبشكل كلى اتصعنت داشا به ، ولم يخطر ببالها ان تفكر في نفسها ، واهواؤها كفتاة بدت لها تفاهة ، شجبا وغبيا على العالط ، كذلك الفى كانت المرعبة تخيفها وكاتيا به في الزمن البعيد .

كانت داشا تقترب عدة مرات في اليوم من باب حجرة كاتيا ، وتقر عليها باصبعها تقرا خفيقا فتجيبها كاتيا :

- عزيزتى داشا ، لو سمحت ان تتركينى وحدى ، ارجوك . وفى تلك الايام كان على نيقولاي ايفانوفيتش ان يتراجع في المحكمة . فكان يخرج في الصباح الباكر ، ويتناول فطوره وغداه في الطعام ، ويعود الى البيت ليلا . وقد هزت مرافقته القضاة وقاعة المحكمة كلها . كان يتراجع مدافعا عن زويا ايفانوفنا زوجة موظف

مصلحة الضرائب لادنيكوف التى ذبحت عشيها الطالب شليبه ابن صاحب عقارات في بطرسبورغ ، وقد جرى الحادث ليلا في السرير في بيت في شارع غوروخوفايا . بكت النساء ، وضربت المتهمة زويا ايفانوفنا متكا المتقدم برأسها ، وافرغ عنها .

احاط جمع من النساء بنيقولاي ايفانوفيتش لدى خروجه من المحكمة شاحب الوجه غائر العينين ، والقين الزهور عليه ، وهتفن ، وقبلن يديه . اتجه نيقولاي ايفانوفيتش من المحكمة الى البيت ، وتحدث مع كاتيا في ارتقاء نفسى تام .

وكانت يكاترينا دميترييفنا قد هيات الحقائق للسفسر ،

فمنحها مخلصا بان تسافر الى جنوب فرنسا ، واعطاها اثني عشر الف روبل لسد نفقات الرحلة . وكان هو قد قرر اثناء الحديث معها ايضا ، ان يسلم القضايا الى مساعده ، ويسافر الى القرم للاستراحة والتروى .

وفي واقع الامر لم يكن واضحا ولا محمدا ما اذا كان فراقهما لفترة من الزمن ام الى الأبد ، ومن منهما يهجر الآخر ؟ فان هذين الامرين العادين قد جوبهما لعب السفر بعناية .

ونسيا داشا . وقد خطرت على بال يكاترينا دميترييفنا في اللحظة الاخيرة فقط ، وكانت قد اودت بدلة السفر الرمادية ، وقبعة انيقة مبرقعة ، وبدت نحيلة ، حزينة ، رقيقة . وقع بصرها على داشا وهي جالسة على صندوق في الرواق ، كانت داشا تزوج سابقها ، وتاكل خبزا ومرى لانهم نسوا ان يوصوا على غداء اليوم . قالت يكاترينا دميترييفنا ، وهي تقبلها من خلال البرقع :

— داشا ، يا حبيبتي . ماذا سيكون الامر معك ؟ اترغبين في السفر معي ؟

غير ان داشا قالت انها ستظل وحدها في الشقة مع «المغولي العظيم» ، وانها ستؤدى الامتحانات ، وتسافر في نهاية ايار الى ابينا لتقضى الصيف كله هناك .

٩

بقيت داشا وحدها في البيت . الآن بدت لها الغرف الكبيرة غير مريحة ، والاشياء فيها زائدة . وحتى اللوحات التكميحية في غرفة الجلوس فقدت برحيل سيد البيت وسيدته قدرتها على اثارة الرعب ، وبهت رواؤها . وتدللت الستائر بثنيات مينة . ورغم ان «المغولي العظيم» كانت تطوف الحجرات كل صباح صامتا كالشيخ ، نافضة الغبار بنفضة من ريش الديك فقد كان يبدو وكان غبارا آخر غير منظور يغطي البيت متزايدا في كثافته .

كان من الممكن ان تقرا في غرفة شقيقتها ، وكانها في كتاب ، كل ما عاشت به يكاترينا دميترييفنا . في احد الاركان حمالة عليها مشروع لوحة - فتاة تضع اكليليا ابيض على راسها ، وعيناهما تملآن نصف وجهها . كانت يكاترينا دميترييفنا تشبهت بهذه

الحمالة كطريقة لتخلص نفسها باية وسيلة من الهرج المجنون حولها ، الا انها لم تصمد بالطبع . وهذه منضدة قديمة مملوءة بالاشياء غير الكاملة وقطع قماشية زاهية مبشرة على غير نظام ، وكلها غير كاملة ومهملة ، وهي محاولة اخرى للهروب . ومثل هذه القوضى تشيع في خزائن الكتب ايضا ، والظاهر ان يدا قد بدأت في ترتيبها ثم اهلتها . وفي كل مكان كتب مرمية ، ومحشورة ، ومقطوعة تصف اوراقها . كتب عن رياضة اليوغا ، ومحاضرات مبسطة عن التصوف ، وقصائد وروايات ، الا كم من المحاولات والجهود الضائعة للبه في حياة طيبة ! وجدت داشا على منضدة الزينة مفكرة فضية الغلاف سجل فيها : «٢٤ قميصا داخليا ، ٨ حمالات صدر ، ٦ حمالات صدر مدانتلة . . . تذاكر لال كرينسكي الى مسرحية «العم قانيا» . . . ثم يخط كبير كخط طفل : «شراء كعكة تفاح لداشا» .

وتذكرت داشا ان كعكة التفاح هذه لم يكتب لها ان تستمري . ورتت لشقيقتها رثاء اسأل دموعيا . ان هذه الشقيقة العاطفية الطيبة الرهيفة الحس لتتحمل حياة كهذه كانت تشبهت بالاشياء والتواهب ، محاولة ان تثبت ، وتقى نفسها من التشتت والتحطم ، ولكن لم يسعفها شيء ولم يساعدها احد .

استيقظت داشا في الصباح الباكر ، وجلست الى الكتب ، وادت الامتحانات ، فكانت متفوقة في كل مادة تقريبا . كانت ترسل «المغولي العظيم» لترد على التلغراف الذي كان يدق في المكتب بلا انقطاع ، فكانت هذه تجيب جوابا واحدا لا يتغير «سافر السيد والسيدة ، والآنسة لا تستطيع ان تأتي لترد» .

كانت داشا تقضى اماسي بكاملها تضرب على البيانو . ولم تثر الموسيقى مشاعرهما كما كانت تفعل من قبل ، ولم تجعلها تريد شيئا غير معد ، ولم تجهد قلبها العالم . الا ان ، حين كانت تجلس وادعة رصينة امام دفتر النونات مضادة من الجانين بشمعتين ، كانت وكانها تظهر نفسها بالاصوات المهيبة القوية التي كانت تملأ جنبات هذا البيت الخالي حتى آخر زاوية فيه .

واحيانا كانت يظهر وسط الموسيقى اعداء صفار - الذكريات غير مدعوة ، فكانت داشا ترخي يديها ، وتنعبس ، وعقدنذ كان

يرين على البيت سكنون مطبق حتى ليسمع هسيس الشمعة . وبعد ذلك ترسل داشا زفرة صاخبة ، ومن جديد تمس يداها المغاتيج الباردة بقوة ، فيطأير الاعداء الصغار من العرقسة الكبيرة الى المهلين المظلم ، وراء الدواليب والعلب الكارثونية ، مثل الغبار والاوراق اليابسة المتطايرة بالريح . . . لقد اخفتت في الأبد داشا التي دقت الجرس على باب بيسوتوف ، وقالت لكاتبها المجردة من الحماية كلمات حاقنة . ان تلك الفتاة الهوجاء كادت تجلسب الكوارث . يا له من امر عجيب ! وكان الحب كل شيء في هذه الدنيا ، رغم انه لم يكن هناك اى حب .

وفي حوالى الساعة الحادية عشرة كانت داشا تغلق البيانو ، وتطفئ الشمعتين ، وتاوى الى فراشها . وكان كل ذلك يجرى دون تردد ، وبجدية . وخلال تلك الفترة وطدت العزم على ان تبدأ بأقصى سرعة ممكنة حياة مستقلة - ان تكسب رزقها بنفسها ، وتضم كاتبها اليها .

ما كادت داشا تفرغ من الامتنعانات في اواخر ايار حتى سافرت الى ابنيها عن طريق الفولغا عبر مدينة ريبينسك . في المساء خرجت من القطار لتستقل على التو سفينة بيضاء ساطعة الاضاءة وسط الليل والماء الداكن ، وفكت امتعتها في المقصورة التنظيفة ، وضفرت شعرها ، وفكرت في ان الحياة المستقلة تبدأ بدياة طيبة ، وابتسمت سعادة وقد وسدت رأسها كوعها ، وغفت على مقدمة السفينة الوداعة .

وايقظتها خطوات ثقيلة وركض على ظهر السفينة . كان ضوء الشمس ينسكب عبر مضلع النافذة ، متماوجا على خشب المغسلة الماهوفاني شعاعات ضعيفة . وكانت الريح التي تلاعب الستارة الحريرية تفرح بشذى زهر العسل . ففتحت داشا المضلع قليلا ، كانت السفينة راسية على شاطئ قفر وقفت تحت جرفه الواطيء المنهار عربات محملة بصناديق من خشب الصنوبر . وكان مهر اصهب يترد عند حافة الماء وقد افرج قوائمه النخيلة ذات الركب السمكية . وعلى الجرف صوة منار تبرز على شكل صليب احمر . ففرت داشا من السرير ، ووضعت حوض الاستحمام على الارض ، اشبعت الاسفنجة بالماء ، ثم عصرتها على نفسها ، وشعرت

بانعاش ورهبة عظيمين حتى أخذت تضغط ركبتيها على بطنها ضاحكة . ثم ارتدت جوربين ابيضين وفساتانا ابيض ، وقبعة بيضاء ، وكانت قد اعدت ذلك كله منذ المساء . وقد اتسجم عليها كل شيء ، واذ شعرت داشا باستقلالها ، خرجت الى ظهر السفينة رصينة ، ولكنها طافحة بالسعادة .

كان اللؤلؤ الخفيف لانعكاس اشعة الشمس يلعب على السفينة البيضاء كلها ، وكان النظر الى الماء يزعغل البصر ، فقد كان النهر يتلألأ ويومض . وعلى الشاطئ الآخر المرتفع يلوح برج جرس ابيض قديم مخفف الى النصف بين اشجار البتولا .

وحين غادرت السفينة الشاطئ ، استدارت نصف استدارة ، وسارت نازلة مع مجرى النهر ، وبدت الضفغان وكأنها تندفغان نحوها . وكانت اسقف الاكواخ القشبية المعتمة تلوح هنا وهناك من وراء الاكمام ، وكأنها تتداعى . وكانت السحب تتراكم في السماء مزرققة في اسافلها ، تلقي ظلالات بيضاء في اعماق النهر الزرقاء الصفرة .

جلست داشا في مقعد من الخوص المضفور ، واضعة ساقا على ساق ، مطوقة ركبتيها ، وشعرت بان منعطفات النهر اللامعة ، والسحب وظلالها البيضاء ، والللال باشجار البتولا ، والمروج ، وتيارات الهواء الفواحة تارة بعشب المستنقعات ، وتارة بجفاف الارض المحروثة والبرسيم العسل ، والافستنتين تنفذ خلال كيانها ، ويمتلئ قلبها بهجة هادئة .

اقترب رجل بطيء الخطى ، وتوقف عند الحاجز مديرا له جنبه ، وراح يتطلع اليها ، كما يبدو . تسميته داشا عدة مرات ، الا انه بقى واقفا في مكانه لا يريم . عندئذ عزمت عزمًا ثابتا على الا تلتفت اليه ، الا ان ما جيلبت عليه من طبع ملتهب جدا جعلها لا تتحمل هذه المعايينة بهدوء اعصاب . تورد وجهها ، والتفتت بسرعة وغيط . فاذا بها ترى تليفين يقف امامها ، ممسكا بعمود مترددا بين التقدّم والحديث وبين الاختفاء . وجدت داشا نفسها تضحك فجأة ، فقد ذكرها بشيء مرح طيب على نحو غير محدد . كما ان ايفان ايليتش (تليفين) كله العريض المتكبين ، القوي ، العجول ،

في سمرته البيضاء بدا وكأنه نتيجة ضرورية لكل هذه السكينية
النهرية . مدت يدها له ، فقال تليغين :

- رايتك وانت تستقلين السفينة . في الواقع نحن سافرنا
سوية من بطرسبورغ في عربة قطار واحدة . ولكنني ترددت في
التقدم منك ، فقد كنت غارقة في افكارك كثيرا . . . الا اضايك ؟
- اجلس - وقدمت منه مقعدا من الخوص المصفور قائلة :

انا مسافرة الى ابي ، وانت الى اين ؟
- انا ، اذا اردت الصراحة ، حتى الآن لا اعرف الى اين .

سأذهب في المرحلة الاولى الى اذربايني في كينيشما .
جلس تليغين الى جوارها ، وخلع ثيابه . وانعقد حاجباه ،
وظهرت غضون على جبهته . وراح ينظر بعينين متقلبتين الى الماء
الذي كان يخرج من تحت السفينة مثل درب مقعر مزبد . كانت
طيور النورس ياجتحتها العادة تطير فوقه في مؤخرة السفينة ،
وتسقط عليه ، وتقلع مرسله صيحات جشاء شاكية ، وبعد ان
تتخلف بعيدا ، تدور ، وتتخاصم على كسرة خبز طائفة .

- انه يوم جميل ، يا داريا دميتريفنا .
- انه يوم رائع ، يا ايفان ايليتش ، يوم رائع ! في جلستي
هذه فكرت بانتي قد انتزعت نفسي من الجحيم الى الحرية ! انت
تذكر حديثنا في الشارع ؟

- اذكرك الى آخر كلمة ، يا داريا دميتريفنا .

- بعد ذلك الحديث حصلت اشياء اعادنا الله منها ! ساحدتك
عنها ذات يوم . - وهزت راسها مستغرقة الفكر . - كنت الانسان
الوحيد الذي لم يفقد صوابه في بطرسبورغ ، حسب ما اتصور . -
وهنا ابتسمت ، ووضعت يدها على كم سترته . رف جفنا ايفان
ايليتش رهبة ، وانطبقت شفثاه . وتابعت داشا قولها : انا شديدة
الثقة بك ، يا ايفان ايليتش . انت قوي جدا ؟ صحيح ؟

- هذا ظنك .
- وانسان موثوق .

واحسنت داشا بان كل افكارها طيبة واضحة اريحية ، مثلما
ان افكار ايفان ايليتش طيبة ، صادقة ، وقوية . وكان يسرها
بشكل خاص ان تقول كلامها ليعبر بالذات عن هذه الدفقات المشرفة

من المشاعر القريبة الى فؤادها ، وقالت : اتصور ، يا ايفان
ايليتش ، لو انك احببت فانك ستحب برجولة وثقة ، وانك اذا
اردت شينا ، قلن تعبد عنه .

اندخل ايفان ايليتش يده في جيبه بحركة بطيئة ، دون ان
يرد عليها ، واخرج قطعة خبز ، واخذ يلقيها الى الطيور . اندفع
سرب من طيور النورس البيضاء يلتقط فتات الخبز وهو تتصايح
مستثارة . نهضت داشا وايفان ايليتش ، واتجها نحو حاجز
السفينة . قالت داشا :

- ارم لهذا الطائر ، فانه يبدو شديد الجوع .

ذقت تليغين بقية قطعة الخبز بعيدا في الهواء . انزلق نورس
شحيم كبير الراس على جناحين مساكنتين مسطحين كسكينتين ،
وانقض ، ولكنه احطأ مدقه ، وفي الحال انطلق زهاء عشرة من
الطيور على قطعة الخبز الساقطة حتى سطح الماء المطرطش بيزيد
داقي . من اسفل السفينة . قالت داشا :

- اتعرف اية امرأة اود ان اكون ؟ سأنهى الدراسة في العام
القبل ، وابدا يكسب فلوس كثيرة ، واخذ كاتيا لتعيش معي .
بستري ، يا ايفان ايليتش .

غضن تليغين وجهه حين كانت تتكلم مجاهدا ليضبط نفسه ،
واخيرا فتح فمه ، عن صف قوي نظيف من الاسنان الكبيرة وضحك
ضحكا مرحا حتى تددت رموش عينيه . احمر وجه داشا ، الا ان
حنكها ارتمش ، وضحكت ، دون ارادتها ، كما ضحك تليغين ، دون
ان تدري سببا لذلك .

واخيرا قال تليغين :

- انت رائعة ، يا داريا دميتريفنا . . . كنت اخاف منك

خوف الموت . . . ولكنك رائعة تماما !

فقالت داشا غاضبة :

- هكذا اذن . . . تعال نتناول فطورنا .

- بكل سرور .

طلب ايفان ايليتش اخراج طاولة الى سطح السفينة ، واخذ
يخك بسهم ذقنه الحليق حلقة ممتازة ، وهو ينظر في قائمة
الطعام .

- ما رأيك ، يا داريا دميترييفنا ، في زجاجة من النبيذ الأبيض الخفيف ؟

- سأشرب قليلا بسرور .

- أبيض أم أحمر ؟

- اجابت داشا محاكية لهجته الجديدة :

- هذا أو ذاك .

- في هذه الحال لنشرب نبيذاً فواراً .

مرت السفينة بصفة تلالية فيها شرائط خضراء لامعة من القمح ، وزرقاء خضراء من الجودار ، ووردية من الحنطة السوداء المزهرة . وراء منعطف النهر ، كانت الشمس تنعكس على زجاج نوافذ بيوت منخفضة ذات سقف من القش قائمة على أكوام من الروث فوق مرتفع صلصالي . وأبعد من ذلك لاح عدد من صلبان مقبرة القرية ، وطاحونة صغيرة كاللعبة ذات ستة أذرع مهدمة الجانب . وكان جمع من الأطفال يركض على طول الضفة المرتفعة من وراء السفينة ، قاذفاً بحجارة لم تكن تصل حتى إلى الماء . واستدارت السفينة ، وظهرت على الضفة الغالية أجمة منخفضة تحوم الغرابان فوقها .

هبت نسمة دافئة تحت مفرش المائدة ، وفستان داشا . وبدا التبيذ الذهبي في القدحين الكبيرين المضلعين هبة آلهية . قالت داشا أنها تغيب إيفان إيليتش لأن له عمله ، ووثوقه في الحياة ، بينما سيكون عليها أن تقضى عاما ونصف عام منكبسة على الكتب ، فضلا عن تعاسة أخرى تقع من نصيبها ، وهي كونها خلقت امرأة . ضحك تليغين ، وأجاب :

- ولكنني طردت من العمل في المصنع .

- أحقا ؟

- طلبوا مني أن اتخلي عن العمل خلال أربع وعشرين ساعة ، ولو لا ذلك لما كنت على هذه السفينة الآن . أحقا لم تسمعني أي أحداث حدثت عندنا ؟

- لا ، لا .

- لقد انفصلت ببساطة ، نعم . . . - وصمت واضعا كوعيه على الخوان . - انظري إلى أي حد من الحماقة والهرجلة تجرّي

الأمور عندنا . شيء لا يصدق العقل ، والشيطان يعلم أي صيت سيكون لنا ، نحن الروس . شيء معيب ومغز . فكري في الأمر : شعب موهوب ، وبلاد في غاية الثراء . ولكن ماذا ترى العين مقابل ذلك ؟ ترى مجموعة من الكتب المتعطرسين . استعصنا عن الحياة بورق وجبر . لا يمكنك أن تتصورى كم تستهلك من الورق والجبر . منذ أن بدأنا هذه البروقراطية في عهد بطرس الأول ونحن لا نستطيع أن نتوقف حتى الآن . ولكن الجبر قد يكون شيئا مبيتا . فتصوري ذلك .

إبعد إيفان إيليتش قدح النبيذ ، واشعل سيكارة . وكان من الواضح انه لم يكن مريحا له الاستمرار في مثل هذا الحديث . - لا داعي إلى إثارة الذكرى . يجب أن نفترض بأن الأمور عندنا أيضا ستكون حسنة يوما ما ، ليس أسوأ مما لدى الآخرين . فضت داشا وإيفان إيليتش هذا النهار كله على سطح السفينة . كان من الممكن أن يبدو حديثهما إلى المستمع الغريب ضربا من الهراء ، ولكن ذلك راجع إلى انهما كانا يتحدثان حديث شفرة . فقد كانت الكلمات ، وأكثرها اعتيادية ، تتخذ مدلولاً مزدوجا بشكل غامض غير مفهوم ، فإذا اشارت داشا بعينها إلى فتاة ممتلئة الجسم قليلا ينتفخ وراء ظهرها لغاعها الليلي ، وإلى مساعد القبطان الثاني الذي كان يسير إلى جانبها مركزا كل انتباهه وقالت : «انظر ، يا إيفان إيليتش يبدو أن أمرهما ماشية» . فمن الضروري أن يفهم من ذلك : «لو حصل بيننا شيء ما ، فلن يكون بهذا الشكل» . وما كان في مقدور أحد منهما أن يتذكر بإخلاص ما قاله ، إلا انه بدأ لإيفان إيليتش أن داشا أذكي منه بكثير ، وأرق وادق في ملاحظتها ، بينما بدأ لداشا أن إيفان إيليتش أطيب قلبا منها ، والمفضل ، وأذكي بالف مرة .

جمعت داشا شجاعتهما أكثر من مرة لتحدثه عن يسوتوف ، إلا انها كانت تحجم عن ذلك . كانت الشمس تدفئ ركبتيها ، والتسيم يمس وجنتها ، وكتفها ، وجيدها ، مثل اصبع حنون مدورة . وفكرت داشا مع نفسها : «لا ، سأحدثه غدا ، سيسقط مطر ، وسأحدثه» .

وفي آخر النهار عرفت داشا - وكانت تهوى مراقبة الناس ،

ولها عين مدققة مثل سائر النساء - كل شيء تقريبا عن جميع المسافرين على السفينة ، الأمر الذي بدأ إيفان إيليتش أعجوبة تقريبا .

ولسبب ما قررت داشا ان مدير جامعة بطرسبورغ - وهو رجل عيوس يضع نظارة شمسية ويرتدي لباس «الانفراضية» - غشاش كبير في الورق على ظهور السفن . ورغم ان إيفان إيليتش كان يعرف ان هذا الرجل هو عميد الجامعة بالفعل ، الا ان الشك اخذ يساوره الآن في ان يكون غشاشا في الورق فعلا . وبشكل عام لقد اهتز تصور إيفان إيليتش للواقع خلال هذا اليوم ، احس بما يشبه دوار الراس ، او حلم اليقظة ، وكان عاجزا تقريبا عن ان يتحمل من حثي لآخر موجة عازمة من الحب لكل ما يرى ويسمع ، ففكر بان من الممتع حقا لو يلقي نفسه في الماء ، مثلا ، لينقذ تلك الفتاة المقصوفة الشعر ، لو انها سقطت من فوق العاجز . فليتها تسقط !

وفي منتصف الليل داهم داشا تعاس مفاجيء لذيذ ما كادت تصل معه الى مقصورتها ، وعند الباب قالت مودعة ، وهي تتناوب :

- ليلة سعيدة . عاين وراقب غشاش الورق ذاك .

اتجه إيفان إيليتش الى الدرجة الاولى من ظهر السفينة في الحال ، حيث كان عميد الجامعة المؤرق يقرأ مؤلفات ديماش الأب . نظر إيفان إيليتش اليه بعض الوقت ، وفكر مع نفسه بأنه رجل رائع ، رغم انه غشاش ، ثم عاد الى العمل الساطع الاضاء ، الذي كان يفوح بزيت المحركات ، والخشب المطلي باللاك ، ويعطر داشا . ومر بابها على اطراف اصابعه ، ودخل مقصورته ، واستلقى في سريره على ظهره ، وانمض عينيه ، واحس بان كيانه كله منضقق ، وبانه مغمم كلية بالاصوات والروائح ، وحرارة الشمس ، ويفرح حاد ، كالآلم في القلب :

ابقظه صفيح السفينة بعد الساعة السادسة صباحا . كانوا يقتربون من كينيشما . ارتدى إيفان إيليتش ملبسه بسرعة ، ونظر في الممشى . كانت الابواب كلها مغلقة ، والجميع ما زالوا نياما . وداشا نائمة ايضا . وفكر إيفان إيليتش : «يجب ان انزل هنا ، والا فسيكون سلووكي غريبا» ، وخرج الى ظهر السفينة ،

نظروا الى كينيشما هذه التي لاحت الى الانظار في وقت غير مناسب كليا ، فتابعة على ضفة عالية شديدة الانحدار ، بسلالها الخشبية ، وبيوتها الخشبية المترامية كيفما اتفق ، واشجار اليزفون الخضراء الصفراء الساطعة في شمس الصباح في منتزه البلدية ، وبغمامة الغبار الساكنة المعلقة فوق العربات الجارية على منحدر المدينة . ظهر ملاح يحمل حقيبته تلغيفين ، وهو يظا بقوة ظهر السفينة بكعبه قدميه الحافيتين . قال له إيفان إيليتش بلهجة متفعل :

- لا ، لا ، لا . غيرت فكري . ارجعها الى مكانها . قررت ان اسافر الى نيجنى . ليس لي حاجة للنزول في كينيشما . ضعها هنا ، تحت السرير . شكرا لك ، يا عزيزي .

لبث إيفان إيليتش جالسا في المقصورة زهاء ثلاث ساعات ، مفكرا بالطريقة التي سيفسر فيها لداشا تصرفه المبتذل والمتطفل ، حسب رايه ، وبدا واضحا ان التفسير غير ممكن : ليس يوسعه ان يلجأ الى الكذب ، او يقول الحقيقة .

وبعد الساعة العاشرة خرج الى ظهر السفينة نادما ، كارهها لنفسه مزدريا لها ، وقد وضع يديه وراء ظهره ، وسار في مشية غائصة ، وعلا وجهه تعبير زائف ، وباختصار ، صورة للابتدال . الا ان الفلق اخذ يساوره بعد ان دار دورة في السفينة ، ولم يقع بصره على داشا . لم تكن داشا موجودة في اى مكان . واحس إيفان إيليتش بعفان في حلقة . الظاهر ان شيئا ما قد حدث . وفجأة وقع عليها وقوعا . كانت جالسة على الكرسي المضمفون في المكان الذي جلست فيه امس ، بادية الحزن ساكنة . وكانت تضع على ركبتيها كتابا وكهشري . ادارت راسها الى إيفان إيليتش ببط ، وانسعت عينيها ، وكانها ذلك عن قزع ، وامتلأتا بهجة . وعلا خديها تورد ، وتدرجت الكهشري من ركبتيها . قالت خافضة الصوت :

- انت هنا ؟ لم تنزل ؟
ابتلع إيفان إيليتش غصته ، وجلس الى جوارها ، وقسال بصوت لارفة فيه :

- لا اعرف كيف ستتظنرني الى تصرفي ، ولكنني لم انزل في كينشما عن عمد .
- كيف سأنظر الى تصرفك ؟ لن اقول ذلك .
وضحكت داشا ، وقبأة وضعت يدها في كفه ببساطة وحنان ، حتى ان راسه عاد يدور طوال اليوم اشد مما دار يوم امس .

١٠

وفي حقيقة الأمر حدث في المصنع الميكانيكي ما يلي : في مساء ماطر سرت في سماكه الفسقورية غيوم تسوقها الريح ، ظهر رجل غريب يرتدي ممطرا مطايطا مرفوع القلنسوة يسير بين جمع من العمال العائدين الى بيوتهم بعد العمل ، في زقاق ضيق نثن موحل بوحل الفحم والحديد الخاص الذي يكثر عادة في الشوارع المتلصقة بالمصانع الكبيرة .

سار بعض الوقت في اثر الجميع ، ثم توقف وراح يوزع المنشورات ذات اليمين وذات الشمال ، قائلا بصوت خفيض :

- من اللجنة المركزية . . . ، اقراوه ، يا رفاق .
تناول العمال المنشورات اثناء سيرهم ، واخفوها في جيوبهم ، وتحت قيعاتهم .

وبين وزع الرجل ذو الممطر المطايطي جميع المنشورات تقريبا ظهر احد الحراس بالقرب منه شاقا طريقه بكتفه خلال حشد العمال بقوة ، وقال على عجل «انتظروا» وامسك ممطره من الخلف . الا ان الرجل ، وهو المبلل الزلق الممسك ، خلص نفسه ، وركض . وصدرت صفارة حادة ، ردت عليها صفارة اخرى من بعيد . وسرت ددمة خافتة بين الجمع المتضائل . الا ان المهمة قد تمت ، واختفى الرجل .

ويعد يوم او يومين من الحادث ، لم تبدأ ورشة البرادة العمل منذ الصباح ، مفاجئة بذلك ادارة المصنع الميكانيكي ، وقدمت مطالب ليست خطيرة جدا ، ولكنها حازمة .

وسرت عبارات غير محددة ، وملاحظات وكلمات غامضة متطايرة كالشرر في مباني المصنع الطويلة المتسرب اليها ضوء ضعيف من خلال النوافذ القذرة والسقوف الزجاجية المسخمة ، وراح

العمال الواقفون عند المخارط ينظرون نظرات غريبة الى رؤسائهم وهم يهرون بهم ، ويتتظنون بتاثر مكثوم التعليمات اللاحقة .
وبينما كان الاوسطة الاقدم بافلوف ، وهو واش ، يسدور

قرب مكبس يشتغل على القوة المائية ، سقطت مصادفة سبيكة حمراء متفتدة على قدمه وسحقته اسقفا ، فارسل صرخات وحشية . وعندئذ شاع في المصنع ان شخصا قد قُتِل . وفي الساعة التاسعة اندفعت سبابة الليجوزين الهائلة العائدة لكبير المهندسين داخله فناء المصنع كالصاعقة .

وصل ايفان ايليتش تليفين في الساعة المعتادة الى ورشة الصهر ، وهي عبارة عن مبنى هائل دائري ارضها طينية ، وافرانها مبنية عند الجدران ، وقد تحطم الزجاج في بعض نوافذها ، وتدلت سلاسل من اذرع الرافعات . وتوقف تليفين عند الباب ، وحرك كتفيه من برودة الصباح ، وصافح الاوسطة بونكو بصرح ، وكان قد تقدم منه .

كانت ورشة الصهر قد تلقت طلبا مستعجلا لصنع قواعد متحركة للآلات ، فاخذ ايفان ايليتش يتحدث مع بونكو عن العمل القادم متشاورا معه باستغراق وبطريقة جدية حول اشياء ليست موضع شك عند اي واحد منهما . وقد ادت هذه العيلة الصغرة الى ان يخرج بونكو مملطنا من المحاوراة تماما ، وقد ارشى اعتزازه بنفسه لانه قد بدا العمل في ورشة الصهر منذ خمسة عشر عاما كعامل بسيط ، وهو الآن اوسطة اقدم يعتز بمعارفه وخبرته اعتزازا كبيرا جدا ، بينما كان تليفين موقنا بان بونكو اذا اطمان الى عمل فان هذا العمل سيسير سيرا سريعا جيدا .

تحول ايفان ايليتش في ورشة الصهر متحدئا الى عمال الصهر والقولبة بلهجة رفاقية شبه مازحة كانت تصحح اكبر الافضاح عن العلاقات المتبادلة بينه وبين كل واحد منهم . وكانه يقول له : انا وانت تقوم بعمل واحد ، فمعنى ذلك اننا رفيقان . الا انتي مهندس ، وانت عامل ، اذن ، فنحن في الواقع عدوان ، ولكن ما دام احدنا يحترم الآخر فلن يبقى امامنا الا ان ينكت الواحد على الآخر .

اتجهت رافعة الى احد المصاعمر مغلقة سلسلتها المصلصلة . واستقبلها عاملان ضليعان ضخمان هما فيليب شوبين ذو الشعر

الذى وخطه الشيب ، والنظارة المدورة ، وايغان اوريشنيكوف
القوى ذو الجسم الرياضى واللحية الجماء والشعر الفاتح اللون
المشودود بنطاق ، والعينين الزرقاوين . واخذ الاول يزنح بالعتلة
الغطاء الحجرى عن واجهة الفرن ، بينما شد الثانى كلابة الرافعة
الى البيوتقة الطويلة المبيضة من الحرارة . فرتمت السلسلة
وتأرجحت البيوتقة ، وطافت في الهواء الى وسط الورشة موشوشة ،
متوهجة ، نائرة كشرة من الخبث .

قال اوريشنيكوف :

- قف . اخفض .

وعرة اخرى قمعت الرافعة ، ونزلت البيوتقة ، وانصب على
الارض سيل باهر اللون من البرنز ، فاذا بنجيمات خضر متفجرة ،
مضيئا ستقف الورشة المقوس بوجه برتقالى . وفاحت رائحة
النحاس الحلوة المقرزة ، ورائحة احتراقه .

وفي اثناء ذلك افتتح مصراعا الباب المزودج المؤدى الى المبنى
المجاور ، ودخل الى ورشة الصهر عامل شاب بخلطى سريعة حازمة
وقد ارتسم الشحوب والغيظ على وجهه . وصاح بصوت حاد
خشن :

- واقفوا العمل . . . اخرجوا !

وحده تليفين بنظرة جانبية ، وقال :

- هل سمعتمونى ، ام لا ؟

اجاب اوريشنيكوف بهدوء :

- سمعنا ، سمعنا . لا تصرخ - ورفع راسه الى الرافعة ،

وقال : دميتري ، لا تم ، تحرك .

وقال العامل حاشرا يديه في جيبه :

- حسنا ، اذا سمعتمونى فافعلوا ما تروته صائبا . لن نطلب

اليكم مرة اخرى .

واستدار بحركة شديدة ، وخرج .

كان ايفان ايليتش قد جلس الى قطعة مصبوبة حديثا وراح
يكشط في عنابة التراب بقطعة سلك . اما بوكتو الجالس على مقعد
عالم الى منضدة عالية عند الباب فقد اخذ يحك بسرعة لحيته الشيباء
الصغيرة الشبيهة بلحية العنز . وقال مديرا بعينه :

- اتارك العمل سواء اودت ام لم ترد . ولكن هل يفكر
هؤلاء بم ستعلم الاطفال اذا طردوك من المصنع ، ام تراهم لا
يفكرون ؟

اجاب اوريشنيكوف بصوت كثيف :

- الافضل الا تمس هذه الامور ، يا فاسيلى ستيبانوفيتش .

- وكيف لامسها ؟

- لان ذلك امر يصعب . فانت ستلجأ الى الرؤساء وتحابيهم .

فما عليك الا ان تصمت .

سأل تليفين اخيرا ، ونظر الى اوريشنيكوف :

- ما سبب الاضراب ؟ ما هى المطالب ؟

اشاح اوريشنيكوف بصره . فاجاب بوكتو :

- اضرب عمال ورشة البرادة . في الاسبوع الماضى حول
ستون من مغارطهم الى العمل بالقطعة على سبيل التجربة . وفي
النتيجة يظهر انهم لا يكسبون ما كانوا يكسبون من قبل ، ويتعين
عليهم ان يشتغلوا اوقاتا اضافية . وها هم قد علقوا قائمة كاملة
عند الباب في المبنى السادس بمطالب مختلفة ، وليس كبيرة .

وتغمس الريشة في الدواة غاضبا ، وشرع في تسجيل القائمة .

وضع تليفين يديه وراء ظهره ، وسار خلال الاقرا ن ، ثم قال ،

وهو يعاين من خلال فتحة مستديرة يتراقص وراءها البرنز المذاب

متوليا كالأفاعى في النار البيضاء التى لا تحتمل :

- يا اوريشنيكوف ، اطن ان هذه القطعة ظلت هناك وقتا

اطول مما يجب ، اليس كذلك ؟

خلع اوريشنيكوف منزره الجلدى دون ان يجيب ، وعلقه

على عسما ر ، ولبس ثبعة من جلد الخروف ، وسترة طويلة حسنة

النوع ، وقال بصوت عميق كثيف تردد في الورشة كلها :

- اوقفوا العمل ، يا وفاق . وتعالوا الى المبنى السادس ،

الباب الاوسط .

وسار نحو باب الخروج .لقى العمال الادوات صامتين .

بعضهم نزل من الرافعة ، والبعض الآخر طلع من حفرة في الارض ،

وسار الجميع في حشد وراء اوريشنيكوف . وفجأة حدث شيء عند

الباب . ارتفع صوت جنونى متحول الى زعيق :

- تكتب ؟ ... تكتب ، يا ابن الكلبة ؟ سجل اسمي ،
واخبر الرؤساء . . .

وكان ذلك صوت عامل القولبة الكسي نوسوف يصرخ
ببونكو . وكان وجهه المتعب غير المملوق منذ فترة طويلة بعينيه
الكدرتين الغائرتين يختلج ويلوحي ، وقد انتفخ ودج في رقبته
التحيلة ، وكان ، يضرب حافة المنضدة بجمع يده الأسود صارخا :
- مصاصو دماء ! .. معذبون ! .. سنجد لكم ما يسكنكم
ايضا ! ..

عند ذلك مسك اوريشنيكوف بنوسوف من جذعه ، وأبعده
من المنضدة العالية بيسر ، وسار به الى الباب . فهذا هذا حالا ،
وفرع الورشة .

وعند الظهر كان المصنع كله مضربا . سرت شائعات بان
ثمة تلاقف في مصنعي اوبوخوفسكي ونيفسكي للالات . وكان
العمال يقفون في باحة المصنع بجماعات كبيرة منتظرين نتيجة
مفاوضات الادارة مع لجنة الاضراب .

وكان الاجتماع معقودا في دائرة المصنع . وقد زعت الادارة ،
وقامت بتنازلات ، ولم تبق الا عقبة واحدة ، هي مطلب العمال في
فتح الباب الموجود في السياج المصنوع من الالواح الخشبية لئلا
يضطروا الى الدوران وشق طريقهم خلال الوحل مسافة ربع فرسخ .
ولم يكن هذا الباب يهم احدا في الحقيقة ، الا ان الامر تحول الى
نوع من الاعتداد لكل من الطرفين ، واصرت الادارة فجأة على رايها ،
وبدأت نقاشات طويلة . وفي تلك الاثناء جاء في التلفون امر من
وزارة الداخلية : رفض جميع مطالب لجنة الاضراب ، والامتناع
عن اجراء اية مفاوضات معها حتى اشعار آخر .

وقد افسد هذا الامر القضية كلها افسادا كبيرا حتى ان كثير
المهندسين انطلق الى المدينة على الفور لتوضيح الامر . ودُهِيل
العمال ، وكان الشعور السائد مسالما بالاحرى . دخل بعض
المهندسين في الحشد شارحين باسطين اذرعهم . بل وصدر ضحك
في مكان ما . واخيرا ظهر على مدخل الدائرة المهندس بوليين الضخم
الركن الاثني ، وصرخ بصوت تردد في الفناء كله بان المفاوضات
ارجت الى الغد .

بقي ايفان ايليتش في ورشة الصهر حتى المساء ، ولما رأى
الافران ستنطفئ على اية حال ، حك علباه ، وذهب الى بيته .
كان المستقبليون جالسين في غرفة الطعام ، وقد ابدوا جميعا اهتماما
شديدا بما يحدث في المصنع . الا ان ايفان ايليتش لم يحدثهم
بشيء ، وراح وهو مستغرق في افكاره يعض الشطائر التي قدمتها
له يلزافيتا كييفنا ، ثم انصرف الى غرفته ، واغلقها عليه بالمفتاح ،
واستلقى لينام .

لدى اقترابه من المصنع في اليوم التالي رأى وهو ما يزال
على مسافة بعيدة ، ان في الامر سوءا . كانت جماعات
العمال تقف في كل الزوايا تتشاور . وقد احتشد قرب بوابة
المصنع جمهور غفير يقدر بعدة مئات ، يظن ظنين خلية نحل
مستتارة .

كان ايفان ايليتش يرتدي قبعة ناعمة ومعطفا مدنيا ، فلم
يسترح انتباه احد . تسمح الى جماعات من المتجادلين فعرف ان
اعضاء لجنة الاضراب جميعا قد اعتقلوا ليلا ، وان الاعتقال ما يزال
جاريا بين العمال ، وان لجنة جديدة قد انتخبت ، والمطالب التي
اعلنوها الآن مطالب سياسية ، وان فناء المصنع الآن مملوء
بالقوزاق ، ويقال ان امرا قد صدر بتفريق الجمهور ، الا ان القوزاق
قد رفضوا كما زُعم ، واخيرا ان عمال مصنع اوبوخوفسكي ،
ومصنع نيفسكي لبناء السفن وبعض المصانع الصغيرة قد انضموا
الى الاضراب .

عزم ايفان ايليتش على ان يشق طريقه الى الدائرة ليطلع
على الاخبار ، الا انه بعد جهد جهيد لم يستطع الا ان ينفسه
حتى البوابة . وهناك كان قوزاقيان جسيما انزلت قبعتها
على جانبها وانفجرت لعيتاهما الى الجانبين يقفان الى جانب الحارس
بابكين المعروف المتعس في فروته الضخمة . وكانا ينتظران بمرح
ووقاحة الى وجوه العمال المؤرقة السقيمة ، وكلاهما متورد الوجنتين ،
مشبعين غداء ، ذا مظهر مشاكس وهمازي .

فكر ايفان ايليتش «اجل ، ان هذين القوزاقيين لن يرعويا
عن شيء» وهم «بالتحول الى الفناء» ، الا ان اقرب القوزاقيين اليه
سد طريق الدخول عليه ، وتفرس فيه بعينين وقحتين ، وقال :

- الى اين ؟ ابتعد !

- على ان اذهب الى الدائرة . انا مهندس ،

- قلت لك : ابتعد !

عندئذ ترددت اصوات من المحتشدين :

- كفره ! جلاوزة !

- لم يكفكم ما سفتكم من دعائنا !

- شبابين متخون ! محتكرو اطيان !

وفي تلك البرهة شق شاب قصير ابتر الوجه ذو انف كبير معكوف طريقه الى الصوف الامامية . كان يرتدى معظلا ضخما لا يناسب حجمه ، ويضع على شعره الاجعد قبعة عالية في وضع اهرج . وتكلم متعتما هازا ذراعه الواهنة :

- ايها الرفاق القوزاق ! السننا روسا جميعا ؟ على من تشهبون السلاح ؟ على اخوتكم . وهل نحن اعداؤكم لتلقلقوا النار علينا ؟ ماذا نحن نريد ؟ نحن نريد السعادة للروس جميعا . نريد ان يكون كل انسان حرا . نريد ان نقضى على التعسف
زم احد القوزاقين شفتيه ، وتفخض الشاب بازداء من راسه حتى قدميه ، واستدار ، واخذ يخلو على طول البوابة . بينما اجاب الثاني بصوت رسمي مهيب :

- لن نستطيع السماح باية تمردات ، لاننا اقسنا اليمين . وعندئذ صاح الاول بالاشاب الاجعد الشعر ، بعد ان فكر بالجواب على ما يبدو :

- اخوان ، اخوان . . . شند بنطلونك ، فقد تفقده .

وضحك القوزاقيان كلاهما .

ابتعد ايفان ايليتش عند البوابة ، فان موجة الحشد كانت تدفعه جانبا ، نحو السياج ، حيث تكومت كومة حدائد صدئة . وبينما كان يحاول ان يصعد كومة الحدائد ، وقع بصره على اوريشنيكوف الذي كان يمضغ قطعة خبز بهدوء ، وقد سرح قبعته من قراء الخروف على مؤخرة راسه . غمز اوريشنيكوف لتلبيغين بحاجبيه ، وقال بصوت عميق :

- نعم الاحوال ، يا ايفان ايليتش .

- مرحبا ، يا اوريشنيكوف . يم سينتهي كل هذا ؟

- ونحن نهتف قليلا ، ثم نخلع قبعاتنا طائعين . وهذا كل

ما تبقى من التمردات : انهم ارسلبوا القوزاق الينا . قيم سنحاربهم ؟ اذفهم بهذه البصلة فاقتل اثنين منهم ؟

وفي تلك الاثناء حدثت دمنمة في الجمع ثم تلاشت . وفي السكون صدر عند البوابة صوت امر حاد :

- يا سادة ، ارجوا ان تتفرقوا الى بيوتكم . وسينظرون في رجاواتكم . ارجوكم ان تتفرقوا بهدوء .

اضطرب الجمع ، واندفع الى الورا ثم الى ناحية . ابتعد فريق ، وتقدم آخر . واشتد لفظ الكلام . وقال اوريشنيكوف :

- للمرة الثالثة يرجون دون تهديد .

- من يقول هذا ؟

- ضابط قوزاقي ،

- يا رفاق ، يا رفاق ، لا تتفرقوا .

تردد صوت منفعل ، وقفر على كومة الحدائد الى الخلف من ايفان ايليتش رجل صاحب منفعل ذو قبعة كبيرة ، ولحية سوداء شعفاء كانت سترته الابنية مزودة تحتها يدبوس انجليزى .

وقال الرجل بصوت جهير بعد ان مد يدين ضم قبضتيها :

- يا رفاق ، لا تتفرقوا مهما كلف الامر . لقد عرفنا من مصدر هو ثوب ان القوزاق رفضوا اطلاق النار علينا . والادارة تجري مفاوضات مع لجنة الاضراب عن طريق وسيط . وفضلا عن ذلك

يتناقش عمال السكك الحديدية الآن اعلان اضراب عام . والحكومة في ذعر .

زعق صوت جنونى :

- برافو !

وسرى ظنين في الحشد ، وغاص الخيطيب فيه ، وغاب . وكان الناس يتوافدون ركضا الى الزقاق .

بحث ايفان ايليتش بصره عن اوريشنيكوف ، الا ان هذا كان قد تلك اللحظة واقفا بعيدا عنه وقرب البوابة . وترددت كلمة «ثورة» ، «ثورة» غير مرة .

شعر ايفان ايليتش بان انفصالا بالبخوف والفرح يملا كيانه كله . ارتقى كومة الحدائد واجال بصره في الحشد الذي صار الآن ضغما ، وفجأة رأى اكوندين على بعد خطوتين منه . كان يضع على

عينيه نظارة ، وعلى رأسه كيببها لها طرف كبير ، ويلبس عباءة سوداء . شق طريقه اليه رجل في قبعة مستديرة وشفطاه ترتجان . وسمع تليغين ما قال الرجل لأكوندين :

- اذهب ، يا إيفان افاكوموفيتش ، انهم ينتظرونك .
رد أكوندين باقتضاب وميظ :

- لا اذهب .

- اجتمع للجنة كلها . وهم لا يريدون ان يتخذوا قرارا بدونك ، يا إيفان افاكوموفيتش .

- انا باق على رأبي ، وهذا معروف .

- لقد فقدت صوابك . . . ها انت ترى ماذا يجري .

وانا اقول لك ان اطلاق النار سيبدأ بين لحظة وأخرى . . .
واخذت شفطاً الرجل ذي القبعة المستديرة ترتجان .

قال أكوندين :

- قبل كل شيء لا ترفع صوتك . اذهب واتخذ قرارا مساوماً . انا لا اشترك في استفتاء . . .

- اللعنة ، اللعنة . جنون محض !

قال الرجل ذو القبعة المستديرة ، وشق طريقه في الحشد .

وتقدم جنباً من أكوندين العامل الذي دعا بالأمس عمال ورشة تليغين الى الاضراب ، فقال له أكوندين شيئاً . اوماً له العامل برأسه ، واخفى . ثم حصل الشيء نفسه - عبارة قصيرة وهزة رأس - مع عامل آخر .

ولكن صيحات تحذيرية ترددت بين الحشد في تلك اللحظة .
وفجأة صدرت ثلاث طلقات جافة قصيرة . وخيم سكوت على الفور .

وسمِع صوت مكتوم مطوَّط وكأنه عن قصد «آ-آ-آ» .
وتحرك الحشد ، وترجع عن البوابة . كان احد القوزاق يرقد في

الرجل الذي عجنته اقدام ، ووجهه الى الأرض ، وركبناه معكوفتان على بطنه . وفي الحال سرت صيحة في كتلة الناس كلها : «لا حاجة ، لا حاجة» . فقد فتحت البوابة . الا ان طلقة رابعة من مسدس

صدرت من جانب ، وتطارت بعض الحجارة ، فارتطمت في الحديد .
وفي تلك اللحظة رأى تليغين اورشنيكوف واقفاً حاسر الرأس ،
فاغر الفم ، وحيداً امام الحشد المترامض في فوضى . بدا وكأنه

قد انغرس في الأرض من الرعب يعضاينه الطويلين . وفي ذات الوقت رنت كضربات سوط طلقات طويلة من بندقيه - واحدة وثانية وأخرى ، وإذا بأورشنيكوف يركع على ركبتيه برفق ، وينطح على الأرض .

بعد اسبوع انتهى التحقيق فيما حدث في المصنع . فكان إيفان ايليتش في قائمة الاشخاص الذين استمبته في عطفهم على العمال . وعندما استدعى الى الدائرة تحدث مع الادارة بحدّة ، على غير توقع من الجميع ، وقدم استقالته .

١١

كان الدكتور دميتري ستيبانوفيتش بولافين والد داشا ، جالساً في غرفة الطعام قرب مساور كبير متصاعد البخار يطالع الصحيفة المحلية «نشرة سامارو» وكان كلما احترقت سيكارتة حتى عقبها القطن يتناول سيكارة اخرى من علبة سيكانر سميكّة مملوءة ، ويشعلها من عقب السيكارة . سعل ، وصعد الدم الى وجهه ، وحك صدره المشعر تحت قميصه المفتوح . كان يطالع ويرسفن الشاي الخفيف من صحن الفنجان ناثرًا الرمّاد على الصحيفة ، والقميص ، ومفرش المائدة .

ترامى صرف سرير من وراء الباب ، ووقع اقدام ، ودخلت داشا الغرفة وقد الفت رويها على قميص النوم ، وهي ما تزال متوردة ناعسة . نظر دميتري ستيبانوفيتش الى ابنته من فوق نظارته الانيقة المصدوعة بعينين ساهرتين باردتين كميني داشا ، وقرب خده لتقبيله . قبلته داشا وجلست قبالة مقربة منها الخبز والزبدة . وقالت :

- الريح مرة أخرى .

والواقع ان ريحا قوية حارة ما تزالت تهب لليوم الثاني . كانت سحابة من الغبار الكلسي تجثم على المدينة ، وتبرقّس الشمس . وكانت سحب كثيفة واخزة تجرى دقات عبر الشوارع ، وكان السابلية القلائل يديرون لها ظهورهم . وكان الغبار ينفذ في كل شق ، وفي اطر النوافذ ، ويستقر طبقة رقيقة على افاريسز النوافذ ، ويهص بين الاسنان . وكانت الريح تهز زجاج الشبائبيك ،

وتقعق بالسقف الحديدى . وفي الوقت ذاته كان الجو حارا وغرا ، بل وان رائحة الشارع نفذت الى الغرف .

قال دميتري ستيبانوفيتش :

- وباء من امراض العيون . شئ لطيف .

وتنهدت داشا .

قبل اسبوعين توادعت مع تليغين على سلم السفينة وقد رافقها في آخر الامر حتى سامارا ، ومنذ ذلك الحين وهى تعيش مع ابيها بدون عمل في شقة جديدة فارغة غير مالوفة لها ، حيث كانت صناديق الكتب المغلقة تقف في الصالة ، ولم تكن الستائر قد علقت بعد ، وكان من المتعذر العثور على شئ فيها ، كما لم يكن فيها مكان يستريح المرء فيه ، ان العيش فيها يشبه العيش في حانة .

راحت داشا تقلب الشاي في القدر ، وتنظر مكتئبة الى سحائب الغبار الرمادى تتطاير وراء النافذة من تحت الى فوق . كان يغيل اليها ان عامين قد انقضيا كالحلم ، وها هى قد عادت الى البيت ثانية ، ولم يبق من كل الأمانسى والانفعالات وضروب الناس ، من بطرسبورغ الصاخبة غير هذه السحائب من الغبار . قال دميتري ستيبانوفيتش ، وهو يقلب الصحيفة :

- تلتوا الارشيدوق .

- ايهم ؟

- كيف ايهم ؟ ارشيدوق التمسنا اغتيال في ساريفو .

- هل كان شيا ؟

- لا اعرف . صبى لى قدحا آخر .

التي دميتري ستيبانوفيتش قطعة سكر صغيرة في فمه - وكان يحشى الشاي دائما خلال قطعة سكر في الفم - ونظر الى داشا نظرة هازئة . وسأل وهو يرفع صحن الفنتجان .

- خبرينى ارجوك ، هل انصلت يكاترينا عن زوجها نهائيا .

- لقد اخبرتك ، يا بابا .

- حسنا ، حسنا . . .

وتناول الصحيفة من جديد . مشت داشا الى النافذة . يسا للسان ! وتذكرت السفينة البيضاء ، والشئ الرئيسى ان الشمس

كانت تملأ الربح : السماء الزرقاء ، والنهر ، وسطح السفينة النظيف ، وكل شئ ، كل شئ مغمسور بالشمس ، والندوة ، والطراوة . عندئذ بدا ان ذلك الطريق المتلاهي ، اى النهر العريض الملتوى ببطء ، والسفينة «فيودور دوستوفسكى» وعليها داشا وتليغين ، كل ذلك ينصب ويتداخل في خضم من الضياء والبهجة الازرق بلا ساحل ويتحول الى تعيم .

آنذاك لم تتعجب داشا ، رغم انها كانت تدرن ان تليغين كان يعاني ، ولم تكن هى تعترض على هذه المعاناة . ولكن لم العجلة ، وكل لحظة من لحظات تلك السفرة كانت طيبة رغم ذلك ، وهما يسيطان الى السعادة على اية حال .

اصبح ايفان ايليتش لدى اقترابهما من سامارا شاحب الوجه ، وكف عن المزاح . حدثت داشا نفسها : نحن مبحران نحو السعادة ، وشعرت بنظرة اليها ، وكأنها نظرة رجل قسوى مرح مرت عليه عجلة . كانت مشفقة عليه ، ولكن ماذا كان يوسعها ان تفعل ، وكيف تدعه يقترب منها ، ولو قليلا ، وقد كانت تدرن ان ذلك لو حدث لبدأ في الحال ما كان يجب ان يحدث في آخر الرحلة . انهما ، عندئذ ، لن يصلوا الى السعادة ، بل مستشرق منهما يجرع في منتصف الطريق . ولهذا السبب اكتشفت بان تكون حنونة معه فقط . اما هو ، فقد خيل اليه انه سيهين داشا اذا لمح ، ولو بكلمة واحدة ، الى ما كان السبب في سهاده اربع ليالى ، احس بنفسه في ذلك العالم القريد تصف الشفاف ، حيث جميع المظاهر قد انزلت عنه مثل ظلال في ضباب ازرق ، وحيث كانت عيننا داشا الرماديتان تسمعان وعيدا وقلقا ، وحيث لا واقع غير الروائع ، وضوء الشمس ، والم في القلب لا يقتر . في سامارا استقل ايفان ايليتش سفينة اخرى ، وعاد بها . واخفى بحر داشا المتلاهي الذي كانت تبهر عليه يهدوء غامر وتكثت ، وارتفعت سحائب من الغبار وراء زجاج النافذة المرتفع . قال دميتري ستيبانوفيتش :

- سيجر المسايويون آذان الصريبين هؤلاء - ثم خلس نظارته من انفه ووضعها على الصحيفة ، واكمل : - اما انت ، فما هو رايك في المسئلة السلافية ، يا قطيطة ؟

هزت داشا كتفيها ، وهي واقفة عند النافذة ، وسألت مغمومة :

- هل ستأتني للغداء ؟

- لا ، على الاطلاق . عندي حالة حمى قرمزية في بيت بوستنيكوف .

تناول دميتري ستيبانوفيتش صدر قميصه الشكلي من على المنضدة بحركة بطيئة ، وارتداه ، وزرر سترته من قماش الشنتونج ، وتخص جيوبه ليظمن الى ان كل شيء في مكانه ، وشرع يمشط شعره الاشبب الأجدع على جبينه بمشط مملوم .

- على كل حال ، ماذا بخصوص المسألة السلافية ؟

- أوه ، يا الهي . لا اعرف ، يا بابا . لماذا تلح علي ؟

- اما انا فلي رأيي الشخصي ، يا داريا دميترييفنا .

كان يكره كثيرا ، كما يبدو ، ان يذهب الى بيت بوستنيكوف كما انه ، بوجه عام ، يهوى الكلام في السياسة في الصباح ، وهو وراء السماور . تابع قوله :

- المسألة السلافية - هل انت مصغية ؟ - مسمار

السياسة العالمية . وكثير من الناس يفشلون في هذه المسألة . ولهذا السبب فان البلقان موطن السلاف الأصلي انما هو الزائدة الدودية لاوروبا ، ربما تريدان ان تسأليني : لماذا ؟ فاجيبك . - وهنا اخذ يطوى اصابعه السميكة : اولاً ، ان السلاف

اكثر من مائتي مليون ، وهم يتوالدون كالارانب ، ثانياً انهم استطاعوا ان يخلقوا دولة عسكرية جبارة كالامبراطورية الروسية ، وثالثاً ان الجماعات السلافية الصغيرة ، رغم الاندماج ، تنظم نفسها في كيانات مستقلة ، وتطمح الى ما يسمى بالتحالف السلافي العام ، رابعاً - وهذا الأهم - ان السلاف يكونون طرازاً من «الباحث عن الله» جديداً كلياً من الناحية الخلقية ، وخطراً للغاية في بعض الوجوه على الحضارة الاوروبية . ان «البحث عن الله» -

هل انت تسمعي ، يا قطيطة ؟ هو رفض وتهديم للحضارة الجديدة كلها . وانا ابحت عن الله ، اي عن الحقيقة في نفسي انا . ولأجل ذلك يجب ان اكون حراً بشكل مطلق ، وانا اهمد الأسس الخلقية التي دُفنت تحتها ، اهمد الدولة التي تصفدني بالاعغال .

قال داشا جزعة :

- اذهب الى بيت بوستنيكوف ، يا بابا .

- لا ، ابحتي عن الحقيقة هناك .

وتقر باصبعه ، وكأنه يشير الى باطن الأرض ، الا انه

صمت فجأة ، واستدار نحو الباب . كان الجرس يرن في الرواق .

- داشا ، اذهبي لفتح الباب .

- لا استطع ، فانا لم ارتد ثيابي .

صاح دميتري ستيبانوفيتش :

- ماتريونا ! آه ، امرأة لعينة . - وذهب بنفسه ليفتح

الباب ، وعاد في الحال يحمل في يده رسالة . وقال :

- انها من كاتيا . انتظري ، ولا تلتقطيها من يدي ، سأكمل

حديثي اولاً . . . اذن ، ذ «البحث عن الله» يبدأ ، قبل كل شيء ،

من التهديم ، وهذه المرحلة خطيرة جداً ، ومعدية . وروسيا الآن

مصابة بهذه المرحلة من العرض بالذات . . . اخرجني مساء الى

الشارع الرئيسي وستسمع من الناس يزعمون : «النجدة» . في

الشارع يتسكع قطاع الطريق . انها شقاوة فاحشة وقد عجز

اليوليس عن السيطرة عليها . ان اولئك الفتيان الذين لا اخلاق

لهم هم «باحثون عن الله» . هل فهمت ، يا قطيطة ؟ وهم اليوم

يستتهرون في الشارع الرئيسي ، وغدا سيبدأون بالاستهتار في

ارحاء الدولة الروسية كلها . والشعب قاطبة يعانى من المرحلة

الاولى من «البحث عن الله» مرحلة هدم الاسس .

وتنشق دميتري ستيبانوفيتش ، وأشعل سبكارة .

اختلطت داشا من اصابعه رسالة كاتيا ، وذهبت الى غرفتها . بينما

ضى في اثبات شيء ما بعض الوقت ، وسار صافقاً الابواب في الشقة

الواسعة تصف الفارغة المغبرة بأرضيتها العظيمة ، ثم ذهب الى

وجهته .

كتبت كاتيا في رسالتها :

«عزيزتي داشا . انا لا اعرف حتى الآن شيئاً عنك ولا عن

نيقولاى . انا الآن في باريس . والموسم هنا في ذروته . والنساء

يلبسن فساتين ضيقة جداً في الاسفل . والشيفون في

الموضة - باريس جميلة جداً ، ليتك ترين ذلك : وكل الناس في

ظل يقرع السقف طوال الليل ، وطلع صباح الأحد هادئا رطبا مقسولا .

ما كادت داشا تنهض في الصباح حتى جاء لزيارتها صاحب للعائلة قديم هو سيمين سيمينوفيتش غفيادين موظف الاحصاء في البلدية ، وهو رجل نحيل محدودب ، بادي الشحوب دائما ذو لحية شقراء ، وشعر مصفوف وراء اذنيه . وكانت تفوح منه رائحة تشبه - ولم يكن يعاقر الخمرة ، ولا يدخن ، ولا يأكل اللحم ، وكان تحت رقابة البوليس . سلمت على داشا ، وقال دون اية مناسبة بصوت هازي : - لقد جئت اليك لتذهب الى الفولغا ، يا امرأة .

قالت داشا لنفسها : «ومكدا انتهى كل شيء بموظف الاحصاء غفيادين» . وتناولت مظلة بيضاء ، وسارت وراء سيمين سيمينوفيتش هيوطا الى الفولغا ، الى الرصيف الذي كانت الزوارق تقف عنده .

كان الجمالون والعतालون ، وهم رجال وشبان عراض البنائب واسمو الصدور حفاة حاسرو الرؤوس ، عراة الرقاب ، يطوفون بين عنابر الحبوب الخشبية الطويلة ، واكوام الاخشاب وبالات الصوف والفلن ، كان بعضهم يلعب لعبة قذف النقود ، والبعض الاخر ينام على الاكياس والالواح . وعلى مسافة بعيدة كان زهاء ثلاثين رجلا يركضون على مسلم المركب المهترئة حاملين الصناديق على اكتافهم . وكان ثمة رجل سكران يقف بين العربات وقد كساء الوجه والغبار ، وتضرجت وجنته بالدم وكان يشتتم يتكاسل وفحش رافعا بتلونه بكلتا يديه .

قال سيمين سيمينوفيتش بلهجة تهذيبيية : - ان هذا الصنف من الناس لا يعرف اعيادا ولا استراحة ، اما انا وانت فذاهيان الى الاستمتاع بالطبيعة في وقت الفراغ كانسانيين ذكيين مثقفين .

ولفر رجلين حافيتين ضخمتين تعودان للشباب واسع الصدر ضخم الشفتين كان مبطوحا على الأرض ، بينما جلس شخص آخر على جذع ، وراح يعضغ خبزا . وسمعت داشا قسول الشاب المصطوح في اثرها :

باريس بلا استثناء يرقصون التانغو . وفي الافطار في الفترة بين تقديم صحن وصحن ينهض الناس ، ويرقصون ، وفي الساعة الخامسة ايضا ، واثناء الغداء ، ومكدا دواليك حتى الصباح . ولا مكان لي اتحاشي فيه الموسيقى . وفيها شيء من الحزن والعداوب والعلولة .

ويخيل اليّ دائما انني اشيع شبابه ، وشيئا لا يمكن ان يرد حين انظر الى تلك النسوة يقسماتين ذات الفتحاات الواطئة ، وعيونهن الموطرة بالازرق ، والى فرسانهن . وبشكسل عام انا احس بضجر . والتصور دائما ان شخصا ما لا بد ان يموت . وانا اخاف على ابي كثيرا . فقد تخطى سن الشباب منذ زمان . الروس هنا يملأون كل مكان ، وجميعهم من معارفنا . وفي كل يوم نجتمع في مكان ما ، وكانما لم تغادر بطرسبورغ . وبالمناسبة حدثوني هنا عن نيقيلاي ، وزعموا انه كان في علاقة قريبة جدا من امرأة عسى ارملة ولها ولدان وثالث طفل صغير . هل تفهمين ؟ وقد تألمت كثيرا جدا في بادي الامر . وفيما بعد شعرت ، لسبب ما ، بالشفقة على ذلك الطفل الصغير . . . آه يا عزيزتي داشا ، اود احيانا لسو يكون لي طفل . ولكن ذلك ممكن فقط اذا كان من رجل احبه . اذا تزوجت انتجبي طفلا . ليكن ذلك في بالك» .

اعادت داشا قراءة الرسالة عدة مرات ، ودمعت عيناها لا سيما في ذلك الطفل البريء من كل ذنب ، وجلست تكتب جوابا . وفرغت منه قبل الغداء ، وتقدت وحدها - لم تمس من الطعام الا قليلا - ثم ذهبت الى غرفة المكتسب واخذت تنبش في المجلات القديمة ، ووجدت رواية طويلة جدا ، واستلمت على الأريكة وسط الكتب المبعثرة ، وطالعت حتى المساء . وجاء والدها اخيرا مغفرا تعبيا ، وجلس الاثنان للعشاء ، وكان الوالد يسرد على جميع اسئلتها «اعا» . الا ان داشا استخلصت منه ان الطفل في ربيع الثالث ، والصاب بالحمى القرمزية قد مات . وتشمقت ديمتري ستيبانوفيتش ، بعد ان نطق بهذا التبا ، ووضع نظارته الانفية في محفظتها ، وذهب لينام . استلمت داشا في السرير ، وتغطت بالفرش حتى راسها ، وافرغت ما في صدرها باكية على مختلف الانبياء العزينة .

انقضى يومان . وانتهت زوبعة الغبار ي يعود ومطر مدرار

- فيليب ليت لنا مثلها .

فاجاب الآخر من قم ممثلي :

- مفرطة النظافة . تتطلب متاعب كثيرة .

كانت اشباح القوارب الصغيرة تتحرك في النهر المصفر العريض على انعكاسات الشمس الرجراجرة متجهة الى الشاطئ الرملى البعيد . وقد استأجر غنيادين واحدا من مثل هذه القوارب ، وطلب الى داشا ان تهتم بتدوير الدفة ، بينما جلس هو الى المجذافين ، واخذ يجذف بعكس التيار . وسرعان ما تقصد العرق على وجهه الشاحب .

- الرياضة شيء عظيم .

قال سيمين سيمينوفيتش ذلك ، واخذ يخلع عنه سترته ، وحلّ حالة البنطلون بشيء من الجفاء ، وحشرها بعيدا في مقدمة القارب . كانت له ذراعان نحيلتان ضعيفتان عليهما شعر طويل ، وكان طرفا رذنيه مصنوعين من السيلوليويد . فتحت داشا مظللتها ، وهدقت في الماء مقلصة عينيهما .

- اعذرني على سؤال غير متواضع ، ياداريا دميترييفنا . يقال في المدينة انك موشكة على الزواج ، اهذا صحيح ؟

- لا ، غير صحيح .

عندئذ رسم تكثيرية عريضة كانت غير ملائمة لاساريس وجهه المفكرة الساهمة ، وحاول بصوت ضعيف ان يفتي «آه ، نحن منحدرون مع الفولغا الام» الا ان العجل ركب ، وراح يجذف بكل قوته .

قابلهما من الاتجاه الآخر قارب مملوء بالناس . كانت ثلاث نساء من طبقة متوسطة في فساتين خضراء وقرمزية من الكشمير يقضمن حب عباد الشمس ، ويلفظن القشور في احضانهن . وقد جلس قبالتهم رجل له وجه سفاح ، في غاية السكر ، اجعد الشعر ، اسود الشاربين ، يقلب عينيه ، وكانه يختضر . ويعزف «البولكا» على الاكورديون . وكان شخص آخر يجذف بجنون ، مرتحا القارب ، بينما لوح ثالث بمجداف احتياطى ، وصاح على سيمين سيمينوفيتش :

- تنح عن الطريق ، يا رمة .

ومروا على قرب شديد صائحين لاعنين .

واخيرا انزلت القارب على القاع الرملى قرب شاطئ . ففزت داشا الى الشاطئ . اعاد سيمين سيمينوفيتش ارتداه حمالة البنطلون والسترة . وقال مقلصا عينيه :

- رغم اني من سكان المدن ، الا اننى اعشق الطبيعة دائما ، لاسيما اذا انضاف اليها قوام فتاة ، وفي ذلك اجد شيئا من تورغنغيف . لنذهب الى الغابة .

وسارا على الرمل الحار ، غائضين فيه حتى الكاحل . وكان غنيادين يتوقف بين لحظة واخرى ويمسح وجهه بمنديل ، ويقول :

- انظري ، اية بقعة فاتنة .

واخيرا انتهى الرمل ، وكان يجب ارتقاء عدوة قليلة الارتفاع تبدأ بعدها مروج قطع العشب في بعض الامكانها ، وتفتى الذبول في صفوفه . كانت زهور العسل تعبق برائحة حارة هناك ، وكانت شجيرة جوز كثيفة الاوراق تنحو فوق الماء على شفا خندق ضيق . وكان جدول ماء يترقق في منخفض ريان العشب ليصب في بركة اخرى مستديرة . وقد نمت على ضفتها اشجار زيزفون معمرة ، وشجرة صنوبر وعرة انبسط فرعها الوحيد كاليد . وعلى مسافة ابعد نما حرش من الزهور البرية البيضاء على تلمعة ضيقة من الارض . كان هذا المكان بقعة مفضلة لطيور الشنقب اثناء هجراتها . جلست داشا وسيمين سيمينوفيتش على العشب . كان الماء في وهاد ملتوية صغيرة ، تحت اقدامهما ، يعكس زرقة السماء ، وخضرة الشجر . وكان طائران رماديان صغيران يقفزان في اجمة غير بعيد عن داشا ، ويسقسقان سقسقة رتيبة . وكان حمام برى يعدل في شجرة بوحشة هديل من فارقة البقته . جلست داشا عادة ساقيةها ، ملقبة يديها على ركبتيها تصغي الى الحمام العاشق المهجور يناغيها من الغصان بصوت رقيق :

«داريا دميترييفنا ، آه ما الذى ذهالك - لم انت حزينة هذا الزمن ، تردين ان تبكي ؟ لم يحصل شيء بعد ، بينما انت كئيبة ، وكان الحياة قد انتهت انقضت ، توارت . مجرد انك متفجرة بطبعك» .

قال غفيادين :

- اريد ان اكون صريحا معك ، يا داريا دميترييفنا ، قبل
تسعين لى ان التي جانبنا بما يسمى بالمتعارف عليه ؟
- تكلم ، فسيان عندي .

اجابت داشا ، وقد استلقت على ظهرها مودسة واسها على
يديها لتنظر الى السماء ، لا الى عيني مجدتها الصغيرتين الزائفتي
النظر ، وكان سيمين سيمينوفيتش يختلس النظر الى جوريبها
الابيضين .

- انت فتاة ابية جريئة . وانت شابة جميلة تقور الحياة
في اعماق نفسك . . .

قالت داشا : ولنفرض ذلك .

- امعقول انك لم ترغبي مرة في تحطيم هذه الاخلاق
الموروثة من تربيتك ومحيطك ؟ امن المعقول انك باسم هذه
الاخلاق المفروضة من جميع ذوى المكانة مضطرة الى كبت غرائزك
الجميلة ؟

- ولنفرض اننى لا اريد ان اكبت غرائزى الجميلة ، فماذا
يكون ؟

سالت داشا ، وانتظرت جوابه بفضول كسول . كانت
الشمس تدفؤها ، وتجد تمتع في النظر الى السماء ، والى الغبار
المشمس ، الذى كان يملا كل تلك الزرقة المتراصة الاطراف ،
حتى انها لم تجد رغبة في التفكير او في الحركة .

صمت سيمين سيمينوفيتش حافرا الارض باصبعه . كانت
داشا تعرف انه متزوج من المولدة ماريا دافيدوفنا . وكانت
زوجته تأخذ اطفالها الثلاثة اكثر من مرة في كل عام ، وتهجره الى امها
التي كانت تعيش في بيت مقابل داره . وكان سيمين سيمينوفيتش
يعزى في البلدية هذه الهجرات الى طبع زوجته الحساس
والمضطرب . بينما عزتها هي في مستشفى المدينة الى استعداد
زوجها في كل دقيقة الى ان يخونها مع كل امرأة ، وهو لا يفكر
بغير ذلك . الا انه لا يخونها بسبب جنه وخوره ، وذلك شوه
مخجل تماما . وهي لم تعد تحتل رؤية وجهه الطويل ، الشبيه
بوجوه الشباطين . وكان سيمين سيمينوفيتش خلال هذه الخصامات

يعبر الشوارع عدة مرات في اليوم حاسر الرأس ، ثم يتصافى
الزوجان ، وتنتقل الزوجة الى بيته مع الاولاد والوسائد .

- اذا اختلت امرأة ورجل فان رغبة طبيعية تتولد لدى
المرأة في ان تكون له ، ولدى الرجل في ان يتملك جسدها - وسعمل
سيمين سيمينوفيتش ، ثم اردف قائلا - وانا ادعوك لان تكوني
صادقة وصريحة . انظرى في اعماق نفسك مستجدين الرغبة
الطبيعية لاحساس سليم تضطرم فيها وسط الاهواء والاكاذيب .
- لا تضطرم اية رغبة في نفسى الآن ، فما يعنى ذلك ؟

سالت داشا ، وكانت تحس بتسلية وارتهاء . رات تحلة
تطوف فوق رأسها ، في الاصفرار الشاحب لزهرة برية ، في الغبار
الاصفر . بينما مضى الحمام العاشق المهجور يهدل في شجيرة الحور :
«داريا دميترييفنا ، داريا دميترييفنا ، العلك عاشقة ؟ عاشقة ،
عاشقة ، كلمة شرف . ولذلك انت حزينة» . وشرعت داشا تضحك
لدى سماعها ذلك .

- يبدو ان الرمل تسرب الى حذائك . اسمحي لى بنفضه .
قال سيمين سيمينوفيتش بصوت خافت غريب ، وسحبها
من كعب حذاءها . عندئذ جلست داشا بسرعة ، وانزعجت منه
الغدا ، وشرته به على خده . وقالت :

- يا سفيه . لم تصور قط أنك رجل بهذه الوضاعة .
ليست حذاءها ، ونهضت ، والتقت المظلة ، وسارت نحو
النهر ، دون ان تنظر الى غفيادين .

وفكرت داشا وهي تهبط من العدة : «حقاء ، حقاء . لم
تساليه حتى عن عنوانه لتكتبى له . اما هو في كيتشما واما في
تيجنى . والآن ، اجلسى مع غفيادين . آه يا ربي» . التفتت
ولمحت غفيادين يسير على المنحدر المعشوشب ، واقفا رجليه
كاللقلق ، مدبرا بصره الى ناحية . «ساكتب لكاتيا : «تصورى :
يبدو اننى مفرمة ، هذا ما يبدو لى» . ورددت داشا بصوت
خافت ، مستعرة الى صوتها : «عزيزى ، عزيزى ، عزيزى ايفان
ابليتش» .

وفى تلك اللحظة سمعت على مقربة منها صوتا يقول «لا ادخل ،
لا ادخل ، اتركنى ، ستمزق الثنورة» . ورات وبلا مسنا غاريا

يخوض في الماء الى ركبتيه . له لحية قصيرة ، واضلاع مصفرة ، وقد تدل شريط الصليب الاسود على صدره الفائر . كان مظهره وتما وكان يسحب نحو الماء امرأة كئيبة حانقا صامتا . وكانت المرأة ترد : «انركنى ، ستمزق التنورة» .

عندئذ ركضت داشا بكل قواها بحذاء الشاطئ نحو القارب ، وقد شعرت بتقلص في حنجرتها من التفزز والعار . وبينما كانت تدفع القارب الى الماء جاء غفيادين راكضا متقطع الانفاس . ودون ان ترد عليه ، وتنتظر اليه جلست على مقدمة القارب ، وتطلعت بالمظلة ، ولزمت الصمت طوال طريق العودة .

بعد هذه التزهة اخذت داشا بطريقة غريبة غير مفهومة حتى لنفسها تشعر باستياء من تليفين ، وكانما هو المولود على كسل هذا الضيق من هذه البلدة الكئيبة العبيرة المتوجهة بالشمس بانسيجتها الفنتنة ، ويوبائها الكئيبة ويوتها الصغيرة الاجرية الشبيهة بالعلب ، وباعمة للتلفونات وللترام بدلا من الاشجار ، والقيظ الثقيل عند الظهيرة ، حين تتجول في الشوارع الرمادية الابيض الغالي من الظل امرأة كادت تصاب بدوار الشمس ، تعلق حزم السمك المجفف على كتفيها ، وتصرخ ناظرة في الشبايك المتربة «سمك مجفف ، سمك» ، الا ان كلبا مصابا بدوار الشمس مثلها ، نصف ممتوه يتوقف بالقرب منها ، ويتشمم السمك ، بينما يترامى من قناء بعيد صوت ارغن الشوارع يعزف لحن الفالس القديم المشحون بالسلم .

كان تليفين ملوما على ان داشا تتلقى الآن بحساسية شديدة كل ما يحيط بها من هذا الركود الباطني لحياة البرجوازية الصغيرة ، والذي لا ينوى ، كما يبدو ، ان يتزحج من مكانه ابدا ، وحتى ولو خرجت الى الشوارع وصرخت بصوت وحش : اريد ان اعيش ، ان اعيش !» .

وكان تليفين ملوما على انه كان مبالغا في تواضعه واستحيائه . فليس هي ، اي داشا ، من كان عليه ان يقول «اعلم اننى احبك» . وكان ملوما على انه لم يترك خبرا عنه ، وكانما غاص تحت الارض ، بل ولعله نسي التفكير فيها .

وبالاضافة الى كل هذا السام ، رات داشا في احد الليالي الحالكة الالهية كالفرن الحلم الذى رآته في بطرسبورغ ، حين هبت من نومها والدموع في مآقيها ، وقد غاب عن ذاكرتها ايضا مثلما غاب آنذاك كبخار تصاعد من زجاج رطب . الا انه تصورت ان هذا الحلم المعنّب الرهيب ينذر بصيصية . فصح دميتري ستيبانوفيتش ابنته بان تحقن بالزرنوخ . وفيما بعد جاءت رسالة ثانية من كاتيا . كتبت :

«عزيتى داشا ! بى حنين شديد اليك ، والى اصحابى ، والى روسيا . وانا اشعر اكثر فاكثر بان الذنب يقع علىّ في الانفصال عن نيقولاى ايضا . استيقظ ، واقضى اليوم كله يلازمى هذا الشعور بالذنب ، ونوع من التعفن الروحى . ثم - ولا ادري هل كتبت لك عن ذلك - ان شخصا يلاحقنى منذ بعض الوقت . اخرج من البيت فاره قادما من الجهة المقابلة . اصعد في المصعد الى مخزن عام ، فاره يقفز اليه اثناء صعوده . بالامس كنت فى اللوقس . وقد تعبت فى المتحف ، وجلست على مصطبة ، وفجأة احس وكان يدا تمر على ظهري . التفت فاجده يجلس غير بعيد عنى . انه رجل نحيل ، نقشى الشيب فى شعره الاسود ، ولحيته تبدو وكأنها مصنعة على خديه . كان يضع يديه على راس عشاء ، وينظر نظرة كالعلة ، وعيناه غائرتان . وهو لا يتكلم ، ولا يضايقنى الا اننى اخاف منه . واشعر بانه يحوم حولى . . .» .

اطلعت داشا اباه على الرسالة . وفى الصباح التالى قال دميتري ستيبانوفيتش عرضا ، وهو يطلع صحيفته :

- سافرى الى القرم ، يا قطيطة .
- لماذا ؟

- ابحنى عن نيقولاى ايفانوفيتش هذا ، وقولى له : انه مغفل . دعيه يسافر الى زوجته فى باريس . وعلى العموم . . . حسب ما يريد . . . تلك قضيتهما الشخصية . . .

وظهر الغضب والانفعال على دميتري ستيبانوفيتش رغم انه كان يكره اظهار مشاعره . وفجأة احسّت داشا بالفرح . فقد كانت تشمل القرم رحابا زرقاء ساحرة تزخر بالامواج . وتصورت

الظل الطويل لشجرة حور هرمية ، ومنسوبة حجرية ، ولعاقا يرف على رأسها ، وعينين قلقتين تنظران إليها .
جمعت اعمتها بسرعة ، وسافرت الى يفتوريا ، حيث كان نيقولاى ايفانوفيتش يستحم في البحر .

١٢

في ذلك الصيف كان سيل غير اعتيادى من المصطافين قد جاء الى القرم من الشمال . كان الساحل بأسره بغض بالمتنزهين السلوخي الاثوف من اهالى بطرسبورغ اللاذعين الجالين معهم نزلاتهم الصادرة والتهاب التصبات ، ومن الموسكوفيين الضاجين المهمل الهتمام بكللامهم المتراخي الناعم ، ومن اهالى كينيف ذوى العيون السود غير عارفين الفرق بين الواو اللينة والواو المضخمة ، ومن اغنياء سيبيريا المزددين لهذه الضوضاء الروسية . وكان الجميع يشمون ويلوحون جلودهم في الشمس حتى الاسوداد : نساء ثيابات ، قتيان طويلو السيقان ، ورجال ، وموظفون ، واناس ميجلون ، وازواج مع زوجاتهم يعيشون كلهم برخاوة ، كما كان الجميع يعيشون في روسيا انذاك ، وكان اسفل عمودهم الفقرى قد انقصم .

وفي منتصف الصيف ، وبسبب الماء المالح ، والحر وتلويح الشمس فقد هؤلاء الناس الشعور بالحياء ، وبدأت ملابس على طراز ما يليبس اهل المدن تبدو ابتذالا زائدا عس الحاجة ، وظهرت على الساحل نساء لا تستترهن غير العاشاف الترتية ، ورجال يشبهون الصور الرسومة على المزهريات الاترورية .

وترنخت اسس العائلة في هذا العر غير الاعتيادى من الامواج الزرقاء والرمال الحار ، والاجساد العارية المبتوثة في كل مكان . وبدأ كل شى هنا سهلا ومكنا . ولا حاجة الى التفكير في تصفية الحساب . فيما بعد ، في الشقة الكنبية في الشمال ، حيث المطر يسح وواء النافذة ، والتلفون يدق في الرواق ، ولكل فرد التزاماته . ماء البحر يتزلق على الساحل بقرقرة ناعمة ، ويمس الاقدام ، فيستشعر

الجسم الممدد على الرمل ، والاذرع المبسوطة ، والاجفان المسيلة بخفة وحرارة ولذة . ان كل الاشياء على الاطلاق ، حتى اخطرها سهلة ولذيفة .

في هذا الصيف تخطى نرق المصطافين وتحللهم جميع الابعاد ، وكان كلنا جبارا انفصل عن الشمس المتوقفة في صباح من صباحات حزيران قد اصاب ذاكرة وتعقل سكان المدن هؤلاء بسنات الوهم . لم يكن في طول هذا الساحل بيت واحد بخير . تقطعت الروابط الوثيقة فجة . وبدا وكان الهواء نفسه موقر بهمس الغرام والضحك الناعم ، والهذر الذى لا يوصف ، والمقول على هذه الارض العارة المبتوثة فيها اطلال المدن القديمة ، وعظام الشعوب المتندثرة . وكان يبدو وكان يوما لتصفية الحساب وللدموع المرة سيأتى مع امطار الخريف .

وصلت داشا الى يفتوريا بعد الظهر . وبينما كانت تقترب من البلدة على الطريق المترب الذى كان يمتد كشرط ابيض في سهب مستو مرورا بالبطنح الملحية ، واكداس القش لمحت سفينة خشبية كبيرة ازاء الشمس كانت تسير ببطء على بعد نصف ميل ، فتلوح وكأنها تسير في السهب ، وسط الافستين ، واشترعتها السوداء منحرفة وممتدة من فوق السفينة حتى اسفلها . كان منظرا مذهلا التزع منها آه تعجب . قال الامرنى الذى كان جالسا الى جوارها في السيارة ، وهو يضحك : «ستترين البحر الآن» .

استدارت السيارة مارة بملاحات مربعة الشكل ، وارقت مرتقا رمليا ، انفتح البحر من عليه . وبدا وكأنه اكثر ارتفاعا من الارض وكان ذا لون ازرق داكن ومفروشا بجداول طويلة بيضاء من الزيد . اصغرت ربح مرحة في الاذان . ضغطت داشا على الحقيبة الجلدية على ركبتيها ، وفكرت مع نفسها : «هذا هو بيتا» .

في هذا الوقت كان نيقولاى ايفانوفيتش سموكوفنيكوف جالسا في سرادق اقيم على اعلى عند البحر ، يحس القهوة مع الشاق . كان المصطافون يأتون الى هنا بعد ان استراحوا من الغداء ، ويجلسون الى موائد صغيرة ، ويتنادون ويتحدثون عن فائدة العلاج باليود ، وعن السباحة في البحر وعن النساء . وكان

الجو داخل السرادق طربا ، وكانت الريح تحرك حوائى المفارش البيضاء . ولفاحات النساء . من يفت بشرع واحد وتناهت من عليه اصوات مرحة . وجاء الموسكوفيون في جمع ، واحتلوا مائدة كبيرة ، وجميعهم من ذوى الصيت العالمى . تجمه الفنان العاشق لدى رؤيته لهم ، وتابع حكاية محتوى مسرحية فكر في كتابتها .

— موضوع المسرحية كله مدروس بعمق ، ولكننى لم اكتب غير الفصل الاول — قال ونظر في وجه نيقولاى ايفانوفيتش متأملا مهيبا — ان لك راسا رائقا ، وانت تفهم فكرتى يا نيقولاى . امرأة شابة جميلة ولكنها ضجرة تنهافت حولها ، ومعاظلة بالثفاعة . ان هؤلاء اناس طيبون ، ولكن الحياة قد امتصتهم امتصاصا ، مشاعر متعفنة ، وسكر . وباختصار ، انت تفهمنى . . . وجماعة تقول هذه المرأة : « يجب ان ارحل ، اتخلص من هذه الحياة ، ارحل الى النور . . . بينما لها زوج وصديق . . . وكلاهما يعانى . . . أفجمنى يا نيقولاى . . . ان الحياة قد امتصت . . . وهى ترحل ولا اشير الى من . . . لا عشيق لها ، مجرد مزاج . . . ثم ترى الرجلين جالسين فى حانة يحتسيان الخمر صامتين . . . يتبلعان الدموع مع الكونياك . والريح تصفر فى منخنة الموقد ، تمنعهما . . . جو حزين . . . خاو . . . مظلم . . . »

سعال نيقولاى ايفانوفيتش :

— هل تريد ان تعرف رايي ؟

— نعم ، قل لى فقط : « ميمشا ، اترك الكتابة » وساتركها . — مسرحيتك رائمة . انها الحياة بعينها — قال نيقولاى ايفانوفيتش ، وقد اغمض عينيه ، وراح يهز راسه — اجل ، يا ميمشا ، اننا لم نعرف كيف تقدر سعادتنا ، وقد رحلت عنا . وما نحن بلا امل ، ولا عزيمة جالسون نشرب . والريح تعول فوق مقبرتنا . . . ان مسرحيتك تؤثر فى للغاية . . .

ارتعش الانتفاخان تحت عيني الفنان العاشق ، رفع جسده ، وقبل نيقولاى ايفانوفيتش بقوة ، ثم ملا قديحهما . قرع الصديقان اللدحين ، ووضعا كوعيهما على المائدة ، ومضيا فى حديثهما الحميم . قال الفنان العاشق ملقيا الى محدته نظرة ثقيلة : — نيقولاى ، اعترف اننى احببت زوجتك ، كالأهه .

— نعم ، هذا ما بدا لى .

— لقد تعذبت ، نيقولاى ولكن كنت صديقى . . . وكم من مرة هربت من بيتك ، مقسما على الا اتخطى عتبة دارك مسرة اخرى . . . ولكن كنت اعاود الزسارة ، وامثل دور المهرج . . . ولكن اياك ، يا نيقولاى ، ان تلوهمها .

وعط شفقيه بضراوة .

— انها تصرفت معى تصرفا فظا ، يا ميمشا .

— ربما . . . ولكننا جميعا مذنبون ازامها . آه ، يا نيقولاى ، شئ واحد لا استطيع ان افهمه فيك . كيف وانت تعيش مع مثل هذه البراة — وارجو العذرة — كنت على علاقة قريبة فى الوقت ذاته مع تلك الامرلة صوفيا ايفانوفنا ؟ لماذا ؟

— تلك مسألة معقدة .

— تكذب . لقد رأيتها . انها امرأة بسيطة .

— اسمع ، يا ميمشا . الآن صار الامر فى حكم الماضى ، بالطبع . لقد كانت صوفيا ايفانوفنا مجرد انسان طيب . وقد وهبتنى لحظات من الفرح ، ولم تطلب منى شيئا قط . بينما كان كل شئ فى البيت ممقدا للغاية ، عسيرا . . . معقدا . . . ولم تكن لى القوة الراحية الكافية لأؤثر بها على يكاترينا ديمترييفنا . . .

— غير معقول ، يا نيقولاى . ها نحن سنعود الى بطرسبورغ وتقام امسية الثلاثاء ، ولزورككم بعد العرض . . . واجسد البيت فارقا . . . كيف اتحمل ذلك ؟ . . . اسمع . . . اين زوجتك الآن ؟

— فى باريس .

— وهل تراسل ؟

— لا .

— سافر الى باريس . لنسافر سووية .

— بلا فائدة . . .

— نيقولاى ، لنشرب نخب صحتها .

— لنشرب .

ظهرت الممثلة تشارودينا فى السرادق ، بين الموالد . كانت ترتدى ثوبا اخضر شفافا ، وقبعة كبيرة . كانت نحيلة كالانفسى يرتضى ظل ازرق تحت عينيها . وربما كان عمودها الفقرى معطوبا ،

فقد كانت تتأود وتنحني . نهض للقائها محرر المجلة الجمالية
«جوقة الموزيات» ، وامسك يدها ، ولثم ببطء ثنية المرفق .

قال نيقولاى ايفانوفيتش من خلال أسنانه :
- امرأة مذهشة .

- لا ، يا نيقولاى ، لا ، ان تشارودوييفا فطيسة لا غير .
هل تريد ان تعرف سببا ؟ . مجرد انها عاشت مع بيسولوف ثلاثة
اشهر ، وتقرأ الاشعار المنحلة في الحفلات بصوت كالمهوء . . .
انظر ، انظر . ان فيها يصل الى اذنيها ، والعروق بارزة في رقبتيها .
انها ليست امرأة ، بل ضبع .

ومع ذلك فحين اقتربت تشارودوييفا من المائدة ، هزاة
قبعتها شمالا ويمينا ، مبتسمة من فم كبير وشفتين ورديتين نهض
الفنان العاشق ببطء ، وكأنه قد صنع وحرك يديه مدهوشا
ووضعها تحت حنكته .

- نينا . . . عزيزتى . . . يا للزينة ! . لا اتحمل ، لا
اتحمل . . . نصحوثى بالهدوء التام ، يا حبيبتى . . .

ربتت تشارودوييفا على خده بيدها العظمية ، وغضضت انفها .
- وماذا عذرت عنى يوم امس في المطعم ؟

- هل اغلظت القول عليك ، يوم امس ، في المطعم ؟ اوه
يا نينا .

- نعم ، وبشدة .

- كلمة شرف ، انا المفترى عليه .

وضعت تشارودوييفا خصرها على شفتيه ضاحكة : «انت
تعرف اننى لا استطيع ان اغضب عليك طويلا» . ثم التفتت الى
نيقولاى ايفانوفيتش وقالت بصوت مختلف تماما ، كأنها تمثل
تمثيلية دراجة .

- لقد مررت من نوى بغرفتك . يبدو ان احدى قريباتك قد
وصلت . فتاة ساحرة .

الذى نيقولاى ايفانوفيتش نظرة سريعة على صديقه ، ثم تناول
من صحن الفنان السيفار ، واخذ يمتص الدخان منه مصات
قوية ، حتى انتشر الدخان على لحيته كلها . قال :

- هذه مفاجأة . ماذا يمكن ان يعنى ذلك ؟ . انا ذاهب .

والذى السيفار في البحر ، واخذ يهبط السلم الى الساحل ، مديرا
عصاه القضيبة الرأس . وقد دفع قبعته الى مؤخر رأسه ، وعندما
وصل الى الفندق كان لاهت الانفاس . . .

- داشا ، لماذا جئت ؟ ما الذى حصل ؟

سأل ، وهو يعلق الباب وراءه . كانت داشا جالسة الى
الارض قرب حقيبة مفتوحة ، تخطب جوربا . عندما دخل زوج اختها
نهضت متناقلة ، وعرضت له خدما ليقبلها ، وقالت مشتمة الفكر :

- يسعدنى جدا ان اراك . قررنا ، ابنى وانا ، ان تسافر الى
باريس . جلبت معى رسالتين من كاتبنا . خذهما واقراهما ارجوك .

اختطف نيقولاى ايفانوفيتش الرسالتين من داشا ، وجلس عند
النافذة . ذهبت داشا ، الى غرفة المغسلة ، واخذت تغير ملابسها ،
وكانت تسمع زوج اختها يتصفح ورق الرسالتين ، ويؤفر . ثم
سكن . تصمتت داشا حتى سمعته يسأل فجأة :

- هل تناولت قطشورك ؟ اذا كنت جائعة فلنذهب الى
السرادق .

عندئذ فكرت مع نفسها : «لم يعد يحبها تماما» . سوت
قبعتها على رأسها بكتلا يديها ، وعزمت على ان ترجى الحديث عن
باريس الى الغد .

في الطريق الى السرادق لزم نيقولاى ايفانوفيتش الصمت
ونكس بصره الى الارض ، ولكن حين سألته داشا «هل انت تسبح؟»
رفع بصره يادى الريح ، وقال انهم القوا هنا «جمعية مناهضة ثياب
السياحة» التى ترمى بالدرجة الاولى الى اغراض صحية .

- تصورى ان الجسم يتلقى من اليود خلال شهر من
السياحة على هذا البلاج اكثر مما يمكن ان يتناوله باطنيا بطريقة
اصطناعية خلال هذه المدة نفسها . وفضلا عن ذلك فانك تمتصين
اشعة شمسية ودفا من الرمل المعجمى . ونحن الرجال يمكن ان
نحتمل ، فنحن لا نغطى الا ما تحت الخصر . اما النساء فيغطين ثلثي
الجسم تقريبا . وقد اذنا نناهض ذلك بحزم . . . يوم الاحد
سألنى معاضرة في هذا الموضوع .

سارا يمحاذاة الماء على الرمل الاصفى الناعم كالمخمل والمكون
من الاصناف الصغيرة المسطحة التى وصلتها امواج المد والجزر .

وهناك ، غير بعيد عنهما ، حيث كانت الامواج الصغيرة تجسرى
وتنحسر عن الجرف مزبدة ، كانت فئاتان في طاقتي مباحة حمراوين
تمايلان كالطوافيتين .

قال نيقرلاى ايفانوفيتش بلهجة جادة :

— من اتباعنا .

كان يشمو في نفس داشا احساس يزداد قوة بين الاشارة
والقلق . وقد ابدا حين رأت السفينة ذات الاشرعة السوداء في
السهب .

توقفت داشا لتتظنر الى الماء ، يسمح على الرمل كالعشاء
الرقيق ، ثم يعود فيتراجع ، تاركا مسارب صغيرة ، وكان في تماس
الماء بالارض هذا شي ، يهيج اذنى ، حتى ان داشا ترفضت ، ومدت
يدها اليه . رات سرطانا صغيرا مسطحا يعدو جنبا ، مخلقا غشمية
من الرمل ، واختفى في الاعماق . وجاءت موجة وبلبلت ذراعى داشا
الى المرفقين .

قال نيقرلاى ايفانوفيتش مقلصا عينيه :

— ارى فيك تغيرا ، اما انك قد ازددت حسنا ، او تحفت
قليلا ، او ان اوان زواجك قد حان .

التفتت داشا ، ونظرت اليه بغرابة ، ونهضت ، وسارت نحو
السرادق دون ان تسمح يديها ، ومن هناك كان الفنان العاشق
يلوح بقبعته القشبية .

اكلت داشا فطائر اللحم واللبن العائر ، وشربت الشمبانيا ،
وانشغل الفنان العاشق محتفيا بها ، وبين الجهن والآخر كان يركس
في حالة جمود ، هامسا وكأنما لنفسه : « يا اهلني ، ما الطفها ! » ، ثم
جاء ببعض الشمبان ليترفوا عليها ، وهم طلاب في الاستوديو
المسرحي تحدثوا بصوت مكتومة ، وكانهم في اعتراف امام كاهن .
وكان نيقرلاى ايفانوفيتش مقتبلا بهذا النجاح لقريبته داشا .
احتسنت داشا التيبب ، وضحكت ، وكانت تبد يدها لهذا او
ذاك ليقبلها ، ولم تصرف بصرها عن البحر المائج المتالق بزرقته .
كانت تقول لنفسها : « انها لسعادة » .

بعد الاستحمام والنزهة ذهبوا لتناول عشاءهم في الفندق .
حيث كان الصخب والروادة والاناقة . تحدث الفنان العاشق عن

الحب طويلا وبحرارة . وسكر نيقرلاى ايفانوفيتش قليلا ، وهو
يتفرد في داشا ، وغرق في حزن . بينما كانت داشا تراقب طوال
الوقت ومن خلال فتحة في ستارة النافذة ومضات ضعيفة تظهر
وتختفى غير بعيد عنها ، وتختفى ، وتعود ثانية . واخيرا نهضت ،
وخرجت الى الساحل . كان البدر المستدير الضافي ، القريب تماما
كما في حكايات شهرزاد يطل على درب حرشفى متلائي عبر البحر
كله . شبكت داشا اصابع يديها ، وقرقتها .

تناهى اليها صوت نيقرلاى ايفانوفيتش فاسرعت متباعدة
بمحاذاة الماء الذي كان يلحق الساحل وسنان . رات داشا شبح
امراة جالسة على الرمل ، ويقربها شبحا آخر لرجل يوسد رأسه
ركبتيها . وكان رأس انسان يعوم سابحا بين الومضات الرجراجة
في الماء الليلقي الداكن . نظرت الى داشا عيناان انعكس فيهما نور
القمر ، وظلتا تراقبانها طويلا . ثم ابصرت داشا شخصين
متلاصقين ، وبعد ان مرت بهما سمعت تنهيدة وقبلة .

« داشا ، داشا ! » - سمعت هذا النداء من بعيد . فجلست
على الرمل ، وركزت كوعينا على ركبتيها ، واسندت حنكها على
يديها . لو جاء تليغين الآن وجلس الى جانبها ، وطوق بذراعه
ظورها ، وسألها بصوت صارم وخافت « هل انت لي » فستجيبه
« لك » .

تحرك شبح رمادي كان راقدا وراء تلة رمل ، وتعدمت متدلي
الرأس ، ونظر طويلا الى الغرب المتلائي الذي رسمه القمر على
الماء ، وكأنما لتسلية الاطفال ، ونهض ، ومر يداشا متهافتا
كالميت . وعرفت داشا بقلب واجف هالغ انه يسونوف .

وهكذا بدأت بالنسبة لداشا هذه الايام الاخيرة للعالم القديم .
ولم تكن كثيرة وهي مشبعة بيقظ صيف آخذ بالهمود ، بهيجية
وسعيدة . ولكن الذين تعودوا على ان يفكروا بان يوم الغد واضح
كمعالم الجبال البعيدة المزوقة ، وحتى الاذكيا منهم وذوو البصائر
لم يستطيعوا ان يسروا ، ولا ان يعرفوا ما وراء اللحظة التي
يمشونها . ولقد كان وراء هذه اللحظة الملونة ، المضمخنة
بالرؤاح ، والمفعمة بدفق نسيج الحياة بكل الوانه يرقد ظلام
دامس . . . ما من نظرة ، ولا شعور ، ولا فكر نفذ قيد شعرة الى

هناك ، لم يكن هناك غير نفر تحسس ما هو قادم ، ربما بشعور مبهم فقط كشموع الحيوان عند دنو العاصفة . وكان هذا الشعور شبيهاً بقلق غير معروف الهوية . بينما كانت تنزل على الأرض في ذلك الوقت سحابة غير مرئية ، تدور دوراناً مجنوناً ، لها خطوط منتصرة ضاربة حابطة ولم يكن الرمز الوحيد إلى ذلك الا شريطاً من ظل الشمس ممتداً من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي ماسحاً كل الحياة القديمة المرحة الخاطلة على الأرض .

١٣

ياضاً معجزة بضوء قمرى :
- آه ، يا آلهي ، آه ، يا آلهي ، أى شيء هذا ؟
وفي الساعة السادسة صباحاً خرجت داشا الى ساحل البحر ، وخلعت ملابسها ، ودخلت في الماء الى ركبتيها ، وارسلت بصرها . كان البحر شاحب الزرقة ، ناعل اللون ، وهناك في البعيد في بعض الامكنة فقط كان يغطى سطحه تومج خفيف كامد . كان الماء يتماوج متماهلاً فيرتفع الى ما فوق الركية تارة ، ويهبط الى اسفلها تارة اخرى . مدت داشا ذراعيهما ، وارتمت على هذه الطرارة الساوية ، واخذت تسبح . ثم لفت جسمها في رويها الموير ، وقد انتعشت وكسا ملح البحر جسدها ، واستلقت على الرمل وقد سرى دفء فيه .

وفكرت مع نفسها . وقد استندت خدعها على مرفقها الفواح بالطرارة : « لا احب غير ايفان ايليتش . احبته ، احبته . وانا معه اشعر بالنقاء ، والضمانة والفرح . حمداً لله اننى احب ايفان ايليتش . وساتزوجه » .

واعضت عينيها ، وغفت ، شاعرة بالماء يخفق بالقرب منها ، وكأنه يتنفس منتظماً مع انفاسها . وكانت الغفوة هذه للذيدة . وقد لازمها الاحساس بجسمها دافئاً خفيفاً في رقدته على الرمل . واغرمت بنفسها في نومها .

في الغروب حين كانت الشمس تنزل مثل قرص مسطح في الهمج البرتقالي الخالي من كل غيمة ، التفت داشا ببينونوف جالسا على صخرة عند درب يتعرج عبر حقل مسطح من الافسنتين . وكانت داشا قد وصلت الى هناك اثناء نزهتها وتوقفت في الحال لهي رؤيتها لبينونوف ، وارادت ان تستدير وتركض الا ان الخفة السابقة قد زابتها مرة اخرى ، وتقلت رجلاها ، وكانها

كان بينونوف يقضى اياماً بكاملها منطرحاً عند البحر . وكان وهو يتطلع الى الوجوه : النسائية الضاحكة الملوحة قليلاً بالشمس والرجالية النحاسية الحمراء المنفصلة . يحس في جزء بان قلبه ليس الا قطعة من الثلج تترقد في صدره . وكان يفكر ، وهو ينظر الى البحر ، بانه باقى كما هو منذ آلاف السنين يضرب الساحل يأمواجه . وكان الساحل ، آنذاك ، مقفراً ، بينما هو اليوم مأهول بالناس ، وسيموت الناس ، ويقفر الساحل ثانية ، ويظل البحر يتراعى على الرمل كديدهن . وكان بينونوف ، وهو يفكر ، يقطب ويجمع باصابعه الاصداف في كومة ، ويخشي فيها عقب سيكارتة المتطفنة . ثم يذهب للسباحة . وبعد ذلك يتناول غذاءه بتوان ، ثم يذهب لينام .

يوم امس جلست فتاة على الرمل عجي ، غير بعيد عنه وراحت تحسق طويلاً في ضوء القمر ، وكانت تفرح منها رائحة خفيفة لعطر البنفسج . فرقت ذكرى في ذهنه الراكد . وتلملم بينونوف ، وقال لنفسه « لا ، لا تلتق بنفسك عليها . . . الى الشيطان . . . انما ذاهب لاثام » ، ونهض وذهب الى الفندق .

وتهبنت داشا بعد هذا اللقاء . تحسّل اليها ان حياة بطرسبورغ - كل تلك الليالي المضطربة - قد انتقضت الى الابد وبينونوف الذى فتحها ذات مرة بشيء غير مفهوم قد صار في طي التسيان .

غاصتا في الارض ، فراحت تنتظر اليه من تحت حاجبيها وهو يتقدم نحوها لا تكاد تظهر عليه الدهشة من اللقاء ، ويخلع قبعة القش ، وينحن لها بخشوع انحناءه راض .

- لم تخطئي عيناى بالامس ، يا داريا دميترييفنا ، انت التي كنت على ساحل البحر ؟
- نعم ، انا . . .

وصمت متكسا بصره ، ثم نظر الى قلب السهيب ساحيا بصره على داشا .

- في هذا الحقل يحس المرء عند الغروب وكأنه في صحراء ، نادرا ما يتجول الناس هنا ، فليس حولك غير الاقستنتين والصخور وفي الغسق يخيل اليك ان الارض اقرت من كل انسان .

وضحك بيسونوف كاشفا ببطء عن استنان بيض ، نظرت داشا اليه نظرة طائر برى . ثم سارت الى جانبه على الدرب . كانت اجامات عالية من الاقستنتين قد نمت على الجانبين وفي جنبات

الحقل كله فواحة براثة مرة ، وكان القمر يلقي على الارض الجافة عند كل اجمة منها ظلا شاحبا لاما يزل . وكان خفاشان يطيران فوق راسيهما معلقين هابطين في خط غير مستقيـم وهضطفتين ياجنحتهما ظاهرين بوضوح في شريط الغروب .

قال بيسونوف :
- اغراءات ، اغراءات لا تنتج لك منها . تغرى وتغوى واذا

بك مرة اخرى واقعة في وهم . انظري باى دهاء قد نظم كـل ذلك - واسئار بعصاه الى قرص البدر المتدل على انغفاض - طوال الليل سيحرك الشباك ، وسيدعى الدرب بانه جدول ، وستبدو كل

اجمة مأمولة ، وحتى الجفة ستبدو جميلة ، والوجه النسائي غامضا . ولكن قد يكون هذا ما يجب ان يكون حقا : كل الحكمة في هذا الوهم . . . ما اسعدك ، يا داريا دميترييفنا ، ما اسعدك حظه . . .

قالت داشا باصرار :
- ولم تحسبه وهما ؟ اظن ان ذلك ليس بوهم اطلاقا . مجرد

انه بدر ينير .

- بالطبع ، يا داريا دميترييفنا ، بالطبع . . . «كوتى كالاطفال» . ان الوهم في اننى لا اصدق باى شيء من هذا . ولكن

«كوتى ايضا كالافاعي» . ولكن كيف التوفيق بين الاثنين ؟ ماذا يحتاج ذلك ؟ . . . يقولون ان الحب هو الموفق ؟ وانت ماذا تظنين ؟
- لا اعرف ، لا اظن شيئا .

- من اى اصفاغ ياتى الحب ؟ وكيف اغواؤه ؟ باية كلمة يسحر ؟ ان يستلقى المرء في التراب ويناديه : اوه يا الهى ، يسر لي حبا ! . . .

وضحك ضحكة غير عالية مبديا اسنانه .
قالت داشا :

- لا اسير ابعد من ذلك . اريد ان اذهب الى البحر . واستدارا ، وراحا يسيران على الاقستنتين نحو مرتفع رملي .
وتجاهة قال بيسونوف بصوت ناعم حذر :

- اتذكر الى آخر كلمة كل ما قلته عندما كنت في بيتي في يترسبورغ . لقد افرجتك (سبارت) داشا بسرعة شديدة نظرة امامها) . آثمة كان يهزنى شعور واحد . . . ليس جمالك الفريد ،

لا . . . بل الذي اذهلنى ونفذ الى اعماق نفسى موسيقى صوتك التي لا توصف . عندئذ نظرت اليك وفكرت مع نفسى : ذلك هو خلاصى كله - ان احبك قلبى ، واصير شحاذا خوعا ، اذوب في ضيائك . . . لربما اكسب قلبك ؟ ان اصير غنيا غنى لا حد له ؟

فكرى يا داريا دميترييفنا ، ما قد جئت ، وعلى ان افك اللغز . سبقتك داشا ، وطلعت على كتيب رمل . كان الدرب المريض الذي يلقيه البدر متللا كالحرشف على صدر الماء الثقيل يمتد حتى نهاية البحر مقطوعا بشريط وضاه طويل ، وهناك ، فوق هذا الضوء ينهض التى داكن . وكان قلب داشا يخفق بشدة ، حتى انها اغمضت عينيها ، وفكرت في سرها «يا الهى ، انقذنى منه» . غرز بيسونوف عصاه في الرمل عدة مرات .

- لقد حان الوقت لان تتخذى قرارك ، يا داريا دميترييفنا . يجب ان يحترق احدنا في هذه النار ، اما انت واما انا . . . فكرى ، اجيبى . . .

قالت داشا بحدة واقتضاب :

- انا لا افهم .
- عندما تصميرين متسولة فارغة النفس محروقة عندئذ فقط

تبدأ لك حياة حقيقية ، يا داريا ديميتريفنا . . . بدون نور القمر هذا وهو اغراء رخيص . وستكون لك حكمة . وهذا لا يحتاج الا ان تخلعي عنك طوق العذرة .

تناول بيسونوف يد داشا بيده المتشلجة ، وهدق في عينيها . فلم تستطع داشا الا ان تقلص عينيها ببطء . وبعد بضع لحظات طويلة من الصمت قال :

- على كل ، من الافضل ان نأوى الى بيوتنا لننام . تحدثنا ، وناقشنا المسألة من جميع الجوانب ، ثم ان الوقت متأخر ايضا . . .

صحب داشا الى الفندق ، وودعها باحترام ، ودفع تبعته الى مؤخر رأسه ، وسار بزيادة الماء ، ناظرا الى اشباح المتنزهين المغيصة . ثم توقف فجأة واستدار ، وتقدم من امرأة فارغسة كانت واقفة بلا حراك ، وقد لفت جسمها بشمال ابيض . التي بيسونوف عصاه عبر كتفه ، وامسك طرفيها ، وقال :

- نينا ، مرحبا .

- مرحبا .

- ماذا تفعلين وحدك على الساحل ؟

- اقف .

- لماذا وحدك ؟

- وحدى ، لانى وحدى . - اجابت تشاروديفينا بغفوت وغضب .

- اما زلت غاضبة ؟

- لا ، يا عزيزى ، همدت منذ زمان .

- نينا ، تعالى الى .

القت رأسها الى الخلف . وصمتت طويلا ، ثم اجابت بصوت متهدج غير واضح :

- هل جننت ؟

- واث ، الم تعرفين هذا ؟

امسك يدها ، الا انها سحبتها بحدّة ، وسارت ببطء الى جانبه ، على طول انعكاسات ضوء القمر المنزلة على الماء الاسود الزيتى اللون ، مع خطواتهما .

في صباح اليوم التالى اعطت نيقولاى ايفانوفيتش داشا بطرق

حذر على بابها :

- عزيزتى داشا ، استيقظى . لنذهب لشرب القهوة .

انزلت داشا ساقها من السرير ، ونظرت الى جوربها وحذائها . كان جميعها مغطى ببطيقة من الغبار الرمادى . ان شينيا ما قد حصل . ام لعلها حملت مرة اخرى بذلك العلم المرعب ؟ لا لم يكن حلما بل شينيا اسوا منه بكثير . لبست داشا ثيابها على نحو ما ، واسرعت لتستحم في البحر .

الا ان الماء قد اتعبها ، والشمس ارضعتها . فكرت وهى جالسة وروبها الموبور على كتفيها ، حاضنة وركبتيها العاريتين ، ان ما من شيء طيب يمكن ان يحصل هنا .

«لست ذكية بل جبانة وعاطلة . وخيالى مبالغ . وانا لا اعرف ماذا اريد . في الصباح اريد شينيا ، وفي المساء شينيا آخر . وهذا هو بالذات الانسان الذى امقته» .

احتضت داشا رأسها ، وحدثت في البحر . ان غموضا وحزنا شديدَيْن اسالا الدموع من عينيها .

«يا لهذا الكنز العظيم الذى احرز عليه . ومن له حاجة به ؟ لاحد في هذه الدنيا . انا لا احب احدا حبا حقيقيا . يعنى انه على حق . من الافضل حرق كل شيء ، واحرق نفسى فيه لاكون شخصا في صحر من امهر . دعائى اليه ، ويجب ان اذهب اليه اليوم ، في المساء . . . آوه ، لا!»

انزلت داشا وجهها الى ركبتيها ، وهى تحس بحر شديد . وكان واضحا ان من المستحيل الاستمرار اطول في العيش هذه الحياة المزدوجة . لا بد ان يأتى اخيرا الغلاص من العنصرة التى لا تطاق . ولتكن مصيبة .

وهكذا راحت تتأمل وهى في جزع من امرها :

«لتفرض اننى سافرت من هنا ، الى ايبى . الى الغبار والالام . وابقى هناك حتى يمضى الخريف . وتبدأ الدراسة . واصير اشتغل لتنتى عشرة ساعات في اليوم . وتجع تضارتي ، واصبح هولة . واحفظ القانون الدوقى عن ظهر قلب . واصير ارتدى التنورات من

الفانيلة : المحامية المحترمة العانس بولافينا . انه لمخرج محترم جدا بالطبع» .

نفضت داشا الرمل الذي علق في جلدتها ، وذهبت الى الفندق . كان نيقولاى ايفانوفيتش مستلقيا في الشرفة في بيجامة حريرية يطالع رواية ممنوعة لاناطول فرانس . جلست داشا على ذراع المقعد الهزاز الذي كان يستلقى فيه ، وقالت في استمراق وهي تبرز ثعلبا في قدمها .

- اردنا ان نتكلم حول كاتيا .

- نعم ، نعم .

- ترى ، يا نيقولاى ، ان حياة المرأة صعبة بشكل عام . حتى في سن التاسعة عشرة لا اعرف ماذا افعل بنفسى .

- في سنك ، يا عزيزتى داشا ، يجب ان يحيا الانسان حياته بكل ما فيه من طاقة ، ودون ان يتردد في شيء . التفكير الطويل لا يوصلك الى شيء . افكر مع نفسى وانا ناظر اليك ، انك فائقة الجمال .

- هذا ما عرفته ! لا فائدة من الحديث معك يا نيقولاى . انت دائما غير لبق ولا تقول الشيء الذي يجب ان يقال ، ولهذا السبب تركتك كاتيا .

ضحك نيقولاى ايفانوفيتش ، ووضع رواية اناطول فرانس على بطنه ، والقى يديه الممتلئتين وراء راسه .

- ستبدا الامطار ، ويعود الطائر بنفسه الى البيت . هل تذكرين كيف كانت تنظف ريشها ؟ . ومع ذلك احب فانا كاتيا كثيرا . فقد صفنى كل واحد منا ديونه للآخر .

- اها ، اذن فانت تتحدث بهذا الشكل الآن ! ولكن لو كنت في مكان كاتيا لسلكت نفس السلوك معك . . . وسارت الى سباح الشرفة غاضبة .

- ستكبرين اكثر وستترين ان اخذ امور العيش بجديفة مفرطة حماقة ومجلبة للاذى . تلك هي خاصية افراد آل بولافين . تعقدون كل شيء . . . يجب ان يكون الانسان بسيط ، واقرب الى الطبيعة . . .

وتتهدى ، وضمت ناظرا في اطرافه . من بالشرفة طالب عرق يركب دراجة . وقد جلب البريد من البلدة .

قالت داشا باكتئاب :

- ساذهب للاستعمال معلمة ريفية .

فاستغفها نيقولاى ايفانوفيتش في الحال :

- الى اين ؟

غير انها لم تجب ، وذهبت الى غرفتها . حمل البريد رسالتين الى داشا ، احدهما من كاتيا ، والثانية من ديمتري ستيناوفيتش . وقد كتب الاخير في رسالته :

«ابعت اليك رسالة من كاتيا . وقد قرأتها ، ولم تعجبني . ولكن اقلعوا ما يحلو لكم . . . كل شيء عندنا كما هو من قبل . الحر شديد . وبالإضافة الى ذلك يوم امس احد المشقات على سمين سينيونوفيتش غغيبادين بالضرب المبرح في منتزه المدينة ، ولكنه يخفى الامر . تلك هي كل اخبارنا . ثم وصلتك بطاقة بريدية من شخص يدعى تليفين ، ولكننى اضعتها . يبدو لي انه في القرم ايضا ، او في مكان آخر» .

اعادت داشا قراءة السطرين الاخيرين بامعان ، وبدأ قلبها يخفق فجأة فحفاقا شديدا . بل وضربت الارض بقدمها بعد ذلك في حيرة . يا للفحرة «بيدو لي انه في القرم او في مكان آخر» . ان اباه رجل مزعج حقا ، غير مهال ، وانانى . دعكت رسالته في يدها ، وجلست طويلا الى منضدة الكتابة مستمدة حثكها على راحة يدها . وبعد ذلك اخذت تقرا رسالة كاتيا .

«انت تذكركين ، يا عزيزتى داشا اننى كتبت لك عن الرجل الذي يتعجبني . يوم امس مساء جلس الى جانبي في حديقة لوكسمبورج . تهيبت في بادى الامر ، ولكننى بقيت جالسة . عندئذ قال لي : «كنت اتعجبك ، وقد عرفت اسمك ، ومن؟ انت . ولكن فيما بعد حلت بي محنة كبيرة : لقد وقعت في غرامك» . نظرت اليه . انه يجلس بعظمة ، ووجهه صارم ، داکن وشاحب . «لا داعى الى ان تخافى منى . فانا رجل عجوز ، وحيد ، ومضاب بالذبة الصندرية ، وقد اموت في اية لحظة . وفجأة تحدث هذه المحنة . وسالت الدموع على خده . ثم قال وهو يهز راسه :

«أوه ، ما احلى وجهك ، ما احلناه» . قلت : «كف عن ملاحظتي» .
 وازدت ان انصرف ، الا اننى احسست بالشفقة عليه ، وبقيت اتحدث
 معه . . . اصغى هو هازا راسه مغمضا بعيني ، تصورى ، يسا
 عزيزتى داشا ، اليوم تلقيت رسالة من امراة ، يبدو انها بوابة
 البيت الذى كان يعيش فيه . . . انها تبغتنى «بناء على طلبه» يانه
 قد توفى ليلا . . . ما اربع ذلك . . . والآن ايضا . اتقدم مسر
 النافذة ، وارى فى الشارع آلاف والآف الاوار والعربات تعدو ،
 والناس يسيمرون بين الاشجار . وبعد النظر يخيم الضباب ، ويبدو
 لى كل ذلك يعود الى الماضى ، وان كل شىء قد مات ، وان هؤلاء
 الناس اموات ، واننى ارى ما فات واتقضى ، وان ما يحدث الآن ،
 وانا واقفة انظر اليه لا اراه ولكننى اعرف ان كل شىء قد انتهى ،
 ربما انا متوعدة المزاج تماما . احيانا استلقى وانخرط بالبكاء
 متأسفة على ان الحياة قد ولت . لقد كانت هناك سعادة ، مهما كانت
 لونها واناس احبهم ولم يبق لذللك اى اثر . . . جف قلبى فى
 صدوى ، وذبل . وانا اعرف ان المستقبل يضمحة محنة كبيرة اخرى ،
 وكل ذلك جزء على الحياة السينة التى عشناها» .

اطلعت داشا نيقولاى ايفانوفيتش على هذه الرسالة .

اخذ يقرأها متبهتا ، ثم قال انه كان دائما يشعر بذنبه نحو

كاتيا .

- كنت اعرف ان حياتنا سينة ، وان تلك الملمات
 المستمرة ستنتهى يوما ما بانفجار الياس . ولكن ما كان فى وسعى
 ان اعمل اذا كانت التسلية هي كل الشغل الضائل لحياتى وحياة
 كاتيا وكل الذين كانوا يحيطون بنا . احيانا اتطلع الى البحر هنا
 واتول لفسى ان هناك روسيا تحترق الارض وترعى العاشية
 وتستخرج الفحم ، وتسج ، وتطرق المعادن ، وتبنى ، وان هناك
 اناسا يحملونها على ان تفعل كل ذلك . اما نحن ارسقراطيسية
 البلاد الفكرية ، المثقفين ، جماعة ما نالته ، . . . فلا تمت بصلة
 لاي من طرفى روسيا هذه . انها تعيلنا . ونحن فراشات - انها
 لمأساة . لو حاولت مثلا ان ازرع خضروات او اقوم بشىء آخر نافع
 لما اجدت فتىلا . لقد كتب لى حتى آخر ايام ان ارف كالفراسة .
 بالطبع نحن نكتب كتبا ، ونلقى خطبا ، ونصنع السياسة . ولكن

كل ذلك لا يخرج عن نطاق تزجية الوقت ، حتى حين نحس بوخز
 الضمير . ان تلك الملمات المستمرة انتهت عند كاتيا بخراب
 روحى ، وما كان من الممكن ان يحدث غير ذلك . . . آه ، لو كنت
 نعرفين اية امراة فانتة رقيقة حنون كانت كاتيا ! وانا الذى افسدها ،
 حطمتها . . . نعم انت على حق ، يجب ان اسافر اليها . . .

واستقر رأبها على ان يسافرا الى باريس فور حصولهما على
 جوازى السفر . وبعد الغداء نزل نيقولاى ايفانوفيتش الى البلدة ،
 بينما شرعت داشا فى تحويل قبعتهما القشبية لتكون صالحة للسفر ،
 الا انها اتملفتها فقط واهدتها الى مرتبة الفرقة . ثم كتبت رسالة
 الى ابيها ، وعند حلول الظلام استلبت فى الفراش ، بعد ان شعرت
 باعباء مفاجىء ، ووسدت خدما راحة يدها ، واصمعت الى هدير
 البحر يبدو ابعد فابعد ، واحلى فاحلى .

ثم خيل اليها ان شخصا يتحنى عليها ، ويبرح خصلة شعر
 من على وجهها ، ويقلبها فى عينيها ، ووجنتيها ، وطرفى شفثتها ،
 يلصها لئما خفيقا كالتنفس . وسرت حلوة هذا اللثم فى كياتها
 كله . راحت داشا تستيقظ ببطء . رات فى النافذة المفتوحة
 نجوما قليلة ، وقد اطار النسيم اوراق الرسالسة ، وراح يخفق
 فيها . ثم طهر من وراء الجدار شبح انسان . وركز كوعيه على
 افرز النافذة الخارجى وصار يحدى فى داشا . .

عندئذ استيقظت داشا تماما ، وجلست ، وضمت يديها الى
 صلوها ، فى الوضع الذى كان فستانها فيه غير مزور .

وسالت فى صوت لا يكاد يسمع :

- ماذا تريد ؟

فقال الرجل عند النافذة بصوت بيسونوف :

- كنت انتظرك على الساحل . فلماذا لم تاتى ؟ اتخافين ؟

تريش داشا قليلا ثم قالت :

- نعم .

عندئذ تسلم الرجل فوق الفرز النافذة ، وازاح المنضدة ،

وسار نحو السرير .

- قضيت ليلة فظيعة . اردت ان اشنق نفسى . اليست فيك

للو ذوة من الشعور تجوى ؟

هزت داشا رأسها ، ولم تحرك شفيتها .

- اسمعى ، يا داريا دميترييتشا ، ان هذا يجب ان يحدث ، ان لم يكن اليوم ، فغدا ، او بعد عام . لن استطع ان اعيش بدونك . لا تجعلينى افقد صورتى الانسانية . - وكان يتحدث بخفوت وبعثه ، ودنا من داشا تماما . فندت منها فجأة زفرة عميقة مقتضبة ، وواصلت تحديقها فى وجهه . - كل ما قلته البارحة كذب . . . انا فى عذاب مبرح . . . وليست لى القوة على محو ذكراك . . . كونى زوجى .

وانحنى على داشا مستنشقا عبيرها ، واطعنا يده وراى رقبته ، وضغط شفيتها على شفيتها . صدت داشا صدره بيديها . الا ان يديها انطوتتا . عندئذ مرت فكرة عادية فى وعيها المشدود . « هذا ما كنت اخافه واشتبهه ، ولكن ذلك صنو القتل . . . » واضاحت وجهها ، وسمعت بيسونوف يشتم شيئا فى انذاها مع انفاس الخمرة . وفكرت داشا مع نفسها ! « هذا ما حصل له تماما مع كاتيا » . وعندئذ انكمش جسمها كله من برودة صافية مقيقة ، وصارت رائحة الخمرة اكثر حدة ، والتمتمة اشد قرفا .

- اتركنى .
همست بذلك ، وازاحت بيسونوف بالقوة وهزعت الى الباب ، وزررت اخيرا فتحة فستانها .

عندئذ استولت على بيسونوف نوبة من الجنون . امسك داشا من يدها ، وضغطها على جسمه ، وصار يقبلها فى عنقاها . صارعتة صامتة مطبقة شفيتها . وحين استطاع ان يرفها ، وبحلها قالت بهمس سريع :

- لن يكون ذلك ، ولو تموت . . .

ودفعته بقوة ، وحررت نفسها ، ووقفت عند الحائط . انهى بيسونوف على مقعد ، وهو ما يزال يتنفس بصعوبة ، وجلس دون حراك . مسدت داشا يديها فى المواضع التى انطبقت فيها آثام الاصاب .

قال بيسونوف :

- لم تكن هناك حاجة للتسرع .

اجابت :

- انت تشعربنى بالمغتيان .

عندئذ القى رأسه جنبا على متكا المقعد . قالت داشا :

- انت مجنون . . . اخرج حالا . . .

وكررت ذلك عدة مرات . ففهم اخيرا ، ونهض ، وتسلق خارج النافذة تقيلا اهرج الحركة . سدت داشا صفاقة النافذة ، وراحت تدرج الغرفة المظلمة . لقد كانت تلك ليلة مؤرقة .

قرب الصباح تقدم نيقولاى ايفانوفيتش من بابها خافقا يقدميه الحافيتين ، وسال بصوت ناعس :

- هل توجعك اسنانك ، يا داشا ؟

- لا .

- ولكن ما سبب تلك الحركة فى الليل ؟

- لا اعرف .

تمتم «امر غريب» وانصرف . لم تستطع داشا ان تجلس ، ولا ان تستلقي ، بل قضت الليلة تدرج الغرفة من النافذة الى الباب جبهة وذهوبا لتخجن من نفسها ذلك القرف الحاد كوجع الاسنان . لو ان بيسونوف اخذها اخذا لكان ذلك افضل ، على ما يبدو . وتذكرت بالهم مضى السفينة البيضاء الغارقة بنسور الشمس ، وذلك الحمام العاشق المهجور فى حرش الحور يهدل عذيله الطويل يناعيها ليزعم لها كذبا انها عاشقة . نظرت داشا الى الفراش الذى ابيض فى الغيش ، والذى كان مكانا رهيبا تحول فيه وجه انسان قبل حين الى بوز شيطان ، واحسنت ان من المستحيل عليهما ان تعيش وهذا الاحساس يلازمها . انها مستعدة لتحمل اى عذاب ما عدا الاحساس بهذا القرف . كان رأسها يلتهب ، وكانت تود لو ترفع عن وجهها ورقبتها وجسمها كله شيئا كانت تحسه كتنسج المتكبروت .

واخيرا لاح الضوء المتسرّب من خلال صفاقة النافذة ساطعا . ويدات الابواب تصفّق فى الدار ، وتادى صوت زنان «ماتريوشا ، اجلسى ها . . . استيقظ نيقولاى ايفانوفيتش ، وسمعته وهو ينقلق اسنانه خلف الجدار . بللت داشا وجهها بالها . وانزلت فيحتها على حاجبيها ، وخرجت الى الساحل . كان البحر ساخنسا كالحليب الطازج . والرمل رطبا . وفى الجور رائحة نباتات بحرية .

كان اجتماع الاستثنائي لهيئة التحرير يعقد في مكتب رئيس تحرير الصحيفة الليبرالية الكبيرة «كلمة الشعب» . ولما كانت المشروبات الكحولية قد منعت يوم امس بموجب قانون ، فقد قدم الكوتيك والروم مع شاي هيئة التحرير على خلاف العادة .

كان الليبراليون المحتكون الملتعون يجلسون في مقاعد عميقة وثيرة ، ويدخنون التبغ ، ويشعرون بأنهم في حيص بيض . وكان المحررون الشبان يجلسون على افايزير النوافذ ، وعلى اريكة جلدية شهيرة ، هي قلعة المعارضة ، وصفها احد الكتاب المشهورين وصفا غير حذر ، فقال انها مباءة للبق .

كان رئيس التحرير ، وهو رجل اشيب مورد الوجدتين ، انجليزي المنحى يقول بصوت متشدق - كلمة بكلمة - احدى خطبه الشهيرة التي كان عليها ان ترسم - ورسمت بالفعل - خط سلوك الصحافة الليبرالية كلها .

«... التعقيب في مهمتنا يرجع الى اننا يجب ونحن امام الخطر الذي يهدد سلامة الدولة الروسية ، ان نمد يدنا الى السلطة القيصرية ، دون ان نترجع عن معارضتها خطوة واحدة . ويجب ان يكون عملنا نزيها وصریحا . ان مسألة لوم الحكومة القيصرية على جبر روسيا للحرب ، هي في اللحظة الراهنة مسألة ثانوية . يجب ان نتنصر اولاً ، ومن بعد نحاكم المذنبين . ايها السادة ، بينما نتحدث هنا ، تجري معركة دموية قرب كراسنوستاف وقد ارسل حرسنا لسد الجبهة المضدوعة . ومضرب هذه المعركة غير معروف الآن ، ولكن يجب الا ينيب عن الاذهان ان كيف مهددة . وليس من شك في ان الحرب لا يمكن ان تستمر اكثر من ثلاثة او اربعة اشهر ، ومهما تكن نتيجتها فاننا سنقول للحكومة القيصرية مرفوعي الودوس : اننا كنا معكم في الساعة الحرجة ، ونحن الآن نطالبكم كشفا بالحساب ...»

لم يتمالك نفسه احد قدامى المحررين ، واسمه بليرسفيتوف ، وكان يكتب في شؤون الادارة الذاتية فضاح محتدا :

انعطفت داشا الى الحقل ، وسارت في الطريق . كانت عربة مسن الاغصان المصفورة يجرها حصان واحد قادمة للقائهما من الجانب الاخر من الطريق تثير عجلاتها سحابة صغيرة من الغبار ، وقد جلس تترى في مقعد السائق ، و خلفه رجل عريض الكتفين في ثياب بيض . نظرت داشا اليه ، وقالت لنفسها كالتالمة (انطقت عينها من الشمس ، ومن التعب) «هذا رجل لطيف سعيد آخر ، وليكن كذلك ، لطيفاً سعيداً» وانحرفت عن الطريق . وفجأة صدر من العربة صوت مرحوب :

- داريا دميترييفنا !

وقف شخص الى الارض ، وركض نحوها وجمد قلب داشا ، وارثخت رجليها من ذلك الصوت . التفتت . قرأت تليغين يجري نحوها ملوح الوجه ، منفعل الاسارير ازرق العينين محبباً الى القلب على نحو مفاجئ حتى ان داشا وضعت يديها على صدره بسرعة ، وضغظت وجهها عليه ، واجهشت تبكي بكاء طفولياً عالياً .

امسك تليغين كتفيها بقوة . وحين حاولت داشا ان تقوم ببعض التوضيح بصوت متقطع قال :

- ارجوك ، يا داريا دميترييفنا ، ارجوك ، فيما بعد ، هذا غير مهم ...

تبلى صدر سترته الكتانية بدموع داشا . وخفت الدموع عنها . سالت :

- هل انت قادم الينا ؟

- نعم جئت لاودك ، يا داريا دميترييفنا . بالامس فقط عرفت انك هنا ، فاردت ان اودك .

- تودعني ؟

- استدعوني للخدمة ، ولا مفر من ذلك .

- استدعوك للخدمة ؟

- الم تسمعي حقاً ؟

- لا .

- انها الحرب .

نظرت داشا اليه ، ورمشت ، ولم تكن قاضية شيئاً في تلك اللحظة .

- الحكومة القيصرية هي التي تحارب ، فلماذا نمد يدنا لها ؟
انا لا افهم ، ولو حطمت راسي . المنطق البسيط يحتم علينا ان
تبتعد انفسنا عن هذه المغامرة . ومن ورائنا جميع المحققين . دعوا
القياهرة يضرب احدهم عنق الآخر ، فان ذلك لن يكون الا لفائدتنا .
- نعم ، ان مد اليد الى نيقولاى الثانى شيء مقرر ، مهما
قلتم فيه يا سادة - تمت بذلك «الفا» احد كتاب المقالات
الاقتتاحية ، واختار لنفسه قطعة عكسة من الصحن - ان ذلك يجعل
المراء يتصبب عرقا باردا في نومهم ...
وفي الحال تحدثت عدة اصوات :

- لا توجد ، ولا يمكن ان توجد ظروف تجبرنا على
الاتفاق ...

- ما هذا ؟ استسلام ؟ اريد ان اسأل .
- اهذه نهاية مخزية للحركة التقدمية كلها ؟
- اما انا ايها السادة ، فاريد على كل حال ان يشرح احد لى
الغرض من هذه الحرب .
- ستعرف حين يقطع الالمان الرقاب .
- انت ، يا اخ ، تبدو قوميا متعصبا !
- مجرد اننى لا اريد ان اضرب .
- ولكنهم لا يضربونك ، بل يضربون نيقولاى الثانى .
- المعتذرة ... وبولونيا ؟ وفولينا ؟ وكيف ؟
- كلما ضربونا اكثر دنت الثورة اكثر .
- اما انا فلا ارجع في ان اتخلى عن كيبف في سبيل اية
ثورة .

- اخجل ، يا بيتر بيتروفيتش ، اخجل يا اخ ...
شرح رئيس التحرير بعد ان اعاد النظام بصعوبة ، ان
الرقابة العسكرية ستخلق الجريدة ، وفق احكام قانون الطوارئ ،
على اقل مجموع على الحكومة ، وستسحق برامج حرية الكلمة التي
بذلت جهود كبيرة في النضال في سبيلها .

- ... ولهذا اقترح على الاجتماع الموقر التوصل الى وجهة
نظر مقبولة . ومن جهتي فانا اجرو على ان اعلن رايًا قد يكون
غريبا ، وهو اننا يجب ان نقبل هذه الحرب بكليتها ، وبكـل

عواقبها . ولا تنسوا ان هذه الحرب تحظى بشعبية بالغة بين
البيوتج . وقد اعتبرت في موسكو الحرب الوطنية الثانية . - وهنا
ابتسم ابتسامة خفيفة ، وغض بصره - وقد استقبل القصر في
موسكو مستقبلا حارا تقريبا . والتعبئة بين السكان البسطاء تجرى
بطريقة لم يتوقعوها ، ولم يجروا على ذلك ...

فهفت بييلوسفيتوف بصوت انقلب حزينا متشكيا :
- هل انت تمرح ، يا فاسيل فاسيليفيتش ام كيف ؟ ذلك
لانك تهدم فلسفة بكاملها ... نذهب لمساعدة الحكومة ؟ وماذا
عن عشرة آلاف روسي من افضل ابنا روسيا ، اولئك الذين يتدوون
في سيبيريا منذ زمان ؟ . . . والعمال الذين قتلوا رميا بالرصاص ؟ . . .
والدم بعد لم يجف .

كل هذه الاحاديث كانت بالغة الروعة والتبل ، الا انه صار
واضحا لكل انسان ان لا مفر من الاتفاق مع الحكومة ، ولهذا نحين
جلبت من المطبعة مسودة تصحيح المقال الاقتتاحي الذي كان يبدأ
بهذه الكلمات : «يجب ان ترص صفوفنا في جبهة موحدة امام الرخ
الالمان» نظر المجتمعون الى مسودة التصحيح صامتين ، وارسل
احدهم زفرة كظيمة ، بينما قال آخر بكثير من الدلالة «عشمنسا
وشفتنا» . وزرر بييلوسفيتوف بغضبية جميع ازرار سترته السوداء
المثروبة برماد التبغ ، الا انه لم يخرج ، وجلس في المقعد ثانية ،
وصدر العدد التالي بال عنوان التالي «الوطن في خطر ، الى السلاح !» .
ومع ذلك فقد كان قلب كل واحد منهم مفعما بالاضطراب
والهلع . فكيف تطاير السلم الاوربي الوطيد هباء في الهواء خلال
اربع وعشرين ساعة ، وكيف انقلبت الحضارة الاوربية الانسانية
التي كانت «كلمة الشعب» تعبر الحكومة بها كل يوم ، وتدعو عامة
الشعب اليها ، كيف انقلبت الى بيت من ورق (لقد اخترعت طباعة
الكتب والكهرباء ، وحتى الراديو ، واذا بين عشية وضحاها يظهر
من تحت القميص المنشى ذلك المخلوق البدائي المشعر الشبيه
بالحيوان وفي يده هراوة) ، لا ، ان هذا يصعب على هيئة التحرير
هضبه والاعتراف به ، فان مرارة لا تطاق .

وانتهى الاجتماع بصمت وكآبة . ذهب الكتاب الاجلاء لتناول
الظهور في مطعم كوبا ، واجتمع الشبان في مكتب رئيس قسم

الاخبار . وتقرر القيام بتحقيق مفصل عن امرجة اكثر الاوساط
والفئات تنوعا وعهد الى انتوشكا ارنولدوف قسم الرقابة العسكرية .
وخلال الهرج والمرج حصل على سلفه ، وانطلق ، لا يولوى على
شيء ، على عربة سرعة الخيول الى مقر هيئة الاركان في جادة
نيفسكي .

استقبل سولنتسيف رئيس قسم الصحافة وعقيد هيئة الاركان
ارنولدوف في مكتبه ، واستمع اليه بادب ، مجددا في عينيه بعينين
صافيتين مرحبتين جاحظتين . وكان ارنولدوف قد اعد نفسه ليلتقي
بأحد المعالقة - بجنرال مورد الوجه اسدي - التقاطع - سوط
الصحافة الحرة ، ولكنه وجد امامه رجلا انيقا مهذبا لم يبع صوته ،
ولم يجار عليه ، ولم يبد ميلا الى تعنت او ضغط او معارضة شيء
ما . وكل ذلك لم يكن يلائم الصورة المألوفة عن الماجوريسن
للقيصر .

- آمل ، يا حضرة العقيد ، الا ترفض ان تثير الاسئلة التي
ساطرحها برايك الموثوق .

قال ارنولدوف ، ورمق بطرف عينه صورة نيقولاى الاول
الداكنة التي تمثله واقفا بطول قامته ينظر بعين بلا رحمة وشفقة
الى ممثل الصحافة ، وكأنه يريد ان يقول له : «السترة قصيرة ،
والحذاء اصفر ، والانف عرق ، انه لمنظر مشين . انت خائف يسا
ابن الكلبة» . وتابع ارنولدوف قوله :

- انا لا اشك ، يا حضرة العقيد ، في ان القوات الروسية
ستكون في العام القادم في برلين ، الا ان هيئة التحرير مهتمة بشكل
خاص ببعض التفاصيل . . .

قاطعه العقيد سولنتسيف بأدب :

- يبدو لي ان الراى العام الروسى لا يتصور بالقدر الكافى
نطاق الحرب الحالية . وانا ، بالطبع ، لا يسعنى الا ان احيى
امنيك الجميلة في ان يصل جيشنا الى برلين ، ولكننى اخشى ان
يكون ذلك اصعب مما تتصور . وانا من ناحيتى ارى ان المهمة
الاساسية للصحافة في اللحظة الراهنة اعداد الراى العام الى فكرة
وجرد خطر جدى جدا مجدق بدولتنا ، والتضحيات البالغة التي يجب
ان نتحملها جميعا .

انزل ارنولدوف دفتر ملاحظاته ، ونظر الى العقيد بحيرة .
تابع سولنتسيف كلامه :

- نحن لم نبث عن هذه الحرب ، ونحن في اللحظة الراهنة
ندافع عن وطننا فقط . والالمان يتفوقون علينا في عدد المدافع ،
وكثافة شبكات الخطوط الحديدية في منطقة الحدود . ومع ذلك
فنحن نفعل كل ما في وسعنا لمنع العدو من تخطى حدودنا . والقوات
الروسية تنفذ الواجب الملقى على عاتقها . ولكن من المستحسن
كلما ان يتشرب المجتمع ، من جانبه ايضا ، بشعور الواجب تجاه
الوطن . - وهنا رفع سولنتسيف حاجبيه . - انا ادرك ان شعور
الوطنية بين بعض الفئات يشوبه بعض التعقيد . الا ان الخطر على
درجة من الجدية تتيج - وانا واثق من ذلك - تاجيل جميع المجادلات
والمحاسبات الى وقت افضل . ان الامبراطورية الروسية لم تسر
بمثل هذه اللحظة العرجة حتى في عام ١٨١٢ * . ذلك
كل ما ارد ان تأخذه بعين الاعتبار . ثم يجب ان يسدح بين
الناس ان المستشفيات العسكرية التي تملكها الحكومة لا تستطيع
ان تستوعب كل الجرحى . لهذا ومن هذه الناحية ايضا ، يجب ان
يكون المجتمع مستعدا لتقديم مساعدة كبيرة . . .

- اعذرنى ، يا حضرة العقيد ، انا لا افهم اى عدد من الجرحى
يمكن ان يكون ؟

ومرة اخرى رفع سولنتسيف حاجبيه عاليا .

- يبدو لي ان من المحتمل توقع ما بين مائتين وخمسين
وثلاثمائة الف جريح في الاسابيع القليلة . . .

بلغ انتوشكا ارنولدوف ريقه ، وسجل الرقم ، وسأل بمزيد
من الاحترام :

- وفي هذه الحال بكم تقدر عدد القتلى ؟

- في العادة تقدر ما بين خمسة الى عشرة بالمائة من عدد

الجرحى .

* المقصود هنا الحرب الوطنية التي خاضتها شعوب روسيا ضد
الغزاة الفرنسيين تحت قيادة نابليون الاول ، وانتهت بانتصار روسيا .
(المترجم) .

- اها ، شكرا لك .

ونضض سولنتسيف . فصافحه ارنولدوف بسرعة ، وحين فتح الباب البلوطي اصطدم باتلانت الذي كان داخلا . انه صفحي مسلول اشعث الشعر كان يرتدى سترة مدعوكه ، ولم يفق طعم القودكا منذ يوم امس ،

قال هذا ، وهو يحاول ان يغطي صدر قميصه القذر بكفه :

- يا حضرة العقيد ، جئت اليك بخصوص الحرب . ما وايك ، هل سنستولى على برلين قريبا ؟

خرج ارنولدوف من مقر هيئة الاركان الى ساحة القصر ، وليس قبعته ، ووقف برهة مقلصا عينيه .

وتتمت من خلال اسنان مضمومة :

- الحرب حتى النصر . حذار ايها الهرمون سنضفي حمانينا معكم على روحكم الانهزامية .

كانت ارهاط من الفلاحين الملتحين الهُوج تملا بالحركة ارجاء الساحة الهائلة المكنوسة جيدا ، يعمود الكسندر الغرائبي الثقيل ، وكانت تسمع صيحات واهر قوية . كان الفلاحون يصفقون ويركضون من مكان الى آخر ويستلقون على الارض . وفي احد الاماكن صاح زهاء خمسين رجلا بصوت متنافر ، وهم يصعدون على الرصيف «هورا» وانطلقوا في عدو متعثر وصاح بهم صوت اجش غطى على صيحاتهم : «قف ، استعدادا يا اوفساد يا اولاد الكلاب . . .» وكان يتناهى من مكان آخر : «الحق به ، واطعنه بالعربة في جسمه ، فاذا انكسرت العربة فاضرب بالعقب» .

ان هؤلاء هم نفس الفلاحين المشوشين ذوى القصصان العريضة والاحذية اللينة وذوى اللحي المستديرة وآثار العرق الجاف الظاهر على دفاتهم ، اولئك الذين جاؤا قبل مائتي عام الى هذه الشطآن المستنقعية ليشيدوا المدينة . والان قد دعوا مرة اخرى ليسندوا باكتافهم عمود الامبراطورية المتزعزع .

انطفئ ارنولدوف الى جادة نيفسكى ، وهو لا يكف عن التفكير في المقال الذي سيكتبه . كانت سريتان في كامل عتمة المسيرة ، بالحقائب الظهريّة والفضعات والرافاش تسيران في وسط الشارع على انغام العزائمير مثل عواء ربح الخريف . كان التعب والغبار

يبديان على هؤلاء الجنود العراض الوجنات . وكان ضابطهم الصغير ذو القميص الاخضر والاحزمة الجديدة المتصالبة على صدره يرفع جسمه على اطراف اصبعه بين لحظة واخرى . ويلتفت جاحظ العينين ويصيح : «يبين ! يمين !» . ويسمع المرء وكأنه يعلم بضجيج جادة نيفسكى ويراها جميلة متألقة بالعربات والزجاج . «يبين ! يمين ! يمين !» . وسار الفلاحون المتقادون الفصال الارجل وراء الضابط الصغير في ترنح ورتيب . لحق بهم حضان عداة اسود فاحم يتطاير الزيد منه . وقد كبعه سائق عريض العجل ليوقف العربة التي يجرها . ونهضت في العربة سيده حسناء ونظرت الى الجنود المارين . ويدها المقفزة بقفاز ابيض رسمت لهم علامة الصليب ، مرّ الجنود ، وحجبه سبل العربات . وكانت الارصفة حارة ومزدحمة ، وكان الجميع وكأنهم ينتظرون شيئا . كان المسارة يتوقفون ، ويصفون الى احاديث هنا وصيحات هناك ، ويشقون طريقهم وسط الزحام ويلقون اسئلة ، ثم ينصرفون منفعلين الى تجمعات اخرى .

وبالتدريج تعددت وجهة حركة السير الفالنت ، وتحولت الجموع من جادة نيفسكى الى شارع مورسكايا . وهناك راحت تسير وسط الشارع مباشرة . وتراكم شبان قصار صامتين مهمومين . وعند مفترق الشارع قذف بعض الناس قبعاثهم في الهواء ، ولوح آخرون بالمظلات ، وطلت في ارجاء الشارع «هورا ! هورا !» . وفسر الاولاد الصغار صفيرا حادا ، وايضا وجهت بصرك رايت عربات غير متحركة وقفت فيها نساء زاهيات الثياب . وتدفقت الجماهير الغفيرة نحو ساحة الكاتدرائية اسحاق ، وانتشرت فيها ، وتسلسل الناس من خلال قضبان الحديدية . وكانت جميع التوافذ والسطوح ودرجات الكاتدرائية الغرائبية غاصة بالناس ، وكان كل هؤلاء الناس ، بعشرات اولوفهم ، ينظرون الى اعمدة الدخان تتصاعد من التوافذ العليا لمبنى السفارة الالمانية الثقيل الداكن الحمر . وكان بعض الناس يترامسون وراء الزجاج المهشم ، ويلقون على الجموع حزما من الورق ، قنططير ، وتسقط بيطة . مع كل عمود دخان ، وكل شيء جديد يقذف من التوافذ كانت موجة من الهدير تسرى في العتيد . وها هم هؤلاء الشبان المهمومون يظهرون على واجهة

المبنى حيث يقف على الجانبين عملاقان من البرنز يسكان بمقودي
حصانين برونزينيين . وهذا الحشد ، وارتفعت ضربات مطارق على
معدن . وترنح احد الملاحين ، وانهد على الرصيف . وهدر الحشد
واندفع نحوه ، وبدأ الازدحام ، وتراكم الناس من كل ناحية .
«الى نهر مويكا ، خذوها الى مويكا . . الملاحين !» وسقط التمثال
الثاني . امسكت بكتف انتوشكا ارنولدوف سيدة متلثة تضع على
انفها نظارة انفية ، وهتفت به : «ستغرقها جميعا ، ايها الشاب» .
وتحرك الحشد الى مويكا . وسمعت ابواق المطافىء ، ومن بعيد
لمعت خوذ نحاسية . وظهرت الشرطة الخيالة من وراء المنعطفات .
وفجأة رأى ارنولدوف ، وسط المشاركين والمتصايحين ، شخصا
شديد الامتقاع حاسر الرأس له عينان جامدانان زجاجيتان مشععتان .
وعرف انه بيسونوف ، فتقدم منه . قال بيسونوف :

- هل كنت هناك ؟ سمعتمهم يقتلون .

- احقا كان هناك قتل ؟ ومن قتلوا ؟

- لا اعرف .

واستدار بيسونوف ، وسار في الساحة في مشية متخلخلة
كمشية الاعمى . والآن كانت قلوب الحشد تراكض جماعات نحو
جادة نيفسكي ، حيث بدأ تحطيم مقهى «ريتر» .
في ذلك المساء وقف انتوشكا ارنولدوف الى منضدة عالية ،
في احدى حجرات التحرير الفاخرة بدخان التبغ ، وراح يكتب بسرعة
وعلى قطع ورق ضيق :

«... اليوم شهدنا الغضب الشعبي بكل نطاقه وجماله .

وتجدر الإشارة الى ان ما من زجاجة نبيذ من تلك التي كانت في
الحيمة السفارة الالمانية قد شربت ، بل كسبر كل شيء ، وصب في
نهر مويكا . ان المساومة مستحيلة . وستحارب حتى النصر ، مهما
سنقدم من تضحيات . لقد ظن الالمان انهم سيجدون روسيا تغط
في النوم ، ولكن الشعب صم على الكلمات الراعدة «الوطن في خطر»
هبة رجل واحد . وسيكون قمضه رهيبا . ان الوطن كلمة جبارة
ولكننا نسيناها . ومع الطلقة الاولى من مدفع الالمان عنادت الى
الحياة بكل جماليها الطاهر ، وشرعت تتالق بحروف من نار في قلب
كل فرد منا . . .»

وقلص انتوشكا عينيه ، واحس بقشعريرة خفيفة تسرى في
ظهره . يا لهذه الكلمات التي وجد نفسه شساقا لكتابتها ! ولكنها
ليست كذلك التي كتبها قبل اسبوعين ، حين عهد اليه ان يكتب
استعراضا للتسلييات الصينية . وتذكر ذلك الرجل الذي خرج الى
خشبة المسرح الهزلي ، على هيئة خنزير وغنى «انا خنزير صغير ،
ولا اخجل ، انا خنزير صغير واغفر . امي كانت خنزيرة ، وانا
اشبهها جدا . . .»

وكتب انتوشكا والحبر يتناثر من ريشته :

«... نحن ندخل في عهد بطولي . قد تعفنا طويلا ونحن ن

احياء . والحرب تطهير لنا» .

وطبعت مقالة ارنولدوف رغم معارضة الانهزاميين بزعامة
بيلوسيفتوف . ولكنها قد نشرت في الصفحة الثالثة ، وتحت عنوان
غير مثير هو «في ايام الحرب» ، وذلك هو التنازل الوحيد عن عادة
الصحيفة . واخذت ترد على هيئة التحرير رسائل من القراء فريق
يعبر عن الارتياح الحار بالمقالة ، وفريق يعرب عن السخرية
المرّة . الا ان رسائل الفريق الاول كانت اكثر بكثير . وزيادت
اجرة انتوشكا على السطر ، وبعد اسبوع استدعاه فاسيلي
فاسيليفيتش رئيس التحرير الى مكتبه ، حيث استقبله الرئيس
الاشيب موردي الراجنتين معطرا بماء كولونيا انجليزي ، ودعاه ليجلس
في مقعد ، وقال مهموما :

- عليك ان تسافر الى الريف .

- سمعا .

- ينبغي علينا ان نعرف ماذا يفكر الفلاحون وعم يتحدثون -
وضرب حزمة كبيرة من الرسائل باطن كفه وقال - ظهر بين المثقفين
اهتمام هائل في الريف . ويجب ان تقدم فكرة حيّة مباشرة عن ابي
الهورل هذا .

- تدل نتائج التعبئة على نهوض وطني هائل ، يا فاسيلي
فاسيليفيتش .

- اعرف . ولكن يا للغرابة ! من اين جاءهم ذلك ؟ سافر
الى حيث تريد ، وتسمع ، واسأل . وحتى يوم السبت انتظر
ملك خصماتك سطر عن انطباعاتك حول الريف .

وخرج انتوشكا من عينة التحرير الى جادة نيفسكى ، حيث اشترى بدلة سفر عسكرية الفصال وطماقين اصفرين ، وقبعة سدادة ، وارتيدي كل ذلك ، وذهب ليتناول فطوره في مطعم دونون ، حيث احتسى لوحده زجاجة شمبانيا فرنسية . وانتهى الى قرار هو ان ايسقط شي ، ان يسافر الى قرية خليبي ، حيث كانت يلزافيتسا كييفنا تنزل عند اخيها كي كييفيتش . وفي المساء شغل مقعدا في مقصورة في عربة قطار دولية واشعل سيجارا ، ونظر الى طماقيه الاصفرين الصارفين بشجاعة وقال لنفسه : « يا لها من حياة رائعة ! » كانت قرية خليبي تقع في منخفض بين مستنقع والنهر سفينوخا ، وهي تتألف من اكثر من ستين بيتا محاطة بحدائق ينمو فيها عنب الثعلب بكثرة ، وشوارعها تتوسطه اشجار زيزفون معمرة ، ومبنى مدرستها الكبير على رابية هر بيت سابق لاحد اصحاب الاطيان . كانت القرية الزراعية صغيرة وفقيرة ، فكان جميع الفلاحين تقريبا يسافرون الى موسكو للبحث عن عمل .

دخل انتوشكا القرية عند المساء على عربة فاذهله سكوت فيها لم يعكره الا قاعة دجاجة حقا ، خربت من تحت اظلاف فرس ، ونباح كلب عجوز تحت شونة ، وصوت مخاباط يضرب على غسيل يغسل في النهر . وكان هناك كبشان يتناطحان وسط الشارع متشابكين بقرونيهما .

اعطى انتوشكا الاجرة للعجوز الاصم الذى جلبه من المحطة ، وسار في درب الى مكان لاحظ فيه واجهة المدرسة القديمة المصنوعة من جذوع الشجر من خلال خضرة اشجار البتولا . وعلى درجات المدخل نصف المتآكلة كان يجلس كي كييفيتش المعلم ويلزافيتسا كييفنا يتبادلان الحديث ببطء . وفي الاسفل كانت اشجار الصفصاف الضخمة تلقى ظللا طويلسة على المرج . وكانت الزرايزر تطير كسحابة داكنة متلألئة . ومن بعيد ترائى صوت زمارة ليجمع القطيع . وخرجت بعض الابقار الحمراء من دغل للقصب ، وخارت واحدة منها بعد ان رفعت رأسها . كان كي كييفيتش الذى كان شديد التشبه باخته وذا عينين تبدوان مرسمتين مثل عينيهما يقول وهو يقضم قشة :

- وفضلا عن ذلك ، فانت يا ليزا ، غير منظمة مطلقا في الحياة الجنسية . وانشاخص من مثلك هم في الحقيقة فضلات كربية للحضارة البرجوازية .

كانت يلزافيتسا كييفنا تنظر في ابتسامة مترخية الى بقعة في المرج كانت الاشباب والظلال فيها تكتسى صفرة دافئة في ضوء الشمس الغاربة .

- حديثك مضجر للغاية ، يا كي ، انك قد استظهرت كل شيء ، وكل شيء عندك واضح وكأنه مكتوب في كتاب .

- ان كل شخص ، يا ليزا ، ملزم بالاهتمام في ترتيب افكاره كلها في نظام منسق ، لا في كون هذا الحديث او ذاك مضجرا او غير مضجر .

- اهتم انت ، كما يحلو لك .

كان المساء هادئا . كانت الاغصان الشفافة لاشجار البتولا المتهدلة ساكنة بلا حراك امام مدخل المدرسة . وكان طائر صيغرد يصرصر عند اسفل التل ، نظرت يلزافيتسا كييفنا حالمة الى الاشجار الذاتية في التسق الازرق . وظهر بين الاشجار رجل صغير خفيف الحركة يحمل حقيبة . هتف انتوشكا :

- هذه هي ليزا ، مرحبا ، يا ست الحسن
بشت يلزافيتسا كييفنا به بشاشة هائلة ، فتهضت بحماس ، وعانقته .

سلم كي كييفيتش بجفاف ، ومضى يقضم القشة . استلقى انتوشكا على الدرجات ، واشعل سيجارا .

- جئت اليك طلبا للمعلومات ، يا كي كييفيتش ، حدثني بالتفصيل ماذا يفكر الناس في قريتك عن الحرب وماذا يقولون
ابتسم كي كييفيتش ابتسامة هازئة .

- الشيطان يعرف ماذا يفكرون هم يصمتون
الذئاب ايضا تصمت حين تجتمع في قطع .

- يعنى لم تكن هناك مقاومة للتعينة ؟
- لا ، لم تكن هناك مقاومة .
- وهل يعرفون ان العدو المان ؟
- لا ، لا مسالة المان هنا .

- نفنى ، لكننا لا نفنى عنك ، يا عم فيودور .
 - ساطردكن من هنا بالمقرعة . . . انها عادة سيئة ان
 تغننى في الليل .
 - وانت تغار ؟
 بينما قالت الاخرى متهتة :
 - لم يبق لنا الا ان نفنى عن قريبنا ، يا عم فيودور .
 - نعم ، احوالكن سيئة . يتموكن .
 قرفص العم فيودور قرب الفتيات . قالت اقربهن اليه :
 - سمعنا نساء قرية كوزمودميا نسكويه يقطن ان رجالا كثيرين

اخذوهم للحرب ، نصف العالم تقريبا .
 - قريبا سيصلون اليكن ايضا ، يا فتيات .
 - سياخذوننا الى الحرب ؟
 وتضاحكن ، وسالت الاخرى ايضا :
 - مع من يتحارب قيصرنا ، يا عم فيودور ؟
 - مع قيصر آخر .
 وتبادلت الفتيات النظرات . تهتدت واحدة ، وعذلت
 الاخرى المنديل على راسها ، بينما قالت الاخرى :
 - وهذا ما قاتله نساء قرية كوزمودميا نسكويه لنا . مع قيصر
 آخر .

في تلك اللحظة برز رأس اجد من وراء الجنود وقال
 صاحبه بصوت مبحوح ، وهو يلبس فروته :
 - كفاك كذبا ، يا هذا . ليس مع قيصر آخر ، بل
 الحرب مع الالمان .
 اجاب فيودور :
 - كل شيء جائز .

واختفى الرأس ثانية . اخرج انتوشكا ارنولدوف علبنة
 السيكاثر ، وقدم لفيودور سيكارة ، وسال يحذر :
 - ما رايك ، هل خرج الرجال من قريتكم الى الحرب
 راضين ؟
 - كثيرون خرجوا راضين ، يا سيد .
 - اذن ، كان هناك نهوض ؟

- فما هي المسألة اذن ؟
 ايتسم كى كيفيتش مرة اخرى ابتسامه هائلة .
 - ليست المسألة مسألة المان ، بل بندقية . . . الحصول
 على بندقية في ايديهم . . . الانسان ومعه بندقية تتغير نفسيته .
 منعيش ، ونرى الى اى اتجاه ينوون تصويب بنادقهم . . . هذا
 هو الامر . . .
 - وهم ، على اية حال ، يتحدون عن الحرب .
 - اذهب الى القرية ، واستمع . . .

عند حلول الظلام ذهب انتوشكا ويلزافيتا كييفنا الى القرية .
 كانت نجوم آب تتناثر في اجزاء السماء الاخذة بالسرود . وفي
 منخفض القرية كان الجو ميالا الى الرطوبة عابقا برائحة بقية الغبار
 التى تتطاير من اقدام القطيع ورائحة حليب طازج . والى جانب
 البوابات وقفت عربتان بلا خيول . وتحت اشجار الزيزفون التى
 احلوك فيها الظلام صرف دولاب بئر ، وزفر حسان ، وكان
 يترامى الى الاذن صوت نخيره ، وهو يعب الماء . وفي مكان مكشوف
 عند شونة خشبية لها سقف من القش جلست ثلاث فتيات على
 جذوع يغنين بصوت خفيض . تقدمت يلزافيتا كييفنا وانتوشكا
 وجلسا ايضا في ناحية . كانت الفتيات يغنين :

غليبي القرية
 جميلة في كل شيء
 بمقاعدنا وازاهرها
 وفتياتها الجميلات . . .

التفتت احداهن الى القادمين ، وقالت بخفوت :
 - ما رايكما ، يا صاحبتى ، الم يحن وقت النوم ؟
 ولكنهن يقين على جلستهن ولم يتحركن . كان شخص ينشغل
 في الشونة ، ثم صرّ باب ، وخرج فلاح اصلع في ستره من قراء
 الخروف غير مزررة ، وصلصل طويلا ليطلق القفل ، ثم اقتبل على
 الفتيات ، واضعا يديه على اسفل ظهره وابرز لحيته العنزية .
 - ماضيات في غنائكن ، يا شحوروات ؟

- نعم ، نهضوا ، ولماذا لا ينهضون ؟ على الاقل ليروا كيف تسير الامور هناك . اما اذا قتلوا ، فالامر سيئان ، لانهم يموتون هنا ايضا . ان الارض في قريتنا شحيحة . ونحن لا نجد ما نأكله غير الخبز وماء الخبز . بينما هناك يأكلون اللحم مرتين في اليوم ، حسب الاقوال ، كما يوجد سكر وشاي وتبغ ، فدخن حسب ما تريد .

- ولكن اليس القتال مخيفا ؟

- وكيف لا ؟ مخيف بالطبع .

١٥

في الطريق الواسعة المغطاة بوحل سائل كانت تتحرك عربات مكسوة بالمشمعات ، وجلات تحمل القش والتبن ، وعربات اسعاف ، واحواض طوافات ضخمة مترنحة صارفة . وكان المطر ينهمر بلا انقطاع ، دقيقا مائلا . وكانت الاخاديد المحروثة والسواقي على جانبي الطريق مملوءة بالماء . وكانت الاشجار والادغال تلوح من بعيد مغبشة المعالم .

كانت قوافل الجيش الروسي المهاجم تتحرك كالسيل العرم في الوحل والمطر وتحت الصيحات والشتائم ، وجلجلة السياط واصطدام محور بأخر . وعلى جانبي الطريق تناثرت خيول فاطسة ومحتضرة ، وعربات مقلوبة وعجلات هالكة بارزة الى الاعلى . وبين العين والآخر كانت سيارة عسكرية تشق طريقها في هذا السيل ، فيبدا تصاعد الصياح والتاوهات ، وتقف الخيول على قوائمها الخلفية ، وتسقط عربة محملة على المنحدر ، وفي اثرها سواقيها .

وحين كان ينقطع سيل العربات كان الجنود يأتون بعده سائرين على الاقدام في خط طويل منزلقين في الوحل ، حاملين على ظهورهم الاكياس والمشمعات . وكانت تشق حشدهم غير النظامي عربات الامتعة وعربات اخرى محملة بالبنادق تظهر بارزة من كل الجهات ، وقد جلس فوقها الجنود المرافقون للضباط . وبين العين والآخر كان يخرج رجل من الطريق واكضا في الحقل ، ويضع بندقيته على العشب ، ويجلس القرفصاء .

ثم كان يتبع ذلك مزيد من العربات والطوافات ، والعجلات ، وعربات مدنية يجلس فيها اناس مبللون بمعاطف مطر للضباط . وكان هذا السيل الهادر تارة يسقط في منخفض ، ويتزاحم ، ويزعق ويتعارك رجاله على الاماكن ، وتارة يمتد مساعدا مرتفعا ببطء ، ويختفي وراء القمة . وكانت تصب فيه مسن الجائين صفوف جديدة من العربات تحمل القمح والعلف والقذائف . وكانت وحدات صغيرة من الخيالة تاتي متسابقة في الحقل .

واحيانا كانت تدخل المدافع في صفوف العربات متعقمة قطععة حديدية . وكانت خيول ضخمة عريضة الصدور يمتطيها نثريون ذوو وجوه ملتحيحة ضاربة التقاطيع بسوطون الخيول والناس لتشق هذه الخيول الطريق كالمحركات ساحبة وراها مدافع قطساء متقافزة . وكان هناك اناس يتراكضون من كل الجهات ، وآخرون واقفون على العربات يلوحون بايديهم . وصرخة اخرى كان السيل يتصل ، وينصب في غابة فواحة قوية للقطر والاوراق المتفسخة يسرى ضجيج المطر في ارجائها .

ثم تبرز امام البصر مداخن مواقد مسن بين الكوام القاذورات والاشخاب المحروقة على جانبي الطريق ، ويتأرجح فانوس مهشم ، وتخفق في الريح ورقة اعلان سينمائي الصقت على جدار أجرى لبيت هدمته القنابل ، وهنا ايضا كان يردد في عربة بلا عجلتين اماميتين نيمساوي جريج بعطفه الازرق ووجهه ممتقع ، وعيناه كدرتان حزبتان . وعلى بعد حوالي خمسة وعشرين فرسنا من هذه الاماكن كان دوي المدافع يتراعى خافتا في الافق الداخن . لقد كانت هذه القوات وطوابير العربات تنصب الى تلك المنطقة ليل نهار ، كما تنجبه اليها القطارات من جميع انحاء روسيا محملة بالقمح والناس والقنابل . كانت البلاد كلها تهتز على دوي المدافع . لقد انفجر اخيرا كل ما تراكم فيها تحت الكبت والقمع من شر جشع لا يشبع .

وبدا وكان سكان المدن المتخمين بعباءة شائبة فاسدة قد استيقظوا من حلم خائق . لقد كان في دوي المدافع صوت العاصفة العالمية المثير . وبدت الحياة السابقة غير محتملة بعد هذا . فحينما السكان الحرب بحماس مشؤوم .

في الريف لم يسأل الناس كثيرا : من نحارب ولاى شيء ؟
 فان الامر سيان لديهم . لان العقد والكراهية قد غشيا العيون
 منذ زمان بغشاوة دموية . ونضج وقت الاعمال الرهيبة . ترك
 الفتيان والفلاحون الشبان نساءهم وفتياتهم ، وتزاحوا في عربات
 البضائع خفافا متعطمين ، وانطلقوا عبر المدن بصفير وانغان
 فاحشة . لقد انتهت الحياة القديمة ، وبدا وكان ملعقة هائلة
 اخذت تقلب روسيا وتمكرها ، وسرى الدبيب والحركة في كل
 شيء ، وسكر سكرة الحرب .

كانت طوابير العربات والقوات العسكرية تتدفق وتدوب حين
 تصل الى منطقة القتال التي يترامى دويها عشرات الفراسخ .
 هنا كان ينتهي كل شيء حتى وانساني . كان يخصص لكل فرد
 موضع في التراب ، في الخندق ، ينام فيه ويأكل ، ويقضم القمل ،
 ويطلق من بندقيته على شريط الظلام الماطر الى حد الدهول .
 وفي الليل كان الافق كله يلمتهج ببضء بنيران الحرائق
 القرمزية ، وتتخطط السماء بغلوط الشرر المنبعثة من انطلاق
 الصواريخ وتتناثر كالجحوم وتتلاحق القذائف بعويل مصمم ،
 وتفجير اعمدة من النار والدخان والغبار .

هنا كانت الاحشاء تتقلص من الرعب المعزز ، ويقشعر
 الجلد ، وتتعلك الاصابع . وعند منتصف الليل كانت تطلق
 الاشارات . فيتراكض الضباط وشفاهم ملتوية ، وينهضون
 الجنود المنتهجين بالنعاس والرطوبة ، شامعين متصايحين
 متضاربين . وتركض مجموعات غير نظامية من الناس في العراء
 متعثرين متشامسين عاوين عواء وحشيا ، يستلقون تارة ، ويشبون
 اخرى ، ويقذفون انفسهم في خنادق الاعداء مصعوقين مأخوذين
 فاقدين الذاكرة من الرعب والغيبط .

وبعد ذلك لا يتذكر احد قط ما حصل في تلك الخنادق ،
 هناك . وكانوا يضطرون الى التلفيق حين كانوا يريدون التباهي
 بماثر بطولية من مثل كيف غرزت الحربة ، وكيف تهشم الراس
 تحت ضربة من كرنافة البندقية . وكان الهجوم الليلي يغلف جنثا .
 وكان يحل نهار جديد ، وتاتي مطابخ الميدان ، ويأكل
 الجنود המתالكون المتجددون ويدخنون . ومن بعد ذلك يبدأون

الحدث عن السناج والنساء ، ويلفقون كثيرا ايضا ويبحثون عن
 القمل ، وينامون . وكانوا يقضون اياما كاملة نائمين في منطقة
 الرعد والموت هذه ، العارية الملوثة بالغايط والدم .

في مثل هذا الوضع ، في الوحل والرطوبة ، عاش تليفين
 ايضا غير خالق ملبسه وحذاءه الطويل اسابيع متتالية . كان الفوج
 الذي سجل فيه ملازمة نانيا قد خاص معارك هجومية ، وفقد اكثر
 من نصف ضباطه وجنوده ، ولم يعرض عن خسائره ، وكان
 الجميع ينتظرون شيئا واحدا : ساعة تحويلهم الى المؤخرة ، وهم
 اشباه الاموات من التعب ، والممزقو الثياب .

الا ان القيادة العليا كانت تسعى الى عبور جبال الكربات
 قبل حلول الشتاء ومهما يكن الزمن ، والدخول الى المجر ،
 وتدميرها . ولم يكونوا يجولون في الارواح ، فقد كانت هناك
 احتياطات كبيرة من النفوس البشرية . وكانوا يتصورون ان
 مقاومة الجيوش النسبوية المتراجعة بلا نظام ستتهار تحت الضغط
 الطويل لقتال مستمر دخل شهره الثالث ، وستسقط كراكوفيا
 وفيينا ، وسيتمكن الروس من الخروج من الجناح الايسر الى
 المؤخرة الالمانية غير المحمية .

وتطبيقا لهذه الخطة كانت القوات الروسية تزحف نحو الغرب
 بلا انقطاع اسرة عشرات الالوف من الاسرى ، واحتياطات هائلة
 من المواد الغذائية والقذائف والاسلحة والملابس . في الحروب
 الناضبة كان جزء فقط من مثل هذه المعائن ، ومعركة واحدة فقط
 من هذه المعارك الدموية المستمرة التي كانت تستحق فيالسق
 كاملة يمكن ان يقررا مصير الحملة . والان ، وحتى رغم ان
 الجيوش النظامية قد تحطمت في المعارك الاولى فان حدة القتال
 قد استنشرت . لقد خرج الجميع الى الحرب ، من الاطفال حتى
 الضيوع - الشعب بأسره . فقد كان في هذه الحرب شيء فوق الادراك
 الانساني . كان يبدو وكان العدو على وشك ان يدحر ، وقد
 استنزف دمه ، وما هو الا جهد آخر ، ويهل النصر الحاسم .
 ويبذل الجهد ولكن كانت تطلع مكان جيوش العدو المنتهكة
 جيوش جديدة كانت تسمير للقاء الموت في جموح قاتل ، وتهلك ،
 لم تكن لا يحافل التتار ولا كراديس الفرسان تقاتل بتلك القسوة ،

وتموت بالسهولة التي كان يموت فيها الاوربيون الضعاف الاجسام المدللون ، او الفلاحون الروس الماكرون ، الذين رأوا انهم ليسوا الا ماشية عمياء - لعمرا في هذه المجزرة التي ديرها السادة .

تخندق بقايا الفوج الذي يخدم تليغين فيه على شاطئ غير ضيق عميق : كان الموقع سيئا ، مكتسفا كليا ، والخنائق غير عميقة . وكان الفوج ينتظر بين لحظة واخرى امرا بالهجوم ، ولكن الجميع الآن كانوا مسرورين في ان تمنح لهم فرصة للنوم ، وتغيير الاحذية ، ونيل شيء من الراحة ، رغم ان نارا حامية كانت تنطلق من الضفة الاخرى للتخبر حيث كانت الوحدات المتساوية تتخندق .

وعند المساء ، حين هذا اطلاق النار حوالى ثلاث ساعات ، كما هي العادة ، ذهب ايفان ايليتش تليغين الى مقر قيادة الفوج ، التي كانت تحتل قلعة مهجورة على بعد زهاء فرسخين من موقع الفوج .

كان ضباب اشعث يرقد على صدر النهر المتلوي بين النباتات الكثيفة ويحجم على الاجسام عند الشاطئ . وكان الجو هادئا رطبا فيه رائحة اوراق اشجار رطبة . وبين الحين والآخر كانت اطلاقا وحيدة تنهيد في الماء مثل كرة جوفاء .

قفز ايفان ايليتش عبر حفرة الى الطريق العامة وتوقف ، واشعل سيكارة . كانت الاشجار العالية الجرداء على جانبي الطريق تبدو في الضباب شاهقة الطول على نحو مفرح . وعلى اطرافها كان منخفض مستنقعي يبدو وكأنه مبلو بالليب . وصغرت رصاصا في السكون صغيرا شاكيا . زفر ايفان ايليتش زفرة عميقة ، وسار على حصى متصلل ، رافعا راسه الى اشباح الاشجار . لقد استرخى كل ما في نفسه بسبب هذا الهدوء المحيط به ، ومن كونه يسير ويفكر لوحده . لقد ابتعد ضجيج النهار الصاخب ، الا ان حزنا رقيقا نافذا تسلل الى قلبه . فتهدت ثانية ، والقي السيكارة ، ووضع يديه وراء رقبته ، وسار على هذا الوضع ، وكأنه في عالم

عجيب لم يكن فيه غير اشباح الاشجار ، وقلبه الحى الملتهب بالحب ، وسحر داشا غير المرئي .

كانت داشا معه في ساعة الراحة والهدوء هذه ، وكان يحس بعلامتها كلما هدا زفير القذائف الحديدى ، وازين البنادق ، والضجيجات ، والسباب - كل هذه الاصوات الغريبة على خليقة الله - وكلما كان من الممكن ان ينزوى في ركن من المنجبا ، وعندئذ كان السحر يحس قلبه .

وكان يبدو لافان ايليتش انه ، لو قسم له ان يموت ، فانه سيستمر بسعادة الاتصال هذه الى آخر لحظة في حياته . ولم يكن يفكر في الموت ، ولم يهابه . لا شيء يقادر الآن على ان ينتزعه من حالة الحياة الدهشة ولو كان الموت نفسه . في الصيف ، حين سافر الى يقاتوريا ليرى داشا لآخر مرة كما خيل له ، غمرته موجة من الحزن ، وقلقى ، وفكر في مختلف الاعتذارات . الا ان لقاءها في الطريق ، ودموع داشا المباغثة ، ورأسها الاشقر مضغوطا على صدره ، وشعرها ، ويديها ، وكثفها الفواحة برائحة البحر ، وقمها الطقولى حين نطق ، وقد رفعت اليه وجهها بالرموش المسبلة المبللة : « ايفان ايليتش ، عزيزى ، كم انتظرتك » - كل هذه الاشياء التي لا توصف ، والتي كانها هبطت عليه من السماء ، في ذلك الطريق عند البحر قد حولت حياة ايفان ايليتش كلها في بضع دقائق . وقال وهو ينظر الى الوجه العجيب : - سأتطلب اجبك ، طيلة حياتي .

وقميا بعد بلع بال الوهم الى حد ان تصور انه لم ينطق بهذه الكلمات ، بل دارت في ذهنه فقط ، وانها قد فهمت ما في ذهنه . انزلت داشا يديها من كتفيه ، وقالت :

- عندي اشياء كثيرة ينبغي ان اخبرك بها . فلنذهب . وسارا ، وجلسا على الرمل عند الماء . ملأت داشا كفها بالحصياء الصغيرة ، واخذت تلقحها في الماء على مهل .

- المسألة هي هل تستطيع ان تحسن معاملتي . حين تعلم بكل شيء . رغم ان ذلك لا يهم ، عاملنى حسب ما تشاء . - وتنهدت . - عشت في غيابك حياة سيئة يا ايفان ايليتش . فاعترنى ، اذا كان ذلك في امكانك .

وحدثته عن كل شيء بصدق وتفصيل . عن سامارا ، وعن
مجيتها الى هنا ، وعن لقاءها ببيسونوف ، وعن فقدانها الرغبة في
الحياة ، من شدة قرفها ، من ذلك الجو البطرسبورغى الخانق الذى
تصاعد مرة اخرى ، وبسبب الدم ، والهب الفضول ...

- الى من اشمخ بانفى ؟ وراودتنى الرغبة في ان اغرق نفسى
في الحماة - لا باس . ولكننى جنبت في اللحظة الاخيرة ... ايفان
ايليتش ، عزيزى - وبسطة ذراعها وقالت - ساعدنى ، لا اريد ،
ولا استطيع ان امضى في بغض نفسى ، ولكن لم يمض كل شيء في ...
انا اريد شيئا مختلفا تماما ، مختلفا كليا ...

وبعد هذا الحديث صممت داشا طويلا ، وثبت ايفان ايليتش
بصره في الماء الصقيل الضارب الى الزرقة - المتلألئ بالشمس .
وكانت روحه ، رغم كل شيء ، طافحة بالسعادة .

ولم تترك داشا ان الحرب قد بدأت . وان تليغين يجب ان
يسافر في الغد للحاق بفوجها ، الا بعد فترة من الوقت ، حين تبللت
قدمها بموجة اهاجتها الريح .

- ايفان ايليتش ا

- نعم .

- هل ستحسن معاملتى ؟

- نعم .

- كثيرا ؟

- نعم .

عندئذ زحفت على ركبتيها على الرمل لتقترب منه اكثر ،
ووضعت يدها في يده ، كما فعلت عند ذلك على سطح السفينة .

- ايفان ايليتش ، وانا ايضا ساحسن معاملتك .

وضغظت بشدة على اصابعه المرتعشة ، وسالت بعد برهة
من الصمت :

- ماذا قلت لى اذ كنا في الطريق ؟ - وغضنت جبهتها - اى

حرب ؟ مع من ؟

- مع الالمان .

- وانت ؟

- ساسافر غدا .

تاوهب داشا ، وصممت مرة اخرى . ومن بعيد كان نيقولاى
ايفانوفيتش يجرى على الساحل متجها نحوهما ، في سترته المخططة ،
وكانه قد غادر سريره من توه على ما يبدو . كان يلوح بجريدة ،
ويصرخ بشيء ما .

ولم يلق التفاتا الى ايفان ايليتش . عندئذ قالت داشا :
« نيقولاى ، هذا اكبر صديق لى » . - امسك نيقولاى ايفانوفيتش
تليغين من سترته ، وصرخ في وجهه :

- هذا ما توصلنا اليه ، ايها الشاب ، ها ؟ ها هي
حضارتك ، ها ؟ هذه قطعة اهل تفهم ؟ هذا هذيان ا

وقضت داشا النهار كله قرب تليغين لا تبارحه ، وديعة
مستغرقة . ولاح له هذا اليوم المملوء بنور الشمس الزرق
قليلا ، وهدير البحر واسعا لا تستوعبه الظنون . وكل دقيقة
فيه تمطت حتى لكانها استحالت حياة كاملة .

تجول تليغين وداشا على الساحل ، واستلقيا على الرمل ،
وجلسا في الشرفة ، وكانا في ذمول . وكان نيقولاى ايفانوفيتش
يلاحقهما اينما ذهبا ، ولا ينفك عنهما ، ولا يفتأ يتحدث باحاديث
مطولة عن الحرب وتسلط الالمان .

وقبيل المساء استطاعا الانفلات من نيقولاى ايفانوفيتش .
فخرجا وحيدين ، وتوغلا بعيدا بمحاذاة ساحل الخليج المنحدر
انحدارا خفيفا . سارا صامتتين ، في خطو متساوق ، وهنا بدأ ايفان
ايليتش يفكر بان الواجب يقتضيه ، على اية حال ، ان يقول شيئا
ما لداشا . وبالطبع ، انها تنتظر منه بترحًا حارا ومهددا في الوقت
ذاته . ولكن ماذا في وسعه ان يتمم ؟ وهل تستطيع الكلمات ان
تفصح عما يبلا جوانحه ؟ لا ، ان ذلك غير قابل للافصاح .

وفكر مع نفسه ، وهو ينظر الى قميصه : « لا ، لا ، لو بحت
لها بتلك الكلمات ، فان ذلك سيكون معيبا . انها لا يمكن ان
تحببنى ، ولكنها كفتاة شريفة طيبة ستقبل ، اذا طلبت يدها . ولكن
هذا سيكون اكراها . فضلا عن ذلك لا يحق لى ان اقول لانسنا
تفترق لفترة غير محددة ، فانسنى ، في اغلب الاحتمالات ، لن اعود من
الحرب ... »

وكانت تلك نوبة من نوبات تعذيب النفس . توقفت داشا

سقف منحوت منهار في أحد الأركان من جراء قنبلة سقطت يوم أمس على الجدار . كان الملازم الأول الأمير بيلسكي والملازم هارتيثوف وجالسين على سرير قرب موقد مشتعل . سلم إيفان إيليتش ، وسأل من من المتوقع ان تصل السيارة من مقر الأركان ، وجلس على كومة من علب الخراطيش غير بعيد عن الضابطين ، وقلص عينيه من الضوء .

سال مارتينوف :

- اما زال اطلاق النار مستمرا هناك ، عندكم ؟

لم يجب إيفان إيليتش ، وهنّ كفيه . ومضى الأمير بيلسكي متابعاً حديثه بصوت خافت :

- والاهم هي هذه الرائحة النتنة . لقد كتبت لاهل ان الموت لا يخفىنى . فاننا مستعد في سبيل الوطن الى التضحية بحياتى ، ولأجل هذا ، اذا اردت الدقة ، انتقلت الى المشاة ، وها انا جالس في الخنادق ، ولكن الرائحة النتنة هي التي تقتلنى .

اجاب مارتينوف ، وهو يعدل احدى كتفئتيه :

- الرائحة النتنة شيء تافه ، اذا لا تعجبك فلا تمشها . ولكن خلو المكان من النساء هو الشيء الجوهري . ان ذلك لا يؤدي الى خير . احكم بنفسك : قائد الجيش هرم ، فاقاموا لنا هنا ديرا ، لا خمر ، ولا نساء . ايمكن ان تدعو هذا اهتماما بالجيش ؟ اهذه حرب ؟

نهض مارتينوف من السرير ، واخذ يدفع برأس حذاءه خشبية محترقة . وراح الامير يدخلن مستغرقا ناظرا الى النار . وقال :

- خمسة ملايين جندي يروثون . فضلا عن ذلك تتفسخ الجثث والخيول النافقة . ستظل الحرب طوال حياتي تذكرني بشيء كرهه الرائحة . برررر . . .

سمع هدير محرك سيارة في الفناء . وصاح صوت منفعل عند الباب :

- يا سادة ، جاء البريد .

شرح الضباط الى مدخل القلعة . كانت شخص داكنة تتحرك عند السيارة ، وبعض الرجال يتراخضون في الفناء . وكرر الصوت المنبوح : «يا سادة ، ارجو الا تتخاطفوا من الايدي» .

فجأة ، وتعلقت بكتفه ، وخلعت نعلها مرددة «يا آلهي ، يا آلهي» واخذت تفرغ الرمل من النعل ثم ارتدته ودفعت قائمتها وتنهت : - سانشير بجب شديد لك ، حين ترحل ، يا إيفان إيليتش . ووضعت يدها على رقبته ، وتفرست في عينيه بعينيهما الصافيتين ، الرامدتين الصارمتين تقريبا ، الغاليتين من كل ظل لبسمة ، ووزقت زفرة اخرى خفيفة .

- ستكون سوية ، هناك ايضا ، ها ؟

جذبها إيفان إيليتش جذبة رقيقة ، وقبل شفئتيها الناعمتين المرتعشتين . فاعمضت دأشا عينيهما . وفيما بعد حين يهرت منهما الانفاس كليهما تنحت دأشا ، وامسكت يد إيفان إيليتش ، وسار الاثنان بمحاذاة الماء الثقيل الداكن اللاعق الساحل بالسنة قرمزية عند اقدامهما .

كان إيفان إيليتش يتذكر كل ذلك في لحظات الهدوء بانفعال متجدد في كل مرة . والان ، وهو يسير في الضباب ، على الطريق العامة ، بين الاشجار ، ويدها وراء رقبته عادت تتراوى له نظرة دأشا المتفرسة ، واحسن بقبلتها الطويلة .

- قف ! من القادم !

هتف صوت غليظ في الضباب .

- من جعاتكم .

اجاب إيفان إيليتش ، وانزل يديه الى جيبي معطفه العسكري . وانعطف عند اشجار بلوط نحو هيكال قلعة غير واضح المعالم ، حيث كان النور يلوح اصفر في بعض نوافذها المضادة . وعلى المدخل ابصر شخصين تليغين فرمى سيكارتته ، ووقف في هيئة استعداد . «هل جاء البريد ؟» ، لا ، يا حضرة الضابط ، نحن في انتظاره . دخل إيفان إيليتش الى الرواق . كانت طنفسة قديمة معلقة فوق درج بلوطي عريض في آخر الرواق تصور آدم وحواء واقفين وسط الاشجار ، كانت هي تمسك في يدها تفاحة ، وهو غصنا مقطوعا عليه زهر . وكانت شمعة موضوعة في قم زجاجة في اسفل الدرج تضيء بضوئها الشاحب وجهيهما الحالدين وجسوميهما المزرقين .

وفتح إيفان إيليتش بابا الى اليمن ، ودخل حجرة فارغة لها

- المقدم روزانوف . طلب ان تأتي بأسرع ما يمكن .

طوى تليغين الرسالة التي لم يتم قراءتها وحضرها وراء قميصه مع الظروف الأخرى ، وانزل قبعته على عينيه ، وخرج .

كان الضباب قد ازداد كثافة ، وحجب الأشجار ، والساائر بحس وكأنه يخوض في حليب ، ولا يتعرف على الطريق الا من صلصلة الحصياء . اعاد ايفان ايليتش مع نفسه «سيكون حبي لك صادقا ، وسيزداد قسوة» . فحياة توقف مرهفا سمعه . لم يكن يصدر من الضباب صوت ما عدا الصوت الذي يعدهه احيانا سقوط قطرة ثقيلة من شجرة . ثم اخذ يميز ، على مسافة غير بعيدة عنه ، قرقرة وخشخشة خفيفة . وواصل سيره ، فصات القرقرة اكثر وضوحا . ارتد بقرة ، فانهدت كتلة الطين التي انخلعت من تحت قدميه ساقطة في الماء بطرشة ثقيلة .

كان ذلك ، على ما يبدو ، المكان الذي كانت الطريق العامة تقطعه فوق النهر عند جسر محروق . وعلى الضفة الأخرى من النهر ، على بعد زهاء مائة خطوة كانت الخنادق المتساوية تصل الى حافة النهر . وكان ايفان ايليتش يعرف ذلك . وبالفعل اُتت رصاصة من الجانب الآخر كالسوط على طرشة الماء ، ورجع النهر صوتها ، واُتت أخرى وثالثة ، ثم اعتقد ذلك صلية طويلة ، مثل قعقعة حديد ، فردد عليها من كل جانب طلقات عجل خنق الضباب اصواتها . وتوالى الازيز والدوي والزئير على النهر كله اقوى فاقوى ، وفي ذلك الضميج اللعين ، لعل مدفع رشاش بمجلة ، وسمع صوت انفجار في الغابة . وجثم الضباب الممزق الهادر على الارض ساترا على هذا الامر الكريه المعتاد .

ولعدة مرات كانت احدى الرصاصات ترتطم بشجرة قرب ايفان ايليتش محدثة صوت قضم ، ويسقط غصن . ترك الطريق العامة الى الحقل ، واتخذ طريقة تلمسها بين الاجمات . هذا التراشق بغثة ، مثلما بدا ، ثم انتهى . خلع ايفان ايليتش قبعته ، ومسح جبينه الرطب . استدل مرة أخرى سكون اشبهه بالسكون تحت الماء ، ولم يبق الا اصوات القطرات تقطر من الاشجار . حمدا لله ، اليوم سيقرا رسائل داشا . وضحك ايفان ايليتش وقفز عبر

وجلبت ايكياس البريد والطرود الى الرواق ، واخذوا يفكونها على النذج تحت آدم وحواء . وكانت تحتوي على بريد الشهر كله . وظهر ان تلك الايكياس الجفناصية القذرة كانت تحتوي على عالم كامل من الحب والحنين - حياة كاملة مهجورة ، رقيقة ، لا تسترد . - يا سادة ، لا تتغافلوا من الايدي - يع - النقيب بابكين ، وهو رجل ضخم احمر الوجه - الملازم الثاني تليغين ست رسائل وطرود ... الملازم الثاني نيشني رسالتان ...

- نيشني قتل ، يا سادة ...

- متى ؟

- اليوم صباحا ...

سار ايفان ايليتش الى الموقد . كانت الرسائل الست كلها من داشا . وكان العنوان على الظروف مكتوبا بخط كبير . وغمر الحنان ايفان ايليتش على تلك اليد الحبيبة التي خطت هذه الحروف الكبيرة . انحنى على النار ، وقض الطرف الاول بحذر . ففاحت منه ذكري قوية جعلت ايفان ايليتش يغمض عينيه برهة . ثم قرا :

«سافرنا - نيقولاي ايفانوفيتش وانا - الى سيمفروبول في اليوم الذي ودعناك فيه ، وفي السماء ركبتنا قطار بطرسبورغ . ونحن الآن في شقتنا القديمة . نيقولاي ايفانوفيتش قلق جدا بسبب عدم ورود اى خبر من كاتيا ، ونحن لا نعرف اين هي الآن . ان ما وقع لنا ، انت وانا ، كان عظيما جدا ومعافنا جدا حتى اننى ما ازال غير متبالكة حواسي . اننى احبك ، وسيكون حبي لك صادقا وسيزداد قوة . اما الآن فان بليلة شديدة تجتاح النفس . القوات تمر في الشوارع على انغام الموسيقى فتشيع في الجو حزنا ممضا حتى لكان السعادة تضي راحلة مع الابواق ، مع هؤلاء الجنود . انا اعرف لا يجوز لي ان اكتب ذلك ، ولكن يجب ان تكون حذوا في الحرب ، على اية حال» -

- يا حضرة الضابط ، يا حضرة الضابط .

- التفت تليغين بصعوبة فرأى جنديا مراسلا يقف عند الباب . - برقية تلفونية ، يا حضرة الضابط ... يطلبونك في

الفرج .

حفرة . وبقاعة سمع ، على مقربة شديدة منه ، صوت رجل يتكلم ثم يقول :

- يا فاسيل اي نوم في مثل هذه الاحوال ؟ اي نوم ؟
رد صوت مهتز :

- انتظر . هناك شخص قادم .
- من القادم ؟
- من جماعتكم ، من جماعتكم .

اسرع تليغين يقول ، وفي الحال راي المتراسم الترابي للخنق ، ووجهين ملتجئين يتطلعان من تحت الارض . سأل :

- اية سرية هذه ؟

- الثالثة يا حضرة الضابط ، سريتك . ولماذا تسير على الارض المكشوفة ، يا حضرة الضابط ؟ قد يصيبونك .

قفر تليغين الى الخندق ، وسار فيه الى خندق الاتصال المؤدى الى مخبأ الضباط . كان الجنود الذين ايقظهم اطلاق الرصاص هذا يتحدثون :

- في مثل هذا الضباب من السهل جدا ان يعبر العدو النهر في مكان ما .
- انه شيء بسيط .

- فجأة رمى ودوى كثيف . ترى ايريد ان يخيفنا ام هو نفسه خائف ؟

- وانت ، لست خائفا ؟

- انا ، يا صاحبي ؟ انا جبان جدا .

- يا اولاد ، قظمت اصبع لغفريل .

- لو رابتومه كيف يزقق رافعا اصبعه الى فوق .

- حظوظ ! .. سيرسل الى اهله .

- ابدا ! لو كانت ذراعه كلها قد قظمت لكانت له اجازة ! اما دون اصبع واحدة ، فسيجشروه ليتعفن في مكان قريب ثم يعودونه الى السرية ثانية .

- متى ستنتهي هذه الحرب ؟

- اوه ، كفى .

- سننتهي ، ولكن لن نرى نحن نهايتها .

- على الاقل لو استولينا على فينا .

- وما حاجتك اليها ؟

- لا لشيء ، ولكن احسن .

- حتى اذا لم تنته الحرب في الربيع ، فان الجميع سيهربون على اية حال . فمن سيزرع الارض ؟ النسوان ؟ الشعب سحق سحقا . كفى ، تشبعنا بالدم بما فيه الكفاية وزيادة ، وسنذهب الى بيوتنا من تلقاء انفسنا .

- ولكن الجنرالات لن يكفوا عن الحرب عن قريب .

- ما هذا الكلام ؟ .. من يقول هذا ؟

- كفى نباحا ، يا عريف .. انصرف ..

- لن يكف الجنرالات عن الحرب .

- انه على حق ، يا اولاد . فهم اولا يقيضون رواتب مضاعفة ، واوسمة وتياشين .

لقد قال لي احد الاشخاص ان الانجليز يعطون لجنرالانما ثمانية وثلاثين روبلا ونصف على كل مجند .

- اوه ، الاوباش ! كما يبيعون الماشية .

- لا بأس ، سنصبر ، ونرى .

عندما دخل تليغين المخبأ راي امر الكتيبة المقدم روزانوف وهو رجل بدين ذو نظارة ، وحصل شعر قليلة - جالسنا على اغطية خيول موضوعة في احد الاركان تحت اغصان الصنوبر ، وقد ابتدره قائلا :

- جنت اخيرا يا صاحبي .

- ارجو المعذرة ، يا فيودور كوزميتش ، فقد اضعت طريقى . الضباب كثيف .

- المسألة ، يا صاحبي ، ان هناك عملا ينبغي انجازها في الليل .

ووضع في فمه قطعة الخبز التي كان طيلة الوقت يمسكها بيده الوسخة . اطبق تليغين فكيه ببطء .

- الخلاصة ، يا عزيزي ايفان ايليتش ، ان الامر قد صدر الينا بالعبور الى الضفة الاخرى . وسيكون لطيفا لو نتج ذلك

بشيء من اليسر . اجلس بجانبى . اتركيد شينيا من الكونياك ؟ لقد
عنت لى هذه الخطة ... اقامة جسر مقابل دغل الصفصاف الكبير
تماما ، وتعبير فصيلتين على تلك الضفة ...

١٦

- سوسوف !
- نعم ، يا حضرة الضابط .
- احقر ... على مهلك ، لا تلتق التراب في الماء . يا اولاد
تقدموا الى الامام ... زوبتسوف !
- نعم ، يا حضرة الضابط .
- انتظر ... ثبته هنا ... احقر قليلا ... خفض ...
على مهل ...

- على مهل ، يا اولاد ، سنخلعون كفتى ... ادفع ...
- هيا ، ادفع ...
- لا تصرخ ، هدوء ، يا حيوان !
- اسند الطرف الآخر ... يا حضرة الضابط ، هل نرفع ؟
- هل ربطتم الطرفين ؟
- نعم .
- ارفع ...
وارتفع في غيوم الضباب المشرب بضوء القمر عمودان
مرتفعان تربط بينهما عوارض ، وقد صدر صريف من ذلك . انها
جسر معلق . كانت اشباح المتطوعين تتحرك على الشاطئ وهمى لا
تكاد تبين . وكان الكلام والسباب يجريان بهمس عجول .

- هل استقر ؟ ها ؟
- استقر بصورة جيدة .
- خفض ... بعدو اكثر ...
- برفق ، برفق يا اولاد ...
بعد ان تشب العمودان بطرفيهما في ضفة النهر ، في اضيق
موضع فيه ، اخذا يميلان ببطء الى الامام ، وتدليا فوق الماء في
الضباب .

- هل سينوش الضفة الثانية ؟
- خفض على مهل .
- ثقيل جدا .
- قف ، قف ... برفق ! ...

ومع ذلك فقد انطرح الطرف الثاني من الجسر على الصاء
بطرطشة عالية . اشار تليفين بذراعه قائلا :

- استلقوا !
استلقت اشباح المتطوعين على عشب الشاطئ بصوت غير
مسموع . صفّ الضباب ، الا ان الظلام صار احلك ، والهواء اثقل
عند السحر . وكان الهدوء يسود الضفة الاخرى . نادى تليفين :
- زوبتسوف !
- نعم !
- انزل الى الماء وصفّ الواحا !

نزل المتطوع فاسيلي زوبتسوف بجسمه الركين الناشر رائحة
عرق نافذة من الشاطئ الى الماء مارا بتليفين . وراى ايفان
ايليتش يده الكبيرة تمسك بالعشب مرتجفة ، وتطلقه ، وتختفى .
- عميق ، - قال زوبتسوف بهمس مرتجف صدر من مكان
في الاسفل واستمر - ناولوني الالواح ، يا اولاد ...
- الالواح ، ناولوني الالواح !

وراحت الالواح تتناقل بين الايدي بسرعة وبلا صوت . وكان
من المستحيل تسميرها خوفا من حدوث ضجة . صفّ زوبتسوف
الصغوف الاولى ، وخرج من الماء الى الجسر ، وراح يقول بصوت
خافت ، واسنانه تصطك :
- اسرع ، ناول بسرعة ... لا تبطلى ...

كان الماء القارس البرودة يرسل خريزه تحت الجسر ،
والعمودان يتمايلان . وكان تليفين يميز معالم الاجمات الداكنة على
الشاطئ الآخر ، وبالرغم من انها لم تكن تختلف عن الاجمات في
الجانب الروسى . الا ان منظرها بدا مخيفا . عاد ايفان ايليتش الى
الشاطئ حيث كان المتطوعون مستلقين ، وهتف بجدة :
- انهضوا !

وفي الحال نهضت في الغمام المبيض شخوص مسوحة
المعالم كبيرة بشكل بالغ .
- واحدا بعد واحد ، اجر ! .

استدار تليغين نحو الجسر . وفي تلك اللحظة توروت الألواح
الصفراء ، وراس زويتسوف ذو اللحية السوداء الملقى الى الوراء
من الرعب ، وكان شعاع شمس اصطدم بعمامة الضباب فجأة .
اتعرف شعاع المصباح الكاشف جانبا الى الاجمات ، وانتزع من
الظلام غصنا موعجا عليه عساليح عارية ، وعاد ثانية ليتمدد على
الألواح . ركض تليغين مطبق الاسنان عبر الجسر ، وفي تلك
اللحظة بدا وكان كل ذلك السكون الاسود قد انفجر وانعكس
كالرعد في راسه . اخذت نيران البنادق والرشاشات تنهجر على
الجسر من الجانب النمساوي . قفز تليغين على الشاطئ ، وقعد على
رجليه ، واستدار . كان جندي طويل القامة لم يعرف عليه ،
يركض على الجسر حاضنا بندقيته على صدره ، ثم افلقت من يديه ،
ورفع يديه ، وسقط الى الجانب في الماء . كان احد الرشاشات
يصب ناره على الجسر والماء والشاطئ . ركض جندي آخر هو
سوسوف ، واستلقى بالقرب من تليغين . . .

- سامزق هؤلاء الأوغاد باسنائي !

وركض ثان ، وثالث ، ورابع ، وترنح آخر ، وزعق متخبطا
في الماء . . .

عبر الجميع الجسر راكضين ، وانظروا محكمين بالارفاش
قليلا من التراب امامهم . والآن صار الرصاص يرعد على نحو جنوني
فوق النهر كله . وكان من المعتاد على الصر ان يرفع راسه . فقد
ظل الرشاش يطمر بوابل رصاصه هناك حيث استلقى المتطوعون
على الارض . وفجأة اذ شيء على ارتفاع واطى مرة ومرتين . . .
وست مرات ، ودوت الى الامام ستة انفجارات خافتة . انهم الروس
يقصفون وكن الرشاشي .

قفز تليغين وفاسيلي زويتسوف امامه وركضا حوالى اربعين
خطوة ، ثم استلقيا . وعاد الرشاش الى العمل من الظلام الى
البيسار . ولكن كان واضحا ان النار من الجانب الروسي كانت اشد ،
وان النمساويين يبعدون داخل الارض . استغل المتطوعون فترات

السكون وركضوا نحو المكان ، حيث قد احدثت مدفعية الروس
ثغرة في الاسلاك الشائكة امام الخنادق النمساوية يوم امس .

وكان النمساويون قد بدأوا وصلها من جديد خلال الليل ،
فتركوا جثة تتدلى عليها ، قطع زويتسوف الاسلاك ، وسقطت الجثة
امام تليغين كالزكية . وثب المتطوع لابتيف الى الامام بدون سلاح
زاحفا على الاربع سابقا الآخرين ، واستلقى امام المتراس تماما ،
فصاح به زويتسوف :

- انهض ، والى قنبلة !

الا ان لابتيف صمت ولم يتحرك ، ولم يلتفت ، فلا بد ان
قلبه جمد من الرعب . اشتد اطلاق النار ، ولم يستطع المتطوعون
التحرك ، والتصقوا بالارض ، واندفوا فيها .
صاح زويتسوف :

- انهض ، والى قنبلة ، يا ابن الكلبة اذقها !

ومد جسمه مسكاً بندقيته من كرافتها ، ووخز بحربته
معلق لابتيف الذي برز كالحديد . ادار لابتيف وجهه الغاضب ،
وفك قنبلة يدوية من حزامه ، وقذفها فجأة ملقيا صدره على
المتراس ، وقفز الى الخندق بعد انفجارها .

صاح زويتسوف بصوت غريب عليه :

- اضرب ، اضرب !

نهض زهاء عشرة من المتطوعين ، وهروا ، وغيبتهم
الارض . وكان لا يسمع غير اصوات الانفجارات العادة المتقطعة .
اتحرك تليغين على المتراس جثة وذهايا كالاغمي ولم يستطع
ان يفك قنبلة ، فقفز اخيرا الى الخندق ، وركض ضاربا الطين اللزج
بكتفيه ، متعثرا ، صارخا بمل فيه . . . وراى وجها ابيض كالقناع
لرجل منضغط على تجويف في جدار الخندق ، فامسك الرجل من
كتفيه ، وكان الرجل لايفتا يهدر وكأنه في النوم . . .

- اسكت ، ايها الشيطان ، لن امسك بسوء .

صرخ تليغين في الوجه الابيض كالقناع ، وهو يكاد يبكي ،
وركض ، قافزا فوق الجثث . الا ان المعركة كانت تقترب من
نهايتها ، وطلع حشد من الناس الرماديين منسولين من الخنادق الى
الحقل بعد ان القوا بنادقهم ، فدفعوهم بكرنافات البنادق . وكان

الرشاش ما يزال يلعلع في وكره المسقوف على بعد زهاء أربعين خطوة ، مصوباً ناره الى معبر النهر . شق ايفان ايليتش طريقة بين المتطوعين والاسرى ، وصاح :

- ماذا تنتظرون ، ماذا تنتظرون ؟ اين زوبتسوف ؟

- انا هنا ...

- ماذا تنتظر ، ايها الشيطان اللعين ؟

- وكيف استطع ان اصل اليه ؟

وركضاً .

- قف ! .. هذا هو ! ..

كان ممر ضيق في الخندق يؤدي الى وكر الرشاش . ركض تليفين فيه طاوياً جذعه ، وقف الى مخبأ كان كل شيء فيه يرتج في الظلمة من اللبذبة التي لا تطاق ، وقبض على شخص من مرفقيه ، وجره واداً بالسكون يسود ، ولم يبق الا فحيح الرجل الذي جره من وراء الرشاش ، وهو يقاوم ..

- الوغد ، انه يمانع ... اسمح لي .

تمتم زوبتسوف بذلك من الخلف ، وانسمع ذلك في الحال بثلاث ضربات بكرنافة البندقية على جمجمة النمساوي فارتجف هذا ، وتوجع ، ثم همد ... تركه تليفين وخرج من المخبأ ، صاح زوبتسوف في اثره :

- يا حضرة الضابط ، انه موثق .

وبعد قليل انزاح الظلام تماماً . وظهرت على الطين الاصفر بقع وخطوط دم ، وتناثرت جلود مسلوخة من عجل ، وعذب تنك ، ومقال ، بينهما جثث آدمية متكوراة كالزكائب . وكان المتطوعون المنهكون الخاملون ، منهم من انطرح ارضاً ، ومنهم من كان يأكل من معلبات ، ومنهم من كان ينشئ في الحقائب التي رماها النمساويون .

وكان الاسرى قد سبقوا منذ وقت طويل الى ما وراء النهر . وقد عبر الفوج النهر ، واحتل مواقعه ، وكانت المدفعية تقصف خطوط النمساويين الثانية ، فكان هؤلاء يردون عليها بنار ضعيفة . تماسقت رذاذ ، وانقشع الضباب . وضع ايفان ايليتش مرفقه على حافة الخندق ، وحقق في العقل الذي ركضوا فيه ليلاً . انه حقل

كسائر الحقول ، بني التربة ، رطب تناثرت فيه هنا وهناك قطع من الاسلاك الشائكة ، وآثار سوداء لارض محقورة ، وبعض جثث المتطوعين . والنهر قريب جداً ، ولا وجود للامشجار التي تصورها بالامس جبارة ، ولا لاجمات مخيفسة . ولكن ما اكثر الجهود التي بذلت لقطع هذه الخطوات الثلاثمائة !

استمر النمساويون في تراجعهم ، واحتقتهم الوحدات الروسية حتى الليل دون ان تنال قسماً من الراحة . وأمر تليفين بان يحتل مع متطوعيه غابة صغيرة كانت تترامى مزقة على قمة تل ، وقد احتلها عند المساء بعد فترة قصيرة من الترائشق بالنيران . وتغندقوا على عجل ، ونصبوا نقاط حراسة ، واقاموا اتصالاً تلفونياً مع وحدتهم ، واكلوا ما كان في حقائبهم من طعام ، وغفا الكثيرون تحت الرذاذ وفي الظلام حيث تتصاعد رائحة تفسخ اوراق الاشجار في الغاية ، رغم ان الامر قد صدر لهم بالاستمرار في اطلاق النار طول الليل .

اتتعد تليفين قرمة ، واتكا على جذع شجرة ناعمة مما علق بها من طحلب . وكانت بين الحين والآخر تسقط قطرة وراه باقته ، وكان ذلك شيئاً طيباً ، لانه كان يمنعه من الغفو . وكان اللغظ الصباحي قد انقضى منذ وقت طويل ، وزال حتى ذلك الاعياء الرهيب عندما أمروا بالسير زهاء عشرة فراسخ على الجذامات المنتفخة من المطر ، وتخطى الاسيجة والسواتي ، حين صارت الاقدام المتخشبة تتخبط حينئذ اتفق ، والرؤوس متورمة من الالم .

سمع شخص يسير على الاوراق المتساقطة ، وصوت زوبتسوف يقول بخفوت :

- اتريد بقسمائة ؟

- شكراً .

تناول ايفان ايليتش بقسمائة منه ، واخذ بعضها : كانت حلوة فذابت في فمه . قرص زوبتسوف على مقربة منه :

- اتسمح لي بالتدخين ؟

- شرط ان تكون حذراً .

- عندي غليون .

- زوبتسوف ، ما كان لك ان تقتله ، ها ؟

- مَنْ؟ جندي الرماش؟

- نعم .

- بالطبع .

- تريد ان تنام ؟

- لا يهم . يمكن بدون ذلك .

- هزني ، اذا نغوت .

كانت القطرات تتساقط ببطء على الاوراق المتفسخة وعلى

يده ، وعلى سطح قبعته . كانت هذه القطرات بعد الصبح

والصباحات ، واللغظ المقرق ، بعد قتل جندي الرماش تتساقط

مثل كرات زجاجية صغيرة . تتساقط في الظلام ، في اعماق الغاية ،

حيث تتصاعد رائحة الاوراق المتفسخة . وكان العفيف يذود النوم

عن عينيه المنطبتين ... لا ، لا يجوز ... لا يجوز ... وفتح

ايفان ايليتش بقوة عينيه المنطبتين ، ورأى خطوط الاغصان غير

الواضحة ، وكانها خطوط مرسومة بدمع ... ولكن من الحق ايضا

الاستمرار باطلاق النار طوال الليل ... دعوا المتطوعين يتألون

شيئا من راحة ... ثمانية قتلى ، واحد عشر جريحا ... طبعاً يجب

ان يكون الانسان حذراً في الحرب ... آه ، داشا ، داشا .

والقطرات الزجاجية تستشيع السكنينة في النفس ، وتواسي ...

- ايفان ايليتش !

- نعم ، نعم ، زوبتسوف ، لست نائماً ...

- ليس من الخطا قتل الانسان؟ .. اغلب الظن ان له بيتاً،

وعائلة معها تكن ، بينما غرزت الحربة فيه ، وكانها اغرزها في

دمية انسان وقضى الامر . عندما قضيت لأول مرة في حياتي على

انسان ، لم استطع ان ادقق الطعام ، فقد شعرت بالغثيان ... اما

الآن فانا اقضى على العاشر او التاسع ... شيء رهيب ها ؟ فهل

هناك شخص يتحمل الخطيئة ؟

- اية خطيئة ؟

- خطيئتي مثلاً . اقول ، ان شخصاً يتحمل خطيئتي - جنرالاً

او شخصاً آخر في بطرسبورغ يتصرف بكل هذه الامور ...

- واية خطيئة لك ، اذا كنت تدافع عن وطنك ؟

- وليكن ... ولكن يبدو ان هناك من يتحمل الذنب ،

فلنبحث عنه . ان من اطلق هذه الحرب ، هو الذي سيتحمل

وزرها ... وسيجانب عن هذه الامور بشدة ...

ون في الغاية صوت اطلاقه حاد . وجفل تليفين وصدت عدة

اطلاقات اخرى من الجانب الآخر .

وكان الامر يبدو اشد غرابة لان العدو لم يكن على احتكاك

معهم منذ المساء . هرع تليفين الى التلغراف ، اخرج جندي التلغراف

راسه من الحفرة .

- الجهاز لا يعمل ، يا حضرة الضابط .

والآن راحت الطلقات تتردد تترى في الغاية كلها وترتطم

الرصاصات في الاغصان . تراجمت النقاط الامامية واخذت ترد على

النار وظهر المتطوع كلييوف قرب تليفين ، وقال بصوت وحشي

غريب : «انهم يطوقونا ، يا حضرة الضابط» وقبض على وجهه ،

وجلس على الارض ، ثم انطرح عليها . وصرخ شخص آخر في

الظلام :

- يا اخوان ، انا موت .

لمح تليفين بين جذوع الاشجار قامات المتطوعين الفارعة

السائنة . وكانوا جميعاً يتجهون بابصارهم اليه وقد احس بذلك .

امر بان ينسلوا كل واحد على حدة الى شمال الغاية ، الجهة التي لم

تطوق بعد ، في اغلب الاحتمال . وسيميني هو يقاوم هنا ، في

الخنادق مع من يريد ان يبقى ، قدر ما تمكن المقاومة .

- المطلوب خمسة اشخاص ، فمن يرغب ؟

خرج من الاشجار زوبتسوف ، وسوسوف ، والشباب

كولوف ، واتجهوا نحوه . التفت زوبتسوف وصاح :

- بقي اثنان ! رايكين ، تعال .

- حسناً ، يمكنني ...

- الخامس ، الخامس .

نهض من الارض جندي قصير القامة يرتدى فرواً خروفي

وقبعة شعناء :

- ربما انا ايضا .

واستلقى الستة وبين الواحد والاخر زهاء عشرين خطوة ،

وارحوا يطلقون النار . واختفت الاشباح وراء الاشجار . افرغ ايفان

إيليتش يضع غلب من الخراطيش وفجأة تراهى له بوضوح بالغ كيف ان الرجال ذوى المعاطف الزرق سيقلبون في صباح الغد جثته المكشرة على ظهرها ، وبأخوذون بتفتيشه ، وتمتد يد فذرة ورا ، القمص .

وضع بندقيته ، وحفر في الارض الرطبة ، واخرج رسائل دانا ، وقبلها ، ووضعها في العفرة التي حفرها ، وطمرها ، وفرش فوقها اوراقا متفسخة . وفجأة سمع صوت سوسوف الى يساره : «اوى ، اوى ، يا اخوان !» لقد بقيت علبتان من الخراطيش .

زحف ايفان ايليتش نحو سوسوف المطرق براسه واستلقى الى جانبه ، وتناول علبتين من حقيبته . والان لم يبق احد يطلق النار غير تليغين وشخص آخر الى يمينه واخرا انتهت الخراطيش . انتظر ايفان ايليتش ، ونظر فيما حوله ، ونهض ، واخذ ينادى على اسماء المتطوعين . ولم يرد على نداءه الا اسم واحد ، وتقدم كولويف منه معتمدا على بندقيته . سال ايفان ايليتش :

— هل عندك خراطيش ؟

— لا .

— والآخرون لا يردون ؟

— لا ، لا .

— حسنا ، لنذهب . اركض .

لقى كولويف بندقيته على ظهره ، وركض متخفيا ورا ، الاشجار . اما تليغين ، فما ان خطا عشر خطوات حتى احس يوخرة اصعب حديدية كليلية على كتفه من الخلف .

١٧

وتبين انها عتيقة بالية كل التصورات التي تصور العرب هجوما جريئا للفرسان ومسيرات غير عادية ، ومآثر بطولية للمجنود والضباط .

ان الهجوم الشهير لحرس الفرسان ، حين اجتازت ثلاث سرايا

مترجلة ، حواجز الاسلاك الشائكة دون ان تطلق رصاصة واحدة ، وعلى راسها آمر الفوج الامير دولغوروكوف الذى كان يتخطى تحت نيران الرشاشات والسيفار في فمه ، ولسانه يزسل الشتائم باللغة الفرنسية كالعادة ، ان هذا الهجوم قد ادى الى ان يفقد حرس الفرسان نصف عدده ما بين قتل وجريح ، ليستولى على مدفعين ثقيلين تبين انهما قد عطلا بسبب قدمهما ، وانهما كانا محميين برشاش واحد فقط .

وقد قال ضابط سرية قوزاكية في هذا الصدد : «لو واكمل الامر الى لاستوليت على هذه النفاية بعشرة من القوزاق» .

واتضح من الشهور الاولى ان لا فائدة من شجاعة الجندي السابق ، اى الرجل البطول الضخم ذى الشاربين الذى يجيد العدو على الفرس وقلق الهام بالسيف دون ان يهاب الرصاص . فقد صار التكتيك وتنظيم المؤخرة يحتلان الصدارة في الحرب . وطلب من الجنود ان يمتوا بصلابة وطاعة في الاماكن المحددة على الخريطة . ونشأت الحاجة الى عساكر مقتدرين على الاختفاء ، والتخندق في الارض ، والتلاشى مع لون العبار . ونسخت كليا القواعد العاطفية التي وضعها مؤتمر لاهاي حول ما يجوز وما لا يجوز في القتل . وتشتتت مع هذه الورقة الممزقة بقايا الاصول الخلقية التي لم تعد لاحد حاجة اليها .

وهكذا فان الحرب قامت ، خلال بضعة شهور ، بغسل قرن كامل . وحتى ذلك الحين كان الكثيرون ما يزالون يعتقدون بان الحياة الانسانية تحكمها قوانين الخير السامية . وان الخير مناصر على الشر في آخر المطاف لا محالة وستبلغ الانسانية الكمال . ولكن لقد كان ذلك من بقايا القرون الوسطى التي اوهنت الارادة ، واعاقت سير الحضارة . والآن ، اصبح واضحا حتى للمثاليين الراسخين في المثالية ان الخير والشر هما مفهومان فلسفيان محض ، وان البقرية الانسانية قد دخلت في خدمة سيد خبيث . . .

لقد كان ذلك زمنا اوحى فيه حتى للاطفال الصغار ان القتل والتدمير والقضاء على امم بكاملها هي افعال شجاعة مقدسة . وكانت الصحف بملايين النسخ تردد ذلك يوميا وتزعم به وتدعوا اليه . وكان خبراء خصوصيون يتباون كل صباح بنتائج المعارك ، وكانت

الصحف تنشر تنبؤات المثبتة الشهيرة مدام تيب . وظهر العديد من العرافات والعرافين والمنجمين والعارفين بالغيب ، وتقصت البضائع ، وارتفعت الأسعار ، وتوقف تصدير الخامات من روسيا . وكانت ثلاثة موانئ في الشمال والشرق - وهي المنافذ الوحيدة الباقية للبلاد المغلقة والمنزلة انزاعا تاما - لا تستقبل غير القذائف واسلحة الحرب . واهملت زراعة الحبوب . وشاعت المليات من العملة الورقية في الريف حتى صار الفلاحون يبيعون القمح بلا رغبة .

في المؤتمر السرى المنعقد في استوكهولم لاعضاء العصبة الصوفية السرية لانصار «الحكمة الانسانية» قال مؤسس هذه الجماعة ان الصراع الرهيب الذى يجرى في الاجزاء العليا قد انتقل الى الارض الآن ، وستحدث كارثة عالمية ، وستكون روسيا ضحية للتكفير عن الاوزار . وبالفعل كانت جميع الافكار العقلانية تفرق في اقيانوس من الدم يغمر خط الجبهة الهائل الممتد ثلاثة آلاف فرسخ والذي يطوق اوربا . وما من عقل كان قادرا على ان يوضح لماذا تدمر الانسانية نفسها في عناد الجديدين والديناييت والمجاعة . ان دماغى متفحيجة تعود الى الزمن الغابر كانت تنفجر . كان الجميع يعانى تركة الماضى . ولكن حتى هذا لم يكن ليوضح شيئا . وبدأت المجاعة في اقطار . وتوقفت الحياة في كل مكان . واخذت الحرب تبدو الفصل الاول فقط من تراجميديا .

وامام هذا المشهد كان الفرد الذى اعتُبر الى فترة وجيزة «عالما صغيرا» وشخصا متضخما ، كان كل فرد يتضائل ويتحول الى ذرة غبار لا حول لها . وخرجت الجماهير البدائية الى افواه المسرح التراجييدي لتلعل محله .

وكان حظ النساء اقل الحظوظ . لقد كانت كل واحدة منهن وفق ما خضت به من جمال وسحر وذكاء ، قد نسجت لنفسها شبكة عنكبوتية من خيوط دقيقة متينة بما فيه الكفاية بالنسبة للحياة الاعتيادية . وكان كل من كتب له ان يسقط فيها يطن طئينا مسلما على اية حال .

الا ان هذه الحرب قد هتكت هذه الشبكات ايضا . وكان من المستحيل حتى التفكير في نسجها من جديد في ذلك الزمن القاسى .

فلا بد من انتظار ازمان افضل . فظلت النساء ينتظرن بصبر ، وكان الزمن ينقضى ، واعوام النساء المعدودة تمشى قاحلة حزينة .

اصبح الأزواج والعشاق والاخوان والابناء - الذين صاروا الآن مجرد ارقام ، وحدات تجريدية محض - يرددون تحت حداث ترابية في الحقول على مشارف الغابات ، وعند الطرق . وكان من المستحيل على اية جهود ان تزيل الغضون الجديدة المتزايدة من وجوه النساء الشائخة قبل الاوان .

١٨

- قلت لأخي : انك جامد العقيدة . اتنا اكروه الاشتراكيين الديسوقراطيين ، سيتعذب الشخص في حكمكم . اذا زل في كلامه . انت انسان نجسى . عندئذ طردني من البيت . وما انا في موسكو بلا نقود . انها لقضية مسلية جدا . ارجوك ، يا داريا دميتريفنا ان تطلبني الى نيقولاى ايفانوفيتش ان يجد لي عملا . وسيتان عندي اى عمل ، وافضل كل شئ ، بالطبع ، ان يكون في قطار الاسعاف .

- حسنا ، سأقول له .
- ليس لي احد من المعارف هنا . هل تذكرين «مجمعنا المركزي ؟ يقولون ان فاسيل فينايهينوفيتش قالت قدرحل الى مكان ما ، يبدو في الضيق . . . سابوجكوف في مكان ما في الجبهة ، وجيروف في القفاس يحاضر عن المستقبلية . وانا لا اعرف اين تليفين . يبدو انك كتبت من معارفه المقربين ؟

سارت يلزافيتا كييفنا ودانشا ببط . في شارع جانبي بين اكوام الثلج العالية . وكان الثلج يتساقط ندفا صغيرة ، ويهس تحت الاقدام . اخرج سائق زلاجة واظنفة حذاءه اللبأدى المتصلب من مقعده ، ومر في عدا يبطى . وقال :

- اوانس ، حذار من السحق !
في ذلك الشتاء تساقط الثلج بوفرة كبيرة . وكانت اغصان الزيزفون في ذلك الشارع تتدلى وهي مغطاة بالثلج . وكانت السماء البيضاء الثلجية بكاملها حافلة بالطيور . وكانت غربان الكنيسة تظفر فوق المدينة تابعة وبأسراب متناثرة ، وتحط على الابراج والقباب ، وتعلق في العلو الزمهورى .

توقفت داشا عند منعطف ، وعدلت لفاعها الابيض . وكان
معطفها من جلد عجل البحر وموفة اليدين الفرائية قد تغطيا بالثلج .
وكان وجهها قد اصابه تحول ، وعيناها قد اتسعتا وازدادتا صرامة .
قالت :

- ايفان ايليتش مفقود . وانا لا اعرف شيئا عنه .

ورفعت داشا عينها ، ونظرت الى الطيور : لا بد ان الغربان
كانت جائعة في المدينة المسكونة بالثلج .

وقفت بلزافيتا كييفنا وعلى شفيتها الحرابين جدا ابتساماة
متجمدة ، واطرقت براسها المعتمر بقبعة الاذنية . وكانت تتردى
معطفا رجاليا ضيقا عليها عند النهدين ، ذا ياقة فرائية مقرطة في
عرضها ، وكميتن قصيرين لا يغطيان يديها المحمرتين . وكانت بعض
ندف الثلج تذوب على رقبته المصفرة قليلا .

قالت داشا :

- سناحدث هذا اليوم مع نيقولاي ايفانوفيتش .

- انا اتبل باي عمل - قالت بلزافيتا كييفنا ، ونظرت الى
قدميها ، وهزت راسها - لقد احببت ايفان ايليتش حبا شديدا ، حبا
شديدا جدا - وضحكت ، واغرورت بالدموع عيناها التصيرتا
النظر - اذن ، سآتي غدا . الى اللقاء .

ودعت ، وانصرفت تخطو خطوات عراضا بعذاتها اللبادي ،
حاشرة يديها المتجمدتين في جيبها كما يفعل الرجال .

نظرت داشا في اثرها ، ثم قطبت حاجبها ، واستدارت في
المنعطف ، ودخلت الفيلا الذي تستخدم الآن مستشفى عسكريا
للمدينة . هنا ، في غرف الفيلا العالمية السقوف ، المغطاة بخشب
البلوط ، الفواحة برائحة اليود كان الجرحى الحليقو الرؤوس
منظر حزين على اسرة او قاعدتين ، وقد ارتدوا ثياب المستشفى . وكان
اثنان يلعبان الداما عند النافذة . وكان شخص آخر يذرع الغرفة من
ركن الى ركن وهو يمس الارض بنعليه مسا رقيقا . وحين ظهرت
داشا التي عليها نظرة سريعة وغضن جبينه المنخفض ، واستلقى
على سريره ملقيا يديه وراء راسه .

نادى صوت واهن :

- يا ممرضة !

اقتربت داشا من شباب ضخم منتفخ ذي شفيتين سميكتين .
فقال هذا متأوها بعد كل كلمة :

- اديريني على الجنب اليسر ، بحق المسيح .

امسكته داشا ، ورفعته بكل قوتها ، وقلبتة كالزكبية .

- حان وقت قياس حرارتي ، يا ممرضة .

نفضت داشا مفرارا ، وحشرته تحت ابطه .

- انا اتقيا ، يا ممرضة . ما ان اأكل كسرة خبز حتى افرغ كل
شيء . كل هذا فوق طاقتي .

غطته داشا ببطانية ، وانصرفت عنه . لاحت ابتسامات على
وجوه المرضى في الاسرة المجاورة ، وقال احدهم :

- انه يتظاهر من اجلك ، والا فهو معافى كالثور .

وقال صوت آخر :

- اتروكه يضطرب فهو لا يؤدي احدا . انه شغل للممرضة
ومتعة له .

- يا ممرضة ، هذا سيمين يريد ان يسالك عن شيء ولكنه
يستحي .

تقدمت داشا من رجل كان قاعدا على سريره له عيناان مرحتان
مستديرتان كعيون الغربان ، وفم صغير كفم الدب ، وقد مشط
لحيته الضخمة المستديرة كالمروحة . رفع لحيته ، ومط شفثيه باتجاه
داشا .

- انهم يضحكون ، يا ممرضة . انا مرتاح من كل شيء ، معتن
تاما .

ابتسمت داشا . ووزايل قلبها النقل الذي كان يحتم عليه قبل
حين . جلست على حافة سريره سيمين . طوت كتم الجريح ، واخذت
تعاين ضماداته . فراح هذا يصف لها مواضع الالم فيه بالتفصيل .

كانت داشا قد وصلت الى موسكو في تشرين الاول ، حين
دخل نيقولاي ايفانوفيتش في فرع موسكو من الاتحاد البلدي للدفاع

محمولا بدوافع وطنية . وقد اعطى شقته في بطرسبورغ الى انجليز من
البعثة العسكرية ، وعاش مع داشا في موسكو حياة بسيطة ، فكان

يرتدي مسترة من السموا ، ويشتم المتكسفين الناعمين ، ويعمل
كالحصان ، على حد تعبيره .

وكانت داشا تدرس القانون الجزائي ، وتقوم بثؤون المنزل الصغير ، وتكتب لإيفان ايليتش كل يوم . وكانت مطمئنة النفس مستورة . وبدا الماضي بعيدا وكأنه يعود الى حياة شخص آخر . كانت وكأنها تعيش بنصف وجودها مفعمة بالقلق وانتظار الاخبار ، والحرص على أن تحفظ نفسها لإيفان ايليتش في طهارة وصرامة .

في بداية تشرين الثاني ، وبينما كانت داشا تقلب صحيفة «الكلمة الروسية» وهي تحتسي قهوتها رأت اسم ثلغين في قائمة المفقودين . كانت القائمة تسفل عمودين بنبط صغير . مرت داشا على اسماء الجرحى ، واسماء القتلى ، وزات اسم ثلغين الملازم الثاني في آخر قائمة المفقودين .

وهكذا كان النيبا الذي سوّد كل حياتها لا يشغل الا سطرًا واحدًا من البنط الصغير .

وشعرت داشا بان كل هذه الحروف الصغيرة ، والسطور الجافة ، والاعمدة والعناوين تمتلئ بالدم . كانت هذه لحظة من الرعب لا توصف ، فقد تحولت صفحة الجريدة الى الشيء الذي كانت تكتب عنه ، الى كتلة شريرة دائمة تفوح بالموث ، وتزار باصوات خفية . هزت القشعريرة داشا . وحتى ياسها غرق في هذا الرعب الحيواني والغشائي . انطرح على الاركة ، وغطت نفسها في معطفها . جاء نيقولاي إيفانوفيتش عند الغداء ، وجلس عند قدمي داشا ، ومسد عليهما صامتا ، قائلا :

- انتظري ، يا داشا ، المهم ان تنتظري . انه مفقود ، والظاهر انه وقع في الاسر . وانا اعرف الف حالة مشابهة .

وفي الليل رأت في حلمها رجلا في قميص جندي جالسا على سرير حديدي في حجرة فارغة ضيقة يغطي نافذتها نسيج العنكبوت والغبار . وكان وجهه الرمادي يتلوى من الالم . وكان يشد على جميعته الصلعا بكتلة يديه ، ويقشرها وكأنها بيضة ، ويأخذ ما تحت القشرة ويأكله ، داسا اصابعه في فمه .

صرخت داشا في الليل صرخة جعلت نيقولاي إيفانوفيتش يجد نفسه عند سريره مغطى ببطانية ، وقضى وقتا طويلا قبل ان يقنعها على ان تقول ما حصل . ثم وضع قطرات الناردين في قذح ، وقدمه لتشرهبا داشا ، وشرب هو أيضا .

كانت داشا ، وهي جالسة على سريرها ، تدق صدرها باصابعها المضمومة ، وتقول بغفوت وأياس :

- لا استطع ان اعيش بعد الآن . افهمني ، يا نيقولاي ، لا استطع ، ولا اريد .

كان من الصعب جدا ان تعيش بعد ما حدث ، ومن المستحيل ان تعيش كما كانت تعيش قبل هذا .

مست الحرب داشا باصبعها الحديدية لا غير ، والآن صار كل الموت وكل الدموع من نصيبها . وحين مرت الأيام الاولى من اليأس العاد اتخذت داشا الشيء الوحيد الذي تستطيع ان تفعله : اجتازت الدورة المستعجلة للممرضات ، واشغلت في مستشفى عسكري .

في بادئ الامر واجهت صعوبة كبيرة . فقد كان يأتي من الجبهة جرحى لم يغفروا ضماواتهم اياما عديدة ، وكانت ضماوات الشاش ترسل رائحة كريهة تبعث الدوار في الممرضات . واثناء العمليات كان على داشا ان تمسك بالاجل والايدي المسودة التي كان يتساقط من جراحها قطع متخثرة من الدم والقبح ، وعرفت كيف يكز الرجال الاقوياء على اسنانهم ، وتوتعش اجسامهم عاجزة عن تحمل الالم .

وكانت تلك العذابات من الكثرة بحيث لم تكن تكفيها كل الرحمة الموجودة في هذه الدنيا لتشفق عليها . بدا لداشا انها قد ارتبطت الى الابد بهذه الحياة المشوهة الدماء ، ولا حياة اخرى غيرها . كانت ظلييلة الصباح الخضراء ، تستعمل في حجرة الخفارة الليلية ، وتترامى من وراء الجدار تمتد شخيص في هذيانه . وكانت القوارير تصطك على الرف حين تمر سيارة في الشارع . ويصبح هذا الانسحاق جزءا من الحياة الحقيقية .

وكانت داشا تسترجع الماضي ، وهي جالسة الى المنضدة في حجرة الخفارة ليلا ، فيلوح لها كالحلم في وضوح متزايد ، لقد عاشت ، كما عاش الجميع ، مفتونة بنفسها ، متعالية . واذا بها تجد نفسها تهبط من السحب لتسقط في الدم ، في الوحل ، في هذا المستشفى العسكري ، حيث رائحة الجسد اللعيل وحيث يثن الناس في نومهم انثيا ثقيلا ، ويهدون ويشمون . وها هو الجندي التتري يحتضر ، وبعد عشر دقائق سيبتعن عليها ان تذهب الية وتحقنه بالمورفين .

اقلق داشا داؤها اليوم مع يلزافيتا كيفنسا . كان اليوم متعبا ، فقد جلبوا من غاليسيا جرحى متخني ، حتى اضطروا الى قطع كف احدهم من الرسغ ويتر ذراع آخر من الكتف ، وكان اثنان منهم يهديان هذيان الاحتضار . وقد تعبت خلال اليوم ، ومع ذلك فقد ظلت يلزافيتا كيفنسا عالقة في ذهنها بيديها المحمرتين ، ومعطفها الرجالي ، والايستامه البانسة ، والعينين الوديعتين .

جلست داشا في السماء لتستريح ، وحدقت في الظليلة الخضراء ، وفكرت في ان تكون تلك المقدمه على اليكاء في منعطف الطريق ، وعلى القول لشخص غريب : « احببت ايفان ايليتش حبا شديدا ، حبا شديدا جدا ... »

قعدت داشا على مقعد كبير مائل الى جنب تارة ، وضامة رجلها تارة اخرى ، وفتحت كتابا - هو تقرير عن « نشاط الاتحاد البلدي » خلال ثلاثة اشهر - اعلمه من الارقام والكلمات غير المفهومة كليا ، ولكنها لم تجد في الكتاب سلوى . نظرت الى الساعة وتهدت ثم مضت الى غرفة الجرحى .

كان الجرحى نائمين ، والهواء خانقا . وكان مصباح شاحب الضوء موضوع داخل طوق الثريا الحديدى ، يشتعل على ارتفاع عال تحت السقف البلوطى . وكان الجندي التتري الشاب الذي يترت ذراعه يهدى مقلبا راسه الحليق على الوسادة . رفعت داشا قارورة الثلج من الارض ، ووضعتها على جبينه الملتهب ، وعدلت بطانيته . ثم طافت على الاسرة كلها وجلست على مقعد منخفض ، طاوية يديها على ركبتيها .

وقالت لنفسها « ان قلبى غير متحرر . تعلم فقط ان يحب الرشيق والجميل . ولم يتعلم ان يشفق ويحب ما لا يحب » . وسمعت صوتا رقيقا يقول : اتريدين ان تنامى يا مرضعة ؟ فالتفتت . كان سيمين ذو اللحية ينظر اليها من سريره .

- سألته داشا :
- لماذا غير نائم ؟
 - نمت في النهار .
 - هل توجعك يدك ؟
 - عذات ... يا مرضعة .

- نعم ؟

- ان وجهك يبدو صغيرا . العلك تريدين النوم ؟ اذهبى لتأخذى غفوة ! وسأراقب انا ، وادعوك اذا دعت الحاجة .

- لا ، لا اريد النوم .
- هل لديك اقارب في الجبهة ؟

- خطيبى .
- يحفظه الله .
- انه مفقود .

- آى ، آى - وهز سيمين لحيته ، وآواه - آسى الصغير كان مفقودا ، وبعد ذلك تلقينا رسالة منه . انه اسير . وهل خطيبك رجل طيب ؟

- طيب جدا جدا .
- ربما سمعت به . ما اسمه ؟
- ايفان ايليتش تليفين .
- سمعت . انتظري على مهلك . لقد سمعت انه وقع في الاسر . في اى فوج ؟
- فوج قازانسكى .

- انه بالذات اسير ، وحى يرزق . انه انسان طيب ! لا ياس ، يا مرضعة ، ما عليك الا ان تنتظري . ستمتتهى الحرب مع اقتراب الربيع . ستصالح . ستلدين له ابناء . تقى بى . استمعت داشا اليه ، والدموع في حلقومها . وكانت تعرف ان سيمين يلقى كل شىء ، وهو لا يعرف ايفان ايليتش . ومع ذلك كانت مهمته له . قال سيمين بصوت خفيض :

- آه ، يا مسكينتى ...

ولما عادت الى حجرة الخفارة ، وجلست على المقعد واضعة وجهها على ظهره . احست وكانهم قد قبلوها معهم في ود ، وهى الغربية ، قائلين لها : ابقى معنا . وبدا لها انها الآن تشمل بخنائها كل الجرحى والنائمين . ومع خنائها وتصوراتها تغلبت فجأة وبوضوح شديد ان ايفان ايليتش هو ايضا بنام ويتنفس مثل هؤلاء على سرير ضيق في مكان ما ...

اخذت داشا تروح وتجيء في الحجرة . وفجأة رن التلغون وبعث

في جسمها رعدة قوية . فقد كان زنيته جادا جدا وغليظا في السكون الغافي . لا يدا انهم جليبا جرحى آخرين في القطار الليلي .
- نعم .

ردت داسا ، فسمعت في السماعرة صوتنا تسائليا رقيقا متغلا :
- اريد ان اكلم داريا دميترييفنا بولافينا .

- هذه انا - ردت داسا ، وحقق قلبها خفقانا شديدا - من انت ؟ كاتيا ؟ كاتيوشا ؟ اهذه انت ؟ ...
عزيتي !

١٩

- ها نحن سووية من جديد ، يا قتيات - قال نيقولايفانوفيتش ، ساحبا سترته السما على بطنه وامسك حنك يكاترينا دميترييفنا ، وقبلها من خدها قبلة زئانة قائلا : - صباح الخير ، يا حلوة ، كيف نمت ؟

ومر بداسا جالسة على مقعدها ، وقبلها من شعرها .
- انا وهى الآن على اسم وفاق ، يا كاتيوشا . انها فتاة رائعة ، محبة للعمل .

وجلس الى المائدة المغطاة بمفرش ناصع البياض ، وقرب منه كأس البيضة الصينية التى وضعت فيها بيضة ، واخذ يكسر رأسها .

- تصورى ، يا كاتيوشا ، اننى احببت البيض على الطريقة الانجليزية مع الخردل والزبدة ، فانه لذيذ جدا . انصحك بان تجربيه . اما فى المانيا فيعطون لكل فرد بيضة واحدة مرتين فى الشهر ، فما رأيك فى ذلك ؟
وفتح فيه الواسع ، وضحك .

- ان هذه البيضة ذاتها ستنسب الخراب لالمانيا . يقولون ان الاطفال اخذوا يلدون عندهم بلا جلود . كان بسمارك يقول لهؤلاء الحمقى يجب ان يعيشوا مع روسيا فى سلام . ولم يصفوا ، واحتقرونا ، والآن تفضلوا ، بيضتان فى الشهر .

قالت يكاترينا دميترييفنا ، وهى تخفض رأسها :

- انه لشيء مريع ان يولد الاطفال بلا جلود ، مريع اينما ولد هؤلاء الاطفال ، سواء عندنا او عند الالمان .

- اعذرني ، يا كاتيوشا ، انت تتكلمين سخافة .
- انا اعرف فقط ان عن الفطاعة ان يقتل الناس كل يوم ، فطاعة مريعة تسلبك الرغبة فى ان تستمر فى العيش .

- وما العمل ، يا عزيتي ؟ ان المرء يضطر الى ان يفهم من معاناته الخاصة ما هى الدولة . كنا نقرأ فقط عند ايلوفاييسكى واضرابه من المؤرخين كيف قاتل الفلاحون دفاعا عن اراضيهن فى معارك كوليكوفو * وبورودينو * . وكنا ننظر الى الغارطة ، ونقول لانفسنا : «آه ، ما اكبر روسيا !» . والآن علينا ان نقدم نسبة معينة من الحيات للحفاظ على سلامة تلك التى تلون فى الغرائط باللون الأخضر ، وتمتد عبر اوريا كلها واسيا . انه لشيء مقبض . ساتفق معك اذا قلت ان جهاز الدولة عندنا سيئ . والآن ، حين اخرج لاموت فى سبيل الدولة فانا قبل كل شيء اسأل اولئك الذين يرسلوننى الى الموت : هل انتم ذوو القوة القاهرة لحكمة الدولة . وهل استطيع ان ازيق دمي بارتياح فى سبيل الوطن ؟ نعم ، يا كاتيوشا ، ما تزال الحكومة على عاداتها القديمة فى النظر شزرا الى المنظمات الاجتماعية . ولكن اضحي واضعا انها لا تستطيع الآن الاستغناء عنا ابدا . نحن نتدخل شيئا فشيئا فى شؤون الدولة . انا متفائل جدا .

ونفض نيقولايفانوفيتش . وتناول علبة كبريت من رف

* معركة كوليكوفو (عام ١٢٨٠) معركة تاريخية انتصرت فيها القوات الروسية بقيادة الامير دميتري دولسكوى على جحافل التتار تحت قيادة خان ماماي لتصاروا عظيما (المتحجم) .

* معركة بورودينو (عام ١٨١٢) من اعظم معارك الحرب الوطنية الروسية بين القوات الروسية تحت قيادة ميخائيل كوتوزوف والقوات الفرنسية بقيادة نابوليون الاول . وقد وقعت فى ضواض موسكو واصبحت اعطافا فى سير الحرب لصالح القوات الروسية وحددت حتمية هزيمة جيش نابوليون . (المتحجم) .

قشرة البيضضة . وتابع كلامه قائلا : لن يذهب الدم المراق جزافا .
الموقد ، وأشعل سيكارتته واقفا ، والتي عود الثقب المنطقي في
وسنتتهى الحرب بان يقف وراء دقة الدولة اخونا ، رجل المجتمع .
ستفصل الحرب ما اخفقت عن فعله جماعته «الارض والارادة» ،
والثوريون والماركسيون . مع السلامة ، يا فتيات .

وعدل سترته ، وخرج ، وبدا من ظهره مثل امرأة بدينية
متشكرة بلباس رجالي .

تهتدت يكاترينسا دميترييفنا ، وجلست عند النافذة مع
حياتها . وجلست داشا الى جانبها على ذراع المقعد ، وطوقت كفتي
اخذها . كانت كلتاهما في ثوب اسود عالي الرقبة ، انهما الآن في
جلستهما الصامتة الهادئة هذه متشابهاً جداً . كانت ندف الثلج
الصغيرة تتساقط ببطء وراء النافذة ، وكان الضوء الثلجي الضافي
ينعكس على جدران الغرفة . ضغطت داشا بضعها على شعر كاتيا
المعطر قليلا بعطر غير مالوف لها .

— كاتيوشا ، كيف قضيت تلك المدة ؟ انك لا تحدثيني
بشيء .

— وعم احذتك ، يا قبطية ؟ لقد كتبت لك .

— ومع ذلك ، فاننا لا افهم . انك ، يا كاتيوشسا ، جميلة
ساحرة ، طيبة . انا لا اعرف امرأة اخرى على غرارك . ولكن لماذا
لا تبدين سعيدة ؟ وعينك دائما حزينتان ؟

— اظن ان قلبي تعيس ؟

— لا ، انا اسألك جادة .

— انا نفسي دائمة التفكير في ذلك ، يا اخي . من المرجح
ان الانسان حين يمتلك كل شيء يشعر بتعاسة حقيقية . ان لي زوجا
طييبا ، واختا محبوبة ، وحرية . . . بينما اعيش وكأنني في سراب ،
واسير كالشبح . . . اتذكر انني قلت لنفسي في باريس : ليتني
اعيش في بلدة صغيرة نائية ، واربي الدواجن ، وازرع الحديقة
بالخضروات ، وفي المساء التقى بصديقي العزيز وراء النهر . . . لا ،
يا داشا ، ان حياتي قد انتهت .

— لا تتفوهي حماقة ، يا كاتيوشا .

نظرت كاتيا الى اختها بعينين فارغتين شابتها دكنة :

— اتعرفين انني اتحسس ذلك اليوم نفسه . واحيانا يتراى لي
بوضوح تلك الفرشة المخططة ، والمفرش المنزلق ، والحوض
المملوء بالصفراء التي تقيتها . . . وانا ارقد ميتة ، صفراء ،
شائخة . . .

وانزلت يكاترينا دميترييفنا طرة الحياكة الصوفية ، وحدقت
في ندف الثلج المتساقطة في السكون الرائد . وفي البعيد ، من
تحت برج الكرملين المستدق ، من تحت الشمر الذهبي المقوس
الساقين كانت الغريبان تحوم مثل سحابة من الاوراق السوداء .

— اتذكر ، يا داشا ، انني استيقظت مرة في ساعة مبكرة
جدا من الصباح . وكانت باريس تبدو من الشرفة ملغعة كلها
بندخان مزرق ، ومن كل مكان فيها كانت تتصاعد ادخنة بيضاء
ورمادية وزرقاء . وكان البطر قد هطل اثناء الليل ، وفي الجو رائحة
طراوة وخضرة وفانيليا . وفي الشارع سار اطفال يعملون كتباً ،
ونساء مع سلاهن ، وقد فتحت حوانيت الاطعمة ابوابها . وبدا ذلك
ثابتا وسمديا . وارودتني الرغبة في ان انزل الى الاسفل ، واختلط
بالجمع ، والتقى برجل ذي عيني ودودتين ، واضح يدي على صدره .
ولكن عندما نزلت الى الشوارع العريضة ، كان الجنون قد شمل
المدينة كلها . كان باعثة الصحف يركضون ، وجماهير الناس
المضطربة في كل مكان . والصحف كلها تتشبع برعب وموت
وكراهية . لقد بدأت الحرب . ومنذ ذلك اليوم لم اسمع غير
كلمة : الموت ، الموت . . . فعلام التعويل بعد كل هذا ؟ . . .

صمتت داشا قليلا ، ونادت :

— كاتيوشا . . .

— ماذا ، يا حبيبتني ؟

— كيف انت مع تيفولاي ايفانوفيتش ؟

— لا اعرف . يبدو ان احدا صفع للآخر . انظري لقد مرت
ثلاثة ايام ، وهو رقيق جدا معي . لا مكان للحسابات السنانية .
ومن يومه بالمرأة حتى اذا فقدت عقلا مما تعاني من عذاب ؟ صوتي
كلتين بعوضة ولا اكاد اسمعه . انا احسد العجائز ، فهن يأخذن
كل شيء ببساطة : الموت قريب منهن ، لهذا فهن يتهيأن للقائه .
غيرت داشا جلستها على ذراع المقعد ، وزفرت زفرات

عميقة ، وانزلت ذراعها عن كفتي كاتيا ، قالت يكاترينا دميترييفنا برفقة :

— عزيزتي داشا ، لقد اخبرني نيقولاى ايفانوفيتش بانك مخطوبة . صحيح ؟ يا عزيزتى المسكينة ! وتناولت يد داشا ، وقبلتها ، ووضعتها على صدرها ، واخذت تصدها قائلة : انسا اعتقد بان ايفان ايليتش حى . اذا كنت تحبينه جدا ، فانت فى غير حاجة الى شىء آخر فى الدنيا .

صمتت الشقيقتان مرة اخرى محدثتين فى الثلج المتساقط وراء النافذة . مرت فى الشارع فصيلة من طلاب المدارس العسكرية تتزلق احذيتهم بين اكوام الثلج ، وكان كل واحد منهم يتأبط ليفة من اغصان البتولا وتبديلة ثياب داخلية . كانوا ذاهبين الى الحمام وكانوا يتشدون نسيما بعنجرة فقطل يتخلله الصغير :

حلقى ، يا سقور ، كالنور

كفانا الحون والكمد ...

بعد غياب عدة ايام عادت داشا مرة اخرى الى العمل فى المستشفى العسكرى . وبقيت يكاترينا دميترييفنا وحدها فى الشقة التى كان كل شىء فيها غريبا عليها : متظران طبيعيان مملان معلقان على العائط يصوران كومة دريس ، وماء متخلف من ثلج ذائب يتجمع بين اشجار البتولا الجرداء . وفوق الاربكة فى غرفة الطعام صور فوتوغرافية لاناس لا تعرفهم ، وفى الزاوية حزمة من عشب السهب المغبر .

حاولت يكاترينا دميترييفنا ان تذهب الى المسرح ، حيث كان الممثلون القدماى يمثلون مسرحيات لاوستروفسكى ، والى معارض الصور والمتاحف ، الا ان كل ذلك بدا لها شاحبا ناصل الالوان ، نصف ميت ، وبدت هى لعينيهما شحبا يطوف فى عالم مجره جميع الاحياء منذ زمان .

كانت يكاترينا دميترييفنا تقضى ساعات بكاملها جالسة عند النافذة بالقرب من انايب التدفئة المشعة دفئا ، تنظر الى موسكو الثلجية الهادئة ، حيث كان رنين اجارس الكنائس العزيم يتردد فى الهواء الرقيق ، ومن خلال الثلج المتساقط يلعبن عن صلاة

تذكارية ، او عن جناز لقتيل جلب من الجبهة . كان الكتاب يسقط من يديها . فعمم تقرأ الآن ؟ وبم تعلم ؟ وكم تبدو تافهة الآن جميع الاحلام والافكار السالفة !

وكان الوقت يضى ما بين جريدة الصباح وجريدة المساء . وكانت يكاترينا دميترييفنا ترى جميع المحيطين بها يعيشون بالمستقبل وحده ، بايام تخيلية من النصر والسلام . وكان كل ما يعزز هذه التوقعات يستقبل بفرح غامر ، بينما كانت الانهاقات تسلم الناس الى الكآبة وتكيس الروس . وكان الناس كالمجانين فى تسقطهم للاشاعات ، ونقف العبارات ، والابناء غير المحتملة ، وفى التهايم بما تنشره الصحف .

واخيرا قررت يكاترينا دميترييفنا ان تتحدث مع زوجها طالبة اليه ان يجد لها عملا . وفى بداية آذار بدأت العمل فى نفس المستشفى الذى كانت داشا تعمل فيه .

وفى الايام الاولى شعرت بما شعرت به داشا من نفور من القذارة والعذاب . الا انها تغلبت على نفسها ، واستانست بالعمل تدريجيا . وقد بث هذا التغلب على نفسها الفرح فى اعطافها . ولاول مرة احسبت بدونها من الحياة المحيطة بها . واحبت العمل القذر المتعب ، واشغقت على الذين تعمل لهم . وذات مرة قالت لداشا :

— لماذا قالوا بوجوب ان تعيش حياة مصفأة غير اعتيادية ؟ نحن من حيث الجوهر ، امرأتان كبقية النساء . وبعاجة الى زوجين اكثر بساطة ، واطفال اكثر ، وعيشة اقرب الى الطبيعة .

فى اسبوع الالام زارت الشقيقتان كنيسة نيقولا بقرب محطة رجيفسكى . واخذت يكاترينا دميترييفنا معها طعام عيد الفصح المعد للمستشفى لتباركه فى الكنيسة ، وفطرت مع داشا فى المستشفى . وكان على نيقولاى ايفانوفيتش ان يحضر اجتماعا استثنائيا فى تلك الليلة فجاء فى سيارة بعد الساعة الثانية ليلا ليأخذ الشقيقتين من المستشفى . قالت يكاترينا دميترييفنا انها وداشا لا تتعمران بنعاس ، وطلبت ان ياخذهما فى جولة فى السيارة . وكان ذلك غير معقول ، الا انهم قدموا للسانق قرح كوتياك ، وذهبا الى منطقة خودينسكويه بوليه ، فى اطراف موسكو .

كانت في الجو لدعة من القرس بردت الوجنات . والسماء خالية من الغيوم ، فيها القليل من النجوم المتلألئة . وكان الجليد يتكسر تحت عجلات السيارة . وكانت كاتيا وداشا تضغط أحدهما على الاخرى في مقعد السيارة العميق ، كانت كلتاهما في مندبل ابيض ومغطف فرالى رمادى . التفت نيقولاى ايفانوفيتش اليهما من مقعد الى جانب السائق - كانت كلتاهما سوداء الحاجبين واسعة العينين . فقال بصوت خفيض :

- اوه ، يازيبى ، لا اعرف ايكما زوجتى .

اجابت واحدة منهما :

- لَنْ تحزر .

وضحكت كلتاهما .

بدأت حراقى السماء تخضوضر قليلا فوق الحقل الهائل المغبض ، وفي البعيد لاحت معالم سوداء للغابة «سيربيريانى يود» . قالت داشا خافتة الصوت :

- كاتيوشا ، كم اود ان اعشقت !

فضغطت يكاترينا دميترييفنا على يدها ضغطة خفيفة . لمعت نجمة كبيرة فوق الغاية ، في رطوبة الفجر الخضراء ، وتماوج لمعائها ، وكانها تتنفس .

- نسيت ان اتقول لك ، يا كاتيوشا - قال نيقولاى ايفانوفيتش ، واستدار على المقعد بكل جسمه . - قبل حين وصل مندوبنا المفوض تشوماكوف ، وهو يقول ان الوضع في غاليسيا خرج جدا . الالمان يقذفوننا بنار صاعقة ، حتى انهم يسحقون افرانجا كاملة في ضربة واحدة . ونحن نعاني نقصا في القذائف ... اللعنة ! ..

لم تجب كاتيا ، بل رفعت بصرها الى النجوم . وضغطت داشا خدعا على كتفها بينما اطلق نيقولاى ايفانوفيتش لعنات اخرى ، وامر السائق بالعودة الى البيت .

في اليوم الثالث من عيد الفصح شعرت يكاترينا-دميترييفنا بتوعك ، ولم تخرج للخفارة ، ولزمت الفراش . وتبين انها مصابة بالتهاب الرئتين ، فلا بد ان بردا قد نفذ عميقا في اوصالها .

- تلك هي اوضاعنا ، بالغة السوء .

- كفالك بحلقة في النار ، اذهب لنتنام .

- تلك هي الاوضاع ... آه ، يا اخوانى ، ان روسيا تضيق !

كان ثلاثة من الجنود يجلسون قرب نار اخذة بالهود عند حائط طينى لزربية مغطاة بسقف من القش مرتفع مثل كديسة تبن . كان احدهم يجفف لفافة ساقيه على اوتاد قرب النار ، ويراقبها لنلا تحترق . وكان الثانى يخيظ رقعة على بنطاله ، ويسحب الخيط بخنر . اما الثالث ، وهو مجدر الوجه ، ذو انف كبير ولحية سوداء هزيلة الشعر ، فكان يحدق في النار بعينين غائرتين مأخوذتين ، وقد طوى ساقيه وحشر يديه عميقا في جيبي بنطاله . وقال بصوت خفيض :

- الخيانة في كل مكان ، تلك هي المسألة . ما ان تبدأ قواتنا بالتفوق حتى تؤمر بالانسحاب . نحن لا نعرف الا ان نعلق اليهود على الاشجار ، بينما الخيانة تمشش في القمة .

قال الجندى الذى كان يجفف لفافة الساقين :

- قرفت من هذه الحرب تماما ، ولكن لا توجد جريدة واحدة تكتب عن ذلك - وضع عسلوجا على الجمر يحدق وتابع قوله : نزلنا نهاجم ، ثم انسحبنا ، وبعد ذلك عدنا الى الهجوم ، اوه ، اللعنة عليهم جميعا . وها نحن نعود الى موقعنا السابق بنفس الوضع ، بلا نفع ولا جدوى !

وبصق في النار . وقال الجندى مرعق البنتال بضحكة هازلة دون ان يرفع رأسه من عمله :

- قبل حين جاء اللازم الاول جادوف الى - لا بأس . ربما من الضمير ضابقتة الشياطين . فاخذ بدوره يضايقتى . ماسبب الثقب في بنطالك ؟ ولماذا تنف بهذا الشكل ؟ فاعتصمت بالصمت . وانتهى حديثنا بطريقة بسيطة جدا ، بلطمة على استناني .

رد الجندى الذى كان يجفف لفافة الساقين :

- لا ينادق ، ولا عتاد . وفي بطاربتنا لا توجد غير سبع قذائف لكل مدفع . فلا يبقى لهم الا الضرب على الاسنان .

نظر مرقع البنطال اليه منهشما ، وهز رأسه بتأييد . وقال الجندي ذو الشعر الاسود والعينين المخيفتين :

- استمدعوا جميع الرجال ، وهم الآن يجندون الى سن الثالثة والاربعين . وبمثل هذه القوة يمكن اجتياح العالم كله . وهل نحن نرفض ان نقاتل ؟ شربط ان تؤدى واجبك ، مثلما تؤدى واجبتنا .

هز مرقع البنطال رأسه :

- تماما . . .

فقال اسود الشعر :

- لقد رأيت حقا قرب فارسوفيا كان يرقد على ارضه ما بين خمسة الآف الى ستة الآف مقاتل سيبري ، وجميعهم قتلى ، مرتين مثل احرمة من القش . فلماذا ؟ وما السبب ؟ ساقول لكم السبب . . . حين اخذ المجلس العسكري يقرر عذا وذاك من الامور ، خرج احد الجنرالات من هناك في الحال وبعث برقية سرية الى برلين . فهمت ؟ وخرج الفيالقن السيبريان من محطة القطار واتجسا قداما الى ذلك الحقل ، فاذا بهما يقعان تحت نيران الرشاشات المباشرة . وانت تحدثني عن لظمة اصابت اسنانك . عندما كنت لا اركب التير على الحصان بشكل جيد ، كان ابي ياتي ويصغفني على وجهي ، لكي يجعلني اتعلم العمل احسن واشعر بالخوف . ولكن لاي شيء جندلوا المقاتلين السيبريين كالخراف ؟ لقد قلت لكم ، يا اصحابي ، ان روسيا قد ضاعت . ونحن قد غدر بنا جميعا ، غدر بنا فلاح هو من ابناء قريتي بوركوفسكويه ، صعلوك متشرد . ولا اريد ان اذكر اسمه . . . انه جاهل ، مشاكس يتصنع اللطافة ، ترك العمل ، واخذ يسرق الخيول ، ويتردد على الاذيرة ، وتعلق بالنساء ، وشرب الخمر . . . وهو الآن في بطرسبورغ يعيش كالقيصر يرقص حوله الوزراء والجنرالات ، نحن نقتل هنا بالالاف ، ونترقد على الارض الرطبة ، بينما هم يسبحون في الكهراء في بطرسبورغ ، ويشربون ، وياكلون ، وينفخون سمنا .

وسكت فجأة ، كان الصمت والرطوبة يلفان الجو . ثم ترامي من الزريبة صوت خيول تقضم باسنانها ، وارتطم احدھا في الجدار

ارتطاما خافتا . هبط طائر ليل من وراء السقف نحو النار ، واخفتى زاعقا زعيقا شاكيا . وفي تلك اللحظة صدر في السماء البعيدة ، زئير هادر مقترب ، وكان وحشا كان ينطلق بسرعة لا تصدق ، شاقا الظلام ببوزه ، وارتطم في مكان ما ، وفي البعيد ، وراء الزريبة ، اندلع انفجار هز الارض هزا . ضربت الخيول الارض بحوافرها ، ورنّت لجاماتها . قال الجندي مرقع البنطال مرتاعا :

- هذه هي الضربة !

- يا له من مدفع !

- انتظر !

رفع الثلاثة رؤوسهم . وصدر في السماء الخالية من النجوم صوت ثان استمر حوالي دقيقتين ، ووقع الانفجار الثاني في بقعة قريبة جدا وراء الزريبة ، وبرزت اشباح اشجار الشوح المخروطية ، واهتزت الارض مرة اخرى . وفي الحال سمعوا مسار القنبلة الثالثة . وكان صوتها متقلعا ثقيلًا على السمع يجعل الانتباه ويجعل القلوب تتجمد في الصدور . نهض الجندي ذو الشعر الاسود من الارض ، واخذ يتراجع . وانقض شيء من الاعلى وانزلق كالبرق الاسود ، واندفع الى الاعلى عمود نارى اسود بفرقة مدوية .

وحين سقط العمود لم تبق الا حفرة عميقة في المكان الذي كان فيه الجنود والنار . وكان السقف القش يحترق مرسلا الدخان الاصفر فوق جدار الزريبة المنهار . اندفع حصان طويل العرف من اللهب شاخرا ، منطلقا نحو اشجار صنوبر كانت بارزة من الظلام .

وهناك ، وراء حوائق السهل المسننة اخذت تيرق حالة النيران ، والمدافع تهدير ، وترتفع الصواريخ مثل ديدان طويلة ، فتضئ نيرانها ، وهي تتساقط ، الارض الرطبة الداكنة . كانت القذائف تثقب السماء صافرة ، هادرة .

٢١

في ذلك المساء ، وفي ملجأ للضباط يقع غير بعيد عن الزريبة ، كان ضباط احدى سرايا فوج اوسولسكي يقيمون حفلة بمناسبة تلقي التقبب تيتكين خيرا عن مولد طفل له . كان قسبو

٢٠٦

الملجأ الواطئ¹ منفرجا عميقا في الارض يحمي سقف ذو طبقات ثلاث ،
وتشيؤه شموع مغرورة بزجاجات ، وقد جلس الى مائدة فيه ثمانية
ضباط ، وطبيب ، وثلاث مرضعات من مستشفى الميدان .

شربوا كثيرا . وكان الاب السعيد ، الطبيب تيتكين نائسا ،
وقدلقى راسه في صحن وضعت فيه فضلات الطعام وتدلث كفه
القذرة على راسه الاصلع . وكانت المرضعات يبدون مليحات جدا
بسبب انجاس الهواء ، والخمرة ، وضوء الشموع الناعم ، وكن
يرتدين اثوابا مادية ومناديل مادية . كانت لاحداهن وتدعى
موشكا ، عقتان سوداوان من الشعر عند صدغيها ، وكانت تضحك
دون كلل كاشفة عن حنجرة بيضاء . كان جارها واثنان آخران
يجلسان قبالتها يحذون فيها بنظرات ثقيلة . وكانت الثانية ،
ماريا ايفانوفنا ، بديئة تصل حمرة خديها الى حاجبيها ، تجيد اداء
الاغاني العجربة العاطفية بشكل مدهش . فكان المستمعون يخرجون
عن اطوارهم ، ويضربون على المائدة ، مرددين : «آه ، اللعنة ،
ما كان ابداعها من حياة !» اما الثالثة الجالسات الى المائدة فهي
يلزافيتا كييفنا . كانت اضواء الشموع تنفتت في عينها الى ذرات
نارية صغيرة ، وتسمع فيها فترى الوجوه بيضاء من خلال الدخان ،
ووجه جارها الملازم الاول جادوف وحده كان يبدو مغيفا وجميلا .
كان رجلا واسع المنكبين ضخما ، حليقا وذا عينيّن شفاقتين . وكان
يجلس مستقيم الجوف ، ملفوفا بحزامه لفسا تريا ، وقد افرد في
الشراب . ولم يسكر بل امتنع لونه فقط . وحين كانت موشكا
السوداء الشعر تنهاقت من الضحك ، وماريا ايفانوفنا تناول
القيثار ، وتمسح وجهها بمندبل مدعوك ، وتغنى بصوت عميق
جرين «ميلادي في سهوب مولداڤيا» كان جادوف يتتسم بطرف فمه
ايتساما بطيئة ، ويصب لنفسه مزيدا من الخمرة .

كانت يلزافيتا كييفنا تحدى عن قرب في وجه الصافي الخالي
من كل تغضن . وكان هو يسليها بحديث لبق وغير جدى . فقد روى
لها ، مثلا ، ان نقيب يدعى مارتينوف كان يخدم في فوجهم اشتهر
بانه كان جبريا يؤمن بالقضاء والقدر ، وبالفعل ، عندما كان يحتمس
شبيها من الكونيك كان يخرج ليلا وراء الاسلاك الشائكة ، ويعترب
من خنادق العدو ، ويشتم الالمان باربع لغات ، وقبل ايام دفع ثمن

تغروه بان اصيب بجرح في بطنه . تنهدت يلزافيتا كييفنا ، وقالت :
يعنى ان النقيب مارتينوف بطل . فضحك جادوف بهزء :

- اعذرني ، هناك مغرورون ، وهناك حقى ، ولكن ليس
هناك ابطال .

- ولكن اليس بطلوة ان تخرجوا في هجوم ؟

- اولا ، انهم لا يخرجون في هجوم ، بل يجبرون على الخروج ،
والذين يخرجون جنباء . بالطبع ، هناك اناس يجازفون بحياتهم دون
اكرام ، ولكن هؤلاء فيهم تعطش عضوي الى القتل - وهنا نفر
جادوف الطاولة باظفاره الصلبة - هؤلاء الناس ، على الأرجح ،
يقفون على ارفع درجة من الرعى المصرى .

ورفع جسمه قليلا بخفة ، وتناول من طرف المنضدة البعيد
علبة كبيرة من حلوى الفواكه ، وقدها الى يلزافيتا كييفنا .

- لا ، لا اريد - قالت واحست بان قلبها يخفق بشدة
وجسمها يضعف - وانت ؟ حدتى .

فغضن جادوف جلدة جبينه ، وتغلى وجهه بغضون صغيرة
مباغثة جعلته يبدو عجزا . وكرر بعنة :

- وما هذا . . . وانت ؟ بالامس رميت يهوديا وراء الزريبة .
اتريدن ان تعرفي امدا مربع ام لا ؟ اى هراء هذا !

واطبق استنانه الحادة على سيكارة ، واشعل عود نقاب .
كانت اصبعه المسطحة التي تمسك به قوية الا ان السيكارة لم تقع
في لهب العود على اية حال ، ولم تشتعل .

وقال ، والقي عود النقاب الذي احترق حتى اظفره :

- نعم ، انا سكران . ارجو المعذرة . لنخرج الى الهواء الطلق .
نهضت يلزافيتا كييفنا ، وكانها في نومها ، وسارت خلفه في
الفتحة الضيقة المؤدية الى خارج الملجأ . لاحقتها صيحات السكارى
المرحة . ضربت ماريا ايفانوفنا على القيثارة ، وغنت بصوت عميق :
«كان الليل يعبق بنشوة اللذة . . .»

في الخارج كان الهواء مشبعنا برائحة ربيعية قوية للاوراق
المتشخنة ، وكان الظلام والسكون يلفان كل شي . سار جادوف
على العشب الرطب بخطوات سريعة بعد ان دس يديه في جيبه ،

وسارت يلزافيتا كييفنا متأخرة عنه قليلا ، والبسمة لا تفارق
تفريها . وفجأة توقف جادوف ، وسال بنبهة حادة :

- ها ، ما رأيك ؟

كانت اذناها تلتفتان . سيطرت على انقباض في حلقومها
واجابت بصوت لا يكاد يسمع :

- لا ادري .

- لنذهب .

واوما برأسه ناحية سفوف الزريبة المسود ، وبعد ان خطا
عدة خطوات توقف ثانية ، وشدّ بيده المتشلجة على ذراع يلزافيتا
كييفنا بقوة . وتحدث بحرارة مباغتة :

- لي بنية كنيئة الارباب . استطيع ان اشطر العملة النقدية
بيدي الى شطرين . وانفذ بصري خلال كل شخص ، وكأنه من
زجاج شفاف . . . انا اكرهم ! - وتلعثم وكأنه تذكر شيئا ،
وضرب الارض بقدمه - كل هذه القهقهات والاغانى ، والاحاديث
الجبانة وضاعة . اتهم جميعا مثل ديدان في روث دافئ . . .
اسحقهم . . . اسمعي . . . انا لا احبك : لا استطيع ! ولن احبك . . .
فلا تخدعي نفسك . . . ولكنني بحاجة اليك . . . انسا اكره هذا
الاحساس بالتبعية . . . يجب ان تفهمي . . . وحشر يديه تحت مرفقي
يلزافيتا كييفنا ، وجذبها بقوة ، واطبق على صدغها شفطيه الجافتين
العازتين كالجمر .

واندمعت يلزافيتا كييفنا لتحتر نفسها ، الا انه كان يعصرها
بقوة ، حتى ان عظامها قد قرقت ، فالتقت رأسها الى الخلف ، وتدلّت
ثقيلة بين يديه ، قال لها :

- لست مثل الاشرىات . ساعلمك . . .

وصمت فجأة ، ورف رأسه ، كأن صوت حاد نافذ يتنامى في
الظلمة . قال جادوف من حنكل استنائه :

- اوه ، اللعنة !

وفي الحال دوى انفجار على مسافة بعيدة . اندمعت يلزافيتا
كييفنا مرة اخرى ، الا ان جادوف كان يعصرها بقوة اشد . قالت
باستماتة :

- اتركني !

انفجرت قنبلة ثانية . واستمر جادوف يتمتم بشئ ما ،
وفجأة تصاعده عمود نارى اسود على مقربة كلية وراء الزريبة ،
وارسل دوى الانفجار حزم القش المحترقة عاليا في الهواء .

افلقت يلزافيتا كييفنا من بدي جادوف ، وعدت نحو الملجأ .
كان الضباط يخرجون سراعا من فتحة الملجأ ، ويعدون على
الارض التي بدت سوداء مخدودة من جراء الضوء المائل ، ملقنين
نظرات الى الزريبة المحترقة وراءهم . اتجه بعضهم يسارا نحو
الغابة ، حيث كانت الخنادق ، واتجه الآخرون يمينا في مسر الاتصال
المؤدى الى تحصينات الجسر . كانت البطاريات الالمانية تهدر وراء
النهر ، بعيدا خلف التلال . كان الرمي ياتي من اتجاهين : من اليسار
مصوبا نحو الجسر ، ومن اليمين مصوبا نحو العبر الذي كان يؤدى
الى مزرعة كانت قد احتلتها سرية من فوج اوسولسكى قبل فترة في
الضفة الاخرى من النهر . وكان قسم من النار موجها على البطاريات
الروسية .

رأت يلزافيتا كييفنا النقيب جادوف يسير حاسر الرأس ويده
في جيبه متجها في خط مستقيم نحو وكر الرشاش . وفجأة ظهرت
دائرة نارية سوداء شعته في المكان الذي كان يقف فيه شخصه
الطويل . انغمضت يلزافيتا كييفنا عينها ، وحين نظرت ثانية رأت
جادوف يسير اكثر الى اليسار وكوعاه ما زالوا متفرجين . صاح النقيب
تيتكين غاضبا . كان واقفا قرب يلزافيتا كييفنا ومعه منظار :

- لقد قلت لهم انسا لسنا بحاجة الى هذه المزرعة والآن ،

تفضلوا وانظروا . قلبوا المعبر كله . آه خنازير !

ونظر في المنظار مرة اخرى - آه ، الخنازير يصوبون على
المزرعة تماما ! هلكت السرية السادسة . آه ! - واستدار وحك
علباه الجرداء بشدة ، ونادى : شلابكين !

- نعم .

اسرع في الرد عليه شخص صغير كبير الانف يرتدى قبعة
قوزاقية .

- هل اتصلتم بالمزرعة ؟

- الاتصال مقطوع .

- اخبر الكتيبة الثامنة بان ترسل تعزيزات الى المزرعة .

- سمعا .

اجاب شلابيكن ، وانزل يده من صدفيه بحركة قوية وابتعد
خطوتين وتوقف .
ونادى التقيب ثانية بصوت وحشى :

- ملازم شلابيكن .

- نعم .

- نفذ الامر .

- سمعا .

وابتعد شلابيكن اكثر ، وانزل راسه ، واخذ يحفر الارض
بفضبة ، فصرخ التقيب :

- يا ملازم شلابيكن !

- نعم .

- اتفهم لغة الانسان ام لا ؟

- نعم ، افهم .

- انقل الامر الى السرية الثامنة . ولك ان تقول لهم باسمك
الا ينفذوه . فهم ليس عن البلاءة بحيث يرسلون رجالا الى هناك .

ليرسلوا زهاء خمسة عشر رجلا الى المعبر لاطلاق النار . وابلغ
الفرقة حالا بان السرية الثامنة تجتاز المعبر بضربة بارعة . اما
الخسائر فيمكن ان نقتبسها من السرية السادسة . اذهب ، اما انت
يا آنسة ، فانصرفى - والتفت الى يلزافيتا كييفنا - اقلعى من هنا
الى الشيطان فان الرمي سيبدأ الآن .

وفي تلك اللحظة انطلقت قذيفة بازيز ، ووقعت وانفجرت في
الجوار .

خط الخنادق الملتوى يرى من مخبأ الرشاش ، وكانت السرية الاولى
من فوج اوسولسكى تتخندق فيها . والى اليسار من ذلك كان جدول
صغير يتلوى في مجرى ينمو فيه القصب ، ليصب في النهر ، وابتعد من
ذلك يسارا ، وراء الجدول كانت مباني المزرعة الثلاثة تحترق ،
ووراءها كانت السرية السادسة تتخندق في خنادق تلتقى في زاوية .
وعلى بعد ثلثمائة خطوة تقريبا كانت تبدأ خطوط الالمان التي كانت
تتجه بعد ذلك يمينا بعيدا نحو التلال المشجرة .

كانت النهر يبدو احمر متسغا من جراء لهب الحريقين ، وكان
ماؤه يغور لكثرة ما تساقط فيه من قذائف ، ويتطاير كالنوافير ،
ويتلطف بسحب بنية .

كانت المدفعية تركز اقوى نارها على المزرعة . وكانت انفجارات
قذائف الشراينيل لا تفتاه تتوهج فوق الابنية المحترقة ، وتتصاعد
اعمدة سوداء شعثاء على جوانب خط الخنادق الملتقى في زاوية .
وكانت نيران البنادق تومض من وراء النهر في القصب والعشب وميضاً
صغيراً .

وكانت انفجارات القنابل الثقيلة تهز الهواء ، وقذائف
الشراينيل ذات الضغايا تتطاير بصوت واهن فوق النهر وفوق
المروج ، وفي هذه الضففة من النهر فوق خنادق السرايا الثانية
والثالثة والرابعة . وكان هزيم الرعد يترامى من وراء التلال ، حيث
كانت اثنتا عشرة مضادة للجوية ترمسل ومضات خاطفة . وكانت
قذائف المدافع الروسية الجوية تصفر في الهواء ، منطلقة الى ما وراء
هذه التلال . وكان الضجيج يشق الاذان ، ويضغط على الصدور ويلجج
الغيط في القلب .

واستمرت الحال على هذا المتوال وقتنا طويلا . نظر جادوف في
ساعته المضيئة فراها تشير الى الساعة الثانية والنصف . فالتفجر
يوشك على الانبلاج ، والهجوم متوقع بين لحظة واخرى .

وبالفعل اشتد قصف المدفعية ، وفار ماء النهر فورانا اشد ،
وكانت القذائف تتساقط على المعابر والتلال في هذه الضففة من
النهر . وكانت الارض احيانا تهتز اهتزازا خافتا ، وتتناثر كتل الطين
والحصى من جدران المخبأ وسقفه . الا ان مساحة المزرعة المحترقة
باتت هادئة . وفجأة تطارت من البعيد عشرات الصواريخ مثل اشربة

تارية ، منحرفة نحو النهر واثارت الارض كالشمس . وحين انطلقت الانوار خيم ظلام حالك لبضع دقائق . اذن ، فان الالمان نهضوا من الخنادق ، وخرجوا في هجوم .

وفي الغيب الضئيل لمح جادوف اخيرا شخصا صغيرة متحركة بعيدا في المروج . كانت تارة تسقط ، وتارة يلاحق بعضها بعضا ، ولم تجابها نار واحدة من المزرعة .

التفت جادوف ، وصاح :

- ذئبان !

ارتج الرماش وكانما تملكته ضراوة شيطانية ، وراح يرش الرصاص عجولا ، ويكتم الانفاس يبدآن لاذع . وفي الحال عجلت الشخص الصغيرة حركتها على المروج وسقط بعضها . الا ان الحقل كله كان مضمورا بنقطة الماهجين . وكانت ثلاثتهم ترفض نحو الخنادق المهيمه للسرية السادسة . فنهض من هناك زهاء عشرين رجلا . وتجمع حشد من الرجال بسرعة حول ذلك المكان .

لم تكن هذه المعركة في سبيل المزرعة الا اجزاء ناقها من موقعة هائلة امتدت في جبهة طولها مئات الفراسخ . وكبدت الطرفين مئات الالوف من النفوس .

كان الروس قد احتلوا المزرعة قبل اسبوعين ليضمينوا لانفسهم رأس جسر في حالة الهجوم عبر النهر . وقررو الالمان الاستيلاء على المزرعة لوضع نقطة مراقبة في مكان اقرب الى النهر . وكان هذا الهدف وذاك ضروريين فقط لقادتي الفرقتين - الالمانية والروسية - ومضمينين في الخطة الاستراتيجية للحملة العسكرية لكلا الطرفين - تلك الخطة التي ترووا عميقا في كل دقائقها .

كان قائد الفرقة الروسية الجنرال دوبروف الذي كان له اسم عائلة غير روسي فابده منذ نصف عام باسمه العالي بترخيص من المراجع العليا يلعب الورق حين تلقى نيا هجوم الالمان في قطاع فوج اوسولسكى ،

ترك الجنرال الورق ، وانتقل مع الضباط الكبار واثنين من المرافقين الى الصالة التي نشرت على منضدة فيها خرائط طوبوغرافية . وكانت قد وردت من الجبهة انباء عن قصف المعبر والجسر . ففهم الجنرال بان الالمان عازمون على الاستيلاء على

المزرعة ، اي بالذات على المكان الذي بنى عليه خطته الشهيرة للهجوم ، والتي وافقت عليهما قيادة الفيلق ، وقدمت الى قائد الجيش للتصديق عليها . الا ان هجوم الالمان على المزرعة افسد الخطة كلها .

كانت الاخبار التلفزيونية تؤكد هذا الخطر بين لحظة واخرى . انزل الجنرال نظارته الانفية من فوق انفه الكبير ، وقال بهدوء ولكن بحزم ، وهو يلاعبها :

- حسنا ، لن اراجع قدما واحدة من المواقع التي احتلها . وارسل امرا تلفزيونيا الى الفور لاتخاذ تدابير مناسبة للدفاع عن المزرعة . وامر فوج كوندرافسكى الاحتياطي من الدرجة الثالثة بالزحف في كتبتين نحو المعبر لتعزيز النقيب تيتكين . وفي تلك اللحظة وصل خبر من قائد المدفعية الثقيلة عن قلة القذائف ، وتعطل احد المدافع ، وانعدام امكانية الرد على نار العدو الصاعقة ردا مناسباً .

الا ان الجنرال دوبروف رد على ذلك ، وقد القى نظرة صارمة على الحضور :

- حسنا ، حين تنفذ القذائف سنحارب بالاسلح الابيض . واخرج منديلا ناصع البياض من سترته الرمادية ذات القلبية الحمراء ، ونفضه ، ومسح نظارته الانفية به ، وانحنى على خارطة . وظهر في الباب المرافق الاصفر الكونت بوبرويسكى الضابط في بدلة من الكاكي البني الداكن مشجعة مع جسمه الكلفاز . وقال وهو يبتسم ابتسامة لا تكاد تلمح بظرف قه الضبوي الجميل :

- يا صاحب السيادة ، يقول النقيب تيتكين ان السرية الثامنة تجتاز طريقها الى المعبر بضربة ماهرة ، رغم نار العدو المهلكة . نظر الجنرال الى الضابط من فوق نظارته الانفية ، وحرك فمه الحليق ، وقال :

- حسن جدا .

ولكن رغم اللهجة المشجعة تواردت من الجبهة انباء مقلقة اكثر فاكثرا . وصل فوج كوندرافسكى الى المعبر وعسكر وتغندق ، والسرية الثانية ماضية في ضرباتها الماهرة ولكنها لم تعبر النهر بعد . ارسل النقيب اسلايميكوف قائد كتيبة الهاون برقية ذكر فيها

ان مدققين من مدافعه قد اصيبا ، وان قذائفه قليلة . وابلغ العقيد يوروزدين آمر الكتيبة الاولى من فوج اوسولسكي ان السرايا الثانية والثالثة والرابعة تتكبد خسائر كبيرة في الرجال من جراء مواقتها المكشوفة ، ولهذا فهو يطلب اذنا اما بالهجوم ودحر العدو الواقع ، واما بالتراجع الى حافة الغابة . ولم ترد انباء من السرية السادسة التي كانت تحتل المزرعة .

وفي الساعة الثانية والنصف من بعد منتصف الليل عقد مجلس عسكري . وقال الجنرال دوبروف انه سيتقدم بنفسه على رأس القوات الموكلة له ، ولكنه لن يتراجع فترا واحدا عن رأس الجسر المحتل . وفي انشاء ذلك وصل الخبر عن احتلال الالمان للمزرعة ، والقضاء على السرية السادسة الى آخر رجل . دغك الجنرال مندليسه الكتاني بين اصابه ، وغمض عينيه . ورفع العقيد سفيتشيف رئيس الاركان كلفيه الممثلتين وامتلا بالدم وجهه اللعيم الملتهق ، وتكلم ببحة ظاهرة :

- يا صاحب السيادة ، لقد ابلغتكم اكثر من مرة بان من المخاطرة احتلال مواقع في الضفة اليمنى . اتنا سنفقد كتيبتي وحتى ثلاثا واربعاً على هذا المعبر ، وحتى لو احتلنا المزرعة مرة اخرى ، فان الاحتفاظ بها سيكلفنا غالياً .

قال الجنرال دوبروف ، وقد تقصده انه عرفاً :

- ان رأس الجسر ضروري لنا ، ويجب ان يكون لنا ، وسيمبقي لنا ، والمسألة هي اننا لو فقدنا رأس الجسر فان خطي الهجومية ستنتهار .

واعترض العقيد سفيتشيف وقد ازداد حمرة :

- يا صاحب السيادة ، القوات لا تقوى على عبور النهر تحت نار صاعقة اذا لم تستند بالمدفعية بالشكل المناسب ، وانت تعرف ان المدفعية ليس لها ما تستند به .

رد الجنرال على ذلك :

- حسناً ، في هذه الحال اخبر القوات بان نياشين القديس غيروفى معلقة على الاسلاك في الجانب الآخر من النهر . اتنا اعرف جنودى .

وبعد هذه الكلمات التي سيحفظها التاريخ حتماً نهض

الجنرال ، واخذ يتطلع في النافذة ، وهو يدبر نظارته الذهبية في اصبعه القصيرة وراء ظهره ، فرأى شجرة بتولا مبللة تنمو في المرح وملفوفة بالضباب الصباحي الأزرق الرقيق ، وسرباً من المصافير يحط على اغصانها الرقيقة الياضعة الخضرة ، ويغرد في عجلة وتلق ، وينطلق فجأة ، ويغيب . وكانت اشعة الشمس الذهبية المتحرقة تثير المرح المضرب كله بمعالم الاشجار غير الواضحة عليها .

انتهى القتال عند مطلع الشمس . واحتل الالمان المزرعة ، والضفة اليسارية من الجدول ، ولم يبق بيد الروس من رأس الجسر غير منخفض في الضفة اليمنى من الجدول حيث كانت السرية الاولى . واستمر تراشق واهن فوق الجدول طوال النهار ، ولكنه كان واضحاً ان السرية الاولى تحت خطر التطويق ، وقد اتفقت اتصالاتها المباشرة بصفة النهر مع الروس بسبب احتراق الجسر ، وكان اعقل مخرج هو الخروج من المستنقع في الليلة ذاتها .

الا ان العقيد يوروزدين آمر الكتيبة الاولى تلقى بعد الظهر امراً بالاستعداد لغرض النهر في تلك الليلة للوصول الى المستنقع لتعزيم موقع السرية الاولى . واوزع الى التقيب تيبكين بتجميع قوى السرية الخامسة والسرية السابعة اسفل المزرعة ، والعبور على جسر عالم . واوزع الى الكتيبة الثالثة الاحتياطية من فوج اوسولسكي باتخاذ موقع هجومى ، والى فوج كوندرافسكى بعبور النهر من المغاضة عند المعبر المحروق ، والقيام بهجوم جيهرى .

كان الامر جدياً ، والترتيب واضحاً : تطويق المزرعة بحركة كماشية بواسطة الكتيبة الاولى يمينا ، والكتيبة الثانية يساراً ، على ان يجذب فوج كوندرافسكى اليه كل انتباه العدو ، وناره . وحدد منتصف الليل للبدء به الهجوم .

في الغيش ذهب جادوف للاشراف على وضع الرشاشات عند المعبر ، ونقل رشاش واحد في زورق ، في اشد ما تكون الحيلة ، الى جزيرة صغيرة لا تتجاوز مساحتها بضع عشرات من الامتار ، ثمت عليها شجيرات الصفصاف . ويقف جادوف هناك .

وجهت الطائرات الروسية طوال النهار نارا ضعيفة على المزرعة ، واعمق منها على المواقع الالمانية المقترية من النهر . وكانت تنطلق بين العين والآخر طلقات منفردة من بندقيّة صوب

النهر . وفي منتصف الليل بدأ عبور النهر في صمت من ثلاثة مواقع
أساساً . ولصرف انظار العدو بدأت وحدات فوج بيلوتسر كوفسكي
الواتعة على بعد زهاء خمسة فراسخ في اعلى النهر بمناوشات قوية .
والترزم الالمان الصمت حذرين .

راغب جادوف المعبر بعد ان ازاح اغصان الصفصاف المغطاة
بسنجح العنكبوت . كانت الى يمينه نجمة صفراء متواضعة تتدلى
على ارتفاع واطى فوق التلال المشجرة . وتنعكس على النهر الاسود
شريطاً من الضوء الكايبى المزعش اخذت تقطعه اشياء داكنة .
وظهرت شخوص راكضة من مكان الى آخر على الجزر الرملية
والمنبسط الرملى . وعلى مسافة غير بعيدة عن جادوف كان زهاء
عشرة اشخاص يخوضون في الماء الى صدورهم محدثين طرطشة
واظنة . مسكين بنادقهم وحقائب العتاد في اذرعهم المرفوعة . ان
هؤلاء كانوا من فوج كوندروفينسكى يعبرون النهر .

وفجأة نشبت نيران سريعة بعيدا في الضفة الاخرى ، وصغرت
القذائف في طيرانها واخذت قنابل الشرايينل تنفجر عاليا فوق النهر
بقرعة معدنية . وكان كل توجه يضي . وجربها ملتجة ناهضة من
الماء . وكان المنبسط الرملى كله يقص بالرجال الراكضين .
وانطلقت نوية جديدة من النيران ، وصدرت صيحات . وتصاعدت
صوايغ وتناثرت في السماء كلها باضواء باهرة . ورعدت الطائرات
الروسية . جرف التيار عند قدمى جادوف رجلا يتخبط ويردد
بصوت مكتوم : «راسى ، اصايوا راسى !» وتشبث بالصفصاف .
ركض جادوف الى الجانب الاخر من الجزيرة . وراى ان العوامات
الممتلئة بالناس كانت تتحرك عبر النهر على مسافة بعيدة ،
والوحدات التى قد عبرت النهر كانت تجرى في الحقل . وكانت
زوية النار الصاعقة تهدر فوق النهر والمعابر والتلال كما كانت
بسالامس مضممة منبهرة . وكان الماء الفائز يبدو مويها
بالديدان . فقد كان الجنود يتخطون وينسلون ويتصايحون من
خلال اعمدة الدخان السوداء والصفراء ، وبين النوافير المائية .
والذين وصلوا الى الضفة الاخرى اخذوا بالزحف الى الشاطئ .
وكانت رشاشات جادوف تلعلع في المؤخرة . والقذائف الروسية
تنفجر في المقدم . وكانت سريرسا النقيب كلتاهاهما تضريران

المزرعة بنار متقاطعة . تحولت الوحدات المتقدمة من فوج
كوندروفينسكى - التى فقدت نصف رجالها اثناء العبور ، كما
تبين فيما بعد - الى هجوم بالعراب . الا انها فشلت ، واستلقت
تحت الاسلاك الشائكة . ومن وراء الجداول خرجت الكتيبة الاولى
بصفوف كثيفة من خلل القصب . وتدفق الالمان من الخنادق .

كان جادوف يستلقى عند الرشاشة متمشياً بعمدة الاطلاق
المرتجة ارتجاجاً مجنوناً ويصب نارا مسفة على رابية معشوشبة
وراء خنادق الالمان كان يجرى عليها رجالان تارة ، وثلاثة اخرى ،
وجمع من الرجال تارة ثالثة ، وكانوا جميعا وبلا استثناء يتعشرون ،
وينكفئون ارضا على وجوههم وجنوبهم .

وعد جادوف : «ثمانية وخمسون ، ستون» . ثم نهض
شخص شليل الجرم ، وامسك براسه ، وسار مترنخاً على الرابية .
حول جادوف سبطانة الرشاشة قوسع الشخص على ركبتيه ،
وانطرح . «واحد وستون» . وفجأة انبعت امام بصره ضوء محرق
لايطاق . واحسى جادوف بانه قد رفع في الهواء وبان وجعا حاداً يشل
زراعته .

احتلت المزرعة وجميع خطوط الخنادق المجاورة لها واسر
حوالى مائتى اسير ، وفي الفجر خمدت نار المدفعية في كلا
الجانبين . وبدا جمع القتلى والجرحى ووجد رجال الاسعاف عند
تفتيش الجزر الصغيرة رشاشة مقنونة في الصفصاف المحطم ،
وبالقرب منها جنديا مدفوناً في الرمل ، وقد شُجَّ يافوخه ، وعلى
بعد عشرة امتار ، في الجانب الاخر من الجزيرة رقد جادوف ورجلاه
في الماء . انهضوه فان ، وكانت قطعة من العظم الوردى تبرز
من كفه الملتطخ بالدم .

وحين جلبوه الى مستشفى الميدان صاح الطبيب على يلزفيتا
كبيفتا : «جاءوا بفتاك . الى طاولة العمليات راساً» . وكان جادوف
فاقد الوعي مستدق الأنف ، اسود الفم . وحين خلعوا قميصه ،
رات يلزفيتا كبيفتا على صدره الابيض العريض رسماً من الوشم

لقردين متشابكين بذيليهما . كز جادوف على اسنانه اثناه
العملية ، واعترت التشنجات وجهه .

وبعد ان انتهى التعذيب ، وضلمه الجرح فتح عينيه ، انخذت
يلزفينا كييفنا عليه فقال :

- واحد وستون .

وغل جادوف يهدى حتى الصباح ، ثم غفا . طلبت يلزافيتا
كييفنا بان يهدوا اليها ينقله الى المستشفى العسكري الكبير
التابع الى هيئة اركان الفرقة .

٢٣

دخلت داشا الى غرفة الطعام . كان نيقولاي ايفانوفيتش
ودميتري ستيبانوفيتش يجلسان صامتين ، وكان الاخير قد قدم
من سامارا في اول الامس بناء على برقية مستعجلة . امسكت داشا
لفاحها الابيض عند ذقتها ، ونظرت الى وجه ابيها الاحمر والى
شعره المنقوش ، كان دميتري ستيبانوفيتش يجلس وقد طوى
ساقا واحدة ، ثم حولت داشا بصرها الى نيقولاي ايفانوفيتش
المعوج الاسارير الملتهب العنقين وجلست الى المائدة ايضا
وراء وراء النافذة هلالا نجيليا صافيا يتدل في الاغباش الضارب
الى الزرقة .

كان دميتري ستيبانوفيتش يدخن نائرا الرماد على صدره
الموهر . وكان نيقولاي ايفانوفيتش يجهد ليجمع فتات الخبز في
كومة واحدة على الخوان . وساد الصمت وقتا طويلا .

وفي آخر الامر تكلم نيقولاي ايفانوفيتش بصوت مخنوق :
- لماذا تركناها جميعا ؟ هذا لا يصح .

- اجلس وساذهب اننا - ردت داشا ، ونهضت . لم تعد
تشعر بالهم ولا بتعب وقالت لابنها ، وهي تلف اللفاح على فمها :
بابا ، اذهب واحقنها بحقنة اخرى .

نشق دميتري ستيبانوفيتش من انفه بشدة ، والقي عقب
سيكارتته النافذة عبر كتفه . كانت الارض حوله مزروعة كلها
باعقاب السيكاثر .

- احقنها مرة اخرى بابا ، اتوسل اليك .

عندئذ هتف نيقولاي ايفانوفيتش متضايقا وبصوت

مصطنع :

- لا يمكن ان تغيش على الكافور وحده . انها تحضر ،
ياداشا .

التفتت داشا نحوه بقوة .

- لا تتجرا على هذا الكلام ! لاتجرا . انها لن تموت .

اخذت وجه نيقولاي ايفانوفيتش الاصفر . استدار نحو
النافذة ، فمشاهد ايضا الهلال الرقيق النافذ في الغواء المزرق .
قال :

- اية وحشة لو ترحل . آه ، لا اطيع .

سارت داشا في غرفة الجلوس على اطراف اصابعها . ونظرت
في النوافذ مرة اخرى ، فاستشعرت بالبرد الزمهريري الابدئي
المتراخي وراها . انسلت الى مخدع كاتيا المضام بمصباح ليلى
اضاءة لا تكاد تغالب الظلمة .

هناك ، في اعماق المخدع كان الوجه الصغير يرقد على
الوسائد ، كما كان بلا حراك ، على السرير العريض الواطي ،
وقد دفع شعره الجاف المسود الى فوق ، والى الاسفل من الوجه
كف نحيلة . ركمت داشا على ركبتيها امام السرير . كان نفس
كاتيا واهنا لا يكاد يسمع ، وبعد وقت طويل قالت بصوت خافت
متمسك :

- كم الساعة ؟

- الثامنة ، كاتيوشا .

استنشقت كاتيا بعض الانفاس ، وسالت مرة اخرى وفي
صوتها نبرة الشكوى :

- كم الساعة ؟

وطوال النهار كانت تعيد هذا السؤال . كان وجهها نصف
الشفاف هادئا ، وعينها مغمضتين . . . ومنذ وقت طويل وهي
تسير على البساط الناعم في الدهليز الطويل الاصفر . كل شيء
اصفر فيه : الجدران والسقف ، وغالبا الى اليمين ينصب ضوء اصفر
معمب من النوافذ المتربة . والى اليسار عديد من الابواب

المسطحة . ووراءها - اذا ما فتحتها - حافة الارض ، اللاترار .
وكاتيا تسيير ببطء شديد ، كما في النوم ، مارة بهذه الابواب
والنوافذ المتربة . وامامها دهليز طويل سطليح في ضوء اصفر .
والهواء مكتوم ، وكل باب ينشر وحشة الموت . متى استحس
النهاية يارب ؟ لو تتوقف ، وتسمع . . . لا شيء يسمع . . .
ووراء الابواب ، في العتمة يبدأ صوت بطيء خفيض يطن مثل
صوت لولب الساعة الحائطية . . . آه ، ما اشد الوحشة ! . .
ليتها تفيق . . . ليها تقول شيئا بسيطاً انسانيًا . وعندئذ
كانت كاتيا تردد بجهد ، وفي صوتها تبرة شكوى :

- كم الساعة ؟

- كاتيوشا ، عم تسألين طوال الوقت ؟

«جميل ان تكون داشا هنا . . .» وعرة اخرى كان بساط
الدهليز يمتد تحت قدميها بغثيان ناعم وينصب الضوء الغثن
المقبض من النوافذ المتربة . ويدق لولب الساعة من بعيد . . .
«ليتنى لا اسمع . . . لا ارى . . . لا احس . . . استلقى
واتدثر . . . ليت النهاية قريبة . . . ولكن داشا تضايقتي ، لا
تدعنى اغيب . . . تمسك يدي ، تقبل ، تدمدم ، وتدمدم . . .
وكان تنفس حياة ينصب منها في جسدى الفارغ الخفيف . . . ما
اضجر ذلك ! . . . كيف اشرح لها ان الموت سهل ، اسهل من ان
احس بهذا النفس الحى في كياني . . . ليها تتركنى لا» .

- كاتيوشا ، انا احبك ، احبك ، هل تسمعين ؟

«لا تتركنى ، تشفق على» . . . يعنى غير ممكن . . . ستبقى
الفتاة وحدها ، تتيتم» .

- داشا !

- ماذا ؟

- لا اموت .

يبدو ان اباهما يقتررب . في الجر رائحة تبغ . ينحتى ،
يزيح البطانية ، وتغرز ابرة في الصدر بالم حاد لذيق . وتسرى
في الدم طراوة التسكين العذبة وتترنح جدران الدهليز الاصفر ،
وتنفرج ، وينشر برد ممسح . وداشا تمسد اللزوع المنطرحة
فوق البطانية ، وتضغط شفقتها عليها ، وتبث فيها دفا . وبعد

دقيقة اخرى يدوب الجسد في ظلمة النوم الحلوة . ولكن الشرطات
الصفراء الصارمة تتطاير مجددا من الجانبين ومن وراء عينيه . . .
وتكون متباهية ، ومن تلقاء نفسها ، وتتصاعف ، وتقيم دهليزا
خائفا ، معذبا .

- داشا ، داشا لا اريد ان ارحل الى هناك .

وتمسك داشا رأسها بيديها ، وتستلقى على الوسادة الى
جوارها ، وتضغط نفسها عليها وهي حية قوية ، وكانما تتبعث
منها قوة الحياة الفظة الحارة !

ولكن الدهليز استطال مرة اخرى ، وكان يجب ان
تنهض ، وتجرحر فيه قدميها ، وعلى كل قدم ثقل طن . لا يجوز
ان تظل راكدة . وداشا تحتضنها ، وتنهضها ، وتقول لها :
تعالى .

وهكذا صارت كاتيا الموت ثلاثة ايام بلياليها . وكانت تحس
في نفسها دائما برادة داشا المضطربة ولولا داشا لغارت منذ
زمان ، وارتاحت الى الابد .

في اليوم الثالث قضت داشا المساء كله والليل عند سرير
شقيقتها لا تبارحه . وكان الشقيقتين صارتا كيانا واحدا له
الم واحد ، وارادة واحدة . وقبل الصباح تصببت كاتيا اخيرا
بعرق غزير ، وانقلبت على جنبها . وكانت انفاسها لا تكاد
تسمع . ارتعبت داشا ، واستدعت اباهما . وقررا الانتظار .
وفي الساعة السابعة صباحا زفرت كاتيا ، وانقلبت على جنبها
الآخر . ومرت الازمة ، وبدأت العودة الى الحياة .

ولاول مرة خلال تلك الايام غفت داشا ايضا على المقعد الكبير
عند الفراش . وعندما علم نيقولاي ايفانوفيتش ان كاتيا قد
خلصت من الموت طسوق دميتري ستيفانوفيتش من صدازه
المؤبر ، واجهش باكيًا .

وبدا النهار الجديد بداية سارة ، وكان دافئا مشمسا ، وبدا
كل واحد منهم طيبا منع الآخر . وجلبت من حانوت الزهور
شجيرة من زهور الليلق الابيض ، ووضعت في غرفة الجلوس .

واحسنت داشا بانها قد انتزعت كاتيا بيديها من الحفرة الباردة
السوداء المؤدية الى الظلام الابدي . لم يكن على الارض شيء اعلى
من الحياة ، وقد ادركت ذلك الآن ادراكا راسخا .

في نهاية ايار نقل نيقولاي ايفانوفيتش يكاترينا دميترييفنا
الى بيت ريفي مبني من جذوع الشجر قرب موسكو ، له شرفتان
كانت احدهما تطل على حرش من اشجار البتولا ينشر ظلا اخضر
متحركا دائما تسرح فيه عجول رقصاء ، وتطل الثانية على حقل
متحدر متموج .

وفي كل مساء كانت داشا ونيقولاي ايفانوفيتش ينزلان من
قطار الضواحي الى محطة صغيرة ، ويسيران في المروج المستنقي .
وكان البعوض يحوم حول راسيهما . ثم كان يتعين عليهما ان
يصعدا في مرتفع . وهنا كان نيقولاي ايفانوفيتش يتوقف عادة
بحجة ان يلقى نظرة على الغروب ، ويقول لاهنا :
- يارب ، ما اروع ذلك !

كانت السحاب الليلية الساكنة العميقة ، وهي السحاب
التي تكون عادة عند الغروب ، تجسم وراء السهب المظلم
المزروع في بعض اجزائه بشرائط من العيوب ، وفي الاجزاء الاخرى
باشجار الجزز اللحاء واياتك البتولا . وكان وهج الغروب السماوي
يشع ضوءا كابيا من الفرجات الطويلة في هذه السحاب ، وقد
انعكس شريط برتقالي من السماء على مسافة غير بعيدة الى الاسفل
عند خور الجدول . وكانت الضفادع لا تكف عن النقيق ، واكداس
الدريس وسقوف القرية تلوح داكنة في الحقل المنبسط الذي
اوقدت نار في ناحية منه . وهناك ، في مكان ما وراء السدة والسياح
العالي كان معسكر لص توشينكو . في غاير الازمان - ظهر قطار من

* - كان دميتري الذي اثنى الثالث المويصة المتشغلين البولويين
والفاتيكان . وقد ادهى انه ابن قيصر روسيا ايفان الرابع . وقد دخل
روسيا مع القوات البولوية في سنة ١٦٠٧ وعسكر في توشينكو بالقرب من
موسكو ، في عام ١٦١٠ قتله احد اصاراه . (المترجم) .

وراء الغابة يصفر صغيرا طويلا ، ناقل الجنود الى الغرب ، في
الغروب الخابي .

اتحرت داشا ونيقولاي ايفانوفيتش من البيت الريفسي
آخذين طريقهما في طرف الغابة ، قرايا من خلال زجاج الشرفة
المائدة معدة للششاء ، ومصباحا على شكل كرة زجاجية مغبشة .
ركضت للقائهما كلبه المنزل «شاريك» تنبح بخفاوة ، وحين
وصلت اليهما مبصصة بذيلهما ، ابتعدت عنهما حيلة الى
الافستين ، وراحت تنبح في ناحية .

فقرت يكاترينا دميترييفنا باصابعها على زجاج الشرفة ،
فقد كان ما يزال غير مسموح لها الطلوع الى الخارج بعد حلول
الظلام . اغلق نيقولاي ايفانوفيتش باب السياج وراءه ، وقال :
«في رأيي انه بيت ريفي فاتر» . وجلسوا الى العشاء . روت يكاترينا
دميترييفنا اخبار المنطقة : جاءت كلبة مجنونة من توشينكو ،
وعضت دجاجتين من دجاجات عائلة كيشكين ؛ عائلة جيلكين
انتقلت اليوم الى بيت سيموف الريفسي ، واذا بسماورهم يسرق
في نفس اليوم . الطباخة ماتريونا جلدت ابنها مرة اخرى .

تناولت داشا طعامها صامتة ، فقد تعبت في المدينة تعباً
شديدا . اخرج نيقولاي ايفانوفيتش من حقيبه حزمة من الجرائد ،
واخذ يطالعها ، مغلخ اسنانه بعود التخليل ، وعندما كان يقع على
انباء مؤسفة ، كان يحدث صريفا باسنانه الى ان تقول كاتيا له :
نيقولاي ، ارجوك ، لا تصرف باسنانك . خرجت داشا الى مقدمة
البيت ، وجلست ، واستندت حنكها على يدها ، وحدثت في السهل
المظلم العرصع بالنيران ، والى النجوم الصيفية الصغيرة
المنثورة . كانت تشعبت من الحديقة ورائحة احواض زهور مروية .
في الشرفة كان نيقولاي ايفانوفيتش يقول وهو يقلب جرائده .

- لا يمكن ان تستمر الحرب طويلا بعد الآن لنسب واحد
هو ان دول الولاك ونحن - الحلفاء - ندمر انفسنا .

سالت كاتيا :

- اتريد شيئا من اللبن الخائر ؟

- اذا كان باردا فقط . . . فظاعة ، فظاعة ! فقدنا
المدنيتين : لفوف وليوبلين . يا للعار ! كيف يمكن ان نقاتل اذا
كان الغونة يغرزون السكنين في ظهرونا ! مستحيل !
- نيقولاى ، لا تصرف باسنانك .

- اتركينى وشائى ! اما اذا فقدنا فرسوفيا فذلك هو العار
الاكبر ، وبعده سيتعذر العيش . حقا في بعض الاحيان يتسائل
العرب مع نفسه : اليس من الافضل عقد هدنة من نوع ما ، وتحويل
العراب نحو بطوسبورغ ؟

تناهى صغير قطار من بعيد ، وترددت قرعة عجلاته على
الجسر الملقى فوق الجداول الذى كان الغروب منعكسا عليه
قبل حين ويبدو القطار ينقل الجرحى الى موسكو . خشخش نيقولاى
ايفانوفيتش بصحفه مرة اخرى وقال :

- القطارات تنقل الجنود الى الجبهة بدون بنادق . وهم
يقعدون في خنادقهم مسلحين بالعصى . وبنديقية واحدة لكل خمسة
منهم . ويهاجمون بهذه العصى نفسها ، على امل ان يخذلوا بنديقية
الجندي المجاور حين يصرع . اوه ، اللعنة ، اللعنة ! . .

نزلت داشا من مدخل البيت ، وضعت مرفقها على باب
العديقة . كان ضوء الشرفة يسقط على اوراق الارطقيون الالامعة
عند السياج ، وفي الطريق . مر بيتيا ، ابن ماتريونا ، منكس
الراس باثسا فاتر الهممة يثير الغبار بقدميه العافيتين . لم يبق
امامه الا ان يعود الى المطبخ ويقوم نفسه للجلد ، ويستلقى
لينام .

خرجت داشا من باب العديقة ، وسارت ببطء الى نهر
خيمكى .

وهناك وقفت على الجرف في الظلام وتسمعت . وترامسى
اليها خريز يتبول لا يسمع الا في الليل . دمدمت كتلة من التربة
انخلت من الجرف الجاف ، وتندرجت عليه ، سقطت في الماء
بطرطشة . وكانت اشباح الاشجار السوداء تنتصب على جانبيها
ساكنة . ونجاة بدأت اوراقها ترسل حفيفا ناعسا ، ثم عاد السكون .
مرة اخرى . وسالت داشا نفسها بصوت خفيض : متى ، متى ، متى !
ولقطقت باصابعها .

في احد الاعياد في اوائل حزيران استيقظت داشا في ساعة
مبكرة وذهبت لتغتسل في المطبخ لئلا توتظ كاتيا . رات على
المنضدة كومة من الخضار ، وفوقها بطاقة بريديّة خضراء يبدو
ان بالغ الخضار جلبها من البريد مع الجرائد . كان بيتيا ، ابن
ماتريونا ، يجلس على العتبة ناشقا ، وقد شد ساق دجاجة الى
عصا صغيرة . وكانت ماتريونا تعلق الغسيل على اقصان الاقاصيا .

صبت داشا في وعاء خزفي ماء فواحا برائحة النهر ونضت
قميصها عن كتفيها ، ونظرت مرة اخرى لتعرف ما هذه البطاقة
البريدية الغريبة . امسكت طرفها بأصبعين مبللتين ، فاذا بها
تقرأ : «عزيزتى داشا ، انا قلق لاننى لم اتلق ردا على اية
واحدة من رسائلى . امن المعقول انها فقدت ؟»

اسرعت داشا بالجلوس على المقعد ، فقد غامت الدنيا
امام عينيها ، وارخت رجلاها . . . «جرحى قد انهدل كليا وانا
الآن اساس التمارين الرياضيه يوهيا وعلى العموم امسك زمام
نفسى بيدي . بل واتعلم الانجليزية والفرنسية . اعانقك ،
يا داشا ، اذا ما زلت تذكرينى . ايفان تليفين» .

سحبت داشا قميصها على كتفيها وقرات الرسالة للمرة
الثانية :

«اذا ما زلت تذكرينى ! . .» وثبت واقفة وركضت الى كاتيا في
مخدعها ، وازاحت الستارة القطنية من على النافذة .
- كاتيا ، افرئنى بصوت عال ! . .

وجلست داشا على سرير كاتيا التى بدا عليها الفزع ، ولم
تنتظر ان تقرأ اختها الرسالة ، واخذت تقرأها بنفسها ، ونهضت
مسرعة بعد هذا ، رافعة يديها :

- كاتيا ، يا كاتيا . ما افضع ذلك !
- ولكنه حى ، والحمد لله ، ياعزيزتى داشا ،
- احببه ! . . يا الهى ، ماذا على ان افضل ؟ . . اجبنى
يارب ، متى تنتهى الحرب ؟

اختلطت داشا البطاقة البريدية ، وركضت الى نيقولاى
ايفانوفيتش . وبعد ان تلثها عليه طلبت منه مأخوذة ادق جواب
عن سؤالها : متى تنتهى الحرب ؟

- يا عيزتي ، لا احد الآن يعرف هذا .

- فيماذا تعمل انت ، اذن ، في ذلك الاتعداد البلدي الاحمق ؟

لا شيء غير هراء بقوله الجميع من الصباح حتى المساء . ساذهب الى قائد القوات في موسكو . . . واطلب منه . . .

- ماذا تطلبين منه ؟ آه ، يا داشا ، داشا . ينبغي ان

تتخلي بالصبر .

وظلت داشا بضعة ايام تلوب على نفسها ولا تستقر في مكان . ثم هدأت ، وكانها انطفأت . وكانت في المساء تآوى الى غرفتها مبكرا ، وتكتب الرسائل لياغان ايليش ، وتصنع الطرود له وتلفها بالجفانص . وعندما كانت يكاترينا دميترييفنا تبادلها الحديث عن تليغين كانت داشا تضحك عادة . وتخلت داشا عن زهرة المساء ، وظلت تقضي معظم اوقاتها جالسة مع كاتيا وهي تخطئ او تطالع . وكانت تحس ضرورة ان تخفي كل مشاعرها في اعماق نفسها قدر الامكان ، وتغطي نفسها بجلدة عادية حصينة من الحياة .

اما يكاترينا دميترييفنا فرغم انها ابلت تماما خلال الصيف الا انها انطفأت هي الاخرى مثل داشا . وكانت الشقيقتان غالبا ما تقولان انهما ترزحان مثل كل انسان الآن ، تحت ثقل كحجر الرمي . كانتا تجدان رهقا في الاستيقاظ ، ورهقا في السيمير ورهقا في التفكير والانتقاء بالناس ، وتتلقيان الى الساعة التي تآديان فيها الى الفراش مرهقتين ، فان النوم والنسيان متعة لا تعادلها متعة . بالامس دعت عائلة جيلكين الضيوف لتذوق المري التي صنعتها حديثا ، ووصلت الجريدة وهم يحتسون الشاي ، واذا بهم يجدون اخا جيلكين في قائمة القتلى . لقد صرع في ساحة المسجد . دخل اهل المنزل الى البيت ، ومضى الضيوف على الشرفة في الظلام بعض الوقت ، ثم انصرفوا صامتين . وهكذا الحال في كل مكان . كانت تكاليف العيش عالية ، والمستقبل يبدو غامضا ، واليباس يخيم على النفوس . وجرى التخلي عن فرسوفيا ، ونسفت بريست-ليتوفسك واستسلمت . وكان الجواسيس يعتقلون في كل مكان .

وكرر قطاع الطرق في المنخفض على نهر خيمكي . ولم يخرج

احد الى الغاية اسبوعا كاملا خوفا منهم . ثم طردهم الحراس من المنخفض ، واعتقلوا اثنين منهم ، ونجا ثالث وانسل الى قضاء زفينغورود كما يقول الناس لينهب الضياع .

ذات صباح وصلت عدوا عربية الى الساحة الصغيرة قرب

بيت عائلة سموكونيكوف ، وكان السائق واقفا على بسطة العربية . وتراكتت نحره من كل الجهات النسوة والطباخات والصبيان ، ان شيئا ما قد حدث . وخرج بعض المصطافين مستأجرى البيوت الريفية من ابواب حدائقهم . واندفعت ماتريونا عبر الحديقة وهي تمسح يديها . كان السائق يقول احمر ملتعبا وهو واقف على بسطة عربته :

- . . . جروه من الدائرة وهزوه وضربوه على الرصيف ، ثم قذفوه في نهر موسكو . وكان حوالي خمسة المان مختفين في المصنع . . . امسكو ثلاثة ، الا ان الشرطة هربتهم ، والا لكان لهم نفس المصير في نهر موسكو . . . وفي ساحة لوبيانسكايا كلها يتطاير الحرس والمخمل على الدوام . والنهب يجري في المدينة كلها . . . والناس حشود . . .

انزل سوطه بكل قوة على حصانه العدا المنحني بعض الشيء بين عريشتي العربية المعكوفين ، حاشا ايباء وساطله مرة اخرى فانطلق الحصان بالعربة المتخلخلة وثبا في الشارع ، ناخرا مزيدا ، واعتطف نحو الخمارة .

كانت داشا ونيقولاى ايفانوفيتش في موسكو . وكان عمود اسود من الدخان يتصاعد من هناك والى سديم السماء الرمادي المسفوح بالشمس ، وينتشر كسحابة . وكان الحريق يشاهد جيدا من ساحة القرية حيث تجهمر حشد من سواد اهل الريف . وحين كان المصطافون مستأجرو البيوت الريفية يقتربون كانت الاحاديث تسكت : كانت الانظار التي تزجها الى السادة مشوبة بالسخرية او التوقع الغريب . وظهر رجل قوى البسطن وحاسر الراس يرتدى قميصا مزرقا ، وصاح وهو يتقدم الى كتيسة صغيرة مبنية بالاجر :

- في موسكو يذبحون الالمان .

ومما كاد ينتهي من صياحه حتى اخذت امرأة حبلى تنحب .
وتدافع الناس الى الكنيسة ، وركضت يكاترينا دميترييفنا ايضا
الى هناك . واضطرب الحشد ، وضج .

- محطة فرسوفيا في موسكو تحترق . احرقها الالمان .

- ذبحوا زهاء الفى المائى .

- بل ستة آلاف . والقى الجميع فى النهر .

- بدأوا بالالمان ، ثم مضوا يصقون بالتتابع . يقولون
ان حوايت شارع كوزنيسكى موسى * قد نهيت الى آخرها .
- هذا ما يستحقونه . سمئوا على عرفنا ، هؤلاء الاوغاد ا
- من المستحيل ان توقف الشعب .

- فى منتزه بترفوسكى ، وانا لا اكدب قسما بالله ، فقد
جاءت اخي لتوها من هناك ، فى هذا المنتزه ، كما يقول الناس ،
عشروا على جهاز لاسلكى فى بيت ريفى ووجدوا بالقرب منه
جاسوسين متنكرين بلحيتين مستعارتين . وقد فتكوا بهما بالطبع .

- ينبغي ان تفتش جميع البيوت الريفية !

ورأى الناس فيما بعد فتيات قرويات يحملن اكياسا
فارغة وهن يركضن صابطات التل نحو السدة التى يسير عليها
طريق موسكو . اخذ الناس يصيحون عليهن . قالتفن ،
ولرحن بالاكياس وتضاحكن . سألت يكاترينا دميترييفنا
فلاحا هرما محتشم المظهر كان واقفا بالقرب منها يحمل
عصا طويلة .

- الى اين هؤلاء الفتيات يركضن ؟

- ليئهن ، ايها السيدة الكريمة .

واخيرا وبعد الساعة الخامسة وصلت داشا ونيقولاى
ايفانوفيتش من المدينة فى عربة . كان كلاهما مضطربا ، وقد
رويا ، واحدهما يقاطع الاخر ان الناس فى موسكو كلها يجتمعون

* شارع فى موسكو حيث كانت تقع حوايت غالية كان اكثرها
يعود الى الاجانب . (المترجم) .

حشودا ، ويحطون بيوت الالمان والمخازن الالمانية . وقد احترقت
عمدة بيوت ونهسب مخزن الملابس الجاهزة التابع
لماندل ، وحطم مستودع بيكر للبيانوهات فى شارع كوزنيسكى
موسى . ورميت البيانوهات من نوافذ الطابق الثانى ، والقيت فى
النار .

وتقطعت ساحة لوبيا نساكيا بالادوية والزجاج المهشم . ويقال
ان حوادث قتل قد وقعت . وبعد الظهر خرجت الدوريات ، واخذت
تفرق الناس . والان هذا كل شىء .

قال نيقولاى ايفانوفيتش وهو يرمض بعينيه من الانفعال :
- هذه هجمية ، بالطبع . ولكن تعجبني هذه الروح
الملتهية ، جبروت الشعب ، اذا كانوا اليوم قد نهبوا المخازن
الالمانية فعدا سيقبمسون الحوكمة تهاوتت فى
هذه الاباحة عن قصد . نعم ، اؤكد لك لتفلس عن شدة غيظ
الشعب . ولكن الشعب من خلال هذه الافعال سيطمع فى تذوق
شىء اكثر جدية . . .

وفى تلك الليلة نهب قبو عائلة جيلكين ، وسرقت بياضات
عائلة سفيتشنيكوف من العلية . وظل الضوء مشتعلا فى الخمارة
حتى الصباح . وبعد اسبوع صار اهل القرية يتهايمسون ، وهم
ينظرون نظرات مرعبة الى المصطافين المتزهنين .

وفى بداية آب انتقلت عائلة سموفنيكوف الى المدينة .
وعادت يكاترينا دميترييفنا الى عملها فى المستشفى العسكرى .
وكانت موسى فى ذلك الخريف حافلة باللاجئين من بولنده .
وكان من المعتن على المرء ان يشق طريقه فى زحام شارع
كوزنيسكى موسى ، وبترفكا ، وتفرسكيا . وكانت المخازن
والمقاهى والمسارح غاصة بالناس ، وفى كل مكان كانت تسمع
عبارة جديدة : «معدور» .

وكان هذا اللغظ والترف والمسارح والفنادق المكتظة ،
والشوارع المزدهمة السابجة بالضوء الكهربائى معبئة عن جميع
المخاطر بجدار حى يكوئه جيش مؤلف من اثنى عشر مليونا من
البشر ينزف دما .

واستمرت الاوضاع الحربية فى حالة لا تبعث على الاطمئنان

قط . وكان الناس في كل مكان من الجبهة والمؤخرة يتحدثون عن تصرفات راسبوتين البغيضة ، وعن الخيانة ، وعن استعالة الاستعمار في القتال اذ لم ينفذ القديس نيقولا بمعجزة .
وفي خضم اليأس والفساد هذا اوقف الجنرال روزسكى هجوم الجيوش الالمانية بشكل مفاجئ في ميدان مكشوف .

٢٤

كانت الريح الشمالية الشرقية تعني اشجار الحور الجرداء على ساحل البحر في الغسق الخريفى ، وتهب اطر النوافذ في البيت القديم القائم على التل بجره الخشبي ، وتدمم في السقف دمنمة تخيل اليك ان انسانا ثقيل الوزن يتخطى على السطح الحديدى ، وتصفر في المداخل ، وتحت الابواب ، وفي كل شق .
ومن نوافذ البيت كان في مستطاع الناظر ان يرى الورود العارية تنحني من جهة الى اخرى اتحنا، شديدا على الارض البنية المحروقة ، والسحب الممزقة تعوم فوق البحر الموج الرصاصى اللون . وكان الجو باردا وموحشا .

وكان اركادى جادوف جالسا على اريكة بالية في الغرفة الماهولة الوحيدة في الطابق الثانى من البيت . وكان الكم الفارغ من سترته ، التي كانت انيقة يوما ما ، محشورا تحت حزامها ، وكان وجهه يغميه المنفخين مخلوقا حلقة جيدة وشعره مصفوقا بعناية ، وعلى وجنتيه عضلتان متحركان .

فلس جادوف عينيه من دخان سيكارته ، واحتسى شيئا من النبيذ الاحمر المتبقى في براميل موجودة في قبو بيت ابيه . وكانت يلزافيتا كينيفنا تجلس على الطرف الثانى من الاريكة ، وتحسى النبيذ ايضا وتدخن مبتسمة ابتسامة رقيقة . وقد عودها جادوف ان تصمت اباما كاملة ، ان تصمت وتصغى ، بعد ان يحسى زهاء ست زجاجات من نبيذ «كابيرنيه» المعتق ويبدا بالتحدث . وقد تراكمت في نفسه افكار مريرة كثيرة اثناء الحرب

واناء اقامته جالعا في «قصر كابيرنيه» نصف المهدم وسط بضعة افدنة من دوال الكروم - الثروة الوحيدة التي بقيت له بعد وفاة ابيه .

في ليلة من الليالى التعسة في المستشفى العسكرى في المؤخرة قبل ستة اشهر حين كانت ذراعاه المبتورة غير الموجودة توجهه وجعا مضما قال ليلزافيتا كينيفنا بغضب وحقن وتكدر :
-بدلا من ان تبخلقى في بعينيك العاشقتين طوال الليل ، ولا تدعيني انام استمدى القس غدا ليسوى هذه القضية المضجرة .
امتعت يلزافيتا كينيفنا ثم هزت راسها موافقة . وعقصد قرانها في المستشفى العسكرى . وفي كاتون الاول نقل جادوف الى موسكو ، حيث اجريت له عملية ثانية ، وفي بواكير الربيع سافر مع يلزافيتا كينيفنا الى انابا ، وسكنا في «قصر كابيرنيه» . ولم تكن لجادوف اية موارد للعيش ، فكانا يتصلان على ثمن خبزهما ببيع الاثاث القديم والادوات المنزلية . الا ان النبيذ الكابيرنيه كان متوفرا بكثرة والمخمر خلال سنوات الحرب .

وفي هذا البيت الغاوى نصف المهدم ذى البرج الملوث بذرق الطيور بدأت البطالة الطويلة الميثوسسة . وقد استنفدت الاحداث كلها منذ زمن طويل . والمستقبل لا ينطوى على شيء وكان الباب المغلق على الزوجين الى الابد .

حاولت يلزافيتا كينيفنا ان تعمل بوجودها فراغ الايام الطويلة بشكل معذب . ولكنها لم توفق كبير توفيق : فقد كانت رغبته في الخطوة بالاعجاب مضحكة وغير متقنة ، وبلا اقتدار . وقد عبرها جادوف على ذلك . فراحت تفكر في ياس بانها ، رغم سعة فكرها ، سريعة التأثر كامرأة . ومع ذلك فانها لن تستبدل بابة حياة اخرى هذه الحياة المعذمة المملوءة بالاهانات ، المترعة بالسام ، والخضوع للزوج ، واللحظات النادرة من النشوة المجتونة .

وفي الآونة الاخيرة ، حين اخذ الخريف يصفر على الساحل الاجرد اصبح جادوف متوتر الاعصاب بشكل خاص : فما تكاد تبدي حركة حتى ترتفع شفته فوق اسنانه الخائفة ، ويتقوه باشياء فظلة من خلال اسنانه مقطعا الكلمات بوضوح . وكانت يلزافيتا

كيفنا فقط ترعد داخلها في بعض الاحيان ، وتسرى القشعرية في جسدها من الهائه ، ومع ذلك كانت تصغي الى هذيانه ساعات طويلة غير صارفة عنيتها عن وجه الجميل الناحل .

وكان يرسلها لتجلب النبيذ من القبو الاجسرى المقوس السفف ، مسرح العناكب الكبيرة الراكضة . فكانت تفرص هناك عند برميل ، وتراقب نبيذ كابيرنيه الاحمر ينزل في الجرة الخزفية وتطلق العنان لافكارها . وتفكر بمرارة منتشبة في ان اركادى سيقلتها ذات يوم هنا ، في القبو ، ويدفنها تحت برميل . وستمر ليالى شتائية طويلة وذات ليلة يوقد شمعة ، وينزل الى العناكب هنا . ويجلس امام البرميل ، ويراقب هذا النبيذ النازل كما تراقبه الآن ، وينادى فجأة «ليزا . . .» وما من شيء غير العناكب تركض على الجدران . فيجيش لاول مرة في حياته من الوحدة ، ومن الوحشة القاتلة . لقد كانت يلزافيتا كيفنسا تعوض بمثل هذه الاحلام عن كل الاساءات ، فانها في آخر المطاف ستكون هي الراحبة لا هو .

اشتدت الريح ، واهتز الزجاج من عصفاتها . اعول صوت وحشى من البرج ، وسيلظل يعول ، على ما يبدو ، طوال الليل . ولم تتوقد نجمة واحدة فوق البحر .

وكانت يلزافيتا كيفنسا قد انزلت ثلاث مرات الى القبو ، وملاّت الجرة . وبقي جادوف على جلسسته الساكنة وعلى صمته . في هذه الليلة لا بد ان تجرى احاديث من نوع خاص .

وتكلم جادوف فجأة وبصوت عال :

- اليست عندنا بطاطس ، على الاقل ؟ كان في امكانك ، على ما يبدو ، ان تلاحظي اننى لم اتناول شيئاً من الاكل منذ الامس ، وذهملت يلزافيتا كيفنسا . بطاطس ، بطاطس . . . انها منذ الصباح كانت مشغولة بافكارها ، بعلاقة اركادى بها حتى ان العشاء لم يخطر على بالها . وثبتت من الاريكة . فقال جادوف بصوت متثلج :

- اجلس ياقدرة . انا اعرف بدونك اننا لا نملك بطاطس . يجب ان اتول لك انك لا تجددين شيئاً في الحياة خلا التفكير في مختلف السفاسف .

- ساذهب الى جيراننا ، فقد يبادلوننا النبيذ بشيء من الغبى ومن البطاطس .

- افعل ذلك حين افرغ من العدين . اليوم حملت نهائياً مسألة اباحة الجريمة . وبهذه الكلمات لفت يلزافيتا كيفنسا الفلاح عليها ، وانزوت في طرف الاريكة ، ان هذه المسألة استهوتنى منذ الطفولة . والنساء اللائى التقيت بهن اعتبرنسى مجرماً ، واستسلمن لي بتمطش كبير . الا اننى لم احصل فكرة الجريمة الا في الاربع والعشرين ساعة الماضية .

ومد يده الى القدرح ، وشرب النبيذ بنهم واشعل سيكارة :

- تصورينى جالسا في الخندق على بعد ثلثمائة خطوة عن العدو . فما الذى ينعنى من تغطى المتراس ، والذهاب الى خندق العدو ، لاقتل منّ يبغي ان يقتل ، وانهب فلسهم وبطانياتهم والقهوة والتبغ ؟ لو كنت وانقا من انهم لن يرمونى او يرمونى ولكن لا يصوبونى فاننى بالطبع لذبحت ونهيت ، ونشرت صورتنى في الصحف كبطل . ان ذلك يبدو واضحا ومنطقياً .

والآن ، ها انا قاعد على بعد ستة فراسخ من انابا ، في قصر كابيرنيه» وليس في خندق ، فلماذا لا اذهب ليلا الى المدينة ولا اقتحم مخزن مورافيتشيك للمجوهرات ، واستولى على المجوهرات والذهب ، واذا صادقت مورافيتشيك نفسه ، فاغرز فيه سكيناً يكسل سرور ، في هذا الوضع - واثار باصبعه الى بداية الرقية بحزم - لماذا لا افعل ذلك حتى الآن ؟ هذه المرة ايضا يدافع الخوف فقط . والخوف من الاعتقال ، والمحكمة ، والاعدام ، يبدو اننى اتحدث بمنطق . ها ؟ ان سلطنة الدولة هي التي تبتت في مسألة قتل ونهب العدو . اى تبتت فيها وفق الاخلاق الشبى ترسمها الحكومة ، اى بمجموعة القوانين الجنائية والمدنية ، في المعنى الايجابى . ومعنى ذلك ان المسألة تنحصر في احساسى الشخصى بمنّ اعتبره انا عدواً .

قالت يلزافيتا كيفنسا بصوت لا يكاد يسمع :

- العدو في الحالة الاولى هو عدو الدولة وفي الحالة الثانية عدوك فقط .

- تهاينى ! حديثنى شيئاً ما عن الاشتراكية . هراء ! الاخلاق

قائمة على حق الفرد ، لا المجموع . اعتقدت بان التعبئة قد نجحت نجاحا باهرا في جميع الاقطار والحرب ماضية في سنتها الثالثة بكل ممعانها ، مهما احتج بابا روما ، فقط لاننا جميعا ، كل فرد منا ، قد تجاوزنا قنات الرضاة . اننا نريد القتل والنهب ، واذا لا نريد بشكل مباشر فاننا لا نعترض عليهما في شيء . والدولة تنظم القتل والنهب . والحقي والقاصرون ماضون في تسمية القتل والنهب قتل ونهب . وانا منذ الآن اسميها التحقيق الكامل لحق الفرد . النمر ياخذ ما يريد . وانا ارفع من النمر . فمن يجرؤ على تحديد حقوقي ؟ مجموعة القوانين ؟ لقد اكلتها الديدان .

وضم جادوف قدميه ، ونهض بخفة ، وراح يذرع الغرفة التي كان يتسلل اليها من خلال الزجاج المعبر خط كآب من الغروب لا يكاد يثيرها .

- ان مليارا من الناس يجدون انفسهم الآن في حالة حرب . وخمسمائة مليون من الرجال يقاتلون في الجبهات ، وهم منظمون ومسلحون . ويمثلون في الوقت الحاضر مجموعتين متعاديتين . ولكن لا شيء يجمعهم من ان يوقفوا القتال في احد الايام ، ويتجدوا وسيعتد هذا حين سيقول رجل لهذه الخمسمائة مليون من الرجال : « ايها الحقي ، انكم لا تصوبون الى الهدف الصحيح » . ولا بد ان تنهى الحرب بتمود ، بثورة ، بحريق يشمل العالم . وتتحول الحراب الى داخل البلاد . وسيكون المجموع سيد الحياة وسيجلسون على العرش فقيرا من الختالة ويقدمون له فروض الطاعة . وليكن ذلك . ان ذلك سيزيد من اطلاق يدى للنضال . فمن ناحية يوجد قانون الجماهير ، ومن الناحية الثانية يوجد قانون الفرد . انتم الاشتراكية ونحن قانون الغاب ، نحن الفوضوية المنظمة بانضباط جديدي .

كان قلب يلزافيتا كيفنا يخفق خفقانا مجنونا . انها هذه بالذات تلك «المهاوي» التي كانت تحلم بها حين كانت في شقة تليفين . ولكنها لم تعد تلك المزحات المرحة المصاغة بالبند الاثنتي عشرة «للامتفزاز الذاتي» التي علقها نزلاء شقة تليفين على باب ليذا . . . والآن في القسمر مر بالثوفاذ وجل رهيب حقا مثل حيوان الكوجر الامريكى في قفص . كان يتحدث

لمجرد انه غير طليق . وحين اصغت يلزافيتا كيفنا اليه احست وكأنها رأت عدوا مجرنا لخيول منطلقة ، وسبيا ، ووهجا . . . وترأى لها انها تسمع صيحات ، وضجيج معركة والزعيق قبل الموت وانغاني السهب .

٢٥

في اوائل الشتاء . من عام ١٩١٦ ، ووسط الجزع العام والتوقعات التي لا تحل املا استولت القوات الروسية فجأة على قلعة ارضروم بالعتوة حافرة انفاقا عميقة خلال الثلوج ، متسلقة منحدرات كساما الجليد . وكان ذلك في وقت مئى فيه الانجليز يهزائم عسكرية في ما بين النهرين وقرب القسطنطينية ، وجرى فيه قتال عنيد في الجبهة الغربية على بيت المعداوى على نهر ايسر ، وكان الاستيلاء على بضعة اثمار من الارض العروية بالعماء ربا كشيئا يعتبر تصرا كان برج ايفيل يسرع لاذاعته على جميع العالم .

وفي الجبهة النمساوية تحولت الجيوش الروسية بقيادة الجنرال بروسيلوف الى هجوم حاسم بنفس الفجأة ايضا . وحدثت بلبلة عالمية . وصدر في انجلترا كتاب عن الروح الروسية المفلتة . وبالفضل ، وخلافا للفكر المنطقي ، وبعد سنة ونصف سنة من الحرب ، والهزيمة ، وفقدان ثمانى عشرة ولاية ، وخور العزيمة العام وبعد الخراب الاقتصادي ، والانحطاط السياسي عادت روسيا مندفة الى الهجوم على طول جبهتها تمتد ثلاثة آلاف فرسخ . وارتفعت موجة معاكسة من القوة النضرة التي تبدوا غير مستنفدة .

وسازت صفوف مئات الالوف من الاسرى داخل روسيا . وتلقت النمسا ضربة مميته وتجيبة لها تهشمست بعد سنتين بسهولة وكانها وعاء من الفخار . وعرضت المانيا الصلح سرا . وارتفع سعر الروبل . وانبعث من جديد الامال بانتهاء الحرب العالمية بضربة حربية . وراجت «الروح الروسية» زواجا قاتقا بين الناس . وشجعت بواخر المحيطات بالفرق الروسية ، وغنسى

فلاحو اوريلو ، وتولا ، وريازان اغاني الجنود الروسية في شوارع سلايك ، ومارسيليا ، وباريس ، وشنوا هجرات جنونية بالحرايب اتقادا للحضارة الوريية .

واستمر الهجوم طيلة الصيف واستدعى للخدمة رجال من اعمار متزايدة ممن كانوا في الاحتياط ، وانترزع الفلاحون في سن الثالثة والاربعين من العقل ، من العمل . وكان يجري تشكيل الوحدات التكميلية في جميع المدن . واقترب عدد المعينين الى اربعة وعشرين مليوناً وخيمت على ألمانيا ، واوربا كلها سعابة الرعب القديم من الجحافل الآسيوية .

وخلال هذا الصيف اقتوت موسكو اقفا را شديدا . فقد امتصت الحرب الرجال مثل مضخة ماصسة . ورحل نيقولاى ايفانوفيتش الى الجبهة في مينسك ، وعاشت داشا وكاتيا في المدينة عيشة هادئة منعزلة ، وكان العمل كثيرا ، وحيانا كانت تأتي من تليفين بطاقات بريدة مقنضية حزينة ، فقد حاول كما يظهر ، الهروب من الاسر ، الا انه قبض عليه ، ونقل الى قلعة . وفي احد الاوقات زار الشقيقتين رجل لطيف جدا هو النقيب روتشين الذي اوفد الى موسكو لتسلم النخوة . وكان نيقولاى ايفانوفيتش قد اخذه ذات مرة في سيارته من الاتحاد البلدى ليتناول طعام الغداء في البيت . ومنذ ذلك الحين اخذ روتشين يتردد على البيت .

كان جرس الباب الخارجى يدق عند حلول الظلام من كل مساء . ففتنهد يكاترينا ديمتريفنا على الفور تنهيدة حذرة ، وتذهب الى الصوان ، وتضع مربى في سكرجة او تشرح الليمون شرائح للشاي . ولأحظت داشا ان كاتيا حين يظهر روتشين في غرفة الطعام ، بعد ان يدق الجرس ، لا تدير رأسها اليه حالا . بل تتباطأ برهة ، ثم تطل من شفتيها ابتسامتها الرقيقة المعتادة . وكان فاديم بيتروفيتش روتشين ينحن بتحية صامتة . كان نحىلا ذا عينين داكنتين خاليتين من البهجة ، ورأس حليق متناسق . . . وكان يجلس الى المائدة متمهلا وشرع برواية الانبياء العربية . وكانت كاتيا تشرب الشاي ، وتنتظر في وجهه ، وكان يبدو من عينيها بحدقتها الواسعتين انها تصغى اليه باهتمام خاص . وحين

تلتقى عيناه بعينيها كان يظهر على وجهه عبوس خفيف ويصلصل مهازاه تحت المائدة . وحيانا يخيم على المائدة صمت طويل ، وفجأة تنهد كاتيا وتحمر ، وتبسّم عن تقصير . وينهض روتشين في نحو الساعة الحادية عشرة ويقبل يد كاتيا باحترام ويد داشا بذهول وينصرف ، راجيا الا يرافق الى الرواق . وكانت خطواته القوية تسمع وقتا طويلا في الشارع الخالى . وكانت كاتيا تسمع الاكواب وتعلق الصوان ، دون ان تنطق كلمة واحدة ، وتاوى الى غرفتها ، وتدير المفتاح في الباب .

ذات مرة كانت داشا تجلس قرب النافذة المفتوحة عند الغروب . كانت الغطاطيف تحلق عاليا فوق الشارع . واستمعت داشا الى اصواتها الرقيقة الرنانة ، وفكرت في ان يوم غد سيكون حارا صاحبا ، ما دامت الغطاطيف تحلق عاليا . انها طيور سعيدة ما دامت لا تعرف شيئا عن الحرب .

غربت الشمس ، وتلون الغبار فوق المدينة بلون ذهبي . وجلس الناس في العيش عند البوابات ومدخل البيوت . وشاعت وحشة في نفسها ، وانتظرت داشا شيئا ما وما هو اوزغن الشوارع بدأ عزفه في مكان غير بعيد مضيقا نغمة عاطفية متكررة مزمنة تعبر عن وحشة المساء . وضعت داشا مرفقها على افرين النافذة . كان صوت نسائي عال يرتفع الى سطوح البيوت نفسها مفتحا : «تغذيت على الخبز اليابس ، وشربت الماء الفارس . . .»

تقدمت كاتيا نحو مقعد داشا من الخلف ، ويبدو انها سمعت ايضا ، فقد وقفت بلا حراك .

- انها تغنى جيدا ، يا كاتيوشا .

قالت كاتيا فجأة بصوت واطى وغريب .

- لاي شىء هذا ؟ ليم قدر لنا ؟ اى ذنب ارتكبننا ؟ عندما ينتهى هذا ساصير عجوزا ، هل فهمت ؟ لا اصطبر اكثر من هذا ، لا استطيع . . .

ووقفت عند الحائط ، قرب الستارة شاحبة متقطعة الانفاس ، وقد ظهرت مضمون عند فمها ، تنظر الى داشا بعينين جافتين داكنتين . وكردت بنفوث وبعة صوت :

- لا استطيع اكثر ، لا استطيع . ان ذلك لن ينتهي ايدا . . . تموت . . . ولن تعرف الفرحة بعد الآن . . . اسمعيني حولها ؟ . . . انها تدفن احياء .

طوقت داشا اختها ، ومسدت عليها ، وارادت تهدئتها ، الا ان كاتيا رفعت كوعها حيث ارادت ان تمنحها .

دق الجرس في الرواق . ابعدت كاتيا اختها ، ونظرت الى الباب . دخل روتشين في قميص خشن من الجوخ ، وحذاء جديد مدهون . سلم على داشا ببسمة ، ومد يده الى كاتيا ، وفجأة نظر اليها بدهشة وتجهم . انصرفت داشا الى غرفة الطعام في الحال ومن هناك ، وبينما كانت تضع عدة الشاي على المائدة سمعت كاتيا تسأل روتشين بنفس الصوت الواطئ المبحوح ، ولكن يتحفظ :

- انت مسافر ؟

سعل واجاب بجفاف :

- نعم .

- غدا ؟

- لا ، بعد ساعة وربع .

- الى اين ؟

- الى الجبهة .

ويعد برهة من الصمت ، عاد يقول :

- المسألة ، يا يكاترينا دميتريفنا ، ان هذا هو لغاؤنا الاخير ، على ما يبدو ، ولهذا قررت ان اقول . . .

اسرعت كاتيا لمقاطعته :

- لا ، لا . . . انا اعرف كل شيء . . . وانت تعرف عنى . . .

- يكاترينا دميتريفنا ، انت . . .

صاحت كاتيا بصوت جنوني :

- نعم ، انت ترى بنفسك ! . . اتوسل اليك ان تنصرف . . .

ارتج الفئجان في يدي داشا . واللذان كانا في غرفة الجلوس

صمتا . واخيرا تكلمت كاتيا بصوت خافت تماما :

- اذهب ، يا قاديم بيتروفيتش . . .

- وداعا .

وزفر زفرة قصيرة . وصرف حذاءه المدهون وانصق الباب الخارجي . دخلت كاتيا غرفة الطعام ، وجلست الى المائدة وضغطت يديها على وجهها بكل قوة .

ومنذ ذلك الحين لم تذكر كاتيا الراحل بكلمة واحدة . تحملت الالم بشجاعة ، ورغم انها كانت تستيقظ صباحا وعيناها محمرتان ، وفمها منتفخ . ارسل روتشين في طريقه بطاقة بريدية - تحية للشقيقتين ، ووضعت هذه الرسالة على طوار الموقد حيث لوئها الذباب .

كانت الشقيقتان تذهبان في كل مساء الى بولفار فيفسكوى لكي تستمعا الى الموسيقى . وكانتا تجلسان على مسطبة ، وتنتظران الى الفتيات والصبايا يتزهن تحت الاشجار في اثواب بيضاء ووردية ، وكان في البولفار كثرة من النساء والاطفال ، ونادرا ما يمر عسكري مرفوع الذراع في ضمادة ، او مشوه حرب على عكازة . وكان فرقة من الآلات النحاسية تعزف فالس «على تلال منشوريا» . وكان صوت الابراق حزينا يتعالى في السماء المسائية . وكانت داشا تمسك يد كاتيا الضعيفة النحيلة ، وتقول وهي تنظر الى ضوء الغروب المتسرب من بين الاغصان :

- كاتيوشا ، كاتيوشا ، اتذكرين :

ايه يا حبي الذي لم يتكلم ،

في قلبي يبرد الحنان . . .

اعتقد اننا لو نتجمل بالشجاعة ، فسنثري الوقت الذي يتاح لنا فيه ان نحب ، دون عذاب . . . لاننا نعرف الآن ان الحب اسمى شيء في الدنيا . انا اتصور احيانا ان ايفان ايليتش سيأتي من الاسر وسيكون مختلفا جدا ، جديدا كل الجدة . انا الآن احبه بيني وبين نفسي ، بالخيال . وسنلتقي وكان احدنا قد احب الآخر في حياة اخرى غير هذه الحياة .

قالت يكاترينا دميتريفنا ، وقد مالت الى كتفها :

- اما انا ، يا عزيزتي داشا ، فان قلبي قد شاح لما فيه من الحرارة والعتمة . سترين انت اوقاتا سعيدة ، اما انا فلن ارى . . . ذبلت كالزهرة العقيمة .

والسقيم ، وخيل اليها فجأة وبصفاء ادار رأسها انها ترى هذا الرجل لأول مرة .

قال بيسونوف مغضنا وجهه :

- فكرت طويلا فيما جرى في القرم واود ان اتحدث معك -
ودس يده ببطء في جيب سترته الجانبي ليخرج عبلة السيكاتر -
اود ان ابذل بعض الانطباعات غير الحسنة . . .
قلصت داشا عينيها ، لم تجد اى اثر للسحر في هذا الوجه الكريه . فقالت بتصميم :

- احسب ان ليس بيتنا ما نتحدث عنه - . واتساحت عنه .
- مع السلامة ، يا الكسى الكسييفتش .

تسوه وجه بيسونوف ببسمة موعجة ، ورفع قبعته ، وانصرف . نظرت داشا الى ظهره الواهن ، والى بنطاله العريض جدا وكأنه يوشك ان يسقط على حذائه الثقيل الطويل المترب .
امن المعقول ان هذا المخلوق هو بيسونوف حلم لياليتها المسهدة ؟
- كاتوشا ، وانتظريني قليلا .

قالت بعجالة ، وركضت وراء بيسونوف الذى استدار في ممر جانبي . لحقت به لاهثة الانفاس ، وامسكته من كفه . توقفت ، واستدار ، وانسبل فجناه على عينيته الشبيهتين بعيني طائر مريض .
- الكسى الكسييفتش ، لا تقضب منى .

- لست غاضبا ، بل انت لم تريدى ان تتحدثى معى .
- لا ، لا . . . انت لم تفهمنى على الوجه الصحيح . . . انا اتدرك كثيرا ، وارجسوك كل خير . . . ولكن لا داعى لتذكر ما فات . . . لا شئ يبقى من الماضى . . . انا اشعر بالذنب واحس بالاشفاق عليك . . .

هرز كتفيه ، ونظر من خلال داشا الى السائبة ببسمة ساخرة .
- اشكرك على الاشفاق .

تهدت داشا ، فلو كان بيسونوف غلاما صغيرا لأخذته الى بيتها ، وغسلته بماء دافئ ، واطعمته حلوى . ولكن ماذا تفعل مع هذا الرجل وهو الذى خلق له ما يؤلمه ويعذبه ويكدره .

- اكتب لى كل يوم ، اذا اردت ، يا الكسى الكسييفتش ، وسارد عليك .

- من العيب ان تقول ذلك ، يا كاتوشا .

- لا ، يا فتاتى ، يجب ان اتحل بالشجاعة .

وذات مساء من تلك الامسية على المسطبة جلس عسكري على الطرف الاخر منها . وكانت الفرقة الموسيقية تعزف فالسما قديما ، وكانت اضواء المصابيح ترسل ضوء شاحبسا من خلال الاشجار . وكان جارهما على المسطبة يتفرس فيها بشهدة حتى ان داشا احست بتوتر في رقبته . التفتت ، وندت منها « لا ! » فجائية مذعورة خفيفة .

كان بيسونوف يجلس الى جانبيه نحيفا رث المظهر في ستره عسكرية متهدلة كالكبس وقبعة عليها صليب احمر . نهض وسلم صامتا ، قالت داشا «مرحبا» ، واطبقت شففتها . دفعت يكاترينسا دميترييفنا بجسها الى ظهر المسطبة ، محتمة بظل قبة داشا ، وانغمضت عينيها . كان بيسونوف رماديا اللون وكانه مسربل بالبخار ، او انه لم يغتسل .

قال لداشا رافعا حاجبيه :

- رأيتك في البولفار يوم امس واول امس ولكننى ترددت في التقدم منك . . . انا ذاهب لاقائل . انهم وصلوا الى ايضا .
قالت داشا بعصبية مباغتة :

- كيف تذهب لتعارب ، وانت في الصليب الاحمر ؟

- لنفرض ان الخطر قليل نسبيا ، بالطبع . ولكن سواء لى ان اقتل او اتجر ، لا ابالي تماما . . . الحياة مضجرة تماما ؛ يا داريا دميترييفنا - ورفع رأسه ، ورمق شففتها بنظرة كابية - مضجرة من كل هذه الجثث ، ولا شئ غير الجثث . . .

سالت كاتيا دون ان تفتح عينيها :

- هل انت ضجر من هذا ؟

- نعم ، ضجر جدا ، يكاترينا دميترييفنا . في الماضى كان ثمة شئ من الامل . . . ولكن ، بعد هذه الجثث والجثث خيم ليل ابدى . . . جثث ، ودم وفوضى . هكذا . . . يا داريا دميترييفنا ، واذا اردت الحقيقة ، فقد جلست اليك راجيا توضيحية نصف ساعة من الوقت لى .

- ولاى شئ ؟ - سالت داشا ، ونظرت في وجهه الغريب

قالت له ، ونظرت في وجهه بأكثر ما يمكن من الطيبة . دفع رأسه الى الورا ، وضحك ضحكة باردة .

- شكرا ... ولكن بي نفسور من الورق والحبر ... -
وتغضن وكانا ابتلع شيئا حامضا- اما انت قديسة ، يا داريا دميترييفنا واما معوية ... انت غذاب الجحيم انزل على ، وانا حتى ، هل فهمت ؟

وجاهه لينصرف ، ولكن بدا وكأنه لا يستطيع ان ينتزع قدميه . وقفت داشا مطرقة الرأس ، فقد كانت تحسن بالرائ ، ولكن قلبها بارد . نظر بيسونوف الى جيدها المعنى والى نهدها الرقيق الفتى البادى من فتحة الفستان الابيض ، وفكر بأن هذه هي النهاية ، الموت .
- كوني رحيمة .

قال بصوت بسيط خفيض انساني . همست على الفور دون ان ترفع رأسها : «نعم ، نعم» وسارت بين الأشجار . وللمرة الأخيرة بحث بيسونوف بصره عن رأسها الأشقر الشعر بين حشد الناس . لم تبه منها الفتاة ، وضخ يده على شجرة ، تشبث باصابعه بقشرتها الخضراء . فان الأرض ، ملجأه الأخير ، ماتت من تحت قدميه .

٢٦

كان القمر يتدلى مثل كرة شاحبة فوق مستنقعات الخث المقفرة . وكان الضباب يتلوى فوق الخنادق المهجورة . وفي كل مكان قرم اشجار مقطوعة ، وهنا وهناك تلوح اشجار صنوبر قصيرة وفي الجو رطوبة وسكون . وصف من عربات الاسعاف يسير على درب ضيق مرصوف بجذوع الشجر . وخط الجبهة لا يبعد غير ما يقرب من ثلاثة قراسخ وراء حدود الغابة المستنقة ، ولا صوت يترامى من هناك .

في احدى هذه العربات كان بيسونوف منظرها على القش ، مغطى بكسوة حصان مشبعة برائحة . كانت الحمى تتناوب كل مساء مع غروب الشمس ، وتصطك اسنانه من القشعريرة ، وكان يبدو ان جسده يجف وتمر في ذهنه افكار صافية خفيفة ملوثة

كفوران بارد . كان ذلك احساسا بهيجا يفقدان الوزن الجسدى . سحب الكسوة الى ذقنه ونظر الى السماء المعتمة المحيومة . هذه هي نهاية الطريق على الارض . الظلمة ، وضوء القمر ، والعربة المتأرجحة كالمهد . وهكذا بعد ان تكتمل حلقة القرون تعود عجلات السكيتيين الى الدوران والصرير . ولكن كل الاشياء لم تكن الا احلاما : اضواء بطرسبورغ ، الابهة الحادة لمبانيها ، والموسيقى في صالاتها الدافئة المتألقة ، وفنتة ستارة المسرحية وهي ترتفع ، وسحر الليالي الثلجية ، واذرع النساء المطروحة على الوسائد ، والحدائق الداكنة المجنونة ... إشارات الشهرة ... سكرة المجد ... الضوء الهادئ في المكتب ، القلب الخافق حماسا ، النشوة التي يبعثها خلق الكلمات ... الفتاة ذات الزهور الاصطناعية البيضاء التي قبعتها ، مندفعة من الرواق البيضاء الى غرفته الظلمة الى حياته ... كل ذلك مجرد احلام ... والعربة تهتز ... والى جنبها يسير فلاح بقبعة منكسة على عينيه . الفان من السنين وهو يسير جنب العربة ... ذلك هو امتداد الزمن اللانهائي المكشوف في ضوء القمر الكايبى ... ومن ظلام القرون تتحرك الظلال . ويتعالى صريف العربات ، وتشقق العالم عجلاتها السود . وهناك ، في الضباب الشاحب مداخن مواقد ناتئة ، وادخنة الحرائق تتعالى الى السماء ، وصرير العجلات وقعقتها . ويرتفع الصريف والقعقة اكثر ، ويزداد اتساعا ، والسماء كلها مملوءة بهدير صاعق يمزق النفس ...

توقفت العربة فجأة . ومن خلال الهدير الذي يملأ الليل الشاحب تبلغ السمع اصوات السواقين المنعورة . رفع بيسونوف جسمه قليلا . فراه في ضوء القمر عمودا طويلا متلألئ الحوافي يعوم على ارتفاع واطل فوق الغابة ، ويستدير ويلتحم ، ويهدر يزيل محركات ، ويخرج من يطنه شعاع من الضوء ابيض نحيل ميال الى الزرقة . ويندفع فوق المستنقعات ، فوق قرم الاشجار ، فوق الاشجار المطروحة ، فوق شجيرات الشوح ، ويستقر على الطريق العامة ، على العربات .

وترامت من خلال الطنين اصوات ضعيفة مثل ضربات سريعة على بندول الايقاع ... وتناثر الناس من العربات . انحرقت عربة

اسعاف ذات عجلتين نحو المستنقع ، وانقلبت . . . وفي اللحظة التالية توجهت حزمة باهرة من الضوء على الطريق على بعد مائة خطوة من بيسونوف وارتفع حصان وعربية في الهواء مثل كتلة سوداء ، وتساعد عمود هائل من الدخان وانقلب طابور العربات كله في زوبعة من الهدير . عدت الخيول في المستنقع ساحبة وراءها الاجزاء الامامية من العربات ، وتراكم الناس . وانفذت العربية التي يرقد بيسونوف عليها ، وهوت ، وتدرج بيسونوف على منحدر الطريق الى الحفرة ، وانهد كيس ثقيل على ظهره ، غمره القش .

القى المنطاد الالمانى قنبلة ثانية ، ثم اخذ دوى محركه يتعد ، وتلاشى . عندئذ بدأ بيسونوف يزعج القش من فوقه مترجعا ، ونخرج بجهد من تحت الامتعة التي وقعت عليه ، ونفض نفسه وصعد الى الطريق . فرأى بعض العربات ترقف بجانبها وقد فقدت انصافها الامامية . وكان احد الخيول يتقدم في المستنقع مع عريش عربته ، وراسه ملقى الى الوراء ، يسحب رجله الخلفية آليا .

تحسس بيسونوف وجهه وراسه . مست اصابعه بقعة لزجة عند اذنه . وضع منديله على الخدوش ، وسار على الطريق نحو الغابة . كانت ساقا ترتجفان بشدة من الخوف والسقطلة ، فاضطر بعد بضع خطوات ان يجلس على كومة من الحجارة الغليظة . اراد ان يشرب جرعات من الكونياك إلا ان القارورة بقيت مع الامتعة في الحفرة . اخرج بيسونوف الغليون وعلبة الكبريت من جيبه بصعوبة ، وشرع يندخن . كان دخان التبغ مرا وكريها . ثم تذكر الحصى ، ان حالته سيئة ، ويجب ، مهما يكن من شيء ، ان يصل الى الغابة ، فقد قيل له ان البطارية تسكر هناك . نهض بيسونوف الا ان رجليه لم تطاوعا قط ، وكأنهما من خشب ، ولا تكاد تتحركان اسفل بطنه . فقدت ثانية على الارض ، واخذ يذلكنهما ويدهما ، ويقرصهما ، حتى اذا احس بالالم يسرى فيهما فهنض وسار . كان القمر عاليا الآن والطريق يتلوى في الظلمة عيسر المستنقعات المقفرة حتى يبدو بلا نهاية . وضع بيسونوف يديه على قفوه ، وترنح رافعا ومجرعا لذلك الثقلين بصعوبة ، مخاطب نفسه :

«جرجر نفسك ، جرجر حتى تسحقك العجلات . . . نظمت اشعارا ، واغويت حقاوات . . . والان قذفوك . . . جرجر نفسك في اتجاه الافول حتى تنهار . . . يمكن ان تحتسج ، تفضل احتسج ، وازعق . . . حاول ، حاول ، امرخ بافطع ما تستطيع ، اعول . . .»

والثفت بيسونوف فجأة . انزلق ظل رمادي من الطريق الى الأسفل . . . فسبرت البرودة في ظهره . ابتسم بتهمك ، ورفع صوته بعبارات متقطعة لا معنى لها ، وسار في وسط الطريق . . . ثم القى نظرة حذرة الى الخلف ورأى في الواقع ان كلبا كبير الراس طويل القوائم كان يتبعه على بعد خمسين خطوة ورائه .

— الشيطان يعرف ما هذا !

غمغم بيسونوف ، واسرع في سيره ، ثم القى نظرة اخرى عبر كتفه . كان هناك خمسة كلاب تسير خلفه في صف واحد ، منكسة الابواب ، رمادية ، مرتخية المؤخرات . قذفها بيسونوف بحجر قاتل :

— سماضربكم . . . ابعدا عنى ، ياقدارة . . .

انحدرت الوحوش الى اسفل ، الى المستنقع صامتة . جمع بيسونوف بعض الحجارة ، واخذ يتوقف بين الحين والاخر ويقذفها . . . ثم واصل سيره ، وصغر ، وصاح «هاى ، هاى . . .» خرجت الوحوش من اسفل الطريق وسارت ورائه ثانية . بدأت شجيرات شوح صغيرة تظهر على جانبي الطريق . ثم ان بيسونوف لمح امامه ، عند المنعطف ، شبح شخص توقف متفرسا ، وبعد ذلك تراجع في ظل شجيرات الشوح .

همس بيسونوف «اللعنة !» واختفى في الظل ايضا ، ووقف طويلا محاولا السيطرة على خفقات قلبه ، توقفت الوحوش ايضا غير بعيد ، وجثم اولها واضعا يوزه على قائمته الاماميتين . ولم يتحرك الشخص الذي في الامام . رآى بيسونوف بوضوح شديدا غمامة طويلة بيضاء كالنقاب تبرقع وجه القمر . ثم صدر صوت وانغرز في دماغه كالابرة ، هو صوت انسحاق عصب تحت قدم ، هي قدم ذلك الشخص بالتأكيد . طلع بيسونوف سريعا الى وسط الطريق ، وسار شادا على قبضتيه بجنون . واخيرا رآه الى

اليمين . كان جنديا مديد القامة ، محدوديا يلقي معطفه على كتفيه ، وكان وجهه بلا حاجبين ، يحاكي وجوه الموتى ، رماديا ، وقمه نصف مفتوح ، صرخ بيسونوف :

- اى ، من اى فوج انت ؟

- من البطارية الثانية .

- اوصلنى الى البطارية .

صمت الجندى ، ولم يبد حركة ، ونظـر الى بيسونوف نظرة كدره ، ثم اذار راسه الى اليسار :

- ما هذه ؟

اجاب بيسونوف نافذ الصبر : كلاب .

- لا ، ليست هذه كلابا .

- لنذهب ، اسرع ، اوصلنى .

قال الجندى رافعا صوته :

- لا ، لا اذهب .

- اسمع ، انا مصاب بحمى ، ارجوك ، اوصلنى ، وساعطيك

نقودا .

قال الجندى رافعا صوته :

- لا ، لن اذهب الى هناك . انا هارب .

- يا احق ، انهم سيقبضون عليك ، على اية حال .

- كل شئ جائز .

لقى بيسونوف نظرة جانبية عبر كتفه فلم ير الوحوش فلعلها

اخذت بين اشجار الشوح .

- وهل البطارية بعيدة ؟

لم يجب الجندى . استدار بيسونوف ليذهب ، الا ان الجندى

قبض على مرفقه بقبضة قوية كالعماشة .

- لا ، لا ادعك تذهب الى هناك . . .

- اترك يدى .

- لن اتركها ! - ونظر الجندى فى ناحية فوق اشجار

الشوح ، دون ان يترك ذراع بيسونوف - منذ يومين وانا لم

اتناول طعاما . . . قبل حين كنت غافيا فى الاخود ، وسمعتهم

قادمين . . . قلت لنفسى انهم رجال وحدتى . وبقيت مستلقيا .

انهم كثر يسرون على الطريق على ايقاع واحد . فما هى الحكاية ؟ ونظرت من الاخود . فاذا هم يسرون مكثتين فى خط لا نهاية له . . . كالضباب . . .

صاح بيسونوف بصوت وحشى ، وهو يحاول فك ذراعه :

- ما هذا الذى تقوله لى ؟

- ما قلت الا الصدق ، فصدقتى ، ايها الوعد .

انتزع بيسونوف ذراعه ، وركض وكأنه يركض على رجلين

قطنيتين ، لا على رجليه الاصليتين . وتبعه الجندى يطالب

بحدائه الثقيل لهاثا وامسكه من كتفه . وقع بيسونوف ،

وغطى رقبته وراسه بيديه . انهد الجندى عليه آزا

بانفه وانشب اصابعه القاسية فى حلقومه ، وضغط . وبعد ذلك

جمد وهمد .

همس الجندى من خلال اسنانه بذلك :

- اذن ، هذا انت !

عندما سرت رعشة طويلة فى جسد المطروح ، استمال

الجسد ، وارتخى ، وكأنما تسطح على التراب . عندئذ فك الجندى

قبضته ، ونهض ، وتناول طاقيته . وسار فى الطريق ، دون ان

يلتفت الى ما صنعت يده . ترنح ، وهز راسه ، وجلس ممددا

ساقيه على منحدر الاخود .

وقال الجندى لنفسه :

- ما العمل الآن ؟ الى اين ؟ اوه ، يا منيتى ! تعالوا ،

والتهمونى ، يا اوغاد . . .

٢٧

حاول ايفان ايليتش تليغين ان يهرب من معسكر الاعتقال ،

الا انه قبض عليه ونقل الى قلعة ، وحبس حبسا انفراديا . وفى

القلعة راح يخطط لهروب ثان ، وفى غضون ستة اسابيع انشغل

فى قطع قضبان النافذة . وفى اواسط الصيف اخليت القلعة بشكل

مفاجئ ، وارسل تليغين الى مكان يسمى «الجب العفن» كنوع من

العقاب الاضافى . وكانت هذه مكانا رهيبا يتكرب النفس هو عبارة

عن أربعة عنابر طويلة مطاطة بأسلاك شائكة مقامة في منخفض واسع وسط حقل للمحج النباتي . وعلى مسافة بعيدة في اسفل التلال ، حيث كانت ترتفع مداخن آجرية ، كان يبدأ خط حديدي ضيق صدى ممتدا عبر المستنقع كله ، ينتهي على مقربة من العنابر ، عند حفرة عميقة ، كانت موقعا للعمل في العام الماضي حيث هلك اكثر من خمسة آلاف جندي روسي بالتيفوس والدوسنتاريا . وفي الجانب الآخر من المنبسط البني الاصفر كانت ترتفع جبال الكربات بسلسلتها السنننة . والى الشمال من العنابر ، في اعماق المستنقع كان يلوح للعين عدد كبير من الصليبان الصنوبرية . وفي الأيام الحارة كانت انفاس التبخر تتصاعد فوق المنبسط ، ويطن ذباب الخيل ، وتندل الشمس حمراء مغبسة ناشرة التفسخ في هذا المكان المركب .

كانت الاعاشة هنا صارمة ، والطعام قليلا . وكان نصف السجناء هنا مصابين بامراض المعدة والحصى ، والتقيحات ، والطفح الجلدي . ومع ذلك فان معنوية السجناء مرتفعة : فقد كان الجنرال بروسيلوف يتقدم بمعارك قوية ، والفرنسيون يدحرون الالمان في شمبانيا وعند فيردون ، والاتراك يغلون شبه جزيرة البلقان . وكانت نهاية الحرب تبدو الآن قريبة قريبا حقيقيا .

الا ان الصيف انقضى ، وبدأت الامطار ، والجنرال بروسيلوف لم يستول على كراكوفيا ، ولا على لفوف ، ومدات المعارك الدامية في الجبهة الفرنسية واخذت دول الحلف الثلاثي ودول الوفاق تلتق جراحا . وكان واضحا ان نهاية الحرب قد تاجلت الى الخريف المقبل .

عندئذ بدأ الياس يبدب في «الجب العفن» . وكف فيسكو بونينيكوف ، جار تليغين ، عن العلاقة والانغمسال فجأة . وصار يقضى اياما كاملة مستلقيا على سريره غير المرتب ، لا يرد على سؤال . واحيانا كان ينهض قليلا مكشرا عن اثنابه ، ويحك جسمه بانظاره في كراهية ، وكانت بعض القرع الوردية تظهر تارة على جسمه ثم تختفي . وذات ليلة ابتغل ايفان ايليتش ، وقال له بصوت كالمذ :

- تليغين ، هل انت متزوج ؟

- لا .

- اما انا فلي زوجة وابنة في تغير . يجب ان تزورها !

- كفى ، نم .

- سانام نوما عميقا ، يا اخ .

وفي الصباح الباكر ، عند تعداد السجناء لم يرد فيسكو بونينيكوف على اسمه . ووجدوه في المرحاض مشنوقا بحزام رفيع . واضطرب العنبر كله وتزاحم السجناء بالقرب من جثته المطروحة على الأرض . كان الصباح يضيء وجهه المجزع بالدم مفعم بالكراميه ، وثار العك على صدره تحت القمص المنزق . كان ضوء الصباح كدرا بدت فيه وجوه الاحياء المنحنية على الجنة منتفخة ، صفراء ، مشوعة . التفت احد السجناء ، وهو المقدم ميلشين ، نحو ظلام العنبر ، وقال بصوت عال :

- وهل سنظل ساكنين يارفاق ؟

وسرت دمنمة مخنوقة في الجمع ، وعلى الأسرة . انصفق الباب ، وظهر ضابط نسماوى ، هو آمر المعسكر ، وانشقت الجمع يفسح له الطريق الى الجنة الهامدة ، واذا باصوات عالية ترتفع :

- لن نسكت !

- عذبا الرجل !

- هذا دايم !

- انا اتعفن حيا !

- لسنا مجرمين .

- كان يجب ان نضربكم اكثر يا اوغاد . . .

وقف الأمر على اطراف اصابعه وصرخ :

- سمكت اكل في مكانه ! خنازير روس !

- ماذا ؟ . . . خنازير روس ؟!

- نحن خنازير روس ؟!

وفي الحال اندفع نحو الأمر رجل ركين له لحية منفوشة هو النقيب جوكوف . دفع بابهامه الى وجه الضابط النسماوى ، وصاح بصوت مختلج مشيرا اشارة فاحشة .

- يا ابن الكلبة ، هل رأيتك ؟

وهز رأسه الاشمع ، وامسك الأمر من كتفيه وهزه بضراوة ،
وطرحه ارضا ، وانطرح عليه .

وصمدت الضباط الذين احاطوا بالمصارعين بدائرة متماسكة .
ولكن سرعان ما تردد صوت خطوات الجنود المتراضين على
الارواح ، وصرخ الأمر «النجدة» عندئذ نحي تليفين رفاقه قائلا :
«لقد جن ، وسيخنقه » وامسك جوكونف من كتفيه ، وابعدته عن
النمساوي . وصرخ الأمر بالالمانية : «انت وغدا» . كان جوكونف
لاهتا . قال بصوت خافت «اتركني ، وسأريه ، هذا الخنزير» .
الا ان الأمر قد نهض ، ولبس طاقيته المجددة ، والتي نظرة متفرسة
سريعة على وجه جوكونف ، وتليفين ، وميلشبن ، واثنين او
ثلاثة آخرين واقفين بالقرب منهم ، وكانوا يريد ان يحفظهم في
ذاكرته ، وسار خارجا من العنبر متصللا بمهازه بقوة . وقفل
الباب في الحال ، ووضع الحراس عند المدخل .

في ذلك الصباح لم يجر تعداد ، ولم يرتفع صوت طبل ،
ولم توزع قهوة البلوط . وقبيل الظهر دخل جنود الى العنبر
ومعهم نقالة ، وحملوا جثة فيسكوبوينيكوف . واغلق الباب مرة
اخرى . وتفرق السجناء الى الأسرة ، واضطلع الكثيرون منهم .
وران هدوء كل على العنبر ، وكان الأمر واضحا : تعرد ، ومحاولة
قتل ، ومحاكمة عسكرية .

بدأ ايفان ايليتش ذلك اليوم ، على عادته ، غير مخالف أية
قاعدة من القواعد التي وضعها لنفسه ، والذي ظل يراعيها تمام
المراعاة منذ أكثر من عام : في الساعة السادسة شخ ماء بنى اللون
في جردل ، وبلبل جسده ، وذلك وقام بالهائة تمرين وتمارين من
التمارين الرياضية حارضا على ان تطلق عضلاته ، وليس ثيابه ،
وحلق وجهه ، ولأن القهوة لم توزع اليوم جلس ، على الرقيق ،
يدرس النحو الالمانى .

كانت العطالة الجسدية اصعب الاشياء في الأسر واكثرها
تهديما . وقد ضعفت الكثيرين . كان احدهم يعمد فجأة الى بودة
وجهه وتزيين عينيه وحاجبيه ، ويظل يتهامس اباما كاملة مع شاب
مبودر مثله ، وكان آخر يتحاشى رفاقه ، ويتهافت على السرير
ساجدا بطانيته المهلهلة من رأسه ، لا يغتسل ولا يحلق ، ويأخذ

ثالث باستعمال فاحش الكلام ويزعج الجميع بحكايات غريبة ،
ويشهى اخيرا الى القيام بفعل تبقيع جدا حتى ينقل الى مستشفى
المعسكر .

وكانت الصرامة هي الغلاص الوحيد من هذا كله . انقلب
تليفين خلال فترة الأسر ميالا الى الصمت ، وقد جف جسده الذي
كان مدرعا بالضلات ، وصار خادا في حركاته ، واكتسبت عيناه
لعنا باردا عنودا ، وفي لحظة الحنق والتصميم تصيران
مرعبتين .

اليوم كرت تليفين بعناية اشد من المعتاد الكلمات الالمانية
التي سجلها بالأمس ، وفتح كتاب شبيلهافين المثوى . جاء
جوكونف وقعد على حافة سريريه ، ولم يلتفت تليفين اليه ، واستمر
يقرا بصوت واطي . زفر جوكونف وقال :

- يا ايفان ايليتش ، اريد ان اقول في المحكمة انني مجنون .
نظر تليفين اليه بسرعة . كان وجهه جوكونف العريض
الأنف ، الأجدد اللحية ، ذو الشفتين الناعمتين الدافنتين الظاهرتين
من خلال شاربيه الكئيب ، مطرقا يبدو عليه الذنب ، وكانست
وموشه الفاتحة ترمش باستمرار .

- لا اعرف ما الذي وسوس لي لأشير له اشارتي الفاحشة
تلك ، انا نفسي لا ادري الآن ماذا كنت اريد ان اثبت له . انا
ادرك ، يا ايفان ايليتش ، انني مذنب ، بالطبع . . . اندفعت ،
وورطت رفاقي . . . هذا ما عزمته عليه : اقول انني مجنون . . .
هل توافقتي ؟

اجاب ايفان ايليتش ، معلما باصبعه على المكان الذي وصل
اليه من الكتاب .

- اسمع ، يا جوكونف ، سيرمون عددا منا بالتأكيد . . .

اتعرف هذا ؟

- نعم ، افهم .

- اذن ، اليس من الاحسن ألا تتباله في المحكمة ؟

ما رأيك ؟ . . .

- انت على حق ، بالطبع .

- لن يلومك احد من رفاقك . . . سوى ان المتعة في ضرب يوز تمساوي غالبية الزمن جدا .

- وحالتى انا مؤلمة جدا لاننى عرضت رفاقى الى المحاكمة ! - وهز جوكوف راسه المنقوش الضعف- ليت اولئك الاوغاد يقضون على وحدى .

وظل يتحدث على هذا الجنوال وقتنا طويلا ، الا ان تليفين لم يعد يصغى اليه ، وواصل قراءته لكتاب شبيلهاغين ، ثم نهض ، وتمطى ، ومرفقا بعضلاته . وفى تلك اللحظة انفتح الباب الخارجى بعنف ، ودخل اربعة جنود شاكين الحراب في بنادقهم ، ووقفوا على جانبي الباب ، وتمتعوا بترابيس البنادق ، ودخل الرقيب الاول ، وهو رجل عبوس معصوب العين اجال بصره في العنبر ، وصرخ بصوت ضار لا رنة فيه :

- التقيب جوكوف ، المقدم ميليشين ، الملازم الثانى تليفين . . .

خرج المدعوون ، وحقد الرقيب الاول في كل واحد منهم بعناية ، واحاط الجنود بهم ، اقتيدوا من العنبر عبر الفناء الى بيت خشبى صغير هو بيت الامر . وكانت تغف هناك سيارة عسكرية قد وصلت قبل حين . وازيحت الاسلاك العائقة التى تسد الطريق الى خارج المعسكر . وكان احد الحراس واقفا بلا حراك عند كتفك مخطط . وفى داخل السيارة جلس السائق ، وهو صبى ذو عينين منفوختين بعض الشيء ، مائلا على ظهر مقعده امام الدفة . لكر تليفين بكوعه ميليشين الذى كان يسير الى جانبه .

- هل تعرف سياقة سيارة ؟

- اعرف ، ولكن لماذا ؟

- اسكت .

ادخلوا الى مكتب الامر . كان ثلاثة ضباط تمساوين جدد يجلسون الى طاولة من خشب الصنوبر مغطاة بورق نشاف وردى اللون . وكان احدهم ، وهو رجل مزرق الوجه من الحلاقة ، تطلع على خديه الممتلئين بقع حمره ، يدخن سيجاراه . وقد لاحظ تليفين انه لم يرفع بصره الى الداخلين . وكانت يده مستقرتين على الطاولة واصابعه السميكه المشعرة متشابكة ،

وعينه متقلصة بسبب دخان السيفار ، وياقته تضغط على رقبته . وفكر تليفين : «ان هذا اتخذ قراره مع نفسه» .

وكان الحاكم الآخر ، الذى يراس المحكمة ، رجلا عجوزا اعرج ذا وجه مستطيل كئيب قليل الغضون النظيفه ، له شاربان اشبيان كثان . وكان احد حاجبيه مرفوعا بنظارة من عدسة واحدة . امعن نظره في المتهمين ، وحوال الى تليفين عينه الرمادية التى بدت كبيرة من وراء العدسة . كانت عيناه صافية ذكية تنم عن رقة . واختلج شارباه .

فكر ايفان ايليتش مع نفسه : «في منتهى السوء» ونظر الى الحاكم الثالث الذى كان يضع امامه نظارة ذات اطار من قوقعة السلحفاة وورقة صغيرة مكتوبة بخط دقيق . كان رجلا قصيرا ممتلئا ، بشرته صفراء مشربة بلون رمادى ، وشعره خشن مسرح تسريحة قصيرة ، واذناه كبيرتان . وكان واضحا من كل شىء انه واحد من العسكريين الفاشلين .

حين صف المتهمون امام الطاولة لبس هذا نظارته المستديرة بحركة بطيئة . وهرر كفه الجافة على ورقة مكتوبة ، وبدا فجأة يقرأ قرار الاتهام كاشفا عن اسنان صناعية صفراء .

كان الامر المعتدى عليه يجلس الى ناحية من الطاولة عاقدا حاجبيه ، ضامًا شفثيه . ركز تليفين انتباهه ليتابع كلمات الاتهام ، الا ان فكره ، رغم ارادته ، كان يعمل بجدة وداب في اتجاه آخر .

« . . . عندما ادخلت جثة المنتحر الى العنبر استغل بعض الروس هذه الحادثة لتحريض رفاقهم على العصيان المكشوف للسلطة ، واخذوا يهتفون بشتائم وتعابير فاحشة هازين قبضاتهم مهددين . وكان المقدم ميليشين ، مثلا يحسب بيده مطوارة مفتوحة . . . »

شاهد ايفان ايليتش عبر النافذة الصبى السائق يدير اصبعه في انفه ، ثم انقلب على جنبه في مقعده ، ودفع على وجهه قبعته الضخمة ، تقدم جنديان قصيران من السيارة ، وقد القيا على كتفهما معطفين ازرقيين ، ووقفا يتطلعان . قرص احدهما ، ومس اطار العجلة باصبعه ثم استدار الاثنان - فقد دخلت عربة المطبخ الى الفناء ، والدخان يتصاعد من مدخنته بوداعة ،

واستدارت نحو العنابر ، حيث اتجه الجنديان أيضا بتكاسل ، لم يرفع السائق رأسه ، ولم يلتفت ، فلعله قد غفا . عرض تليغين على شفقيته من نفاذ الصبر ، وعاد يصفى الى صوت المدعى الضارف : « . . . النقيب جوكونف المشار اليه سابقا اظهر للسيد الأمر خصص اصابع مطوية مهددا حياته عن عمد طاهر وسبق اصرار ، بالإضافة الى ان الاتهام كان بارزا بين السبابة والوسطى ، وحسب اشارة مقبولة كانت تهدف ، في الظاهر ، الى تحقير شرف البزة الملكية الامبراطورية . . . »

وبعد هذه الكلمات نهض الأمر ، وبدا ، وقد تبقع وجهه بقع حمراء ، يشرح للحاكمين بالتفصيل حكاية اصابع النقيب غير المفهومة كثيرا ، بينما اصغى جوكونف نفسه ، وكان قليلا بالالمام بالالمانية ، بكل ما لديه من قدرة ، وحاول ان يدس كلمة واحدة ، والتفت الى رفاقه بتسامة تقصير طبية ، ولم يضبط نفسه ، فتكلم بالروسية مخاطبا المدعى :

— يا حضرة العقيد ، اسمح لي بالتنبؤ — انا اقول له لم هذا التعامل علينا ، لم ؟ انا لا اعرف التعبير بالالمانية ، لذلك اظهرت له باصابعي .

قال ايفان ايليتش من خلال استنائه :

— جوكونف ، اسكت .

نقر رئيس المحكمة بالقلم . تابع المدعى مطالعته ، وصف العقيد كيف وبأى موضع أمسك جوكونف بالأمر و«طرحه ارضا وضغط بايديها يديه على قرقمه ، بقية التسبب في موته» وانتقل الى اخرج نقطة في الاتهام : « . . . كان الروس يتدافعهم وصباحهم يهرضون القاتل على القتل . فان احدهم ، وهو اللازم الثانى المتراكمين ، وابتعد جوكونف ولثانية واحدة فقط كانت بين الحياة والموت المحتم لحضرة الأمر» . وهنا توقف المدعى ، وابتسم راضيا عن نفسه — «ولكن في تلك اللحظة ظهر الخراف من مراتب اوطن ، فلم يستطع اللازم الثانى تليغين الا ان يصرخ بضحيته : «يا وغد» .

واعقب ذلك تحليل سيكولوجي متمق تصرف تليغين «الذي

حاول ، كما هو معروف ، الهروب مرتين من الأمر . . . » ووجه العقيد اتهامها قاطعا لكل من تليغين وجوكونف وميليشين الذى كان يحرض على القتل ملوحا بالبطولة ، ولتشديد قوة الاتهام عمد الى تبرئة ايفانوف واوبيكو «اللذين وقعا تحت تأثير حالة الهيجان» . بعد نهاية المطالعة اكد الأمر ان ذلك كله وقع طبق الصورة العروية تماما ، واستجوب الجنود فذكروا ان المتهمين الثلاثة الأوائل مذنبون فعلا ، ولم يعرفوا شيئا عن المتهمين الآخرين . فرك رئيس المحكمة يديه التحقيقتين ، واقترح اسقاط التهمة على ايفانوف واوبيكو بسبب عدم توفر الأدلة . هن الضابط الاحمر الوجه رأسه بعد ان دخن السيفار حتى وصل الى شفقيته . ووافق المدعى ايضا بعد شئ من التردد . عندئذ تنكب اثنان من الحرس السلاح . وقال تليغين « . . . داغا يا رفاق» ، نكس ايفانوف رأسه ، وصمت اوبيكو ونظر الى ايفان ايليتش بنعز .

الخروج المبزآن ، واعطى رئيس المحكمة الكلام بمتهمين .

سأل تليغين :

— هل تعتبر نفسك مذنباً في التحريض على التمرد ، وفي الاعتداء على حياة أمر المعسكر ؟

— لا .

— وماذا تريد ان تقول بالذات في هذا الخصوص ؟

— الاتهام مخلتق من الفه الى يائه .

وتب الأمر مسعورا طالبا الاضاح . فاقفه الرئيس باشارة .

— اليس لك ما تضيفه الى افادتك هذه ؟

— لا .

ابتعد تليغين عن الطاولة ، ونفّس في جوكونف ، فاحمر هذا ، ونخ من فمه ، واعاد في اجابته عن الاسئلة ما صرح به تليغين كلمة كلمة . وفعل ميليشين مثله . استمع رئيس المحكمة الى الاجوبة ، واعض عينيها بتعجب . واخيرا نهض الحاكم ، اختلوا في الغرفة المجاورة ، وعند الباب بضق الضابط الاحمر الوجه ، وكان آخرهم ، عقب سيفاره المحترق حتى شفقيته ، ورفع ذراعيه ، وتعطى بتلذذ .

قال تليغين بصوت هامس :

- الرمي . وقد عرفته منذ دخولنا .

وتوجه الى الحارس قائلا :

اعطني قذح ماء .

تقدم الجندي من الطاولة مسرعا ، واخذ يصب من القارورة ماء كندوا ، وهو ما يزال ممسكا ببندقيته . همس ايفان ايليتش في اذن ميليشين بسرعة :

- عندما يخرجوننا ، حاول ان تشغل المحرك .

- مفهوم .

بعد دقيقة ظهر الحكام ، واحتلوا اماكنهم السابقة . خلع رئيس المحكمة نظارته الاحادية بثؤدة ، وقرب من عينيه قصاصة ورق كانت تهتز قليلا ، وقرأ قرار الحكم القصير الذي انزل على تليغين وجوكوف وميليشين عقوبة الاعدام رميا بالرصاص .

ورغم ان ايفان ايليتش كان متيقنا من صدور مثل هذا القرار الا انه لم يسمعاه لتلك الكلمات ، احس بان الدم يغادر قلبه . نكس جوكوف راسه . اما ميليشين القوي العريض المنكبين ذو الاتف العقابى فقد لعق شفثيه ببطء .

فرك رئيس المحكمة عينيه المتعبتين . ثم غطاهما بكفه ، وتكلم بوضوح ، ولكن بخفوت :

- يهدد الى السيد الامر بتنفيذ الحكم على الفور .

نهض الحكام ، وظل الامر وحده جالسا لبرهة من الوقت منتصب الجذع مخضوضر الوجه . ونهض ، وعدل سترته النظيفة واوعز للجندين الباقيين بصوت مبالغ بحدته بان يخرجوا المحكومين . عند الباب الضيق تلكا تليغين ليمنك ميليشين من الخروج اولاً . امسك ميليشين بذراع الحارس كمن خارت قواه ، وتمتم بلسان متلعثم :

- لنذهب ، لنذهب ارجوك ، مسافة قليلة . . . يطنى

يوجعني وجعا مضا . . .

حقد الجندي فيه ذاهلا وقاوم ونظر الى الورا خائفا وهو لا يعرف كيف يتصرف في الظروف الطارىء . الا ان ميليشين كان قد سار به حتى مقدمة السيارة ، وقرصص ، وغضن وجهه ، وتوجع ، قابضا باصابعه المرتتمشة على ازرار ملبسه تارة ، وعلى مقبض

السيارة اخرى . وظهر على وجه الحارس رثاء واشمئزاز . قال غاضبا :

- اجلس ، اذا كان يطنك يوجعك . اسرع !

الا ان ميليشين ادار مفتاح التشغيل فجأة بقوة ضارية . انحنى الجندي نحوه مدعورا ليبعده . صحا الصبي السائق ، وصاح بشيء ما مغتاضا ، وقفز من السيارة . وكل ما حدث بعد ذلك لم يستغرق غير بضع ثوان . راقب تليغين من تحت حاجبيه حركات ميليشين وهو يحاول ان يقترب من الحارس الثاني قدر الامكان . وتعالى صوت المحرك ، وخفق قلبه مع ذلك الاهتزاز العاد المدهل .

- جوكوف ، امسك البندقية ! - صاح تليغين ممسكا حرسه من وسطه ، ورفع في الهواء وقذفه على الارض بقوة ، وبلغ من السيارة بضع قفزات حيث كان ميليشين يصارع الجندي لينتزع البندقية . هجم ايفان ايليتش على الجندي بضربة سددها على رقبته بقبضته ، فتناوه هذا . وقعد . اندفع ميليشين الى دفعة القيادة ، وحرك المقابض وراى ايفان ايليتش بوضوح رفيقه جوكوف ينسل الى السيارة ومعه البندقية ، والصبي السائق ينسل على طول الجدار ، ويقفز الى باب مقر الامر فجأة والوجه المستطيل المشوه بالذعر ذا النظارة الاحادية يلوح في النافذة ، وقامة الامر القصيرة عند مدخل البيت ، والسندس الراقص في يده . . . وطلقة ، واخرى . . . «اخطات ، اخطات ، اخطات» .

وبدا وكان عجلات السيارة انغرست في الخث ، الا ان تروس التشويق زعقت ، واندفعت السيارة . والقي تليغين نفسه على المقعد الجلدي . واشتد هبوب الهواء على وجهه ، وصار الكشمك المخطط يقترب بسرعة وكذلك الحارس المصوب ببندقيته . دوت طلقة ومرت السيارة به كالزوبعة والى الخلف تراكض الجنود في الفناء ، وركعوا على ركباهم . طلقة ا طلقة ! ولكن هذه الطلقات اصبحت اصم واصم . التفت جوكوف ، وهدد بقبضته . الا ان مربع العناير المظلم اخذ يتصاهل وينخفض شيئا فشيئا ، واختفى المعسكر وراء المنعطف . مرتت بهم الاعمدة والاحراش ، والارقام على الاحجار خافتة متلاحقة .

التفت ميلشدين ، وقد تصاعد الدم ملونا جبينه ، وعينه
 وخذته وصاح على تليفين :
 - الى الامام ؟
 - الى الامام حتى نعبّر الجسر ، ثم يمينا في الجبال .

٢٨

جبال الكريات مقفرة موحشة في المساء الخريفى الرياحى .
 واجس الهاربون بالاضطراب والقلق حين صعّدوا الى الممر عبر
 الطريق المتعرج الابيض المغسول بالامطار حتى السطح الجبرى . كانت
 ثلاث او اربع اشجار صنوبر تتمايل فوق الهوة . وفي الاسفل غابة
 لا تكاد تبين في نقاب الضباب يترامى منها حفيف . والى الاسفل
 منها في قعر الهوة كان سيل غزير يخر مندعما وقالبسا الصخور
 بهدير .

ووراء جذوع الصنوبر بعيدا وراء قمم الجبال الشجره
 المنعزلة كان شريط طويل من الغروب يلسع بين الغيوم الرمادية .
 وكانت الريح شديدة طليقة على هذا الارتفاع تضرب في جلد غطاء
 السيارة .

جلس الهاربون صامتين . كان تليفين ينظر في خارطة ،
 وميلشدين يتطلع صوب الغروب وهو يرتفق دقة القيادة . وكان
 راسه مضمدا بخرقه .

سأل بصوت خفيض :

- ماذا نعمل بالسيارة ؟ وقد نفذ البنزين .

اجاب تليفين :

- لا يجوز ترك السيارة هنا ، العياد بالله .

- ليس امامنا الا ان ندفعها الى الهوة .

قال ميلشدين ، وتآوه ، وتفرز الى الطريق ، وطبظ بقدميه
 بقصد تمرينهما ، واخذ يمزج جوكوف من كتفه قائلا له :

- هاه ، يا تقيب ، استيقظ . وصلنا !

خرج جوكوف الى الطريق دون ان يفتح عينيه ، وتعثر ،

وقعد على صخرة . سحب ايفان ايليتش من السيارة معاطر جلدية -
 وسلة طعام كانت قد اعدت لغداء الحكام في «الجب العفن» . وزعوا
 الطعام على الجيوب ، ولبسوا المعاطر ، وامسكوا برفارف السيارة ،
 ودفعوها الى الهوة . قال ميلشدين :

- ادبت خدمتك يا غروسة ، والآن على المعاش ! يا لله !

تدلّت العجلتان الاماميتان فوق الهوة ، وبكت السيارة
 الطويلة المتربة بمقاعدھا الجلدية ، واطرها البرونزية طائعة مثل
 كائن حي ، وجنحت ، ثم هوت الى الاسفل مع نثار من الحجارة
 وكسر الصخر ، وتعلقت لحظة بنتوء صخرة ، وترقعت ، وانقلبت ،
 ودوت الى الاسفل في هدير متعاطم من الحجارة وشظايا العديد
 المتطايرة حتى استقرت في السيل . وتردد الصدى ، وترامى بعيدا
 في المضايق الضبابية .

تحول الفارون الى غابة ، وساروا بمحاذاة الطريق وكانوا
 يتكلمون نزرا ، وينطقون همسا . وكان الظلام قد خيم تماما ،
 واشجار الصنوبر تضج فوق رؤوسهم مهيبة وكان ضجيجها يشبه
 صوت مياه متساقطة على مبعده .

كان تليفين ينزل الى الطريق بين الحين والآخر ، وينظر الى
 ارقام الفراسخ على الاعمدة . وقاموا بدورة كبيرة في مكان يحتمل
 ان تكون نقطة عسكرية ، واجتازوا عدة منخفضات ، وتعثروا في
 الظلام بالاشجار الساقطة ، والجداول الجبلية ، وتبللوا ، وتمزقت
 ثيابهم . وسروا في الليل بكاملها ، وذات مرة قبيل الصباح
 سمعوا صوت سيارة ، فركدوا في حفرة ، ومرت السيارة على مقربة
 منهم ، بل وسمعوا اصواتا فيها .

وفي الصباح اختاروا للاستراحة موضعا على مقربة من جدول في
 وهدة شجره نائية . واكلموا ، واتوا على نصف قارورة من
 الكونياك ، ثم طلب جوكوف ان يحلقا وجهه بالموسى الصدئة التي
 وجدها في السيارة . وحين ازيلت لحيته وشارباه فوجي ونيقاه
 بان له حنك طفلس ، وشفتين بارزتين . ضحك تليفين وميلشدين
 طويلا ، مشيرين اليه باصبعيهما . وابتهج جوكوف كثيرا ، كان
 يخور مثل بقرة ويظ شفتيه ، وتبين انه سكران . ثنرا عليه
 الاوراق ، وطلبا منه ان يتام .

بعد ذلك نشر تليغين وميلشبن الغارطة على العشب ، ورسم كل منهما تخطيطا طبوغرافيا لنفسه . وتقرر ان ينقسموا يوم غد : يذهب ميلشبن وجوكوف الى رومانيا ، ويتجه تليغين الى غاليسيا . ودقنا الغارطة الكبيرة في الأرض . وفرشوا الاوراق الجافة ، ودقنا انفسهم فيها ونغفوا في الحال .

في الاعلى ، عند حافة الطريق فوق الوعدة وقف رجل معتمد على بندقيته ، هو حارس الجسر . سعاد الصمت حوله في القفر الغابي تحت قدميه ، ولم يسمع غير زمزمة دجاجة الأرض في طيرانها الثقيل فوق مرجة في الغابة ، صافقة بجناحيها على شجيرات الحور ، ومسقط ماء يترامى صوته من بعيد . وقف الحارس قليلا ، ثم انصرف متنكبا بندقيته .

عندما فتح ايفان ايليتش عينيه ، كان الليل مخيما . وكانت النجوم الساطعة تلمع بين اغصان الاشجار السوداء الساكنة . بدا يتذكر اليوم الغالب ، الا ان الاحساس بالجهد النفسى في الحكمة وخلال الهروب كان موجعا جدا بحيث طرد من ذهنه تلك الافكار .

سأل ميلشبن بصوت خافت :

- هل انت يقظان ، يا ايفان ايليتش ؟

- منذ زمان . انهض وايقظ جوكوف .

وبعد ساعة كان ايفان ايليتش يسير بمحاذاة الطريق الواضح ببياضه في الظلمة .

٢٩

في اليوم العاشر وصل تليغين الى خط الجبهة . وكان طول هذه المدة يسير ليلا ، ويختفي في الغابة عند طلوع النهار ، وحين كان يضطر الى النزول في واد ، كان يختار لمبيته بقعة في منأى عن الاماكن المأهولة . وكان يقتات على الخضار النيى الذى كان ينشله من حدائق الخضروات .

كان الليل باردا مطرا . وكان ايفان ايليتش ينسسل على الطريق العامة بين عربات الاسعاف المتجهة غربا ، والمملوءة بالجرحي وعربات اخرى محملة بالاجابات المنزلية ، وجوع النساء

والشيوخ الحاملين على اذرعهم اطفالا وصبرا وادوات منزلية . وكانت القوافل المحملة بالجنود والامتعة العسكرية تاتي من الاتجاه الاخر ميممة صوب الشرق . وكان من الغريب التصديق بان عام ١٩١٤ وعام ١٩١٥ قد انتهيا وعام ١٩١٦ يدنو من نهايته ، وطواير العربات ما تزال ، كما كانت من قبل ، تصر عجلاتها على الطرق المخربة ، واهالى القرى المحروقة يضربون في الأرض في ياس خانع . لا فرق سوى ان الخيول العسكرية الضمخة لاتكاد الآن تجرجر ارجلها ، وان الجنود مزقو الملابس ضئيلو الاجسام ، ان جموع المشردين صامتسون متبلدو الاحاسيس . وهناك ، في الشرق من حيث تسوق الريح اللاذعة غيوما واطلة ما زال الناس يقتل بعضهم بعضا دون ان يهلك فريقه فريقه الخمص .

كانت كتلة هائلة من الناس والعربات تتحرك في الظلام على منخفض مستنقعى ، وعبر جسر مقام على نهر منتفخ . وكانت العجلات تقعقع ، والنسياب تنز ، والواهر تصدر باصوات صارخة ، واضواء الفوانيس الكثيرة تتحرك ، فكان ضوءها يسقط على الماء الكدر الملتف بين دعائم الجسر .

وصل ايفان ايليتش الى الجسر منزلقا على منحدر الطريق العامة . وكانت قافلة عسكرية تمر عليه . ولا امل في العبور الى الجهة الاخرى قبل طلوع النهار .

كانت الخيول عند دخولها الجسر تركع بعرائش غرباتها وتتشبث بحوافرها في الالواح الرطبة ، ولا تكاد تجسر العربات ، وعلى الحافة وعند مدخل الجسر كان يقف رجل على فرس والربيع تعصف في مشمعه ، وفي يده فانوس ، وكان يصرخ بصوت مبحوح . وقد تقدم منه عجوز ، ورفق قبعته يطلب منه شيئا ، على ما يبدو . ولكن الفارس ، بدلا من ان يجيبه ، ضربه بالفانوس الحديدى على وجهه ، وسقط العجوز تحت العجلات .

كان الطرف الآخر من الجسر يغيب في الظلام ، الا ان نقاط الضوء هناك كانت توحى بوجود آلاف من التازحين . استمرت القافلة في تحركها البطي . ووقف ايفان ايليتش ملتصقا بعربة ، كانت تجلس فيها امرأة نحيلة متدثرة في بطانية ، وشعرها متهدل

على عينيه ، وهي تحتضن قفص طيور بذراع ، وتمسك العنان
بالذراع الأخرى ، توقفت قافلة العربات فجأة والتفتت المرأة
مذعورة . تنامي طنين الأصوات في الطرف الآخر من الجسر ،
وتزايدت أشعة الفوانيس المتحركة . ان شئنا قد حدث . صهل
حصان سهيلا وحشيا ضاريا . وصرخ صوت مملوط باللغسة
البولندية «انقذ نفسك» . وفي الحال مزقت الهواء طلقة بندقية .
واندفعت خيول ، وتقعقت عربات ، وارتفعت اصوات نسوة واطفال
في زعيق وعويل .

وبعدا الى اليمين وضعت شرارات متفرقة ، وترامت اصوات
طلقات جوائية . صعد ايفان ايليتش على عجلة ، وتطلع . ودق
قلبه كالمطرقة . كان الرمي كما يبدو ياتي من كل مكان ، على النهر
كله . نزلت المرأة مع قفصها من العربية ، وتعلقت تنورتها ،
فوقعت وزعقت بصوت عميق : «اوى انقذوا!» وتدرج القفص
بالطائر على منحدر الطريق .

وعادت قافلة العربات تتحرك على الجسر عدوا ، وسط
الصيحات والقرقعة . تعالت على الفرور اصوات جنونية : «قف !
قف !» وشاهد ايفان ايليتش عربية كبيرة تجنح على حافة الجسر ،
وتنقلب على الدرابزين ، وتسقط في النهر . عندئذ وتب من
العجلة ، وقفز عبر الصر الرممية حتى بلغ قافلة العربات ، وانبطع
على عربية سائرة . وفي الحال نفذت الى رأسه رائحة خبز حلوة .
دس يده تحت مشمع ، وقطع نهاية رغيف ، واخذ ياكلها غاصبا من
النهم .

وصلت قافلة العربات الى الضفة الثانية اخيرا وسط الفوضى
واطلاق النار . قفز ايفان ايليتش من العربية ، وتسلل بين عربات
النازحين الى الحقل ، وسار بمحاذاة الطريق . عرف من نتف
العبارات الملتقطة من الظلام ان اطلاق النار ذاك كان على العدو ،
اي على دورية روسية : ومعنى ذلك ان خط الجبهة لا يبعد عن
هذه الاماكن اكثر من عشرة فراسخ .

توقف ايفان ايليتش عدة مرات ملتقطا انفاسه . كان المشى
عكس الريح والمطر صعبا ، وتمعت رجلاه عند الكبتين ، وتوهج
وجهه ، والنهيب عيناه وانفتحتا . وفي آخر الأمر جلس على مرتفع

الحفرة ، ووضع رأسه بين يديه . وكانت قطرات المطر الباردة
تتساقط تحت رقبته ، وجسمه كله يئن متوجعا .

في تلك اللحظة بلغ اذنه صوت خافت عميق مثل انهيار ارض
على مسافة بعيدة . وبعد برهة زفر الليل مثل تلك الزفرة للمرة
الثانية . رفع ايفان ايليتش رأسه ، وتوسع وميز بين تينك
الزفرتين العميقتين سهمة جوا ، تخمد تارة وتتنامي اخرى في
ذبذبات غاضبة . لم تكن تلك الاصوات تاتي من الجهة التي كان
يسير اليها ، بل من يساره ، من الجهة العاكسة تقريبا .

جلس على الجانب الآخر من الحفرة . الآن صارت تثرى
بوضوح مزق الغيوم الواطئة السارحة في السماء المتسخة الحديدية .
كان ذلك هو الفجر . وكان ذلك هو الشرق . وكانت روسيا هناك .
نهض ايفان ايليتش ، وشد حزامه ، وسار في تلك الجهة
مباعدة بين ساقبيه في الوحل ، متخطيا الجذامات المبللة والاخاديد
وخنادق العام الماضي نصف المهتمة .

وحين تنورت الدنيا تماما رأى تليغين ثانية في نهاية الحقل
طريقا عامة غاصة بالناس والعربات . توقف . واجال بصره .
فراى في ناحية مزارا ابيض تحت شجرة هائلة تعرت من نصف
اوراقها . كان الباب مخلوعا ، والاوراق الذاوية متناثرة على سطحه
الستدير ، وعلى الارض .

قرر ايفان ايليتش ان ينتظر هنا حلول الظلام . فدخل
المزار ، واستلقى في الأرض الخضراء من الطحلب . كانت رائحة
الاوراق الرقيقة المثيرة برخاءتها تبعث الدوار في رأسه . ترامت
اليه من بعيد كركبة عجلات ، وضربا سياط . وكانت هذه
الضوضاء تبدو لطيفة على الاذن بشكل مذهل ، ونجاعة تلاشت .
وكان يحس بما يشبه الاصابع يضغط على عينيه . وشئنا فشيئا
ظهرت بقعة حية في النعاس الثقيل عليه كالرصاص . بدت وكأنها
تحاول ان تكون حلما ، فلم تقدر . فقد كان الاعياء شديدا جعله
يشن ويغرق اكثر فاكثر في النوم . ولكن البقعة كانت تغلغه ، فاخذ
نومه يخف ، ومن جديد اخذت تترامى الى سمعه كركبة العجلات
من بعيد . وزفر ايفان ايليتش ، وقعد .

رأى من خلال الباب سحبا مسطحة سمكية ، وكانت الشمس

تجنح الى الغروب واشاعتها العريضة تمتد تحت قاعدتها الرطبة الرمادية الثقيلة . وكانت بقعة خفيفة من الضوء تقسح على حائط المزار المتداعي ، وتضيئ الأيقونة الخشبية الحائلة اللون من تقادم الزمن ، المائلة التي يظهر فيها وجه العذراء في مالة ذهبية ، والطفل في ثوب قطنى متهرى رائد عن ركبتيهما ، وكانت يد العذراء المباركة مقطوعة من الأيقونة .

خرج إيفان إيليتش من المزار فرأى عند عتبة امرأة شابة تجلس على الدرجة الحجرية ، وعلى ركبتها طفل . كانت ترتدى رداء أبيض مبقعا بالوحل وتسنن خدما على يد ، وتضع اليد الأخرى على بطانية الطفل الملونة . رفعت رأسها ببطء وتطلعت على إيفان إيليتش بنظرة وضيفة غريبة ، ورف وجهها المفضل بالدمع ، وكانها تبتمس ، وقالت بالأوكرانية بصوت خافت :

— مات الصغير .
وعادت تضع خدما على يدها . اتحنى تليغين نحوها ، ومسد رأسها ، فأرسلت تنهيدة مندفعة . قال برقة :

— لنذهب . ساحمله عنك .
هزت المرأة رأسها :

— الى أين اذهب ؟ اذهب وحدك ، أيها السيد الطيب .
وقف إيفان إيليتش برهة أخرى ، ودفع طاقيته فوق عينيها وانصرف . في تلك اللحظة خرج رجلان من الجندرمة النمساوية العسكرية يعدوان على فرسيهما من وراء المزار ، وعليهما معطفان مبللان قدران ولهما وجهان مزرقان مشهوريان . وحين مر بإيفان إيليتش أوقفا فرسيهما ، وصاح الذى كان في المقدمة بصوت اجش :

— تقدم !
اقترب إيفان إيليتش ، فأتحنى الفارس من على السرج وتفحصه في عناية بعينه البينيتين الملتهبتين من الريح والسهل . والتمسكت عيناه فجأة ، وهتف :

— روسي !
واستك إيفان إيليتش من ياقته . لم يقاوم تليغين ، بل ابتسم ابتسامة هائلة مقهورة .

حسب تليغين في زريبة . وكان الليل قد هبط . وكان دوى التراشق بالمدافع يُسمع بوضوح ، ويلوح من خلل الشقوق بين الأخشاب وميض أحمر كامد . أكل إيفان إيليتش بقية الخبز الذى أخذه من العربة يوم أمس ، وسار على طول الجدران المصنوعة من الواح الخشب عسى أن يعثر على فتحة . تعثر ببالسة من التبن المضغوط ، وثقاب ، واستلقى . إلا أن النوم لم يرأوده . فبعد منتصف الليل أخذت المدافع تقصف على مسافة غير بعيدة ، وكانت التوهجات المحمرة تنفذ من خلال الشقوق بين الألواح . رفع إيفان إيليتش جسمه قليلا وتسمع . تضائلت الفترات بين الطلقات وصارت جدران الزريبة تهتز ، وفجأة لعلل رصاص البنادق على مسافة دانية جدا .

وكان واضحا أن المعركة تقترب . وصدرت اصوات مستفارة ، وبربر محرك سيارة . وتردد وقع اقدام كثيرة وأرتطم جسم ثقيل بجدار الزريبة من الخارج ، وعندئذ فقط لاحظ أن الرصاص يتساقط على جدار الزريبة تساقط البنلق على جسم صلب . فتقدم على الأرض في الحال .

نفذت رائحة دخان البارود حتى داخل الزريبة . وكان الرمي لا يتقطع ، والظاهر أن الروس كانوا يهجمون بسرعة شديدة . إلا أن هذه الزوبعة من الاصوات الرهيبة لم تستمر طويلا . وصدرت ضربات متفجرة ، أى إن القنابل اليدوية كانت تفرغ فرقة الجوز عندما يكسر . نهض إيفان إيليتش مسرعا من الأرض وتراكم بمحاذاة الجدار . أمن المعقول أن الهجوم يرُد ؟ وأخير صدر زئير اجش مجلجل ، وزعيق ودمعة اقدام . وسكنت الطلقات في الحال . ولم يسمع في تلك الثانية الطويلة غير صوت ضربات في شيء لدن وصلصلة حديد . ثم ارتفعت اصوات مدعورة صارخة : «نستسلم ، أيها الروس ! ..» .

خلع إيفان إيليتش كسرة من خشب الباب ، فرأى اشخاصا يرتضون ، وقد غطوا رؤوسهم بأيديهم . واندفع نحوهم فرسان يلقون ظللا هائلة ، وشقوا طريقهم في خصمهم . وراحوا يجولون . اتجه ثلاثة من المشاة نحو الزريبة ، فاندفع فارس

للحاق بهم ، وعباءته تتطاير خلف ظهره ، وفرسة الضمخ يشب على رجلية الخلفيتين ثقيلنا ناخرا .

كان الفارس يلوح بسيفه كالسكران فاتحا فمه على وسعه ، وحين نزل الفرس على رجلية الاماميتين انزل الفارس سيفه بقسوة فصفر في الهواء ، وانغرس حده في لوح الباب فانكسر .

صرخ تليغين بصوت جتوني ، وهو يقرع الباب :

- اطلقوني .

اوقف الفارس فرسه .

- من الهاتف ؟

- اسير ، ضابط روسي .

- دقيقة .

قذف الفارس مقبض سيفه العكسور ، وانحنى ، وسحب المزلاج . وخرج ايفان ايليتش ، فاذا بالذي اطلقه ، وهو ضابط في الفرقة الوحشية ، يقول بشيء من التهكم :

- ياله من لقاء !

تطلع ايفان ايليتش اليه ، وقال :

- لا يبدو اني اعرفك .

- انا ساپوجكوف سيرغي سيرغيفيتش - وانفجر بتهقهة حادة ، وقال : لم تكن تتوقعنني ؟ لللعنة ، انها الحرب !

٣٠

سار القطار في الساعة الاخيرة قبل وصوله الى موسكو مارا ببيوت ريفية مهجورة صافرا صفيرا ممدودا . ودخاناه الابيض يلتف مع اوراق الاشجار الخريفية ، وصفرة اشجار البتولا الشمافة ، واحراش العور القرمزية الفواحة برائحة الفطر . وحيانا كانت اغصان القيقب الحمراء العريضة تتدلى على سدة القطار تماما . وحين كانت الاحراش تشف كانت تلوح من خلالها هنا وهناك الكرات الزجاجية على احواض الزعرور ، والصفافات المسمرة في البيوت الريفية ، والاوراق الساقطة على الممرات والدرجات .

مرت محطة صغيرة كان يقف على رصيفها جنديان يضعان على ظهرهما حقبيتين ، وقد نظرا الى نوافذ القطار بلا اكرات ، بينما كانت سيدة شابة في معطف ذي مربعات تجلس حزينة معزولة على مسطبة تخطط رسما يطرف مظللتها على الواح الرصيف المبللة . وبعد المنعطف لاح حاجز خشبي من وراء الاشجار وقد رسمت عليه زجاجة كتب عليها : «فودكا سوستوف المطعمه بالخبيراه لا تضارح» . وانتهت الغابة وظهرت الى اليسار واليمين صفوف طويلة من الكرنب الابيض-الاخضر ، وعند تقاطع الخط الحديدى مع طريق وقفست خلف الحاجز عربة محملة بالقش ؛ وامرأة في فروة رجالية تمسك مقود حصان نجبل عنيد . وصار من الممكن الآن ان يلمح البصر في الافق البعيد اطراف الابراج المستدقة تحت سحابة طويلة ، وقبة كنيسة «المسيح المخلص» تلمح عاليا فوق المدينة .

كان تليغين يجلس عند نافذة العربة مستنشقا هوا ايلول الكثيف ، ورائحة الاوراق والفطر المتفسخ ودخان تش يحرق في مكان ما ، ورائحة الارض التي مسها الضمخ عند الفجر .

واحس ايفان ايليتش بانه قطع دربا من الالام امتد سنتين ، ونهايته هنا ، في ساعة الانتظار الطويلة الرائعة هذه . وقد ضمن انه سيضغط في الساعة الثانية والنصف تماما على زر الجرس في ذلك الباب الوحيد - وكان يتصوره من خشب البيلوط الفاتح فوهه شباكان صغيران - الباب الذي كان سيبلغه ولو كان ميتا .

انتهت حدائق الخضار الملحقة بالبيوت ، وظهرت على جانبي الطريق بيوت الضواحي الصغيرة المبقعة بالوحسل ، وشوارع مرصوفة رصفا غير متقن تسير عليها عربات مشحونة مكركة ، والسبجة وراءها حدائق تبث فيها اشجار زيزفون معمرة تفرش اغصانها حتى منتصف الشوارع الجانبية ، ولافتات ملونة ، وسابلة ذاهبون في شؤونهم المتأففة دون ان يلتفتوا الى القطار الهادر وراكبه - ايفان ايليتش - الجالس عند نافذة احدى عرباته ، وفي الاسفل ، سار نحو داخل الشوارع ترام صغير كاللعبة ، وطلعت قبة كنيسة صغيرة من وراء بيت ، ودقت العجلات على المحولات ، واخيرا ، اخيرا - بعد سنتين طويلتين - مر بالنوافذ رصيف محطة موسكو الخشبي . وصعد الى العربات شيبوخ نظاف لا مبالون في مآزر

بيضاء . أخرج إيفان إيليتش رأسه بعيدا وراء النافذة ، وتطلع .
من الحماقة انتظار أحدا ؛ أنه لم يبلغ عن وصوله .
خرج إيفان إيليتش من المحطة الى ساحة المحطة ، ولم يضبط
نفسه فضحك : فقد كان صف طويل من العربات يقف في الساحة
على بعد زهاء خمسين خطوة . وكان السائقون يصرخون من مقاعدهم
ملوحين بقفازاتهم :

- أنا حاضر ! أنا حاضر ! أنا حاضر !

- تفضل ، يا حضرة السيد ، على الضمان القادم !

- عربتي سريعة ، وبعجلات من مطاط !

وكانت الخيول بأعنتها المتوترة تضرب الأرض بحوافرها ،
وتحمحم ، وتصلب . وكان الصباح ينتشر في الساحة كلها . وبدا
وكان العربات توشك على اجتياح المحطة .

صعد إيفان إيليتش على عربة عالية جدا ، لها مقعد ضيق .
ساله السائق الجميل الضيق عن العنوان بتساهل لطيف ، ولكن
يبهر زيونه جلس بانحراف على مقعده ، ممسكا العنان رخوا بيده
اليسرى ، مطلقا حصانه في عدو سريع . وراحت العجلات المطاطية
المنفوخة تنط على حجارة الشارع .

- هل انت قادم من الحرب ، يا حضرة ؟

- هربت من الاسر .

- صحيح ؟ وكيف الحال عندهم ؟ يقولون ليس لهم ما
ياكلونه . انت ، يا جدة ، احذري . معي بطبل وطني . يهرب
الكثيرون من هناك . احذري ، يا صاحبة العربية . . . آه ، المغفل . . .
هل تعرف إيفان تريفونيتش ؟

- من هو ؟

- انه في شارع رازغولاي ، يتاجر بالاقمشة الجوخ . . .
يوم أمس ركب في عربتي ، داعم العينين ، آه ، حكاية ! . . . اثنى
من الصفقات الخريبة ، وهو لا يعرف كيف ينفق فلوسه لكثرتها ،
ولكن زوجته هزيت مع بولونى قبل يومين . واصحابنا السواقون
نشرروا الحادث في طول موسكو وعرضها . وإيفان تريفونيتش الآن
لا يجرؤ على الخروج الى الشارع . . . ذلك جزاء نهب الناس . . .
- ارجوك ان تسرع ، يا صاحبي .

حسه إيفان إيليتش رغم ان حصانه السريع العالى كان منطلقا
في شارع جانبي كالريح ، ملقيا رأسه الغاضب الى الورا على عادته
القبیحة .
- وصلنا ، يا حضرة السيد ، المدخل الثاني . قف ، يا
فاسيا ! . .

التي إيفان إيليتش نظرة سريعة منقولة على النوافذ الست
من بيت ابيض ، حيث تدلت ستائر من الدنتلا وادعة نقيه ، وقفز
عند المدخل . كان الباب قدنيا مقنوشا محلى برأس اسد ، وجرسه
غير كهربائي ، من النوع القديم . توقف إيفان إيليتش يضع ثوان ،
غير قادر على ان يرفع يده الى الجرس ، وقلبه متباطيء الخفقان
موجع . «في واقع الامر اننى لا اعرف شيئا الآن . فقد يكون البيت
خاليا من الناس ، وربما لا يستقبلونى» . فكر بذلك مع نفسه .
وضغط المقبض النحاسي وسمع الجرس يدق في اعماق البيت .
«بالطبع لا يوجد احد في البيت» . ولكنه سرعان ما سمع وقنع
خطوات امرأة سريعة . فتلفت مشئت اللب . فرأى وجه السائق
المرح يغمز له . ثم صلصلت سلسلة ، وانفتح الباب ، واطل وجه
وصيفة عليه آثار جدري قليلة . سعلت تليفين وسالها :

- هل تسكن داريا دميترييفنا هنا ؟

ردت الفتاة المجدورة برفقة وعذوبة صوت :

- انها في البيت ، في البيت ، تفضل . السيدة والأنسة
موجودتان في البيت .

سار إيفان إيليتش كالعالم في رواق ضيق تنتشر فيه رائحة
فراء ، له جدار زجاجي ، وفيه سلال . فتحت الوصيفة الى اليمين
بابا ثانيا مبطنًا بمشمع اسود ، فوجد إيفان إيليتش نفسه في مصر
صغير علققت فيه معاطف نسائية ، وامام المرأة قفازات ، ومنديل
عليه صليب احمر ، ولفاح لزغب . وكانت كل هذه الاشياء البرينة
تعيق برائحة خفيفة مالوفة لعلور نسائية مذهلة .

ذهبت الوصيفة لتبلغ عن وصول ضيف دون ان تسأل عن
اسمه . مس إيفان إيليتش باصابعه اللقاح الازغب ، وخامسره
شعور مفاجي ، بان لا صلة بين هذه الحياة النقية الفاتنة وبينه ،
وهو الخارج من الحياة الدامية . سمع صوت الوصيفة آتيا من

اعماق البيت : « يا آتسة ، جاء من يسأل عنك » . اغمض ايفان ايليتش عينيه ، وكان صاعقة ستنتفض عليه من السماء بعد لحظة ، وسمع صوتا عجولا صافيا بث الرفة من رأسه حتى قدميه :

- هل يسأل احد عنى ؟ من ؟

ترددت خطوات في الحجرات ، جاءت مندفعة من هابوية السننتين من الانتظار . وظهرت داشا عند باب الممر ، وقد سقط عليها ضوء من النوافذ ، وسرت شقرة في شعرها الناعم . وبدت اعلى قامة ، واكثر نحافة ، وهى في بلوزة محاكة ، وتنورة زرقاء .

- هل سألت عنى ؟

وتلجلجت ، وارتعش وجهها ، وارتفع حاجباه ، وانفجر فمها ، الا ان ظل الفزع زايل وجهها في اللحظة التالية ، وتالتت عيناها بالدهشة والفرح .

- اهذ انت ؟

قالتها بصوت لا يكاد يسمع ، وبسبغت ذراعيها وطوقت رقبة ايفان ايليتش بانفعال ، وقبلته بشفتين رقيقتين مرتعشتين . ثم ابتعدت عنه :

- ايفان ايليتش ، تعال الى هنا .

وركضت الى غرفة الجلوس وجلست على مقعد ، وطوت جذعها نحو ركبتيها ، وغطت وجهها بيديها .

- بالطبع ، هذا من الحماقة . . .

همست بذلك ، وهى تسمح عينيه بكل جهدها . ووقف ايفان ايليتش امامها . وفجأة أمسكت داشا بذراعى المقعد ، ورفعت رأسها :

- ايفان ايليتش ، هل هربت ؟

- هربت .

- يا ربى وماذا ؟

- وراسا الى هنا .

وجلست في مقعد قبالتها ، وهو يضم طاقيته بكل قوته .

سألت داشا متلعثمة :

- كيف حدث . . . ذلك ؟

- بشكل اعتيادى ، عموما .

- وهل تعرضت للخطر ؟

- نعم . . . اقصد ليس بذلك الخطر .

وتبادلا كلمات اخرى لبرهة اخرى . وبالتدرج اخذ الحياه يستولى عليها . غضت داشا بصرها ، وسألت :

- منذ زمان وانت في موسكو ؟

- جئت من محطة القطار راسا .

- سأطلب قهوة الآن . . .

- لا ، لا داعى للكلفة . . . ساذهب الآن الى الفندق .

عندئذ سألت داشا بصوت لا يكاد يسمع :

- هل ستأتى في المساء ؟

هن ايفان ايليتش رأسه بعد ان اطبق شفثيه . وكان يحس

بعسر في تنفسه .

نهض .

- اذن ، انا ذاهب : وسأتى في المساء .

مدت داشا يدها له ، فتناولها ناعمة قوية ، ومن هذه الملامسة شعر بتوهج ، وتصاعد الدم الى وجهه . ضغط على اصابعها ، وسار الى الرواق ، الا انه التفت عند بابه . كانت داشا تقف وظهرها الى النور ، ترمقه من تحت حاجبيها .

- هل من الممكن ان اجيء في نحو الساعة السابعة ، يا داريا

دميترييفنا ؟

هزت رأسها بالايجاب . خرج ايفان ايليتش مسرعا من مدخل البيت ، وقال للسانق :

- الى الفندق ، الى فندق جيد ، بل واحسن فندق !

جلس في العربة متكئا على ظهر مقعدها ، حاشرا يديه في جيبي مقعده ، وابتسم ابتسامة عريضة . مرت به سريعا ظلال مزقة - ظلال الناس والاشجار والعربات . وبردت وجهه نسمة قارسة فواعة بنكهة مدينة روسية . رفع ايفان ايليتش الى انفه كفه التى ما تزال ملتبسة من ملامسة داشا ، وضحك قائلا بينه وبين نفسه :

« مسحر ! »

في تلك اللحظة كانت داشا تقف عند نافذة في غرفة الجلوس بعد ان ودعت ايفان ايليتش . كان رأسها يطن ، وكانت ، مهما

بذلت من جهد ، لا تستطيع ان تتغلب على الرهبة والانفعال وتفكر
بما حدث . اطلقت عينها بشدة ، واهتت فجأة ، وركضت الى
مخدع اختها .

كانت يكاترينا دميترييفنا تجلس عند النافذة تخيط شيئا
وتفكر . وعندما سمعت خطوات داشا سالتها دون ان ترفع رأسها
اليها :

- من كان عندك ، يا داشا ؟

ونظرت كاتيا ، وسرت رعشة في وجهها .

- هو . . . الا تفهمين ؟ هو . . . ايغان ايليتش .
انزلت كاتيا حياطتها ، وبسطت ذراعها ببطء . وقالت داشا
بصوت خافت :

- افهميني ، يا كاتيا . انا لست فرحة . بل ويشملكني
الخوف .

٣١

ما ان هبط الظلام حتى اخذت داشا تجفل عند كل نائمة ،
وتركض الى غرفة الجلوس ، وتسمع . . . فتحت عدة مرات كتابا
على صفحة لا تتغير «احبت ماروسيا الشوكالاته التي اشترتها لها
زوجها من مخزن كرافت . . .» وفي الغسق البارد اضاءت نافذتان
في بيت الممثلة تشاروديفا المقابل لبيتهم ، واخذت خادمة على
رأسها طاقية تسمى ' المائدة ' ، ثم ظهرت تشاروديفا نحيلة كالهيكل
العظمى وقد القت على كتفها معطفا مخمليا ، وجلست الى المائدة ،
وتفاهت ، ربما نامت على الاربيكة . صبت لنفسها حساء ، وغرقت
فجأة في تفكير ، وثبتت عينها الجامدتين في مزرهية فيها وردة
ذابلة . كررت داشا من خلال استناتها : «احبت ماروسيا
الشوكالاته» . ودق الجرس فجأة . وغاض الدم من قلب داشا .
ولكن الطارق لم يكن الا مزوج الصحيفة المسائية . وقالت داشا
لنفسها : «لا يأتي» وذهبت الى غرفة الطعام ، حيث كان مصباح
واحد يضيء فوق المقرض الابيض ، وحيث الساعة تتكلك ، وكانت

تسير الى السابعة الا خمس دقائق . جلست داشا الى المائدة ،
«وعلى هذا النحو تضي الحياة ثانية بعد ثانية . . .»

ودق الباب الخارجي مرة اخرى . تقطعت انفاس داشا ،
وهبت واقفة ، وركضت الى الرواق . . . كان القادم حارسا من
المستشفى العسكري جلب رزمة من الورق . وايغان ايليتش لن
يأتي بالطبع ، وهو على حق . فقد انتظرتة سنتين ، وعند اللقاء
لم تجد كلمات مناسبة تقولها له .

اخرجت داشا مندبها ، واخذت تعض طرفه . لقد كانت
تتوجس وتعرف ان ذلك سيحدث بالصورة التي حدث بها بالضبط .
عامين احبت صورة رجلها الخيالي ، ولما جاءها حيا . . . ذهلت
عن امرها .

وقالت داشا لنفسها : «فطاعة ، فطاعة» . ولم تلاحظ الباب
يفتح قليلا ، وتظهر ليزا المجدورة .

- يا آنسة ، جاءوا لزيارتك .

زفرت داشا زفرة عميقة ، ومشت الى غرفة الطعام بخفة ،
وكانما لا تمس الارض . كانت كاتيا اول من رأت داشا ، فابتسمت
لها . نهض ايغان ايليتش ، ورمش وانتصب واقفا .

كان يلبس قميصا جديدا من الجوخ ، وحزام عتاد جديدا
القاء على كتف واحدة . وكان حليق الوجه باقتان ، قد حلق شعر
رأسه لتوه . والآن كان واضحا بشكل خاص ارتفاع قامته ،
وامتداده وسعة كتفيه . وبالطبع ، كان هذا رجلا جديدا اطلاقا .
نظرة عينيه الرضايتين قوية ، وعلى طرفي فمه المستقيم الدقيق
غضننان ، خطان صغيران . . . وجب قلب داشا ، فقد فهمت انهما
من اثر الموت والقزع والغداي . كانت يده قوية باردة .

اخذت داشا مقعدا ، وجلست الى جانب تليفين . فوضع هو
يديه على الخوان ، وقبضهما ، واخذ يتحدث عن الأسر والهروب من
الأسر ، وهو ينظر اليها نظرات سريعة خاطفة . وكانت هي في
جلستها الشديدة القرب منه تتطلع الى وجهه فاقرة الغم .

واحد ايغان ايليتش وهو يروي وكان صوته يرن من مسافة
بعيدة ، وليس بصوته ، وان كيانه كله يهتز منفلا . والى جانبه
تجلس مخلوقة تعجز الكلمات عن وصفها ماسة بثوبها ركبته - فتاة

غير مفهومة مطلقا ، يذوع منها شذى دافئ يدسر
الراس .

ظل إيفان إيليتش يتحدث طوال المساء . وكانت داشا
تستفهمه وتقاطعه ، وتبسط يديها ، وتلتفت الى اختها :

- كاتيوشا ، هل فهمت ؟ حكموا عليهم بالاعدام رميا
بالرصاصة !

وحين وصف تلغيف الصراع من اجل السيارة ، والثانية
الفاصلة عن الموت ، وانطلاق السيارة ، والريح الهابة على الوجه -
الحرية والحياة ! - لاح شحوب كثير على وجه داشا ، وامسكت يده
وقالت :

- لن ندعك تذهب الى اى مكان بعد الآن !

ضحك تلغيفين :

- سيستدعوننى ثانية ، ولا مفر من ذلك . وكل ما أمله ان
يرسلونى الى مصنع حربي .

وضغط على يدها بحدنر .. اخذت داشا تحديق في عينيه ،
وتضمن النظر فيهما ، ولونت خديها حمرة خفيفة . فكت يدهما ،
وقالت :

- لماذا لا تدخن ؟ ساجلب لك علبة ثقاب .

وخرجت بسرعة ، وعادت في الحال ومعها علبة ثقاب ، وتوقفت
امام إيفان إيليتش ، وأخذت تقدم اعواد الثقاب مسكة اياها من رأسها
تماما فتتكسر في يدها . تلك هي اعواد الثقاب التي تشتريها صاحبتنا
ليزا ! واخيرا اشتعل عود ثقاب . رفعته بحدنر الى سيكارة إيفان
إيليتش فانار ضوؤه حنكها . انصت تلغيفين انفاسا من سيكارتته
مقلصا عينيه . ولم يدر بخلده ان من الممكن ان يحس بمثل هذه
السعادة من اشتعال سيكارة له .

كانت كاتيا طول هذا الوقت تراقب داشا وتلغيفين صامتة .
وكانت سعيدة كل السعادة لداشا ، ومع ذلك فقد كانت تحس
بحزن شديد . ذلك لان قاديم بتروفيتش روتشين لن يغيب عن
ذاكرتها ايدارغم انها كانت تأمل ان تنساه . وقد كان يجلس معها على
المائدة ايضا ، وقد جلبت له ايضا علبة ثقاب ذات مرة ، واشعلت
له سيكارتته ، دون ان تكسر عود ثقاب واحد .

انصرف تلغيفين عند منتصف الليل . طوقت داشا اختها ،
وقبلتها بقوة ، واغلقت باب غرفتها . اضطجعت على السرير والقت
يديها وراء رأسها ، وفكرت بانها قد طلعت اخيرا من الركود
الكلبي ، ورغم ان كل شئ حولها ما يزال وحشيا فارغا ومرعبا ،
الا ان كل هذا زرقعة امل ، نفحة من السعادة .

٢٢٢

تلقي إيفان إيليتش في اليوم الخامس من وصوله رسالة
رسمية من بطرسبورغ تبلغه بالخصور فورا الى مصنع البلطيق .
وقد تعاقب كالحلم الفرح بهذه الرسالة ، وبقية النهار التي
قضاهها مع داشا بهوميها في المدينة ، والوداع السريع في محطة
نيكولاييفسكي ، ثم مقصورة الدرجة الثانية بدفنها الجاف ، وطلقة
جهاز التدفئة والظرف الذي عثر عليه في جيبه فجأة مربوطا بشرط ،
وفيه فتاحتان وشوكالاته وكمكيات . فك إيفان إيليتش زر ياقة
قميصه الجوخ ، ومد رجليه ، ودون ان يستطيع ان يتخلى عن
إبتسامته الحماة نظر الى الجار الجالس قبالة ، وهو عجوز لا يعرفه
ضئيل الجسم صارم الهيئة في نظارة .

سال العجوز :

- هل انت خارج من موسكو ؟

- نعم ، من موسكو - ثم تابع مع نفسه :

- يا للرب ، اية كلمة لطيفة عجيبة هي «موسكو» هذه ! ..

شوارع صغيرة مغمورة بشمس الخريف ، واوراق جافة تحست
الاتدام ، وداشا الخفيفة الهيفاء تسير على هذه الاوراق ، وصوتها
الضافى الذكى - وهو لم يفهم اية كلمة منها - والشذى الدائسى
لزهور دافئة يشمه حين كان يتحنى نحوها او يقبل يدها .

قال العجوز :

- هرج ومرج وضوضاء في هذه المدينة . امضيت ثلاثة ايام في
موسكو ... ورايت ما فيه الكفاية - وباعد بين ساقيه بخذاينهما
الطويلين والكوشين عالين ، وبصق واكمل : وفي الشوارع تجد
اناسا يتراكمسون هنا وهناك ... وفي الليل اضواء وصخب ،

ولافتات ، وكل شيء يدور . . . وزحام الناس . . . جنون !!!
 نعم ، هذه هي موسكو . . . بداية الارض . . . بينما لا اجد غير
 طراد جهنمي مخبول . وانست ، ايها الشاب ، لقد
 خضت معارك . فهل جرحت ؟ لقد ادركت ذلك من الوهلة الاولى . . .
 قل لي ، انا المعجوز ، امن المعقول ان دعانا تسنك هناك في سبيل
 هذه الضوضاء اللعينة ؟ اين الوطن ؟ اين الدين ؟ اين القيصر ؟
 دلني . انا مسافر الى بطرسبورغ لاجلب خيوطا . . . ليا خذها
 الشيطان ! تو . . . باى شيء ساعود الى تيومن ؟ يخبوط ؟ . . . لا
 لا اعود يخبوط بل اعود واقول : يا ناس ، نحن هالكون جميعا .
 هذا ما ساعود به . . . تذكر قولي ، ايها الشاب . انا سندفع
 الثمن ، سندفع ثمن كل شيء . . . سيكون علينا ان نحاسب على
 هذا الجنون .

واسند المعجوز يديه على ركبتيه ، ونهض ، وانزل الستارة
 الصغيرة على النافذة التي كانت تظاير وراها في الظلام شرارات
 القطار مثل خطوط ضوئية . وتابع المعجوز حديثه :

- نسينا الرب فنسانا . . . هذا ما اقله ، آوه ، سندفع
 الثمن غاليا جدا . . .

فسال ايفان ايليتش :

- هل تظن ان الالمان سيغلبوننا ؟

- ومن يعرف ؟ من سيرسله الرب لعقابنا فنستجمل العذاب
 منه . . . لنفرض ان الخدم في حانوتي يداؤا يتوحون . سأتجمل
 بعض الوقت ، ثم اوجه لأحدهم ضربة على قفاه ، والآخر لطمه على
 رقبته ، والثالث اطرده شر طردة . . . ولكن روسيا ليست حانوتي ،
 بل هي استنمارة شاسعة . ان الرب رحيم بالعباد ، ولكن اذا
 لوت الناس الطريق اليه وحب تنظيف الطريق ، ام لا ؟ ذلك ما
 ارمى اليه . . . الرب انصرف عن العالم . . . ولا يمكن ان يوجد
 اربح من ذلك . . .

وضع المعجوز يديه على بطنه ، وغمض عينيه والتمعت نظارته
 لمعانا كالعا حين يهتز في ركن رفة الرمادي . خرج ايفان
 ايليتش من المقصورة ، ووقف عند نافذة في الممر ووجهه يكاد
 يلامس زجاجها .

كان يتسرب من الفتحة هوا ، منعش حاد . وورا النافذة كانت
 الخطوط النارية تتطاير في الظلام ، وتتشابك ، وتسقط على
 الارض . وحين والآخر كانت تمر سحابة رمادية من الدخان .
 وكانت عجلات القطار تترع مطاوعة . وصفرت القاطرة صفيرا
 ممدودا ، وهي تتعطف في منعطف ، واقت نار حجرة الوقود فيها
 ضوءا على القمم المخروطية لاشجار الشوح ، وقد برزت هذه من
 الظلمة ثم اختفت . وقرعت محولات الخطوط . واهتزت العربة
 اهتزازا خفيفا ، وموض قرص اخضر لمصباح ، ومرة اخرى مرت
 خطوط نارية طويلة بالنوافذ مثل مطر ناري .

وقبما كان ايفان ايليتش يراقبها امتلا قلبه بكل ما حدث
 خلال تلك الايام الخمسة غامرا ايساء بقرح مفاجئ . ولو كان في
 مقدوره ان يكلف هذا الشعور لاحد من الناس لاعتبر مجنونا .
 ولكن ذلك بالنسبة له ليس غريبا او بعيدا عن العقل ، ان كل شيء
 فيه واضح كل الواضح .

واحسن بان ملايين وملايين من الناس تعيش في ظلام الليل ،
 وتتعذب ، وتموت . الا انها تعيش بالمعنى الرمزي لهذه الكلمة ،
 وكل ما يحدث على الارض يحدث بهذا المعنى ، وتوحها تقريبا .
 وهذا التوهم من القوة بحيث لو بذل ايفان ايليتش اي جهد لتغيير
 كل شيء ، وصار مختلفا . وبين هذا التوهم يوجد صميم حي هو
 ايفان ايليتش ، بقاتمه المنحنية الآن على النافذة . انه مخلوق
 محبوب خرج من عالم الظلال ومنطلق وسط المطر الناري
 فوق العالم المتظلم .

واستمر هذا الشعور غير الاعتيادي لحب نفسه بضع توان ،
 وعاد الى المقصورة ، وضعه الى الرف العلوي ، ونظر الى يديه
 الكبيرتين ، وهو يخلع ثيابه ، وفطن لأول مرة في حياته بانهما
 جميلتان . والقاهما خلف راسه ، وغمض عينيه ، وترات دأشا
 له في الحال . كانت تحدد في عينيه با نفعال وعشق (حدث ذلك
 اليوم في غرفة الطعام . لفت دأشا بعض الكمك . دار ايفان ايليتش
 حول المائدة ، وتقدم منها ، وطبع قبلة على كتفها الدافئة .
 التفتت إلتفاتة سريعة ، فسألتها : «دأشا ، هل تقبلين ان تكوني
 زوجتي ؟» فاكثفت بان حدثت فيه .)

اما الآن ، وهو مضطجع على الرف ، يتخيل وجه داشا ، دون ان يشيعه هذا التخيل فقد احس ، ولأول مرة في حياته ايضا ، بالحبور ، وبنشوة كون داشا تحسه ، تحب الشخص ذا اليدين الكبيرتين الجميلتين .

ذهب ايفان ايليتش الى مصنع البليطخ في يوم وصوله الى بطرسبورغ ، وعين في احدى الورش ضمن التوبة الليلية . وكانت تغيرات كثيرة قد حصلت في المصنع خلال ثلاث سنوات . ازداد عدد العمال ثلاث مرات . كان جزء منهم شبانا ، وجزء آخر نقل من الازوال او من المدن الغربية ، وجزء اخذ من الجيش العامل . وكان العمال يقرأون الصحف ، ويلعبون الحرب ، والقصر ، والقصيرة ، وراسبوتين ، والجيالات ، وكانوا ساخطين ، وواقين جميعا من ان «الثورة ستندلع» بعد الحرب .

وكانوا ساخطين بشكل خاص على خلط الحنطة بالنخالة في المخابز ، واختفاء اللحم في الاسواق لعدة ايام متتالية ، واذا وجد فهو منتن ، والبطاطس اضر بها الصمغ ، والسكر قدر ، وعلاوة على ذلك فان الغلاء قد استشرى ، واصحاب الجوانيت ، وهم اغنياء حديثون ومضاربون ، قد اثروا من الصفقات الحريسية ، كانوا يشترون علبه الحلوى بخمسين روبلا ، وزجاجة الشمبانيا بمائة روبل ، ولم يريدوا ان يسمعوا ولو كلمة عن الصلح مع الالمان . اجيز ايفان ايليتش ثلاثة ايام لتدبير شؤونه الخاصة ، ففضى المادة كلها في التجارب في ارجاء المدينة بحثا عن شقة . وقد تفقد عشرات البيوت دون ان يعجبه واحد منها . ولكنه في اليوم الاخير عثر فجأة على ما لاح في خياله وهو في عربة القطار : خمس غرف صغيرة ذات نوافذ نظيفة تطل على مغرب الشمس . وكانت هذه الشقة الواقعة في نهاية جادة كامينواستروفسكي غالية بعض الشيء بالنسبة لايفان ايليتش ، ولكنه استأجرها في الحال ، وكتب يخبر داشا بذلك .

وذهب الى المصنع في الليل الرابع . كانت المصابيح مضاءة على الاعمدة العالية في الفناء المسود من قداره الفحم ، والدخان

الخارج من المداخن ينزل سافلا نحو الارض بفعل الرطوبة والريح ، والهواء اصفر ثقيل مشبع بذرات السخام . ومن خلال النوافذ تصف الدائرية الهائلة المغبرة في مبانى المصنع كان الناظر يرى دوران عدد ضخم من البكرات وسيور النقل ، وحركات اجسام المخارط الحديدية وهي تثقب ، وتخرط ، وتصفل الحديد والبرنز . وكانت الاقراص العمودية لمكابس التخريم تدور . وفي الاعلى كانت مقاصير الارتفاع تروح وتجيء في الظلام . وكانت افران الصهر تنوهج بضوء وردي وابيض ، والمطرفة البخارية الجبارة تهب الارض بضرباتها ، واعمد الهب تتصاعد من المداخن الواطئة في ظلام السماء الرمادية . وكانت اشباح الناس تتحرك وسط هذا الطنين وعدير الآلات

دخل ايفان ايليتش الورشة حيث كان المكابس تعمل صانعة اغلفة قنابل الشرايينيل . طاف المهندس ستروكوف به في انحاء الورشة شامحا له بعض خصائص العمل الجديدة على ايفان ايليتش . وكان هذا المهندس صاحبا قديما له . ثم دخل معه الى مكتب محجوز بالالواح الخشبية في ركن من الورشة ، حيث اطلعه على الكتب والسجلات ، وسمح له بالمفاتيح ، وقال له وهو يرتدى معطفه :

- نسبة التلف في الورشة هي ثلاثة وعشرون بالمائة من انتاجها العام . فعاول ان تتمسك بهذه النسبة .

وجد ايفان ايليتش في هذه الكلمات ، وفي طريقة تسليمه للورشة عدم اكثرث بالعمل ، وقد غمه ذلك ، فقد عرف ستروكوف مهندسا ممتازا ورجلا متحمسا في الماضي . عندئذ سأل :

- اتحسب من غير الممكن التقليل من نسبة التلف ؟

هن ستروكوف رأسه متثاقبا ، وسرح طاقته الى اسفل شعره غير المصفوف ، وعاد الى المخارط مع ايفان ايليتش . - ايصق على ذلك ، يا صاحبي . ما الذي يهتك فيه ؟ ايهما اننا سنقتل من الالمان في الجبهة اقل بنسبة ٢٣ بالمائة ؟ وبالإضافة الى ذلك ليس في اليد حيلة ، فان الآلات قد استهلكت ، فلتذهب الى الشيطان !

وتوقف عند مكبس ، وضع عامل عجوز قصير الساقين في

منزج جلدى قطعة حديد محمية الى حد الاحمرار تحست المكبس ، وهبط القالب ، ونفذ ذراع المكبس فى الفولاذ الوردى وكأنه ينفذ فى زبدة ، ويتطاير الذهب ، وارتفع القالب ، وسقط غلاف الشرايين على الارض الترابية . وفى الحال تناول العجوز قطعة جديدة . وكان عامل آخر شاب مديد القامة اسود الشاربين متشغلا عند فرن الصهر . قال ستروكوف مغاطبا العامل العجوز :

- اذن ، الاغلفة بالثلف ، يا روبليف ؟

ابتسم العجوز ، وادار لعينه الهزيلة الى جانب ، ونظر الى تليغين نظرة مآكرة بطرف عينيه الضيقتين :

- صحيح بالثلف . انظر كيف يعمل ؟ - ووضع يده على عمود صغير مخضر من الزيت كان قالب المكبس ينزلق عليه . - انه يهتز . كان يجب ان يلقى فى كومة المهملات منذ زمان .

ضحك العامل الشاب الواقف عند فرن الصهر ، وهو فاسيل بن ايفان روبليف وقال :

- هناك اشياء كثيرة يجب ان تقذف من هنا . الآلة ادركها الصدا .

قال ستروكوف بمرح :

- على مهلك ، يا فاسيل .

- تلك هى المسألة . . .

وهز فاسيل رأسه بشعره الأجدد . وظهرت تكسيرة خبيثة واثقة على وجهه التحيل العالى الوجنتين قليلا ذى العينين الثابتين الغاضبتين والشاربين الاسودين .

قال ستروكوف لابان ايليتش بصوت خافض وهو يبتعد :

- انهما احسن العمال فى الورشة . الى اللقاء . سأذهب اليوم الى «الاجراس الحمراء» . لم تذهب الى هناك ؟ كازينو ممتاز ، ويقدمون فيها النبيذ .

تليغين ليكتشفوا اهو من اصحابهم ام عدو لهم . وقد ادرك من البساطة الخاصة التى تحدث بها روبليف الاب والابن معه فى الايام التالية انهما يعتبرانه «من اصحابهم» .

وهذا الانحياز لم يكن يتعلق ، فى اغلب الظن ، بآراء تليغين السياسية التى كانت غير واضحة وغير محددة ، بل كان يتعلق ، على الاكثر ، بذلك الاحساس بالثقة الذى كان يوحيه وجوده لكل انسان . كان لا يتحدث ولا يقوم بشئ يلفت النظر ، ولكن كان واضحا انه رجل نزيه ، رجل فاضل ، صاف الى النهاية ، انه من اصحابهم .

وفى النوبات الليلية كان ايفان ايليتش اذا دنا من الاب والابن بسمعهما يتجادلان فى الغالب .

كان فاسيل روبليف رجلا مطعلا لا يفتأ يتحدث عن الصراع الطبقي وكتاتورية البروليتاريا ، وهو الى ذلك يتحدث بلبسة الكتب وبطلاقة . وكان روبليف الاب من اتباع الكنيسة القديمة ، مكارا وشيخا غير متدين البتة . وكان يقول :

- كل شئ مدون فى كتب الاديرة عندنا فى غايات بريم : هذه الحرب نفسها ، وكيف ستجلب الخراب ، ستدمر ارضنا كلها ، وكم سيبقى من الناس ؟ سيبقى منهم القليل النزر . . . وعندئذ سيخرج من الغايات ، من احد الاديرة رجل سيحكم الارض ، يحكم بكلمة الله الرهيبة .

فكان فاسيل يقول :

- التصوف .

- آه ، ايها الارعن ، الجلف ، اراك تتبجح بالالفاظ . . . تعتبر نفسك اشتراكيا ! . . . واى اشتراكى انت ! مجرد قوزاقى زيفى ! كنت مثلك ايام زمان . لا يهجم الا ان يتهاقت على الامر : فيدفع قبعته الى اذنه ، ويوسع عينيه ، ويصرخ : «انهضوا للنضال . . .» مع من ، ولاى شئ ؟ احق !

فيقول فاسيل مشيرا الى ابيه باهيامه :

- اسمع الى العجوز كيف يتحدث . فوضوى مترمتم . لا يفقه شيئا من الاشتراكية ، ولكنه لا يكف عن لومي ليعترض على فقط .

قاطعه ايفان رويليف ، وهو يخرج من قرن الصهر قطعة حديد متطايرة الشمر ورسم بها نصف دائرة في الهواء ووضعها بخفة تحت ذراع المكبس التازل :

- لا ، لا يا سادة . انتم تقرأون الكتب ، ولكنكم لا تطلعون الكتب التي ينبغي ان تطلع . والتواضع ليس بشيعة احد منهم ، ولا يفكرون فيه . . . ولا يفهمون ان كل انسان يجب ان يكون فقيرا في روحه في زماننا هذا .

- راسك مشوش ، يا ابي . من الذي صاح قبل حين وجيز : انا ثوري ؟

- نعم ، صحت . . . واذا حدث شيء فساكون اول من يمسك بمذرة للقتال . وما الذي يجعلني اتمسك بالقبض ؟ انا فلاح . وهل تعرف كم حرثت من الارض خلال ثلاثين عاما ؟ انا ثوري بالطبع . وهل تحسب انني لا اهمت بغلاص ورحي ؟

كان تليغين يكتب لداشا كل يوم . وكان ردها عليه اندر . كانت رسائلها غريبة ، وكانها قد منسها صقبع ، فكان ايفان ايليتش يحس وهو يقرأها بقشعريرة خفيفة . وكان في العادة يجلس الى النافذة معيدا عدة مرات قراءة رسالة داشا المكتوبة بسطور كبيرة مائلة الى الاسفل . ثم كان ينظر الى الغابة الرمادية الليلية على الجزر ، والى السماء الغائمة الكدره كماه الفناة ، كان ينظر ويفكر بان هذا ما يجب ان تكون عليه رسائل داشا لا بالرقه التي ردها لقصر رويته .

كثبت له :

«صديقي العزيز . تقول انك استاجرت شقة مؤلفة من خمس غرف . ففكر في النفقات التي ستثقل كاهلك بها . وحتى ان لم تعيش فيها وحده فان خمس غرف كثيرة . ثم انك ستحتاج الى خادمتين ، وهذا في ايامنا هذه غال للغاية . حل الخريف عندنا في موسكو ، والجو بارد . وممطر ، وما من بضيض . . . وعلينا ان ننتظر الربيع . . .»

وعندما ردت بنظرة على سؤاله يوم سفره : هل تقبلين ان

تكوني زوجتي ؟ لم تشر مباشرة في رسائلها قط الى القران ، ولا الى حياتهما المقبلة معا . كان يجب انتظار الربيع .

وصار انتظار الربيع هذا ، والامل المبهم اليانس في حدوث معجزة يراود الجميع الآن . توقفت الحياة . ودخل كل الاحياء في سبات الشتا مثل سبات دب يعض قائمته . وكان يبدو وكأن العره لم تعد له القوة ليتحجل انتظار ربيع دموي آخر الا في الحلم . ذات مرة كتبت داشا :

« . . . لم ارد ان اخبرك ولا ان اكتب لك عن وفاة بيسونوف . ولكنني يوم امس حكوا لي تفاصيل عن مقتله المريع . قبل خروجه الى الجبهة بوقت قصير التقيت به في بولفار تيفرسكوي . كان بانسا جدا ، يبدو لي انني لو لم اصدده آنذاك لما لاقى حتفه . ولكنني صدقته . وما كان لي الا افعل ذلك ، وساقبل الشيء نفسه لو اعيد العاضى» .

قضى تليغين نصف يوم في الرد على هذه الرسالة . . . «كيف يمكن ان تفكري بانني لا اتقبل كل ما يخصك» كتب ذلك ببطء شديد حريصا على ان تكون كل كلمة صادقة كل الصدق . «احيانا اختبر نفسي فأتصور انك احببت رجلا آخر ، وهذا افزع ما يمكن ان يحدث لي ، وحتى في هذا الحال ساقبل بذلك . . . ولا يعني هذا انني سأتضع لهذا ، لا ، فان شمسي مستظلم . . . ولكن هل حبي لك في الفرح فقط ؟ انا اعرف ذلك الاحساس الذي يراود المحب حين يريد ان يضحى بحياته بسبب حبه القوي . . . والظاهر ان بيسونوف احس بذلك الاحساس ، حين خرج الى الجبهة . . . وانت ، ياداشا ، يجب ان تشعرى بان كل مطلق الحرية . . . وانا لا اسالك شيئا ، حتى الحب . . . وقد ادركت ذلك في المدة الاخيرة . . .»

بعد يومين غادر ايفان ايليتش المصنع عند الفجر عائدا الى البيت ، ولدى وصوله اخذ حماما ، واستلقى في السرير ، ولكنه اوقف بعد قليل ، وسلم برقية :

«كل شيء بخير . احبك بشدة . داشاك» .

وفي يوم من ايام الاحاد جاء المهندس ستروكوف الى ايفان ايليتش ، واخذه الى كازينو «الاجراس الحمراء» .

كان الكازينو يحتل قبوا رسمت على سقفه المقوس وعلى

جدرانه طيور مبرقشة ، واطفال ذوى وجوه صغيرة منجلة وجعدات كثيرة الدلالة . كان الكازينو صاحبا وكثير الدخان . وعلى المسرح جلس رجل ضئيل الجسم اصلع محمر الخدين يضرب على البيانو . وكان بعض الضباط يشربون «كروشون» * قويا ، ويطلقون الملاحظات بصوت عال على النساء الداخلات . وبعض المحاميين المولعين بالفن يصرخون ويتجادلون . وكانت ملكة القيو ، الحسنة السوداء الشعر المتفتحة العينين تفهقه بصوت عال . بينما كان انتوشكا ارنولدوف يكتب رسالة من الجبهة ، وهو يلوى خصلة شعره . وكان مؤسس المستقبليّة - وهو طبيب بيطرى مشهور الوجه مسلول المظهر - يهوى متدل الرأس من السكر على منصة قرب العائط . وكان صاحب القيو - وهو ممثل سابق طويل الشعر وديع عليه حمول الامعان على الخفرة - يظهر بين الحين والآخر عند باب جانبي ناظر الى الزبائن بعينين مخبولتين ويختفى .

انتشى ستروكوف من «الكروشون» فقال يحدث ايفان ايليتشى :

- اتدرى لماذا احب هذا الكازينو ؟ لانك لن تستطيع ان تجد مثل هذا التعفن في مكان آخر . متعة . . . انظر ، الى تلك الزاوية ، هناك تجلس امرأة نحيفة مخيفة لا تستطيع حتى ان تحرك جسمها . هستيريا في آخر مراحلها ، ولكنها تحظى بنجاح خارق . وضحك ستروكوف ، وعيب من «الكروشون» واخذ ، دون ان يسمح شفثيه الغامعتين الظلمتين بشارب تترى ، يسمى لايفان ايليتشى اسما الجلائس مشيرا باصبعه الى وجوههم المؤزقة السقيمة الشبيهة بوجوه المجانين .

- هؤلاء آخر الموهيقان * . . . بقايا الصالونات الجمالية . باه ! عفن . باه ! وقد تقوقعوا هنا . يتظاهرون بانهم لا توجد حرب ، وان كل شيء كما هو في الماضي .

* مزيج لعدة انواع من النبيذ الالبيش والكوكويلاك والروم .
(الترجم)

** قبيلة متفرقة من الزنوج الحمر في امريكا الشمالية .
(الترجم)

اخذ تليغين يتسمع وينظر . . . وكان كل شيء يبدو لعينيه كالحلم بسبب الحر والدخان والتبديد ، وكان رأسه يدور . . . رأى بعض الاشخاص يلتفتون الى باب المدخل ، والطبيب البيطرى يفتح عينيه المصفرتين ، ووجه صاحب الكازينو المخبول يبرز من وراء العائط ، والمرأة شبه الميتة الجالسة الى ناحية من ايفان ايليتشى ترفع جفنيه الناعسين ، وترتد الحياة الى عينيه فجأة ، وتستقيم قامتها بحيوية غريبة وهي تنظر الى حيث كان الجميع ينظرون . . . وراى سكون مبالغت في القيو ، ورن قدح عند سقوطه . . .

كان رجل كهل متوسط الطول يقف في باب المدخل وقد دفع كتفيه الى الامام ، وحشر يديه في جيبي ردائه الجوخى ، كان وجهه الضيق يلحيتي السوداء المتدلية يتسجم مرحا بغضضيه العميقين العالوفين ، وشعته في وجهه عيناى ذكيتان نفاذتان متفصصتان ملتهبتان بلون رمادى . وقد استمر ذلك دقيقة . ومن ظلام الباب اقترب منه وجه آخر - وجه مؤلف - ارتسبت عليه بسمة مقلقة ، وهمس له شيئا في اذنه . غض الرجل انه الكبير كارها :

- مرة اخرى انت وسخافتك . . . آه ، كم مسئمت .
والقى نظرة اخرى الى رواد القيو بصرح اشد ، وهز لعينه ، وقال بصوت عال معدود :

- وداعا ، يا اصدقائى العرجين .
واختفى في العال ، وصفق الباب . وسرى طنين في انحاء القيو كله . فرغ ستروكوف اظافره في يد ايفان ايليتشى ، وقال لاهت الانفاس :

- هل رايت ؟ رايت . . . هذا راسبوتين .

٣٣

خرج ايفان ايليتشى من المصنع ماشيا في الساعة الثالثة يعد منتصف الليل . كانت ليلة قارسة من ليالى كانون الاول ، ولم يصادف عربة ليستأجرها ، فقد اصبح الآن من الصعب الحصول على واحدة منها في مثل هذه الساعة حتى في مركز المدينة . سمار تليغين بسرعة في وسط الشارع المقفر ، متنشفا البخار في ياقته المرفوعة .

كان الهواء كله يبدو في ضوء المصابيح النادرة متقبا باهر الجعد ، وكان الثلج يخشمش تحت قدميه بصوت عال . والى الامام لمحت عيناه ومضات ضاربة الى الحمرة تراقص في الواجهة الصفراء المسطحة لاحد البيوت . استدار تليقين في منعطف ، وراى لهب نار في مجرة مشبكة ، وشخصا مثلثة مندرجة وسط سحب من البخار . والى مسافة ابعد على الرصيف وقف زهاء مائة شخص بلا حراك في صف واحد من النساء والشيوخ والعلمان . انه طابور يقف قرب حانوت لبيع الاغذية ، وعلى مقربة كان العارس الليلى يطلّب بحدائه اللبّادى ، ويضرب قفازيه احدهما بالآخر .

سار ايفان ايليتش بمحاذاة الطابور نظارا الى المشغوص المتكشمة الملتصقة على الحائط ، الملتفة بالمناديل ، والبطانيات . وسمع صوتا يقول :

- يوم امس حملوا ثلاثة حوانيت في منطقة فيبورغسكايا .
- هذا ما يقى .

- يوم امس حملوا ثلاثة حوانيت في منطقة فيبورغسكايا .
يكون هناك كبروسين بعد الآن . وبينما انا هناك جاءت طباحة آل ديميتيف ، واخذت خمس زجاجات بسعر قاحش .

- يكم ؟
- الزجاجاة برويلين ونصف ، يا فتاتى .

- الكبروسين ؟
- لن يقلت صاحب الحانوت من العقاب . سمنذكراه اذا دقت الساعة .

- قالت اختى في اوختا ان الناس امسكوا صاحب حانوت من هذا الصنف ، وحشروا راسه في برميل مملوء بالماء المخلل وغرق فيه وهو يتوسل اليهم ان ينقذوه .

- لم يعاقبه بما فيه الكفاية ، يجب ان يعذب اكثر .
- ونحن نتجمد في الطابور .
- وهو ينتفض بالشاى .

سال صوت مبحوح :
- من الذى ينتفض بالشاى ؟
- كلهم ينتفون بالشاى . زوجة الجنرال التى اخدم عندها

تنهض في الساعة الثانية عشرة ، وتظل تشرب الشاى حتى الليل ، ولا اعرف كيف لا تنفجر هذه البلهاء .

- وتجمد انت ، وامرض بالسل .
- قولك صحيح تماما ، عندى سعال بالفعل .

- اما الفتاة التى اخدم عندها ، يا اعزائى ، فهى محظية .
اعود من السوق فاخذ الضيوف يملؤن غرقسة الطعام في بيتها ، وجميعهم سكارى . وفي الحال يطالبون بالببيض العقلى ، والنخب والفودكا ، وباختصار بطعام بسيط ومشروب قوى .
وارتفع صوت واتق :

- ينفقون النقود الانجليزية في شرب الخمره .
- ما هذا الذى تقوله ؟

- باعوا كل شى . صدقونى ، فانا اعرف ما اقول . انتم تقفون هنا ، ولا تعرفون شيئا ، بينما هم باعوكم جميعا ولمدة خمسين عاما مقدما . كما باعوا الجيش كله .

- يا اىهى !
ومرة اخرى ارتفع صوت مبحوح يتادى :
- يا حضرة العارس ، يا حضرة العارس !

- ماذا حصل ؟
- هل سبياع الملح اليوم ؟

- على اكثر الاحتمالات لا يباع الملح اليوم .
- آه ، الملائح .
- منذ خمسة ايام والملاح غير موجود .

- الاوغاد يمتصون دم الشعب .
قال العارس بصوت عالى الشبرة كئيب :
- كفى كلاما ، يا نساء ، والا فان الحجره ستصاب بالبرد .

وخلف تليقين الطابور وراه . وهذا لغف الاصوات الغاضب ، ومن جديد خيم القفر والظلام الزمهريرى .

وصل ايفان ايليتش الى الكورنيش ، واستدار الى الجسر ، وحين عبثت الريح باطراف معطفه تذكر ان عليه ان يبحث عن عربه ، على اية حال ، الا انه سرعان ما نسى ذلك . كانت عيون

المصائب تتواضع على الشاطئ، الآخر باعثة لا يكاد البصر يلمحها . وكانت اللامعات الخافتة من ممر المشاة عبر النهر تنعكس خطأ مانلا على الجليد . وكان المتسع العريض المتفرق المظلم أنهر النيفا نهبه لريح قارسة تحدث عوايلا بالثلج ، وصغيرا شمكيا في أسلاك خطوط الترام ، وفي فتحات درازبين الجسر الحديدى .

كان إيفان إيليتش يتوقف من حين لآخر ، ويحدق في تلك القعة الموحشة ، ثم يواصل سيره ، ويفكر ، كدأبه الآن في التفكير في اتجاه واحد : في دأشا ، وفي نفسه ، وفي تلك اللحظة التي راودته السعادة كالنار ، وهو في عربة القطار .

كان كل شيء يكتنفه الآن مبهما مضطربا متناقضا معاديا لتلك السعادة . وكان يضطر في كل مرة ان يبذل جهدا ليقول لنفسه : اننى حى ، سعيد ، وستكون حياتى منيرة رائعة . لقد كان من السهل ان يقول هذا الكلام حين كان عند النافذة وسط شرارات القطار المتطلق ، بينما صار الآن يحتاج الى جهد هائل ليفصل نفسه عن تلك الشخص المتجمدة تقريبا في طواير الانتظار ، عن الوحشة المبيتة للريح المعولة في كاتون الاول ، عن الشعور بالخسارة العامة ، والهلاك المعلق فوق الرؤوس .

كان إيفان إيليتش وانقما من شيء واحد : كان يجد خيرا في اشياء جملة : في حبه لدأشا وفي فتنة دأشا ، وفي ذلك الاحساس السار الذي راوده وهو واقف آنذاك عند نافذة العربة وفي حب دأشا له . ان معبد الحياة المريح العريق ، المكثف زينا ، والرائع رغم ذلك ، قد اهتز ، وتصعد بضربات الحرب ، وتمايلت اعمدته ، وظهر صدع على عرض قبته ، وتساقت الحجارة القديمة ، وهناك وسط الغبار المتطاير ، وهدير المعبد المعظم شخصان : إيفان إيليتش ودأشا ، كانا وهما في حيا الحب البهيجة ، ورغم كل شيء ، يطمحان في ان يكونا سعيدين . فهل ذلك صحيح ؟

فكر إيفان إيليتش ، وهو يمد بصره في الظلمة الليلية الموحشة ، ونقاط الاضواء المتواضعة ، ويسمع الريح تصفر كتواح يمزق القلب : «لماذا اغتال نفسى ؟ ان الرغبة في السعادة اسمى الاشياء . وانا واقف فيها ، وليكن ذلك بالرغم من كل شيء» .

فهل استطيع انا القضاء على الطواير امام الحوانيت ، واطلعام الجعاع ، وايفاف الحرب ؟ لا . ولكن اذا كنت لا استطيع فهل يتحتم على ايضا ان اتلاشى في هذا الديجور ، وارفض السعادة ؟ لا ، ليس حتما . ولكن هل استطيع ان اكون سعيدا ؟ هل سأكون سعيدا ؟ ..

قطع إيفان إيليتش الجسر . وسار على شارع الكورنيش دون ان يلاحظ الطريق الذى يسلكه . كانت المصائب الكهربائية العالية المهترئة بفعل الريح ترسل ضوءا ساطعا . وكان رذاذ الثلج يتناثر على الرصيف العالى بهسوسة جافة . كانت نوافذ قصر الشتاء مظلمة خاوية . عند كشك الحراسة المغطى في الثلج الموكوم وقف حارس عملاق مرتديا سرا فروة خروف ، ضاغطا البندقية على صدره .

كف إيفان إيليتش عن السير فجأة ، وتطلع الى النوافذ ، ثم حث خطاه مضارعا الريح في بادى الامر ، ثم مدفوع بها من ظهره . وبدا له انه يستطيع الآن ان يقول للجميع ، لكل الناس قاطبة ، حقيقة بسيطة واضحة ، فيصدقون بها جميعا . يستطيع ان يقول لهم : «انتم ترون ان المضى في العيش على هذه الطريقة مستحيل . الدول قائمة على البغضاء ، والحدود مخططة بالبغضاء . وكل واحد منكم كتلة من البغضاء ، قلعة مصوبة مدافعها الى كل الجهات والدنيا مكتظة ورهيبية ، والعالم كله مختنق بالكرامية والناس يفتك بعضهم بعض ، وتسيل انهار الدم . ألم يكفكم هذا ؟ ألم تذكروا بعد ؟ اتريدون ان يقضى الانسان على الانسان ، هنا ايضا ، في كل بيت ؟ توبوا الى رشدكم ، والقوا السلاح ، وحطموا الحدود ، واتحوا ابواب الحياة ونوافذها ... هناك الكثير من الارض للحيوب ، والكثير من المروج للماشية ، والكثير من المنحدرات للكروم . . . ويطون الارض لا تنضج ، ولكل انسان متسع من الارض . . . امن المعقول انكم لا ترون انكم ما تزالون في سلام القرون الغابرة . . .»

لم تظهر عربة في هذه الناحية من المدينة . عبر إيفان إيليتش النيفا ثانية ، وتوغل في الشوارع الصغيرة الملتوية في منطفقة بطرسبورغسكيا . واصل طريقه وهو غارق تفكيره ومنجاة

كانت اللغة الملقوفة بحصيرة ، والتي القاها الثلاثة من القنطرة في ثغرة الجليد تحتوي على جثة راسبوتين القاتل . وقد اقتضى نهبنا هذا الرجل القوي الذي كان يملك حيوية لانسانية ان يسقى نهبنا مخلوطا بسمانيد البوتاسيوم ثم يطلق عليه الرصاص في صدره وظهوره وقفاه ، ثم يهشم راسه بوصلة مفضلية . ومع ذلك فحين عثر على جثته ، وأخرجت من ثغرة الجليد قرر الطبيب ان راسبوتين لم يلفظ نفسه الاغيرة الا تحت الجليد .

كان هذا القتل بمثابة اباحة لكل ما كان قد بدأ بعد شهرين . وقد قال راسبوتين غير مرة ان العرش سينهار بموته ، وتسقط سلالة رومانوف الحاكمة ، والظاهر ان هذا الرجل الوحشي الضاري كان يملك حاسية غامضة لتشوف المحنة ، على غرار الحاسية التي تملكها الكلاب قبيل حلول وفاة في البيت ، وقد مات ، بصعوبة شديدة ، آخر حماة العرش ، الفلاح وسارق الخيول ، والغول المتعصب .

وبوته خيم جزع مشؤوم على القصر ، بينما عمت البهجة ارجاء البلاد ، وراح الناس يهني بعضهم بعضا . وكتب نيقولاي ايفانوفيتش الى كاتيا من مينسك : «في ليلة وصول النبا اوصى ضباط هيئة الاركان للقائد الأعلى على ثمانى دوؤنية من الشمينيا للمناذرة المشتركة . وردد الجنود في الجبهة كلها هتافا ، التحليل . . .»

وبعد عدة ايام نسي الناس في روسيا مقتل راسبوتين الا ان القصر لم ينس . فقد كان اهله يؤمنون بنبوءته ، واستعدوا لمواجهة الثورة بياس منحوس . فقسمت بتروغراد سرايا الى اقسام ، وطلبت الرشايات من كبير الامراء سيرغي ميخائيلوفيتش ، ولما رفض تسليمها طلبوها من ارخانغلسك ، وخرّنت اربعمئة وعشرون رضاشة في عمليات البيوت ومفارق الشوارع . وزيد الضغط على الصحافة ، وكانت الصحف تصدر وفيها اعمدة غير مكتوبة . وكتبت الامبراطورة الى زوجها رسائل مفعنة بالياس ساعية الى ان تثير فيه الغريزة وضلابة النفس . الا ان القيصر ظل قابعا كالسحور في مونغيليف

نفسه بصوت مسموع ، فطاف على غير هدى في شوارع مقفرة مهلهلة الظلمة حتى خرج الى كورنيش لقناة .

«بالها من نزهة !» وتوقف ايفان ايليتش ملتقما انفاسه ، وضحك ، ونظر في ساعته . وكانت في تمام الخامسة . خرجت من منعطف قريب سيارة كبيرة مكشوفة متطفنة المصابيح يهس التلج تحت عجلاتها يسوقها ضابط في معطف عسكري مفتوح الازرار . كان وجه الضابط الضيق الحليق شاحبا ، وعيناه جامدتين ، مثل عيون المفرطين في السكر ، والى الخلف منه جلس ضابط آخر سرح تبعته على علباته ، ولم يكن وجهه مرنيا لتليغين ، فقد كان يسكب بكلتا يديه لفة ملفوفة بحصيرة . وكان ثالث ركاب السيارة في ملابس مدنية يرفع ياقة معطفه ويضع على راسه قبعة عالية من فرو عجل البحر . رفع جسده قليلا ، وامسك بكتف السائق ، توقفت السيارة غير بعيد عن القنطرة . وراى ايفان ايليتش الثلاثة يقفزون منها الى التلج ، ويخرجون اللغة ، ويسحبونها لعدة خطوات على التلج ثم يدفنونها بهجد ، ويوصلونها الى منتصف القنطرة ويحملونها فوق درابزين القنطرة . ويسقطونها في الماء . عاد الضابطان الى السيارة في الحال ، بينما انحنى المدني لبعض الوقت ماذا بصره الى الاسفل ، ثم ازل ياقته ، وركض لاحقا برفيقه . وانطلقت السيارة باقصى سرعتها ، واختفت .

تمتم ايفان ايليتش في سره : «اوه ، يا للقدارة» . فكان طوال هذا الوقت واقفا حابسا انفاسه ، سار الى القنطرة ، ولكنه مهما امن النظر لم يلتقط بصره شيئا في الثغرة السوداء الكبيرة في الجليد تحت الجسر . لا شيء غير بقعة الماء الدافئ المنث من انبوب تصريف المياه .

«اوه يا للقدارة» - تمتم ايفان ايليتش ثانية وتعبس ، وسار على الرصيف المعاذي للقناة . حصل اخيرا في زاوية الشمارع على زلاجة يجرها حصان غليظ الشفتين ، كان سائق الزلاجة العجوز منكمشا متخسبا من البرد . وحين صعد ايفان ايليتش الى الزلاجة وشد الدثار المتجدد وانغمض عينيه ، كان كل جسده ين من التعب . وفكر مع نفسه : «انا محب ، وتلك هي الحقيقة . ومهما فعلت ، واذا بدافع الحب هذا ، فهو جيد» .

وسط العشرة ملايين من المقاتلين الموالين له - وكان لا يشك في ولائهم . ولم تكن النساء المتعزبات ، واللغظ في الطواير على الطعام في بتروغراد يهجم أكثر مما كان تهجم جيوش الامبراطوريات الثلاث الضاغطة على الجبهة الروسية . وفي ذلك الوقت وخفية عن القصر كان الجنرال الكسيف رئيس هيئة الاركان للقائد الاعلى يعد الخطة في موغيليف لاعتقال القيصرة ، والقضاء على الكتلة الالمانية في البلاط .

في كانون الثاني وقع على قرار الهجوم في الجبهة الشمالية توقعاً للحملة الربيعية . وبدأت المعركة قرب ريغا في ليلة زهميرية . وارتفعت عاصفة ثلجية مع اطلاق نيران المدفعية . وزحف الجنود في الثلج العميق ووسط عويل العاصفة الثلجية ، وهب القذائف المنفجرة بفرادة . واشتركت عشرات الطائرات في المعركة لمساندة الوحدات المهاجمة فجرفتها الريح نحو الارض ، وفي ظلام العاصفة الثلجية راحت تصب نيران رشاشتها على القوات المعادية والقوات الروسية دون تمييز . لقد كانت روسيا تحاول للمرة الاخرى تحطيم الطوق الحديدي المطبق عليها ، وللمرة الاخرى كان الفلاحون الروس المرتدون اليدلات المموهة البيضاء والريح تدفعهم من ظهورهم يقاتلون في سبيل الامبراطورية التي كانت تحتل سدس العالم ، وفي سبيل الحكم المطلق الذي استطاع ذات مرة ان يبنى دولة كبرى ويهدد العالم ، والذي لم يعد الآن غير اثر مسن آثار الماضي كان يجب ان يقبر من زمان ، وسخافة تاريخية ، ومرضا مميّتا للبلاد كلها .

واستمرت المعركة الضروس عشرة ايام ، وتناثرت آلاف الجثث تحت اكوام الثلج . واوقف الهجوم وجمد . وخدمت الجبهة في الثلوج .

٣٥

كان ايفان ايليتش قد نوى السفر الى موسكو في عيد الميلاد ، الا انه بدلا من ذلك اوقف من قبل المصنع الى السويد ، ولم يعد منها الا في شباط ؛ ولدى وصوله استطاع ان يحصل على اجازة لمدة

ثلاثة اسابيع ، وابق لداشا بانه سيقادر في السادس والعشرين من الشهر .

وكان عليه قبل السفر ان يعمل اسبوعا كاملا في الورش . وقد ادهشته التفورات التي حدثت خلال غيابها : اوضحت ادارة المصنع لجنة الجانب بادية الاهتمام على غير عاداتها ، بينما بلغ الحق عند العمال حدا كان يخيل اليك معه ان احدهم سينقذ مفتاح الربط على الارض في اللحظة التالية ، ويصرخ : «اتركوا العمل ، واخرجوا الى الشارع . . .»

وقد انارتهم في هذه الايام بشكل خاص محاضر مجلس دوما الدولة حيث كانت تجري المناقشات حول قضية الطعام . وكان واضحا جدا من تلك المحاضر ان الحكومة التي كانت تحافظ بالكاد على رباطة جأشها وكرامتها تبدل آخر قواها لتتقف امام الهجوم ، وان الوزراء القيصرين لم يعودوا يتحدون كالعالمة الاسطوريين ، بل بلغة البشر ، وان اقوال الوزراء وما يقال في الدوما مناف للحقيقة ، بينما الحقيقة هي على السنة الجميع : شائعات مشؤومة غامضة عن هلاك شاميل موشك الوقوع في الجبهة والمؤخرة بسبب المجاعة والخراب .

انثناء العمل الاخير لاحظ ايفان ايليتش قلقا غير اعتيادي عند العمال . فقد كانوا يتركون المخارط باستمرار ويتناورون ، والنظارهم انهم ينتظرون اخبارا معينة . وعندما سال فاسيلي روبليف فيم يتشاور العمال ، التي فاسيلي سترته الميطنة على كتفه بحق ، وخرج من الورشة ، وصفق الباب . وقال ايفان روبليف :

- صار فاسيلي سييء الطبع بشكل فظيع . وقد حصل على مسدس من مكان ما ، وهو يحمله معه .

الا ان فاسيلي عاد بعد وقت قصير ، واحاط به العمال في اتص الورشة وتقاطروا من جميع المخارط . واخذ فاسيلي يقرأ ورقة بيضاء يصوت عال ويتشديد على المقاطع : «بيان قائد قوات منطقة بطرسبورغ الفريق خابالوف . في الايام الاخرى كان توزيع الطحين على المغابز ، وخبز الخبز يجريان بنفس الكمية المعتادة مسن قبل . . .»

واذا بالاصوات تتعالى :

- كذب ، كذب . انهم لا يبيعون الخبز منذ ثلاثة ايام . . .
 - «ولا يمكن ان يوجد نقص في بيع الخبز . . .»
 - امر وتصرف ؟
 - «واذا كان هناك نقص في الخبز لدى بعض الحوانيت فان ذلك راجع الى ان الكثيرين راحوا ، تخوفاً من نقص فيهم ، يشترونه لصنع البقسماط . . .»
 وزعق صوت :

- ومن يصنع البقسماط ؟ عسى ان يتخنتق به .
 وصاح فاسبلي بصوت اعلى :

- اسكتسوا ، يارفاق . يجب ان نخرج الى الشارع ، يارفاق . . . هناك اربعة آلاف عامل من مصنع اوبوخوفسكى يزحفون على جادة نيفسكى . . . وهناك عمال آخرون قادمون من منطقة فيبورغسكايا . . .

- صحیح ! لبرونا الخبز !

- لن يروكم الخبز ، يارفاق . لا يوجد في المدينة من الطحين الا ما يكفي لثلاثة ايام ، وبعدها لن يكون هناك لا خبز ولا طحين . القطارات كلها متوقفة وراء الاورال . . . وهناك السائيلوات مملوءة بالقمح . . . وفي تشيلياينسكى كميات هائلة من اللحوم تتعفن في محطة القطار . وفي سيبريا يشحون العجلات بالزبدة . . .

وهدرت الورشة كلها ، ورفع فاسبلي ذراعه قائلاً :
 - ايها الرفاق ، لا احد يعطينا الخبز اذا لم نأخذهُ نحن
 بأيدينا . . . لنخرج مع عمال المصانع الأخرى الى الشارع تحت شعار : «كل السلطة للسوفييتات» . . .

فهتف العمال متراكضين في الورشة :

- اوقفوا المخارط ! . . . اتركوا العمل ! . . . اطفئوا افران
 الصهر ! . . .

تقدم فاسبلي وروليف من ايفان ايليتش ، وكان شارباًه يرتجفان ، وقال بلهجة واضحة :

- انصرف ، انصرف قبل ان تتأذى !

تام ايفان ايليتش بقية تلك الليلة نوما سينا ، واستيقظ قلقاً . كان الصباح غائماً وكانت قطرات الماء تتساقط على الافريز

العديد في الخارج . . . بقى ايفان ايليتش ستمتلقياً يستجمع افكاره . لا ، لم يزايله القلق ، والقطرات تشير اعصابه ، وكانها تسقط في داخل دماغه . «لا حاجة الى الانتظار حتى السادس والعشرين ، بل يجب ان اسافر غداً» . فكر على هذا النحو وخلص قهيصه . ومشى الى الحمام عازباً ، وفتح الدش ، ووقف تحت الرشاش اللاذع البرودة .

كان لديه الكثير من المشاغل قبل السفر . فشرب قهوته على عجل ، وخرج الى الشارع ، وغفز الى ترام غاصى بالناس . وهنا ايضا احس باضطراب . كان الركاب يجلسون صامتين متجمعين على عاتقهم طابون ارجلهم ، متزعين اطراف ثيابهم من تحت من يشاركونهم المقاعد ، كانت ارضية الترام لزجة ، وقطرات الماء تتساقط على نوافذه ، والجرس بالقرب من سائق الترام يدق متراً للاعصاب . وكان يجلس قبائله موظف عسكري له وجه اصفر منتفخ قليلاً ، وقد جمدت ابتسامة عرجة على فمه الحليق ، وكانت عيناه تنظران يتساؤل وبحيرة لا تميزان بهما على ما يبدو . وحين امعن ايفان ايليتش النظر لاحظ ان جميع الركاب ينظر بعضهم الى بعض بنفس النظرة المتساوية الجري .

توقف الترام عند زاوية جادة بولشوى . وتعملل الركاب ، واخذوا يجيلون ابصارهم ، وقفز بعضهم من الترام . نزع سائق الترام مفتاح التدوير ، ووضع في صدر معطفه القرائى الازرق ، وفتح الباب الامامى قليلاً ، وقال بانفعال غاضب :

- الترام سيبتوقف عند هذا الحد .

كانت عربات الترام تقف في جادة كامينوستروفسكوى ، وجادة بولشوى كلها على امتداد البصر . وكان جمهور من الناس يتحرك على الارصفة كبقع سوداء . وبين العين والآخر كانت تهبط الضفافة الحديدية على ناقذة احد الحوانيت مجددة دويماً . وتساقت تلجح رطب .

صعد على سطح احدى عربات الترام رجل ذو معطف طويل مفتوح ، وانتزع طاقيته ، وراح يصرخ بشيء على ما يبدو . وتعالى بين الجمهور و- و- . اخذ الرجل يربط حبلًا بسطح الترام ، وانتصب ثانية ، وانتزع طاقيته مرة اخرى . وتعالى مرة

أخرى في الحشد و- و- و! قفز الرجل إلى الرصيف . وماج الحشد متراجعا . وعندئذ تجلت للعين جمهرة كثيفة من الناس تجر الجبل الذي ربط بعربة الترام منزلة على الثلج الأصفر القذر . وبدأت العربة تنحط إلى جانب . وترجع الناس ، وصقر الضبيان . إلا ان العربة ترنحت ثم عادت إلى وضعها السابق ، وارتفع صوت انطباق عجلاتها على السكة . عندئذ انضم إلى الساحبين أناس تقاطروا من مختلف الجهات ، وامسكوا بالجبل باهتمام وصمت ، وجنحت العربة مرة أخرى ، وانقلبت نجاة وتهشم زجاج نوافذها . تقدم الناس نحو العربة المقلوبة ، وهم ما زالوا على صمتهم .
- واختلط العابل بالنابل !

سمع إيفان إيليتش ذلك الموقف العسكري ذا الوجه الأصفر المنتفخ يقول هذه الجملة من ورائه . وارتفعت في الحال عدة أصوات متناثرة مقطوعة :

سقطتم مرضى في الضال الحاسم ...

ورأى إيفان إيليتش في طريقه إلى جادة نيفسكي نفس النظرات الحائرة والوجوه المضطربة . كان المستمعون المتعظمون يلتفون حول رواة الأخبار مثل دوامات صغيرة . وعند مداخل البيوت وقف يوايون مبتلنو الأجسام . وأطلت خادمة بوجهها تنظر في الشارع . كان سيد ذو لحية معتنى بها يرتدى معظفا مبطنا بالفراء مفتوح الأزرار ، ويحمل محفظة يسأل الكناس :

- قل لي ، يا صاحبي ، ما هذا الحشد هناك ؟ ماذا يحدث هناك ؟

- يطالبون بالخبز ، أيها السيد ، ويتمردون .

- واضح !

وعند مفترق الطرق وقفت سيدة شاحبة تحمل كلبا نحيلاً واعشاً رجلاه الخلفيتان متدللتان مرتعشتان وكانت هذه السيدة تسأل كل من مر بها :

- ما هذا الحشد ؟ .. ماذا يريدون ؟

هتف السيد ذو المعطف المبطن بالفراء مرحبا ، وهو يصر

بها :

- في الجور راحة ثورة ، إيتها السيدة .

سار عامل على الرصيف وطرفا سترته من فراء الخروف يخفقان بشدة ، واختلج وجهه السقيم . التفت فجأة وصرخ بصوت متقطع باك :

- يارفاق ، هل سيظلون يشربون دمننا زمنا طويلا ؟ .

أوقف ضابط ممثلي الخدين صبور الاسايرير العربة التي كان يستقلها ، وامسك بحزام السائق . وحدق في الناس المضطربين وكأنه يحدق في كسوف الشمس .

وصاح العامل عليه وهو يمر به بصوت ناشج :

- تفرج ، تفرج !

وتعاطف حشد الناس ، وصار يشمل الشوارع كله وهدير هديرًا متفعلًا ، وتحرك باتجاه الجسر . وارتفعت اعلام بيض في ثلاثة أماكن . وجرف هذا السيل المارة في طريقه كالقش . عبر إيفان إيليتش الجسر مع الحشد . كان بعض الخيالة يعدون على خيولهم عبر ميدان «مارسوفو بوليه» المضبب المكسو بالثلج السفور بأثار حوافر . وحين راوا الحشد اذاروا خيولهم ، واقتربوا منه بخلوات وئيدة . ضحك احدهم ، وهو عقيد مورد الوجدنين مشقوق اللحية ، رافعا يده بالسحجة . وتعالى في الحشد غناء ثقيل جزع . وطارت غربان شعثاء من الاغصان العارية الداكنة ، من ظلام الحديقة «ليتنس» ، نفس الغربان التي افرعت ذات مرة قاتلي الامبراطور بافل .

سار إيفان إيليتش في المقدمة ، وكان يحس بغصة في حنجرتة . تتحنج ليزلها ، إلا ان الانفعال كان يتصاعد من اعماقه مرة بعد اخرى . بلغ حصن اينجنيرني فاستدار شمالا ، وسار في جادة ليتيني .

كان جمهور آخر من الناس ينضب في جادة ليتيني قادما من منطقة قيبووغسكابا . وقد امتد إلى مسافة طويلة في الجسر . وكانت بوابات البيوت على طول طريقه غاصة بالفصوليين والوجوه المنفعلة في جميع النوافذ .

توقف إيفان إيليتش عند بوابة احد البيوت على مقربة من موظف عجوز كانت الرعشة تسرى في وجنتيه الشبيهتين بوجنتي

كذب . وكان صف من الجنود الجامدين المتكئين على بنادقهم يسد الشارع بعيدا الى اليمين .

اقترب الحشد وتباطأ سيره . وتطايرت اصوات مذعورة متجهة الى وسطه : «قفوا ، قفوا ! . . .»

واذا بالاف من الاصوات النسائية العالية تعول مرعدة : «خبز ، خبز ، خبز ! . . .»

قال الموظف : «لا يجوز السماح بهذه المشاهد» والقي نظرة صارمة على ايفان ايليتش من فوق نظارته . وفي تلك اللحظة خرج بوابان ضخمان من احدى البوابات وراحا يدفعا الفضوليين بكتفيهما . اهزت وجنتا الموظف ، وزعقت سيده شابة ترتدي نظارة الفية : «لا تتجاسر ، ايها الابله !» الا ان البوابة تـُـدِغـُـت اغلقت . واخذت مداخل البيوت والبوابات تغلق في الشارع كله .

وتعالصت اصوات مذعورة :

— لا داعي ، لا داعي !

واقترب الحشد الهادر . وطلع في مقدمته شاب ذو وجه محمر الخدين منفعل يضع على راسه قبعة عريضة العافة . وترددت اصوات :

— الريبة في المقدمة ، الريبة في المقدمة !

وفي تلك اللحظة ظهر امام صف الجنود ضابط ضخم ضيق الخصر يرتدي قبعة قوزاقية بميلان . وضع يده على قراب المسدس عند خصره ، وصرخ بصوت كان من الممكن ان تفهم منه هذه الكلمات : «صدر امر باطلاق النار . . . لا اريد سفك الدماء . . . تفرقوا ! . . .»

فارتفعت اصوات وحشية :

— الخبز ، الخبز ، الخبز !

وزحف الحشد على الجنود . . . وبدأ الناس يهرون بايفان ايليتش والطيش في عيونهم . . .

— الخبز ! . . . يسقط ! . . . اوغاد ! . . .

وسقط اقدمهم . وصرخ مستطار اللب رافعا وجهه المتغضن :

«اكرههم . . . اكرههم !»

وفجأة صدر في الشارع صوت مثل صوت تمزيق قماش خشن . وسكن كل شيء في الحال . وشد احد الطلاب على طاقيته بين اصابعه ، وغاص في الحشد . . . ورفع الموظف يده المعقدة ليرسم علامة الصليب . واطلقت طلقة في الهواء ولم تتبعها طلقة اخرى الا ان الحشد تراجع . بعضه قد تفرق ، والبعض الآخر توجه الى ساحة زتامينسكايا . ومعه الريبة . وبقيت تبعات وكالوشى ملقاة على الثلج الاصفر في الشارع . طلع ايفان ايليتش الى جادة نيفسكي فسمع نائبة هدير اصوات كثيرة . انه حشد ثالث كان قد عبر

التيغا قادما من جزيرة فاسيليفسكي . وكانت الارصفة مكتظة بالنساء الانقيات ، والعسكريين ، والطلاب ، وغرباء لهم مظهر اجنبي . وكان ضابط انجليزي ذو وجه وردي طفلي يقف كالعمود . وكانت الباععات ذوات المراتب السوداء في شعورهن يضغطن وجوههن المبودرة على زجاج ابواب المخازن . بينما سار حشد غاضب من العاملات والعمال في وسط الشارع متغلغلا في امتداده الضبابي ، وهو يعول : «الخبز ، الخبز ، الخبز ! . . .»

كان سائق زلاجة يقف بمحاذاة الرصيف وقد مال بجنبه نحو جزئها الامامي ، واخذ يحدث بمرح راكبته السيدة ذات الوجه الاحمر المذعور .

— الى اين اذهب ؟ ها انت ترى بنفسك . ذباية لا يمكن ان تمر من هنا .

— امض في طريقك ، ايها الاحمق ، ولا تجرؤ على التحدث معي ؟ . . .

— لا ، لست احقق منذ اليوم . . . انزلي من الزلاجة . . . تدافع المارة على الرصيف ، رفعوا رؤوسهم ، وتسمعوا ، وتساءلوا منغلغين :

— قتلوا مائة شخص في جادة ليتيني ؟ . . .

— كذب . . . اطلقوا النار على حبل ورجل عجوز . . .

— يارب ! وما ذنب العجوز هذا ؟

— هذه كلها اوامر بروتوبوف ، وهو مجنون . . .

— اى نبا هذا ، يا سادة . . . لا يصدق ! اضراب عام . . .

— كيف ؟ والماء والكهرباء ؟

- ليت الرب يجعلها أبناء صحيحة ، آخر الأمر .
- مرحي للعمال ! . . .
- لا تفرحوا ، سيقمعونهم . . .
- حاذر ان تقعم قبيلهم ، وانت بهذه السحنة . . .

- كنت في جادة ليثيينى ، وقد اطلقوا النار هناك ، ولكن في الهواد ، على ما يبدو . . .

- وما رأيك في هذا كله ؟

- لا ادري . اعتقد ان على الحكومة الآن ان تعالج بجديفة مسألة نقل الاطعمة .

صاح ستروكوف ، وهو يضرب سطح المائدة الزجاجى :

- فانت الوقت ! فانت ! . . . اكلنا اعمانا بانفستا . . . ولتنته الحرب ، فقد لاقينا ما فيه الكفاية ! . . اندري ماذا ينادون في المصانع ؟ ينادون بدعوة سوفيت نواب العمال . بان لا يؤمنوا بغير السوفييتات !

- صحيح ؟

- تلك هى النهاية ، ياعزيزى ! انهار الحكم المطلق . . . فافتح عينيك . ليس هذا تعردا ، بل وليس ثورة . . . انه بداية الفوضى . . . بل الفوضى العظيمة بعينها . . . - وانتفخ عرق على عرض جبين ستروكوف تحت قطرات العرق - وبعد ايام ثلاثة لن تبقى هناك دولة ، ولا جيش ، ولا حكام ، ولا رجال شرطة . . . بل مائة وثمانون مليوناً من الناس الشعث البدائين . وهل تدرى من هو الانسان البدائى الاشمع ؟ النمر ووحيد القرن ديمتشان للاطفال بالنسبة له . خلية في جهاز عضوى متفسخ . ذلك هو الانسان البدائى الاشمع . وذلك شيء رهيب جدا . انه بكتيريا تاكل بكتيريا اخرى في قطرة ماء .

قال تليفين :

- اوه ، ليتخطفك الشيطان ! لا شيء من هذا ، ولن يكون شيء من هذا ! انها ثورة ، وشكر للرب عليها .

- لا ، ان ما رايته اليوم ليس ثورة . انه تحلل المادة . وستأتى الثورة ، فيما بعد ستاتى . . . ولكننا انا وانت لن نراها .

قال ايفان ايليتش وهو ينهض :

- قد يكون ذلك . وان فاسيل روبرليف هو الثورة . اما انت ، يا ستروكوف ، فلا . انت كثير الضجيج ، وتحدثت بشكل مبهم . . .

مضى ايفان ايليتش الى العناوين التى ينشدها أسفلا على تخصيصه الوقت الكثير ، غير انه لم يجد احدا ممن قصدهم في البيت . فعاد يتجول في جادة نيفسكى غاضبا .

كانت حركة الزلاجات قد عادت الى الشوارع ، وخرج البوابون يزجون الثلج من الارصفة ، وظهر الرجل المهيب ذو المعطف الاسود على مفترق الطرق ورفع فوق الرؤوس الممتدة ، واكسار الناس المضطربة هراوته البيضاء ، عصا النظام السحرية . ولربما فكر عابر سبيل خبيث ، وهو ينظسر الى الشرطى عند اجتيازه الشارع قائلا لنفسه : «انتظر ، يا اخى ، وسيأتى وقتك» . ولكن لم يدرك في خلد احد من الناس ان الوقت قد حان فعلا ، وان هذا الشخص المشورب المنتصب كالعمود الحامل للهاوية لم يعد اكثر من شبح وانه سيختفى بين عشية وضحاها من مفترق الشوارع ، من الحياة العامة ، من ذاكرة الناس . . .

- تليفين ، تليفين ! قف ايها الاصم ! . . .

ورفض المهندس ستروكوف نحو ايفان ايليتش وطاقتيه منسرحة على مؤخرة راسه ، وعيناه تلمعان بمرح فياض . . .

- الى اين ذاهب ؟ لندخل الى مقهى . . .

وامسك يد ايفان ايليتش وجره الى مقهى . كان دخان السيفار في المقهى يلذع العيون . وكان الناس بقبعاتهم المستديرة السوداء وبقبعات من فراء عجول البحر ، وبمعافهم غير المزرة يتجادلون ، ويتصايحون ، ويقفزون واقفين . شق ستروكوف طريقه نحو نافذة ، وجلس الى مائدة صغيرة قبالة ايفان ايليتش . وهتف ممسكا المائدة بكلتا يديه .

- الروبل يسقط ، والسندات المالية تذهب الى الجحيم . تلك هى القوة ! . . . خبرنى ماذا شاهدت . . .

عاد إيفان إيليتش الى شقته في وقت مبكر ، وأوى الى فراشه في الحال . ولكن النوم لم يغشاه الا برهة قصيرة ، تنهد بعدها ، وانقلب ثقيلًا على جنبه ، وفتح عينيه . شم رائحة جلد العقبية التي كانت مفتوحة على احد المقاعد . في هذه العقبية التي اشترها في استوكهولم محفظة صغيرة من الجلد البديع لأدوات الزينة الضميمة ، هدية لداشا . وكان إيفان إيليتش يحس بالبرقة نحوها ، فيفك ورقها الناعم كل يوم ، ويعاينها . بل وكان يتخيل مقصورة عربية بناقذة طويلة ، كما هي في القطارات غير الروسية ، وداشا في لباس السفر تضع على ركبتها هذه المحفظة الفواحة بالعطس والجلد رمزًا لسياحات رخيصة مذهشة .

رأى إيفان إيليتش السماء الداكنة وراء النافذة تتشبع بانعكاس ضوء المدينة الليلقي الكدر . وادرك بصفا شعور الكراهية العزينة الذي لا يد ان يعتدل في نفوس اولئك الذين كانوا يطالبون بالخبز اليوم ، حين ينظرون الى هذا الضوء . المدينة غير المحبوبة ، الوحشة ، الكريهة . . . دماغ البلاد وارتدتها مصابة الآن بسداه قتال . . . وهي في احتضار . . .

خرج إيفان إيليتش من البيت في حوالي الثانية عشرة ، فرأى الجادة العريضة الضبابية مقفرة . لاحت من وراء نافذة رطبة لجانوت بيع الزهور مزهية بلورية فيها باقة بديعة من ورود الحمراء المبللة بقطرات كبيرة من الماء . فرنا إيفان إيليتش اليها برقة من خلال الثلج المتساقط .

ظهرت من شارع جانبي دورية تتألف من خمسة قوزاقيين ، ادار آخرهم فرسه ، وعدا به نحو ثلاثة من الرجال يرتدون الكبييه كانوا يسبرون على الرصيف وهم منهمكون في حديث منغل مغنض . توقف الرجال ، وامسك احدهم ، وهو يتحدث بمرح ، شكيمة فرس القوزاقي . كانت هذه الحركة غير اعتيادية كليا جعلت قلب إيفان إيليتش ينبث في صدره . ولكن القوزاقي ضحك ، ودفع رأسه الى الخلف ، ثم اطلق العنان لفرسه الغليظ الرقبة الذي كان يضرب بقوائمه ، ولحن برفاقه ، وانطلق الجميع في عدو سريع حتى غيبهم ظلام الجادة .

وحين كان إيفان إيليتش يقترب من الكورنيش اخذ يلتقي

بزم من سكان المدينة في هيجان . والظاهر ان احدا لم يستطع ان يبدأ بعد حدث يوم امس : وهام الناس يتداولون الرأي ويتناقلون الشائعات والاشبار ، وكان الكثيرون منهم يسبرون نحو النيسا . وكان هناك بضعة آلاف من الفضوليين يتحركون على الثلج بمحاذاة السياج الغرائبي مجمعات سوداء من النمل . وكانت زمرة من الزاققين تصرخ عند الجسر على الجنود الذين كانوا يسدون الطريق يوقوفهم في عرض الجسر ، وعلى طولها حتى نهايته الاخرى التي لم تكد ترى في الغيش من جراء الثلج المتساقط .

- لماذا سددمتم الجسر ؟! اتركونا نمر !

- نريد ان نذهب الى وسط المدينة .

- قلة حياء . يضايقون الاهالي . . .

- الجسور اقيمت لعبور الناس ، وليس لشاكلتكم .

- هل انت روسي ام لا ؟ . . . دعونا نعبّر !

كان ضابط صف ضخم ذو اربعة نياشين القديس جيورجي يذرع الجسر عرضا من درابزين الى آخر متصلصا بمهمازيه ، وحين سمع الشتائم تتعالى من الجمع ادار الى المتصاحين وجهه العابس المجرد المصفر . وقال وشارباه المفتولان بهتان :

- آه ، سادة وتتكلمون على هذا النحو . لا استطيع ان اسمح بعبور الجسر . . . ساضطر الى استخدام السلاح في حالة عدم الامتثال للامر . . .

وتصايح الزاققون من جديد :

- لن يطلق الجنود النار علينا .

- وضعوك هناك ، وانت الكلب ، الشيطان المجبر . . .

استدار ضابط الصف مرة اخرى وراح يتكلم ، ورغم ان صوته كان اجش حادا - عسكريا ، فقد انعكس في كلماته نفس الحيرة المذعورة التي كانت تعتمل في نفوس الجميع في تلك الايام وقد احس الزاققون بذلك ، وشتموا ، وضغطوا على الحاجز .

وفجأة تكلم رجل طويل نحيل ذو نظارة انفية مموجة ، ورقبة طويلة ملفوفة بلفاح ، وكان صوته عاليا عميقا :

- انهم يضيقون حركة المرور ، والحاجز في كل مكان ،

والجسور قد طوقت . وذلك منتهي التحقير . هل نستطيع التنقل

في المدينة بحرية ، ام اصبح حتى ذلك معتبرا ؟ ايها المواطنين
اقترح عدم الالتفات الى الجنود ، والعبور على الجليد الى الضفة
الأخرى ...

- كلامك صحيح . على الجليد ! هورا ! ..

وعلى الأثر ركض عدة اشخاص على العرجات الغرائبية المغنطة
بالثلج ، والمؤدية الى النهر . وسار الرجل الطويل ذو اللفاح
المتطير في الريح بخطوات حازمة على الجليد بمحاذاة الجسر . انحنى
الجنود على الدرابزين في الاعلى وصاحوا :

- يا هؤلاء ، ارجعوا ، والا سنطلق النار ... ارجع ، ايها

السيطان الطويل ! ..

الا ان الرجل مضى في سيره دون ان يلتفت ، ومن خلفه سار
عدد متزايد من الناس في صف واحد وفي سير سريع ، وانزلقوا
واحدا بعد الآخر على منحدر السدة الى الجليد ، وتراكتهم اشباحهم
السود على الثلج . صاح الجنود عليهم من فوق الجسر فرد الراكضون
عليهم بصياح مثله محيطين افرأهم بأيديهم . رفع احد الجنود
يندقته ، الا ان جنديا آخر دفعه من ظهره فاقلع ذاك عن اطلاق
النار .

واتضح فيما بعد ان اية خطة معددة لم تكن لاحد من الذين
خرجوا الى الشوارع ، ولكن الاهالي حين شاهدوا العواجيز على
الجسور ومفارق الطرق تملكهم جميعا الدافع الكامن في نفوسهم منذ
القدم ، ودرغوا فيما مخطور الآن : عبور الجسور ، والتجمع في
حشود . وهذا الظرف وهج الخيال المريض توهجا شديدا ، وشاعت
في المدينة شائعة تقول ان شخصا يقود كل هذه القلائق .

في نهاية اليوم الثاني كمنت من الفوج بافلوفسكي في
جادة نيفسكي ، واطلقت رشقات طويلة من النار على تجمعات
الفضوليين وعلى بعض المارة . واخذ الاهالي يدركون ان شيئا
شبيها بالثورة أخذ في الظهور .

ولكن احدا لم يكن يعرف بورتها ، ولا الموجه لها . كما لم
يكن يعلم بذلك قائد القوات ، ولا الشرطة ، بلكنه بروتوبوف

الدكتور صاحب العظوة ، وصاحب معمل اقمشة الجوخ من
سيميرسك ، ذلك الرجل الذي شج له صاحب الاطيان ناوموف
راسه في يوم ما في فندق ترويتسكايا بعد ان شق به الباب ،
فسبب له ذلك الضرر في الجمجمة والدماع آلاما في الراس وانهبازا
عصبيا ، ثم تخلخل مستميتا فيما بعد ، حين عهدت اليه ادارة
الامبراطورية الروسية . كانت بؤرة الثورة في كل الاعاء ، في كل
بيت ، وفي راس كل مواطن عادي زاهر بالخيالات والسخط والتذمر .
وكانت هذه الاستحالة في تحديد بؤرة الثورة تتدنر بالشؤم . فقد
كانت الشرطة تصعيد الاشباح . وكان عليها في الواقع ان تعقل
مليونين واربعمائة الف ، هم مجموع سكان بتروغراد .

امضى ايفان ايليتش اليوم كله في الشوارع يخامرهم ذلك
الاحساس الغريب الذي كان يخامر كل فرد ، لا محالة ، الاحساس
بدوار دائم . وكان يتلمس تعاطف الهيجان في المدينة الى حد
يقرب من الجنون . فقد كان جميع الناس يتحللون الى دوار جماعي
شامل ، وكان هذا المجموع في تجواله في الشوارع وهياجه يبحث
ويتوق الى امارة ، الى ومضة تغمى البصر ، وتدمج الجمع في كتلة
واحدة .

لم يهرب الرصاص في جادة نيفسكي غير قلة من الناس .
فقد انتال الناس كما تنتال الوحوش وتجمعوا حول جشتين مطروحتين
عند زاوية شارع فلاديميرسكايا احدهما لامرأة في ثنورة من القماش
الرخيص ، والثانية لعجوز في معظم من فراء الراكون وحين
اشتد اطلاق النار تراكض الناس شتانا ، ومرة اخرى تسكعوا
بمحاذاة الجدران .

هذا اطلاق النار عند هبوط الظلام . وهبت ريح فارسة ،
ونظفت السماء ، وتوهج الغروب بكآبة في السحب التي تراكمت
وراء البحر . وطلع هلال حاد الطرفين ، وتبدل واطنا فوق المدينة
في بقعة سوداء فاحمة من السماء .

ولم تضأ المصابيح في تلك الليلة . وكانت النواقة مظلمة ،
وعداها البيوت مسدودة . وامتدت اهرام البنادق المشبكية على
طول جادة نيفسكي الخالي المظلم . وكانت اشباح الحراس الضخمة
تترأى على مفارق الطرق . وكان ضوء القمر يلعب بين العين والآخر

على زجاج نافذة او على شريط سكة الترام ، او على فولاذ حربة .
وخيم الهدوء والسكينة . ولكن سماعات التلغون في كل بيت كانت
تنقل كلمات جنونية عن الاحداث بصوت مضعور خافت .
وفي صباح ٢٥ شباط غصت ساحة زنامينسكايا بالوحداث
ورجال الشرطة . ووقفت امام فندق «سيفرنايا» خيالة الشرطة على
صهوات خيول صهباء متوتبة دقيقة القوائم . ورايت رجال الشرطة
المشاة بمعاطفهم السوداء حول تشارال الامبراطور الكسندر الثالث ،
وتجمعوا زمرا في الساحة . ووقف القوزاق عند محطة القطار وقد
علا المرح وجوههم الملحية ، وقبعاتهم القوزاقية العالية المشبرحة
الى جانب ، وبرزت حزم التبن عند سروجهم . وكانت رجال فوج
بافلوفسكي يلوحون بمعاطفهم بلونها الرمادي المتسخ باتجاه جادة
نيفسكي .

ارتقى ايفان ايليتش التتوء الحجري لمدخل محطة القطار .
وفي يده حقيبة صغيرة ، كانت الساحة كلها ترى من هنا بوضوح
جيد .

كان نصب الامبراطور يتوسطها بفرسه المعلى صخرة من
الغرانيت حمراء ، بلون الدم ، وقد تدلى راسه البرونزي لنقل راكبه .
وكان الامبراطور يجلس على الصهوة ثقيل كالجاذبية الارضية ،
وقد كسا الثلج كتيفه الكتيبين ، وطاقيته المستديرة . كانت
حشود الناس تشق طريقها نحو قاعدة النصب في الساحة قادمة من
خمس شوارع ، رافعة اصواتها بالصياح والصغير والسباب .

ومثلما حدث بالامس على الجسر ، كان الجنود ، ولاسيما
القوزاق الذين يتقدمون على صهوات خيولهم ازواجا من الناس الذين
كانوا يثالبون من جميع الجهات ، يتبادلون معهم الشتائم ولواذع
الكلمات . وكان الضمت والبليلة الواضحة يرينان على زمر رجال
البوليس المتجهين الضخام الاجسام . وكان ايفان ايليتش يعرف
جيذا ذلك القلق الذي يسود فترات انتظار الأمر بالاستشباك في
معركة ، حين يكون العدو المهاجم قاب قوسين او ادنى ، وكسل
الدلائل تشير الى ما ينبغي القيام به ، ولكن صدور الامر يتأخر ،
وتستطيل الدقائق بشكل مؤلم . صلصل باب المحطة فجأة وانفتح ،
وطلع على السلم ضابط جندرمة شاحب الوجه برتبة عقيد يرتدى معطفا

تصيرا . انتصب بقامته ، وادار عينيه الوضئيتين في الساحة ،
ومررها على وجه ايفان ايليتش . . . ثم هبط الدرجات بخفة بين
القوزاق المتراجعين ليفسحوا الطريق له ، واخذ يقول شيئا لضابط
توزاقي رافعا اليه لحيته ، اصغى الضابط القوزاقي اليه مرتبعا على
السرج ، وعلى شفثيه ابتساماة هازنة . اشار العقيد براسه صوب
جادة ستاري نيفسكي ، وسار على الثلج عبر الساحة بمشيئة
متوتبة . ركض نحوه ضابط شرطة احكم شد عزامه على بطنه
الضخ ، واهتزت يده تحت طاقيته عندما رفعها لتحيته . تعاطمت
صيححات الحشد المتقدم من ناحية جادة ستاري نيفسكي ، ثم اخذت
الاذن اخيرا تميز غناء . احس ايفان ايليتش بيده تمسك كسه
بقوة ، وراى رجلا مهتاجا يرفع جسمه بالقرب منه حاسرا الراس يمتد
على وجه القدر خدش احمر .

- ايها الاخوان ، القوزاق !

صاح الرجل بصوت وحشي يهز النفس كالصوت الذي يطلق
قبيل القتل وسفك الدم فيغوص منه القلب ، وتغلي غشاوة الجنون على
العيون : «قتلونى ، يا اخوان . . . تدخلوا . . . انهم يقتلون !»
استدار القوزاق على سروجهم ، ونظروا اليه صامتين . وقد
شجبت وجوههم ، واتسعت حدقات عيونهم .

وفي تلك الاثناء لاح في جادة ستاري نيفسكي رؤوس سوداء
كثيفة ، هي رؤوس عمال حاضرة كورليينو الذين كانوا يتقدمون في
الشارع . ورفرف علم احمر مبلل في الريح . ابتعد خيالة الشرطة
عن مدخل فندق «سيفرنايا» ، وما هي الا لحظة حتى لمعت في
ايديهم سيوف عريضة مستلة . ارتفع في الحشد صياح ضار . ووقع
بصر ايفان ايليتش مرة اخرى على عقيد الجندرمة . انه يركض
ممسكا غلاف مسدسه بيد ، وعلوحا للقوزاق بالاخري .

تطايرت من حشد عمال حاضرة كورليينو قطع من الجليد
والحجارة ، باتجاه العقيد ، وخيالة الشرطة . تواتبت الخيول الصهباء
الدقيقة القوائم اكثر ، وترددت طلقات واهنة من مسدسات ،
وارتفع دخان عند قاعدة النصب . لقد كان رجال الشرطة يطلقون
النار على عمال حاضرة كورليينو . وفي تلك اللحظة شب في صف
القوزاق فرس اصهر افضس من افراس منطقة الدون ، على بعد عشرين

ازغبين . ارتفع في السماء الباردة الضاربة الى الخضرة هلال مذهب
الطرفين صاف . وترأسى الى السمع نباح كلاب وراء يسوية .
ضجعت داشا في زغب لفاحقا الربط ، وهسى تنصت الى تكسر
الجليد .

- كاتيا ، لو ان احدا من الناس اخترع آلة ووضعها هنا
- ووضعت داشا يدها على صدرها - فانها ستسجل اشياء فريدة .
وترنمت داشا بصوت خافت . فتناولت كاتيا يدها .

- دعينا نذهب ، هيا !

توقفت داشا ثانية بعد بضع خطوات .

- كاتيا ، اعتقدين انها الثورة حقاً ؟

من بعيد شع في عبورها مصباح كهربائي صغير موضوع فوق
مدخل نادي الحقوقيين ، حيث دعت كتلة الكاديت ، تحت تأثير
الشاغعات الجنونية القادمة من بتروغراد ، الى اقامة اجتماع عام في
الساعة التاسعة والنصف مساء لتبادل الآراء ، وایجاد قاعة
مشتركة للعزل في هذه الايام العرجة . صعدت الشقيقتان السلم
الى الطابق الثاني ركضا ، ودخلتا القاعة دون ان تخلعا معظفيهما ،
بل اكتفتا بفك لفاحيهما . كانت القاعة غاصمة بالناس تستمع بتوتر
الى سيد بدين مورد الخدين ملتصح يحرك يديه الكبيرتين حركات
لطيفة . كان هذا الرجل يقول بصوت جميل متوسط العجاجة :

- ... الاحداث تتنامى بسرعة تدبر الراس . في بتروغراد نقلت
كل السلطة يوم امس الى الجنرال خابالوف الذى الصق في النحاء
المدينة كلها هذا الاعلان : «في الايام الاخيرة حدثت في بتروغراد
قلاقل مصحوبة بالعنف والاعتداء على حياة ضباط الجيش والشرطة .
امنع كل تجمع في الشوارع ، وانبه سكان بتروغراد الى اننى اكدت
للقوات اللجوء الى السلاح عند الحاجة ، وعدم التوقف امام اى شئ ،
في سبيل إعادة النظام الى العاصمة ...»

- جزارون !

رن صوت طالب جهير من جوف القاعة .

- ... ان هذا الاعلان ، كما كان متوقعا ، قد جعل كاس
الصبر تطفح . فانضم الى جانب المنتفضين خمسة وعشرون الف
جندي من حامية بتروغراد يشملون مختلف اصناف السلاح ...

خطوات من ايفان ايلييتش . انحنى راكبه القوزاقى على رقبته ،
ولكزه ، وبعدة وثبات وصل به الى عقيد الجندرية ، وقد استل
سيفه اثناء جريه . وضربه به ضربة قوية صافرة ، ثم عاد فرجع
فرسه على رجليه الخلفيتين . وتحرك القوزاق كتلة واحدة نحو
مكان القتل . شقت حشود الناس الحواجز وتدفقوا على الساحة . . .
سمعت طلقات صادرة من مكان ما غطتها صيحة جماعية تهتف :
«هورا ... هورا ...»

- ماذا تعمل هنا ، ياتليغين ؟

- اريد ان اسافر مهنيا يكن من شئ ، ولا يهمنى اذا كان ذلك
على قطار بضائع ، او على قاطرة ...

- اقلع عن ذلك فالسفر مستحيل الآن ، يا صاحبي . انها
الثورة ...

كان المتحدث انتوشكا ارنولدوف وهو غير حليق نافر المظهر ،
احمر الجفنين ، جاحظ العينين . وقد غمغم كالهاذى غارزا اصابعه
في طية معطف ايفان ايلييتش :

- هل رايت كيف قطعوا راس عقيد الجندرية ؟ ... تدحرج
مثل كرة القدم . جمال ! ... انت ، ايها الابله ، لا تفهم . انها الثورة !
كان الرجلان واقفين في ممر محطة القطار مضغوطين في زحام
الناس . وتابع انتوشكا كلامه :

- في الصباح رفض الفوج الليتواني وفوج فولينسكى
اطلاق النار ... وخرجت سرية من فوج يافلوفسكى الى الشارع
ومعها سلاحها ... والمدينة في فوضى ، ولا احد يفهم شيئا ...
والجنود في جادة نيفسكى كتار كالذباب ، يتسكعون ، ويخافون
الذهاب الى التكتات ...

كانت داشا وكاتيا تسيران ببطء سريعة على طبقات الجسد
الرقيقة المتكسرة تحت اقدامها في شارع مالايا نيكييتسكايا الباهت
الاضاءة . كانتا ترتديان معظفين قرائين ، وتلفان راسيهما بلفاحين

وقبل ان ينهي كلامه ضجعت القاعة بالتصفيق . وقفز بعض الرجال على مقاعدهم ، وهتفوا ، واوماوا بأيديهم ، وكانهم يوجهون الطعنات الى النظام القديم . نظر الخطيب الى القاعة الهادئة مبتسما ابتسامة عريضة ، ثم رفع ذراعه ، وتابع كلامه :

- وصلت قبل حين برقية تلفونية غاية في الهمية - وهنا دس يده في جيب سترته ذات المربعات ، وبسط ورقة مطوية ، وقال : اليوم ارسل رودزيانكو رئيس مجلس دوما الدولة الى القيصر برقية تلفونية على الخط المباشر : «الوضع يتذر بالخطر . الفوضوية في العاصمة . الحكومة مشلولة . النقل والتموين والوقود في انهيار تام . الرصاص يُطلق في الشوارع بلا نظام . القوات تطلق النار بعضها على بعض احيانا . من الضروري اسناد الوزارة الجديدة الى رجل يتمتع بثقة البلاد . لا يجوز الابطاء . كل ابطاء صنو الموت . تدعو الله الا يوقع المسؤولية على رأس العاهل في هذه الساعة العرجة» .

انزل السيد ذو الخدين الموردين الورقة ، وادار عينيه البراقبتين في القاعة . لم يذكر الموسكوفيون مثل هذه المسرحية الغلابة . وتابع الخطيب كلامه بصوت ناعم منمّم :

- نحن الآن ، ياسادة ، على عتبة اعظم حدث مشوشك على الوقوع في تاريخ بلادنا . ولربما في هذه اللحظة تحقق هناك - ومد ذراعه مثل تمثال دانتون - مطمح العديد من الاجيال ، واخذ الثار لطيفو الديسمبريين المفجوعة . . .

تاوهت امرأة ولم تتمالك نفسها .

- آه ، يا إلهي !
- ولربما ستندمج روسيا غدا في جوقة اخوية فرحة تردد كلمة : الحرية ! . . .

قرددت اصوات صارخة :

- عاشت الحرية ! . . .

وهبط السيد في مقعده ، ومرر ظاهر كفه على جبهته . نهض من طرف الطاولة رجل مديد القامة ذو شعر طويل كثاني اللون ، ووجه ضيق ، ولحية صهباء ذابلة . واخذ يتكلم بصوت فيه نبرة هسهة دون ان ينظر الى احد .

- منذ لحظة سمعت بعض الرفاق يهتفون : عاشت الحرية . شيء صحيح . وای شيء يمكن ان يكون افضل من اعتقال نيقولا الثاني في موبيليف ، ومحكمة الوزراء ، وطرد حكام الولايات ورجال الشرطة . . . ورفع راية الثورة الحمراء . . . انها بداية صحيحة . . .

العملية الثورية ، حسب المعلومات المتوفرة ، قد بدأت ببداية صحيحة وبطاقة حيوية . وفي هذه المرة ، على ما يبدو ، ستنجح . ولكن ها انتم قد سمعتم السيد الفاضل الذي تحدث قبل يقول كلاما جميلا جدا . فقد اعرب - ان لم تخنى اذني - عن الرضى التام بالثورة المشوكة الحدوث ، وافترض انه سيندمج بروسيا كلها في المستقبل القريب جدا في جوقة اخوية واحدة . . .

اخرج الرجل ذو الشعر الكثاني مندبلا ، ووضع على فمه ، كمن يحاول ان يخفي ضحكة هازلة . الا ان وجهه تبقمعا ، وسعل ، ورفع كفيه العلميتين . سال شخص وراءه داسنا التي كانت تشارك اختها في مقعد واحد :

- من المتكلم ؟

همس احدهم في الاجابة همسا سريعا :

- الرفيق كوزما . كان في عام ١٩٠٥ عضوا في سسوبييت نواب العمال . قبل مدة قصيرة عاد من المنفى .

وتابع الرفيق كوزما كلامه :

- لو كنت في مكان الخطيب السابق لترثت قليلا في ابداء الغبطة - وفجأة اكسى وجهه الشمعي موجدة وحزما وهو يقول : ان اثني عشر مليونا من الفلاحين قد اعدوا للقتال ، وهم ما يزالون في الجبهات . . . وملايين من العمال يختنقون في الاقبية ، ويقفون جياعا في الطوابير امام حوانيت الطعام . فلعلكم تتريدون ان تغنوا جوقة اخوية واقفين على ظهور العمال والفلاحين . . .

وصدرت في القاعة هسهسة ، وصرخ صوت حائق : «هذا استفزاز !» هن السيد ذو الوجنتين المحمرتين كتفيه ، ومس الجرس ، وواصل الرفيق كوزما كلامه :

- . . . القى الامبريالون اوريا في حرب مريعة ، واعتبرتها الطبقات البرجوازية عاليا وسافلها حربا مقدسة - تلك الحرب من اجل الاسواق العالمية ، من اجل انتصار منقطع النظير للراسمال . . .

أما الخونة ، الاشرار كيون-الديموقراطيون فقد ايدوا السادة متواطئين معهم ، واقروا معهم بان الحرب وطنية ومقدسة . وسيق الفلاحون والعمال الى المجزرة . . . وانا اريد ان اسأل : من الذى رفع صوته في هذه الايام الدموية ؟

- ماذا يقول ؟ ! اجعلوه يخرس !

- ارتفعت اصوات خانقة ، وعلا الضجيج ونهض بعض الناس قافزين من امام كتفهم مؤشرين بايديهم .

- . . . الساعة دقت . . . ولهب الثورة سميت . لا معالة ،

الى صميم الفلاحين والعمال . . .

وبعد ذلك تعذر تماما ان تلتقط الاذن كلامه ، بسبب الصخب في القاعة . هرع بعض الاشخاص المرتدين ستر النهار الى الطاولات . ارتد الرفيق كوزما عن المنصة ، وتوارى وراء الباب . واحتلت مكانه خيرة مشهورة في تربية الاطفال .

- ان الكلمة المثيرة للاستياء التي القاها الخطيب السابق . . . وفي تلك اللحظة همس شخص على مقربة شديدة ممن اذن داشا بصوت متفعل رقيق :

- مرحبا ، يا عزيزتي . . .

نهضت داشا مسرعة حتى دون ان تجد الوقت لتلتفت ، فأت ايفان ايليتش واقفا عند الباب . نظرت اليه - الى رجلها ، فبدأ لها اجمل رجل في العالم . اما هو فقد اذهله مرة اخرى ، كما حدث له مرارا من قبل ، ان يرى داشا مختلفة تماما عما كان يتصورها في ذهنه في غيابها ، ولكنها اكثر جمالا بما لا حد له : شاعت حمرة حارة في خديها ، وبدت عيناهما الرماديتان الزرقاوان مثل بحيرتين لا تترار لهما . كانت صورتها كاملة ، ولا ينقصها شيء . ردت داشا التحية بصوت خافت ، وتناولت يده ، وخرج الاثنان الى الشارع . توقفت داشا في الشارع ورنت الى ايفان ايليتش مبسمة . ثم تنهدت ، ورفعت ذراعيهما الى كتفيه ، وقبيلته من شفتيه . وفاحت منها الفتنة الانثوية لعطر فيه بعض الحرارة . امسكت داشا يده ثانية وهي صامئة ، وسار الاثنان على قشرات الجليد المخشخشة ، والملتصعة بضوء الهلال المتدلى منخفضا هناك ، في اعماق الشارع .

- آه ، كم احبك ، يا ايفان ! كم انتظرتك . . .

- لم استطع القدوم ، انت تعرفين . . .

- لا تغضب اذا كنت قد كتبت لك رسائل سيئة . فانا لا

احسن الكتابة .

توقفت ايفان ايليتش . وحقق في وجهها المرفوع اليه ، الباسم بصمت . كان المنديل المزغب يفضي عليه مسحة خاصة من العلاوة والبساطة ، ويجعل الحاجبين المغطيين تحته اكثر اسودادا . جذبها ايفان ايليتش اليه برفق ، فالتصقت به منقطة قدميهما . قبلها مرة اخرى . وعادا يسيران .

- هل ستمكث طويلا ، يا ايفان ؟

- لا اعرف . هذه الاحداث . . .

- نعم ، انها الثورة .

- تصوري ! اننى جئت على قاطرة . . .

- اتعرف ، يا ايفان ان . . .

وسارت معه على خطو واحد نظارة الى طرفي حداثيها .

- ماذا ؟

- ساذهب هذه المرة معك الى بيتك . . .

لم يرد ايفان ايليتش عليها . ولم تشعر داشا الا بأنه يحاول ان يعلا صدره بالهواء عدة مرات . واحست بالحنان والاشفاق عليه .

٣٧

كان اليوم التالى رائعا لانه اثبت مفهوم نسبية الزمن فقد نقلت العربية ايفان ايليتش من فندقه في شارع تيفرسكايا الى شارع ارباب بحوالى عام ونصف عمام . وقد قال الحوذى : «لا ، يا حضرة المحترم فات ذلك الزمان الذى تستطيع ان تستاجر فيه عربة بنصف روبل . في بتروغراد كسب الناس حريتهم وسنفضل ذلك في موسكو في القريب العاجل . انظر الى ذلك الشرطى الواقف هناك . ارد لو اسوق العربية عليه ، والهب وجهه بسوطي . ابن الكلية ذاك . انتظر ، يا محترم ، وسنصفي حسابنا مع الجميع» . استقبلت داشا ايفان ايليتش عند باب غرفة الطعام .

كانت في رويها البيتي ، وشعرها الاشقر قد صُف على عجل ،
وعبق الماء الطازج يفوح منها . ودق جرس الزمن ، وتوقف الزمن .
وامتلا كله بكلمات داشا ، وضحكها ، وشعرها الناعم الخفيف
المتشح في شمس الصباح . وكان إيفان إيليتش يحس بالاضطراب
حتى حين كانت داشا تستقل الى الطرف الآخر من المائدة . فتحت
داشا باب دولاب الاواني ، ورفعت ذراعها ، وانحسر كتمًا رويها
العريضان . وفكر إيفان إيليتش مع نفسه بان من المستحيل ان
يكون للناس مثل هاتين الذراعين ، ولكن الأثرين الابيضين للتطعيم
ضد الجدري فوق العرق كانا يؤكدان وحدهما بان هاتين الذراعين
انسانيتان على الرغم من ذلك . تناولت داشا قدها ، وادارت
راسها الاشقر الشعر ، وقالت شيئاً مدهشاً ، وضحكت .
جملت إيفان إيليتش يشرب عدة اقتداح من القهوة . كانت
تنطق بكلمات ، وإيفان إيليتش ينطق بأخرى ، ولكن كلمات
الناس ، على ما يبدو ، لا يكون لها معنى الا في الزمن المتحرك
بشكل طبيعي . اما اليوم فلم تكن للكلمات معان . كانت يكاترينا
دميترييفنا جالسة معها في غرفة الطعام تسمعهما يثرثران بالتواضع
عن القهوة ، وعن محفظة جلدية لا أدوات الزينة ، وعن رأس قُطع في
بتروغراد ، وعن شعر داشا الذي يبدو اصهب في الشمس
الساطعة - وباللحجب ! وهما في ذلك ما بين دهشة شديدة ، ونسيان
سريع للموضوع .

جلبت الخادمة الصحف . نشرت يكاترينا دميترييفنا
«روسكيه فيدوموستي» ، وتاوهت واخذت تتلو بصوت مسموع
بيان الامبراطور عن حل دوما الدولة . اندهشت داشا وتلينغين من
هذا الخبر انهماشاً كبيراً . الا ان يكاترينا دميترييفنا بعد ذلك ،
واصلت قراءتها «روسكيه فيدوموستي» في سرها . قالت داشا
لتلينغين : «تعال الى غرفتي» وقادته عبر دهليزٍ مظلم صغير الى
غرفتها . دخلت داشا الغرفة قبله ، وقالت بعجالة : «انتظر
لحظة ، لا تنظر» . وانحفت شيئاً ابيض في جراب الخزانة .

كان إيفان إيليتش يرى غرفة داشا لأول مرة . يرى منضدة
الزينة باشيايها العديدة الغريبة عليه ، والسريز الابيض الضيق
بوسادتين كبيرة وصغيرة . وكانت داشا تتوسد الاولى في نومها ،

وترتفق الثانية حين تهوّم ، والمقعد الوثير عند النافذة ، وقد
القي على ظهره لفاح مزغب .

طلبت داشا الى تليغين ان يجلس في ذلك المقعد ، وتقربت
منه كرسياً بلا ظهر ، وجلست عليه قبالة مسندة مرفقيها على
ركبتيها ، موسدة حنكها على يدها ، وحدقت في وجهه دون ان يرف
لها جنن . طالبة منه ان يقول لها كم يحبها . دق جرس الزمن مرة
اخرى .

قال تليغين :

- داشا ، لو وهبوني كل ما هو موجود ، كل الارض لما
اسعدني ذلك . هل تفهمين؟ - فهزت داشا راسها . - ما الحاجة الى
اذا كنت وحيداً في الدنيا ؟ صحيح ؟ .. وما نفع نفسي لنفسي ؟ -
هزت داشا راسها . - ولاى شيء آكل ، واسير ، وانام ؟ وما نفع
هاتين اليدين ، وهاتين القدمين ؟ .. وماذا وراء امتلاكك لثروات
اسطورية ؟ .. ولكن أنتصوريين اية وحشة اشعر بها وانا وحيد ؟ -
هزت داشا راسها . - ولكن الآن ، حين تجلسين هذه الجلسة
بقربي . . . انسى وجود نفسي . . . اشعسر فقط بوجودك ،
بالسعادة . فانت كل شيء . انظر اليك فيدور راسي . امن المعقول
انك تتنفسين ، وانك حية ، وانك لي . داشا ، اتفهمين شيئاً مما
اقوله ؟

قالت داشا :

- اذكرك جلوسنا على ظهر السفينة ، وقد هب التسيم ،
وتللاً النبيذ في الاقداح ، وقد احسست انذاك باننا نمخر نحو
السعادة . . .

وهل تذكرين الظلال الزرق هناك ؟

هزت داشا راسها ، وخيل اليها على الفور بانها هي ايضا
تتذكر ظلالاً زرقاً رائعة . وطافت في ذاكرتها طيور النورس التي
كانت تطير وراء السفينة ، والشيطان الواطئة ، والدرج المتلالي
الذي لفته الشمس بعيداً على الماء ، والذي بدا لها كأن نهايته
الاخرى تلتقي ببحر السعادة الازرق المتالحق . بل وتذكرت داشا
البوب الذي كانت ترتديه . . . الا كم من سنين طويلة قد مرت
منذ ذلك الحين . . .

في المساء عادت يكاترينا ديميترييفنا واكضة من نادي الحقوقيين وهي منفعلة متهللة ، وروت قائلة :

- في بروجراد انتقلت كل السلطة الى لجنة الدوما . واعتقل الوزراء ، ولكن شائعات رهيبة تسرى بين الناس تقول ان القيصر غادر مقر القيادة ، وان الجنرال ايفانوف يزحف على بروجراد فيلق كامل ليضع حدا للفلاقل ... اما هنا فقد حدد يوم غسد لاقتحام الكرملين والترسانة ... يا ايفان ايليتش ، غدا سناتي ، انا وداشا ، اليك في الصباح لنشاهد الثورة ...

٣٨

كان في وسع المشاهد ان يرى من نافذة الفندق سبيل الناس الاسود يتقدم ببطء في شارع تفيرسكايا الضيق ، وتتحرك الرؤوس ، وطاقيات كثيرة العدد ، وبقع ، ومناديل رأس ، ورقع الوجوه الصفراء . والفضوليون يطولون من جميع النوافذ ، والاولاد على السطوح .

وكانت يكاترينا ديميترييفنا واقفة عند النافذة وقد رفعت برقعها حتى حاجبها . كانت تمسك يد تليغين مرة ، ويد داشا اخرى وتقول :

- ما ارهب ذلك ! .. ما ارهب ذلك !

فكان ايفان ايليتش يقول :

- يكاترينا ديميترييفنا ، اؤكد لك ان الشعور السائد في المدينة مسالم للغاية . قيل ميجنيكما هربت الى الكرملين ، فعلمت ان المفاوضات جارية هناك . والظاهر انهم سيسلمون الترسانة دون اطلاق رصاصة ...

- ولكن لماذا هم ذاهبون الى هناك ؟ .. انظر الى عدد ضخم من الناس . . . ماذا يريدون ان يفعلوا ؟ ..

كانت داشا تنظر الى سبيل الرؤوس المتصوج والى خطوط السطوح والابراج . كان الصباح باهت الضمور ، خفيف البرد . وكان ثمة سرب من غربان الزروع يحوم

بعيدا فوق القباب الذهبية لكنائس الكرملين وفوق النسمور المقوسة الارجل في اعلى الابراج المدبية .

وخيل لداشا ان انهارا عظيمة قد اكتسحت الجليد ، وطفعت على الارض وانها وعزيرها محمولان بهذا التيار ، وليس عليها الا ان لا تمسك يده بقوة . وحقق قلبها قلقا وقرحاً ، مثل قلب طائر يحلق في اعلى الجو .

قالت كاتيا :

- اريد ان ارى كل شيء ، لنخرج الى الشارع .

كانت الاعلام الحمراء تزين بناية دوما المدينة الاجرية الداكنة اللون - مقر قيادة الثورة - ذات الاعمدة الشبيهة بالقناني ، والمدارزينات العديدة ، والشرفات والابراج . وكانت شرائط القماش الاحمر تلف الاعمدة ، وتندلق فوق افرين المدخل الرئيسي . وامام المدخل اربعة مدافع رمادية على عجلات عالية وابضة على الرصيف المتجمد . وعلى المدخل جلس جنود الرشاشات متكورين على انفسهم ، وقد زينوا كتافياتهم باشرطة حمراء . وكانت جماهير غفيرة من الناس تنظر بتوجس مرح الى الاعلام الحمراء ، والى نوافذ الدوما المتربة السوداء . حتى اذا ظهر في الشرفة الصغيرة فوق مدخل البناية شخص صغير الجسم يادي الانفعال ، ولوح بيديه ، وصرخ بشيء غير مسموح . ارتفع من الحشد هدير الفرح .

وكان الناس اذا ملأوا ابصارهم بالنظر الى الاعلام والمدافع انصرفوا سائرين على الثلج الذائب قليلا والقدر عبر اطراق كنيسة ايفرسكايا العميقة خارجين الى الساحة الحمراء ، حيث كانت الوحدات العسكرية الثائرة تجرى مفاوضات عند بوابتي سباكييه ونيكولسكييه مع المنتدبين من الفوج الاحتياطي المرابط والمتحصن في الكرملين .

دفعت الجماهير كاتيا وداشا وتليغين بسيلها الى مدخل الدوما تماما . كان الصباح يترامى متعاليًا من شارع تفيرسكايا حتى ملا ارجاء الساحة .

- يارفاق ، تنحوا ... يارفاق راعوا النظام !

ارتفعت بذلك اصوات شابة منفعلة . انشقت حشد الناس على مضض ، فاندفع خلاله الى مدخل الدوما اربعة طلاب يلوحون ببنادقهم ، وشاية مليحة الوجه شعشعا الشعر في يدها سيف . كانوا يسوقون عشرة معتقلين من رجال الشرطة ضخام مشوربين مطرقي الرؤوس عابسين شدت ايديهم وراء ظهورهم . سار في مقدمتهم ضابط شرطة له رأس حليقي مزرق حاسر ، والدم قد تخرثر مسودا عند صدغه . مرر عينيته الصهباوين اللامعتين بسرعة على وجوه الحشد المستهزئة . كانت كتابيتا معطفه قد انتزعتا مع قطعة منه .

وتردد اصوات من الحشد :

- جاء ماكان ينتظركم ، يا اصحاب ! لعبتم علينا ، وكفى .
- وحكمتكم حكم القياصرة ...
- عترة ملعونة ! ...
- امسكوهم ، واجعلوهم يدوتون العذاب ...
- يا اولاد ، هيا ! ..

صاح الطلبة مبجوحى الاصوات :

- يارفاق ، يارفساق . اتركوهم يمررون . راعوا النظا.

التورى !

وصعدوا الى مدخل الدوما راكضين دافعين رجال الشرطة ، وغيبتهم الابواب . وعندئذ تدافع وراهم بعض الاشخاص ، ومن بينهم كاتيا وداشا وتليخين .

كان بعض جنود الرماشات يقرفصون عند رشاشاتهم على الارض الرطبة في دهليز عار على السقف باعت الاضائة . وكان احد الطلبة - وهو فتى ممثلي الخدين صعقه الصياح والتعب على ما يبدو - يصبح بكل داخل .

- لا اريد ان افهم شيئا ! اعطني الترخيص بالدخول ...

وكان بعض الداخلين يبرزون له تراخيصهم ، والبعض الاخر يكتفون بهز اذرعهم عليه ، ويرتقون السلم العريض الى الطابق الثاني ، حيث كان الجنود المتربون العنسي الصموتون مستلقين او قابعين قرب جدران الممرات العريضة غير تاركين بنادقهم . كان بعضهم يضمن الخبز ، والبعض الاخر يشخر ، وسيقانهم الملعوفة

بلغانها منطوية تحتهم . وكان المتفرجون يبرون متسكعين وبقراون الاعلانات الغربية المدنسة على الابواب ويتطلعون الى المفوضين المبحوحين الراكضين من حجرة الى اخرى ، المهتاجين الى آخر حدود الطاقة الانسانية .

امتلا بصر كاتيا وداشا وتليخين بكل هذه الغرائب ، وشقوا طريقهم الى قاعة ذات علو مزودج تغطي نوافذها ستائر ارجوانية حائلة اللون ، وتصطف فيها المساطب المبطنة بالارجوان على شكل انصاف دوائر . وكان على الجدار الامامي اطاران مذهبان فارغان كانا يضمنان من قبل صورتي القيصر والقيصرة ويبدوان الآن مثل بقعتين سوداوين ضخمتين . امام الاطارين تمثال مرمرى للامبراطورة يكاترينا في رويها البرونزي المتباعد الطرفين . تبتسم منطلقة الاسارير مداهنة شعبيها .

وعلى مساطب القاعة جلس اناس مرهقون يسندون رؤوسهم على ايديهم وقد بدت وجوههم مسودة غير حليقة . وكان بعض الرجال نائمين دافنين وجوههم في لوحة الكتابة امامهم ، والبعض الاخر ينزعون القشرة عن قطع السجق في غير ما رغبة ، وباكلون الخبز . وفي الاسفل ، امام تمثال يكاترينا المبتسمة ، جلس شبان ممتقمو الوجوه في قمصان سود الى المنضدة طويلة فرش عليها غطاء من المخمل الاخضر المذهب العواشي . وبين هؤلاء رجل اصهب اللحية طويل الشعر . . . قالت كاتيا :

- انظري يا داشا . هذا هو الرفيق كوزما وراء المنضدة . وفي تلك اللحظة تقدمت من الرفيق كوزمسا فتاة قصيرة الشعر ، مدبية الانف ، واخذت تهمس بشيء . اصغى الرجل دون ان يلتفت ثم نهض وقال :

- اعلن غوتشكوف رئيس البلدية للمرة الثانية انه لن يوزع الاسلحة على العمال . اقترح التصويت بدون مناقشة على احتجاج ضد عمل اللجنة الثورية .

واخيرا استطاع تليخين ان يعرف (بعد ان استجوب طالبا قصيرا مستغفرا في تدخين سيكارة) ان اجتماع سوفييت نواب العمال مستمر هنا في قاعة يكاترينينسكي هذه لليوم الثاني بلا انقطاع . في فترة الغداء رأى جنود الفوج الاحتياطى الموجودون في

الكريملين دخان مطابخ الميدان المتقلبة في الساحة الحمراء، فاستسلموا ، وقتلوا البوابة ، وعم الصياح الساحة ، وارتفعت القبعات في الهواء . وارتقى جندي صغير لوبنويه ميستو * الوضع الذي قتل فيه دميتري الدعى * في زمانه ، فأنطرح عاريا تماما ، وقناع خروف على وجهه ، ومزارم البهلون على بطنه ، ذلك المكان الذي كان يعلن فيه تنوير القياصرة وتجنبتهم عن العرش ، وتذاع فيه جميع حريات الشعب الروسي وقبوه ، ارتقى تلك المنصة الواطئة التي كان الارقطيون يتناثر عليها احيانا كثيرة ، ثم يعود الدم المسفوك فيرويا . وكان هذا الجندي الضئيل يرتدى معظفا صلبا ، وبدا يتكلم عن شيء متجنبنا للناس ، دافعا طاقته العالية الى اذنيه بكلتا يديه ، ولم يتبين احد شيئا من كلامه لشدة الصخب . وكان الجندي ضئيلا جدا ، غربل في آخر موجة للتجنيد من احدى الاماكن الثانية ، ومع ذلك فان سيدة كانت تضع على راسها قبعة بريش مائلة الى جانب قد شقت طريقها اليه ، وقبلته . وبعد ذلك انزله الناس من «لوبنويه ميستو» ، ورفعه على اذرعهم ، وحملوه هاتفيين .

وفي تلك الاثناء صعد شاب من المحتشدين على تماثيل الجنرال سكوبليف مقابل دار الحاكم العام في شارع تفيرسكايا ، وشد قطعة من القماش الاحمر على سيفه . وتعالى الهتاف له . وانسل بعض الاشخاص الغامضين الى قسم البوليس السري من الزقاق وسمع من هناك صوت زجاج يتكسر ، ثم طلع دخان . وهتف اناس : «هورا» . وعند نصب يوشكين في بولفار تفيرسكي تحدثت كاتيا مشهورة والدمع يسبح من مآفيا عن فجر الحياة الجديدة ، وبعد ذلك وضعت بمساعدة طالب علما احمر صغيرا على يد يوشكين الواقف في لحظة استغراق : وهتف الناس : «هورا» . وكانت المدينة كلها

* منصة حجرية مستديرة الشكل كانت تعلن من فوقها مراسم القياصرة واحكام الاعداء . (المتزوج) .

** الدعى الثالث على عرش روسيا ، وقد سمي باسم دميتري اين القيصر ايفان الرابع (الريزيا) واعدم سنة ١٦١٢ في موسكو في لوبنويه ميستو . (المتزوج) .

الكسكري طيلة ذلك اليوم . ولم يعد احد الى بيته حتى ساعة متأخرة من الليل ، وقد تجمهر الناس في تجمعات ، وراحوا يتحدثون ، ويبيكون من الفرح ، ويتعانقون ، ويتنظرون بقرقيات . فان روح اهالي المدينة تطفئ بعد ثلاثة اعوام من الجوع والكراهية والدم .

عادت كاتيا وداشا وتليفين الى البيت عند هبوط الظلام فعرفوا ان الغادسة ليزا قد خرجت الى بولفار بريتشستنسكي لحضور اجتماع ، وان الطباعة قد حبست نفسها في المطبخ ، وانها تبكي وتطلق صرخات خافتة . افلحت كاتيا بعد لاي في اجبارها على فتح الباب :

- ماذا حدث لك ، يامارقوشا ؟

- قد... قد... لرا... تيصرنا .

قالت وغطت ببيها ففها الممثل ذا الشفتين المنتفختين من اليكاه . وكانت رائحة الكحول تفوح منها .

قالت كاتيا منزعجة :

- انت تقولين هراء . ان احدا لم يقتله .

وضعت سخان الشاي على موقد الغاز ، وذهبت لتعد المائدة . استلقت داشا على الاريكة في غرفة الجلوس وجلس تليفين عند قدميها . قالت داشا :

- ايفان ، يا عزيزي ، اذا اخذتني غفوة دون ان ادري ، فابقظني حين يعد الشاي فانا مشوقة اليه جدا .

وانقلبت ، ووضعت كفها تحت خدها ، وقالت بصوت ادركه الناس :

- احبك كثيرا .

في الشفق كان الفلاح الذي كان تلتف به داشا يلوح ابيض . وكان تنفسها غير مسنوع . جلس ايفان بلا حراك ، وقد انغم قلبه . ظهر ضوء في شق الباب في نهاية الغرفة ، ثم افتتح الباب ، ودخلت كاتيا ، وجلست الى جانب ايفان ايليتش على مسند الاريكة وطوت ركبتيها . وبعد برهة من الصمت سألت بصوت خفيض :

- غقت داشا ؟

- طلبت ان توقظ عند تهيئة الشاي .

- ومارفوشا تربيكي في المطبخ لأن القيصر قتل . ماذا سيحصل ، يا ايفان ايليتش ؟ . . . يخامرني شعور بان جميع السدود قد حُرت . . . وقلبي يوجعني خوفا على نيقولاى ايفانوفيتش . . . ارجو ، يا عزيزى ، ان ترسل له برقية في الصباح الباكر غدا . . . قل لى متى تتويان - انت وداشا - السفر الى بتروغراد ؟

لم يجب ايفان ايليتش . ادارت كاتبا له راسها وتفرست فى وجهه بعينها الواسعتين كعيني داشا تماما ، سوى انها عينا امرأة جديتان ، وابستمت ، وجذبت ايفان ايليتش ، وقبلته من جيبيته . فى صباح اليوم التالى خرج الناس جميعا الى الشارع . سارت الشاحنات المملوءة بالجنود فى شارع تيفرسكايا وسط زحام الناس ، والهتافات المتواصلة ، فكان الجنود مسلحين بالحراب والسيوف . واعتلى الصبيان متون المدافع المقرقة ووقفت على الكرام الثلج القذرة وعلى الارصفة لحراسة النظام فتيات فى ريعان الشباب شاهرات السيوف متوترات الوجوه وطلاب مدججون بالسلاح لا يعرفون الرحمة . انهم الميليشيا المتطوعة ، ضد اصحاب الخوانيت على السلام وانزلوا النصور الامبراطورية من لافتاتهم . وسارت فى شوارع المدينة فتيات سقيمت المظهر - هن عاملات من معمل التبغ يحملن صورة ليف تولستوى الذى كان ينظر بجهامة من تحت حاجبيه المعقودين الى كل هذه الغرائب . وبدا وكان من المستحيل ان تكون بعد الان حرب او بغضاء ، ولم يبق الا ان ترفع الراية الحمراء على احد ابراج الاجراس العالية حتى يدرك العالم اجمع اننا جميعا اخوة ، وان القوة الوحيدة فى الدنيا هى الفرح والحرية والحب ، والحياة . . .

وحين حملت البرقيات النسا الصاعق عن تنحية القيصر وانتقال الملك الى كبير الامراء ميخائيل ، وعن رفضه للعرش القيصرى بدوره ، لم يدهش احد كثيرا ، فقد بدا وكان تلك الايام حبل باعظم من هذه العجائب .

وتجمدت البرك على الرصيف وراحت تتكسر تحت الاقدام . توقفت داشا ، ودون ان تفك يديها المشابكتين اللتين طوقت بهما يد ايفان ايليتش مدت بصرها عبر السياج الواطى فى الضوء الباهت فى النافذة الصغيرة العميقة فى كنيسة القديس نيقولا .

كانت الكنيسة وفناؤها فى الظل تحت اشجار الزيزفون . ترامي من بعيد صوت انصفاق باب وسار فى الفناء رجل قصير فى معطف طويل يصل الى الارض ، وقبعة معكوفة الحافة . وكان الجليد يتكسر تحت خذائه اللبدي ، وترامت صلصلة المفاتيح . اخذ الرجل يرتقى برج الجرس على مهل . همست داشا :

- ذهب القندلفت ليدق الجرس .

ورفعت داشا راسها ، كان اتقى الغروب يرتدى على ذهب القبة الصغيرة على برج الكنيسة .

دق الجرس الذى يدعو الناس منذ ثلاثمائة عام الى سكنيه النفس قبل النوم . وفزت الى ذاكرة ايفان ايليتش فى الحال تلك الكنيسة الصغيرة فى الطريق ، والمرأة التى كانت تبكي بصمت على عتبتها وهى بردائها الابيض ، والطفل الميت على ركبتيها . ضغط ايفان ايليتش بكوعه على يد داشا وضغطة قوية . نظرت داشا اليه نظرة تساؤل . وسالته بهمس سريع :

- اتريد ؟ لنذهب . . .

ابتسم ايفان ايليتش ابتسامة عريضة ، فعبست داشا وضربت الارض بخذائها .

- ليس فى الامر ما يضحك حين تسير امرأة ويدها بيد الشخص الذى تحبه اكثر من أى شئ آخر على الارض ، وتبصر ضوئا فى نافذة فيدخلان الكنيسة ، ويعقدان قرانها . . .

وتناولت داشا يد ايفان ايليتش ثانية ، وسالت :

- هل انت فاهسى ؟

- ايها المواطنين ، جنود الجيش الروسى الحر منذ الآن فصاعدا . لقد حطيت بشرف نادر ، هو ان اهنتمكم بيوم مجيد : ان قيود العبودية قد حطمت ، وتام الشعب الروسى خلال ثلاثة ايام

بأعظم ثورة في التاريخ دون اراقة قطرة من الدماء . فقد خلع القيصر المتوج عن العرش ، واعتقل الوزراء القيصريون . وتنازل ميخائيل ولي العهد من تلقاء نفسه عن عيب العرش الثقيل . ومنذ اليوم انتقلت السلطة بكامل هيبتها الى الشعب ، واصبحت على رأس الدولة حكومة مؤقتة لكي تجرى الانتخابات الى الجمعية التأسيسية لعموم روسيا في اقرب وقت مستطاع ، على اساس التصويت السري المباشر المتساوي العام . . . فلنهنئ منذ اليوم : عاشت الثورة الروسية ، عاشت الجمعية التأسيسية ، عاشت الحكومة المؤقتة ! . . .

تعالى عناف طويل من آلاف الجنود المحتشدين . اخرج نيقولاى ايفانوفيتش سموكوفنيكوف مندبلا كبيرا كاكى اللؤلؤ من جيب سترته الشموا ، ومسح رقبته ووجهه ولبعته . كان يتكلم وهو واقف على منصة مصنوعة بارتجال من الواح خشبية ، يضطر الصاعد اليها الى التسلق على عوارض متقاطعة . وكان يقف وراء ظهره أمر الكتيبة تيتكين الذى رقى قبل حين الى رتبة مقدم ، وقد ارتسم الانتباه المتوتر على وجهه المسفوح بلحيته القصيرة وانفه الممتلئ . . . وحين تعالى الهتاف رفع يده الى طرف طائفيه بتحية ساعية . وكان زهاء الفى جندى يقفون امام المنصة فى الحقل المنبسط المرقش ببقع سوداء من الارض والتلج المتسبخ . كانوا يقفون فاغرى الافواه معتمرين بالخوذ الحديدية لابسين المعاطف المتجمدة بلا ازمة ، وبلا سلاح ، يصفون الى الكلمات المذمعة الذى كان ينطق بها سيد احمر كالدريك الحبشى . وفى الهدى البعيد كانت مداخن قرية معروفة تلوح بارزة من خلال الضباب الرمادى . ووراء القرية كانت تبدأ مواقع الالمان .

— ايها الجنود !

تابع نيقولاى ايفانوفيتش خطابه ، وقد هد الى الاسام يده منفرجة الاصابع ، وتدقق الدم الى رقبته :

— بالامس فقط كنتم اناسا من درجة واطنة ، قطعيا اعجب كانت القيادة العليا القيصرية ترسله الى المذبحة . ولم يكونوا يسألونكم ما الذى يجب ان تموتوا من اجله . . . كانوا يجعلونكم على اقل ذنب ، ويرمونكم بالرصاص دون محكمة . (سعل المقدم

تيتكين ، ورفع قدما ووضع اخرى ، الا انه صمت ، وانزل رأسه ثانية ، وعاد الى اصغاله) . لقد عينتتى الحكومة المؤقتة مفوضا لجيوش الجبهة الغربية - وهنا شد نيقولاى ايفانوفيتش على اصابعه كمن يمسك بعنان - واصرح لكم انه منذ اليوم لا توجد رتب واطنة ، ولا القاب ، وانتم الجنود ، منذ اليوم ، مواطنون متساوون للدولة الروسية ولا يوجد الان فرق بين الجنود وقائد الجيش . وقد الغيت القاب صاحب السيادة ، صاحب المعالي ، صاحب الفخامة . منذ اليوم ستقولون «مرحبا ايها السيد الجنرال» و«لا ، ايها السيد الجنرال» و«نعم ، ايها السيد الجنرال» . وصنع الجواب المهينة مثل «بالامر والخدمة ، يا صاحب السيادة» قد الغيت كما الفى اداه الجندى التحية العسكرية لكل ضابط مهما تكن رتبته . وفى امكانكم ان تصافخوا الجنرال اذا شئتم ذلك . . .

ها - ها - ها -

سرت هذه الوهومة مرحة فى حشد الجنود . وابتسم تيتكين ايضا ، ورفق رموشه خوفا .

— وأخيرا نأتى الى الشيء الأهم : ايها الجنود ، من قبل كانت الحكومة القيصرية هي التي تخوض الحرب ، ومنذ اليوم سيخوضها الشعب ، انتم انفسكم . ولهذا تقترح الحكومة المؤقتة عليكم تشكيل لجان الجنود فى جميع الجيوش - لجان السرايا والكتائب والافواج صغورا حتى لجان الجيوش . . . ارسلوا الى هذه اللجان الرفاق الذين تتفون بهم ! . . . ومنذ اليوم سيتحرك اصبع الجندى على الخارطة العسكرية الى جانب قائم القائد الاعلى . . . ايها الجنود ، اهتؤمكم بمكسب الثورة الرئيسى ! . . .

وضجت الهتافات فى الحقل مرة اخرى . وقف تيتكين بهيئة استعداد ، وادى التحية العسكرية . واكتسى وجهه لونا رعاديا . واخذت الضبيحات ترتفع من المحتشدين :

— هل سنعتقد الصلح مع الالمان عن قريب ؟

— كم سيخصصون من الضابون للفرد الواحد ؟

— وماذا بخصوص الاجازات ؟ ماهى التعليميات ؟

— ايها السيد المقوض . ماذا سيكون عندنا الآن ؟ هل

سننتخب ملكا ؟ ومن سيعارب ؟

- وانك هل سبق لك ان غذيت القمل من دمك في الخنادق ؟
 - انه لم ير قملة واحدة منذ ولادته ...
 - اهد له ثلاثا للتكاثر ...
 - لا تحدثنا عن الحرية . حدثنا عن الحرب . نحن نحارب منذ
 ثلاث سنوات ... انت في طيب مقام في المؤخرة ، تغذى لك كرشنا
 اما نحن فيجب ان نعرف كيف ننهي الحرب ...
 صاح نيقولاى ايفانوفيتش مرة اخرى :
 - ايها الجنود ، ان راية الثورة قد رفعت . الحرية والحرب
 حتى النصر الاخير ...
 - اوه ، ايله ملعون لا فائدة منه ...
 - نحن نحارب منذ ثلاث سنوات ، ولم نجد نصرا ...
 - ولماذا اذن خلعوا القيصر ؟ ...
 - خلعوا القيصر عن قصد . كان يعرقل عليهم تطويل
 الحرب ...

- انه ماجور ، يا رفاق ...
 شق المقدم تيتكين طريقه الى نيقولاى ايفانوفيتش دافعا
 الجنود بكوعه ، وشاهد مدفعا ضخما مكرور الكتفين اسود الشعر
 يمسك المفوض من صدره ، ويهزه ويصرخ في وجهه :
 - لماذا جئت الى هنا ؟ قل : لماذا جئت اليينا ؟ جئت لبيعنا ،
 يا ابن الكلبة ...
 وغار قفا المفوض المستدير في وقتبه ، واهتزت لحيته
 الشائلة الى فوق ، الشبيهة بلحية مستعارة . دفع الجندي ، ومزق
 باصابع مرتجفة ياقعة قميصه . تعبس الجندي وخلق خوذته
 الحديدية ، وضرب بها رأس نيقولاى ايفانوفيتش ووجهه عدة
 ضربات قوية ...

٤٠

جلس حارس ليلى ورجل من رجال الميليشيا عند باب مخزن
 المجوهراتى موراقبتيشيك يتبادلان الحديث بخفت . وكان الشارع
 خاليا ، والمخازن مغلقة ، وريح آذار الخفيفة تصفر في اشجار الحور

ولكى يرد على الاسئلة على نحو افضل نزل نيقولاى
 ايفانوفيتش من المنصة ، فحاطه الجنود الهائجون في الحال . اسند
 المقدم تيتكين مرفقه على درابزين المنصة ، وراقب رأس المفوض
 العربى الحليق الحسير وقفاه الممتلئ وهو يتحرك وسط الخوذ
 الحديدية ، ويدور ويتبع . امسك جندي احمر الشعر يلوح عليه
 المرح والغضب يضع معطفه على كتفيه (كان تيتكين يعرفه جيدا ،
 من سرية المغاربة) امسك نيقولاى ايفانوفيتش من حزام سترته ،
 وراح يسأله مطوقا بصره فيما حوله :
 - ايها السيد المفوض العربى ، انت تحدثت لنا حديثا مشوقا ،
 ونحن اصغينا اليه بشوق ... والآن اجبني على هذا السؤال .
 ضح الجنود فرحين ، واشتد تزامهم . تعبس المقدم
 تيتكين ، ونزل من المنصة واجما .
 قال الجندي وهو يكاد يمس انف نيقولاى ايفانوفيتش باظفره
 الاسود :

- اطرح عليك هذا السؤال . تلقيت من قريتي رسالة
 تخبرني بان البقرة التي كانت في بيتي قد فطست ، وانا لا املك
 حضانة ، زوجتي راحت تطوف في الارض مع اولادنا تستجدى الناس
 كسر الخبز ... اريد ان اسأل : ايحق لك الآن ان ترميني
 بالرصاص اذا حاولت الهرب ؟
 - اذا كانت سلامتك الشخصية اغلى عندك من الحرية ،
 ففي وسعك ان تخونها ، تخونها كيهودا . عندئذ ستقول روسيا
 لك في وجهك : لا تستحق ان تكون جنديا في الجيش الثورى ...
 اذهب الى بيتك !

صرخ نيقولاى ايفانوفيتش بحدة ، فقال الجندي :

- لا تصرخ على !

- ومن انت لتصرخ علينا !

- ايها الجنود- ورفق نيقولاى ايفانوفيتش جسمه على
 اطراف اصابعه- هنا يجرى سوء تفاهم ... ان الوصية الاولى
 للثورة هي الاخلاص لهدفنا ... وعلى الجيش الروسى الثورى
 الحرا ان يهاجم بقرة جديدة عدو الحرية الاله ، المانيا الامبريالية ...
 فارتفع صوت غليلط :

التي لم تكتس اوراقا بعد ، وتخشخش في اعلان «قرض الحرية» الملتصق على سياج ، والقمر الوضاء قمر الجنوب ، الحي ، مثل قنديل البحر يتدلى عاليا فوق المدينة .

وكان الحارس الليلي يتحدث ببطء :

- وكان هو يصطاف في منزله على الساحل البحري في المطا ، وكان قد خرج الى التنزه في سروال ابيض ، حسب الاصول ، بكل ثيابهينه ، واذا بهم يسلمونه برقية في الشارع عن خلع صاحب الجلالة الامبراطور . ويقرا البرقية ، وتفجر الدموع من عينيه امام الناس جميعا .

ردد رجل الميليشيا متعجبا :

- اي ، اي ، اي .

- وبعد اسبوع آتيل .

- والسبب ؟

- لانه حاكم ، والحاكم غير مقبول في هذه الايام .

- اي ، اي ، اي .

كرر رجل الميليشيا تعجبه ، ناظرا الى قط ضاؤ كان ماضيا في شؤونه يحذر في ظل القمر تحت شجيرات الاقاسيا .

- ... وكان جلاله الامبراطور يعيش في ذلك الوقت في موفغيليف بين قواته وحياته رخيصة مطمئنة . في النهار يشبع من النوم ، وفي الليل يطالع التقارير عن المعارك الحاصلة . . .

قال رجل الميليشيا :

- الملعون عظمتان بالتاكيد ، وذهب لشرب الماء :

- عين تتحدث ؟

- عن قط مخزن سينوبلي للدخان . خرج يتمشى .

- حسنا . وفجأة يتصلمون بجلالة الامبراطور بالخط المباشر ، ويبلغونه بكذا وكيت ، ويقولون ان شعب بتروغراد ثائر ، والجنود لا يريدون التصدي للشعب ، بل يبتغون العودة الى بيوتهم . ولكن صاحب الجلالة لا يظن ذلك بالامر الخطير . ويستمتع جميع الجنرالات ، ويلبس الثيابين والوشاح ، ويخرج اليهم ليقول : «الشعب ثائر في بتروغراد ، والجنود لا يريدون التصدي للشعب بل يبتغون العودة الى بيوتهم . فماذا يجب ان

افعل ؟ ادلوا لي برايكم . وماذا تحسبون ؟ نظر جلالته الى الجنرالات ، ولكن هؤلاء ، يا صاحبي ، لم يقولوا رايهم ، بل اداروا وجوههم جميعا . . .

- اي ، اي ، اي ، مصيبة !

- واحد منهم فقط لم يدر وجهه عن الامبراطور ، وهو جنرال عجوز سكير . قال له : «ياصاحب الجلالة ، مرني اضع رقبتي لك» . هز صاحب الجلالة راسه ، وابتسم بمرارة ، وقال : «من بين جميع رعاياي الاحياء لم يبق الا واحد مخلص ، وحتى هذا تجده سكران كل يوم منذ الصباح . والظاهر ان ملكي قد انتهى . ناولوني ورقة فيها شعار الدولة لاوقع على تنازلي عن العرش» .

- ووقع بالفعل ؟

- وقع ، وذرف دموعا مريرة .

- اي ، اي ، اي ، مصيبة . . .

وفي تلك الاثناء مر بالمخزن رجل طويل ليس كيبه ذات راس مديب كبير غاطسة حتى حاجبيه . وكان ردن سترته الفارغ محشورا في حزامه . ادار وجهه نحو الرجلين الجالسين عند المخزن ، ولعلت استانه بوضوح . قال الحارس خافت الصوت :

- هذا الرجل يمر للمرة الرابعة .

- انه لص بالتاكيد .

- هذه الحرب هي التي ولدتهم بهذه الكثرة يا صاحبي .

ظهور في اماكن لم تعرفهم من قبل . فتانون في صنعتهم .

دقت الساعة على برج الجرس ثلاث دقات من مسافة بعيدة ، واعقبها صباح ديكة الفجر . وظهر ذو النزاع الواحدة في الشارع مرة اخرى . وقد اتجه هذه المرة الى الحارسين تماما ، نحو المخزن . صمت الرجلان وزاحا يتطلعان اليه . وفجأة قال الحارس بهمس متسارع :

- وقفنا في داعية ، يا ايفان . اطلق صفارتك .

اخذ رجل الميليشيا يخرج صفارته الا ان ذا النزاع الواحدة وثب عليه ، وضربه بقدمه على صدره ، وفي نفس اللحظة ضرب الحارس الليلي بمقبض المسدس على راسه . وفي تلك البرهة ركض رجل ثان نحو المدخل : كان قصيرا بارز الشاربين في معطف جندي ،

سافر تليفين وداشا الى بتروغراد ، وبقيت كاتيا وحيدة .
وقد وافقتهما الى محطة القطار - كانا في حالة من شرود الذهن ،
وكانهما في حلم - وعادت الى البيت وحدها عند حلول الظلام .

كان البيت خاليا . فقد خرجت مارقوشا وليزا الى اجتماع
خدام البيوت . كانت غرفة الطعام ما تزال غائبة برائحة تبغ
وزهور ، وشجيرة الكرز المزهرة ماتزال واقفة في موضعها بين
اوانى الطعام غير المرفوعة . سقت كاتيا الشجيرة بدورق الماء ،
وجسعت اوانى الطعام وجلست على مقعد دون ان تشعل الضوء ،
ووجهها الى النافذة فرأت السماء وراها مظلمة ملغمة بالسحب .
دقت ساعة الحائط في غرفة الطعام . وستمضي في دقائقها ، حتى لو
تمزق القلب حزنا وكيدا . ظلت كاتيا جالسة في سكون وقتها
طويلا ، ثم تناولت لافحا ازغب من على الكرسي الوثير ، وألقته على
كتفها ، وذهبت الى غرفة داشا .

كان الفراش المخطط على السرير العارى بلوح في الظلمة .
وعلى احد المقاعد علبه كرتونية فارغة من علب القبعات ، وعلى
الأرض تناثرت اوراق ومزق . وبعد ان عرفت كاتيا ان داشا اخذت
معها كل حاجياتها ، ولم تبق او تنس شيئا . فكبرها ذلك عظيم
التكدر حتى تندت عينها . جلست على السرير ، على الفراش
المخطط ، ساكنة ايضا وبلا حراك كما كانت في غرفة الطعام .

دقت ساعة غرفة الطعام العاشرة دقائق رنانة . عدلت كاتيا
اللهاج على كتفها ، وذهبت الى المطبخ ووقفت هناك برهة ،
وارهفت سمعها ، ثم رفعت جسمها على اطراف اصابعها ، وتناولت
من الرف دفتر المطبخ ، انتزعت منه ورقة بيضاء ، وكتبت بقلم
رصاص : «ليزا ومارقوشا . كان يجب ان نتجلا على ترككما البيت
طوال النهار وحتى الليل» . ونزلت دمعة على الورقة . وضعت كاتيا
الورقة على طاولة المطبخ ، وذهبت الى مخدعها . فخلعت ملابسها
على عجل ، وانسلت الى سريرها ، وهدأت .

في منتصف الليل صفق باب المطبخ ، ودخلت ليزا ومارقوشا
تطبطبان باقدامهما وتحدثان بصوت عال ، وراحتا وجاءتسا في

وقد انقض على رجل الميليشيا ، ولوى ذراعيه وراء ظهره بحركة
سريعة قوية .

واخذ ذو النزاع الوحدة والتصير بعالجان القفل صامتين حتى
فلاه ، ودخلا مخزن مورافيشيك ساحبين الى داخله الحارس
المصنوق ورجل الميليشيا المشدود الزراعين ، وسدا الباب
وراءهما .

وانتهى كل شيء في بضع دقائق . شددت الاجار الكريمة
والذهب في صرتين . وبعد ذلك قال التصير :

- وهذا؟

ورفس بخذائه رجل الميليشيا الذى كان منظرها على الارض
قرب البسطة .

تتمتع رجل الميليشيا بصوت ضعيف :

- ياغريزي ، لا داعى للقتل لا تغلعه ايها الطيبان . .

قال ذو النزاع الواحدة بعدة :

- لنذهب .

- اقول لك انهما سيبلغان عنا .

- لنذهب ، يا سافل !

وامسك اركادى جادوف الصرة باسنانه ، ووجه مسدسه
«الموزر» على شريكه . فضحك هذا بتهكم ، وسار نحو الباب .
وكان الشارع ما يزال خاليا . خرج الاثنان بهدوء ، وانعطفا في ركن
الشارع ، وسارا نحو «قصر كارينيه» . قال جادوف للرجل التصير
اثناء سيره :

- سافل ، قاتل ، وغد . تجنب ذلك ، اذا كنت تريد العمل

معى . فهمت ؟

- فهمت .

- والآن ، اعطنى الصرة . واذهب في الحال واعد القارب .

ساذهب انا لاحضار زوجتي . يجب ان تكون في البحر عند الفجر .

- نذهب الى يالطا ؟

- ليس هذا شأنك . الى يالطا او الى القسطنطينية . . .

انا صاحب الامر .

المطبخ ، ثم هدأت حركتها . وبعد ذلك ارتفع ضحكها فجأة ، بعد ان قرأتا الورقة . طرقت كاتيا بعينها ، ولم تبد حراكا .
 سعاد السكون في المطبخ في آخر الامر . ودقت الساعة معلنة الواحد بعد منتصف الليل . وترامت هذه الدقة رنانة ومؤرقة . انقلبت كاتيا على ظهرها ، وازاحت البطانية عنها بضربة من قدمها ، وتهدت بصعوبة عدة مرات ، وكانها لا تجد الكفاية من الهواء ، وقفزت من السرير ، واضادت المصباح الكهربائي ، وقلصت عينها من ضوءه المفاجيء واقتربت من المرأة الكبيرة القائمة . كان قميص النوم الخفيف لا يصل الى ركبتيها . نظرت كاتيا الى صورتها في المرأة بسرعة وسهوم ، الى صورة تبدو جد اليقة لها ، وارتعش حنكها . دنت من المرأة كثيرا ، ورفعت شعرها من الجانب الايمن .
 «نعم ، نعم ، بالطبع ، هذا ثم هذا . . .» - وتعمنت في وجهها كله - نعم ، نعم ، طبعاً . . . وبعد عام سيستمع رأسي شيئا ، ثم تدركني الشيخوخة» . اطفات الكهرياء ، واستلقت على السرير ثانية ، وغلقت عينها بكوعها . «لم ادق لحظة من الهناء طوال حياتي . والان انتهى كل شيء . . .» . لن يطوقني احد يذراعيه ، ولا يعترضني ، ولا احد يقسول لي : ياغريزتي ، يا حبيبتي ، يا فرحتي . . .»

ومن بين الافكار المرة والتاسفات طاف في ذاكرة كاتيا فجأة درب رملي رطب عبر مرج من الأرض مزروق من المطر ، وأشجار زيزفون كبيرة . . . وهي نفسها - كاتيا - تسير في هذا الدرب في ثوب بني ومؤزر اسود ، والنسيم يداعب شعري تحت ثعلبها ، وهي تحس بختها ، وورشاتها ، والنسيم يداعب شعري تحت ثعلبها ، والطالب اليوشا يقود دراجته على العشب الرطب ، لا على الدرب ، ولكن على العشب المبلل . وانقلبت كاتيا لتمتع نفسها من الضحك . . . واليوشا يقول بصوت اجوف : «انا اعرف - انا لا امل بان تبادليني شعوري . وقد جئت لغاية واحدة فقط ، هي ان افضى ذلك لك . سأنهى حياتي يوما ما في محطة قطار ثانية ، فوداعا . . .» ويمطى دراجته ويسير عبر المرج ، مخلفا وراءه اثرا ازرق على العشب . . . ظهره مكسور في سترته الرمادية ، وطاقته البيضاء تخفت ورا الخضرة . وتصرخ كاتيا : «اليوشا ، عد !»

.. احقا ان هذه التي يعذبها الارق الآن ، كانت واقفة آتند في ذلك الدرب الرطب ، والنسيم الصيفي العبق برائحة المطر يداعب منظرها الاسود ؟ قعدت كاتيا في السرير ، ووضعت رأسها بين يديها ، واستندت كوعها على ركبتيها العاريتين ، ولاحت في خيالها اضواء مصابيح شاحبة ، وورداً تلجى ، وريح تدوى في اشجار جرداء ، وصرير زلاجة زاعق موحش قانط ، وعينا بيسونوف الجليدتان قرببتين من عينها . . . حلاوة الغور وشملل الازادة . . .
 رعشة الفضول المعززة . . .

اضطلعت كاتيا مرة اخرى . ورن الجرس بعدة في سكون البيت . سرت البرودة في جسد كاتيا . ورن الجرس للمرة الثانية . سارت ليذا في المعليز حافية نصف نائمة ترسل زفقات غاضبية ، وصلصل مزاج الباب الخارجي ، وبعد دقيقة سمعت كاتيا طرفا على باب مخدعها : «جات برقية لك ، ياسيدة» .

تناولت كاتيا الطرف الضيق متغضنة الا سارير ، وفضت الغتم ، ونشرت الورقة ، واذا بصهرها يفيم .
 - ليذا - قالت وهي تنظر الى الفتاة التي اخذت شقتهاها ترنجان من الذعر - مات نيقولاي ايفانوفيتش .

صرخت ليذا ، وانفجرت بالبكاء . طلبت كاتيا اليها ان تنصرف . ثم اعادت قراءة الحروف الشنبعة على شريط البرقية للمرة الثانية : «توفي نيقولاي ايفانوفيتش متأثرا بجراح بليغفة اصابتها اثناء تاديه واجبه النبيل نقطة سينقل جثمانه الى موسكو على نفقة الاتحاد . . .»

احسنت كاتيا ينقل الغثيان تحت نهدها ، وغشاوة وسوداء امام عينها ، مدت جسمها الى الوسادة ، وفقدت الوعي . . .
 في اليوم التالي جاء لزيارة كاتيا ذلك السيد الملنحي المورود الوجنتين الذي سمعته في اليوم الاول للثورة يتحدث في نساذي الحقوقيين - وهو شخصية اجتماعية شهيرة ورجل ليبرالي يدعى الامير كابوستين - اوتجسكي - وقد اخذ يديها بيديه ، وضغطهما على صدره المورب ، وراح يقول انه باسم المنظمة التي كان يعمل فيها مع الفقيه نيقولاي ايفانوفيتش ، وباسم مدينة موسكو الذي هو الآن مساعد مفوضها ، وباسم روسيا والثورة ينقل الى كاتيا

التعازي والاسف على فقد متأمل مجيد في سبيل الفكرة تخطفه الردى قبل الاوان .

كان الامير كابوستين - اونجسكى بطبعه مفعما بالسعادة والعافية والمرح ، وصادقا في اظهار اساه وتفوح من لحيته وصداره ورائحة سيفار مهدنة حتى ان كاتيا احست لبرحة من الوقت بان اقتباس نفسها بترأخي . فرفعت اليه عينها اللامعتين من السهاد وباعدت شفقتها الجافتين :

- شكرا على ما قلته عن نيقولاي ايفانوفيتش . . .

اخرج الامير مندليا كبيرا ومسح عينيه ، انه قد ادى واجبا تقبلا وانصرف . زعقت سيارته في الشارع الجائبي بصوت كصوت الغول . وعادت كاتيا تطوف في الحجرة . توقفت امام الصورة الفوتوغرافية لجنرال لا تعرفه له وجه اسد ، وتناولت البومبا للصور ، وكتابا ، وعلبة من صنع الصين رسم على غطائها مالك العزيرين ممسكا بشفدعة . ثم مشيت من جديد ، ناظرة الى ورق الحائط ، الى الستائر . . . ولم تمس طعام الغداء . قالت الخادمة ليزا : «على الاقل لو اكلت مهلبية الفواكه» . هزت كاتيا راسها رفضا دون ان تحرك شفقتها . كتبت لداشا رسالة قصيرة ، ولكن مزقتها في الحال .

كانت تود لو ترقد وتنام . ولكن الرقود في السرير كالرقود في التابوت - رهيب بعد الليلة البارحة . . . وكان اشد ما يوجعها هو اسفها الياس على نيقولاي ايفانوفيتش ، فقد كان انسانا طيبا رقيق القلب مشوش الفكر . . . كان يجب ان تحبه على ما هو عليه . . . اما هي فعذبتة ؛ فشاب قبل الاوان . نظرت كاتيا في النافذة الى السماء الكئيبة العائلة اللون . ولوت اصابعها حتى فرقت .

وفي اليوم التالي اقيم قداس تذكاري لنيقولاي ايفانوفيتش . وبعد يوم دفن رفاتة . وقيلت كلمات جميلة على قبره ، فشمسه الفقيدي بقادوس بحرى هلك في اعماق اليم ، وبرجل حمل المشعل المنهب طوال حياته المجيدة . وحضر الدفن رجل قصير القامة يلبس نظارة هو احد الاثريين-الثوريين المشهورين ، وقد جاء متأخرا ، وقال لكاتيا بدمعة غاضبة : «تحي ، يا مواطنة» . وضح

طريقه حتى حافة القبر ، واخذ يتكلم قائلنا ان موت نيقولاي ايفانوفيتش يؤكد مرة اخرى صحة سياسة حزبه حول مسألة الارض . وكانت التربة تنفتحت تحت حدائه الفحيح المظھر ، وتسقط مرتظمة بالتابوت . شعرت كاتيا بنوبة غشيان تصك حلقومها ، فانسلت من الجمع خلعة . وعادت الى البيت .

كانت تراودها رغبة واحدة : ان تغتسل ، وتنام . ولكن حين دخلت البيت استولى عليها الرعب ؛ اذ وقع بصرها على ورق الحائط المخطط ، والصور الفوتوغرافية والعلبة بمالكها العزيرين ، والغوان المدعوك في غرفة الطعام والنوافذ المتربة . فاي وحشة كانت تنبعث من هذه الاشياء ! طلبت كاتيا ان يبلأ حوض الحمام ، واستلقت في الماء الدافئ وهي تنن . فان جسما كله قد احس اخيرا بتعب قاتل . ثم جرت نفسها الى مخدعها بجهد شديد ، وغفت دون ان ترفع غطاء الفراش الخارجى . وهجست لها في نومها رنات جرس ، ووقع خطوات ، واصوات ، وطرق على الباب ولم ترد عليها .

استيقظت كاتيا حين خيم الظلام التام ، وقلبا منقبض مومج . وتساءلت مدعورة شاكية «ماذا ؟ ماذا ؟» ورفعت جسما في السرير قليلا ، وللحظة املت ان يكون كل ذلك مجرد حلم مرعب تراهي لها . . . ثم شعرت ، وللحظة ايضا ، بالغبن والانصاف . فعلام تتعذب ؟ وعادت الى عالم اليقظة تماما ، وعدلت شعرها ، ولبست خفيها على قدمين غاريتين ، وقالت لنفسها بوضوح وهدوء : «لا اريد ان اتحمل اكثر من ذلك» .

فتحت كاتيا ، على مهل ، باب صندوق الادوية البيتي المعلق على الحائط ، واخذت تقرا الاوراق الملصقة على القوارير . فتحت قارورة المورفين الصغيرة ، وشمستها وضمت عليها راحتها ، وذهبت لتخرج قدحا من غرفة الطعام ، الا انها توقفت في الطريق اليها اذ رأت صوتا في غرفة الجلوس . وسالت بخفوت : «اهدأ انت يا ليزا ؟» وفتحت باب الغرفة قليلا ، ورات رجلا ضخما في قميص عسكري يجلس على الاريغة ورأسه الحليق مضمد بعصابة سوداء . نهض بسرعة حين رآها . اخذت ركبنا كاتيا ترتشمان ، واحست بخوا تحت قلبها . صدق الرجل فيها بعينين مخيفتين متسعيتين ، زاما شفقتيه المستقيمتين . لقد رات امامها فاديم بتروفيتش وتروشين . وضعت

كاتيا كلتا يديها على صدرها . وقال روتشين ببطء وعزم دون ان يصرف بصره عنها :

- جئت لاقدم لك احتراماتي . ان خادمتك اخبرتني بصوابك . وقد بقيت لانني رايت من الواجب ان اخبرك بان في وسعك ان تضعيني انا وحياتي كلها تحت تصرفك .

وارتعش صوته حين قال الكلمات الاخيرة ، وامتلأ وجهه النخيل بحمرة داكنة . ضغطت كاتيا يديها على صدرها بكل قوتها . وقرأ روتشين في عينيها الحاجة الى ان يدنو منها ويعينها . وحين اقترب قالت واستانها تصمك :

- اهلا بك ، يا قادم بتروفيتش . . .

وبحركة لا ارادية رفع ذراعيه ، وهو يهيم بتلقيها ، فقد بدت متهافئة تعيسة ، وهي تضم قبضتها على القارورة يتشنيج ، الا انه احجم في اللحظة التالية ، وانزل ذراعيه وتقلب . اردت كاتيا فجأة بفطرة المرأة انها ، وهي المرأة التعيسة الصغيرة ، الغاطسة ، العاجزة بكل دموعها التي لم تذرف بعد ، وبقارورة المورفين البائسة اصبحت ضرورية وعزيزة على هذا الرجل المتأهب بصمت وتجهم الى ان يمزج روحها بروحه . حسمت كاتيا دموعها غير قادرة على ان تقول شيئا وان تفك اسنانها ، وانحنت على يد قادم بتروفيتش ، وضغطتها على شفتيها ، وعلى وجهها .

٤٢

وضعت داشا كرسيها على القاعدة المرمرية ، ونظرت في النافذة . كان الشفق يملأ نصف السماء وراء الغابات الداكنة في نهاية جادة كامينو اوستروفسكي . وكانت السماء مسرحة تصنع فيه عجائب . كان ايفان ايليتش يجلس جنب داشا يحقد فيها بلا حراك ، رغم انه كان يستطيع ان يتحرك على هواه ، فان داشا لن تغادر الا ان غرقتها التي انعكس الشفق القاني على جدارها الابيض . قالت داشا :

- ما اسحق الجو ، وما اعذبه ! كاننا نطير في سفينة جوية . . .

من ايفان ايليتش راسه موافقا . رفعت داشا يديها من قاعدة النافذة وقالت :

- يعذبني شوق طاع الى الموسيقى . فكم مضى من الوقت دون ان اعرف ؟ متدأ ان بدأت الحرب . . . تصور ومما تزال الحرب قائمة . . . ونحن . . .

تحرك ايفان ايليتش ، وعضت تقول :

- حين تنتهي الحرب سنتهم بالموسيقى . . . اتذكرك يا ايفان كيف استلقينا على الرمل ، وقد جرى البحر على الرمل تماما ؟ انت تذكر اي لون كان للبحر ؟ ازرق فاتح . . . واتصور انني قد احببتك طوال حياتي .

وتحرك ايفان ايليتش ثانية ، وهم ان يقول شيئا ، الا ان داشا سبقته قائلة :

- السخان يغلي !

وخرجت من الحجرة واكفنه . الا انها توقفت عند الباب . وكان لا يرى في الظلام الوليد غير وجهها ، ويدها المسسكة بالستارة ، وقدمها في جورب رمادي . اخفت داشا ، والقي ايفان ايليتش ذراعيه وراء راسه ، وانغض عينيه .

كان تليفين وداشا قد وصلوا اليوم في الساعة الثانية بعد الظهر . وكانا قد اضطررا الى قضاء الليل كله جالسين على الحفائب في ممر العربة المكتظة . وعند وصولهما مباشرة شرعت داشا في فك امتعتهما والنظر في جميع الاركان ، ومسح الغبار . اعجبت بالشفقة ، وعزمت ان تعيد ترتيب كل شيء فيها . وكان يجب القيام بذلك قورا . استمدعي البواب من الاسفل ، وتعاون مع ايفان ايليتش لنقل الاصونة والارناك من غرفة الى اخرى . وحين تم تغيير وضع الاثاث طلبت داشا من ايفان ايليتش ان يفتح جميع نوافذ التهوية الصغيرة في اعالي الشبايك ، وذعبت هي لتستحم . وظلت وقتا طويلا تسكب الماء على جسدها ، وصنعت شيئا لوجهها ولشعرها ، ومنعت ايفان ايليتش من دخول هذه الغرفة مرة وتلك الغرفة اخرى ، رغم ان ايفان ايليتش كان يمني النفس طوال اليوم بان يلتقي بداشا كل لحظة ويطلق النظر فيها .

ومع هبوط الظلام هدأت داشا اخيرا . دخل ايفان ايليتش غرفة

الجلوس وقد اغتسل وحلق ، وجلس الى جانب داشا . وكانا يختليان في سكوت للمرة الاولى بعد مفارقتها موسكو . جاهدت داشا ان تملأ الوقت بالحديث وكانها كانت تخاف من هذا السكون . فقد ارهبها ، كما اعترفت لايفان ايليتش فيما بعد ، ان يقول لها بصوت «خاص» : «اذن ، يا داشا . . .»

ذهبت لتتنظر في امر السخان . وجلس ايفان ايليتش معتمض العينين . انصرفت ، والهواء ما يزال مملواً بانفاسها . ودق كعبها على ارض المطبخ بفتنة لا توصف . وفجأة رن شيء يتوشم هناك ، وتناهى صوت داشا الشاكي : «كوب !» وانغمس قلب ايفان ايليتش بفرح حار قائلاً لنفسه : «حين استيقظ غدا سأرى صباحاً غير اعتيادي ، سأجد داشا معي» . ونهض مسرعاً وظهرت داشا عند الباب .

— كسرت كوبا . . . ايفان ، اتريد شاياً حقاً ؟

— لا . . .

وتقدمت منه ، ولما كانت الغرفة غارقة في ظلام . فقد وضعت ذراعها على كتفيه وسالت بخفوت :

— قيم كنت تفكر ؟

— فيك .

— اعرف . وماذا كنت تظن في ؟

وبدا وجهها المغمض في الظلمة عيوساً ، بينما كانت تبسّم في الواقع . وكان صدرها يرتفع وينخفض منتظم الانفاس .

— فكرت في ان ذهني غير قادر على ان يتصورك كزوجتي . ثم فهمت فجأة ، وبحث اليك لأحريك . اما الآن فلا اتذكر شيئاً .

قالت داشا :

— آى ، آى ، اجلس ، ودعنى اجلس جنبك .

وجلس ايفان ايليتش على الكرسي وجلست داشا جنبه على ذراع الكرسي وقالت :

— وفيهم فكرت ايضاً ؟

— جلست هنا عندما كنت في المطبخ ، قلت لنفسى : «حلت

في البيت مخلوقة مدهشة . . .» اهذا سببى ؟

اجابت داشا مفكرة :

— نعم ، هذا سببى جدا .

— هل تحبيننى يا داشا ؟

— اوه— وحركت رأسها من الاسفل الى الاعلى— احبك حتى

شجرة البتولا .

— حتى شجرة البتولا ؟

— احقاً انك لا تعرف ان لكل امرئ في نهاية عمره حبة من

الارض تظللها شجرة بتولا باكية ؟

امسك ايفان ايليتش داشا من كتفها . فاستجابت لعناقته

برقة . وتبادلا قبلة طويلة مثلما فعلاً منذ زمن بعيد على ساحل

البحر . وتقطعت انفاسهما . قالت داشا : «آه ، ايفان» وطوقت

عنقه ، وسمعت قلبه يدق دقات ثقيلة فاشفتت عليه . تنهدت ،

ونهدت من ذراع المقعد ، وقالت ببساطة :

— ايفان ، لنذهب .

تلقت داشا رسالة من شقيقتها في اليوم الخامس من وصولها

تغيرها كاتيا فيها بوفاة نيقولاى ايفانوفيتش .

« . . . مرت بفترة من الشقاء والياس . وشعرت في وضوح

باننى سائل وحيدة الى ابد الدهر . اوه ، ما ازهب ذلك ! . . ولرهبته

عزمت على ان اتخلص منه باسرع وقت . . . اتفهين ؟ . . وانقدتني

معجزة . . . وربما مصادفة . . . لا ، لا ، كانت معجزة حقيقية . . .

ولا يمكننى ان اكتب عن ذلك . . . سأحريك به حين نلتقى . . .»

وصعدت داشا بنعى نيقولاى ايفانوفيتش وبرسالة كاتيا ،

فعمزت على السفر الى موسكو في الحال . الا انها تلقت في اليوم

التالى رسالة اخرى من كاتيا تخبرها فيها بان تنهياً للسفر الى

پتروغراد ، وتساها ان تبحث لها عن غرفة غير غالية الايجار .

وقد احتوت الرسالة على ملاحظة تقول فيها : «سينزوركما فاديم

پتروفيتش روتشين وسيروى لكما كل شيء بالتفصيل . فهو لى اخ

واب وصديق العمر» .

كان تيلينين وداشا يتمشيان في شارع معرّش في يوم احد من

نيسان . كانت قطع مهلهلة من السحاب الذائب من الشمس تطوف

في السماء الزرقاء زرقعة ربيعية وفي الجو برودة . وكان ضوء الشمس

ينفذ خلال الشارح المعرش ، وكأنه ينفذ من خلال ماء . ويرتمى على ثوب داشا الأبيض وكانت جذوع صنوبر الجافة الضاربة الى الحمرة تقترب منها بينما كانت الريح تضيح في اعاليها ، وتحرك اورانها . رنت داشا الى ايفان ايليتش الذى كان قد خلع قبعته ، وعقد حاجبيه مبهتسا . كان يغمرها احساسا بالسكينة والامتلاء - بسحر النهار والبهجة لانها تتنفس بيسر ، وتسير خفيفة مستسلمة كلياً الى هذا النهار والى هذا الرجل السامر بجانبها .

- ايفان .

نادت داشا مقترعة الشعر ، فتساءل ايفان في بسمة :

- ماذا ، يا داشا ؟

- لا . . . فكرت بشئ ما .

- عم ؟

- مجرد فكرة .

- عم ؟

- فيما بعد .

- انا اعرف عم .

التفت داشا التفاتة سريعة .

- اتسم على انك لا تعرف . . .

وصلا الى شجرة صنوبرية كبيرة . نزع ايفان ايليتش قطعة من القشرة مقطاة بقطرات ناعمة من الصمغ ، وكسرها بين اصابعه والقى على داشا نظرة حائية من تحت حاجبيه :

- كلا ، اعرف .

ارتجفت يد داشا وقالت هامسة :

- احس وكان كيانى كله يجب ان ينصب في فرح اشد

واعظم . . . كل كيانى ممتلئ . . .

هز ايفان ايليتش راسه . وكانا قد خرجا الى فرجة بين اشجار مكسوة بعشب اخضر ناعم ، وشقائق صفر تهتم بالريح . وكان ثوب داشا يخفق في الريح بين حين وآخر ، فكانت تنحنى في كل مرة ساهمة ، وتعديل ثورتها ، وتقول :

- هذه الريح مقاب . . .

في نهاية الفرجة امتد سياج مشبك عال لاحد القصور ، تقشر

الطلاء المذهب عن رؤوس قضبانه بفعل الزمن . دخلت حصة صغيرة في حذاء داشا ، تعد ايفان ايليتش ، وخلع الحذاء من قدم داشا الدافئة المكسوة بجورب ابيض ، وقبل القدم قرب اصابعها . لبست داشا حذاءها وطبقت بقدمها ، وقالت :

- اريد ان يكون لي ولد منك . . . هذا ماكنت افكر فيه . . .

اقامت يكاترينا دميترييفنا في بيت خشبي غير بعيد عن شقة داشا تديره امرأتان عجوزتان ، كانت احدهما تدعى كلافديا ايفانوفنا - مغنية في سالف الايام ، والاخرى - وتدعى سوفوتسكا - مرافقة لها . كانت كلافديا ايفانوفنا تخطط حاجبها منذ الصباح ، وتضع على راسها لمة مستعارة فاحمة السواد ، وتجلس لتلعب لعبة الحظ والتمنى في الورق . بينما كانت سوفوتسكا ذات الصوت الرجولى العشن تقوم بتدبير شؤون البيت ، وكان البيت نظيفاً مكتظاً على الطراز القديم بالعديد من افرشة المائدة الصغيرة والسدائل ، والصور المصفرة لعهد الشباب الغابر . وفي الصباح كانت الحجرات تمتلئ برائحة القهوة المذمبة ، وعند اعداد الغداء كانت كلافديا ايفانوفنا تشم الملح لانها لا تطيق رائحة الطبخ ، وكانت سوفوتسكا تصيح بصوتها الرجولى من المطبخ : « اين اذهب بهذه الرائحة المقرزة لك ، فانا لا استطيع ان اقل البطاطس بماء الكولونيه » ، وفي المساء كانت توقد مصابيح الكيروسين ذات الزجاجات المغنشة الكروية الشكل . وكانت العجوزتان تحيطان كاتيا بالرعاية .

كانت كاتيا تعيش حياة هادئة في هذا الماوى القديم الطراز ، السالم من عوادي الزمن . كانت تستيقظ في الصباح الباكر وترتب الحجرة بنفسها ، وتجلس قرب النافذة ترتق الثياب ، وترقص الجوارب ، او تصنع من فساتينها الانيقة القديمة لباسا بسط . وبعد الفطور كانت تخرج في العادة الى الجزر وتتنجول ومعها كتاب او صرة نظيرين ، وتجلس على مسطبة في المكان المفضل لها بالقرب

من البحيرة الصغيرة ، وترقب الأطفال يلعبون عند تليدة الرمل ، وتطالع ، وتطرز وتفكر . وتعود في نحو السادسة لتناول الغداء عند داشا . وفي الساعة العادية عشرة كانت داشا وتليغين يوصلانها الى البيت . كانت الشقيقتان تسيران في المقدمة وذراعاهما متشابكتان ، بينما كان إيفان ايليتش يسيرواها مسرعا تبعته على غلبانه صافرا وبثابة «غشاء للوخزة» ، لان الخروج في المساء لم يعد مأمونا في تلك الايام .

كانت كاتيا تكتب لغاديم بتروفيتش وروتشين كل يوم ، وكان روتشين طيلة هذه المدة هوقدا في مهمة الى الجبهة . وكانت كاتيا تروى في رسائلها بعناية وصدق كل ما فعلته وفكرت فيه خلال ذلك اليوم . وكان روتشين يسألها ذلك ، ويؤكد لها في رسائله الجوية : «كم كان عزيزا على ان تكتبي لي ، بكاترينا دميترييفنا . ان العطر قد بدأ يرذ اذا ما عبرت جسر بلاغين اليوم ، ولم تكن لديك مظلة فاحتيمت تحت الاسجار ريشما يتوقف المطر ! ان كل دقائق حياتك عزيزة على ، واريده ان اعرفها حتى لم يعد في وسعي الا ان اعيش بدونها» .

كانت كاتيا تعرف ان روتشين يبالغ ، وان في وسعه بالطبع ان يعيش بدون ان يعرف دقائق حياتها ، ولكن التفكير في ان تظل وحيدة مع نفسها كان يزعجها اشد العجز حتى انها كانت تحاول الاتشكك ، بل تصدق بان حياتها كلها لازمة لغاديم بتروفيتش وعزيزة عليه . ولهذا فان كل ما كانت تفعله الان يتخذ مغزى خاصا . اضاعت الكشتبان وبحثت عنه ساعة بكاملها ، واخيرا وجدته في اصبعها . ولعل فاديم بتروفيتش سيضحك من ذهولها الشديد هذا . والان كانت كاتيا تنظر الى نفسها كما تنظر الى شيء غريب عنها تماما . ذات مرة ، حين كانت تحصل عند النافذة وتفكر لاحظت ان اصابعها ترتجف . رفعت راسها ، وغرزت الابر في تنورتها عند الركبة وحدقت الى الامام طويلا . واخيرا ميز بصرها وجها نجلا امامها في المكان الذي كانت فيه مرآة الصوان ، وجها نجلا له عينان واسعتان حزنتان ، وشعر بسيط التصفيف ، مضموم في عقدة الى الخلف . . . وتساءلت كاتيا مع نفسها : «امعقول ان هذه انا ؟» وغضت بصرها ، وتابعت خياطتها ، الا ان قلبها وجب في صدرها ،

ووخزت اصبعها بالابرة ، فرفعت الاصبع الى فيها ، وعادت تنظر الى المرآة ، ولكنها رأت صورتها في المرآة هذه المرة ، اقبل من الصورة التي رأتها في المرة الاولى . . . وفي تلك الليلة كتبت لغاديم بتروفيتش : «فكرت فيك طوال هذا اليوم وقد اشتقت اليك ، يا صديقي العزيز . اجلس عند النافذة وانتظر . ان ما يحدث في نفسي الآن يشبه شيئا قد نسيته منذ زمان طويل . . . مشاعر فتاة . . .»

وحتى داشا الشاردة الفكر ، الغارقة في علاقاتها مع إيفان ايليتش ، تلك العلاقات المعقدة التي لم يشهد العالم مثيلا لها منذ بدء الخليقة ، حسب ظنهما ، لاحظت تغيرا طرا على كاتيا ، وفي احد الامسيات اثناء شرب الشاي ، راحت تبرهن طويلا على ان كاتيا ينبغي ان ترتدي الآن ، والى الابد ، ثيابا سوداء تغطي العنق . وانشأت تقول : «اوكد لك انك لا ترين نفسك يا كاتوشا ، الا تراها تبدو اصغر مني ؟»

- نعم ، اقصد ، ليس تماما ، ولكن اظن . . .

قالت داشا :

- آه . انت لا تفهم شيئا . شباب العراة ليس له علاقة بالعمر ، بل باسباب اخرى ، ليس للعمر اية اهمية هنا . . .

واوشكت على النفاذ النقاد القليلة التي تركها نيقولاي ايفانوفيتش لكاتيا . فاشار تليغين عليها بان تبعد شقتها القديمة في شارع بانتيليجيونوفسكايا . الفارغة منذ شهر اذار . فوافقت كاتيا . ودخلت مع داشا الى الشقة لتأخذ منها بعض الاشياء العزيزة لازتباطها بالذكريات .

حين صعدت كاتيا الى الطابق الثاني ، ووقع بصرها على الباب البلوطي ذي الرقعة النحاسية التي تحمل اسم «ان . ي . سموكوفنيكوف» شعرت بان الحياة توشك على اتمام دورتها . خلج الجواب تبعته تحية ، وفتح باب الشقة بفتحها . انه نفس البواب العجوز المألوف لكاتيا ، الذي كان يفتح الباب الخارجى بعد منتصف الليل ناخرا من انه بغضب ، والنحاس عالق في اجفانه ، وعنته ملقوف بياقة معطفه الملقى على كنفه ، وكان

دائما يطفى الضوء الكهربائي قبل ان تلتحق كاتيا بان تصعد الى شقتها ، اما الان فقد جعل كاتيا وداشا تدخلان قبله ، وقال مطمئنا :
- تاكدى ، يكاترينا دميترييفنا ، من ان اى قلامة لم تضع من شقتك . كنت اراقب المستاجرين ليل نهار . اينهم قتل في الجبهة والا لظلوا ساكنين فيها حتى الان ، فقد كانوا راضين عن الشقة ...

كان الرواق مظلما ليست في هوائه رائحة انفاس حية . وكانت الستائر مسدلة في جميع الغرف . ذهبت كاتيا الى غرفة الطعام ، وادارت مفتاح الضوء . شععت الثريا البلورية بنور ساطع فوق المائدة المغطاة بفرش من الجوخ الرمادى ، وكانت سلة الزهور الخزفية ما تزال في وسطها ، وفيها غصن النيجوزا الذابل منذ زمان . وكانت الكراسى ذات الظهور العالية والبطون الجلدية - المشهود اللامبلون على الحياطة المرحة العاصفة التي فاتت - تقف في امامكها على طول الجدران . وكانت احد ابواب صوان الاوانى المنحوت الضخم كالبيانو مفتوحا تلوح الاقداح المقلوبة من خلال فتحة . وكان الغبار يغطي المرأة الفينيسية البيضوية ، والصمى الذهبى ما يزال واقدا فوقها مادا يده الى خصلة ذهبية .

وقفت كاتيا عند الباب بلا حراك ، وقالت لداشا بخفت :

- داشا ، انت تذكرين الوضع ! . تصورى ، والان لا وجود

لاحد ...

ثم ذهبت الى غرفة الجلوس ، واشعلت الثريا الكبيرة واجالت بصرها ، ثم هزت كتفها . كانت اللوحات التكميلية ، والمستقبلية التي كانت تبدو في وقت ما متحدية ومخيفة تتدل على الجدران بانسة كايية ، وكانها ، زينات كرنفالية مهملة بعد ان انتفت الحاجة اليها .
- وهل تذكرين هذه ، يا كاتيوشا ؟

قالت داشا ، واشارت الى لوحة «فينوس الحديثة» القابعة في ركن اصفر مع زهورها ، واكملت قولها :

- انذاك بدت لى وكانها علة كل المصائب .

وضحكت داشا وشرعت بتصفح النوات . ذهبت كاتيا الى مخدعها السابق . كان كل شيء فيها على حالته تماما كما كان منذ ثلاثة

اعوام ، يوم ارتدت ثياب السفر والبرقع وهرعت الى هذه الغرفة للمرة الاخيرة لتأخذ قفازا من طاولة الزينة .

والان كان كل شيء كاييا وبدا اصغر حجما مما كان من قبل . فتحت كاتيا الدولاب المملوء بفضلات المخمرات والحريز وفضلات القماش والجوارب والاحفاف البيئية . وكانت رائحة عطر خفيفة ما تزال تفوح من هذه الاشياء التي كانت تبدو لها فيما مضى ضرورية . اخذت كاتيا ثقلها دون غابة ، فقد كان كل غرض منها مرتبطا بذكرى الحياة التي ذهبت بلا رجعة ...

وفجأة تحطم السكون الذى كان يعيم على البيت كله وملات انغام الموسيقى جنبا ، حين اخذت داشا تعزف السنواته التي كانت تتدرب عليها اثنا تحضيرها لامتحانات قبل ثلاثة اعوام . سدت كاتيا باب الدولاب ، وذهبت الى غرفة الجلوس وجلست بالقرب من شقيقتها .

استدارت داشا نصف استدارة ، وقالت :

- اليس ذلك رائعا ، يا كاتيا ؟

وعزفت بعض الفواصل الاخرى وتناولت كراسية اخرى من الارض . قالت كاتيا :

- لنخرج . بدأت اشعر بصداع .

- والحاجيات ؟

- لا اريد ان اخذ شيئا من هنا . ساقفل البيانو وحده الى شقتك . اما سائر الاشياء فلا حاجة اليها ...

جاءت كاتيا الى الغداء منتمة من المشى السريع ، مرحة ، في قبة جديدة ، وبرقع سماوى اللون . قالت ، وهى تلتشم خد داشا بشفتيها الداقتين :

- وصلت بالكاد قبل ان يهطل المطر الغزير . وحذائى قد تبلل على اية حال . اعطينى تعالا استبدله به .

وسارت نحو النافذة في غرفة الجلوس ، وهى تخلع قفازا . كان المطر الذى راح يكر ويفر عدة مرات يهطل الان سيولا رمادية ويدور في خفقات الريح ، ويضج في انايب التصريف . رات كاتيا بعيدا في الاسفل مظلات تجرى راكضة . وخرق ضوء ابيض الهواء

المعتم امام النوافذ ، وسرت فرقة جعلت نفس داشا يتقطع في صدرها . سألت كاتيا وقد افترقها عن ابتسامه :

- انديرن من سيزور كما مساء اليوم ؟

سألت داشا :

- من ؟

الا ان الجرس رن في الرواق ، فركضت داشا لتفتح الباب وترددت ضحكة ايفان ايليتش ، وحيف فغميه على بساط الرواق ثم مر وداشا الى غرفة نومها وهما يتحادثان بصوت عال وضحكان . خلعت كاتيا قفازها ، وقبعتها وعدلت شعرها ، والابتسامه المتكتمه الناعمة ما تزال ترفل على سفتها .

جلس ايفان ايليتش الى المائدة مرحا موردا ميلل الشعر وروى لهما الاخبار . العمال في مصنع البليطيق مضطربون مثل جميع العمال الا في المصانع والمعامل الاخرى . والسوفييتات تؤيد مطالبهم باستمرار . والمشروعات الخاصة اخذت تغلق ابوابها شيئا فشيئا ، والمشروعات الحكومية تعمل بخسارة ، ولكن لا احد يهتم بان تجنى الارباح الا ان الحرب والثورة قائمتان . واليوم عقد في مصنع اجتماع حاشد اخر خطب فيه بلاشفة ، قالوا جميعا كلاما واحدا : «يجب انهاء الحرب ، ولا تنازلات ، ايا كانت ، للحكومة البرجوازية ، ولا اتفاقيات مع اصحاب المشاريع ، وكل السلطة للسوفييتات التي سنتكلف بالنظام ..» .

- وانا ايضا سعدت لاطبخ . ولكنهم سحبروني من المنصة . وجاء فاسيلي روبيليف ليقول : «انا اعرف انك لست لنا عدوا فلماذا تقول سخافات . ان اسلك محشو بالسغامسف» . فقلت له : «فاسيلي ، بعد ستة اشهر ستتوقف المصانع ولا يجد الناس شيئا يأكلونه» . فرد على قائلا : «بارتيق ، قبل ان يهل العام الجديد سنتقل الارض كلها ، والمصانع جميعا الى الشغيلة ، ولن نترك برجوازيا واحدا في الجمهورية ولو للمتعف . ولن يكون للنقود وجود . اشتغل وعش وكل شيء لك . انها الثورة الاجتماعية ، فافهمي !» .

وعد ان يكون كل ذلك في العام الجديد . وضحك ايفان ايليتش ضحكة متزنة الا انه هن رأسه ، واخذ يجمع الفئات على الغوان باصبعه . وتهدت داشا :

- قلبى يخبرنى بان بلايا كبيرة ستحصل .

قال ايفان ايليتش :

- نعم . ان الحرب لم تنته ، وفي ذلك علة الامر . ما الذى تغير منذ شباط ؟ اطاحوا بالقصر ، ولكن الفوضى استنفلت . هناك حفنة من المحامين والاساتذة الجامعات وهم اناس متفقون دون ريب يؤكدون للامة كلها قائلين : اصبروا ، حاربوا وسياتي زمن تعطيمك فيه دستورا انجليزيا ، بل واحسن منه بكثير ، ان هؤلاء الاساتذة لا يعرفون روسيا ، ولم يطلعوا على التاريخ الروسى بشكل جيد . ان الشعب الروسى ليس كما مجردا . ان الشعب الروسى شعب فياض الشعور موهوب قوى . فلا عجب ان يشق الفلاح الروسى طريقه الى المحيط الهادى وهو يحذانه الليفى . اما الالمانى يبقى في مكانه ويسعى الى بغيته خلال مائة عام ويصير . بينما الروسى غير صبور . ومن الممكن ان يحفزه العلم بالاستيلاء على الكون فيسير في سرهوال المصنوع يدويا ، وحذانه الليفى ، وفاسه في حزامه ... اما الاساتذة فيريدون ان يحضروا خضم الشعب الهدار في اطار دستور وقور . نعم ، يبدو اننا سنشهد احدانا خطرة جدا .

كانت داشا واقفة عند المائدة تصب القهوة في اقداح . فاذا بها تترك كوكه القهوة فجأة ، وتضعظ وجهها الى صدر ايفان ايليتش . فقال ايفان ايليتش وهو يمسد شعرها :

- لا ، لا ، لا حاجة الى القلق يا داشا . لم يحدث شيء فظيح حتى الان ... حدث ان وقعنا في مآزق اسوأ ... فاننا اذكر - اسمعيني - اذكر اننا وقعنا في «الجب العفن» ...

واخذ يتذكر المشاق العسكرية التي صادفته . رفعت كاتيا بصرها الى الساعة الحائطية ، وخرجت من غرفة الطعام . نظرت داشا الى وجه زوجها الهادى القوي الملامع والى عينيه الرماديتين الضاحكتين ، وهدأت شيئا فشيئا : ان المرأة تشعر بالاطمئنان في صحبة هذا الرجل . حين فرغت من سماع قصته «الجب العفن» ذهبت الى المطبخ لتبودر وجهها . قرأت كاتيا جالسة امام منضدة الزينة هناك تفعل شيئا لوجهها . قالت لها بصوت ناعم :

- عزيزتى داشا ، السم يبق لديك شيء من ذلك العظ البايوسى ؟ انت تذكرينه ؟

جلست داشا على الارض امام اختها ، وحدت فيها بدهشة
بالغة ثم سألت همسا :

- اراك تنفسي ريشك ، يا كاتيوشا ؟

احمرت كاتيا وهزت رأسها :

- ماذا بك اليوم ، يا كاتيوشا ؟

- اردت ان اخبرك ، ولكنك لم تسمعني كلامي الى آخره ،
سيصل فاديم بتروفيتش مساء اليوم ، وسيأتي الى شقتكنا من
محطة القطار مباشرة ... ليس من اللائق ان استقبله في بيتي لان
الساعة متأخرة ...

دق جرس الباب في الساعة التاسعة والنصف . هرعت كاتيا
وداشا وتليغين الى الرواق . فتح تليغين الباب فدخل روتشين وعلى
كتفيه مظف عسكري مدعوك وطاقيته نازلة على جبينه . واذ وقع
بصره على كاتيا رقت ملامح وجهه النحيل الكئيب الملوح حين افتر
عن ابتسامه . نظرت كاتيا اليه مرتبكة فرحة . القى روتشين معطفه
وطاقيته على مقعد وسلم قائلا بصوت تروى فيه بعة : «اعذروني على
دخولي في هذه الساعة المتأخرة . وغبت ان اراك هذه الليلة ، انت
يا يكاترينا دميتريفنا ، وانت ، يا داريا دميتريفنا» فتألفت عينا
كاتيا نورا وقالت :

- انا مسرورة لوصولك ، يا فاديم بتروفيتش .

وحين انحنى ليقبل يدها لثمت رأسه بشفتيها المرعشتين .

قال ايفان ايليتش :

- كان يجب ان تجلب امتعتك معك . انتنا لن نتركك

تفادرننا ، ستبتنا عندنا ...

قالت داشا :

- على الاريكة التركية في غرفة الجلوس ، واذا كانت قصيرة

فستضع كراسي في طرفها .

سمع روتشين ما يقوله هؤلاء الناس العطفون الانيقون ،
وكانه في حلم . وكان قد جاء اليهم وهو ما يزال وعقا ، بعد ليالي السفر
المؤرقة ، والتسلل في النهار من نوافذ العربة بحثا عن الطعام ،
والكفاح المستمر في سبيل مكان من ستة افطار في مقصورة وسط
سباب يثقب الاذان . وكان ما يزال يستشعر الغرابية من ان يفرح

بوجود هؤلاء الثلاثة المتنعون بهذا القدر غير المعقول من الجمال
والنظافة ، والعقوبن برواح زكية ، والواقفون على ارض صقيلية
كالمرآة ... يفرحون به هو ، روتشين ... وحدق كالنائم في عيني
كاتيا البهيتين الوردتين مسرورة ، مسرورة ، مسرورة ...

عدل نطقه ، وسوى كتفيه ، وارسل زفرة عميقة ، وقال :

- شكرا ، دلوني اين اتوجه ؟

دلوه على الحمام ليغتسل ، ثم دعوه الى غرفة الطعام وقدموا
الطعام له . اكل وهو لا يميز ما كان يقدم له ، وشبع سريعا ووضع
الماعون جانبها ، واشعل سيكارة ، ولان وجهه النحيل الحليق الصارم
الذي اخاف كاتيا حين رآته في الرواق وبدا اكثر تعباً . وحين اشعل
عود الثقاب ارتشمت يدها الكبيرتان الملونتان بضوء المصباح
بظليلته البرتقالية . كانت كاتيا تجلس في ظل الظليلة ، فراحت من
هناك تطيل النظر في فاديم بتروفيتش ، وتشعر بانها تحب كل شعرة في
يده ، وكل زر في سترته البنية الداكنة المدعوكه . وقد لاحظت انه
كان يطبق فكه احيانا وهو يتحدث ، وينطق من بين اسنانه . كانت
عباراته منقطعة مشوشة . والظاهر انه كان يتحسس بنفسه ،
ويحاول ان يكبت في نفسه شعورا بالحنق يعتمل فيه منذ زمن
طويل ... تبادلت داشا النظرات مع اختها وزوجها فسألت روتشين
عما اذا كان يريد ان يستريح بعد تعب السفر ؟ توجه ، وجلس
منتصباً على الكرسي .

- لم اجز هنا لاجد مكانا انام فيه ، لا ، على الاطلاق ...

وخرج الى الشرفة ، ووقف تحت المطر الليلي الدقيق . اشارت
داشا بعينيها الى الشرفة ، وهزت رأسها . وجاء صوت روتشين من
هناك :

- اعذروني ، يا داريا دميتريفنا ، يحق الرب ... تلك

نتيجة تلك الليالي الاربعة المؤرقة ...

وعاد من الشرفة ، ومسد الشعر على قمة رأسه وجلس في
مكانه . وقال :

- جئت اليكم من مقر القيادة العليا مباشرة احمل الى وزير

الحربية اخبارا مقلقة جدا ... وحين رأيتمكم احسست بالآلم ...

فاسمحوا لي بأن أقض عليكم كل شيء . ليس لي في الدنيا شخص هو أقرب إلى منك ، يا كاترينا دميتريفنا .
شجبت كاتيا . وقف إيفان ايليتش عند الحائط وذراعه وراء ظهره . وحدقت داشا في روتشين بعينين مرتعبتين . سعل روتشين ، وقال :

- ان لم تحدث معجزة فاننا سنهلك . . . لم يعد للجيش وجود . . . والجنود يفرون من الجبهة ويرحلون على سطوح العريات . . . وما من امكانية انسانية لياقاف انهيار الجبهة . . . ذلك مثل مد البحر . . . لم يعد الجندي الروسي يعرف من اجل اى شيء يحارب . وفقد الاحترام للحرب . فقد الاحترام لكل مايتصل بهذه الحرب - احترامه للدولة ، ولروسيا . يعتقد الجنود بان العرب سنتهي في نفس اليوم الذي ترتفع فيه صرخة تنادى بـ«السلام» . . . ونحن وحدنا الاسياد لا نريد السلام . . . ان الجندي الان يصبغ على المكان الذي خُذع فيه خلال ثلاثة اعوام ، ويرمي بندقيته ، ولا يمكن بعد الان اجباره على ان يحارب . . . وفي الخريف او نحوه ، حين تفر الملايين العشرة كلها . . . سينتهي وجود روسيا كدولة ذات سيادة . . .

وصك فكيه بقوة حتى ارتفعت عضلات على وجنتيه . واستمر في كلامه بصوت عديم الرنين .

- انا احمل خطة الى وزير الحربية وضعتها بعض السادة الجنرالات لانقاذ الجبهة . . . خطة اصيلة . . . وعلى كمال حال سيكون من المتعذر على الحلفاء لوم جنرالنا على عدم الرغبة في القتال . ومعنى الخطة : اعلان التسريح التام للجيش في اسرع وقت ، اى تنظيم الهروب من الجيش والحفاظ بهذه الطريقة على سلامة السكك الحديدية ، والمدفعية واحتياطات التموين والعتاد . التاكيد لحلفائنا عن عزمنا على الضى في الحرب . وفي الوقت نفسه نقيم في منطقة نهرس الفولغا حاجزا من الوحدات الموثوقة - ومثل هذه الوحدات موجودة - ونبدأ بتكوين جيش جديد كليا فيما وراء نهر الفولغا ، على ان تكون نواته من وحدات المتطوعين ونقوم في الوقت ذاته بتشكيل ودعم وحدات للانصار . . . ونبدأ الحرب من جديد معتمدين على مصناعات الازرار وفحم سيبيريا وقمحها . . .

صاح تليغين :

- يعنى فتح الجبهة للامان . . . وكشف وطننا للنهب !
- لم يعد لنا وطن ، بل مكان كان فيه وطننا - وضم روتشين يديه المطروحتين على مفرض المائدة - لم تعد روسيا العظيمة قائمة منذ اللحظة التي التي فيها الشعب ملاحه . . . يبدو انك لا تريد ان تفهم ما بدأ بالفعل . . . هل يستطيع القديس نيقولا ان يعينكم الان ؟ لقد نسيتم ان تصلوا له . . . ان روسيا العظيمة الان مجرد روث لتسميد الارض . . . يجب ان يعاد بناء كل شيء من جديد : القوات ، الدولة ، ويجب ان تصب فينا روح جديدة . . .

واستنشق الهواء بقوة من خلال منخريه ، ووقع راسه على يديه الموضوعتين على المائدة ، واجهش ياكيا بصوت عميق خافت كصوت الكلاب . . .

في تلك الليلة لم تخرج كاتيا لتنام في حجرها . ارقدها داشا معها في سريرها ، وفرشت لايفان ايليتش في غرفة المكتب . وخرج روتشين الى الشرفة بعد ذلك المشهد المقبض للجميع ، وبعد ان بلله المطر عاد الى غرفة الطعام واعتذر : وبالفعل كان الرقاد احسن مخرج . وقد غفا ما ان خلع ملباسه . وحين سار ايفان ايليتش على رؤوس اصابعه ليطفئ الضوء رآه نائما على ظهره وقد طوى ذراعيه على صدره واضعا راحتيها احدهما على الاخرى . وكان وجهه النحيل ذو العينين المغضبتين بقوة ، والغضون التي رسمها ضوء الفجر المزورق وجه رجل يكبت الما في صدره .

طلت داشا وكاتيا تتعاهدان همسا لوقت طويل ، وهما تحت غطاء واحد . وكانت داشا ترعف سمعها بين العين والاخر . مازال ايفان ايليتش غير قادر على ان يهجع في مكتبه . قالت داشا : «ما يزال يذرع المكتب ، بينما عليه ان يخرج الى المصنع في الساعة السابعة . . .» وانسلت من تحت الغطاء ، وهرولت حافية الى زوجها . كان ايفان ايليتش يجلس على الاربكة المفروشة يطالع

في كتاب ضخم وضعه على ركبتيه ، وقد انزل حمالة البنطلون ،
نظر إليها بعينين يراقتين لا تريان ، وسأل :

- اذن لم تنامي حتى الان ؟ - اجلسي . . . لقد وجدت
شيئا . . . اسمعي . . .

وقلب الصفحة ، واخذ يقرأ بصوت خافت :

«قبل ثلثمائة عام كانت الريح تشرح طليقة في الغابات
والسهول السهبية ، وفي المقبرة الهائلة المسماة الارض الروسية .
كانت هناك اسوار محروقة لمدن مندثرة ، ورماد في اسكن
ماهولة ، وصلبان وعظام عند طرق غطاها العشب ، وعصائب
الغربان ثم عواء الذئاب في الليالي . وكانت اخر عصابات اللصوص
التي كانت قد انفتحت على الشراب ونهبت منذ وقت طويل الغراء
الغالية والاقداح من المعادن الثمينة ، والاطر اللؤلؤية للايقونات
تجوب في بعض دروب الغاب . كان كل شيء في روسيا قد نهب
وقضى عليه .

شاع الدمار في روسيا واقوت من اهليها . وحتى تتر القرم
كفوا عن اجتياح السهب الخالي ، اذ لم يبق لهم ما ينهبونه . وخلال
الستين العشر من «الاضطراب الكبير» قطع الادعياء واللصوص
والفرسان البولونيون الارض الروسية كلها بالسيف والناز صقعا
صقعا ، وتفشت المجاعة الشديدة ، فاكل الناس روث الخيول ،
واللحم البشري المملح . وسرى الواب الاسود . ونزع الباقون الى
الشمال ، الى البحر الابيض ، والاورال ، وسيبيريا .

وكان البطريق قد اشار على افراد الفئة العليا الذين اصابهم
الفقر ، والتجار الوافدين بعد كساد بضائعهم والفلاحين الصارمين
من بقاع الشمال والغولغا - ، بان يختاروا صبيا عينه لهم ليكون يصر
على موسكو . فجاؤا به مرعوبا في تلك الايام العصيبة على زلاجة
ماضين به خلال طرق الربيع الموحلة الى الاسوار المحروقة المحيطة
بموسكو ، المقفرة المدمرة الى اخرها ، بعد ان حرت من المغيرين
البولوتيين بجهود جبارة ، جاؤا به نحو موسكو المحروقة التي لم
تكن الا اكواما من الرماد . وكان القيصر الجديد لا يحسن غير البكاء
والصلاة . فظل يبكي ويصل ناظرا من نافذة الزلاجة يجزع الى خشود
الروس المهلهل الثياب المتوحشين الذين طلوعوا لاستقباله وراه

بوابات موسكو . ولم تكن للروس ثقة كبيرة بالقيصر الجديد . ولكن
كان يجب ان يعيشوا ، وبداءوا يعيشون . اقترضوا النقود من تجار
ستروغانوف ، وشرع سكان المدينة يشيدون ، والفلاحون يحرثون
الارض القفراء . وارسل الطبيون من الناس على الخيول وعلى الاقدام
لتنظيف الطرق من اللصوص . عاش الناس في فقر ونظف ، وقدموا
آيات الاجال للقرم ، والليتوانيين والسويديين . وحافظوا على
ايمانهم ، وعرفوا ان هناك قوة واحدة هي الشعب القوي الحاذق النشط
المقتدر . واملوا ان يتغلبوا على المصاعب ، فتغلبوا عليها . ومن
جديد بدا العمران يشيع في الارض الخراب . . .»
صفق ايفان ايليتش الكتاب :

- ها انت تزين . . . لن تهلك الان . . . لن تهلك روسيا
العظيمة بينما احفاد اولئك الفلاحين المهلهلين الذين هبوا والرياح
بايديهم لينفذوا موسكو ، دحروا كارل الثاني عشر وتابليون . .
اما حفيد ذلك الصبي الذي جلبه الى موسكو على زلاجة بالقوة
فصيد بطرسبورغ . . . لن تهلك روسيا العظيمة ! . . . وقضاء
واحد يكفي لان تعيد الارض الروسية . . .

ونخر ، وراح يتطلع في النافذة التي تنور وراها صباح
رطب . اسندت دأشا رأسها الى كتفه ، فاخذ هو يمسه .
وقبلها من شعرها .

- اذهبى للنوم ، يا خايفة . . .

ضحكت دأشا ، ودوعته وذعبت . وعند الباب التفتت

وقالت :

- ايفان ، ان كاتيا حتمية به . . .

- حسن ، انه رجل رائع . . .

كان المساء حارا ساكن الريح . والهواء يفوح برائحة بنزين
محروق وقطران الارضفة الخشبية . وكانت خشود الناس تسير في
جادة نيفسكي مبرقشة اللباس وبلا نظام وسط الابخرة ودخان
السيكار . وكانت سيارات الحكومة تنطلق باعلامها المرفرفة مقوومة
واقعة . وكانت اصوات الصبيان الحادة ، باعة الجرائد تصرخ

بالانباء المثيرة التي لم يعد احد يصدق بها . وكان باعة السيكانر
وعلب الكبريت والاشياء المسروقة يتسللون شاقين طريقهم عبر
حشود الناس . وفي حدائق الساحات العامة كان الجنود يستلقون
على العشب وسط احواض الزهور يقضون حبوب عباد الشمس .

خرجت كاتيا وحدها من جادة نيفسكى . كان روتشين قد
اتفق معها على ان يكون بانتظارها في حوالى الساعة الثامنة في
رصيف النهر . انعطفت كاتيا نحو ساحة القصر . كانت مصابيح
صفراء تتسع من التوافد السوداء في الطابق الثاني من هذا القصر
القانى الحمره الجهم الذى كانت بعض السيارات تقف عند مدخله ،
والجنود والسواق يروحون ويجيئون ضاحكين . مرت دراجة بخارية
مقرتعة يسوقها صناع صبى وضع على راسه قبة سائق وقد تهب
الهواء تميصه وراء ظهره .

وفي شرفة في ركن وقف رجل عجوز ذو لحية طويلة بياضاً
مرتفقا على الدرابزين ساكن الحركة . التفتت كاتيا ورائها وهي
تستدير حول القصر فوات الخيول البرونزية الخفيفة تحت طاق مقر
هيئة الاركان العامة ما تزال تضب على قوائمها الخلفية باتجاه
مغرب الشمس . عبرت كاتيا الرصيف وجلست على مسطبة
غرابيتية قرب النهر . كانت معالم الجسور الشفافة الضاربة الى
الزرقة تتدلى فوق النيفا الجارى بوني . وكان البرج المستدق
لكاتدرائية بطرس وبولس ينعكس في النهر كالذهب الابريز . وفي
النهر كان زورق بائس المظهر يتحرك خلال الانعكاسات المتلألئة .
ووراء منطقة بطرسبورجسكايا ، وراء السطوح والادخنة كان قرص
الشمس المنطفئ يغوص في وهج برتقالى اللون .

وضعت كاتيا يديها على ركبتيها ، وراحت تحدد بهدوء في هذا
الافول ، وتنتظر فاديم بيتروفيتش وادعة صابرة . وقد جاء فاديم
بيتروفيتش من الخلف دون ان تلاحظه ، اسند مرقبيه على السدة
الغرابيتية وزنا اليها من عل . احست كاتيا به ، فالتفتت ، ونهضت
وعلى ثغرها ابتسامة . كان ينظر اليها نظرة غريبة ذاهلة . صعدت
السلم الى رصيف النهر ، وامسكت يد روتشين . وسار الاثنان .
سألته كاتيا بخفوت :

— ماذا ؟

تلوت شفتاه ، هن كفيه ولم يجب . عبرا جسر ترويشسكى ،
وفي بداية جادة كامينواوستروفسكى اوما روتشين برأسه الى
دائرة * كبيرة كسبت جذانها الغارجية بالبلاط البنى . كانت التوافد
الواسعة لحديقة الشتاء تطفح بضمه ساطع . وعند المدخل وقفت
بعض الاجرات البخارية .

ان هذه الدارة العائدة لراقصة باليه مشهورة تحولت الان الى
مقر رئيسي للبلاشفة . كانت دقات الآلات الكاتبة تسمع منها ليل
نهار . وكان جمهور غفير من العمال والجنود العائدين من الجبهة
والبحارة يحتشد كل يوم امامها فيظفر من الشرفة زعيم حزب البلاشفة
ويتحدث عن ضرورة اخذ العمال والفلاحين للسلطة بالقوة ، وانها
الحرب فورا ، واقامة نظام جديد عادل في بلادهم وفي العالم اجمع .
قال روتشين من خلال استنائه :

— قبل حين كنت واقفا هنا مع الحشد فسمعت من هذه
الشرفة كلمات نارية لاهبة . والناس يستمعون ... ليتك شاهدت
كيف كانوا يصغون ! .. اننا لا عرف الا ان : من الغرباء في هذه
المدينة : نحن ام هم ؟ (واوما الى شرفة الدارة) انهم لم يعودوا
يصغون الينا ... نحن نتمم بكلمات فارغة من المعنى ... عندما
جئت الى هنا كنت اعرف اننى روسى ... اما هنا فانا غريب ... انا
لا افهم ، لا افهم ...

وتوغلا في جادة كامينواوستروفسكى . لحق بهم شخص في
معطف رث وبقعة من القش . كان يحمل دلوا في احدى يديه ، وحزمة
من اعلانات في الاخرى ...

قال روتشين بصوت اجوف ، واستدار لكيلا ترى كاتيا وجهه
العابس :

— انا افهم شيئا واحدا . هو ان البقعة الحية المشعة في هذه
الفضى هي قلبك ، يا كاتيا ... انا وانت يجب الا نفرق ...
اجابت كاتيا بخفوت :

— لم اجرو ان اقول ذلك لك ... ولكن كيف لنا ان نفرق ،
يا صديقى العزيز ...

* استعملت هذه اللفظة عوضا عن الفيلا (الترجم) .

وصلا الى المكان الذى الصق فيه الرجل حامل الدلو من توه
اعلانا ابيض غير كبير على الحائط . ولان كليهما كان متأثرا فقد
توقفا لبرهة . وفي ضوء مصباح الشارع كان من الممكن ان يقرأ في
الاعلان : «الى الجميع ! الى الجميع ! الى الجميع ! الثورة في
خطر !...»

— يكاترينا دميتريفنا !

نادى روتشين وتناول يد كاتيا النحيلة ، وتابع سيره البطيء
في الجادة الواسعة التى ركنت الى الهدوء مع هبوط الظلام ، بينما
الشفق المسائى لم يهد بعد في طرفه القصى .

— ستبر سنون ، وتزول الحروب ، وتهدأ الثورات ، ويبقى

شيء واحد غير خامد هو قلبك الحبيب الوديع الرقيق ...

ومن خلال النوافذ المفتوحة في البيوت الكبيرة تناهت اليهما
اصوات مرحة ، ونقاشات ، وانغام موسيقى . ومرة اخرى سبقهما
الرجل المعنى الظهر يحمل دلو ، والثفت وهو يلصق اعلانا آخر .
ومن تحت قبة القش المهلهلة تفرست بهما عيناه المتقدتان
بالكراهية .

آب ١٩٢١

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم
وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب ،
وترجمته وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم
لها عن رغباتكم .

العنوان : زووفسكى بولفار ، ٢١

موسكو — الاتحاد السوفييتى

الكسي تولستوى

درب الآلام

ثلاثية
الكتاب الثاني

عام ١٩١٨



دار التقدّم

موسكو

غرقنا في الماء ثلاثا ، وسبحنا
بالم ثلاثا ، وسلقتنا بالمحلول
القلوي ثلاثا . فلا انظف منا .

انتهى كل شيء . كانت الريح القارسة تسوق فمامسة الاوراق
في شوارع بطرسبورغ الغالية الراكنة الى الهدوء - مزقا من الاوامر
العسكرية ، واعلانات المسارح ، ونداءات تحت الشعب الروسى الى
التمسك «بالضمير والوطنية» . كانت مزق الاوراق الملونة بطلقات
عجينة اللصق الجافة عليها تزحف بخشخشة منحوسة دارجة على
الارض مع حلزونات الثلج المتولدة عن الريح الارضية .
كان ذلك كل ما تبقى من الضجيج الذي كان يعرهد مصطخبنا
في العاصمة قبل فترة قصيرة من الزمن . فرغت الساحات والشوارع
من العشود الفضولية ، وخلا قصر الشتاء الذي خرقت سطحه
قنبلة اطلقها طراد «افروا» . واختفى في المجهول اعضاء الحكومة
المؤقتة ، واصحاب البنوك الكبار ، والجنرالات المشهورون . . .
وخلت الشوارع الموحلة الرثة من العربات الرائعة ، والنساء
المتأنفات ، والضباط والموظفين ورجال المجتمع ذوى الافكار
المثيرة . وفي الليالى كانت تتكاثر اصوات المطارق تدق الالواح على
ابواب المخازن . ولم تبق الا واجهات قليلة يعرض بعضها قطعة
جبنية ، وبعضها كعكة يابسة . الا ان ذلك كان يزيد الشوق للحياة
المختفية . كان غابر السبيل يحاذي الجدران وجلا ينظر بطسرف
عينه الى الدوريات - الى جماعات من الرجال المصممين السائرين
وعلى طاقباتهم نجمة حمراء ، وعلى اكتافهم ينادق متجهة بمواسيرها
نحو الارض .

A. Толстой

Хождение по мукам

Трилогия

Книга вторая

ВОСЕМНАДЦАТЫЙ ГОД

На арабском языке

طبع في الاتحاد السوفيتى

© الترجمة الى اللغة العربية - دار التقدم ، ١٩٧٥

70302-1052
T 014(01)-75-593-75

كانت الريح الشمالية ترسل نفحات القوس في نوافذ البيوت المعمّمة ، وترتفع في مداخل البيوت الخالية مبددة اشباح الترف الزائل . لقد كانت بطرسبورغ رهيبة في اواخر العام ١٩١٧ . رهيبة ، غامضة ، متمذرة على الفهم . انتهى كل شيء . والغي ما كان في الماضي . كان رجل يرتدى قبعة بالية ويحمل دلوا وفرشاة يعبر الشارع الذي كانت تكتمسه ريح ارضية ويلصق عنها وهناك المزيد والمزيد من الاعلانات عن الراسيم ، فكانت اللصقات تلوح كالرقع البيض على جدران البيوت العتيقة . ان المراتب والوراق ورواتب التقاعد وكتافيات الضباط ، الملكية الخاصة ، والحق في ان تعيش على هواك - كل ذلك قد انغى . انتهى ! ارسل ملصق الاعلانات نظرة غاضبة من تحت قبعته الى زجاج النوافذ ، الى قاطني البيوت الذين ما يزالون يذرعون الغرف الباردة في معاطفهم القرائية واحذيتهم اللبادية قائلين وهم يفركون اصابعهم :

- وماذا بعد ؟ ماذا سيحدث ؟ هلاك روسيا ، نهاية كل شيء . . . الموت !

ولئن اقتربوا من النوافذ كان في وسعهم ان يروا على خط مائل عربية تقل طوياسة تنفق قرب مدخل الدارة التي كان يقطنها صاحب الفخامة ، في الوضع الذي كان يقف فيه شرطى حارس في هيئة استعداد ينظر الى الواجبة الرمادية يطرف عينه ، ويروا رجالا مسلحين يخرجون اثاما وبسطة ولوحات من الباب المفتوح على مصراعيه . وفوق المدخل يرفرف علم احمر ، وهنا ايضا يحوم صاحب الفخامة نفسه بسبيلتيه المشبهتين بسبيلتي الجنرال سنكوبليف ، مرتديا معطفا خفيفا ، ورأسه الاشيب يهتز . اثم ينقلونه ! والى اين في شدة القر هذه ؟ الى حيث الفت . . . بينما كان صاحب الفخامة هذا درعا حصينا في جهاز الدولة !

ويهبط الليل ، ظلام دامس لا مصباح في شارع ، ولا ضوء في النوافذ . لا يوجد فهم . ويقولون ان سمولني * غارق في الضوء ، وفي مناطق المعامل يوجد ضوء ايضا . والزوجة الثلجية تعربد فوق

* مقر هيئة اركان ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى في ١٩١٧ ثم مقر الحكومة السوفييتية الاول . - المترجم .

المدينة المعذبة المثقبة بالرصاص وتصفر في ثوب السطوح منزرة بالويل . وتنز طلقات في الظلام . فمن يطلق النار ، وعلى من ، ولاي شيء ؟ هل الطلقات هناك حيث يوهج الوهج ، ويلون غمامم الثلج ؟ حيث مستودعات النبيذ تحترق . . . والناس يجرعون النبيذ من البرميل المحطمة في الاقبية . . . عليهم اللعنة ، عسى ان يحترقوا احياء !

ايها الروس ، الروس !

كان الروس يعودون بالعلايين محشورين في قطارات لا نهاية لها ، قادمين من الجبهة الى بيوتهم في القرى ، والسهوب ، والمستنقعات ، والغابات . . . الى اراضيهم ، الى نسايتهم ، كانوا يقفون مضغوطين لا يستطيعون حراكا في العربات المحطمة النوافذ المكتظة الى اقصى حد ، حتى ليستحيل ان يخرج ميت من الزحام ، ويقتد من النافذة . كانوا يسافرون راكبين على العوارض الحديدية المخففة للصدمة ، وعلى سطوح العربات . كانوا يتجمدون بردا ، ويموتون تحت العجلات ، ويشدون رؤوسهم في المسافات الضيقة بين العربات وعاكس الجسور . وكانوا يحملون في صناديق صغيرة وفي صرر كل ما وقع تحت ايديهم من اشياء لان كل شيء ينفع : رشاشة ، تراباس مدفع ، سقط متاع اخذ من ميت ، قنابل يدوية ، بنادق ، حاك ، جلد قطع من مقعد في عربة قطار . والشئ الوحيد الذي لم يجلبوه ، هو النقود . فان هذه الاوراق غير النافعة لا تستطيع حتى ان تلف بها سيكارة .

كانت القطارات تمذب بطيئة في سهول روسيا ، وتوقف لتلتقط انفاسها في محطات محطمة النوافذ مخلوعة الابواب . وكانت القطارات تستقبل كل محطة بوابل من السباب . كان الجنود يمعطهم الرمادية يقفزون من سطوح العربات ، ويقلقون بترابيس بنادقهم ، ويتطلقون ليبحثوا عن ناطر المحطة ليقتضوا في الحال على ذيل البرجوازية العالمية هذا قائلين «اعطنا قاطرة ! . . هل سمعت من الحياة ، يا ابن كذا وكيت ، يا ابن الكلب ؟ دع القطار يخرج . . .» ويهرولون نحو قاطرة في الرمق الاخير حرب منها سائقها وقادها الى السهب . «اعطونا فحما ! خسبا ! اكسروا الاسيجة ، حطمو الابواب ، والنوافذ . . .»

قبل ثلاثة اعوام كانوا لا يسألون كثيرا : من تحارب ، ولأى شيء . كان السماء انشقت ، والأرض زلزلت : تعبئة وحرب ! وادرك الناس أن زمن الأحداث المريعة قد اقترب . انتهى نمط الحياة القديم . والسلاح في اليد . ولن يعودوا إلى ما كانوا عليه . مهما يكن من شيء . فقد تراكمت مظالم كثيرة على مر القرون .

وفي ثلاث سنوات من الحرب عرفوا ما هي الحرب . رشاشات من أمام ، ورشاشات من خلف . وأنت متبطح في الروث ، بين القمل إلى أن تحين ميتتك . ثم سرت الرعدة في الأجساد ، والزغلة في العيون . انبعاث الثورة ! . انفاق الناس على أنفسهم . ونحن ما مضينا ؟ هل سيخدعوننا من جديد ؟ واستمعوا إلى الدعوة : اذن ، كننا اغراضا من قبل ، والان يجب أن نكون عقلاء . . . حاربنا ما فيه الكفاية ، فلنعد الآن إلى بيوتنا لتصفية الحساب . الآن نعرف أي كرش سنيفر بحزبتنا . لا تبصر الآن ولا اله . لا أحد غيرنا . قلنعد إلى بيوتنا ، ولتقسم الأرض !

ومرت القطارات العسكرية كالمحراث في السهول الروسية مخلفة وراءها المخنطات وقطارات السكك الحديدية المحطمة ، والمدن الرثة . ومن القرى والشرايع كان ينبعث صريف واحتكاك معدن بعدد ، حيث كانت ماسورات البنادق تقطع بالمبارد . ان الروس قد استقروا في الأرض جديا ، وعادت الشعل تضيء الاكوخ كما في الأزمنة السحيقة ، والنساء يلففن الغزول على مناول جدات الجدات . وبدأ وكان الزمن قد ارتد إلى القرون الخوالي . كان ذلك شتاء ، حين بدأت الثورة الثانية ، ثورة اكتوبر . . .

ان بطرسبورغ الجائعة المنهوبة بالقرى ، المباحة للريح القطبية ، المطوقة بجبهة معادية ، المهزوزة بالذمائر ، الفقيرة إلى الفحم والخبز ، مدينة المصانع المتطفنة المدائن ، الشيبية بدماع انسان مكشوف كانت في ذلك الحين تذيب على موجات محطتها الاذاعية المسماة «تسارسكويه سيلو» افكارا جنونية متفجرة .

صاح شاب نحيل من على القاعدة الغرائبية للمتثال ، وكان يلبس قبعة فنلندية اذار مقدمتها نحو مؤخر رأسه :

- ايها الرفاق ، ايها الرفاق الهاربون من الجيش ، لقد ادرتم

ظهوركم إلى الامبرياليين الحقراء . . . ونحن عمال بطرسبورغ نقول لكم : اصيتم فيما فعلتم ، يا رفاق . . . نحن لا نريد ان تكون مرتزقة البرجوازية الدموية . فلتسقط الحرب الامبريالية !

- تسقط ، تسقط ، تسقط . . .
سرى ذلك بثوان بين جميع الجنود الملتحين . كانوا يقفون اسام تمثال الامبراطور الكسندر الثالث تعابيا مثقلين يحملون البنادق وصرر المتاع على اكتافهم . كانت طبقة من الثلج تغطي تمثال القيصر الاسود الضخم الذي كان يوز حصانه التصوير يتدلى فوق الخطيب ذي المعطف الغفيف المفتوح .

- ايها الرفاق . . . ولكن يجب ألا تلقى البنادق ! ان الثورة في خطر . والعدو ينهض ضدنا من اطراف الدنيا الاربعة . . . وفي يديه المقترستين اكرام من الذهب وسلاح فتاك رهيب . . . وهو يهتز الآن فرحا ، اذ يرانا نشرق بالدم . . . ولكننا لن نرفع . . . ان سلاحنا هو ايمان ملتهب في الثورة الاجتماعية العالمية . . . انها ستحدث ، وعن قريب . . .

وحملت الريح نهاية العبارة . توقف عند التمثال رجل واسع المنكبين مرفوع الياقة ليقتضي حياجة صغيرة . والظاهر انه لم يلحظ التمثال ولا الخطيب ولا الجنود حملة الصرر . الا ان عبارة معينة قد انارت انتباهه فجأة ، أو ربما ليست العبارة بعد ذاتها ، بل تلك الثقة الهائجة التي قبيلت بها من تحت بوز الحصان البرونزي :

- . . . ولتكونوا على علم . . . اننا بعد نصف عام من الزمن سننفض على أظفار شر ، على الثقود . . . ولن تكون هناك مجاعة ، ولا فقر ، ولا ذلثة . . . خذ قدر حاجتك من المستودع العام . . . يا رفاق ، وسمنيني بالذهب مرافق عامة . . .

ولكن ريبا تلجئة هبت في تلك اللحظة ، ونفذت عينقا في حلق الخطيب ، فبدأ يسعل متحنيا بضيق حائق ، غير قادر على أن يتخلص من سعاله . وبدأ وكان رثيته سنتفجران . تربت الجنود برهسة ، واهتزت قبعاتهم العالية ، وانصرفوا . بعضهم إلى المحطة ، والبعض الآخر عبر المدينة إلى ما وراء النهر . نزل الخطيب من القاعدة ، ساحباً أظفاره على غرائبيتها المتجمد . ناداه الرجل ذو الياقة المرفوعة بصوت خافت :

- روبلييف ، مرحبا .

زور فاسيلي روبلييف معطفه الخفيف وهو ما يزال يسعل ، ونظر الى ايفان ايليتش تليغين نظرة جفاء دون ان يمد له يده .

- ماذا ؟ ما حاجتك ؟

- انا مسرور بلقياك ...

- هؤلاء الملاعين ، غلاظ العقول ...

قال روبلييف وهو ينظر الى معالم محطة القطار غير الواضحة بسبب تساقط الثلج ، حيث ما زال اولئك الجنود الملتحون المويبون بالقمل يتجهرون جماعات وعند اقدامهم صررهم ، واردف قائلا :

- هل من المعقول ان تحرك ادمغتهم ؟ انهم يولون من الجبهة كالصراصر . خفاف العقول ... الازهاب ضروري معهم ... وقبضت يده المتجمدة على الريح الثلجية ... وضربت بقبضتها شيئا غير منظور في تلك الريح . ثم تدلت وسرت رعدة برد في اوصاله ...

- روبلييف ، يا عزيزي ، انت تعرفني جيدا (وانزل تليغين ياقته ، وانحنى نحو وجه روبلييف الترابي اللون) ... اشرح لي الامر ، بحق الرب ... نحن نضع رقابنا في الانشطة ... يستطيع الالمان ، اذا شاءوا ، ان يكونوا في پتروغراد* في غضون اسبوع ... افهمني . انا لم اهتم بالسياسة في يوم من الايام ...

- ماذا تعنى بانك لم تهتم بالسياسة ؟ - سال روبلييف وتحول الى ايفان ايليتش بحركة هوجاء وقد تجهم وجهه - بم اهتمت اذن ؟ والآن اتعرف من الذي لا يهتم ؟ - وقرس في عيني ايفان ايليتش بجنون - الحيادي ... عدو الشعب .

- لهذا السبب بالذات اردت ان اتحدث معك ... فتحدثت كما يتحدث الناس .

وغضب ايفان ايليتش ايضا . زفر روبلييف الهواء بعق من خلال انفه .

* الاسم الذي اطلق على پلرسبورغ من ١٩١٤ حتى ١٩٢٤ .
المتزوج .

- انت غريب الاطوار ، يا رفيق تليغين . ليس لي الوقت لاتحدث معك . هل تستطيع ان تفهم ذلك ؟

- اسمع ، يا روبلييف ، انا الان في حالتي النفسية هذه ... هل سمعت بان كورنيلوف يثير منطقة الدون ؟

- سمعنا .

- اما ان اخرج الى الدون ... واما ان ابقى معكم ...

- ولماذا : «اما» هذه ؟

- هكذا ، يجب ان اومن بشيء ... انت الى جانب الثورة ، وانا الى جانب روسيا ... وربما انا ايضا الى جانب الثورة . انا ، اذا كنت تعلم ، ضابط مقاتل ...

انطلقا الحقق في عيني روبلييف السوداوين ، ولم يبق فيهما غير الارهاق المسهد . قال :

- حسنا . تعال غدا الى سمولتي ، وسل عني ... روسيا - وهز راسه ميتسما بتهمك - ان روسياك هذه تجعل المرء يتميز غضيا ... تملأ العين دما ... ومع ذلك فاننا جميعا نموت في سنيها ... اذهب الان الى محطة البلطيق وستجد ما يقرب من ثلاثة آلاف هارب من الجيش يقضون اسبوعهم الثالث منطرحين على الارض ... اجتمع بهم وحرصهم على الوقوف الى جانب السوفييتات ... قل لهم : ان پتروغراد بحاجة الى الخبز ، ونحن بحاجة الى مقاتلين ... وجفت عيناه من جديد) قل لهم : اذا كنتم ستنبلطحون على سطوح مواقدكم البيتية كسناي فانكم ستمهلكون ، مثل الجراء ، وستجربون بجلدكم ما هي الثورة ... دق هذه الكلمات في رؤوسهم ! ... لا احد يستطيع الان ان ينقذ روسيا ، وان ينقذ الثورة غير السلطة السوفييتية ... فهمت ؟ لا شيء في العالم الان اهم من ثورتنا ...

ارتقى تليغين السلم المتجدد في الظلام الى شقته في الطابق الخامس . تلمس الباب في الظلمة ، وطرق ثلاث طرقات ، وطرقه منفردة . سمع وقع اقدام في الداخل تقترب من الباب . وبعد برهة من الصمت سال صوت زوجته الغافت :

وسمع تليغين زفرات خلف الباب . صلصلت سلسلة وظل
الثقل مستعصيا عن الدوران وقتها طويلا . وكان يسمع همس
داشا : «آه ، يا ربي ، يا ربي» . واخيرا اقلحت في فتح الباب . وحالما
فعلت ذلك غابت في ظلمة الممر لتجلس في مكان ما .

احكم تليغين اغلاق الباب بكل الاقفال والزلايلج . وخلع
الكالوش . وتلّسن جيوبه بحثا عن الكبريت . اللعنة . لا يوجد
كبريت . مد ذراعيه الى الامام دون ان يخلو معطفه وقبعته ،
واتجه الى حيث غابت داشا . قال :

- استمتار . بلا ضوء مرة اخرى . داشا ، اين انت ؟

اجابت من غرفة المكتب بصوت خافت بعد برهة من الصمت :

- اشتعل قليلا ، ثم انطفأ .

دخل تليغين غرفة المكتب ، وكانت ادقا غرفة في الشقة كلها ،
الا انها هي الاخرى كانت باردة اليوم . امعن النظر ولكنه لم يتيبين
شيئا ، بل ولم يسمع انفاس داشا . وكان جائعا جدا ، ويود بشكل
خاص ان يحتس شيئا . الا انه احس بان داشا لم

تعد شيئا .
ازول ياقة معطفه ، وجلس على الكرسي قرب الاريكة ووجهه
الى النافذة . كان ضوء اغبيش يرود الظلام الللجي . وكان ضوء
كشاف يحوم في السماء طالعا من كرونشتادت او من مكان قريب
منها .

وفكر ايفان ايليتش مع نفسه : «لطيف لو اشتعل الموقد
الآن . ولكن كيف اسأل داشا عن مكان علبنة الثقاب دون ان
ازعجها ؟»

غير انه لم يحزم امره . ود لو يعرف ماذا تفعل الآن : تبكي
ام تهوم تعسى ؟ كان الهدوء شاملا . خيم سكون الصحراء على
البيت ذي الطوابق الخمسة كله . لا شيء غير صدى خفيف
لطلقات نادرة تطلق في مكان ما . وفجأة احمرت مصابيح الثريا
الستة قليلا ، وتنورت الغرفة بضوء احمر خافت . كانت داشا
جالسة الى المكتب واضعة معطفها الفرائي على ما عليها من ثياب ،

وقد مدت الى امام ساقها واحدة في حذاء لبادي . كان رأسها
مستقرا على المكتب ، وخدها على نشافة ورق . الوجه نحيل
معذب ، والعين مفتوحة ، ابقتها مفتوحة وهي جالسة تلك الجلسة
غير المريحة وغير الطبيعية ، حسب ما اتفق . . .

- عزيزتي داشا ، لا يجوز ذلك ، على اى حال .

قال تليغين بصوت كامد . فقد اشفق عليها اشفاقا لا يطاق
ابدا . جاء الى المكتب . الا ان الخيوط الحمراء في المصابيح ارتعشت
وانطلقت . لم يستمر الضوء غير بضع ثوان .

توقف وراء داشا ، وانحنى عليها ممسكا انفاسه . لا اسهل
من ان يمسد شعرها سامتا ، على الأقل . الا انها كالجثة لم تبد
استجابة لاقترابه منها .

- داشا ، لا تعذبني نفسك بهذا الشكل . . .

قبل شهر ولدت داشا طفلا توفي في اليوم الثالث من ميلاده .
كانت الولادة ميتسرة ، تمت بعد صدمة عصبية فظيعة اصابت
داشا حين بوغشت في الشفق بشخصين ملفوفين بكفتين متطيرين في
الريح فارهين بشكل لانساني هجما عليها وهي في ميدان «مارسوفو
بوليه» . وانهما ، بالتاكيد ، من اولئك «القفازين» الذين كانوا
يربطون اقدامهم بزئيركات خاصة ، وينشرون الرعب في بتروغراد
كلها في تلك الاوقات الفريدة . واخذوا يكترران اسنانها لداشا ،
ويصفران لها . وعندما سقطت مغشيا عليها انزعجا معطفها من
عليها ، ووليا هاربين عبر جسر ليباجي . بقيت داشا فترة من
الوقت منطرحة على الأرض . وهطل المطر مدارا ، وضجت اشجار
الزيفرون الجرداء في حديقة ليثنى ضجيجا موحشا ، وصرخ شخص
وراء نهر «فاتناناكا» صرخة مملوطة : «النجدة !» واحست داشا بان
الطفل يرفس في بطنها ، يريد الخروج الى هذا العالم .

كان يطالب ، فنهضت داشا ، وعبرت جسر ترويتسكي . كانت
الريح تضغطها على دوابزين الجسر الحديدي ، وتوبها المبلل يلتصق
بين ساقها . وما من ضوء ، ولا عابر سبيل . والنبقا تحتها اسود
الماء مضطرب . واحست داشا بعد ان عبرت الجسر بأول نوبة من
الآلم . وادركت انها لن تستطيع بلوغ البيت ، فازادت فقط ان تصل
الى شجرة ، وتحتمى من الريح . وفي شارع كراستيه زوري اوقفها

جندی من جنود الدورية . امسك بندقيته ، وانحنى على وجهها الشاحب شحوب الموت .

- خلعوا ثيابك ، الاوغاد ! اوه ، وانت حبي .

واوصل داشا الى دارها ، وسحبها الى الطابق الخامس . طرق الباب باخص بندقيته ، وحين اطل تليغين برأسه صباح به :

- اليس جميلا ان تترك زوجتك ليلا في الشارع لوحدها وهي على وشك ان تضع ؟ ايها البرجوازي اللعين ، العديم التدبير . . .

وبدا المخاض في نفس الليلة . جاءت الى الشقة قابلة ثرثارة . واستمرت آلام المخاض اربعة وعشرين ساعة . وخرج الوليد حبيس الانفاس بسبب ما ابتلع من ماء . طمطبت القابلة عليه ، ودلكنته ، ونفخت في فيه . فتلوى وجهه وانشأ يولول . ولم تياس القابلة رغم ان الوليد اخذ يسعل . وظل يولول متشكيا كالتقططة ، ولم يرضع ثدي امه . ثم كف عن الولولة ، وبقي ينط فقط . وفي صباح اليوم الثالث مدت داشا ذراعها الى المهده ، ثم

سحبتها حين مست جسده البارد . رفعته بسرعة ، وفكت لفائفه . كان شعره الخفيف الفاتح اللون يقف منتصبا على جمجمته العاليه .

ارسلت داشا صرخة وحشية . وقفزت من الفراش الى النافذة لتكسرها ، وتقدف نفسها منها ، وتنتهي حياتها . . . وراحت تكرر :

«غمردت به ، غمردت به . . . لا اطيع ، لا اطيع !» . ووجد تليغين صعوبة كبيرة في تهدئتها وارتقادها . واخرج الميت الصغير . قالت داشا لزوجةها :

- جاه الموت حين كنت نائمة . تصور ان شعره قد وقف على رأسه . . . تعذب لوحده . . . وانا كنت نائمة . . .

ولم يستطع شمه ان يبعد عن خيالها رؤيا مضارعة الطفل وحده للموت .

- حسنا ، يا ايفان . ساكف عن ذلك .

اجابت بذلك تخلصا من سماع صوت زوجها الرصين ، ورؤية وجهه المعاني المورود و «السمتشر» رغم كل حرمان .

كانت عاقبة تليغين الطائفة تمكنه من ان يضرب في المدينة بكالوش رث من الفجر الى ساعة متأخرة من الليل بحشا عن عمل

مساعد ، وعن طعام ، وحطب ، وغير ذلك . وكان يهرع عدة مرات الى البيت ، مظهرا قدرا غير اعتيادي من العناية والاهتمام .

الا ان هذه العناية الناعمة بالذات هي ابعد ما تحتاجها داشا في اللحظة الراهنة . كلما اسرف ايفان ايليتش في اظهار فعالية

عملية ازداد ابتعاد داشا عنه بشدة . كانت تقضي النهار بكامله جالسة في الغرفة الباردة . واذا المت بها سنة من نوم ، فذلك

شمه رائح . عند ذاك تستغفو ، وتتمرر يدها على عينيها ، وتحس بشيء من الارتياح . فتذهب الى المطبخ متذكرا ان ايفان ايليتش

طلب اليها ان تصنع شيئا ما . الا انها لم تستطع ان تقوم حتى باهون الاعمال . وكان مطر اواخر الخريف يدق زجاج النوافذ ، وتصخب الريح فوق بطرسبورغ . وفي هذا البرد يرقد جسده طفلها

الميت الذي لم يكن قادرا حتى على الشكوى ، يرقد في مقبرة عند ساحل البحر . . .

ادرك ايفان ايليتش انها مريضة نفسيا . كان انطفاء الكهرباء

كافيا لان يجعلها تنزوي على كرسي في احد الاركان ، وتغطي رأسها بلفاح ، وتغيب في كابة يانسة . بينما كان على الانسان ان يعيش ،

ان يعيش . . . كتب عنها الى اختها بكاترينا دميترييفنا في موسكو ، الا ان الرسائل لم تصل . ولم تجب كاتيا ، ام لعلها هي الاخرى قد

اصيبت بمكروه . لقد كانت الاوقات صعبة . وقمت قادم ايفان ايليتش على علبة الكبريت بينما كان يراوح

وراء ظهر داشا . وعرف على الفور : حين كانت الكهرباء تنطفئ ، كانت داشا تصارع الظلام والوحشة مكتفية باشغال عود ثقاب من

حين الى آخر . قال ايفان ايليتش لنفسه : «يا ويحي ، وهي وحيدة طوال النهار» .

رفع العلبية بعذر ، ووجد فيها بضعة اعداد . جلب من المطبخ عيدان العطب التي نشرها صباحا بعناية من بقايا صوان

قديم . وقرص في غرقة المكتب ، واخذ يوقد النار في الموقد الحديدي الصغير المصنوف بالآجر ذي المدخنة الحديدية الممتدة

بعاكس عبر الغرفة كلها . ونشر دخان الخشب المشتعل رائحة مريجة ، وهبت نفحة ريح في شقوق باب الموقد . وانعكست على

سقف الغرفة دائرة من الضوء الرجراج .

ان هذه المواقف المصنوعة يتشبهت فيما بعد باسم «النحلة». وادت خدمات كثيرة للبشرية طوال فترة الشيوعية العسكرية . وهي حديدية ذات اربع ارجل ، ومعناها البسيطة ذات عين طيسخ واحدة او المعقدة ذات فون داخلي يمكن ان تشوى فيه المعجنات من رواسب القهوة ، بل وحتى الطائر المحشوة بالسبك المجفف ، او المترفة منها المرصوفة بالصفايح المنزوعة من المصطليات . فقد كانت تستخدم للتدفئة والطبخ والخبز وترسيم اغاني النار العريقة مصحوبة بعويل العاصفة الثلجية .

وكان الناس يجتمعون حول جمراتها مثلما كان القدامى يجتمعون حول كانون النار في الازمنة الغابرة ، يدفئون ايديهم المتثلجة منتظرين تراضف الغطاء على السخان متجاوزين اطراف احاديث لم يسجلها احد مع الاسف . وكان الاساتذة بلعاهم الكثيفة والاحذية اللبادية في ارجلهم ، واللحاحات على اكتافهم يقربون كراسيهم الكسيحة منها ، ويكتبون كتبا مدهشة . وكان الشعراء الضابون من الجوع ينظّمون القصائد عن الحب والثورة . وكان المتأمرّون المتعلقون المتقاربو الرؤوس يتهامون باخبار يفوق احدها سابقه بالانحراف في الخيال . وكان الكثير من الالات الممتازة الأثرى يحرق متحوالا الى دخان يتطاير من خلال المداخل الحديدية في تلك السنوات .

كان ايفان ايليتش يحب موقده كثيرا . وقد ملط شقوقه بالطين ، وعلق علب التنك تحت مدخنته لكيلا يتساقط السخام على الأرض . حين غلى السخان اخرج كيس ورق ، ونثر سكرنا ناعما في قده وزاد منه ليحلو اكثر . وخرج من الجيب الآخر ليمونة وقعت في يديه اليوم باعجوبة (بادلها بقفازين عند احد مشوهي العرب في جادة نيفسكى) واعد شايها حلوا بالليمون ، ووضعه امام داشا .
- داشينكا ، هذا بالليمون . . . والآن ساوقد المسرجة .
كانت هذه المسرجة عبارة عن علية حديدية ، معبأة بزيت عباد الشمس تطرف فيها فتيلة . جلب ايفان ايليتش المسرجة . وتنورت الغرفة بضوء باهت .

* صيغة تدليل من اسم داشا (الاسم الكامل داريا) . - المترجم .

كانت داشا تجلس الآن في كرسيها في وضع طبيعي تحتسى

الشاى . جلس تليفين على مقربة منها شديد الرضى .
- اتدريين بمن التقيت ؟ فاساسيل روبريف . هل تذكرين

روبيريف الاب وروبيريف الابن ؟ كانا يشتغلان في ورشتي . كانت بيتنا صحبة كبيرة . الاب ذو العين النافذة . قدم في الريف ، وقدم في المصنع . رجل مدهش ! اما فاسيل الذي كان بلشفيا حتى في ذلك الحين فهو فتى ذكى ، محقق كالشياطين نفسه . كان اول من اخرج عمال مصنعا الى الشوارع في شباط . وكان يتسلق الى علييات البيوت باحثا عن رجال الشرطة . ويقولون انه قتل لوحده خمسة او ستة رجال منهم . . . وبعد انقلاب اكتوبر صار من ذوى النفوذ . جرى حديث بينى وبينه . . . هل تسمعيني يا داشا ؟

قالت : انا سامعة . ووضعت القمح الفارغ ، واستندت خدها على يدها المضمومة التحيلة ، وحدثت في اللهب المتطاير من المسرجة . . . كانت عينها الرماديتان تنمآن عن عدم اكترات لكل ما في العالم ، وكان وجهها ناصلا . وبشرتها الرقيقة شفافة ، وانفها الصغير الذي كان من قبل انوفا بل ونزقا يبدو مديبا الآن .

قالت لتبدي شكرها على الشاى بالليمون على الاربع :
- ايفان . كنت ابحت عن علبة تقاب فوجدت علبة سيكانر وراء الكتب . اذا كنت تريد . . .
- سيكانر ! انها من سيكانرى القديمة المفضلة ، يا داشينكا .

واظهر ايفان ايليتش قرحا مبالغا به . ورغم ان هذه العلبة قد خباها بنفسه لوقت الشدة . اشعل سيكانر ، ونظر من طرف عينه الى بروفييل داشا الغالى من الحياة . وحدثته نفسه : «بعدها عن هنا ، الى منطقة دافئة ، الى الشمس» .

- لنعد الى كلامنا . تحدثت مع فاسيل روبريف فساعدنى كثيرا ، يا داشا . . . لا اعتقد ان هؤلاء البلاشفة سيخلفون فجأة . وجوهر الامر كله في امثال روبريف . هل تفهمين ؟ حقا ان احدا لم ينتخب البلاشفة . وسلطتهم معلقة بشعرة ، وهي منحصرة في بتروغراد وموسكو وبعض مراكز المحافظات . . . ولكن السر كله يكمن في نوعية السلطة . . . ان لهذه السلطة صلة الرحم بامثال

فاسيل روبوليف . . . وهم ليسوا كتارا في بلادنا . الا ان لهم ايماناً .
قد تمزقه السبراق والنمور ، وقد يحرق حيا ، ولكنه سيمثل ينشده
التشيد الاممي متهللا . . .

ظلت داشا على صمتها . حرك ايفان ايليتش الحطب في
الموقد . وقال وهو مقرص امام بابها :

- اتفهمين ما ارمى اليه في كلامي ؟ . . . يجب ان اميل الى
هذا الجانب او ذلك . ليس من اللائق ان اقعده وانتظر حتى تستقر
الامور على حال من الاحوال . . . ومن العار ان اجلس على قارعة
الطريق استجدي . انا رجل معاني . ولست مغربا . . . ويدي
مشوقتان الى عمل شيء ما . اذا اردت الحقيقة . . .

تهدت داشا . وانطبق جفناها ، وتحدت قرات من الدمع من
تحت اهدابها . واستنشقت ايفان ايليتش الهواء من منخرينه .

- من الطبيعي ان علينا ان نبت بامرئ قبل كل شيء ، يا
داشا . . . ينبغي ان تلمسي شتات قوتك وتنتعشي . فان
الطريقة التي تعيشين بها هي الانطفا . بعينها .

ولم يضبط نفسه ، فشد على كلمة «انطفا» بغيظ . وعندئذ
تكلمت داشا بصوت طفول شاك :

- وهل انا ملومة لاني لم امت آنذاك ؟ والان اعيقك عن
الحياة . . . انت الذي جلبت لي الليونة . . . انا لا اطلب منك . . .

راح ايفان ايليتش يترع الغرفة محدثا نفسه : « تلك هي
نتيجة الحديث معها ! » ونقر باظافره على زجاج النافذة الذي اكتست
بطبقة من البخار . كان الثلج يدوم في الخارج ، والزوبعة الثلجية
تعول ، والريح الضاربة تطلق بسرعة شديدة ، وكأنها تستبق
الزمن نفسه ، وتنفذ الى الازمان المقبلة لتعلن عن احداث غير
اعتيادية . وفكر ايفان ايليتش مع نفسه : « هل ارسلها الى خارج
البلاد ؟ ام الى ابيها في سامارا ؟ ما اعقد تنفيذ ذلك . . . ومع ذلك
من المستحيل الاستمرار على هذا النمط من الحياة . . . »

اخذت يكاترينا دميترييفنا ، اخت داشا ، زوجها فاديم
يتروفيتش روتشين الى ابيها في سامارا ، حيث كان من الممكن ان
يعيشا بهدوء ، حتى الربيع ، دون يتلغا اعصابهما على كل كسرة

خبز . ان سلطنة البلاشفة ستنتهي ، لا محالة ، مع اقبال الربيع .
بل ان الدكتور دميتري ستيبانوفيتش بولافين حدد مواعيد دقيقة
وهي : ما بين ذوبان الثلج وبدا احوال الربيع سيضمن الالمان
مجموعا على طول الجبهة ، حيث كانت فلول الجيوش الروسية
تتسفلد بالاجتماعات والخطابات ، ولجان الجنود تجاهد ، وسط
القوى والخيانة والهروب من الوحدات ، لاجراء اشكال جديدة
للانضباط الثوري .

ان دميتري ستيبانوفيتش قد شاخ خلال الاعوام الاخيرة ،
وعاش حياة محدودة ، وازدادت احاديثه عن السياسة . وقد انشرح
للفجأة بمجيئ ابنته ، وانخرط فورا في تحويل تفكير روتشين
السياسي . فكانا يجلسان ساعات طوالا في غرفة الطعام حول
السماور (الالة الضخمة المجددة السطح الذي سكب من بطنه
يخبره كاملة من الماء الفائر وحنكته الشيوخة ، فما ان تلقى فيه
فحما حتى ينشأ يغنى اغاني السماور الريفية مدة طويلة) . كان
دميتري ستيبانوفيتش المهمل الهندام ، المترهل اليدين بخصائل
شعره الشائبة الجعداء غير المصفوفة يدخن سيكائر كرهيفة
الرائحة ، وسعل محمرا ، ويظل يتكلم بلا انقطاع . . .

- بلادنا المسكينه وقعت في داهية . . . لقد خسرتنا
الحرب . . . فلا يفضيك قول هذا ، يا حضرة المقدم . كان
يجب ان يعقد الصلح في عام ١٩١٥ . . . وان تخضع للالمان
وتتعلم على ايديهم . في هذه الاحوال تعلمنا منهم شيئا ويمكن ان
تكون يشرنا . اما الآن فقد قضى الامر . . . والطب عاجز في مثل
هذه الحال . كما يقولون . . . لا حاجة الى هذا الكلام ، ارجوك . . .
بئس شيء سندافع ؟ بالمذرة الثلاثية الاسنان ؟ في هذا
الصيف سيحتل الالمان كل المنطقة الجنوبية والوسطى من
رومبيا ، ويحتل اليابانيون سيبيريا ، ويطردون فلاحينا
المتوحشين مع مزارعهم الثلاثية الاسنان الى التوندرا .
الى الدائرة القطبية ، ويبدأ النظام والثقافة ، وموقف الاحترام
من الفرد . . . وستكون عقدنا روسلاند . . . وذلك يرضيني كل
الرضا . . .

كان ديمتري ستيبانوفيتش ليبراليا قديما وهو الآن يسخر بتهمك مرير على ما كان «مقدسا» في الماضي . وحتى بيته انطبع بهذا الطابع من الأزدراء النفس . فالغرف ينوافذها المترية لم تكن تنظف ، وصورة مندلييف في غرفة المكتب مبرقة بنسيج العنكبوت ، والنباتات تذبل في أحواضها ، والكتب والابسطسة واللوحات ما زالت في الصناديق تحت الأرائك منذ أن كانت دأشا هنا ، لأخر مرة ، في عام ١٩١٤ .

وحيث انتقلت السلطة في سامارا الى سوفيت الثواب ، وامتنعت غالبية الأطباء عن العمل مع «نواب الكلاب وسراطين البحر» عرض على ديمتري ستيبانوفيتش منصب المدير العام لمستشفيات المدينة . وقد قبل المنصب لتقديره بأن الألمان سيدخلون سامارا في الربيع على أية حال . كانت هناك أزمة في الادوية ، فكان ديمتري ستيبانوفيتش لا يستخدم غير الحقن الشرجية ، ويقول لمساغديه - وهو ينتظر اليهم باستعلاء ساخر من خلال نظارته الانفية المصدوعة : «المعدة بيت الداء» . والناس خلال الحرب لم ينظفوا معدم . تقبوا في العمل الاصلية لقواضنا الكريمة تجدوها في المعدة الممتلئة بالاوساخ . اجل ، يا سادة ... استخدموا الحقن الشرجية مع كل واحد بالتاكيد ...»

الا ان الاحاديث حول مائدة الشاي كانت ترهق روتشين وتضايقه . لم يبل بعد من الرجة التي سببتها له قبلة انفجرت بالقرب منه اثناء معركة في احد شوارع موسكو في اول تشرين الثاني ، حين كان يقود سرية من طلاب المدارس العسكرية مدافعا عن مشارف بوابة نيكيشكيه . وكان سايلين في صف البلاشفة يهاجم من ناحية ساحة ستراستنيا . وكان روتشين يعرف سايلين منذ سنوات التلمذة في موسكو صبيا ملاكي الوجه ذا عينين زرقاوين تصطبغ وجمتاه بحجرة النجل . وكان غريبا جدا ان يقارن المرء ذلك الشاب المنعقد من عائلة مثقفين مسن سكان موسكو القديمة بهذا البلشفي المتحمس ، او الاشتراكي-الثورى اليسارى - او سمه ما شئت من الاسماء - بمعطفه الطويل والبندقية يركض مراوغا وراء اشجار الزيزفون في بولفار تفيرمسكوى الذى تغنى به يوشكين ، وحيث كان سايلين الى زمن غير بعيد ، حين

كان طالبا نجيبا ، يتمشى فيه متابعا كتاب نحو . «يا سيد سايلين انت تحارب لتخون روسيا والجيش ، وتفتح الطريق للامان ، وتطلق الوحش الكاسر ! .. ربما من الممكن ان تغدر المراتب الدنيا ، هذه الهيام الناخرة ، ولكن انت ..» واصبح روتشين نفسه مبطوحا وراء رشاشة (في خندق صغير في زاوية شارع مالايا نيكيتسكايا ، عند حانوت تسميتشكين للالبان) وعندما وثبت قامه سايلين الرشيقه بمعطفه الطويل مرة اخرى من وراء شجرة شققا بالرصاص . انفلتت البندقية من يدي سايلين وقعد على الارض مسكا فخذة قرب اريته . وفي تلك اللحظة تقريبا قلقت شظية القبة من على رأس روتشين . وفقد القدرة على الحركة .

في الليلة السابعة من القتال في موسكو خيم ضباب اصفر كثيف . وهدات لعلمة الرصاص . وظلت تقاتل شرادم منفردة معزولة من طلاب المدارس العسكرية ، والطلاب الاخرين والموظفين . الا ان لجنة الامن العام يرئاسة الطبيب في مستشفى البلدية يدعى رودنييف قد اخفتت عن الوجود . وسيطرت على موسكو قوات اللجنة الثورية . وفي اليوم الثاني كان في وسع المشاهد ان يرى في شوارع المدينة شبانا في ملابس مدنية يحملون الصر وعيونهم تم عن سوء طوية . كانوا ينسلون الى محطتي كورسك وبريانسك ... ورغم انهم كانوا يرتدون لقفات الساق العسكرية او احذية الفرسان الطويلة فان احدا لم يكن يعترضهم .

ولو لم يصب روتشين بتلك الصدمة لرحل هو الآخر . ولكن شذلا خفيفا قد ألم به ، ثم عسى (مؤقتا) ، وبعده اعتلالا في القلب . وكان ينتظر ظهور قوات القيادة العليا بين لحظة واخرى وبده المدافع من عيار ستة بوصات بقصف الكرملين من تلال فوربيوفو . الا ان الثورة كانت قد بدأت من توها بالتدخل في اصاق الجماهير . واقتعت كاتيا زوجها بالسفر ، ونسيان البلاشفة والامان لفترة من الوقت .

وخضع قادم بترفيتش . ونزل في سامارا لا يفارق شقة الطبيب . كان يأكل وينام . ولكن كيف له ان ينسى ! كان يصك فكية وهو يتصفح كل يوم «انباء سوفيت سامارا» المطبوعة على ورق تغليف . فقد كان كل سطر فيها يلذعه كالسوط .

الانتصارات ، والاستيلاء على عواصم المحافظات بقطاراتها من الذهب .

وكان يجلس بحالته رجل عسكري ممتلئ الجسم متوسط العمر يضع على كتفيه شريطا ابيض . كانت مجتمته البيضوية جردا ضخمة مثل حصن للسلطنة . وكانت شفتاه الغليظتان تبتدان بارزتين في وجهه الشحيم الحليق . كان يمشي بلا توقف محركا عضلتي حاجبيه ، متفرسا في المشهيات المتنوعة . وكانت الكاس ضائفة في يده الكبيرة ، والظاهر انه كان متعودا على الاقحاح الكبيرة . شرب كاسه دافعا رائسه الى الوراء دفعة قصيرة . وبقيت عيناه الزرقاوان الذكيقتان الصغيرتان كعيني ديب لا تستقران على احد ، وكأنه كان على احتراس . وكان العسكريون ينحنون نحوه باهتمام خاص . كان هذا الرجل هو دوتوف اورتوفورج ، بطل قوزاق الاورال ، وقد حل ضيفا منذ وقت قصير .

وعلى مسافة غير بعيدة عنه جلس مسيو جانو السفير الفرنسي بين امرأتين جميلتين احدهما شقراء والاخرى ذات شعر كستنائي ، وكان يرتدى بدلة سهرة رمادية فاتحة وقيصا ناصع البياض . وكان وجهه الصغير ذو الشاربين المهيئين والانف المدبب تنطبع عليه آثار الحياة الفاسقة . كان يلبث بالراء ويميل تارة الى المقاتن تصف العارية للمرات ذات الشعر الكستنائي (التي ضربته بزهره على يده جزءا على ذلك) وتارة الى كتف الشقراء الوردية اللؤلؤية ، فكانت تضحك وكان الفرنسي يدغدغها . وكانت كلتسا المرأتين تفهمان الفرنسية شرط التحدث بها ببساطة . وكان ظاهرا ان مقاتن النساء قد سلبت عقل جانو السسكين . وكل ذلك لم يعقه اثناء الوقفات القصيرة عن مخاطبة بريكين صاحب الطاحونة الرصين الذي وصل لتوه من امسك ، او رفع كاسه لخبب انجازات دوتوف الباهرة . كان اهتمام مسيو جانو بطعنين سيبيريا ولحوم وزبدة اورنبورج قد اظهر ولاء الحار نحو حركة البيض . وكان السفير الفرنسي في اوقات المضاعب الثمونية قادرا دائما على ان يعرض للحكومة خسين قطارا محملة بالطحين وغيره . . . وكانت هناك عقول متشككة تؤكد ان لا ضير من دعوة مسيو جانو الى تقديم

اوراق اعتماده كاملة ، مثلما تفعل اية حكومة معتبرة . . . الا ان الحكومة فضلت طريقة اكثر لباقة : الثقة بالحلفاء .

وكان يجلس الى المائدة اجنبي معتبر آخر هو السنيسور بيكولوميني الاسمر السريع النظرات (وكان يؤكد ان ذلك هو لقبه الحقيقي) . وكان يمثل في شخصه الامة الايطالية في شيء من عدم التعديد ، والشعب الايطالي . وكانت برته الزرقاء القصيرة مزينة بشريط فضي ، وعلى كتفيه كتابيتا جنرال ضخمتان . وقد شكل في سامارا كتيبة ايطالية خاصة . وقد تساءلت الحكومة بدهشة «اين يجد الايطاليين هنا ؟ الشيطان يعلم !» الا انها قدمت المال . فهو من الحلفاء على اية حال . ولم تكن تعار له اهمية في الاوساط البرجوازية .

كانت الحكومة متفببة عن العادة ما عدا غير الحربيين : الدكتور بولافين وسماعد رئيس الاستخبارات سميون سيميونوفيتش غغيادين الذي ارتفع عاليا في سلم الوظيفة . وقد انقضى زمن المباحج المتبادلة ، حيث كان البلاشفة يدحرون . كانت حكومة لجنة الجمعية التاميسيسية - من الاشتراكيين الثوريين الجامدين عن بكرة ابيهم - تشرش عن مكاسب الثورة ثرثرة لم يكن احد يستطيع التصديق بها غير التشميكيين الذين ليس لهم اى فهم في الشؤون الروسية . لقد كانت حكومة الاشتراكيين الثوريين شيئا جيدا بالطبع ، في بداية الامر حين اقاموا انقلابا ، وكان يجب تهدئة العمال والفلاحين . وكان تجار سامارا انفسهم يرددون شعارات الاشتراكيين الثوريين . وها هي الفولغا قد تحررت من خفائيسك الى قازان ، واحتل دتيكين شمال القفقاس كله تقريبا ، وكراسنوف يقترب من تسارستين ، ودوتوف طهر الاورال ، وفي سيبيريا يظهر كل يوم امانات ببيض مرعبون ، وهؤلاء الشعاذون الطوال الشحسر فولسكي وبروشفيت وكميوشكين واضرابه المجتمعون في القصر الفخم لزعيم نبلاء سامارا ما زالوا غير قادرين على ان يخلدوا الى الهدوء توافقين الى الجمعية التاميسيسية . . . تقو ! وكبار التجار اخذوا ينتقلون بحزم الى شعارات اخرى ابسط وامتن وأكثر فهما . . .

تحدث دميتري ستيناونوفيتش مخاطبا الاجانب بالدرجة الاولى :
- . . . لقد انتزعت من الحية محتما . انها حقيقة ضخمة لها

جواهر غفيرة من الناس تسير خلف النقاب الكثيف التي اثارته العاصفة الثلجية ، تسير متلازمة الايدي ، في جماعات ، صاخسة ضاحكة . معاطف عسكرية ، قروا ، نساء ، صبيان . ان روسيا الاصلية ، الرمادية كانت تتدفق . . . من اين جاء هذا العنسد الضخم ؟

غار قفا روتشين الاشيب المتوتر العرتاب بين كتفيه . مست كانيا كتفه بخدها . ان الحياة التي تمر وراء النافذة العالية لم تكن مفهومة لها . قالت :

- فاديم ، انظر اية وجوه مستبشرة . . . امن المعقول ان هذه نهاية الحرب ؟ شي لا يصدق . انها سعادة عظيمة . . .

ابتعد روتشين عنها ، وعصر يديه وراء ظهره ، وكانست اضمائة شفتيه حادة .

- فرح ميتسر . . .

كان خمسة اشخاص يجلسون في غرفة صغيرة معقودة السقف ، وهم في ستر مجمدة ، وقمصان من القماش الخشن من تلك التي يلبسها الجنود . كانت وجوههم مسودة من اثر السهاد . وعلى متضدة غطيت بقماش من الصوف محروق كانت اقداح الشاي واجهزة التلفون تقف بين الاوراق ، واعقاب السيكلز ، وكسر الخبز . وكان الباب يفتح احيانا على مشى مملوء بضجيج الناس ، ويدخل عسكري عريض المنكبين يشد عليه احزمة كثيرة ، جالبا معه اوراقا للتوقيع .

وكان الرئيس ، خامس الجالسين الى المائدة ، وهو رجل ربع القامة في ستر رمادية قصيرة يجلس في كرسي وتير لا يتناسب ارتفاعه مع قامته ، فيبدو كالفاني . كانت يده اليسرى موضوعة على جبينه حاجبة عينيه وانفه فلا يرى الناظر اليه غير قمة المستقيم بشاربه الخشن ، وخده غير الحليق بعصلته المختلجة . والذين كانوا يعرفونه عن كتب كانوا من الممكن ان يحسوا بان عينيه الناقبة الذكية تنظر من خلال فرجات الاصابع التي تغطي وجهه بايعاء الى المتكلم ، وتلاحظ التغيرات على وجه المجتمعين .

كانت التلفونات تدق بشكل متواصل . فكان الرجل ذو

المنكبين العريضين والاحزمة الكثيرة يرفع السماعات ، ويقول بصوت منخفض حاد النبرة : «مجلس مقوضى الشعب . اجتماع . لا يجوز . . .» وبين العين والآخر يصطلم شخص بالباب من جهة الممشى ، وتدور مقبض الباب النحاسي . ووراء النوافذ كانت الريح تصصف من جهة البحر ، وتضرب الزجاج بعبات الثلج والمطر .

انتهى المتكلم . واطرق بعض الجالسين برؤوسهم ، وطوقها البعض الآخر بيديه . وحرك الرئيس كفه الى الاعلى ووضعها على جيمسته الضلعاء ، ودون ملاحظة على قصاصة ورق ، وخط تحت كلمة ثلاثة خطوط حتى نفذ سن القلم في الورق ونقل القصاصة الى الشخص الثالث على يساره ، وهو رجل نحيل ذو شاربين اسودين ، وضع منصب .

قرا الرجل الثالث قصاصة الورق ، وابتسم تحت شاربين ، وكتب جوابا على نفس القصاصة . . .

لقى الرئيس نظرة متمهلة على النافذة ، حيث كانت الزوبعة الثلجية تزمجر وراها ، وقطع القصاصة الى مزق صغيرة . وتحدث بصوت اسم :

- الخطيب على حق . لا يوجد جيش ، ولا اطعمة . نحن ندور في خواء . والالمان يهاجمون ، وسيهاجمون . ان الخطيب على حق . . . فقاطعه اصوات :

- اهذه النهاية ؟ ما المخرج ؟ تستسلم ؟ نلجا الى العمل السري ؟

- ما المخرج ؟ (وقلص عينيه) . المخرج في القتال . القتال الشديد . في تحميم الالمان . اذا لم نحلهمه الآن فسنترجع الى موسكو . واذا استولى الالمان على موسكو فسنلجأ الى الاورال . ونؤسس جمهورية اورال - كوزنيتسك . فهناك الفحم والحديد والبروليتاريا المكافحة . وسنحلي عمال بتروغراد الى هناك . انه عمل جليل . واذا اقتضت الضرورة فسنترجع حتى الى كامتشاتكا . شي واحد يجب الا يغيب عن الاذهان : الحفاظ على طبيعة الطبقة العاملة ، وعدم السماح بتدميرها . سنحتل موسكو وبتروغراد من جديد . . . سنغير الوضع في الغرب عشرين مرة . ليس من تميم البلاشفة ان يدلو النوفهم ، ويتكسوا رؤوسهم . . .

وقفز من كرسيه العالى بحوية غير اعتيادية ، وجرى - ويدا
 في جيبه - الى الباب البلوى ، وفتح نصفه . فاجتهد نحوه وجوه
 عمال بتروغراد النخيلة المتفئضة المشروبة وغيومهم الملتهبة
 متطلعة اليه من المشى ، من الابخرة الكثيفة والضوء الساحب . . .
 رفع يده الكبيرة ، المملخة بالبحر :

- ايها الرفاق . ان الوطن الاشتراكي في خطر ! . .

٢

في اوائل الشتاء كان سيلان من الجموع البشرية يلتقيان في
 محطات ملتقى الخطوط الحديدية في جنوب روسيا . كان رجال
 المجتمع والعسكريون في ملابس مدنية ، واصحاب الأعمال ، ورجال
 الشرطة والملاكون من اصحاب الضياع المحروقة ، والمحتالون ،
 والممثلون والكتاب وموظفو الحكومة ، والراهنون الذين احسوا
 بعودة زمن فنيور كوبر ، وبعبارة مختصرة سكان العاصمة
 بالوانهم المختلفة الذين كانوا غارقين في الصخب والضوضاء الى حين
 غير بعيد ، كل هؤلاء الناس كانوا ينزلون من الشمال هاربين من
 الفتاعة الربعة الى المناطق الغنية في القمح في احواس الدون
 وكوبان وتيريك .

ومن الجنوب ، من الاتجاه المقابل كان جيش ما وراء
 القفاس ذو المليون رجل يزحف كالكتلة المتماسكة بأسلحته
 ومدافعه وقذائفه ، وعربات الملح والسكر والانسجة . وعند
 الملتقى كان يحدث زحام ينشط فيه جواسيس الحرس الابيض .
 وكان القوزاق يأتون من قراهم ليشتروا السلاح ، وكان الفلاحون
 الانغياء يبادلون الجيوب وشحم الخنزير بالقماش . وانتشر
 اللصوص والنشالون الذين كانوا يجندلون ضحاياهم في المكان الذي
 يسكنهم فيه ، على الخطوط الحديدية .
 وكانت حواجز الحماية التي تقيمها الفصائل الحمراء قليلة
 المفعول ، فقد كانت تفرق كمنسج المنكوت . هنا كانت
 سهوب وحرة ، وموطن للقوزاق الاحرار منذ اقدم العصور .

كان كل شيء هنا متزعزعا زائلا لا وضوح فيه . اليوم تجد الاغراب
 وقرقر الفلاحين يتغلبون ، ويتخبون سوفيتيا للنباب ، وغدا ترى
 القوزاق يفتون الشيوعيين بالسيف ، ويرسلون مبعوثا - ورسالة
 الجباية داخل قبعتهم - الى الاتمان كاليدين في نوفوتشيركاسك .
 اما السلطة السوفيتية فلا يعبا لها احد هنا .

ولكن السلطة السوفيتية اخذت في نهاية تشرين الثاني تظهر
 الجدية في بسطها . انشئت الفصائل الثورية الاولى - من الجارة
 والعمال وجنود الجبهة الذين بلا ماوى ينتقلون في قطارات شبه
 محطمة . وكانوا لا يضعون كثيرا للمقيادة ، ويعربدون ، ويقاثلون
 بشراسة ، الا انهم كانوا يتراجعون عند اقل احباط ، ويهددون في
 اجتماعات حاشدة بعقدونها بعد المعركة بتقطيع اوصال رؤساء
 الوحدات .

كانت مناطق الدون وكوبان حسب الخطة الموضوعه انذاك
 مطوقة من الجهات الاساسية الثلاث : كان سايلين يتحرك من
 الشمال الغربى فاصلا الدون عن اوكرانيا ، وسيفرس يزحف الى
 روستوف ونوفوتشيركاسك بنصف دائرة ، وفصائل بحارة
 البحر الاسود تضغط من نوفوروسيسك . وفي الداخل يجرى
 الاعداد لانفاضة في مناطق المصانع ومناجم الفحم .

في كانون الثاني اقتربت الفصائل الحمراء من تاغانرغ
 وروستوف ونوفوتشيركاسك وكان النزاع بين القوزاق والاغراب
 (النازحين من المدن الاخرى) لم يصل بعد في قرى منطقة الدون الى
 العدة التي تقتضى شهر السلاح . فقد كانت منطقة الدون ما تزال
 سائكة . وقد تخلت قوات الاتمان كاليدين المتفرقة عن الجبهة
 بلون قتال تحت ضغط قوات الحمر .

واصبح الحمر خطرا مميّتا . وثار العمال في تاغانرغ وطرخوا
 من المدينة فوج المتطوعين بامرأة كوتيفوف وحطمت فصيلته
 الرقيب بوديلكوف الحمراء آخر حامية للاتمان قرب
 نوفوتشيركاسك .

وعندئذ ارسل الاتمان كاليدين الى رؤساء منطقة الدون بندا
 اخبر بانس يطلب فيه ارسال متطوعين من القوزاق الى التشكيله
 العسكرية المتماسكة الوحيدة - الى جيش المتطوعين الذي كان

يشكله الجنرال كورنيلوف والجنرال الكسينيف والجنرال دينكين في روستوف . . . الا ان احدا لم يستجب لنداء الاتمان .

في ٢٩ كانون الثاني شكل كاليدين حكومة اتمانية في قصر نوفوتشيركاسك . وفي الصالة البيضاء جلس حول مائدة نصف دائرية الرؤساء الاربعة عشر لدوائر قوات قوزاق منطقة الدون ، وجنرالات مشهورون ، وممثلو «مركز موسكو لمكافحة الفوضوية والبلشفية» . وقال الاتمان الجهم الفارع ذو الشاربين المتدليين متحدثا بسكينة كثيفة :

- ايها السادة . ينبغي ان ابغلكم بان وضعنا ميثوس منه ، فان قوات البلاشفة تتعاطم من يوم لآخر . وكورنيلوف يسحب كل قواته من جبهتنا ، وقراره لا يقبل النقض . ولم يستجب غير مائة وسبعة واربعين شخصا على ندائي الى الدفاع عن منطقة الدون . واهالي مناطق الدون وكوبان ليسوا فقط لا يزيدوننا ، بل ويعادوننا . فما سبب ذلك ؟ كيف تسمى هذه الفطاعة المشيئة ؟ ان الطمع قد ادى بنا الى التهلكة . ولم يعد هناك شعور بالواجب ، ولا بالثرف . اقترح عليكم ، ايها السادة ، ان تتخلوا عن صلاحياتكم ، وتسلموا السلطة الى آخرين - وجلس ، ثم اضاف دون ان ينظر الى احد : - ايها السادة ، تكلموا باختصار . فالوقت لا يسمح . . .

فزعق عليه ميتروفان بوغايفسكي مساعد الاتمان «شقي الدون» مفتاحا :

- بعبارة اخرى انت تقترح تسليم السلطة الى البلاشفة ؟ . . . فرد الاتمان على ذلك بان الحكومة العسكرية في حل من ان تفعل ما تراه مناسبا ، وغادر الاجتماع في الحال ، وخرج الى مقره عبر باب جانبي وهو يخطط خطوات ثقيلة . نظر من خلال النافذة الى اشجار المنتزه الجرداء الشمالية ، والى السحب الثلجية المثيرة اليأس ونادى زوجته . لم ترد الزوجة على ندائه . فتابع توغله الى غرفة النوم حين كان الموقد يتوهج . خلع ستورته ، وصليب الرقبة . وللمرة الاخيرة حدق في الخاظة العسكرية المعلقة فوق السرير . وكانه ما يزال غير مصدق . كانت الاعلام الجرداء الصغيرة تحدق كثيفة بمنطقة الدون وسهوب كوبان . والابرة الوحيدة التي

تحمل علما ثلاثي الالوان كانت مغروزة في نقطة سوداء تسمى الى روستوف . اخرج الاتمان مسدس براونينغ الدقيق المفلطح من الجيب الخلفي في سرواله الازرق ذي الشرائط ، وسدد رصاصا الى قلبه .

وفي التاسع من شباط خرج الجنرال كورنيلوف بجيشه الصغير المؤلف من المتطوعين ، وجميعهم من الضباط وطلاب المدارس العسكرية وعربات الجنرالات والمدنيين من ذوي المقامات الرفيعة ، وغادر روستوف الى السهوب وراء الدون .

سار هذا الجنرال القصر القائمة الغضوب ذو الوجه الشبيه بوجه المغول ماشيا في مقدمة قواته وعلى كتفيه جراب الجنود . بينما كان الجنرال دينكين التعميس المصاب بالتهاب التصببات يردد متدثرا في دثار من جلد الثور في احد عربات الطابور .

مرت وراء عربة القطار السهوب البنية العارية من الثلج . وكانت ريح ندية فواحة بترية عند الذوبان تهب من فتحة النافذة المحطمة الزجاج . وكانت كاتيا تحدق في النافذة ، وقد غطت رأسها وصدورها بشال وبري ، معقود وراء ظهرها . وكان روتشين يوم غدقيا وقد ارتدى معطفا من معاطف الجنود ، وقبعة مزقة مدببة ، ومد ساقيه . كان القطار بطيئا في سيره . فكانت الاشجار الجرداء العالية ثمر مضخوفة الاغصان ثقلة بالاعشاش . وكانت عربان القيث تحوم فوقها كالسحب ، وتهتز على الاغصان . دنت كاتيا من النافذة . كانت عربان القيث تنعج نعيبا مرتاعا موحشا كئيبا يحدث لها في الربيع : تعييا كذلك الذي كانت كاتيا تسمعه في طفولتها البعيدة على حلول الربيع ، والضباب ، والعواصف الوردية الاولى .

كانت كاتيا وروتشين مسافرين الى الجنوب . ولكن الى اين ؟ الى روستوف ، الى نوفوتشيركاسك ، الى القرى القوزاقية على الدون ؟ الى حيث تمعد عقدة الحرب الاهلية . كان روتشين ينام متدلى الراس ، ووجهه غير الحليق ناهل ، والغضون العميقة تتكشف فيه المضموم بازدهاء . وشمرت كاتيا برهبة مباغتة ، فقد خيل اليها ان هذا الوجه الذي تراه لم يكن وجهه ، بل آخر غريبا

مدبب الأنف . . . حملت الريح عبر النافذة نعيب غربان القيقظ
ودمدت عجلات العربة على محولات السكك ، وقد ابطا القطار في
سيره . كان طابور من العربات يمتد في طريق موحلة يشق السهوب
في خط منحرف . احصنة هزيلة شعناء ، عربات ريفية ملطخة
بالوحل ، واناس ملتحنون غرباء مخيفون . نادت من روتشين في
نومه شهقة ميوحة معذبة ما بين النخير والانين . قمست كاتيا
وجبه بيديها المرتجتين :

- فاديم ، فاديم . . .

قطع شهيقه المخيف فجأة . وفتح عينيه الخاويتين من كل
تعبير .

- فر ، اللعنة . حملت حلما مزعجا . . .

توقف القطار . وانضمت الى نعيب غربان القيقظ اصوات ناس .
تراكضت تسوة يرتدين احذية رجالية طويلة ، ويحملن اكياسا
وتدافعن كاشفات عن ارداف بيضاء ، وهن يحاولن الانسلال الى
عربة بضائع . اندس في نافذة المقصورة قرب كاتيا تماما راس
اشعث ذو طائفة ملطخة ولحية ملتفة نامية حتى عينيه الصغيرتين .

- لعل لديكم رضاشة للبيع ؟

انبعثت آهة تعجب من الرف الاعلى ، وانقلب شخص بقوة
واجاب بصوت مرح :

- عندنا مدافع فقط . الرضاشات بعناها كلها .

قال فلاح فاغرا فمه الكبير بشكل دفع لحيته الى الجانبين
كالمكتسبة :

- لا حاجة بنا الى المدافع .

ودس نصف جسمه في النافذة ، واجال بصره داخل المقصورة
بمكر عسى ان يقنع على شيء يمكن شراؤه . قفز من الرف
الاعلى جندي ضخم . وجهه عريض ، وعينان زرقاوان متشبثتان ،
وراس حليق متناسق . شد حزامه على معطفه بحركة قوية .
- ما انت والقتال يا والد ! ان لك ان تستلقي على رف
الموقد .

قال الفلاح :

- ماذا صحيح . ولكن لا يمكن ان تستلقي على رف الموقد

في مثل هذه الايام ، ايها الجندي . لا احد يسمح لك بذلك - لانه
عليك ان تطعم نفسك والعائلة .

- بالنهب ؟

- كلام فارغ . . .

- ولكن ما حاجتك الى رضاشة ؟

- كيف اتول لك ؟

وفرك الفلاح انفه ، وحك شعر لحيته بيد معقدة ، وكل ذلك
ليخفي لمعان عينيه ، فقد كانتا تبتسمان بخبث .

- عاد ولدى من الجبهة . وقال لي : اذهب الى محطة القطار ،
واعرف سعر الرضاشة . يمكن ان اشتريها باربعة بودات * من
القمح . ها ؟

- انكم كولاك - قال الجندي وضحك - شياطين خبثاء ! كم
حصانا عندك ، يا اب ؟

- وهبتي الله ثمانية . اليس عندكم ما يباع ؟ اسلحة او
اشياء اخرى ؟ - ومرر عينيه مرة اخرى على الجالسين في المقصورة .
وقهارة اختفت الابتسامة وانطلقا لمعان عينيه ، واشاح وجهه وكأنما
لم يكن في المقصورة اناس بل روث ، وسار في وحل الرصيف ،
عازا سوطه .

قال الجندي متطلعا الى كاتيا بنظرة صريحة :

هل رأيته ؟ ثمانية احصنة ! واثننا عشر ولدا ربما . يركبهم
الخيول ويطلقهم في السهوب للتهب والسلب . اما هو فيستلقي على
رف الموقد ، ومؤخرته على القمح ، يجمع الاسلاب .

وادار الجندي بصره الى روتشين ، واذا بحاجبيه يرتفعان ،
ووجهه يتألق :

- فاديم بتروفيتش ، هذا انت ؟

القي روتشين على كاتيا نظرة خاطفة ، ولكن لم يجد مناصا من
ان يقول «مرحبا» ويمد يده . شد الجندي على يده بقوة ، وجلس
الى جانبه . رات كاتيا ان روتشين يبدو مرحبا . سمعته يقول بلا
حرارة :

* بود يساوي ١٦،٣٨ كيلوغراما . - المترجم .

- ها قد التقينا اذن . انا مسرور بان اراك في صحة طيبة ، يا الكسى ايفانوفيتش . . . اما انا فمتنكر ، كما ترانى .
حدثت كاتيا ان هذا الجندي هو الكسى كراسيلنيكوف المرافق السابق لروتشين . فقد حدثها فاديم بتروفيتش عنه غير مرة ، وكان يعتبره طرازا واثقا للفلاح الروسى الذكى الموهوب . كان غريبا ان يقابله روتشين الاّن بهذا البرود . ولكن كراسيلنيكوف قد ادرك السبب ، على ما يبدو . فقد اشعل سيكارة ، وهو يتسهم . وسأل بصوت خفيض ، ولهجة جدية :

- عقيلتك ؟

- نعم . فقد تزوجت . تعارفا . كاتيا ، هذا ملاكى الحارس الذى حدثتك عنه . . . قائلنا ، يا الكسى ايفانوفيتش . . . وما على - إلا ان امننك بالصلح المشين . . . صقور روسيا . . . ها - ها . . . وما انا انسل مع زوجتى الى الجنوب . . . اقرب الى الشمس . (ورثت الكلمة «الشمس» نينا جارحا فى اذنيه ، فغضن وجهه . ولم يبد كراسيلنيكوف اماره على عجب) . لم يبق شيء آخر . . . كافانا الوطن الشكور بحرية فى البطن . . . (وارتعد وكان قملة سرت فى جسمه كله) . خارجون عن القانون ، اعداء الشعب . . . هكذا . . .

- وضع سيادتك صعب !

وهز كراسيلنيكوف رأسه ، ونظر فى النافذة مقلصا عينيه . كان الناس يحتشدون فى حديقة امامية قرب المحطة للسكة الحديدية ذات سياج محطم .
- وضعت كروض رجل اجنبى . انا افهمك ، يا فاديم بتروفيتش . بينما الآخرون لا يفهمون . انت لا تعرف شعينا .

- ماذا تعنى يابنى لا اعرف ؟

هكذا . . . ولم تعرفه قط . وقد خدعت على الدوام .

- من خدعتنى ؟

- خدعتنا نحن ، الجنود ، الفلاحون . . . حين كنت تدير ظهرك تضحك ، يا فاديم بتروفيتش اخترع الاسياد هذمه الكلمات : شجاعة ، نكران الذات ، وحب القيصر والوطن ،

فجعلنا نحشو بها ادمغتنا فى الجيش . . . انا فلاح . مسافر الاّن الى اخى الجريح قعيد الفراش فى روستوف ، فقد اصابه احد الضباط برصاصه فى صدره . سآخذُه واعدود به الى القرية . . . ربما سنحرق او ربما سنحارب . . . سنذهب هناك ونزى . . . ولكن اذا حاربنا سنحارب برغبتنا ، وبدون طبول المعركة ، سنحارب بضرارة . . . لا ، يا فاديم بتروفيتش ، لا تسافر الى الجنوب ، فلن تجد هناك خيرا . . .

بلل روتشين شفتيه الجافتين ، وهو يحدث فيه بعينين لامعتين . كان كراسيلنيكوف يعمن النظر اكثر فاكثر فيما كان يجرى فى الحديقة الامامية ، حيث كان يتعالى هدير اصوات حائق . تسلق بعض الناس الأشجار ليصاهاوا من هناك .

- على العموم لن تستطيعوا مغالبة الشعب . هذا ما اقوله لك . انتم بروجازيون شانكس شان الاجانب وهذه الكلمة «البرجوازيون» خطيرة الاّن ، ويمكن تغييره بكلمة لصومس خيول . ان محاربا له ابهة مثل الجنرال كورنيلوف ، الذى علق بنفسه صليب غيورغى على صدرى ، فكر فى أن يجعل القوزاق يعاربون فى سبيل الجمعية التأسيسية ، فلم يحصل على نتيجة . الشعب لا يحتاج الى كلمات كهذه . اما كورنيلوف فيعرف الشعب كما يبدو . . . يشاع انه ينطلق الاّن معريدا فى سهوب كويان كالكلب فى قطع من الذئاب . . . ويقول الفلاحون : «البرجوازيون مستشرون لأن العنان لم يطلق لهم فى موسكو . . .» وقد نظفوا بناذقهم ودهنوها تحسبا لكل طارىء . لا ، يا فاديم بتروفيتش عد مع عقيلتك الى العاصمة . . . فهناك آمن لك من وجودك بين الفلاحين . . . انظر ماذا يفعلون . . . (وفجأة رفع صوته متجمعا) سيقتلونه الاّن . . .

يبدو ان الأمر قد اقترب من نهايته فى الحديقة الامامية . كان جنديان قصيران ركينان لهما وجهان متوحشان يقبضان بقوة على رجل خائر يرتدى سترة مزقة عند الصدر خيلت من بطانية فانيلة . كان وجه الرجل غير الحليق بانفه المتورم شاحبا شحوب الموت ، وقد سال خط من الدم من طرف شفتيه المرتجفتين . وكانت عيناه اللامعتان المبيضتان ترتابان امرأة شابة محتاجة كانت تارة تخلع منديلها السميك من رأسها ، وتارة تجلس هازة

تتورتها حولها ، وتارة تثب على الرجل الشاب ، وتقبض على شعره المتفوش ، وتصرخ بشعور شبيهة بالثلثذ :
- سرقتها . نشلها من تحت الثنوة ، الوغد ! اعد الغلوس .

وامسكتة من خديه ، وجمدت . افلت الرجل الشاب من اصابعها فجأة . الا ان الجنديين امسكاه به . زعقت المرأة . وفي تلك اللحظة ظهر في مكان الحادث رجل له رأس كبير شاقا طريقه بين الناس ، ونحى المرأة بكتفه ، ولطم الرجل الشاب على استناؤه لطمة قصيرة محكمة توجع منها الرجل ، وبرك في الحال . انحنى الرجل الجالس على اقرب شجرة ، وكان له كمان طويلان ، وصرخ : «قتل !» فاندفع الجمع في الحال . ثم صار الناس ينحنون على الجسد ، ويرفعون قاماتهم هازين قبضاتهم .

مرت نافذة المقصورة بجمهور الناس . تحرك القطار اخيرا ! واحست كاتيا بقصة صبيحة مكتومة تضغط على حلقها . تجهم روتشين بازدره . وهز كراسيلتيكوف رأسه قائلا :

- اي ، اي ، اي . يبدو انهم قتلوه بلا سبب وجيه . ان هؤلاء النسوة يشعلن النار في صدر من تنه . انهن اشد ضراوة من الرجال . لا احد يصدق بما حصل لهن خلال هذه السنوات الاربعة . عدنا من الحرب فرائناهن قد تغيرن تماما . الا ان لا تكاد تمسهن بسوط حتى تعود ان تنجو بنفسك . الفراق انقلبسن ديكة . . .

من الوصلة الاولى يبدو غير مفهوم السبب الذي جعل القائد الاعلى الكسييف والقائد الاعلى لافر كورنييلوف «متنظسي خلاص روسيا» يقودان حفنة من الضباط وطلاب المدارس العسكرية - خمسة آلاف شخص - مع مدفعية بانسة ، وبلا قذائف ولا ذخيرة ، ويسيران بهم جنوبا الى يكاترينودار ، في قلب القوات البلشفية التي طوقت عاصمة قوزاق كوبان بنصف دائرة .

كان من المتعذر ان يجد المرء في ذلك خطة استراتيجية محكمة . فقد خرج جيش المتطوعين من روستوف اضطرارا ، اذ لم يستطع الدفاع عنها ، واجتاحتها عاصفة الثورة في سهوب

كوبان . ولكن كان ثمة خطة سياسية برهن عليها الشهبان المذبان اعقباهما . فقد كان لا بد من ان يتورق القوزاق الاغتبياء على الاغراب الذين جاوا من المناطق الاخرى ، اي على جميع السكان المهدد الذين يعيشون عن طريق استنجاز اراضي القوزاق ولا يتمتعون بآية حقوق او امتيازات . وكان في كوبان مليون وستمائة الف غريب مقابل مليون واربعمائة الف من القوزاق .

كان لا بد ان يسعن الغرياء الى الاستحواذ على الارض والسلطة ، وان يشهر القوزاق السلاح للمحافظة على امتيازاتهم . كان الاغراب تحت قيادة البلاشفة وكان القوزاق في بادئ الامر غير راغبين في ان يخضعوا لآية سلطة . قما من شيء افضل من ان يكون اصحاب اطياف في قراهم ! ولكن حدث في شباط ان اقتحم المغامر القوزاق غولوبوف ومعه سبعة وعشرون قوزاقيا اجتماعا لهيئة اركان الميدان التابعة للاتمان نازاروف في نوفوتشيركاسك ، وصاح بالمجتمعين هازا مسدسه . بينما سدد قوزاقه بنادقهم اليهم : «انهضوا ، ايها الاوغاد ، فقد جاء الاتمان

السوقيبيتي غولوبوف ليتولى السلطة !» . وبالفعل قام اليوم التالي بقتل نازاروف وهيئة اركانه رميا بالرصاص في حرش خارج المدينة . (ولكي ياخذ بيده صولجان الاتمان) قام ايضا بقتل قرابة الفتي ضباط قوزاق ، واندفع في السهب ، وقبض على ستروغان بوغاييفسكي ، واخذ يتردد به على الاجتماعات داعيا الى ان تكون منطقة الدون حرة . والى مبايعته على الاتمانية ، وانتهى ذلك الى ان يقتل هو نفسه في اجتماع في قرية زايفسكايا - القوزاقية ، وباختصار وجد القوزاق انفسهم في شباط بسلا رئيس . وفضلا عن ذلك كانت روسيا الجزعة ، الجائعة ، الهالجة تضغط عليهم من الشمال .

كانت الخطة الاولى لقيادة جيش المتطوعين الذي جرد لما سمي فيما بعد «الحملة الجليدية» تستهدف رئاسة القوزاق بعد الاستقرار في يكاترينودار ، وتجنيد قوات قوزاقية نظامية ، وقطع النفقاس وحقول النفط في غورزني وباكو عن روسيا البلشفية ، وتأكيد الولا للحلفاء .

كان البحار سيميون كراسيلتيكوف (اخو الكسي

كرواسيلنيكوف) يردد مع آخرين في حقل محروث عند حافة منخفض غير بعيد عن سدة السكة الحديدية . وعلى مقربة منه كان أحد الجنود يحفر الأرض بالرشف عجولا كالخلد . ونحن تختبئ في الحفرة التي بتدقيته امامه ، والتفت اتي سيميون قائلا :

- تعمق في الأرض أكثر ، يا اخ .

حفر سيميون كتل الأرض اللزجة من تحته بصعوبة . وكان الرصاص ينز فوقه . رن الرشف عند ارتطامه بأجرة . شتم سيميون ، ونهض على ركبتيه ، وإذا به يقابجا بصدمة حارة تصيب صدره . ويشتم بالهم وانكفا على وجهه في الحفرة التي حفرها .

كانت تلك إحدى المعارك القصيرة العديدة التي كانت تسد الطريق امام جيش المتطوعين . كانت القوات الحمراء كبيرة العدد ، كما هي دائما . ولكنها كانت قادرة على القتال مثلما كانت قادرة على التراجع دون فاجعة كبيرة ، لأن النصر في الفترة الأولى من الحرب لم يكن الزاما لها . وكانوا رجال الفصائل الحمراء يقسرون تراجعهم اما بعنم صلاحية الموقع ، او بالمقاومة العنيدة لجيش المتطوعين . ولكن هذا لا يهمهم كثيرا فانهم سيوقفون في المرة القادمة . وهكذا جعلوا كورنيلوف يحمر .

اما بالنسبة لجيش المتطوعين فقد كانت كل معركة مراعاة على الموت او الحياة . فقد كان عليه ان ينتصر ، ويتحرك مع طوابير عرباته وجراحه في مسيرته ليوم واحد . ولم يكن ثمة مجال للتراجع . ولهذا كان رجال كورنيلوف يضعون في كل معركة كل ما لهم من قوة مستميتة ، وينتصرون . وهذا ما حصل في هذه المرة ايضا .

كان كورنيلوف يقف منفرج الساقين على كومة قش متبقية من العام الماضي على بعد نصف فرسخ من صفوف القابعين تحت نيران الرشاشات . رفع مرفقيه ، ونظر في منظف الميادين . كان كيسس الجفناص يهتز وراء ظهره . وقد فك ازرار معطفه الفرائي الأسود الموطر بالرماذي من الداخل . كان يشعر بالحر . وكان حنكه المغطى بشعر اشيب يبرز عتودا من تحت المنظار .

كان الملازم الاول دولينسكي مرافق القائد يقف في الاسفل مضغوطا على كومة القش . كان شابا واسع العينين اسود الحاجبين في معطفه من معاطف الضباط ، وطاقيه مدعوكة . كان يرنو من الاسفل الى حنك القائد الاشيب على طريقة الفتوة مبتلعا الغصاة التي تعترض حنجرتة من القلق ، وكانما تجمع كل الأمل في النجاة في هذا الشعر الاشيب العزيز والانساني كليا .

وكان دولينسكي يردد :

- انزل ، يا صاحب السيادة ، اتضرع اليك ان تنزل . فقد

يتقلونك .

ورأى شفق كورنيلوف الليليتين تتبادان وقمه يتفرج عن تكتميرة عصبية . معنى ذلك ان الأمور سيئة . كف دولينسكي عن النظر الى الجهة التي كان فيها البلاشفة بصرفهم الكثيفة يتعضون فوق السهب الاخضر البني ويتقلون كالمبي السواد . كانت قتابل الشراينيل تفور هناك معدة ازيزا معطوطا . ولكن كان يعرف جيدا ان القتابل قليلة ، قليلة للغاية . . . وكان مدفع الحمر من عيار ست بوصات يدوي وراء الجسر المحطم بدمدمة حادة . . . وتلعن رشاشة عجي . وكان الرصاص ينز كالنحل من مكان قريب فوق رأس القائد .

- يا صاحب السيادة ، اخشى ان تصاب . . .

انزل كورنيلوف المنظار . واتكمر وجهه المغولي الاسمر ذو العينين السوداوين الشبيبتين بعيني قفيرة ، وظهرت عليه الغضون ، ودار في مكانه على القش ، واستدار الى الخلف ، وانحنى بجذعه على حرسه الخاص ، وهم رهط من التركمانيين المترجلين النحاف المعكوفي الاجل كانوا يقفون وراء كومة القش بقبعاتهم الضخمة المستديرة المصنوعة من فراء الغنم ، وسترهم القفاسية المخططة بلون السلمون ، جامدين كالاصنام وهم يسكرون بمقاود شيول ضاوية .

اشارة كورنيلوف بزاواعة نحو النخض ، وأصدر امره بصوت حاد نابع . وثب التركمانيون الى خيولهم كالقطط . زعق اقدمهم بلغته مخرجا صوته من اقصى الحلق ، فاستل الجميع سيوفهم المعكوفة وانطلقوا في خيب ثم في عدو سريع عبر السهب

متجهين الى المنخفض ، حيث كان يلوح حقل محروث يتراعى وراء شريط سدة الخط الحديدي .

والآن كان سيميون كراسيلنيكوف يرتد على جنبه ، اذ كان ذلك اخف عليه . قبل ساعة من الزمن كان قويا محتدما ، اسما الان فهو ينثني اثينا واثينا متواصلا يصفق الدم بعصر . كان رفاته يطلقون النار عن يمينه وشماله كيفما اتفق . وكانت ابصارهم متجهة مثله الى المنحدر البني على ذلك الجانب من المنخفض ، حيث كان نحو خمسين فارسا ينطلقون كالسيل العرم . وكان ذلك هجوم احتياطي الخيالة .

عدا شخص من وراء كراسيلنيكوف ، وسقط على ركبتيه بالقرب منه ، وراح يصرخ باعلى صوته ملوحا بيسديه . كان الرجل يرتدى سترة جلدية سوداء . انتشر الخيالة في المنخفض ، وفضى هو يصرخ بهلجة غير عسكرية ، ولكنها على قدر هائل من الاصرار :

- اياكم ان تتراجعوا ، اياكم ان تتراجعوا !

وما هي قد ظهرت على هذا الجانب من المنخفض قبعات هائلة ، وانبعث عريل مبدود مثل عويل الريح ، انهم التركمانيون ينقضون . كانوا ينحون على اعراف خيولهم يستمرهم المخططة ، وينطلقون عبر الحقل المحروث اللزق ، حيث الثلج المتسحق ما يزال متبقيا في الاغادي . تطايرت كتل الطين من تحت سننايك الخيول . وصدرت صحبات ممظولة رهيبه من وجوه التركمانيين الصغيرة الملوحة المكشورة المشوربة تحت قبعات فراية عالية . وبان لمعان سيوفهم المعكوفة لمعان الماء . آه ، لن يصمد قتياننا امام هجوم الخيالة ! ذور المعاطف الرمادية ينهضون من الحقل المحروث . ويطلقون النار ، ويتراجعون . ثارت نائرة المفروض ذو السترة الجلدية ، فاقتمح وضرب شخصا على ظهره :

- اى الامام ، بالحراب !

ويشاهد كراسيلنيكوف رجلا من ذوى الستر المخططة ينقلب من فوق جواده ، كالمتظاهر ، وينظر الجواد مذعورا ، وينطلق هاربا . ويصدر من الصفوف صوت ارتطام حديد بعديد ، وكرات من دخان ، نار صفراء متولدة من انفجار قنبلة شراينيل . تخبط

الجلدي فاسكا الفكه ذو المعطف الفضفاض ، والقي بندقيته ، وغاض الدم منه ، وفغر فمه ، وهو ينظر الى الموت المتقحم . ظلوا يقتربون ، ويكبرون مع خيولهم . في مقدمتهم رجل بكساد حصانه يمس الارض ، وقد دلى بوزه كالكلب . رفع التركماني هامته ، ووقف على ركابه ، وقد تطايرت اذيال ردايه .

- وغدا !

قال كراسيلنيكوف ، ومد يده ليتناول بندقيته وتمتم :

- آه ، مفوضنا هالك .

اذ رأى التركماني ينطلق بحصانه نحو ذى السترة الجلدية :

- اطلق النار ، لللعنة !

ولم ير كراسيلنيكوف الا السيف المعكوف ينفذ في السترة

الجلدية ... وما هي الا لحظة حتى اقتحم سبيل الخيالة على الصف .

وانتشرت رائحة عرق الخيول الحار .

قطع التركمانيون الصف ، والتفوا على جناحيه ، ومن المنخفض

طلع الى الحقل المحروث الضباط بمعاطفهم السوداء والرمادية

الفاحة اللون وهم يتعمشرون والكتافيات تلتصق على اكتافهم .

- هورزرا !

واقترب القتال من سدة الخط الحديدي . وظل

كراسيلنيكوف وقتا طويلا لا يسمع غير اثنى المفوض المطعون

بالسيف . وكانت طلقات النار تتضال . وصمت المدافع ،

انحس كراسيلنيكوف عينيه ، وكان يحسن طيننا في راسه ، ووجعا

في صدره . عزت عليه نفسه ، ولم يرد ان يموت . استرخسى

جسمه المنقل على الارض . تذكر باشفاق زوجته ماتريونا . انها

ستضيع في الدنيا وحيدة . كانت تتنظره بشوق ، وتكتب اليه في

تأغاروغ بان يعود . ود لو تراه ماتريونا الآن ، وتضمد له

جرحه ، وتجلب له ما يشربه . ولطيف ان يكون ذلك مساء ...

ولينا خاترا ...

سمع كراسيلنيكوف سبابا مقدما ، واصواتا ليست باصوات

جماعته ، بل اصوات السادة فتح عينيه . فرأى اربعة قادمين .

واحد في سترة جرسية رمادية ، واثنان في معطفين من معاطف

الضباط ، والرابع في معطف طالب عليه كتافيتان من كتافيات

ضباط الصف . كانوا يتأبطون بتأدبهم كما يفعل الصيادون . قال
أحدهم :

- انظر . هذا بحار . اقض عليه ، الوغد .

- انه قد فطس . . . اما ذلك فهو حى .

وتوقفوا ناظرين الى فاسكا الفكه وهو راقد على الارض .
وفجأة زعق ذو السترة الجرسية بصوت صار :

- انهض !

ورفس فاسكا .

ورأى كراسيلنيكوف فاسكا ينهض ، وقد غطى الدم نصف
وجهه . صاح ذو السترة الجرسية موجها ضربة قصيرة الى
اسنائه :

- انهض ، باستعداد !

وفي الحال اعد الاربعة ينادقهم . فصاح فاسكا بصوت باك :

- ابق على حياتي ، يا عم .

قفز ذو السترة الجرسية مرتدا عنه ، وطعنه بالحربة
في بطنه مستنشقا الهواء بعدة . ثم استدار ومضى في سبيله .

وانحنى الآخرون على فاسكا ونزعوا عنه حذاه الطويل .

بعد ان قتل المتطوعون ابراهم ، واضرموا النار في ادارة
القرية عظة للأخرين ، تابعوا سيرهم نحو الجنوب ، التقط القوزاق

سيميون كراسيلنيكوف من العقل المحسوت . وحين غيب خط
الافق المسطح فوق السهوب البادى الاضراس عربات المتطوعين
عادوا مع زوجاتهم واطفالهم وماشيتهم الى قريتهم .

كان سيميون يخاف ان يموت بين الغرباء . كانت لديه
بعض النقود ، فطلب من احد الاشخاص ان يوصله في عربته الى

روستوف . ومن هذه المدينة كتب الى اخيه ينبؤه بأنه مجروح في
صدره جرحا بليغا ، وأنه يخاف ان تواتيه المنية بين الغرباء .

كما ابلغه عن رغبته في ان يرى ماتريونا . وبعث رسالته هذه مع
احد ابناء قريته .

كان سيميون حتى عام ١٩١٨ يخدم في اسطول البحر الاسود
بحارا على ظهر المدمرة «كيرتش» .

وكان هذا الاسطول تحت قيادة الاميرال كولتشاك . ان هذا

الرجل ، رغم ذكائه وثقافته ، وما ظننه حيا تزيها لروسيا لم يفهم
شيئا مما كان يحدث . وما كان ينبغي ان يحدث . كان يعرف
تكوينات واسلحة جميع اساطيل العالم ، ويستطيع دون خطأ ان
يحدد هوية اية سفينة حربية من خلال ضباب البحر ، وكان
احسن خبير في اللغام ، واحد المبادرين في رفع قدرة الاسطول
الروسي بعد كارثة تسوسيميا . ولكن لو ان احدا من الناس فتح
معه حديثا (حتى عام ١٩١٧) في السياسة اجاب بان السياسة لا
تهمه ، وانه لا يفهم شيئا فيها ، وانه يعتقد بان السياسة من
غنان الطلبة ، وطالبات الصفوف النسائية العليا من ذوات الهندام
المهمل واليهود .

كانت روسيا ، كما يتصورها ، بوراج تسحب وراءها شريطا
من الدخان (متها ما هو موجود ومنها ما يفترض ان يكون) ، وعلم
القدوس اندري يفرغ بعزة على بارجة الاميرال حاملة العلم بانا الذعر
في المانيا . وكان يحب مدخل وزارة الحربية الصارم الرصين (على
طراز الامبراطورية العظمى) بحاجبه المألوف له (الذي كان يقول
كلما ساعده لخلع معطفه : «الطقس سيئ» ، يسا الكسندر
فاسيليفيتش») ، مثلما كان يحب زملاءه الاتيين المهذبين ، والبحر
الودي المغلق لنادى الضباط . وكان الامبراطور رأس هذا النظام ،
وهذه التقاليد .

وكان كولتشاك دون شك يحب روسيا اخرى ، روسيا التي
كانت تصطف على سطوح البواخر - البخازة بطاقياتهم ذات
الاشرطة ، روسيا العريضة الوجه ، الملوحة البشرة ، المفتولة
العنق ، روسيا التي كانت ترتل صلاة المساء بصوت رائعة ،
عند انزال العلم في الغسق ، روسيا التي كانت تموت «بتكران
ذات» حين تؤمر بذلك . والقرم يمكن ان يفخر بها .

في عام ١٩١٧ انقسم كولتشاك بين الولاء للحكومة المؤقتة
دون تردد ، وصار يقود اسطول البحر الاسود ، وقد تحمل سقوط
رأس الامبراطورية بمرارة لاذعة ، كشيء لا مغيص عنه ، وقيل
على مضض ، بلجان البخازة ، والنظام الثوري ، كسل ذلك لان
الاسطول وروسيا كانا في حالة حرب مع الالمان . انه سيمضى في
الحرب حتى لسر بقى له زورق الغام واحد . وكان يحضر في

سياسيستيويول اجتماعات البحارة ، ويقول في السرد على الخطب المتحدة التي كان يلقيها الخطباء العمال من الوافدين والمحليين انه شخصيا ليس بحاجة الى مضيق الدردنيل او البوسفور لانه لا يملك ارضا ولا معامل ، ولا شيء له يصدره من روسيا ، ولكنه يطالب بالحرب ثم الحرب ثم الحرب ليس كاجير للبرجوازية (وهنا كانت تكسيرة الازدراء تشموه وجهه الحليق يحكنه القوى ، وقمه المرتخي ، وعينيه الغائرتين) - «ولكنني اقول ذلك كوطني روسي» .

وكان البحارة يضحكون . انه لشيء مريع . ان هؤلاء المخلصين الذين كانوا بالامس فقط مستعدين لان يتحموا النار والماء في سبيل الوطن وعلم القديس اندري كانوا يصرخون باميرالهم : «ليسقط ماجورو الامبريالية !» وكان كولتشاك ينطق بكلمتي «وطني روسي» بعنفوان وبايماء صريحة مستعدا بنفسه في تلك اللحظة لان يموت بنكران ذات ، بينما كان البحارة - وقد اغرامهم الشيطان - يستمعون الى الاميرال وكانهم يستمعون الى عدو يحاول ان يخدعهم يخبت .

وسمع سيميون كراسيلنيكوف في الاجتماعات بان «الوطنيين» ليسوا هم الذين يريدون استمرار الحرب ، بل اصحاب المصانع والملاكون الكبار الذين يبتزون من ورائها امورا طائلة ، وان الشعب ليس بحاجة الى هذه الحرب . وكان يقال ان الالمان هم مثلنا عمال وفلاحون ، وانهم يقاتلون لانهم مخدوعون من قبل برجوازيته المتعشمة للدماء ومن قبل المناشفة . وكان البحارة في الاجتماعات مثلثين بالكرامية الشديدة . وارتفعت الاصوات : كانوا يدعون الشعب الروسي منذ الف عام ! الف عام وهم يستصون دماءنا ! هؤلاء الملاكون والبرجوازيون ، الاوغاد ! وقد افتتحت العيون . بسبب ذلك عشنا اسوأ من عيشة السائمة . . . هذا هو العدو ! . . . وبالرغم من ان سيميون كان يحن الى استثمارته المهمة ، وزوجته الشابة ماتريونا فقد كان يشد على قبضته ، وهو يصفى الى الخطباء ، ويسكر ، كالجميع ، يخمر الثورة ، وينسى في هذا السكر حنينه الى بيته ، والى زوجته الحسنة ماتريونا . . .

وذات مرة قدم من بتروغراد داع بارز هو فاسيلي رويليف . وطرح هذا السؤال : «هل ستظلون ايها الاخوان ، حمقى الى ابد الابد ، تستثرون في الاجتماعات ؟ لقد باعكم كيريشنكي الى الراسماليين منذ زمن طويل . سيمهلونكم فترة اخرى تبجون فيها ، ومن بعدها يقطع اعداء الثورة رؤوسكم كلها . فالفقوا عنكم كولتشاك قبل ان يفوت الوقت ، وخذوا الاسطول بايديكم ، ايدي العمال والفلاحين . . .»

وفي اليوم التالي ارسلت برقية لاسلكية من على ظهر بارجة : انزعوا اسلحة جميع الضباط . اطلق بعض الضباط النار على انفسهم وسلم الآخرون اسلحتهم . وامر كولتشاك من على بارجة الاميرال «القديس غيورغي القاهر» بان يخرج الطاقم كله الى ظهر البارجة . ذهب البحارة الى فسحة الاصطفاط متشاكين ، وقف اميرالبحر كولتشاك على جسر القيادة بكامل برته الاستعراضية ، وصاح بصوت حاد عالي الثبرة :

- ايها البحارة . وقع بلاء لا يمكن دفعه : ان اعداء الشعب ، عمال الالمان السريين تزعوا اسلحة الضباط . واي احمق يمكن ان يتحدث جادا عن مؤامرة للضباط معادية للثورة ! وعلى العموم يجب القول انه لا توجد معاداة للثورة ، وليس لها وجود اصلا . وهنا اخذ الاميرال يذرع الجسر مقعقا بسيفه واخذ ينفس

عما في صدره :
- ان كل ما حدث اعتبره اهانة لشخصي بالدرجة الاولى ، باعتباري كبير الضباط ، وبالطبع لا يمكنني بعد هذا ولا ارغب في قيادة الاسطول ، وسأبرق في هذه اللحظة الى الحكومة ابلاغها بترك الاسطول ، والرجيل . يكفي هذا . . .

ورأى سيميون الاميرال يمسك سيفه الذهبي ، ويضغط عليه بكلتا يديه ، واخذ يفكه من حزامه ، تعصى السيف عليه فراح يجذبه ، بل ان شفتيه ارتقتا .
- ان كل ضابط شريف يجب ان يتصرف تصرفي هذا لو كان في مكانتي ! . . .

ورفع السيف ، والقاه في البحر . ولكن حتى هذه الاشارة التاريخية لم تترك اي اثر في البحارة .

ومنذ ذلك الحين حدثت في الاسطول احداث عنيفة . اشار
البارومتر الى قرب هبوب عاصفة . وكان البحارة الذين تربطهم
حياة البحر برابط قوى ، الرجال الاشداء الجسورون الغفاسى
الحركة ، الذين راوا المحيطات وارضى غريبة ، والذين هم اكثر
تطورا من الجنود الاعتياديين ، واكثر احسانا بالاحواز الذى لا
يمكن اجتيازه القائم بين مقصورة الضباط ، وعنابر البحارة ، لقد
كان هؤلاء البحارة مادة سريعة الاشتعال . وقد اسرعت الثورة لا
الاستفادة منهم منذ البداية . ودخل البحارة ممعان النضال بكل
ما لهم من حاس لا يتنضب واضرموا بانفسهم قوى العدو الذى كان
مترددا لم يستقر بعد على قرار ، مترقبا ، محتشدا ، ليستجمع
قواه .

ولم يعد لسيميون الوقت ليفكر في البيت ، وفي الزوجة . في
اكتوبر انتهت الكلمات الجميلة ، وبدات البندقية تقول كلمتها .
وكان العدو في كل خطوة ، والموت يكمن مترصدا في كل نظرة
خائفة وحاقدة ومتكئة . وكانت روسيا من بحر البلطيق حتى
المحيط الهادى ، ومن البحر الابيض حتى البحر الاسود في غلغيان
كبر حانق . القى سيميون بندقيته على كتفه ، وخرج ليحارب
«افغوان الثورة المضادة» .

شق روتشين وكاتيا طريقهما في محطة القطار من خلال الزحام
يحملان صرة وابريق شاي ، واجتازا مع السبيل البشرى نقاط
الحراسة المشاهرة العراب ، وصعدا في الشوارع الرئيسية في
روستوف .

قبل شهر ونصف فقط كانت صفوة المجتمع البطرسيبورغى
تتجول هنا متنقلة من مخزن الى مخزن . وكانت الارصفة تزدهى
بالوان طاقيات الحرس ، والمهمازات متصلصل ، واللغة الفرنسية
تسمع هنا وهناك ، والسيدات الانبقات يخفن انوفهن من القر في
الفراء الثمين . كان من طيشهن المفرط يتوقعن تمضية الشتاء هنا
فقط ليعدن في مستهل الصيف الى شققهن ودارتهن في بطرسبورغ ،
حيث الحجاب الرصينون والصالات ذوات العمد ، والابسطه
والمواقد الملتهبة . آه ، بطرسبورغ ! لا بد ان يمر كل شى

يسلم في آخر المطاف . والسيدات الانبقات لسن ملومات في شى
على الاطلاق .

واذا بكل شى ، قد اختفى ، وكان مغرج مسرح الكبير صفق
بيديه ليدير المنظر في مسرح دائرى . وتغير الديكور . اقتسرت
تسوارع روستوف ، وسمرت ابواب الحوانيت بالالواح ، هشم
الرصاصى زجاج واجهاتها . واخفت السيدات فراءهن ، وشددن
رؤوسهن بالمناديل . هرب جزء صغير من الضباط مع كورنيلوف ،
وتحول الآخرون بسرعة مسرحية الى برجوازيين صغار وادعين ،
والى ممثلين ، ومغنين في المقاصف ، ومعلمى رقص ، الى غير ذلك .
كانت ربيع شباط تدفع دوامات من القاذورات على الارصفة ...
قال روتشين :

— نعم ، تاخرنا .

كان يسير مطرق الراس . كان يخيل اليه ان جسده روسيا
يتحطم الى آلاف القطع . فان العقد الوحيد الذى كان يفظس
الامبراطورية قد انهار مزقا . ويصبح الشعب كالمقطع . ويختفى
التاريخ ، والماضى المجيد ، مثل الاغشية الضبابية الموضوععة
على ديكور . ويتكشف خواء اجرد محروق . . . قبور ، وقبور . . .
تلك نهاية روسيا . كان يحس بان شيئا في داخله كان يعتبره
راسغا ومعجورا لحياته ، قد تهشم الى كسر واخرة . . . كان يسير
متاخرا خطوة واحدة وراء كاتيا ، متعثرا اثناء سيره . «روستوف
سقطت ، وسيبقى على جيش كورنيلوف آخر قطعة متجولة من
روسيا ، ان لم يكن اليوم فغدا . . . وعندئذ لم تبق الا ان اوجه
رصاصا الى صدغى» .

سار الزوجان على غير هدى . تذكر روتشين عناوين بعض
رفاقه في الفرقة . ولكن لعلمهم هربوا او قتلوا رميا بالرصاص ؟
عندئذ لا عفر من الموت على قاعة الطريق . نظر الى كاتيا . كانت
تسير هادئة متواضعة في سموتتها القصيرة من الصوف السميك ،
ولفاحها اليرير . كان وجهها الحلو ذو العينين الرماديتين الواسعتين
يخلف بنقاء سريرة متحولا من اللافتات المخلوغة الى الواجبات
السودودة . وعلى طرفي ثغرها سبح ابتسامة . «الا تفهم كل هذه
الفتاعة ؟ ما هذه السماحة والغفران ؟»

كان رهط من الجنود العزل يقفون في ركن الشارع . كان احدهم ، وهو رجل مجرد الوجه ذو عين منتفخة من تجمع السدم حولها ، يتأبط رغيف خبز رمادي اللون كان بين الحين والآخر يقطع منه قطعة بحركة وائبة ، وبضعفها ببطء . قال له احد الجنود :

— لا يستطيع احد ان يفهم الوضع هنا . لمن السلطة ؟ للسوفييتات ام لغيرها ؟

وكان مع الجندي المتكلم صندوق خشبي ربط اليه حذاء ليادي مستهلك . فاجابه ماضع الخبز :

— السلطة بيد الرفيق بروينيتسكى . فاذهب للبحث عنه . سيصلنا قطارا نرحل عليه . والا فسنتقى العمر كله متعنتين في روستوف .

— من هو هذا ؟ ما هي رتبته ؟

— مقرب عسكري ، على ما يبدو

اقترب روتشين من الجنود ، وسأل عن احد العناوين . اجابه احدهم في غير ما ود :

— لسنا من اهالي المدينة .

وقال آخر :

— لم تصل الى الدون في الوقت المناسب ، ايها الضابط . اسرعت كاتيا في جذب زوجها من كفه ، فعبرا الشارع الى

الرصيف المقابل . كان شيخ في معطف مهلهل وبقعة قشية يجلس هناك على منسطة تحت شجرة جرداء . وكان الشيخ يرتعش وهو يضع ذقنه غير الحليق على عجرة عصاه ، وكانت قطرات من الدمع تسيل من عينيه المغمضتين على خديه الغائرين .

سرت وجفة في وجه كاتيا . عندئذ جذب روتشين كفيها قائلا :

— لنذهب ، لنذهب . لن نستطيع ان نرثي لكل الناس وظلا يضربان طويلا في المدينة القذرة الرثة حتى عشرا على رقم

البيت الذي ينشدانه ، دخلا فرأيا رجلا قصير القامة متين الرجلين له رأس اجرد كالبيضة . كان يرتدى صدازا مبطنا بلا كمين من صدارات الجنود قد غطاء القدر كليا . وكان يحمل قدرا ادار عنه

وجهه لثانته . كان ذلك هو تيتكين المقدم في الفوج الذي كان يكلم فيه روتشين . وضع القدر على الأرض ، وتماق مع قاديوم نيروفيتش . وصفق كعبيه ، وصافح كاتيا .

— ارى ، ارى ، ولا حاجة للكلام . ساجد لكما مكانا . فقط ان نسكنا في غرفة واحدة صغيرة . ولكن مقابل ذلك هناك امرأة ذات

ثلاثة اوجه ، ودريقة ، وزوجي من هذه المنطقة . . . في البداية عشنا هناك (واشار الى بيت اجري من طابقين) ثم انتقلنا الى هنا

و(اشار الى ملحق خشبي متداع) لتعيش حياة بروتليارية . وأنا ، كما ترى ، اغلى صيغ الاحدية . وقد سجلت اسمي في بورصة العمل

كماطل واذا لم يش الجيران بنا فسنتحمل على نحونا . . . نحن روس ، ونستطيع التعود .

وضحك كاشفا عن اسنان رائعة في فمه الكبير ، ثم قال بتفكير : «اجل ، تلك حالة الامور» ومسح صلعته براحة كفه ملطفا

ايها يصيغ الاحدية . ورحبت زوجته بالضيفين بصوت رخيم ، وكانت قصيرة مثله

ركينة البشيان ، الا ان عينيهما العسليتين نمتا عن شيء من عدم الارتفاع . ازل روتشين وكاتيا في حجرة صغيرة واطلة تسليخ ورق

حيطانها . وكان فيها ، بالفعل ، امرأة ذات ثلاثة اوجه في حالة سيئة اذير وجهها الى العائط عند احد الاركان ، ودريقة ، وسرير حديدي .

قال تيتكين :

— ادرك وجه المرأة الى العائط محافظة عليها ، فانها شيء ثمين . فقد ياتون للتفتيش فتتحول الى حطام . فانهم لا يتحملون

الخطر الى وجوههم - وضحك ثانية ، ومسح على صلعته - وعلى اية حال انا افهم بعض الشيء : التحطيم يجري على نطاق البلاد كلها ،

فماذا وجدوا امامهم امرأة ، حطموها واعدت زوجته المائدة بنظافة ، الا ان الشوكات كانت

صدلة ، والصحون غير سليمة . والظاهر انهما قد اخفيا ما لهما من متاع عزيز . اكل روتشين وكاتيا بلذة شديدة السمك المدخن

والخبز الابيض والبيض المقل مع شرائح دهن الخنزير . وانشفل تيتكين واشعا الطعام في صحنهما . بينما طوت ذراعيها السيكيتين تحت نهديا ، وراحت تشكو من الحياة :

- البشاعة في كل مكان ، والقمع . انه باختصار تعذيب .
 انما منذ اكثر من شهر لا اخرج من الفناء . . . ليتهم يطردون هؤلاء
 البلاشفة في القرب وقت . . . ماذا يقولون عن الوضع عندكم في
 العاصمة ؟ هل سيبيدونهم قريبا ؟
 قال تيتكين مرتبكا :

- امسكي لسانك . انك على مثل هذه الكلمات تفقدن رأسك
 في مثل هذه الايام . يا صوفيا ابقاوقنا .

- لن اسكت . فليقتلوني !
 وتدورت عينها صوفيا ابقاوقنا ، وشدت ذراعها على تحت
 يديها بقوة . وقالت :

- سيعود القيصر اليئا (وهزت يديها لزوجها) انت وحدك
 لا تبصر شيئا . . .

تعيس تيتكين باعتذار . وحين خرجت زوجها من الحجرة
 متضايقه تحدث همسا :

- لا تلقيا بالا اليها . انها انسانة طيبة القلب ، وربة بيت
 فاخترة ، الا ان الاحداث افقدتها توازنها . . . (ونظر في وجه كاتيا
 الذي احمر من الشئ ، والى روتشين الذي كان يلف سبكارة) آه ،

يا فاديم يتروفيتش ، ليس ذلك بالامر الهين . . . لا يجوز النظر
 في الاحداث دون تمحيص ولا دراية . . . يصادف ان التقى باناس ،
 وارى الكثير . . . اذهب غالبا الى بتايسك ، على الضفة الاخرى من

الدون . وغالبية السكان هناك من فقراء الفلاحين والعمال . . .
 فاي قطاع طرق هم ، يا فاديم يتروفيتش ؟ لا ، بل هم اناس مدلون
 ومهانون . . . وما اشد انتظارهم للسلطة السوفيتية : فقط الا

تعتبرني بلشعيا ، بحق الرب (ووضع على صدره يدين قصيرتين
 مشعرتين متضعبا ، وكأنه يعترف باعتذارا شديدا) ان الحكام
 المتكبرين القصار العقول هم الذين اعطوا روستوف للسلطة

السوفيتية . . . ليتك تعرف ماذا حدث عندنا ايام الاتمان
 كاليدين . . . كان ضباط الحرس الفاجرون المتعطرسون يذرعون

شارع سادوقايا بصقوف زاهية قائدين : «سنعيد اولئك الاوغاد
 الى السرايب» . واولئك الاوغاد هم كل الشعب الروسى . . . انه
 يقاوم ولا يريد ان يعيش في السرداب . في كانون الاول كنت في

نوفوتشير كامسك ، انت تذكر ان المحبس يقع في الشارع الرئيسي ،
 وقد بناه الاتمان بلاتوف ، على ما يقال ، في عهد الكسندر المبارك ،

و- و- مبنى صغير على النمط الامبراطورى . والاآن حين اغضض
 عيني ، يا فاديم يتروفيتش اتخيل درجات ذلك الرواق المخضبة
 بالدم . . . عندما مرت به سمعت صراخا رهيبا ، كالصراخ الذي

يطلقه انسان يعذب . . . وذلك في وضع النهيار ، وفي وسط
 عاصمة منطلقة الدون . . . واقترب فارى بالقرب من المحبس

جهورا وقوزاقا مترجلين . والجميع صامتون ينظرون الى جلد يجرى
 عند الاعمدة لتخويف الناس . كانوا يخرجون العمال المتعاطلين مع
 البلاشفة من المخفر اثنين اثنين ويجلدونهم . تصور ، لمجرد

التعاطف . يبتون اذرعهم على الاعمدة في الحال ، ويبدأ اربعة من
 القوزاق الاقوياء بالهباب ظهورهم واعجازهم بالسياط . فكان لا

يسمع غير صفير السياط ، والقضبان والبناطيل تتطاير مرقا ،
 واللحم قطعاً ، والدم يسح على الدرجات ، وكأنه دماء حيوانات
 ذبيحة . . . انا من الصعب ان اصدم ، ولكننى صدمت آنذاك :

ترامت صبيحة رهيبه جدا . . . لا يصرخ الناس مثلها لمجرد ألم
 جسمانى . . .

كان روتشين يصغى منكمس البصر ، واصابعه الممسكة
 بالسبكارة ترتجف . حك تيتكين باصبعه نقطة خردل لصقت على
 الخوان .

- وبالنتيجة فارق الاتمان الحياة ، وصفوة القوزاق الاعيان
 مدقونون في المنخفض خارج المدينة : الدم المسفوح على الدرجات
 طلب النار . سلطة الفقراء . . . انا شخصيا لا يهمنى ان اهل

صنع احذية او افعال شيئا آخر . . . لقد خرجت حيا من الحرب
 العالمية ، ولا اؤمن غير شئ واحد هو نفس الحياة ، واعذرتى على
 هذا التشبيه . لقد قرأت الكثير من الكتب وانسا في الخنادق ،

وتشابهى اديبة . اذن . . . (وهنا نظر في الباب ، وخفض صوته)
 سأتتبع بكل نظام للحياة اذا رايت اناسا سعداء . . . ارجو ان
 تفهمنى ، يا فاديم يتروفيتش ، انا لست بلشعيا . . . (ووضع

يديه على صدره مرة اخرى) . انا لا احتاج لنفسى الشئ الكثير ؛
 قطعة خبز ، قبضة تبغ ، وصحبة صميحية حقا . . . (وضحك

بارتياك) . لكن المسألة ان العمال متدمرون ، ودغ عنك عاملة الناس . . . هل سمعت بالفوض العسكرى الرقيقى بروينيتسكى ؟ نصيحتى ان تختفى حين ترى سيارته منطلقة . صعد بعد الاستيلاء على روستوف مباشرة . ما ان يسمع كلمة اعتراض واحدة حتى يصيح : «الرقيق لينين يقدرنى تقديرا عاليا ، وانا ابرق للرقيق لينين شخصيا . . .» وقد احاط نفسه بعناصر اجرامية . فى كل مكان تجرى المصادرة والزيمى بالخصاص . وفى الليالى يسلبون فى الشوارع ايا كان . انه يتصرف كقاطع طريق . . . فما هذا ؟ واين تذهب الاموال المصادرة ؟ . ان اللجنة الثورية لا تستطيع ان تفعل شيئا معه . تخاف . . . لا اعتقد انه رجل مبدئى . . . انه يلحق الضرر بالفضية البروليتارية اكثر . . . (الا ان تيتكين ادار ظهره شاعرا بانة قد تصادى فى الامر ونخر ، واخذ يضع يديه على صدره بلا كلمات هذه المرة) .

قال روتشين ببرود :
- انا لا افهمك ، ايها السيد المقدم . ان بروينيتسكى وامثاله هم السلطة السوفيتية الصرفة . . . ولا يمكن تبرير اعمالهم ، بل مكافحتهم غير ياخذين بالحياة . . . اسرع تيتكين يسال :
- لاجل من ؟

- لاجل روسيا العظيمة ، ايها السيد المقدم .
- وما هى هذه ؟ اعزنى على طرح السؤال بهذه الصورة الحقا . روسيا العظيمة اى مفهوم ؟ اريد تعبير ادق . مفهوم الطبقة العليا فى بتروغراد ؟ هذا واحد . . . ام بمفهوم فوج المشاة الذى خدمنا ، انت وانا فيه ، والذى هلك ببطولة على الاسلاك الشائكة ؟ ام بمفهوم مؤتمر التجاز فى موسكو ؟ هل تذكر كيف بكى رايوشينسكى * على روسيا العظيمة فى مسرح البلشوى ؟ وهذا ثالث مفهوم . ام بمفهوم العامل الذى يتفهم عظيمة روسيا فى الاعياد حين يكون فى خماره قدرة ؟ ام بمفهوم مائة مليون فلاح . . .

* من كبار اصحاب البنوك والمعامل الروس ومن زعماء الثورة
المخاداة البرجوازيين . - المتزوجم .

- اللعنة . . . (اسرعت كاتيا بالضبط على يد روتشين تحت المائدة) . اعزنى ، يا مقدم ، حتى الآن كنت اعرف ان روسيا هى ما تسمى بسدس الكرة الارضية ، ويسكنها شعب عاش تاريخا عظيما . . . ام لعل الامر ليس كذلك حسب رأى البلاشفة . . . ارجو المعذرة . . . (وابتسم ابتسامة مريرة من خلال الضيق المكبوت فى صدره بصعوبة) .

- انه كذلك بالضبط . . . وانا فخور . . . انا شخصيا احس بالرضا حين اقرأ تاريخ الدولة الروسية . الا ان المائة مليون فلاح لم يقرأوا هذه الكتب ، ولا يحسون بالفخر . وهم يريدون ان يكون لهم تاريخهم الخاص المتجه الى الايام المقبلة لا الايام الغابرة . . . تاريخ الرخاء . . . ولا مفر من ذلك . ثم ان لهم قادة هم البروليتاريا ، وهؤلاء يتقدمون اكثر من ذلك ، انهم يتجراون على خلق ما يسمى بالتاريخ العالمى . . . ولا مفر من ذلك ايضا . . . انت تهمنى بالبلشفية ، يا فاديسم بتروفيتش . . . وانا اتهم نفسى بالتفرج ، وتلك خلية باهظة ، ولكن عذرى هو فى التعب الشديد من حياة الخنادق ، وآمل ان اكون بمرور الوقت اكثر نشاطا ، عندئذ لا اظننى ساعترض على تهمتك هذه . . .

واباختصار انتفض تيتكين ، وقد تغطت صلته المحمرة بقطرات العرق . كان روتشين يلبس معطفه بسرعة ولكنه لم يفلح فى وضع ازراره فى مواضعها الصحيحة . وتقلص وجه كاتيا من الحزن الشديد ، وهى لا تفتأ تنقل بصرها بين زوجها وتيتكين . وقال روتشين بعد صمت متوتر :

- متأسف لفقدى رفيقا . شكرا جزيلا على حسن الضيافة . . . وخرج من الغرفة دون ان يمد يده للمصافحة . وفجأة قالت كاتيا التى كانت تلزم الصمت دائما ، قالت بصوت عال كالصراخ وهى شدت يديها :

- فاديسم ، ارجو ان تنتظر . . . (التفت راقعا حاجبيه) فاديسم ، لست الآن على حق . . . (وتوهجت وجنتاها) . لا يمكن ان يعيش الانسان بمثل هذا المزاج ، بمثل هذه الافكار . . . قال روتشين مهددا :

- هكذا ، اذن ، تهانى . . .

- فاديم ، انت لم تسألني عن رأيي قط ، وانا لم اطالبك ، ولم اتدخل في شؤونك . . . لقد وقتت بك . . . ولكن يجب ان تفهم ، يا عزيزي فاديم ، ان تفكيرك خاطئ . اردت ان اقول ذلك منذ زمان بعيد . . . يجب القيام بشيء آخر مختلف كلياً . . . ليس الامر الذي جئت من اجله الى هنا . . . يجب ان تفهم أولاً . . . وعندئذ فقط ، اذا كنت واثقاً (وهنا انزلت ذراعيها وظلت تشدهما تحت المائدة من الانفعال الشديد) . . . واذا كنت واثقاً من ان ضميرك يسمح لك ، في هذه الحال اقتل . . .

- كاتيا ، - صرخ بها صرخة حائقة وكانها من ضربة وجهت اليه - ارجو ان تصمتي !

- لا . . . انا اقول ذلك لانني احبك حبا جنونياً . . . يجب الاتتحول الى قاتل . . . يجب ، يجب . . .

ظل تبتكين بهمس وهو لا يجرؤ على ان يندفع اليها او اليه :
- اصدقائي ، اصدقائي . . . دعونا نتكلم ، نتفق .

ولكن الاتفاق كان مستحيلاً . فان كل ما تجتمع في نفس روتشين خلال الاشهر الاخيرة قد انفجر بكره عارم . كان واقفاً عند الباب ماداً عنقه ونظر الى كاتيا ، مكشراً عن اسنانه ، وفتح :

- امقتك ، ابي الشيطان ! . . . مع حيك . . . مستجديسناً لنفسك اساقلاً . . . بلشفيا . . . الى الشيطان ! . . .

وارسل من حنجرته نفس الصوت المؤلم الذي ارسله وهو في عربة القطار ، وبدا وكأنه موشك على اتيان اشياء قتيعة ، وان الجو مشحون بمصيبة . . . (حتى تحرك تبتكين ليحمي كاتيا) . الا ان روتشين قلص عينيه ببطء ، وخرج .

كان سيميون كراميلنيكوف جالساً على سرير المستشفى يستمع بتجهم الى اخيه الكسي . وكانت المؤونة التي ارسلتها له ماتريونا - دهن خنزير ، ولحم دجاج ، وفطائر - مستقرة عند مؤخرة السرير . ولم يكن سيميون ينظر اليها . كان نحيفاً ، ووجهه سقيماً غير حليق ، وشعره ملتقفاً من طول الرقاد ، وساقاه تحيلتين

وهما في السروال الداخلي من القماش الاصفر الرخيص ، كان ينقل بوضحة حمراء من يد الى يد . وكان اخوه الكسي المملوح البشرة الاشقر اللحية يعلس على مقعد بلا مسند ، فارجا ساقيه البلاستيقي جذائين جيدين ، وكان يقول بعذوبة ووقرة ، ولكن قلب سيميون يستوحش لكل كلمة يقولها :

- الفلاحون لهم خطهم الخاص ، وللعامل خطهم الآخر . . . دخل العمال في المنجم «فلوبوكويه» عندنا فامتلا بالماء ، وتعطلت الآلات ، وتشتت المهندسون . بينما لا بد ان يأكل الانسان ، صحيح ام لا ؟ دخل العمال جميعاً الى الحرس الاحمر . يعني ان مصالهم تقتضى تعميق الثورة . صحيح ام لا ؟ بينما المؤونة بالنسبة لنا نحن الفلاحين هي حرت مقدار عشر بوصات عميقاً في التربة ، وتعميقنا لها يعني الحرت والبز والحصد . هل قوتى صحيح ام لا ؟ اذا كنا نذهب جميعاً لنحارب فمن سيعمل اذن ؟ السمون ؟ نحمد الله اذا استطعن رعاية المواشي . بينما الارض تتطلب العناية والرعاية . ذلك هو الامر ، يا اخي . فلنستأجر الى ديارنا ، فانك ستستأجرى اسهل على غذائنا . اصبحت لنا ارض الآن . بينما لا يوجد من يعمل فيها . لا احد يحرت ، وبيسلك وبصدد . وكيف نستطيع ، ماتريونا وانا ، وجدنا ان نعمل ذلك كله ؟ عندنا الآن ثمانية عشر خنوصاً ، وقد وضعت عيئي على بقرة ثانية . وكل ذلك يحتاج الى ايد عاملة .

اخرج الكسي كيس التبغ من جيب معطفه العسكري . فهبز سيميون رأسه ممتعاً عن التدخين : «ما يزال الصدر موجعاً» . اخذ الكسي يقلب المؤونة ، وهو ماض في اقتناع اخيه بالذهاب للعيش في القرية ، وتناول فطيرة رقاوية منتفخة ، وتلمسها .

- كل هذه ، صرفت ماتريونا رطلاً كاملاً من السمنة .
قال سيميون :

- اسمع ، يا الكسي ايفانوفيتش . انا لا اعرف بما اجيبك . سأذهب معك الى القرية بسرور وبشما يتدمل الجرح . ولكن لن اعمل في الأرض ، فلا تأمل في ذلك .

- طيب ، ايمن ان اسال لماذا ؟

وكانه يسير في قفص ، وكانت هيئة الرئاسة تتألف من امرأة مدورة الوجه في معظم للجند ، وجندي كتيب السحنة ذى رأس مضمد يشاش قدر ، وعامل عجوز تحيل العود يرتدى نظارة وشابين في قميصين من القمصان العسكرية . وكان الرجل الشاحب يتحدث ملوحاً بقبضة واحنة وبحركة رتيبة ، بينما كانت يده الأخرى تقبض على قصاصات من الصحف .

همس ايغناث لكراسيلنيكوف :

- انه معلم وهو من اعضاء السوفييت عندنا . . .

- لا نستطيع ان نصمت . ولا يجب ان نصمت . . . أمن المعقول ان ما لدينا في المدينة هي السلطة السوفييتية التي حاربتم في سبيلها ؟ . . . عندنا تصنف . . . استبداد اسوأ من الاستبداد القيصرى . . . انهم يقتحمون البيوت على السكان الاثنيين . . . وعند بوط الظلام يتعدون الخروج الى الشارع بسبب السلب والنهب . . . والاطفال يقتلون في الشوارع . . .

وقد تحدثت بذلك في اللجنة التنفيذية ، وتحدثت في اللجنة الثورية . . . ان اعضاءها عاجزون . . . فان المفوض العسكرى يتستر على كل هذه الجرائم بسلطته المطلقة . . . ايها الرفاق . . . (وضرب على صدره ضربة عصبية بعزيمة القصاصات) . لماذا يقتلون الاطفال ؟ لتقتلوننا . . . ولكن لماذا تقتلون الاطفال ؟ . . . وغطى على كلماته الاخيرة مدير منفعل شمل القاعة كلها . كان

الجميع يتبادلون النظرات في رعب واضطراب . وجلس الخليلب الى متضدة الرئاسة ، وغطى وجهه المتعظم باوراق الجرائد . تلقت رئيس الجلسة ، وهو الجندي المضمد ، نحو الكواليس ، وقال :

- الكلام الآن للرفيق تريفونوف آمر الحرس الأحمر . . . صفقت القاعة كلها . صفقوا واذرعهم مرفوعة . وصاحت عدة

اصوات نسائية من اعماق القاعة : «نرجوك ايها الرفيق تريفونوف» . وصعق صوت عميق النبرة : «مرحى للرفيق تريفونوف !» . عند

ذاك انصر الكسى كراسيلنيكوف رجلاً مشقوق القامة فارعاً في ستره جلدية انيقة وحزامين متصالبين مما يلبسه الضباط يقف عند مرقع اوركسترا بالذات. مديراً ظهره للجمهور ، ثم استدار فجأة كالناض لبرواجه الصياحين والمصفقين ، مرد عينيه الجاحظتين

- لا اقدر ، يا اليوشا * (وتشنج فمه ، الا انه تغلب على ذلك بجهد) . افهمي ، لا اقدر . لن نستطيع ان انسى جرحى . . . لن نستطيع ان انسى جلدهم لرفقائى . . . (واشاح بوجهه نحو الناقد يمثل ذلك التشنج ونظر بعينين ضاربتين) . يجب ان تضع نفسك في موضعي . . . لا نستطيع ان افكر الا بهؤلاء الاوغاد . . . (وهمس بشئ ما ، ثم رفع صوته ضاغطاً البيضة الحمراء في قبضته) . لن اهدأ . . . ما دام هؤلاء الاوغاد يضتون دماغنا . . . لن اهدأ ! . .

هن الكسى ايفانوفيتش راسه ، ويصق على عقب السيارة بين اصبعيه ليطقتها ، وتلفت ليضعها في مكان ما ، ثم القاهها تحت السرير .

- حسناً ، يا سيميون ، قضيتك قضية تبيلة . . . لنسافر الى ديارنا لتتشافى . ولن الزمك البيت بالقوة .

ما كاد الكسى كراسيلنيكوف يخرج من المستشفى حتى التقى بابن قريته ايغناث ، من جنود الجبهة . توقف الاثنان ، وتبادلا التحية ، واستفسر كل واحد عن احوال صاحبه . فقال ايغناث انه يعمل سائقاً لدى اللجنة التنفيذية . ثم مضى يقول :

- لنذهب الى سينما «سوليل» ، ومنها الى بيتي لتبببببب عندى . القتال دائر هناك اليوم . هل سمعت عن المفوض بروينيتسكى ؟ لا اعرف كيف يجد منفذاً من الورطة اليوم . رجاله مستشربون ، والمدينة كلها تعمل من جراء تصرفاتهم . يوم أمس نهاراً قتلوا صبيين من تلامذة المدرسة في ذلك الركن لغير ما سبب . هجموا عليهما بالسيف . وكنت واقفاً هنا ، عند العمود ، فتشيتا . . .

ووصلا الى سينما «سوليل» وهما يتحدثان . كان الناس كثيرين . فشقا طريقهما ، ووقفاً قرب موقع الاوركسترا . كان رجل نحيل شاحب جداً محدودب الظهر له شعر طويل كثيف اسود يسير بغطى قصيرة امام متضدة هيئة الرئاسة على المسرح الصغير ،

* صيغة تدليل من الكسى . - المترجم .

الرماديتين الفاتحتين بلون الفولاذ على الوجوه بسخرية وبرود ،
واخذت اذرعهم تنزل في الحال ، وتتكلمش رؤوسهم بين الاكتاف ،
وصار الناس يكفون عن التصفيق . وسار بعضهم مسرعين نحو
المخرج وهم منحون .

ابتسم ذو العينين الفولاذيتين ابتسامة مزدرية . وعدل قراب
مستدسه بحركة قصيرة . كان له وجه ممثل طويل حليق حلقة جيدة .
استدار نحو المسرح ثانية ووضع مرفقيه على حاجز موقــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــع
الاوركسترا . لكز ايفانز جنب كراسيليتكوف .

- انه بروينيتسكي . نظرتة وحدها تكفي لكي تفزع .

خرج تريفونوف آمر الحرس الاحمر من وراء الكواليس يضرب
الارض بعذاليه الثقيلين . كان كم سترته من قماش الفئيلة مربوطا
بربطة حمراء . كان يمسك بين يديه عمرة مربوطة ايضا بربطة حمراء
في طرفها الاعلى . كان ركبن البنيان ، يادى الرصانة . اقترب من
حافة المسرح بيظه . وتحركت جلدة راسه الرمادية على جميعته
الحليقة . كان الظل العرتمى من جيئته يغطي عيئته . رفع ذراعه فساد
الصمت . اشار بكف نصف مضمومة الى بروينيتسكي الواقف الى
الاسفل .

- ايها الرفاق ، ها هو بروينيتسكي ، المفوض الحريسي
موجود هنا . وذلك شيء جيد جدا . فليجب هو على السؤال . واذا
لم يرد ان يجيب سنجبره على ذلك .

قال بروينيتسكي من الاسفل بتهديد .

- هكذا !

- نعم ، سنجبره . نحن سلطة العمال والفلاحين ، وهو
ملزوم على الخضوع لها . ان الوقت حرج الآن ولذا يصعب فهم كل
الامور دفعة واحدة . . . انه لزمين مضطرب . والوسخ ، كما هو
معروف ، يطوف دائما على السطح . . . ومن هنا نستدل ان محتالين
يلتصقون بالثورة . . .

صاح بروينيتسكي بلكنة بولونية واضحة :

- ماذا يعنى . . . سم . . . سم اسما .

- لا تستعجل ، سنصل الى الاسم ايضا . . . لقد نظفنا
مدينة روستوف من عصابات الحرس الابيض بدماء العمال

والفلاحين ، ايها الرفاق . . . وتقف السلطة السوفييتية في منطقة
الدون بقدمين راسختين . لماذا ترامت الاحتجاجات من كل جانب ؟
العمال قلقون ، ورجال الحرس الاحمر مستأوون . . . والجنود في
القطارات هائجون قائلين لسادا يتركوننا في سكك الحديد
خلال وقت طويل دون حركة ؟ . . . وقبل دقائق سمعنا هنا صوت
ممثل المثقفين (واشار بكفه الى الخطيب السابق) . فما هي
المسألة ؟ يبدو كل انسان غير راض عن السلطة السوفييتية ؟
يقولون : لماذا تنهبون ، لماذا تمسكرون ، لماذا تقتلون الاطفال ؟
بل ان الخطيب السابق طلب بنفسه ان يقتل . . . (ضحك)
وتصفيق هنا وهناك) . ايها الرفاق ، ان السلطة السوفييتية لا
تنهب ولا تقتل الاطفال بل الاوغاد الذين لصقوا بالسلطة
السوفييتية هم الذين ينهبون ويقتلون . . . وبذلك يقوضون ايمان
الناس بالسلطة السوفييتية ، وبذلك يضعون في ايدي اعدائنا
سلاحا لا يرحم . . . (توقف . صمت لا تسمح فيه انفاس مئات من
الناس) . ولهذا السبب اريد ان اسال على الرفيق
بروينيتسكي . . . هل يعلم هو بمقتل صبيين يوم امس ؟
صوت يارد من الاسفل :

- نعم ، اعلم .

- جيد جدا ، وهل يعلم بالسطوات الليلية ، والسكر
والعريضة في فندق «بالاس» ؟ هل يعلم اين تذهب الاموال
المصادرة ؟ اتسكت ، يا رفيق بروينيتسكي ؟ ليس عندك ما ترد
به . الاموال المصادرة تتفقا عصابة اللصوص على الخمرة . . .
(هدبر في القاعة . تريفونوف يرفح ذراعه) . وهناك شيء آخر قد
انضح لنا . . . لم يعطك احد السلطة في روستوف . ان اوراق
تفويضك مزيفة ، واستشهاداتك بوسكو ، ولا سميا بالرفيق لينين
كذب وقح . . .

كان بروينيتسكي يقف الان منتصب القامة . وقد سرت
رجفات في وجهه الوسيم الشاحب . وفتاة قفز جانبها الى حيث يقف
جندي شاب اشقر الشعر فاغر الفم ، وامسكه من معطفه . وصاح
بصوت رهيب مشيرا الى تريفونوف :

- ارم هذا الوغد !

تلوى وجه الشاب بشكل وحشي ، وجذب البندقية من ظهره . كان تريفونوف يقف بلا حراك مباعدا مساقبه ، الا ان رأسه انحني بحركة كحركة الثور . خرج عامل من وراء الكواليس ، ووقف بالقرب منه ، وحرك تراس البندقية على عجل . وفي الحال تبعه آخر ، وثالث حتى امتلا المسرح كله بسواد الستر والمعاطف ، وصلصلت الحراب المتصادمة . عندئذ صعد رئيس اللجنة فوق المنضدة ، وعدل الضمادة التي تهدلت على عينيه ، وصرخ بصوت مزكوم : - ايها الرفاق ، ارجو الا تنثروا الذعر ، لم يحدث شيء غير متوقع . اغفلوا الباب ، يا مَنْ في الخلف . الرفيق تريفونوف في امان تام . الكلام للرفيق بروينيتسكي للرد .
الا ان بروينيتسكي اختفى . وكان الجندي الاشقر وحده ما يزال في وقتفه بالقرب من مكان الاوركسترا فاغرا قمه بدهشة .

٣

لقى جيش المتطوعين مقاومة جديده جدا بالقرب من قرية كورينفسكايا . ومع ذلك فقد استولى على القرية بخسائر كبيرة ، وهنا صار مؤكدا ما كان يخفى عن الجيش ، ويخشي منه اكثر من اي شيء آخر على الاطلاق : قبل عدة ايام استسلمت يكاترينودار عاصمة منطقة كوربان للبلاشفة بلا قتال ، وهي التي كانت هدف الحملة ، والامل في الراحة ، وقاعدة للاستمرار في النضال . وهرب المتطوعون من كوربان تحت امره بوكروفسكي واتمان كوربان والحكومة المحلية نفسها الى جهة مجهولة . وهكذا وجد الجيش نفسه فجأة في حيص ببص ، وهو على بعد مسيرة ثلاثة ايام من الهدف .

كما ان الامل في ان تلقاه كوربان باستبشار كان خادعا ايضا . والظاهر ان القوزاق قرروا معرفة ما يحدث دون معونة جيش المتطوعين . كانت الضياع على طريق الجيش مهجورة ، في كل قرية كمين بالانتظار ، وفوق كل قمة تل رشاشة في الحراسة . فعلم يمكن ان يعول جيش المتطوعين ؟ على قوزاق اكوبان

المنحدرين من اوكرانيا ، ام على الجركس الذين شبروا على العداوة القديمة نحو الروس ، ام على قسائل جيش القفقاس التي لسزقت باراضي كوربان الغنية وقد راح كلهم يقنون فجأة في جوقه واحدة مع الضباط ذوي الكفائيات المذهبة وطلاب المدارس العسكرية اليافعين : «مرحى لكوريلسوف ، ومرحى للوطن ، مرحى لابمان !» ولكن هذه الصيغة المستهلكة العديبة النفع والمطموسة كالعملة القيصرية هي كل ما كان جيش المتطوعين يستطيع تقديمه للقرى القوزاقية الغنية وقد تيقظت لتتسالم «الم يعن الوقت لتعلنن جمهوريتنا القوزاقية المستقلة ؟» وللاغراب الذين لجأوا من المناطق الأخرى الملتفتين حول الرايات الحمراء ليناضلوا من أجل المساواة في الحقوق في اراضي كوربان والذون ، وصيد الاسماك ، وفي سبيل السلطة السوفييتية ...

حقا ان جيش المتطوعين كان يأخذ معه في طابوره الداعية الشهير البحار فيودور باتكين الاعوج القدم ، الداكن البشرة يروبه من القماش المشمع ، وطاقيته المزينة باشرطة القديس غيورغي . وقد حاول الضباط اكثر من مرة ان يقتلوه ، أثناء المسيرة كيهودي حقير وابن كلب احمر . الا ان كوريلوف نفسه كان يحميه وهو يظن ان البحار المشهور باتكين يسد كليا نواقص الجيش في حقل الايدولوجية . وفي الحالات التي كان قائد الجيش يضطر فيها للكلام امام الناس (في القرى القوزاقية) كان يترك باتكين يتحدث قبله ، فكان هذا يثبت للأهالي بمكر وذكاء ان كوريلوف يدافع عن الثورة ، وان البلاشفة ، على العكس من ذلك ، اعداء للثورة مباعون للامان .

وما كان من الممكن ان يستسلم الجيش لان الاسرى لم يكونوا يأخذون في ذلك الوقت . وكان التفرق يعنى السموت واحدا واحدا . وكانت هناك خطة لاجتياز سهوب استراخان الى نهر الفولغا ، والخروج الى سيبيريا . الا ان كوريلوف اصر على المضي في الزحف على يكاترينودار للاستيلاء على هذه المدينة عنوة . تحول الجيش من قرية كورينفسكايا جنوبا ، وبعد معارك باهظة عبر نهر كوربان عند قرية اوست - لابنسكايا ، وكان النهر في ذلك الفصل من العام فياضا ومائجا . وسار الجيش دون توقف مخرجرا معه

ظابورا من العربات عليها عدد كبير من الجرحى . الا انه كان مشير
الرهب وشديد الضراوة حتى ان طوق القوات الحمراء كان يتنك في
كل مرة تازكا اياه يمر .

سار الجيش باتجاه مايكوب مخادعا العدو ، الا انه حين وصل
الى قرية فيليبوفسكايا عبر نهر بيلابا ، وتحول في زاوية حادة
نحو الغرب في مؤخرة يكاترينودار . وهنا ، وراء نهر بيلابا ، وفي
قع ضيق احاطت به قوات كبيرة من قوات الحمر . وكان الوضع
يبدو ميئوسا . وزعت البنادق على الجرحى جراحا خفيفة ، المحمولين
على العربات . . . استمر القتال النهار بطوله . كان الحمر يطلقون من
المدافع من المرتفعات ، ويرشقون بالرشاشات المعابر والعربات
ولا يدعون الصفوف تنهض . ولكن حين هبط الظلام ، وتحول جيش
المتطوعين الممزق الى الهجوم المضاد بجهد أكبر مستميت تراجع
الحمر من المرتفعات ، وجعلوا قوات كورنيلوف تمر نحو الغرب .
ووقع ما وقع من قبل ايضا ، انتصرت الخبرة العسكرية ، والادراك
بان الحياة تتوقف على نتيجة هذه المعركة .

كانت القسرى تشتعل في كل مكان في الليل . وقد صاه
الطقس ، وهبت ريح الشمال ، وتلبدت السماء بسحب ثقيلة
داكنة . وبدأ المطر يسقط ، وظل يهطل طوال الليل غزيرا مندرا .
وفي الخامس عشر من آذار وجد الجيش امامه ، وهو يزحف باتجاه
قرية نوفو - دميتروفسكايا مسافات واسعة من المياه والسوحل
السائل . وكانت التلال القليلة المخططة بالدروب تغيب في الضباب
الذي يفتقرش الأرض . خاض الرجال في الماء الى الركب ، وغطست
العربات وعجلات المدافع حتى محاورها . وسقط ثلج رطب
وهبت عاصفة جامحة لا مثيل لها .

خرج روتشين من عربة البضائع ، وعدل البندقية وكيس
متاعه . وتلفت فيما حوله . كانت جماعات من جنود فوج
فارنافسكي تتجش على السكك الحديدية . . . بعضهم في معاطف
عسكرية والبعض الآخر في فروات ، وآخرون في معاطف مدنية

مجزمة بحبال . والكثيرون منهم يحملون احزمة من عتاد الرشاشات
وقنابل يدوية ومسدسات . بعضهم يضع على راسه عموات لها
رؤوس مستدقة ، والبعض الآخر طراير مخروطية ، وقربق ثالث
قبعات عالية مصادرة من المضاربين . وكانت الاحذية الطويلة
الممزقة ، والاحذية اللبادية ، والارجل الملفوفة بالخرق تعجن
الطين اللزج . كان الجنود يصرخون ، وحرابهم تتصادم : «الى
الاجتماع العاشد ، يا اولاد ! سنحلل الامر بانفسنا ! كفاهم
سوقنا الى المجزرة !»

كان الاضطراب بسبب الشائعات المبالغ فيها ، كما هو
الامر دائما في مثل هذه الاحوال ، عن اندحار الوحدات الحمراء قرب
قرية فيليبوفسكايا : «عند كورنيلوف خمسون الفا من الضباط ،
ويجردون ضده فوجنا وحده لكي يبيده . . . خيانة ، يا اولاد !
اسكروا بالامر !»

وتراكض الجنود الى فناء المحطة المنتهى وراها تماما
بالسهب المغطى بترقاب داكن من المطر . كانت ابواب عربات
البضائع تفرق فرقة شديدة ، حين كان رجال متوحشون يقفزون
منها وينادفهم على ظهورهم ، ويتراكضون الى حيث كانت الريح
تصر فوق جموع الناس في اشجار الحور المخروطية التي ما تزال
جردها ، وكانت غربان القيط تعوم فوق قممها ناعبة . صععد
الخطباء على السطوح الشسبي لأحد مخازن الثلج ، ورفعوا
قبضاتهم امامهم ، وضاحوا : «يا رفاق ، لماذا يتغلب علينا
قطاع الطرق الكورنيلوفيون ؟ لماذا سمحوا لجيش المتطوعين
بالوصول الى يكاترينودار ؟ . . . ها هو خطة جيشنا ؟ . . . دعوا
الامر ليحيب .»

وهذر حشد من الف رجل «ليحيب !» بقوة جعلت غربان القيط
تحلق عاليا تحت السحب . وراى روتشين ، وهو واقف عند
مدخل المحطة ، الامر يتحرك بقبعته المدعوكسة وسط الرؤوس
المضطربة متجها نحو خزائن الثلج . كان وجهه العظمى الحليق
بجصره الجامد شاحبا حازما . فعرف روتشين ان الامر هو صاحبه
القديم سيرغى ميرغينغيتش سابوچكوف .

في فترة ما قبل الحرب كان سابوجكوف يتكلم باسم جماعة «ناسا المستقبل» مطلقا الاخلاقية القديمة . وظهر في المجتمع البرجوازي راسنا على خديه رسوما غاموية ، وسترته من الفانيلا الخضراء الزاهية . واثناء الحرب طرّح في سلاح الفرسان ، واشتهر كمستطلع ومبارز جري ، وحصل على رتبة ملازم . وبعد ذلك ، وفي بداية عام ١٩١٧ اعتقل فجأة ، وارسل الى بتروغراد ، وحكم عليه بالاعدام رميا بالرصاص لانضمامه الى منظمة سرية . ثم اطلقت ثورة شباط سراخه فكان لفترة معينة يتكلم عن كتلة الفوضويين في سوفيت نواب الجنود . ثم اختفى ليظهر ثانية في تشرين الثاني مشاركا في الاستيلاء على قصر الشتاء . وكان من اوائل الضباط النظاميين الذين انخرطوا في الحرس الاحمر .

ها هو الآن قد صعد الى السطح العشبي منزلقا ، ولما استقر هناك حشر ابهامي يديه تحت حزامه ، وبعد جلدته رقبته ونظر الى الرؤوس العديدة المتطلعة اليه . وايتدر قائلا بسخرية وبصوت لم يرفعه كثيرا بل جعله مسموعا في كل مكان :

- اتريدون ان تعرفوا ، يا شياطين الصراخ ، لماذا يتغلب علينا الاوغاد ذوو الكتافيات المذهبة ؟ بسبب هذا الصراخ والغرض . يالاضافة الى انكم لا تطيعون اوامر القيادة العليا ، وترفعون عقيراتكم بالصباح بكل ذريعة ... بل وهناك من بينكم ممن يشير الرعب ! .. من قال لكم اننا اندحرنا عند قرية فيليبوفسكايا ؟ من قال لكم انهم مروا كورنيولوف الى يكاترينودار بخيانة ؟ انت الذي قلت ؟ ودفع ذراعه الحاملة بالسدس مشيرا بها الى شخص من الواقفين في الاسفل) . تعال الى ... لتحدث ... اذن ، لم تقل انت ... (ودس مسدسه في جيبه بلا رغبة) ، تحسبوني احمق وطفلا غريزا ، ولا افهم لماذا ترزعقون ... اتريدون ان اقول لكم لماذا ؟ ان فيدكا ايفولغين اولا ، وبافلينكوف ثانيا ، وتيريتي دوليا ثالثا قد تلقوا بالاتصال المباشر نيا يقول ان في محطة افيبسكايا صهاريج الكحول ... (ضحك) . وهم روتشين قد تلوى بايتسامه هازنسة : «تخلص الحتال» . من الواضح ان هؤلاء الضباط متلهفون للقتال . وواضح ان القائد العام خائن لأن صهاريج الكحول قد يستولى

عليها ضباط كورنيولوف فجأة ... وتلك مصيبة ستحل بالجمهورية ... (عاصفة من الضحك جعلت غربان القيث تصعد عاليا في السماء) . انا اعتبر الحادث قد انتهى ، ايها الرفاق ... وما انا اقرا آخر بلاغ حربي .

اخرج سابوجكوف اوراقا ، وشرع يقرأها بصوت عال . استدار روتشين ، وخرج خلال المحطة الى الرصيف ، وجلس على مسطبة مكسورة ، واخذ يلف له سيكارة من التبغ البقي . قبل اسبوع سجل (يهوية مزيفة) في وحدة من الحرس الاحمر ذاهبة الى الجبهة . وقد سات علاقته مع كاتيا . بعد الحديث العصيب الذي جرى حول مائدة الشاي عند تيتكين قضى روتشين بقية النهار يجوب المدينة ، وفي الليل عاد الى كاتيا ، ولم ينظر في وجهها مخافا ان يظهر علامة تأثر ، وقال بصراحة :

- امكنتي هنا شهرا او شهرين ، لا ادري ... آمل ان تكوني معه على اتفاق تام في الآراء ... وفي اول فرصة سادفع له على اقامتك . ولكن اله عليك بان تخبريه فورا ان اقامتك عنده لن تكون بلا مقابل ، لن تكون احسانا منه ... ساغيب لفترة من الوقت .

سالت كاتيا محررة شفتيها حركة ضعيفة :

- الى الجبهة ؟

- هذا ما يخصني وحدي تماما ...

اصبحت علاقته مع كاتيا رديئة للغاية . في يوم من ايام تموز من السنة الماضية ، وعلى رصيف نهر النيفا الذي كانت تعكس صفحته الضفيلة معالم الجسور واعمدة جزيرة فاسيليفسكي - في ذلك اليوم الشمس البعيد - قال روتشين لكاتيا التي كانت جالسة على مصطبة غرائثية قرب الماء : «ستنتهي الحروب ، وتمر الثورات ، وتزول ممالك ، ويبقى قلبك وحده خالدا ...» . وهذا هما بقايا عدوين في فناء قذر ... ولم تكن كاتيا تستحق هذه الهذابة ... «ولكن ، اللعنة ، حين تكون روسيا كلها منتهية ...» .

كانت خطة روتشين بسيطة : الوصول في وحدة للحرس الاحمر الى منطقة المعارك ضد جيش المتلوعين ، والتسلل اليه في اول فرصة سائحة . فقد كان الجنرال ماركوف والعقيد

نيجينستيف من ضباط ذلك الجيش يعرفانه شخصيا ، وكان في
امكانه ان يخبرهما بمعلومات قيمة عن مواقع واوضاع الوحدات
الحمراء . ولكن الاهم من ذلك ان يشعر بانّه بين جماعته ، وان
يلقى عن وجهه قناعه اللعين ، ويتنفس اخيرا بملء رئتيه ، ويصمت
مع جمع الرصاص نفثة كرهه الدامية في وجهه اولئك «الحققي
المخدوعين ، والمتوحشين المستهترين» . . .

- احسن الامر التعبير بشأن الكحول . اننا تصمخب كثيرا ،
وقد قمنا بضجة هائلة ، ونحن نفكر في الامر نجد انفسنا في ورطة
من التفكير .

قال شخص زرى الهيئة في فروة خروف برز صوفيا مسن
تحت ابطه وعلى ظهره ، وجلس على المصطبة قسرب روتشين .
وطلب منه تبغا قائلا :

- انا ادخن الغليون كالعاجز ، يا صاحبي . (ادار وجهه
المالكر المشوشين بلحيته الناصلة وعينيه المتقلصتين) . كنت
اشتغل في مخازن الحبوب عند تجار في نيجني نوفغورود ، فتعودت
عند ذاك على تدخين الغليون . انا احارب منذ عام ١٩١٤ ، ولا
استطيع ان اتوقف . تلك هي مشكلتي ، يا اخ ، محارب مزمن ،
والله العظيم .

قال روتشين في غير ما رغبة :

- آن لك ان تستريح .

- استريح ؟ واين هذه الراحة ؟ انت ، يا فتى ، من الاغنياء .
كما ترى . لا ، لن اتسرك القتال . لقد شبعنت مصائب مسن
البرجوازيين ! انا اشتغل عند الاغنياء منذ ان كان عمري سبعة
عشر عاما ، وطوال ذلك الوقت وانا حارس . ترقيت الى سائق
عربة عند تجار آل فاسيتكوف - ربما سمعت بهم - ولكن اضرت
بزواج رمادي من خيولهم ، من الخيول الاصلية ، بان تركتهما خطأ
يعبان ماء كثيرا . نعم ، ارتكبت خطأ ، فطردوني بالطبع . ولدى
قتل ، وزوجتي توفيت منذ زمان . والان حدثني في سبيل مسن
احارب : في سبيل السوفييتات ام في سبيل البرجوازيين ؟ انسا
رجيل ذو معدة مملوطة ، وحذائي هذا قد اخذته من احد الموتى
في الاسبوع الماضي . هذا ، لا تفدذ اليه الرطوبة . شي ممتاز . وكل

شخلى ان اطلق النار ، وبعد المعركة اجلس قرب العرجل . اننا
نعمل منذ الآن من اجل قضيتنا نحن ، يا فتى . والفقر ، المساكين ،
والذين من حظههم البؤس والشقاء هم الذين يؤلفون جيشنا . اما
الجمعية التأسيسية فقد رايت من انتخبوا اليها في نيجني
نوفغورود - المثقفين والشيوخ القساء .

- تعلمت تدوير لسانك بهارة .

قال روتشين ، وقد اخذتس نظارة الى محدته . وكان يدعي
كفاشين . وكان قد قضى معه اسبوعا كاملا في عربة قطار واحدة
ينام الى جانبه على الرف العلوي . وكان ركاب العربة يدعون ،
كفاشين «الجد» . وكان يجلس ومعه جريدة اينما امكنه ذلك .
يضع على انفه الشاحل نظارة انفية ذهبية ، ويقرأ بصوت خفيض .
قال بروي حكايتها : «حصلت على هذه النظارة الانفية في سامارا
بموجب قرار تملك . وكان الصليونير باشكويوف قد اوصى بها
لنفسه . ولكن انا الذي استخدمتها» .

ورد على روتشين :

- صحيح ما قلته . اننى تعلمت تدوير لسانى . لم افوت
اجتماعا واحدا . وكلما دخلت محطة قطار قرأت كل المراسيم
والقرارات وكل شيء . فالكلام هو قوتنا البروليتارية . فماذا كنا
نساوى لو كنا صامتين وبلا وعى ؟ مجرد سمكة صغيرة !

واخرج الجريدة ، ونشرها بعناية ، ووضع نظارته الانفية
برزاة ، واخذ يقرأ المقال الافتتاحي ناطقا بالكلمات وكانها
كثبت بلغة غير روسية .

«... تذكروا انكم تقاطلون في سبيل سعادة جميع الشعب
والمستعمرين . انتم تقاطلون في سبيل الحق في بناء حياة عادلة ،
حياة افضل...»

استدار روتشين ولم يلحظ ان كفاشين كان ينطق بهذه
الكلمات ، وهو يتفرس فيه من فوق نظارته الانفية . قال كفاشين
بصوت مختلف تماما :

- والظاهر انك ، ايها الفتى ، من الاغنياء . لم تعجبك
قراءتى ، العلك جاسوس ؟

من محطة آفييسكايا سار طابور فوج فارنافسكي ماشيا الى قرية نوفو - ديميتروفسكايا . وفي ظلام منتصف الليل كانت الرصاص تصفر بين الحراب ، وتبعث في الشباب ، وتدفق الوجوه بخبز الجليد . كانت الاقدام تنفطس خلال طبقة صلبة من الثلج ، وتصل الى الوجل اللزج . ومن خلال شجيج الريح ترددت صيحات : «قف ! قف ! اخف ! لا تضغط ، شياطين !»

كان القرس ينفذ من خلال المعاطف الخفيفة ، ويصل حتى العظام . فكر روتشين مع نفسه : «فقط الا اقع . والا فستكون نهايتي . ستدوسني الاقدام . . .» وكانت اكثر الاشياء تعذيبا له هي هذه الرفقات والصرخات في المقدمة . والظاهر انهم ضلوا طريقهم ، وراحوا يتجولون على حافة شيء يشبه منخفضا او نهرا . تردد صوت متقطع وكأنه يودع : «يا اخوان لا نستطيع ان انشام اكثر» . وفكر روتشين : «هذا صوت كفاشني ؟ كان طوال الوقت يسير الى جانبي . حزني . لم يصدق بكلمة واحدة من كلماتي» . (وقد اتصل روتشين منه بجهد يوم امس) . توقف الذي في المقدمة مرة اخرى . ارتطم انف روتشين بظهر شخص بمعطف المتجمد . وفكر ، مع نفسه واقفا ويدها المتشلجان محشورتان داخل كفيه ورأسه مطرق «اربع سنوات وأنا اناغلب التعب ، وقد قطعت آلاف الفراسخ من اجل ان اقتل . ان ذلك مهم جدا وذو شأن كبير . اما ان اسيء الى كاتيا واتركها فذلك اقل شأنا . غدا او بعد غد سأنتقل الى الجانب الآخر ، وفي مثل هذه العاصفة الثلجية سأتحول الى قتل الروس . غريب . كاتيا تقول انني رجل شريف وطيب . ذلك غريب ، غريب جدا» .

وانتبه بفضول الى دوران هذه الافكار في رأسه . ثم انقلعت . فكر : «شيء سيء» يعني انني اتجمد . تمر في ذهني الافكار الرئيسية الاخيرة . اذن ، سأستلقي الآن على الثلج» .

الا ان الظهر المتجمد امامه قد ترنج ، وسار . فترنج روتشين مثله وسار وراه . الآن صارت رجلاه تفوصان الى الركب ، وكان الحذاء الثقيل يخرج من الطين بجهد . حملت الريح جزءا من صيحة : «نهز ، اولاد . . .» وتردد سباب . . . والريح ما زالت تصفر بين الحراب مثيرة الافكار الغريبة . مرت به شخص غامضة

معدودة . استجمع روتشين قواه ، وسحب قدمه باثني ، ومضى في سيره بصعوبة .

كان سيلب بنى يبرز خطأ اسود على الثلج ، والى ابعد من ذلك كان كل شيء محجوبا بالثلج المتطاير . كانت الاقدام تنزلق على المنحدر . والماء الداكن ينطلق مزجرا . وصيحات :

- انخر الجسر بالماء . . .

- يعني نرجع ؟

- من قال نرجع ؟ أنت ؟ أنت الذي قلت ؟

- اتركني ، يا رفيق ، اتركني .

- اضربه بالاخص . . .

- اوى . . . اوى . . . اوى . . .

وفي الاسفل وراء حافة الشاطئ شب مغروط ضوئي من فانوس كهربائي . وبان قوس الجسر مغمورا بماء رمادي منطلق يشد ، وقطعة مكسورة من المرايزين . وارتفع الفانوس الى الاعلى ، ورسم منحنيات ضوئية ، وانطلق . وقال صوت مبحوح رهيب :

- فضيلة . . . عبورا . . . البنادق والعتاد على الرؤوس . لا تتدافعا . . . اثنتين اثنتين . . . هيا !

رفع روتشين البندقية ودخل الماء حتى خصره ، ولم يكن الماء ياردا ببرودة الريح . كان يضرب جنبه الايمن بقوة ، ويدفعه ، محاولا ان يجرفه في هذا الظلام الرمادي المبيض ، في الدوامة . كانت قدماه تنزلقان وهما لا تكادان تتحسسان الواح الجسر المحطم .

كان فوج فارنافسكي قد ارسل الى قرية نوفو - ديميتروفسكايا لتعزيز القوات المحلية . وقد خرج اهل القرية جميعهم لحفر الخنادق ، وحضن مقر ادارة القرية وبعض البيوت ، ونصبت الرشاشات . وكانت المدفعية الثقيلة قد وضعت جنوبا في قرية غريغوريفسكايا . وفي تلك المنطقة نفسها كان يرايط الفوج الثاني لشمال الفقاس تحت امره ديمتري شيليسيت الذي ظل يلاحق جيش المتطوعين ابتداء من روستوف . وفي محطة آفييسكايا غربا توجد حامية ومدفعية وقطارات مدرعة . وكانت قوات الحمر موزعة

على رقعة واسعة وهو أمر لا يجوز في مثل هذه الأرض المحلولة
وانعدام الطرق .

عند المساء عبر الساحة الى مقر ادارة القرية فارس قوزاقي
مطلع بالثلج الرطب والوحل . وتوقف عند مقدمة البيت . كان
البغار ينبعث من جنبى حصانه المتنفخين .
- اين الرفيق الامر ؟

خرج عدة اشخاص الى مقدمة البيت يزرون معافطهم على
عجل . وظهر سابوچكوف في فروة الفرسان شاقا طريقه بينهم :
- انا الامر .

التقط القوزاقي انفاسه ، وانحنى على القربوس ، وقال :
- رجال نقطة الحراسة قتلوا جميعا . تخلصت انا وحدى .
- وماذا بعد ؟

- توقع مجيء كورنيلوف ليلا بكل قوته . . .
وتبدلت النظرات في مقدمة البيت . كان بين الواقفين فيها
شيوخيون وهم منظمو الدفاع عن القرية . نشق سابوچكوف من

منغريه ، غضن لفته وقال : «انا مستعد ، فكيف انتم ، يارفاق ؟»
اخذ القوزاقي الذي ترجل عن فرسه يقص كيف قتل الجرس من لواء
الجنرال اردبى جميع افراد نقطة الحراسة . تجمع عند مقدمة البيت
حشد من الجنود والقوزاقيات والصبيان يصغون الى الراوى
صامتين .

وتقدم روتشين ايضا ، وقد غطى راسه وعنقه بقلنسوة
صوفية . لقد استطاع في الليل ان ينال قسطا من النوم ويجفف
ملابسه في بيت حار منتن حيث كان زهاء خمسين من الجنود الحمر
يرقدون على الأرض بين الطماقات والنبات المبتلة . وفي الفجر
خيزت ربة البيت خيزا ، وقطعته بنفسها ، ووزعته قطعاً على
الجنود :

«ابدلوا يا جنود جهودكم لتمنوا الضباط من دخول قريتنا» .
فرد الجنود على ربة البيت الشابة :

«لا تخافى شينا . . . خافى من شيء واحد . . .»
ونطقوا بكلمة جعلتها تلوح عليهم برغيف من الخبز . «يا لكم
من ثيران . . . حتى وانتم امام الموت لا يغرب ذلك عن بالكم . . .»

كانت مسيرة الليلة الباردة قد خلقت في روتشين انحلالا والما
مضا يعثور جسمه كله . الا ان قراره كان قاطعا . منذ الصباح
كان يحفر الأرض المتجمدة في حدائق الخضروات . ثم كان يحمل
صناديق الخشيرة من العربات الى مقر ادارة القرية . وفي الغداه وزع
على كل فرد قذح من الكحول فزال هذا السائل اللاهب شعور
الانحلال من جسمه ، وادفا عظامه ، فقرر ان يقضى امره اليوم دون
تأجيل .

وما قد وقف الآن قرب مقدمة ادارة القرية باحسا عن فرصة
يسأل فيها الخروج الى نقطة الحراسة الامامية . وكان قد حسب لكل
شيء حسابه الى حد كتابيتى النقيب التى خاطها داخل قميضه على
صدره . وحصل ما توقع . نزل البغار الركين الذى كان واقفا مع
سابوچكوف من مقدمة البيت ، واخذ يدعو الراغبين الى تادية امر
خطر ، قائلا بصوت حديدي :

- يا اخوان ، من لا يبخل بحياته . . .
وبعد ساعة كان روتشين قد غادر القرية مع فريق مؤلف من
خمسين مقاتلا متجها الى واد ملغ بضباب كثيف . هبط ظلام
رطب . وكف الثلج عن النزول ، كانت الريح الدافعة تصفح الوجوه
بقطرات كبيرة من المطر . سار الجنود بلا طريق مغوضين في ماء
سائل ، وكانهم يعبرون بحيرة ، متجهين نحو التلال ، حيث كان
يجب ان يحفروا خنادق .

لمعت ومضة ضوء في الغيش الصباحي الرطب . ثم دمدمة .
وعويسل ، وتلاشى . . . واعقب ذلك في الحال ازيز رصاص غير
نظامى على التلال وشاطئ النهر . ثم ومضة ضوء اخرى ، واطلاقة
مدفع ، ولعلج رشاش في الامام ، في غمامة الضباب .

ان كورنيلوف يتقدم . كانت وحداته الامامية قد وصلت الى
ذلك الشاطئ من النهر . وتجل لروتشين انه لمسح شخصين او
ثلاثة يركضون منحني الظهر عند الماء تماما متجهين الى اجمة .
وخفق قلبه . اخرج جسمه من الخندق الصغير الذى حفر على منحدر
الشاطئ .

كان النهر الكدر ذو اللون الاصفر المخموض ينطلق في

كان دور المدافع يملا الارضاء كلها ، وتهتز الارض من الانفجارات ، كانت قوات الجيش الرئيسية تعبر النهر . وكانت المدافع من قرية غريفوريفسكايا تضرب المعابر . وكانت القنابل تسقط في ارجاء الحقل الثلجى . وحين كانت تقسع في النهر كانت تثير نوافير من الماء .

كان مشاة البيض يعبرون النهر وكل اثنين مع حصان واحد . وكانت الخيول تتراجع وهى تنزل الى النهر السريع الجريان ، فكانوا ينحسونها بالحراپ . انحدرت عربة مدفع من على الشاطئ الزلق الشديد الانحدار مندقعة بقوة . وغطس المدفع تحت الماء مترنحا من جانب الى جانب . وكان الحوذنة يضربون الخيول الهزيلة بالسياط حتى استطاعت ان تجره على نحو ما على قوس الجسر القريب جزئيا في طرفيه . وكانت القذائف تتساقط وتنفجر ، ويفرر الماء . شبت الخيول على قوائمها الخلفية ، وتشربكت بسيررها .

كركبت عجلات المدافع الرشاشة متحدرة مارة بالجسر الى النهر . وطافت ، ودارت . وانقلبت احداهما ، وحملها التيار مع خيولها ورجالها ، فتعدق الرجال بالعجلات . وهبطت قنبلة من السماء على هذا الخليط مرسله في عمود عال من الماء شظايا من الخشب ، وقطعا من الابدان الممزقة .

وعلى الشاطئ كان شخص صغير الجرم قصير اللحية في ستره من قماش الفانيلا البنى ، وقبعة فرائية بيضاء غاطسة في رأسه يدور على حصانه الهزيل القدر . كان يصرخ بصوت عال عنفوري ملوحا بسوطه مهيدا . انه الجنرال ماركوف المشرف على عبور النهر . وقد حيكت حول شجاعته حكايات خيالية .

كان ماركوف من اولئك الذين قاتلوا في الحرب العالمية الاولى ، وقد سمعتهم الى الابد انفسها المنحوسة . وكان يبدو انه يجد متعة لا تعادلهام متعة اخرى حين يمتطى صهوة جواده ومظاره على عينييه ، او يكون شاهرا سيفه في الصف المهاجم وهو يقود لعبة القتال الرهيبة . وفي آخر الامر صار في مستطاعه ان يحارب ايا

دوامات عالية بين الشاطئين . والى اليسار ، في وسطه كان الجسر يرى مغمورا في الماء الى النصف . وقد طلع عليه من النهر زهاء عشرين شخصا من تلك الشخصوس الغامضة المنحنية الظهور ، وعبروا عليه . كانت النار تطلق على النهر والجسر من التلال بلا نظام ، ويتتابع متزايد . وعلى مقربة دائية على الضفة المقابلة من النهر اندلع لسان طويل من اللهب منبعث من مدفع . انفجرت قنبلة شرابنيل فوق الخندق الذى يقبع فيه روتشين . ونهضت شخصوس رمادية وسوداء من وراء قوس الجسر ونزلت الى معبر النهر وتناثرت متراكضة زاحفة على عجزاتها ، متدرجة ، هاوية . كانت جميعها تحمل كتافيات بارزة كالمخطوط .

ضربة مدفع مرة اخرى ، وهدير متقطع فوق الخندق . وان صوت : « اوى ، اوى ، يا اخوان . . . » لهج شخص من خلال ازيز الرصاص :

— انهم يطوقونا ! . . يا اولاد ، تراجعوا !

وشعر روتشين بدنو الدقيقة المرتقبة . انطرح بسرعة ، وظل يلا حراك . وتردد في رأسه : « لا يوجد مندبل ابيض ، يجب ربط قطعة قميص على حربة ، وتصيح ، بالفرنسية تماما . . » سقط شخص ثقيل على ظهره ، وانطرح عليه ، وطوقه من رقبته ، وانشب اصابعا في حنجرته ناخرا . قفز روتشين محاولا النهوض ، ورأى من وراء كتفه وجها مدمى وعينا جاحظة صهباء ، وفما فاقرا لا استنان فيه . كان كفاشين هذه المرة ايضا . كان يردد وكأنه في نوبة من الغيبوبة :

— انك تصلى لله ، لانك رايت جماعتك . . .

دقعه روتشين عن ظهره ، ونهض بكل قامته ، وترنح . تشبث كفاشين بكتفيه كالعلقة . كافح روتشين ليحرر نفسه ، وانقذف على متراس الخندق ، وانشب استنانه في الفروة اللينة بجنون . واحس بان كوعيه وربكبيه اخذت تنزلق على الطين السائل . كانت حافة المنحدر على بعد خطوة ونصف .

— انركنى !

زمجر روتشين اخيرا . انهارت الارض تحت قدميه فتدحرج مع كفاشين على المنحدر نحو النهر .

كان ، ولأى غاية كانت . تعباً ذهني بعض الصبح الجائزة عن
الرب والقبض الوطن . وكانت له حقائق مطلقة لا حاجة معها الى
مزيد . وكان كلاعب الشطرنج اذا لعب لا يرى من رحاب العالم ،
غير حركات البيادق على الرقعة .

كان طموحا متعاطفا شديدا وغليظا على مرؤوسيه . كان
يشترى الرعب من بين رجال جيشه . والكثيرون يشعرون بالجزاوة ازا،
هذا الرجل الذي لا يرى في الناس غير بيادق شطرنج . الا انه كان
شجاعا ، وحسن المعرفة بتلك اللحظات الحرجة من المعركة حيث
كان من الضروري للقائد ان يداعب الموت لانحصار المعركة
طالعا بصقوف عساكره الى الامام تحت وابل الرصاص والوسط في
يده .

استمر عبور النهر عدة ساعات . ولفت العاصفة الثلجية
النهر والشواطئ من جديد . واشتد عصف الريح متجهة نحو
الشمال . وبرد الجو بسرعة . كان روتشئين يردد مخلوع الكفف
تحت متجدد الشاطئ قرب الماء ، وقد فقد الأمل منذ وقت طويل
في ان يلحظه احد . ورغم الألم الذي يلذغ كنفه اخرج كتابتيه
من وراء قميصه ، واستطاع ان يشبها على نحو ما على قميصه
بدبايس ، وخلع النجمة الخماسية من طاقيته ، وكان النهر قد
جرف جثة كفاشي منذ وقت بعيد ، والجرحى يتناثرون في كل
مكان ، ولا يلتفت اليهم .

لم يتوقف الجيش بعد عبوره النهر ، وزحف في معركة باتجاه
قرية نوفوديميتروفسكايا . جمدت ثياب العساكر عليهم ، وتغطت
بطيقة من الجمد . وتصلبت الارض تجمدا . ورنت عليها سنايك
البيول والبعجات ، وتمزقت الاحذية على الركام والحفر ، وتجرحت
الاقدام . رفع بعض الجرحى اجسامهم ، وزحفوا على الشاطئ الحاد
الانحدار مرجحين بعهد ، ومزتلقين . شعر روتشئين بان رجليه
تجمدتان ملتصقتين بالارض . كز على اسنانه (كان الألم يسرى في
كنفه وركبته المحطمة) ورفع جسمه ايضا . وسار في اثر الجرحى .
لم يلتفت احد اليه . انتشاه الصعود الى أعلى متخذ النهر جهدا
كبيرا . وهناك ، في الأعلى كانت العاصفة الثلجية تعمل ، والرصاص
ينز . كان رجل محدودب في معطف ضباط متجمد وقلنسوة يجرح

نفسه امامه ، فاذا به يتدفق فجأة الى جانب ويسقط . فلم يكن من
روتشئين الا ان زاد من انحناء قامته متغلبا على عصف الريح ،
ومضى في سبيله .

جثة حسان ميت مدفون في الثلج ، وقد تصلبت الى الأعلى
رجله الخلفية . وعند مدفع مهجور وقف حسانان بانسان هزيلان
وقد انزلا بوزيما الى الأرض ، وقد جمدت جنباهما ، وتكونت
كومتان من الثلج على ظهرهما . بينما كانت الرشاشات تلعلع
الى الامام بمزيد من الاصرار والوعيد . لقد قاتل جيش المتطوعين
ليقتل ليلته هذه في بيوت دافئة لا ان يموت في حقل تعصف به
الزوبعة الثلجية .

كانت المدفعية في قرية غريغوريفسكايا ضرب المهاجمين .
الا ان الوحدات الحمراء الاخرى والامتياطات من محطة آقيبيسكايا
لم يلقسوا في المعركة . ولم يتلق الفوج القفقاسي الثاني امرا
بالهجوم الا بعد طوق فوج فارنافسكي في قرية نوفوديميتروفسكايا ،
وكان يُقتل في اشتباكات بال سلاح الابيض في الشوارع . سار الفوج
القفقاسي الثاني عشرة فراسخ عبر مستنقعات وارض مغمورة بمياه
البيضان ، وخسر فضيلة كاملة غرقا وتجمدا ، وضرب مؤخرة
البيض ممكننا بقايا فوج فارنافسكي من خرق الحصار .

وحدث عند البيض ايضا مثل هذا الاضطراب والبلبلية .
تصلبت فضيلة بوكروفسكي الكوبانية ، ولم تسر خلال المستنقع .
وكان قد اوكل اليها مهاجمة القرية من الجنوب . كما ان
بوكروفسكي الذي تسلم رتبة الجنرال من حكومة كوبان لا من
القصر قد تلقى اهانة قاسية من الجنرال الكسييف اثناء الاجتماع
الحربي ، حين قال له بازدراه ارستقراطي : « كفى ، يا عقيد ،
اعلن اني ، لا اعرف الآن كيف ادعوك .. » . وبسبب «العقيد» هذا
لم يرد بوكروفسكي ان يسير خلال المستنقع . كما ان فضيلة
الخيالة بقيادة الجنرال اوديل التي اوسلت لتطويق القرية من
الشمال لم تستطع عبور منخفض مغمور بالماء . فعادت ليلا لتعب
من المعبر العام .

كان فوج الضباط اول من وصل الى قرية نوفوديميتروفسكايا .
وسم الضباط المتجدون المهتاجون ، المقاتلون القدامى ، الرائحة

البيّنة للروث المجفف المحروق والخبز الطازج ، وروا الضوء الدافئ في النوافذ ، فزحفوا عبر خليط الثلج والوحل ، دون انتظار التعزيزات ، عبر الماء الغامر المغلف بطبقة رقيقة من الجمد . ولوحظوا وهم على مشارف القرية ، فاطلقت عليهم النيران من رشاشات . هجم الضباط بالعراب ، وكان كل واحد منهم يعرف كيف وماذا يجب ان يفعل في كل ثانية . وكانت قبعة ماركوف البيضاء تلمع في كل مكان . لقد كانت معركة ضباط نظاميين مع جبهة من الجنود المقادين قيادة ضعيفة ، والمنظمين بانضباط سيئ .

واندفع الضباط الى القرية واشتبكوا في مناوشات بالسلاح الابيض في الشوارع مع جنود فوج فارنافسكي والانصار . وفي الظلام والخلط طعن جنود الرشاشات او نسفوا بالقتال اليدوية ، وهم وراء رشاشاتهم . وتلقى البيض تعزيزات مستمرة ، فاستطاعوا تطويق الحبر ، فتراجع هؤلاء الى ساحة القرية ، حيث كانت اللجنة الثورية تقيم في مقر ادارة القرية .

كان الرصاص ينطلق من كل مخابئ ، والقتال يدور في كل مفرق . وجاءت عربة المدفع منطلقه في نافورة من السوخل ، واستدارت عند حافة الساحة ، ووجهت ماسورتها نحو واجهة مقر الادارة . وتفجرت القذيفة بقرعة مرنة . واخذ الناس يقفزون من نوافذ البيت ، وانتشر دخان اصفر . واصابت نيران المدفع صناديق الذخيرة فاخذت تتفجر .

وفي تلك اللحظات بالذات كان الفوج القفقاسي الثاني يطلق النار من الشرق على المهاجمين . وسمع جنود فوج فارنافسكي بالقتال في مؤخرة العدو فشد ذلك من عزيمتهم . اختلف سايوجكوف راية الفوج من حامل الراية وقد تبع صوته من الصراخ والسباب ، وكانت ملغوفة بقطعة من المشمع ، ولوح بها ليفكها ، وغير الساحة الى اشجار الحور العالية المتمايلة ، حيث كان البيض اكثر تجمعا . اشد رجال فوج فارنافسكي يخرجون من وراء البوابة والاسنجة ، وينهضون من الارض ، ويتقاطرون من كل جهة ، مهينين حرايمهم الى الامام ، وخرقوا الحصار ، وخرجوا من القرية صوب الغرب .

قضى روتشين تلك الليلة في عربة مهلمة بعد ان انزل منها جثتين متجمدتين ، وغطى جسمه بالترن . كانت المدافع تقصف طوال الليل ، وقنابل الشرايينل تتفجر فوق قرية نوفوديميتروفسكايا . ومنذ الصباح اخذت عربات جيش المتطوعين تتجه الى هناك ، بعد قضاء ليلة في قرية كالوجسكايا . خرج روتشين من العربة ، وسار وراء العربات . وكان من شدة الانفعال لا يشعر بالآلم .

كانت الريح ما تزال تهب شديدة ، ولكن من الشرق هذه المرة مبددة السحب الثلجية والمطرلة . وفي نحو الساعة الثامنة صباحا ظهرت السماء المجلوة الزرقاء خلال قطع الغيوم المتحركة الى الاعلى بسرعة . وسقط ضوء الشمس باسعة حارة مستقيمة كالسيوف . واخذ الثلج يذوب . والسهب يعتمد سريعا ، مخططا بارتطبة زمردية للنباتات البارضة واشرطة صفراء لجدامات الحصاد . والتمتعت المياه ، وترقرقت الجداول مسرعة في الاخاديد التي خلفتها العربات على الطرق . وجفت الجثث على الاكمامات ، ناطرة بعيونها الميتة الى السماء اللازوردية .

- انظر ، انه روتشين . وحق الرب ! روتشين كيف جثت الى هنا ؟

فتفوا بذلك من عربة مارة . التفت روتشين . كان ثلاثة اشخاص رؤوسهم ملغوفة ، واذرعهم مرفوعة على شبالات يجلسون في عربة ملطخة مغطى يسوقها قوزاقى مدلهم السحنة يلقي على كتفيه قروة خروف رثة . جينا احد هؤلاء روتشين بهزات عديدة من رأسه ، وانفجرت شفته المتشققتان عن ابتسامته . كان رجلا طويلا هزيلا تبدو رقبته مشرّبة من تحت ياقته . لم يكده روتشين يتعرف عليه زميلا له في الفوج يدعى فاسكا * تيبيلوف كان آنذاك مورد الوجنتين مرحا يهوى النساء والخمرة . سار صامتا الى العربة وتعانق معه وقيلته قائلا :

- كل لي ، تيبيلوف ، الى من يجب ان اتوجه ؟ من هو رئيس

* صيغة لاسم فاسيلي . - المترجم .

هيئة الأركان عندكم ؟ انظر الى كتابتي ، قد شدتكما يدبايس .
عربت الى جانبكم يوم أمس فقط .

— اصعد - قف يا سائل !
صاح تيبولوف على السائق . مددم القوزاكي ، الا انه اوقف
العربة . صعد روتشين في ركن العربة ، ودلى ساقيه فوق عجلتها .
كانت رحمة إلهية أن يركب في عربة تحت شمس حارة . وروى
مغامراته منذ شروجه من موسكو بلهجة جافة كلهجة تقرير . سعل
تيبولوف قليلا وقال :

— ساذبب بنفسي معك الى الجزائر رومانوفسكى ... نصل
الى القرية ، وتتناول طعاما ، وأقضى شغلك في لمس البصر ... يا
عجيب ! تريد ان تظهر امام الرئاسة راسا فتقول : قد عبرت
من عصابة الحرس ، ولّى الشرف في الحضور ... انت لا تعرف
جماعتنا . لن يدعوك تصل الى هيئة الأركان ... يطعنوك ...
انظر ، انظر - وأشار الى جثة طويلة في معطف ضابط - اتسه
ميشكا * ، البارون كورف ... واتته المنية ... لملك تذكره ...
كان فتى رائعا ... اسمع ، هل معك سكان ؟ أوه ، ما اجمل
الصباح ! يعد غد ، يا عزيزي ، منصل الى يكاترينودار . ونام
على اسرة ، ثم نخرج الى البولغار ! موسيقى ، وأوانس ، ووجهة !
وضحك ضحكة عالية بهيجة . وتوجد وجهه السقيم المسحوب
حتى العظم ، وتوهجت على وجنتيه بقع الحمى .

— وهكذا ستكون في روسيا كلها موسيقى ونساء ووجهة .
سنستريح شهرا في يكاترينودار ، وننظف انفسنا ، ثم الى
التنكيل ... ها - ها ! لسنا حمقى الآن ، يا عزيزي . كسينيا
بالدم أمر التصرف بالامبراطورية الروسية . سنرتبهم ما هو
النظام ... المتقلة ! انظر اليه ميتا - وأشار الى منحدر سناقية
حيث كان يركد رجل في ستره مسن فراء الغنم ممددا بشكل غير
طبيعى - لا بد انه واحد من امثال دانتون * * عندهم ...

* شيفة لاسم ميخائيل . - المترجم .

* * دانتون جورج جاك ، شخصية بارزة في الثورة الفرنسية
الرجوازية في اواخر القرن الثامن عشر . - المترجم .

لحقت العربة عجلة مخلخلة من الاغصان المضفورة . كان فيها
رجلان ملطغان بالوحل ، وقد القيا ياقتي مغلبيهما الى الورا ،
وقبعتهما الفرائيتان مبللتان . كان احد الرجلين ضحكا ذا وجه داكن
مرتخ ، والثاني ذا لحية رمادية مرسلة ، وانتفاخين تحت عينيه ،
وقد وضع ممسك سيكارة طويل في زاوية فمه الرخو .

قال تيبولوف ، وهو يوميء برأسه عليهما :

— حماة الوطن . ولكن سنتحمل من قلة الخيل . . . ينفعون .

— السمين هو غوتشكوف على ما يبدو . صحيح ؟

— نعم ، هو ، وسيعدم رميا في وقته ، يمكن ان تطمنن . . .

اما التي يضع ممسك السيكارة في فمه فهو بوريس سوفورين ،
وهو ايضا من قلة الخيل . . . يبدو انه من انصار القيصر . ولكن
ليس بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ؛ انه مواوغ ، ولكنه صحفى
قدير . . . لن نعدمه . . .

دخلت العربة القرية . بدأت البيوت وراء الحدائق الصغيرة
مقفرة . وما تزال بقايا الحرائق ترسل دخانا . وقد تناثرت بعض
الجثث التي غطست في الوحل الى النصف . كانت طلقات منفردة تتردد
هنا وهناك . انهم يقضون على الاغراب الذين لجأوا الى كويان من
المناطق الاخرى والذين اخرجوا من السرايب والشونات . كانت
العربات تقف في الساحة بلا نظام . وكان الجرحى يصيحون من عربات
تقلهم . وكانت الممرضات ينتقلن بين العربات معذبات مدهولات
بسبب التعب في معاطف جنود قذرة . ومن الفناء ارتفع صياح يشبه
صياح حيوان وضربيات سباط . وكان الخيالة يعدون على خيولهم .
وعند احد الاسيجة جماعة من طلاب المدارس العسكرية يشربون
الحليب من جردل صغير .

كانت الشمس تشع بزيادة من السطوع والحرارة في اعماق
السما الزرقاء المكشوفة للرياح . ومن خشية بين شجرة وعمود
تلغراف تدلت مترنحة مع الريح جثث مكنية الرقاب اقدامها العارية
مدلاة بمقدماتها نحو الأرض . انها جثث سبعة من الشيعيين اعضاء
في اللجنة الثورية والحكمة العسكرية .

وجاء آخر يوم من حملة كورنيلوف . طلل المستعملون الفرسان عيونهم بالكفهم اتقاء الشمس ، وراوا في الضباب الصباحي قباب يكاترينودار المذهبة وراه نهر كوبان الكبر .

كانت مهمة وحدة الخيالة الصدامية ان تنتزع من الحمر المعدة الوحيدة الموجودة في تلك الاماكن لعبور نهر كوبان بالقرب من قرية يلزافيتينسكايا . وكان ذلك خديعة جديدة لكورنيلوف . فقد كان من الممكن ان يتوقعوه من الجنوب ، من ناحية قرية نوفو - دميتروفسكايا ، ومن الجنوب الغربي على خط نوفوروسيسك - يكاترينودار الحديدى . اما ان يختار اخطى لالتفافه غرب المدينة ، في مكان لا جسور فيه ، بل معدية واحدة يعبر عليها جيش كامل عبر مياه كوبان السريعة الجريان ، فاطما بذلك كل امكانية للتراجع ، فانه تكتيك لاجتياح المدينة لم يكن من الممكن ان يتنبأ به افتونوف رئيس هيئة اركان القوات الحمر . ولكن كورنيلوف الماكر مثل ثعلب عجوز اختار هذا الطريق بالذات ، لانه اقل حماية ، ويتيح راحة من القتال ليومين او ثلاثة ايام ، و يخرج بالجيش الى بساتين وحدائق يكاترينودار مباشرة .

سند النص في الذخيرة عند احتلال محطة آفيسسكايا على الخط الحديدى ، حيث نصف جيش المتطوعين سكة الحديد ليأتموا انفسهم من تيران القطارات المصفحة . ومع ذلك فان رشاشات احد قطارات الحمر اصابت جناح المهاجمين الذين كانوا يخوضون في ماء موحل كثيف بعد ذوبان الثلج . وعندما كان شريط الرصاص ، وهو يرقع نوافير الماء ، يصطلم بهم كانوا يسقطون على الماء كاليط غاطسين برؤوسهم ، ثم يخرجون رؤوسهم ويتراخضون . دافعت حامية محطة آفيسسكايا دفاع المستميت . الا ان الحمر كانوا في حالة ميؤوسة ، لانهم كانوا في موضع دفاع فقط ، وكان العدو يهاجم ، وكانت وحدات جيش المتطوعين تطوق المحطة وتحيطها ببطء ويصفوف ملتوية . كانت الشمس تغمر الوادى الازرق ، وقد طلعت من سطح الماء الاشجار واكروم القش وسطوح الضياع ، بينما كانت ظلال غيوم الربيع يطارد بعضها بعضاً عبر مياه الفيضان . كان كورنيلوف يستتره الفرائية ، وكشافين الجنرال الناعمين ، وبالمناظر والغازطة يتقدم بجواده هيئة اركانه في ذلك المنبسط

الصفيل . كان يعطى الاوامر لمرافقيه الذين كانوا يعدون ممتطين افراسهم الهزيلة في طرطشة من الماء . وذات مرة وقع تحت النار ، وجرح الجنرال رومانوفسكى الذى كان يسير الى جانبه جرحا خفيفا . حين تم إلتفاف حول المحطة من الغرب ، وبدا الهجوم العام ، وساط كورنيلوف حصانه بمقرعته ، وتوجه خبياً باتجاه المحطة مباشرة ، اذ لم يكن يشك في النصر . وهناك بين الخطوط الحديدية ، والقطارات المهجورة وبنائات السكك والمعابر والمخازن كانت القوات المقتتحة تفتك بالحمر . وكان ذلك آخر نصر لجيش المتطوعين وادامه .

هرع العقيد نيختستيف النورد الخدين التستوى الى كورنيلوف منتقلا قافزا بين الجنث ، وابلفه ونظاراته الانقيسة تلمح فوق عينيه :

- يا صاحب السيادة ، احتلت محطة آفيسسكايا .
قامت كورنيلوف يقاطعه بتقاد صبر :
- وهل استوليتم على القذائف ؟
- نعم ، يا صاحب السيادة ، سبعانة قذيفة ، واربع عربات من الخراطيش .

- حمدا لله ! حمدا لله
ورسم كورنيلوف علامة صليب عريضة ، فغدش ظفر خنصره معطله المتصلب .

عندئذ اشار نيختستيف له بعينه الى حشد من الصداميين واقف عند المحطة . انهم فوج خاص من السفاكين المغافرين يشدون على اكامهم مثلثا من ثلاثة الوان . كانوا يقفون معتمدين على بنادقهم ، وكانهم بعد صعودهم في جبال حادة الانحدار . تجمدت وجوههم في تكشيرة الجنون المتعبة ، وكانت ايدى ووجوه الكثيرين منهم مدماة ، وعيونهم هائمة .

- انقذوا الوضع مرتين ، وكانوا اول المهاجمين ، يا صاحب السيادة .

- طيب ا
شرب كورنيلوف حصانه ، وعدا عليه بكامل سرعته ، رغم ان المسافة لم تكن كبيرة ، ووصل الى الصداميين (اضطرب هؤلاء على

الفور ، واسرعوا يصفطون باستقامة) جذب كورنيلوف عنان فرسد بتلك الحركة القوية التي تصور عادة في التماثيل التذكارية ، ودفع رأسه الى الوراء ، وصاح بصوت حاد :

- شكرا ، يا نسوري ! اشكركم على العمل الرائع ، ومرتة اخرى على انكم استوليتم على القنائف . . . انحنى لكم إجلالا . . .

بعد ان حصل الجيش على احتياطى من الذخيرة بدأ يعبر نهر كوبان على المعديفة الخشبية التي استولت عليها فصيلة الخيالة الصندامية . وكان عدد الجيش في ذلك الوقت تسعة آلاف رجل ، واربعة آلاف قرس ، واستمر العبور ثلاثة ايام . وامتدت وحداته العسكرية والعربات والنقالات والمعدات الحربية على جانبي النهر مثل معسكر هائل . خفقت ريح الربيع بالبياضات المغسولة المدعومة المنشورة على اعمدة العربات . وتساعد الدخان من نيران المعسكر . وكانت الخيول المربوطة ترعى في المروج . وصعد الضباط المبتهجون الى العربات وسعوا ، والمناظر على عيونهم ، ان ينفذوا عبر الغبش المزورق ليروا حدائق وتيباب المدينة الموعودة .

- بالشرف ، نحن كالمسيحيين وقد اقتربوا من القدس .

- هناك كانت يهوديات ، اما في هذه المدينة قبروليتازيات . . .

- سنعلن النساء ملكية مشتركة . . . ها - ها . . .

- الى الحمام ، ثم البولفار ، وبعدها الجعة !

لم تجر من جانب يكاترينودار محاولة لرقطة العبور . ولكن رجال الاستطلاع كانوا يطلقون بعض الطلقات بين الحين والآخر . عزم الحمر على الدفاع . اسرع أهل المدينة جميعا يمن فيهم النساء والاطفال في حفر الخنادق ، ومد الاسلاك الشائكة ، ونصب المدافع . وقدمت من نوفوروسيبسك قضاة من بحارة البحر الاسود ، وجلبوا معهم مدافع وقذائف . وخطب المفوضون في الوحدات العسكرية عن الجوهر الطبقي لجيش المتطوعين بقيادة كورنيلوف .

وان وراءه «البرجوازية العالمية التي لا تعرف الرحمة ، والتي سنخوض ضدها معركة حاسمة ، ايها الزقاق» واقسموا على ان يموتوا ولا يسلسوا يكاترينودار .

وفي اليوم الرابع خرج جيش المتطوعين للاستيلاء على عاصمة

كوبان .

واستقبلت صفوف المتطوعين المهاجمة نارا حامية من البطاريات المنصوبة في محطة البحر الاسود ، ومن الارصفة على نهر كوبان . الا ان وعورة المكان والبساتين والسواقي والاسيجة ومجاري الجداول مكنتهم من الاقتراب من المدينة دون خسائر كبيرة .

ومننا نشبت المعركة بالقرب مما يسمى «المزرعة» عند بيت ابيض يقع على مشارف اجبة من اشجار الحور ما زالت عارية الاوراق على شفة كوبان العالية ، حيث ابدي الحمر مقاومة صلبة واكتسحوا الا انهم عادوا فهجموا بحشود كثيفة على نيران الرشاشات ، واستولوا على المزرعة . وبعد ساعة اجبرهم على التراجع قوزاق كوبان وهم مشاة الضدام والاستطلاعيون بقيادة العقيد اولغاى .

وفي الحال اتخذ كورنيلوف مقرا لهيئة اركانها بيتا من طابق واحد في المزرعة . ومن هناك كانت تشاهد بوضوح شوارع يكاترينودار المستقيمة ، وبيوتها البيضاء العالية ، والحدائق الامامية والمقبرة ، ومحطة البحر الاسود ، وامام كل هذا المنظر صفوف الخنادق الطويلة . كان نهارا ربيعيا ساطعا خفاق الريح . وكانت ادخنة الطلقات تنطير في كل مكان ، وهدير المدافع المستمر يمز المتبسط المزرق اعتزازا ثقيليا يجعل له القلب . ولم يضمن الحمر ولا البيض بالانفس في ذلك اليوم .

خصصت للقائد كورنيلوف حجرة في ركن من البيت الابيض ، ونصبت تلفونات الميدان ووضعت منضدة ومقعد وثير . وقد دخل اليها حالا ، وجلس الى المنضدة ، وبسط الخارطة ، وغرق في تأمل حركات اللعبة التي قد بدأها . وكان مرافقاها - الملازم دوليتسكي والخبان خاجييف - يقفان احدهما عند الباب ، والثاني عند التلغرافات .

مخترقه اغلبية النيران محملة بالبحارة والقذائف والمدافع . وتراكم القتاتلون من العربات الى الخنادق مباشرة . وكانت الخسائر فادحة بسبب كثافتهم وانعدام القيادة .

ظل كورنيلوف جالسا الى الغارطة لا يبارح غرفته في المزرعة . وقد ادرك ان هناك امرين لا ثالث لهما : اما الاستيلاء على المدينة او الهلاك للجميع . وبلغ تفكيره الى حد الانتحار . . . ان الجيش الذي كان قائده الاوحد يدوب مثل جنود من التصدير القوا في موقد . ولكن ذلك الرجل غير الهيباب وقليل الذكاء كان عنيدا كالشور . كان حوالى عشرين من الضباط الجرحى جالسين في الشمس المتوقدة على مدرج الكنيسة في قرية يلزافيتينسكايا . ومن الشرق كان صهير المدافع يترامى قويا تارة خافتا اخرى . بينما هنا في النساء الصافية فوق برج الجرس الذي اصيب بقذيفة فقد كانت الحمامات تصعد باستمرار . كانت الساحة امام الكنيسة مقفرة ، والبيوت بشبابيكها المحطمة مهجورة . والى جانب سياج من الاغصان المصفورة حيث كانت البراعم تنتفخ في اجمة لليلق كانت ثمة جثة نصف مدفونة متكفنة على وجهها يكثر عليها الذباب .

كان الضباط على مدرج الكنيسة يتحدثون باصوات خفيفة : - كانت لي خطيبة جميلة ، فتاة رائعة ما ازال اتذكرها في فستان وردى مكشكش . اين هي الآن ؟ لا ادري .

- نعم ، العجب . . . شيء لا يصدق . . . ان الحياة الماضية تجذب كثيرا . . . نساء نظيفات ، وانت حسن الهدام تجلس هادئا في مطعم . . . آه ، ما اجمل ذلك ، يا سادة . . .

- ان هذا البلشفي مقزز الراحة . . . لطيف لو يدفن . . .

- سياكله الذباب .

- سكوتنا . . . على مهلكم يا سادة . . . مرة اخرى اشتمد القصف . . .

- صدقوني انها خاتمة المطاف . جيشنا الآن في المدينة . صمت . والتفت الجميع ينظرون صوب الشرق حيث كان الدخان والغبار يحم على يكاترينودار مثل سحابة رمادية صفراء . ويتقدم ضابط نحيل كالهيكال العظمى اصهب الشعر وهو يعرج ، ويقول :

كان وجه القائد المغولى القسمات المتعفن النحيل متجمعا كما لم يتجم من قبل . كان الشيب قد غزا نصف شعره المتصنّب وبدء الصغيرة الجافة بخاتمها الذهبي تستلقى على الغارطة بلا حياة . انه وحده ، خلافا لنصائح الكسينيف ودنيكين والجنرالات الاخرين ، قرر ان يقوم بهذا الهجوم ، والآن في نهاية اليوم الاول ترعزعت لفته بنفسه . ولكن ما كان ليحترف بذلك حتى مع نفسه .

لقد وقع خطان : الاول ان ثلث القوات مع الجنرال ماركوف قد ابقى على المعبر لحفظ العربات ، ولهذا لم تكن الضربة الاولى ضد يكاترينودار مركزة بشكل كاف ، ولم تجلب ما كان متوقعا منها . فقد صمد الحر ، وتشبثوا بالخطائق ، وتبثوا فيها على ما يبدو برسوخ . والخطا الثاني هو في تطبيق نفس تكتيك الحملة التنكيلية على يكاترينودار ، مثلما طبق على القرى التي احتلت في الطريق ، فقد طوقت المدينة من كل الجوانب (على الجناح الايمن بقرعة مشاة واستطلاعيين على طول النهر حتى مصانع الجلود ، وعلى الجناح الايسر يتغلغل الخيالة بقيادة اردبيل) لغرض سد جميع المنافذ والمخارج والتنكيل بالمدافعين عن المدينة وباهاليها رميا بالرصاص وشنقا وضربا باعتبارهم «قطاع طرق» و«راععا متمردين» . فان هذا التكتيك قد ادى الى ان يقرر المقاومون ان الموت في ساحات المعارك افضل من الموت على اعداء المشائق . فقد كان الناس يصيحون في طول المدينة وعرضها ان «كورنيلوف قد عزم على الفتك بالجميع !» فاذا بالنساء والفتيات والاطفال والشيوخ يندفعون تحت وايل الرصاص الى الخنادق ومعهم جرار الحليب والقطائر يطعمون المدافعين قائلين : «كلوا ، يا بحارة ! كلوا ، يا جنود ! يا فقاتنا الاعزاء ، اصعدوا من اجلسنا . . .» ومضوا يزودون المدافعين بالطعام ، ويحملون لهم صنابير العتاد ، رغم ان الخيالة كانوا يعدون على افراسهم في كل مكان ، ولا سيما عند النساء صائحين : «ابتعدوا عن الشوارع ! الى البيوت ! اطفئوا الانوار ! . . .» وهكذا كان التفوق للحمر في اليوم الاول . فكفك البيض في ذلك اليوم ثلاثة من افضل القادة عندهم ، وحوالى الف ضابط وجندي ، وانفقوا ، دون هدف ملموس ، اكثر من ثلث ذخيرتهم .

ووصلت من نوغوروسيسك قطارات نصف محطمة متتالية

- فالكا * مات الآن ... كان يصرخ : «ماما ، ماما .. هل
تسمعيني ؟ ..»

يبتما كان صوت حاد يقول من اعلى المدرج :
- الحب ! وآنسة في فستان مكشكش ... هراء . احاديث لا
قيمة لها . زوجي احل من خليبتك ذات الفستان المكشكش ...
ومع ذلك ارسلتها الى ... (ونخر من انفه غاضبا) ثم انك تكذب
على اية حال . لم تكن لك خلية ... مجرد مسدس في جيبك ،
وسيف الى جنبك - تلك هي كل عائلتك وما اليها ...

توقف روتشين الذي كان يقوم بدورية عند الكنيسة ومعه
بندقية ، ونظر الى المتحدث بامعان . كان وجهه صبويا اشقر الشعر
ذا انف اقلس ، وفم محاط بعضمتين عميقين ، والعينين شائختين
ثقلتين بلون ازرق كدر ، مسهدين شبيهتين يعني قائل .
اعتمد روتشين على بندقيته (كانت قدمة ما تزال توجهه) وطافت
في ذهنه افكار ملحاحة . عادت اليه ذكرياته عن كاتيا المهجورة
اشفاقا حادا . وضع جبينه على حديد الحربة البارد ، وردد مع
نفسه : «كفى ، كفى ، ان هذا ضعف ، لا حاجة لكل ذلك . . .»
ونفض الافكار عن رأسه ، وسار على العشب الطرى . «لا وقت
للاشفاق ، لا وقت للحب . . .»

وقف رجل ركين متجه الى جانب حائط أجرى اصيب بقذيفة ،
وراح يمدق من خلال منظاره . كانت لطبات من الطين الجاف تلتصق
بسترته الجلدية الجميلة ، وينظاله الجلدي وكذلك العذاء القوزاقي
وبين حين وآخر كانت رصاصه تصيب الحائط الاجرى بالقرب منه .
وعلى بعد مائة خطوة الى الاسفل منه وضعت بطارية وصناديق
القذائف الخضراء . وكانت الخيول قد جلبت الى السياج من توما ،
فكانت واقفة متدلية الرؤوس تخرج روثا يتصاعد البخار منه . كان
طاقم البطارية يقرص ضاحكا مدخنا على مسنندات المدافع يتلطف نحو

* سيفة لاسم فالتين - العوججج

الامر ذى المنظار . كان الجميع بحارة ما عدا ثلاثة من رجال المدفعية
مهلبى الثياب ملتصقين .

كان الدخان والغبار يحجب الافق ، وخطوط الخنادق وتعرجات
الارض والبساتين . وكان ما لمح امر قد ظهر بغير وضوح ،
واختفى من مجال الرؤية . ظهر بحار نحاسي البشرة في قميص بحار
داخلي لقط من وراء البيت الذي يقف الامر عنده ، وتسلسل كالقط على
طول الجدار ، وجلس عند قدمي الرجل الركين ، وطوق ركبتيه
بذراعيه القويتين الموشومتين ، وقلص قليلا عينيه الصهبوين
كعيني الباشق . وقال بصوت خفيض :

- عند الشاطئ تماما شجرتان ، هل تراهما ؟

- اذن ؟

- وراهما بيت صغير ، اترى جدرانها البيضاء ؟

- اذن ؟

- انه المزرعة .

- اعرف .

- انظر الى اليمين تجد حرشا . وهناك الطريق .

- ارى .

- في الساعة الرابعة جرى بعض الخيالة هناك يعدون على
افراسهم ، واخذ بعض الناس يدبون . وفي المساء جاءت عربتان ،
هناك يقبع الشيطان لا في اى مكان آخر .

- انزل الى الاسفل .

قال الرجل الركين يلهجة امرة ، ودعا امر البطارية . صعد
الى المرتفع رجل ملتج يرتدى مشرته من فراء الغنم . قدم له الرجل
الركين منظاره ، فراح هذا ينظر وقتا طويلا . وقال بصوت مزكوم :
- ضيعة سلوساريف ، المزرعة ، المسافة اربعة فراسخ
وربع . يمكن توجيه النار على ضيعة سلوساريف .

واعاد المنظار ، ونزل الى الاسفل بحركة غير موزونة .
وصاح بملء حنجرتة :

- بطارية ، استعداد ! المسافة ... القذيفة الاولى ...

نار ...

ودوت المدافع بهدير الرعد ، وتراجعت المواسير على المكاسير

مرسلة لها ، وانطلقت القنابل الثقيلة حاملة الموت الى شاطئ
كوبان المرتفع ، الى شجرتي الحور ، حيث كان كورنيولوف الجهم
يجلس الى الغارطة في البيت الأبيض .

لحق بالفوج على فرس فاحم وجل ضخم ممتلي ذو شاربين .
كان يشد شريطا احمر على قبعته ، ويرتدي سترة مفصلة على قده
عليها شرائط كثيفة لادارة مؤنة الجيش . هتف للجنرال ماركوف
بشيء ما مرحا ، الا ان هذا استدار ، ولم يجب . انه رودزيانكو الذي
غادر طابور عربات الجيش ليشاهد عملية الاستيلاء على
يكاترينودار .

توقف الفوج مرة اخرى . جاء اليعاز من بعيد . فراح الكثيرون
يدخنون . صمتوا جميعا ينظرون الى حيث راحت جماعة الحرس
تختفي بين السواقي والاكمام . لوح الجنرال ماركوف بسوطه .
وسار باتجاه حرس اشجار الحور العالي . كان عمود اشعث من
البنشان يتصاعد على فترات قصيرة من اعماق الاشجار البادئة
الاخضرار ، وتطائر نوافير من كتل التراب والاعغصان .

وقفوا طويلا . وتجاوزت الساعة الرابعة . ظهر فارس من وراء
الحرس ، وجاء بعدو منكبا على عنق حصانه . ورأى روتشين حصانه
المزيد الشديق يدور عند ساقية ، خائفا ان يقفزها ، ثم هز الحصان
ذيله وقفز . وطارت الطاقية من رأس الفارس . وحين وصل الى
الفوج هتف :

— الهجوم ... تمكننا رجال المدفعية ... الجنرال في
المقدمة ... هناك ...

واشار بيده الى حيث لاح عدة اشخاص على اكمة لمعت بينها
قبعة فرائية بيضاء . وصدر الأمر :

— الصف ، الى الامام !

تقلصت حنجرة روتشين ، وجفت عيناه . شعر لحظة من الرعب
والنشوة اختلف فيها الاحساس بالجسد ، وبزغت الرغبة في الجري ،
في الصياح ، في اطلاق النار ، في الطعن ، في ان يستلء القلب بالدم
في لحظة النشوة هذه ، كضحية ...

تحرك الصف الاول ، وسار روتشين على جناحه الايسر . ها
هي الاكمة حيث وقف الجنرال ماركوف فارجا ساقية ، ووجهه الى
الفوج المهاجم .

كان يكرر : « ايها الاصدقاء ، ايها الاصدقاء ، الى الامام ! »
وبدت عيناه المتقلصتان دائما متسعيتين رهيبتين في تلك اللحظة .

في اليوم الثاني من الهجوم استدعى الجنرال ماركوف مع فوج
الضباط الذي كان يحصى معبر عربات الجيش . وكان روتشين جنديا
في هذا الطابور . وبساعة واحدة قُطعت الفراسخ السبعة الى
يكاترينودار في جو اكثر تلفغا بالغبار من جو يوم امس بسبب
قصف المدفعية . كان ماركوف يسير في المقدمة في قبعته القوزاقية
المدفوعة الى قفاه ، وسترته المبطنة بالقطن المفكوكة الازرار . كان
يخاطب عقيد هيئة الاركان الذي كان يسير وراه ولا يكاد يلحق به
لاغتيا شاتما القيادة العليا :

— لعنة ! قطعوا اللواء الى اجزاء ، وتركوني مع طابور العربات
وجعلوني اقبع هناك ... فلو اطلقوني مع اللواء لكننت في
يكاترينودار منذ زمان ...

وقفز عبر ساقية ، ورفع سوطه ، واستدار نحو الطابور
الممتد عبر حقل اخضر ، ورفع صوته باليعاز حتى انتفخت عروق
رقبته ...

اغذ الضباط اللامتون بوجههم المبهومة العرقا يتراخسون ،
واستدار الطابور ، وكانه على محور ، وامتد في الحقل بأربعة خطوط
متذبذبة مواجهها المدينة . وكان روتشين غير بعيد عن ماركوف .
وقفوا عدة دقائق ، وجربوا ترابيس البنادق ، وعدلوا وعانوا اكياس
الغرايطيش . واصدر ماركوف امره الثاني ماطا حروف العلة ،
فانفصلت جماعة الحرس وهرولت متقدمة الى الامام . وسارت
الصغوف وراهها .

التقا الى اليسار بعربات بانسة تحمل الجرحى في الدرب
المطروق . وكان بعضهم يمشون على الاقدام منكسي
الرؤوس . وكان جرحى كثيرون جالسين على حوافي السواقي وعلى
العربات المتكففة . وبدت العربات والجرحى بعدد لا يحصى ،
الجيش كله .

ثم رأى روتشين اتصال العشب الجافة النائثة . وفي كل مكان فيها كان يردد اناس مرتمين كالزكائب - على وجوههم او على جنوبهم - بلا حراك ، في تمصان الجنود ، في ستر البحارة ، في معاطف الضباط . ورأى امامه سباحا واطنا من الاغصان المضفورة ، واحراشا شائكة بلا اوراق . كان رجل طويل الوجه في صدر جندي مبطن يجلس وظهوه الى السياج يفتح فمه ويسده .

قفز روتشين السياج ورأى طريقا عريضا . كانت نوافير الغبار تتقدم عليه بسرعة . انهم البلاشفة يطفون نيران رشاشاتهم على المهاجمين . توقف وتراجع ، وضائق تنفسه ، ونظر وراه . كان الذين قفروا السياج من المهاجمين راكدين . وردد روتشين ايضا ، وضغط خده على الارض الشائكة . وجاهد مجبرا نفسه فرقع رأسه . كان الصف مستلقيا على الأرض . وفي الحقل ، على بعد حوالي خمسين خطوة الى الامام كانت تمتد حديقة ساقية . نهض روتشين قافزا . وركض هذه الخطوات الخمسين وثبا حانيا جذعه . وخفق قلبه بجنون . وقع في طين لزج في الساقية . وجرى الصف كله وراه واحدا وراء الآخر . وسقط واحد او اثنان ولم يضلا الى الساقية . رعد الجميع في الساقية لاهتى الانفاس . كان الرصاص ينهمر مارقا فوق رؤوسهم ، في اعلى الساقية .

الا ان شيئا قد تغير الى الامام فجأة . بدأت الغدائف تنصب نحو التكنات من ناحية غير محددة . وضلعت نار الرشاشات .

نهض الصف بجهد ، واندفع الى الامام . ورأى روتشين ظله الطويل الداكن المحمرة المنزلق على الحقل الوعر . كان يلتوى ، ويصر تارة ويطول اخرى الى ما لا نهاية . وفكر مع نفسه : «يا للفرابة ، ما زلت حيا ، بل والقي ظلا على الأرض» . اشتد اطلاق النار مرة اخرى من ناحية التكنات ، الا ان الصف الناحل الآن استلقى على بعد مائة خطوة منها في الوحدة العميقة . وهناك في قاع الوحدة الضلصالي الرمادي كان ماركوف يروح ويحيى بعينين رهيبتين . وكان لا يفتأ يردد :

- يا سادة ، يا سادة . . . مهلة قصيرة . . . دخلوا ، اللعنة . . . وتكون الضربة الاخيرة . . . الأمر هين . . . مجرد مائة خطوة . . .

وكان الى جانب روتشين ضابط قصير القامة اصلع كان يكرر بصوت خفيض نفس الشتائم البذيئة وهو ينظر الى حافة الوحدة المرسلة نحيارا من ارتطام الرصاص عليها . وكان بعض الرجال قد استلقوا وغطوا وجوههم بأذرعهم . وقرقص رجل وامسك بجبينه وهو يتقيا دما . والكثيرون كانوا يروحون ويجنون في قاع الوحدة كالضباع في قفص . وصدر امر : «الى الامام ، الى الامام !» وبدأ وكان احدا لم يسمعه . شد روتشين حزامه بحركة مرعوضة ، وامسك باغصان اجمة ، وزحف الى الاعلى . انزلق ، فكرز على اسنانه ، واعاد الكرة . وفي اعلى الوحدة رأى ماركوف جالسا القرفصاء . وهو يصيح :

- هجوم ! الى الامام !

ورأى روتشين على بعد بضع خطوات الى الامام نعل ماركوف المتقويين . وسبقه بعض الأشخاص . كانت الشمس الغاربة تغمر بضولها جدار التكنات الاجرى ، وتسطع بتوجهها على شظايا زجاج النوافل المشتمس . خرج بضعة اشخاص من التكنات ، وركضوا في الحقل الى البيوت البعيدة ذات الحدائق الازهارية . . .

كان زحف من المدنيين والجنود يقفون على مقربة من آلة جنباذ محطة لمقاة في الفناء الرمي لتكنات رجال المدفعية . كانت الوجوه شاحبة ممدودة منهكة ، والعيون مسبلة ، والايدي مدلاة بلا حياة . وامامهم وقف عدد اقل من الضباط معتمدين على البينادق . كانوا ينظرون الى الاسرى بقبض شديد . وكان هؤلاء واولئك صامتين ينتظرون . واذا بالتيقب قون ميكة قد دخل الفناء مسرعا متوثبا - وقد عرقسه روتشين - نفس الرجل صاحب العينين الثقيلتين المسودتين الشبيهتين بعيني قاتل . صاح مرحا :

- الجميع . . . الأمر لجميعهم . . . يا سادة ، ليتقدم عشرة منكم . . .

وقبل ان يتقدم عشرة من الضباط مقرعين بترابيس بنادقهم حدثت حركة بين الاسرى . خلع احدهم - وهو رجل عريض الصدر ضخم - قميصه من فوق رأسه . وصرخ آخر بصوت متهدج ، وكان مدنيا غليلا بلا اسنان ان شاربين سوداوين مستقيمين :

- اشربوا ، ايها الطفيليون ، دم العمال !

وتعانق اثنان بقوة . وانشد صوت مبعوح تشييد «الاممية»

بنجمة مختلة : «هب يا عالم العمال . . .» اسند الضباط العشرة
بنادقهم على اكتافهم . وفي تلك اللحظة احس روتشمن بنظرة ثاقبة .
فرجع بصره . (كان جالسا على صندوق يخلع حذاءه .) كانت عينان
(اذ لم ير الوجه) تحديقان فيه بتمتعين لحظة الموت ، وبرفقة
شامخة . . . «عينان رماديتان اليفتان حبيبتان ، يا آلهي !»
- نارا!

وانطلقت الطلقات متفرقة عجل . وارتفع اثنين وصياح . احنى
روتشمن رأسه الى الاسفل ، وراح يشد قدمه التي خدشتها رصاصة
بخرقة قذرة .

وكاليوم الاول لم يجلب اليوم الثاني نصرا لجيش المتطوعين .
صحيح ان ثكنات رجال المدفعية قد احتلت على الجناح الايمن ، الا
انه لم يتقدم في الوسط خطوة واحدة ، وقد الف الفوج الذي كان يقاتل
هناك امره المقدم نيجنتسيف محبوب كورنيوف . وعلى الجناح
الايسر تراجع فوج الخيالة بقيادة اردبيل . وابدى الحمر مقاومة لم
يبداوا مثلها من قبل ، ورغم ان الجرحى كانوا في كل بيت تقريبا في
يكاترينودار . وقتل الكثيرون من النساء والاطفال قرب الخنادق وفي
الشوارع . ولو كان هناك قائد مقتدر مكافح يوجه الهجوم العام
للحمر بدلا من افتونوموف لدمر جيش المتطوعين حتما وابد .
وقد تهلبل وشاعت الفوضى في وحداته .

وفي اليوم الثالث ، وبعد ان سددت الشوغرا في افواج
المتطوعين على نحو ما ارسلت للهجوم مرة اخرى ، وصدت مرة اخرى
الى نقاط انطلاقها . والكثيرون القوا بنادقهم ، ولادوا في المؤخرة ،
في طوابير العربات . وينس الجنرالات . وزار الجنرال الكسييف
المواقع ، ومن رأسه الاشميب ، وانصرف . ولكن احدا لم يجرؤ على
ان يذهب الى القائد العام ويقول له ان اللعبة قد خسرت ، وانه حتى
وان شقوا طريقهم الى يكاترينودار بمعجزة فان من المستحيل
الاحتفاظ بالمدينة منذ الآن .

بعد ان قبيل كورنيوف جبين المقدم المحبوب البيت
نيجنتسيف الذي جلب على عربة الى المزرعة تحت نافذة غرفته اطبق
فيه ولم يتحدث الى انسان بكلمة واحدة ، الا مرة واحدة حين انفجرت
قنبلة شرابنيل قرب بيته ، وخرقت رصاصة واحدة منها النافذة

واصابت السقف ، عندئذ اشار الى تلك الرصاصة باصبع جافة ،
وقال للمرافق خاجيف لسبب ما :
- احتفظ بها ، يا خان .

في ليلة اليوم الرابع ارسل امر القائد العام على كل تلفونات
الميدان : «واصلوا الهجوم» .

ولكن في اليوم الرابع اصبح واضحا لكل انسان ان زخم الهجوم
قد ضعف كثيرا . ولم يستطع الجنرال كوتيبوف الذي خلف
نيجنتسيف التفتيل ان ينهض للقتال فوج كورنيوف (وهو احسن
فوج في الجيش) وكان منطوقا في حدائق الخضروات . وكانت
الوحدات تقاتل بونى . واستمر فوج اردبيل للخيالة في تراجع .
وظل ماركوف يغالب النعاس اثناء السير ، وقد نجح صوته من الصياح
والسباب ، ولم يستطع ضبطه ان يخرجوا انوفهم ابعده من الثكنات .
في منتصف النهار اجتمع مجلس حربي في غرفة كورنيوف
مؤلف من الجنرالات الكسييف ورومانوفسكى وماركوف وبوغايفسكى
وفيليبونوف وديكين . استمع كورنيوف الى تقرير رومانوفسكى
ضاماراسه الاشيب الصغير في كتفيه :

«لا توجد قذائف ، ولا توجد خراطيش . والمتطوعون من
الفوزاق يغادرون الى قرأهم . والافواج كلها مهلهلة . والحالة
النفسية مكتئبة . والكثيرون من غير الجرحى يتركون خطوط القتال
الى طوابير العربات . . .» وما الى ذلك . . .

كان الجنرالات يصغون مطرقى الابصار . اتكأ ماركوف على
كتف احد الجنرالات وغفا . وفي الضوء الشاحب (حيث كانت الستارة
مسدلة على النافذة) كان وجه كورنيوف البارز الوجلجوج مثل وجه
مومياء جافة . تكلم بصوت كامد :

- وهكذا فان الوضع ، يا سادة ، حرج بالفعل . وأنا لا اجد
مخرجا غير الاستيلاء على يكاترينودار . قررت الهجوم في فجر الغد على
المدينة على طول الجبهة . وقد بقى فوج كازانوفيتش في الاحتياط .
سأقوده بنفسى في الهجوم .

وتخرمن انه فجأة . ظل الجنرالات في جلستهم المطرقة . وبغفوية
هتف الجنرال دنيكين الركين ذو اللحية التي وخطها الشيب . الشيبه
يسرف دؤوب ، والمصاب بالتهاب القصبات : «أوه ، يا إلهي ، يا

إلهي!« وسعل ، وسار نحو الباب ، التي كورنيلوف على ظهره نظرة خاطفة من عينيه السوداوين اللامعتين . واستمع الى الاعتراضات ، ونهض ، وفض المجلس العربي . وحده الاول من تيسان موعدا للهجوم العاصم .

بعد نصف الساعة عاد دنيكين الى الغرفة ، وما يزال صدره يصفى . وجلس ، وقال برفق :

— يا صاحب الفخامة ، اسمح لي أن اطرح عليك سؤالاً من رجل لرجل :

— أنا سامع لك ، يا أنتون يفانوفيتش .

— يا لافر غيورغيفيتش ، لماذا أنت متصلب الى هذه الدرجة ؟

رد كورنيلوف على الفور ، وكانما حضر هذا الرد منذ زمان :

— لا يوجد مخرج آخر . اذا لا تحتل يكاترينودار ساطلق رصاصاً على جيبيتي ، (واشار الى صدغه باصبعه المقضوم ظفروه حتى الجلد .)

— لا يحق لك أن تفعل ذلك ! — ورفض دنيكين يديه الممتلئين البيضاوين جداً الى صدره . — امام الله ، امام الوطن . . .

من سيقود الجيش ، يا لافر غيورغيفيتش ؟

— أنت ، يا صاحب المعالي . . .

وبإشارة من نفاذ الصبر جعل مفهوما ان الحديث قد انتهى .

كان صباح العاды والثلاثين من آذار حاراً صاحبياً . راحت موجات التبخر تتصاعد من الأرض التي أخذت تخضوضر . كانت مياه كوبان الصفراء الكدرة تجري بكسل بين الضفاف العالية لا يعكر هدوها غير قفزات السمك . كان الهدوء يخيم . وبين أونة وأخرى فقط كانت تنطلق رصاصاً ، ويهدر مدفع من بعيد ، وتصفر قنبلة

كان الناس يستريحون ليبدأوا معركة دموية جديدة في الغد .

كان الملازم دولينسكي يدخل على مقدمة البيت ويفكر مع نفسه : «اود لو اغسل ثوبي وملابسي الداخلية ، وجوزي . . .

ولطيف لو اغسل» . بل كان ثمة طائر طائش يغرد مرحاً في الحرش . رفع دولينسكي رأسه واذا به يسمع صوت قنبلة تنفج فجأة في العرش الأخضر ، و تنفجر بقرعة حديدية . كف الطائر عن التفريد .

التي دولينسكي عقب السيكرة على دجاجة حقاً ، لا يُعرف كيف لم يصنع منها حساء . و زفر ، وعاد الى البيت ، وجلس قرب الباب ، الا انه وقف على قدميه فجأة ، ودخل الى الحجرة الخافتة الضوء . كأن كورنيلوف يقف عند الطاولة يعدل بنطاله . سال بغفوت :

— ألم يهيا الشاي بعد ؟

— سيكون جاهزاً بعد دقيقة ، يا صاحب الفخامة . لقد دبرت الأمر .

جلس كورنيلوف الى الطاولة ، وحط عليها كوعيه ، ووضع كفه الجافة على جيبيته ، وفرك غضونه .

— اردت أن اقول شيئاً ، يا ملازم . . . اوه ، نسيت . مصيبة . . .

انحنى دولينسكي على الطاولة منتظراً سماع شيء . ان كل ذلك غريباً على القائد العام — الصوت الخافت ، والارتباك — حتى ان ذلك افرعه .

كرر كورنيلوف :

— مصيبة . . . سأذكر ، بالطبع ، لا تخرج . . . قبل لحظة كنت انتظر من النافذة . . . صباح رائع . . . نعم ، الأمر كالأتي . . .

صمت ورفع رأسه متسمعاً . والان حتى دولينسكي سمع هدير قنبلة مقرب مثير ، بدا وكأنه في النافذة المسدلة الستار .

ترجع دولينسكي . حدث انفجار رهيب في الأعلى . وتفجر الهواء . واندلع اللهب . واقتذف جسم القائد العام الى الأعلى متفرج الاعضاء . . .

ورجد دولينسكي نفسه مقدوفاً من النافذة . وقعد على العشب ، وقد تغطى بالكلس الأبيض ، وسفاته ترتجفان . وتراقص الناس اليه . . .

كان احد الاطباء يقرص مشغولاً عند جسده كورنيلوف المطروح على نقالة ومغطى الى النصف بسترة قوزاقية . وعلى مسافة وقف رهط من ضباط الأركان ، وكان دنيكين اقربهم الى النقالة ، يضع على رأسه طاقية عريضة بطريقة خرقاء .

قبل دقيقة كان كورنيلوف يتنفس ، ولم تكن على جسده اصابات ظاهرة ، مجرد خدش صغير عند الصدغ . كان الطبيب لا

يشير انتباه احد ، ولكنه ادرك في تلك اللحظة ان كل الانظار متجهة اليه ، وبالرغم من انه كان واضحا له ان النهاية قد حلت ، الا انه ظل يعاين الجسد بهيئة اهتمام . نهض بتزودة ، وعدّل نظارته ، وهز رأسه ، وكأنه يقول : «مع الاسف ، الطب في هذه الحال عاجز» .

تقدم منه دنيكين وتكلم معه بصوت مكتوب :

- قل لنا شيئا يسرى عنا .

يسط الطبيب ذراعه ، وقال :

- بلا أمل ! انتهى .

اخرج دنيكين المنديل بحركة راعصة ، وضمه الى عينيه ، وفركهسا ، واهتز جسمه الركين واسترخى . اقتربت منه جماعة من ضباط الأركان ، ولم تعد تنظر الى الحقنة ، بل الى دنيكين . ركع على ركبتيه ، ورسم علامة الصليب على وجه كورنيوف الشمعي الاصفر ، وقبّله من جبينه . رفعه ضابطان ، وتحدث ثالث بانفعال :

- يا سادة ، متى يتسلم القيادة ؟

- انا بالطبع ، انا اتسلمها - هتف دنيكين بصوت عال منتحب - هناك امر بذلك من لافر غيورغيفيتش من قبل ، وقد تحدث الىّ بذلك يوم امس ...

في تلك الليلة غادرت جميع وحدات جيش المتطوعين مواقعا بسكون . واتجه الشاة والغيالة وطواير العربات ومستشفيات الميدان والعربات المحملة بالمشخصيات السياسية شمالا صوب ضياع غناشباو حاملة معها جثمان كورنيوف وجثمان نيجتسيف . وفشلت حملة كورنيوف . وقتل القادة الكبار ونصف المشتركين فيها . وبدا وكان مؤرخي المستقبل لا يجتاجون الا لبضع كلمات لذكرها .

ولكن في الواقع كانت «الحملة الجليدية» لكورنيوف ذات اهمية كبيرة . فان البيض وجدوا فيها لأول مرة لسانهم ، واسطورتهم ، ومصطلحاتهم القتالية صعودا حتى وسام البيض الجديد والذي يصور على شريط غيورغى القديس سيفا وتاجا من شوك .

وبعد ذلك ، وخلال حملات التجنيد والتعبئة ، وفي الجدالات المزعجة مع الاجانب ، وخلال ظهور سوء التقام مع السكان طلعموا

بتاج الاستشهاد العظيم كأول وارفع محاججة لهم . ولم تكن هناك معارضة . فلا بأس لو ان احد الجنرالات ، مثلا ، ضرب سكان قضاء كامل باخامص البنادق ، فان الذين فعلوا ذلك هم شهداء عظام وخلقاء الشهداء العظام ، ولا يمكن ان يطبق العقاب عليهم .

لقد كانت حملة كورنيوف استهلالا يرفع بعده الستار عن تراجيديا ، تتابع فيها المشاهد امام الانظار بكثرة موجعة ، وكل مشهد افزع واشد فتكا من سابقه .

٤

قفز الكسى كراسيلنيكوف من مرارة العربة ، وحمل اخاه على يديه كالأطفال ، ووضع على الرصيف . كانت ماتريونا تقف عند الجرس قرب باب المحطة . لم يعرفها سيميون رأسا ، فقد كانت ترتدى ثوبا من صنع المدينة . وشعرها الأسود اللامع مشدودا بمنديل ابيض نظيف على موضة سوفيتية جديدة . وكان الخوف مرتسا على محياها الفتى المستدير الجميل ، وشفتاها مطبقتين . وحين اقترب سيميون مستندا على اخيه لا يكاد يحرك رجليه رعشت عينا ماتريونا البتيتان ، وارتعش وجهها . وقالت بخفوت :

- يا عزيزي . . بهذه الحال صرت !

زفر سيميون في الم ، ووضع يده على كتف زوجته ولثم بشفتيه خدما التنظيف البارد . اخذ الكسى السموط من يدها . ووقف الثلاثة صامتين برهة . قال بعدها الكسى :

- ذلك هو زوجك . كانوا يحاولون قتله . ولكن لم ينجحوا في ذلك . لا بأس . سنحصد سوية . فلنذهب يا عزيزي .

طوقت ماتريونا ظهر سيميون بحنان وقوة ، وواصلته الى عربة وضعت فيها مخدات مطرزة على بساط من حياكة بيتية . واجلسته هناك . وجلست هي الى جانبه مادة الى الامام ساقبها اللايستين حذاء جديدا من طراز مدنى . قال الكسى مرحبا وهو يعدل طول المؤخرة :

- في شباط تغلف أحد الخيالة عن القطار العسكري . وخلال يومين ملأته بالخمرة البيئية ، وفضلا عن ذلك اعطيته خمسمائة روبل من عملة كيريسكي . فانظر اى حصان اخذت منه . - وضرب الحصان الاصهب القوى على كفله بركة . ووثب الى مقدمة العربة ، وعدل وضع قبعته من فراء الغنم ، وسحب الاغصنة . ثم ساروا في الطريق الريفي خلال حقول في بداية خضرتها غردت فوقها بحماس قبرة صغيرة تصفق جناحيها في ضوء الشمس . اطلت ابتسامة على وجه سيميون المعتل غير الحليق . شدته ماتريونا اليها وسالته بصبرها فأجاب :

- نعم ، انتم هنا تتمتعون . . .

تحت ثقل جعل يديها العاريتين حتى الكوع ، حمراوين ، واخرجت القدر الحديدى لحساء الكرنب ، وكان قد وضع على المائدة شحم الخنزير المقدد ، وبطة مدخنة ، وسلم مجفف . واقت على الكسي نظرة سريعة ، فغمز لها . عندئذ جلبت جرة من الفخار مترعة بالخمرة المقطرة بيتيا .

ثم جلس الاخوان الى المائدة . ناول الكسي اخاه القدر الاول . احتت ماتريونا واسها تشجيعا . عند ذلك شرب سيميون الكحول الملتهب في جرة واحدة تقريبا ، مسح كل من الكسي وماتريونا عينييه . ومعنى ذلك انهما سعيدان جدا بان سيميون حتى يجلس معهما الى المائدة .

عندما انتهوا من احتساء حساء الكرنب قال الكسي :

- نحن لا نعيش حياة مدعشة ، ولكن حياة لا بأس بها ، مقطرة .

وقعت ماتريونا الضحون التي جمعت فيها العظام وجلست بالقرب من زوجها . فاستطرد الكسي في القول :

- هل تذكر الحقل قرب العرش عند بيت الامير ، الحقل السسمى ذا القاع الذهبى ؟ عملت ضجيجا كبيرا في القرية . قطرت للفلاحين ستة جرادل من الخمرة فخصصوا هذه الارض لى . وقد حرثناها انا وماتريونا هذه السنة . وحصلنا في الصيف الماضى على غلة لا بأس بها من شريط الارض عند النهر . وكل ما تراه : السرير ، والمرأة ، ودلات القهوة ، والملاعق والشوكات ، وغير ذلك من الاشياء والحاجات حصلنا عليها في هذا الشتاء . ان زوجتك ماتريونا ربة بيت ماهرة . لا تقوت موعدا واحدا للسوق الريفية . انا ما ازال على الطريقة القديمة ابيع كل شيء بالنقود . اما هي فلا . تدبج خنزيرة او دجاجات وتأخذها على عربة مع الطحين والبطاطس ، وتنزول الى المدينة . . . ولا تذهب الى السوق ، بل تذهب الى السادة السابقين في شققهم ، وتقلب عينيها وتقول : «السرير ببودين من الطحين وستة ارطال من شحم الخنزير . . . وهذا الدثار اشترته ببطاطس . . .» ستفجر ضاحكا حين ترائنا عائدتين من السوق . . . كالفجر . . . عربتنا محملة بالحاجات كثيرة .

احس سيميون بهجة وهو يدخل البيت الريفي الرحب المبيض جيدا . صفقات خضر على النوافذ الصغيرة ، ومقدمة البيت جديدة من الخشب . وها هو الباب الوطنى الاليف قد عبر عتبه فاذا به يرى الموقد المدفأ المبيض بالبطاشير تبيضها جيدا ، والمنضدة الركنية المغطاة بمفرش مطرز ، وعلى الرف اوان ليست ريفية ابدأ بل من التيكال والصينى ، والى اليسار مغدع ماتريونا بسريره المعدنى العريض المغطى بدار مدتل ، وكثرة من الوسائد العالية ، والى اليمين غرفة الكسي (حيث كان الاب المتوفى يعيش من قبل) ، وعلى الحائط لجام وسرج وعدة عربة وسيف وبندقية من صورة فوتوغرافية ، وفي الغرف الثلاث كلها وضعت زهور في مزهريات بعناية ، والدريقة والصابار . . . وكل هذا اليسار والنظافة ادعشا سيميون الذى ظل غائبا عن البيت عاما ونصف العام ، واذا به يجد الدريقة والصابار امامه وسريرا كسريير الاميرة ، وثوبا من خياطة المدينة على ماتريونا . قال وهو يجلس على المسطبة :

- انتم تعيشون كأصحاب الاطيان . - وراح يفك لفاحه بصعوبة . وضعت ماتريونا ثوبها الحضرى في الصندوق ، وشندت منزرا ، وتلبت مفرش المائدة على وجه الآخر ، وراحت تعقد المائدة بسرعة . مدت شوكة الموقد داخله ، وانحنت الى الارض

قالت ماتريونا وهي تعصر يد زوجها :

- هل تذكر ابنة خالتي أفدوتيا ؟ أكبر مني بعام واحد .
مخطوبة للكسى .

ضحك الكسى ، وراح يقلب في جيبه .

- النسوان قررن ذلك قبلى أما أنا يا أخى فقد مللت
حياة الترمل حقا . سكر وعُهر . وفي النتيجة تلحق المرء قذارة لا
يستطيع أن يتخلص منها فيما بعد

أخرج كيسى التبغ وغليونا محروقا مزينا بعلييات نحاسية
تدلى منه ، وحشما بالتبغ المصنوع بيتيا ، وتساعد الدخان في
جو البيت . احس سيميون بالدوار من الكلام ومن الخمرة . فلبث
جالسا يستمع ويتعجب .

في الغسق اخذته ماتريونا الى الحمام ، وصوبت له بعناية ،
وغلفته بالبخار ، ولدكته بالليف ، ولفته بفرقة خروف ، وعادوا
ثانية الى المائدة ، وتعشوا ، وافرغوا ما في الجرة الفخارية الى
آخر قطرة . ورغم ان سيميون ما زال ضعيفا الا انه استلقى مع
زوجته في الفراش ونقا وذراعها العارة حول رقبته . وعندما فتح
عينيه في الصباح رأى البيت نظيفا مدقنا . كانت ماتريونا تعجن
العجين وفي عينيه لمعان ، وعلى شفتيها ابتسامة تكشف عن اسنانها
البيضاء . وبعد قليل سيحين موعد عودة الكسى من الحقل لتناول
فطوره . كان ضوء الربيع يتدفق من النوافذ النظيفة ، ويتحرك
لمعانا على اوراق الدويقة . فقد سيميون في السرير وتمطى . وكان
حالته تحسنت ضعفين خلال اليوم الثالث والليله التي قضاها مع
ماتريونا . ارتدى ملابسها واغتسل ، وطلب عدة حلاقة اخيه ، وحلق
في غرفته امام شظية المرأة على النافذة . وخرج الى الشارع ، ووقف
عند البوابة ، وحينما شبيخا مسنا جالسا في الحديقة الامامية
المجاورة عاش في عهد سيطرة اربعة اباطرة . خلص العجوز
قبعته ، واحنى راسه باعتبار . واستمر على جلسته ماذا ساقته
الميتبتين في جذانها اللبادى باستقامة ، واضعا يديه المعروقتين على
عجرة عصاه .

كان الشارع الاليف مقفرا في تلك الساعة من النهار . وكانت
اشرطة خضرة الجيوب تلوح بين البيوت على امتداد البصر . وعلى

الاكمام عند خط الافق كانت العربات تلوح هنا وهناك غير
مربوطة بخيول ، نظر سيميون يسارا فرأى طاحونتين فوق رأس
منحدر طباشيرى تدور دواليبهما بونى . وعلى المنحدر الى الاسفل
لاح برج جرس ابيض بين البساتين والسقوف القشبية . وورا ،
حرس ما زال غير مروق كانت الشمس تنعكس ملتبهة على نوافذ دار
الامير السابقة . وكانت غرابان القيط تنعب فوق اعشاشها . وكان
العرش ومقدمة البيت الجميلة منمكستين في بركة فيضان . وهناك
كانت الابقار تبرك ، والاطفال يتراكضون .

وقف سيميون ينظر من تحت حاجبيه ، وقد حشر يديه في
جيبه الواسعين لستره اخيه . نظر واحس بلوعة في صدره .
وبالتدريج ، ومن خلال موجات الحر الشفافة المتدفقة على القرية ،
وفوق الحدائق اليبليقية ، والارض المحرونة كان لا يلوح في عين
خياله هذا العالم وهذا السكون . جاء الكسى على عربة ، وناذاه
مرحا وهو ما يزال بعيدا . فتح البوابة ، وامعن البصر في
سيميون . فكّ عدة الحصان ، واخذ يغسل يديه تحت المقسلة
المعلقة في الفناء . وقال بحنان :

- لا بأس ، يا أخى ، ستتعود . أنا ايضا عندما عدت من
الجهة الالمانية كنت اعاف كل شيء لان امام عيني دما . . .
وضجرا . . . آه ، لعنة الله على هذه الحرب . . . تعال نتناول
فطورنا .

صمت سيميون . ولكن ماتريونا ايضا لاحظت ان زوجها
حزين . بعد الفطور عاد الكسى الى الحقل . وخرجت ماتريونا حافية
رافعة اذبال توبها ، لتحمل الروث على الحصان الثانى . استلقى
سيميون على فراش اخيه ، وتقلب ولم يستطع ان ينام . انقل الحزن
على قلبه . فكر وهو يكن على اسنانه : «انهما لن يفهمانى ، ولذا
ليس من الضروري ان اتحدث معهما في هذا الموضوع» . ولكن في
المساء حين خرج الثلاثة وجلسوا على قرمة عند البوابة ، لم يصطبر
سيميون فقال :

- على اية حال يجب ان تنظف البندقيه ، يا الكسى .
- لتذهب البندقيه الى الجحيم . . . منذ الآن والى مائة عام
لن نحارب .

- فرحك مبكر ، مثل اهتمامك باليسار والراحة .

امتص الكسي من غليونه ، وصبق بين رجليه قائلا :

- وانت ايضا لا تدملم مفصوما قبل الاوان . تعال نتحدث كقلاجين . فلستنا في اجتماع عام . فانا اعرف كل ما يقوله في الاجتماعات العامة . وقد صرخت نفسى بها . فقط ان تكون قادرا على الاستماع لما هو ضرورى لك اما غير الضرورى فاطرحه جانبا . اذا قلت ان الارض للشغيلة ، فهذا حق تماما . اما لجان فقراء الفلاجين فنحن في القرية ضيقنا تصرفات اعضائنا . وفي قرية سوسنوفكا تفعل اللجنة ما تشاء . والمصادرة وسوء الادب قد بلغا الهامة . وقد تحولت ضبيعة الكونت بوبرينسكى الى السوفخور ، ولم يقتنعوا للفلاجين شيئا واحدا من الارض . ومين تتألف اللجنة ؟ من اثنين من معدمي المنطقة . اما البقية فالشيطان يعرفهم . منهم غرباء ، ومحكومون سابقون . . . هل فهمت ام لا ؟ .

استدار سيميون قائلا :

- ليس هذا ما عنيبت . . .

- اذا كان ذلك لم تعنه فانا الذى اعنيه . في عام ١٩١٧ صرخت في الجبهة عن البرجوازية . واصيبت برصاصة في رجلي ، عسى الله يعطى العافية لمن اصابنى بها ، فقد سرخت الى البيت راسا ، ورايت ميما اكلت فانك ستجوع غدا لا محالة . وتطلب طعاما . اكدح . . .

ضرب سيميون القرمة باغافره :

- الارض تلتهب تحتكم ، وانتم تائمون .

قال الكسي باصرار :

- ربما عندكم في الاسطول او في المدن لم تنته الثورة بعد . اما عندنا فقد انتهت حالما سمعوا الارض . والآن هذا ما سيحدث : سنجمع الغلال اولا ثم تلتفت الى لجان الفقراء . وحتى عيد القديس بطرس لن نترك لجنة واحدة . سندفن اعضاءها احياء في الارض . نحن لا نخاف الشيوعيين ، ولا اى شياطين . فتذكر ذلك . . .

قالت ماتريونا بخفت :

- كفى ، يا الكسي ايفانوفيتش . انظر اليه يرتعش بكل كيانه . امعقول ان تجرى تحقيقات مع مريض ؟

صاح سيميون :

- لست مريضا . . . بل انا غريب هنا !

وتهض وسار نحو سياج الحديدية .

وانتهى الحديث عند هذا الحد .

كان خفاشان مثل غفريتين يطيران في شريط الغروب المنطفي . وكانت بعض التوافذ مضاءة ذلك لان الناس كانوا ينهون عشاءهم . وحملت الريح اغنية من بعيد باصوات فتيات . ثم انطعت الاغنية ، وحلت مكانها كركبة حوافر منطلقة في الشارع العريض في غيبس السماء . توقفت الفارس وهتف بشيء ما ، ثم اطلق العنان لخصانه من جديد . اخرج الكسي غليونه من فمه ، وتسمع ، وتهض من على القرمة .

وقالت ماتريونا بصوت مرتجف :

- اهي بلية ؟

واخيرا ظهر الفارس وهو قتي حاسر الراس ، حافي القدمين . . .

وصاح :

- الالمان قادمون ! . . . قد قتلوا اربعة اشخاص في قرية سوسنوفكا ! . . .

في منتصف آذار ، حسب التقويم الجديد ، وبعد ان عقد الصلح ، بدأت القوات الالمانية هجوما على اوكرانيا والتباس على طول الجبهة من ريغا حتى البحر الاسود .

بسوجب بنود الصلح كان يجب ان يحصل الالمان من الحكومة المركزية الاوكرانية على ٧٥ مليون بود من الحبوب ، ١١ مليون بود من العاتسة العية ، ومليونى دجاجة وبطة ، ومليونين ونصف مليون بود من السكر ، و٢٠ مليون ليتر من الكحول ، والفين وخمسائة عربة قطار محملة بالبيض ، و٤ آلاف بود من الشحم الى جانب الزبدة والجلود والصوف والاخشاب وغيرها . . .

هاجم الالمان اوكرانيا وفق كل قواعد الحرب : بطوابير من ذوى البزات الخاكية والغوذ الفولاذية . واكتسحت المدفعية الالمانية الثقيلة حواجز القوات الحمراء الضعيفة .

سارت القوات وطواير السيارات ومجاميع عائلة من المدفعية الثقيلة عليها خطوط مبرقشة الألوان للتويه ، وقرعت الدبابات والسيارات المصفحة ، وجلبت عوامات وجسور كاملة للعبور . واڑت اسراب الطائرات في السماء .

لقد كانت تلك مسيرة التكتيك على شعبس اعزل تقريبا . فكانت الفصائل الحمراء المؤلفة من قدامى المحاربين والفلاحين وعمال المناجم وعمال المدن السينة التنظيم والافل عددا بعدة مرات من القوات الالمانية تتراجع مقاتلة الى الشمال والى الشرق .

وفى كيفيف حلّت الحكومة المركزية الاوكرانية التي قدمت اوكرانيا للالمان ، ونصب في محلها الجنرال سكوروبادسكى من حاشية القيصر السابق . كان يرتدى المعطف الأزرق على التقليد الاوكرانى ، ويضع يده على صدره ، ويمسك بصولجان الهيتمان : «عاشت اوكرانيا الحقبة ! منذ الآن والى الابد سيستتب السلام والنظام والرخاء . العمال الى آلاتهم ، والفلاحون الى محاربتهم ! والحرر الى جهنم !»

بعد اسبوع من مجيء الفارس بالخبير الرهباني في الشارع العريض في قرية فلاديميرسكويه ظهرت كوكبة من الخيالة فوق المنحدر الطباشيري بالقرب من الطاوحتين في الصباح الباكر مؤلفة من عشرين خيالا تمتطي خيولا سوداء ضخمة - رجال ضخام في هيئة غير روسية يرتدون سترا قصيرة خضراء وهادسة وقبعات عالية ذات اشربة . اطلوا على القرية من عل ، وترجلوا .

كان ما يزال في القرية اناس ، فان الكثيرين منهم لم يخرجوا بعد الى الحقول . تراكض الاولاد من بوابة الى اخرى ، وتنادت النساء عبر اسبجة حدائقهن وسرعان ما تجهر جمهور في ساحة الكنيسة . واتجهت الاعين الى الأعلى ، حيث نصبت رشاشتان بالقرب من الطاوحتين ، وكانتا تبدوان بوضوح .

وبعد ذلك بقليل قرعت عجلات مصفحة بالحديد في شارع القرية من الجانب الآخر ، وطلق سوط ، ودخل الساحة حصانان بنيان مزبدان في عدو سريع يجران عربة عسكرية . كان على مقعد

الحوذى جندي اخرق ذو عينين وضياءتين وفك طويل يرتدى سترة ضيقة وطاقيّة مسطحة . وقد جلس وراءه ضابط الماني متخصص وهو سيد في هيئة غريبة صارمة يضع زجاجة على عينيه ، وقبعة جديدة انيقة مثل قبعات الدمي . والى يساره رجل تعرفه القرية هو مدير اعمال الأمير الذي كان قد هرب من الضيعة في الخريف الماضي في ملابسه الداخلية .

اما الآن فقد كان غريغوري كارلوفيتش ميلس هذا يجلس مقطب الحاجبين مستدير الوجه الحليق يضع نظارة مذهبة الاطار ويلبس معطفا جيدا وقبعة مدفنة . احس الفلاحون بحكة في جلودهم حين وقعت ابصارهم عليه .

صاح الضابط الغريب الهيئة باللغة الروسية فجاء : «اخلعوا القبعات !» خلص بعض الذين كانوا على مقربة منه قبعاتهم على مضض . وساد السكون الساحة . ظل الضابط على جلسسته مغمورا والتعمت الزجاجة على عينيه ، وبدا يتحدث مغرجا الكلمات بعسر ، ولكن ينطق سليم :

- يا فلاحى قرية فلاديميرسكويه ، ها قد رأيتم على الرابية ، هناك ، رشاشتين المائيتين ، وهما تعملان بشكل ممتاز . . . وانتم ، بالطبع ، فلاحون ذو تفكير سليم ، وأنا لا اريد ان الحق بكم اذى . ويجب القول ان قوات الامبراطور غليوم الالمانية جاءت اليكم لتعيد بينكم حياة الناس الشرفاء . نحن الالمان ، لا نحب ان تُسرق ملكية الآخرين ، وسنعاقب على ذلك عقابا لا رحمة فيه . وقد علمكم البلاشفة بشكل آخر ، اليس كذلك ؟ ومن اجل هذا طردنا البلاشفة ، ولن يعودوا اليكم ابدا . انصحكم بان تفكروا جيدا باعمالكم السينة ، وبان تعيدوا في الحال الى صاحب هذه الضيعة من سرقتوه منه . . .

اثارت هذه الكلمات نحنة عصبية في الجمع . كان غريغوري كارلوفيتش طوال الوقت جالسا وقد نزلت شرابته قبعتسه على عينيه ، وراح يمعن النظر في الفلاحين . وفى مرة واحدة لاحت على وجهه المبتلى "ابتسامة الظفر ، والظاهر انه تعرف على واحد في

الجمع . انهى الضابط خطابه . وصمت الفلاحون . قال الضابط مخاطبا غريغوري كارلوفيتش :

- اديت واجبي . والان تحدث أنت ، يا سيد ميل .
رفض غريغوري كارلوفيتش هذا الاقتراح بأدب جم :
- ليس لدى ما اقلته لهم ، ايها السيد الملازم . انهم
فهوا بدون كلامي .

قال الضابط الذي لم يكن يعنيه الامر :

- حسنا . سر ، يا وغمست !

ضرب الجندي ذو الطاقة المسطحة بسوطه ، وتدرجت العربة
العسكرية بين الحشود المتراجع متجهة الى بيت الامير حيث كانت لجنة
القضاء التنفيذية تتخذ مقرها قبل ثلاثة ايام . وراح الفلاحون
يتطلعون في اثر العربة .

قال صوت في الجمع :

- جلس الالمانى مخوضرا .

- وغريغوري كارلوفيتش ملتزم الصمت ، يا اصحاب .

- انتظروا ، وسياتيكم كلامه .

- مصيبة . وماذا فعلنا لنستحقها ؟ .

- عن قريب سيحضر ضابط البوليس .

- قد جاء في قرية سوسنوفكا . دعا الى اجتماع ، وامطر
المجتمعين سبابا . وقال لهم يا نهابين ولصوص هل تسيتم عام
١٩٠٥ ؟ وتترثر ثلاث ساعات ، شاتما اياهم طوال الوقت . وشرح
النظام كله .

- ماذا سيكون الآن ؟

- الجلد .

- انتظر ، وماذا عن الارض المزروعة ؟ لمن تكون الآن ؟

- بالمناسبة . سيتركونا نجعم الغلة ، والنصف للامير .

- اوه ، يا للشيطان ، انا راحل .

- الى اين راحل ، يا احمق ؟ .

وبعد ان تحدثت الفلاحون تفرقوا . وفي المساء اعدوا الى بيت
الامير الارائك والقاعد والاسرة والسنانر والاطارات المذهبة
لكمزايا والورحات .

تعضوا في بيت كراسيلنيكوف دون ان يوقدوا الضوء . كان
الكسي يضع ملعته غير مرة وينظر من النافذة ، ويذفر . وكانت
ماتريونا تسمير بهدوء كالفارة ما بين الموقد والمائدة . بينما جلس
سيميون محدوبا ، وشعره الداكن المتجدد ينزل على جبينه . كانت
ماتريونا تمسه من الحن الى آخر يديها او صدرها كلما نظفت
المائدة من الكسر او وضعت اناه بطعام جديد . الا انه كان لا
يرقع رأسه ، وظل صامتا متجهما .

وفجأة اندفع الكسي الى النافذة ، ونقر زجاجها باظافره ، واطل
منها . الآن ، وفي سكون المساء كان يسمع بوضوح صياح وحش
طويل آت من بعيد . قعدت ماتريونا على المصطبة في الحال ، وحشرت
يديها بين ركبتيها .

قال الكسي بصوت خافت :

- انهم يجلدون فاسكا ديميتيف . قبل مدة اخذوه الى

بيت الامير .

هستت ماتريونا :

- هذا الثالث .

وصمتوا ، وتسمعوا . وكان الصراخ ما يزال يخيم على مساء
القرية بنفس التبرة من القنوط والربع .

نهض سيميون فجأة . وشد الحزام على بنطاله بحركة
مقتضية ، وذهب الى اخيه في الغرفة . تبعته ماتريونا صامتا . انزل
البندقية من الحائط ، طوقته ماتريونا من رقبته ، وتطلعت بها .
دافعة رأسها الى الخلف ، صاكة اسنانها البيضاء ، وجمدت . اراد
سيميون ان يدقها عنه الا انه لم يستطع . سقطت البندقية على
الارض الترابية . عتدته استلقى على السرير متكفنا بوجهه على
الوسادة . جلست ماتريونا على مقربة ، ممسدة بحركات سريعة
شعره الخشن .

رجا غريغوري كارلوفيتش ميل مدير اعمال الامير ان ترسل
حامية الى قرية فلاديميرسكويه غير معتمد على قوة الحراس
والغابداماك - قوات الهيتمان الجديدة . وكان الالمان يوافقون في

مثل هذه الأحوال عن رضى . دخلت الى القرية فصليتان ومعهما
وشاشات .

وسكن الجنود في بيوت الفلاحين . وشاع بين الناس ان
غريغورى كارلوفيتش نفسه عين البيوت التي ستسكن . وعلى اية
التي فقد عين لكل من الفلاحين الذين اشتركوا الاستباحة التي حدثت
في العام الفائت لضبعة الأمير ، او كل عضو من اعضاء اللجنة
التنفيذية للقضاء من غير الحزبيين (وكان قد اخفى حوالي عشرة
شبان من القرية قبل مجيء الالمان) جنديا واحدا مع حسانه ليطعمهما .
وهكذا طرق بيت الكسى كراسيلنيكوف جندي الماني سهم
بكل لباسه العسكري يحمل بندقية ويرتدي خوذة وغيرها . وظهر
لالكسى الأمر الصادر وهو يتقوه بكلمات غير مفهومة ، ثم ربت على
كتفه قائلا :

- تمام ، صديق . . .

وخصصت للجندى غرفة الكسى ، ولم يأخذوا منها سوى
عدة العربية والسلاح . وهيا الجندي مكانه في العال . فرش
بطانية جيدة ، وعلق صورة غليوم على الحائط ، وطلب ان تنظف
الارض على نحو احسن .

وبينما كانت ماتريونا تنظف الارض جمع ملبسه الداخليه
وطلب ان تقسم متفوها مزيجا من الكلمات الالمانية والروسية
المشوهة . ولما رضى عن كل شيء انهد بحدانه على السرير ، وراح
يدخن سيكارة .

كان الجندي يدينا له شاربان مسطحان مرفوعان الى الأعلى :
والثياب التي يرتديها جيدة ومرهجة . وكان يأكل كثيرا كالتخزير
المخصى . اكل كل ما جلبته ماتريونا في القرية . وقد اعجبه بشكل
خاص شحم الخنزير المملح . وكانت ماتريونا تأسف اشد الأسف
على تقديم شحم الخنزير للالمانى ، الا ان الكسى قال : «لا عليك ا
دعيه يعلف وينام . شرط الا يحشر انه في اى مكان» .

وفي اوقات فراغه كان الجندي يترنم باناشيد عسكرية او
يكتب رسائل الى وطنه على بطاقات بريديه تحمل مناظر كييف . لم
يشاكس ، ولكنه كان يسيغ بغطى ثقيلة عالية ، ويضرب الارض
بحدانه وكانه سيد البيت .

وخيم على بيت كراسيلنيكوف سكون وكانما قد فجعوا بفقد
كانوا يجلسون الى المائدة وينهضون صامتين ، والكسى حزين تلوح
التجاعيد على جبينه ، وماتريونا شاحبة الوجه ، تنتهسد وتمسح
الدموع خلسة بمنزرها . وكانت اكثر ما تخاف ان يفقد سيميون
السيطرة على نفسه . الا انه في تلك الايام يبدو وكأنه قد هدأ
وانطوى على نفسه .

والآن صارت تلصق في كل يوم على دار ادارة القضاء وعلى
بوابات البيوت اوامر الهيئتان حول اعادة الارض والماشية الى
اصحاب الاطيان ، وحول المصادرة والضرائب ، وحول بيع الحبوب
الاجبارى وحول العقوبات الصارمة لكل معاولة للتمرد واخفاء
الشيوعيين وغير ذلك .

وكان الفلاحون يقرأون الاوامر ويلوذون بالصمت . ثم
شاعت شائعات خبيثة تقول ان التجار دخلوا احدى القرى تحت
حراسة الخيالة الالمانية ، واخذوا معهم حتى الحبوب غير المدروسة ،
ودفعوا اوراقا نقدية غير روسية حتى ان النساء لم يردن اخذها ،
وانهم في قرية اخرى ساقوا نصف الماشية بل وفي قرية ثالثة لم
يبقوا على شيء حتى ما تتلقطه العاصف .

وبدا الفلاحون يجتمعون جماعات صغيرة ليلا في اماكن
سرية ، واخذوا يسمعون الحكايات ويتكلمون . ما العمل ؟ وبم
العون ؟ ان قوة جبارة تجزم على القرية لا تستطيع معها الا ان
تتنفس ولا تبدى صوتا .

اخذ سيميون يتردد على هذه الاجتماعات خلف البيوت ، عند
الجدول ، تحت شجرة الصفصاف . كان يجلس على الارض ، وسمرته
ملقاة على كتفيه ، ويدخن ، ويستمع . وحيانا كان يهم ان ينهض ،
ويلقى عنه سمرته ، وببسط كتفيه ليغلب : «ياها الرفاق ! ..»
ولكن ذلك لا يأتى بنتيجة سوى اخافتهم ، فترتمس سراويلهم
رعبا ، ويتفرقون .

ذات مرة ، في غبش المساء ، التقى في المرعى العام برجل
كان واقفا مبتسما . مر سيميون به فناداه الرجل بصوت خفيض :
- اخي !

جتل سيميون . اهو من جماعته حقا ؟ سال وهو ينظر اليه
من طرف عينه :

- ما حاجتك ؟

- هل انت اخو الكسى ؟

- لتفرض .

- انت لا تعرف اصحابك . . . هل تذكر بخارة « كيرتش » ؟

- كوجين ! انت ؟

- وصافحه سيميون بقوة .

وقفا واحدهما ينظر الى الآخر . قال كوجين وهو يلقي نظرة
سريرة الى الخلف .

- هل قطعتم نهايات بنادقكم ؟

- لا . ان كل شيء ما يزال هادئا عندنا !

- وهل عندكم رجال مكافحون ؟

- من يدري ؟ لم ار بعد . نحن نتنظر ماذا سيحدث .

- ماذا تفعلون ، ايها الاصحاب ؟ - قال كوجين ، وعيناه

تقلبان طوال الوقت تحملقان في معالم الاشياء المحيطة به في
الضيق - ماذا تنتظرون ؟ سينتفونكم كما تنتف الوزة ، وانتم قد
عطيتهم لهم رؤوسكم . اتعرفون انهم قد احرقوا كل شيء في قربنسا
اوسيبينسكويه ببار المدفعية . وهربت النساء والاطفال ، ولاذ
الرجال في الغاية . . . واهالي قرى نوقوسباسكويه ، وفيدوروفكا
وغولاى-بوله يتوافدون التنا جميعا . . .

- ماذا تعنى ب«الينا» ؟

- هل تعرف غابة ديريف ؟ انهم يجتمعون هناك . . . حسنا ،

امس للرجال : على قرية فلاديميرسكويه ان تزود اربعين بندقية
مقطوعة النهايات ، وحوالى عشر بنادق اعتيادية مع خراطيشها ، وما
يمكن جمعه من القنابل اليدوية ، واخفوا ذلك في التين في الحقل . . .
هل فهمت ؟ في قرية سوسنوفكا يخفون ذلك تحت تلال القش .
والفلاحون ينتظرون الاشارة منى فقط . . . وفي قرية غونديايفكا
تلاتون فلاحا على خيولهم ينتظرون . . . يجب ان نخرج .

- الى اين ؟ الى من ؟

- الى الامان . . . انه يدعى شوس . الان نحن نجسح

الفضائل في كل متقلة يكاتريوسلاف . . . في الاسبوع العاشر
دحرنا الغابداك ، واحرقنا مزرعة . . . طرافة ومتعة ، يا اخي ،
نلقى الكحول والسكر على الفلاحين هبة وعطاء . . . تذكر ، سأتى
بعد اسبوع . . .

وغمز لسيميون ، وفتح سياجا ، وركض منحنيا الى القصب ،
حيث كانت الضفادع تنفق بصوت عال .

كانت الشائعات حول الاتمانات والغارات قد وصلت الى قرية
فلاديميرسكويه ، الا ان اهل القرية لم يصدقوا . وها هو شامد حتى
قد ظهر بالخبر اليقين . في ذلك المساء قص سيميون ذلك على
اخيه . اصغى الكسى بجد .

- ما اسم هذا الاتمان ؟

- يقولون : شوس .

- لم اسمع به . تدور الشائعات حول نستور ايفانوفيتش
ماخو ، يقولون ان لديه زهاء خمسة وعشرين من قطاع الطريق ،
وهم يغيرون على الضياع . اما شوس فلم اسمع عنه . . . كل
شيء ممكن . فالفلاح الان مقتدر على كل شيء . سواء اكان شوس
او غيره فان في القضية خيرا . . . اوصيك فقط الا تتحدث الى
الفلاحين . وحين تقتضى الضرورة ساشبرهم بنفسى .

ضحك سيميون ضحكة هازئة ، وهز كتفيه .

- انتظروا حتى يسلموا جلدكم .

يبدو ان كوجين لم يظهر لسيميون وحده في ذلك المساء .
فقد تهامس الناس في القرية حول البنادق المقطوعة والقنابل
اليدوية وقصائل الاتمان . وكان من الممكن ان تسمع الاذن ، اذا
ارفعت ، حزيز المشاشير على الحديد في هذا الغناء او ذلك في الليالى ،
الا ان كل شيء كان هادئا بعد . بل ان الاتمان اقاموا النظام ،
واصدروا امرا بان يكتم الشارع في عشية السبت على الأحد .
فلم يجد الاهالي بدا من كتم الشارع .

ثم وقعت بلية . في ساعة مبكرة ، وقبل ان تخرج البهائم
للترب سار في الشارع المكنوس رجال شرطة وجنود يضعون
الشارات على صدورهم ، وطرفوا زجاج النوافذ قائدين :

- اخرجوا !

أخذ الفلاحون يخرجون من بيوتهم حفاة يزررون ثيابهم ، فأعطى لهم امر رسمي يفرض على هذا البيت أو ذاك مقدارا من الحبوب والصوف وشحم الخنزير والبيض ليقدم الى ادارة مسؤنة الجيش الالمانى بسعر معين في الماركات الالمانية . وكان طابور من العربات العسكرية يقف في الساحة عند الكنيسة . وكان الجنود الالمان المقيسون في البيوت يقفون عند ابوابها مرتدين خوذهم وحاملين ينادتهم .

حك الفلاحون رؤوسهم . بعضهم راح يحلف بالرب بأنه معدم . وبعضهم رمى تبعته على الارض قائلا :
- لم يعد عندنا قمح ، والله . اذا قطعتموني لن تجدوا عندي شيئا ! ..

وفي تلك اللحظة راوا مدير الاعمال يسير في الشارع في عربة ركوب . فكان فزع الفلاحين بنظاراته الذهبية اشد من فزعهم من رجال الشرطة والجنود ، لأن غريغورى كارلوفيتش كان يعرف كل شئ ويرى كل شئ .

اوقف حصان عربته . تقدم ضابط الشرطة من العربة . وتحدث الاثنان . وصاح على رجال الشرطة . فدخل هؤلاء الى اول بيت ، وعثروا على حبوب في الحال مخفية تحت السجاد . وحين سمع غريغورى كارلوفيتش صياح صاحب الحبوب لم يبد منه شئ . سوى ان نظارته قد لمعت .

في ذلك الوقت كان الكسى يندرع فناء بيته شديد النهول ، ومرآة يثير الاسى ، انزلت ماتريونا مندليها على عينيهما ، وبكت في مقدمة البيت .

وكان الكسى يسأل وهو يرفق قطعة خشب او عجلة مكسورة ويلقيها في نبات القراص عند السياج :

- ما تفعل هذه النقود الالمانية في ، ما تفعل الماركات ؟ -
وحين لمح ديكا ضرب قدمه على الارض وشتمه : «حقير !» ومسك بالقل على حجرة المؤنة :

- ماذا سنأكل اذن ؟ هذه الماركات ؟ اذن يريدوننا ان نقلب الى متسولين ؟ ان يدعرونا كليا ؟ مرة اخرى في ربقة الظلم ؟

قال سيميون وهو جالس قرب ماتريونا :

- سيأتى اسوا من ذلك .. سيأخذون حصانك .

- لن يكون ذلك ابدا . ساقتلهم بالفاس !

- فأت الوقت .

وانتجبت ماتريونا :

- اوى ، يا عزيزى .. ساقطع خناجرهم ياسنانى ..

طرق الباب باخصى بندقيته . ودخل الجندى البدين الذى كان يقيم عندهم هادئا مرحا وكانما يدخل بيته . ووراءه دخل ستة من رجال الشرطة ومدنى على قبعته عقدة شريط ثلاثية الاسنان ، رمز الهيتمان ودفتى التسجيل في يديه . قال له الالمانى ، وهو يشير الى غرفة المؤنة .

- هنا الكثير من القمح وشحم الخنزير .

حدجه الكسى بنظرة ضارية ، وتراجع ، والقى بكل قوته مفتاحا كبيرا صدنا تحت قدم الموظف الهيتمانى .

فصاح هذا :

- احذر ، ايها الوقح . هل يحكك جلدك ، يا ابن الكلبة ؟

دفع سيميون ماتريونا بكوعه ، وتوهم من مقدمة البيت ، الا ان حرية عرضة الضلل صدته من صدره . وصاح الالمانى بعنف وسلطان :

- توقف . روسى في مكانك !

ظلت العربات العسكرية طول النهار تحل بالمؤن . وتحرك طابورها في ساعة متأخرة من الليل . تهبت القرية نهبا تاما . ولم يشتعل ضوء في البيوت ، ولم يجلس الناس الى مائدة . كانت النساء ينتحبن في البيوت المظلمة ، ذاكات بايديهن الماركات الورقية ..

لا جدوى من ان ينزل فلاح وزوجته مع هذه الماركات الى المدينة لانهما لن يحصلوا من العوائت على شئ ، لا على مسمار ، ولا على ذراع قماش ، ولا قطعة جلد . فان المعامل لا تعمل ، والحبوب والسكر والصابون والغامات تنقل بالقطارات الى المانيا . ولا حاجة لفلاح وامراته الى ان يجلبا الى البيت بيانو .

ولا لوحة هولندية قديمة ، ولا ابريق شاي صيني ، وعيونهما لا تقع الا على الغايداماك ذوى الخصلات المتهذلة والشوارب النازلة في معاطفهم الزرق ، والقبعات الاستراخانية المتوجة باعاليتها القرمزية ، كانا يتسكعان في الضارع الرئيسي بين التجار الزرق الوجوه من الحلاقة ذوى القبعات العالية وهم المحتالون المشتغلون بعمليات بيع وشراء العملة الاجنبية . ويتحسرن بالأم ، ويعودان الى بيتهما دون اية مشتريات . وفي الطريق ، وبعد عشرين فرسها يتوقف القطار لان محاور العربات قد حثت ، ولا يوجد دهن لتشحيمها ، لان الالمان قد اخذوه . فرسوا الرمل على المحاور ، ويتحرك القطار قليلا ثم يتوقف ثانية .

ولهذا كله كانت التسوية ينتعجن ، ويضمن الماركات الالمانية المدعوكة بين اصابعهن ، ويغنى الرجال الماشية في وهذات الغاية بعيدا عن المصيبة ، فمن يدرى اى امر السانى سيصدر في الغد !

كانت الاضواء لا توقد في القرية ، وكل البيوت مظلمة ما عدا بيت الأمير وراه العرض عند البحيرة ، فقد كانت الانوار تلالا فيه تلالوا زاهيا . اذ كان مدير الاعمال يقيم هناك حفلة تكريمية للضباط الالمان . وتعزف الموسيقى العسكرية . وتحوم انغام موسيقى الفالس الالمانية كالارواح الشريرة فوق القرية المظلمة . ثم يخلق صاروخ كالشهاب النارى عاليا في السماء لتسليية الجنود الالمان الواقفين في فناء بيت الأمير حيث دُحرج برميل من الجعة . وكان الصاروخ ينفجر ، وتضاء السقوف القشية والحدائق واشجار الصفصاف وبرج الجرس الابيض والاسيجة بتجوهم تتساقط ببطء . وقد ارتفعت وجوه كثيرة خالية من الفرح نحو هذه الانوار . وكان الضوء يسطع سطوعا يجعل كل غصن في الوجوه يبرز بوضوح . ومن المؤسف ان احدا لم يصورها وهي في هذه الحال بألة تصوير غير منظورة . فان مثل هذه الصور ستكون موضوعا لتفكر فيه هيئة الاركان الالمانية .

وتنورت حتى الحقول على بعد فرسخ من القرية وكانا اهل عليها نهار . وكان بعض الرجال الذين كانوا يتسللون نحو كدس من التبن منفرد ، فلبسوا راوا النور استلقوا على الارض بسرعة الا

واحدا كان واقفا عند اكداس التبن رقع رأسه الى الانوار المتساقطة من السماء ، وقال بابتسامة هازنة :

— عظيم !

انطلقت الانوار قبل ان تصل الى الارض ، وعاد الظلام . اجتمعت الرجال عند اكداس التبن ، وطلقت البنادق ، وهي تقذف على الارض .

— كم مجموعها ؟

— عشر بنادق مقطوعة ، يا رفيق كوجين ، واربع بنادق اعتيادية .

— قليل ...

— لم يكن لدينا وقت كاف ، غدا ليلا ستجلب عددا آخر ..

— واين الخراطيش ؟

— خذ . انها في الجيوب ... عدد كبير .

— اخفوها تحت اكداس التبن ، يا رجال ... تحتاج الى قتابل يدوية ، اجلبوا قتابل يدوية ... البندقية المقطوعة سلاح الشيوخ الذين يخفون في ساقية وراه اجمة . طلقة واحدة ويتهاقون ، وتنتهى المعركة . اما المحارب الشاب فيحاجة الى بندقية ، والشئ الاول قنبلة يدوية . افهتتم ؟ وسيف لون يستطيع استعماله . انه خير الاسلحة .

— لطيف ان نبدا في الامر هذه الليلة ، يا رفيق كوجين . — نثر القرية كلها ، والله العظيم ... تجمع في قلوبنا الكثير من الاجن . اخذوا كل ما تملك كما انزعوا مناسجا من الجسم ... سنخرج اليهم بالبنارات والمناجل ، او اذا مكسنت القول ، بكل ادوات الشغل ... وسنقتل عليهم وهم نائمون بأسهل من السهولة ...

— وهل انت الامر هنا ؟

صاح كوجين بصوت حاد . وصمت برهة . ثم اخذ يتحدث بصوت مدهان ، ثم راح يرقع صوته شيئا فشيئا :

— من الامر هنا ؟ اريد ان اعرف ... ام انا اتحدث مع حقى ؟ ام اصغرف وادع الالمان والغايداماك يضربونكم ويتهبونكم ... (وهمس بشميمة .) الا تعرفون الانضباط ؟ ام

أن عدد الرؤوس التي قطعناها لهذا السبب يسفي قليل ؟ اذا كنت تريد ان تدخل الى الفصيلة يجب ان تقسم اشد القسم على الطاعة التامة للامان . . . والا فلا تدخل . لك عندنا ان تفعل ما تريد : اشرب الخمر وتمتع بالحياة ، ولكن حالما يصبح الامان : «الى الخيزل» لن تكون ملك نفسك . مفهوم ؟ (صمت) ثم قال يتراض ولكن بصرامة . لا يجوز مس الامان لا اليوم ولا غدا . ان الامر يحتاج الى قوة عظيمة .

- يا رفيق كوجين ، على الاقل اسمح لنا بان نتنقم من غريغوري كارلوفيتش . انه لا يدعنا نعيش على اية حال .
- اما ما يخص مدير الاعمال ففي الاسبوع القادم على اقل تقدير ، والا فلن انتهى من شؤوني . قبل ايام اغتصب الماني امرأة في قرية اوسيبوفكا . هكذا . فوضعت ايرا في الفلانترا التي ياكلها . وعندما اكلها ففز من المائدة ، وركض الى الفناء . وسقط . وبعد قليل مات . فما كان من الالمان الا ان تناولوا تلك المرأة في مكانها . فخرج الفلاحون بفؤوسهم . . . وانا لا اريد ان اتذكر ماذا فعل الالمان . . . والان لن تجدوا اثرا في المكان الذي كانت فيه قرية اوسيبوفكا . . . تلك هي نتيجة العمل الاعتيادي ! هل انتم فاهمون ؟

تهدت ماتريونا ، وتقلبت على السرير . بدأت الدنيا تتنور ، وصاحت ديكة الفجر . كانت قطرات الندى تتناثر على افرين الناقدة المفتوحة . وطن البعوض . واستيقظت القطلة على سطح الموقد ، وفزت برفق ، وصارت تتشمم الفضلات في الركن .
كان الاخوان جالسين الى المائدة العارية يتحدان بصوت خفيض ، كان سيميون يضع رأسه بين يديه ، والكسي منحنيًا نحوه يسمع في وجهه :
- لا استطيع يا سيميون . ارجو ان تفهمني ، يا عزيزي . لن تستطيع ماتريونا ان تقوم بامور الاستشارة وحدها . هنا ما يجمعناه خلال سنوات . فكيف اتركه ؟ سيأتون على آخر شيء .
وعندما اعود لا اجد غير الخواء .

قال سيميون :

- كيف تتركه ؟ لنفرض انه سيضيع ، فآية اهمية لذلك ؟ سننتصر وستبنى بيتا من آجر . (وضحك بتهكم .) من الضروري القيام بحرب الانصار ، بينما انت مهتم باستثماراتك .

- مرة اخرى اقول لك : من سيطلعكم ؟
- انت لا تطعمنا على اية حال ، بل تطعم الالمان ، والهيتمان ، وكل سافل حقير . . . انت عبده . . .

- انتظر لحظة . الم احارب في سبيل الثورة عام ١٩١٧ ؟ الم ينتخبوني الى لجنة الجنود ؟ الم اقوض جبهة الاميراليين ؟ هكذا . . . فعل مهلك لا تعبرني ، يا سيميون . . . والان اذا جاء الجيش الاحمر فسأكون اول من يمسك بالبنديقية . قالي ايسن تريدني ان اذهب الى الاتمانات في الغابة ؟
- الان حتى لهؤلاء نفع .
- ليكن ذلك .

قال سيميون ومد يديه على المائدة :

- الجرح اللعين يشد وثاقى . تلك هسي مصيبتى . . . والكثيرون من زملائنا في اسطول البحر الاسود قد دخلوا هذه الفضائل . . . سنشمع النار في اوكرانيا من الجهات الاربع . امهلنا . . .

- هل رايت كوجين مرة اخرى ؟
- رايت .
- ماذا يقول ؟
- اتفقنا على اننا نشعل حريقا كبيرا في قريتكم قريبا .
نظر الكسي الى اخيه وشحب ، واطرق برأسه .
- هذا ما يجب ان يكون بالطبع . . . ان بيت الضيعة ذاك يقف مثل قذى في العين . . . ما دام غريغوري كارلوفيتش حيا ، فانه لن يتركنا نتنفس . . .
نزلت ماتريونا من السرير بقميص النوم فقط - سوى انها القت عليها لافحا موردا - وتقدمت وضربت المائدة ببراجم قبضتها عدة مرات قائلة :

وتنفس ثقيل ، ثم صاحت ماتريوتا ثانية بصوت اشد ، وكأنه من
الم : «سيميون ، سيميون !»

اندفع سيميون من البيت مستغزا على ساقين معوجتين .
وامسك الكسي بالمسبطة وبقى على جلسته . وليكن فقد كان
يعرف ماذا يحصل حين يندفع المرء على هذه الصورة .. وفكر مع
نفسه : «في المساء تركت الفأس في الرواق . سيستخدمها
اذن ..» صاح سيميون في الفناء بصوت وحشي . وصدرت ضربة
ساحقة . وثش شيء في الفناء وغرغر ، وسقط ثقيلًا .

دخلت ماتريوتا مبيضة الوجه كقطعة بياض تجر وراءها لفاحها
وانحنت نحو الموقد ، متنقصة بصدرها العالي .. وفجأة هزت يديها
على الكسي ، على عينيه ...

ظهر سيميون في الباب هادئا شاحبا .

- ساعدني ، يا اخي . لنحمله الى مكان ما وندفنه ...

٥

بلغت القوات الالمانية حدود الدون وبحر آزوف وتوقفت .
لقد استولى الالمان على منطقة غنية للغاية اكبر حجما من المانيا
كلها . وفي الدون ، مثلما في اوكرانيا ، اسرعت القيادة الالمانية
في التدخل في السياسة ، وساعدت اصحاب الاراضي الكبيرة ،
والتوزاق الاغنياء الذين كانوا قبل اربع سنوات فقط يتجهجون
ياحتلال برلين بلا صعوبات . ان هؤلاء التوزاق الركينين العراض
الوجه ذوى الشرائط الحمراء على سراويلهم ، الاقوياء وكانهم
صوبوا من فولاذ انقلبوا الان الى حلال ودبعة .

قبل ان يصل الالمان الى روستوف هجم جيش قوزاكي مؤلف
من عشرة آلاف رجل بقيادة الامتان بوبوف على نوفوتشيركاسك
عاصمة الدون . كانت الغلبة تميل الى جانب التوزاق الحمر الذين
يؤلفون حامية هذه المدينة والبلاشفة الذين اسرعوا اليهم من
روستوف في معركة دامية على الهضبة العالية فوق الدون . الا ان
حادثة خيالية حسمت الامر .

- لن اتحمل ، انهم ينتزعون ما عندي ! نحن النساء نصفي
حسابنا مع هؤلاء الشياطين قبلكم ، يا رجال .

نظر اليها سيميون بمرح فجأة :

- هكذا ؟ كيف ستحاربين يا نساء ؟ حدثينا ،

- ستحارب على طريقتنا ، نحن النساء . سنضع زرنيتها في
طعامهم ... سنحصل على هذا الزرنيتش . استدرجه الى المخبز او
الى الحمام . الست املك ابرة حياكة او غيرها ؟ ساغررها به فلا
تند عنه صرخة . سنبدأ نحن فلا تجبنوا ... واذا اقتضى الامر
حملنا البنادق ، فلنسنا اسوا منكم ...

ضرب سيميون الارض بقدمه ، وضحك ملء فيه .

- لست امرأة ، انت شيطان !

- اتركتي .

وارتدت حذاءها على قدميها العاريتين عند عتبة الباب ، وهي
تحرك لفاحها ، وطبخت به ، وخرجت ، لترى الماشية على مسا
يبدو . ظل سيميون والكسي يهزان راسيهما طويلا ويضحكان
«امرأة كالاتمان ، ما هي امرأة» . صبت من النافذة المفتوحة نسمة
قبيل الفجر ، وداعت اوراق الداريقة ، وحملت صهبة وتنفا من
اغنية غير روسية . كان الجندي المقيم يعود سكران من بيت الضيعة
هثيرا الغبار بحذاءه .

شد الكسي النافذة بغيظ .

- خير ان تاوى الى غرفتك ، يا سيميون ، وتستلقي .

- تخاف ؟

- ويستطيع هذا الشيطان السكران ان يتشبث بك ...

انه يتذكر كيف هجمت عليه .

- ساهجهم مرة اخرى . - نهض سيميون وذهب الى
غرفته - آه ، يا الكسي ، الثورة بسبب ذلك تموت ، بسبب
صعوبة انهاضكم ... ألم يكفكم ما فعل كورنيلوف ؟ وما يفعل
الغايدماك والالمان ؟ ماذا تريدون بعد ؟ (وفجأة قطع كلامه .)
انتظر ...

ترامت دمدمة من الفناء ، وطبخت حذاء ثقيل غير واثقة .
وتعالى صوت نسائي حائق : « اتركتي !» ثم ضجيج مقاومة ،

جاءت جماعة متطوعين بقيادة العقيد دروزدوفسكي من رومانيا مقبياً على الأقدام - وفي ٢٢ نيسان فجاء استبولت على روستوف ، واحتفظت بها حتى الصباح حتى أخرجت منها - وسار رجال دروزدوفسكي في السهوب باتجاهين عن جيش كورنيلوف - وبينما هم في الطريق في الفاصم والعشرين من نيسان سمعوا ضجيج معركة قرب نوفوتشيركاسك - فاعتقلوا نحو المدينة دون أن يسألوا عن المتحاربين ولماذا يحاربون - وشقوا طريقهم بدمعة إلى احتياط العمر ، وأثاروا فوضى مريعة - ولما رأى فوزان الدون أن عوناً قد حبط عليهم من النساء تحولوا إلى الهجوم المضاد ، ودمروا العمر ، وابعدهم ، واحتلت نوفوتشيركاسك - وتحولت السلطة من اللجنة الثورية إلى «لجنة انقاذ الدون» - وبعد ذلك جاء الألمان -

وتحت حمايتهم سلمت هذه اللجنة في نوفوتشيركاسك - التي لم يترك الألمان حامية فيها عن تعقل - سولجان الألمان إلى الجنرال كراستوف «الصدوق الشخصي للإمبراطور غليوم» على حد تعبيره هو - ودعت اجراس الكاثوليكية برنيز رليق نايم - وتجمهر التوزاق في الساحة الكبيرة المرسوفة أمام الكاتدرائية هائلين «عوراً» وتمتد فوزاق القرية الخبير للحكم الجديد -

لم يتوغل الألمان في اصفاق الدون وكوبان بعد روستوف - وحاولوا إخضاع قرية باتايسك الواقعة على الضفة اليسرى مقابل روستوف ، والتي يظننها عمال يعملون في ورش ومعامل روستوف وقراء الضواحي - ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على القرية رغم النار الحامية والهجمات الدامية - فقد قاومت باتايسك السعاسة كليا تقريبا ببياه الضبان مقاومة مستتية ، ولبقت مستقلة -

وظل الألمان عند هذا الحد - وأصبروا جهودهم على تعزيز سلطة الألمان ، وتزويدهم بالأسلحة المأخوذة من مخازن الأسلحة الروسية في أوكرانيا - وعلى هذه الصورة من العذر حلت مسألة جرية هي الموقف لزام للجماعتين من المتطوعين - جيش دينكين وجماعة دروزدوفسكي ، سار المتطوعون على وصيتين : القضاء على البلاشفة ، وتجديد الحرب ضد الألمان ، أي الولاء إلى الحلفاء حتى النهاية - وكانت الوصية الأولى تبدو للألمان معقولة وجسيمة

بينما اعتبروا الثانية سخافة ليست خطرة إلى حد كبير - ولهذا تظاهروا بأنهم لا يعرفون بوجود المتطوعين - كما تظاهر رجسال دينكين ودروزدوفسكي بأنهم لا يلاحظون وجود الألمان على الأرض الروسية -

وهكذا اضطرت جماعة دروزدوفسكي ذات مرة لفتح مسيرتها من كيشينيف إلى روستوف إلى عبر نهر - كان الألمان يلقون على إحدى شفتيه ، في بورسلابل ، والبلاشفة على الضفة الثانية ، في كاخوفكا -

وكان الألمان قد فشلوا في الاستيلاء على جسر على النهر - وعند ذلك استطاع رجال دروزدوفسكي الاستيلاء على الجسر واخرجوا جماعة العمر من كاخوفكا ، وواصلوا السير دون أن ينتظروا شكر الألمان لهم -

ووقع رجال دينكين بنفس التناظر ، ولكن على لطاق أوسع - في نهاية نيسان استطاعت بقايا جيش المتطوعين التي تمزقت عند كاتريودار أن تصل إلى منقلبة فريزي بغورليتسكايا وميتشيتسكايا على بعد حوالي خمسين فرسخاً من نوفوتشيركاسك - وهنا حبط عليها غلاص ملاجم - وهو يسأ استيلاء الألمان على روستوف ، وقوزاق الدون على نوفوتشيركاسك - فترك العمر المتطوعين بسلاخ ، وفتحوا جبهة ضد العدو الجديد - الألمان -

وتسكن المتطوعون من أن ينالوا قسطاً من الراحة ، وبالعلاج الجرحى ، وستمعوا قولهم - وكأنا ، قبل كل شيء ، بحاجة إلى سد النواقص في عتاد وذخيرة جيشهم -

كانت جميع المحطات من تيغوريتسكايا حتى باتايسك مملوءة باحتياطات هائلة من الاعتدة الحربية للهجوم المضاد الذي يعمد العمر باتجاه روستوف - عندئذ هاجم الجنرالات ماركوف وبرغافسكي وأرديلي بثلاثة طوابير قريبة مؤخرة للخبر ، في محطات كريلوفسكايا ، سورسكيا ، ونوفوبولشكوفسكايا ودمروا الطائرات ، وتسفوا الطائرات الصلعة ، وندابوا إلى السهوب بغنيمة هائلة - وأحبط هجوم الجيش الأحمر على الألمان -

شفي الكتف المضموم ، واندمجت الغدوش الصغيرة التي حدثت في المعارك ، وقوى روثشيلد ، واسمر من تلويح الشمس ، وقال شبعه خلال الأيام الأخيرة في القرية الهادئة .

لقد الشهمة التي كانت تعذبه كمرض نفسي منذ خروجه من موسكو : انتقامه من البلاشفة على الإساءة . كان يتسلم - وكان ، على أية حال ، يتذكر لحظة واحدة ... لحظة عذوبة نحو سدة الخط للحمدي ، ... كان الانتصار ... كانت ركشاه ترتجفان ، والدم يبيض في صدفيه ... خلق طائفة اللبنة ، مسح بهسا حريته . وقد فعل ذلك لا شعوريا ، مثل جندي قديم حريص على لمطافة سلاحه . لم يكن يحس بالكرهية الجنونية السابقة ، بألواق الرصاص تشد على جسده والدم المتدفق إلى عينيه . انه قد لحق بعدو وبرزز الحربه فيه ، ونظفها ، اذن ، فقد كان على حق ؟ ويجاهد عقله الأخط بالصفا، ليهم : هل هو على حق ؟ نعم ؟ على حق ؟ ولكن لماذا يسأل هو نفسه عن ذلك ؟

كان يوم احد ، وكانت صلاة القداس تقام في كنيسة القرية . كان روثشيلد متأخرا فمكث بعض الوقت على مدراج الكنيسة بين الألفية المحلولة حديثا ، وخرج ليتجول في القبرية القديمة وراء الكنيسة . سار على عشب لمت عليه حديديا بيرة ، وقام خصلة عشب ، وقضها ، وجلس على آكمة صغيرة - كان قادم بتروفيتش انسانا لزيها ، وكما قالت كاتيا ، انسانا طيبا .

ترامت من نافذة نصف مفتوحة مفضاة بتسيج عتكبوت اصوات اطفال ، وكانت تبرات الشمساس بصوته الكثيف فاضية خالية من الرافة ، حتى لكان اصوات الاطفال على وشك ان تفرح ، وتطابير في ذعر . ووجد قادم بتروفيتش فكره يطوف في الماضي ، وكأنما يبحث عن شيء ، وضاه واحط بالظهر ...

انه يحضر من الفرح ، وراء النافذة النظيفة العالية سمسا ، ربيعية داكنة الزرقة لم ير مثلها منذ ذلك الحين - وكان في وسعه ان يسمع حفيف الاشجار في الحديقة ، وعلى الكرسي الى جانب السرير الخشبي تجسس جديد من انسانا ازرق مرط فواح بيوم الاحد - ويذكر ماذا سيعلف طيلة النهار الطويل ، وبين يلفش . وكان لذلك من الافراء والبهجة ما يجعله يظلم استغناء على السرير ...

ويتطلع الى ورق الحائط ، حيث رست وتكرار بهوت صينية لها سقوف معكوفة ، وتظنرة شديسة الاحدار ، وصينيان تحست مثلتين ، وصينين اكثر في فمة تشبه ظليلة الضياح بسطساد السمك من على الفتطرة . صينيتون طيبون مضحكون ، ما اطيب عيشهم في البيت عند الجدول ... ويترامن اليه من الرواق صوت له : « قادم ، هل انت جاهز ؟ انا نهيات ... » وهذا الصوت الهادئ العجيب يرن في جناحه كلها ياليس والسعادة ... ويقف بالقرب من امسه والقميص المرتط على جسده ، وهي في تسوب حريز النيق ، وتقبله وتخرج مشطا مسن تسعرا ، وتسط له : « الان احسن ، لتذهب ... » وتفتح مظلها ، وهي تهبط السلم العريض ، وكانت تجول حربة «الترويك» * الصهيد لا تكاد تستقر في مكانها في البسطة المكتوسة المعطلة بأثار السكنسة ، الحصان الايسر يشاكس ، والثاني الاساس ، الرصين قد حفر الارض بحافره ، ويقول الحوذى المشيع المفضط ذو الكمين الاحمرين الباديين من تحت سترة مخفية بلا اكمام رافعا لعينه الشعته الى فوق - كل عام واتم بخيرة ، وتجلس الام بوضع مريح في العربة التي دقاتها الشمس ، ويتصفق قادم على امه سعادة وتلفها لسناح صغير الريح في اذنيه ، ورؤية الانجار المتطائرة الآتية من الجوة العفابسة . وتطلق «الترويك» مثلثة حول بيت الضيعة . وهذا هو شارع القرية العريض ، والفلاحون المتحنون واحدا لثر الاخر ، والدجاجات المقاتنة المتراكفة من تحت العجلات . سياج الكنيسة الأبيض ، والبرجة الخضراء ، واشجار البتولا المتفتحة البراعم من توما ، وتحتها حليان معوجة ، والقيور ... ومدراج الكنيسة العائل بالمستولين ... ورائحة البخور الأليفة . . .

ما تزال الكنيسة واشجار البتولا قائمة هناك حتى الآن ، وقادم بتروفيتش يرى بعين خياله خضرها المطرزة على خلفسة السساء الزرقاء ... وتحت واحدة منها - الخاصة من وكن الكنيسة - ترقد الام منذ زمان رقدتها الايدية ، وقد احبط قبرها بسياج . وقيل ثلاثة اعوام كتب القشتادفت العجوز الى قادم

* بربة صعرا ثلاثة بول - المترجم .

بتروفيش أن السياج قد كسر ، وأن العليبي الضيف قد سجد
لشعر . . . وإلا فقط تذكر بنده سعيد أنه لم يرد على رسالته
حتى الآن .

الوجه العيب . واليدان العظوفتان ، والصوت الذي كان
يقظه صباحا ويترعه بالسماعة طوال اليوم . . . حب كل شعرة من
شعره ، كل خدش في جسده . . . يا إلهي كان جها يزيل عنه كل
حزن ، مهما يكن ذلك الحزن . وإلا كان كل ذلك قد دفن بالوجه
الإيمى تحت الأكمة الصغيرة في ظل البئرلا متجمعا مع الأرض . . .

وضع قاديوم بتروفيش كوعه على ركبتيه ، وغطى وجهه
بيديه .

مرت اعوام طويلة . وكان يدر دائما وأكمله لم يبق الاغلبية
واحدة ، ويصغر منتفلا بالسماعة في صباح ازرى كما في الماضى
سيقوده الصبيان ذوا العظمتين عبر الفطرة المعدودة الى البيت
ذى السقف المكرف . . . وهناك تكون في انتظاره مبيبة قريبة الى
القلب بشكل لا يوصف . . .

وفكر قاديوم بتروفيش مع نفسه «وطنى» وتذكر ثانية
«الترويكاء» المتطلقة في القرية «أنا روسيا . . . ما كان رومانيا . . .
وقد اختفى ، ولن يكون بعد الآن . . . لقد صار الضيف ذو القمص
من السمان قاتلا» .

ونفض سريعا ، وبدأ سيره على العشب واغمسا يديه وراء
ظهره ، مفرقا باصابعه . وقادته أفكاره نفسها الى حيث كان يشن
انه قد صلق باب الماضي بقوة وحدة . فقد كان متيقنا من انه
ذاهب الى الموت . . . وما هو ، لم يست . . . وما سهل ان يرفه
الاسنان الآن في حفرة في السهب مغطى بالذباب . . .

وفكر مع نفسه : «الموت سهل ، والعيش صعب . . . ولى
ذلك يكن واجب كل واحد منا : ان يقدم للوطن المحتضر لا زكية
حية من اللحم والعظم . بل كل الاعوام الخمسة والثلاثين التي
عاشها ، العواطف ، والآمال ، والبيت الضيفى ، وكل ثقافته . . .
توجع . وتلفت فيما حوله ليعرف هل يستعده احد . ولكن
اصوات الاطفال ما تزال تنشد . والعاهسات تهديل على اقرين
سدى . . . وتذكر بعجالة الكحلسة ، لحظة اتري ، لحظة العينية التي

لا تحمل . ولم يذكر كاتيا بذلك قط . كان ذلك في موسكو ،
قبل عام ، وكان روتشيف قد علم ، وهو في المحطة ، ان زوج يكاترينا
دميتريفنا دفن نفس اليوم ، وانها الآن وعيدة . وقد جاء اليها
عند هبوط المساء ، فحالت له العادة انها تالمة ، فبقى ينتظر
جالسا في غرفة الجلوس . وقالت العادة حسنا ان يكاترينا
دميتريفنا تنسى طوال الوقت : «تغير وجهها الى العاطف في
سريها ، وتبكي كالمثل ، حتى انتسا تعلق باب المطبخ . . .»
فقرر ان ينتظر ، حتى لو انتظر الليل كله ، وظل جالسا على الاويكة ،
يسمح لتكتة الساعة في مكان ما موعة الوقت ، منتزعة لعظات
العمر ، واضعة العوضون على الوجه العيب . نائرة الشيب الطفى في
الشعر ، بلا رافة ولا عوادة . . . وفكر روتشيف في ان كاتيا

اذا لم تكن تالمة ، فهو لا بد ان تفكر في ذلك ، وهي تسبح تكتة
الساعة . ثم سمع خطواتها الواهنة غير الواثقة ، وكان كعب احد
تلميها قد التوى . كانت تسير في المصح ، وبدأ وكاتها تهمس
بشيء ما . توقفت ، وبقيت بلا حراك فترة طويلة . واخذ روتشيف
يلقى ، وكأما فهم افكار كاتيا من خلال الجدار . وصر الباب ،
ودخلت كاتيا الى غرفة الطعام ، وراحت تحرك اشياء بلووية في
سوان السفره فتسرل رينا ، واصلب روتشيف متحفرا للافواج .

ففتحت الباب قليلا : «يا ليتا ، هذه انت ؟» كانت ترتدى روبا من
وبر الجمال ، واحدى يديها تمسك بقدرح ، والاخرى بقارورة صغيرة
ناهية . . . كانت تنوي ان تتخلص بهذه الوسيلة من الاسى ، من
الوحدة ، من الزمان الذي لا يعرف رافة ، من كل شيء . . . كان
وجهها الناحل ذو العيين الرماديتين مثل وجه طفل اعلمه الجميع . . .
جميل لو وجدت نفسها في البيت الضيفى ذلك . قال قاديوم بتروفيش
لها عندئذ : «انا تحت تصرفك ، وكل حياتي تحت تصرفك . . .»
وسدقت حتى بان وحدتها كلها ، كل الاعوام الشقية من عمرها يمكن
ان تفرق في حبيته ، في حبه . . .

اوه ، يا للشيطان ! كان بالطبع يعرف دائما ان كاتيا لم
تتخل عنه لحظة واحدة ، حتى حين كانت الكرامسة تسقط على
رأسه مثل اطواق من صاصم ، ولى هذا الشهر الرهيب للمعارك ايضا ،
كانت تسد عليه طريقه بظل غير عرلى ، بانسنة يديها ، ومتوسلة

بلا صوت ، وهو ، الذي بع صوته من الصياح الجنوبي غرز
حريته في معطف جندي أحمر ، غرزه عبر ذلك النخل الملازم له ،
وتخلع طاقيته ، ومسح اتصل بها . . .

انتهى القتل . وخرج من الكنيسة جمهور من الضباط
وطلاب المدارس العسكرية مدفوس الوجوه . وسار الجنرالات
المشهورون متسلمين وعبوبهم صارمة ، وفصائحهم نظيفة ،
وصدورهم مزينة بالناشئ والصلبان : اودي طويل الوسيم
المشوق القوام كالصورة الرسومة بلحيته المنفرجة وطاقيته
العامة ، ومازكوف اللاذل يقبعته الفرانجة المملقة ، وكوتسيوف
القصير الربيع المثق الاطلس الالف ذو العينين التيهيتين يعنى
دب ، والقوزاقى بورغايئسكى يشاويه الفتولن . ثم خرج ديكين
ورومانوفسكى البارد «العويص» كما يسمى في الجيش بوجهه
الجليل الذكرى ، وكان الاثنان يتحدان . وانتصب الجميع لسدى
رؤية القائد العام ، والذين كانوا يخذون تحت اشجار البشولا وموا
سكاتهم .

لم يعد ديكين ذلك اليانس بعقائه الباني وملايسه المدنية ،
«العجوز» المصاب بالتهاب القصبات ، الذي تعلق بعربات الجيش
دون متاع . فقد انتصب قائمه ، وحسنت قيافته ، وكانت عينه
السنابية توحى لكل انسان بالاحترام الابوى ، وقد تدورت عيناه ،
وامتلأتا بفيض الضمامة مثل عيني الصقر ، وطبيعى انه ليس
كوتيلوف الا انه كان اكثر الجنرالات تجربة وتعللا . رفع اصبعين
الى طاقيته العسكرية ، ومر بربابة الكنيسة في ابهة ، وجلس في
القرية مع رومانوفسكى .

اقبل تيبيلوف الطريق القاعة على روتشين . كانت يده اليسرى
في رافعة ، ومعطف الخيالة المدعوك ملقى على كتفيه . وقد حلق
بنسابة العيد ، وكان في مزاج ممتاز .

— هل سمعت الاخبار ، يا روتشين ؟ سيحتل الالمسان
والفنلنديون بطرسبورغ ان لم يكن اليوم فغدا ، وهم تحت قيادة
مايرهاهم . هل تذكره ؟ الجنرال من حاشية القصر ، فتى شاطر ،
مقاتل ممتاز . . . وفي فنلنده تحروا جميع الاشتراكيين . والبلاشفة
يتسلطون من موسكو ، ومعهم حقائبهم . عبر ارخانفلسك . انها

حليقة ، كلمة شرف . . . وصل الملازم سيديلنيكوف من
توفوتشيم كاسك ، وهو يزور ذلك . . . اما في توفوتشيم كاسك
فيقول ان النساء والفتيات رائعات كالمصان البان ، لكل رجل عشر
منهن . . . (واترح وجليسه التحيلتين المطوشين عند الركبتيين ،
وضحك ضحكة جعلت تقاعة آدم ترتفع من وراء ياقة قميصه .)

لم يشجع روتشين العديد عن النساء والفتيات فعاد تيبيلوف
الى الاخبار السياسية التي كان يحياها الجيش ، وهو في اعماق
السحب .

— تبين ان موسكو كلها مملقة . الكريستين والكناليس
والسارح ، واسنن الساني جميعا . واحياه كاملة . وقد عدت
اسلاك كهرتانية الى سوكولنيكي . فان هناك بيتا حريا يعرسه
اعضاء اللجنة الاستثنائية ليل نهار . . . تصور سنقروب واذا يكن
شيء ينسف ا وتطائر موسكو في الهواء . . . (واحتى ، وخلص
صوته .) انها حليقة ، كلمة شرف . . . وقد اتخذ القائد العام
تدابير مناسبة . ارسلت الى موسكو استطلاعات خاصة للعثور على
هذه الاسلاك . فعدله سنقروب من موسكو ، ولا تدعهم
يشفقونها . . . وبالقابل ستستقيم ا في الساعة الحواء ! جميل ا
على ملا من الناس وعلى قرع الطويل .

تعيس روتشين ، ونهض :

— من العير ان تظل على حديثك عن الفتيات ، يا تيبيلوف ،
— يعنى ، لا يعجبك ؟
— نعم ، لا يعجبني .

ونظر روتشين بتصميم في عيني تيبيلوف القصبتين البليديتين ،
فأمال هذا قمة الى جانب .

— يبدو انك لم تنس جريئة الحبر .

رفع روتشين حاجبيه ، وتقدم منه :

— ماذا ؟ ماذا قلت ؟

— قلت ما يقوله لوجنا كله . . . جان الوقت لأن تبلغ عن

عملك في الجيش الأحمر ، يا روتشين . . .

— حقير ا

ولم ينقل تيبيلوف من صلعة الا كون يده على الرفعة ،
ومما يزال يعتبر جريحا - لم يضره روثسني ، واستدار الى
الوراء بحدته واضعا يده وراء ظهره ، وصار بين القبور متخفيا مرفوع
المنكبين .

هدل تيبيلوف معظمه المشروح ، ايتسم ايسامة متكررة -
ولنظر الى ظهر روثسني المستقيم - في تلك اللحظة وصل الملازم
فون ميكة ، ومعه طلة الملازم فاليريان اوتوي - وهو شاب ذو
وجه متمش وعينين وضائعتين حالتين واسعتين ، ابن صاحب معمل
التبغ من سميروبول يرتدي معطف طالب مستهاكنا ملطبا باطحات
بنية ، عليه كتابتا ضابط صف .

- ماذا حدث بينكما ؟ تسالمتما ؟ - سال فون ميكة بصوت
حاد كصوت الضم في العادة .

جلب تيبيلوف شاربه ، وهو ما يزال مندحسا ، وروى كل
الحادثة بينه وبين المقدم روثسني .

قال اوتوي ذو العينين العالمتين بسامة :

- عجيب انك ما تزال مندحسا ، ايها السيد الثقيل -
كناز واضحا في مثل اليوم الاول ان المقدم روثسني
جاسوس .

- اسكت ، يا فالكا ، - قال فون ميكة وهو يغمض بالانصاف
الايسر من وجهه الذي اصيب بضربة قتيلة - ، والشئ المهم ان
الجنرال ماركوف يعرف شخصيا . . . ولذا يجب ان تكون
حذرا . . . اما انا فاذن بمسعى علي ان روثسني يلمسني ،
وولعه ، وقتل . . .

حتى نهاية شهر ايار كان الهدوء النسبي يسود شمال
القفقاس - فقد كان كلا الطرفين يستعد للمعركة العاسفة -
المتوقعة بنهبان للاستيلاء على نقاط الالتقاء الرئيسية على
الخطوط الحديدية ، وقطع القفقاس ، وتطهير المنطقة من الحمر
بمعونة القوزاق البيض - واللجنة التنفيذية المركزية لجمهورية
كوبان البحر الاسود تنهيا للقتال على ثلاث جهات : ضد الالمان ،

ضد القوزاق البيض ، وضد «عضادات دينكيي» التي انتعشت من
جديد .

وكان جيش القفقاس الاحمر المؤلف في معظمه من الجيش
القيصري السابق لما وراء القفقاس ، والارباب من المناطق الاخرى
وتسببية القوزاق السالكة لقطع صغيرة من الارض يصل في عدده الى
مائة الف مقاتل . وكان اعضاء اللجنة التنفيذية المركزية يتكون
في ان لقائده العام - المتنوموف - ميولا دكتاتورية - كان في حالة
شجار دائم مع الحكومة . وقد وصف اعضاء اللجنة التنفيذية
المركزية في احد الاجتماعات العاشدة الكبيرة بجواسيس السان
وامتزازيين - وردا على ذلك «ويستسه» اللجنة مع سوروكين
المقرب اليه بانها قاطعا طريق - وعدوان من اعداء الشعب -
ودعتهما باللعنة والعار الابدى .

وكل هذا التشاير تسل الجيش - وبدلا من الشروع بهجوم
مركز بثلاث مجموعات في جيش المتطوعين الذي كان في وسط هذه
المجموعات ، شاح الاضطراب في الجيش الاحمر ، وصار يعقده
اجتماعات عاشدة ، ويسقط اجراء الوحدات ، وكان في احسن
الاموال عرضة لهلاك ماساوي .

ولمّا تقلبت المراسيم الصادرة من موسكو على عتاد المناطق
في الاطراف ، وعين المتنوموف مفتشا في الجبهة ، وانتقلت قيادة
المجموعة الشمالية الى المقدم كالنين وهو لانفي جهم المظهر ، بينما
بقي سوروكين قائدا للمجموعة الغربية .

وفي ذلك الوقت بالذات انضم الي جيش المتطوعين العقيد
دروودوفسكي بجاعته المؤلفة من ثلاث آلاف ضابط ضار من
لجنة ضباطه يعادل كل منهم في القتال عشرة من الجنود الاقارب ، وتدفع
قوزاق القرى على المراسيم ، وبدأ الضباط يصلون من بتروغراد
وموسكو ومن كل اجزاء روسيا ومانسا وجناعات ، وقد بلغت
اسماهم معزة «الحدلة الجديدة» - وارسل الايمان كراسنوف
السلاح والمال رغم شدة - فكان جيش المتطوعين يقوى كل يوم ،
وقد رفعت عزيمته الدفاعية المتقدمة للجيش الا ورجال المجتمع
والعمليات غير البارعة للسلطة السوفييتية المحلية ، والقوا جهود
اليمان القادمين من الشمال .

وفي نهاية أيار لم تكن قوات الحمر السعلية بقادرة على سحق جيش المتطوعين - فتحول إلى الهجوم ، ووجه ضربة رهيبة إلى المجموعة الشمالية للجيش الأحمر بقيادة كالتن في منطقة تورقومايا .

- لماذا كلفتم من العناء ، يا رجال ؟

- بحث أصواتنا .

- دعوني أخذ جيرة .

وقرأنا إيفان إيليتش عند النار التي التفت فيها من الأعلى لوحة الخط العديدي الخشبية الواقية من اللهب ، ولما استعمل الغليون يفر ليستمع .

كان الوقت متأثرا . وقد انطلقت كل الثيران تقريبا على طول خط السكة الحديدية - وفي الليل الطرى لمعت نجوم كثيرة - كانت النار تضيئ إلى الأعلى على سدة الخط قطارات البضاعة وهي عربات الحمولة الحمراء بلون الأجر ، المحطمة والمزقة . لقد جاء بعضها من سواحل المحيط الهادي ، والبعض الآخر من المستنقعات القطبية ، ومن رمال توركوستان ، ومن القوقاز وبوليسيه . وكانت كل عربة تعمل ملاحظة «الرجوع على الفور» . ولكن المواجيد كلها قد قامت منذ زمان . وما من هذه العربات المعدة للعمل السلس البصيرة على المنح طوليا بمحاورها التي لم تدع ، وجرأتها بعضا سيحش بالأسرى من الجرد الحمر كالسردين في العلب ، ويرشست لوالده وإيابه بالألواح ، ليسير آلاف الأميال وقد عثم بالطياشير ؛ «محروقة غير قابلة للفساد - سرعة بطيئة» - وبعضها يصح مقايير للمصابين بالفيلوس ، وللاجات لتلك الجثث المجمدة ، وبعضها ينسف ويتطاير شظايا في السماء . . . وفي مناطق سيبيريا الثانية مستخدم ابوابها وجدرانها لسنج اسبجة وزيانسب المناشية . ومختلف شهر عديدة قبل أن يعود السليم منها نصف محروق - مضطعا إلى المكان الذي طالب بعودته الفورية ، ويقف على الضبان الصلبة للتصليح .

- ماذا يكتبون من موسكو ، يا رفيق تليفين . هل يستلهمون

الحرب الأهلية قريبا ؟

- عندما تنتصر .

- يعني . . . أنهم يؤولون علينا . . .

كان بعض الذين عند النار يستلقون بارتقاء حلتهم ملوحي البشرة سود . . . لم تكن لهم رغبة في النوم ، ولا في حديث طويل . طلب أحدهم تبغا عند تليفين .

- يا رفيق تليفين ، من هم هؤلاء التشيكوسلوفاكيون ومن أين جاءوا اليها ؟ أنهم حسب ما أذكر لم يكونوا في الوجود قبيل هذا . . .

أوضح إيفان إيليتش أن التشيكوسلوفاكيين هم أسرى الحرب النمساويين ، وكسدت يداهم الحكومة البصرية تتشكل منهم فيلقا لترسله إلى فرنسا ، ولكن الوقت لم يتسن لها لتفعل ذلك . . . - أما الآن فإن السلطة السوفيتية لا تستطيع أن تسرحهم ما داموا يريدون يحاربوا في الجبهة الامبريالية . . . وقد طالبنا بتحريرهم من السلاح ، ولهذا تمردوا . . .

- المعقول أننا سنحاربهم أيضا ، يا رفيق تليفين ؟

- لا أحد يعرف شيئا الآن . . . المعلومات غير محددة تماما . . . أنا أشك في ذلك . . . عدهم حوالي أربعين الفيا . لا غير . . .

- إذن ، من السهل أن تقضى على هذا العدد . . .

وعاد السميت يلف الجمجمين عند النار . قال الذي طلب تبغا من تليفين لظلمة من مؤخر عينيه ، والقاهر ليجرد الاشتراك في الحديث :

- في عهد القيصر أرسلونا إلى منارا كاميش . . . ولم يوضحوا لنا شيئا . لماذا يجب أن نحاربهم التترك ، وفي سبيل من تقضى بحياتنا ، والرجال في تلك البقعة فظيمة . وننظر ونفكر بأن أمك ولدتك في ساعة نحن . . . أما الآن فالأمم مختلف - أنها حرب في سبيلنا ، حرب استماتة ، كل شيء مفهوم : من ولأى شيء .

- حدثني على سبيل المثال - يدعوني تشيرتوغولوف .

قال جندي آخر بصوت كتب واقعا جسمه على كراهه « وجلس

في مكان اقرب إلى النار حتى تكال من المدخن ان النار لم تطفئ
 ليعينه . كان ذا شكل مخيف . وشعره الاسود نازل على جبينه .
 وعيناه المستديرتان تلتهمان في وجه المارح . ثم استنهد يقول -
 كنت في الشرق الاقصى مرتين ، ولفظت في السجن مدوا
 متفاوتة على التشرد . . . طيب . ومع ذلك وشعروني في الكتف .
 واعطوني بطاقتي العسكرية . وارسلوني لأحارب . . . جرحت ستة
 جروح . . . هذه هي . انظروا - ووقع اصبعه في فمه . وجذبه الى
 طرف . وكشف عن اسنان مكسورة - وديرت امرى . ووصلت الى
 موسكو . الى مستشفى عسكري . وهناك وجدت البلاشفة . . .
 وانتهت كل متاعبي . سألوني : وضحك الاجتماعي ؟ اجبتهم
 لا يتحلوا بعيدا . انا لسيل عامل زراعي محترم . لا اعرف الارب
 في . ضحكوا كثيرا واعطوني بطاقة . وترشيحا . وصرنا في ذلك
 الوقت نجوب المدينة باحثين عن البرجوازيين . . . اذا دخلنا الى
 شقة فاشرة نجد اهلهما خائفين . بالطمح . . . ليبحث نجد انهم قد
 اخفوا الطحين والسكر . . . الاوغاد ! انهم خائفون يرتجلون . ولكن
 لا نتد عنهم كلمة واحدة . واحيانا يغسرن الغنظ . واخرج عن الطوق
 الانسانية . تحدث يا وغد . واستم وتوصل بي . . . اسبه انبح
 السباب . ولكن لي اجد يتحدث . . . فاقول لنسي : ما هو
 القضية ؟ . . . واجس بالاهانة . صمت طوال عمري . وعملت لولا
 الابالسة . وارقت من اجلمهم دمي . . . ومع لا يعتبرونني انسانا .
 وافكر : هؤلاء هم . البرجوازيون . منذ ذلك الحين صار يعرفني
 الحقد الطبقى . حسنا . . . ذات مرة كانت تجب صداقة بيت
 التاجر ربايتكين . كنا اربعة وبمنا وشاشنة لاثارة القوف . ونطق
 الباب الخارجى . وبعد قليل تفتح لنا الباب خامة انيقة . وقد
 سحبت واضطربت متشججسة : آه . آه . . . وسارت على اطراف
 اصابعها . . . تميهاها جانبا . وفتحنا صالة . لغرفة كبيرة مزينة
 باعمدة . وفي الوسط مائدة كان يجلس اليها ربايتكين وسيف
 ياكلون العطار . حدث ذلك في اسبوع المرقع وكان الجميع سكارى
 بالطمح . . . كان ذلك في وقت يموت فيه البروليتاريون جوعا . . .
 ولذا ضربت الارض باليدفنية بشدة . وصرخت بهم بصوت عال .
 بينما هم جالسون يتشمسون . . . ويهرج ربايتكين للمقالا متوردا

مرحبا . وعيناه جاحظتان ويقول : ايها الرفاق الاعزاء . انا اعرف منذ
 زمان انكم ستصادرون بيتي بكل محتوياته ا المهلوني لانهم من
 العطار . بالثناسية . اجلسوا معنا . . . ولا يعب في ذلك لان هذا
 كله ملك للشعب . ويشير الى المائدة . . . اخذنا نتردد . ولكننا
 جلسنا الى المائدة . ونحن نسك البنادق متجهين . . . اما
 ربايتكين فقد قدم لنا الفودكا والطائر والمشويات . . . ورتحت
 وشخك . . . لم يترك شيئا لم يتحدث فيه . فطعمنا اشخاصا
 متنوعا بلاذع الكلام . . . والفيزيق يفقهون . . . واشدنا لحسن
 الضحك . . . وقيلت لكات مختلفسة عن سلوك البرجوازيين .
 وبدا يبدل . ولكن كلما تميس احدنا قليلا الفرق صاحب البيت
 عبوسه بالفودكا . شربنا باكواب للشباب . ولم نترقب
 يدورها . . . وبداروا يفضون زجاجات الشبانيا . فوضعنا ينادقنا
 في ركن . . . واقول لنسي : يا تشيرتولوتوف . اهذا انت
 تسرع في الصلاة . وتعلق بالامدة ؟ وبدانا نقفي الاغاني جماعيا .
 ويعدت المساء شركنا الرشاونة على مقعدة البيت . كيلا يقتل شخص
 قريب علينا . وبقينا نترقب سنا وتلاين ساعة . استرحجت فيها
 ما خسرته خلال حياتي الكيام . ومع ذلك فان ربايتكين قد خدعنا .
 ذلك التاجر القبيث . . . بينما كنا نسكرح ونترقب استطاع -
 وساعدته الخامة في ذلك - ان يخفي كل المجرهات والذهب
 والعملة الاضيوية . ومختلف الاشياء الثمينة في مكان عامون . . .
 فم نصادر غير الجنران والاثاث . . . وعند الانصراف قال ربايتكين
 بوقعا . وهو سكران بالطمح : ايها الرفاق الاعزاء . خلوا . خلوا
 كل شيء . انا لا اتأسف على شيء . لقد خرجت من الشعب . واعود
 الى الشعب . . . وفي ذلك اليوم رجل خارج القطر . اما انسا
 فاستعدت الى الفجعة الاستثنائية . قلت لهم : عذرا لنا . ارموني
 بالرصاص . . . الا انهم لم يرموني الا كوني غير واع . والا حتى
 الآن سعيد لاني قد تمتعت . . . هناك شيء يستحق ان اتذكره . . .
 قال احد الجالسين وراء الضمان :
 - هناك الكثير من الخشاء بين البرجوازيين . ولكنهم ليسوا
 قلة بيننا .
 توجهت الانظار اليه . وقال الذي طلب ليغا من الميقين :

— لا احد يوقظ الشعب الآن ، ما دام قد غاض الدم في عام
١٩٤٤ .

قال صوت من وراء السخان :

— ليس هذا ما اعنيه - العمود عذب ، والم دم ، ولكن
عنيت الغيباء .

— وانت من ؟

اجاب الصوت خافتا :

— انا ؟ انا حيث .

عندئذ سمع الجميع ، وراحوا ينظرون في الجمر الهامد .
سرت برودة في ظهر تليفين . كان الليل طريا ، انقلب شخص عنه
النار ، واستلقى موسدا خلفه على قبعته .

نهض تليفين ، وتمطى ، وعدل من عندلعه ، وحين اتراح
الدخان الآن صار من الممكن رؤية «الغيب» جالسا طابوا وجليه في
الجانب الأخر من النار . كان يتضم تصل الاضئتين وكان الجمر
يضيء وجه الطويل الناحل بشعرة المزغب الفاتح قليلا ، ونوعته
الشبيهة بنوعه وجه لسائل . وقد سرح على قضاء طافية مستهلكة ،
ووضع على كتفيه الضئيتين معطف جندي ، كان غاريا حتى الحزام .
كان القميص ، الذي كان يبعث فيه من قبل كما يبدو ، مرمسا
بالقرب منه . لاحظ ان العيون متجهة اليه فرفع رأسه ببطء ، وابتسم
إبتسامة طويكية بطيئة .

عرفه تليفين ، كان احد المقاتلين في مرتبه ، واسمه ميشكا
سولويو من الفلاحين القاطنين بالقرب من مدينة ييلينس ، وقد
تلطوع في الحرس الأحمر ، وجاء الى شمال القوقاز من جيش
سيفرس .

ما ان التفت عيناه يعين تليفين حتى غلظهما ، وكأنه قد
ارتبك . عندئذ فقط تذكر ايغان ايليتش ان ميشكا سولويو
معروف في السرية كناظم اشعار ، ومكبر مرشد ، رغم انهم لم
يروء سكران الا نادرا ، الذي المعلق عن كتفيه بحركة كمول ،
واخذ يلبس قميصه . ارتقى ايغان ايليتش السدة الى عريضة
الركاب ، حيث رأى مصباح الكيروسين يشتعل ساهرا في النافذة
الوحيدة في مقصورة آمر الفوج سيرغى سيرغيبيليتش ساويوكوف .

ومن على السدة كانت النجوم ونقاط النار المشتكة على اليهود على
الارض في الاسفل تبدو اكثر وضوحا .

مد ساويوكوف رأسه من النافذة ، وقي فيه تمبلونه المعكوف
وقال :

— تعال ، يا تليفين ، عندي ماء مغلي .

كان مصباح الكيروسين المثبت على الجدار الجانبي يرسل
ضوءا شامعا في المقصورة المهلهلة في الدرجة الثانية ، قضى
السلاح المتعلق من عظامها ، والكتب المبعثرة في كسل مكان ،
والعرائط العسكرية . كان سيرغى سيرغيبيليتش ساويوكوف في
قميص قذر من الجيت ، وقد التفت الى تليفين لدى دخوله ، وسأله :

— هل تريد كولا ؟

جلس ايغان ايليتش على التخت ، تراعى سجع سمان من
النافذة المفتوحة مع طراوة الليل . خرج أحد الجنود من عريضة
مجاورة ، وهو بين النوم واليقظة ، يسير بخطوات مشعرة لفضاء
حاجته . واهتزت اوتار «بالالاياكا» خافتة الرنين . وارتفع مصباح
ذلك من مسافة قريبة . وكان الليل قد جاوز تصفه .

سأل ساويوكوف : وقد فرغ من هيئة السخان :

— ذلك يتضح ؟

كانت عيناه حمراوين ، ووجهه التجيل مبتعا ببقع حمراء . . .
لمس التخت وراءه ، وعثر على النظارة الالمانية ، ووضعها على
انفه ، واخذ ينظر الى تليفين :

— إذن ، فان الفرج يبذلك ديكا حيا ؟

— جاء نازسون جدد ، وقد اخبرت المقومين بذلك ، عثرون
عربة ينسداد اطفال . . . اية لعنة هذه . قال تليفين مقلبا
التساق في القبح .

— من اين جاءوا ؟

— من قرية بريولنايا ، طايور كبير . وقد حاجسهم
التزاق في الطريق . كلهم غراب . فقراء ، شكرا ضابطان اوزباقيان
في خربهم جماعة ، وانفازوا في الليل ، وشتوا السوقييت ، وشتفوا
عددا من رجال القرية .

قال ساويوكوف تامقا كل حرف بوضوح :

- وباختصار ، حادثة امتيادية .

وبدا في سكر شديد ، دعا تليفين الى ان يرفه عن نفسه ، وكان جسم تليفين يشك كلسه من التعب ، ولكنه احس بان الجلوس في مكان وثيق واحتساء الشاي سيرجانه حتى انه لم يتصرف رغم ان الحديث مع سيرغن سيرغيفيتش لن ياتي به جدوى .

- اين زوجتك ، يا تليفين ؟

- في بتروفاد .

- انت رجل غريب . في زمن السلام يمكن ان تكون مواطناً سعيداً كل السعادة . زوجة طيبة ، وطفلان صالحان ، وجرافلون . . . ولكن اي شيطان جعلك تذل الجيش الاحمر ؟ سيقتلوك . . .

- لقد ارضحت لك الامر من قبل .

- تناور لتصل الحزب ؟

- اذا كان الامر يقتضي فسادخل الحزب .

قال سابويكوف ، وقلص عينيه من وراء زجاج النظارة الانفية العكر :

- اما انا فحتي لو سلفقتي في ثلاثة مراحل لسما جعلتني

شيوعياً . . .

- اذن ، لو كان هناك رجل غريب من بيننا فهو انت ، يا

سيرغن سيرغيفيتش . . .

- لا ، ابدأ . في عقل غير ديالكيتكن . . . طبيعة وحشية ، يعيش دائما على الغاب . هكذا اقول انني قريب ؟ (وضحكك باستهزاء ، وبارتياح على ما يبدو) منذ تشرين الاول والا اعرب في سبيل السلطة السوفييتية . هكذا اهل قرأت تينينا لكرويوتكين ؟

- لا ، لم الرا .

- ذلك واضمح . . . سنم . يا اخ . . . العالم البرجوازي سافل ومضجر بشكل جهنمي . . . واذا اتصرفنا فيكون العالم

* كرويوتكين (١٨٤٦-١٩٢٦) احد كبار رجال الثورة
والقربى في روسيا - العجوزم -

الشيوعيين ايضا مضجرا وامتياديا ، فاضلا ومضجرا . . . وكرويوتكين شيخ طيب . . . عنده حشور واحلام ، ومجتمع يسلا بلقات . انه شيخ رفيع التربة : «اعطوا للناس حربة فوضوية ، يحطوا مواطن الشر في العالم ، اي المدن الكبيرة » وستقيم الانسانية اللاخيقية جنة رفيعة على الارض . لان المحرك الانساني في الانسان هو حب القريب . . . ما - ما . . .

وشحك سابويكوف شحكة مملجة ، وكأنه يريد ان يهين شخصاً ، وتطمت انظاره الانفية على الفه العظمى . والنس تحست التفت . وهو يضحك ، واخرج عتبة قصديرية فيها كحول ، وصب في قديم ، وشرب ، وقسم قطعة سكر موشياً ايهاً تحت اسنانه .

- ان ماساتنا ، يا عزيزي ، هو اتسا . نحن المتقنين الروس ، قد تشأنا في الحزن الواحد لنظام القنانة . واخافتنا الثورة لا الى حد الموت ، بل الى حد التقيز التمني . . . لا يجوز اشفاق ناس وادعين الى هذه الدرجة اها ؟ كنا تجلس في عشنا الريس ، وتفكر مستمعين الى صداد الطيور : «الطيف لو لظمت الحياة بشكل يجعل كل الناس سعداء . . . من هذه البيعة خرجنا . . .

والمثقفون في الغرب يقول كبيرة ، زبدة البرجوازية يتفقدون مهمة ملحة : تطوير العلم والصناعة ، ونشر سرب التسالية العوامي على العالم . . . المثقفون هناك يعرفون لماذا يعيشون . . . اما نحننا ، فالحياد بالله . . . سنن نلهم ؟ وما هي مهماتنا ؟ من جبهة نحن جزء لا يتجزأ من النزعة السلافية ، ونحن ورتنا في الفكرة . وما هي النزعة السلافية ، لو تعرف ؟ انها مثالية اصحاب الاراضي الروس . ومن جهة اخرى ان برجوازية وطننا تدفع لتسا المال ، ونحن نعيش على حسابها . . . بينما نحن نخدم التسامب وحده . . . بالفرابة ، الشعب ا . . . ترايديا كوميديا ا وقد يكينا على حساب الشعب كثيراً حتى شحت دموعنا . . . وعندنا حرمونا من امكانيات ذرف الموع لم نجد ما نعيش به . . . وصرتنا نعلم بان فلاحنا سيسلمون قريبا الى القسطنطينية وسيعفون الى القبة ، ويركزون صليب الارثوذكسية فوق كاتدرائية القديسة صوفيا . . . حلما بان تهدي الكرة الارضية للفلاحين فلابلوتسا بالمدري ، نحن المتحسين العالمين الياكين . . . فضيحة فرينة

من نوعها ؟ رعب مربع . . . وبينما التفريسيب . . . يا عزيزي . . .
ويحاول المتفكرون التراجع ، وتلغيس رؤوسهم حسن الرتبة . . . لا
أريد ، حاولوا أن تدبروا الأمر يدوي . . . كان ذلك وروسيا على
شفا حاوية ميتة . . . عطا قاذح غير قابل للتصحيح . . . وسبب
ذلك في أننا جميعا قد تربينا تربية ارسطراطية ، وقيفون جدا :
غير قادرين على فهم الثورة خارج الكتب . . . والكتب تتحدث عن
الثورة وكأنها السحر الحلال . . . وهنا يهرب الجنود من العجبة
الالمانية ، ويفرغون الضباط ، ويسرقون القائد العام ، ويعرغون
الضياح ، وتضيدون زوجات التجار على العظوظ العديدية ،
ويتزعمون من الأماكن المصونة فيهن الفراط الناس . . . لا ، إن
نذهب مع مثل هذا الشعب وكنتيا خالية من أي وصل له . . . فما
العمل ؟ أن نلرق دعونا غزيرة في بيوتنا ، ولكن العصبية أننا
تسبنا كيف نلرق الدعوى . . . تحطمت اعلاما تماما ونلقد صا
تعيش به . . . وهكذا نحن من الرعب والغرف نلدفن رؤوسنا تحت
الوسائد ، ويهرب بعضنا الى خارج الوطن ، اما الذين أكثر حنفا
لميشيرون السلاح ، وتحصل قضيعه في عاصمة كرسية . . . أما
الشعب ، وسبعون بالمائة منه اميون ، فلا يعرف ماذا يفعل بينما
تراكم فيه من كراهية ، وبغوض والتم والربح . . . فيقول
«حاولوا ، شربوا شمتنا احموا المرايا اذن ، واقلموا كل شيء من
الجلد » زمرة واحدة بين المتفكرين امتلقت ياترتها ، انهم
الشيوعيون ، ماذا يفعل الناس حين تأخذ سفينة بالقرى ؟ يلدغون
خارجها بكل ما هو زائد . . . واول ما فعله الشيوعيون هو ان
قذفوا ببراميل المائال الروسية القديمة خارج مميمتنا . . . وكل
ذلك عسسل زعيمهم ، انسان روسي . . . واحسن الشعب
راسيا ، وبخاصة قريزية ان هؤلاء هم من جماعته ، وليسا سادة .
انهم لن يبتاكووا ، وانهم سيستون الامر بسرعة . . . ولهمنا
السب ، انا معهم ، يا عزيزي ، رغم انني قد تربيت في دفينسة
كروبوكتين الرجالية ، في الاحلام . . . وما اكثر الذين من امثال ا
لا تكفر ، يا تليفين . انت على العموم جنين ، بدائي وفرح . . .
بعضنا ، اذا اردت ان تعلم ، يحتاج ان يقلب ، عن وعي ، ظهرا
على بطن ، عندئذ سنشعر بكل امانة ، مؤكداين في انفسنا القسوة

الإرادة الواحدة : الحقد . . . ولا يجوز ان نحارب بدون ذلك . . .
اننا نفعل كل ما في الطاقة الانسانية واعلمين امامنا غاية يسع الشعب
نوحنا . . . ولكننا زمرة . . . والامداد في كل مكان . . . هل سمعت
بالتشيكوسلوفاكيين ؟ سيأتي العوض ويحدثك عنهم . . . هل
تدري ، ماذا اخاف ؟ اخاف ان يكون ذلك انتحارا لنا . لا ألتسق
بانتصارنا . منصفه شهرا او شهرين او ستة اشهر ، ولا نصعد
اكثر . . . نحن هالكون ، يا اخ . . . سينتهي كل شيء بالعودة الى
الجزالات . . . وانا اقول لك ان اللوم في كل ذلك يقع على انصار
السلافة . . . عندما بدأ تحرير الفلاحين كان يجب ان تصرخ :
«الجمعة ، ستهلك . نحن بحاجة الى الزراعة البكتفة ، الى تطوير
معدات للصناعة ، الى تعليم عام . . . وليرجح من بين الفلاحين
يوغائيف جديد ، وستينكا وازين جديد . لا يتم من هو الذي يعلم
سلب الفتاة تحطيا كليا . . . علمه من الاخلاق التي كان يجب ان
نلقها بين الجاهل ، بهذه الاخلاق زهر المتفكرين . . . ولكننا
اسرفنا في طرف سؤل من دعوى الفرح . «يا زهر ، ما ارحسب
روسيا وما اشد اصالتها الفلاح حر الان كالموا ، وضياح ملاكي
الارض بالانسان الموصوفات في نصص توجييف سليمة ، والروح
ملطرفة في شمتنا ليس كما هي الحال في القرب الشطيح . . . وما
انا الا ان اظن ان كل حلم ا

ولم يستطع سابويكوف ان يقول اكثر من ذلك ، فقد توجه
وجهه ولكنه لم يقل بالوش ، الا هم عمل ما يبدو ، جلس تليفين قاهر
التم مقمورا يبيض كلماته . وقد وضع قدمه الشاق البارء عسلي
ركبته : تردد وقع اقدام في مسر العربة تشدو لانسان ثقيل جدا .
وفتح باب التصورة ، وظهر زبل ربس القامة عريض المتكئين
التصق شمره القائم على جيبله الواسع ، جلس صامتا قرب الضياح
واضحا يديه الكبيرتين على ركبته . كانت العفون القليلة تبدو
كالندوب على وجه الملوح بالربح . وكادت عيناه لا تظهران ، وما
في ظل وجهها والجاهلين المتدائلين . انه رئيس الشعب القاسية
للروح . الزيفيق غميرا .

سأل بصوت خفيض وبلهجة جادة :

— الكحول مرة اخرى ، حذار ايها الزيفيق . . .

قال سابوچكوف :

- اي كحول ؟ اوه ، اذهب الى جهنم . ها انت تروانا تقرب

شايًا .

لهجر فيمزا دون ان يتحرك ؟

- واسوأ من ذلك ان تكذب . رائحة الكحول تفوح من

ناظريك . بدأ اضطراب في العريات ، فان الجنود يتسلسون . . .

وهل متاعينا قليلة ؟ والثى . الثاني انك بدأت تتحدث في الفلسفة

حديثا لا نهائيا احق . ومن هنا استنتج انك سكران .

- حسنا ، سكران . ارمي .

- لا احتاج الى وقت طويل لكن ارميك . وانت تعرف ذلك

جيذا . اما اصطباري عليك فراجع الى اخفى بعين الاعتبار صفاتك

الغالبية . . .

قال سابوچكوف :

- اعطني شيئا .

اخرج فيمزا من جيبه كيس لماش بوقار . ثم تابع كلامه مغالبا

تليفين بصوت بقرى . وكأنه يلحن بالرحم .

- العرة بعد الأخرى نفس المنظر نجح القبول : في الاسبروج

الماضي رفينا بالرصاص ثلاثة اولفاد ، وقد استجرتهم بنفسي .

متعتون . اعترفوا بكسل شيء . وفي الحاصل حصل على كحول . . .

واليوم رفينا وقد خبيسا ، من استخبارات ديكين . قضى عليه

بنفسه بين نبات الاسمل . . . اما الآن فهجر امامكم سكران يتفلسف .

خليط عجيب في ذهنه . كنت واقفا عند النافذة انصت . اوشكت على

التفكير . وكانسا من رائحة شيء عفن . . . لو كان اي واحد نجري

لأرسله من زمان الى الشعبة الخاصة على هذه الفلسفة . لانه يتحلى

خلقيسا . . . وبعد ذلك سيرفض يومين ، ولا يستطيع قيادة

الفرج . . .

- ولكن ما العمل اذا قد رحبت زميلي في الجامعة ؟

وتخلص سابوچكوف عينيه ، واشتغل متخرا .

لم يرد فيمزا بشيء . وكأنه لم يسمع قول سابوچكوف -

خفي تليفين رأسه . . . وتكلم سابوچكوف داعما انه العرق نحو

فيمزا :

- صحيح انه من استخبارات ديكين . بينما كنا . انا وهو .

تتردد على «الاسميات الفلسفية» . لا ادري كيف صار في الجيش

الابيض . . . ربما عن يأس . . . انا الذي جبلته اليك . . . ألم

يتسك اتنى اذيت وايبي ؟ أم تريدني ان ارضى . حين رايتهم

يسوقونه الى المنخفض ؟ . . . صوت في الخلف ورايت . - وتلرس

في عيني فيمزا المظلمتين الغارتين . - هل من حق ان تكون لي

مشاعر انسانية . أم يجب ان احرق كل شيء في نفسي ؟

اجاب فيمزا على مهل :

- لا ، ليس من حقك . . . انا بالنسبة لوكوي فانا لا

اعرف . . . ولكن بالنسبة اليك يجب ان تحرق في نفسك كل

شيء . . . فان هذه البؤرة لمعها الموجودة في نفسك ستولد

الغدا للثورة .

صنوا طويلا . كان الجو ثقيلًا . وهدات كل الاصوات خارج

النافذة . صب فيمزا لنفسه شايًا . وقطع قطعة كبيرة من الخبز

الرمادي . واخذ ياكله ببطء . مثل رجل شديد الجوع . ثم بدأ

يتحدث بصوت كامد عن التشيكوسلوفاكيين . كانت الانياء مقلقة .

فقد تورد التشيكوسلوفاكيون في جميع القطارات . الممتدة من

بيتزا الى فلاديفوستوك . قيل ان تمر السلطة السوفيتية الامر

كانت الطرق الحديدية والمدن تحت ضربات التشيكين . استولت

الوحدات الغربية على بيتزا . واتجهت نحو سيزران . واحتلتها .

وامشرت زحفها نحو سامارا . كانت هذه القوات ملتزمة بالانضباط

التزاما جيدا حسنة التسليح تحارب باقتدار وامتنان . وكان من

الصعب الآن معرفة ما اذا كان ذلك مجرد عصيان عسكري . أم

توجهها قوى معينة من خارج البلاد . والشاعر انه هذا وذلك . وعلى

اية حال . ان جبهة جديدة تمتد من المحيط الهادي حتى الفولغا قد

تفجرت كقط من البارود متفولة على قواجم قادمة .

في الخارج تقدم شخص من النافذة . صمت فيمزا . وتعيس

والثقت . باداء صوت :

- يا رفيق فيمزا . تعال . . .

- ماذا تريد ؟ تكلم .

- سيرى .

أقول لغيرنا حاجيبه على محجربة ، وأسند يده على الثفت ،
وجلس بهذه الصورة برهة ، ثم الهض نفسه قسرا ، وخرج ضاربا
بكتفيه يائس الباب - وفي قسمة العربية جلس على التوجات ، وانحنى
بجذعه من الظلام شخص طويل في معطف خيالة ، وتقدم نحوه
مصلصلا بهمازيه وهمس في أذنه بشيء على عجل . . .

أما سايبوچكوف فسا أن خرج لغيرنا حتى أخذ بعض غليونيه
مصات سريعة ، وصعد في الثافتة عدة مرات بشراوة ، ورعى
نظارته اللاتية ، وراح يضحك فجأة .

- كل السر في الأمر هو أن تجيبه على السؤال المطروح اجابة
مباشرة . . . هل يمكن قتل الانسان ؟ يمكن - ما هو الهدى
الأقرب ؟ الثورة العالمية . . . لا دخل لعواطف المتفلقين هنا . يا
أخ . . .

وفجأة قطع كلامه ، وانصعب ، وراح يتسمع ، كانت العربية
كلها تهتز . فقد كان لغيرنا يضرب جدارها بقبضته - وارتفع صوته
العاد المبحوح :

- وماذا لو كذبت عليّ ، يا ابن الكلبة . . .

اصك يدري صبره لغيرنا يتسلى به تليفين . . .

- هل سمعت ؟ أعرف ما الأمر ؟ هناك شامتات كربية حول
تالندنا العام سوروكين . . . وهذا رفيق من الشيعة الغاضبة قد عاد
من هناك ، هل فهمت السبب في عيوس غيرنا الجهنمي ؟ . . .

سحب ضوء النجوم قبيل الفجر . . . وصاح ديك مرة أخرى بين
العريات . ونزل الندى على الممسك الهاجس - ذهب تليفين إلى
مضروته ، وخلق حذاءه ، واستلقى على الثفت مشتهدا ، وضرت
التوايق من تحته .

كان تليفين يتخيل أحيانا أن سعادة الحياة القصيرة فكانه قد
رأها في لومه في السهب الأخضر ، تحت قرعة عجلات القطار . . .
كانت حياته موقنة وادعة ؛ عهد الطلبة ، ويطرسبورغ الهائلة
الالاهية ، والوطنية ، والصحة الرخية لذوى الاطوار الغربية الذين
كأنوا يعيشون في شقتيه في جزيرة فاسيليسكي ، آنذاك كان
المستقبل يبدو واضحا وكانه قد جمع في راحة يد - فلم يطل التفكير

في المستقبل - كان مرور الاعوام فوق سطح بيته متوهلا غير مرهق .
كان ايفان ايليتش يعرف يانه سيؤدي ما يجب عليه بتراحة ،
وحين يشتغل بأهله شيئا ، ينظر الى الخلف ليرى ما صنع ويجد انه
قد قطع طريقا طويلة دون أن يتحرق في مزالق خطورة مثل آلاف من
اعدائه . وقد دخلت دأشا الى حياته اليومية البسيطة ، دخلتها
بسلطان ، وتالقت عيناها الرمادياتان بسعادة صارمة . سقا لقد كان
يراد نفسه شك قصير الأجل وفي الاكوار العميقة منها ، في أن هذه
السعادة لم تكن مكتوبة له ! الا انه كان يطرده شكه ويعقد النية على
أن يقيم - حين تنتهي العريان - بيتا سعيدا لدأشا ، وحين حين انهارت
الجدران الصلبة للإمبراطورية - واختلط كل شيء - وجزأ من الحق
والآلم شعب تعداده مائة وخمسون مليون انسان بقى ايفان ايليتش
موقنا بأن العاصفة ستمر ، وأن العرجة عند بيت دأشا ستزهر عامرة
بالسلام بعد المطر .

ومسا هو مرة أخرى على الثفت في قطار عسكري - بالأمس
مركة ، وفي الغد مركة - وواضح الآن ان الماضي لا عودة له . وكان
يشعر بالعجز حين يتذكر انه قسيس عام كان يشتغل نفسه في
تأليف شقصة في جادة كامينواوستروفسكي ، فيشترى سريرا من
للشعب النفسي ثلثه دأشا عليه مطلقا ميتا .

كانت دأشا اول من اصطدمت بقرع الدواحة - كانت الثورة
بالثمة لها «الفلازان» اللذان قفرا عليها في الحديقة «اليتني» .
والزيد الميت يتعوه المنصب ، والمجاعة ، والظلم ، والراسيم
المصنعة كلياتها بالحقد والكرامة . وكانت الثورة في الديالي تصفر
فوق السطوح ، وتلطف التوازل المتجمدة بالفتح ، وتصرخ بدأشا
باصوات موهلة : «خربية» . وفي ربيع بطرسبورغ الرمادي هبت
ريح وطئة ، وازلت قطرات الماء من السطوح ، وسقطت قطع الجليد
بفضج من الايبب التصريف الطوفية . وقالت دأشا لايفان ايليتش
(وكان قد عاد الى البيت دافقا بالغبوية ، في معطف غير مزور ، وغيتاء
اللاعتان بشكل خاص ترمقان دأشا التي كانت منكشمة ملفوفة في
المنديل حتى حنكها) :

- اود لو اعلم وأنى . يا ايفان ، وانسى كل شيء الى الابد . . .
شئذة يمكن ان اكون لك صديقة . . . وفي هذه الحال ، لا اتدر ان

أعصى في ملازمة الفراش الفظيح ، ومواجهة النهار اللعمن من جديد .
المهمنر ، ارجوك ، لا اقدر ، لا اقدر على العيش . لا تصور انى بجاجة
الى رفاة ، لا شىء . لا شىء ، احتاج اليه . . . فقط ان اعيش حيا بكل
النفسى . . . لست بحاجة الى تواله . . . فقدت حى . . . اعدلى . . .
قالت ذلك ، واستعارت .

كانت دائما صابرة في عواطفها دائما . اما الآن فقد اضحت
ناسية . سالها ايفان ايليتش :

- لعل من الأفضل ان نتصل لبعض الوقت يا دائما ؟ .

وعندها ولأول مرة خلال الشتاء كله راي حاجبها يرتفعان
بفرح ، وتتساق عيناها بأمل غريب ، ويتسلخ وجهها التحيل
شكافة . . .

- اظن من الأفضل ان لفرق ، يا ايفان .

عندئذ بدأ يسمر بحزم وعن طريق درويلىق ليدخل الجيش
الأحمر ، وفي نهاية آذار رحل في تطار سكرى الى الجنوب . وقد
ودعه دائما على رصيف محطة اكنابرسكى . وحين مرت نافذة العربة
بكت بكاء مرا ، ملقبة الشمال الصوفى على وجهها .

ومنذ ذلك الحين قطع ايفان ايليتش مئات الفراسخ . ولكن ما
من معركة ولا تمه ولا حرمان استطاع ان ينسيه الوجه الصيب
الباكى في زحام النساء عند حائل المحطة السوداء . كانت دائما
تودعه ، وكأنا الى الأبد . واجهد ايفان ايليتش نفسه ليعرف لماذا
لم يرق لها ؟ انه في نهاية المطاف هو المسؤول عن بروعها طبعاً .
انها ليست اول امرأة تله ظلام ميتسا . وليست الثروة هي التي
انتزعت منها القلب . . . ان ذاكرته حافلة بالازواج الذين زادهم
الزمن العصيب المضطرب غريباً الى قريب . . . فعل اي شىء تلوته ؟
وأحياناً كان يتولد في نفسه حتى : حسناً ، يا عزيزتى ، اجبني
واعترى على رجل آخر بذلك مثل هذا التبديل . . . العالم يتهار ،
ومعاناتها تبقى اقل لها من كل شىء . . . مجرد الغلات ، تعود على
الطعام الناعم واستنكاف عن العيز الناشف .

كن ذلك صحيح ، ولكن الاستبدال الذي يتولد منه ان ايفان
ايليتش مثال للفضيلة ، وان عدم الوقوع في حيه جريمة . وفي كل

مرة كان يصطلم بهذا . . . فيقول لنفسه : «حقاً ، اي شىء فريه في ؟»
ان المعاف جسمياً . هذا اولاً ، فهل انا ذكى وجذاب بشكل خارق ؟ لا .
انما امتدادي مثل اي رجل عادي . . . وهل انا بطل ، انسان كبير ؟ ذكر
لسانتي ؟ لا . ابداً . . . انما رجل عاى بسيط نزيه ، مثل ملايين
الناس . . . وقد رحبت وزفة يا نصيب مصادفة ، اذ اجبنتى فناة
ساعة ارفع اسناساً منى بالق مرة ، واذكر ، وارفى ، وكنت عن
عنى بنفسى الطريقة غير الموهومة . . .

وعندما كان ينظر الى نفسه بهذا المنظار كان يفكر : العلى
السبب في انه ليس في مستوى الزمن الذى يعيشه ، بل ويقايل قتالا
عامياً . وكانه يختم في مصلحة ؟ كان له النقى باناس اشده في الشر
والفعل . سمعون ينظر عملاق في المعارك الدموية . . . ويقول لنفسه :
«اما انت ، يا ايفان ايليتش ، فليتك كرهت العدو كل الكراهية
وخليت الموت بقوة . . .»

والتمت ايفان ايليتش لذلك كثيرا - ودون ان يلاحظ ذلك بنفسه
اصبح واحداً من اكثر العاملين في الفوج وتوقسا وتمغلا وشجاعة .
نهدت اليه بعمليات خطيرة فتفدعا بشكل باهر .

جعلته الحديث مع سيرغى سويغيفيتش شديد التفكير . ان الامر
المرح كان ايضاً فريسة حزن . . . فريسة حزن شديد . . . وميشكا
سولومين ؟ وتشيخ توخوتوف ؟ وآلاف ممن تسر بهم دون ملاحظة ؟
الهم جميعاً يضارعون زمتهم . ضلالم . شعت تشوههم العذابات .
وليس لديهم الكلمات ليقولوا ، لا شىء غير البندنية في اليد . وعند
آخرين عنف وحش يشبعه لهم . . . تلك هي روسيا ، تلك هي
الثروة . . .

- ايها الرفيق امر السرية . . . استسقط . . .

جلس ليلتين على التخف . كان قرص الشمس اللعشى يطل
من النافذة مغلقة فوق حافة السهب الاصفر . وعن الجندي ايفان
ايليتش مرة اخرى . وكان غريض الوجه اصهب اللحية احمر
كالنفس الصهبية .

- امر الفوج بطلبك بسرعة . . .

كان الصباح ما يزال يضيء في مقصورة سايجوكوف مرصلا
والعلة قريبة . وقد اجتمع فيها لخمزا ومفوض الفوج سوكولوفسكى
السقيم الاسود الشعر ذو العينين السوداوين الملتصقتين من الارق ،
وأخرون من امراء الكنايب وبعض امراء السرايا . وممثل لجنة الجنود
الذى كان يرسم على وجهه تعبير عن الاستقلالية بل والتحدى . . .
وكان الجميع يذخنون . كان سوغى سوفيبيتشى الذى كان قد
ارتدى شترته وعلق مسدسه بسك الشريط البرونى يديه مرلجة .
وقد قرأ بصوت مبحوح حين توفد ايجان ايليتش عند الباب :

« . . . وهكذا قطع احتلال العدو المفاجيء للمحطة كواتسا
وجعلها تحت طرية مزدوجة . نتشادكم باسم الثورة وباسم السكان
التعساء الذين ينتظروهم حتما الموت والشنق والتعذيب ، اذا تركناهم
لتحكم عصابات البيض ، ان ترسلوا التعزيزات فون ان تضيقوا
دقيقة واحدة . »

صاح سوكولوفسكى :
- ماذا تفعل بدون امر القائد العام ؟ ساذب مرة اخرى
لا حاول الاتصال به بالعط البانتر . . .
قال لخمزا حاقفا :

- اذهب ، وحاول (وتنظر الجميع اليه) . لما انا فاقول لك :
اذهب انت ، خذ اربعة من المسائيل وتبلغين ، واذهبوا الى مقر
القياضة في عربة تروى . ولا تعد دون ان تحصل على الامر . . .
سايجوكوف : اكتب ورقة الى القائد العام سوكوكوف . . .

كان احد الخيالة واقفا في الرابية العتسبة ، وقد وضع كفه
فوق عينيه ، وراح يعمن النظر في شريط الخط الحديدى . فقد كانت
عقلها سحابة من الغبار تقترب بسرعة .

وحين اختفت السحابة في تجويف من الارض عسى الخيال فرسه
يساقه ثم بالتهماز : من الفرس الاصوب التحيل راسه مفتاحسا .
واستدار . ونزل من الرابية التى كانت تخبى على منحدرها فصيله
من الضباط المتطوعين امام كتل الطين التى جمعت من توحا .
قال فون ميكة : «عربة تروى» وفلز من السرج واخذ يضرب
ركبى الفرس الاحاميتين بقرعته ليجهله بيك . ضم الفرس العرن

رجليه ، وحركه اذليه ، ولكنه اطاع ، ونزل الى الارض زافرا زفرة
عذبة . ومن التراب بيوزة . ويوك . وكان جنبه المغنن بالاضلاع
يرتفع ويهبط .

فرخص فون ميكة على الرابية والى جانبه روتشين . وفى تلك
اللحظة خرجت عربة التروى من التجويف وكان من الممكن الان
تسيير ستة رجال يعاطف عسكريا .

- نعم ، نعم ! - وادار فون ميكة راسه الى اليسار -
رصد ا - ثم ادار الى اليمين - استعدا ا تار سرعة نحو الهدف
المتحرك . . . اضرب ا

سرق الهواء فوق الرابية كالفقاص المتشى ، ومن خلال غمامة
الغبار كان من الممكن ان يرى الرائي رجلا يسقط من عربة التروى ،
ويتكلم عدة مرات . ويخرج على المنحدر مجتئا العشب بيديه .
الملتفت اتار من عربة التروى من ثلاث بنادق ومسفين .

وبعد لحظة كان يجب ان تختفى في التجويف الثاني وراء كشك
التحويل . من فون ميكة الهواء بصغير سوطه ، واستشاط غضبا :
- سيجيبون . يغيبون ! كان الاحرى بكم ان تصطادوا
غربا ا اعرا !

كان روتشين يعتبر جيد الرماية . وجه يندقيه على بعد قدم
امام العربة ، وصوب على رجل عريش الشنكين ضمن حديق الرجة
يندو اسه الامر . . . وفكر مع نفسه «انه كثير الشبه بتلغين ا
تم . . . سيكون ذلك قطعيا . . . »

واطلق روتشين . طارت طاقيشه من على راسه ، وفى تلك
البرهة غاصت عربة التروى في التجويف الثاني . تلق فون
ميكة بسوطه .

- قدارة . كل الزحط قدارة . لستسم رعاة . يا حضرات
الضباط ، بل قدارة .

وداح يستم جاخذ العينين مثل قاتل مؤرق حتى نهض الضباط
من على الارض تاضحين ركبهم ، واخذوا يتفكرون :

- يا امر السرعة . . الاحرى بك ان تمسك لسالك ، عندنا
من هو اعل منك رتبة .

وضع روتشجن مشطبا جديدا ، وحس بأن يديه ما تزالان
ترتجسان . فمن أي شيء ؟ أمن المعقول من مجرد التفكير بأن ذلك
الرجل كان يشبه إيمان تليفين ؟ هراء ، إنه في بتروغراد .

صعد الطووس سوكولوفسكى وتليفين برأس مقصده إلى مقدمة
بيت أجرى من طابقين هو مقر إدارة القرية يقع مقابل الكنيسة كالعادي
مطرا على ساحة غير مرصوفة كانت الاسواق الريفية تقام فيها سابقا .
كانت الدكاكين الآن مغلقة بالالواح ، والنوافذ مغطاة ، والاسبيجة
مغلوعة . وقد اقيم في الكنيسة مستشفى عسكري . كانت اسمال
الجنود ترغرف على العيال في فناء الكنيسة .

كانت اعقاب السكائر وقصاصات الورقة مبعثرة في دواقر إدارة
القرية ، حيث كانت تقيم هيئة اركان القائد العام سوووكين وكان
جندي احمر يجلس الى جانب السلم المؤدى الى الأعلى على مقعد من
الخشب الصعوج واضعا يديقيه بين رجليه . وكان يهوى بشئ سمين
وعيناه مغمضتان . كأن فق عريض الوجنتين ذا خصلة متهدلة -
إدارة مألوفة على العظلة العسكرية - تبرز من تحت طابقته المرسحة
على فناء بشريطها الاحمر . سأل سوكولوفسكى بعجالة :

- تريد مقابلة الرفيق سوووكين . . . كيف لذهب ؟

فتح الجندي عينيهِ الكئوسين من شجر ناعس . كأن انقه ناعما
لا يشع عن جدية . نظر الى سوكولوفسكى - الى وجهه وملايسسه
وعذابه ، ثم نظر بهذه الطريقة الى تليفين . تقدم منه الأمر
بنقاد صبر .

- انا اسمالك ، يا رفيق . . . نحن نريد مقابلة القائد في أمر
استثنائي .

قال ذو الخصلة المتهدلة :

- ولكن الحديث مع الحارس لا يجوز .

صاح سوكولوفسكى :

- اللعنة ، دائما تجد مثل هؤلاء الالهاد في مقر الازكان .
تسكبون ا اطالبك يا رفيق بأن تجيب : هل سوووكين موجود هنا
لم لا ؟

- غير معلوم . . .

- واين رئيس الازكان ؟ في الدائرة ؟

- في الدائرة .

جذب سوكولوفسكى تليفين من كفه ، واندفع يسعد السلم .
صعد ذلك دام الحارس بحركة تحفز ولكن دون أن يترك مقعده ، فقد
اخرج الينديف من بين رجليه :

- الى اين ذاهبان ؟

- كيف الى اين ؟ الى رئيس الازكان .

- هل لديكما ترخيص ؟

بدأ الطووس يشرح للحارس السبب الذي حملهم الى هنا
على عربة تروالي . وقد تميز لحيظا حتى طلع الزيد على سنتبيه . فاستوى
حذا وهو ينتظر الى الرشاخنة الزاوية امام المدخل ، وإلى اليراميم
والاولاد والاعلامات التي كانت تملأ حيطان الرواق . ومن رأسه -
وقال بكتابة :

- يجب ان تفهم ، يا رفيق ، واثت الواثق . اذا كان معك
ترخيص اتركك لذهب ، والا اطلقت النار بلا رحمة .

وكان لا يد من الغضوع ، رغم ان الترخيصات كانت تعطى في
مكان مسا في الطرف الآخر من الساحة . والمكتب في الملب الظن
مفلول . سيفولون لهمسا ان التومندان قد خرج ولم يحضر الا في
الغد . وظهر الاسماء على سوكولوفسكى فوراً . . . وفي تلك اللحظة
اندفع من الساحة الى الباب شخص فصيح الناقة في قميص مشقوق
حتى وسطه يضرب الأرض بعذابه الطويل .

- يا ميتكا . . . بوزجورن الصابون . . .

وكان ربيعا قدفت بالحارس من الكرسي ، وثب خارجا إلى مقدمة
البيت ، صعد سوكولوفسكى وتليفين الى الطابق الثاني دون أن
يترصعا عارض . وبعد استرشاد بحسناوات متنفحات العيون في
بلاذرات حريرية بعضن يهنا يميننا وشمالا عشرا اخيرا على غرفة رئيس
الازكان .

تخلأها فرأيا عسكريا اتيق الملابس ينظر في اطرافه ، وهو
مستلق على اريكة مهلهلة ممددا رجليه . استوضعا حقيقة الأمر
بأذن جسم ، واستقبال بروتيتارى معتن به شافعا كل كلمة - دينا

* سيلة لام ويمتزة - الصخر -

رفيق» (رغم ان هذه الكلمة كانت تخرج من فمه وكأنها «يا كورت
سوكولوفسكي» «وبا امير تليفين» تم استاذان وخرج بصرف بحذاء
الاصغر الطويل ذي الاربطة حتى ركبتيه . وبدأ همس وراء الحائط .
وصفق ياب من بعيد ، ثم هذا كل شيء .

نظر سوكولوفسكي الى تليفين بعينين ملتفتين :

— هل تفهم شيئاً ؟ الى اين جئنا ؟ ولما هذه قيادة البيض ؟

ولم كلفه التحليل . وبقي مصعوقا في غاية الدهشة . عاد
الهمس مجدداً من وراء الحائط . وانفتح الباب على سعته ، ودخل
رئيس الاركان ، وهو رجل في اواسط العمر ركين ذو جبهة عريضة
صلعاء وسحنة متجهمة يرتدي قميصاً عسكرياً خشناً مشفوداً بحزام
قوذاً على بطن كبير . وتفرس في تليفين خلفاً . وعن راسه تحفة
لسوكولوفسكي ، وجلس وراء المنضدة ، واضعا يديه المشتمتين
اعلاه بحركة معتادة . كانت جبهته رطبة مثل جبهة رجل قد فرغ لتره
من الاكل والخمرة . وحين اسس بالظلمات عضوية اليه زاد من جهامة
وجهه الاحمر المنتفخ . قال باعتراف وبرود :

— اينفنتي التوبيخي الكما ، ايها الرفيقان ، قدمتمنا في امر
مستعجل . يدعشني لماذا لم يستخدم امر الفوج ، او انت ، ايها
الرفيق المفوض ، خط الاتصال المباشر . . .

قال سوكولوفسكي :

— حاولت الاتصال ثلاث مرات . . . ولكن على قدميه وخرج
من بيته شريطاً برقياً ، وقمعه الى رئيس الاركان قائلاً :

— كيف يمكن ان تنتظر بهدوء ورفاقنا يهلكون . . . ولا اوامر
من قيادة الجيش . . . والناس يتوصلون الينا لانفتهم . . . وفوج
«الحرية البروليتارية» يهلك ومعه طابور من العربات وفيها الفان من
اللاجئين . . .

التي رئيس الاركان نظرة خاطفة على الشريط ، وفداه فتلوى
حول معبرة كبيرة :

— نحن ، ايها الرفاق ، على علم في المعارك الجارية الآن في
منطقة فوج «الحرية البروليتارية» . . . وانا اقدر حماسكم ، وسورتكم
الثورية (كان يبدو وكأنه يبحث عن الكلمات بعهد) . ولكنني اطلب
متمك في المستقبل الاكتيروا الرعب . . . لا سيما وان عمليات العدو

عارضة . . . وباختصار ان كل التصاير قد انطقت ، ويمكننا ان
نعود الى واجباتكم مطمئنين .

ورقم راسه . كانت نظراته صارمة وصافية . نهض تليفين
حين عرف بان المعادة قد انتهت ، وظل سوكولوفسكي جالساً
كأنما قد صعق . قال :

— لا استطيع العودة الى الفوج بمثل هذا الجواب . سيعقه
الجند اجتماعاً عاماً هذا اليوم وسيهب المسوج اليوم لانفاة
«البروليتاريين» بمحض اودئسه . . . وانبهك ، يا رفيق ، بانني
سأطلب قى الاجتماع مؤيذا الهجوم . . .

لحق وجه رئيس الاركان يعبر ، وجبهته الضمخة الصلعاء
تلوح ، دفع كرسيه بحركة صاخبة ، ونهض ، فارتقى عليه بتفاهه
العسكري حشر يده وراء حزامه قائلاً :

— ستكون مسؤولاً امام المحكمة العسكرية الثورية . يسأ
رفيق الا تنسى لنا لسنا في عام ١٩١٧ ؟

— لا تحاول ان تليفني . يا رفيق ا

— اسكت ا

في تلك اللحظة انفتح الباب بسرعة ، ودخل رجل طويل
ورقيق القامة بشكل غير اعتيادي يرتدي سترة جركسية من القماش
الرفيق . كان وجهه الجميل الكليل بشعره الاسود السائط على
الجبهة ، وشاربيه المتدلين مسطحا بذلك اللون الوردى الفاتح
الذي يكون عادة لدى الصرغيين في السكر او الفساق . كانت شفاهه
مبلمتتين حمراروبن ، وفتحة السوداءوان مستعتمين . اقترب تماما من
سوكولوفسكي وتليفين طموحا بكم سترته الاسبى ، ودمق فيها
بنشرة وحشية . والتفت الى رئيس الاركان ، وقد ارتعش متفخراً
بعق :

— ما هذا السلوك على النمط القيصري مرة اخرى ا ما هذه
الاسكتة ؟ اذا كلاً عذابين برميان بالرصاص . . . ولكن دون اعادة
عن قبل جيران . . .

سبح رئيس الاركان هذه الملاحظة صامتسماً ، وقد اطلق
براسة . وما كان من سبيل لاي اعتراض . فقد كان هذا هو القائد
العام سوروكين نفسه . قال بهدوء :

- اجلسا - ايها الرفيقان ، انا مصغ اليكما .

وجلس على الفرز النافذة .

عاد سوكولوفسكي يشرح الغرض من مجيئنا : الحصول على اذن للروح فارنافسكي في الهجوم فوراً لمساعدة جاره فوج «الحرية البروليتارية» - ان ذلك ان الجانب كونه واجبا ثوريا يمليه حساب بسيط : قلن نحن «البروليتاريون» ، فسان فوج فارنافسكي سيجد نفسه مقلوعا عن القاعدة .

لم يجلس سوروكين على الفرز النافذة غير ثانية واحدة - طلق بعدها بلوغ الغرفة من الباب الى الباب مليقا اسئلة فصوية . وكلما كان يستدير بحركة حادة كان شعره المصقوف يتطاير . كان الجنود يحوته على حسابته وشجاعته . وكان يجيبه الكلام في الاجتماعات العامة - وكانت هذه الصفات غالبا ما تحتق مكان العلم العسكري في تلك الايام . كان ضابطا قوزاقيا برتبة ققيب ، وقد حارب في جيش يودينيتش في ما وراء القفاس ، وبعد انقلاب اكتوبر عاد الى قريته بئروبولوفسكايا في كوبان . وشكل فصيلة انصار من ابناء قريته ، حارب معها في حصار بكاريتوبودو ، وعالقه التوفيق . وطلع نجمه بسرعة ، وادار المعبد راسه . وكانت فراه طامعة ، وكان يجد الوقت الكافي للقتال والظهور . وفضلا عن ذلك فان رئيس الاركان احاطه عن قصد بتسامح مليحات ، وكل الجوانب الملائم للمعجور .

سأل حين فرغ سوكولوفسكي من الحديث ، ومسح جبهته عصبيا بمتدليل مدعوك قدر :

- وماذا اجابوكما في هيئة اركاني ؟

اسرع رئيس الاركان ليقول :

- اجيئنا باننا قد اتخذنا جميع الاجراءات لانقاذ فوج «الحرية البروليتارية» . وقلت ان قيادة فوج فارنافسكي تتدخل في اوامر قيادة الجيش . وهذا امر غير مسموح به كليا ، وفضلا عن ذلك فانها تثير ذعرا لا يقوم على اساس .

قال سوروكين بدهية تصالحية مفاجئة :

- لا يجوز ان يعالج الموضوع بهذا الشكل ، يسأ رفيقي ، الانضباط ضروري بالطبع . . . ولكن هناك اشياء اهم بالك مرة

بما تقوله عن الانضباط . . . ارادة الجماهير ا يجب تشجيع السيد الثوري . رغم ان ذلك يناقض ما تقوله عن العلم العسكري . . . ولكن عملية فوج فارنافسكي بلا جدوى ، ولكن مضرة - لنكن ما نكون ا عندنا ثورة . . . واذا منعتمهم الان صرعوا الى عقد اجتماع عام - انا اعرف هؤلاء الضباطين - عيصرتون ثانية بانتي اعلم الجيش بالسكن . . .

والدلع الى السوتد ، ونظر الى سوكولوفسكي نظرة خاضرة :

- قدم تقريرك ا

اخرج تليفون ورقة على الفور ، ووضعها على الطاولة ، اختطها الغاد ، ومرر عليها عينيه السريعتين ، واخذ يكتب ثامرا العبر من ريشته :

«امر فوج فارنافسكي بالقيام قوزا بالخط ، وتادية واجبه الثوري» .

نظر رئيس الاركان اليه بابتسامة ساخرة ، ولكنه تراجع خطوة حين مد القائد العام الورقة اليه ، ووضع يديه خلف ظهره . - لانتقم الى محكمة ، ولكني لن اوقع هذا الامر . . .

في تلك اللحظة ففر ايفان ايليتش وامسك سوروكين مسن مصعبه مانعا اياه من رفع المسندس - وحجب سوكولوفسكي رئيس الاركان بجسمه . ترددت انفاس الاربعة تقيلسة - حرر سوروكين نفسه ، ووضع المسندس في جيبه ، واخرج صافقا الباب بمسندة جعلت بعض الجيش يتساقط . . .

صمقت ابواب ، وتلاشت خطوات القائد المتسرع :

قال رئيس الاركان بمصالحة ونبرة جشاء :

- استطيع ان اؤكد لكم يا رفيق ، انني اذا وقعت على هذا الامر فان مصيبة قد تحصل على لطافات واسعة .

سأل سوكولوفسكي بصوت مبحوح بعد ان سعل :

- اية مصيبة ؟

نظر رئيس الاركان نظرة غريبة اليه :

- الا تخدس عم اتحدث ؟

- لا .

وقفت عينا سوكولوفسكي من طرفيها .

- انا أقصد جيشي . . .

- يعني ؟

- ليس لي الحق في ان اكشف عن اسرار عسكرية امام
مفوض فوج - ليس كذلك ، يا رفيق ؟ ستكون اول من يرميني
بسبب ذلك . . . ولكننا تعرضنا اثناء حديثنا في شؤون عميقة -
حسنا . . . خلوا كل شيء على مسؤوليتكم . . .

اقبل على خارقة لحرزت فيسبا اعلام صغيرة - تقدم
سوكولوفسكي وتليفين وصادرا ووا شعرة - والظاهر ان تقارب
حرارة الانفاس في فمئ ازعج رئيس الاركان بعض الشيء - تحركت
لوحنا كتفيه تحت التليفين - الا انه اخرج يدهود فورا لتخلييل
الاستان ، ومرر نهايته المقضومة على الخارقة من الاعلام الثلاثية
الوان في الاتجاه الجنوبي الى مواقع الحمر الكثيفة - وقال :

- هنا البيض -

- اين ؟ - وتقدم سوكولوفسكي من الخارقة تماما - عمرا
عليها عينيه المشاوبين - ولكن هذه تورغوايا . . .

- نعم ، تورغوايا - وسقطها سينظف نصف الطريق امام

البيض -

- انا لا افهم . . . تصورتنا البيض ابعد الى الشمال على
الاقبل بحوالي . . .

- نحن تصورنا ، لا البيض - تورغوايا في اللحظة الراهنة
تحت شريعة مركزية - والبيض يملكون طائرات وديابات ، وهم
ليسوا شريعة كورنيلوف السابقة . . . انهم يملكون على خطوط
داخلية ، ويجهون الضربات ايتما يريدون - والقيادة في ايدهم -
قال تليفين :

- في الشمال من تورغوايسا قرصة معتري شيلبيست
الحديدية . . .

- تحطمت . . .

- وقرعة الخيالة ؟

- تحطمت -

اتلع سوكولوفسكي وقتها ، وتقدم من الخارقة ، وقال :
- انت انسان شديد التحفظ ، يا رفيق ، كانك قد تمت

سقوط تورغوايا . . . هنا تحلم وهنا تحلم ، - واستدار نحو
رئيس الاركان مخاطبا - وجيشنا ؟

- نحن ننظر امر القيادة العامة العليا ، فان لرفيق كالتيين
حساياته الخاصة - ولا تستطيع اركان قيادة الجيش ان تطالب
اركان القيادة العامة العليا بالهجوم ، وهي تهيئ قبضتها عليها -
لماذا نلن انت ؟ ان الحرب ليست اجتماعا عاما -

وابتسم رئيس الاركان ابتسامة رقيقة - نظر سوكولوفسكي
الى وجهه الممثل 'الهادي' حابسا انفاسه - وتعلم رئيس الاركان
تلك النظرة - قال وهو يعود الى الطاولة :

- تلك هي الامور ، ايا الرفيقان - ولهذا السبب لا املك
الحق في ان اسحب وحدة عسكرية واحدة من الجبهة ، ولو ان ذلك
يدو معقولا كلنا وضروريا . . . ان وضعنا ليس بالسهل ابدا -

الآن ، نودا الى وحدتكم فورا - وكل ما قلته لكما سرى لا يدعى
في الوقت الحاضر - يجب المحافظة على الهدوء التام في الجيش - اما
بتشان فوج 'الحرية البروليتارية' فلا حاجة للفرع على مصيره ،
فقد حصلت على معلومات مطمئنة . . .

وانتقد حاجبا رئيس الاركان فوق انفه المحكوف - وصرف
الزائرين بهزة من راسه ، خرج سوكولوفسكي وتليفين من مكتبه -
في الغرفة المجاورة كان التوجيه ينظف اظافره واقفا عند النافذة -
وقد حيا الخارجين يادب -

همس سوكولوفسكي :

- وقد -

عندما خارجا الى الشارع ، امسك بكم تليفين :

- ها ؟ ما وايك ؟

- شكليا انه على حق ، اما من حيث الجوهر فان ذلك تخريب
بالطبع ،

- تخريب ؟ لا - ان اللعبة اكبر - ساعود لارميه . . .

- دع عنك هذا ، يا سوكولوفسكي - لا ثأت بجماعة . . .
تتم سوكولوفسكي :

- شيانة - اقول لك ان هنا خيانة - كل يوم يبلغون غيمزا
ان في هيئة الاركان سكروا - وقد شئت سدوركين المفوض -

وحاولت ان تان تقف امامه ، ان سوروكين فيصر وآله في الجيش ،
انه محبوب لشجاعته ، لانه من عندهم - وهل تعرف من رئيس
الاركمان هذا ؟ انه عقيدت ليرصر يدعى بيلياكوف . . . هل فيست
العقدة ؟ ولكن لنذهب . . . ما رأيك ، هل ستتخطى البيض يتجاح ؟
من رئيس الاركمان الجرس - ظهر النوبجى على الباب -

قال بيلياكوف وهو ينظر الى الاوراق جهما :

- اترق في ما هي حالة القائد ؟

- الرفيق سوروكين في المطعم - وحالته بين بين -

وانتظر النوبجى حتى يتسلم رئيس الاركمان ايشامة مباشرة
هل منضى ، وعندئذ يتسلم النوبجى ايشامة كثيرة الدلائل :

- زينكا ؟ معه .

- حسنا - انصرف .

ذهب بيلياكوف الى شعبة الاتصال - وعين الاخبصار
التلفونية - وقع بخط واضح يطره بعض الاوراق ، ولبت برهة
في المسر عند الباب الاخير ، حيث كانت تتردد من ورائه انعام هادئة
على اوتار - اخرج رئيس الاركمان مندبليه ، ومنع وقتته العمراء
التوبة ، وطرق الباب ، ودخل دون ان ينتظر ردا .

كان سوروكين يجلس مسرورا كمن سترته العريضين عند
مائدة في وسط الغرفة مقروشة بجراند وعليها آنية مستخدمة
وانداج - وكان وجه الوسيم ما يزال عابسا ، وقد سد تساقطت
خصائل من شعره الاسود على جبهته التدية ، نظر في بيلياكوف
بحدثين متسمتين ، كانت زينكا تجلس على مقعد بلا ظهر الى جايه
واضحة سائلا على سائق حتى لاح رباط جوربها ، وعقرمات ثوبها
الداخلي ، وكانت تعزف على قيثارة - كانت امرأة شابة ذات عيني زرقاوين
واضحتين وشفتين لديتين ، واقف دقيق يشم عن العزم ، وشعر اشقر
منفوش مرفوح الى اعل راسها ، والثنيات السقيمة وحدها عند
العم ، ولو انها لا تكاد تبين ، كانت تلمح على وجهها الرقيق
مسحة سوان وحشي يستطيع ان يعض - كانت حسب هويتها ابنة
عامل سكك الحديد من انحاء اومسك ، وذلك ما لم يكن يصدق به

* نسخة لاسم زينكا - المترجم *

الى انسان بالطبع ، مثلما لم يصدق انسان بان عمرها كهابية عشر
عاما ، وبانها من عائلة تدعى كانايتنا ، وبان اسمها زينبايه - الا
انها كانت لضرب على الالة الكاتبة بشكل ممتاز ، وتشرب الفودكا ،
وتعرف على القيثارة ، وتغنى لغاني عاطفية جذابة ، وقد عمد
سوروكين بانه سريعها بيده لدى اول محاولة منها لنشر كساد
الحرس الابيض والتعفن في هيئة اركانه ، واطمان الناس عند ذلك ،
قال بيلياكوف هازا راسه ، وبقي عند الباب للتحوط :

- رائع ، بكل تأكيد - في اى وضع تضعني انت ؟ ياني
اثنان من اللجنة المركزية كما هو واضح ، ويهددان بالاجتماعات
العامه ، فاذا انت تنحاز الى جانبها بسرعة . . . ما اسهل التغلب
الى جهاز التلغون ، والاتصال بيكاتريودار ، ليرسلوا لك على
الطور يهوديا ينظم لك هيئة الاركمان ، ويتم معك في السرير -
يرضحك الى المرأحة ، ويضبط جميع افكارك - فطاعة ،
بالتأكيد - ان لدى القائد العام سوروكين ميلا الى الدكتاتورية ا
المحب لتكون تحت الرقابة . . . اما انا فلا اريد . . . يمكنك ان
تزميني . . . ولكن ان اسمح لك بان تهددني بالسفسي في وجود
من ؟ هو الل رتبة . . . اى الضباط سيكون بعد هذا . . .
ليغفلتك القديمان .

مضى سوروكين ينظر الى رئيس الاركمان ، ومد يده الكبيرة
التوبة ، ولكنه لبش على الهواء بدلا من عنق الزجاجة . سرت رعدة
في فمه ، وتوترت شارباه - الا انه استطاع ان يمسك بالزجاجة على
اية حال ، وصب كوبين .

- اجلس ، واشرب .

نظر بيلياكوف بطرف عينه الى مخزومات سروال زينكا ، وتقدم
من المائدة - قال سوروكين :

- لو لم تكن ذكيا لرميتك بالرمصاص . . . الانقباض . . .
ان الضباط هو التتسبال - هيا ، لبحساول اى منكم انهاض
الجمهير . . . سألودها ، الشتر وقتا ، لا احد تجرى يستطيع دحر
البيض ، انا الذي سيحطم الاوغاد البيض . . . وسيفتر العالم . . .
واستششق مخزوم الهواء ، ويذات العروق على صفحيه

فتمشى !

- سائفت مناطق كروان والدون وتيريك بدون النجسة المركزية . . . ان هؤلاء الافراد ، اعطسوا اللجان ، ماهرون في تصرفاتهم في بكاتريوندار لا في الجبهة . . . انهم حينئذ . . . اذن فانا على حق ، في الحركة دكتاتور . . . انا اقود جيشا !
ومد يده الى فسخ الكحول ، الا ان بيلياكوف دلق له القدر ، وقال :

- كفى شربا .

- اها ، تافهين ؟

- اريوك ، كصديق . . .

القي سوروكين نفسه على ظهر المقعد ، وؤثر عدة زفرات تصويرية ، واخذ يجيل بصره حتى اوقفه على زينكا ، كانت تسرور اطرافها على الازوار .

لغت ، وقد رفعت حاجبيها بتكاسل : «وتنفس الليل . . .»
استمع سوروكين ، والعروق على صدغه راحت تنبش بقرة لسرع ، نهض ، ودفع رأس زينكا الى الوراء ، وراح يقبلها من قمها بنهم .
استمرت زينكا في العزف ، ثم نزل القيثارة من ركبتيها .

قال بيلياكوف بملطف :

- هذا امر يختلف ، آه ، يا سوروكين ، احبك ، ولا ادري لماذا احبك .

حزرت زينكا نفسها لغيرها ، وانجحت العنادة واطلة الى الارض حمرة ورقعت القيثارة ، ولبعت عيناتها الناصعتان من تحت شعرها المشوش . لسقت شفتيها المتورمتين يطرף لسائها وقالت :

- اوف ، اوجعتني . . .

- اتعرفون يا اسدثاني ؟ عندي زجاجة مخبأة . . .

وقطع بيلياكوف كلامه مخفقا بكلته . وتعلقت في الهواء بنده المتفرجة الاصابع . اذت رسامة وراء النافذة وتعلقت اصوات - خرجت زينكا من الغرفة مع قيثارتها خلفا وكانها مدفوعة بريح - تهم سوروكين واتجه نحو النافذة .

قال رئيس الاركان بعجالة :

- لا تخرج ، ساعرف قبلك ما الامر .

كان العراك واطلاق الرصاص شاحرة اعتيادية في مقر هيئة

الاركان . فقد كان جيش سوروكين يتألف من مباحثين اساسيين ، الفوزاق الكوبايين الذين كان سوروكين قد شكل نواتهم في العام الماضي والاوكرانيين الذين جمعوا من بقايا الجيش الاوكرانية الحمراء التي تراجعت تحت ضغط الالمان . . . وكان بين القوزاق والاوكرانيين شحنة مزمنة . كان الاوكرانيون لا يحسنون المقاومة في ارض غريبة ، ولا يتورعون كثيرا اذا كان الامر يتعلق بالعلمف والشمون ، حين كانوا يمرون في قرى القوزاق .

وكان العراك واطلاق الرصاص يحدث كل يوم ، ولكن ما بدأ اليوم كان اكثر خطورة ، اندفع القوزاق الغبالسة بالصيحات ، وتراخض الجنود الحمر جماعات مدفوعة من سياج الى آخر ومن حديقة الى اخرى ، وسُمع اطلاق نار شديد باتجاه المحطة . وفي الساعة امام نوافذ مقر الاركان كان قوزاق جريح يصرخ بوحشية زامفا ومتلويا في الغبار .

وبدا هرج ومرج في مقر الاركان . كان خط التلفون متسدا الصباح لا يرد على المكالمات ، والآن عاد يحصل من هناك سيلا من الايحاء الصبولة لا يمكن ان يفهم منه غير شيء . واحد : ان البيض في زحفهم السريع باتجاه سوسنيكا - اومانسكايا بطاردون امامهم وحدات الحمر المدفوعة . ووحداتهم الامامية التي وصلت الى مقر الاركان بدأت بالتهرب في المحطة والقرية . وفتح الكوبايون النار ، وتشتبت معركة .

اندفع سوروكين خارج البوابة على فرس اصهب ضخم نرس . ووزاده زها ، حسين واكبا في ستر جركسية وسيوف معرجة ، وغلاستهم تتطاير وراء ظهورهم . وكان سوروكين يحسن على الصبوة وكانه قد سير فيهما . كان حاسر الرأس يعرف الناس بوجهه حالا ، التي رأسه الجبيل الى الوراء . فصارت الرياح تعيب شعوره وكعيبه واذايل مشرقة - كان ما يزال سكران ، يادى العزم ، شاحب الوجه . وكانت عيلسا تنظران يتفرس - ونظرتهما رهيبية . وكانت محاية من الغبار تتطاير وراء الخيول المتطلقة .

كانت بعض الطلقات تسع من وراء الحاجز الثاني بالقرب من المحطة ، كان يمش المراقبين يطلق صراخات عالية ، وقد وقع

أحدهم عن حصانه ، إلا أن سوروكين لم يمر إلى ذلك الثفان ، كان ينظر إلى حيث كانت جبهة رعداية من الجنود تتصاح وتفسور وترتكض بين الطارات البضالغ .

بغزوه من بعيد . مسند الكثيرون إلى سلوح العربات . وارتفعت البنادق فوق الرؤوس وتعالى الصياح . تغطى سوروكين سياج حديقة المحطة دون أن يخطف سرعته ، وعفا على السكك إلى قلب الجمهرة . أمسك الجنود بلباح قمرسه . رفع ذراعيه فوق رأسه وصاح :

- أيها الرفاق ، وفاق السلاح ، أيها المقاتلون أماذا حدث ؟ ما هذا الرمي ؟ ولماذا الهلع ؟ من أدار لكم رؤوسكم ؟ أي وفد ؟ ارتفع صوت هالك :

- بقدرنا بنا !
ولرفعت أصوات أخرى :

- نعد بنا لمرء الوحدات ! كشلوا الجبهة !
راح جمهور مؤلف من عدة آلاف يصرخ على السكك الحديدية ، وق العجل ، والعربات :

- بقدرنا بنا . . . تحطم الجيش كله . . . يسقط القائد !
اتلوا القائد !

وصار صفير وهويسل ، وكان ربحا شيطانية كانت تهب . سهلت خيول المرافقين ، ووقفت على أرجلها الخلفية . وتداقمت نحو سوروكين وجوه متلوية وأيد سوداء ، صرخ بشدة جعلت رقبتة القوية تنتفخ :

- سكوت ! لستم جيشا لوريا . . . شرذمة من قطاع الطرق والإوغاد . . . اروى المقاتلين على جلودهم ومثبرى الهلع . . . اروى افواه العرس الأبيض !

وحت حصانه فجأة ، من الحصان جزء الأمامي ، والمدفع عبقيا بين الجمهور . انحنى سوروكين من على السرج وأشار بأصبعه :

- هذا هو !
التفت الجمهور بصوت لا إرادية إلى الذي أشار إليه سوروكين . كان رجلا طويلا نحيلًا ذا انف كبير ، سحب الرجل ورفع مرفقيه ، وتراجع ، لا أحد يدري هل كان سوروكين يعرفه

حقا ام قد ضحى به كاول رجل في طريقه ليجد مغربا للوضع العرج . . . وكان الجمهور بحاجة إلى دم . اختطف سوروكين ميغا معرجا ، ورفع في الهواء ، وهوى به على رقبة الرجل الطويلة بصفر منيرا . انجس الدم على يوزة الحصان برشاش قوى .

- هكذا يعامل الجيش الثورى اعداء الشعب .
حت سوروكين حصانه ثانية ، ودار في الحشد رهيبا شامخا ودحا بالسيف الناس لانما مهددا مهددا :

- لا اندحار أبدا . . . الجوابيس وعملاء البيض يتثرون الربح من قصد . . . وهم الذين يدفعونكم إلى النهب ، ويقوضون الاضباط . . . من قال انهم حطونا ؟ من أحمق يشربوننا ؟ هل رأيت ذلك أيها الحفير ؟ أيها الرفاق ، لقد تدنمك إلى الحركة ، وانتم تفرقون . . . انا أيضا أحمل في جسدى ستة وعشرين جرحا أ

عالمكم بأن تكفوا عن النهب في الحال ! وليذهب كل واحد منكم إلى قطاره ! اليوم سأؤذمكم في هجوم . . . اما الجناء والمقاتلون على جلودهم فبانتقامهم انتقام السنط الشعبى . . .

استمع الجمهور ، وعلته الدهشة ، وصعد بعض الأفراد على اكتاف آخرين ليقلوا نظرة على قائدهم العام . ما تزال الأصوات تزق ولكن القلوب تتوهج . وتردد هنا وهناك : «انه يسوسون الحقيقة . . . ليقدنا . لنذهب معه . . . » . وظن امرء النراسيا الذين كانوا قد اختفوا ، واخذت الوحدات تعود إلى قطاراتها شيئا فشيئا . كان ثمة شق في سترة سوروكين عند الصدر . الفرجة واطير آثار جراح قديمة . . . وكان وبهه شامخا مأخوذا . . . زال الهلع . قضيت حواجب الرشاشات لملائمة الطارات المتقرسة . وحمل الخط كله ببرقيات في منتهى الحزم .

ومع ذلك فقد كان لا محيص من تراجع الجيش . وبعد عدة ايام فقط يمكن إعادة النظام إلى الوحدات العسكرية في متلقة محلة تيماشينسكايا ، والبدء بهجوم مضاد . زحف الحمرى في

كأوبرين على فيسبيلكو وكورينسكايا . كان الجنود الحمرى يرون سوروكين متلقا على حصانه الاسب كدما تأرجحت كلمة المعركة . وكان يبدو وكأنه بارادته الملتبهة وحدها قد حوّل مصير الحرب

منقذا المنطقة الساحلية على البحر الأسود ، ولم يبق أمام اللجنة التنفيذية المركزية لجمهورية شمال القوقاز الا ان تعترف رسميا بتأسيسه في العمليات العربية .

٦

في تلك الايام من اواخر ايار ، حين كان جيش دينكين يقوم بمحطة كوبان الثانية ، خيم خطر جديد على جمهورية روسيا السوفيتية . كانت ثلاث فرق تشيكية في وقت واحد تقريبا في جميع القطارات من بينزا الى اومسك زاحفة من الجبهة الاوكرانية نحو الشرق .

وكان هذا التمرد اول ضربة اعدتها سابقا المتدخلون ضد روسيا السوفيتية . كانت الفرق التشيكية قد بدأت تتشكل منذ عام ١٩١٤ اولا من التشيكيين الذين كانوا يعيشون في روسيا ، ثم من اسرى الحرب ، وقد اصحت بعد ثورة اكتوبر جسا غريبا داخل البلاد ، وازاحت تتدخل في الشؤون الداخلية بقوة السلاح .

ولم يكن من السهل دفع التشيكيين الى الهجوم المسلح على الثورة الروسية ، لانهم كانوا ما يزالون يظفرون في روسيا بانتصارها النصر المبيل للشعب التشيكي من الحكم الامبراطوري النمساوي . وكان الفلاحون التشيكيون الذين كانوا يستمتون الاوذ لعهد البلاد يقولون على العادة القديمة «اووثة واحدة للروس» . كانت الفرق التشيكية وهي تتراجع تحت ضغط المعارك مع الالمان في اوكرانيا تنهيا الى الانتقال الى فرنسا ليظهروا في الجبهة ، للعلم اجمع ، تأييدهم لحرية بلاد التشيك ، والمساهمة في انتصارها على النمساويين والالمان .

تحرك اسرى الحرب الالمان والجرمانيون المكونون بشكل خاص لغاء القطارات التشيكية المتجهة الى فلاديفوستوك . وكان لوران المم يحتم في الاماكن التي يلتقي فيها هذان الشيازان . وكان عملاء الحرس الابيض يوشوشون للتشيكيين بنوايا البلاشفة السنية ، وبمساندهم الزعمومة من تجريد الوحدات التشيكية السياراة وتقديدها الى الالمان .

وفي ١٤ ايار حدث عراك خطير بين التشيكيين والجرمانيين في محطة تسيلياينسك . فاعتقل سوفييت نواب الشيفلسة في هذه المدينة بعض التشيكيين الذين تمادوا في القتال بشكل خاص . مما ادى الى ان يهب القطار كله لرفع السلاح . واضطر السوفييت الى التراجع لان الجنود العبر عندهم في خط السكة الحديدية كله لم يكونوا مسلحين التسليح الكافي . شاع نيا حادث تسيلياينسك في القطارات التشيكية كلها . وحدث الانتجار حين اعلن الامر الغياني الاستغرازي لرئيس المجلس العسكري الاعلى للجمهورية ردا على هذه الاحداث :

دع جميع السوفييتات تجريد التشيكومسولفاكيين ممن السلاح ، والمخالف سيقع تحت طائلة المسؤولية . وكسبل تشيكومسولفاكي يوجد مسلحا على الخط الحديدى يجب ان يرمى في مكانه . وكل قطار يعثر فيه ولو على مسلح واحد يجب ان تفرغ عرباته . ويوضع وكابها في معسكر لاسرى الحرب» .

ولما كان للتشيكيين انضباط فائق وتضامن وخبرة في القتال وعدد وفر من الرشاشات والمدافع ، بينما لم يكن للسوفييتات غير فصائل ودبشة التسليح من الحرس الاحمر ، وبلا قيادة محكمة ، فانهم هم الذين قاموا بتجريد السوفييتات ، وليس بالعكس ، ويسلموا سيادتهم على طول الخط من بينزا الى اومسك .

بما التمرد في بينزا ، حيث ارسل السوفييت خمسمائة من الحرس الاحمر لملاقاة لربعة عشر الفا من التشيكيين . وقد قام العبر بهجوم على محطة السكة الحديدية ، ودمروا على بكرة ايهم تقريبا . واخرج التشيكيون معهم من بينزا آلة طباعة «بمئة اعداد اوراق الدولة» ودمروا الحرس في معركة كبيرة قرب بيزنتشوك وليياني . واحتلوا سناغارا .

وعلى هذا النحو تشكلت جبهة جديدة للحرب الاهلية شملت بسرعة مساحات هائلة في الدولغا والاورال وسيبيريا .

كان الدكتور دميتري سيبياوفيتش بولافين يرقد على بطنه في شباك مفتوح ، ويغشى الى الهدير الاصم لصف المدافع . كان الشراخ خاليا . والشمس البيضاء تحرق بشكل لا يطاق جدران

البيوت غير العالية ، والنوافذ الصغيرة لسدائز الغالية ، واللافتات غير المجدبة والشارع الأسفلتي المغطى بغير الكلس .

في الساحة الى اليمين ، الى حيث كان ينظر الطبيب برزت المسلة الذهبية المنقطة بالفسفاد ناعمة اللون والتي تستر شمال للكمندر الثاني : والى جنبها نصب مدفع ، وتجمع رعد من الناس يقبلون الحجارة ، ويحفرن شيئا ، بلا جدوى ، كما هو واضح . كان بينهم الفس سلوفوفوتوف وكاتب العدل ميشين بهساء وفخر الشفيق في سامارا ورومانسوف صاحب مخزن للمكولات ، وستراموف العضو السابق للادارة المحلية الذاتية ، وكوروبوف صاحب الاطيان الانسيب الوسيم الذي كان رجلا كبيرا في زمانه . وجميعهم زبائن معتري ستيبانوفيتش ، وشركاؤه في لعبة الورق «الهورست» . . . كان احد الجنود الحمر يضع يده في جيبه ويدخن جالساً على حجر .

دوت المدافع وراء نهر ساماركا ، ورن زجاج النوافذ لدينا خافتا . تلقى لم الطبيب على علم الاصوات وعقا . نأخرا من متخريه في شارببه الاشيبي كان يفضه مائة وخمسة - ومعنى ذلك ان العصابة الاجتماعية القديمة ما تزال فيه . ولكن اظهار عواطفه اكثر من ذلك ما يزال امرا غلظا . لان امر اللجنة الثورية التي يهدد العناصر الضائدة للثورة بالرجم بالرمي بالرمي كان يفلح كالمعتاد في العمراء في مكانه على الالواح التي سمت بها النافذة الائمة النهشمة لمخزن ليدر للجيوجرات في الجانب الاخر من الشارع مقابل داره .

ظهر في الشارع الغالي شخص محرب المظهر مرعوب يرتدي قبعة تسمى «سلافا ووداعا» من ليف جوز الهند ، وسترة من حرير النيسور من فصال ما قبل الحرب . كان الرجل ينسلى بحداد الجدار ، ويتطلع الى الخلف بين برحمة واخرى ، ورتب . وكان خلفات كانت تتعبر قرب اذنه . كان عسره يكون ليفة الكنان يتدل حتى كتفيه ، ولحيته الصهباء قليلا تبدو وكأها قد اسفقت بروجه الشديد الشحوب .

كان ذلك الشخص هو غيبادين الاحصائي في الادارة المحلية الذاتية (الزيمستفوف) والذي خاضل ذات مرة ان يعر في دانسا «الحيوان العميق» الكامن فيها . كان قاعسا لزيارة معتري

ستيبانوفيتش . والقصة من الزيارة ، كما يبدو ، مهم جدا جعله يتقلب على خوف الشارع الغالي ، ودوى قصف المدفعية .

رأى غيبادين الطبيب في النافذة . فلوح له بفراعه متضامبا ، وكانه يقول له : «لئن اجل الرب لا تنظر لاهمس برابوتس» - اضغط على الحائط تحت امر اللجنة الثورية متلفنا الى الوراء ، ثم ركض عبر الشارع ، واخلى وراء البوابة . وبعد دقيقة تق ياب الطبيب الغلظي .

هس غيبادين وهو يدخل غرفة الطعام :

- الملق النافذة ، بحق الرب ، المهم برابوتس . وانزل الستار . . . لا . . . الافضل الا تنزلها . . . يسا فستيري ستيبانوفيتش . . . لا سيوت اليك . . .

- اي خدمة ؟

سال الطبيب بسريرة ، وجلس الى المائدة المغطاة يسمع قدر محروق . ثم قال :

- اجلس . وحشني . . .

تناول غيبادين مقعدا ، وعبط عليه . وعكف ساقه تحته ، وحس في اذن الطبيب حسا عاليا متطايير اللعاب :

- معتري ستيبانوفيتش . . . قبل حين جرى تصويت في اجتماع سري للجنة الجمعية التأسيسية للاقتراح عليك يشغسل منصب نائب وزير الصحة .

- نائب وزير ؟ - استسمر الطبيب ، وارضى طرفه فمه حتى ان حكه قد تقضن كله . - هكذا . ولاية جمهورية ؟

- ليس لجمهورية بل للحكومة . . . اننا نأخذ بايدينا المبادرة للمقاتل . . . نفتح جبهة . . . نحصل على آلة لطبوع الاوراق النقدية . . . ونزحف برئاسة الفيلق التشيكوسلوفاكى على ميوسكو . . . ونستدعى جمعة تأسيسية . . . وكل هذه الاعمال لنفعلها نحن ، انت تفهم ، نحن . . . اليسوم حصل نزع حاد . الاشتراكيون-الثوريون والمناشطة طالبوا بكل المناصب الوزارية . ولكن ، نحن اعضاء الادارة المحلية الذاتية ، دافعا عنك ، وحررتا لرشيحك . . . هل انت موافق ؟

وفي تلك اللحظة بالذات صدر دوى رهيب وراء نهر سامارا جعل الاندفاع تطلق على المائدة حتى ان غليادين وثب على قدميه ، وامسك بقلبه قائلا :

- ائيم التشيكيون . . .

ومر دوى آخر ، ولعلعت رشاشة كانت تبدو قريبة للغاية . جلس غليادين ثانية وقد شحب كليا ، وطوى ساقه .

- ائيم الاوغاد العبر . . . عندهم رشاشات تصيرها على سايلوات العيوب . . . ولكن لا مجال للشك في ان التشيكيين يفتحون المدينة . . . سيستولون عليها حتما .

اتم ديمتري ستيبانوفيتش بصوت اجش :

- اعتقد اني موافق . هل تريد شيئا ، ولكنه يارد ؟

امتنع غليادين عن الشاي ، وراح يهيس وكأنه في غيبوبة :

- سيراس الحكومة وطنيون - ائيم الناس ، شخصيات نبيلة . . . فولسكي ، اذت تعرفه ، محام من فيبر ، وجسبل منتزل . . . والتقيب فورونانوف . . . وكليموشكين ، وهو من

بلدتنا سامارا ، انه انسان نبيل ايضا . . . وجميعهم ممن الاشتراكيين الثوريين ، متناهلون مندوبون . . . يتفهمون ايضا تشيرنوف نفسه . ولكن ذلك سرى للغاية . . . انه يناقش البلاشفة

في الشمال . . . والضباط في كتلة وثيقة معنا . . . وممن المسكرين يرشح العقيد فالكين . . . يتكلمون انه ذاتسور الجديد . . . ويختصم ، كل شيء موبيا . ونحن بانتظار الهجوم

حفظ . . . وكل المعلومات تشير الى ان التشيكيين قد عينوا اليوم ليلا موعدا للهجوم . . . وانا اتمل التيليشيا . وهذا عمل خطير

ويحتاج الى جهد كبير . . . ولكن يجب ان نقاتل ، وان نضحى بالنفس . . .

ترددت وراء الثالثة اصوات عالية ناشرة لايواق عسكريسة تعرف «التشيد الاممي» . طوى غليادين جذعه ، ووضع رأسه على يطن ديمتري ستيبانوفيتش ، كان شعره الكناني يبدو كشمس دمية .

انجرت الشمس وراء سحابة مطيرة . ولم تات الطراوة مع الليل . ونحس النجوم لثاب من الظلمة . وازداد لصف المدافع وراء

النهر حدة وكثافة . فكانت البيوت تهتز من الانفجارات . وكانت

بظلمة البلاشفة ذات ٦ بوصات ، المتوسسة على السايلو ثرعة في الظلام . وكانت الرشاشات تلعلع على سطوح

البيوت . وفيما وراء النهر ، في ضواحي سامارا التي كانت ترتبط بجسر حنسي كان الحراس الحمر في النقاط الامامية يطلقون النار ، فتردد اصواتها ضعيفة .

انتشرت سحابة في السماء بدمعة واحدة . وحل ظلام خالك . ولم يلمح اى ضوء لا في المدينة ولا على النهر . لا عين غير ومضات المدافع وهي تطلق تياراتها .

لم يتم احد في المدينة . وكانت لجنة الجمعية التأمينية يجتمع بشكل متواصل في مكان مجهول . وكان المتطوعون ممن منقذات الضباط حاجز الاعصاب في البيوت في بدلهم وباسلحتهم .

وكان اهال المدينة يقفون عنه التوافذ يمدنون في الظلام الليل ؟ ورجال الدورات يتنادون في الشوارع . وفي فترات السكون كانت تسبح صافرات الفاطرات وهي تنقل القطارات صوب الشرق .

رأى المتطوعون من التوافذ برقاً متعرجاً يقطع السماء ممن العادة الى العافة . وضاء مياه الفولغا الكمرة بضوء كئيب . ولاحت معالم الصنادل والسفن عند الارصفة . وظهر عاليها فوق النهس

وحديد السطوح هيكل السايلو الضخم ، والبرج المستدق للكنيسة الثورتية ، وبرج الجرس الابيض الملحق بدير النساء ، والمشيد ، كما يقال ، بالاموال التي جمعها الزراعة الشجولة سوسانا . وانلغا البريق . وحل الظلام . . .

تسرتت السماء . وهبت ريح . واعولت مدامن التوافذ عويلا رعبيا . وبدأ التشيكيون الهجوم .

هجم التشيكيون بصوف غير كثيفة من جانب محطة كراياج الى جسر السمكة الحديدية . وتخلل مصانع كئيب الشحم الى ضواحي المدينة في ما وراء النهر . وقد اعانت تقدمهم وعودة المنطقسة ، والسند . وتكاثرت الصفائف الارجوانى .

وكان المدخل الى المدينة يقع عبر الجسرين الختسي والغاص بالسمكة الحديدية . وكانت مدافع البلاشفة في الساحة وراء سايلو الحبوب تقصف مشارف المدينة . وايدعت ضرباتها القوية

والالتجارات على روح الشجاعة في وحدات العمر غير الوائقة بخبرة قيادتها .

وفي اواخر الليل لجأ التشيكيون الى العيلة ، كان يقايسوا اللاتين البولونيين يعيشون في غناير بالقرب من سايلو العرب مع نسائهم واولادهم ، وكان ذلك مرفوقا لدى التشيكيين . وبين اخذت فذانهم تنظير فوق السايلو خرج البولونيون من الغناير وتنازروا هنا وهناك بحثا من ملجا - ابعدهم المدفعيون عن المدافع بالمتكلم وباسياخ تسليك المدافع - وابتعدوا حين راحت المدافع ذات الست بوسات تهدم ماصة تحطف الايصار .. ولكن حشدا يهددا من النساء تراكضن من الغناير ، وتصايح :

- لا تطلقوا ، يا ياني * . لا تطلقوا من فضلكم ، تنطرح اليكم الا تصرعوا النساء .

واحاط بالمدافع من كل جانب .

استكثت البولونيات غريبات الشكل باسياخ التسليك ، وعجلات المدافع ، واخذن بالاندى ، وتعلقن قنصلات بالمدفعيين الضعوفين يهدر المدافع ، وتشتبن بلحاهم ، وسجنهنهم الى الارض ... وكان تحت بلوذة كل واحد منهم قبضا عسكريا . وتحت كل ثورة بتظولنا عسكريا ...

وصرخ شخص :

- يا اصحاب ، هؤلاء تشيكيون !

فعاجلته طلقة منسدس حطمت رأسه .. اخذ البعض المقاومة ، ولاذ البعض الآخر بالفرار .. اما التشيكيون فكانوا قد خلعوا المغاليق من المدافع ، وتراجعوا مطلقين النار . ثم غابوا في الفواصل بين الغناير وكان الارض ابتلعتهم .

اغطيت البطارية ، وسكنت الرشاشات ، واستمر التشيكيون في الهجوم محتلين ضواحي سامارا فيما وراء النهر ووصلوا الى الفولغا .

في صباح اليوم التالي انقضت السحب ، وانعكست الشمس الجافة على نوافذ بيت شعيتري ستيبانوفيتش غير المغسولة . كان

* «يامره جمع «يان» وهي نصي السيد بالبولوية ، «المهترج»

الذكور جلسا الى الطاولة في عندام اتقي ، وعيناهم غائرتان ، لانه لم يتم الليلة . كان مغسل الاواني والضيئة وصحون الفناجين مملوءة باعقاب السكاكر . كان بين الفتية والاخرى يتناول بشرط مكسور ، وبشرط به خصلات شعره الجعداء الضاربة الى جيبته . كان يتوقع في كل لحظة ان يمدى لاداء واجباته الوزارية . لقد تبيّن انه كان طوبعا .

كان الجرحى يبرون بتوافد بيته في شارع دفورياسكايا وكانهم يسرون في مدينة شبه ميتة . وكان بعضهم يجلس على الارصفة بسحاذاة الميران ، ويلفون جراحهم بغرقى مدماة على نحو ما ، وكانوا يرفعون ايصارهم الى النوافذ الفارغة ، ولكن لا يمدون احدا يظنون منه ماء او خبزا .

كانت الشمس تسخن الشارع الذي لم تربطه عاصفة النظر ليلًا . وكانت اصوات المعركة تترامى قادمة من وراء النهر . انطلقت سيارة مألوفة شارع دفورياسكايا بسحب الغيار الكلسي ، وترأى وجه المفروض العسكري الملتوي ذو الفم الاسود . اندرت السيارة في الشارع عبر الجسر الفخسي ، حتى لسفت بقذيفة مدفع بكل ركابها ، كما ذكر فيما بعد . توقف الزمن . وبدت المعركة بلا نهاية . وحذت المدينة فلم تعد تتنفس . وارتدت نساء المجتمع الترابين البيضاء واستلقين واضمعات الوسائد على رؤوسهن . وتنازلت لجنة الجمعية التأسيسية شايها الصباحي الذي اهدتسه ساحة الطامورة . وبدت وجوه الوزراء في السرداب شاحبة ضحوب البيوت . واصوات المعركة ما تزال تترامى من وراء النهر ...

عند الظهر تقدم شعيتري ستيبانوفيتش من الفالدة ونحس وقتها ، حيث لم يعد قادرا على الجلوس في سقان التبغ الأزرق ، كان الصارع قد خلا من اي جرح . والكثير من النوافذ قد فتح فتحات صغيرة ، فلاح عين تلتصق من وراء ستارة عتسيا : وراى وجه متعلل هنا وهناك . واظلت رؤوس من مداخل البيوت ، وانكثت . كان يبدو وكان البلاشفة لم يعودوا في الوجود ... ولكن ما هذه الطلقات المتتابعة من وراء النهر ؟ - آه ، ما تصبب الخوض ا .

وقفة - كمعجزة - ظهر من وراء المنعطف ضابط طويل

خرج الدكتور - كانت المدينة كلها الآن نفسه خرجت الى
المدوايح ، كان الناس يتبادلون التحيات ، وكانهم في عيد الفصح ،
وكانوا يتبادلون التهاني ، ويتناقلون الاخبار ...
البلاشفة يتدفقون الى ساماركا بالالاف ، يحاولون العبور
الى هذه الضفة ...

- ولكن يقتلونهم ...
- ودفن منهم الكثير الكثير ...
- صحيح تماما - القولها كلها في اسفل المدينة مقطعة
بالجنت ...
- اذن فسنكرا للخالق على ذلك ... انا لا اعتبر ذلك
خطيئة ...
- حقا موت الكلاب للكلاب ...
- يا سادة ، هل سمعتم ؟ اذفقوا التندلقت من على برج
الجرس ...

من ؟ البلاشفة ؟
- حتى لا يذق الجرس .. هذا ما يسمى سحق الجباب
وراك .. يمكن ان اقم لو كان آخر تغير التندلقت .
- الى اين ، يا اب ؟
- الى الاسفل . اريد ان اعين الهوى . هل هو سالم .
- هل قلقت عقلك ؟ ما زال البلاشفة على الرصعة النهر .
- دميتري ستيبانوفيتش ، جاء اليوم السعيد ! .. لماذا
اراك مشغول الفكر ؟
- اختاروني نائب وزير ...
- تهاني ، يا صاحب المعالي ...
- لم يكن الوقت بعدا للتهنئة ... لم تستول على موسكو
بعد ...

- آه ، يا دكتور ، على الاقل ان تنفس هوا نقياً ...
وستقول شكرا على ذلك ...
كانت الكتابيات المذهبة تنطق في الحشد هنا وهناك
متباهية ، كانت رمزاً لكل ما هو قديم وعريق وامون . نزلت جماعة
من الضباط بخلعي حازمة يصاحبها سيبان متاكلون . ضحكك لسان

البيات . المعطف الجمهور من شارع سادوقايسا الى شارع
وفريانسكايا مارا بفيللا لوكولينا ذات الابهة السخيفة ، الرصوفة
بالبلط الاخضر - اندفع رجل في الحشد ...

- ما هذا ؟ ماذا حصل ؟
- يا حضرة الضابط ، في هذا الفناء بلصفيان يخفيا وراء
الخشب ...

- هكذا ... يا سادة ، يا سادة ، تحركوا ...
- الى اين هرب اولئك الضباط ؟
- يا سادة ، يا سادة - لا حاجة الى اني فرج ...
- وجدوا اعضاء في اللجنة الاستثنائية !
- دميتري ستيبانوفيتش ، لبتعد احتياطا ، والا ...
سمعت طلقات - ماج الحشد - وتراكن الناس فاقديسن
كبحاتهم - ووجد دميتري ستيبانوفيتش نفسه في شارع
وفريانسكايا مرة اخرى لهاذا - وشعر بالمسؤولية ازاله كل ما
يجت - بلغ الساحة وقصص عينيه ناظرا الى السلة التي تغطس
تصب الكسنتر الثاني - مد ذراعه ، وقال بتهوية غاضبة وبصوت
عال :

- البلاشفة مستعدون لتخليم كل ما هو روسي - وهم
يريدون ان يتسبب الشعب الروسي تاريخه . هنا يتصعب تمثال ليعبر
مجرر لا يؤدي احدا . ارفعوا عنه هذه الاواح السخيفة ، وهذه الخرق
الكريهة .

كان هذا اول خطاب له في الشعب - وفي الحال صاح شبان في
فحات لها خواف تائهة - تدل حيثتهم على انهم باعة في حوائيت -
- اكروها !

ارتفعت فرقة الاواح ، وهي تخلع عن التمثال ، واصل
دميتري ستيبانوفيتش مميده - قل " الجمهور ، كانت الطلقات تتردد
هنا من وراء النهر باصوات اعل . جاء رجل عشار الا من سروال
بخلعي مبلل - يركض من الجهة المضادة للجهة التي كان يتقدم منها
دميتري ستيبانوفيتش ، كان شعره الداكن يتهدل على عينيه ،
وصخره العريض موشوما . تصايحت بعض النسوة ، وابتعدن عنه
مترامكتات الى البوابات . استنكر الرجل فجأة ، وانطلق هابطسا

المتحدر إلى الفولغا . وكفى وراءه ثلاثة آخرون . ثم آخرون . وآخرون مبشرين نصف عراة لامعين . . . وارتفعت أصوات في الضوايح :

- بلاشفا ! اقلوهم !

كان الجميع كالسناجب التي افرعتها الطلقات يتعطلون نحو المتحدر . إلى الأوصلة - قلق ديمتري ستيبانوفيتش . وركض أيضا . وامسك برجل سقيم ذي آفة معلوق . وبلا رموش .

- أنا وزير في الحكومة الجديدة . . . يجب ان توضع رشاشة هنا في الحال ! اذهب . واجلبها . انا أمرك . . .

- لا اقم الكلام الروسي .

اجاب الرجل السقيم متمعضا عمدا لسانه بصعوبة . . . دفعه الطبيب . . . يجب الاسراع بالفعل . . . ذهب بنفسه ليبحث عن تشيكيين متقدم رشاشة . . . وإذا به يرى بلشفيًا آخر عند المدخل الحديدى . حيث كانت تتعلق أجمة حمراء نصف مخلوطة . كان الرجل مسود البشرة من تلويح الشمس . حثيث الرأس ذا لحية كثرة . كان القمص العسكري الذي يرتديه ممزقا . وقد سال الدم من بقعة صغيرة على كتفه . هز رأسه كالكلب هديبا استانا صغيرة مفرقشا . وقد لاح عليه الرعب من الموت .

هاجبه حشد من الناس . وتفجعت النساء خاصة بكلمات هيمية . ولوح الكثيرون بالمظلات والعصى والقبضات المضغوطة . . . واحتد جنرال متقاعد واقف على درجات مدخل بيت ورفع صوته فوق جميع الأصوات ملوحا على البلشفي يتراميه الفيلقيتين . وقد تحدثت طاقته الضخمة عن صلته الجانبيتين . وتاريخ الوسام تحت رقبته الرخوة .

- انزيم . يا سادة . . . انه مفوض . . . بلا رخصة . . . ان ابني هو الآخر امر . . . محنة عظيمة . . . ارجو . يا سادة . . . ان تجدوا ابني وتجليوه في . . . سأقتله هنا . امام الجميع . اقبل ابني . . . يجب الا تكون لثة رخصة في هذا الخصوص أيضا . . .

فك ديمتري ستيبانوفيتش قلعا : « التمدل لا فائدة منه في هذه الحال » وتلفت مبتعنا . . . عنات الصيحات . . . وفي المكان الذي كان يقف فيه المفوض الجريح قيل حين كانت المظلات والعصى تلوح في الهواء . . . عم السكون تماما . ولم تسمح الا الضربات .

نظر الجنرال المتقاعد من على مدخل البيت إلى الأسفل ملوحا بدراعيه يهجن كقائد فرقة موسيقية . وقد لزت قبضته على أنفه . لحق بدميتري ستيبانوفيتش كاتب العدل ميشين . كان في سترة قذرة مزودة حتى عنقه . ووجهه منتفخ . ولظارته الالفة قد فقدت إحدى عدستها .

- قتله . . . انهالوا عليه بالمظلات . . . انه فطخ مثل هذا الحكم الكيفي للموت . . . آه . يا دكتور . ويقولون ان اشياء عظيمة تحدث على شاطئ سامارا . . .

- لنذهب إلى هناك في هذه الحال . . . انت تعرف اننى في الحكومة . . .

- اعرف . أنا مسرور . . .

واسم الحكومة اوقف ديمتري ستيبانوفيتش جماعة من ستة فباط . وطالبهم بمصاحبه إلى شاطئ النهر . حيث كانت تجري تجاوزات غير مرقوب ليهما . إلا كانت الدواب التشيكية تقف في كل مكان عند مفارق الشوارع . كانت النساء اللاتي يرتدنهن بالزعرور . ويعلمنهم النطق بالروسية متضاحكات ضحكا وانانا معلولات ان يجب الاجانب بالنساء والبلدة وروسيا كلها التي اذنت التشيكيين العلق في سنوات الاسر .

على شاطئ سامارا القدر قضى متلعون من الاهالي على فلول البحر الفارين من ضواحي سامارا . وصل ديمتري ستيبانوفيتش إلى هناك متأثرا كثيرا . استطاع البحر اللين وفقوا في عبور الجسر الختس . وعبروا النهر سباحة يخط مائل ان يركبوا الصنادل والسفن . ورحلوا إلى أهل الفولغا . كانت بعض الجنت مطروحة على الشاطئ في الموج المتكامل . وعثات اخرى قد جرفتها الفولغا .

كان غياديون يجلس على زورق مملوب عنق . وقد شد على كنه خريطا ثلاثي الألوان . وشمرة الكتاني ميلل من العرق . كانت عيناه البيضاء تماما تظنان ببؤبؤيهما الصغيرين إلى النهر المشمس .

تلقم ديمتري ستيبانوفيتش منه . وهاتف بعدة :

- ايها السيد معاون رئيس الميليشيا . بلغنى ان تجاوزات غير مرحوب فيها تحدث هنا . والحكومة تأمر بان . . .

لم يتم الدكتور كلامه الا وقع بصره على عراوة من اليلوط

في يدى غياديين التصق بها دم وخصل من الشعر . همس غياديان
يصوت مكنوم . يكاد يسمع ؛
- هذا آخر يعوم . . .

ولزل من الزورق بتراخ ، وتقدم من الماء ، ونظر الى واس
حليق يعوم بيده وانحرف عن التيار . تقدم شمسة او ستة من
الغبسان من غياديين ومعهم العصي . عندئذ عاد سميتري
ستيبانوفيتش الى خطاه الذين كانوا يشربون الكفاس * الباقارى
من يالغ لثقت في منزز ثقيل لا احد يعرف اية حناسة جعلته يعرج
يعرسته . خطب الدكتور بالسياط بجنهم على وضع حد للقسوة
الزائفة . واشار الى غياديين والى الراس العالم . حرك ضابط
الفرمان الطويل المساقين ذو القمصان الناصع الذى وابناه قبل حين ،
حرك شامويه الابيض من زبد الكفاس ، ورفع بتفقيته ، واطلق
الرصاصة . فغاص الراس تحت الماء .

عندئذ شعر سميتري ستيبانوفيتش بأنه فعل كل ما يتعلق
به ، فاستدار عائدا الى المدينة . كان عليه الا يتأخر على اجتماع
الحكومة الاولى ، سعد في التل لاهتا كثيرا الدبار بعدائه . كان يقضه
لا يقل عن مائة وعشرين . لقد تكشفت امام بصره آفاق تدير
الراس ، الزحف على موسكو ، الرنين الرقيق لكتائبها التي لا
تخص ، بل والله يعلم ربما كرسي الرئاسة . . . فان الثورة امر لا
يخبر ، واذا تنهوت متراجمة فان كل هؤلاء الاشتراكيين-الثوريين
والاشتراكيين-الديموقراطيين سيجدون انفسهم ضمرى تحت عملائنا
في لحظة البصر . . . لا ، لا ، لتوقف اعمال اليساريين المتطرفين .

٧

جلست يكاترينا دميتريفنا في غرفة الجلوس الوالطة وراء
شجيرة الداريقة ، عصرت المتفاني المبلبل بالدمع ، وراحت تكتب
رسالة الى اختها داشا .

* مشروب مصنوع من الخبز الأسود . - المترجم .

كان المطر يصلح الثالثة المحببة ، والاقاصيا تتمايل في الفناء
بضمة . وكان ورق الجدران المخلول يهتز في الريح الذي كانت
تسوق السحب من بحر آزوف .

كثرت كاتيا ؛

«داشا ، يا داشا ، قنوطي لا حدود له . فاديم قتل . وقد
ابلغنى بذلك صاحب البيت الذى اعيش فيه ، المقدم تيتكين . لم
اصدق ، ورسالته ممن عرف ذلك . فاعطاني عنوان فاليريان لوتوى
امد رجال كورتيلوف الذى جاء من الجبهة . في الليل خرجت الى
قنطه . يبدو انه كان سكران . فقد جزنى الى غرفته ، واعذ عرض
على ان اشرب النبيذ . . . كان ذلك غليظا . . . انت لا تستطيعين
ان تصورى اى اناس هنا . . . سألته : «هل زوجي قتل ؟ » .
كان لوتوى من الفوج الذى خدم فيه فاديم ورفيقه ، وقد اشترك معه
في معارك . . . وكان يراه كل يوم . . . اجابنى باستهزاء : «نعم
قتل ، فاهدئي ، يا فتاة . فقد رأيت بنفسى كيف كان الدباب
ياكله . . . تم قال : «كان روتشين تحت الشبهة عندنا ، ومن
حسن حله انه قتل في معركة . . . ولم يذكر اليوم الذى حصل فيه
العادت . ولا المكان الذى قتل فاديم فيه . . . توصلت ، وبكيت . . .
صرخ بي : «لا اذكر كل الامكان التي قتل فيها قتل ومق» . وعرض
على نفسه كيدل . . . آه ، داشا ، اى اناس هؤلاء . . . هربت
من التفتق مذعوبة العقل . . .

انا لا استطيع ان اصدق ان فاديم لم يعد في الوجود . . .
ولكن لا يجوز الا اصدق به . فلماذا يكلب هذا الرجل ؟ والمقدم
ايضا يقول هذا ما حصل ، كما يبدو . . . لم اتلق من فاديم طوال
وجوده في الجبهة غير رسالة واحدة قصيرة تبدو وكأنها كتبها
اشخص آخر تغييره . . . وقد جاءتني في الاسبوع الثاني بعد عيد
الفسح . . . ورسالة بلا خطاب . . . وهذه هي كلمة بكلمة :
«ارسل لك تقويا . . . انا لا استطيع ان اراك . . . اذكرك كفاتك
جند الفراق . . . انا لا اعرف هل يمكن ان يكف الانسان عن ان
يكون تائلا . . . انا لا ادري كيف اصبحت قائلا . . . وانا احاول
الا افكر ، ولكن يبدو اننى سأضطر الى ان افكر وان افعل شيئا . . .
ودعني يزول ذلك - اذا كان ذلك ممكنا - عندئذ سنتقابل . . . »

وهذا كل شيء ، يا دasha ، وكم ذرفت من دموع . لقد رحل
عنى ليبيوت . . . ياى شيء . كنت استطيع ان اوقفسه ، اغيدمه .
انقلده ؟ ماذا فى وسعنى ان افعل ؟ ان اضمه فى قلبى بكسى
قوتى . . . هذا فقط . . . ولكنه لم يعد يلاحتلى فى المسد
الاشيرة . كانت الثورة تحرق فى وجهه بكل عيوبها . آه ، انا لا
اقم شيئاً . هل ينبغي علينا جميعاً ان نمش ؟ لقد نهدم كسلى
شيء . . . نحن ، كالطيور فى العاصفة ، نتطلق فى ارجاء روسيا . . .
لماذا ؟ لو ان كل الم الموائى ، كل الغدايات والالام تعيد لنا
البيت ، وقرقة الطعام النظيفة ، والاصحاب الذين يلعبون الورق . . .
فهل سنعود سعداء ، من جديد ؟ ان العاضى مات ، مات فى الايدى ،
يا دasha . . . وانتهت الحياة ، قلبيات آخرون القوياء وافضل . . .
وضعت كاتيا القلم ، ومسحت عينيها بمنديل مغموك . لم
نظرت الى المطر النازل على زجاجات الثالفة الاربع . كانت الاقاصيا
تحنى وتمايل فى الفناء بسدة ، وكان الريح العاضية تنفض
شعرها . وعادت كاتيا تكتب :

رجل قادم الى الجبهة . وحل الربيع . كان حرق حياتى كلها
انتظاراً لقادم . ما احزن ذلك . وما كان قلبه ضرورة لى
انسان . . . اتذكر كيف نظرت من خلال الشباك قبيل المساء .
وقد تفتحت الاقاصيا . وتفتحت اليرام الكبيرة . واضطرب سرب
من العصفير . . . واحسنت بالكدر والوحشة . . . انا غريبة ،
غريبة على هذه الارض . . . انتهت العرب ، وستنتهى الثورة .
وستتغير روسيا . لتقاتل ، ولتؤمك ، ولتعلم . اما الشجرة
فتفتحت كسما تفتحت فى الربيع الماضى . الفقى سبقه ، وما قبله
وقبله . وهذه الشجرة والعصفير - والطبيعة كلها - قد ابتعدت عنى
الى مدى كبير . وحى تعيش هناك حياتها غير المفهومة لى . . .

دasha ، لماذا عداياتنا كلها ؟ لا يمكن ان تكون عينا . . .
نحن ، النساء ، انا وانت ، نعرف عالمنا الصغير . . . ولكن كل
ما يحدث حولنا - كل روسيا - اى موقفه ملتبه هو ؟ لا بد ان
تخلق هناك سعادة جديدة . . . واذا كان الناس لا يؤمنون بذلك ،
فليس من المعقول ان يسير احدكم بغض الآخر ويقتل احدهم

الآخر بهذا الشكل . . . لقد فقدت كل شيء . . . ولست بحاجة الى
لغسى . . . ولكننى اعيش لانه من العار ، ليس من الغرور ، بل من
العار ان اضع راسى تحت عجلات قطار . . . او ان اتعلق من قبل
على خشبة .

عفا سافاندر روستوف كى اسى كل شيء . . . وسافر الى
نيكازينوسلاف . . . فهناك عندى معارف . وهم ينصحوننى بان اعمل
فى محل حلويات . ربما ستأتين انت ايضا الى الجنوب . يسا
دانسا . . . يقولون ان الحال عندكم فى پتروغراد سيئة جدا . . .
عفا هو الفرق : ان المرأة لن تهجر حبيبها ولو فى نهاية
العالم . . . بيتنا رجل قادم . . . لقد اجبتى طالما كان اتفاقاً من
لغسه . . . انت تفكرين اى شخص كانت تظنين سعادتنا فى
پتروغراد ؟ حيران . . . لن اسى ما حبيت شسى الشمال
الشاحية . . . لم تبق لى من قادم صورة فوتوغرافية ، ولا شيء
آخر . . . كان كل شيء كان حلماً . . . لا استطع ، يا دasha ، لا
استطيع ان اصفق بانه قتل . . . اظن اننى سافقه عقل . . . لقد
عشت حياتى عيشة حرية . وبلا جدوى . . .

ولم تستطع كاتيا ان تستصر فى الكتابة اكثر . . . كان
البتدل قد تبطل كله . ومع ذلك فقد كان يجب ان تنقل الى
اشتها كل ما هو مألوف واعتيادى مما يقده الناس اكثر من غيره
فى الرمال . . . وقد كتبت تحت شجج المطر هذه الكلمات دون
ان تضع فيها فكرة او شعوراً . . . عن ثمن المواد الغذائية ، وعن
فلا العيشة . . . «لا توجد اية العشة ، ولا غيب . . . والابرة
بالف وخمسائة روبل او بخمسون حبيبت . . . جازنى فى البيت »
قناة فى الساعة عشرة عادت لىلا عارية مطرودة ، فقد بردوا من
ملايسها فى الشوارع . والشى الرئيس اهتم يقتنصون الاحذية
انتاصا . . . « وكنت عن الالمان اهتم يعزفون فى حديقة البلدية
حرسى عسكرياً ، وهم يامرون يكسى الشوارع . اما الحبوب
والسنة والبيض فيجملونها بالفطارات الى النانيا . . . وعامة
الناس والعمال يكرهونهم ، ولكنهم يلزمون الصمت ، لانهم لا
يتوجهون معرفة من احد .

وكل ذلك اعتبرها به المقدم تبتكين . « انه طيب جدا ولكن

اطعام ثم زائده كان يرفقه على ما يبدو - وزويته لم تعد تفعل من ان تذكر ذلك» - وكنت كاتباً أيضاً : «يوم أمس الاول اكملت ٢٧ ساعة من عسري - ولكن شكلي - - اوه - هناك عن هذا - - انه غير مهم الآن - - ليس لي احد يهتم بشكلي - -»

وتناولت التدبير مرة اخرى .
سئمت كاتيا هذه الرسالة الى تيتكين . فوجدت بان يرسلها الى يثروفراد في الرب فرسة . ولكنها ظلت في جيبه مدة طويلة بعد رجول كاتيا . كان الاتصال بالشمال صعباً جداً . ولم يكن البريد يعمل . وكانت الرسائل ترسل بايدي رُسل خاصين من الجازفين ، وكانوا يتفاوضون علينا تقودا كثيرة .

باعت كاتيا ، قبيل رجولها ، كل الاشياء القليلة التي حملتها من سامارا . لم تبقى الا شيئا واحداً هو الخاتم الزمردى الذي كان قد اهدى لها في عيد ميلادها . وكان ذلك منذ زمن بعيد قبل الحرب . في صباح ربيع في بطرسبورغ . وقد صار ذلك ذكرى بعيدة حتى ان كاتيا لم تحس بارتباط مع تلك المدينة الضبابية التي التقى فيها صباها - - خرجت دلتا والرحوم نيلولاى ايلانوفيتش وكاتيا الى جادة نيلسكي . . . وشاروا خائفاً فيه نفس من الزمرد . فوضعت القبس الاخرى في اصبعها ، ولم يبق الا هو من الحياة الماضية . . .

قادرت عدة قطارات محطة روستوف لبعاء . واقمت كاتيا وحشرت في عربة من الدرجة الثالثة . فجلست عند النافذة . ووضعت على ركبتيها صرة من الثياب الداخلية المرقعة . ومرت بها البروج المغسورة بالماء ، ومستنقعات الدون ، والادخنة في الافق ، والمعالم الضبابية لياتايسك التي لم يفرها الايمان . وتعت الضفة العالية قرى الصيادين الغاطسة في الماء الى التصف ، وبيوت طيبة ويسائلي وزوارق مقلوبة ، واولاد يعملون عدده صيد . ثم اتسقت جسر اژوف كغلساء خضيب ، وفي البعيد بعض القوارب المتراصة المائلة : تم المدائن المتطفنة لمصانع تامانورغ ، وسهوب ودواب ومتناجم مهلمسة وقري كبيرة على منحدرات تلال

ليانيسيرية ، ويراشق في السماء الزرقاء . وصغير القطار موشن صله الرحاب . وفلاحون يهيمون في المعطات . وشوخ الامسان الحديدية . . .

ظنرت كاتيا من نافذة القطار منحنية الظهر كالعجوز . لعل وجهها كان حزينا وجلوا حتى ان الجندي الالمانى الذي كان يجلس قبالتها حقق طويلا في هذه المرأة الروسية الغريبة . وكان الحزن ايضا يبدو على وجهه التحيل المتعب في نظارة اطارحسا من النيكل .

قال لها بالالمانية بصوت خفيض :

- الجنات يلقون القصاص على كل شيء . يا سيده - مسيحين الوقت - سيكون ذلك عندما في ألمانيا وفي العالم اجمع : الحكمة الكبرى . . . موسياليوموس سيكون اسمها . . .

لم تظن كاتيا في الحال الى انه يخاطبها بالذات . ورفضت صرعا الى النظارة الضافية الكبيرة التيكيلة الاطار . احس الالمانى راسة لها يمودة :

- السيدة تتكلم بالالمانية ؟

- نعم .

- حتى يتعبد الانسان كثيرا بعد السلوى في معقولة اسباب بلذابه . - قال الالمانى وقد وضع رجليه تحت المقعد ، وانزل جبهته بحيث ان عينيه صارتا تنظران الى كاتيا من فوق النظارة . - لقد درست كثيرا تاريخ الانسانية . اتسا بعد فترة طويلة من الهدوء تعود مرة اخرى لتدخل في عهد الكوارث . هذا هو استنتاجي . نحن لنشهد بداية النهار حضارة عظيمة . وقد مر العالم الاارى يمثل ذلك ذات مرة . كان ذلك في القرن الرابع ، حين حارب البرابرة روما . والكثيرون مستعدون لايجاد اوجه تشابه مع عصرنا هذا . ولكن هذا لا شيء . فربما قد حملتها افكار المسيحية . ولم يعمل البرابرة اكثر من ان مزقوا جثة روما . اما الحضارة الحديثة فان الاشتراكية ستعيد لنتيحتها . في المثل السابق كان هناك عدم ، اما هنا فانشاء . كانت اكثر افكار المسيحية تحطيماً عن المساواة ، والاممية ، والتفوق العقلي لتفقرها على الاغنياء . وكانت هذه افكار البرابرة الذين كانوا يغدون روما الطفيلية الفظيعة الغارقة في الترف . وبسبب ذلك كان

الرومان يخافون المسيحيين ذلك الخوف الشديد ويلاحقونهم بذلك القسوة . ولكن المسيحية لم تكن لها فكرة انشائية ، ولم تنظر العمل . واكتفت على الأرض بالتهديم فقط ، أما سائر الانبياء فقد وعدها بها في السماء . المسيحية لم تكن الا سبيلا للتعظيم والعقاب . وحتى في السماء وفي الحياة المثلى لم يكن في وسعها ان تعد الا نظام الامبراطورية الرومانية الطبقي البيروقراطي ذا المقامات المقلوب وأساسا على عقب . وكانت هذه انطباعا الرئيسية . وبمقابل ذلك وضعت روما فكرة النظام . ولكن انعدام النظام في ذلك الحين - الدوخي الضاملة - كان هو العنصر الامثل للبرابرة الذين كانوا يتحيزون ساعة الانتقام اسوار روما . وقد حابت تلك الساعة . وتحولت المدن الى خراب داخنة . وتناثرت الجثث في الطرقات مطعونة بالسنن مسحوقة بعجلات البرابرة . ولم يكن لمة خلاص لان أوروبا وآسيا الصغرى واغريقيا كانت تحترق من ادائها الى النضاعة . وحام الرومان كالطيور فوق حريق العالم . قتلهم البرابرة ، وفككت بهم الوحوش في الغاب ، وهلكوا في الصحارى من الجوع والحرق والقتل . قرأت قصة لاهد المعاصرين تحكي كيف ان «روما» زوجة حاكم روما هربت في قارب ليلامع انبثها من روما التي اجتاحتها المان الاربع . وراث الرومانيات . ونحن نعلم في نهر التيبر الكهف الذي كان ينتمى المدينة الخالدة . وكان ذلك نهاية العالم ...

فك الالمانى صرة متاعه ، واخرج من قعرها دفتر مذكرات سيكيا ذا غلاف جلدى منتهى* . واستغرق في توييله بعض الوقت مبتسما ابتسامة متحفظة . وقال وقد اتفكر الى مقعد كاتبا :

« هذا لتتصورى على نحو افضل كيف كانت حالة الرومان قبيل هلاكهم . استحمى الى قفرة من اميانوس ماركسيلنوس . هذا وصله لاسياد الكون :

«الاتواب الطويلة من الارجوان والحبر تفرق في الريح ، وتتيح النظر من تحتها الى القمصين الغالى المطرز برسوم الحيوانات المختلفة . وعرباتهم المغلفة المرفقة بخسنيين من الخدم تهز الارصفة والبيوت وهي تتلقت في الشوارع بسرعة فائقة . واذا ما دخل احدكم الحمامات المتصلة عادة بعوانيت ومطاعم واماكن للترتمة فانه يطلب بملهجة امرأة ان تخصص كل أدوات الاستعمال العام لاستخدامه وحده »

ويخرج من الحمامات لابساً خواتم وحلى مع الاحجار الكريمة ، ورافلا بروب ثمين يكتم لمشاعه لاسماء اثني عشر رجلا . ثم تاتي الثياب الخارجية التي ترضى غروره . وعلاوة على ذلك لا ينسى ان يتخذ مظهر العظمة التي لا تغتفر حتى لمارسيلوس العظيم غازى سيراقروسة . واحيانا كان هو ايضا يقوم برحلات جريئة ومعه حاشية ضخمة من البغدم والطهانة والمشماعين والخيسان المشوهين الى ضياعه الايطالية . حيث يمارس صنيد الطيور والارانب الهاجنة . واذا ما صادف لا سيما في ظهيرة غائقة ان وافته المنجاعة ليحبر بحجرة لوكرين يحركه المنصب قاصدا لدارته البحرية فانه فيما بعد يتلوه هذه الرحلة بحلات تيسر واسكندر الاكبر . واذا نقلت ذباينة الى ما وراء الستارة الخيرية لسلطج مركبه ، او سقطت اشعة الشمس من خلال النتيات فانه يتندب حظه العاشر متأسفا على انه لم يله في البلدان الكيبودية ، حيث يخيم الظلام الابدي . وضيوف الايمان المتسلطون هم الطفيليون والمتزلفون الذين يملكون لكل كلمة للسيد . انهم يتظلمون بقطعة الى اعمدة الحجرات المرمرية والى الارضية الفسيفسائية . وعلى المائدة طيور واسماك غير اعتيادية في مجموعها تثير ضحكة الجميع على حجب ميزان للتأكد من جسامه هذه الباكولات . وفي الوقت الذي يسمح فيه الضيوف اليزنتون بروجهم من حذا المنظر يطلب الطفيليون كاتب عدل ليكتب وثيقة في صحة هذه الاعاجيب ...» .

قال الالمانى وهو يصلف دفتر مذكراته :

« نعم ، sic transit » . ان هؤلاء الناس واحوا يجوبون الطرقات والمدائن المخربة بحثا عن الطعام . واستمرت موجات البرابرة تاتي من الشرق ساعطة ناهية . وبعد حوالي خمسين سنة لم يبق الامبراطورية الرومانية اثر . ولما العصب في مكان روما العظيمة وراحت الاقنات ترعى بين القصور المهجورة . وخيم ليل على اوربسا ترابية سبعة قرون .

وقد حدث ذلك لان المسيحية استطاعت ان تدمر ، ولكنها لم تكن لديها فكرة عن تنظيم العمل . والوصايا المسيحية لا تتحدث عن

* هكذا يتلقى ... (مجد العالم)

العمل - ان قوانينها الخلقية لا تطبق على من يزرع ويحصد - بل على من يزرع لهم العبيد ويحصدون - واصبحت المسيحية دين الاباطرة والقزاة - وبقي العمل غير منظم - وخارج الاخلاق - والبرابرة الجدد هم الذين يجلبون دين العمل الى العالم - اولئك هم الذين يحظون روما الثانية - هل قرأت شينغلر ؟ انه روماني من راسه حتى اخمص قدمه ، وهو على صواب في شربه واحد فقط ، وهو ان الشمس تغرب من اوروبا له ، ولكنه تشرق على نيسا - انه لا يستطیع ان يجلب البروليتاريا العالمية الى البرية - ان الجوع يصرخ قبيل الموت - وعلى هذا النحو ، اجبرت البرجوازية شينغلر على ان يصرخ كالبعوضة ... انه آخر ورقة واجبة ادائها - لقد تحطت اسنان المسيحية ، اما اسناننا فهي من حديد - ونحن تعارضها بالتنظيم الاشتراكي للعمل ... انهم يجربوننا على محاربة البلاشفة ... اهو ا... اتحسبون اننا لا نفهم من يدافع بندا ، وضد من ؟ اننا نفهم اكثر بكثير مما يبدو في الظاهر ... من قبل كنا نحترق الروس - اما الآن فقد بدأنا نجيب بالروس ونحترقهم ...

هو القطار بقرية كبيرة يصغر سفيرا مظلوما - تراثت بيوت متينة ذات سفوف مغطاة بالحديد ، واكداس قش طويلة ، وحدائق مسيجة ، ولافتات حوانيت - سارت قرية صغيرة على درب مرتب الى جانب القطار يسوقها فلاح يرتدي قميصا عسكريا بلا حزام وقبعة من فروة - تحروف وقد الفلاح فارجا سائيه على العربة بمجلات حديدية لافا طرفي الزمام - جرى الحصان المتين الفسح محاولا ان يسبق القطار - التفت الفلاح نحو توافد العربة ، وهتف بشيء كاشفا عن اسنان بيض - قال الالمانى:

- هذه مولاي - يوله - قرية غنية جدا -

اضطرت كاتيا ان تنتقل من قطار الى آخر عدة مرات - إذ اخذت قلم تاخذ القطار المباشر - وقد صرفها عن افكارها السرعة الضوضاء والانتظار في المحطات ، والوجوه الجديدة - ورحاب السهوب التي لم تكن قد رأتها من قبل منداحة خارج نافذة العربة - وكان الالمانى قد لزل منذ وقت طويل ، وقد عزز يدعا بقوة عند الوداع - لقد كان هذا الرجل شديد الوثوق في حتمية الاحداث الراضية - كما حدد يدقة ، على ما يبدو ، نصيبه في الاشتراك فيها - وقد ادعش

كاتيا تنازله الرصين وانقلها - فان كل ما كان الجنب يعتبرونه هلاكا وقطاعة وفوضى كان بالنسبة له بداية متوقعة طويلا لعهد عظيم - كانت كاتيا طوال هذا العام - لا تسمح لغير صريف الاسنان العاجز ، وتنهيات اليأس الشديد - ولا ترى - مثل ذلك الصياح من آذان في بيت ابها - غير وجود متلوية ، وقضات مشفوفة -

صحيح ان المقدم تبتكين لم يكن ينتهد ولم يصرف باسمائه ، الا انه ، على حد تعبيره ، «عفتبطه» وكان يرحب بالوادة انطلاقا من ايمانه «المتنبط» بالمعادلة -

كان جميع الناس في الوسط التي عاشت فيه كاتيا يرون في الثورة هلاكا نهائيا لروميا ولثقافة الروسية ، وهزيمة للحياة كلها ، وفتنة عالمية ، وسفر الرؤيا الموعودة - لقد كانت هناك امبراطورية ، وكان جهازها يعمل بشكل مفهوم واضح - كان الفلاح يحرث ، وعامل المتجم يقلع الفحم ، والمعامل تصنع البضائع الرخيصة والجيدة ، والتجار يبيعون بنشاط ، والموظفون يعملون كالمسافة - والناس الذين في الاعل كانوا يتنعمون بنعم الحياة ، وكان يظن ان مثل هذا النظام غير عادل ، ولكن ما العمل - والله قد قضى بذلك - وبعادة يتحول كل شيء الى عظام ، وتتحول الامبراطورية الى غلبة تدل مهابة ... وسار رجل وغريبه مترنحا وعيناه مبهضتان من الغرغ ...

لوقعت القطار طويلا في سكون عند محطة صغيرة - اخرجت كاتيا واسها من القطار - كانت اوراق شجرة عالية تحف حليفا هادئا في الظلام ، وكانت السماء المنجمة تبدو لا نهاية فوق هذه الارض التي بلغها القويض -

وقضت كاتيا مرفقتها على اطار النافذة المفتوحة ، لاكرحسا خفيف الاوراق والتجم ورائحة الارض الدافئة بامدى الليالي ... كان ذلك في منزلة قرب باديس - وكان بعض الأشخاص وصعبوس بطرسبورغيون تعرفهم جيدا قد جنادوا الى هناك في سيارتين ... وكان الجو رائقا جدا في التعريشة فوق البركة التي تناولوا عشاءهم فيها حيث كانت اشجار الصنوبر البياكي يبدو كالغمام الفضية فوق الماء -

كان بين الذين كانوا يتناولون العشاء رجل الماني عاش في

وقت ما في روسيا لا تعرفه كاتيا . وكان يعيد التحدث بالفرنسية . وكان يرتدى بذلة النساء ، وبلا قبعة . كان لحيلا ذا وجه نحس مستطيل ذي جبين عريض عسى فيه الصلع ، وعينين جدتتين هما جفان تقبلان . وكان يجلس هادئا وانحما واسماعه الطويلة على اسفل قدم النبيذ . كانت كاتيا حين تعجب بشخص يسبح في داخلها تدق وحنان . وكان الليل التسوي يدور وكأنه يمس كظها احد العاريتين . وكانت النجوم تتراعى من خلال اوراق الكرمة المتسلقة التعريضة ، والشعور تلتقي ضوا دافئسا على وجوه الاصداق والرائشات الليلية على فمض المائدة وعلى وجه الغريب الفارق في افكاره . واضعت كاتيا يانه مستغرق في افكاره وهو ينظر اليها . لعلها كانت حلوة جدا في ذلك المساء .

وحين نقضوا من وراء المسالمة ، وساروا في العربة القانس المعرش بانسجار طويلة محتجبين الى نهاية المنتزه ، الى الساحة ليطلقوا منها على اسواق باريس سار الالمانى الى جانبها وقال بصوت ضارم مؤكدا انه لا يريد ان يعطى لكلامه معنىين :

- الا تعتبرين الجمال ، ايها السيدة ، غير جائق وغير مسوح به ؟

كانت كاتيا تدير ببطء . ما اعذب ان يكون هذا الرجل قد بنا حديثا معها ، وان صوته لم يكن يغلط على حفيف اوراق الاشجار الغائسة . كان الالمانى ينظر الى الامام ، وهو يسير الى يسارها مرسلا يصره الى اعماق الدرب . حيث كان يلوح وجه المدينة الليلقي . وتابع الرجل قوله :

- اننا مهتدى - وايي ترى جدا . واننا اشتغل في مشاريع كبيرة ، اتعامل مع مئات الاثرف من الناس . وارى واعرف الكثير مما تجهلينه . اعرفين ، هل حديثي مشجر لك ؟

ادارت كاتيا واسمها نحوه ، وانبتست صامتة . وعلى انعكاس الوجع البعيد لمح الالمانى ابتساما في عينها فتابع قوله :

- لعن ، لسوء الحظ ، نعيش على ملتقى ترفين - احدهما العظيم واليهي ، يزول - والثاني يولده في ضجيج الآلات ، والشعور المعملية الصارسة المظهر والزينة . وانسى هذا القرن بقرن الجماهير ، الجماهير الانسانية ، حيث تتحطم جميع العواقر - ان

الانسان ليس الا بدين ماهرين توجهان الآلات . هنا قوائين اخرى ، وحساب جديد للذين ، وحقيقة اخرى - وانت ، يا سيده ، الاثوية من العصر القديم . ولهذا السبب يتورتني العزن وانا انظر الى وجهك . والعصر الجديد ليس بحاجة الى وجهك مثل اى شيء لا فائدة منه . ولا نظير له . فادر على الآلة المشاعر التي تضجحل : الحب ، والتضحية بالذات ، والشعر ، ودعوى السعادة .. جمال ! .. لاي شيء ؟ انه شيء مقلق .. شيء غير مسوح به .. وانا اؤكد لك ان الناس في المستقبل سيشرحون القوائين ضد الجمال .. هل صادف وان سمعت عن العمل على خط الانتاج المتحرك ؟ هو آخر ابتكار امريكى . يجب ادخال فلسفة العمل على الخطوط المتحركة الى الجماهير .. يجب ان تبدو البرقة والقفل الى ايراما من تانية من الارتباك عند خط الانتاج .. والان تصورى ان الجمال يدخل في قاعات الورش الحديدية ، ما يلقى .. لماذا يحصل ؟ تشريك الحركات ، ارتعاش العضلات ، وتأخر الايدي لتفان ، تتخلل .. ومن ثواني الخطأ تتكون ساعات ، ومن الساعات كوارث .. ومصنعي صنير ينتج منتجات الى جودة من الصنع الجوار .. ويفشل المشروع .. ويفلس بنك في مكان ما .. وتستجيب البوصة بيهوط حاد .. ويطلق شخص الرصاص على قفيه .. وكل ذلك لان المرأة رائعة الجيال بشكل اجرامى سارت في الووشة تحف بقستانها .

ضجعت كاتيا ، لم تكن تعرف شيئا عن خط الانتاج - ولم تزد ضنعا قط ، ولم تر تغير المعاشن المسخسة التي تفسد المنظر الطبيعي .. وقد اجبت كثيرا جمهور الناس - الحسد - في البوالغات الكبيرة ولم تتخيل شرا فيه . وكان اثنان من معارفها على مائدة العشاء عند البركة من الاثريكين-الهديوغرافيين . يعنى ان ضجوعا مرتاح . اما كلام محدثها الذي يسبح بليتنا مرفوع الراس في عتسة الدرب الدافئة فقد كان طريفا وجديدا ، مثل اللوحات التكمية مثلا . تلك التي كانت معلقة في غرفة الطعام عندها .. ولكن الفلسفة لم تكن تعنيها في ذلك المساء ..

فات كاتيا :

- اظن ان شيئا فطيعا قد لعن بك من النساء الجميلات لكن نفسهن الكرامية الى هذا الحد .

وضحكك شحكا خافتا ثانية مفكرة يتسره آخر لغير محدد كهذا الليل . فيه ورائحة زهور واوراق ورائحة نجوم في الفرجات بين رؤوس الاشجار - انه الحب الذي كان يدبر الراس دورانا حلوا . ليس حبا لهذا الرجل الطويل ، او ربما حبا له . فانه يتبع فيها الرغبة . والتسبي الذي بدأ ال وقت قريب عصيا بل لا أمل فيه ، قد اشترت بسهولة ، واستولى عليها بسهولة . . .

ليس من المعروف ما كان يمكن ان يحدث لها في تلك الايام في باريس . . . الا ان كل شيء قد تقطع فجأة . . . زارت مدافع الحرب العالمية . ولم تلتق كاتيا بالالمانى بعد ذلك اللقاء . . . فهل كان يعرف يدنو الحرب ام حتمس ذلك ؟ وثناء الحديث اللامق عند الحاجز الحجري ، حيث كانا يمتعان المنظر بانوار باريس المتناثرة في الامق القاتم والمناطقة كلالاس . كان الالمانى يبدأ عدة مرات كلامه عن حتمية الكارثة بياض حاد . وكانها قد تملكته فكرة لا فرار منها في ان كل شيء لا جدوى منه سواء اكان فتنة الليل او سحر كاتيا .

ولم تذكر ما قالت له ، ففعل الالمن انه كان هراء . ولكن ذلك لم يكن مهما . وفق مرتظا على الحاجز يكاد يسس بقده كتف كاتيا ، وكانت كاتيا تعرف ان هراء الليل قد امتزج برائحة عطرها ورائحة كتفها وشعرها . . . ولو انه وضع يده الكبيرة على ظهرها لما دفعها عنها . ام هذا ما يخيل اليها الآن . . . لا ، ان ذلك لم يحدث . . . خفق الهواء في خدها ، وعبت في شعرها . وانفثت شرفرات من القاطرة . وسار الفطار في السهب . ادارت كاتيا عينيها عن النافذة بنظرة غير مرتبة ، وانحدرت في زاوية خفتها ، وضعت اصابعها الباردة .

وامست بتأنيب الضمير . ما هذا ؟ لم ينض على معرفتها بصبر فاذم اسرع ، وها هي تلغ في اسوأ من الغيابة . . . حملت برجل لم يكن حبيبها . . . ان ذلك الالمانى قد قتل بالطبع ، كان ضابط احتياط . قتل . قتل . . . كلهم ماتوا . كل شيء هلك ، ودمر ، وتلاشى كشك الليلة على السطحة في المنتزه . فوق البركة ، اخطى بلا عودة .

زمت كاتيا شفتيها حتى لا تئن ، وانقضت عينيها . ولقدت الى صفرها لوعة حادة . . . كان في العربة القارة الضامة

بشعة شماعة الضوء غير كثير من الناس . وكانت ظلال سوداء ساهرة تنقلب عاكسة بدأ مرفوعة او لعبة شعاعه او قديمين حافيتين متدليتين من التفت الاعلى . لم ينم احد رغم ان الساعة متأخرة . وكان الركاب يتحدثون باصوات خفيفة .

- اقول لك ان هذه المنطقة اسموا المناطق . . .
- وماذا ؟ هل من المعقول ان لا آمن هنا ايضا ؟

- انا اتمنر . ما هذا الذي تقولوه ؟ هنا ايضا يتهبون . هذا عريب ، فإذا يفعل الالمان ؟ انهم مزومون على حراسة المسافرين . . . ما دائما قد احتلوا البلاد وجب عليهم المحافظة على النظام .

- اعطوني . يا سادة ، هل التصبير الخشن . ولكن الالمان يصقون علينا . . . انهم لا يريدون ان يتدخلوا في شؤوننا ويريدون ان ندير شؤوننا بانفسنا . . . نعم ، ان الخصوصية والنهب في شغلنا . . . الناس اوغاد . . .

رد على ذلك صوت واثق :

- يجب ان يسقط على كل الادب الروسي ويعرق في العالم يتسره . . . ان الكتاب قد صوبوا الناس بصورة جميلة . . . وربما لا يوجد رجل لزيه في كل روسيا . . . انذكر اني كنت في فنلندة ، وكرمت لعالي في الفنلق . . . فارسلوه الي مع رجل على فرس ، بينما المعال متقوية . . . هذا صعب لزيه . ما اشد تكيكهم بالشيوبيين ، وبالروس بشكل عام . في مدينة «ايوا» بعد قمع الانتفاضة احرق الفنلنديون وغدبو رئيس الحرس الاخير هناك . وكان يسمع صراخ هذا البلشفي الفنلندي حتى من وراء النهر .

- آوه ، يا آوه . حتى يكون عندنا نظام ما . . .

- اعطوني . كنت في كيف . . . مخازن فاتحة . . . وموسيقى في المقاهي . . . والسيدات يخرجن علنا وهن يتعلين بالالمانس . حياة دافقة . . . ومصالح شراء الذهب وغيره تفضل جيدا جدا . . . يرتزدهر حياة الشارع . . . مدينة رائعة . . .

- قطعنا مقاشم للينتلون تساوي روايت تصف عام . . . الضارايون اطبقوا على عناقشنا . . . جميعهم ذوو جباه عالية ، وجميعهم في بدل زرقاء من الجوخ . . . يجلسون في المقاهي يتناجرون بالغاتورات . . . خرجت في الصباح فلم اجد في المدينة غلبة كبريت

ويعد اسبوع صارت العنينة برويل - او غلوا الاير مثلا . اعدوا لزوجتي في عيد ميلادها ابرتين وبكرة خبوط . وفي الماضي كنت اهدى اقراط الماسية . . . والمتخوفون يهلكون ، يشرفون على الموت . . .

- يجب ان يرعى المضاربون بالرماسيون بيوت خطلقة . . .
- ايها السيد الرفيق ليس عندنا بلصافية . . .
- ما هي اخبار كيف ؟ هل حكم الهيثمان قوي ؟
- ما دام الالمان يستنونه - يقولون طلع مدح آخر باوكرانيا هو فاسيل قيشيفاني . انه امير من هابسبورغ ، ولكنه يلبس الملابس الاوكرانية .

- يا مواطنون حان وقت التوم ، حيناً لو اطفامم التسعة .
- كيف نظفم التسعة ؟ اننا في قرية قطار . . .
- بهذا الشكل آمن . . . كل التواقه تشرى من الخسارج .
تترابى .

صمت ركاب العربة فجأة . وتناهدت ضريات العجلات على السكة بوضوح اشد . وتطير الشرر من القاطرة في ظلام السهوب . ثم يبع صوت يحنق شديد :

- من قال : «اطفانوا التسعة» ؟ (صار الصمت متحوسماً) . اذن «اطفانوا التسعة» . بينما هو يسد يده الى الحقائق ، دلوئي على القائل . وسألتيه من العربة .

اغذ احدكم يخرق باستاناه بطنجر . وقال صوت يثير الهلع :
- عندما كنت مسافراً في الاسبوع الماضي سرقوا من امرأة صرتين بالقطاف . . .

- كانوا من جماعة ملحنو بالتاكيد .
- جماعة ماختر لا يلوتون ايديهم بصرتين فقط . يمكن ان يسرقوا قطاراً بكامله . هذا ما يفعلونه .

- يا سادة ، لا يجوز ذكرهم في الليل . . .
جرت احاديث اصحها افظع من الآخر . . . وذكرت حكايات تبت القشعرية في الجلد . وظهر ان الاماكن التي كان يسير القطار فيها الآن غير متعجسل اشد اوكار قطاع الطرق خطراً ، يتحاشاها حتى الالمان وحتى الحراس نزلوا في الحطة السابقة . . . وفي القرى يتختر الفلاحون بمناطق السور ، والفتيات بالحريز والحلمل .

اللمعة لا يضي يوم دون ان يحدث حادث : إما انهم يطلقون النار على قطار من رشاشه ، او يفكون العربات الاخرية ، ويسرحونها ، او يتسح الباب فجأة والقطار يسير في كامل سرعته ، ويدخل رجال ملحنون يحملون الفؤوس والبنادق المقطوعة المراسم قائلين : ارفعوا ايديكم ! ويتركون الروس كما ولدتهم امهاتهم . اما اذا وقع يهودي في اليه . . .

- يهودي ؟ ما علاقة اليهودي هنا ؟ لماذا اليهودي مذنب في كل شيء ؟ . . .

ذعن رجل حليق في بدلة ذوقاء من الجوخ ، هو نفس الرجل الذي اعلان اعجابيه بكيفي -
ومن هذا الرعيق تكثف الرعب كليسا . عدات الاصوات .

وانغمضت كاتيا حينها من جديد ، لا شيء يسرق منها الا الخاتم الزمردى . الا ان رعباً مرعباً قد استول عليها ايضاً . ولكي تتخلص من اضطراب القلب المزعج حاولت ان تتذكر ثانية سحر تلك الليلة التي لم تتم . ولكنها لم تسمح لغير قرصنة عجلات القطار في الغواة الليل . . . كاتيا ، كاتيا . . . انتهى ، انتهى ، انتهى كل شيء . . .

. . . توقفت العربة بدة ، وكأنها وقعت في زقاق مسدود . وذهقت القرامل زعيماً حديدياً ، وصلصلت المسلسل ، ورن الزجاج ، وسقطت بعض الحقائق من التفت الاعلى . والغرب ما في الامر ان اصحا لم تبرد منه حتى انه . فزع الركاب من امكانهم وحدقوا ، وتسعروا ، وكان واضحاً يدون كلام ان ما زقا قد وقع .

صعدت في الظلام طلقات بنادق . وتحرك الرجل الحليق ذو بدلة الجوخ في العربة وغاب واختفى . ووراء النافذة تراكض الناس عند الستة تماماً . تراءت اصوات طلقات والتصمت تارها في العيون . وضربت قفعتها في الاذان . . . وصاح صوت رعيبي : «لا تطلوا من التواقه !» وانفجرت قنبلة يودية . وارتجت العربة . وواحت استمان الركاب ترمعد ارتعاداً شديداً . وصعد اشخاص الى قسمة العربة . وضربوا الباب بانخاص البنادق . ودخل زهاء عشرة رجال متدافعين بلسون قمبات فراء الالمان ملوحين بالقناويل اليدوية وبنادقهم ضرب بعضها ببعض . وكانت الانفاس تتردد مسبوغة في الصدور .
- اجمع الاشياء ، واخرج الى الحقل .

- تحرك القمط ، والاداء .

- ميشكا ، فجر البرجوازيين بقبيلته البدوية .

تحرك المسافرون ، اندفع شباب اشقر ذو وجه شاحب غيبث
الى الامام بكل جرسة ، ورفع قنبلة يدوية ، وجمد لحظة ودرأه
مرفوعة . . .

كردهت اصوات : نخرج ، نخرج ، نخرج .

وخرج المسافرون من العربة ولم يعودوا يتحجرون ولا ينطقون
بكلمة واحدة . كان بعضهم يحمل حقيبة ، وبعضهم لم يحمل غير
مغدة او سخان شاي . . . بل وابتسم احدهم ، وهو رين ذو نظارة
انثوية ، ولحية سفيرة مائلة الى جانب ، شاقا طريقسه بين قطاع
الطرق .

كان الليل طريسا ، والنجوم تنداح فوق السهب مثل غطاء
فاخر . جلست كاتيا ، ومعها صرتها ، على كومة من العوارض
الخشبية المتبرقة . ما داموا لم يغفلوا راسا ، فاتهم ان يقتلوا
الآن . واضمت يوهن شديد ، وكانها قد اغامت من غيبوبة تنوعها .
وفكرت : «وعل هناك فرق في ان اجلس هنا على العوارض او اجوب
يكاتريوسلاف وليس معي قطعة خبز . . .» وكانت تحس ببرد في
كتفيتها . تنهدت . في العربة سحب فلاحون اشده العنقاب من
الرقوف ، ودفقوها من التوافد . حاول ذو النظارة الانثوية ان يصعد
المتعذر متجا الى العربة .

- يا سادة ، يا سادة ، عندي أجهزة فيزاوية هناك ، بحق
الرب على مهل ، فانها سريعة الكسر .

اسكنه بعضهم ، وامسكوا متضعم من الخلف ، ودفقوه الى
خشد الركاب . وفي تلك اللحظة انطلقت من الظلام كوكبة من الحياة
في معتمة وكثيفة . اندفع امامهم على بعد امتار رجل قوي بشكل
مذهل في قبضة عالية متواثبا على سرجه . تراجع المسافرون .
توقفت الكوكبة عند العربة واخذها يرفعون ايدهم باليتاذق
والسيوف . صاح الرجل القوي ذو القبضة العالية بصوت ورنان :
- بلا خسانو ، يا فتيان ؟

ردت اصوات :

- لا ، لا ، لا . . . نحن نخرج العميلة . . . لرسل لنا العربات .

استدار الرجل القوي ذو القبضة العالية بحصانه ، ودخل خشد
المسافرين ، وامر متلامبا بحصانه حتى ان الزيد تطاير من يوز
الحصان في عيون المسافرين المبهللة غيبا .
- اخرجوا هويتاكمس . لا تخافوا . انتم تحت حماية جيش
الانسان ماخذو الشعبى . نحن لا نرمي غير الضباط والجنرمة-ورفع
صوته مهدد- والمضاربين باقوات الشعب .

بررة اخرى تقدم الرجل ذو المشمع . وعند نظارته الانثوية .
- اعذروني . يمكنني ان اقدم لك كلمة شرف على انه لا يوجد
هنا الاضفاف التي ذكرتها من الناس . . . لا يوجد غير اناس يسطاء
مسالمين . . . اسمي اوبروتشيف معلم فيزياء . . .

قال الرجل القوي ذو القبضة بلهجة تعنيف :
- معلم ، معلم . وتعامل مع مختلف الاوغاد . نتج جانبها .
يا فتيان ، لا تنسوه ، انه معلم .

جلبت الشمعة من العربة . وبدا التدقيق في الهويات . حقا
لم يكن في الجمع ضابط ولا جنرمة . كان الرجل الحليق ذو بدلة
الجوخ يتحرك مشغولا اقرب الناس الى الشمعة . . . ولكنه لم يكن
الآن في بدلة الجوخ ، بل في سترة فلاحية مهلهلة ، وقبعة جندي
ذات حافة ناتئة . ولم يكن مفعوما اين حصل على كل ذلك . لعلة
رضعها في حليته . كان يرتد على اكتاف الصلوص بسودة .

- انا مفر . سميد جدا بالتعرف عليكم ، ايها الاصدقاء .
القائرون يجب ان يعرفوا الحياة ، وانا فتان . . .

وسعل متظفا حبرته حتى قال له احدهم بغموش :

- سيعرفون اي فتان انت ، فلا تفرح قبل الاوان . . .

جاءت العربات على عجلات مغلقة بالعديد . التي الساختويون
لها العنقاب والسلال والسرر ، وصعدوا على الامتعة ، وصفر
السواقرن على الطريقة السهبية ، وانطلقت شيول «الترويكسا»
الشعبي ، واختفى ظايور العربات في السهب في صفير وترفعة .
انطلقت كوكبة العيالة ايضا . وكان بعض الساختويين يسير
حول العربة . عندئذ اختار المسافرون وقدا بطريقة رقع الايدي
السيطة لينطلقوا اذنا من الصلوص بواصله السفر . تقدم الشاب
الاشقر محملا بالقتال . كانت خصلة الشعر البارزة من حافة قمبته

تغطي على عينه . بينما كانت العين الأخرى الزرقاء تنظر بسفاه وواقعة .

سأل وهو يتعمق في كل موقف من رأسه إلى أخمص قدميه :
- ما هذا ؟ إلى أين تسافرون ؟ وفي أي واسطة ؟ آه .
يسأ حقي . . . سائق القطار قد أزل من القاطرة حاربا في السهب وهو الآن على بعد عشرة فراسخ . وأنا لا أستطيع أن اترككم في الليل هنا ، فمنا أكثر المتكلمين هنا في السهب . . . ايها المواطنين ، اسمعوا امرى . . . (ويزل من منحدر السدة . وعند من حزامه الثقيل - وحيد نحوه الأخرى ، ملقن بنادقهم وراء ظهورهم) ايها المواطنين ، اصطفوا أربعة أربعة . . . واذهبوا مع حاجياتكم في السهب . . .

ولما من يكاتيا اتحتي نحوها ومن كتبها قائلا :

- يا فتاة . . . لا تحزني ، لن نسيء اليك . . . خذي صرتك وسيري إلى جانبى خارج الصف .

سارت كاتيا في السهب المنبسطة ، وصرتها في يدها ، وقد انزلت مندبيلها حتى حاجبيها . كان الشاب الاضغر يسير الى يسارها نظرا من خلال كتفه الى جميع الاسرى السائرين في جميع حزين صامت . كان يصغر صغيرا خافتا من بين اسمائه . سأل كاتيا :

- من انت ؟ ومن اين ؟

لم تجب كاتيا ، وادارت وجهها . الآن لم تعد تشعر برعب ولا اضطراب ، بل بلا اكتراث فقط . بدأ كل شيء لها وكأنه سنة من نوم . اعاد الشاب سؤاله من جديد .

- اذن ، فانت لا تريدان ان نطلي من نفسك بالتحدث مع قاطع طريق . مؤسف جدا ، يا سيدي . يجب ان تنزلي من غرورك الإيستراقلى . وفي ذلك العهد . . .
التفت ونزع قبعة مندبيلته من كتفه ، وصاح يغيب على شخص غير واضح كان يسير منزويا عن الاسرى :

- هاى ، يا وقد ، نتاخر . . . سارميك !

اندفع الشخص داخل الجمع بسرعة . فضحك الشاب راغيا .
- والى اين سيهرب هذا الاحمق ؟ يبدو انه يريد ان يقص حايصة . هكذا اذن ، ايها السيدي . . . لا تريدان ان تتكلمى ، وتصمتين ، حتى اطفئ . . . لا تخافى . لست سكران . عندما اسكر اصمت ويسوء سلوكى . . . لتتعارف - ورفع اصبعين الى حافة طاقيته غنيا - انا ميشكسا سولومين . الهارب من الجيش الأحمر . . . وبالأحرى قاطع طريق بطبيعتة ، اذا اردت الحقيقة . رجل فاسد . لم تخطئى في وصفى . . .

سألت كاتيا :

- الى اين ذاهبون ؟

- الى مقر الفوج في القرية . نتحقق منكم ، ونستجوب . البعض سيرمى ، والأخر سيطلق سراحه . وانت ، كأمراة شايبة ، لا حاجة الى ان تخافى من شيء . . . فضلا عن ذلك ، فانا معك .
- ارى انك اكثر ما يجب ان اتأمله .

قالت كاتيا ، والتفت نظرة جانبية خاطفة على الشاب . ولم تنوح ان تلمسه هذه الكلمات على هذا النحو . فقد توترت . وتنهت تنهدات عادة من منغرية ، وتعبس وجهه الطويل القاصص في ضوء النجوم . وحسس «كذبة» ، وسارا صامتتين . لف ميشكسا لفافة التاء سيبره ، ووزع يدهن .

- انا اعرف من انت ، ولو كنت مستكربين . انت من فتة الضباط .

قالت كاتيا :

- نعم .

- زوجك في عصابات البيض ، بالطبع .

- نعم . . . زوجى قتل . . .

- لا أستطيع ان اضمن لك انه لم يضرع برصاصتى . . .

وايدى اسمائه - التت كاتيا نظرة سريعة عليه ، وتعثرت ، استعجا ميشكسا من موقفها ، فكت ذراعها من قبضته ، وحسرت وانسها .

- انا من جهة التفقاس . ولم يطمس على هنا غير أربعة اسابيع ، طوال الوقت كنت احارب عصابات البيض . وكسم من

رصاصه نفلت من هذه البندقية في عظامهم الزرقاء .

هزت كاتيا رأسها مرة أخرى . سار الشاب بعض الوقت صامتا ، ثم راح يشحك وقال :

- ثم ولعنا في مازق حرج عند محطة اومانسكايا ، وتوزق فويتا ، فوج فارنافسكي . قتل مدفوعي النوج سوكولوفسكي . وحس أمر الفوج سايرجوكوف من حفنة من المحاربين تمعنا ، وجميعهم جرحى جرحا عذيفة ... ونفلت انا خلال الجبهة الألمانية الى الأمان . هنا الجو امرح . لا احد يقف قومي ، جيش شعبي . نحن انصار ، يا سيده ، ولنا قطاع طرق . نحن نختار أمريكا بانفسنا ... ونفخلص منهم بالفنسا : نضك بنالسنس ونضرب ... شخص واحد فوقنا هو الأمان ... انظنين اننا نهيننا القطار لنضرب ما كسيناه على الخمرة ؟ لا ، ايذا . كل المغاليم الى مقر الفوج . وهناك يجري التوزيع . قسم الى الفلاس ، وقسم الى الجيش . والقطار هو قاعدة تويتنا . نحن جيش شعبي ، يعني ان الشعب نفسه في حالة حرب مع الأمان ، تلك هي المسألة . نحن نفتك بملأكي الاراضي ، ومن الخير للجنديسة وضباط الهيتمان الا يقفوا في قضبتنا ، نفكس عليهم بالسلاح البارذ . اننا ندفع فصائل الشماويين والألمان الصغيرة لنعو يكاترينوسلاف ، ما هو جرهر لصروصيتنا .

كانت النجوم في السهوب تبدو بلا نهاية ، ولى الطرف الذي كانوا يتجهون اليه من الافق بدأت السماء تظفرخر فليلا . كانت كاتيا تعثر أكثر فافتكر ، ونسك اناسها . اما ميشكا فكان لا يضايقه شي ، يستطيع ان يقطع الف فرسخ على هذا المتوال . والبندقية على كتفه . كانت كاتيا تهتم الآن في شي واحد : الا تبدي ضعفا ، والا تدع هذا المتباهم المتبجح يسلف عليها ...

- كذلك على حد السواء .

وتوقفت ، وعدلت من وضع منديلها لتلتقط اناسها ، وسارت من جديد على الافستين وجحور الموالق .

- نحن ، النساء ، نلد ايماننا ليقتلوهم لا يحق لاحد ان يقتل ، وهذا كل ما في الأمر .

قال ميشكا دون ان يفكر لحظة واحدة :

- سمعنا هذه الالمنية ، اقلية النساء القديمة . ومفوضنا يشرح المسألة كالأني : « انطروا الى الامر من وجهة النظر الطبقة ... » عندما تصوب البندقية فانك لن تصبور ان املك انسانا بل ظاهرة طبقية . مفهوم ؟ لا مجال للشك هنا ، ان ذلك عماد للفورة محض ، وهناك مسألة أخرى ، ابتها العزيرة ...

وتغير سموتة فجأة بشكل غريبا . صار خافئا وكانه يستمع الى كلماته :

- لن اقضي العمر كله اسير في الجبهات البندقية . يقولون ان ميشكا ، رجل ضائع ، سكير . سنتنني به الحال الى حفرة . صحيح ، ولكن ليس تماما ... لست مستعجلا على الموت ، بل لا اربح في ذلك البتة ... لم تصنع ، بعد ، الرصاصه التي ستقتلني .

واراح خصلة الشعر من على جبينه .

- ما هو الانسان الآن ؟ معتله عسكري وبندقية ؟ لا ، ليس كذلك ... ما اكثر ما اود ان اريده في هذه الدنيا ! ولكنني لا اعرف بنفسي ما اريد ... وافكر : كومة من الفلوس ؟ لا ، ان الانسان في عالمي يتعذب ... ولا سيما في وقت كهذا - ثورة ، وحرب اهلية - انتر ابيري ريجي . وانا اعتذب من البرد ، ومن الجراح في سبيل طبقت وعن وعي ... في آذار كان علي ان استلقى اصفه نهار في حفرة تلج تحت نيران رشاشه اثناء ثورة الخفارة . الا يعني ذلك انني بطل لزاء الجبهة ؟ ومن لنا ، بيبي وبيني نفس ؟ مشبح بالبحول ، وخائق على نفس والسكين اخرجسه من وراء خذائي ...

وانتصب ميشكا مرة أخرى مستشقا هوا ، الليل الطوي . وبدأ وجهه حزينا ورفيفا تقريبا . حشر يديه صيقا في جيب معتله ، وصار لا يتحدث الى كاتيا ، بل وكأنيما الى ظل يسرى امامه :

- تعاليم ... اعرف وقد سمعت به ... الا رجبل متوحش ... اولادي سيكونون متعلمين . اما انا الآن في حالتي الراعشة ويغلقني وعاداتي فاسا شيرير ... في ذلك موالي ... نحن

المتقنين نكتب الروايات . ما أكثر الكلمات المترسقة . ولكن لماذا لا يكتبون رواية عني ؟ أظن ان المتقنين وخدمهم يخجلون من أطوارهم ؟ أنا في النوم اسمع صياحا ... قاسيظظ . مستعدا لأن اقتل مرة ثانية ...

طلع من الظلام قرسان صارخين من بعيد : «قف ، قف ...»
نزع ميشكا بندقيته . «قف ، يا ابن .. لا تعرف جمامتك ان ترك ميشكا كاتيا ، وسار نحو القرمان ، وتساوورا هناك طويلا . وقت الاسرى ، وتهامسوا هالعين . جلست كاتيا على الأرض ، والمزت رأسها على ركبتيها . ومن الشرق ، حيث كان الفجر يخوضر بوضوح أشد البعث وطوبىة ودخان روث محترق ، ورائحة قرية .

بغات تجرم ذلك الليل الذي لا ينقضي تشحب وتغور ، ومرة أخرى كان على كاتيا أن تنهض وتسير . وبعد قليل أخذت الكلاب تنبح ، وظهرت أكاديس الفئس وشواديف الآبار ، وسقوف البيوت . ولاح الأوز النائم في المرح كقطع من الثلج . والعكس الفجر الوردي على سطح بحيرة . قبل ميشا عبوسا :

- لا تقمى مع الآخرين ، سائرلك في بيت عمل حدة .

قالت كاتيا «حسنا» وكأنها تسمعه من بعيد . ولم يكن يهملها أين تذهب . فقط أن تتمدد ، وتنام ...

وات من خلال ظنيتها المسيلين زهور عباد الشمس كبيرة ، ووراءها صفقات خضر وسمت عليها زهور وطيور . نفر ميشكا باظفاره على زجاج النافذة الصغيرة المحبب . وفتح الباب ببذء في جدار البيت الأبيض . واطل رأس فلاح أشعث . ارتفع ساريا إلى فوق ، وتنادى قه مديسا استماتا كبيرة . وقال : «حسنا ، ادخل ...»

دخلت كاتيا البيت وهي تترنح ، وكان الذباب يطن قيسه مقعورا . أخرج الفلاح فرجة خروف ومخلدة من وراء حاجز وقبال «نامي» ، ومضى . وجدت كاتيا نفسها على السرير وراء الحاجز .

جعل اليها ان ميشكا أحنى عليها ، وعكس من وضع المخلدة تحت رأسها . كان استمرقاها في القبوبة لليلدا جدا ...

... ترقة العجلات . طلت ترقع وتندمدم . سارت عربات خيول عديدة . والشمس انعكست خلفها على نوافذ بيوت ضائعة . سطوح قرميدية نصف دائرية . باريس . مرت عربات فيها نساء انقيات . الجميع يصرخ بشيء ما . وتقلب ، ويومئ ... النساء بلون بطلات مداتلة ... وتصبح العربات أكثر فاكتر . يا ألهي ! هذه مظارة ... في البوفالارات في باريس ! هذه هي . ظلال عائلة على خيول شتاء في العجر المخضوضر . لا تستطيع أن تتحرك أو تهرب ! كركبة حوافر أصبعات ! وضيق نفس !

... جلست كاتيا على السرير . صدرت عجالات وصهلت قبول وراء النافذة . ومن خلال باب الحاجز غير المحبوب إستارة رأت الناس يدخلون ويخرجون مندجيين بالأسلحة ، وسمعت طنين اصوات في البيت ودمدمة احدية . وعند المنتمة تزاحم كثيرون يتنصون شيئا عليها . وتطقت كلمات قوية . وكان النهار قد طلع . وتفتت بعض الاسعة الداخنة من خلال النوافذ الصغيرة الى دخان التبخ الازرق الكثيف في البيت .

ولم يلبثت احد الى كاتيا . عدلت توبها وشعرها ولكنهاها بقيت جالسة في السرير . الظاهر ان قوات جديدة دخلت القرية . وكان واضحا من الدوى المقلق للمتراحمين في البيت انهم يعدون لنشيء جدي . صاح صوت حاد متأثر في نبرة نسائية ويلهجة امرأة :

- ليأخذ الشيطان ! استدعوا هذا الولد !

وترامت اصوات وهتافات من البيت الى الفناء والتسارخ ، حيث كانت تقف عربات بغيوها الثلاثية ، وخيول مسروجةة ، وتجمعات جنود وبعاثة وفلاحين مسلحين .

- بترينشيتكو ... أين بترينشيتكو ... ؟ ... اجير في اثره ...

- اجير أنت ، ابها الخنزير السمين ... يا اخ ، تساد القعيد ... ولكن أين هو ، عليه القعة ؟ ... انه هنا . سكران لالم على عربة ... الق عليه جردلا عن الماء ... اسمع ، ادخب لده الشير جردل- لا نستطيع ايقاظ القعيد ... يا اخوان لسن

توقفه بالباء ، بل اظن بوزنه بالقران ... صحا ، صحا ... قل له : الامان ساخط ... انه قادم ... قادم ...

ودخل الى البيت نفس الرجل الضخم ذو القبة العالية ، ونام قبل ذلك الحين ، على ما يبدو ، لوما عبقا ، حتى كان من الصبح ان ترى عيناه المتفتحتان في وجهه المحمر المشسورب ... حتى لم يرقه الى المنضمة وهو يدمع ، ويجلس .

صاح صوت عال صارف متلعثم :

- ما هذا ، يا وعد ، تخون الجيش ! استروك !

- ماذا ؟ فحوت وكفى .

لفظ العقيد بصوت اجش عميق ، وكأنه خارج من تحت برميل :

عغم الصوت المتقطع :

- انت ... انت ... سهوت على الالمان اثناء نومك .

- كيف ذلك ؟ لم اسمع على شيء .

- اين نقاط حراستك ؟ سرتا طوال الليل ولم تجد نقطة واحدة ... لماذا الجيش في المصيدة ؟

- ما هذا الصباح ؟ لا احد يعرف من اين جاء الالمان ...

السهب كبير ...

- الذنب يقع عليك ، يا حقير .

- حذار ...

- مذبذب !

- لا تمسك بي !

وعم السكنون البيت فجأة - ابتعد الواقفون عن المنضمة - صارع رجل لاهت الانفاس ، وارتفعت يد بسمس ، تشبث بها عدة ايد . وصدرت طلقة - صمت كاتيا لذيهيما ، واسرعت في الارتواء على المخذة . تساقط نثار الجص من السقف - ومن جديد تعالت اصوات ، ولكن بمرح هذه المرة . نهض العقيد بترتشييلنكو وهو يكاد يمس سقف البيت بقبة من فراء الاغنام ، وخرج الى الفناء بمنظمة مع جبهة من الرجال .

بدأت حركة وراء النافذة . ركب المتصدرون خيولهم ، وتحركوا في عربات ... وقرعت سياط ، ووزعت محاور ، وارتفع سحاب

تأخس - وملا البيت - وعندئذ اندركت كاتيا لماذا لم تستطع حتى ذلك الحين ان ترى الذي كان يصرخ بصوت تسالي آمر ، كان رجلا ضئيلا جالسا الى المنضمة - وشهرا الى كاتيا واسمعا كوعيه على حافلة .

كان شعره السيظ الكستنائي الطويل يسقط على كتفيه انسيقيين مثل كتفي نخلام . وكانت سترته من الجوخ الاسود مشدودة بحزامين متصاليين ، وخلف الحزام الجلدي مندسان وسيف . وكانت رجلاه المرتديتان حذاء طويلا انيقا مسح مهباز متصالبتين تحت المنضمة - كان يكتب بعجالة ورأسه بهتز فيجعل شعره المدعوق يتدل على كتفيه ، والحبر يتناثر من تحت ريشته ، وريش حق الورق .

من الفناء دخل الفلاح الذي تنازل لكاتيا عن فراشه ، دخل بحذر .

كان وجهه ورديا مستعظما ، وفي شعره بعض القش . جلس رامشا بخفة على المسطبة قبالة الرجل الذي كان يكتب ، ووضع تحت فخذه كمتا يديه ، وحك قدمه العاقية بالآخرى .

- كل الوقت مشغول ، يا نستور ايفانوفيتش ، بينما سطلت انك ستبقي للغدا ، بالامس ذبحنا عجلا ، وكان قلبى له اعلمنك انك ستاتي ...

- لا وقت لى ... لا تعينى ...

- طيبا ... (وصمت الفلاح برهة ، وكف عن الرمش ، وصارت عيناه ذكبتين ثقيلتين - تابع بهما يد الكاتب بعض الوقت) ان ، يا نستور ايفانوفيتش ، لا تتوى ان تمشل في معركة في ليرتسا ؟

- حسب الظروف ...

- نعم ، القضية حربية ... ولكننى افكر فقط في انه لو نحصل معركة هنا يشقى ان تعبر امر الماشية ... هل تسوقها للزمراخ ؟

لقى الرجل الطويل الشعر لشمه ، وحشر يده الصفيرة في شعره . وهو يقرأ ما كتبه . حك الفلاح لعينه وما تحت ابطه فحكهما . وقال وكأنه تذكر لثوه :

- نستور ايلانوفيتش ، كيف تتصرف بالقماش ؟ لقد منح
الجرح وهو جيد ، انه جرح مبري عرضة للانظار . . . انها ست
عزبات .

- قليل عليكم ؟ لم تشبعوا ؟ قليل ؟

- ليس بالقليل ، ولا تعرف كيف تشكركم عليه . . . انت
تعرف اننا ارسلنا اربعين مقاتلا من القرية اليك . . . وذهب اثنى
ايضا . قال لي ان عليه التضحية بالندم في سبيل قضية الفلاحين . . .
واذا كان قليلا خرجنا نحن الشيوخ الى المعركة . . . حارب وسئلني
السائلة منا . . . اما قضية القماش ، فاذا هاجمتا الالمان ، لا فخر
الله ، او الجندرية . . . فانت تعرف تنكيلهم . اذن هل يوجد
شك في المعركة ام لا ؟

التصيب ، ظهر الرجل طويل الشعر . واطرح يده من شعره ،
وامسك بحافة المشددة . وكانت انفاسه تتردد مسبوحة . مسه
رأسه الى الوراء ، فتراجع الفلاح عنه على المسطبة بالحذر ، واطرح
يديه من تحتها ، وخرج من البيت خلسة .

ترجع الكرسي فدفعه طويل الشعر عنه يساهة ، والخيما رات
كاتيا ، وهي ترتعش ، وجه هذا الرجل الضئيل بيضه السوداء ،
نصف العسكرية التفصيل . كان يبدو مثل وأهب متشكر . تطلعت
الى كاتيا عيناان بنيتسان متفرستان محدثان من محجوسن تحت
حاجبتين قويتين . كان وجهه مجدرا يعرض الشئ مضطرا حسن العلافة
نسائيا فيه شوه يتم عن عدم التضوج والضراوة مثل وجه غلام .
كل شئ ، ما عدا العينين ، الهرمتين الذكيتين .

ولو كانت تعرف انها امام الاتمان ماخوتو لارتعشت اكثر .
كان ماخوتو ينظر الى امرأة شابة جالسة على السرير في هدوء مرتب ،
ورداء حريري مدهوك ما زال انيقا ، وقد شفتت رأسها كالفلاحات
يمتدبلن ذاكن ، غير قادر على ان يعرف من هذا الطائر الذي دخل
عنده . انقضت شفته العليا الطويلة عن ابتسامة هائلة كشفت عن
اسنان منقرجة . وسأل بانقضاب وحدة :

- من انت ؟

لم نفهم كاتيا فهزت رأسها . غادرت الابتسامة وجهه وصار
بشكل جعل شفتها ترتجفان .

- من انت ؟ عوصي ؟ اذا كان فيك ميغليس سسارميك
بالعصاص ؟ هل تعرفين الكلام بالرومية ؟ مرضية ؟ أم بصحة ؟
فانت كاتيا بصوت لا يكاد يسمع .

- انا صغيرة .

- ماذا تعرفين ؟ هل تعرفين تقليد الاطافيسر ؟ ستمطيك
الأدوات . . .

اجابت بصوت اعف :

- حسنا .

- ولكن لا تتشرى الفسق في الجيش . . . فهمست ؟ ابق .
عندما اعود مساء بعد المعركة ، ونظفي اطافيرى .

كان الكثير من القمصن يدور بين الناس حول الانسان
ماخوتو . فكان يقال انه حاول عدة مرات ، بينما كان يقضى الانشغال
للتضادة في سجن اكاتوي ، ان يهرب وهرب ، ولكنسه اصطيد في
سقيفة لغزق الحطب لحارب الجنود بقاس . وقد حطمت كل عظامه
بانفاس البنادق وصعد بالسلاسل ، حيث ظل فيها ثلاثة اعوام ،
سامتا كايين عرس معاولا ليلا ونهارا ان يتزع الاصفاة الحديدية عنه
بلا نجاح . وفي السجن تعرف على الفوضوي اوشيتوف-خارين وصار
كلميذ له .

كان نستور ماخوتو ابن تجار من قرية غولاي-بوله من منطلقه
يكاتريوسلاف . وقد تعود على الضرب منذ ان كان صبيا يعمل في
ذكان لبيع السلع الصغيرة . وكسان آنذاك يدعى «ابن عرس»
لشراسته وعينيه البيتينين . وقد طرد وهو صبي حين سكب - بعد
جلسه - على كيريسماعدى صاحب الدكان ماء قانرا . وقد جمع له شرفة
حار يسطر بها على مزارع الفريجات والبساتين ، ويبدى شقاوة ويعيش
على صواه حتى اعطاه ابيه الى مطبوعة . وقيل ، هناك رآه الفوضوي
لوايز الذي صار بعد ثمانية عشر عاما رئيس اركان لدى ماخوتو
والرأس المفكر في جميع الاعمال . وقد اعجب به فولين في صباه فصار
يلفته مبادئ التعليم والفوضوية ، وارسله الى مدرسة فصار ماخوتو
معلما . الا ان ذلك غير صحيح ، اذ لم يكن ماخوتو معلما قط ، والاصح
من ذلك انه عرف فولين فيما بعد وقد تعرف على الفوضوية عن طريق
لرشيوف اثناء السجن .

وعند عام ١٩٠٣ عاد ماخنو الى تصرفاته السابقة من جديد في
نولاي-بولنه ، ولكن لا على نطاق مزارع القرعيات والبساتين بل على
ضياح الايمان وامراء الباعة ، مرة يسرق الخيول ، واخرى ينهب
الاقبية ، وثالثة يكتب المذكرات للباعه باجرهم بوضع نقود تحت
شجر . وكانت له في ذلك الوقت صداقة سكر قريبة مع البوليس .
وضار ماخنو مرحوب الجانب ، الا ان الفلاحين لم يشوا به .
لان ضحايفاته لاصحاب الايمان اخذت تستند كلما اقترب الزمن من
ثورة ١٩٠٥ . وحتى بدأت الضياح تحترق اخيرا ، واضهى الفلاحون
يزدهون اراضي الايمان انسل ماخنو الى المدن ليقيم بعمل كبير .
وفي بداية عام ١٩٠٦ هاجم مع عصابة من فتياته بيت المسال في
برديانسك ، ورمى ثلاثة من الموظفين ، وقبض على الغزاة ، الا
ان رقبته وشي به ، وارسل الى الاشغال الشاقة في الكاتوي . . .

وبعد اثني عشر عاما ، حين حورته ثورة شياط ظهرس في
نولاي-بولنه من جديد حيث كان الفلاحون يطردون اصحاب الايمان
ويتفاسمون الارض غير مصنعين الى اوامر الحكومة الموقته المواربة .
وذكرهم ماخنو بخدماته السابقة فانتخب نائبا لرئيس الادارة
المحلية الدالية في القضاء . واتخذ في الحال نهجا عادا لاقامة
«النظام الفلاح الحر» واعلن في اجشاع الادارة المحلية ان رجال
الادارة بروجوازيون وكاديت ، وعند استخدام النقاش اطلق النار في
الاجتماع على عضو الادارة ، ونصب نفسه رئيسا ومفاوضا للمنطقة .
ولم تستطع الحكومة الموقته ان تغفل شيئا معه . وبعد عام
دخل الالمان ، واضطر ماخنو الى الهرب ، وفضي بعض الوقت يعرب
روسيا حتى وصل الى موسكو في صيف ١٩١٨ ، وكانت في ذلك
الوقت تعج بالوضويين . فكان فيها المعجز ارشينوفا الذي كان
يتابع بعينين حريصتين احداث الثورة التي كان البلاشفة يوجهونها
باعتبة من القدر لا يفهمها ، وكان فيها فولين التنزى الجبار واحده
اعلام فوضوية - «م النظام» - الذي لم تعرف لهيته ولا شعرة
التشيط ، كما كان فيها بارون الطموح وعديم الصبر والرفق
وتعير ويعقوب آي وكراستوكوتسكي وغلازون وتسينتسيبر
وتشيرياك وكثيرون آخرون من عظماء الناس الذين لم يستطعوا
ان ينفذوا الى الثورة ، وقعدوا في موسكو بلا نقود وبجدول اعمال

واحد لاجتماعاتهم اليومية : «وضع التنظيم والشؤون المالية» . . .
وفيما بعد اصبح بعضهم قادة الفوضوية الماخنوية ، والبعض الآخر
مشتريين في الالجار الذي حصل في مقر لجنة موسكو البلشفية في
ضمار ليونيفسكي الجاني .

وليس من شك في ان وصول ماخنو كد اثر في الفوضويين
التراخين في مقاصد موسكو . فقد كان ماخنو رجل عمل ، وصاحب
حزم ايضا . ففكروا بان يسافر ستور ايفانوفيتش الى كييف ،
ويقتل الهيتمان سكوربادسكي وجنرالاته .

وعبر الحدود الاوكرانية في بيلينجين ومعه فوضوي مساعد له
بعد ان راوغ الفوضو الرهيب ساينكو الذي كان يراقب تلك
الطرق بعين عظة . وتزيسا ماخنو بزي ضابط ، الا انه
عدل عن التمصائب الى كييف ، فقد سمع والحصة السهب
الطليقة ، ولم يلب له العمل التامري . فذهب الى نولاي-بولنه
راسا .

في هذه القرية ، سقط راسه ، جمع خسة من الفتيان
الروتوليين . وتزيسوا في وحدة مسلحة بالمسؤولين والسكاكين
والبنادق المقلوحة على مقربة من خيمة صاحب الايمان رزنيكوف .
وفي الليل سطروا على البيت دون كبير شجعة وذهبا صاحب الايمان
مع اخوته الثلاثة العاملين في شرطة المنطقة ، واضرموا النار في
البيت . وحصل في هذه الغارة في سبعة بنادق ومسدس وخبول
واسرعة وبعض بزات الشرطة .

وبعد ان تسلح جيدا وصارت له خيول لم يضيع الوقت واخذ
مع خيسته يسطر على الضياح وبحرفها من جهاتها الاربعة ، وجمع
فضيلة وراح يطلق بجنون من طرف القضاء الى طرفه الاخر منطلقا
ايام من اصحاب الايمان . حتى عمد اخيرا الى قضية استتبر بها
شهرة واسعة .

كان ذلك في عيد الثالوث الاتمس . وكان صاحب الايمان
حزبرودسكي احد سلاطين السهب يزوج ابنته لعقيد الهيتمان .
وقد يوم العرس قدم بعض الجيران الذين لا يخافون ، في مثل هذا
اليوم العسيب ، الجري على الخريق السهبى . وجاء شيفر من
الصحافة ومن كييف .

وكانت ضيعة ميرغورودسكي تحت حراسة قوية من قس
الشرطة . وقد نصبت وشاشة في غلبة البيت . كما ان العريس
لنفسه جاء مصحوبا برجال فوجه الاستدلاء بسرابولهم الزرقاء العريضة
التي يجب ان تمس اولسها الارض على العادة القديمة . ومعانف
من الجوخ القرمزي وطرايش استرخان لها شراب مدهمة تكاد
تصل الى العظام . وكانت السيوف المعكوفة تنقل الى جنبهم جيعا
وتقرب باحدثهم المرفوعة المقعقات من جلد الباعز .

وكانت العروس قد جاءت قبل مدة غير بعيدة من انجلترا ،
حيث اكلت تعلقيسها في مدرسة داخلية للاولاد ، وتحدثت
الاوكرانية بلهجة لا بأس بها . وقد ارتدت الاكمام المطرزة والمعقود
والاشربة والهداء الطويل الأحمر . وكان ابوها قد تسلم من كيبك .
وبناء على توصية خاصة ، روبا مخلصيا مژرنا بالقرء ، وهو صورة
طبق الاصل للروب الذي كان يرتديه الهيتمان مازيبيا في صورته
الشهيرة . لقد كانوا يريدون ان يقيموا زفانا على الطريقة القديمة .
ورغم ان شراب العسل الممتق كان من الصعب الحصول عليه في
اوكرانيا المنتهية فقد كان هناك الكثير منه لمادية عظيمة .

بعد القداس ساروا بالعروس عبر المنتزه الى الكنيسة الحجرية
الجديدة . وكانت اثبيسات العروس اللواتي رافقتهن وايقنن الاباني
في منتهى الجمال . وكانت هي تدور وكانها طالمة من اقلية قوزاقية
حتى قال اشناين العريس ، وهم ينتظرون عند النسيان : « يبدو ان
عود اوكرانيا الطيبة قد عادت اليها . . . » وبعد عقد القران تفرقت
على الزوجين حبوب الشوفان . وباركهما الاب الابان في روبه المازيبى
بايقونة قديمة من ميخيفوربه . وشربوا الشيبانيا . وعتسوا
بالانخاب ، وحلوا الاكواب وركب العروسان في سيارة الى القطار
وبقى الشيوف ياكلون ويشربون .

حبط الليل على فناء الضيعة الواسع ، حيث كان الخسوم
والجنودمة يرتصون الرقصات المعقدة . وكانت واطق البيت كلنا
تناقح يهبهجة . وكانت الفرقة الموسيقية اليهودية التي جيلت من
الكسندروفسك تعزف بكل قوتها . ورتص الاب الابان رقصا
«الهوربا» المجنونة وشرب ماء الصودا . وتضادت اللتيات والسيدات
الطراوة في التوافق المفتوحة . وعاد اشناين العريس - وبصيصهم شهاب

لذرايقون - الى موائد التواشك من الطعام مصلصلين يسويهم
مهددين بالذهاب الى موسكو نفسها وقتل الروس الملايين .

ول ذلك الوقت ظهر بين الضيوف شابط قصير القامة في
برد ترة الهيتمان . ولم تكن اية شراية في ان ياتي شرطي الى
الضيعة في مثل هذا اليوم . دخل متواشعا ، وحيثا بانحناسات
حسنة . ونظر صامتا الى الموسيقين . الا ان بعضهم لاحظ ان البزة
كبيرة عليه بعض الشيء . ثم ان احدى السيدات قالت للاسوي
فجأة في قلق : « من هذا ؟ يبدو مريبا . . . » ورغم ان الضابط
الغريب كان يحاول ان يخفي بصره . الا ان عينيه كانتا تلتفتان
رغم ارادته . كعيني سلطان . . . ولكن ما اكثر ما يتوهم السكران
من اوام . . .

عزف الموسيقيون التانز بعد رقصات المازوركا والفالس .
بدا التان او ثلاثة من ذوى القمصان الحمراء ممن ما يزالون والفين
على اندامهم الرقص مع السيدات . وطلب احدهم اطلاق الاشواء
المبا . وفي التواء الشاب لاحظ التغمات الضعيفة وكانها آتية
من اشواق الستين الخوالي . وتراخي الراصون في حركاتهم وتهاوتوا
معيين عن سهوات الموت .

وعند ذلك الطلقت رصاصة . وجهد حشد الشيوف . وانطلقت
الموسيقى . كان مانتو التمزى بزى ضابط شرطة واقفا وراء
مائدة الطعام عند باب مفتوح الى الصف يطلق الرصاص مسن
سندسين على ذوى القمصان الحمراء . ووقع المقدم الأحمر الضخم
صديق العريس على المائدة ثقيليا ياسطا ذراعيه وقالبا المائدة .
ارسلت النساء صيحات زافقة . حاول آخر ان يستل سيفه .
فعايلته رصاصة وطرحته على وجهه على البساط . . . وهاجم ثلاثة
آخرون ماخو فسقط اثنان منهم في الحال . ودفن الثالث الى المائدة
وصرخ هناك كالارتب . ظهر في الياق المقابل رجلا في بزى شرطة
ايضا شرابان في مظهرضا تبدل ناصبنا من تحت قبعتها .
رقصتا التانز في الضيوف ايضا . وكفت النساء من جهة الى اخرى
وسقطن . ولم يستطع الاب الابان ان ينهض من مقعده فلقم ماخو
فته . واطلق رصاصة في فمه . وصدوت طلقات في الفناء ايضا وفي
العترة حيث تراكس الشيوف الذين قفزوا عن التوافق . واستطاع

القليلون الانتشاء في الأجمات وبين ثبات الأمل في البركة . وذبح
العدم والجندرمسة بالجملة . تم شدة رجال ماخو الخسول على
العربات . وظلوا حتى النجر يعللونها الامتعة والسلاح . وطلعت
الشمس على الضيمة وهي تحترق .

وتركت هذه الغارة الجريئة أترا قويا في غولاي-بوله . وفي ذلك
الوقت كان الفلاسون يرحلون تماما تحت الألمان وتحت اصحاب
الأراضي العديس النعمة . وتحت تبع رجال الشرطة السريعين في
ضمرقاتهم الوحشية . رفض اصحاب الأراضي تابعي الأراضي الى الفلاس
تغير مصدقين بهم . وطلبوا ليس فقط بتحصول الصنف العالي . بل
وبإعادة خسارة العام الفاتت من الحبوب . ولم يبق امام الفلاسين
الا ان يتوحوا على مصيبتهم . وظهر ماخو . واعلمن الأوهساب .
وسرت الضامعات في القرى بان أمانا له ظهر .

تضجع الفلاسون . واضرمت البران في الضياع . وامرقت
أكداس القمح في السهوب . وهجعت فصائل الاضار بجراة على
المراكب . والصدائل المحملة بالحبوب المنقولة الى ألمانيا . وسرت
الفلال الى الضفة اليسرى للدينير . وصدرت الاوامر الى القوات
النسابة والالمانية لوضع حد للظوفى . وانتشرت مئات مسن
فصائل التنكيل في البلاد . وعمدند باذر ماخو بمهاجمة القوات
النسابة فضيلته الصغيرة الحسنة التسليح .

في ذلك المعين لم يكن جيش الألمان ماخو كثير العدد . فان
توانه الدائمة المشاسكة كانت تتألف من مائتين او ثلاثمائة من
الرجال الجسورين . كان من بينهم بحارة من البحر الاسود . وجند
حاربوا في الجبهة . وهم ممن لم يستطع لسبب او لآخر الظهور في
قريته الأصلية . والامانات الصغار المنضوبون تحت لواء مسح
فصائلهم . واتاس لا عوائل لهم يعاربون اظهارا لجسارتهم وصيا
للعبية المرحمة .

وعمدند انضم الى الجيش فوضيون فرادي هم من يسون
«الحاربين» الذين سمعوا بصدايات جديدة تنتقل حرة على خيرها .
جاء الفوضيون الى مقر ماخو على الاقدام مهلهل الشيايب جياعا في
أحد جيوبهم قنبلية . وفي الحجب الأخير مجاهد كروبوكتكين .
وقالوا للألمان :

— سمعنا انك شخصية عسكرية . فلننظر ا

اجاب الألمان :

— انظروا .

فقالوا :

— اذا كنت كذلك حقا . فأنك ستصنع صفحات من التاريخ
العالمى . الشيطان يعرف . فقد تكون فجاة كروبوكتكين التالي .

اجاب الألمان :

— جاز .

ولقد الفوضيون يتبعون الألمان في طابوره . ويحسون معه
الكفول . ويقولون له كلمات مدحسة كان يتسحقها كثيرا . حول
التاريخ والمجد . وشيئا فشيئا بما بعضهم يصعد الى المناصب
النسابة والقيادية . وصار لكل واحد منهم عربته من الاسلاب
المتعددة في المعارك : صندوق كونياك . وريحيل صغير مسن
الذهب . وركبية مسن الملابس . وكان من بين هؤلاء الأقراد
شالسسون . مكوروفيلوف . يوغولوبوف . تشيريديساك .
المارتس . فرانتسوز . وكثيرون غيرهم . وخلال فترات القعود
الطويلة كانوا يجعون حولهم مجاميع كاملة من الفتيات المنطقات .
وينطقون ليلالي اثنيية مژكين للامتحان ان هذه الطريقة في معالجة
العصبة الجنسية تمتق الحياة . اما السيفلسن فانه محض هراء . ما
بامت الحرية المطلقة محقة . وسمى ماخو فوضيويه بالثعابين
الراضة . وهددهم اكثر من مرة بالاعدام وهيا بالرصاص . ولكنه
معلمهم كرجال قرأوا الكتب ويعرفون جيدا ما هو المجد العالمى .
لم يكن للجيش مقر قيادة دائم . وكان يتنقل حسب الضرورة من
طرف المحافظة الى طرفها الآخر على القبول والمريات . قبل قيام
ماخو بزيارة او معركة كان يرسل الرسل الى القرى . ويلقى هو
في مكان مزحم خطايا لاهيا . ويعدده كان فتيانه بلقون القماش من
المريات على الحشدين . وفي يوم واحد كان يضم الى لواء جيشه
أصارغلاسون . وحين كانت المعركة تنتهي كان المتطوعون يعودون
بالسرعة نفسها الى قرأص . ويلقون الاسلحة . وحين كانت المدفعية
الالمانية ترم بهم بحثا عن العدو كانوا يقفون امام يوابات بيوتهم .
وكأهم لم يفعلوا شيئا . هارتين اجسامهم بكسل . كانت الفصائل

الالمانية والنسائية وهي تبحت عن ماخو لا تجد شيئا دائما ، بينما كان هذا الشيطان الوجود في كل مكان دائما في مؤخرتهم ، كان الانصار كالرجل القدامى لا يشتركون في اية معركة حاسمة ، بل ينتشرون على خيولهم ومرتباتهم زائعتين صافرتين مطلقين الرصاص ، ويجمعون في مكان لم يتوقعوا فيه ، ويهجمون فجأة .

خلت القرية ، خرج ماخو في اثر الجيش على غربة تجرها ثلاثة خيول ومدرسة ببساط . كان الوقت ظهرا ، كانت فتاة يديسة تسوها اليكاف ، في تنورة معزومة الى فوق تكس البيت بمكنسة من الالستين . وكان صاحب البيت جالسا قرب نافذة مفتوحة ينظر الى التلال التي اتجه نحوها المشاة والفرسان . وحيث يدور حولها طائرتين بودامة ، وزفر زفرة ثقيلة ، فان الحديث مع ماخو قيل قليل لم يدخل الهدوء الى نفسه .

ذهبت كاتيا الى البئر ، واغتسلت ، ورتبت هندامها . دعاهما صاحب البيت الى الطور ، فاكلت فطيرتين وشربت بعض العليب . وجلست عند النافذة الاخرى ، وهي لا تعرف الآن ماذا تفعل وماذا تنتظر . كان الجو حارا جدا . وفي الشارع دجاج كثير يطوف بين الروت الطازج . وفي الحدائق امام البيوت كانت تتساقط زهور عماد الشمس الذهبية ، وتضج نثار الكرز . والبواشق تحوم فوق القرية . تلحح صاحب البيت ، وتهدد . وقال للفتاة الباكية :
- كان من الافضل ان ترغمي التنورة اعلى . ليست مضربة في اظهم مسوك . . . لست الاولى .

اجهضت الفتاة ، والفلت المكنسة ، وانزلت تنورتها على سابقها البيضاءين الممثلتين . نظر صاحب البيت الى المكنسة بعض الوقت .

- من هو ؟ قوي ، ولا تخافي . يا الكسندرا . . .
- لا اعرف صبا اسم هذا اللعين . . . ليس من ابناء قريتنا . . . يلبس نظارة . . .

امرغ صاحب البيت يقول وكأنه قد فرح :
- ها ا يلبس نظارة . . . انه احدهم ، فوضوي . - والتفت الى كاتيا - انها ابنة اخي الكسندرا . . . ارسلتها الى الهري لتجلب

اللس . . . اعرفين اين يقع الهري ؟ وعادت في الصباح وتياهاها مزينة . النعمة . . .

- كان سكران ، وهددني بالمسسى . فصادا في امكاني ان اعمل ؟
قالت الكسندرا مولولة . ضرب صاحب البيت الارض بقدمه العافية مهددا :

- انرجي من هنا ، اما لسي لا اعرف حل سابقى على قيد الحياة او لا .

خرجت الفتاة راكضة . عاد الى النحنة من جديد مجددا في التلال .

- ما العمل ؟ وهل نحن سعداء في اطعام هؤلاء الصيوض ؟
تلطم الخيول لعراياهم . ومع يسوقونها بسرعة ثمانين فرسها . هؤلاء الشياطين . والعصان ليس سيارة ، ويجب الاعتناء به . ان ماشيتنا كلها الآن مصاية . . . الحرب . . .

اعتزت زباجة الضياع المعلق فوق المنضدة ، ورن زجاج النوافذ ولينا خافتا . وكان الهواء الحار قد تنهد . وسرى في الارض خيزر بعيد . هد صاحب البيت نصف جسمه من النافذة بحركة حية ، وحدق بلويسلا في التلال ، حيث لاح فارس وجيسد بالقرب من الشاؤونتين . ثم جمع اصابعه ، ورسم علامة الصليب امام الصورة الموضوعة في زاوية .

قال :
- المدفعية الالمانية تضرب جماعتنا - ثم هزمت تحت قميصه للعازل اللون وقال - زمان ؟

ودفع المكنسة ، والفاها في زاوية ، وخرج الى الفتاة جامعها اصابع فذعه العافيتين . وعاد الهدير يسرى فوق القرية . لم تستلح كاتيا ان تطيل البقاء في البيت اكثر . وخرجت الى الظهيرة القاضية العرومة بالروت .

وات جمعا مضطربا من مسافري الامس يسير في الشارع . سار في السدعة معلم الفيزياء اوبروتشيف ناظرا من فوق نظارته الانفية . كان يدس مظارا مطاطيا وكالوشا . ويدو ريكسا وموضع تقه .
عطف بكاتيا :

اقتربت - كان المسافرون في مظهر مهروس ، وقد تحلت وجوههم - انتفعت عيون الروائيين الكهلتيين من ذرف الدموع - ولم يكن بينهم المشارب الذي فتح ملابسه .

قال اوبروتشيف بصوت مرج :

- اختلفي احد اصحابنا دون اثر ، والظاهر انه قد اعلم زهيا ، وجميعنا ينتظرنا نفس المصعب ، يا سادة ، اذا لم تكن لدينا الحرية الكافية . يجب ان نقرر على الفور ؛ هل سننتظر نتيجة المعركة ، ام ننتهي فحصة عدم حراستنا من قبل احد ، على ما يبدو ، ونحاول ان نصل مشيا الى السكة الحديدية . . . انا احد لكل متكلم دليقة واهمة .

عندئذ تحدث الجميع دفعة واحدة - اشار البعض الى ان قطع الطريق اذا لحقوا بهم في السهب فسيقتضون عليهم بدون شك ، وقال آخرون ان في الهروب نصيبا من الخلاص على اية حال - اما الفريق الثالث الذي كان واثقا من انتصار الامان فقد امر على انتظار نتيجة المعركة ، وحين تعالي الهدير وراء التلال من جديد صمت الجميع ، وتقصوا عيونهم متاملين وحدثوا الى حيث لم يكن يرى غير ابيحة الطاوئنتين تتحرك بوني ، التي اوبروتشيف غلبه حكمة سرد فيها كل التناقضات ووجهات النظر - حدث السيدتان في همة ، وكانه واعظ - ولم يستقر المسافرون على رأي فظنوا واقفين في الشارع المقفر بين الدجاج والمصافير ، حيث لا احد يفكر في ان يشفق على روسي من ابناء نوعيته . . . لا ابسدا ! ها هي امسرات حاسر الرأس اطلت من نافذة ، وتسابعت ، واتساحت برأسها . خرج فلاح يلا حزام في مظهر غاضب من وراء بيت ، ونظر من خلاهم والتفت قطعة من طين ، ورمى بها خنزيرا لاحد الجيران بكل قوته - وصامت فوق القرية بولتسكي بلا اكرتات ناطرة الى ايشاء المدن المنهوبين الذين لا يهتم بهم احد هنا .

ارتفعت سحابة من الغبار من وراء التل ، اندفع فارس من الطاوئنتين ، واختلفي ، اقترح احد المسافرين العودة الى ادارة القرية ، حيث تقسم الجميع ليلتهم هناك ، سارت السيدتان اولاً - وحين ظهرت عربات «الترويكسا» من وراء التلال متلفسة بالقي

سرعتها انصرف الآخرون ايضا - بقيت كاتيا ومعلم الفيزياء في الشارع ، وقد صلب العنق بيديه تحت الشمع بحزم .

كانت العربات اربعة او خمسا ، دارت حول الحيرة ، ووصلت الى القرية - كانت تحمل الجرحى - توقفت الاولى عند نوافذ بيت جناح سائق الخيول وهو رجل قصم من الانفصال في سيرة جلدية غير مزودة :

- تازجدا ، جلبوا رجلك .

خرجت امرأة من البيت واكفة خالعة متزرها فلها واجهت بصوت واطى ، واثقت نفسها على العربية : نزل من العربية رجل صاحب الى حد الاخضرار ، وامسك برقبة الزوجة والتي راسه الى الاسفل ، وسار نحو البيت يغطي روخة منحنى الجذع - انتقلت العربية الى بيت آخر ، حيث خرجت ثلاث نقيات في ثياب ملونة .

صاح السائق بهن مرحا :

- ختن صاحبك ، يا حمامات - جرحه طفيف .

وبعد ذلك استدار بالعربة بحركة بطيئة وهو يفكر ابن سينفل الجريح الآخر - كان ميشكا سولومين يجلس في العربية مقلصا عينيه ، وقد تشد راسه بحركة من تسيص مفعاة واستانه حسوككة ، ووجهاء اوقد السائق الخيول :

- اوه ، يا روس . . . يكارتينا دعيتريفلنا ؟ . . .

ولم تكن كاتيا تتوقع ذلك البتة - ضاقت انفاسها من القلق ، وخرجت الى العربية - كان الكسي كراسيلنيكوف يقف عليها فارجا ساديه عريضا مستندا احدى يديه على جنبه مستسكا العنان بالآخري - كانت لعينه تتلوى على خدبه ، وعيناه الوضيثتان تنظران بمرح - وقد تشد على وسطه قنابل يدوية ، وشريط رشاشة فوق سترته الجلدية ، ووزراء كتليه يتدفقة فرسان .

- كيف جئت الينا ، يا يكارتينا دعيتريفلنا ؟ في اي بيت تقسمين ؟ في هذا ؟ عند ميتروفان ؟ انه ابن عم لي ، من عائلة كراسيلنيكوف ايضا - انظري الى ميشكا - مسكين ، شجعت نصف رأسه تسفة شراينيل . . .

سارت كاتيا الى جانب العربية - كان الكسي ما يزال معتدا لملأ بالمعركة - لمع عيناه واستانه وابستامته .

- مرثنا الالمان تمزيقا . . . الحتمى . . . القوا انفسهم على
رشاشاتنا ثلاث مرات . وهم الآن منطربون في الحقل كله . . .
الآن صار للامان من الملابس ما يلبس به الجيش كله . . .
قف . . . ميتروفان ! . . . اخرج من مفارئك . واستقبل البطل
الجريح . . . اما انت ، يا يكانرينا ميترييلنا فلا تغادري هذا البيت
الحالة فلقة عندنا . . .

صدر من برج الجرس وتبين دقيقق بهيسج . انفتحت ابواب
الحدائق في القرية كلها . ووقعت الصفافات وركضت النساء في
الضوارع ، وخرج الرجسال العذرون . وطلسج عدد كبير من
النساء من حيث لا يدرى احد . وسارواو مغنين متحدثين الى الدروب
لنقاء جيش ماخر المتنصر .

جلب الكسى كرامسليتكوف ، وكاتيا معه ، ميشكا شبه الميت
الى قناه ميتروفان ، وارادته في الطليقة على سرير الكسندرا . راحت
كاتيا تبذل ضماحه . لزعمت بصعوبة من شعره الخرقه التي جمده عليها
الدم . لم يبد من ميشكا غير صريف الاسنان . وعندما بدأت كاتيا
تغسل الجرح الرهيب في الجهة اليمنى من الجمجمة . تاوهت الكسندرا
التي كانت تمسك بالحوض ، وترتعت ، امسك الكسى بالحوض ،
ودفعها . وقال لكاتيا :

- انظري ، هناك فلقة عظم لائسه . الكسندرا ، اجلسي
كمشاة السكر .

- غير موجودة . انكسرت .
امسكت كاتيا باظفارها فلقة العظم التي كانت نائحه في الجرح .
وسحبها . صرخ ميشكا . لقد كانت فلقة بالتأكيد . وكانت اظفارها
تنزلق لتفتد اعمت ، وتخرجهما .

زفر الكسى زفرة صاخبة وضحك قائلا :
- هكذا نقاتل ، على طريقة الفلاحين ا . . .
شدت رأس ميشكا بقماشة لطيفة . فرقدت تحت فروة خروف
مبلا مرتجا ارتجافا شديدا ، وفتح عينيه . انحنى الكسى عليه :
- كيف الحال ؟ هل ستكون على قيد الحياة ؟
قال ميشكا ميتسما ابتسامه ميتة :

- يوم امس تبجعت امامها ، وهذه نتيجة التبعج .

ونظر الى كاتيا . كانت تمسح يدها . لقدعت ايضاً والحث
عنيه . حرك ميشكا شفطيه :

- احرص عليها ، يا اليوشما .

- اعرف ما اعرف .

- فكرت بان ارتكب عملا سيئا نخرها . . . يجب نقلها
الى المدينة .

ومرة اخرى ثبت في كاتيا بصره المجنون تقريبا . كان يقاوم
الامم ووجه الحصى وكانها شيء تافه . مجرد حراء ، ومضايقة . فان
مصانقة الموت شنتت فيه جميع زوايج الانفعالات والتناقضات .
وقد احسن في تلك اللحظة بانسه ليس الفقى السكير الشوير ، بل
روحاً روسية كاطائر يصعد اناء العاصفة وانه في الاعمال البطولية
لا يقل صلاحا عنن الاخرين ، وانه قادر على الاتيان بالاعمال
الرفيعة . . .

قال الكسى بملوت :

- الآن دعيه ينام . لا بأس ، انه فنى متدفق العيوبسة .

سينام رشطى .

خرجت كاتيا مع الكسى الى الفضاء . ما تزال وكأنها في حلم
بفلة حريب تحت سماه لا حدود لها في هذا السهب العار حيث يلوح
بخطان البروث الجاف القديم . حيث كان رجل يعد ورقة طويلة
ينطلق على فرسه مكثرا استانه للمريح الطليقة . والسيورات تطلقا
كما يطلق الطما بقدر متروح .

ولم تشعر بخوف . ان مصيبتها المطبورة في اعناق الناس
لا حاجة بها لأحد . وحتى لنفسها في هذه الاحوال . كانت على استعداد
الى التضحية ، الى القيام بمأتره دون اى تردد . ولو دعيت للموت
لتنهذت كتهيدة ووقعت عينين صافيتين الى السماء . قالت :

- فاديم بتروفيتش قشيل . ولن اعود الى موسكو ، لاذ ليس
لي احد هناك . . . ولا شيء . . . لا امسرق ماذا جبرى لاشي . . .
لست انتى اسافر الى مكان ما ، ربما الى يكانرينوسلاف . . .
اخرج الكسى سابقه ، ونظر الى الارض ، وهز رأسه :

* سيقه دليل لاسم الكسى . . . المخرجه .

- من المؤسف ان يقتل فاديم بتروفيتش . فقد كان رجلا طيبا . . .

- نعم ، نعم - قالت كاتيا والمرورقت عينها بالدموع . - كان انسانا طيبا جدا .

- لم تستمعنا كلامي آنذاك . بالطبع نحن نكافح من اجل هدفنا وانتم من اجل هدفكم . ولا حاجة الى التكرار في هذه المسألة . ولكن هل من الممكن ان يحارب المرء ضد الشعب ا ليس من المعقول ان نستسلم . . . هل رايت الفلاحين اليوم ؟ ومع ذلك كان فاديم بتروفيتش منصفا على اية حال . . .

قالت كاتيا . وهي تنظر الى غصن شجرة كرز متفل متدل من وراء السياج :

- انصحني ماذا افعل . يا الكسي ايليانوفيتش . انه يجب ان اعيش . . . - قالت وأصمت برعب فقد ضاعت كلماتها في غوا . ولم يجب الكسي رأسا :

- ماذا تفعلين ؟ سؤال من اسئلة السادة . وكيف ذلك ؟ انت امرأة مثقفة تعرفين لغات اجنبية ، وجديلة ، وتسالين فلاحا : «ماذا افعل ؟»

واكسى وجهه تعبير الازدراء . وطلق بالفتايل المعلقة في حزامه حلقة خافتة . انكسرت كاتيا . قال الكسي :

- ستجدين عمالا في المدينة . ريمسا . ريمسا في حانة تفدين وترقصين وربيا كومون . وربيا في مكتب تطهين على الآلة الكاتبة . لن تنضمي .

خطفت كاتيا رأسها ، وأصمت بأنه ينظر اليها . ومن نظرتة تلك لم تستطع ان ترفع رأسها ، وقد ادركت فجأة . كما حسى الحال مع ميشكا ، لماذا كان الكسي يبت بصرة فوق رأسها بهذه العجوبة . لا وقت الآن للصفح والشفقة . ان لم تكن منهم فهو عدو . انما سألت كيف عليها ان تعيش . اقلت هذا السؤال على محارب ما زال ملتجها بالفروسية ، بازي الرصاص . يسكسرة التعر . . . كيف عليها ان تعيش ؟ وبدا هذا السؤال غريبا لها الآن . فلما سألتها مع من وفى سبيل اية حقيقة ينطلق على هذه العربة في السهب لرات الطبية تلعب في عينيها . . .

ادركت كاتيا ذلك . ولجأت الى المكز مثل حيوان صغير . لقد حاولت لأول مرة في هذا اليوم ان تدافع عن نفسها :

- لقد أصابت فمسي . يا الكسي ايليانوفيتش . ليس ذنبي ان تتأذني الأرض كالورقة اليابسة . ماذا علي ان احبه ؟ وهم اعترى ؟ لم يعلموني ذلك . فلا تسألني . هل مني اولا . (كلم عن المطلقة بالفتايل . ومعنى ذلك انه ازعج المسجع .) ذهب فاديم بتروفيتش الى الجيش الابيض خلاف ارادتي . لم ازد ان يغسل ذلك . وقد عاتبني لأن لمسى لا تلمس بغضا . . . اتا ارى كل شيء . وانهم كل شيء . يا الكسي ايليانوفيتش . ولكنني في العيش . . . هذا شيء فطري . وفي ذلك يكمن عذابي كله . . . ولهذا سألتك ماذا افعل وكيف اعيش . . .

صمتت برهة . ثم حدثت في عيني الكسي ايليانوفيتش تحديفة سلبية ضافية . فرمش . ولاح على وجهه بعض المسحافة والعبرة . وكانها قد احتيل عليه . وقع يده الى علباله . وحك .

قال مضطنا انه :

- هذه مسألة . انت على حق . المسألة سهلة بالنسبة لنا . اشرفقت الساليا في فناء بيتي ، فأحرقنا البيت وخرجنا نحن . الى أين ؟ الى الامان . اما انت ، المثقفة . . . فحقا . . .

وتجح مكر كاتيا ، وعزم الكسي ايليانوفيتش . في الظاهر ان يحل المسألة العينية في هذه اللحظة . في سبيل اية حقيقة تناضل امرأة مثل كاتيا لا ارض لها ولا فرس .

لقد كان مضطعا للوقت الوقوف عند السياج تحت شجرة الكرز التي كانت تنظر اليها كاتيا . لقد كانت تود لو تلمسح حنين سوداوين لتعلقهما قرطا . ولكنهما استمرت واقفة بهدوء امام كراسينيكوف ، الا ان بعضيات الكاتبة كانت تومض في عينيها الراضعتين وقد اضاءتهما السناء .

قال الكسي ايليانوفيتش مقويا تأثير كلماته بايماء حاسم : - اذا كنا نحن الفلاحين نطمح . يا ابناء المدن فان الواجب ان نفعلوا الى جانبنا . نحن الفلاحين ضد الامم . ضد البيض . ضد الشيوعيين . ولكننا في سبيل سوفيات الريف الحرة . مفهوم ؟

مزت رأسها ، فتأبى كلامه . أمسا عن قوفت على أطراف أصابعها ، ورفعت ذراعها اليسرى ، لأن كنها الأيمن مشقوق تحت الأبط ، وقطعت حبتين من الكرز . وضعت واحدة في فمها . واخذت تدير الأخرى من عودها . قالت وقد لفظت التوتة :

- لو كنت ثروية لكان كل شيء واضحا لي . كم مرة صنعت الوطن . وروسيا . والشعب . ولكنني لأول مرة أرى ما تعنى هذه الكلمات . واكثرت الحبة الأخرى نظارة ال الكسي ايفانوفيتش ، وال لحيته التي لاحت في النور ذهبية ، والي السترة الجلدية المفتوحة ، وال رجلية القويتين ، وتسلمه الخفيف . قال وهو يزداد ارتباكاً : - الشعب ، الشعب . أعجوبة صغيرة . بالطبع . . . ولكننا لن نتحل عما يخصنا . - وامسك بقوة بالخابور الطالع من السياج وجره ليتأكد من ثباته . - متعارب بقسوة ولو في العالم كله . . . ليتك تسمعين ما يقوله فوضيون . لا ما اقله أنا . انهم اساتذة في فن الكلام . . . فلف . . . (وتحرك حاجباه ، ومرر عينيه على كاتيا بنظرة فاحصة) ولكن الضئيلة : انهم فساق وسكبيرون دون تحفظ . . . اظن من الخير ألا تدعى عيونهم تقع عليك . . .

- لا أهمية لذلك . - قالت كاتيا .

- كيف لا أهمية لذلك ؟

- اقصد لست صغيرة . ولا اسبح لأحد بأن يستنى .

- انت تصدقين جيدا . . .

ارتجف حنك كاتيا ، وإبتسخت ، ورفعت جسمها الى لفصن الكرز ثانية . واحسّت بال حرارة الشمس تنفذ الى جسمها وتلمعه . وكان ذلك حلم يقظة . قالت :

- على أية حال ماذا تظن ان في وسعي ان افعل عندكم ، يا الكسي ايفانوفيتش ؟

- في حقل التلويس . . . لدي الاتمان يتكوّن لسم سياسي . . . ويقولون يريد ان يصغر جزيرة .

- وانت ؟

- أنا ؟ . . . (وامسك بالخابور مرة أخرى ، وهز السياج)

أنا معارب بسيط . سائق عربة رشاشة . ومكان في القتال .

وانت ، يا يكاترينا صغيرتي ، التي نظرة في البداية ، ولا تتخذي ذراوا رأساً . أنا ساعرفك بزوجة اخي ماتريونا . يعني لظمك الى بالملتنا . . .

- ولكن الاتمان ماخو طلب الى ان آتى مساء لانظف اطافره .

- غافرة ؟ - وامسك الكسي في الحال حزامه بكتنا يديه تحت السترة الجلدية . بل وان الله قد تدب . - اطافره ؟ - وبماذا اجبت ؟

قالت كاتيا هادئة :

- اجبته بانتي اسيرة .

- حسنا ، سيرسسل في طلبك - اذهبي . ولكنني ساكون هناك . . .

في تلك اللحظة هبطت الكستورا السمينة من مدخل البيت ، وغرورها بهتت . صاحت وانطلقت لتفتح الباب :

- انهم قادمون ، قادمون !

كانت «عورا» تسمع من بعيد مع طلقات منفرقة . ووقع حواقر نيران . لقد عاد الاتمان مع الجيش . خرج الكسي وكاتيا الى الشارع . ارتفعت معابة الخياري فوق النوب . كان الفرسان والعربات تطلق على الاكمام مروراً بالطاحوتين .

دخلت مقدمة الجيش القرية . واماط السيبان بها وتراكضت الفتيات . كانت بطون الخيول العرقة المزينة الاشدائق تعلسو وتهبط . وقف رجال ماخو على العربات مغربين عرقين وطافياهم حائلة الى الورا .

جاء ماخو عن عربة عليها سباط فارسي تتطاير حوافيه . كان يجلس على صندوق ذخيرة مترنعا مسكاً بقبعته الفرائية قرب فخذيه . وقد جمه وجهه والشاحب متوتراً ، وشفتاه الجافسان المشققتان مزومتان .

وفي العربة الثانية وراءه ركب ستة اشخاص في هيئة مدنية - يرتدون سترات وقبعات ناعمة وطاقيات قشبية لقد ارسلوا جميعا شعورهم ولحاهم ، ووضعوها للثافات على عيونهم . انهم الفوضيون من هيئة الاركان والقسم السياسي ،

عاشت داشا تليفينا خمسة اشهر وحيدة في غرف خالية . حين خرج ايدان ايليتس الى الجبهة ترك لها القه ودبيل ، الا ان هذه النقود لم تكن وقتها طويلا . ومن حسن الحظ ان اجتيا حادقا يدعى مانه كند نزل في شقة تحت شقتنا كان يقم فيها موقن كبير من بطرسبورغ حارب مع عائلته في كانون الثاني . وكان هذا الاجنبي يشتري اللحوات والاثاث واى شيء كان .

باعت داشا له السرير العريض لشخصية ، وبعض المحفورات . والعلبات الصينية . وتخلت بلا مبالاة عن الاشياء التي كانت تتبع بالرثاعة القديمة والذكريات الماضية . لقد انتهى كل شيء من الماضي .

وقضت الربيع وال الصيف على النقود التي تسلمتها من بيع الانبياء . غدت المدينة . كانت الجبهة تبعا وراء نهر سيسترا على بعد ساعة ركوبا بواسطة نقل من بطرسبورغ . انتقلت الحكومة الى موسكو . وكانت التصور تطل على نهر النيفا بنواهلها المعطلة الفارغة . ولم تكن الشوارع مضاءة . ولم تكن لرجال الميليشيا رغبة كبيرة في الحفاظ على دعة البرجوازيين وهم الى ذوال على اية حال . وفي الاماس كان يظهر في الشوارع اناس وهميون لم يكن لهم وجود من قبل . كانوا يتطلعون في النوافذ ويشعرون في السلام المطلقة محاولين تدوير قبضة الايواب ، والعباد بالله لو نحل بعض الناس ، ولم يلقها بعشرات الزلايج والسلاسل . فقد كانت تسع خشنة ، ويدخل الشقة مجهولون قائلين : «ارفضوا ايديكم » ويجلسون على الساكنين ، ويربطونهم بالاسلاك الكهربائية ، ثم يشدون العنينة بصر غير متعجلين .

وظهرت التوكليا في المدينة . وحين فضحت الاعتاب عجم الرعب . تساقط الناس في الشوارع والاسواق يتلون من الامم وجرى التماس في كل مكان . وتوقع الناس بلا شديدا . وقاروا ان رجال الجيش الاحمر يضعون النجوم الخماسية معكوسة على ثيابهم - وتلك علامة المسيح المنجاة - وزعموا ان «الرجل الابيض» صار يظهر في الكنيسة الصغيرة المظلمة على جسر الضابط سميت

وهذا يعني ان المصائب متوقعة من البحر . ومن الجسمور كان الناس يشيرون الى مدائن الصالحات الخاملة التي كانت تبسو في الشفق القرمزي مثل «اصابع الشيطان» .

والملفت المعامل . واتقسم العمال الى فرق الثورين . او ذهبوا الى الريف . وطلع العصب بين بلاطات الشوارع .

ولم تكن داشا تخرج من البيت كل يوم ، واذا خرجت ففي الصباح الى السوق حيث طلبت الخضاربات الفلندديات الوضعات هل البود . الواحد من البطاطس يتطوقين . وكان غالبا ما ياتي رجال الخرس الاحمر الى اللوق . ويفرقون بقايا النظام البرجوازي باطلاق النار في الهواد : الفلندديات مسح بطاطسين ، والسيدات صرهن من ثياب الرجال وستائر النوافذ . وصرار النصول على الطعام يزداد صعوبة من يوم الى يوم . واحيانا كان يسعها مانه هذا بان يبادلها العلبات والسكر بالاشياء العتيقة الثمينة .

كانت داشا تحاول ان تقلل من طعامها لتقلل من اتعاها . كانت تستيقظ في ساعة مبكرة . وتخبث شيئا اذا وجدت خبيطا ، او تتناول كتابا مطبوعا في عام ١٩١٤ او ١٩١٥ ، وتقرأ لسجد الا تصح عقلا يفكر . ولكنها كانت تفكر في اكثر الاوقات وهي جالسة الى النافذة . او بالاحرى كان فكرها يحوم حول قطسة داكنة . سورتها النفسية قبل مدة ، ياسها ، جنيتها ، فكان كل شيء قد تكور الآن في هذه الكتلة الغريبة في عقلا . عقابيل مرض . وقد نعلت لحولا شديدا حين اصيبت كفتاة في السادسة عشرة . انها قد اصحت وكتاها انقلبت الى فتاة ، ولكن بلا لب الفتاة .

وكان الصيف يتلقى . وانتهت المياني البيضاء . وامس الغروب وراء كروتستادت اكثر كاية . ومن النافذة المتوحشة في الطابق الخامس كانت تتداح الى مسافة بعيدة الشوارع الآخذة بالانقار عند هبوط المساء ، ونوافذ البيوت المظلمة . ولم تكن الاضواء تثار . وانيرا ما تسمع خطوات عابر مسيل .

وكانت داشا تفكر : ماذا سيكون بعد الآن ؟ متى ينتهي هذا الضود ؟ عن قريب سيأتي الخريف والامطار . وتعمل الربيع

* يوم يساوي ١٩٢٨ كيلوغراما - المعترجم

الباردة فوق السلوح من جديد ، ولا يوجد حطب . والمعظم
الفرانسي قد بيع . ربما يعود ايفان ايليتش . . . ولكن الوعدة
تأتي من جديد ، ذبالات المصباح المحترقة ، العيادة التي لا فائسة
منها .

ليتها تجد القوة ، وتحطم الجمود ، وتخرج من هذا البيت
الذي تدفن فيه حبة ، وتفادى هذه المدينة المخشرة . . . فنداد
لا بد أن يحصل شيء جديد في الحياة . . . ولأول مرة في هذه
السنة فكرت داشا «الجديدة» وجدت نفسها تفكر بذلك ،
واضطربت واهتفت ، وكانها عماد يلوح من خلال ستار الجرح
القائظ التي الرخابة البراقة ، لذلك الذي دأب آماليها في تلك
الباخرة عن الفولغا .

ثم جاءت أيام الأسي على ايفان ايليتش ، بدأت تصفق عليه
بطريقة جديدة ، اشتاق الأخت . وتذكرت بأشرف همومة الصابرة ،
وطيبة قلبه التي لا تضايق احدا على أية حال .

عشرت داشا في خزنة الكتب على ثلاثة مجلدات بيضاء تضم
اشعار بيسولوف . انها ذكرى حذفت كليا . وقرأتها قبيل النساء
في السكون . حين كانت الغطاطيف تنطير حول النافذة كأنهطوط
السوداء ، ووجدت في الاشعار كلمات عن اسناعات ، عن وحدتها ،
عن الريح القاسية التي تستصفر فوق قبرها . . . ولحزنت داشا في
اقلعها ، وبكت . وفي الصباح اخرجت من الصندوق بين النفتالين
التوب التي خالطته لزغاتها ، وبدأت تعيد غطاطيفه . وكانت
الغطاطيف تغليز ، كما في الامس ، والشمس شاحبة الضوء . وفي
السكون ترامت من بعيد ضربات نافذة ، واحيانا هيدة ، وكان
شيئا تقريبا يسقط على الرصيف ، لعل بيتنا حصبيا يحطم في شارع
جاني .

اخذت داشا تغيب على مهل . وكان الكشتيان يخرج مرارا من
اصبعها الناحلة وكان يسقط ذات مرة من فوق النافذة . وتذكرت
يوم جلست مع هذا الكشتيان على الصندوق في رواق شقة اخنأ ،
وهي تأكل المعوي بالخبز . كان ذلك في عام ١٩١٤ . وكانت كاتيا
قد تخاصمت مع زوجها . وقد تهيات للمفسر الى باريس . كانت
تردى قبعة صغيرة فيها ريشة صغيرة رقيقة . وبينما كانت

عند الشباب التفتت ووات داشا قاعمة على الصندوق ، فسلات ؟
«داشيتكا ، تعال معي . . .» ولكن داشا لم تسافر . اما الآن . . .
فلو تنتقل الى باريس . كانت داشا تعرفها من رسائل كاتيا :
زرقاء حزينة عاطرة كعديعة مملور . . . راحت تغيب وتسته من
الأطفال . ان تسافر ! . . يقولون ان القطارات معدومة ، ولا يسمح
بالسفر الى الخارج . . . ودت لو تدعب مشيا ، تسير والعقبة
على ظهرها عبر الغابات والجيال والحقول والانهار الزرقاء المياه ،
منتقلة من بلد الى آخر وحس المدينة الزائفة الايقية . . .

وتساقطت الدموع من عينها . اية حلاقة ، اية حلاقة ا
الحرب تجرى في كل مكان . والامان يطلقون النار على باريس من
مدفع هائل . مجرد احلام ا امن العدل الا لتتاح للانسان حياة هادئة
مفرحة . . . «ماذا فعلت لهم ؟ . . . وقع الكشتيان تحت الكرسي .
ولمعت الشمس من شكل الممسوح ، وانطلقت الغطاطيف بصفير
فارغ . ما يسم هؤلاء بشيء ، فقط ان يتوفر ذباب وبعوض . . .
«ولكنني سأسافر على أية حال» - قالت لنفسها وهي جامحة . . .
ثم ترددت طرقات متقطعة ملحامة على الشباب في الرواق .
ولمعت داشا ابرتها والمقص على افريز النافذة ، وسبعت عينها
بلغة غطاطيفها . والفتها عن المقعد ، وذهبت لتسالم من الطارق . . .

- هل داريا صبرتيشنا لتبقيتنا تعيش هنا ؟ . . .

ويدلا من ان تعجب انعتت على فتحة المفتاح . ومن الجانب
الأخر التحن شخص على حدة الفتحة ايضا ، وقال صوت حسيلا :
«لها رسالة من روستوف . . .» اسرعت داشا لفتح الباب - دخل
رجل غريب في معطف جندي مدعوك ، وبقعة مشقوقة ، خافت داشا ،
وتراجعت ، وسدت يديها . قال الرجل بعجالة :

- بحق الرب ، يا داريا دميترييفنا ، ألم تعرفيني ؟ . . .

- لا ، لا ، لا . . .

- كوليبتشيك ، نيكاتور يوريفيتش . . . مساعد السحامي .

هل تذكرين سيستوروتسك ؟

الزوت داشا يديها ، وعقدت في وجهه التحيل المديب الألف
الذي لم يخلق منذ زمن . كانت الفضون عند العينين المشتهتين

البريعة التي تم من عادة الحذر . والقلم الغريب الشكل عن التصيم
والقسوة . كان يشبه وحشا صغيرا يتوجس خطرا .

- لمن المعقول انك نسيت ، يا داريا عميتريفيشا . . . كنت
انذاك مساعدا العروم نيقولاى ايلمانوفيتش سموكوفنيكوف زوج
اختك . . . كنت مغرما بك ، وقد صدقتنى صدا قويا . . . هل
تذكرين ؟ - واتسم فجأة بسمة متسفة ، بسمة «ما قبل الحرب»
ببساطة قلب . واذا بداشنا تذكر كل شيء : «الشاطى» الرمى
المتبسطن ، والغيش الشسى فوق الخليج الداقي النحاسى ،
وتذكرت نفسها «الشائكة» والعقمة الصبوسية على الفستان ،
وكوليتشيك العائيق ، التي كانت تزويجه من كل عفاها
المتشامخ . . . ورائحة اشجار الصنوبر العالية التي كانت تحل
ليل نهار بظلمة على الكتبان الرملية . . .

قالت داشا بصوت مرتجف :
- لشد ما تغيرت .

وهدت يدها له . امسكها كولييتشيك بخفة وقبلها . كان
يبدو . رغم المعطف العسكري القدر . انه كان يخدم في سلاح
الفرسان طوال هذه السنوات .

- اسمحي لى ان اقدم لك الرسالة . اسمحي لى ان اقلع
هذا لى في مكان ما . . . لقد وضعتها . وارجو العذرة . في لافاة
المناق - ونظر نظرة ذات مغزى ، ودخل وراء داشا الى غرفة فارغة
حيث جلس على الارض ، واخذ يسحب حذاء الطويل الملتصق بالقدر
وهو يفضن وجهه .

كانت الرسالة من كاتيا ، وهي نفس الرسالة التي سلمتها
كاتيا الى المقدم تيتكين في روستوف .

صاحت داشا من السطور الاولى التي قرأتها . وامسكت
برقبها . . . فاديس فئيل . . . وطوفت بصرها في الرسالة
مستعجلة عينها . واعادت قراءتها بهمس . وجلست على ذراع
الضعد خائرة القوى . كان كولييتشيك يثق على انفراد متواضعا .
- نيكاتور يوريفيتش ، هل رايت افعى ؟

- لا . سلمت الى الرسالة قبل عشرة ايام من قبل شخص .
وقد ذكر ان يكاترينا عميتريفيشا غادرت روستوف منذ شهر . . .

- يا الهى ايين هي الان ؟ ماذا حصل لها ؟

- مع الاسف لم يكن في الامكان الاستفسار عن ذلك .
- هل كنت تعرف زوجها ؟ فاديس روتشين . . . فئيل . . .

كاتيا تكتب . . . آه . ما اقطع ذلك !

رفع كولييتشيك حاجبيه بدهشة . كانت الرسالة تهتز بيدها
التحيلة اعتزازا شديدا حتى انه تناولها ، ومزج عينيه على السطور
التي كانت تتحدث عن فالريسان اوتسول الذي روى لها مصرع
زوجها . . . ارتفع طرف فم كولييتشيك الى الاعلى بحركة غاضبة :
- كنت دائما اعتقد ان اولول قادر على السفالة . . . يستدل
من احواله ان روتشين قتل في ايسار . ليس كذلك ؟ انه
لهريب . . . يخجل الى انتم رايتي في وقت متأخر عن ذلك بعض
الشيء .

معنى ؟ ايين ؟

الا ان كولييتشيك عد انه الكاسر . وقرس في داشا بنظرة
فاسدة شائكة . وقد استمر كل ذلك ثانية واحدة . كانت عينها
داشا الملتهتين بالانفعال واضاعها الباردة المتشايكة تقسول
بوضوح الوضوح انها لن تكونه ، ولو كان زوجها ضابطا امير ، فليكن
على لفة من ذلك . سال كولييتشيك متقعما من عينها داشا :

- لا يوجد في الشقة فغيرنا ؟ هزرت داشا رأسها بسرعة : لا ،
لا ، اسمعي ، يا داريا عميتريفيشا ، ما سأقول لك يجعل حياتين
متوقفة على . . .

- هل انت من ضباط دليكين ؟

- نعم .

تقلقت داشا باصابعها ، ونظرت بوحشة في النافذة . في
الزوجة التي لا يمكن بلوغها .

- ليس تمتدى ما يفيئك . . .

- كنت واتفا من ذلك . . . يريد ان اسالك مييتا عنك
لعدة ايام .

قال ذلك بصراحة بل تهديد تقريبا . اطرقت داشا
رأسها .

- حسنا . . .

- ولكن اذا كنت خالفة . . . (ولقد مترجمنا . . . لس
 خالفة ؟ (وتلقب .) اما فاهم . فاهم . . . ولكن لا شيء تخافينه . . .
 انا حلو جدا . . . سائح في الليل فقط . . . لا احد يعرف اني
 في بترولراد . . . (واخرج من بطانة القبة حورية جندی .)
 هذه . . . ابغان سلبتشيک . جندی احمر . . . وثيقة حقيقية .
 تخلصت منه بيدي واخذتها . . . تريدین ان تعرفی عن فاديسم
 بتروفيتش . . . اظن ان هناك بعض البلية .

امسك كوليشتيک بدي داتنا وضغطت عليها :

- اذن ، فانت معنا ، يا داريا دميترييفنا ؟ اذن ، شكرا .
 ان جميع المثقفين ، جميع الضباط المهائين المعذبين يضمون تحت
 راية جيش المتطوعين المقدسة . انه جيش الابطال . . . وسترين ان
 روسيا ستنتقل . ستنتقلها ايدي الضياء . اما تلك الرائن الغشة
 فلترفع عن روسيا ا كفى عواطف . لسبب الكادح ! لقد قطعت
 منذ حين الف وخمسائة فرسخ على سطح عربية . ورايت الشمس
 الكادح ! وحوش ! وانا اؤكد لك اننا وحدنا ، الزمرة القليلة من
 الابطال ، نعمل في بلوتينا روسيا الحقيقية . وسندك فالونسا
 بالعربة على مدخل قصر تافريتشكي .

واجست داتنا بان سيل الكلمات يصم اذنها . . . تصدق
 كوليشتيک الهواء يظلمه الاسود ، وتطير الزيد من طرفي فمه
 على الاغلب انه اضطر الى لزوم الصمت ولنا طويلا وهو على سطح
 العربة .

لا اخفي عليك شيئا ، يا داريا دميترييفنا . . . انما ارسل
 الى هنا ، الى الشمال لاستخبارات والتجسس . ان الكثيرين لا
 يتصورون حتى الان لوتنا . . . نحن في صحتكم مجرد عضايات من
 الحرس الابيض ، حفنة ضئيلة ستحمي في الغريب العاجل عن وجه
 الارض . . . فلا تخربوا ان يعاف الضباط الانضمام اليها . . . ولكن
 اتعرفين ما يجري في منطقتي الدون وكوبان في واقع الامر ؟ ان جيش
 اتمان الدون يكر مثل كتلة الثلج . وقد ظهرت محافظة لورونيج
 من الحرس ، وستافروبول مهددة . . . ومن يوم الى يوم تنتظر ان
 يخرج الالمان كراستوف على المولفيا . ويستولى على
 تساريتسكي . . . حقا انه يتعاون مع الالمان ، ولكن ذلك شيء

مؤقت . . . ونحن رجال دينيكن زرحنا على جنوب كوبان ، وكالسا
 في استعراض . وقد استولينا على تورغوفايسا وتيفوريتسكايا
 وبيليكوكتياجيسكايا . وقد مرق سوروكين نزيقا . وجميع فري
 القوزاق ترحب بعيش المتطوعين ببطاوة . وبالغرب من بيلاريا
 لمينا خشنا معركة ضارية ، وزحفنا على تلال من الجثث حتى ان
 خادماك المطبخ حرض بالكلم حتى الحرام .

شعبت داتنا وهي تنظر في عينييه . وضحك كوليشتيک
 بمتعة :

- اتظنين ذلك كل شيء ؟ ان ذلك بداية التنكيل . يشمل
 العريق البلاد كلها . محافظات سامارا واوبنورغ اوفوا . والاورال
 كله في ليد . واسمن جزء من الفلاحين ينظم نفسه جيوشا بيضاء .
 والولغا الوسطى كلها في ايدي التشيكيين . والانفاضة شاملة من
 سامارا الى فلاديفوستوك . ولو لا الالمان الملاحين لهبت اوكراينا
 كلها حبة رجل واحد . ومدن حوض الولغا الاعم تشبه القبية معبأة
 بالديناميت لا يعوزها الا ان يسفل التليل فيها . . . ولا التسد
 للملاشقة من الحياة شهرا واحدا ، ولا اراهن على البلاشفة حتى
 بقشة .

وكان كوليشتيک يرتعش من الارتفاع . ولم يعد يبدو وحشا
 صغيرا . حدثت داتنا في وجهه المذهب الانق المفسوح بريح
 السهوب . والمعسى ينار السواك . لقد كان هذا حياة حارة دخلت
 متدفقة الى وحدتها الشفافة . شعرت داتنا بتصدع شديد في
 صدغيها . وشفقان في قلبها . وعندما بدأ يلق لافاة من الماخوركا
 مديا اسنانا صغيرة سالت داتنا :

- ستتصورون . ولكن العرب لسن نستمر الى الابد . . .
 لماذا سيكون بعد ذلك ؟

- ماذا بعد ذلك ؟ - وعسى من ميگاركه وقلص عينييه . -
 الحرب ضد الالمان حتى النصر النهائي . والعوتمر النسلي الذي
 ستمثل فيه ابطلا عظاما . وبعد ذلك وبالقرى المشتركة للعدلاء
 ولاوريا كلها تعيد روسيا : النظام والفاسون ، والبولماينة ،
 والعريات . . . ذلك في المستقبل . . . ولكن في المستقبل
 الغريب . . .

وفجأة امسك بالجيبة اليمنى من صدره . وتلمس شيئا من تحت معطفه . وأخرج كارتونة مملوثة نصفين هي عبارة عن غداة ، فلبسها سكاكتر ، وأدارها بإصابعه ، ووخز وجهه دasha بعدئذيه مرة أخرى .

- لا استطيع أن اجازف . . . والمقصود . . . عندكسم فتعني في الشوارع . . . سأعطيك شيئا . - ونشر الكارتونة بجزر . وأخرج منها مثلثا صغيرا مملوفا من بطاقة زيارة خط عليه بإليد حرفيا : «و» و«ك» . . . وقال : خبني هنا . يا داريسا ميترييفنا . وأعرض عليه كعز مقلص . . . وسأملكك كيف تستغنيته . . . اعفويش . . . ألا تخافين ؟

- لا .

- تعش الفتاة انت ؟

ووقعت داشا ببساطة ودون وهي مدفوعة بإرادة جارفة في صميم مؤامرة ما يسمى بالاحتماد الدفاع عن الوطن والحرية التي تسلمت العاصمتين وعددا من مدن روسيا الكبرى .

كان سلوك كولينشيك - عميل قيادة دنكين - أوجه لا يكاد لا يصدق : أن يكشف نفسه بصراحة ومن الكلمات الأولى لأمرأة قليل المعرفة بها ، هي زوجة ضابط أحمر . إلا انه كان في وقت ما يعيش داشا . والآن لم يستطع ، وهو ينظر في عينها الرماديتين . إلا ان يصدق بأن عينها تقولان : «ثق بي» .

في ذلك الحين كان الحاسم . وليس الترويق الهادئ ، هو الذي يعرك ارادة الناس . كانت زوجة الأحداث نصف والنضم الانساني يهدر . وكل انسان يحس بأنه متفك السفينة الهالكة ملوفا بسداسيه وهو على السطح الهتزت حوزما بأن تدار الدفة بينما او يضارا . وكل ذلك كان مجرد وهم . كان سراب يصوره الحرس الأبيض يطوف حول روسيا الشمالية الأطراف . وقد غشيت الكراهية على العيون . وكل ما كانوا يبتغونه كان يظهر فوراً في صورة بهارج السراب الخيالي .

وهكذا بدأ هلاك البلاشفة الوشييك امرا غير مشكوك فيه .

فقد تبين أن قوات المتدخلين قد دخلت من الجهات الأربع لمساعدة الجيوش البيضاء . وأن مائة مليون فلاح روسي كانوا مستعدين ليصلوا للجمعية التأسيسية . وأن مدن الإمبراطورية الموحدة غير القابلة للتجزئة لا تنتظر غير الانتصار لتتسوق السوفييات . وتميد . في اليوم التالي ، النظام والشرعية البرلمانية .

وكان الجميع يقدعون انفسهم ويتعلقون بالخيالات ابتداء من سيدات بطرسبورغ الهاديات الى الجنوب ومعهن تبديلة واحدة من الثياب الداخلية الى البروفيسور ميولوكوف الحكيم بالاشماعة المتعاطفة ينتظر نهاية الامحاح التي انظمتها بنفسه في رؤيته تاريخية .

كان ما يسمى بالاتحاد الدفاع عن الوطن والحرية واحدا من الزاميين في الخيالات المطننة . وكان قد تأسس في بداية ربيع عام ١٩١٨ من قبل بوريس سافينكوف بعد انتحار الانسان كاليدين المبعث . وخروج جيش كورنيلوف من روستوف . وكان الاتحاد بمثابة منظمة سرية لجيش المتطوعين .

وكان يرأسه سافينكوف المراوغ المتخفي الذي كان يجوب موسكو بشازيبه التصويفيين ، ويرتدى السترة الانجليزية ، وطاقا اصغر ومعظما يلون كالكبي . وكان الاتحاد منتظا على الطريقة العسكرية : هيئة اركان ، وفريق . والوية والواج واستطلاع وكافة الخدمات . وكان العقيد بيرخوروف يدير مؤسسات هيئة الأركان . كان جمعية التي عضوية الاتحاد يجري في سرية شديدة .

والشخص الواحد لم يكن يستطيع أن يعرف غير اربعة اشخاص ، ولا يمكن في حالة الانكشاف غير اغتفال خمسة اشخاص . ولا تكتشف شيوا اكثر . ويقي عنوان المقر واسماء الزعماء سرية للجميع . وكان رئيس الفوج او الوحدة يذهب الى بيوت الراسخين في الانضمام الى الاتحاد . ويستفسر ويقدم الشوق كعربون . ويسجل في بملاقته اسمه وعنوانه بالسرقة . وكانت هذه البطاقات الحاوية على دوائر تعدد عدد الاعضاء وعلى عناوين ترسل اسبوعيا الى هيئة الأركان . وكان استعراض القوات يجري في البولفارات بالقرب من النصب التذكارية ، وبالإضافة الى ذلك كان على اعضاء المنظمة ان يزلوا معاملت عسكرية مزودة بطريقة خاصة او يشدوا شريطا في

موضع معين من المعطف . وكان الذين يتفقدون الاتصال يسألون
 يندثت مخصوص من بطاقة زيارة عليه حرفان يعنى الأول منها
 كلمة السر ، والثانى المدينة . وعند اظهار المثلث يوضع على
 البطاقة التي قطع منها . وكانت لدى الاتحاد قوات كبيرة مسن
 الاستخبارات . وفي المؤتمر السرى الذى عقد في نيسان تقرر وقف
 اعمال التجريب ، والتحول الى العمل في المؤسسات السوفيتية .
 وبهذه الصورة نقل اعضاء الاتحاد الى وسط جهاز الدولة . وانتظم
 قسم منهم في ميليشيا موسكو . ودس في الكريملين ممثل لهم .
 كما تسلموا الى الرقابة العسكرية ، بل وحس الى الجيش العسكرى
 الاعلى . وكما يبدو شملت شبكاتهم الكريملين بقوة .

وفي ذلك الوقت كان استيلاء القوات الالمانية بقيادة
 الفيلدمارشال ايفغورين يبدو امرا محتوما . وبالرغم من ان الشعور
 الموالى للالمان كان قويا بين اعضاء الاتحاد - التوفيق لفظ في
 العراب الالمانية - فان الميل العام كان نحو الحلفاء . بل وان هيئة
 اركان للاتحاد حددت اليوم الذى سيهجم فيه الالمان على موسكو .
 وهو الخامس عشر من حزيران . ولهذا السبب تفسر التخل عن
 الاستيلاء على الكريملين وموسكو . والخروج بقوات الانعساد الى
 قازان . وتسف جميع الجسور ، ومضخات الغازات المائية في
 ضواحي موسكو ، وانارة الانتفاضات في قازان وليجنى وكوستروما
 وريينسك وهروم . والتوجه مع التشيكيين . وتشكيل الجبهة
 الشرقية بالاعتماد على الاورال ومناطق ما وراء الفولغا الغنية .

صدقت داشا بكل ما قاله كوليتشيك ؛ اوطليون الروس .
 او كما سماهم بفرسان الروح كانوا يحاربون في سبيل القضاء على
 التضاربات الفلندديات الوحقات الفوانى يتاجرن بالبطاطس ، واخذات
 شوارع بطرسبورغ اضاءة باهرة يسبح فيها جسور ممتيح ايق
 في سبيل ان يستطيع العره في اية لحظة جرح ان يرتدى قبضة
 بريشة . ويسافر الى باريس . . . ولكن يكفى على التضالين قرب
 العديلة «ليتنى» . ولا تعود الريح الخريفية تصفر على قبر ابن
 داشا .

لقد وعدنا كوليتشيك بكل ذلك في حديثه وهو يحس
 الضاي . كان جاثما كالكلب اتى على نصف المؤنة من المعليات .

بل واكل الطعيق مع الملح . وعند هبوط الظلام اختفى دون ان
 يلاحظ بعد ان اخذ مفتاح الباب .

ذهبت داشا لتتسام . اسلمت الستارة على النافسة .
 واستلقت - وكما يحدث في ساعات الارق المرهقة تمدقت الافكار
 والصور والذكريات والحدوس المفاجئة ، والندامات الحارة متزاحة
 يسابق بعضها بعضا . . . تقلت داشا . وحشرت يديها تحت
 ابطيها . واضطجعت على ظهرها ، وعلى بطنها . . . لغفتها
 البطانية والفروث لوالب الازيكة في جنبها . ووقعت الاعطية على
 الارض . . .

كانت ليلة مرجعة طويلة كالعمر . انتشبت البلعة الداكنة
 في ذهن داشا من جديد . وارسلت جفيراها السامة في التلافيق
 الخفية . ولكن لم يحد هذه الندامات والتصور بالخطا الطعيق ؛
 بلقلب ؛ ليثبا تغم ا

وبعد ذلك ، حين ازوردت الستارة على النافذة ثمت داشا
 من الدوران في دوامة الافكار الغيالية ، وضعت . وبعد ان هدأت
 لحدت تعاقب لغسها بصراحة وتزاحة من البداية حتى النهاية .
 وشملت على كل شيء في نفسها .

جلست على الفراش . وجسمت شعرها في عقصة . وديسته .
 والثت ذراعيها العازبتين التحيلتين على ركبتيها . وانضبات
 الفكر . . . امرأة وحيدة خالصة باردة لم تحب احدا . فلتهفسي الى
 الجحيم . ودانا . انت لا تثيرين شفقة . . . حسنا فعل الشيطانون
 حين اعاقوك عند العديلة «ليتنى» . لم يخفوك الا قليلا . كان من
 الاطفال ان يخفوا اكثر . . . الان اختفى . . . الان طيرى مسع
 الربح . يا روسي ، الى حيث يأمرون . وافعل ما يطلبون منك . . .
 لا ارادة لك . انت واحدة من ملايين عديدة . . . قاية سكينه واي
 اعتاق ا . . .

لم يعد كوليتشيك يوسن وليتلين ؛ وكان قد جاء في قيايه
 عند اشخاص جميعهم غفلام في سن ممتزجة كالتسوا يتعنون على
 لقب المشاح . ويتقنون كلمة السر . وكانت داشا تدمع يدقون .

وبعد ان يعرفوا ان «إيفان سفيتشيف» غير موجود في البيت كانوا لا يخرجون راسا . كان بعضهم يشرح لجهة في الحديث عن مصائبه العائلية ، والبعض الآخر يطلب الادل بسان يدخن سيكارة ، ويخرج يحدو ونعومة تبتا سوفيتشيا كرية الرائحة من علية سكانها عليها رموز ويعلن بلحن «واب السرطانات والكلاب» وهو يمدد على «الرا» في الكلمات . وتفتت ثالث في صراحة فيقول ان زورنه البخارى مهيا في جزيرة كويستوفسكى ، عند قصر بيلوميلسكى- بيلوزيرسكى . وقد استطاع ان يتزق اشياء تيشية من الخزة ، الا ان اطفاله يعانون السعال الديكى . . . من سوء الحظ . . .

والظاهر ان الجميع كانوا يميلون الى التحدث مع هذه الرثة الشابة الرقيقة النحيلة ذات العينين الواسعتين . وكانوا يقبلون يديها حين ينصرفون ، وكان الشيء الوحيد الذى يدهش داشا هو سذاجة هؤلاء المتأمرين . وكانها هم ابطال مسرحية كوميدية سفيفة . . . وكانوا جميعا تقريبا يستفسرون بعبوات حذرة : ألم يجلب «إيفان سفيتشيف» المال ؟ وفي آخر الامر اخشوا وانقضى كل الثقة من ان «مكابة البلاشفة الحماة» منتنته قريبنا جدا . سيجتسل الالمان بتروفغراد . والامس لا يحتاج الى جهود .

وجاء كوليتشيك لشيء ، جاء جالسا مرة اخرى قدرا شعيب الاستغراق في افكاره . وسأل عن جاء في غيابه . فاطلته داشا على ذلك بالتفصيل . فكسر عن اسنانه :

— السفلة ! جاوا يطبقون الفلوس . . . ويسمون انفسهم حرسا ! يتكاسلون عن رفع عبيزاتهم الارستقراطية عن الكرسي ، ويرغبون في ان ياتي الالمان ليحرروهم قائلين لهم : تعطلوا . يا سادة ، ما نحن قد شتقنا البلاشفة . وكل شيء على ما يرام . . . شي فاضح ، فاضح . . . من بين مائتي الف ضابط لم يبق من ابطال الروح غير ثلاثة آلاف عند درودوفسكى ، وحوالي مائتيه آلاف منه دينكين . وخمسة آلاف عندنا في «اتحاد الدفاع عن الوطن» . هذا كل شيء . . . فإين الآخرون ؟ باعوا ارواحهم وضامرهم للجيش

الاحمر . . . وبعضهم يصنع صبح الاحذية ، ويتاجر بالسكاكر . . . وجميع ضباط هيئة الاركان تقريبا لدى البلاشفة . . . يا للغار ! . . . واكل الطحين مع الملح ، وشراب ماء مقليا . وذهب ليغام . وفي الصباح الباكر ايقظ داشا . ليست داشا ملابسها على عجل . ونجحت الى غرفة الطعام فوجدته يتخطى سرعيا بالقرب من المائدة متجه الاسازير . صاح على داشا نافذ الصبر :

— مثلا انت ؟ امكنتك ان تجازق وتضحى بالشيء الكثير ، وتقاسي آلاف الضاعب ؟ . . .
— نعم . . . قالت داشا .

— الا لا اتق ياخذ هنا . . . وصلت ابناة مقلقة . . . ويجب السفر الى موسكو ، فهل تسافرين ؟

رسمت داشا . ورفعت حاجبها فقط . . . تقدم كوليتشيك نحوها بمعالجة ، واجلسها الى المائدة . وجلس قريبا تماما وبسها بركنه ، واخذ يشرح لها من يجب ان تقابل في موسكو . والكلمات التي تنقلها اليه عن منظمة بتروفغراد . وحرز الكلمات في ذاكرة داشا متحدثا بضراوة بطيبة . وجعلها تكرر . فاعادت الكلمات مقالعة .

تهدى واقفا وفرك يديه بقوة لائلا :

— عظيم ! ذكية ! نحن بحاجة الى امثالك بالذات . والان ماذا عن شقتك ؟ فولى لمجنة المساكين انك مسافرة الى لوجا لمدة اسبوع . وسابقى حنسا بضعة ايام اخرى ، ثم اعطى المفتاح الى الرئيس . . . حسنا ؟

ودار راس داشا من كل هذه العجلة . واحست مدهوشة بانها مستعدة دون اعتراض الى ان تسافر الى حيث يشاء . وتقبل ما تؤمر به . . . وعندما ذكر كوليتشيك الشقة التفتت داشا الى السوان من غضب القريب وهي تفكر : «صوان كرية موحش كالتابوت . . . وتكررت الخطاطيف التي افرقتها ذات مرة بالفضاء الازرق . وتصورت ان السعادة قد طارت من هذا القفص المترتب الى حياة وحشية مليقة . . . قالت :

— الشقة ؟ ربما لا اعود اليها . فاقبل ما يحلو لك .

كان من بين الذين جنادوا في غياب كوليئشنيك شخص طويل القامة طويل الوجه مثل الشاربين مؤدب اجلس دائما في عربة للفرجة الثالثة تهتم زجاج جميع تراقمعا . اعنى عليها ، واسر اليها في اذنها بصوت ميق : «ثمانك لن تسي» واحتضن في الزحام . وليل تحرك العطار من به اناس يترافقون وتسلطوا من التوافق وصروهم في اسماهم . ولزجعت العربة كليسا . وكب الناس في الاماكن المخصصة للحقائب ، وانسلوا تحت التخت . وهناك اشعلوا امواد تقاب ، وذهتوا الماخوركا بتلذذ تام .

سار العطار ببطء قرب المستنقعات الضبابية ومدائن المضاع المنطقية ، والبرك المغطاة بالصوفة ، وتراهي من بعيد مرتفع بولكوفو في ضوء الشمس حيث كان الفلكيون المتسيون مسرن العالم كله وغلازيتاب نفسه بسنة السبعين يتابعون تعداد النجوم في الكون ، ومرت شجيرات الصوبر الغضة والاشجار الكبيرة والبيوت الريفية . وفي المحطات لم يسبحوا لاحد يركوب العربة ووضعت الحراسة المسلحة . وحلت الطمانينة في العربة الا ان رغم ضجتها .

كانت دائما تجلس محصورة بين جنتين من جنود الجبهة . ومن التخت الاعمل دل اقدمه رأسه مرعا وظل مشتبكا بحدث لا يكاد ينقطع .

— ثم ماذا ؟ — سألتها من التخت وهم يفضون بالضحك — وكيف انتم ؟

كان قلاخ اعور تعجل متدلي الشاربين غير حليق الوجه ذو قبة من القش يجلس مقابل دائما بين امرأتين صامتتين غارتين في التفكير . كان القميص الذي يرتديه من غيش الزكائب ، مشدودا حول عنقه بشرط . وقد تدل من حزامه مشط وقلمة من قلم حمر النسخ . وتحت صدر قميصه اوراق .

لم تعر دائما انتباها الى الحديث في ياديه الامر . ولكن حديث الاعور كان يبدو جدا جدا . وبالترويج استمدارت الروس نحو من جميع التخت ، وهدات الضجة في العربة اكثر من ذي قبل . وقال الجنتي ذو الشدفة بثقة :

— لقد فهمتكم . بكلمة واحدة انتم من الاصدار ، من جماعة ماخو .

صمت الاعور قليلا ميتسما في شاربيه بعثت :

— اراكم قد سمعتم بالاخبار . ولكن ليس بالشكك الصحيح . ووضوح يده المعروفة تحت شاربيه منحرفة . وكانه ليذبل ابسامته . وقال في شي . من العجاية :

— عند ماخو تنظيم كولاكر . وهو يعمل في منطقة يكاترينوسلاف لا احد يملك هناك الا من مائة فدان . اما نحن نحن . نحن الصار حمر ...

سال ذو الوجه المرح :

— وماذا تفعلون ؟

— منطقة عملياتنا محافظة تسيرتيفوق . واقضية نجين الشمالية . مفهوم ؟ ونحن شيوعيون . نحن لا نفرق بين الاصلان وسانك الارض البولوي ، وغايداماك الهيتسان ، والكولاك من فريستا . . . يعني لا يجوز ان تخلطنا مع جماعة ماخو . مفهوم ؟

— نعم . فهمنا . ولسنا الفبياء . فاكمل حديثك .

— تكلمة العديت ان عزالمنا قد حارت بعد القتال مع الالمان . وتراجعتا في غابات كوشيليف . ونقلنا الى اعراش لا يعيش فيها غير الذئاب . واسترحنا قليلا ، واخذ الناس من القرى المجاورة يدعون البنا . ولالوا ان الحياة صارت متعطرة عليهم وان الالمان اخذوا يظهرون المتلقة من الاصدار بشكل جدي . وساعد

الغايدياماك الالمان في ذلك ، فما يمر يوم دون ان ينجسوا على قرية ، ويجندوا كل من يشير اليه الكولاك . وقد استند الضبط برجالنا من هذه الحكايات حتى ضاقت انفسهم . وفي ذلك الوقت جاءت فصيحة اخرى ، واجتمع في الغابة جيش كامل . حولي ثلثاثة وخمسين رجلا . وانتخبوا رئيسا للجماعة وهو الملازم الثاني فولتا احد

الاصدار من فيركليف . واخذنا تفكر في الاتجاه الذي ستكون فيه عملياتنا المقبلة . وقررنا ان نراقب نهر ديسنا . وكانت الشجرة العزبية الى الالمان تمر عبر هذا النهر . وبعيننا . واخترنا مكانا تضطر فيه السفن الى الانتراب من الشاطئ تماما . وكذا هناك . . .

وسأل شخص من فوق :

— عظيم . وماذا بعد ؟

- هكذا - تتقدم السفينة ليصبح صوت في الصف الامام
منا : «قف ا» . ولم يلع القبطان امرنا فاطلقتا القذيفة . وبالطبع
ترسو السفينة على الشاطئ . فتمسك على منتها في الحال . ونظم
الحرس ، ونظم يفتيش الهويات .
قال الجندي :

- حسب الاصول .

- والسفينة محملة بالسروج والمعدد . ينقلها ضابطان
برتبة عقيد . احدهما روحانما ، والثاني شاب ذو قوة . وبالإضافة
الى ذلك توجد ادوية . وهذا ما نحتاج اليه . وقفت على ظهر السفينة
احقق في الهويات . فاذا بشيوعيين يتقدمان اليّ هما بيتر وابان
بتروفسكي من مقاطعة بوروديانسك . وحديث في الحال انه يجب
الا اظهر الهوا من معارف . وعامتهما بشكل رسمي وبجدية :
«هواياكندا» . قدم بتروفسكي هويته لي ومعها مذكرة على ورقة سكار
جاء فيها : «الرفيق ييافاكا ، انا المنادى مع اخي تشيرنيكوف ، وضاهر
الى روسيا ، فارجو ان تكون بلا رافة منا حتى لا تثير انتباه المحيطين
بنا ، لان جولنا جوايسيس ... حسنا ... بعد ان دققنا في الهويات
افرحنا المعدد والسروج والادوية ، وخسمة عشر صندوقا من السب
لتقوية جرحانا . ويجب ان نقول الانصاف في حق طيبب السفينة ،
فقد تصرف بطولته . مساح : «لا استطيع ان اتعلم على الادوية لان
ذلك مخالف لجميع القوانين والعرف الدولي ايشاه» . وقد ايشاه
باختصار : «نحن ايضا عندنا جرحى . ومعنى ذلك ان العرف
الانساني لا الدولي يقتضى اعطاء الادوية ا» . واعتقلنا عشرة
ضباط ، وانزلناهم الى الشاطئ ، وتركنا السفينة نهر . وعلى
الشاطئ اخذ العقيد العمود بيكي ويتوسل الا تقتله ، وعقد عمامه
العسكرية . وفكرنا : «لماذا نمنه» . انه سميت بنفسه قريبا .
واملقتنا سراحه تحت تأثير الشهامة . اما هو فركض الى الغابة . . .
ارسل الذي كان يمدى يراسه من تحت تفحفة فروح . واستمر
الاعور في حديثه حين انتهت نوبة الضحك :

- والشخص الاخر ، وهو موظف لدى هيئة عسكرية ، ترك
في الفسنا اقلباما حسنا . فقد اجاب على جميع الاستئلة بعماس
وتصرف ببساطة ، فاطلقتنا سراحه ايضا . . . اما الآخرون فاختلدناهم

الى الغابة . . . وهنا رميناهم بالرصاص لان احدا لم يرد ان يقول
شيئا . . .

لظرت دائما الى الاعور مكتومة الانفاس . كان وجهه هادئا
متفلسفا عن حزن . كانت عينه الوحيدة الرمادية التي شهدت احدانا
بعذتها الصغيرة تراقب بشكل اشجار الصنوبر العارة من خلف
النافذة . واستمر الاعور في حديثه بعد وقت وجيز :

- لم تمك طويلا على ديمنا . فقد التفت حولنا الالمان ،
فترايمنا الى غابات درودوف . ووزعنا الغنامل على الفلاحين ، حقا
ان كل واحد منا شربنا قدما من النبيذ . ولكننا اعطينا الباشي الى
المستشفى . في ذلك الوقت كان كرايبيايسكي يعمل الى يسارنا
ومعه فضيلة كبيرة . وكان الى يميننا ماروتيا . وكانت مهمتنا
البنشركة شق طريقنا الى تشيرنيكوف ، واحتلالها بهجوم . وبأ لبت
كان لنا اتصال جيد بين الفصائل . . . ولكن لم يكن ثمة اتصال
مفيعي . فاختارنا . وكان الالمان في كل يوم يرسلون القنوات
والمدفعية والغيلة ضدنا . فقد كان وجودنا يزعجهم كثيرا . كانوا
ما ان يغادروا قرية حتى تتشكل في القرية لجنة ثورية ، ويعلق واحد
او اثنان من الكولاك على جذع شجرة . . . وذات مرة ارسلوا لي الى
فضيلة ماروتيا لجلب نفود . فقد كنا بحاجة ماسة اليها . . . كنا
ندفع للسكان نفودا على السوداء الغذائية . وكان النهب ممنوعا
عندنا وعقوبته الموت . ركبت عربة ، وذهبت الى غابات
كوشيليف . وهناك تحدثت مع ماروتيا عن شؤوننا . وحصلت منه
على الب روبيل من عملة كيرينسكي . وعدت واجعا . . . وبالقرب من
قرية جوكوفكا . وما كنت ازل الى الوادي حتى هاجمنا اثنان من
الغيلة . من دوريات اللجنة الثورية في جوكوفكا . «الى اين ذاهب
والالمان هنا ا» . «اين» - «اين» - «الهمس بقتربون من جوكوفكا» .
ودجعت . . . وخأت الفرس في حوش ، ونزلت من العربة . واخذنا
للتناقل ماذا نفضل ؟ لا مجال ايدا لمقاومة جماهيرية ضد الالمان .
فقد كانوا يرحلون بطاير كامل ومعهم مدفعية . . .

قال الجندي :

- ثلاثة مقابل طاير امر صعب .

- امر صعب تماما . فقررنا ان نحيف الالمان فقط . ورحلنا في

حقل الجودار . ولرى امامنا جو كوكفا ، ومن غاية صغيرة يخرج طايرون
 مائى شمس تقريبا ، ومدقان وصف عريات ، وعلى حافة القرب
 البيا دورية من العباله ، والظاهر ان شهرة الانصار هدرت هديرها
 حتى الهيم ارسلوا ضدنا حتى المدفعية . استقبلنا فى حدائق
 الخضروات . وكانت معنوتنا عالية . تضحك مقدما . وتصرع الدورية
 على بعد خمسين خطوة منا . واصدر امرى : «كتيبة . ارمى !» وطلقت
 ورماها اخرى وانكفا حسان . ووقع الالمانى فى التراسى .
 والا صالح : البار ! وقلقتنا بالترابيس ، وسجينا وهدرنا . . .
 تقاتلت عينا الرجل المثل براسة من تحت العلى ، وضرب
 فمه بيده منعا لاتباق ضحكة او انفلات كلمة تعليق . وضحك
 الجندى راضيا .

- عادت الدورية خبا الى الطايرين ، واستدان الالمان .
 ودفعوا صلوفهم ، وانتقلوا الى الهجوم حسب الاصول . وفصلوا
 المدافع من عرباتها ، وانطلقت القنابل من ميار ثلاث بوصات على
 حدائق الخضروات . بينما كانت النساء يلقن البطاطس منها . . .
 وتلجرت الارض وارسلت ترابها الى فوق وتساؤنا (ودفع
 الامر فبعث على اذنه بظفره ، ولم يستطع ان يكتم ضحكة .
 وحققه الرجل من فوق التخت) . وتساؤنا تقرن من الحدائق مثل
 ذجاجات هروسة . . . بينما تقدم الالمان من القرية ببطوات
 سريعة وهنا قلت : «يا اولاد مزحنا . والان لتتراجم
 ذانية خلال الجودار الى منخفض وصعدت انا الى العربة واتجهت الى
 غاية درودوف دون معامرات . وقد روى اعمال جو كوكفا فيها بعد
 ان الالمان تقدموا من حدائق الخضروات ، الى اسبجتها تماما ، وهم
 يعنون «هورا» ولكن لم يبدوا احدوا وراء الاسبجة . والذين
 رآوا هذا المنظر انفجروا ضاحكين احتل الالمان جو كوكفا ، ولم
 يجدوا احد من النجسة الثورية ولا من الانصار . واعلنوا حالة
 الطوارئ فى القرية . وبعد يومين او ثلاثة جادت اخبار الى غاية
 درودوف تقول ان قافلة المانية كبيرة دخلت جو كوكفا تحمل عتادا
 وغراطيس . وكان العتاد والغراطيس اثنى شئ لنا واخذنا
 تناوش وقلب الامر . واشتدت شهية الاولاد لقرار تا الهجوم على
 جو كوكفا والاستيلاء على الغراطيس ، واجتمع حوالى عاتة منا . وارسل

ذلاتون منهم الى الطريق العام لينتصروا الالمان من التراجيح الى
 تنصريف فى حالة نجاحنا . وسار الآخرون طايروا نحو جو كوكفا .
 وعند هبوط الظلام وخذنا ، واستقبلنا فى حقل الجودار قرب القرية .
 ورسنا سبعة اشخاص فى استطلاع ليطلعوا على كل السوانح
 ويبلغونا ، وفى الليل تقوم بهجوم مباغت . استقبلنا دون اية ضجة .
 ومعلمنا التدخين . ونزل المطر ريثا ، وغالينا النعاس ، وكانت
 الارض رطبة وظللتنا ننظر ، حتى بدأ القلام ينفضح . وما من
 حركة . فما السب ؟ وبعد النساء يبدان باخراج الماشية لترعى فى
 الحقل . ويأتى اصحابنا السبعة المستطلعون عاندين بأدراجهم . . .
 ويبين ان حذلا الملاعين عندما وصلوا الى الطايرة استلقوا
 ليستريحوا لمغلا . وانما الليل كله ، حتى وصلت النساء اليهم مع
 الماشية . ولا مجال للهجوم بعد الآن . بالطبع وقد تكبرنا عظيم
 الكبر حتى ضانت بنا الارض . وكان يجب تشكيل محكمة والزال
 العقاب بالمستطعمين . وقررتنا بالاجماع وميمم بالرماس . الا انهم
 املوا بيكون . ويطلبون الرحمة . واعترفوا بذنبهم كليا . كانوا
 لسيئات الفرار قد ارتكبوا خطأ لأول مرة وقررتنا ان نلعنهم .
 ولكن الترحنا على ان يكفروا عن ذنبهم فى المعركة الاولى .

قال الجندي :

- بحق المعرفى بعض الاحيان .

- نعم واخذنا تتداول . اذا كنا لم نستول على جو كوكفا ليلنا
 تستولى علينا نهارا . العملية جديده ، وفهم الاولاد الامر الذى
 يدعون عليه . وتناكرنا جماعات صغيرة ، وانتظرنا ان نلعن
 الراسيات . لم نرحب . بل وكفنا على الارباع
 وصدر من الاعل صوت ضاحك .

- وبدلا من ان نلتقى بالالمان التقينا بنساء يحملن سلا ،
 فقد كن خرجات لجسم الاعتباب البيرية . وكان اليوم يوم احد .
 وضحكنا منا ضحكا عاليا . قاتلات : تاخرتم : القافلة الالمانية خرجت
 منذ حوالى ساعتين فى طريق كوليكوفو . وهنا قررتنا بالاجماع ملاقة
 الالمان ، وان تلتنا فى المعركة جميعا . واخذنا معنا ارقائنا لتقوم
 بحرق الخنادق ، واصطفتنا النسوة قطار وكعكا . وخرجنا وسار ووادنا
 جمع كبير من الناس ، جيش كامل ، اكثرهم يدافع الفضول . وهذا

ما فعلتاه : وزعتنا الخوازيق على الفلاحين والنساء واصطلقتنا في سفين ، وجعلنا بين كل شخص وأكثر زهاء عشرين خطوة بحيث يكون بين كل مسلح شخص يحمل خازوقا او عصا لمجرد التعريف . وامتدنا الى حوالى خسة فراسخ . وقد اشترت انا ١٥ معاربا من بينهم مستطليعتنا الغالين اولئك ، واخذت شابطين من الذين جندناهما ، وهما من المعادين للثورة بشكل واضح ، ولكننا قلنا لهما : اذا برتسا لفتنا سنلقد حياتكما . وركننا . وجماعتنا هذه ، امام القافلة الامانية على الطريق العام . . . ونسبت معركة ، يا اخواننا ، دامت اكثر من يوم ويومين . . . وهزم ذراعاه وكانه لا يريد ان يكمل الحديث .

شال الجندي :

- وكيف كان ذلك ؟

- هكذا . . . انا والجماعة تركنا الطاير بر . وبعجتنا على المؤخرة ، على طاير العريات . واستولينا على عشرين عربة من العتاد تقريبا . ملأنا الحفائب بالخرابيش ووزعتنا البنادق على الفلاحين . فمر ما تمكنا ، وتابعنا الهجوم على الطاير . فلما اتنا قد احطنا به فاذا بالامان قد احاطوا بنا ، فقد زعلت الى ذلك المكان جميع اصناف السلاح على ثلاثة طرق . . . تجزأنا الى جماعات صغيرة ، ورتنا الى الاتحاديد . وهن حسن خلقنا ان الالمان قد نظروا الصلبة وفق كافة اصول المعركة الكبيرة ، والا لما خرج منا واحد حيا . . . لم يبق احيا ، من الاضمار غير عشرة اشخاص ، على ما اظن . حاربنا الى آخر طلقة . وبعد ذلك قررنا ان البقاء هنا مستحيل ، ويجب التسلل الى ما وراء ديسنا ، الى منطقة معايدة ، الى روسيا . اغليت البندقية ، وكناضرت بالثني اسير حرب ، وتوجهت الى نوفورودوسيفسكي . . .

- وانت الآن ، الى اين ذاهب ؟

- الى موسكو طلبا للتوجيهات .

وتحدثت بيافاكا بفضض اخرى عن حركة الاضمار وعن حياة الريف . «تفرج من منبئية ، ولدخل في اخرى . تلك من حياتنا ، دفعوا الفلاح الى ان يحيا حياة الذئاب ، ولم يبق امامه الا ان يقتل» :

وكان هو من تيجين . وكان يعمل في مصانع بنجر السكر . وقد فقد سنيه في عهد كيرينسكي اثناء هجوم حزيران التعيس . وقد عبر عن ذلك قائلا : «كيرينسكي هو الذي ققسا عيني» . وفي خنادق الجبهة تعرف على الشيوعيين ، وكان غضبوا في سوفيت تيجين ، وعضوا في اللجنة الثورية ، وعمل سريرا في تنظيم حركة المقاومة .

وقد اشرت قصته في داشا ناثيرا قويا . فقد كانت فيها صدق . وقد فهم ذلك ايضا جميع المسافرين الذين كانت عيولهم تتطلع الى قم المتحدث .

كانت بلفية النهار والليل يطوله متعبين . كان داشا تجلس مطبقة ساقها مغطسة عينيتها تفكر الى حد وجع الرأس ، الى حد القنوط . كانت هناك حقيقتان : حقيقة هذا الرجل الذي فقد عينه ، وبعيدتين الجنديين من الجبهة ، وصاتين المراتلين الشاخرتين بوجيها البسيطين المتعبين ، والحقيقة الاخرى من الحقيقة التي زلق بها كوليتشيك . ولكن لا وجود لحقيقتين - فلا بد ان واحدة منها خاطئة ، مغرمة ، مهلكة . . .

وصل القطار الى موسكو في منتصف النهار ، ونقل حوذى عربة عجوز داشا يتخب غير سريع عبر شناروح مياسينيسكايا القفر السلوخ الجدران ، حيث كان الرجل يطلغ واجيات المخازن الماوعة . وادعش داشا فراغ المدينة ، فقد كانت تتذكرها ايام كانت الاق الناس تسير ملوحة بالاعلام منشدة الاغانى في الشوارح الجليدية ، متبادلة الثهاني بالثورة التي لم يرق فيها دم .

في ساحة اوبيانسكايا كانت الريح تدموم غبارا . سار جنديان بقميصين عسكريين بلا حزام ، وبانفاهما مطويان . ونظر الى داشا شخص واهن طويل في سترة مخملية ، وصرخ يشق لها . بل وركش وراه العربة . الا ان الغبار غشى على عينيه . فتأخر . كان فندق «مترويول» مثلسا بقذائف المدافع ، وكان الغبار يدوم هنا في الساحة . وكان غريبا ان يرى المرء في الساحة القفرة حوضا من الزهور الزاهية ، لا يعرف من غرسها ولم .

وكان شارع تفيرسكايا اكثر حيوية . كانت الحوانيت مفتوحة هنا وهناك ، ومقاييل سوفيتيات المدينة ، وفي مكان نصب الجنرال سكوبيليف نهض مكتب خضيري هائل مكتسو يقفان احمر وبدا هذا لداشنا مرعبا . اشار الحوذى المجوز اليه بسرهله :
 - ولغوا البطل من مكانه . انا اسوق منذ زمان في موسكو ، فراه واقفا في مكانه . ولم يرق للحكومة الحاضرة - كيف ستعيش - لا يبقى امامنا غير نستلقى ونسوت - برة التين بسائق زويل - السادة تفرقوا ، ولم يبق الا الرفاق ، وهؤلاء يشدون على ارجلهم في الغالب . . . اوه ، دولة ا . . . وجلب العنان . - يا ليت ان يكون لنا ملك . اى ملك . . .

قبل ان تصل داشا الى ساحة ستراستنيا وات يسارا تحت لافتة «مقهى يوم» ووراء واجهتين صقيبتين شبانا غاطلين وشبابات مسترخيات على الارائك ، وكان الجميع يمشون ويشربون نوعا من المشروب ، وعلى الباب المفتوح على الضارح وقف رجل حليق طويل الشعر اشعبه يمشن غليونا وقد انكا بكفه . وبدا وكأنه قد ادعش من مرآي داشا ، فاحرج غليونه من قسه . ولكن داشا عبرته وظهر برج كاتدرائية ستراستوى الوردى ، وتشنال بوشكين . رأت داشا العرقبة الناصلة اللون التي كانت قد علفت انشاء الاجتماعات العائسة الصاخبة ما تزال متدلنية من تحت مرقفه . وكان اطفال لعاف يترافضون على قاعدته الفرانسية . وعلى مصطبة جلست سيدة تضع نظارة اقية وتعتبر بقعمة تشبه تماما القعبة التي وضعها بوشكين وراء ظهره .

مرت سحائب مزيلة فوق بولفار تفيرسكوى . وضجت سيارة لورى معدلة بالجنود . وقال الحوذى وهو يومر: البيا :

- جاوا لينهبسوا . اتعرفين قسانيل فانسيليفيتش اوفسياليفكوف ؟ اول غليونير في موسكو . بالامس جاوا اليه في سيارات لورى مثل هذه . واشدوا كل ما في منزله . فاكثي قاسيل فانسيليفيتش بهز رأسه . وخرج الى حيث لا يدري احد . بقول الصيخ ان الناس نسوا الرب . . .

ظهرت في آخر البولفار خرابب منزل غاغارين . وفي اعلى الجدار وقف رجل رحيد في صدر يقلع الاجر بعروق ويلقده الى الاسفل . والى

اليسار هيكل بيت معروف ينظر الى السماء الصاخبة يتوافقها الغارقة . وجميع البيوت المجاورة منقبة بالرخاص كالغريال . قبل عام ونصف كانت داشا وكاتيا تسوان على هذا الرصيف وقد وضعتا على رأسهما متديلين زهرين . وكان الجليد الرقيق يمشطش تحت اقدامهما . والتجزم منعكسة على البرك المتجمدة . كانت الشقيقتان متلففتين الى نادى المعامين للاستماع الى معاصرة استثنائية حول الاشاعات عن الثورة التي زعم انها بدأت في بطرسبورغ . وكان هواء الربيع يبعث الشموه بالسعادة . . .

مزت داشا رأسها تطرد الذكريات عنه . وقالت لنفسها : «لا اريد . . . هذا ولى . . .»

خرجت العربة الى شارع اريات ، واستدارت يسارا الى شارع جاليس . وكان قلب داشا يبق يتصدع من اهبها شعرت ان الدنيا اسوت في عينيها . . . وظهر بيت ابيض من طابعتين ينتهي بعلبة - في هذا البيت كانت داشا قد عاشت مع كاتيا والفقيد ايقسولاى اعانوفيتش في عام ١٩١٥ . والى هذا البيت جاء تليفون بعد هربه من الاسر الالمانى . وفيه التقت كاتيا بروتشين وقد خرجت داشا من هذا الباب المقصر في يوم زفافها ، فاجلسها تليفون في عربة يجرها حسان رماوى واطلقا في العيش الربيعى بين الاسود التي ما زالت صاحبة الفناء السعادة . . . كانت نوافذ العلية محطمة . وتعرفت داشا على ورق الجدران في لغرتها السايقة . كان يتدل مزق - طار لخراب من النافذة . سمال الحوذى :

- عينا ام يسارا ؟

التجأت داشا الى الورقة تستلصرها . توقفت العربة عند بيت متعدد الطوابق . كان الباب الخارجى مسورا بالالواح من الداخل . وكان لا يجوز لداشنا ان تسال فبحت طويلا في السلام الخلفية عن الشقة رقم ١-١١٢ . كان وقع خطاها يجعل بعض الابواب تفتح لئلا من سلسلتها . وظهر ان وراء كل باب كان يقف شخص ينيه السكان على الضلع .

في الطابق الخامس طرقت داشا ثلاث طرقات وطرقة اخرى متفلسفة ، حسب ما علموها . تردد وقس خطوات خلسة ، ونظر شخص عن ثقب الباب الى داشا واقرا بالفلسفة منه . وفتحت الباب

سيدة طويلة في منتصف العمر لها عينا جاحظتان مزعجتان زرقاوان
زرقة ساطعة . مدت دasha اليها التمثلث الكارتوني صامتة . قالت
السيدة :

- آه ، من بطرسبورغ . . . تغضل بالمخول .

مرت دasha عبر مطبخ لم يستعمل منذ وقت بعيد على ما يبدو
الى حجرات كبيرة مطبوخة الستائر . وفي شبه الظلمة لاحت معالم
اثاث فاخر . ولوح برونز . الا ان هنا ايضا لا وجود لراحة حياة .
دعت السيدة دasha الى الجلوس على اريكة ، بينما جلست هي الى
جانبها متفحصه الضيفة بعينها المرعبتين المتسعتين . قالت بصرامة
وامرية :

- تحدثي .

جمعت دasha افكارها مجاهدة ، وبدأت بتفحص المجاهدة تنقل
المعلومات المملقة التي طلب كركليتشيك اليها ان تنقلها . شبكت
السيدة يديها الجميلتين المرينتين بالغواتم على ركبتها
الضخمتين ، وطلعت باصابعها . وقاطعتها :

- يعني انكم لا تعرفون شيئا في بترولفسراد ؟ - واهتز
صوتها الخفيض في حنجرتها . - لا تعرفون انه في بيت العبيد
سيدوروف جرى التفتيش الليلة البارحة . . . وعثروا على خلة
الجلود وبعض سجلات التجنيد . . . ولا تعرفون ان فيلينيكن قد
اعتقل اليوم عند البحر . . .

ورفعت السيدة صمدها بحركة متشنجة ، وتهضت من
الاربكة ، وسحبت الستار السمود على الباب ، والتفتت الى
دasha :

- تعالي الى هنا ، سيحدثون اليك . . .

قال الرجل الواقف وظهوره الى النافذة ، وفي صوته نبرة امرية :

- كلمة السر .

مدت دasha اليه التمثلث الكارتوني فقال :

- من الذي اعطاه لك ؟ (مدت دasha تفرح .)

باختصار !

كان يضع بيده اليسرى مندبلا حريريا على قمه حاجبا به
ويديه الاسمر او ربما السمود . وكانت عيناها غير واضحت اللون
والزرقاوان بصفرة تفرسان في دasha بتفاد صبر . قاطعتها من
جديد :

- اتعلمين انك في دخولك المنظمة تخاطرين بحياتك ؟

قالت دasha :

- انا وحييدة وحرة . وانا لا اكاد اعرف شيئا عن المنظمة ،
وقد عهد ليكتور يوريفيتش الى "بنهمة" . . . لا استطع ان اظل
مكتوفة اليدين . اؤكد لك انني لا اخاف العمل ولا . . .

- انت ما زلت صغيرة .

قال ذلك بنفس العدة . ولكن دasha رفضت حاجبها بتيقظ :

- عصري اربعة وعشرون عاما .

- هل انت سيدة ؟ (لم تجب .) في الطرف اليمين هذا مهم .
(هزت راسها باثبات .) يمكنك الا تحدثني عن نفسك . انا اسير
الحوار كلها . واثق بك . فهل يدعشك ذلك ؟

رفعت عينا دasha ولم تنقل شيئا . فان العبارات العادة
الواقعة ، والصوت الامر ، والعينين الباردتين قد ارتقت بسرعة
ارادتها المتارحة . واحسبت بنفس الاترياح الذي يحس به انسان
وهو يجد طيبيا يجلس عند قرائته تلمح نظراته الحكيمتان : «يا
حلاكي . منذ اليوم ستصرف هكذا . . .»

والآن راحت تتطلع باثباته الى هذا الرجل الذي يضع مندبلا
على وجهه . كان ربح القامة يرتدى قبعة ناعمة ومعطلا بلون الكاكي
متصلا عليه تفصيلا جيدا ، وطماقين جلديين . وكان بنياسه
وحركاته الدقيقة يقضه اجنيا ، وكان يتحدث بلهجة بطرسبورغية ،
وصوت غير مجدد واجش .

- اين نزلت ؟

- لم انزل في مكان ما . جئت من المحطة الى هنا
راسا .

- لطيف جدا . الان اذهب الى مقهى "يوم" في شارع
ليرسكايا . وتناول طعامك هناك . وسياتي عليك شخص
ستعرفين عليه من "يوس" ربما على شكل جمجمة . وسيقول لك

كلمة السر : «صحيح الله في الطريق الميمون» . عندئذ أرى هذا
(وقطع المثلث الكارتوني وأعطى تصفه لداشا) . أظهرية بحيث
لا يراه أحد . وسيعطيك تعليمات أخرى . طبعه طاعة مطلقة .
عندك فلوس ؟

وأخرج من محفلة الجيب وورقتين من فئة ألف روبل من عندنا
«الدوما» . وقال :

- سيدفع حسابك . حاول أن تحافظي على هذه النقود
للطوارئ في حالة الانهيار المباحث ، وللمشقة ، والهروب . كن
شري . يمكن أن يحصل لك . اذهبي . . . انتظري . . . هل فهمتي
جيذا ؟

نعم .

أجابت داشا متلعثمة ، وهي تملأ الورقتين النقديتين على
شكل مربع أصفر قاصغر .

- لا تذكر شيئا عن لثاقي معك . ولا أي شيء عن مجيئك
إلى هنا . الصرفي .

ذهبت داشا إلى شارع تفيرسكايا . كانت جامعة تعبي . مرت
أمام عينيها أشجار يوفار تفيرسكوي والمارة القليلون المتجهون
وكان كل ذلك تراء من خلال ضباب . وكانت ما تزال تسرع
باليهود . لكنها قد وضعت حدا لركودها المبلط . وجرفتها
الأحداث غير المفهومة لها مثل دوامة عاصفة . وحملتها إلى حياة
وحشية .

مرت بها امرأتان في تعليق ليفين وكانهما طلاق على شاشة .
والثنتان إلى داشا وقالت أحدهما بفحوت :

- لا تسحي . لا تكاد تقف على رجلها .

وتمت امرأتان فأرعة لهما شعر وخطه الشيب جميح لي
تسرعة تشبه عش فراب . وقد أحاطت بفهما غصون بالسنة
للغاية . وانطعت حيرة كبيرة على وجهها الذي على ما يبدو كان
جيبا في يوم ما . كانت تنورنها الطويلة السوداء مرقعة بقماش
مختلف وكانه عن عمد . وقد استكثت ضمة من الكتب تحت ثيابها

التي كانت تجر طرفقة على الأرض . توجهت إلى داشا بصوت
خفيض :

- عندي كتب روزنوف المتنوعة . والأعمال الكاملة
لتلاديسير سولوفيف . . .

وفي مكان إهد وقت بضعة شيوخ بلغون شيئا ما وهم
يحدثون على مصطبة حديقة . ولما مرت داشا بهم رأيت جنديين من
العرس الأحمر غارقين في نوم عميق على المصطبة متلاصقين
بكتفيا وقد فتحا فيها . ووضعنا يديفتيهما بين ركبتيهما .
وكان الشيوخ يشتمونها حسنا بكلمات بذيئة .

كانت الريح العاصفة تطارد القبار وراء الأشجار . دق جرس
تروم منفرد . ومراتسه المخلوطة تضرب بلاط الشارع . كانت
مجاجيع ومادية من الجنود تتعلق بالمرايازين وعلى مكان الفراجل إلى
العطف . وكانت العصافير تنط على رأس شمال بوشكين البرونزي
لا يهتما شيء من أمر الثورات .

استدارت داشا نحو شارع تفيرسكايا . وانحنبتنا من طهرنا
سحابة من القبار . وغطتها بقطع الأوراق . ودفعت بها إلى مقهى
«يوم» - المعقل الأخير للحياة القديمة اللاهية .

في هذا المكان كان يجتمع الضمير من كل المدارس .
والشعوب السايقون ، والمضاربون بالأدب . والشبان النشطاء .
الذين يكرهون أنفسهم للزمن المضطرب ببساطة ومهارة والفتيات
السميمات بالسام والكوكائين ، والقوضويين الصغار الذين يجنون
عن التسليات العادة . والزوار المنجلدون إلى أكل الكعك .

ما كادت داشا تحتل مقعدا في القس الضيف تحت شمال نصلي
لكتاب التهور حتى يسلم أحد الأشخاص ذراعيه . واندفع خلال
دخان التبغ . وجلس على مقعد يجوار داشا مقهقا بتداوة كاشفا
عن أسنان فاسدة . لقد كان ذلك هو الشاعر الكسندر جيروف
الذي كانت تعرفه منذ قبل .

- أحقت بك على ضاحة لوبيانسكايا . . . كنت على يقين من
الذك كنت في العربة . يا داريا بيمتريفتنا . قايمة مصادفة . من أين
جئت ؟ هل أنت وحدك ؟ مع زوجك ؟ هل تذكريني ؟ كنت في يوم ما
أعتصمك . وكنت تعرفين هذا . اليس كذلك ؟

كانت عيناه تدينين : وكان لا ينتظر جوابا عن اى سؤال ،
 على ما يبدو . وكان على عهد في الماضي - في سورة من الافعال ،
 سوى ان يشتره السقية قد ارتفعت . كان انفه المعكوف العريض
 في الاسفل يبدو كبيرا في وجهه الطويل النحيل .

- كم عانت خلال هذه السنوات ... شئ خيال ... جئت
 الى موسكو عند وقت تصير ... انا من جماعة الشعراء
 التصويريين : سيرغي يسينين ، بورويك ، وكروتسينغ . نحن
 نعلم ... حل حرت بكاترانية سفراستوى ١ حل وايت الحروف
 الكبيرة على الجدار ؟ تلك جراءة عالمية ... حتى البلاشفة
 ذاهلون ... انا ويسينين علمنا طوال الليل ... صرنا في شعرا
 مزيج العلاء ويميس المسيح بصورة شائعة ... فحش كولي ...
 في الفجر قرأته مجرذتان قطعت روحها في الحال ... داريسا
 فيتريفينا ، انا فضلا عن ذلك من الجماعة الموضوعية «الباشق
 الاسود» ... متحدثك اليسا ... لا لامحالة ... التعرفين من
 هو رئيسنا ؟ مامونت دالمسكي الشهير ... عبقري ... كين
 الثاني ... الجسور العظيم ... لم ينض اسرعان حتى تقبع
 موسكو كلها في ايدينا ... وبنها عهد عظيم ! موسكو تحت الريبة
 السوداء . قررتا ان نحفل بالتحضر . التعرفين كيف ؟ نعلن عن
 ارتفاع عام ... براميل الليبد في الشوارع ، وفي الساحات
 الموسيقى نرفعها جوقات عسكرية ... مليون ونصف متحرك
 سيتظهر تصفهم عراة ، وليس في ذلك اولى شك . وبدلا من الالام
 النارية ستفجر مآذان المدفعية في جزيرة لوسيتي . لم يشهد
 تاريخ العالم مثيلا كذلك .

وكان ذلك النظام السياسي الثالث الذي تعرفت عليه داشا
 خلال هذه الايام . والان لم نشعر الا بالخوف . حتى انها سميت
 جوعها . وانخرط جيوفو بالتفاصيل بعد ان رضى بالاتر السلي
 خلفه .

- اعلم لا تشعرين بعثيان دم حبي ترين ايفال المدينة
 الحديثة ؟ ان صدقتي فالتيت ، الرسام العبري - وانت تعرفينه -
 وضع خطة لتغيير وجه المدينة كليا ... المقصود تهديم كل شئ
 والبناء من جديد ، ولكننا لن نلحق في ذلك قبل الكرتفصال ...

بالطبع تقرر تهديم بعض المباني . المتحف التاريخي ، الكرملين ،
 وارجي سوخاريف ، وبيت بيرتسوف ... مستضع على طول الشارع
 حواجز من الاكواح باتلتاح البيوت مرسومة عليها تصاميم معمارية
 على طراز لا مثيل له وفي منتهى العناية ... والشجرة باوراتهسا
 اللذيذة غير مألولة - سنسحق الشجر بالوان مختلفة مستخدمين
 الرشاش ... فتصوري اشجار زيزقون سوداء في بولسار
 برنتيبيلسكي ، وبولفار تيفرسكوي ليلى بشكل منحوس ...
 قطاعة ... وتقرر ايضا اقامة اعمال تديس شمال بوتسكين غسل
 لطاق الشعب كله ... داريا دميتريفينا التذكيرين «التديسات
 العظيمة» و«مكافحة المألوف» في شقة تليفين ؟ كانوا يهزؤون بنا
 آنذاك .

رضح ضحكة سريعة كالتحفة وتذكر الماضي واقترب من
 داشا . ومن صدرها التناهة قليلا . وهو يوم .

- اذكركين يلزاهتنا كيفنا ؟ ذات العينين الشبيهتين بعيني
 الخروف ؟ كانت تهيمم يطيبسك الى حد الجنون . وعاشرت
 يسولوف . وروججا جادوف مقال فوضري بارز ... هو ومامونت
 والسكي ورفقانا الرليستيان . كما ان انتوسكا ارنولوف هتسا
 ايضا ا في عهد الحكومة الموقفة سيطر على كل الصحافة . كان
 يتلقت سياراتين وعاشر الاستقرائيات ... كانت عنده منغارية
 من فيلا روده ذات جمال صارخ . كان ينام معها والسسس في
 يد . ولقد سافر الى باريس في اموز الماضي . وكاد ان يعين
 سغرا ... الحمار ! لم يصدق ان يحول تقوده الى الخارج ، وهو
 الان يتشور جوعا كابن كلبية ، يا داريا دميتريفينا يجب ان تجاري
 العهد الجديد ... تعمر انتوسكا ارنولوف نفسه لانه اتخذ لنفسه
 شقة واسعة مزينة في شارع كيروشنشيا ، وانا ما ذهبا ، ومعدات
 العورة ، ومائة زوج من الاحذية . يجب ان نلحق ولنعلم ونلحق كل
 الخرافات ... حرية مطلقة متوشحة عمدا . هذا ما نريده ! ولن
 نكرر مثل هذا العهد ... ونحن نلحق تجربة عظيمة . وكل الذين
 نجرول وراء رقابية الطبقة المتوسطة سيهلكون ... سنسحقهم ...
 ان الانسان هو رغبة لا حدود لها ... ولخض صوت ، ومال على
 ان داشا ، البلاشفة قدارة ... كانوا جيدين اسبوعا واحدا

فقط ، في أكتوبر . . . ثم التزموا رأسا بمهمة الدولة - روسيسيا
كانت دائما بلدا فوضويا ، والفلاح الروسى فوضوى يواصله . . .
البلاتشفة يريدون تحويل روسيا الى معمل - حراء - لأن يستطعموا
ذلك . - عندنا ماخنو . وينطرس العظيم مجرد جرير امامه - ماخنو في
الجنوب ، وماموت دالسكى وجادوف في موسكو . . . مستحرق من
الجاتينين . اليوم ليلنا سناخذك الى مكان سترين بنفسك اى نطاق ...
مرافقة ؟ للعب ؟

منذ عدة دقائق جلس شباب شاحب ذو لعية مذبذبة الى الطاولة
المجاورة . كان يتفرس في داشا من خلال نظارته الالمانية من وراء
الجبنة - صنعتها تصورات جيروف الخيالية فلم تحاول ان تخرج .
وبدا لها ان هذه الافكار فوق الطبيعية كانت تتولد كالبروق في
سحب دشان السكائل ، طافت وجود غريبة متعنة العذفات تطبق
استانها على السكائل . . . ماذا كان فى رسمها ان تعترض ؟ يمكن
ان تولد شاكية ان قلبها يرتجف امام هذه التعاريف ، وبالطبع
ستضيق ولولتها في حدير الضحك المجنون والهرجلة والتهرج .

كانت عينا ذى اللعية المتذبذبة تتحسناها في مزيد مسن
الاصرار . رات في رباطه الفرمزى ججمة معدنية صغيرة - ديوسا .
فمزرت انه هو الذى يجب ان تلتقى به . رفعت جسدها قليلا ، الا
انه من رأسه مزة قصيرة مشيرة عليها بان تظل في مكانها . قلت
داشا عينها مغلقة . اشار الرجل بعينه الى جيروف . فهمست :
وطلبت من جيروف بان يجلب لها شيئا تأكله . عنه ذلك القرب
الرجل ذو اللعية من طاولتها وقال دون ان يفتح شفطيه :

- يصحبك الله في الطريق الميمون .
فتحت داشا حقيبتها ، وارت تصف المثلث . فطيسه الى
التصف الثاني ، ومزق التصفيين مرقا صغيرة .

سأل بسرعة :
- من اين تعلمين جيروف ؟
- هذا زمان ، في بطرسبورغ .
- هذا بلاتشا . يجب ان يعتبروك من جماعتهم . اقبل بكل
ما يقترح عليك . وغدا ، في مثل هذا الوقت ، تغالى الى تشفال
تعمل في بالغار برنشتيشتيسكى . اين ستقضين الليلة ؟

- لا ادرى .

- هذه اللعية الضخيمة اينما نشئت . . . المصن مع جيروف . . .
- انا متفكة بشكل فطوح .

وامتلات عينا داشا بالدمع ، وارتمشت يداها ، الا انها نظرت
الى وجهه غير الورد ، والى الدبوس ذى الجبجمة ، ففضت بصريها
مذتعة .

- تذكرى : السرية التامة . ولو قلت شيئا ولو عرقشا يجب
التخاض منك . فان الوقت حربى . . .

وتشدت على كلمة «التخلص» . وسعرت داشا بان اصابع
تدبها تنكمش . تقدم جيروف من الطاولة يجعل صحتين . تقدم
بنته الرجل ذو الدبوس . وعوج فمه الدقيق باهتمامه . ونسجت
داشا قوله :

- فتاة حلوة - من هي ؟
- اتركها بسلام . ليست معدة لك . يا يوركا .

وابدى جيروف له تطلعات استانه و كأنه يهدده او يتشم له ، ووضع
امام داشا خبزا اسود ولتائق وقدعا من سائل بنى ، وقال :

- اذن ، فانت في المساء غير مشغولة ؟
- لا فرق .
اجابت داشا . وقدست التفتائق بتلمذ موجه .

الترح جيروف عليها اللعاب الى غرفته في فندق «الوكسن» على
مسافة صغيرة في الجانب الأخر من الشارع .

- تأمن قليلا والمتسلم . وفي لحر الساعسة العائنة سأتى
اليك .

والشفل مضطربا وركض من مكان الى آخر . فقد ظل حسب
التكربات المدينة يحتفظ بشعور الوجل في حضور داشا بعض الشيء .
لانت غرفته ذات متائر من قماش مقصب . وبساط ودى . وكان
سريه يمت على الرية حتى انه ادرك ذلك بنفسه . وانفزع على
داشا الاستلقاء على الاركة بعد ان رفع عنها الجرائد والمخطوطات
والكتب ، وفرض مفرشا وقطعة من الفراء الاسود لزعت من معطف

تمين ، وارسل شحكة وخرج ، خلعت دانتا حدانها . كان حقوها
ورجلها وكل جسمها يئن تعبا . فاستلقت واستغرقت في النوم
حالا متدفقة بفراء سيك قيه رفيق خليف من راحلة عطر
وحبوان وفتالتين . ولم تسمع كيف دخل جيروف ، والحنى وانظر
اليها ولا الصوت العميق الذي صدر في الباب من وجسـل فخرم
حليق شبيه بروماني : «طيب ، شغعا الى هناك ، وساعطيسك
مذكره» .

وكان النساء قد تقدم كثيرا حين نهدت دانتا واستيقظت .
كان هلال اسفل فوق سطح البيت ينعكس مهنسا على زجاج
النافذة . وتحت الباب امتد خط من الضوء الكهربائي . وتذكرت
دانتا اختيارا اين هي ، وليست جوربها على عجل ، وسوت شعرها
وتوبها وذهبت الى المغسلة . كانت الفتلة من القلادة حتى ان
دانتا فكرت وهي تخرج اسابعها التي كان الماء يقطر منها . وصحت
بطرف تنورها من الجواب الاخر .

وداعها اساسا حاد بالرحمة من كل سوء الحظ هذا ،
وحقها الاستمزاز فودت لو تهرب من هنا الى بيتها ، الى النافذة
التيطية تطير الخطايف خلفها ... ادارت راسها ونظرت الى الهلال
ميتا مشوها متدلليا فوق موسكو ، لا ، لا ، لا مجال للعودة .
الصوت في وحمة على الكرسي عند النافذة فوق جادة
كامينواستروفسكي المقفرة والامتداع الى الاطوار تسمر على
البيوت ... لا ... لكن ما يكون ...

طرق الباب ، ودخل جيروف على اطراف اسابعه .
- حصلت على ترخيص . لتذهب ، يا داريا دميتريفنا .
لم تسأل دانتا اي ترخيص هو ، ولا الى اين تذهب . وضعت
تبعثها البيئية الصنع ، وتناطت حقيبتها التي فيها الافغان مسن
الزويصلات . وخرجا ، كان ضوء القمر يعمر جانبا من جادة
تفيرسكوي . ولم تكن المصابيح مشتعلة . سارت دورية بطيء في
الشارع المظلم صامتة تصرب الارض بأحزبها الطويلة .

انظف جيروف الى بولفار ستراستنوي . كانت تقع من ضوء
القمر ترقد هنا على الارض غير المستوية . وكانت الظلمة العالكة
تحت اشجار الزيفون تبعث الرهبة في النفس . وبدا ان شخصا

تد مرق في هذا الظلام الى الامام . توافق جيروف ، وكان في يساره
مسنس .

وقف قليلا ثم صفر . فاجيب عليه من هناك . قال بصوت
اهل قليلا : «من جماعتكم» . فاجاب بصوت واضح متكاسل : «متر ،
يا رفيق» .

انطفا في شارع ماليا دميتروفكا . فقابلهما هناك تشكصان
في سترتين جلديتين عمرا الصارخ بسرعة . ولكن بعد نظرة صامتة
تركاهما يمران . عند مدخل نادى التجار حيث كانت تتدل رايحة
سوداء من الطابق الثاني فوق المدخل خرج اربعة من وراء الاعمدة
وصوبوا مسدسات . اتمرت دانتا . وقال جيروف غاضبا :

- ما هذا في الواقع ، يا رفائق ؟ تعويف عن عيبت . عندي
ترخيص من مامونت ...

- انا .
فحص الاربعة الترخيص في ضوء القمر وقد اخلوا خدودهم
المرداء في اياتهم المرفوعة . وسحبوا طليسات طافياتهم على
عبراهم . وجد وجه جيروف وكان العيادة قد غادرتسه ، وارتمست
عليه ابسامة . سال احد الاربعة بفظافة :

- ولمن ؟
- لهذه الرفيقة ، - وامسك جيروف بيد دانتا ، - انها
فنانة من بتروغراد ... يجب ان تكسى ... تمتل في جماعتنا ...
- حسنا ، ادعيا ...

دخلت دانتا وجيروف في وراق مضاء بشوه باعت ، وقد وضعت
رشاشة على المرح . وجاء القومندان ، وهو طالب تصير متفسخ
الغدين في ستره من بزة طلابية ، وطريوش . قلب الترخيص طويلا
وهو يقرأ . وسأل دانتا وعقا :

- ماذا تحتاجين من اشياء ؟
اجاب جيروف :
- امر مامونت بان تكسى من القسم حتى الرأس ، يا حسن
يا لدينا .

- ما تعني بعبارة «امر مامونت» ؟ . - جان الوقت ان تعرف
يا رفيق انه لا توجد اوامر هنا ... ليس هنا حانوت ... (وهنا

احسن التومندان بان فقدم بحكمه ، فقلص عينيه بشملة ، وهرس ،
حسنا - لتذهب .

أخرج مطلقا ، وسار الى الامام الى مشجب المعاطف السابق ،
حيث يوجد الآن مستودع دار القوضوية .

- داريا دميتريفينا ، اختارى ولا تخجل ، كل هذه الاشياء
تعود لتذهب .

1 - وأشار جيروف بشميرة قريضة من ذواته الى حشاه
علقت عندها لفافات من قراء السمور والفاسم والصلب الفص
والمطاف من قراء الارانب والقرود وعجل البحر - كما وضعت على
المقاعد ، والليت كروما على الارض ، وامثال حطاب مقنوحه
بالسائر والملايس الداخلية وعلب الاحدية . وبدا وكان مغايز
كاملة من الاشياء الفاخرة قد جلبت الى هنا ، تخدم التومندان غير
ميكروت بهذه الوفرة وقد جلس على صندوق .

- داريا دميتريفينا ، خلى كل ما يروق لك ، ساعلمها لك .
وتصعد الى الاعلى ، وهناك ستجدان ثيابك .

ورغم كل ما يمكن ان يقال عن مشاعر داشا المغفرة ، فقد
كانت قبل كل شيء امرأة - تودد خداعها ، قبل امتنوع ، عندما كانت
تتهافت كزينة الوادي قرب النافذة - تتخيل ان الحياة قد انتهت
ولا شيء تنتظره ، ربما لم تكن تفرحها اية كنوز في العالم -
لما الا ان وقد افتتح جوهها كل شيء ، فان لما كانت تعتبره
ميتا وجامدا في نفسها عادت اليه الحركة . ودخلت في تلك الحالة
المبهمة ، حيث الرغبات والامال المتبقية تنطلق مندفعة في
الضباب المغلق للغد الاثني ، بينما الحاضر يرتعد في ركاب كمزق
مجهور .

ولم تعرف على صوتها ، وادعشتها اجوبتها وتصرفاتها
وهذوها التي تقبلت به الفنتازيا في تدور حولها ، واصت
بفرية حفظ النفس التي ظلت غائبة فيها حتى تلك اللحظة ان
عليها الا ان تنشر اشروعها وتطلق ملقبة بالصولة وراء حاجز
سلفيتها .

مدت يدها الى فلاح من السمور الرمادي .

- اعطنى هذه ، من فضلك .

نظر جيروف الى التومندان فهز هذا خديه موافقا ، تناول
جيروف الملاح ، والتاء على كتفه . انحت داشا على حقيبة كبيرة
مفتحة - وللحظة احست بالتمزق من اشياء الآخرين هذه - وادخلت
يدها حتى العرق في كومة الملابس الداخلية .

- والهداء ، يا داريا دميتريفينا ؟ خلى هذه شيولا للمطر .
والزينات السائبة في هذا الدولاب . ايها الرقيب التومندان اعطنى
المفتاح . - الزينة بالنسبة للفتاة اداة الانتاج .
قال التومندان :

- خذا ما تسامان ، لا يهمنى .

صعدت داشا ووراها جيروف يحمل الامتعة الى الطابق
الثاني ، ودخل غرفة صغيرة فيها مرآة حطتها وصاعة - لحت
داشا بين الصموج التسيبة ينسج العنكبوت على المرآة المغشاة
امرأة متشغلة بازدهاء جوب حريرى بنطه - وضعت عليها قميصا
رقيقا ، وارتمت سرولا داخليا مدلتا ، وتخطت بقائها الجيسل
وابعثت جانيا ثيابها الداخلية العفوية . والتت فراء على كتفها
التحفيثى العاريتين . . . ومن انت ، يا روس ؟ موسم ؟ سألها ؟
اسة ؟ ، ولكنك لطيفة جدا . . . اذن ، فان كل شيء لي في
المستقبل ؟ لا بأس ، سندبر الامر فيما بعد على نحو ما . . .

كانت القاعة الكبيرة لمطعم «متروبول» الذي احبته تمايل
في اكربر مقلقة لا تعجل ، ولكن الطعام والتببسة كان يقدم في
الباصير ، لان نصف الفندق كان يحلله الاجانب ، وهم في معظمهم
المان ، واولئك المضاربون المستيئون الذين استطاعوا الحصول
على جواز ايجينى - ليتواني او بولسوى او فارسى . والمضربون في
المقاهير المغلقة يضحون كبا في فلورنسا اثناء الطاعون . وكان
يسمح لاهاق موسكو الاصليين بالدخول الى هناك بوساطة
العارف ، ومن باب خلفى ، وهؤلاء في معظمهم ممثلون واتون من
ان مساح موسكولن تبهر حتى نهاية الموسم ، وان الهلاك المحقق
تصيب المسارح والممثلين معسا . وكان المشلولون يشربون
بالفرام .

كان ماموت والسكنى المتشعل العزاسى ، والتراجيدى رزح
 هذه المباديل الليلية ، وكان اسمه الى عهد قريب لا يقل صدق عن
 اسم روسيه . كان رجلا ذا طبع وحشى جميل اللطيفة . مقارفا .
 مجنونا شديد الطبع ، خطرا ، مهيبا مكررا . وقد اضفى في السنوات
 القليلة الاخيرة لا يمثل الا نادرا ، وفي الجولات الفنية فقط . وكان
 يتردد على دور القمار في العاصمة ، وفي الجنوب ، وفي سيبيريا .
 وقد رويت روايات عن خسارته القادحة . وبدأ يشغى . وكان يقول
 انه سترك المسرح . وفي اثناء الحرب اشترك في سفقات غامضة
 في الاسلحة . وعندما بدأت الثورة ظهر في موسكو ، واحس بوجود
 المسرح التراجيدى الجبار واراد ان يلعب فيه دورا وليسياسا في
 المسرحية الجديدة على غرار «المصوص» لشيلر .

وبدا يتحدث بكل يقين مثل عميرى عن الفوضوية المقدسة ،
 وعن الحرية المطلقة . وعن نسبية المبادئ الخلقية وعن حق كل
 شخص في كل شيء . ويذر في موسكو الهياج في الافكار . وعندما
 بدأت بعض جماعات الشباب مدعومة باشخاص محكومين تصادر
 منازل الامتياز ، جمع هو هذه الجماعات المنفرقة من الفوضويين ،
 واستولى على نادي التجار بالقوة . واعلمت دارا لفوضوية . ووضع
 السلطة السوفيتية امام حقيقة واقعة . ولم يكن قد اعلن بعد
 الحرب على السلطة السوفيتية ، ولكن خياله ، دون شك ، كان
 يتخطى مستودعات نادي التجار والمباديل الليلية . عندما كان
 يتحدث وهو واقف في النافذة ، امام الناس المتجمعين في فناء دار
 الفوضوية ، وبعد ايماءته الرومانية تتطاير على الناس في الفناء
 البتاطيل والاذية وقطع القماش ، وزجاجات الكونياك .

عندما دخلت داشا المقصورة في «متروبول» مع جيروف كان
 اول من رآته هذا الرجل يوجهه الكتيب وكأنه صب من برؤز . وقد
 الطرعت عليه السوروات والاحواء والحياة الصاخبة مثل لغات مشهور
 حفر عليه العضون والتجمعات وخطوط القسم الناعمة عن الحزم
 والحك والرتبة المحنفة باليافة الناعمة العترة .

كان غطاء البيانو مرفوعا . وكان رجل حليق نحيل في سترة
 مغليسة ، راسه الى الورا ، يلحق اسنانه على سيكارة ، وسهل
 رموته على عيبيه التدريئين . يعزف على البيانو لحنا جتازيا . والى

ماتمة حلفت بعدد كثير من الزجاجات الفارغسة جلس عدد من ذوي
 الصيت الواسع . وكان احدهم ، وهو رجل الالف اسند ذقنه
 البارز على راحته حتى ان وجهه الناعم قد انفض . يرفع صوته بفناء
 كنانيس مثلا القس . اما الآخرون ، وهم معاجج له وجه كالجرة .
 وممثل قماش عيوس متدل الشفة ، وممثل لم يعلق منذ ثلاثة ايام
 له الف مديب . وغاشق في منتهى السكر ، ورجل عظيم ذو صيت
 ذائع خدعت جبينه اغايد عيشقة في مظهر صاح كليا ، فقد كانوا
 ينسبون الى الغناء جماعيا عند الضرورة .

وكان الارشيدوق من كنيسة «المسيح المخلص» وهو رجل
 وسيم سرى الشيب في شعره يضع نظارة ذهبية ثقيلة مهداة له من
 تاجر موسكو يسير على البساط جينة وفعايا مفلوحا بكمي مغفارته
 الكهنوتية مرردا اللازمة . وكانت اقداح البلور تهتز من ليرة صوته
 القوية . كانت المقصورة مزينة الجدران بحريز داكن الحرة . وحل
 الباب مدول من القماش المقصب وحاجز ثلاثي المصارع .

كان ماموت والسكنى يقف متكنسا على هذا العايز . وكان
 ينسك شدة من ورق اللعب . وكان يرتدى بدلة شبه عسكرية :
 سترة الجلزية التنصيل ، وبنطلون زكوب في مربعات ، عجيزته
 من الجلد ، وحذاء طويل اسود . عندما دخلت داشا ضحك بغيت
 وهو يسبح الحالا جتايزية .

قال الشخص الجالس الى اليناو :

- جمال صارخ . يجئن !

ارتفعت داشا وتوقفت . نظر الجميع اليها ما تلا بالسكنى .
 وقال الارشيدوق :

- جمال روسى صرف .

وقال الرجل العظيم :

- تعالى اجلس معنا ، يا ااسة .

حسن جيروف :

- اجلسى ، اجلسى .

جلست داشا الى العائلة - اغل الجالسون يتقبلون يديها بعد
 ان تكفروا والحنوا ببهاية ، وكانها ماري ستينوارت - وبعد ذلك
 استمر الغناء . وضع جيروف بعض الكليار والمشبهات في صحن

دائماً ، ويجعلها تشرب مشروباً حلواً محرقاً . كان الجو خائفاً
وأشأنا . وبعد الشرب المطاط القث دأشاً فراعاً ووضع يديه
العاريتين على المائدة . فلقنتها هذه الكلمات العزينة ، وكلمات
الغناء القديمة . ولم تصرف بصرها عن ماموت ، وكان جيرو
قد حدها عنه في طريقها الى هنا . ظل على وقفته الجانبية عند
العابر ، وكان إمساً في سودة من الحلق أو سكران الى حد فقدان
الوعي .

قال بصوت عميق ملا إرجاء المتصورة :

- إذن ، يا سادة . لا يريد أحد ؟

- لا أحد . لا يريد أحد أن يلعب معك . نحن في غاية المرح
دون حاجة الى لعب . فاركنا على حالتنا . وأهدا .

قال ذلك ذو الوجوه المضطرب بصوت أعلى البيرة سريع
ثم اضاف :

- هيا ، يا شأنا . اعزف الترتيلة السابعة .

التي يأنسا الجالس الى البيانو رأسه الى الوراء تماماً ، ووضع
اصابعه على المفاتيح مقلدا عيشته . قال ماموت :

- بلا فلوس . ، ، بصقة على فلوسكم . . .

- ومع ذلك لا يريد ، فلا تلح ، يا ماموت .

- اريد ان لعب على طلقة . . .

بعد هذا صمت الجميع برهة . مرر البطل ذو الالف المديب
كله على جيبته وشعره ، ونهض واخذ يزور صفاؤه :

- انا لعب على طلقة .

امسكه البطل الفكاهي صامتا ، ووقع عليه بجسده الثقيل ،
واجلسه في مكانه . صاح البطل :

- انا اقسم بحياتي على ان في يد ماموت الوغد ورقساً
معتاداً . . . لا ايم . دعه يوزع الورق . اتركني . . .

الا انه عجز . وقال المحاجج ذو الوجه العريض من الاسفل بلهجة
ناعمة :

- لا توجد نظرة واحدة من التبيد . ماموت ، هذه شائعة ،

يا عزيزي . . .

عندئذ التي ماموت والسكي على طاولة التلفون شدة الوراق
ومنسسا ارماتيكيا كبيرا . وامتنع من شدة القيد وبهه الضخم
البعوث . وقال مقلدا الكلمات :

- لن يخرج احد من هنا . سنلعب . كما اريد . . . شدة
الورق هذه غير مملعة .

واستنشق الهواء بقوة من متخزين عريضين ، وتندلت شفته
السفل . وادرك الجيسع ان اللحظة الخطرة قد حلت . مرر بصره

على وجوه الجالسين الى المائدة . عزف يأنسا باصبع واحدة ثم
الغنية شائعة . وبقوة ارتفع حاجبا ماموت الاسودان ، ولعبت المعشة

في عينيه العميق الغور . فقد وقع بصره على دأشنا . سرت برودة
سريعة في قلب دأشنا من تلك النظرة . تقدم ماموت منها بدون

ترنح ، وامسك الطرفا اصابعها ، ورفعها الى شفته الجانبين
المتشققين ومسها دون ان يقبلها :

- تقولون انه لا يوجد تبيد . . . سيكون جاهزاً . . .

فق الجرس وهو ما يزال يمتحن في دأشنا . دخل الغادم
التتري . وبسط يديه : لا توجد زجاجة واحدة . شربت الخمرة

كلها ، والقبور مفلق ، والمسؤول قد خرج . عندئذ قال ماموت :

- انصرف .

وتقدم من التلفون وكان النظار الف من المتخرجين صوية
تعود . وادار رقبا : نعم . . . انا . . . والسكي . . . ارسل

دورية . «متروبول» . . . انا هنا . . . بسومة . . .
لمر . . . اربعة بكلي . . .

ورضع السماعة ببطء ، وانكأ بكل جسده على العائط ،
وطوى يديه على صدره . مر ما لا يزيد عن خمسة عشر دقيقة ،

عزف يأنسا على البيانو العائنا من سكرياين بخفوت . ودار رأس
دأشنا من هذه النغمة الاليفة الآتية من الماضي . وانقضى الزمن ،
وارتفع القماش المنسحب القطني على صدر دأشنا وانخفض وتدفق

الدم الى اذنيها . حسن جيروف ، ولكنها لم تسبح .
كانت متفلسة تشعر بسعادة الشعور ، وخلة الشباب . وخيل

اليها انها قد طارت مثل فاعقة الفلقت من عربة اطفال ، اعلى فاعل
يستكل يدبر الرأس . . .

مسد الرجل العظيم ذراعها العارية . وتمت بابوة :

- لا تنظري اليه بهذه الرقة ، يا حيزرتي مستحي
عيناك . . . في ماموت شره شيطاني دون شك . . .
في تلك اللحظة انفتحت فجأة ذقنا الباب ، وظهرت وراء العاجز
اربعة رؤوس في كبيبات ، واربعة اكمام جلدية تضغط على عفاض
لتأبيل يدوية ، وعتف اربعة من الفوضويين بتهديد :
- لا تتحركوا من اماكنكم ! ارفعوا ايديكم !
قال دالسكي بهدوء :

- دعوهن . كل شيء على ما يرام . شكرا . يا رفاق .

وتقدم منهم ، ورفع جسمه من فوق العاجز وراح يشرح لهم
شيئا ما همسا . اومأوا بكيبيباتهم ، وانصرفوا . وبعد دقيقة ترددت
اصوات منفرجة ، وسيمية مكتومة ، وهز الجنران انفجار اصم الرنين
هزا خفيفا . قال ماموت :

- هؤلاء الجراء لا يستطيعون ان يؤدوا امورا دون اشارة
تفجة .

ودق الجرس ، وفي الحال دخل المصورة الغادم شاخبا الوجه
واستأنه تضطك . قامه ماموت :

- ارفع كل شيء . وضع اقداما نظيفة للنبية . يا سنا ، كفاك
تعديبا لامعاسي . اعرف شيئا حيا . . .
وبالفعل ، ما ان فرش الغادم مفرشا نظيفا على المائدة حتى
دخل الفوضويون ثانية ومعهم عدد كبير من الزجاجات . وضعوا على
البناسط زجاجات الكونياك والويسكي والليكيور والشمبانيا .
واختفوا صامتين ايضا . ترددت حول المائدة متفافات الدعشة
والانتراح . واضع ماموت الامر قائلا :

- امرت بان يصادر 50 بالمائة فقط من الخمر الموجود في
الغرف . وان يترك النصف الآخر الى اصحابه . يمكن ان ترتاح
ضما نركم . فكل شيء على ما يرام .
عزف يا سنا لعنا احتفاليا . وتطارت سدادات الشمبانيا .
جلس ماموت الى جانب داسنا . بدا وجهه المنار بمصباح الطاولة
اكثر عظمة وشيها بوجه منحوت . سأل :

- اليوم رايتك في "لوكس" . كنت نائمة . . . من انت ؟

اجابت وهي تضحك من دوار في راسها :

- لا شيء فاجأة . . .

وضح يده الكبيرة العازة على كتفها العارية . وانفذ يحدق
في عيناها . ولم تهتد داسنا . لم تصغر الا بالطفه تحت ثقل اليد على
كتفها الباردة . وقعت لدح الشمبانيا من سائله المتبقية . وعبرت
حتى الثمالة . سالها :

- لست لاحد ؟

- لست .

عندئذ سر في اولها بثيرة ارايميدية :

- عيش . يا طفلي . بكل جوارحك . . . من حسن حظك
انك التقيت بي . . . لا تخافي . لن اشوه شبابك بالحب . . .
الارح لا يهينون ولا يطليون حيا . . . عطيل نار موقدة من القرون
الوسطى ، محكمة نفتيش . سحسنة شيطانية . . . ووميسو
وجيوليت . . . اوه . انا اعرفك انك لثنائقي اليهما سرا . . . ذلك
عراء شقيق . . . نحن نهم كل شيء من الاعلى الى الاسفل . . . نحن
منعرق جميع الكتب . ومنتهدم المتاحف . . . يجب ان ينسى
الانسان القرون الماضية . . . الحرية في شيء واحد : الفوضوية
المفلسة . . . حريق الاهداء الهائل . . . لا ! لا تنتظري الحب ولا
السلام . يا حسنا . . . انا احورك . . . احطسب عندك افلال
البكرة . . . اعطى لك كل ما سيخطر على ذهنك في الفترة ما بين
عناق وعناق . . . اطلب . . . اطلب الآن . . . ربما سيفوت
الاولان لغدا .

ومن خلال هذيان الكلمات هذا كانت داسنا تحس بكسبل
بشرتها فوران الهوى الثقيل الى جانبها . واستولى عليها الذعر كما
يعتد في العلم . حين لا تقوى على الحركة . ومن طلمة العلم تقدمت
عينا ومن مشهبتان . ليلقيها ارضا . ويطاها . ويسحقها . . .
وكان اقلع من ذلك ان رغابا قريبة لاذعة خائفة كانت تتولد في
داخلها للاستجابة له . . . واحسبت بكل كيانها كامرأة . . . ولعلها
كانت في تلك اللحظة مضطربة وجديدة حتى ان الرجل العظيم مال
نحوها . وقال بعهد وهو يفرح كاسها :

يسود ما حولها والغوا . ما من كركبة لمجلات ، ولا اصوات عالية . لان المجلات كلها قد طمعت الى العرب ، والسابلية سامتون ، وكان نوبل في مقدمه الغرائبي يتعنى تحت ثقل معطله المبيع يترق العصافير . من رجلان ملتحيان دون ان يلحظا داشا : نظر احدهما الى الارض ، والاخر الى الانشجار . وترامت نطف من خديهما :

- اندحار تام . . . فطبع . . . ما العمل الآن ؟

- ومع ذلك فقد احتلت سامارا ، واحتلت اوقا . . .

- لا اصدق الآن يباى شيء . . . لن يتبقى هذا الشتاء .

وتعنى احياه . -

- ومع ذلك فدينكيتي تصرف في الدول . . .

- لا اصدق ، لا شيء يتقى . . . هلكت يا بابل ، وهلكت روما . . . ونحن ايضا سنهلك . . .

- ومع ذلك لم يعتقلوا سافينكوف . ولم يعتقلوا نيبيروف . . .

- لا اهمية لذلك كله . . . كانت روسيا ، والان لا وجود لها . . .

وعزت ايضا تلك المرأة الشابية التي اخرجت من تحت سألها بالأمس ، وهي خالفة ، مؤلفات روزانوف . اشاعت داشا بوجهها

عنها : اقترب من مسطبتها غلسة شاب يضع دبروس جمجمة .

نظرت فيما سوله . وعدل نظارته الانفية ، وجلس الى جانب داشا :

- قضيت الليلة في «متروبول» ؟

انزلت داشا رأسها ، وودت معركة شفيتها بلا صوت :

نعم .

- ممتاز . وجدت لك غرفة . انتقل اليها مساء . لا تقول

لجيروف كلمة واحدة . والان لنمخل في الموضوع : هل تعرفين

لينين بالنظر ؟

- لا .

اخرج عدة صور فوتوغرافية . ودسها في حقيبة داشا . ولبت

جالسا يسندك بشعر لحيته ويعضه . واصنك يدى داشا

المستلقيتين على وكتبتها بلا حياة ، وعرضا :

- مامونت ، انت تعذب الطفلة . . .

وتبى دالسكي ، وكاننا اصيب بطفلة . وضرب المائسة .

فلزت الاقداح وسقطت :

- سارمى كل من يمس هذه المرأة !

واندفع الى طاولة التفلون . حيث كان الشمسس . وتهض

جميع من كانوا الى المائدة . متعجن المقاعد . وانفس ياشا تحت

البياض . تتدكدل تمطقت داشا بيد مامونت العائمة للشمسس ، دون

ان تعرف كيف حدث هذا . وتوسلت اليه بعينها . اسنك ظهرها

التحيل الى الاسفل من دفة كتفها ، ورفقها ، واطبق قبه على فيها ماسا

استانها ياستانه . تاوعت داشا ، وفي تلك اللحظة دق التفلون ، ترك

مامونت داشا تجلس على القعد (المثلقت عينيهسا بيديها) وحظف

سماعة التفلون :

- نعم . . . عاذا تريد ؟ اساعشغول . . . نعم . . . اين ؟

في شارع هياميتسكايا ، جواهر ؟ تينسة ؟ ساكون بعد عشر

دقائق . . .

فس الشمسس في الجيب الخلفي . وتقدم من داشا ، وطوق

وجهها بيديه ، وقبيلها عدة قبلات لهمة ، وخرج بعد ان اشار بيده

مودعا كالروماني .

قضت داشا بقية الليل في «لوكس» . ونامت كالهيئة دون

ان تخلع الستار من العماش اللبس المتسب . (نام جيروف في

الحمام خوفا من مامونت .) ثم كانت تجلس حزينة حتى منتصف

النهار قرب الثالثة لا تتحدث مع جيروف ، او ترد على اسئلته .

وفي نحو الساعة الرابعة خرجت ، وانتظرت حتى الساعة الخامسة في

بولفار بريشميستسكي ، لي الساعة عند تمشال فوغل الطويل

الانف . حيث كان في الاسفل اطفال تلهوا ، يعملون بهدوء فطائر من

التراب والرمل .

كانت داشا قد عادت تتردى ثوبها القديم وقبعتها المصنوعة

بيتيا . كانت الشمسس تدق ظهرها ، الشمسس المطلة على حياء

بالسة . كانت للاطفال وجوه صغيرة شالعة من الجوع . والهدوء

- المسألة هي كالاتي - الفلسفية هي لينين : هل تفهمين ؟ ونحن نستطيع ان نعلم الجيش الاحمر ، ولكن لن ننصر ما دام لينين في الكرملين - معلوم ؟ انه نظري ، انه قوة ارادية ، واعظم خطر على العالم كله ، وليس علينا فقط . . . تكسرى واجيبى بحزم : موافقة انت ام لا ؟

- اتفله ؟

سألت داشا وهي تنظر الى طفل عارى البطن يتزاح معوج الساقين ، تلوى وجه الشاب ، ونظر الى لينين ، وتلصص عينيه نظرا الى الاطفال ، وعاد يغمض شعر لعينه .

- لا اعد يقول ذلك . . . واذا كنت تفكرين به فلا حاجة الى ان تنطقى به بصوت عال . . . لقد قبلناك عضوا في منقلقتنا . . . أمن العقول انك لم تفهمى ما كان يقوله سافينكوف ؟

- انه لم يتحدث معي . . . (ابتسم الشاب بسخرية) آه ، يعنى ، ذو المندبل كان . . .

- خطفى صوتك . . . نعم ، الذى تحدث معك هو بوريس فيكتوروفيتش . . . لقد وضعت فيك ثقة هائلة . . . نحن بحاجة الى اناس جيد . . . فقد حدثت انقلابات كبيرة . . . انت تعرفين بالطبع الى خطرة التهمة في سزاوان فضلا . . . وينقل عيل المركز الى مكان آخر . . . ولكننا سنترك المنظمة هنا . . . ومهمنا ان تترابى خطب لينين ، وتحضري اجتماعات عامة ، وتترددى على المصانع . . . ولن تكسوى وحينه في المعسل . . . سيخبرونك بنتفلاته من الكرملين ، وبالاماكن التى يتوقع ان يلقي فيها خطبه . . . واذا تعرفت على شيوعيين اطلبي المشور الى العزب . . . فان ذلك سيكون الافضل . . . تأييدى الجرائد ، والترتبى المنشورات . . . والتوجهيات الاخرى ستحصلين عليها غدا في الصباح ، في هذا المكان . . .

تم اعطاهما العنوان السرى ، وكلمة السر ، وقدم لها مفتاح الحجرة . وسار متجها نحو شارع اريات . اخرجت داشا الصور من العقيبة ، واطالت النظر فيها ، ولكن حين بدأ يترابى لها - بدلا من هذا الوجه - الوجه الاخر الذى خرج من وراء الستار القرمزى

في الليلة الماضية ، الملتقت العقيبة بشدة ، وضعت ايضا متجسمة مزومةة الشفتين . حاول الطفل الصغير ذو الساقين العجوجتين ان يلحظها ، الا انه وقع بجسده الرخو على الرمل ، وبكى بحة .

كانت حجرة داشا تطل على الغشاء في منزل غرب في شارع ستيفيف فراجيك . والظاهر ان البيت كان مهجورا . طرقت داشا باب المعطل العلفى وقتنا طويلا حتى استقبلتها امرأة عجوز تصيرة نذرة الثياب لها جفان مقلوبان تبدو من هينتها انها مربية تعيش في بيت مخدوميهما . ضلّت وقتنا طويلا غير فاعمة شيئا لم سمحت لداشا بالدخول اخيرا ، وقادتها الى حجرتها ، واخذت تتحدث حديثا غير مفهوم .

- طار الصقور متفرقين : بورى يوريتش وميخائيل يوريتش وفراسيل يوريتش . اما كامستكا * فقد بلغ السادسة عشرة في عيد القديس توماس . . . اعدت اصلي لسكنية زوجهم . . .

ولفتت داشا ان تشرب الشاي ، وشملت ملايسها ، ودخلت تحت الحشاف ، وفي الظلام ذرفت الدمع حزيرا وهي تسد فمها بالوسادة .

وفي صباح اليوم التالي تلمقت عند تمثال ثوغل تعليمات وامرا بالبحرور في مصنع في الغد . وفكرت بالعودة الى بيتها ، الا انها عدلت عن ذلك ، وذهبت الى مقهى «يوم» حيث وجدت جيروف وظل ملتصقا بها يسألها اين اختفت ، ولماذا انصرفت دون ان تأخذ اشياها . «انا انتظر من ماموت نداء تلفونيا فعاذا اجيبه عندك » - اشاحت داشا بوجهها لللا يرى خديها البحرين . . . وفكرت مع نفسها وهي تمس باثا تكذب : «على كل حال تقضى التعليمات بان اتابع صحبتى لهم . . .»

قالت لفاضة :

- سأتى لأخذ الاثياء . وهناك سترى .

وعادت الى بيتها تحمل لفة فيها فناع الفرو الثمين والملايس الماخلية وستان الامس . وفكت اللفة في حجرتها ، واقتها على

* سبعة تدليل لاسم فاسيل . - المتزوج .

التعريف ، ونظرت اليها فتملكتها وعدة حتى ان استألتها اصطفت ،
واصحت من جديد بتلك يده عن كنهها وببرودة استأنسها . . .
وركعت دلنا امام السرير ، واخفت وجهها في الفراخ المعطر ، وظفت
تكرر مقهولة : « ابي شيء ، هذا ، ابي شيء هذا » . . .

وفي الصباح لم يست حسب ما اوصيت به : فاستألتا واكن
الثوب من القماش الرخيص جذبها الثياب ذو الدبوس ، وشدت
شعرها بتعديل على طريقة البروليتاريات (وكان عليها ان تتظاهر
بانها خادمة سائلة في منزل احد الاثرياء المقتصدتها سيدها) ، وركبت
التزام الى المصنع .

لم يكن معها ترخيص ، فغمر لها الحارس المعجوز عند الباب
غائلا : « ذاهبة الى الاجتماع ، يا فتاة ؟ ادخل العتري الرئيسي » .
سارت على رصيف من الالواح الخشبية المتكلسة عبر اكومل من
الحديد الصلدي ونظاية الصور ، وغير توافد ضخمة متعلمة . وكان
الساكن حولها خائبا ، والمدافن ترسل الدخان يهدوه في السماء
الصافية .

اشاروا لها الى باب ملطخ في جدار . فدخلت الى قاعة طويلة
اجرية . وكان الضوء الكتيب ينطف اليها من خلال سقف من الزجاج
المتسفر . وكان كل شيء مجرد عاريا . وكانت سلاسل الرفعات
تدلل من المنصات ، والى الاسفل اعتمدت عوارض التحويلات ، وتلدت
احزمة النقل على بكراتها بلا حراك . واندعشت عينها غير المجربة
لمراعي مساندة الالات السوداء والاشكال الواطئة والطويلة والشماعنة
الاطراف الالات السجع والتقيب والتقوير والفرزة والمخارط ،
والاقرام الحديدية لمكان الاحتكاك . ولمعت دائما في شبه الظلمة
وراء طاق عريض مطرقة بخارية ضخمة .

في هذه الورشة كانت تصنع الالات والاجهزة التي كانت تملا
الحياة وزرا ، جدران المصنع الكالحة بالضوء والدفء والحركة والمعنى
والترقب . هنا كانت الرائحة البريانية الحديدية وزيت الساكن والتراب
وتبع المانوركا . كان جمهور غفير من الناس يقف امام منصة من
الالواح الخشبية ، وكان الكثيرون جالسين على مساندة المخارط ،
وعلى افاريء التوافد العالية .

شفت دائما طريقها اقرب الى المنصة . التفت ثياب ضخم .

وكشف ابتسامته العريضة عن استئانه النيشا ، في وجبة ملطخ
بازيت ، وأشار يراسه الى ثقبه ومد يده - سعادت دائما الى
التضاد عند لاقفة . وحولها عدة آلاف من الرؤوس - وجود عابسة
وجهد متفحصة - واقواء مطبقة . كانت ترى كل يوم هذه الوجوه
في المتوارخ وعربات الترام - وجود روسية اعتيادية متمعة بتظرها
الضامرة ، ذات عزة - وكان ذلك قبل الحرب - وانشاء نزعة يوم
الاحد حول اثنان من العمال كانا بصحبتها الحديث الى هذه الوجوه
بالذات : « تخفي جمهور باريس على سبيل المثال يا داريا دعيتي بيضا .
انه مرح طيب القلب يطلق حبرا . . . اما عندنا فكل واحد يبدو
جهم الاساور . انظري الى هذين العاملين السائرين - لو شئت
لدعيت بهما ، وقلت لهمسا نكتة . . . الهيسا سيكيدوان ولا
يلهمان . . . الشعب الروس اخرق قليل الطبع . . . والان كان هؤلاء
الذين لا يكون النكتة يقفون قلقين ككبيبي ضميمين مسدودين - انها
لغس تلك الوجوه ، ولكنها قد علمت من الجوع ، لغس تلك
العيون ، ولكن لظننا ملتبهة نافذة الصبر .

لمست دائما ما جاءت من اجله . فلان الطباعات الحياة التي
اخذت اليها من النافذة الغالية في شارع كراسنيه زوري قد حملتها
في اوجها مثل طائر عصف به العاصفة . واستسلمت لهذه
الانطباعات بكل اغلامها الكلي . لم تكن قط امرأة حقا ، ولكنها
مثل الكثيرات قد تركت نفسها لتجربتها الصغيرة لا غير . وكان
فيها الظما الى الحقيقة ، الحقيقة الخاصة ، الحقيقة الشخصية .
الحقيقة الانسانية .

تكلم الخطيب عن الوضع في الجبهات . وكان في خطابه القليل
عسا يبعث عن التشجيع - ان حصار القبع قد امتد : قطع
التشيكوسلواكيون قمع سيبيريا ، والالمان كراسنوف قمع
الاندون . والالمان يقتكون دون رحمة ياخصار اوكرانيا . وكان اسطول
الغسلندي يهدد كرونشتادت وارخانفيلسك . ولكن الثورة يجب
ان تنتصر ! « والقي الخطيب بالمشاعرات ، ودعها يقبضته في الهواء .
واصك المحطلة ، وزلزل عن المنصة . وصفوا له ، الا ان التصديق
كان متراشيا ، فان الامور لم تكن تستحق التصديق ، واطرفت
الرؤوس ، واختلف العيون تحت العراجل .

التقت عينا دائما بعيني الشاب الكبير الانسان وابتم لها
لاية بصر !

- تلك هي النصيبة (يا أنسة - يريدون أن يهلكونا جوفا
كاللحزان ... ماذا ستفعلين ؟ ..

سألت دائما :

- وهل خفت ؟

- أنا ؟ خفت خوفا شديدا (أخذ الشاب يستكثرون بالهسيس :
«هعا ، يا شيطان !» وأنت ما أسماك ؟

نظرت دائما إليه - الصغر العضل والقيص الأسود المفتوح ،
والمتق الغليظ ، والوجه العرج ، والابتسامة ، والفضلات الجندا ،
البيئلة بالعرق ، والعينين المستديرتين الصفوفتين بالنساء ، وكله
مقطع بالزيت ...

قالت دائما :

- يا لك أما لك تكثير عن استناك ؟

- الكفتي لمن من المسئلة وأنا طفل ، حسنا ، تعالي معنا
الى الجهة بعد غد ، صا ؟ ستلكنين حتما غشا في موسكو ...
سنخرج ومعنا الكورديون ، يا حلوة ...

لمت على كلماته عجمة التصديق - كان على النصبة خطيب
جديد ، وهو رجل ربع القامة في سترة رمادية وصدار مجعد بتجاعيد
أقنية - احى ججته الصلحاء العجرا وقلب اوراقه - وقال بصوت
الضحك قليلا : «ياها الرفاق !» - روات دائما وجهه المهوم وعينيه
البتصاصين وكانهما من ضوء الشمس - كانت يدها مستقرتين على
الطاولة ، على الاوراق - وعندما قال ان موضوع اليوم سيكون الامة
الشديدة الخطية على اوربا كلها ، وعلى روسيا بشكل أصعب -
سيكون الموضوع عن المجاعة حيس ثلاثة آلاف شخص انماهم
تحت المنطق المسخ ،

بدا ياراء عامة ، وتحدث بصوت متسق ساعيا الى ايجاد تجاوب
مع المستمعين - وابتمد عن المنظمة لمر مرة وعاد اليها - وتحدثت
عن الحرب العالمية التي لا تستلح ولا تريد ان تنتهيا جباعتان من
الوحوش الملقحت احداهما على عنق الاخرى ، وتكلم عن المضايقة

الجوية عن المجاعة ، وعن ان الحرب لا يمكن ان تنتهيا الا الثورة
الريوليتارية ...

وعرج على الكلام عن وجود طريقتين لمكافحة المجاعة : هناك
التجارة العرة التي تجلب التراء الفاضل للمضاربين ، وهناك احتكارية
الدولة - وتراجع جانبيا ثلاث خطوات عن المنظمة - وانحنى نحو
المستمعين ، ووضعت ايهاها يديه وراء صدره من الجانبين ، وبرز
يديه الكبيرتين وراسه العريض الجبين الى الامام راسا مظهرا منباية
مطلعة بالعرى :

- ... لقد وقفنا ، وستقف بنا بيد مع المطبة التي نأخذنا
بها الحرب : مع التي اطعنا بها الريوليتارية ، مع التي تتعمل كل نقل
الالزمة الراهنة - يجب ان نقف الى جانب احتكار العيوب حتى
النهاية ... (عند هذه الكلمات صدرت من الشاب ذو الاسنان
الكبيرة نغمة تأييد) امامنا مهمة ضرورة الانتصار على المجاعة ،
او على الاقل - تخفيف وطاها حتى المصوصل الجديد ، والدفاع عن
احتكار العيوب ، الدفاع عن حق الدولة السوفييتية ، الدفاع عن
حق الدولة الريوليتارية - يجب ان نجمع كل فائض العيوب ونعمل
على ان تنقل كل الاحتياطات الى المناطق التي تحتاجها ، وتوزعها
بصورة صحيحة - ان هذه المهمة الانسانية هي الحفاظ على المجتمع
الانساني ، والعمل الجسيم ، في الوقت ذاته ، وذلك لن يسم الا
بطريق واحد هو النهوض بالعمل على نحو مشترك مشددة ...

صدرت من شخص آهة مفاجئة صماء في السكون الشامل ،
آهة انسان جويته بهذا الصعود الجليدي الذي كان يتقدم اليه
هذا الرجل ذو السترة الرمادية ، كانت جبهته تطل على المستمعين
ومن تحت نفوس العاجبين تحدد عيناها الشافذتان بلا رحمة ،

- ... لقد وقفنا وجهنا لوجه امام تحقيق مهمة ثورية
اشتراكية ، وجوبها بضاعب خارقة - انها عهد كامل من اقس
حرب اهلية ... ونحن لن نتصبر على المجاعة وعن لعناء الثورة
الذين يستغلون هذه المجاعة الا بتحطيم الثورة المضادة وبواسطة
النسر على السيادة الاشتراكية في قضية المجاعة - في مكافحة
المجاعة ...

وارتفعت يده من وراء الصدأ ، وضربت الهواء وكألهما تقضي على عدو غير مرئي ، وتدلت فوق القاعة :

- ... عندما يتحدث العمال الذين يبلغونهم شعارات المضربين عن بيع الحبوب الحر ، وعن استيراد وسائل الشحن نورد عليهم قائلين : ان ذلك يعنى السير في ركاب الكولاك ، . . ولن نسير في هذا الدرب . . . سنعتمد على الكادحين الذين انتصروا بهم في أكتوبر ، وسنسمى ال تحقيق قرارنا بتطبيق الضبط البروليتارى بالذات بين فئات الشعب العامل . ان امامنا مهمة تاريخية ، وستحلقها . . . والرسميات الاخيرة عاجت قضية الحبوب ، اكثر نظايا الحياة جلوية . وكلها تتضمن ثلاثة افكار توجيهية : الأولى : فكرة المركزية او توحيد الجيع في عمل مشترك واحد تحت قيادة المركز . . . نعم ان هناك من يبدى لنا ان احتكار الحبوب يخرق في كل خطوة بواسطة الذين يشترون بالجملة والمضاربين . وكثيرا ما نسمع من المثقفين : ولكن المشتريين بالجملة يقدمون لهم العون ، ويطعمونهم جميعا . . . نعم ، ولكن المشتريين بالجملة يقدمون على طريقة الكولاك ، وهم يتصرفون تماما بالطريقة التي تعزز وتقيم وتروسخ الى الأبد سلطة الكولاك . . .

وبإشارة من يده قطع ما لن يحدث بعد الآن .

- ... شعارنا الثاني توحيد العمال . المهم هم الذين سيخرجون روسيا من الوضع اليأس والصعب للغاية . يجب تنظيم قضايا العمال ، تنظيم الجيع من الاقضية الجامعة غير الزراعية ؛ اننا ندعوهم الى مساعدتنا وتوجيه مفوضيتنا للشعوب اليهم . اننا نقول لهم : **الى الزحف الصليبي في سبيل الحبوب** .

ارتفع التصفيق بعنف شديد . ورائت دأنا كيف تراجع الخطيب بعد ان حذر بده في سبيله ، ورفع كفيه : وظهرت بقع مقلبة على وجهه ، وارتجفت جفناه ، وكان جبينه ندبا .

- ... اننا نقيم دكتاتورية . . . اننا نستعمل العنف ازاء المستعربين . . .

وغطى التصفيق على هذه الكلمات ، لوَّح بيديه ليسكتهم . . .
وفي الصمت استمر :

- ... «يا صفتي الفقراء ، التحدوا» - ذلك شعارنا الثالث . ان امامنا مهمة تاريخية : يجب ان نزيد بالوعي الطيف الطبقة التاريخية الجديدة . . . في جميع العالم تتعدد فصائل عمال المدن وعمال الصناعة من آخر رجل . ولكن لم نجر حتى الآن تقريبا محاولات تنظيمية متفانية لزيادة توحيد الذين يعيشون في القرى ، في الانتاج الزراعي الصغير ، في الاتحاد الثانية ، في الحياة وقد بلغتهم ظروف الحياة كلها . هنا تواجهنا مهمة ان ندمج في هدف واحد ليس فقط الكفاح ضد المجاعة ، بل والكفاح في سبيل كلية نظام الاشتراكية العميق والمهم . هنا امامنا معركة تستحق ان يهبها كل القوى وان نذل كل الجهود . لان هذه المعركة في سبيل الاشتراكية ، لان هذه المعركة في سبيل النظام الاخير للشقيلة والمستعربين .

وسمع جبينه يكفه سرعا :

- ... على صفاة غير بعيدة عن موسكو ، وفي محافظات متلاصقة هي كورسك واوريل وتاموق ما يزال لدينا الآن ، حسب تقدير الاخصائين الحزبيين ، مساح يصل الى عشرة ملايين بود من الحبوب الزائدة . فدعولنا ، ايها الرفاق ، ان نتصافر بالجهود المشتركة . فان الجهود المشتركة وحدها ، وتوحيد جميع الذين يعانون اكثر من غيرهم في المدن والاقضية الجامعة صفا الامران اللذان يساعداننا . وذلك هو الطريق الذي تدعوكم اليه السلطة السوفيتية : توحيد العمال ، توحيد الفقراء وفصائلهم المتقدمة لتت الدعوة في الاقاليم . من اجل الكفاح في سبيل الحبوب وضد الكولاك . . .

وصار يسمع جبينه اكثر فاكتر ، وذأب الرنين صوته ، فقد ناد كل ما اراد ان يقوله . تناول ورقة من المتضدة ، ونظر ليجها ، وجمع بقية الأوراق :

- وهكذا ، يا رفاق ، فاننا اذا استوعبنا كل ذلك ، وفعلنا كل ذلك فان النصر حليفنا بالتأكيد .

وفجأة اضاءت وجهه اشعاع صافية طيبة . وفهم الجميع انه منهم : رجلهم ا فتهفوا ، وسنقوا ، وغربوا الارض باقدامهم - نزل

من المتعة واكفا شاما واسه بين كتليه . وعتن الشاب الكبير
الاستان بالقرب من داشا بصوت كخوار النور :
- عاش ايليش !

كل ما كان في وسع داشا ان تقولوه هو انها رأت وسعت
شيئا آخر . . . حين عادت من الاجتماع جلست على السرير في
مجرتها . ونظرت بعينين مستعيتين الى زخرفة ورق الجدران . وكانت
على السادة مذكرة من جيروف : «اموات ينتظرك في «متربول»
في الساعة العادية عشرة» . وعلى الارض عند الباب مذكرة اخرى :
احضري في الساعة السادسة عند تمثال فوجل . . .»

اولا ان هذا «الشيء» الاشره كان خفيا بشكل
صارم . يعني انه سام . . . تحدث عن الخوب . من قبل كانت
تعرف ان الخبز يمكن ان يشتري وشبادل . وسعره معروف : البود
الواحد من الطحين ينتظرون غير مرقع . ولكن تبين ان مثل هذا
الخبز ترقسه الثورة بحق . فانه حين قدر . الموت افضل من
اكل مثل هذا الخبز . واليوم رفض ثلاثة آلاف جالع الخبز القدر .
رفضوه باسم . . . (وهنا اختلط كل شي . في رأس داشا
الباس من جديد .) باسم الهائين والمضطهدين . . . او كيف
قال ؟ ان لهب كل القوى . ان تلبس كل الجهود . ان لهب الحياة
في سبيل الضعيفة والمستعمرين . . . وهذا هو السبب في صرامتهم
الترابدية . . .

كان كوليشتيك قد قال لها : من جميع جهات العالم تنهيا
الابدى للامتداد بالمساعدة . بالحسوب . فقط عمل شرب ان
يشقى على النظام السوفييتي . . . انضوا عليه وسيتكون الخبز . . .
باسم اي شي ؟ باسم القاذ روسيا . ولكن ممن تنفذ ؟ تنفذ من
انفسنا . . . ولكنهم لا يريدون ان تنفذ «بهذا الشكل» . وقد
رأت ذلك بنفسها . . .
او . . . يا لرأس داشا الباس ! انت دخلت الى السياسة في
وقت متأخر . يا داشا . قالت لنفسها : «انتظري . انتظري» .
وقعت يديها وراء ظهرها . وسارت في العجوة ناطرة الى قدمها .

«اي شي . يمكن ان يكون امنس من ان يهب الانسان حياته
للهائين والمضطهدين ؟ . بينما يقول كوليشتيك ان البلاشفة
يودون بروسيا . والجميع يقولون ذلك . . . واقمقت داشا بعينها
معاولة ان تتصور روسيا التي يجب ان تحبه اكثر من نفسها .
تذكرت لوحة سيروف : خسانان على منحدر رابية . ووشاح سحابة
حبل الشفق . وسقف اشعث من القش . . . «لا . لالك عتسه
سيروف . . .» ولاح خلف عينيها الضمضمين اللع الكثير الكبير
الاستان مرها وموحسا . . . مرة اخرى ذاعت داشا حجرتها . . .
«ما هي روسيا اذن ؟ لماذا يجذبها الناس الى جهات شتى ؟ انسا
حقد . لا افهم شيئا . . . آه . يا آلهي !» واخذت داشا تنقر صدرها
باصابعها المضومة . ولكن ذلك ايضا لم يسعها . . . «هل افهم
الى لينين اسأله ؟ اوه . يا للشيطان . انا من معسكر آخر . . .»
وكل هذه التناقضات الرعبية . وبليدة النفس جعلتها تضع
عينيها على عينيها في نحو الساعة السادسة . وتنبه الى تمثال
فوجل . وما هي لحظة حتى ابتعد الرجل ذو الدبوس عن شجرة :
- تأشرت ثلاث دقائق . . . كيف ؟ هل كنت هناك ؟ استمعت
الى لينين ؟ حديثي خلاصة . . . كيف وصل . ومن كان يصحبته .
وعلى كات المتعة محروسة ؟

سبت داشا قليلا لتستجمع افكارها :

- قل لي : باسم اي شي . يريدون قتلتي ؟

- هكذا 19 - من اين اخذت هذا ؟ لا احسد بنوي ذلك . . .
اذن . اذن . . . يعني انه اثر فيك ؟ بالطبع . . . لهذا السبب هو
خطير .

- ولكنه قال انشياء عادية .

مد رقبته . وابتسم ابتسامة خبيثة لدية في عيني داشا .
وسال يتعلق :

- ربما من الافضل ان تتركي ذلك ؟

تحتت داشا . ولكن رقبته شمتت وكانها من مطاط . وترأص
اللعان على نظارته الاثنية نافذا الى حدق داشا . قمست :

- انا لا اعرف شيئا . . . لم افهم شيئا . . . يجب ان
اكون مقتنفة . يجب ان افتتح .

حسن الرجل ذو العيوس صافرا يصوته قائلا :

- ليتني عميل القيادة العامة الامانية .

ثم نظى زهاء نصف ساعة ليشرح لداشا خطة الامان
الجيشية : اهم يرسلون البلاشفة مقابل مبالغ طائلة في عمريات
مختومة ، والبلاشفة يقوضون الجيش ، ويفررون بالعمال ، ويقفون
على الصناعة الوطنية والزراعة . . . وبعد شهر او آخر سيحل
الاعمال روسيا دون قتال .

- ان البلاشفة الآن يزوجون الحرب الاهلية ، ويترخسون
معتلين ان هناك حصارا على العيوب ، وفي الوقت ذاته يقتلون رميا
بالرصاصة المشترين بالجملة - متفقيتا . . . انهم يخططون المجاعة
عن وعن . . . لقد رايت اليوم كيف راح عدة آلاف اسحق يقبضون
غيرهم على لم يلبس وهو يتكلم . . . ذلك شيء يمزق النفس . . .
انه يخذع الجماهير ، الملايين ، الشعب كله . . . انه في المفهوم
المادى «معرض كبير» . . . ومن الناحية الاخرى . . . (ومال الى اذن
داشا ، وجسم بشفة واحدة) الدجال ا حل لتذكرين الثبوتات ؟
التواريخ تتطابق ، الشمال يشن الحرب على الجنوب . وتظهر فرسان
السوت من الحديد ، وهي الدرايات . . . وتسقط في تايبع العيساء
نجمة الشر . . . انها نجمة البلاشفة العنصرية الاطراف . . . وهو يتكلم
لنفس كما يتكلم المسيح ، ولكن كل شيء في الضم . . . واليوم
حاول ان يفزيك ، ولكننا لن نخفي عنك . . . سأتفكك الى عمل آخر .
ويلى السؤال الثالث غير مجاب . (عادت داشا الى حجرتها ،
واستلقت على الفراش ، وغطت عينيها برففها) . وبعجاة فرقت
من التفكير . . . «هل انا شغيت ، وبلبنت المالة عام ؟ وهل انسا
فيحبة الوجه ؟ سأطلق لحيثي العتان . . . لأذهب الى «متروبول»
اذا اردت . . . وامن اخفى كل ما لا يريد ان يخفي واخفق في صدر
صياح السعادة ؟ ولمن اصك ركبتى الى حد الطواب ؟ واية ملاحيات
اتوقع ؟ حقا ، حقا ، حياة . . . افصح نفسك ، اندفسي . . .
لا شيء ، يهيم ، فليذهب الحب الى الشيطان ، وانت الى العجيب . . .
لقد كانت تعرف انسا ذاهبة الى «متروبول» ، واذا كانت
مترددة ، فلان وقت ذهابها لم يكن بعد - كان التلاميذ قد بدأ يقيم -
وتلك الساعة السامة لتدقق الافكار ، في البيت دقت الساعة التاسعة

ببطء ، مثل ساعة برج - وتابت داشا من السير بسرعة . . . ٧٧
اريد ان افلق هذا الفلق المهيئ . . .»

خلعت ملابسها على عجل ، وركضت بقميصها الدخلى الى
العيام ، حيث تراكم حطب وصناديق وايشياء اخرى - ووقفت تحت
اليدبان ، وسقط الرشاش البارد على ظهرها - وذهبت انفاسها من
البرد . وعادت الى حجرتها مبجلة واخذت القفاز من السير ،
واضفت ثقبها واسنانها تصطك .

وحق في تلك اللحظة لم تستقر على قرار : كانت تتنظر تارة
الى الثوب القديم الرمى على ارض العجوة مباشرة ، وتارة الى
الفستان الملكي على ظهر الكرسي . وادركت مرة اخرى ان ذلك
جيب ، مجرد تاجيل . وعندئذ اخذت ترتدى ملابسها . ولم تكن
في العجوة مرة ، والحمد لله ! الفت الفلاح القراني على كتفها ،
وخرجت الى الشارع كالمصدة . كان الظلام قد اشتد . سارت خلال
البوالفات . كان الرجال يلاحقونها بعيونهم متعشقين ، ومعها
ملاحظاتهم لغير الشجعة البتة . ومن وراء شجرة تقدم الشبان في
معتلين من معاطف الجنود وهما يترخان ، وعتفا : «طفيلية ،
انتقري ، الى اين ذاهبة ؟»

توقفت داشا عند ساحة نيكسكايا وانفاسها متقطعة ، ولهبها
يربحها . مرت عربة ترام مضاءة تجر اخرى وراها وهي تفرغ
حزبها بعدة . وكان الناس يتعلمون على الدرجات . كان احد
الركاب يمسك الدوابزين النحاسية باليد اليمنى ، وحقيبة مسطحة
من جلد التصاح باليد اليسرى ، وحين مر بها ادار وجهه العليق
القوي نحوها . لقد كان ذلك مامونت ، اميت داتسا ، وركضت
للفلق بالترام ، وراها ، ارتفعت الحقيبة في يده ارتداعا واضحا ،
فك يده الاخرى من الدوابزين وقفز والترام سائر في القسي سرعته ،
فاذا به يترج ويسقط على ظهره محاولا ان يتنشق بالهواء ، وارتفع
لعل هذا السقم لحظة ، ثم اعتنى جده تحت العربة الثانية ،
واسطقت الحقيبة عند قدمي داشا ، ورات داشا ركبته ترتفعان
مراصعتين . وسعدت صوت محطاسم تهشم ، وارتطام حذاء على
البلاط . عبرت فرامل الترام ، وتناثر الناس من العربة .

نطى على عتيها غشاء أسود - ولا الطريق لاجلها كالكفن ،
وسلطت دشا على الارض وذرعاها وغدا على العبية ، وقتلت
الرمي .

٩

بدأ تحول جيش المتطوعين الى الهجوم ، وهو ما سمي بعملية
كوبان الثانية بعملية ضد محطة تورغوقايا - كان الاستيلاء على
هذا السائق للخطوط الحديدية مهما للغاية ، لانه يقطع شمال
القفقاس كله عن روسيا - في العاشر من حزيران زحف هذا الجيش
المؤلف من تسعة آلاف رجل من المشاة والخيالة بقيادة دنيكين
العاملة لتطويق محطة تورغوقايا بأربعة طوابير -

كان دنيكين في طابور دروزدوفسكي - وكان التوتير في غاية
الشد . فقد كان الجميع يدركون ان نتيجة المعركة الاولى تقدر
مصير الجيش - انطلق طابور دروزدوفسكي المحتسب بنيران مدفعه
الوحيد المشحون بقذائف تسلايا يحاول عبور نهر بغوليك سباحة
تحت تصف مدفعية الطرف الآخر - كان التقيب توتوكول أمر الفوج
في الصف الاول يتخبط في الماء كالكرة شارفا بالماء ، ولاحظنا - دافع
الحمر باستماتة ، ولكنهم اقلية مهارتهم جعلوا العدو المحير
يطوفهم ، اكتسحت المواقع الامامية من قبل طابور بوروفسكي
جنوبا ، ومن قبل خيالة اردلي شرقا - تركت وحدات الحمر التي
اخذت بعضا ببعض وطوابير العربات الثقيلة محطة تورغوقايا ،
وانتقلت لتسحب شمالا ، ولكن غشا ايضا سدد طريقهم طابور
ماركوف من ناحية شابليفكا . وسار انتصار المتطوعين كاملا -
وطوف قوزاق اودول بالسريرا في ارجاء السهوب يطعنون الفارين ،
أخذين الاسرى وعربات المتاع -

وصيد اللغام - وحدات المعركة - وضع دنيكين يديه
السيفيين وراء ظهره ، وزاح يذرع رصيف المحطة احمر جمبا -
وكان طلاب المدارس العسكرية في ضحك ومزاح - شان الدين
خرجوا سالمين من خطر مميت - يعملون ايكياس الرمل ويضعونها
على العربات المكشوفة ، ويتصبون الرشاشات على قطار مضطج

لصفحة ارجاليا - ومن حين لآخر كانت قذيفة مدفع تسقط على الهواء
منطلقا من قطار مضطج للحمر يقع شمالا وراء شابليفكا - وكانت
آخر قذيفة منطلقا من هناك قد سقطت بالقرب من جسر على نهر
مايتشين ، حيث كان الجنرال ماركوف يستلقي حصانا رماديا - انه لم
يلم ولم يذق اللعاب ولم يدخن منة يومية ، وكان متزعجا من ان
احتلال شابليفكا لم يجر كما كان يريد - وظهر ان المحطة كانت
لحلتها فصيلة قوية للحمر مع مدفعية وقطارات مضطجة . وقد حارب
طابور الجنرال الذي التفت حول المحطة يوم امس ، العادي عشر من
النهير ، واليوم كله يعاني ودون ان يحقق نجاحا ، فان التوفيق
السرير قد خاله في هذه المرة . وكانت الخسائر فادحة . ولم يتراجع
البلاتشفة الذين كانوا يحتلون شابليفكا الا في المساء ، وبسبب
الوضع العام على ما يبدو .

الحنى قليلا على سرجه . وراح يستمع في العالم المهيمه لبعض
الجنات المتجمدة في الاوضاع التي لحقهم الموت فيها . كانت تلك
بيوت ضيائه ، وكل واحد منهم كان يعادل في المعركة فصيلة
كاملة . ان ذلك لمنتهى الحفاقة ، ان يقتل ويخرج مئات من اصغر
مقاتليه بسبب من تراخي فكره -

سمع آيتنا وزقزات مفرخةة كأنها تصغر عن انسان يستيقظ
من كابوس - توسعا من الفصح . ونهض ضابط من الخنادق قرب
الجسر ، ثم وقع على بطنه على المتراس - توجه وتثبت في الارض
ورفع رجله بصعوبة ، وخرج ، وقفرس في اجمة كبيرة صافية ،
في الشفق المنطلي - ادار راسه الحليق ، وان ، وسار متعترا ،
لموقع بصره على الجنرال ماركوف - رفع يده بالتحية ثم انزعجا :

- يا صاحب السيادة ، اصابتني صدمة .
- ارى ذلك .
- اصبت برصاصة في ظهري .
- عيبا . . .
- انا مصدوم من الظهر في الراس من مسدس مضروب نحوي
- من مسافة قريبة . . . حاول قتلي الشطوخ فالزيان اولوني . . .
- سأل ماركوف بعناية : ما اسمك ؟
- المقدم روتشين . . .

وفي تلك اللحظة ، وللمرة الأخيرة انطلق المدفع ذو البوصات الست من القطار المصنع للحجر المتراجع الى الشمال - واندفعت القذبة بزئير فوق السحب الداكن - وانتر حصان الجنرال الرمادي لاذيه مستترا - وبما يقمر على وركه - حوت القذبة من السماء ، وانفجرت على بعد غمس خطوات من ماركوف -

وحين انقضت الغبار والدمان ، راي قادم بتروفيتش ورتشين الذي نفذه الانفجار الحصان الرمادي متطرحا على الارض وقوائمه تضرب الهواء ، ولى جانبه انطرح جسد صغير هامد ، رفع روتشين جسده قليلا وصرخ :

- يا اسعاف ! قتل الجنرال ماركوف ا

بعد ان احتل جيش المتطوعين محطة اورغوفايا تحول شمالا الى محطة فيليوكوتيايسكايا بهدف مزدوج : مساعدة الامتسان كرامستوف في تطهير دائرة سالسك من البلاشفة ، وتأمين مؤخرته من جانب تسارتسك بشكل اضمن - احتل جيش المتطوعين محطة فيليوكوتيايسكايا دون خسائر كبيرة ، الا انه لم يستطع توسيع هذا النجاح ، لان فصيلة من خيالة البحر تحت قيادة يوديتس اجتاح في معركة ليالية وحدات اوفيل الفوزانية واسابنها بشهرة قوية ، ولم تمكنها من عبور نهر ماليتش -

وكان قطار المتطوعين المصنع الاول ان يسحق بالقرب من المحطة ، فقد لاحظ الراكبون فيه قاطرة تسير ورافعة علميا ابيض فظنوا انها تستلهم ، فكبدوا عن اطلاق النار - الا ان القاطرة اندفعت دون ان تخلص سرعتها مطلقة صغيرها بلا انقطاع - وفي اللحظة الاخيرة فقط فرد من في القطار المصنع ان يطلقوا عليها بعض التطلقات النارية من مسافة قريبة - ولكن الاصطدام قد وقع ، وتحطمت عربة منسعة ، وانقلت القاطرة - وكان اللفظ قد سكب عليها وعلقت عليها القذائل ، ولوضع دقائق توجهت كل افكار المغائرين الى هذه اللحظة من فلم امريكي -

سئم دينكين المنطقة الى قيادة الدون ، واوكل امر القضاء على البلاشفة المحليين الى فصائل قوزاق الفري ، واستدار لاذية

جنوبا للاستيلاء على محطة مهمة من تيخوريتسكايا التي تربط الدون بكونان - والبحر الاسود بقروين - سار للفناء اخطار جسيمة وكانت في طريقه فريشان كيرلان من فرى الاغراب حصا بيستشاوروكوبسكويه وبيلايا غلينسا ، وكلتاهمسا كانت يزدن للبلاشفة - وقد عززتا بشكل سريع - وكان جيش كالتين يتخذنه بسرعة محموعة قرب تيخوريتسكايا - وكان جيش سوروكين يلبق في ذلك الوقت ، من حالة الضرر ويدا بالضغط من الغرب - بينما اعدات وحدات البحر التي تحطمت عنده مائتين لتسكيلها ، وتحولت من المؤخرة الى الهجوم - وتدفقت مفارز المتطوعين من فرى كثيرة -

وكان في وسع دينكين ان يعتمد على شيء واحد : العدماء التسبيق في عمليات الطريق الآخر - ولكن ذلك ايضا يمكن ان يتغير في كل لحظة - ولهذا عمد الى العجلة - وكان في بعض الاماكن يقوم هو نفسه بالماض القوات التي كانت مسترخية في اعياء تام - كان المشاة يتقلون في عربات ، وكان القطار المصنع المرتجل نفسه يسير في مقدمة الجيش -

وبالقرب من قرية بيستشاوروكوبسكويه حارب الاهالي كلهم في جانب الجيش الاحمر - ولم يكن جيش المتطوعين له رأى مثيلا لتلك الظفارة من قبل - وكان السحب يهتز من القصف من الصباح حتى الليل - واخرج فوجسا يوروفسكي وديوزوفسكي مرتين من القرية - ولم يجرى البحر القرية حتى آخر انسان الا بعد ان راوا السهم محاصرين من جميع الجهات غير عارفين بقوى العدو ومداته - والان تحولت جميع الوحدات وجميع الفصائل وخشوه اللاجئين الى بيلايا غلينيا -

وفي هذه القرية كانت في وسط عشرة آلاف متطوع نحو عشر فرقة دميتري شيلبيست العبدية ، ودهي جميع الرائدتين الى حمل السلاح - وعززت المشاف - وظهر التنظيم واللهمم التنكيكي لأول مرة - وفي الاجتاسعات الغامسة تودي بالنصر او الموت -

ولم ينلج ذلك - فقد كان العدو عليسا جابه الشجاعسة والاستماتة بالعلم ، وحسب الحساب لكل صغيرة ، وسار وكانه

على راحة شطرنج ، مباحثا المؤخرة والمسا ، حقا ان يدارية هجوم
 البيض لم تكن موفقة - فان العقيد جيراك الذي كان يقود فوج
 دروزدوفسكي تاد رجاله في الظلام الى الضيعة التي تنفذ عندها
 صفوف العمر الامامية ، فجوبه بتيار مباشرة ولكنه هجم ووقع
 صريحا ، وتراجع رجال دروزدوفسكي وانطرحوا على الارض - ولكن
 في نحو الساعة التاسعة صباحا شق كوتيبوف طريقه الى بيلاسيا
 غلبيا من الجنوب معه رجال كورتيوف وفوج دروزدوفسكي للخيالة
 وسيارة مصفحة ، وتقدم بوروفسكي من ناحية النحلة المستولى
 عليها - وبدأت معركة في الشوارع - واحسن الحمر اهم معاصرون
 فاضطربت صفوفهم - واشترقت المصفحة حشودهم - واشتعلت
 النار في صفوف القش ، وانطلقت الاقبار والقبول وسط النار
 والمطلقات والسياح .

وتراجعت فرقة شيلبيست الحديدية عبر الطريق الوحيد الذي
 بقي مفتوحا - كان دنيكين واقفا على قوسه عند كشك السكة
 الحديدية - كان يصرخ غاضبا واثما كفيه حول فمه ليقطعوا الطريق
 على المتفجرين ، وورا فلول الفرقة الحديدية خرج الانصار والاهالي
 جميعا ، وانطلقت خيالة اريدين للحاق بالهاريين - كما ان
 حراس القائد العام لم يكفوا جحاهم فسلخوا متبولهم وعدوا
 لطمائهم ، وتقلب ضباط الاركان على سروجهم ، وجروا على
 شبولهم وكانهم في طراد الوحوش فاطعين الرؤوس والظهور -
 وبقي دنيكين وحده - خلع تبعثه وراح يهوى بهما وجهه
 المنفلول ، ان حذا النصر كشف الطريق امامه الى تيخووستكايا
 ويكاترينودار .

في الفسق سمعت طلقات تصيرة في القرية - في افنية
 البيوت - انهيم رجال دروزدوفسكي ينتقمون لقتل جيراك
 باعدام اسرى الجيش الاحمر وهيا بالرصاص ، كان دنيكين يحتسى
 الشاي في كوخ مملوء بالذباب - وكسان وهم احتباس الهوا في
 الليل يرتدى سترته السميكة ذات الكتافتين المرطبتين ،
 المزورة حتى الرقبة - وكان عنده كل طلقة يلتفت نحو النافذة
 المحطسة ، ويرمر منديله المدعوك على جيبته وعلى جانبي
 اذنه .

قال لمرافقه :

- فاسيل فاسيانيفيتش ، يا عزيزي ، اطلب الي دروزدوفسكي
 ان ياتي الي . لا يجوز ذلك ، على أية حال .

صفق المرافق بهمازيه ووقع يده بالتحية وخطمها واستدار
 وخرج - اشد دنيكين يسب الماء من الساور الى ابريق الشاي .
 صدرت الطلقة الجديدة على مقربة شديدة حتى ان الزجاج اهتز ، ثم
 رن صوت في الظلام - قاض الماء المغلي عبر الحافة مع قطع من
 الشاي - غطس انتون ايفانوفيتش الابريق ، وهمس :
 « اي ، اي ، اي » فتح الباب بحدته ، ودخل رجل في الثلاثين من العمر
 شديد الشعر على ستره مدعوكه ذات كتافيتين ناعميتين
 مدعوكتين ايضا من كتافيات الجنرال ، انعكس ضوء مصباح
 الكيروسين على غصتي نظارته الازرقه انعكاسا باهتا - كان ذقنه
 المرشح غير الحليق لانه الصغر ، ووجنتاه الغائرتان ترتجفان ،
 ترفف الرجل عند الباب - لغض دنيكين من المسطبة ثقلا ، ومع
 له يده .

- تفضل اجلس ، يا ميخايل غريغوريفيتش ، اعدك تريد
 شيئا ؟

- شكرا جزيل ، ليس لدي وقت -
 كان ذلك دروزدوفسكي الذي دفر الى جنرال قبل قسرة
 قسرة - كان يعرف لماذا استمعاه القائد العام فكان ، على عاونه
 حين يتوقع التائب ، يبيع قبضه بصعوبة - احتر راسه ، ونظر الى
 جانب .

- ميخايل غريغوريفيتش ، اريد ان اتحدث اليك بشأن هذه
 الاعلانات ، يا عزيزي . . .

- ليست لدي قدرة على امساك ضباطي - قال ذلك بصوت
 عال بدوية مزعجة تقرب من نوبة الهستيريا ، وقد ازاد تنحوب
 وجهه - ان قاضتكم يعرف ان البلاشفة عذبوا العقيد جيراك تعذبا
 وحشيا . . . الضباط الخمسة والثلاثون . . . الذين جلبتهم من
 رومانيا . . . عذبوا وشوهوا . . . البلاشفة يقتلسون ويعذبون
 الجميع . . . تعز ، الجميع . . . تلتقط صوتسه وتلفت انفاسه ، لا
 استطيع ان امسكهم . . . ان ارفض . . . اذا كنت تعتريني

غير صالح فيمكنك ان تتسلم استقالتي ، بحق الرب - سانشري
بان اكون جنديا .

قال دنيكين :

- اي ، اي ، اي ، ميخائيل غرغورفيتش ، لا يصح ان
تضطرب على هذا النحو ... لا علاقة هنا باستقالتك ... افهمي ،
يا ميخائيل غرغورفيتش : اننا برمي الاسرى تزيد بانفسنا مقاومة
العدو ... وستنتشر الاشاعة عن هذا الرمي في كل مكان . فلماذا
تلتحق الاذى بجيشنا يايدشا ؟ هل انت موافق معي ؟ اليس هذا
حالا ؟ لزم درودوفسكي الصمت .) انقل ذلك لضباطك لكيلا تتكرر
مثل هذه الوقائع .

- سمعا !

واستدار درودوفسكي ، وصلى الباب وراءه .

ظل دنيكين يمز رأسه طويلا فمكرا على قذح من الساي .
وصدرت الطلقة الاخيرة من بعيد ، وهذا الليل .

كانت العملية ضد تيغوريسكايا ضمن خطة انخلاء الجيش
موافقة على جبهة طولها ستون فرسخا . وكان من الضروري مقدما
تنظيف رقعة من الفصائل المتفرقة والانصار . وقد عهد ذلك الى
الجنرال الشاب بوروفسكي . فاستطاع في يومين من المعارك ان
يشطح عالة فرسخ ، ويحتل عددا من القرى . وكان ذلك في تاريخ
العرب الاهلية اول ما سمى به الفارزة على مؤخرات العدو .

وانتشر جيش المتطوعين على الرقعة المطهرة من العمر . وفي
الثلاثين من حزيران اصدر دنيكين امرا قصيرا : « ان تحتل محطة
تيغوريسكايا قدا في الاول من تموز . بعد تعطيل العدو المركز
في منطقة تيرتوفسكايا - تيغوريسكايا . » وفي الليل تحركت
الطوابير ضخمة تيغوريسكايا في كماشة عرضة . واخذ البلاشفة
بعد مناوشات قصيرة يتراجعون الى مواقع معززة .

في هذه المرة لم تكن تلك المقاومة المستتية التي اهدت
تيل اسبوع من الزمن . فان سقوط بيلابا فليبا اثار اضطرابا .
اوقف هجوم سوروكين . والافاق من الضعابسا الذين صرعوا في

المعركة الدامية لم ياتوا يعيرون . وتقدم العدو بدقة الآلة . وضغمت
البيخلة قوى جيش المتطوعين اضعاقا مضاعفة . وتبل ان الضباط
يقدون الى دنيكين من كل اعداء رومبيا كالسحب ، والهجم لا يرسون
باصد . وانهم ما ان يظهروا منطقة حتى ياتئ اليها الالمان . وكان
كالثئ التي يقود تشكيله تيغوريسكايا قابعا في قطاره في محطة
تيغوريسكايا كالشلول . وعندما رأى جعاسل الدنيكيين يزحفون
من الجهات الاربع تنشط عزمه ، وامر بالتراجع .

هناك المعركة في نحو الساعة التاسعة صباحا . وتراجع العدو
الى نصف دائرة معزز . اوسد كالثئ باب مضورته ، واستلقى
وعفا معتقدا ان معركة اخرى لن تحدث اليوم . بينما استمر جيش
المتطوعين في تعميق تطويقهم للعدو متقدمين في حقل القمح الشام
الكثيف . وفي منتصف النهار اتصل جناحاهم بالاطراف ، وشرجوا الى
البحر من الجنوب . هجم فوج كورنييلوف على المحطة ، واستولى
عليها دون خسائر . واختلفت عسايل السكة الحديدية . وانخفض
كالثئ ، وبقيت بقعته وحذاءه في المقصورة . وفي مقصورة مجاورة
عثر على رئيس هيئة لركانه ، رئيس هيئة الاركاب العامة ، المقدم
زيتريف البصودج الجديمة . كما وجدت زوجته مطروحة على الفراش
ورأسها مغطى في شالها ، وصدرها مصاب بطلقة . ولكنها ما تزال
تنفسي .

وبعد ذلك لم يبق لطوابير المتطوعين غير الاطباق على الجيش
الاحمر التي فقد قيادته ، وقلع عن القاعدة والطرق . وحس السماء
ظلوا يضربونه بالمدافع والرشاشات - وماج الناس واخطروا ،
والزوجة الرضائية للذبح وجرحهم وشهورهم . ونهض الرجال
الذين فقدوا سوابهم من الخنادق . وجمعوا بالعراب ، والموت
يتصدعهم في كل مكان . وعند المساء سد كورنييلوف الطريق الوحيد
الذي يقى مقربها باتجاه الشمال . وفتكوا بالنار والسلاح الابيض
بجماعات العدو المتجهة الى سدة الخط الحديدى . وعند هبوط
النظام اختلط كل شي ، في حقل القمح الكثيف - البيض والاحمر . كان
الاعداء يتراكضون بين سنايبل القمع كطيور السلوى . وجمعون
الضباط ، ويستبيكون في معركة بعد اخرى . في احد الاماكن زحفوا
العاديل على العراب من الخنادق . وخرج كورنييلوف وضباط قلوبوا

بالرصاص وبالعاصفة من الشتاليم اليدوية في منتهى الضراوة . انطلق محتفيا على ودية حصانه . وكان امر قائد الجيش العام يقضى بعدم رمي الاسرى . ولكن امدا لم يامر باقتحام اسرى .

في الصباح طاف دينيكين في ساحة الحركة ببطء . كان الفصح ، على امتداد البحر ، مسجورا ومائلا بمسائله ارضا ومناثرا . وكانت يواشق الجيف تطوف في السماء اللازوردية . نظر دينيكين الى خطوط الخنادق المتلوية عبر العقول - خلال الروابي القديمة والمنخفضات - تبرز منها الاذرع والارجل والرؤوس الميتة . والجثث مرمية كالزكاتب . وكان في مزاج شامري واقى . التفت نصف التفتاة ليقرب الصراخ منه . وقال مفكرا :

- ولكن هؤلاء جميعا روس . فطبع . لا اشعر بشام الفرح

بانتصارنا يا فاسيل فاسيليفيتش ...

كان النصر تاما . دحر جيش كالتين المؤلف من ثلاثين الف رجل وهلك وشنت . ولم يستطع الخروج الى يكاترينودار غير سعة من القطارات العسكرية للحمر . وقطع جيش سوروكين . وفصلت تشكيلتان منفردتان لقوات الحمر كليا : التشكيلية الشرقية في منطقة ارمافير وجيش تامان على ساحل البحر الاسود . وحصل جيش دينيكين على فنانم هائلة : ثلاثة قطارات مصفحة ، ومعدات ، وخسعين مدفعيا . وطائرة وعربات من البنادق والرصاصات والقذائف . ومجموعة كبيرة من مختلف الالياء .

وكان اثر النصر مذهلا . امر الائمان كراستوف بإقامة صلاة الشكر في كاتدرائية نوفوتشيركاسك ، والقرى خطبه امام القوات ليس ياسوا من صدق الامبراطور غليوم . فقد دينيكين ربع جيشه خلال ثلاثة اسابيع . ومع ذلك ففي الايام الاولى من شهر تموز تضامف جيشه : فقد جاء اليه سيل موصول من المتطوعين من أوكرانيا ونوفوروسيا وروسيا الوسطى . ولأول مرة بدأت تتشكل وحدات من اسرى الجيش الاحمر .

بعد استراحة يومين قسم دينيكين جيشه الى ثلاثة طوابير وقام بهجوم واسع على ثلاث جهات : الى الغرب ضد سوروكين . والى الشرق ضد تشكيلة ارمافير . والى الجنوب ضد بقايا جيش كالتين التي تتدافع عن مشارف يكاترينودار . وكانت المهمة تطهير كل المؤخرة

قبل الهجوم على يكاترينودار . ودُرس كل ضربه . وخطط وفسق فرانس اهل فن عسكري . الا ان دينيكين لم يحسب حسابا لطرف واحد هام : انه لم يكن يتصدى لجيش مداد في وسعه ان يقم ويزن بوزء ووسائله . بل لشعب مسلح . لقوى غير مفهومة لديه . ولم يقد ان في هذا الجيش الشعبي تنمو . منسح الانتصارات جيش المتطوعين . الكراهية وروح الاجماع . وان زمن الايشاعات العاصفة الذي كان يطرد فيه امراء الوحدات غير المرغوب فيهم . ويتقرر الهجوم بالحملة الاضواء قد ولى . وحل محله ضيق جديد للحرب الاحلوية ما يزال فعا . ولكنه يتعزز مع كل يوم .

كان كل شيء يتسبب بنصر عاجل سهل . ابلغ رجال الاستطلاع عن حركة قوات سوروكين المدعورة باتجاه يكاترينودار وراه كزيان . الا ان ذلك لم يكن صحيحا تماما . كان رجال الاستطلاع على خطأ . فقد فر وراه كزيان الهاربون من الجيش وفصائل صغيرة . وسارت قوافل اللاجئين . اما تشكيلية سوروكين المؤلفنة من ثلاثين الف رجس فلقد تنظفت عن غير العاديين على القتال . ودمت صفوفها وازدادت ضراوة . وتركت جبهة باناسك ضد الالمان . وانتظر الحمر لقاء جيش دينيكين وجمعا لرجه في ارض مكشوفة . فاذا بجيش المتطوعين الذي اسكرته الانتصارات وقرب من الهدف كان يملك عن بكرة ابيه في معركة دامية مع قوات سوروكين دوهم بها شريفا واستمرت عشرة ايام .

انبأ سوروكين عن سؤال اللجنة التنفيذية المركزية لمنطقة كوزان البحر الاسود بعجرفة تايبلوية : «لا حاجة بي الى معرضين . اصال قطاع الطرق الدينيكينيين تنطق لصالحر . وشجاعة قواتي التاريخية تعلم كل حواجز الثورة الضمادة» . اوقف سوروكين اللعق في قرائنه في الاسام الاولى من هجوم دينيكين . وبدا وكأنه افان من سيات السكير . وانطلق ليل نهار في طواف الجبهة . في لطار . في عربة ثروالي . على فرس . واستعرض القوات . ورمى بالرصاص . بيده . التفت من امراء الوحدات على الملا يسب مؤلفنا المتهاون من اللحظة الراهنة . ووقف على ركابه . وتحدث

بكتلمات بديئة عن اعداد الشعب ، طمعت مع الزيد من شفقتيه الموجدتي حتى ان رجال الجيش الامور قاموه بفوار كخسوار جواسيس اثارها حماية من ذباب الماشية ، وتوسط عمل المعالكم العسكرية والشعبية الخاصة ، وادخل عقوبة الموت على اعمال البندية ، واصدر اوامر للجيش تقول : « ايها العقائلون ! ان شغيلة العالم كله ينظرون اليكم بامل ، وهم يقدمون لكم شكرهم العظيم . فانت تدعون لليا فجر التاريخ الدامي يعيون مفتوحة وصدر لوية . ان الطفيليين ، والحشرات الزاحسة ، لصوم ديتكين ، وكل السفلة المعادين للثورة ، يجب ان يقتلوا بالنار والرصاص ، السلام للشغيلة ، والموت للمستعمرين . عاشت الثورة العالمية ! »

وكان هو الذي يكتب هذه الاوامر في حالة الانفعال . وكانت تنقل على السرايا . وكان فلاح اوكرانيا ، وعمال مناجم الدون ، والمقاتلون في جيش القوقاز ، والاغراب والقوزاق - كل هذا الخليط المهلول صاحب الطليق العنان - يسمون هذه الكلمات العفة كالسحورين .

ووضع بيلياكوف رئيس الاركان ، وهو عسكري ذكسي مجرب ، خطة للهجوم . بالاسمح ان يشق الجيش كله ، بالاقسه الثلاثين ، الحصار ، ويخرج الى ما وراء كويان . ذلك ، على الاقل ، ما كان يراه رئيس الاركان الذي لم يكن له اي امل في نزال ناجح مع ديتكين . وعُينت منطقة كورينيفسكايا (ما بين نيجورنيسكايا ونيكاترينودار) لتكون نقطة الالتحام . وبعد احتلال كورينيفسكايا لن يكون من الصعب مجابهة طابوري درودوفسكي وكازانيفيتش المفلوجين جنوبا من القوات الرئيسية ، والانعطاف الى نكاترينودار . اما بقية الامر فعل المصادفة . . . على هذا النحو فكر رئيس الاركان . كان وضعه حرجا للغاية . كان يكل كياه ، وفي نومه وبظننه ، يكره الحصر الا ان التصيب المعين ربطه به بالبلاشفة . وكان يتوسمه في يدي ديتكين - الذي كان ينظر بيلياكوف اليه باعجاب حشود متبر - بعنى الموت ا كما ان ترتيب سوروكين في قلة حماسه الثوري وكبره لديتكين بعنى الموت ايضا ا وكان امله الوحيد هو طوح سوروكين الشديد ، ولو انه

امل خياني ، مثل كل أحداث ذلك الزمن . ولكن من الممكن التعويل على ذلك . دفع سوروكين الى الدكتاتورية بكل الامكانيات . ثم انتصار ما يعنى القدر . . .

وعلى اية حال فقد استعد للهجوم بكل نشاط : تدفقت على محطة تماشيفسكايا احتياطات الذخيرة وغلف الماشية ، وازلت القذائف . وضعت طوابير ضخمة من العربات في السهب ، وانخذ الجيش مواقعه في منطقة تماشيفسكايا في الجنوب الشرقي لكي يهاجم محطة كورينيفسكايا . ومحطة اخرى الى الشمال منها من فيسيلكي في آن واحد .

في فجر الخامس عشر من تموز فتحت مدافع العبر للبيدان لارا حامية على كورينيفسكايا ، وبعد ساعة انطلق مئات الفرسان على العاصرة والمحطة في موجة الر موجة . واعملوا الطعن في البيض بسيوف صافرة ، وداسوهم بالخيل ، ولم يأخذوا اسرى الا اولئك الذين القوا بناذهم قبل ان يقتربوا منهم . وسارت وحدات المشاة طوال الليل واشتدت يفتخون في كورينيفسكايا على الفور ، لا في نصف دائرة ، كما حصل في بيلايا غلينا ، بل في حلقة بيضوية كاملة .

نهضت الشمس البيضاء في نقاب من الغبار والعرق . وكان الشهب كله يهوج بالحركة : الفرسان يعدون على الفرانسيسم ، والفوج المشاة تعب ، وعجلات الطائرات ترقع ، وتردد صياح ، وضربات ، وطلقات ، وصهيل خيل ، وصيحات مبهوجة بالاورام . واشتدت طوابير العربات حتى الاق - وكان النهار حارا كالفرن ، وفي منتصف الطريق ترك سوروكين ضباط اركانه ، وانطلق على فرس مبيض من الرقوة وطاق بين فوائسه . ومنتهه الدفع الفراملون والذخيرة مثل كلاب الصيد ينقلون اوامره الى الوحدات . كان قد فقد قيمته لانه العدو . ورمى مسترته الجركسية منه . فكان في قبض حريزي ترميزي طوي رذاته الى اهل من مرفقيه ، وسروال ركوب ارق شد بحزام جلدي عريض يقطع معدنية شدا محكما . وكان وجهه المسود من العرق والغبار يري في كل مكان

بأسنانه المتكثرة . وكان قد غير ثلاثة خيول ، انه تلقى موالس البطاريات والحقاق حيث وجدت المشاة تتقدم في الأرض السوداء كالمناجذ ، وانطلق في السهب الى نقاط المراقبة ، وعدا الى طوابير العربات التي بدأت تصل وتفرغ حولتها من القاذف ، ودعا امراء الوحدات اليه بإشارة من مقرته ، واصفى الى تقاربهم محتيا على سرجه ملتها رعبيا ذا عينين مجنونتين . كان مثل قائد فرقة موسيقية ضخمة يشد على اوتار موسيقى معركة مقلبة : ترك عند اللحظة حصانه اللاص ، وهرع الى قسم الرقيات ، وغرب برجله جنة ملروحة عند العتبة مشجوعة البجعة ، جنة ضابض ابيض ذي كتابيتين ، وغامر ، وهو يقرأ الشريط الخارج من الجهاز بسرعة ، الاحساس بانفصال عارم مسكر : هجرت قوات دورودوفسكى وكازانوفيتش محطة دينسكايا جنوبا ، واقتربت بسرعة لتتشبك في معركة .

كان رجال دورودوفسكى يركبون العربات ، مئات العربات جللت طوال النهار تنطلق في السهب في سحب من الغبار العار . اما رجال ماركوف الذين اصبحوا تحت قيادة الجنرال كازانوفيتش فقد تلقوا مع مدفعيتهم في قطارات ، فسبقوهم ، وفي فجر السادس عشر نزلوا من العربات واندفعوا اسلحا بهابون كورنيشسكايا .

كان الجنرال كازانوفيتش واقفا على هيكل بئر قرب كسلكه السكة الحديدية يراقب بهدوء الحركات المتتمة لضفوف الضباط ترتج دون ان تطلق نارا . لاح استغرق هازي، على وجه الدقيق الرصيق بشاربيه الطويلين الذي وظفه الشيب ولحيته المتشعبة (مثل احية الامبراطور السابق) ، واطلت ابتسامة باردة انوية الهوى من عينيه الجيبليتين . وكان شديد الثقة بنتيجة المعركة حتى انه لم يره ان ينظر فرقة دورودوفسكى لحظة واحدة . كان يتنافس على الجسد مع دورودوفسكى المصاب بمرض الغرور ، والحذر ، والبطور، الحركة مما يلحق بالاسا الضرر بالامر . كان يحب العرب يطلقها الومسح ، ويوسيقى المعركة ، ويعد الانتصارات الدافع ، خرج قرض الشمس الهائل من وراء الروابي البعيدة ، وكانت فيه ضراوة تموز . وكان نور الشمس يبهز غيون البلاشفة . لعلت الرشاشات ، ومزقت الطلقات السكون الملتهب . وكان من المنكر

رؤية صفوف الاعداء الكثيفة تخرج من الخنادق . جرى رجال فرقة ماركوف الى الامام ، لم يمن احدهم واسه امام الرصاص ، ومنمن الجانب الآخر زحلت للمالهم آلاف عديد من الشخوص الصغيرة . رفع كازانوفيتش المنظار الى عينيه - غريب !

امر جندي التلفزيون الجالس عند البئر :
- ثلاث قنابل شراينيل على الرفاق !

فتح النار بطارتان مختلفتان وراء سدة السلك الحديدى . انتجرت على ارتفاع واخرى فوق صفوف العدو نفاثات الشراينيل القطنية . وتفرقت الشخوص ، ثم ضمت صفوفها وتابعت مجرمها . الآن صار الميدان كله يهتز من الطلقات . واخيرا زارت مدافع البلاشفة - وايتسو كازانوفيتش في دحشة ، وارتمشت ذراعاه الضيقة العاملة للمنظار . استلقى رجال ماركوف . وتقدموا بسرعة . وشجبت بسرعة وجهه المسفوعة . وتب من هيكل البئر ، وجلس مرفضا متكبيا على جسد التلفسون ، وطلب الجنرال تيمانوفسكى . وساح في السماء :

- الصفوف متسلطة - اخرج جناح العدو الايسر ، فيما كلف الامر ... كل ثانية من الوقت ثمينة .

وفي الحال ظهر رجال ماركوف - احتياطات تيمانوفسكى - من وراء السدة ، ونزلوا المنعز وتركوا صوامع وصلوا وراء صف حسمين متعقلين ، واختلوا في الفئس العالي المتساخط الحبوب . ركض تيمانوفسكى وراء الصفوف بعد ان امسك بسيفه . كان شابا متورد الوجنتين ، ضاحك السن دائما في قميص كتاني قذر عليه كتابتيان سوداوان من كتابيات الجنرالات ، وقد مرح طاقيته العالية الى الوراء . ويرى شي غير مفهوم : كان البلاشفة قد نكثوا برجال آخرين ، وانقضت كل اللحظات التي كان يجب ان يجهلوا فيها بالتأكيد . الآن امثلا السهب كله بشخوصهم الزاحفة . كانت رشاشات المتطوعين تضرب بجنون ، فكانت موجبات جديدة لعل مكان الصرص .

كانت سرايا تيمانوفسكى تركض واحسدة وراء الاخرى . وجرابها متمسكة الى الارض . في نهاية حلل الصبح ... شدد كازانوفيتش قامته كالوتر ، على هيكل البئر . وكان يرى في مجال

الرؤيا الضيق في المنظار الفنية رجال ماركوف الضارية . ما اشد الجهد ، وينساقطون وينساقطون ! وحول منظاره الى الراكضين ، وفجأة رأى افواجا غائرة ، ووجوها عريضة ، وقمحات بخارة ، وسدودا برتزية عارية . . . بخارة بلاشفة . . . وفجأة اختلط كل شيء ، وتكور في زحام واحد . انه قتال في العراب - وجسدت الابتسامة السليمة على شفطي كازانوفيتش الرشيقين . . . لم يصد رجال ماركوف - تراكمت بقية السرية الاولى الى حقل القمح ، واستسلمت . وترجمت السرية الثانية وانطرحت ارضا .

هندنة وثب من هيكال البشر ، وركض خيلنا الى الحقل - وراء الرجال . واستطاع ان ينهض الصفوف سالحا : عيب ، يا سادة ، عين ! ودفعهم في هجوم بالعراب . الا ان النار كانت من الشدة بحيث ان الرجال واموا وينساقطون بكثرة . وانطرح الصفوف من جديد . . . يمكن ان تكون هذه معركة خامرة ؟

في نحو الساعة التاسعة صباحا تردد من الغرب قصف مدافع دروزدوفسكي . وشهدت في السهب صفحة كالسلفحة الرماضية تترشح في سيرها - شرح رجال دروزدوفسكي بالهجوم بشكل نظامي ودون عجالة . ونهض رجال كازانوفيتش للمرة الثالثة . والان كان المتطوعون يتقدمون في جبهة عريضة ، على شكل حلال . ان البلاشفة لا يمكن ان يتحلوا هذه السرية .

ظهر فارس بين خنادق البلاشفة ، عدا بجثون ملوحا يتصل لاعم . وصعد راوية . وكبح حصانه . كان الفارس يرتدى قميصا قرمزيسا ملوحي الكمين . وراسه ملقى الى الورا . صرخ ، ولوح بالسيف مرة اخرى . فاذا يسيل من الخيالة يتصدى لصفوف دروزدوفسكي المهاجمة . كانت خيولهم الصغيرة الهانجسة تكاد تنطبق على الارض . وتوقف اطلاق النار ، ومن بعيد كان يسمع صفير السيوف . والبريل . ووقع الحوافر . اندفع الفارس ذو القمصين القرمزي من الراوية . واطلق العنان لراسه . واطلقت بالضي السرعة في المقدمة . ارتفعت سحابة سوداء من الغبار مظية ساحة المعركة . ولم يصد رجال دروزدوفسكي وماركوف لضربة الخيالة ، وتراقصوا هاربين . وتوقفوا وتغنىوا وراء تهيير كيريبيل .

شهد ايفان ايليتش تليغين راسه يشاش من محفظة الاسعاف الخاصة به . وهو يقفص عيتيه ويرتجف من الألم .

كان خدشا خفيفا ، والعظام لم تصب ، ولكنه كان يحس بالثقل . وكان لولبا يدور في جمجمته كلبسا . وكان قد وعن من الجهد حتى انه ظل واقفا على ظهره في حقل القمح وقتا طويلا بعد التضييد .

وكان تقريبا ان يسمع صرير الجنادب الوازع وكان شيئا لم يحدث . انتهى الصراخ الدماي والصفحات وهدير المعركة العديدي هذه الجنادب المختلفة في شقوق الارض ، والنجوم الكبيرة في ليل الجيوب . وبعض السنايل المتدلية بلا حراك ما بين عيتيه والساه ، وقبل وقت كان احد الجرعى ينث على مسافة قريبة . والان قد همد .

السكون شيء رائع . خف الالم اللاذج في راسه وبدا وكان هدوء الالم مبعثه عظمة الليل المهيبة همد . ولصمت في ذاكرته صور ساعلة من اليوم الذي تمزق وتكور مغتلطا يغصف المدافع . وصيحات الافواه المفتوحة بوحشية ، وتويات الكراوية . حين تركض فلا ترى غير العراب العادة والوجه المشاحب للرجل الذي يصوب النار عليك . الا ان الذكريات نفذت في ذهنه بالثقل ، وحزت جمجمته حتى انه توجع . وحاول ان يفكر في شيء آخر . . .

في اي شيء كان من الممكن ان يفكر ؟ امسا في هذه التثقل الرخيصة لعهد طويل لا تستويبه المتخيلة - الثورة والحرب - واما في حلم عن السعادة بعيد مطلق دونه ، حلم عن دلتشا ، واتشد يفكر فيها (في الواقع لم يكن قط عن التفكير فيها) يفكر في الهسا مهملة وحيدة ، غير مجرسة ، ولديانة القدرة ، وخيالية . . . سينان غاضبان . اما القلب ، فمثل قلب الطائر ، مقفور ، خالقي . طفلة . . .

يفض ايفان ايليتش بيده المرحية على مقنعة تراب حار ، وعصرها . واسبل جفنتيه . افتقرت معه وانقصة من انه الفراق النهائي . حقا . . . لا احد لنزع عينك الغاضبان . . . ولا احد سيخلص في حبه لك اكثر مني ، حقا . . . تقاسين مسادات مبررة لا تلتس . . .

تعددت الدموع من خلال رموش ايفان ايليتش - فان الجرح قد اوجعه ، اخذ جنب يصرصر قرب اذنه . وبدأ الحقل المدمى المداس فطيا من ضوء النجوم . ونفى الليل على كل شيء بجنحه .. رفع ايفان ايليتش جسده . وقعد محتضنا ركبتيه . كل شيء كان كالعلم . كما في الطفولة . وانشق القلب . وبكى ... نهش . وسار محاولا الاتي بخطواته راسه .

كانت كورنيفسكايا على بعد فرسخ من هنا . هناك نيران متفرقة . وعلى مسافة ارب ، في الوحدة ، كان لسان مسن الذهب يتراقص فوق الارض بلا حشاش . واحس ايفان ايليتش بالعطش والجوع ، فتحول باتجاه النار .

في كل الحقل كانت تنحوس سوداء تسير الى هناك . منهم الجريح برحا خفيا . ومنهم الضالع من وحدة مزرقة . ومنهم من يسحب اسيرا . وتنادوا ، وتردد سباب مبهوح ، مقلقة قوية ... وعند النار التي تحترق فيها عوارض خشبية استلقى رجال كثيرون .

وشم ايفان ايليتش رائحة خبز . كان جميع هؤلاء الذين غطاهم الضباب يعضقون العيز . كانت بالقرب من النار عربة فيها خبز وبرصيل صغير تعرف منه الماء امرأة نحيلة بادية الاعياء تشد راسها بمنديل ابيض .

ارتوى ايفان ايليتش . وحصل على قطعة من الخبز ، واتكا على العربة ، واكل ناضرا الى النجوم . كان الناس عند النار قد هداوا ، واستغرق الكثيرون منهم في نوم . اما اولئك الذين كانوا ياتون من الحقل فما زال الغضب يعتمل في نفوسهم . كانوا يشتمون ويتوعدون في الظلام ، ولو ان احدا لم يصغ اليهم . كانت الممرضة توزع الماء وقطعا من الخبز .

سحب شخص ذو لحية سوداء عار حتى الحزام اسيرا ، وطرحه عند النار .

- هذا هو ابن الكلب ، الطفيل .. استجويسوه ، يسا اصحاب ..

وضرب الرجل المطروح بخدائه ، واينعد ساجيسا بتلولونه ، وصدره المنطفض يعلى ويهبط . عرف ايفان ايليتش

انه تشيرتوغولوف - فاستدار - هرع بعض الاشخاص الى الاسير المطروح ، وانحنوا عليه .

- من المتطوعين ... اذعوا عنه كتابيته . والقوميا في (لنار) .

- انه صبي صغير ، ولكنه حقود !

- جاء ليحارب في سبيل اموال آباءه ... يبدو انه مسن الاعياء ...

- عيناه تلمعان ، الولد ...

- لماذا تنظر اليه ؟ دعوني ...

- انتظر ، ربما عنده اوراق . لناخذة الى مقر الاركان ...

- خذوه الى الاركان ...

صاح تشيرتوغولوف مندفعاً :

- لا ا ا كان طريحا مجروحا - تقدمت منه ، - انظروا الى خذاه - فاذا به يطلق النار على مرتين - لن اعطيه لاحد .

وصرخ بالاسير صرخة اكثر وحشية :

- اضع الحذاء ا

نظر ايفان ايليتش بطرف عينه مرة اخرى - كان راس الاسير الضوي العليق المذود يلعب في ضوء النار - وكانست اسنانه مكسرة ، وحدقتا عينيها الكبيرتين تروحان وتجيئسان ، وقطعت اذنه الصغير فضوتا كثيرة . كان يبدو انه فقد صوابه كلياً ... وثب ناهضا بحركة حادة . وكانت يده اليسرى تتدلى بلا حياة في كفه المشقوق المدمى . وصدر صغير خفيف من بين اسنانه ، بل ومد عنقه ... تراجع تشيرتوغولوف امام حذبه الصورة الحية الرعبية من الكراهية ...

ارتفع من بين الجمع صوت كتيف ا

- اما انا اعرفه . كنت استغل في فعل ابيه للتبغ . ان اياه اوتولى صاحب معمل في روستوف ...

ارتفعت اصوات :

- اعرف ، اعرف .

احس فاليريان اوتولى جيبته ، وعز رأسه ، وصرخ ببخسة باغزة :

- وضعا سائلة ، اوغاد حمر ! ساصلمكم على ابوازكم ا لم
نقتل ونستبق منكم الكفاية ، يا كلاب ! اهذا قليل ؟ مستشققكم
جميعا ، يا اوغاد اوباش ...

وقعد وعنيه ، وامسك تشيرتوتونوف من لحيته الكثة ، واخذ
يضربه على بطنه العاري بعذائه ...

ابتعد ايفان ايليتش عن العربة في الحال . صدرت الاصوات
متعددة ، وقطعت سرعة حادة الفيط المتصاعد . ارتفع فوق الجمع
جسم فاليريان اوتول ميسوط الدرافين رافسا ، وغار في الهواد
وسقط ... وارتفع عمود من الشرور عاليا فوق النار ...

في السهب الذي مسه البرد قبيل الصباح ترددت طلقات
متوازية ، وكانها وقع سباط ، وسرى هدبر المدافع مهيبا . ذلك
طابورا دروزدوفسكي وبوروفسكي عادا الى الهجوم مرة اخرى من
ورا- نهير كيربيل ، ليحولا الترفيق الى جانبها بجهد مستثيت .

في تلك الليلة تلقى القائد سوروكين امرا من بكتارينودار
من اللجنة التنفيذية المركزية المنتهية بلا انقطاع بان يكون
فاندا عاما لجميع القوات الحمراء في شمال القوقاس .

وقد ابتغى بذلك رئيس الاركان بيلياكوف الذي اندفع الى
غربة القائد العام للجيش ومعها التشريط الرقيق ، والتي رجل اللقائد
من على الثلث وقرأ الامر على ضوء قلمة بترين . لم يكن سوروكين
قادرا على ان ينتزع نفسه من النوم ، فرمض بعينيه ، وسقط على
الوسادة العارة ، اخذ بيلياكوف يهزه من كتفيه :

- اصحح ، يا صاحب القمامة ، الرفيق القائد العام الاعلى ...
سيد القوقاس ، هل فهمت ؟ ليصر واهل - فهمت ؟

عندئذ فهم سوروكين أهمية النبا الهائلة يرمتها ، مصير
المذمحل كله ، السطوح بنقاط وشرطات في التشريط الورقي الضيق
الملتوي في اصابع رئيس الاركان . عدل بنظارة بسرعة ، والتي
عليه سترته الجركسية ، وشد غلاف مسدسه ، وسيفه .

- اعلن الامر على الجيش فوراً - وهيب ، لي القرس ...

في الفجر ، وبعد ان اعاد ايفان ايليتش تضميه راسه سار
بين العربات باحثا عن مقر فوجيه . وفي تلك اللحظة انطلق في الشارع
من جانب المحطة رعد من العيالة ونهايات فلتاسهم اللوزاقية
ترخرف في الريح ، كان البواق في المقدمة وخلفه اثنان : سوروكين
بهز مقود حساه الطويل العرف ، وفوزاقى يحمل شارة القائد الاعلى
على دمع - واندفع الفرسان باتجاه الطلقات منتفحين بالقباز مثل
اشباح ليلية .

ومن العربات المبجلة بالندى ارتفعت رؤوس ناعسة ، وظهرت
لحي . وصدرت اصوات مجحوسة . ولكن البواق العادي فرسه
بعيناه في السهب يوق معلنا ان القائد العام الاعلى قريب ، انه
هنا . في المعركة ، تحت الرصاص ... وضد البوق : «تا- تا-
تا ، سندفر العدو ، فدعنا الى النصر والجد ... البطل لا يعرف
الموت : بل السجد العالي ... تا- تا- تا ...»

وجه ايفان ايليتش الضابط نجيزا في كوخ طيشي معظم
النوافذ ، ولا احد يجيره من ضباط الاركان . كان نجيزا يجلس
محدودبا على مسطبة خشبا كئيبا وبده العائمة لملعقة خشبية
تدلى بين ركبتيه المنفرجتين . وعلى المتصدرة طاسة من حساء
الكرتب الى جانب حقيبة مكتونة - كل جهاز رئيس الشعبة الخاصة .
كان نجيزا يوم ناعسا . لم يتحرك بل ادار عينيه نحو ايفان
ايليتش :

- جريح ؟

- بسيط ... مجرد خدش . طفلت نصف الليل واقدا في
خقل القمح ... فقدت جماعي ... اية شربةكة هذه ... اين الفوج ؟
قال نجيزا :

- اجلس . هل تريد ان تأكل ؟

ورفع يده بصعوبة ، وقدم الملعقة . عجم ايفان ايليتش على
طاسة الحساء نصف البارد ، بل اشغف ذلك بانين الجوع . اكل برهة
وهو صامت .

- حارب ولفانا يوم امس بشكل جيد ، يا رفيق نجيزا حتى
لم تكن ثمة حاجة الى انماضهم . هاجموا بالحرايب على بعد لثلاثة
اوربعائة خطوة .

قال ليمزا :

- كفى الاكلا . - وضع تليفين المعلقة . - هل سمعت بالامر الذي اذيع في الجيش ؟
- لا .

- عين سوروبكين قائدا عاما اعل . مفهوم ؟

- وماذا في ذلك ؟ شي جيد . . . هل رأيت يوم امس ؟ اطلق الصان لصنائه في صنم النار . القمص الرمزي ، وهو على مرأى من كل الناس . والمقاتلون ما ان يروه حتى يهتفوا له : «هوراه» او لا هو يوم امس لما عرفت ماذا . . . دعشنا كثيرا يوم امس ا كان كقيصر .

قال ليمزا :

- نعم ، انه قيصر . من المؤسف اني لا استطيع ان ارميه . انزل تليفين المعلقة .
- هل انت . . . تهزل ؟

- لا ، لا اعزل . على كل حال انت لا تفقه في هذه الامور - ونظر الى ايفان ايليتش نظرة تليسة لا ترمض - ولكن ، الا ترى بي ؟ (نظر تليفين في عينيه بهدوء .) حسنا ، اريد ان اعهد اليك مهمة صعبة ، يا رفيق تليفين . . . اظن انك اتسب شخص . . . يجب ان تسافر الى القوقاز .

- سامع .

- سياتك كل التفويضات اللازمة . اعطيك رسالة الى رئيس المجلس العسكري . واذ كنت لا تنجح ، ولا تسلمها فمن الافضل ان تنتقل الى البيبي . لا تعد اى هنا . مفهوم ؟
- حسنا .

- لا تسلم نفسك حيا ، احرص على الرسالة اكثر من حرصك على حياتك . واذا وقعت في ايدي الاستخبارات افعل كل ما تستطيع فعله ، ابتلع الرسالة . . . فهمت ؟ - تحرك ليمزا وخرق الطاولة بجمع يده حتى ان الطامة فطرت . لعلمك سيكون في الرسالة مسا يلى : الجيش يؤمن بسوروبكين . وسوروبكين الان يطل ، والجيش يذهب وراءه الى حيث يشاء . . . وانا اطلب ان يرمن سوروبكين

بالرصاص . . . على الفور قبل ان ياخذ بزمام الثورة . هل استوعبت ذلك ؟ ان هذه الكلمات هي موتك ، يا تليفين . . . فهمت ؟
وصمت . دبت ذبابات على جبينه .
قال تليفين :

- حسنا ، سيكون ذلك .

- اذن ، قسافر ، ايها العزيز . . . لا اعرف اى طريق يجب ان تسلك . الطريق عبر سفيتاوى كريست ، الى استراخسان طويل . . . الافضل لك ان تسلك على طول الدون الى تسارانسين . . . وبالنسبة يمكنك ان تستطلع الوضع عند البيبي ، في المؤخرة . . . دير لفسك كاتفيتش شابل ، وتبخر . . . ماذا تريد : كتافيتسا تليب ام مقدم ؟

وشحك . ووضع يده على زكية تليفين ، وديت عليه كالتل :

- تم ساعة او ساعتين ، اما انا فساتكتب الرسالة .

٩٠

اخيرا حصل قادم بتروفيتش ووتشيف على اجازة لمدة ثلاثة اسابيع . كان تميا للغاية ، مرتبعا بمزقه التناقضات ، بخم في ذلك الوقت في حامية المتطوعين في محطة فيليكوكوتنياجيسكايا ، لم تكن هناك معارك كبيرة ، فان جميع قوات الحزب قد انسحبت جنوبا لتقاتل قوات دينكين الرئيسية ، وهنا ، في القرى الواقعة على نهري مايتشيس وسال وقعت قتال . الا ان فصائل التشكيل القوزاقية للانسان كرامستوف هزمت العقول الثائرة بيد ماهرة : تارة بالافتاح ، وتارة بالجله ، وتارة بالشتق .

تهرب قادم بتروفيتش من الاشتراك في التشكيل متمسكلا بالصدمة التي اصيب بها . وكان يتفانى حسب الامكان الذعاب الى معاصف الضباط التي كانت تقام احتفاليا بانتصارات دينكين . والغريب ان جميع رجال الحامية كانوا ، كسما كانوا في الجيش المحارب ، ينظرون الى ووتشيف بعجز ، ويعدها حتى .

كان ثمة شخص قد اشاع اشاعة عن «صيفته الحمراء» فقص
هذا الثمت به .

في المناقش بالقرب من شابلينكا صوب المتطوع اونسول
النار عليه . كانت روتشين يتذكر تلك اللحظة بوضوح : هدير
تذيقه من القطار النصلج - صباح أمر السرية - «استلقاء» و ألتجار .
ثم طفلة متأخرة من سدس ، ضربة كضربة عصا على القفا ، وعينا
أوتول تطفحان بفرح غدار .

رجل واحد كان يمكن ان يسدق بكلمة الشرف التي يغولها
روتشين ، وهو الجنرال ماركوف . الا انه قد قتل - ولقد ناديس
بتروفيتش الا يتبر مرة أخرى هذا الامر المشكوك فيه في اتهم
الصبي .

وكان يعلمه التفكير في مصدر كل هذه الكراهية له - ألم يكن
واضحا حقا انه مخلص ، وانه زويه ، وان افعاله تسترشد بفكرة
واحدة فقط ، هي عظمة روسيا ؟ انه لم يأت الى هذه السهوب
الريحية من اجل رتبة جنرال . . .

كانت تنقض روتشين الرؤية الصافية الصلبة للشيء - كان
فكره يكون العالم والأحداث بالشكل الذي كان يراه بنفسه افضل
وأكثر اضية . وكان يصدق النظر عما لا يروق له ، ويشغاض عن
الموضوع من الاشياء . وكان يتصور العالم نظاما كاملا . وكان
يعت ذلك في الكبر الظن روح الاستقرائية الغربية . والكثير
من ابيال ملك الارض المنعمين . فان تلك السلالة المتفرقة كانت
تضع الهناء الذاتي الواحد فوق كل اعتبار ، وتفرغه على كل شيء ،
وعلى كل طرف . لا يهم اذا سيط فلاح في اسطيع ، فانه سيصبح
قبلا . وبعد العشاء سينعم ، وسيكون ذلك افضل له ، لتسادم
وللتناهد السلام - ولا بأس لو تبطل السمكات ، وتباع الطبيعة
بالزاد العثلي . يمكن ان يعيش الانسان في جناح . في اجسامات
الارقطيون وعشب العشب ، بدون مآذب صاخبة ، فان ذلك اهدأ
لنفس عند الشيوخة . في القلب الثقل . . . ولم يستطع القدر بكل
جهده ان يخلق مالك الارض الطيب المزاج . وتكشفت عنده نظيرة
ناعمة خاصة : ان لا يبرى في أي شيء غير الزراع والسماي ؟

كان لدى ناديس بتروفيتش ايضا هذا الاقتنصار الى النظرة

الانتقادية للاشخاص والاقوال . ربما ان أحداث السنوات الاخيرة قد
اصابت رومانسيته بضرابات شديدة ، او بالآخرى لم يبق منها الا
زق . (وصار عليه الآن ان يقلص عينيه باستتراو - ولقد السبب
اشحن بتجنب نادي الضباط ، مثلا .

ان هؤلاء الناس - حنة من الضباط وظلاب الصغار من
العسكرية - كان يجب ان يرتدوا ، حسب فهمه ، ملابس بيضا
كالصليبين : فقد شهبوا السيف على الغوغاء المتفرقة ، على القادة
السود - خدم واتباع المسيح الدجال او الالمان - الضباط يعرف
لمن . (وهذه الشحنة من الافكار خرج روتشين الى منطقة الدون .)
ولكن كان من الناس ان يسبح في مقاصف الضباط تشاء .
صاخبا على رئين الاتماخ ، اطراوات على الشجاعة في قتل الاخ لآخيه .
ان هذه الوجوه الشابة والابتقة في وقت سابق له «الصليبين» قد
تنوعها التما الى القتل ، الى التنكيل ، الى الانتقام . عا هم يقفون
ويأيدهم اقتراح من الكحول المركزة يشهدون لحن الموت لمن كان
اوضح الناس ، لمن قد رمى بالرصاص ، وأحرق ، ويد مع الريح ،
مثل دميتري الندي . ولو جمع كل الدم المراق يارادته العاجزة
لأفرله الشعب حيا في تلك البحيرة العميقة من الدم . . .

ويذا لحن الموت هذا وروتشين يقلص عينيه على ذلك
بالذات ، الفكرة الوحيدة لدى زملائه . . . تطوير روسيا حسن
البلاتفة ، الوصول الى موسكو ، رتين الاجراس . . . دخول
ديكيين الكرملين على فرس ابيض . . . كل ذلك مفهوم . ولكن ماذا
بعد ؟ الشيء الرئيسي ؟ وكان حتى الحديث عن الجمعية التأسيسية
اعام الضباط يعتبر غير لائق - يعني موحيا بالوت ؟

ما الذي جذب هؤلاء الناس الى القتال والموث ؟ وقصص
زوتشين عينية . . . لم تعد البطولة تعريض الصدور للرصاص ،
واختساد الكحول في عزبات القطار المدفأة . فقد اضحى ذلك قديما
ياليا . هذا يمارسه الشجعان والجناء على حد سواء . واصبح مالوفيا
التغلب على خوف الموت ، فقد صارت الحياة رخصنة .

كانت البطولة هي التعل من النفس باسم المعتقد والعليقة ،
ولكن هنا ايضا تنقلص العين اعتراضا ، تنقلص بلا نهاية . . . باي
حقيقة يؤمن زملاؤه في الفوج ؟ باي حقيقة آمن هو نفسه ؟ في تاريخ

روسيا التراجيدى العظيم ؟ ولكن ذلك كان واقعا وليس حقيقة ،
العقيدة في الحركة ، في الحياة ، ليست في تقليب صفحات كتاب
مترجم ، بل في ما يجري نحو المستقبل .

باسم اى حقيقة (اذا استثنينا ولين اجراس موسكو ، والفرنس
الايضى ، والازهار على العراب وغيرهما) ينبغي نكل الفلاحين
الروس ؟ ان هذا السؤال بدأ يتسرب الى وصى فاديم بتروفيتش ،
ويرتضى مثل ارتماش الماء من القاء حجر . ومن هنا بدأ انشطاره
العظيم . كان غريبا بين زملائه ، « صيغة حمراء » ، « بلشفيستا
تقريبا » .

وظل حديثه الاخير مع كاتيا يلح عليه اكثر فاكتر ، ويدفع
الدم الى اذنيه سجلا . عصرت يديها ، وتطلعت الفاسها الفعلا .
وكانت رات اسجارا تتساقط في عاوية من تحت قدمى فاديم
بتروفيتش . « يجب ان نعمل شيئا آخر تماما ، يا فاديم ، فاديم ! »
وكان ما يزال غير متهيئ لان يقر لنفسه ان كاتيا كانت على
حق كما يبدو ، وانه قد ضل ضلالا مبنوسا منه ، وانه كلما نادى
في الامر قل فعمه للسر في تنامي قوة « الفوضى المتوردة » بسرعة
باسوية ، وان من حماقة الطبيعة القول في جنيا العتيد يساان
البلاشفة يرفعون الشعب ، لانه لم يعرف بعد هل البلاشفة هم
الذين دعوا الى الثورة ، ام الشعب هو الذى دعا البلاشفة ، وانه
الآن لا يتهم احدا بخير نفسه .

كانت كاتيا على حق في كل شيء . حملت من الحياة القديمة الى
علم الاوقات العصيبة الثقلة حياية واحدة . كثيرا واحدا-العيب
والعنان . وتذكر كيف سارت في شوارع روستوف وعلى رأسها
متدبل ، وفي يدعا مرة هي دقيقة حياته الوردية . . . حبيبة ،
حبيبة ، حبيبة . . . ان يضع رأسه على ركبتيها ، ويضم الى وجهه
يديها الرقيقتين ، ويقول فقط : « كاتيا ، انا مبهوك . . . » ولكن
المرة السابقة تبعت فاديم بتروفيتش . كانت قائمه الشعلة
تظهر في شوارع القرية الشرب ، في الصف ، في نادي الضباط ،
وكانه قد سد في حشد حديثي ، وقد اشتعل الشيب في رأسه
المرفوع باها . . . وكالتوا يقولون عنه : « يا رب ، يرفع الله ،
يتصور نفسه من حراس الامبراطور ، وهو وفد من المشاة . . . »

وكان قد ارسل لكاتيا رسالتين قصيرتين ، ولكنه لم
يتلق جوابا . عندئذ قرر ان يكتب الى المقدم تيتكين . لا انه
حصل على الاجازة في ذلك الوقت ، فسافر في الحمال الى
روستوف .

استاجر عربة الحصان من المحلة عنه الظهر . كانت المدينة
قد تغيرت تغيرا لا تعرف به . كان شارع سادوكايفا نظيفا جدا ،
والاشجار مشدبة ، والنساء اثبات ، وكلهن في ملابس بيضاء ،
يتنزهن في الجساب الطليل ، ويتمكسن على واجات المحسازن
الزجاجية الالامة .

تلفت روتشيف وهو في العربة يبحث بعينه عن كاتيا . ما
هذا ؟ كان النساء خارجات من حلم منسى ، في قبعات عليها ريش
على الطراز القديم ، وقبعات بناما ، ولقاعات بيضاء . . . اقدامهن
البيضاء تقرب الاسفلت الذى يفصله بوابون جهما ، وما حسن
لحظة دم على تلك الجوارب البيضاء ، من اجل كل هذا تصمكر
الوحدة في فيليكوكتيايسكايا ، من اجل هذا يضارع ديتكين
الجفاف العبر منذ اربعة اسابيع تلك من الحقيقة البسيطة
« كرافعة النهار » ، حقيقة الحرب البيضاء !

واينسى روتشيف ايشانة مرة . في مفارق الطرق كان الالمان
يقفون في بزائم المألوفة الخضراء الرمادية الى حد الغثيان . وفي
تعاميم التسمية ، وكانهم في بيوتهم ا واذا ياحدهم يرفع النظارة
الاحادية الزجاجية من عينه ، وتقبل يد حسنا قاهرة في لباس
ايض . . .

يا حوشى ، اسرع !
كان المقدم تيتكين واقفا عند باب بيته . واقتربت عربة
فاديم بتروفيتش قفلس منها ، وراى تيتكين يتراجع وعيشاه
تندردان ، وتنبهلقان . ارتفعت يده السميتة ، ولوحث لروتشيف ،
وكلما يعمه .

— مرحبا ، يا مقدم . . . احقا انك لم تعرفنى ؟ انسا . . .
يقن الرب ، كيف كاتيا ؟ في صحة ؟ لماذا لا . . .
هتد تيتكين بصوت نسوي :

- يا للسماء ، انت حتى ؟ يا عزيزي ، فاديم بتروفيتش !
واندفع على روتشين ، واحتضنه ، وبذل خده باللمح .

- ما الذي حصل ؟ اعترفتي بكل شيء . يا حلقم . . .
- فلها حمل مساسا انك حين . . . والمسكينه يكاترينسا
فعتبرينا ، كم فاست !

واخذ ليتين يروي له بشكل مشوش كيف انها ذهبت الى
اونولى ، وانه ، لسبب غير معروف ، اكد لها ان روتشين قد قتل ،
وتحدثت عن شقاء كاتيا ، ورحيلها ،

فقال روتشين بهلجة حازمة ناطرا الى الارض :
- اذن . . . اين رحلت يكاترينا دميترييفنا ؟

بسبط تيتكين ذواعيه ، وعبر وجهه الطيب عن رغبة حارة في
المساعدة .

- انذكر ، انها قالت لي انها مسافرة الى يكاترينوسلاف . . .
بل تصور انها كانت تريد ان تعمل في محل للخدويات . . . عن
الياس ان تلجا الى محل الخدويات . . . انتظرت ان تكتب ، ولكن لم
تكتب سطرًا واحدًا ، وكانها فطمتت في الماء . . .

وقضى روتشين الدعوة لاحضار فصح من الشاي ، وعاد الى
المحطة راسًا . كان قطار يكاترينوسلاف يغادر في المساء ، ذهب
روتشين الى صالة انتظار العرجة الاولى ، وجلس على اريكة بلوطية
عارية ، واستند على كوفه ، وغطى عينيه في كفه - وبقي ساعات
طويلة بلا حراك . . .

زفر شخص زفرة تفرغ ، وجلس الى جانب فاديم بتروفيتش
وقتا طويلًا ، كما يبدو . وقيل ذلك جلس كثيرين - كانوا يجلسون
للإفلا ثم ينصرفون . اما هنا فقد بدأ يهرج رجله وفضحه بشكل جعل
الاريغة كلها تهتز . ولم ينصرف ، ولم يكف عن الاهتزاز . قال
روتشين دون ان يرفع يده عن عينيه :

- اسمع ، الا تستطيع ان تكف عن هز رجلك ؟
اجاب الرجل باستعداد :
- اعترفتي ، عادة سيئة . - وجلس بعد ذلك ساكنًا .

اذهل صوته فاديم بتروفيتش : صوت مألوف جدا ، له صلة
بشيء بعيد ، بلذكري طيبة - افرح روتشين اصابعه دون ان يرفع
يده عن عينيه ، ونظر الى جاره بعين واحده . لقد كان ذلك تليفين ،
كان قد مدد رجله المحدثتين حذاء طويلًا فلما ، ووضع ذراعيه على
بطنه ، وراح يهزم حلقيا فناء على متكا الاريكة العالي ، كان يرتدى
سترة ضيقة تضغط على الاطراف ، وكنايفتي مقدم جديديتين . وقد
جهدت على وجهه التجمل الحليق الملوح ابتسامه وجل يستريح
بعد تعب مضن . . .

كان اقرب انسان الى روتشين بعد كاتيا ، انا وسديفسا
عزيزًا . كان يشع منه نور سحر الشقيقتين : داشا وكاتيا . . .
ومن الدهول كاد فاديم بتروفيتش ان يهتف ، كاد ينقض على ايمان
ابليتش . الا ان تليفين لم يفتح عينيه ، ولم يشملل - وصمرت
ناحية . وادرك ان امامه عدوا . وكان فاديم بتروفيتش قد عرف
منذ نهاية ايار ان تليفين في الجيش الاحمر ، وقد انضم اليه
بعض اقرانه ، ويعتبرونه ضابطًا ممتازًا . وكان مشتركرا على ما
يندو ، ربما في ملابس ضابط تشبه يده ، في رتبة مقدم
ايضًا لم يكن الا تقيبا في الجيش القيصري) . . . واحس روتشين
بإستمزاز مبالغت لرج ، من ذلك الذي ينتهي لديه في العادة
بثوبسة من الكراهية العادة : لا يمكن ان يكون تليفين هنا غير
جاسوس . . .

كان يجب الاسراع بايلاخ القومندان - ولو كان ذلك قبيل
تسعينين لما تردد روتشين لحظة واحدة - الا انه التصق بالاريغة ،
ولم يعد في نفسه القوة . ثم ان الاستمزاز بدا وكاله يتزاح عنه . . .
ايمان ابليتش ضابط احمر ، وما عن الآن الى جانبه ، كما كان
من قبل نعا طيبًا . . . لم يقدم على ذلك من اجل المال ، ولا من اجل
ترقية . ذلك حراء ، انه وهو الرجل الرصين الرابك الجيش اقدم
على ذلك لانه اعتبر ذلك قضية عادلة . . . عثمانسة شاني . . .
انس به ليكون زوج داشا ، واخر كاتيا واخر انا - بعد ساعة ،
مطروحا على كوفه من القاذورات عنه سبياج ، بلا حذاء . . .
واطبق اللعز على خناتي روتشين ، فلانكش بكل كيانه . . .

ما العمل ؟ النهض . وانصرف ؟ ولكن ربما يعرفه تليغين ، وصاحب
بالذهول . وبهتس . كيف ينتقل ؟

جلس روتشني وايمان ايليتش جنباً الى جنب على الاركة
البلوطية ساكنين وكانهما اللذان . وكانت المحطة خالية في تلك
الساعة . الملق الحارس الابواب المؤدية الى الارصفة . عند ذلك
تكلم تليغين دون ان يفتح عينيه :
- شكراً ، قادم ...

ارتجعت يد روتشني بشدة . نهض ايمان ايليتش بغلة ،
وسار نحو المخرج الى الساعة مستبساً عادية دون ان يلتفت . وبعد
دقيقة اندفع روتشني في اثره . دار حول ساحة المحطة . حيث
كان الياعة السودو البشرة يهيمون عند بسطاتهم تحت حزم
المطلة المدسنة ، في الشمس البيضاء التي اذابت اسفلت
الشوارع ... كانت الاوراق محترقة على الاشجار ، والهواء كئيب
يلتهب مفعماً بغبار المدينة .

«لو اعانته» . فقط اعانته» . وطالت امام عيش روتشني دوائر
خبراء من الحر . واختفى تليغين وكان الارض قد قبضته .

الخيول ونعصر العجلات . والان تعاود سيرها مثل ظلال مضارب
الرجل القدامى ...

السعادة . السعادة حين مستقيم . منطقة السهوب . ساحل
لازوردي . امواج لطيفة . سلام . رخاء .
عدلت ماتريونا في وجه كاتيا ، وايستمت . وكرهية الحوافر
من جديد . كان الجيش يخرج من الحصار . امر الاتان ماخسو
بالسير بهدوء . وهبطت كتفا الكسي الثقيلتان ، يبدو ان الناس
قد لمليه . قال سيبورين بصوت خافض :

- لا اريد التخليص منكم ... فلماذا ترددون ؟ سيبورين ؟
سيبورين ... (تهبت ماتريونا تنهيدة قصيرة . واستدارت)
وعدلت في السهوب .) لقد قلت لالكسي منذ الربيع : ليس العزير
عني هو شريط البجارة . بل القضية هي العزيرة ... (صت
الكسي .) لمن الاسطول الآن ؟ لنا . نحن الفلاحين . فماذا يحدث
لو تفرقنا عنه جميعاً ؟ اننا نكافح من اجل قضية واحدة . انتم عناء
ولحن هناك ...

سالت ماتريونا :
- وماذا يكتبون لك ؟

- يكتبون من الضروري العودة الى الديمقراطية . والا
نستأجر هاربا . خارجا على قانون الثورة ...
عزت ماتريونا كتفها . كانت تنضم غيظا . ولكنها شبطت
نفسها . ولم تجب بشئ . وبعد فترة من الوقت رفع الكسي جديعه
على مقدمة العربة . وتسمع . وانسار الى الظلام بسوطه :

- قطار يكاترينوسلاف السريع ...
تظرت كاتيا . ولكنها لم تر القطار الذي كان يحمل قادمين
يدرويتش نالما على تحت علوي في احدى المقامير ولم تسمع
لغير صليل جمدود بعيد . فالتار في نفسها حزناً حافاً ...

انجى قادمين بترويتش من المحطة الى مغل العلويات رأساً
مستقراً عن كاتيا . دخل في المقاهي الحارة التي يبلا الديسباب
توالفعا الشربة . والشاش الذي يغطي العلويات . وقرأ اللافتات

البيئية : «فرساي» ، «الموراود» ، «الركن المريح» . ومن ابواب هذه المناطق الصغيرة المشيخة نظر اليه رجال سسر الوجوه متسربون يعيون جاحظة مثل بياض البيضة مستعدون ، عند الحاجة ، ان يصنعوا كباها من اي شيء كان . وقد استلخر هنا ايضا - ثم اخذ يطرق على كل المخازن واحدا واحدا .

كانت الشمس تلذخ بلا هرافة . وكان عدد غفير من الخلائق الناس يضح ويترجم في الممرات المرشحة الثنائية تحت اشجار الدردار في جادة يكتريينسكي . ودقت هريات ترام صغيورة مهلهلة اجراسها . قبل الحرب بدأت تقام هنا العاصمة الجديدة لجنوب اوكرانيا . وازدقت العرب نموها . والان ، والمدينة تحت حكم الهتمان وحماية الالمان انتعشت من جديد . ولكن بطريقة مختلفة : فبدلا من الدوار والبتوك والمستودعات التجارية فتحت دور القمار ، ومحانات المبادلة ، ومحلات الكياف وشراب النبيون . وحل محل صنع العمل والحركة التجارية اللغب الهستيرى لباعة العملة الاجنبية المترافقين بوجوه غير حليلة ، والقبعات منحذرة على القبتهم منتقلين في المقاهي ومقارن الشوارع ، وصيحات عدد حائل من ملمعي الاحذية ، وباعة صيغ الاحذية-الصناعة الوحيدة في ذلك العهد-ومضايقات النشرديسن الغيتاء ، ووعيل الفسوق الموسيقية من «الاركان الريحية» ، والازدحام الارعن للجمهور العاطل الذي كان يعيش على بيع وشراء النقود المزيفة ، والبضائع غيرس الموجودة .

جلس فاديم بتروفيتش على مسطبة تحت شجرة افسانيا بالنسب من البحث اللاسجدي مصموقا معقبا . يمر به جمهور الناس : لسوة اثنيات وغربيات في ملابس مصنوعة من الستائر ، وفي ازياء قومية اوكرانية . تساء ذوات عيون مخططة تديع من العرق ، على خدودهن المبردة خطوط من العرق ، وفضاريون مضطربون يشغرون طرهمهم ، كالجاذيب ، بالذبح ممدودة خلال هذه الجبهة من النساء ، وموظفون هيتمانيون منتفخون ببلاعة يشدون على قبعاتهم اشاراة ثلاثية الشعب ، وافكارهم مشغولة بالصفقات المالية ونهب املاك الدولة ، وفوزاق هيتمانيون ضخام يراض الاكتاف لهم وقصاب الثيران ، وقايداماكويون متسربون عليهم قبعات ضخمة قرعزية

القمية ، وفطاطين بلون السماء الزرقاء ، وسراويل عجيبية فضفاضة على المعلنون الاوكرانيون الاستقلليون والرومانسيون الغاليسيون يحثون الى لبسها ترتين من الزمن . وسار في الزحام ضباط العال مضطربون يطرقون فوق الرؤوس باجتماع استغلاف ...

نظر روتشين واعتدل الخيط في قلبه . «لو يلبس كيروسين على حذو السفالة وتشرق ...» ضرب في كسك مكشوف قفعا من عتسر الفواكه ، وسار مرة اخرى من يساب الى باب . الان فقط انك يدرك لا جدوى هذا البحث . ان كاتيا في مكان ما ، هنا ، في هذا الزحام تصنف المجنون ، وحيدة ، بلا نقود ، قليلة الخبرة ، ويطلة ، خذتها المصيبة وتذكر في ذعر حاد ومرة بعد اخرى كادورة السم التي كانت تحملها في شقة مرسكو . تسها الايسفي الدرجة اباغة العلة والقوادين ، واصحاب المطاعم ، وتترجمها العيون الخبيثة ...

وضاقت الفاسه ... سار في الزحام مباحدا بين حرقليه غير راد على الصيحات ولا على السباب . وفي السماء استأجر غرفة في فندق يسمن باهظ . وهي عبارة عن حفس معتم لم يكن يسمح الا لسيرير حديدي عليه فراس مهلهل . وضلع خذاه ، واستلقى ، ويكر صامتا بلا دموع ضامما راسه الاشيب بين يديه .

عبر تلميحتين حدود منطقة الدون مشيا ، واخفى كتابتيه المقدم في كيس متاعه ، واستقل القطار الى تساريتسكي . ومنها ركب باخرة ضخمة مكثفة من سطحها الاعلى حتى تعرها بالمالحين والجنود والسفارتين والهايرين من وعداتهم ، واللاجئين . وفي ساراوف اظهر وتناقله الى اللجنة الثورية ، وركب باخرة الجر الى سيزران ، حيث كانت الجبهة التشيكيوسلافوكية .

كانت القوقاز مقلرة . كما في الازمنة شبه الاسطورية ، حين وسر قرسان جيتكيي خان الى شاطئها الرمي كيرووا خيولهم من اهر سراء العظيم . سار النهر العريض الصقيل بين الشيطان الرعلية العالية ومروج الفيضان ، التي نما فيها الصنصاف . وكانت القرى القليلة منجورة . والى الشرق امتدت سهوب منبسطة ، في موجات

البحر ، في السراب ، ومرت انكاسات السحب على الماء عاتية
يبط . ودواليب الباخرة وحدها كانت تقرب الماء اللازوردي في
السكون هبمة .

كان ابغان ابليتشي يرقد على سطح السفينة الغاز تحت برج
الفيضان . كان حافيا وفي قميص قطني غير معزم . وقد تما شعر
اشقر على جذبه . كان يتبع . كالقط في الشمس ، بالسكون
والرائحة الرطبة لزهور السننغات ، ورائحة عشب السهوب الجافة
الآتية من السهولان الوامنة ، ودفقات النور اللاتهيالية . لقد كان
ذلك ذروة الراحة .

كانت الباخرة تحمل السلاح والمخيرة لانصار الاطيسية
السبية . وكان جنود الجيش الاحمر الذين يصاحبون الحوالة
مسترخين من الهوا الطلق ، بعضهم نائم ، والبعض قد نال قسطه
من النوم فراح يقن الاغانى ناظرا الى الرحاب المائية . وكان
امر الضييلة الرقيق خفيدين ، وهو من بحارة البحر الاسود ،
يتقلب الجسود عدة مرات يوميا على انعمام الوعر ، فكانوا
يجلسون ويستلقفون بالقرب منه واضعفين خدودهم على
ايديهم .

كان يقول لهم بصوت مبحوح :

- يجب ان تفهوا يا اخوان ، اننا لا نقائل وتيكين ، ولا
نقائل الانسان كراستوف ، ولا نقائل التشيكيين ، بل نقائل
البرجوازية العموية كلها في صفى الكزة الارضية . . . يجب ان
تقرب البرجوازي في العالم كله ضرورة مبنية ، قبل ان يجمع قواه
كلها . . . نحن ، الروس (وقد نطق بهذه الكلمة في وضوح
وتضخيم) موضع عطف اشتقائنا العميين ، بروليتاريي جميع
الاقطار . . . وهم ينتظرون منسا شينسا واحدا : ان تقضى على
الطليحين عندنا ، وتهب لمساعدتهم في التصال الطبقي . . . هذا
مفهوم يدون كلام ، يا اخوان ، لا يوجد من هو اضعف من الجندي
الروسي في العالم ، اذا استثنيتا بحار الاسطول الاحمر ، ولهذا فان
لما لنا جميع الفرس ، مفهوم يا ارباب الحسن ؟ انا اتحدث
بديهيات ، اليوم تخوض معارك قرب سامارا ، وبعد مدة غير طويلة
ستخوض معارك في جميع القارات . . .

اصفى الجنود وابصارهم معلقة على فمسه . وايدي احداهم
ملاحظة يهدوه :

- نعم . . . اختلط العايل باننازل . . . في العالم كله ا
الى اليسار بدت جبال ختالين زرقاء . نظر الرقيق خفيدين
في المتظار ، وبدت بلمة ختالينك المسترخية الناعسة اكثر
وضوحا من وراء كتل الاشجار . وكان على الباخرة ان تتزود بالنفط
منها .

وقف القبطان الاشيب عند مدير البفسة ، تفرغ النهر الى
ثلاثة فروع ملتصبا حول جزيرات الصفصاف الغرينية وكان مجرى
الملاحة صعبا . تقدم خفيدين من القبطان :

- لا يترى شخص واحد في البلدة . ما الخبير ؟

قال القبطان :

- يجب التزود بالنفط حتما ، ومهما كلف الامر .

- ارسى ، اذا كان ذلك ضروريا .

وحين اقتربت الباخرة من جزيرة كادت انفصال القصب تسمى
اغلفة الدواليب فاشعلت تصفر وتستدير . وفي تلك الآونة ارتفعت
اصوات حادة من الصفصاف الكثيف في الجزيرة :

- قف اقف الى اين سائرا ؟

سحب خفيدين الشمس من قرابه ، وتراجع الملاحون من
حاجز الباخرة . وماج الماء تحت دواليب الباخرة .

وارتفعت اصوات :

- قف ، قف ا

وخشخش الصفصاف ، واندفع بعض الناس الى الشاطئ ،
ولمهرت وجوه حمراء متعلعة ، واقذع مقلوحة مشيرة الى البلدة .
وكان من المتعذر فهم أى شيء من الضجيج . وامطر خفيدين الجميع
بروابل من ستائم البحارة . ولكن كل شيء اتضح بدون حاجة الى
ذلك . تصاعدت اذنة من الرصيف في البلدة ، والطلقت رصاصات
على النهر . لقد كان الحرس الابيض يحتل ختالينك ، وتبين ان
الناس في الجزيرة هم بقية الحامية الهاربة ، وجزء منهم من انصار
المنطقة . كان بعضهم مسلحا ، ولكن لم تكن لديهم ذخيرة .

انطلق الجنود البحر الى المقاصير لجلب البنادق . واحتل
 غليندين نفسه مكان القبطان . وراح يشتم في غرض النهر كل من
 يستأنم جعلت الناس في الجزيرة يهدأون في الحال - وظهرت
 البسمات على الوجوه . وبمسورة العساس اراد غليندين ان
 يهاجم البلدة من الباخرة هجوما مباغتاً وفي الحال . الا ان ايفان
 ايليتش اوقفه . واثبت له في نقاش قصير بان من غير الممكن
 القيام بسالهاجوم دون اعداد . وان من الضروري ان تصاحبه
 حركة الثقافية . وان غليندين لا يعرف قوة العدو . فلما تكون لديه
 مدفعية .

كزن غليندين على اسنانه . الا انه وافق . تحركت السفينة
 حركة خفيفة مع تيار النهر تحت الرصاص . واقترب من الناحية
 الغربية من الجزيرة . حيث البلدة محجوبة بغابة . ورسى هناك .
 تناثر الناس من الجزيرة على الشاطئ الرطبي . وكانوا حوالى خمسين
 شخصاً مهلهلين شعناً .

وصاحوا :

- اسمعوا ما تقول لكم ، يا شياطين .
- زاخاركين قادم لنجدتنا مع انصار بوجاتشيفسك .
- منذ ثلاثة ايام بعثنا اليه رسولا .

وذكروا ان البرجوازيين في البلدة استولوا بهجوم مسلح
 ماغت على مقر السوفييت والتلفراف والبريد : ووضع الضباط
 كتابياتهم . وهجروا على الترامنة . واخذوا الرشاشات . وتسلم
 طلاب المدارس والتجار والموظفون . بل وان شماس الكنيسة
 خرج الى الشارع ببندقية سيد . ولم يكن احد يتوقع هذا الانقلاب
 فلم يلاحقوا في اخذ بنادقهم .

- تفرق امراء وحدائنا . خاتولا . . .

- نحن نركض كالخراف .

فلم يكن من غليندين الا ان قال :

- آه . يا لكم ، يا جنود البر . . .

عقد الجميع على الشاطئ اجتماعاً عسكرياً مشتركاً . وانتخب
 تليفين سكرتيراً . وطرخوا هذا السؤال : هل يسترجعون
 خفاليفسك من البرجوازيين لم لا ؟ وقرروا استرجاعها . ثم السؤال

الثاني : هل ينتظرون انصار بوجاتشيفسك ام يستولون على
 البلدة بقواهم ؟ وجرى نقاش حول ذلك . بعضهم صار يصرخ :
 يجب الانتظار لان لدى انصار بوجاتشيفسك مدفعية . والآخرين
 قالوا ان الانتظار غير ممكن . لان سفننا للبيض ستأتي من
 سامارا بين لحظة واخرى . وسيجر غليندين من النقاش . وهز ذراعه
 ضيقاً .

- كفى كلاماً . يا رفاق . نقرر بالاجماع ان تكون خفاليفسك
 بايدينا في السماء . سجن المحضر . يا رفيق تليفين .

في تلك الاونة ظهر فرسان على المرتفع في الضفة اليسرى .
 في البداية لاح اثنان . ثم اربعة . ولما راوا الباخرة انطلقوا
 هادين . ثم تغطت الضفة كلها بالفرسان حالا . وامتد في الشمس
 سناك عريضة مصنوعة من المناجل . وبدا اهل خفاليفسك
 يصرخون :

- آي . . . من اتم ؟

ردوا عليهم من الضفة الاخرى :

- فضيلة زاخاركين . من جيش بوجاتشيفسك للفلانج . . .
- تناول غليندين الميكروفون . وصاح موثقاً غرور وقبته :
- يا اخوان . جنناكم بأسلحة . انزلوا الى الجزيرة . . .

استسلموا على خفاليفسك . . .
 صاحوا من هناك :

- حسنا . . . عندنا مدفع . . . اجلبوا الباخرة الى هنا . . .

كان الفرسان على الشاطئ احدى فصائل جيش الانصار
 للفلانج . الذي كان يقاتل في سهوب سامارا ضد النواحي التي
 اغترفت بسلطة حكومة سامارا المؤقتة .

وقد تكون هذا الجيش بعسد احتلال التشيكوسلوفاكيين
 لسامارا مباشرة . وكانت مدينة بوجاتشيفسك - التي كانت من
 اجل تسمى نيقولايفسك - مركزاً لتشكيله . وقد اجتمع هناك
 جميع قوى الرؤوس الحساسة الذين كانوا يحبون ركوب الخيل .
 وجميع الذين حصرهم مشتري الارض الشهير شينوبالوف الى رقعة

ضيقه من الأرض ، وكل الذين يتناقضون على الأرض مع قوزاي الأرواح الاغتيا . وكل الذين طغحت نفوسهم التي ولدت في السهوب الشاسعة ، حيث تتماوج سنابل القمح طليقة ، والفلاح يسير وراء المحراث الثقيل بحث التيران البيئية .

كان العدو يظهر في كل مكان مثل سرب السهوب ، وكانت الاجتماعات تعقد في القرى ، والفلاحون الاغتيا ، وضباط الصل في الجيش القيصري والمحرضون المنتكرون القادمون من سامارا يصرخون انه لا يوجد قانون يجيز للفلاح الفقير ، والعاقل الزواهي ، والبشرد الذي لا ارض له ان يحكم الناحية ، وينتزع الارض والجنوب من الفلاحين الموسرين . وكان الاجتماع يقرر ارسال الرسل الى القرى المجاورة لخطر العناوق والتخندق فيها . وكانت ناحية كاملة تنهض في الحال ، ويخرج اهلهما السلاح من اماكن سرية ، ويشقون اخاديد بالمحراث للحدود ، ويعترون خنادق لعشرات الفراسخ .

وفي بعض المناطق كانوا يعلنون جمهورية تابعة لحكومة سامارا ، وتعهده حراسة المنطقة الى الفرسان ، ويجند الشبان في حالة هجوم الحر فقط ، وكان الفرسان يتسلمون بالمناجل التي تربط مقابضها بالعصى الطويلة . وكانت الجيوش الكولايكية هذه رهيبة . كانت تظهر بصورة مفاجئة من الغياش السهوب وتهجم في سحب الفسار على صفوف الجنود الحر ورضائتهم . وكانوا يقاتلون الاغالي : الاغ الماء ، والاب ، ابنة ، والعراب عرابه ، ولهذا كانوا يقاتلون بلا شفقة ولا خوف . وبعد ان يحطوا الحر يتسلح الفرسان بالرضائشات والبنادق ، ولكنهم لا يتخلون عن المناجل .

لم تبق مدونات ولا ارضيات عسكرية من هذه الحرب الفلاحية الكبيرة في سهوب سامارا التي ما تزال تتذكر حلات ايبيليان بوغاتسيف . الا اذا جلس اب واين في عيد ديني ومعهما جردل من النبيذ يتناقضان عن الممارك السابقة واحصما يؤب الاخر عن الاخطاء الاستراتيجية . فيقول الاب :

هل تذكر ، يا باشكا ، كيف اخذتم تضربوننا بالمدفع ضرب كولدبيسان ؟ فساقول نفسي : انه بالناكيد ابني باشكا

هذا ، ابن كلبسة ... لم الطع اذنيه في حينها ... واوقعتنا في قلوبكم الرعب ... من حين طحك انك لم تلغ لي يدى في ذلك العين ...

- هذا تبجع .. نحن الذين انتصرنا ...
- لا ياسي ، ستسلح فرسة ، وستختلف من جديد .
- وليكن ، ستختلف ... كنت كولاكا وبقيت على وجهه نظرك الشعبية .

- لشرب ، يا ابني !
- لشرب ، يا ابني !
اقتربت الباشرة من الضفة اليسرى . والتقى المصطفى الخفسي ، وبعده الى السفينة زاخاركين امر فضيلة بوغاتسيفسك - وهو لشخص ذو الف معكوف مثل منقار النسر . وكان شديد القوة كثير العضل حتى ان الاواح تفرقت تحت قدميه . وكانت السترة الناعلة التي يرتديها مفتوحة تحت الابطال ، والسيف المعكوف يضرب جذاه العالي . وكان اشقاؤه الكبار ، وهم للاحون من ناحية اوتيف لواد فرق .

وضعه وراء ستة من الاصفار - هيئة الامرية - في ملايس شيرة المدفعة غير اعتيادية ؛ لثمان ناعلة اللؤلؤ ، مغيرة ، مغيرة ، ومفتوحة الياقات ، بعضهم في احذية لبادية شكلت عليها هماميز ، وبعضهم في احذية ليفية . وكانوا مسلحين بأسلحة شتى : اشربة ورضائشات ، فتناجل يدوية في احزمتهم ، خراب المانيصة هريضة ، بنادق مقطوعة .

التقى زاخاركين وخفيدين على برج الكلبطان ، وتصافحسا صافحة قوية . وقدمت السنكار . عرض خفيدين الموقف العسكري باختصار ، قال زاخاركين :

- انا اعرف من يصطاد في الماء العكر في خطايتسك . انه كوكوشكين ، رئيس الادارة المحلية الدانية ... اود ان امسكه حيا .

قال خفيدين :
- والمدفع ؟ هل هو في حالة جيدة ؟
- يشتغل ، ولكن على العيان - بلا جهاز تمديد . تسدد

من خلال الماسورة . ومع ذلك فهو ينصف . اذا اطلق هدم برج
جرس او مضخة ماء كليا !

- حسنا . وما رايك . يا رفيق زاخاركين . بالانزال وحركة
الانقلاب ؟

- لنفكر بالخيلة الى الضفة الاخرى . هل تستطيع الباطرة
ان تعمل مائة مقاتل ؟

- ببساطة . على مرتين .

- اذن . فالامر مضبوط . عندما يحل الظلام نزل الخيلة
في مكان في اهل البلدة . وتنصب المدفع على السفينة . ونبدأ
الهجوم عند فجر .

عهد خفيدين الى ايفان ايليتش قيادة جنود الانزال من المشاة
الذين اوتكل اليهم مهامية الاربعة من الامام . وفي الفسق سارت
الباطرة بعذر ويدون سواد الى الفرع الجانبى من القولغا بمحاذاة
جزيرة . وفي السكون لم يكن يسمع غير صوت الملاح الذى يقبض
عمق الماء .

وفي اثر الباطرة سارت فصيلة بولغاتسيفسك على الضامى .
وزعت الاسلحة على رجال خفالينسك . فاستلقوا على الرمل . سار
تليفين بحذاء حافة الماء . متأكدا بنفسه من ان احدا لا يلتفت او
يشغل نارا . وكانت طرشة الماء على الرمل خفيفة لا تكاد تسمع .
وفي الجمر رائحة زهور المستنقعات . وطنين بعرض . ورائع الهدوء
على الرجال المستلقين على الرمل .

امس الليل اكثر ظلاما وعموما . وتناثرت النجوم في
السماء . وتساعدت من الضامى السهبي رائحة الافستين الجافة .
وتسكنت طيور السلولى . وظل ايفان ايليتش يسير بمحاذاة الماء
مغاليا التعاس .

وحين اخذ الليل يتجاوز نصفه . فقدت السماء ظلامها
المخمل . ومن بعيد . وراء النهر تراسى صوت ديك الفجر .
ودعمت دواليب على الماء المغشى بقاب خفيف من الضباب . ودنت
الباطرة . عاين ايفان ايليتش كرم منسوخه . واحكم عند حزامه
على بتلولونه . وسار بين النالين . ملتبيا على ارجلهم بعضا
صغيرة وقاللا :

- رفاقى . استيقظوا .

نفخ الرجال صريرين مهتابين . مرتجلين من رطوبة الهراء
والنعاس عائق باجفانهم . فلم يبركوا في الحساء ما عليهم ان
يفعلوا . . . ذهب الكثيرون منهم ليشربوا الماء من النهر منزلقين
رؤوسهم فيه . اصغر تليفين اوامره بصوت خفيف . وكان يجب
ايجاد تعطية . فاحد المقاتلون يخلعون ثيابهم . ويعتونها رملا .
ويصلونها على طول جانب الباطرة . وعملوا صامتين . فلم يكن في
الامر مزاج .

بغات الدنيا تتنور . وانتهت الاستعدادات . وتنصب مدفع
جبل صغير صدى في مقدمة الباطرة . وصعد على ظهر الباطرة
خمسون من المقاتلين . واستلقوا وراء زكاتب الرمل . ووقف
خفيدين على الضفة :

- السير قدما في الصن سرعة !

ماج الماء تحت الدواليب . ودارت الباطرة بسرعة حول
الجزيرة . واتجهت نحو البلدة في المجرى الرئيسي . لاحت اوار
مضيقه سفراء هناك . وفي الخلف برز خط جبال فقيش تحت جنح
الليل . والآن سارت اصوات دبكة الفجر تصل اهل من ذي قبل .
وقف ايفان ايليتش بالقرب من المدفع . وكان لا يستطيع
ان يتصور انهم بعد قليل سيتوجب عليهم اخلاق النار في هذا
السكون المسترخى . قال احد اهل خفالينسك بصوت رقيق .
وهو رجل وديع يشبه فدالت مبال لصيد السمك . اطوع لان
يكون مسددا :

- يا عزيزى الرفيق الامر . ماذا لو تسسدد على البريد
مباطرة ؟ بدقة تامه . . . انظر . هناك ضوءان اصفران . . .

صاح خفيدين في الميكروفون :

- التسديد على البريد ! تهايا ! المدفع ! على العيان !
قرص الماسك . ونظر عبر ماسورة المدفع . ووجهها نحو
الصوتين . ووضع قذيفة . واستدار نحو تليفين :

- ايها الرفيق العزيز . تنح قليلا . فمن الممكن ان ينهض
هذا المدفع . . .

هتف خفيدين :

واطلقوا النار ، وكفوا ، وتغشوا ، كان الشاطئ خاليا ، لاح
وكان بعض الأشخاص يتدفقون الى بساطين كثيرة الاشجار .
وانطلقت رصاصات من فوق بعض السطح . وعلى مسافة بعيدة
يبدأ على التلال للعب وشاش على فترات متقطعة ، ثم صمت ، وبعد
ذلك اطلق نيرانه مرة او مرتين ، ان العدو لم يشتبك في المعركة .
وجد تليفين نفسه في ساعة متعرجة ، جمع الرجال متلفسا

لاعت اللباس . كان يائسا قدمه العاقبتين يندمونه ، فلا بد انه
قد جعلهما في حجر . وكان في الجرح والراحة غير . وكانت البيوت
الخشبية حقلقة الصفاقات . وهما من حركة حتى في اوراق اللبيق
والاقاميا ، وفي احد الاركان بيت من طابقين له برج من طراز ويغ
نشرت على جبل في شرفته اربعة ازواج من السراويل الداخلية . فكر
تليفين مع نفسه « مستشوق » . كانت البلدة تبدو غامضة في نوم
عميق ، والقنال والترافض والصبح مجرد اطلال .

سأل تليفين عن مركز البريد والشرفاء ومحطة الماء ، وارسل
الى كل منها قصيلا من عشرة رجال - سار العائلون ، متوزي
الانصاب متوكئين الى الورا ، يعرفون بنادقهم عند كل خشونة .
ولم يكتشف العدو في اي مكان ، بدأت الزواجر تصعد ، والحمامات
تطير عن فوق السطح .

احتل تليفين بفسيلاته مقر سوقييت البلدة ، وهو جيش
اجري ذو اعمدة مقنطرة ، كانت الابواب مفتوحة ، والسلاح مكموا
في الزواج . خرج تليفين الى الشرفة ، فراق تحت حقائق كثيرة ،
وسقوا لم تطل منذ زمان ، وشوارع ترابية خبيثة مقنطرة . سكن
زمن ، وقفاة تردد من بعيد تافوس غلظ . ارتفع فوق البلدة صوت
تافوس منكوب سريع رنان ، ومن المكان الذي انطلق منه الصراخ
التحسنا للنجدة بنا اطلاق نار سريع ، والنجارات تقابل بنوم
وصيحات ، وكركبة خيول قليلة ، وغويل . انهم جنود زاحزين
للانزال كانوا يسدون الطريق على العدو المتجه الى الجبال ، ثم
جز فرسان في شارع جانبي يضربون الارض بنعال خيولهم السعدنية ،
وعاد السكون الى كل شيء من جديد .

نزول ايمان ايليتش نحو الباخرة على جبل ، واملح بان البلدة
قد احتلت . واستمع خيدين الى البلاغ ثم قال :

الطلق المدفع الى الورا ، وصدمت منه قرعة ونور ساطع .
وعر الهدير على الماء ، وتردد الصدى في الجبال . توجه النجار
بالقرب من الضوئين الضافرين ، وتردد صدى آخر في الجبال .

صاح خيدين وهو يدير العفة :
- نار ، نار ! من الجانب الايسر نار سريعة اطلقت ،
طلقات على الورا !

وسقط بدمية ، واحتد ، وزعي بكلمات شتعا ، وانطلقت
من جانب الباخرة طلقة اعجابية ، التراب شاطئ عفايتسك
بسرعة ، عبا المدفع بعناية ، واطلق من جديد . وكانت ترى
الفضايا تنظير من زوية . ويعدت بوضوح الان معالم البيوت
الخشبية ، والحدايق وابراج الابراس .

وفي الاسفل عند الارصفة اغتد تومض ومضات نار من
بناق . وقفاة صدر الصوت الذي كان تليفين يكتسب : لعل
وشاش بسرعة ووضوح . انطلقت اصابع رجله كالعادة ، وكان
غرابين جسده كله قد تخلصت . قرص تليفين عند المدفع .
متسيرا للمدفع الى مين طويل على منحدر .

- حاول ان تسدد على ذلك الطرف الذي فيه اجبات . . .
قال المدفعي :

- آه ، هذا البيت جيد ، ولكن لا بأس .

وانطلق المدفع للمرة الثالثة . ومنكت الرصاص لحظة ، ثم
انطلق في مكان آخر الى الاعلى من مكانه الاول ، استدارت الباخرة
دورة حادة ، وانعقدت بسرعة نحو الرصيف ، وغرب الرصاص في
الاعلى - على المئذنة والصارية .

صاح خيدين :

- لا تنتظروا الوصول الى الرصيف ، انفروا . هورا ،
يا قتيان !

صرف وقرص حاجز الرصيف . فقل تليفين اولا ، واستدار
لحو رجال خفايتسك الذين كانوا يزحفون عبر الحواجز .

- ورائي هورا !

ركض على الالواح الى الشاطئ ، وتبعه الرجال هائلين .

- السلطة السوفييتية اعادت . وليس لنا ما نفعله هنا بعد الآن - يجب ان نواصل السير - وريت يمودة على ظهر القبطان المعجوز الذي كان كالبيت من الخوف وقال :- وانت ايضا شست رائحة البارود - هكذا . يسا اخ ... انقل اليك القيادة ، فتسلم القفارة .

نام تليفين حتى السماء تحت نعمة المحرك وغرير الماء . نشر الغروب شفقها الاحمر الشفاف على التهر . وعتت اصوات مختلفة خافتة في مؤخرة السفينة العذات في الرياح المنفردة . كان الجمال المقيم للاهلر المسائي يقم على الشاطئ ، في التهر ، ويقف في العين والقلب .

عنت خفيدين :

- ما هذه الكتابة ، يا اخوان ؟ غوا الفينة مرحة . وكان قد نال قسطه من النوم ايضا ، وشرب قدحا من الكحول ، وصار ينشئ الآن على السطح الاعلى واقفا ينظاله الى فوق .

- لو نستول على سيزران ايضا ، ماذا نقول . يسا وبقى تليفين ؟ كنا سندهش الجميع لو فعلنا ذلك ...

والرجح من اسنان بيض مقلها . وكان لا يهاب الاخطار ، ولا يعيا بكآبة الغروب على القوفلا ، ولا يرضامسة قاتلة تنتظره في مكان ما . في معركة او من وراء منعطف ... الظلمسا الى الحياة والقوة الحامية كانا يفوران فيه . وكانت الواح السطح تهتز تحت عتية العاصفين :

- انتظر قليلا وستستول على سيزران وسامارا ، وستكون القوفلا لنا .

وتلغى الغروب بتقاب رمادي . وسارت الباخرة بدون ضوء ، غطى النساء على الشيطان فتواترت - لم يعرف خفيدين كيف يصرف قوته فعرض على ايفان ايليشن ان يلعب الورق :

- اذا لا تريد ان تلعب بفلوس ، فتلعب على خربة على الالف ... فقط ان تكون الخربة معتبرة .

جلسا في مقصورة القبطان يلعبان الورق على خربة على الالف - واحته خفيدين ، وصار يرفع الرهان حتى وصل الى ثلاث مائة

خربة على الالف ، ومن شدة الاستشارة كاد يفش في اللعب ، الا ان ايفان ايليشن كان حاد البصر : «لا ، يسا اخ ، انت لا تلعب مع حقن» ورجع - جلس تليفين على مقعد جلسة مريحة ، وبدأ يضرب نفسه باوراق متسخة - حتى صار الف خفيدين احمر كالبنجر في الحال -

- اين تلمت ذلك ؟

- تلمت في الاسر عند الالمان - لا تدبر بوزك - مالتسان وسبعة وتسعون .

- اسمع ... لا تطرب اشد من ذلك ... والا ...

- تكذب ... في الضربات الثلاث الاخيرة يمكن بشدة .

- اذن ، اضرب ، يا وغد .

الا ان تليفين لم يلحق ان يضرب . فخل القبطان الى المقصورة ، وركه يرتجف ، ولبعته في يده ، وقطرات العرق تقطر من صلته الرمادية .

قال في ياس :

- افعلوا ما تشاؤون ايها السادة الرفاق ، فانا مستعد لكل شيء ... لن اتفككم ابعد من ذلك .. انه موت محتم ...

التي خفيدين وتليفين الورق ، وخرجا الى سطح الباخرة . في الضفة اليسرى الى الامام كانت انوار سيزران الكهربائية تستعمل متوقفة كالتنجوم . وكانت سفينة ديزل ضخمة شديدة الاضاءة تسير بسط . يمحاذاة الشاطئ . وكانت العين المجردة تستطيع ان ترى على مؤخرتها علما ضخما هو علم القديس اندريه الابيض ، ومعالم مدافع متبيرة ، وشخص ضباط يشمشون على ظهر السفينة ... هس خفيدين :

- لا استطع ان اراجع ، يا رفاق . يجب المرور ، مهما كلف الامر . علينا ان نسير حتى باتروكي ، وهناك نقف ونفرغ حولتنا ...

وامر بان يتزلج سيسع البخارة الى اسفل البخارة ويتاهب للقتال . ووقع على الصارية العلم الثلاثي الالوان . واخذت الالوان المصيرة . واخيرا لاحظت من في السفينة باخرة الجر . وصعدت

صفارات قصيرة لإعراجها بتخليص السرعة ، وارتفع صوت غليظ من الميكروفون هناك :

— لمن السفينة ؟ الى أين ذاهبة ؟

اجاب غليدين :

— باخرة الجير «التاجر كلاسنيكوف» متجهة الى سامارا .

— لماذا تأخرتم في اضاءة الأنوار ؟

— خوفاً من البلاشفة . — وازل غليدين الميكروفون . وقال لتليفون بصوت غليظ : — لو كان لديّ لغم الآن . . . ارسلت في طلبها من استراخان : ابعثوا الغاما . . . انهم ليلو الاكثرات من السوفييتيين . . .

بعد صمت اجابوا من السفينة :

— سييرا الى فايتمكم .

ابس القبطان قبضه بيد مرتفعة . وكثر غليدين ولبس عينيه نظارا الى انوار السفينة ، ثم بصق ، وذهب الى المقصورة . حيث كسر احواد كتاب وهو يريد اشعال سيكارة .

صاح على تليفون :

— تعال . واكمل قربانك . يا عفرت !

وبعد ساعة صارت سييروان الى الخلف . انزل تليفون في قارب الباهرة بالقرب من ياتراكي . وفي محطة ياتراكي استقل قطار الساعة الثانية عشرة . وفي الساعة الخامسة بعد الظهر نزل من محطة سامارا متجها الى شقة الدكتور يولافين . وقد عاد الى بيته المجهزة المزوقة بكتافيتي مقدم . سار يضرب على حذائه بنفس العصا التي اشقت بها الانصار ليلا قرب خفاليتمسك . ويقرا في طريقه بغضول تنقيب اعلانات المسارح ، والتدابات والاعلانات ، كسى . لم يره منذ زمان . وكانت كلها مكتوبة بلغتين : الروسية والتشيفية . . .

اهض ديمتري ستينيانوفيتش يولافين والحما قنصا من شراب التيمون في يده . واخرج فوطاة من حصاره . وحرك شفتيه وقارا . وبدأ كلامه بصوت معتبر عميق الخد في المدة الاخيرة لمنصب نائب الوزير :

— ايها السادة . اسمعوا لي ايضا . . .

كانت المادة مقامة تكريما لامتلي المدينة بمناسبة المسيرة المغفرة لجنش الجمعية التأسيسية نحو الشمال . وكانت سيمبيرسك وقازان قد احتلتا . وثنين ان البلاشفة قدموا عرض الفرغا الاوسط نهاليا . وبالقرب من ميليكس كانت ملول جيش الخيالة الأحمر . وبعدها ثلاثة آلاف وخمسمائة . تمسخت لتنتقد من الحصار . وفي قازان التي احتلها التشيكيون يهجم مباحث استولى على اربعة وعشرين الف بوند من الذهب تبلغ قيمتها اكثر من ٦٠٠ مليون روبل . اي اكثر من نصف احتياطي الدولة من الذهب . وكانت هذه العنيفة جسيمة وبعيدة جدا عن التصديق . حتى ان العقول ما تزال غير مستوعبة كل عراقها غير المحدودة .

كان الذهب في طريقه الى سامارا . ولم يكن احد له ادعى حقا في ملكيته بعد . الا ان التشيكيين قربوا طاهريا لتسليمه الى لجنة سامارا لاعضاء الجمعية التأسيسية . كان لتجار سامارا راجهم الخاص في مصير هذا الذهب . ولكنهم لم يعلموه . وكانت المشاعر نحو التشيكيين المنصرمين قد وصلت الى ذروة الخياس .

كانت المادة حافلة كثيرة الحضور والحركة . وكان الكايش لتشيبيك قائد الجيش التشيكي ويطل الاحداث محاطا ببائة ضامكة من سيدات مجتمع سامارا . ومن بينهن كوابل مثل ارجانوفسكا وتكولينا وشيخوبالوفا . مالكات الطواحين ذات الطواحين الخمسة وصوامع الحبوب وشركات البواخر . والقضية كاملة من الاراضي السوداء الخصب . سيدات متآلفات باللال بحجم البندق وقساكين ان لم تكن على الوصفة كليا . فانها في حينها قد استوردت من باريس وفيينا . وكان تشيبيك ، مثل كل الابطال ، بسيطا بشكل اضال ومؤدبا . حفا ان جسده البدين يستنشر شيئا من الحرارة . واليافة الطيبة لسترته الحسنة الفصال منغزة في رقبته الحمراء . الا ان وجهه القبي المعلم بالمح بشرابيه الاصهين القصيرين وعينيه اللامعتين كان يبدو وكأنه يطلب قبلة تطبع على كلا خديه المتوردين . وكانت الالتمامة المسامرة لا تزال شفيتها . وكانها قد انكر على نفسه اي مجد . وكان مجتمع السيدات امتع له بالقف مرة من هدير

أهمية تغطية التحول لم يحسب لها الحساب الكافي ... وإن قصد بذلك السعادة حينئذ رويك نفس الموجودة الآن في أيدينا ... (وقف شعر ساروي مسيو جانو ، وعطف : «يرافو له راجا القدرح في يده . وتوجهت عينا بيكولوجيش كمتي الشيطان ») لقد التزمت من البلاشفة الحقبة القديمة . أيها السادة ... وهم ما يزالون قاترين على اللدغ ، ولكن ليس لدينا مبيتا . في إمكانكم أن يهددوا ولكنهم لا يخيفون أكثر مما يفك المشور الذي يلوح بعكازته ... ولا فزع عندهم الآن . لا شيء غير آلة طباعة ...

فتح بريكين التاجر من أومسك فمعه قبضة وضعت من هذه الكلمات شعبا عاليا ، وهو يسبح ورفته ببطولة متمشقا : «آه ، قضايا ، قضايا ، يا ربى !»

وتابع الدكتور بولافين قوله ، وقد رن صوته وصينا والثقا ، وهو أمر لم يكن من قبل :

— أيها السادة الممثلون الأجانب ، أيها السادة الحلفاء ... الصداقة صداقة والفطوس فطوس ... بالأمس كنا بالنسبة لكم منظمة أوربا كوميدية تقريبا ، تشكليا مؤقتا ، مثل كلمة لا يد أن نغفلها ضربة ... ونعيس تشيتشيك ، وأبلى مسيسو جانسو وبيكولوجيش علامة امتيضاء ... ونيسم نيتري ستينالوفيش (بشامة مأكرة) اليوم يعرف العالم كله أننا حكومة وطيبة . نحن حراس وصية الدولة من الذهب ... الآن نستطيع أن نتفق . أيها السادة الممثلون الأجانب ... (ونظر العالمة باناعله بفضب) ، أنا الآن أتكلم كقرود بين أفراد في دائرة ضيقة من الأصدقاء ، ولكنني أرى مقفعا كل جديدة الأفكار التي انطلق بها ... أنا أتصوف تحرك اليواخر بالأسلحة والأنسجة ال العوانز الروسية ... وهوض الجيوش البيضاء الجارية ، وسيف العقاب الصارم ينزل على عصابة تطاح الطرق الذين يعيشون في روسيا .. وستعاقبة مليون تكفوس لذلك ... أيها السادة الممثلون الأجانب ! تزيو تقديم المعون الواسع السهي للشعبين الشرعيين للشعب الروس !

ومس القدرح يشفقيه وجلس مقلبه العاجب ناشعا يانفة . وصفق الجالسون حول العائدة تصفيقتسا جارا . وعطف التاجر بريكين :

— شكرا . يا أع ... هذا صحيح ، يا أع ، هذا يتفسق وإفكارنا : العيادة بلا اشتراكية ...

لهض تشيتشيك ، ووقع حزامه على بطنه بحركة قصيرة :

— ساتكلم باختصار ... لقد قدمنا وتقدم حياتنا في سبيل سعادة الروس ، أخواننا بالفم ... عاشت روسيا عظيمة جبارة . حورا !

وهدرت العائدة كلها بعاصفة من التصفيق - وصفت إحدى النساء بحرارة وسط الزهور - ولهض مسيو جانو - وكان رأسه مدفوعا آل الوراء عظمة . وقد أصفى شارباها الكتان نوعا مسن الرجولة على وجهه ، وقال :

— أيها السيدات والسادة ! كنا نعرف جميعا إن الجيش الروسي النبيل العالم بمجد آياله مقدوع بعصاية البلاشفة بشكل غيبيت - وقد بثوا فيه الأفكار المتعاضة للطليعية ، والغرائز الهمجية ، ولم يعد الجيش جيشا . أيها السيدات والسادة ، لا أخفى عليكم انه قد مر وقت كانت فرنسا مترددة في اعتقادها بأخلاص الشعب الروسي ... وقد أزعج هذا الكابوس ... واليوم ترى هنا أننا كنا على خطأ ، وأي خطأ . إن الشعب الروسي معنا من جديد ... والجيش يعترف بأخطائه ... والعلاق الروسي مستعد من جديد إلى تعريض صدره لرصاص عدونا المشترك ... وأنا سعيد في تلق الجديدة ...

وعندما حق التصفيق لهض بيكولوجيش واهتزت كتابتيها الكتيبلتان . ولكن لما كان جميع الحاضرين لا يعرفون الإيطالية ، فقد صدق الجميع بأنه معنا ، وتقدم التاجر بريكين من شخصصة الأسمر الصغير وقبلة - ثم ألقى منفلو رأس المال خطبهم . وتكلم التاجر بشكل غامض متسق ، مشيرين على الأكثر آل سيبيريا ، من حيث يجب ان يأتي الخلاص ... وأخيرا طلب من الاتمان دوتوف ان يقول كلمة صغيرة . فاعترض قائلا : «لا ، أنا عسكري ، ولا أعرف كيف أتكلم ...»

ومع ذلك فقد لهض ثقيليا في السمات الذي خيم في الحصال ، وتلهذ :

— يا سادة ! إذا ساعدنا الحلفاء فخير على غير ، وإذا لم

يساعدوا فانتا ستندبر امرتا مع البلاشفة بقوانسا في حال مسن
الاسواق . . . فقط ان تكون هناك فلوس . . . وانتم . يا سادة ،
تدمروا لنا العون المادي . . .

وجار بريكين بحماس غامر :

- خذنا ، يا انسان ، خذنا باحساننا ، نحن لا نبيع بشيء .
ونجعت المادية . وبعد الجزء الرسمى قدمت القهوة السوداء
مع الكوتيك الاجنبي والليكيور ، وكانت الساعة متأخرة . وخرج
دميتري ستيبانوفيتش على الطريقة الانجليزية ، اى دون ان
يستأذن .

عندما وصل دميتري ستيبانوفيتش الى بيته في سيارة فتح
الباب الخارجى ، فتقدم منه ضابط بسرعة :

- اغذرتى ، هل انت الدكتور بولافين ؟

الذى دميتري ستيبانوفيتش نظره على الغربى . كان الشارع
مطلما ، فلم يتبين غير كتابتى المقدم . حرك الدكتور شفطيسه
واجاب :

- نعم . . . انا بولافين .

- جئت اليك في امر مهم جدا جدا . . . اننا افهم ان هذه
الساعة ليست للزيارة . ولكنك جئت ودققت الجرس ثلاث مرات .
- عذرا في الوزارة من الساعة الحادية عشرة .

- ارجوك . اليوم . ساغادر في باخرة ليلية .

صمت دميتري ستيبانوفيتش مرة اخرى . كان في الغريب
شيء ملحاح مقلق الى اقصى حد . عز الدكتور كتفيه :

- احلرك اذا كان الامر يتعلق بمعونة ، فان ذلك ليس مسن
نطاق شؤولى .

- لا ، لا ، لا حاجة بي الى معونة .

- اذن . . . ادخل .

اتجه دميتري ستيبانوفيتش من الباب الداخلى الى المكتيب
اولا . وفى الحال اغلق الباب المؤدى الى الغرف الداخلية . فقد كان
الضوء فيها ، والظاهر ان امدا من اهل البيت لم ينم بعد . ثم
جلس الدكتور الى المكتيب ، وأشار على الزائر بالجلوس على كرسي

ابائه . ونظر بجهامة الى اخضامة من الاوراق للتوقيع ، وشببك
اصابعه .

- اية عذمة استطيع ان اؤديها ؟

شم الضابط تبعته على صدره ، وقال بركة موجهة :

- اين داشا ؟

الذى الدكتور راسه الى الوراء فاصطدم ففاه يظهر الكرسي .
الآن فقط تفحص وجه الزائر . قبل عامين كانت داشا قد ارسلت
اليه صورة فوتوغرافية لها ولزوجها . اذن ، فقد كان هو . سحب
الدكتور قفازة ، ولتمسح الالتفاحان تحت عييشه ، فاعاد السؤال
بصوت مبحوح :

- داشا ؟

- نعم ، انا تليفين .

وشحب هو الآخر وهو ينظر في عييش الدكتور . ثمالك
دميتري ستيبانوفيتش نفسه ، وبدلا من ان يحتفى احتفاء طبيعيا
بصومه الذى كان يراه لأول مرة في حياته ، رمى ذارعيه بحركة
مسرحة . واصدر صوتا غامضا ، وكأنه مشروح مشحكة :

- اذن . . . انت تليفين . . . كيف انت ؟

ولا يد ان الطهاة جعلته لا يقدم يده لاغان ايليتش . وضع
نظارته الانلية على انفه (لم تكن نظارته السابقة الصدوعة ذات
الاطار النيكل ، بل نظارة معتبرة ذهبية) واسرع ، لسبب ما ، يفتح
بجرات مكتبته الممتلئة بالاوراق .

تابع تليفين حركته منهضبا غير فاهم شيئا . وقبل دقيقة
كان مستعدا لان يقص عليه كل شء عن نفسه باعتباره قريبا
ايما . . . وفكر الآن : «الشيطان يعلم ، ربما اكتشفتلى . . . ربما
اطعه في موضع حرج . فهو وزير ، على كل حال . . .» انزل راسه ،
وقال بصوت خافت تماما :

- دميتري ستيبانوفيتش ، انا لم ار داشا منذ اكثر من نصف
عام . ولا تحصل رسائل . . . لا اعلم ماذا جرى لها .

- تعيش ، تعيش ، وبخير !

قال الدكتور ، وهو يتعنى الى الارض حتى الجوارات السفلى من مكتبه .

- الى في جيش المتطوعين ... اعارب البلاشفة منذ شهر آذار ... والان اوقدتني القيادة الى الشمال في مهمة سرية - استمع ديمتري سيبولوفيتش وعلم وجهه تعبير وحشي للغاية ، ولكن ابستمارة سارت في شاربيه فجأة حين سمع «مهمة سرية» :

- اذن في اي فوج تقدم ؟

- في فوج سوكولاتسكي -

واضح تليفين بان العلم يتدفق في وجهه -

- اها ... اذن ، يوجد مثل هذا الفوج في جيش المتطوعين ... على ساحتك عندما كثيرا ؟

- ساقادر الليقة .

- رائع ، والى اين بالذات ؟ اعلمني ، هذا سر عسكري ، فلا امر ... بعبارة اخرى في شؤون استخبارات ؟

ورد صوت ديمتري سيبولوفيتش رتبنا غريباً حتى ان تليفين جفل وانزعج ، رغم قلقه الشديد . الا ان الدكتور وجد في تلك اللحظة ما كان يبحث عنه .

- زوجتك في صحة جيدة ... خذ ، اقرأ ما تسلمته منها في الاسبوع الماضي ... وفيه ما يهضك ايضاً والقي الدكتور امام تليفين بعض الاوراق المكتوبة بخط دasha الكبير . وظائف اسام عيني تليفين هذه الكلمات التيمية غير المثقفة شكلاً اعلمني ، سأتذكرك لدقيقة ، ولكن خذ راحتك .

خرج الدكتور سرعاً وافلق الباب وراءه . وكان آخر مما سمعه ايفان ايليتش كلماته التي رد بها على احد من اهل البيت -

- ... لا شيء ، زائر ...

سار الدكتور من غرفة الطعام الى دهليز صغير معتم ، حيث كان يوجد تلفون من طراز قديم . ووقف ووجهه الى العائط وادار قبضة التلفون ، وطلب بصوت خافت رقم الاستخبارات ، ودعا الى التلفون سيميون سيبولوفيتش فليادين شخصياً .

كانت رسالة داشا مكتوبة بقلم نسخ ، والعروف تنطشم بحجبها اكثر فآكثر كلما مضت في الكتابة ، وسطورهسا جميل الى الاسفل :

«بايا ، لا اعرف ماذا سيحصل في ... كل شيء مشوش ... وانت الشخص الوحيد الذي استطعت الكتابة اليه ... اتسا في قازان ... يبدو انني ساتمكن من الرجول بعد غد ، ولكن حصل ساضل اليك ؟ اريد ان اراك - منتفهم كل شيء - وساقفل ما تنصحنى به ... لقد بقيت حية بعمجرة ... لا ادرى ربما كان من الخير الا اعيش بعد الذي حصل ... كل ما قالوه في - واوجوا به الى كليب ، وحقارة عارية لثثة ... وحتى ليكتور يوريفيتش كوليتشنيك ... ود ولقت به وجئت الى موسكو بتعريض منه - (ساروي عند لقائنا بالتفصيل) - حتى كوليتشنيك اعلن في يوم امس بالحرف الواحد : «الناس يرمون بالرماسا ، ويدفنون في الارض اكواسا ، وقية الاسنان رصاصة من يدكيسة ، والعالم فارق بالدم - بينما يجب ان اعاملك - ان آخرين لا يقولون حتى ذلك ، بل ياتخذون المرأة للفراش رسالاً - وقد قاومت ، يا ابني ، ثقي بي ... لن استطيع ان اكون مجرد طعم بعد فدمج من الغيرة - فلو اعطى هذا السقي هو آخر ما تبقى لدى فان الثورة سينطفئ في عيني ، وساعطى لئس في حبل - حاولت ان اكون نائمة - في باروسلاف عملت ثلاثة ايام تحت التيران كمرضة اساقف ... وفي الليل سقطت غسل الفراش ويدي وتباين مطفحة بالدم ... واذا اعدهم يوقظني ، ويحاول ان يرفع ثورتي - قافلز ، وابعرج - انه حسي ، ضابط ، لي انسى وجهه ابداً ؛ ويشتد جنونه ، ويسقط على - ويلوى يدي صامتاً ... الخسيس ا يا ابني ، وارقيه بطفقة من عسفمته - لا اعرف كيف حصل هذا ... يبدو لي انه سقط - لم اراه ، لا أتذكر ... وانخرج واكفية الى الشارع - حرق - المدينة كلها حترق ، القذائف تنلجر ... كيف لم اصيب بالجون في تلك الليلة ؟ عندئذ عزمست على الهروب ، الهروب ... اريد ان اعيش في كلفني ، ساعادني ... اريد ان اعرب من روسيا - وعشيدني الكاكية ... ولكن ساعادني على الاتصال عن كوليتشنيك - انه

يلاحتقن في كل مكان ، أي يجري خلفه في كل مكان ، وفي كل ليلة
يعدنان نفس الحديث . ولكن ، لن أزيد ذلك ولو يقتلني . . .
وتولف إيلان ايليتش عن القرامة ، وتلفس ، وقلب الصفحة
ببطء :

«بالصادفة وقعت في يدي مجوهرات كبيرة . . . لقد رأيت
بأم عيني شخصا يسبقه الترام عنه براهة نيكستنيك ، مسات
يسميه ، وأنا اعرف ذلك . . . وعندما افقت من الإغماء رأيت في يدي
حقيبة من جلد التمساح : لعل أحدهم سبها في يدي حين
الهبوطي . . . وفي اليوم التالي فقط تملكني الفضول ، وفتحت
الحقيبة ووجدت فيها حل من الألماس واللؤلؤ . وهذه الأشياء قد
سرقها ذلك الشخص من مكان ما . . . وكان ذاهبا لمقاهي . . .
أفهمت ؟ سرقها من أجل . . . ياها ، أيا لا أحاول أن أدخل في
تفسيرات قانونية . . . لقد اقيمت هذه الأشياء عندى . . . وفيها
الآن خلاص الوحيد . . . ولكن إذا ثبت لي الشيء لسنة ، فأنسى
سابقها معي على أية حال . . . تملكني الرقبة في الحياة بعد أن
رأيت الموت بهذه الكثرة . . . لم أعد أؤمن بصورة الإنسان . . . أن
اولئك الرجال الطيبين ذوي الكلمات الرنانة الرائعة عن التقاعد
الوطن ، ما هم الا اشراف ، وحوش . . . أم ، ما أكثر ما شاهدت ا
عليهم العنتة ا والول ان ما حصل كالآتي : زارني ليكتور
يوريفيتش زيارة مفاجئة في ساعة متأخرة من الليل ، يبدو انه جاء
من يترغراد مباشرة . . . وطلب ان افاد موسكو معه ، وتبين ان
منظمتهم «اتحاد الدفاع عن الوطن والحريّة» قد كشفت من قبل
الذخيرة الاستثنائية ، واعتقل كثير من اعضائها في موسكو . وغرب
سافينكوف ، وجسج اركانته الى البولغا . وكان عليهم ان يتوجهوا
بالتفاوض هناك في ريبينسك وياروسلافل وموروم . وكانوا يحمل
عجالة شديدة في ذلك . كان السفير الفرنسي لم يعد يعطيهم أية
لقود ، ومآلب يان يتنوا ثوة منظمتهم بالملل . وكانوا يأملون
بان جميع الفلاحين سيحارون الى جانبهم . وقد اكد نيكانور
يوريفيتش ان ايام البلاشفة معدودة ، وكان يجب على الانتفاضة ان
تشمل الشمال كله ، وشمال البولغا كلها ، وتتحد مع

التشيكيوسلوفاكين . واكد كوليبتشيك ان اسمي وجد في قوائم
المنظمة ، وان البقاء في موسكو خطر ، فرحلت معي الى ياروسلافل .
وكان كل شيء معدا هناك : كان جميع الرؤساء في القوات
في الميليشيا ، في الترسانة من رجال منظمتهم . . . ووصلنا في
السيارة ، وفي الفجر استقبلت على اصوات طلقات . . . قهرعت الى
النافذة . . . وهي تطل على الفناء ، وعلاؤها جدار آجري كراچ ،
وكومة قاذورات ، وبعض الكلاب تنبح في البوابة . . . ولم تتكرر
الطلقات ، وهذا كل شيء . . . الا في البعبد ، لقد ترامى صفيح
موتوسيكلات وهدم معركاتها . . . تم بدأ قرح الأجراس في
المدينة . في كل الكنائس . . . وفتحت البوابة في قناه بيتسا ،
ودخلت جماعة من الضباط ، يضعون الكتابيات . والاضطراب
مرتسم على وجوههم كلها ، وهم يلوحون بالأسلحة . وكانوا
يسوقون شخصا يدعنا خلقيا في سترة ماعادية ، بلا قبعة ولا ياقة
ومسافره غير مرزور . وكان وجهه احمر حائق . ضربوه على ظهره ،
فاهتز رأسه من جانب الى آخر ، وبدا عليه الغضب الشديد . بقى
اثنان يسكانه عند الكراچ ، وابعد الآخرون ، وتناوروا . وفي
تلك اللحظة خرج من المدخل الخلفي لبيتنا العقيد برخوروف رئيس
جميع قوات الانتفاضة المسلحة . . . وكنت اوله لأول مرة . ادى
الجميع التحية العسكرية له . انه رجل ذو ارادة جبارة - عينسان
سرداوان فائزان ، ووجه لعيل ، وقامة متمسبة ، ويداها مقفزان ،
وفي أحدهما عصا . وادركت في الحال : انه التوجه لاصحاب السرة
الرمادية . لفظ برخوروف ينظر اليه من تحت حاجبيه ، ورايست
أستاهه تتكشف في لعل . اما الرجل فظل يشتم ويهدد وبطال .
عندئذ هم برخوروف رأسه ، وامسك امره ، واضرب في الحال . ففز
الانسان اللقائ كالما يستكان بالرجل البدين . . . فخلع الرجل سترته
عنه ، ولها ، والقاعا على الضباط الواقفين امامه فومنت في وجه واحد
منهم تماما - وظل يحمر وهو يلعنهم . وهز فيضتيه ، ووقد في مسافره
المخلول سخفا حاججا . عند ذلك الملقوا الرصاص عليه ، اهتز بكل
جسمه مادا يديه الى الامام ، وعظا ، ووقع ، وظلوا يطلقون الرصاص
عليه بعض الوقت ، وهو مطروح . لقد كان ذلك المفوض البلشفي
لأغيسون . . . لقد رأيت اعداما ، يا أي ا ؛ والان لن انسى مدى

الحياة كيف كتبت في الهواء . . . وأكده لي نيكالور يوريفيتش ان ذلك شيء جيد ، فإن لم يتشاوروا لقتلهم هو . . .

وما حصل فيما بعد لا أتذكره بشكل جيد : ان كل ما حصل كان استمرارا لهذا الاعدام ، كل شيء كان مشعبا بارتعاشات جسد انسان ضخم لم يرد الموت . . . طلبوا مني ان اذهب الى بداية سفراء طويلة ذات اعصمة ، وفيها صرت اطيع على الآلة الكاتبة الاوامر والتعدادات ، وانطلقت الموسيكلات ، وتار الغيار . . . ودخل اناس مستشارون ، وقضوا ، وامروا ، وكانوا يتصاحون على كل شيء ، ويسكنون رؤوسهم ، ما بين فروع وآمال مبالغ بها ، ولكن حين كان برنوروف يحضر بعينيه الناسيتين ، ويلقي كلمات قصيرة فيما كل اللغظ ، وفي اليوم التالي سمعت طلقات مدفعية وراء المدينة ، كان البلاشفة قادمين ، كان اهل المدينة يتجهرون في دارتنا من الصباح حتى الليل ، فلما بها تفرد فجأة ، وبنت المدينة كالبينة ، الا سيارة برنوروف تهدر وهي متطلعة به ، والفضائل المسلحة تر . . . كانوا ينتظرون طائرات قنبلة فرنسيون ، وقوات من الشمال ، وبواشر معدلة بالقذائف من ريبينسك . . . ولم تتحقق الامال ، واحاطت بالمدينة طوق معركة ، والفجرت القذائف في السموات . . . وسقطت ابراج الاجراس القديسة ، وتهدمت البيوت ، وحسبت العراقق في كل مكان ، ولم يكن احد ليطلقها ، وغطى الدخان وجه الشمس ، وحتى جئت القتل بقيت في السموات ، واتضح ان سايينكوف ايام مثل هذه الانتفاضة في ريبينسك ، حيث كانت مظاهرات المدفعية ، الا ان الجنود شعروا بالانتفاضة ، وكما ان الثرى المحيلة بياروسلاف لم يرد اي استعداد للمساعدة ، وان عمال بياروسلاف لم يريدوا الجلوس في الخنادق ، ومحاربة البلاشفة . . . وكان اقتطع الاشياء وجه برنوروف - كنت التقى به في كل مكان في هذه الايام . - انه الموت يتجول في سيارة بين خراب المدينة ، وكل ما حصل كان يبدو تجسيدا لارادته . ابقاني كوليتشيك عدة ايام في سرداب ، ولكنني اشعر بقلبي ايضا في كل شيء ، يا ابي ، لو بقيت في السرداب لجننت ، ازددت مندبا عليه علامة الصليب ، وحملت حتى اللبنة التي حاولوا فيها القصاص . . . وقيل سقوط بياروسلاف بيوم واحد هربسا ، نيكالور

يوريفيتش وانا ، في قارب الى ما وراء الفولغا . . . وسرنا اسموعا كاملا متغلغلين عن الناس ، وكنا نقض الليل تحت اكوام العريس ، ومن حسن الحظ ان الليالي كانت دافئة . وقد نهرا خدائي ، ودميت قدامي . وقد حصل نيكالور يوريفيتش على جلاء لبادي لي من مكان ما ، ربما سرقة من علي سنياج ، ولا أتذكر في اي يوم رأينا في غابة بتولا رجلا يرتدي معطفا مزقا ، وتعلين من اللب ، وقبعة مهلهلة ، كان يسير جهما سرعا ، وباستقامة ، كالمعتوه ، معتصما على عصا . لقد كان ذلك برنوروف ، وقد هرب هو ايضا من بياروسلاف . فرغت حشنة حتى اتتني النبطح في العشب . . . ثم وصلنا الى كوستروما ، ولزلنا في بيت عند جوفه يعرفه كوليتشيك ، وعشنا هناك حتى امشوا التشكيك على قازان . . . وكان نيكالور يوريفيتش يعتني بي دائما كصا يعتني بطفل . وانا اشكره على ذلك . . . ولكن الذي حدث انه رأى المجهرات ، ونحن في كوستروما - كانت ملفوفة في صندوق جيب في معفتي التي كانت يعملها في جيب سترته طوال الطريق ، ولم أتذكرها الا في كوستروما ، واضطرت ان اروي له الحكاية كلها ، وقلت انني اعتبر نفسي مجرمة بضميري ، فطلع بهذا الخوض بنظرية فلسفية كاملة ، متهمسا لي انني لست مجرمة بل رابعة بطلاقة نصيب للحياة ، ومنذ ذلك الحين تغير سلوكه نحوي ، وصار مقدا جدا . كما اني ايضا اتنا كنا نعيش في بيت ريفي حياة تقيية هادئة ، واشرب العليب ، وتأكل غيب الثعلب وتوت العليق - وقد زاد وزلي ، وذات مرة بعد العروب ، وكنا في الحديقة ، اخذت تحت عن الحب بشكل عمام ، وانني قد خلقت للحب ، واخذ يقبل يدي ، وشعرت بانه لا يشك في انني ساستسلم له بعد لحظة على ذلك السطة تحت الاقاسيا . . . وهذا بعد كل ما حصل ، اللهم يا بايا ! لكي لا اشرح له كل شيء قلت له شيئا واحدا : اني يحصل بيتنا شيء ، فاسما احب ايقان ايليتش . - ولم اكن كاذبة ، يا بايا . . .

أخرج ايقان ايليتش المنديل ، ومسح وجهه ، ثم عينيه ، وتابع القراءة :

انا لم اكتب . . . انا لم اتس ايقان ايليتش ، فسلم بيته

كل شيء لي معه بعد ... أنت تعرف أننا اقتربنا في آذار ، غادر
 لي القفاس للاتفاق بالجيش الأحمر ... انه أمر كبير ، يمشي
 حقيق ، رغم انه ليس حزياً ... وقد انقطعت علاقتنا ، الا ان
 الماضي يربطنا وبطأ قويا ... ولم انقطع الماضي ... لما كويتشيك
 فقد عالج الامر ببساطة كبيرة : استلقى لنظام سوية ... آه ،
 يا بابا ، ان ما كنا نسميه حيا في وقت من اوقات ليس الاحياء
 للنفس ... اننا نكفي التسيان والتعطيم ... وهذا السبب في ان
 النظر الى عيني مومن في الليل شيء مربع ... انها ليست الا ظل
 امرأة . ولكن اما الاحياء ، واريد ان احب ، وان اذكر ، اريد
 ان ارى نفسي في عيني البحر ، واحب الحياة ... ولو تمددكشي وغبة
 للحظة في الاستسلام ، لوقعت في اسر تلك اللحظة ... ولكنني الان
 لا استمر بغير العيب والثبور والرعيب ... في الفترة الاخيرة حصل
 شيء في وجهي ، في قوامي ، ازدت جمالا ... وانا الان كالعارية ،
 وفي كل مكان ميون جامعة ... اللعنة على الجمال . . . ابي ، ارسل
 لك هذه الرسالة لكيلا يغال شيء ، حين نتلقى ... لم اعلم بعد ،
 غافقتي ... »

رفع ايلان ايليتش رأسه - سجع وقع خطوات حلوة وعمسا لعدة
 اشخاص وراء الباب المؤدى الى الرواق . واذير مقيش الباب ، فخر
 سريعا ، ونظر الى التوافق ...
 كانت لوفله شقة الدكتور غير عالية عن الارض ، على طريقة
 مدن الاقاليم - وكانت النافذة الوسطى مفتوحة . وشب تليفين
 اليها . كان ظل اسنان يستلقي طويلا كالفرجار ، وظل آخر أطول
 خارج منه هو ظل يندقية .

كل ذلك حدث في جزء من الثانية . اذير مقيش اليساب
 الداخل ، ودخل الى غرفة المكتب دفعة واحدة وجلس في هيئة اعتيادية
 متلاصقين كتفا بكتف . يرتديان قمعتين لهما حافتان لاكتسان ،
 وقمصين مطرزين ، واثي الخلف منهما لاح وجه غفيادين الاصهب
 اللحية الشاحب . وكان اول ما راي تليفين حين اندفعوا الى الحجرة ،
 ثلاث قوحدات لثلاثة مسلمات مصوبة لعره .

وقد حدث ذلك في الجزء التالي من الثانية ، وادرك وهو
 العسكري الخبير ان التراجع امام خصم قوى سليمان تصرف غير

حكيم . نقل مسدسه «الراوليتش» الى اليد اليسرى ، وانزع من
 حزامه تحت السترة قبلة يدوية صغيرة لفت عليها رسالة فيمضاء ،
 وتدقق الدم الى وجهه ، وعتقت بصوت حاد متوتر :

- القوا السلاح !

وكان هذا الهتاف مفهوما للغة ، كما ان هيئة ايلان ايليتش
 كلها كانت مهيبة جدا حتى ان الرجلين اركبكا ، وتراجعا قليلا الى
 الوراء ، وتلغى ذو الوجه الشاحب جانبا . ان لائية اخرى قد
 كسبت ... رفع تليفين القبلة اليدوية فوقهم :

- القوا ...

وهنا حصل مسا لم يتوقعه احد من العاضرين ولا سيمسا
 تليفين ... بعد صيخته الثانية مباشرة ارتفعت صرخة سقيمة ،
 صوت لسالي في ذعر يبالغ صادر من وراء الباب من غشب الجوز
 الراصل بين غرفة المكتب والغرف الداخلية ... وانفتح الباب ،
 وراى تليفين عيني داشا المتسختين واصابعها الرقيقة متشنجة
 بعبادة الباب ، ووجهها التحيل المرتعش كله انفعالا :

- ايلان !

وظهر الدكتور بالقرب منها ، وامسكها من جنبها ، وجرها ،
 وسلق الباب ... وكل ذلك بدل خطفا خطف تليفين الهجومية
 الدفاعية ... اندفع نحو الباب من غشب الجوز ، وكان ما يزال
 بكل قوته ، وقرقع الباب ، وصرخ الى غرفة الطعام ... كان ما يزال
 يسك في يده سلاح القتل ... كانت داشا واقفة عند الباقدة
 ممسكة عند الرقبة بطهتي رويها المخطط ، وحترجها متحركة ،
 وكانها تتلغح شيسا (وقد لاحظ ذلك باستفلاق شديد) ، تراجع
 الدكتور ، وكان مقهور التظهور اشعث الشعر :

- التوجة اغفيادين !

لح بصوت مدحور . ركضت داشا هارعة الى الباب من غشب
 الجوز ، وادارت المفتاح فيه :

- يا الهى ، ما الفظ ذلك !

الا ان ايلان ايليتش فهم كلماتها بشكل آخر : فطبع حقا ان
 يهرع الى داشا ومعها هذه الاشياء . اسرع في وضع المسدس والقبلة
 اليدوية في جيبه . عندئذ امسكت داشا يده قائلا «لتلقب» . وهدبته

الى الدهليز الصغير المظلم ، وعشه الى غرفة ضيقة ، حيث كانت
تشتعل شمعة على مقدمه . كانت الغرفة بارية ، ليس فيها غير تنورة
داشا معلقة من سمسار ، وسرير حديدي عند الجدار عليه مفارش
مجعدة .

همس تليفين :

- انت هنا وحده ؟ قرأت رسالتك .

وتلقت ، وارتجعت شفتاه المفلرجتان عن ابتسامة ، لم تجب
داشا ، وجذبه نحو نافذة مفتوحة .

- اهرب ، اهرب حالا ، فقدت صوابك ا . . .

كان الفناء يري من النافذة في غير وضوح ، وظلال وسطوح
البياني المتأصلة الى النهر ، والى الاسفل الوار الرصيف النهري . وكانت
نسمة رطبة تهب من ناحية الغولفا وفيها رائحة مطر حادة . . . وقت
داشا ملامسة ايفان ايليتش بجسدها كله ، ورفعت وجهها المدعور ،
وفتحت فيها قليلا . . . وتمتمت مجددة في عينيه :

- اعدوني ، اعدوني ، اهرب دون ابطاء ، يا ايفان .

وكيف ينتزع نفسه منها ؟ انفلقت دائرة القراق الواسعة ،
تخلص من الف موت ، وما هو ينظر في الوجه الوحيد ، التحن وقيلها .
ولم تستجب له شفتاه البارذتان ، بل ارتعشتا فقط .

- لم ائتلك . . . كلمة شرف . . . سنلتقي حين تتحسن
الحال . . . ولكن ابر ، اجر ، اوسل اليك . . .

لم يعدها بهذه القوة ، حتى في الايام الهائلة في الترم - امسك
دموعه ، وهو يحث في وجهها :

- داشا ، تعال معي . . . انت تلهمين . . . سأتناظر في وراه
النهر . تعال في الدليل . . .

هزت رأسها ، وتارتعت بياض :

- لا ، لا اريد .

- لا تريدين ؟

- لا استطيع .

قال :

- حسنا ، في هذا الحال سأبقى . . .

وتراجع الى الحائط . . . تأقت داشا ، ونسجت . . . وفجأة

اندفعت نحوه بعدة ، وامسكت يديه ، وعادت تدفعه نحو النافذة .
في الخارج صرف باب الفناء وهسهس رمل تحت اقدام جلوة . فسقطت
داشا ورأسها الهائل ، بقوة على يدي ايفان ايليتش . . .

وقال لها ثانية :

- قرأت رسالتك ، فهمت كل شيء .

عندئذ كتف للحظة عن جذبه ، وطوقت عنقه ، والصقت
وجهها كله في وجهه :

- اتمم الآن في الفناء . . . سيقتلونك ، سيقتلونك . . .

كان شعورها المتناثر يبدو اشقر في ضوء الشمس . قبمت
لعيني ايفان ايليتش فتاة صغيرة ، طفلة ، تماما كما تخيلها في تلك
الليلة ، حين كان مستلقيا في حقل القمح جريحا قابضا على كومة من
التراب في قبضته ، مفكرا بقلبيها الابي اللؤلؤ الهيش .

- لماذا لا تريدين ان تلعب معي ، يا داشا ؟ سيعدوك
هنا . فانت تريين اي اناس هؤلاء . . . مها تكن الصناب سيكون
من الافضل ان اكون معك . . . يا بطلتي . . . انت ، على اي حال ،
معي في الحياة والموت ، انت مثل قلبى الذي لي صدري .

قال ذلك بخفت وسرعة من زاوية المعتمة . التقت داشا
رأسها الى الوراء ، ولم تترك يديه . وطلعت الدموع من عينيها .

- ساكون ودية لك حتى الموت . . . اخرج . . . اقمى . . . انا
لست اتى تعبه . . . ولكن ساكونها .

ولم يعد يسمع شيئا آخر ، فقد اسكره فرح جنوني يدموعها ،
بكلماها ، بسوتها النابع من الغلب . فغمسها غمسة قوية جعلت
عظامها ترفح . وهمس :

- حسنا ، فهمت كل شيء . وداعا .

ودفع بصفوه الى اقرين النافذة ، وبعد ثانية انسل من النافذة
كالقتل ، ولم يسمع غير وقع انعامه الغليل على سطح الزريبة
الخشبي .

اخرجت داشا ورأسها من النافذة ، ولكن لا شيء كان يري :
ظلام . وانوار صفراء صغيرة في البعيد . وضغطت بكلتا يديها على
موضع القلب من صدرها . . . لا صوت في الفناء . . . ولكن بها هما
شخصان يخرجان من الظل ، وانعيا ، وعبرا الفناء في خط منحرف .

وصرخت داتشا بصوت حاد رهيب جعل الشخصين يدوران في عدوها ويتوقفان . انهما على ما يبدو التفتا نحو ناذهتا . وفي تلك اللحظة رأت تليفين يستلق حافة السطح الخشبي في نهاية الفناء .

انطردت داتشا على وجهها على السرير - وبقيت بلا حراك . ثم نهضت بحركة متدفعة اخرى ، وتلصقت لعنابها الذي وقع من قدمها ، وركضت الى غرفة الطعام .

رأت فيها الدكتور وغليادين واقفين على استعداد للقتال . الطبيب ممسك بمسدس صغير نيكلي ، وغليادين بمسدس «تافان» - اسرع الاثنان يسألان داتشا دفعة واحدة : «كيف ؟ ..» ضمت قبضتها ، وانظرت نظرة مجنونة في عيني غليادين الصهبابين . وقالت هازئة قبضتها امام انفه الشاحب :

- وغدا سيرمونك في الرصاص في يوم ما - وغدا !

ارتعش وجهه الطويل ، وازداد شعوبا ، وتدلث لعينه ميتة . ابدى الدكتور له اشاراة ، الا ان غليادين كان يرتعش بكل كيانه حقا .

- لا تهزى قبضتك على ، يا داريا دهيترييفنا .. انا لم انس بعد كيف تطاولت على وخرتني بعلتك على مسا الابر .. اشقى قبضتك .. وعلى العوم اصمكت بان لا تزدرى بي . فاطمه الدكتور مستمرا في الوقت ذاته بالتأشير لسه ولكن بحيث لا تراه داتشا :

- انت تضعي الوقت ، يا سيميون سيميونوفيتش .

- لا تفلقي ، يا دهيتري ستيبانوفيتش . لن يفلت تليفين منا ..

صرخت داتشا متدفعة نحو :

- لن تجرأ ! (فاحش غليادين بكروسي حالاً) .

- سنرى : تجرأ ام لا .. اهلوك ، يا داريا دهيترييفنا بان «شمية الامن» مهتمة جدا بك شخصيا .. وبعد حادث اليوم لن اتمكن ان يتراضك اذعاج .

قال الدكتور غاشبا :

- يبدو انك اخذت تلفي الكلام جزافا . هذا شيء ، زائد عن

الحد ..

- كل شيء يتوقف على العلاقات الشخصية ، يسأ دهيتري ستيبانوفيتش .. انت تعرف مراعاتي لك ، وميل التقدم نحو داريا دهيترييفنا ..

شجعت داتشا فجأة . وتشوه وجه غليادين كله من التكنسيرة التي ظهرت عليه ، وكأنه انعكس في مرآة مشوهة . تناول قبضته ، وخرج مصلبا علباء لكيلا يبدو مضحكا من الخلف . قال الدكتور ، وهو يجلس الى المائدة :

- غليادين هذا رجل مخيف .

سارت داتشا في الحجرة مقلقة باصابعها - وتوقفت امام ابها :

- اين رسالتى ؟

كان الدكتور يحاول ان يفتح عليه سكارته الفضية ، فأرسل نقيشا من خلال اسنانه ، وتناول سيكارة اخيرا ، ودعكها بين اصابعه السمبكية التي ما زالت ترتجف .

- هناك .. الشيطان يعرف .. في غرفة المكتب ، على البساط .

خرجت داتشا ، وعادت في الحال لتحمل الرسالة . وتوقفت امام دهيتري ستيبانوفيتش ثانية . كان يحاول ان يشعل سيكارة ، الا ان اللهب كان يتراقص قرب نهاية السيكارة . قال والقي عود النقاب على الارض :

- لقد قتت بواجبي . (صمتت داتشا) . يسأ عزيزتى ، انه يفسدني ، فضلا عن ذلك فهو يتجنس .. والحرب الاهلية ، كما تعلمين ، ليست قضية بسيطة ، وقد تقتضى التضحية بكل شيء .. ولهذا اطمينا السلطة . والشعب لن يغفر الضعف . واخذت داتشا نزقى الرسالة ال مرق صغيرة في لجر عجالة ، وكانها غارقة في افكارها . انه يائس - وذلك واضح وضوح النهار - لكن يستقي منى مما يريد ، واذا سنحت الفرصة يقتلني .. هل رأيت كيف كان مسلحا ؟ يقتيلة . في عام ١٩٢٦ رأيت يلم عيني كيف قتل حاكم المحافظة بلوك بقتيلة في متعلقه شارع موسكو ليتانبا .. ليتك

ساهدت ماذا تبغى منه - جثة بلا رأس وقطعة من لجة . - وارتفعت يدا الدكتور من جديد ، فالتقى السيكارة التي لم تستعمل

وتناول اخرى ، وتابع قوله :- منذ البداية لم احب صاحبك
تليفين . لطيف انك ظلمت علاقتك به ... ووضعت دائما على هذا
الكلام ايضا) بدأ بعينة بدائية جدا - سال اين انت ...

- ان اسمك غيبادي ...
- ليس من تنك في ذلك ، فان لغيبادين استخبارات ممتازة ...
تقد عاملت قبيادين معاملته سيئة ... انه رجل كبير ...
والتشكيكون بقدرته جيدا ، وفي القيادة ايضا ... والفترة لتفطيننا
ان تضعني بالتشخيص ... لغير البلاد - تذكرين الامثلة
الكلاسيكية ... وانت ايدي . اذا كان اسمك معشورا بالخيلات
ضحك وسعل - فانه ليس راسا بليدا ...
قالت ذاتا بصوت محرج :

- ان اسمك غيبادين ايقان ايليتش ، فستعمل كل شيء لانتاذه .
التي الدكتور نظرة سريعة على ابنته . ونظر من انفه ، دعكت
ذاتنا مرق الرسالة بقبضتها .
- ستعمل ذلك ، يا ابي !
- لا - صاح الدكتور ضاربا المائدة بكفه - لا احمالة ا
الضرف لصلحتك ... لا !
- سيصعب عليك ذلك . ولكن ستعمله . يا بابا .

صرخ الدكتور :
- انت طفلة . انت حقاً ، تليفين وقد مجرم ، ستحكم
عليه المحكمة العسكرية بالرجم .
رفعت ذاتا راسها ، وتوجهت عيناها الرماوتان بشكل
لا يطاق حتى ان الدكتور عتق حاجبيه ناخرا - رفعت قبضتها والاوراق
المدعوكة فيها ، وكانها تهدد . وقالت :

- لو كان جميع البلاشفة مثل تليفين فانهم على حق .
- حقا ، .. حقا ، .. - وولب الدكتور على قضية محمرا
مرتجفا ضاربا الارض - يجب ان يشتق البلاشفة مع صاحبك
تليفين ا على جميع اعمدة التلغراف ... ان تسلف جلودهم وهم
احياء !
الا ان طبع ذاتا كان ، على ما يبدو ، احد من طبع دميتري

ستيبانوفيتش - ولكنها امتعت فقط ، وتقدمت منه تماما متبينة
فيه عينيها غير المحتلين ، وقالت :

- وسرع ، ما هذه العريضة ؟ انت لست ابي ، بل شغفتنا
مجنونا فاسدا !
والفت في وجهه مرق الرسالة ...

في تلك الليلة استدعى الدكتور الى التلغراف لجزا ، ومن
الساعة صغر صوت هادي حشن بقض الشيء :

- احببكم علما بان جتق غيبادين نائب رئيس الاستخبارات
واحد مغربيه قد اكتشفنا توا قرب وظيف سامويليتسكايا ، وراء
حزن الطمن ...

وعلت الساعسة . فتح دميتري ستيبانوفيتش نفسه مهتلعا
الهراء ، وانهار قرب التلغراف في ثوبه قلبية عتيقة .

١١

بعده ان حطيم جيش سوروكين قوات دروزدوفسكي
وكازالوفيتش احسن قوات جيش المشطوعين ، غير الغظة الاولى في
الخروج الى ما وراء كويان . وبدلا من ذلك تحول شمالا قرب قرية
كوريوتسكايا . وبدا بالهجوم على محطة تيخوريتسكايا ، حيث يوجد
مقر قيادة دينكين .

طلت المعركة الضارية محتدمة عشرة ايام . وقد اكتسح رجال
سوروكين ، وقد حفزتهم النجاحات الاولى ، جميع العقبات امام محطة
تيخوريتسكايا . ولاح الآن وكان ما من شيء يستطيع ايقاف الزحف
السريع . اسرع دينكين بتجميع القوات المتبصرة في كويان ، وكانت
الضراوة من الشدة بحيث ان كل اشتباك كان ينتهى بمقتال بالحرب .
الا ان تحللا قد اصاب جيش سوروكين بنفس هذا الاندفاع .
واشتد الحصار بين الافواج الكوبالية والافواج الاوكرانية . كان
الاوكرانيون وجنود الجبهة القدامى يدمرون القرى الكوبالية الواقعة
في طريق الهجوم دون ان يفروا بين القرى المؤدية للبييض والقرى
المؤدية للحمير .

وسادت اليقظة . كان اهالي القرى ينظرون يذعر الى المعتدل
الزاحف من وراء نهاية السهوب في سحب من الغبار . كان دينكين ، على

الى تقديره ، يدفع لنا للعطف ، اما رجال سوروكين هؤلاء ، فلا يعرفون الا شيئا واحدا : ان يتكسحوا كل شيء ، فكان الشبان يطشون خيولهم ويتشون الى دنيكين ، والتشريح مع النسوة والاطفال والناسية يزلون الى الوهاد المنخفضة .

وهي ترى كاملة ضد جيش سوروكين . وكانت الافواج الكورانية تصيح : « انهم يرسلوننا للفشل ، والاغراب ينهبون اراضينا » وكان بيلياكوف رئيس اركان الجيش يدور يشعه في دوامة الاحداث ، متلصبا راسه ليتأكد من انه ما يزال بين كتفيه . ولا عجب ! فان الاستراتيجية قد ذهبت مع الريح . وكان كل التنكيك في الحراب العادة والضراوة التورية . وحملت محل الضبط حركة عاصفة لا تكبح لمجموع القوات . وكان من المفاتحة النظر الى القائد العام الاعلى سوروكين ، فقد كان يتغلى على الكحول والكوكالين في تلك الايام ، فكانت عيناه محتقنتين ، ووجهه مسودا ، وصوته مبحوحا ، يدفع كالمسوس في المقدمة على اكتاف الجيش .

وحدت ما لا يد منه ، فان جيش المتطوعين الذي مرسه ضبط حديدي ، ويقتض ، كالألة ، لارادة قيادة واحدة ، رغم اندحاره وتراجعه اخذ يتحول الى الهجوم المضاد مرة بعد اخرى متسبها بكل قطعة ملازمة من الارض متخفا الاماكن الضعيفة لدى الخصم ببرود وانتصار ، وفي يوم ٢٥ نوز ، تغير اليوم العائس الاخر من المعركة بالقرب من فيسيلكي ، على بعد خمسين فرسحسا من محطة نيجورنيسكايا .

كانت مواقع قوات دروزو وفسكي وكارالوفيتش اسوأ حتى من الارام السابقة . فقد استطاع الحرس هنا ان ينقلوا الى المؤخرة ، يدفع المتطوعون في نفس الكيس الذي وقع فيه البلاشفة قريب بيلابا غلينا . ولكن جيش سوروكين لم يكن كما كان منذ تسعة ايام ، فقد فترت الهمم ، وبنت صلابة العدو عدم الثقة والتشكك واليأس ، فحق ياتي النصر والراحة ؟

بعد الساعة الثالثة بعد الظهر انطلق جيش سوروكين بهجوم على طول الجبهة . وكانت الضربة قوية . وكانت المدافع تقصف في كل مكان على طول الاقح . وسارت الصلوف الكئيصة بقاماتها ، ولم تستلق . وبلغ التوتر وفاد الصبر والضراوة ذروتها . . .

وبهذا الشكل بدأ هناك جيش سوروكين . ابدت الموجة الاولى من الهجمات بانوار والعراب ، واختلطت الموجات التالية تحت النار بين الجحت والجرح والساقطين . وجبن وقع ما كان من غير السكن حسيابه ولا ادراكه ولا ابغافه . فجاء ارتخي التوتر . ولم يعد هناك ما يكفي من القوة والحاس .

واستمرت عزيمة العدو الباردة تنزل الضربات المحسوبة مضاعفة الارتباك . . . واخترق الافواج المرتبكة رجال ماركوف وفوج الحيلة من الشمال ، وخيالة اوديلي من الجنوب ، وذهبت المدرعات النافسة للنار ، وتحركت طائرات البيض المصفحة . وعندئذ بدأ التراجع والهروب والذبح . وفي نحو الساعة الرابعة تغطي السهوب كله بجيش سوروكين المتراجع جنوبا وغربا ، والمقصى عليه كقوة موحدة .

التي بيلياكوف رئيس الاركان قائد الجيش العام في السيارة بالعودة . كانت عينها سوروكين المعمرتان جاحظتين ، وقبه مزبدا ، وكان ما يزال مسكنا بيده السوداء مسنسة الذي لمد رصاصه . انطلقت السيارة المثقلة بالرصاص المسحوق بسرعة جنونية بين الجحت . واختفت وراء التلال .

وتراجع الجزء الرئيسي من جيش سوروكين المهزوم الى يكاتريندار . والى هناك ايضا اخذ جيش تامان (المجموعة العربية من القوات الحمراء) بقيادة كوجوخ يتراجع من شبه جزيرة تامان . وكانت جميع القرى في طريق تفقره تهب منتفضة . وآلاف الاغراب يهربون - مع متاعهم وماشيهم - تحت حماية جيش تامان خوفا من انتظام التوزاق . وتطلعت خيالة الجنرال بوكوروفسكي البيضا طريق التراجع ، وبلورة الحماس استطاع جيش تامان ان يعطلمها ، ويعثرها ، الا ان تراجعها نحو يكاتريندار لم يعد ممكنا على اية حال ، فاستنزل كوجوخ بجيشه ومع قوافل اللاجئين بعدة نحو الجنوب ، الى الجبال المنفرة الوعرة أملا ان يشق طريقه الى قوقوروسيسك ، حيث كان اسطول البحر الاسود العائد للبحر .

الآن لم يعد شيء يوقف دنيكين ، فبعد ان طهر الطريق بسهولة تختم بكل قوائله الى يكاتريندار التي كانت تحتلها لقول جيش شمال القفقاس الذي لم يعد له لوجود . واحتل المدينة بهجوم شديد خاطف .

وهكذا انتهت «العملة الجليدية» التي بدأها كورتيلوف قبل ستة أشهر بصفحة من الضباط .

واضحت بكارترينودار عاصمة البيض . وظهرت مناطق البحر الأسود الغنية بسرعة من كل عناصر الهياج والعصيان . وأعاد الجنرالات الذين كانوا ، إلى حين قريب ، يملتون القمل من لسانهم ، تقاليد الدولة العتبية ينشأها الأميراتوري القديم .

إن الطريقة المثبتة السالفة في خرض الحرب عن طريق الحصول على السلاح والعتاد في معركة أو في تجارة على البلاشفة لم تعد . بالطبع ، ملائمة للخطط الموسعة الجديدة . كانت هناك الحاجة إلى المال ، وإلى سبل واسع من الأسلحة والذخيرة ، وإلى تهئية التمرين العسكري لحرب كبيرة ، قواعد جيازة لهجوم على قلب روسيا .

فقد انتهى عهد السراع المحل الأهل ، ودخلت إلى اللعبة قوات خارجية جيازة .

وظهر أمام القيادة العليا الألمانية خطر مفاجئ ، خاص عقب انتصارات دنيتكين الأولى في حزيران . كان البلاشفة لعاد ، مروضي الأيدي والاقدم باقافية بريست . ليتوفسك . وظهر دنيتكين كعدو لم يعرف بعد ولم يدرس . وبعد اندماج جيش سوزوكين خرج دنيتكين إلى بحر آزوف ونوفوروسسيسك ، حيث كان يوجد الأسطول العربي الروسي كله عند أوائل أيار .

ولم يكن الألمان معينين من ناحية البحر الأسود . وكانوا مطمئنين بما دام الأسطول في أيدي البلاشفة . فقد كانوا يريدون على كل صل عدائي من جانبهم بعبور الحدود الأوكرانية . إلا أن وقوع خمس عشرة مدرعة ومدعنتين في يدي دنيتكين كان يعنى خطرا جديا في تحويل البحر الأسود إلى جبهة للحرب العالمية .

في العاشر من حزيران قدمت ألمانيا للحكومة السوفيتية المنارا نهائيا يفضي بأن ينقل أسطول البحر الأسود كله خلال تسعة أيام من نوفوروسسيسك إلى سيباستوبول ، حيث كانت ترابط حامسة المائية قوية . وهدمت ألمانيا ، في حالة الرفض ، بالهجوم على موسكو .

في ذلك الحين كتب رئيس أركان القوات النساوية المختلفة رسالة من أوديسا إلى وزير الخارجية في فيينا :

«إن ألمانيا ترمي في أوكرانيا إلى هدف اقتصادي سياسي جديد . أنها تبتغي أن تضمن لنفسها وإلى الأبد طريقا آمنا إلى ما بين النهرين والجزيرة العربية عن طريق باكو وفارس .

والطريق إلى الشرق يمر في كيبسك وبكارترينوسلاف وسيباستوبول ، ومنها يبدأ الاتصال البحري بباطومي وبرايزوند . ولهذا الهدف تنوي ألمانيا الأبقاء على القرم لها كمنشعرة أو بابي شكل آخر . أهم لن يشعروا من أيديهم تانية شبه جزيرة القرم الثمينة . وفضلا عن ذلك ، ومن أجل الاستفادة الكلية من هذا الطريق يجب أن يكون لديهم خط حديدي رئيسي ، ولما كان تزويد هذا الخط والبحر الأسود بالفحم من ألمانيا غير ممكن ، فإن من الضروري لألمانيا أن تستولى على أهم مناجم الدونباس . وكل ذلك ستشغته ألمانيا لنفسها بطريقة أو بأخرى . . . »

حين سلم الأتلال النهائي في موسكو في العاشر من حزيران حل لينين - دون تردد كما هو دائما - هذه المسألة الصعبة «غير القابلة للحل» بالنسبة للكثيرين . وكان الحل كالآتي : محاربة الألمان في الوقت الحاضر بما تزال غير ممكنة ، ولكن تسليم الأسطول اليهم غير ممكن أيضا .

ولقد موسكو إلى نوفوروسسيسك ممثل الحكومة السوفيتية الرفيق فاخراميف . وفي حضور موفدين من أسطول البحر الأسود وجميع أمراء السفن عرض الرء البلاشفي الوحيد على الأتلال النهائي : أن يرسل مجلس مفوضي الشعب برقية متوشة إلى أسطول البحر الأسود يأمره بالتوجه إلى سيباستوبول ، والاستسلام إلى الألمان ، ولكن أسطول البحر الأسود لا يتلقا جدا الأمر ، ويفرق سفنه في مرفأ نوفوروسسيسك .

وكان الأسطول السوفيتي - المؤلف من مدرعتين وخمس عشرة مدعرة ، وغواصات وسفن مساعدة ، والمشاول بموجب معاهدة بريست - ليتوفسك - يرسو في مرفأ نوفوروسسيسك .

نزل موفدو الأسطول إلى الساحل ، واستمعوا إلى فاخراميف بوجوم ، فقد كان يعرض الانتحار . ولكن لا بد مما ليس منه يد . والطريق مسدود . فلم يكن لدى الأسطول فحم ولا تغط . كان الألمان يعجبون موسكو ، ودانيتكين بقتربهم من الشرق ، وفي الطرقات

العائمة تلوح منتظرات الفواصات الألمانية في اشرطة من الزيت ، وفي الأرفاق السماوي تسمع المقاصف الألمانية ، وتناقش الموقفون طويلا وبحرارة . . . ولكن لم يكن ثمة غير مفرح واحد ، هو الفرق السنن . . . ومع ذلك فقد قرر الموقفون ، وهم امام هذا العمل الرهيب ، ان يطرحوا مصلح الاسطول على تصويت جميع افراده .

وبدأت في مرغا توفوروسيبسك اجتماعات عامة حضرها آلاف الناس . وصعب على البحارة ان يلهوا ، وهم ينظرون الى المدرعتين العملاقتين الفولاذيتين الرماويتين : « فوليا » و«سوفوبودايا روسيا» الراسيتين ، والى المدرعات السريعة الحركة المؤتمسة بالجد الحربي ، والى الأبراج والصواريخ العميقة التشابك ، الشائعة فوق المرفأ ، فوق جماهير الناس - صعب عليهم ان يتصوروا ان ملك الثورة الرهيب هذا ، وطن البحارة العالم سيمسئ الى قاع البحر دون ان يطلق رساصة واحدة ، ودون ان يقاوم .

لم يكن بحارة البحر الأسود رجالا يمكن ان يقرروا تدبير أنفسهم بدهوء ، بال ، صرخ الكتيريون منهم بكلمات جنونية ، ودعوا الصدور ، وشقوا لمصائب الحرية عن صدور مؤمنة ، وطاروا بالدمام تبعانهم ذات الاشرطة . . .

وعلى طول الساحل ماجت جماهير غفيرة من البحارة والجنود واهل الساحل الآخرين من العجر حتى السماء ، حين ضرج الغروب المياه الليلية الكلبية التي لم تعد لهم الا ان مياه البحر المعين وكان قادة السفن والضباط ينظرون الى الامر نظرة مظاهرة : فان الجزء الكبير منهم كان يبيل سرا الى الذهاب الى سياستوبول والانسحاب للامان ، واما الجزء الصغير يرئاسة قائده المعروفة « كيرتش » الاول كوكيل فقد ادرك حمية الهلاك ، واهميتها الهائلة برمتها بالنسبة للمستقبل ، فكان يقول :

« يجب الانتحار ، واغلاق سائر تاريخ اسطول البحر الأسود

لبعض الوقت دون توليته . . . »
وفي تلك الاجتماعات الهائلة كالتروية كان يتخذ قرار في الصباح واخر في المساء . وكان اكثر النجاح من نصيب الذين كانوا يفتقون تبعانهم على الارض ويصرخون :

« ايها الرفاق ، ليذهب الروس الى الجحيم ليغرقوا هم

انفسهم . اما نحن فلن نخلط عن اسطولنا . سنحارب الالمان لاخر دقيقة . . . »

ويرتفع الهدير في المرفأ : حورا !

وبدأت ببطيئة قوية بشكل خاص حين قدم من يكاترينودار قبل اربعة ايام من انتهاء الانتار رئيس اللجنة التنفيذية المركزية لجمهورية البحر الأسود روبين وممثل الجيش يوربينوس ، وهو شخص عفاق ذو هيئة رهيبة يعمل في حزامه اربعة مسدسات ، وكانا يفتان كلاهما - روبين ببطيئة مستقبضة ، ويوربينوس بسوته الهادر وتذريعه بالسلاح - با انه لا تسليم الاسطول ولا انفراجه ممكن ، وان الذين في موسكو لا يفوضون ماذا يقولون : وان جمهورية البحر الأسود مستعدة للاسطول كل ما هو بحاجة اليه من لطف وقوافل ومواد غذائية كثيرة ، وصرخ يوربينوس :

- ان اموزيا في الجبهة عاصية (والبح ذلك بعضي الثمعات)

وفي الاسبوع القادم ستغرق ابن الكلبة دليكين ورجاله في نهر كوبان . . . فلا تفرقوا السفن ، يا اخوان - فنحن نحتاج في الجبهة الى ان نشعر بان في مؤخرنا اسطولاً جباراً . اما اذا اقرضتموها ، فانا اعلم بانس الجيش القوي لكوبان والبحر الأسود كله اعلاماً فاطما باننا لن نطبق هذه الحياة - واننا من الياس نتوجه اربعين الف حربة مسدس ، وستطعمكم بالخبز لاخر رجل ، يا اخوان . . .

ومعد هذا الاجتماع تخلف كل شيء ، ودارت الرؤوس ، واخذ البحارة يغادرون السفن في غير هدوء ، وتكاثرت في الجمع عناصر مريبة كانت في النهار تصرخ باعل الاصوات : « لنحارب الالمان حتى آخر دقيقة ، ولي الليل يقتربون جماعات من السفن نصف المهجورة مستعدين الى الانتحار ورمز البحارة في الماء ولينهبوا .

في تلك الايام عاد سيمون كراسينيكوف الى المنصورة « كيرتش » .

كان سيمون يشكك راس البوصلة النحاسي . كان البحارة جميعا يعملون منذ الصباح كاشعابين وغاسلين ومنظفين المسفرة الراسية على مقربة من احد العواجز . كانت الشمس الحارة تطلع فوق التلال الساحلية المسفوعة . . . وكانت الاعلام مرتجبة في العر الساكن . كان سيمون يفرك القطعة النحاسية بعصا معاولا الا

ينظر باتجاه الرقفا - كان البحارة ينظفون المدمرة قبيل هلاكها -
في الرقفا كانت المدمرة «فوليا» ترسل الدخان من عداختها
الهائلة . وكانت المدافع المكتشفة الانطية تلمح في الشمس . وكان
الدخان الاسود يتصاعد نحو السماء . وكان الخليج الضليل يعكس
في مياهه السفينة والدخان والثلال البنية مع مصانع الاستت عند
سلوفا .

فرغس سيمون على عتبه العاريتين ، وراح يفرك القطعة
النحاسية . وكان في العراسة في تلك الليلة ، وكان يشعر بالمرارة
لدى التفكير في عبت مجيشه الى عشا . وعدم الاستماع الى اخيه
ومارتونا . . . سيحكون منه الآن : «آه انك احسنت في محاربة
الالمان . . . ختمت الاسطول ، يا اخوان . . . قلماذا يرد على ذلك ؟
يقول : نزلت «كيرتش» بيدي وصقلتها وانقرتها .

خرج من «فوليا» قارب بخاري ، واتجه نحو السفن ملوحا
بالاعلام . رفعت المدمرة «ديزكي» مرساتها ، وسحبت
«بيسكوبيني» وجرتها ببطء الى المجرى الخارج . تحركت وراءها
المدمرات «بوسبغيني» و «جيلوي» و «جاركي» و «فرومكي» متائرة
على الماء الضليل ببطء شديد وكانها مرضات .

ثم حدث توقف في الحركة . بقيت في الرقفا ثمانى مدمرات .
ولم تلمح فيها أية حركة . كانت كل الانظار الآن متجهة نحو جسم
«فوليا» التولاذي الضخم الرمادي الفاتح ذي الخطوط الصدفية على
السطح . حقق البحارة فيها بعد ان التوا من ايديهم مسحاتهم
وترتهم وتراظيم المياه . كان علم قائد الاسطول غيبه البحرية
تيجينيف يرفرف بكسل على المدمرة «فوليا» .

كان البحارة على ظهر المدمرة «كيرتش» يتحدثون بصوت
خفيضة ويقولق :

انظروا . . . «فوليا» ذاهبة الى سيبياستوبول . . .

- يا اخوان ، اعمقوا انهم اوقاد الى هذا الحد . . . اعمقوا
انهم بلا ضمير كوري . . .

- لو لمعه «فوليا» فيمن يؤمن بالانسان بعد هذا ، يسا
اخوان ؟ .

- الا تعرف تيجينيف ؟ عدو لدود . لعاب مأكرا !

- ذاهبة ! آه ، الخونة ! . .

وراء «فوليا» كانت ترسو المدمرة «سوفوبودايا روسيا»
عنايتها . الا انها كانت تبدو ناعسة هادئة ، وقد تغطت كلها
بالخلفة ، وما من شخص يري على ظهرها . اتجهت اليها من الساحل
زوارق فيها ااس يجذفون بسرعة جنونية . ول الرقفا الساكن
الرياح انطلقت صفارات فرغاس الملاحين ورفقت الوثشات على
«فوليا» ، وضعت الى فوق السلاسل المبللة ، والوراسي المغرقة .
واخذت اذق السفينة يستدير ، وتحركت الصواري المتشابكة
والمدائن والابراج على خلفية سلوح المدينة العتيقة .

- ذهبوا . . . الى الالمان . . . يا اخوان . . . استسلمون
للاسر . . . اي خبي ، فلعتم ؟ . . .

خرج الى برج القيادة في المدمرة «كيرتش» قائدها ذو الالف
الكبير السلوخ ووجه نبوده الشمس . تابعته عيناه الفاتران
حركات «فوليا» . وانحنى من على برج القيادة . وامر :

- ارفعوا اعلام الاشارة . . .

هتف البحارة بحوية في الحال :

- سمعا ، اعلام الاشارة ترفع ا

وانطلقوا الى الصندوق الذي فيه اعلام الاشارة . وارتفعت
على صدارة «كيرتش» اعلاما ذاهبة الالوان ، ورفرفت في السماء
الكأوردية . وكانت تشكيتها تعنى :
«الى السفن المتجهة الى سيبياستوبول . الغار كخونة
روسيا !» .

لم ترد «فوليا» عن الاشارة بالاشارة ، وكانت لم تلمح
شيئا . . . سارت «فوليا» بلا رجال مجللة بالعار منزلة بين السفن
العربية التي بقيت محافظة على كرامتها . . . وفتحة صاح البحارة :
«لاطت الاشارة !» . ارتفع مرفقان ضخمان على برج المؤخرة .
واستدار البرج نحو المدمرة . . . لعك قائد «كيرتش» الفوايزين
وهو على برج القيادة ، واتجه بالفه الكبير المقشر للقاء الموت . الا
ان المدفعين تحركا ، وهدأ .

الثقت «فوليا» حول حائل الامواج مزيدة سرعتها ، وسرعان
ما اختفى جانبها اللئيق وراء الافق كظلمر بعد سنوات عديدها في

بشورت البعيدة مجردة من السلاح صدمة مطلقة بالخزي الى الابد -
اصر تيخميشف قائده الاسطول على رايه . ولقد الامر الشكلي
لمجلس مفوضي الشعب . استسلمت المدورة «فوليا» وست مدمرات
الى الماء في سيبياستوبول . وصرح بعارتها وقضاهاها .

وتفرق البحارة كل الى بيته . الى بيوتهم ومواطنهم وقالوا
بالطبع . ان ايديهم لم تطاوعهم لافراق السفن . والاكثر من ذلك انهم
ارتعدوا من الاربعين الف من جنود البحر الاسود الحضر الذين حددوا
بطن كل توفوروسيسك بالحراب .

وبقيت المدورة «سفرودونايا روسيا» وثمانى مدمرات في عتده
توفوروسيسك . وفي اليوم التالي انتهى اجل الانفجار النهائي .
وحلقت الطائرات الالمانية عاليا فوق المدينة . وفي المجازي الخارجية
ظهرت عتقارات الخواصات الالمانية بين الدلفين الغازي . وتردد ان
الاسمان اقلوا الزلا في تيريبوك . على مسافة غير بعيدة . اما في ساحل
توفوروسيسك فطلعت الاجنحة العامة الصاعدة معقدة ليل نهار .
وراح اشخاص مدنيون يصيحون بالبحاح متزايد :

- يا لخوان . لا تهللكوا انفسكم . لا تفرقوا الاسطول . . .
- الضباط وحدهم يريدون افراق الاسطول . وجميعهم باعوا
المستهم لدون الوقت . . .

- في سيبياستوبول القيتسم الضباط في الماء في شهر كانون
الاول . لماذا تتخافون الان ؟ نظنوا مبدية . . .
وكان احسد الدفاع يتبع هؤلاء الصانحين مباشرة . ويشق
قبضه من صفوه :

- يا رفاق . لا تصفروا الى الاستفزازيين . لو سقم الاسطول
الى الالمان فانهم سيطلقون النار عليكم من هذه المدافع . . . لا
تقدموا السلاح للاميراليين . اتقلدوا الثورة العالمية . . .

وعليك ان تشغل ذهنك لتعرف الى من تصفق ؟ ويحل محل
الداعي جندي من يكاترينودار مدجج بالسلاح . ويهدد ايضا بالاربعين
الف حرية . . . وفي ليلة الثامن عشر من حزيران لم يعد الكتريون
من البحارة الى سفنهم : اختلوا . وتفرقوا . ولادوا في الجبال . . .
وسوال الليسل طلعت المدورة «كوتش» تتكلم بالاشارات
الصوتية . فرددت «سفرودونايا روسيا» بانها من حيث المبدأ مستعدة

لافراق نفسها . الا انه لم يبق من بعارتها الا ليلين لير اقل من مائة .
ومن الصعب تشغيل البخار . والابتعاد عن العرقا .

واعلمت المدورة «حامي» - بيده . ان ابتعاها صانعيها ما يزال
جارية عليها . وجاءت قنليات من المدينة ومعهن كحول . والظاهر انهن
ممسوسسات . ومن الممكن ان تهب المدينة . وفي المدورة
«الكياكريا» لم يبق الا القائد وتكتيك السفينة . وفي «فيدونيسي»
لم يبق غير ستة اشخاص . ووردت اشارات مماثلة من المدمرات
«كايستن بارانسوف» و«ستيفيسي» و«ستريبيشيف»
و«بروتزيتشيف» . وبعارة «كيرتش» و«الميتسانت شينستاكوف»
وحدهم هم الذين بقوا في كامل طاقمهم .

وفي منتصف الليل تقدم زورق من «كيرتش» . ونادى صوت
جسور منه :

- ايها الرفاق البحارة . . . يتحدث اليكم مراسل جريئة
«اخبار اللجنة التنفيذية المركزية» . . . وصلت برقية لتوها من
موسكو من الاميرال سابيلين تقول : ان يفرق الاسطول في اي حال
من الاحوال . ولن يذهب الى سيبياستوبول . انتظروا التعليصات
التالية . . .

الحضى البحارة على العايز . وحدقوا صامتين في الظلام حيث
كان الزورق يتأرجح . وفي الصوت يبرهن ويقنع . . . خرج الملازم
الاول كوكيل الى برج القيادة . وقاطعه :

- اطلعتي على برقية الاميرال سابيلين .
- مع الاسف . بقيت في البيت . يا رفيق . الان استطيع ان
اجلبيها . . .

عندئذ قال كوكيل بصوت عال ممددا الكلمات لتكون سموعة :
- ليعتد الزورق مائة متر عن مينة السفينة . لا تقترب
اكثر . . .

صاح الصوت من الزورق بلهجة وثقة :
- المعتلدة . يا رفيق . اذا ات لا تريد ان تسمع امر المركز .
خاطبك بذلك .

- في حالة الامتناع منافق الزورق . ساصعدك الى السفينة .
ولن اكون مسؤولا عن تصرف البحارة .

لم يرد من الزورق على ذلك . ثم جذفت المجاذيف بعذو . وبقيت معالم الزورق في الظلام . وضحت البحارة . وضع القائد يديه وراء ظهره . وراح يذوق برح القيادة محدوديا تحيلا . حائسا كانه في قفص .

في تلك الليلة لم يتم الا القليلون . استلقوا على ظهر السفينة مبللة بالنقى . وبين الحين والآخر كان راس يرتفع ويتفوه بكلمة ، وطار النوم من العيون . وجرى الحديث بأصوات خافتة . وسجبت النجوم . وارتفع الفجر من وراء التلال . وجاء من الساحل ضابط الصف البحري اينسكي قائله «الليتنانت شيبستاكوف» وأعلن ان البحارة يغادرون لا المدمرات ويواخر الجر والقوارب البخارية . بل والسفن التجارية ولم يبق اى بحار . وغير معروف كيف تسحب السفن الى البحاري الخارجيه .

قال قائد «كروتش» :

« يا ضابط الصف البحري اينسكي . ان المسؤولية تقع على عاتقنا . سنغرق السفن مهما كلف الامر .

هو ضابط الصف البحري اينسكي راسه . وراى صمت . ثم انصرف . وعندما انتشر الشروق فوق الخليج . ابتعدت «الليتنانت شيبستاكوف» ببطء عن المرسى ساحبية ورائها «كابتين باراتوف» . واخذت تجرحها الى البحري الخارجى . الى مكان الانقراض . ووقعت المدمرات اعلام الاشارة على الصواري :

«اهلك ولكن لا اسلم» .

وسرعان ما اغتشت وراء الضباب الصباح . وابتدت السفن كلها الآن خاوية . وكانت طيور النورس تطير فوق العملاقة «سفورودنايا ووسيا» الفولاذية . وارسلت «كروتش» دغاها . ورغم الساعة المبكرة من الصباح هرع الناس الى الساحل . وراح حائل الامواج ينقاط سود كالدباب . وبدأ تزامم بالقرب من السفن . وصعد واحد فوق كتف الآخر . وسقطوا في الماء .

وكان سيبون كراسيلنيكوف واقفا في الحراسة على معبر السفينة . وبعد الساعة الخامسة خرج من الجمع رجل قصير القامة محمر من الانفعال في سترة سوداء بحرية بلا كتابات وضرب سنام السفينة الاعلى بكعبيه . وكان وجهه المحمر عرقا يفنه الصغير الملتوى .

نادى على سيبون مقلحا عينيه الزرقاوين العرشين المدورتين في البحار الذي سد عليه الطريق بحرية :

« على الملازم الاول كروكيل موجود ؟

وتلمس جنبه وصدره . واخرج وقدم تقريبا يعمل اسم مملك السلطنة السوفييتية المركزية الرقيق شاكوف . انزل البحار الحرية مداهم السحنة :

« فضل . يا رفيق شاكوف .

خف كروكيل للقلادة . واخذ يحدثه عن الوضع الميئوس تقريبا . وقد تكلم بالتفصيل وعن سهل . وكان شاكوف يقفب عينيه ينقاد صبر :

« بسيطة . واما في اصعب من ذلك . . . لقد تحدثت الى البحارة . ان معنويتهم عالية . . . ساحصل لكم على باخرة الجر . ولكن ما هو ضرورى . . . وتنظم اجتماعا . . . وتعتبر الامر كاحسن ما يمكن . . .

وطلب قاربا بخاريا . وذهب به الى «سفورودنايا ووسيا» . ومن هناك اشد يتشلل به من سفينة الى اخرى . وقد رأى سيبون جنسه القصير يتدل من سلامات اليواخر التجارية . ثم رآه يتزل الى البر . ويقبض في الزحام . حيث ارتفعت صيحات . وارتفعت ايد . وفي احد الاماكن ارتفعت آلاف العناجر و«هورا» .

عادوا الزصيف بضعة قوارب محملة بالبحارة . وتوغلت في العرقا الى باخرة صغيرة مسدلة . وسرعان ما خرج من مدخلها دخان كثيف . ووقفت مرساتها . واتجهت نحو «سفورودنايا ووسيا» . ولحج شرع في قارب . استدارت «الليتنانت شيبستاكوف» وسجبت المسطرة الثانية .

في نحو الساعة العاشرة لادهم الجيود عند معبر «كروتش» . وبدأ المزاج يتقلب الى اسوأ . شق بعض الأشخاص المهلهل الشباب طريقهم الى حاجز المدعرة . وكان لدى كل واحد سجق وخيزر وشحم خنزير . كسروا عن اسنانهم . وغمزوا للبحارة «مظهرين زجايات من الكحول . عتة ذلك امر كروكيل برفح المعبر . والانلاع . ابتعدت «كروتش» عن تلك المغريات اللعينة الى وسط العرقا . ومن هناك راقبت سحب المدمرات .

وأخيراً استطاعت الباقية الصندنة التي يدت كالثقوبة الفارغمة أن تسحب «سفوبودنايا روسيا» لاهثة نائمة الدخان ، فمرت بعظمة بألاف المشاهدين ، وخلق الكثيرون أعظيمة رؤوسهم ، وكانهم يتبعون جنازة . ومرت «سفوبودنايا روسيا» بالطراقات والبوابه والبرقا ، وتوقفت في اعناق المجري الخارجى - وكان الناس يتولعون الطائرات الألمانية مرة أخرى إلا أن السماء والبحر كانا هادئين ، ولم تبق في البرقا إلا المدمرة «فيدوتيسى» .

وبدا الاضطراب في الحشد من جديد ، وتجمعت نقاط الرؤوس السوداء على الرصيف الذى ترسو فيه «فيدوتيسى» . تقدمت منها قارب بحرك وشراع ليحسها ، فلف الجمهور القارب بالحجارة ، وانطلقت عدة طلقات من مسنن - صاح رجل اتسبه الرأس بعد أن صعد على عمود كهربائى :

- يا قاتلى اخوتكم ، ختمت روسيا ... ختمت الجيش ... يا لغواى ! . . . ماذا تنتظرون ؟ . . . يبيعون آخر اسطول ... -
وصاح الحشد فالعين الحجارة - فلف بعض الأشخاص من فوق حاجز «فيدوتيسى» . عندئذ تقدمت «كيرتش» من السائل مسرعة ، ودق جرسها دقة التحذير للقتال ، واستدردت المدافع نحو الجمهور ، وصاح قائدها فى المكرفون :

-الى الورا ! اساطيل النار !
ترابع الجمهور تاركها باعقابه ، وتصايح الذين دبسوا ، وتعالى غبار ، واقفر المساطل ، اسرع القارب الى الرصيف ، وسحب «فيدوتيسى» .

تبعها «كيرتش» ببنت ، الى حيث كانت جميع السفن تتراجع على الجزى الخارجى تاريخا خفيفا . نظر سيميون الى طيور النورس المحلقة عاليا فوق الجزى ، الخلفى من السفينة ، ثم أخذ ينظر الى قائد السفينة الذى كان يسك ذرايزين برح القيادة بكلتا يديه .

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر ، دارت «كيرتش» حول الجانب الايمن من «فيدوتيسى» ونطق القبطان بكلمة واحدة فقط . فانطلق طوربيد من جهاز الاطلاق كظل اسود ، وانشق غط مزيت عن سطح الماء الموج قليلا واصاب جسم «فيدوتيسى» من الوسط تماما . فارتفع ، وتحطم الى نصفين . وطلأير جبل اشعث

من الماء والزبد من اعناق البحر . وسرت فرقعة بعيدا فى البحر .
وحين سقط جبل الماء لم تعد «فيدوتيسى» على سطح الماء . لا تسمى
غير الزبد . وهكذا بدأ الاغراق .

فتشت فرق النسف صامسات كينجستون والمتزلقات فى المدمرات ، وخلصوا كل كوى الاضواء فى الطبقة السفلى . وقبل ان يغادروا السفينة المارة الى القارب احرقوا قنبل المارتعة لينسلوا بعيدة من عشرة ارباط الطوربينات والسلمترات . امتفت المدمرات سريعا تحت الماء العميق - وبعد خمس وعشرين دقيقة كان المجري الخارجى خاليا .

تقدمت «كيرتش» بانفسى سرعتها نحو «سفوبودنايا روسيا» واطلقت الطوربينات . رفع البحارة قبعاتهم بيده . اسباب الطوربيد الاول مؤخرة السفينة . وتونعت المدمرة مغفورة بسيلون الماء . وسقط الثاني على الجانب ، فى الوسط . ومن خلال سحابة الزبد والدخان كان الصارى «برى متارجا» كافعت المدمرة ، كالكائن الحى ، اكثر عظمة وسط البحر التار والانفجارات الهادئة . ونزلت المدومع من عمود البحارة ، ولغى سيميون وجهه بكفيه . . .

وجف جسم القائد كوكيل كده فى تلك اللحظات . ولم يبق ذا غير انه الكبر . متجها نحو السفينة الهالكة . وانفجر الطوربيد الأخير ، واتعلبت «سفوبودنايا روسيا» على الكبل . . . وقامت بجهد آخر . وكانت ترتفع عن الماء ، وغاصت سريعا الى القاع فى دوامة من الزبد .

غادرت «كيرتش» مكان الهلاك الى توابيسه بانفسى سرعتها . وقتها الصباح الزلل بحارتها الى زوارق . وبعد ذلك ارسلت «كيرتش» هذه البرقية :

«الى الجميع ، . . . انا حائلة بعنه ان افرقت جزءا من سفن اسطول البحر الاسود التي اعتبرت هلاكها انتهى من عاد الاستسلام الى ألمانيا . المدمرة «كيرتش» .

فتحت المدمرة صامسات كينجستون ، ودمرت المحركات ، وفرفت على عمق خمس عشرة فامة .

تساور سيميون كراميلينيكوف مع رفائه على السائل : الى اين الترجحه الآن ؟ وعرضت الفترحات . والتفقا على الذهاب الى

استراخان ، الى الفولغا ، حيث قيل ان شاحوق بشكل اسطولا اهربا
حريرا لمحاربة البيض .

كان جيش تامان تحت قيادة كوجوخ يعاول شق طريقه البلطوي
الى اعلى كوبان سالكا الدروب الجبلية او بلا حرب ملاحقا من قبل
العدو ، معاندا بالقرى القوزاقية المنتشرة .

كان الطريق يمتد عبر توفوروسيسيك التي احتلها الالمان بعد
الحراق الاسطول . وصلت طواير تامان بصورة مفاجئة ، ومرت
القوات خلال المدينة متسلقة الاناضيد ، ولم يفهم الالمان نيتها ،
فانطلقوا الى السفن ، واطلقوا القذائف من المدافع البحرية على
الطابور الاعير ، وعلى القوزاق السكارى المحضين الذين كانوا في
العقارب .

وللمحيلة انسحب الالمان من المدينة ، وبعد ان شق كوجوخ
طريقه معارضا وغادرها ، احتلها القوزاق ومن بعدهم قوات البيض
التظامية . تعرضت المدينة للنهب التام .

وشنق البحارة والجنود الحمر ، واهل المدينة المعدمون على
امسدة للتلغراف دون محاكمة . وحمل العوزية ثلاثة آلاف جثة في تلك
الايام الى البحر . واضعت توفوروسيسيك ميثاق للبيض .

بلغ جيش تامان نوايسه سالكا الساحل الذي تطلت فيه
الجاعة ساحيا وراءه قوافل خمسة عشر الف من اللاجئين . ومن تلك
المدينة اتجه صوب الشرق . وتعبه رجال ديكين . وكانت جميع
الممرات الجبلية والممرات الى الامام يحتلها المنتفضون . وكانت
في كل يوم معركة ضارية . ولكن الجيش سار مريفا دعاء متناقضا
بالتناوشات والموت يوجعا ، نازلا الى الوادي . صاعدسا الممرات
الجبلية والتلال الشديدة الارتفاع . متضائلا ، شاقا طريقه .

وذات يوم جنبا الى كوجوخ جنبا احمر اسرا اطلق سراحه
الجنرال بوكورولسكي ومعه وسالة كتبت بصراحة عسكرية :

«انت ، ايها الوضع ، دستت جميع ضباط الجيش والاسطول
الروسي لانك قررت الانضمام الى صفوف البلاشفة والصوص
والسمايك . كل على علم بان النهاية آتية لك ولجميع صعايك .
امسكتك ، ايها الوضع بايد هوية . ولن تتركك ههنا كان . فاذا
لردت الوافه ، اي ان ينتهي الامر بارسالك الى سرايا الحكوميين ،

فانا آمرك بتنفيذ امرى التالي : اتق جميع سلاحك اليوم ، وسر
بالعصابة المنزوعة السلاح الى مسافة اربعة او خمسة فراسخ
غرب محطة بيلوريتشيسكايا . وحتى ينط ذلك ايلغني فوراً في
كشت السكة الحديدية الرابع . . .»

كان كوجوخ ، وهو يقرأ الرسالة ، يشرب الشاي من عبية
مفلح من المعليات ، ونظر الى الجندي الاحمر العالي ذي القميص
غير المعزم ، الواقف امامه وايضا . وقال له :

«قل انت ، يا اخ . كيف تسلم لي مثل هذه الرسائل ؟
اذهب الى وحدتك . . .»

في تلك الليلة وجه كوجوخ للجنرال بوكورولسكي ضربة
شديدة . اكتسبه وطارده بالقبالة ، وانضم بيلوريتشيسكايا
وخرج من الحصار . وفي نهاية ايلول وصل جيش تامان بالقرب من
ارماير التي كان يحتلها الديكيون ، واستولى عليها بهجوم عاصف ،
والتقى بفلول جيش سوروكين في قرية نيلينويسكايا .

كان سوروكين ، بعد ان فقد تائبه في الجيش بعد اندحاره
عند فيسيلكي وكاتريودار ، وصحا من سكرة المجد العسكري ،
واحتفته الاخفاقات . يترامح اكثر فاكتر نحو الشرق ، دائرا ككتفة
في دوامة ما كان يسمى قبل حين قرنا الوية والوجا . والان اضحت
هذه جبايات تهرب عند الطلقات الاولى من العدو . وكان الجنود
يمرون كل شيء في طريق تراجهم . وكانت تسلمهم فكرة واحدة
هي ان يتخلصوا من الموت المسلط فوق رؤوسهم ، والهروب الى
لبي مكان . وكانت اعداد هائلة من الجنود الدارين يعربون سهوب
تيريك ، على الطريق القديم للشعوب الذي تعالت فيه الروابي
المنعطفة بالاقستين .

خرج بعد معركة يكاتريودار زهاء مائتي الف من القوات
واللاجئين . والذين بقوا قتلوا وشنقوا . وعذبوا من قبل القوزاق .
وفي كل قرية قوزالية كانت العجت تمدل من انحصار الحوز الهمزية .
وصاروا ينتقمون من البحر الان بلا رافة ، غير خالقين من عودتهم .
وفي اعزاء الاقليم كلفه كانوا يسبون بالنار مجرد اسم البلاشفة .
كان سوروكين وليد الشورة . وكان يقسم بفرسزة الحيوان
ارتفاعاتها وهبوطاتها . ولم يوجه التراجع . فقد كان ذلك عيشا .

فان العلوية نفسها كانت تسعى نحو الشرق ، وتتوقف حين يضعف
اصراع البيض على المطاردة ،

ولم يبق له الا ان ينظر بوحشة في نافذة عربة القطار الزاحفة
في السهوب اللافحة ، خلال رواهي لشعوب البلاغين والسيلت
والتوتونيين والسلاف والخزر القدامى . . . وكان حرس خاص يحرس
قطاره لان الذين كانوا يبرون به كانوا يفتنون :

- يا اخوان ، الامراء ، خاتونا ، وياعونا ليشرقوا بيننا ، اقتلوا
امراء وحدانكم ، مثلنا قتلنا امراء وحداننا .

وكان رئيس الاركان بيلياكوف ياتي الى المقصورة ويتحسر ،
ويبدأ يقول بعض كلمات غامضة عن استعانة الاستمرار في القتال .
«لنفورة مراحلها - كان يكرر ذلك باستمرار ، مرورا كله على جبينه
المرضى - انقض النهوض الثوري ، والان تنف خدلسا القوى
العلوية . نحن لا نقاتل الضباط فقط ، بل الشعب كله . يجب انقاذ
مكاسب الثورة في الوقت المناسب . . . في الاقل بسلام مهادن . . .»
وكان يستشهد بامتعة مقلعة من التاريخ .

فكان سوروكين يكتبي بالرد على ذلك : «بكم تريد ان
تشرطي ، يا وعد !» لو وقع دينكين الآن في يده لكانه حيا . ولكن
الفيط اكثر ما يحنم في فليده عن رفاته اعضاء اللجنة التنفيذية
المركزية لمحجر الاسود الذين هربوا من يكاترينبورغ الى
بياتيفورسك . كانوا لا يعرفون سوى ان «يبتعدوا عن اجراءات تنكح
لزعات سوروكين الدكتاتورية . . .» لم ينفقوا الاوامر الملحة
وتدخلوا في كل شيء ، وانسلوا بصاحبهم ماركس الى قلب القائد
العام .

وظهرت زيتكا الشفراء مرة اخرى في عربة صالون سوروكين .
وذلك باصطام من بيلياكوف ، وكانت زيتكا ، كما كانت ، وردية
مفرية ، سوى ان صوتها قد جش بعض الشيء . . . وقد سرقت
بلوزاتها الحريرية وفتياتها في طابور العريبات . . . وصار سلوكها
مع القائد العام اكثر استقلالية من ذي قبل .

وفي الليل ، حين كانت تسدل الستار في الصالون ، وتستوى
على سوروكين نشوة السكر السجادية ، كانت زيتكا تعزف على
البلايكا قليلا ثم كانت تنشوه بنفس الهراء الذي يتلوه به

بيلياكوف : عن نهاية الثورة الوشيكية ، وعن سيرة تاييلسوف
اللامعة ، الذي استطاع ان يقسم جيرا من الاحباب يعقوبس الى
الامباطورية . وكانت عينا سوروكين تاهدان بالنعمان ، ويخلق
فليه دافعا الدم الحار الى دماغه مزوجا الى النصف بالكحول . . .
وكان يزع الساترة ، وينظر في النافذة ، في ظلام الليل ، حيث كانت
تتران في النماعات خياله المغموم .

وضغط ضغط البيض ، ونشبت الجيش الاحمر اخيرا بالضفة
اليسرى لكوبان الاعلى ، وتلتحق هناك . وفي تلك الاثناء عاد دميتري
شيلبيست قائد الفرقة العديدة مع سيارات لوزي من تسارتسين
عبر سهوب قوهيز . وقد جلب معه مائتي الف خرطوش وامر القوات
الفلماسية بالتحرك نحو الشمال لمساعدة تسارتسين التي يحاصرها
الجيش الابيض للامان كراسلوف .

رفض سوروكين تنفيذ الامر وقتضا فاشعا . وثار الافواج
الاوكرانية التي خرجت من القتال في ارض المهراب ، وانسحبت من
الجهة ، غير مكترثة باستمالات وتهديدات سوروكين . وشيلبيست
وحده ، من هواليد بولتافا ، استطاع ان يوقف جزءا من القوات . وقد
تحدث اليهم بتعقل وعلى مهل ، كعلاج للفلاحين ، وامتعهم وامتنح
نفسه . وراى الاوكرانيون انه ليس شخصا اعتادوا ، بل احد
كبارهم ، والماموه . وقادهم دميتري شيلبيست الى المعركة . فعضوا
طابورا قويا من الضباط قرب ليليتويفسكايا . وقد كرهه سوروكين
كرها شديدا من جراء ذلك .

عناء بالنصر ، وعينه قائدا الجزء من الجهة ، وفي نفس اليوم
اصدر امرا سريبا بتجريد وحدانته من السلاح ، ورمى شيلبيست
وجميع امراء وحدانته بالرصاص . عرف شيلبيست بهذا الامر السرى
فترك الجهة مع قرقانه العديدة التي اكملها بالاوكرانيين ، وصار
غير السهوب الملحية والرمال الوعشاء الى تسارتسين متقلدا امر
المجلس العسكري الثوري للجنس العاشر . فعدله اعتبره سوروكين
خارجا على القانون ، والزم كل جندي احمر باطلاق الرصاص عليه ،
وحظر على كل شخص ، مهما كان ، ان يجهز الفرقة العديدة بالعلم ،
الا ان شيلبيست خرج ، ولم ترتفع يد واحدة لاطلاق الرصاص عليه ،
وحين كان يعوزه العلف في الطريق كان يدخل القرية ، ويخلع لبعته ،

ويطلب ، والسوم في عيشه ، من لجنة القرية التنفيذية التبرع والتسوق والتعزير ، ويشرح بأنه ليس خائفا ، بل العائن طامع طريق الأبيض ، هو القائد العام سوروكين .

وسرعان ما وقعت خربة أخرى على غرور سوروكين ؛ فقد طلع كوجوخ من وراء الجبال ، بعد أن اعتبر هائكا ، واحتل ارمافير على الناس ، بعد أن القى البيض وراء كويان - وكان التامانيون يتفقدون أوامر سوروكين على مضطئ ، أو يهملونها تماما - وصار جيش تامان الذي تفرس في اصعب مسيرة العمود القرى في جيش سوروكين المهلهل واتخذ مواقع قوية في خط ارمافير - نيقونيسكايا - ستافروبول .

كان الفصل خريفا ، وجرت معارك ضارية دامية في سبيل الاستيلاء على مدينة ستافروبول الفنية - وكان جيش تامان يقاتل في المقدمة في كل مكان .

كما ظهرت للدينكيين موة جديدة - الصبح الأبيض شكورو السلاح النذل الذي تشكل عصابة من الأوباش .

نقل سوروكين مقر قيادته إلى بياتيفورسك ، ولم يعد يظهر في الجبهة ، وحلت الطسة جديدة ، ولقدت سلطة موسكو إلى اللقاس ، وقويت على مر الأيام ، وبدأ ذلك حين قررت لجنة الاقليم الحزبية تشكيل المجلس العسكري الثوري . ولم يعارض سوروكين موسكو ، واضطر إلى الخضوع ، ونائب المجلس العسكري الثوري من عناصر جديدة ، وانتقلت سلطة القائد العام إلى الهيئة العسكرية العليا . وادرك سوروكين ان حياته تحت الخطر ، فاخذ يكافح بجون .

كان في اجتماعات المجلس العسكري الثوري يجلس كثيرا صونا ؛ ومن يتكلم كان يصر على كل كلمة . وكان يفلح في الحصول على ما يريد ، لأن الدراجات المغلقة له كانت مشتركة في بياتيفورسك . وكانوا يخافونه ، وليس بدون سبب . وكان يبحث عن فرصة لإظهار سلطته ، وبجدها . أعلن مارتينوف قائد الطابور الثاني في جيش تامان في مؤثر القوات في ارمافير انه يرفض تنفيذ الاوامر العسكرية للقائد العام . عند ذلك طلب من المجلس العسكري الثوري ان يرسم مارتينوف ، وانقر بتسوية التوضي الشامة في الجيش .

وكان من المستحيل انقاذ مارتينوف ، فاستعفى إلى بياتيفورسك ، واعتزل ، ورسم بالرماس في الساحة امام النلا . وعبت العاضلة في افواج تامان ، وانسجوا على التار له .

شكلت هيئة اركان جديدة للقائد العام ، وابعده بييلياكوف كليبا ، ولم يدافع سوروكين عنه . سلم رئيس الاركان الامور والاموال وذهب إلى شقة صديقه السابق للاستيضاح . كان سوروكين يلوح بالحجرة واضعا يديه وراء ظهره . كان مصباح نلطي يشتعل على المنضدة ، حيث كان يوجد لتمام لم ينس ، وزيارة فودكا قد شرب منها قليلا . وكان جبل حاشوك الكثيف الاستحجاز يبدو وراء النافذة قاتنا في الضلج الجاف . . .

رغم سوروكين الداخل بنظرة حريصة ، وتابع سره . جلس بييلياكوف إلى المائدة ، ونكس رأسه ، توقف سوروكين أمامه ، وهز كتفه .

- هل تريد فودكا ؟ آخر قديم - ونهله بيعة ، وصب تعبين بسرعة ، ولكنه لم يشرب . وعاد يلوح بالحجرة . - انتهت حياتك ، يا اخ . . . وتضحى ان ترحل من هنا . . . لن ادافع عنك . . . لهذا ساقين لجنة للتدقيق في شؤونك . فهمت ؟ وبكل احتمال ستريمك . . .

وقع بييلياكوف وجهه اليه زماديا مهزولا ، ومرر كفه على جبينه ، وسقطت يده . وقال :

- انت تافه . . . انسان زهيد . من العمى اتنى فتحت لك كل قلبى . انت وفد . . . بينما اعتبرتك ايليون . . . قيلة ا . . .

تناول سوروكين قهقهه ، واضطكت استانه على زجاجة ، وشرب . وكشى واضعا يديه في جيبى سترته الجرسية . ثم توقف بيعة .

- لن يكون هناك تدقيق - فارحل إلى الشيطان . وإذا كنت لم اطلق الرصاص عليك الآن ، فاعلم ان ذلك من اجل خدمتك . . . وقد ذلك . فهمت ؟

انفتح منجرا لاستيعاب الهواء ، واؤزقت شفتاه ، وارعبف كياه كله كايها غيثه .

كان بييلياكوف يعرف سوروكين حق المعرفة - اخذ يتراجع نحو الباب لمجر ضايق يصره عنه ، وصلق الباب وزاه بسرعة . . .

وخرج من الباب الخلفي عبر الفناء ، واعتنى من بياتيفورسك في نفس الليلة :

ظل سوروكين يشرب الكأس تلو الأخرى ساعة بعد ساعة ، وفكر الليل يطوله ، ان صدقته السابق سمعه بتقطر من الأذراء ، الا ان السم كان قضيماً ، والعذابات لا تقاوم ...

غطى وجهه بيديه ، ان بيلياكوف على حق ، على حق ... كان في حزيران تاليفونين الطراز وإذا به يؤول الى اجتماعات في الهيئة العسكرية العليا ، والتطلع الدائم الى الحزبين في موسكو ... لم يغفل بيلياكوف كلمات من عنده ... فذلك ما يقوله الناس في الجيش ، في الحزب ، ودليكين ، أو ، دليكين ! وتذكر مقالة صغيرة في جريدة للبيضي في يكاترينودار - مقابلة صحفية مع دليكين ، وتلقت الذكرى الى الصالح نفسه بسببها : «طلعت ان امان اسدا ، ولكن تبين من الاسد كلب جبان ، يلبس فروة اسد ... وهذا ، على أية حال ، لا ينهشني ، فان سوروكين كان وما يزال ضابطاً توراتياً جاهلاً برتبة صغيرة» ، أو ، دليكين ! انظر ... وسيأتى وقت ... تندم فيه ، وعصر سوروكين يديه ، ويصرف باسئاله ، لو يتفلسف الى الجبهة ، وسوق الجيش كله ، ويقنع ، ويطارده ، وسحق الضباط يستأبك الخيول ، ويحرق القرى من الجبهات الأربع ، ويندفع الى يكاترينودار ... ويأمر بان يمثل دليكين امامه : ان يؤخذ من سريره يلباسه الداخلية ... «الست انت ، يا انتون ابقانوفيتش تدرت على الكتابة في الجريدة حول الضابط القوزاقي ذي الرتبة الصغيرة ؟ انه امامك ، صاحب المهابة ... الآن هل تقطع من ظهورك سيورا ، ام تجلدهم القف وخمسائة جلدة ؟»

وان سوروكين فلما عتبه عذبان الحلم الثقيل ... كان الواقع مطلقاً ، منها ، متقدراً مهيناً ... وكان يجب البت في الامر ، ان رئيس الاركان وصديقه القديم لمع له اليوم آخر خدمة ... تقدم سوروكين من النافذة ، حيث كانت نسمة خفيفة تحمل الهليف الجاف لنسبوب المغطاة بالافستين ، ولاح في السماء الكثبية شريط قرمزي فاقم لفتح الصباح الذي لم يسقط بعد ، ومرة أخرى ظهر جبل ماشوك الضخم اللبليقي ... وتيسم سوروكين بسملة هائلة ، شكرًا ، يا بيلياكوف ، على أية حال ... لا بأس ، ليذهب التردد والتخلخل الى

الشيطان ... وفي تلك الليلة قرر سوروكين ان «يقامر بأخر رصيده» .

بعد ايام قليلة ، وترددات طويلة صوت المجلس العسكري الثوري لجيش القفاس اطرا الى جانب القيام بهجوم ، نقلت قواعد المؤخرة الى سفياتوي كروست ، وتبركز الجيش في بيقنوميسكايا ، ومنها كان عليه ان يتحرك نحو ستافروبول واستراخان ليتصل بالجيش العاشر الذي كان يحارب بالقرب من تسارستين . وكانت هذه هي نفس الحلقة التي حملها ديمتري شيلبيست من تسارستين . وبعهد الى جيش تامان باحتلال ستافروبول ، وتحرك كل شيء : قواعد المؤخرة تحركت الى الشمال الشرقي ، والوحدات الاساسية نحو الشمال الغربي ، وشد المشردون السياسيون والدعاة اوتار اصواتهم وهم يرفعون معنوية الوحدات ، طارحين المعارك المثيرة . وخرج رؤساء الطوابير الى الجبهة ، وخلصت بياتيفورسك ، ولم يبق فيها غير الحكومة - اللجنة التنفيذية المركزية لجمهورية البحر الاسود وسوروكين ياركانه وحرصه . وفي مصحان الحركة لم يلاحظ احد ان الحكومة قد تركت لحسن نية القائد العام ،

وفي مساء ، اتاه عودة سوروكين الى داره بصحبة مرافقه اطلق العنان لخصانه ، وانعطف من متزعة المدينة نحو الجبل ، وصدم بخصانه رجلاً مكور الكتفين عريض الكتفين في سترحة جلدية - ترنم الرجل ، وامسك بوركه حيث كان يتدل سمس . غضن سوروكين حاميته يحنق ، وعرف انه فيمزا . وكان يجب ان يكون في الجبهة ... ازل لخميراً يده من لفاق سمسسه - وبدت غريبة نظراً عينيه تصف المختلطين تحت الحجابين ... مثل نظيرة بيلياكوف في آخر حديث ... وقبلة لاح صف اسنان ابيض ضيق على وجه فيمزا العليقن السوداء مثل اعل العفاه ، وجب قلب سوروكين ، وهذا ايضا يضحك !

لكر سوروكين خصانه يساقبه بقوة حتى اطلق الحصان ناخراً واندفع به على العجارة المرنة الى الاعلى وسط طمطمع من الانتماء عائد من السرمي نالغيا مؤرجع الالية ناخرا والعتة في الجير ، كان ذلك في كيفية الثالث عشر من تشرين الأول - استمدع سوروكين رئيس حرسه ، فمس هذا ، وهو ينظر في النافذة ، ان فيمزا بالفعل قد

ووصل اليوم الى بياتيفورسك ، وطلب من اللجنة التنفيذية المركزية استعفاء سريتين من الجبهة للحراسة . . . «حق الاضيق بهم» ايها الرفيق سوروبكين ، عندما سننتقد هذه الاجراءات . . .»

وبينما كانت تجوسم الشريف تتساقط بكل يها لها فوق بياتيفورسك الهاجمة الفاتحة ، وفوق جبل ماستوك دخل حرس سوروبكين يهدو ، وبلا جلية الى شقة روبين وليس اللجنة التنفيذية المركزية وتشتكي فلأسوق ودونايفسكي العضوين فيها ، والى شقة كرايتس عضو المجلس العسكري الثوري ، وشقة روجانسكي رئيس اللجنة الاستثنائية ، والمخرجهم من استريم ، وطلعوهم بهم من المدينة والعرباب صوية الى ظهورهم ، الى ما وراء سدة السمكة العديدة ، وهناك رموزهم بالرضاض دون ان يقدموا لهم اية حجج .

وكان سوروبكين في ذلك الاثناء واقفا على منبسط حريته في محطة ليوستوفو . وقد سمع اللطقات -خمس ضربات في سكون الليل . ثم سمع اللامسا ثقيلة ، وانبل ونس الحرس لاعقا شقتيه . فسأله سوروبكين «الآن؟» فرد رئيس الحرس «قضى عليهم» وعهد اسما المفترقين .

تحرك القطار ، لان كان القائد العام يقف الى الجبهة على جناحين ، ولكن تبا الجريسة الشفاء طار اسرع منه . فان بعض الشيوعيين من اللجنة الاقليمية الذين حلزهم غيمزا في الامس خرجوا في سيارة من بياتيفورسك قبل سوروبكين وفي الثالث عشر من الشهر دعوا الى انعقاد مؤتمر يهودي في نيفينوميسكايا . وبينما كان سوروبكين ينظر امام وحدات جيشه مهيبا مثل عامل شرقي معاطا من الحرس والثاقفين بالايواق يعلنون قدومه ، وحامل راية القائد العام يدنو في المقدمة ، اعلن المؤتمر الجمهوري في نيفينوميسكايا بالاجماع ان سوروبكين خارج على القانون . وقرر اعتقاله فوراً ، وجلبه الى قرية ليلينوميسكايا ، وتقديمه للمحاكمة .

اعلن رجال جيش تامان ذلك للقائد العام وقد فتحوا ابواب عرباتهم المنقطة . فاد سوروبكين الى المحلة ، وطلب استعفاء قادة الطوابير ، ولم يات احد . ومكث في المحطة حتى هبوط الظلام . لم امر بان يقدم الضمان له ، وعدا مع رئيس الحرس في السحب .

شاع اضطراب كبير في المجلس العسكري الثوري ، حيث لم يبق منه غير ثلاثة اعضاء . فان القائد العام قد اختفى في السهوب ، والجيش يتلا من ان يهاجم طالب بمعاقبته واعدامه . . . الا ان الالة المؤلفة من مائة وخمسين الف رجل طلت لدور ، وكان من المستحيل ايقاعها . . . وفي الثالث والعشرين من تشرين الاول بدأ هجوم جيش تامان على ستافروبول صاحبه هجوم مفسد قام به الجيش . وفي الثامن والعشرين اعلن جميع قادة الطوابير ان هناك تلصقا في القاذف والعتاد ، واذالم تجلب لهم في الغد فان التصريح لم يمسون . اجاب المجلس العسكري الثوري بان لا توجد قاذف ولا عتاد . فاحتلوا ستافروبول بالسلاح الابليس . . . وفي ليلة التاسع والعشرين عم طابوران صاهقان زحفا على قرية تاتارسكايا تحت حماية المدفعية التي كانت تصف بالقاذف الاخيرة . وكانت هذه القرية تبعد خمسة عشر فرسغا عن ستافروبول ، حيث كانت تمتد جبهة البيض . اطل على السهوب امر لحاسي كبير بمثابة اشارة لان الصواريخ لم تكن موجودة . . . وصنعت المدافع . . . سارت صفوف الثمانيين نحو خنادق العدو الامامية دون ان تطلق طلقة ، واندمجت فيها ، وفي الحال ارتفعت ايقاق الفرق الموسيقية ودعت الطويل . وسقطت موجات كثيفة من كلا الطابورين المهاجمين على خلد الاستحكام الرئيسي في انعام المومينيكي يتلا من الرصاص والقنايل اليدوية . سابقة للموسيقين ، متساقطة بالسات تحت نيران الرشاشات . تراجع البيض الى المدينة . ولاحقتهم وحدات القوزاق الحمراء . وفي ضبيعة الثلاثين من تشرين الاول دخل جيش تامان الى ستافروبول .

وفي اليوم التالي شوهد القائد العام سوروبكين في الشوارع الرئيسي بصحبة رئيس الحرس . كان يسير على جواده يهدو . الا ان كان صاحبه الوجه عطر العيدين . وحين رآه الجنود العمر فعروا الفرحهم ، وتراجعوا عنس قائلين : «من هذا الابليس من العالم الاخر ؟»

ترجل سوروبكين من فرسه فنه بينت السوفيت ، حيث علقت على الباب لافتة اصف مغلوحة كتب عليها : «مقر اركان الجنرال

شيكورو» ، وكان يجتمع في المبنى الثواب واعضاء اللجنة التنفيذية الذين بقوا احياء . وسعد السلم بجساره ، وسأل الجندي الذي جفل منه : « اين يتخذ الاجتماع » وظهر في القاعة عند طاولة الرئاسة ، ورفع رأسه بنشم ، وحاطب المجتمعين المندهشين الباحثين :

«انا القائد العام ، وقواتي حطمت عصابات دليكين ، ووقامت السلطة السوفييتية في المدينة وفي المنطقة . ان مؤتمرا عسكريا اعتادنا في نينغنيوميسكايا قد اعلمتني بوقاعة خارجا على القانون . فمن اعطاء الحق في ذلك ؟ انا اطالب بتعيين لجنة للتحقيق في جرائم الزعومة . ولن اتخل عن سلطة القائد العام قبل انتهاء اللجنة من التحقيق . . .»

ثم خرج ليتمشى جواده . الا ان سنته من جنود الفوج الثالث من جيش تامان هجموا عليه فجأة عند السلم ، ولروا فوائمه ، ووضعوها وراء ظهره .

كافح سوروكين بضراوة وصمت . ضربه امر الفوج فيسليتكور بغضضة سوطه على رأسه صارخا : «هذا جزء قتلك مارتينوف ، ايها السافل . . .»

واقب سوروكين الى السجن . وقلق رجال تامان خوفا من ان يهرب من السجن ، وان ينشل من المحاكمة بطريقة ما . وفي اليوم التالي ، حين جلب سوروكين للاستجواب رأى غيرا قاعدا على طاولة كرسي ، فادرك انه الميت . عند ذلك تفجر في نفسه مرة اخرى النشأ الى الحياة ، فضرب على الطاولة ، متفوحا بفاحش السباب :

« انا يجب ان احاكمكم ، يا قطاع الطرق ! خرق الانضباط ، الفرض ، ثورة معادية مخفية . . . سأنكل بكم ، كما نكلت بمارتينوف الوغد .»

كان فيسليتكور عضو المحكمة جالسا الى جانب ليموا ميبيضا كالورقة ، وقد وضع يده وراء ظهره ، وانجرح مستنسا اوتوماتيكا كبيرا ، وسدده نحو سوروكين مغرغا كل مشطه فيه . لم يتحقق التقدم اللاحق من ستافوربول الى الفولغا . فان خيانة شكورو الذموية قد نفذت الى المؤخرة ، وقطعت جيش تامان عن القاعدة ، عن غريسة نينغنيوميسكايا . وركز دليكين كل قواته

محاصرا ستافوربول . وجلبت من كوربان طراير كازانسكينش ودرورذوفسكي ويوكروفسكي ، وخيالة اولاغاي ، وفرقة كوربان الجديدة للخيالة التي كان يقودها مهندس التعدين السابق الذي بدأ الخدمة برتبة ضابط ضيق في الحرب العالمية ، وهو الآن الجنرال فرانكل .

وحارب جيش تامان ثمانية وعشرين يوما . وهلك الافواج لسوء الافواج في الطرق العديدة للعدو القتي بالسلح . وبيدت الامطار ، ولم تكن ثمة معاطف ولا اذنية طويلة ولا عتاد . ولا مكان يتوقع ان تأتي المساعدة منه . فان الجزء الباقي من جيش الفلاس ، المقطوع عن ستافوربول لد تراجع الى الشرق .

وترامى التامانيون من جبهة الى اخرى في الطرق . وكالت ضريانهم رهبة مريرة للدماء . وسقط القائد كوجوخ صريع الغصن التيلوليديية . وقتل وجرح احسن امراء وحدانه ، عن بكرة ايهم تقريبا . وفي اواسط تشرين الثاني استطاع التامانيون اشوا خرق الجبهة . ولم يبق من جيش تامان البتوط غير فلول حزيلة حافية عارية . غادرت ستافوربول وانسحبت باتجاه الشمال الشرقي ، الى بلاغوداتنويه . ولم تلاحق . فقد بدأت الامطار واوقف طلئس الغريف السى هجوم البيض اللاحق .

١٢

قبل عام ، في تشرين الاول طالبت الشعوب الساكنة في روسيا باتها ، العرب . وازدعت ملايين التوجهات والصرخات بسقوط العرب ، وسقوط البرجوازية التي تطيل للحرب ، وسقوط الفئة العسكرية التي تخوض العرب . وسقوط اصحاب الامليات الذين يفلدون العرب - والدمج هذه التوجهات والصرخات في طلقة مؤثرة اصغرة وجهها الطراد «الفرور» على القصر الشتوي .

من كان يقدر ان يتشأ بان هذه الطلقة التي غرقت السفن الزين بالتسائل الرصاصية والمزهرجات السوداء لذلك البيت الكريه ، نقلت الى المدوخ القيصري الفارغ بسيريره الذي لم يبرد بعد ، الذي كان كيرتسكي يتقلب عليه صارغا الارق الهستوي ، من كان يقدر ان يتشأ ان هذه الضربة التي بست ختامية ، صوت

الثورة الذي يعلن الحرب على التصور ، والسلام للإكوخ ، مستجوب البلاد الشاسعة كلها من طرف إلى آخر منداحة كالصدى ، مشتتة ، متعاطفة ، مثلامية ، ولتفجير كالمصاعقة .

من كان يتوقع أن البلاد التي أقت السلاح من رعاها ، ستعود لترفعه من جديد ، وترتفع طبقة على طبقة : القعير على الغنى . . . من كان يتوقع أن يبتلق من حفنة شباب كوريلوفو جيش ديتكين الهائل . وأن تترد تطارات التشكسوسلواقيين سيضمحل بالعرب الق قرسخ في جوش الفولغا ، وينتقل إلى سيبيريا ، ويتنام إلى ملكية كولتشاك . وأن حصارا سيطبق على البلاد السوفييتية بشرق خاقق . وأن سدس العالم على الخرائط الجغرافية المطبوعة من جديد ، على الكرات الأرضية في كل بلدان العالم سيوسم كمكان فارغ - غير ملئون - بلا اسم ومعلم يغط أسود عريض ؟ .

من كان يتوقع أن روسيا العظيمة المقطوعة عن البحار ، وعن معاذلات العبوب ، وعن الفحم والنفط ، روسيا الجائمة البائسة التي اجتاحتها حمى التيفويد لا تغلب ، تستصك على استنامها ، وترسل إبانها مرة بعد أخرى إلى المعارك الرهيبة . . . قبل عام كان الناس يبرون من الحياة ، ويبتد البلاد وكأنها تتحول إلى مستنقع فوضوي لا شكل له . ولكن ذلك لم يكن صحيحا . فقد ظهرت في البلاد قوى التماسك الجبارة ، وطلح قوى صفائر الحياة حلم العدالة . وظهر الناس خارقون لم يكن لهم مثيل من قبل ، وجرى الحدث في كل مكان عن العالم بنهضة وفزع .

وهزت الفتن البلاد السوفييتية من الداخل . في وقت واحد مع الانتفاضة في ياروسلافل (التي انتشرت في موزوم وارزاماس وروستوف فيليكس وريستك) تسرد في موسكو «الاشتراكيون الثوريون اليساريون» . وفي السادس من تموز ذهب اثنان منهم إلى السفير الألماني الكونت ميرياخ وهمس حوية عليها توقيع من وود لدرجيسكي . وثناء الحدث أطلقا الرصاص على السفير ، وقذفا قنبلة . وقد قتلت السفير الرصاصية الأشيرة التي أصابت قلبه حين حرب من الحجارة . وفي مساء ذلك اليوم طفق بحجارة وجنود حمر مسلحون في منطقة شمسيته برودي وبولفار ياروزه ، وراحوا يولفون السيارات والسمايلة ، ويفشونهم ، ويأخذون السلاح والثورة .

ويستولونهم إلى دار موروزوف في شارع جابلي تريوشيفاليتسكي حيث يوجد مقر قائد قوات الانتفاضة . وفي تلك النار وقع فيليكس دوجينسكي نفسه وعن الاعتقال ، وكان قد جاء إليها بعثا عن فاني ميرياخ . وطلت الاعتقالات تجرى النساء كافة جزءا من الليل ، واحتلت دائرة التلغراف . إلا أنه لم يكن يجرأون على القيام بأعمال ماسحة ضد الكرملين . وكان المنتفضون حوالى الفين ، وقد أقاموا جبهة من لهر ياروزه إلى شمسيته برودي .

وحضت الكرملين في تلك الليلة المتفجرات والأسوار القديمة . وكانت القوات مرابطة في معسكرات في حقل خاديسكوية . وكان جزءا منها في اجازة بمناسبة عيد المغان كرهالا - وصار الجرد داخل الكرملين عصبيا ، وقبيل الصباح تمكن سبع زعاه تامانلة من المغالطين ، وثلاث بطاريات ومدفعات ، وفي الساعة السابعة صباحا قامت القوات بهجوم ، ودمرت بالمفاسح دار موروزوف ، مقر الانتفاضة . وحصل الكثير من السجج ، والقليل من الضحايا ، وقد حرب «جيش» الاشتراكيين - الثوريين اليساريين عن طريق التسوارح الفرعية والأفنية الخلفية بآجاء غير معروف - وأختلى من موسكو قائده بوبوك ، الشاب ذو الصفتين القاطنين والعيشين السخولتين . وبعد عام طفر عند ماعغو كركليس للاستخبارات ، واشتهر بالقوة المرفعة .

وقضى على العصيان في موسكو وعلى الفولغا . إلا أن العصيان كان يترغ في كل مكان : تسرد ضد البلاشفة ، وضد الألمان ، وضد البيض . قامت القرى على المدن ولهبها . وطلوحت المدن بالسلمة السوفييتية ، وبدأ عهد الجمهوريات المستقلة ، وكانت تنهض وتتلجر مثل النطر ، وكان بعضها صغيرا يمكن أن تقطعه على فرس ما بين فجر وفجر .

وبذلت السلطة السوفييتية قصارى جهدها لتدريج الثورة . وفي تلك الأونة وجهت إليها خربة قنبلة : على الثلاثين من آب ، وبعد اجتماع عقد في مصنع ميخلسون اطلقت الاشتراكية الثورية السيئة كايان النار على لينين ، وجرحته جرحا بليغا . (وكانت من منطقة الرجل ذي الدبوس - الجديمة) .

وفي العادي والثلاثين ظهرت في شوارع موسكو فضيحة من الذين يرتدون الجلد الأسود من رأسهم حتى القدم ، وصارت في ظهور وسط الشارع حاملة معها آيات على عودين كتب عليها كلمة واحدة : «الأرهاب» . . . وفلت الاحتفالات العامة منعقدة في صناعات موسكو وبتروغراد ليلًا ونهارًا . وطالب العصاة بآثار الإجراءات حزمًا .

وفي الخامس من ايلول شهرت صحف موسكو وبتروغراد بتعاون مشؤوم :

الأرهاب الأحمر

« . . . يطلب من جميع السوفييتات على الفور اعتقال الاشتراكيين - الثوريين البينيين ، وممثل البرجوازية الكبيرة والضباط ، واعتبارهم رهائن . . . وعنه محاولة الهرب أو القيام بالتمنصه للجوء فوراً الى اعدائهم الجماعى بدون قيد او شرط . . . فان حاجتسا تدعو الى تامين مؤخرتسا فوراً والى ايجاد من الأوغاد البيض . . . لا يجوز اى تأخير في القيام بالأرهاب على نطاق جاعى . . »

في تلك الايام كان يجزى تغير في الكهرباء في المدن ، وكانت احياء كاملة بلا نور ، وكان سكان الشقق المورسة ينظرون بملح الى الشعرات الضاربة الى العمرة الأخلدة بالتوضج في مصابيحهم الكهربائية . . . وكانت فصائل العمال المسلحة تشمل الى هذه البيوت المضامة اعداءه احتضار . . .

واتفضى عام ١٩١٨ متدفعا كاتروعة الوحشية فوق روسيا - وكان الماء دافئاً في سحب الخريف الجمية . وكانت الجبهة في كل مكان الى الشمال الاقصى . وفي اللولغا قرب قازان وفي حوض اللولغا الاسفل قرب تسارستين . وفي شمال الفلكاس . وعلى حدود المناطق المحتلة من بلل ألمانيا . وللألفى الفراسخ كانت الخنادق تمتد وتمتد . ولم يسفل الخريف الزائف الفرحه على قلوب المقاتلين ، وكثيرون فكروا ، وهم ينظرون الى السحب الآتية من الضمام ، يفراهم ، حيث كانت الريح تطلع الفس من السطوح ، والقراص ينمو في الألفية ، وتتلعن البطاطس في حدائق المضروات . وما من نهاية أخرى للحرب .

والمستقبل حافل بالليالي الدامسة وعهد الاطباء القديم يسمى البيوت التي ينتظر أهلها عودة الآباء والأبناء وما من عودة ، وسبعون روايات عن أمور رهيبة تجعل الأطفال يكون وهم على الرقوق فوق الموائد .

بعد التقضاء على التمردات . وكرد على الوهن الخريفى جذت اللجنة المركزية أصلب الشيوعيين في موسكو وبتروغراد وبغالوفو - فوزنسيسك ، وأرسلتهم الى الجيش . واتجهت قطارات الشيوعيين الى الجبهات محملة في طريقها تخريبات الطرق العديدة المتعمدة وغير المتعمدة . ولفظ الأرهاب الصارم الى الجيش . وتكونت من الفصائل الممزقة الفواج تخضع لإرادة واحدة من ارفادة المجلس العسكري الثورى . وصارت الشجاعة والبسالة الزاماً لكل واحد . واعتبر الجنى صنو الخيانة ، وتولعت الجبهة الحمراء الى الهجوم . واستولى بضربة قسيرة على قازان . ومن بعدها سامارا . وهربت فصائل البيض مذعورة امام الأرهاب الأحمر . وبالقرب من تسارستين ، حيث كان ستالين عضو اللجنة العسكرية الثورية للجيش العائس حدثت معركة هائلة دامية ضد جيش القوزاق البيض للاتمان كراسوف الذى كانت القيادة العامة الألمانية تتولاه وتعرضه . . .

ولكن كل ذلك لم يكن الا بداية لكفاح عظيم واستمراماً للقوى

قربل الأحداث الرئيسية لعام ١٩١٩ .

اوى ايفان ايليتش تلغيفين الجمية التي اوكلها له غيمزا . وعين إثناء المعارك قرب قازان أمراً للوج . وكان من أوائل الذين شقوا طريقهم الى سامارا . وفي يوم خريفى حار سار على حصان هزيل اشتمت على رأس فرجة في شارع ذقوروايناسكاي . ومر بالساحة التي فيها نصب الكسندو الثانى الذى كانوا يفغونه على تجبل مرة أخرى بالألواح الخشبية . . . وحدها هو البيت الثانى بعد المنعطف . . . وحطى ايفان ايليتش رأسه ، فقد كان يعرف ماذا سيرو . ومع ذلك فقد عصرت الوحشة قلبه . كان زجاج نوافذ شقة الدكتور بولافين في الطابق الثانى محطماً كله . وكان يرى جيداً من على صهوة حصانه الباب من خشب الجز ، الذى ظهرت منه دانتسا حينذاك . وكان ذلك في حلم . ولوحة المكتب . ودولاب الكتب المقلوب ، وصورة مندلينيف العلفقة على الجدار بالخراف وقد تهشم زجاجها . . . أين دانتسا ؟ ماذا حصل لها ؟ لا أحد . بالطبع ، كان يستطيع ان يجيب عن ذلك .

الكتاب تولستوى

منتدى مكتبة الإسكندرية

درب الآلام

ثلاثية

الكتاب الثالث

صباح غائم



دار التقدّم

موسكو

المتساة (سلا)

А. Толстой

ХОЖДЕНИЕ ПО МУКАМ

Трилогия

Книга третья

ХМУРОЕ УТРО

На арабском языке

alexandra.ahlamontada.com

منتدى مكتبة الإسكندرية

ولعش منتصرين او لعنت امجادهم

• سقيا توسلاف

كان شخصان - رجل وامرأة - جالسين عند ناز موقدة. وريح باردة تهب على ظهريهما من منخفض في السهب، صافرة في سيقان القمح التي تساقطت حبات سنابلها منذ زمن بعيد. كانت المرأة تضع قدميها تحت تنورتها، حاشرة كفيها في كمي معطفها من القماش السميك. وكان لا يرى من تحت مندبليها الصوفي الناازل على عينيها غير أنفها المستقيم وشفتيها المزومتين بعناد.

لم تكن النار كبيرة، مجرد اقراص مجففة من الروث جمعها الرجل مؤخرًا من حول ابقار جاءت تشرب الماء من المنخفض. وكان اشتداد الريح يضايقهما.

- من الأرواح جدا الاستمتاع بجمال الطبيعة تحت فرقة الحطب في موقد، ورائت تنظرين في النافذة ساهمة... يا الهي، ما اوحش السهب!

قال الرجل ذلك بصوت خافض وبارتياح خبيث. ادارت المرأة نحوه حنكها، الا ان شففتيها لم تنفرجا، ولم تجبه. كانت متعبة من السفر الطويل ومن الجوع، ومن افاضة هذا الرجل في الحديث، ونفاذه باتباه الى اعماق بواطن افكارها. دفعت رأسها الى الوراء قليلا، ونظرت، من تحت مندبليها المنزل، الى الغروب الخريفى الكابى من وراء التلال التي لاتكاد تلمحظ. ويمتد خطا نحيلًا لا يضى السهب الغالى المقفر.

* امير دولة كييف عرف بشجاعته الفائقة. (الناشر).

© الترجمة الى اللغة العربية - دار التقدم، ١٩٧٦

طبع في الاتحاد السوفييتى

70302-694
T 014(01)-76 594-75

وبينما كان كوزما كوزميتش يسير الى جنبها في الفجر
المخضوض ، حيث كانت تتسرب رائحة دخان موقد كان يناقش على
هذا النحو : « فضلا عن أنك فرعة فانت ، ابنتا الحستان ، تعيسة ،
كما يبدو لي . وأنا رغم التقلبات العديدة ، لم اعرف التعاسة قط
بل ولا حتى الضجر . . . كنت كاهنا ، ولكنني جردت من لباس
الكهنة لحيي للتفكير الحر ، وأودعت الدير . وها انسا اضرب في
الارض » كما يقول التعبير القديم . فاذا كان الانسان بحاجة ، لكي
يسعد نفسه ، الى فراش دافئ لا محالة ، والى مصباح هادي ، ورف
من الكتب وراء ظهره فانه لن يعرف ما تعنى السعادة . فانها
لمثل هؤلاء الناس الغد دائما ، ولكنهم في يوم ما لن يجدوا غدا ولا
سريرا . فلن يبقى لديهم سوى حسرة ابدية . . . ها انا اضرب في
السهب ، وانقى يشم رائحة خبز طازج . ومعنى ذلك ان في تلك
الناحية ضيعة . ثم سرعان ما نسمع نباح الكلاب . يا الهى ، ما
اروع الفجر ! والى جانبي رفيق سفر في هيئة ملاك يش وبشر شفقة
قلبي ، والرغبة في الانطلاق . فمن انا اذن ؟ انا اسعد انسان . في
جيبى كيس ملح دائما ، وفي حادق الخضروات توجد بطاطس
دائما . ثم ماذا ؟ عالم زاه تتصادم فيه العواطف . . . لقد فكرت
كثيرا جدا ، يا داريا دميتروفنا بمصير مثقفينا وينبغي ان اقول
لك ان هذا كله ليس شيئا روسيا . . . ولهذا ذرته الريح ، فاصبح
يبابا ، مع الاسف . . . اما انا ، الكاهن السخولوع ، فانال مبتغاي
من الصبوات ، وانوى ان استمر في ذلك زمنا طويلا . . . »

ولو لا هو لهلكت داشا . فلم يكن يخيب في حال من الاحوال .
عندما وصلا عند مطلع الشمس الى عربة فتانها الطلبنى محروق ، لقيهما
الغالى ، اسطيل خيولها فارغ ، وسقف فتانها الطلبنى محروق ، لقيهما
عند البئر قوزاكي اشيب حائق يحمل بندقيته . صاح وقد لمعت عيناه
الوضاءتان المجنونتان من تحت حاجبتين معقودتين : « انصرفا ! »
استطاع كوزما كوزميتش ان يضل هذا العجوز بغفلة قائملا « وجدت
من تصيح عليه ، يا جد . آه ، آه ، يا ارضي العزيزة ! نحن نجرى
ليلا ونهارا هاربين من الثورة ، وقد تقرحت اقدامنا ، وتشقق لساننا
من العطش . قاعلم معروفا ، واقتلنا ، فطريقنا مسدود ، على اية
حال » . وظهر ان العجوز لم يكن فظا ، بل دامع العينين . وقصد

- سنشوى البطاطس الآن ، يا داريا دميتروفنا ، فرحة
للقلب والجسد . . يا ربى ، ماذا كنت تفعلين لو لم اكن معك !
وانحنى ، وشرع يختار امتن اقراص الروث ، ويقلبها بين
يديه ، ويضعها بعناية على النار . جوف جزءا من الجمر ، وشرع يدفن
البطاطس فيه ، مخربجا اياها من جيوب معطفه العميقة . كان له
وجه محمر يرتسم عليه مكر شديد - بل وخبث - ذو انف لحيم
مفلطح في ارنبته ، ولحية مزيلة ، وشاربين نحيلين ، وشفتين
متمطقتين .

- انا افكر فيك ، يا داريا دميتروفنا . تنقصك الوحشية
وروح التشبث ، بينما حضارتك سطحية ، يا عزيزتى . . . انت
تفاحة محمرة حلوة ، ولكن غير ناضجة .

كان يقول ذلك ، وهو منشغل بالبطاطس التى سرقها من
حديقة خضروات ، اثناء مرورهما بعربة في السهب . وكان منخرا
انفه اللحيم اللامع من الحرارة يرتعشان بنهاة ومكر . كان هذا
الرجل يدعى كوزما كوزميتش نيفيدوف . وقد اضجر داشا ضجرا
شديدا بثروته وندسه للافكار .

وكانا قد تعرفا قبل بضعة ايام في قطار كان يسير بجداول
مواعيد غريب ، وخط سير عجيب ، ثم اخبره القوزاق البيض عن
الخط .

وقد بقيت العربة الاخيرة ، التى كانت داشا تسافر فيها ،
على السكة ، الا انها تعرضت لنار رشاشة فهرب كل من كان فيها
هائما في السهب ، فقد كان لامحالة من نهب المسافرين والتكتيل
بهم ، كما جرت العادة في ذلك الوقت .

وكان كوزما كوزميتش قد وضع بصره على داشا وهما في
العربة ، فقد اعجبته بشىء ما ، رغم انها لم تنجذب الى الاحاديث
الصريحة . والان ، وهما في السهب المغفر عند الفجر تشبثت هي
به . كان الرضع حرجا . فقد كانت الطلقات والصيحات تسمع من
المكان الذى انتقلت فيه العربات على المنحدر ثم شب لهب طرد ظلالات
داكنة من مجاميع الارقطيون القديمة واجمات الافستنتين اليايسة
التي مسها الجمد . فكيف كانت تجد طريقها في هذا السهب
الشاسع ؟

جند ابناءه في قبلىق ماموتوف ، وتركزت كنتاج العزبة الى القرية . ولم يفلح الارضى في تلك السنة . ومرّ البحر ، واخذوا الحصان لقصه التمتبة . ومرّ البيض وفعلوا الشيء نفسه مع الدواجن . فبقس وحده في عزبته ، وليس لديه غير قطعة مسن الخبز المخبوضر ، وبعض التبع المتبقى من السنة الماضية . . .

استراحا في بيته ، وفي الليل واصلا السبع متجهين صوب تسارستين التي كانت اسهل طريق للنفذ الى الجنوب . كانسا يسيران ليلا ، وبنامان نهارا وقالبا في اكرام الدريس المتخلصة من العام الماضي . وكان كوزما كوزيميتش يتعاشى الاماكن الاكلة . ذات مرة اطل من ثل على قرية قوزاقية تمتد بيوتها البيضاء غسل جانبي بركة طويلة ، فقال :

- ان تجمع من الناس في هذه الايام قد يكون خطرا ، لاسيما للذين لا يعرفون ماذا يريدون . ان ذلك غير مفهوم ومثير للريبة الا يعرف الفرد ماذا يريد . ان الانسان الروسي حار ، يا داريا دعيتروفتنا ، وعفروز ، ولا يحسن تقدير قواء . اعطيه مهمة - تبدو اكبر مسن طاقته ، ولكنها مهمة عظيمة - فستريه ينحن لك اجلا . . . ولكن حاول ان تنزل الى قرية فستريهيم بمطروفسك باسئلة . قصادا ستجيبهم ، ابنتا المثقلة ؟ بانك لم تستغري عن راي في موضوع واحد ؟ . . .

قالت داشا بخفوت :

- اسمع ، اتركني وشأني .

ورغم ممانعتها اعتزازا وكراهة فقد استطاع كوزما كوزيميتش ان يستقضى منها كل شيء . عن ابنيها الدكتور بولافين ، عن زوجها الامر الاحمر ايفان ايليتش تليفين ، عن شقيقها كاتيا «الفاطنة» الوديعة النبيلة» . وذات مرة استيقظت داشا في غسق صاف من نوم مزيج على القس ، وذهبت الى الجدول ، والمشملة ، ومشطت شعرها ، الذي تبعثر تحت المنديل الصوفى . ثم اكلت ، وانشرحت وقالت فجأة ومن تلقاء نفسها وبدون ان تسأل :

- . . . ساقول لك كيف حدث ذلك . . . لم استطع ان اعيش في بيت ابي اكثر من ذلك . . . انت تعتبرني طفيلية . ولكن دعني اتول لك ان رايي في نفس اسوا من رايك بكثير . . . ولكن

لا استطيع احتمال الشعور باننى مهانة وباننى اسوا من الجميع . . .
تلمنق كوزما كوزيميتش ، وقال :

- مفهوم .

قلصت داشا عينها على النار ، وقالت :

- لا . لم تفهم شيئا . . . ان زوجي جازف بحياته ليراني لحظة واحدة . انه انسان قوى الشخصية شجاع شديد العزيمة . . . اما انا . . . فهل تستحق مخلوقة مثل ان يجازف امرؤ بحياته حسن اجلها ؟ وبعد هذا الحادث ضربت راسي في افريز النافذة . وكهرت ابي . . . لانه المذنب في كل شيء . . . فأي رجل حقير تافه هو ! وعزمت على السفر الى يكاتربوسلاف ، والبحث عن اخي كاتيا . فقد كان في وسعها ان تفهمني وتساعدني . ان كاتياي هذه ذكية مرهفة كالوتر . لا تضحك ، ارجوك . فانا اريد ان افعل شيئا اعتياديا شريفا ضروريا . . . ولكن لا اعرف بم اهدا . اما ارجوك الا تترثي الان عن الثورة . . .

- لست عازما على الثورة ، يا ووحى . بل اصغى بانتباه واشعر بعمق .

- اترك هذا العطف . . . في ذلك الوقت كان الجيش الاحمر قد اقترب من سامارا . وهربت الحكومة - كان شيئا مفرقا . . . وطلب ابي بان اسافر معه . وجرى بيننا نقاش . واطهر كل واحد منا ما في قرارة نفسه . وارسل ابي في طلب الحراس : «ستشتين» ، يا عزيزتي ! وبالطبع ، لم يات احد . فقد هرب الجميع . وخرج ابي الى الشارع وليس معه غير محفظته للاوراق . اما انا فتهفت له من النافذة بأثر كلامي . . . لا يكره الانسان احدا كرمه لوالدها ! وبعد ذلك لفت راسي بالمنديل . وارتويت على الريبة انتعابا وبذلك انقطعت كل حياتي الماضية . . .

وهكذا سارا في السهوب مارين بالقرب التي اتارتها الحرب الاحلوية ، لا يكادان يلتقيان بالناس ، ولا يعرفان ان احدانا دعوية كانت تجري في تلك الاماكن : كان جيش الدون القوزاق العظيم المؤلف من خمسة وسبعين الف نفر قد عاد لمحاصرة تسارستين بعد اشفاقات آب .

قال كوزما كوزيميتش ، وهو يحفر في الرماذ ليخرج البطاطس :

- اذا كنت منهوكة ، يا داريا دعيتروفتنا يمكننا ان نستريح في هذه الليلة ، فليس بنا حاجة الى الاستعجال . لكننا اخترنا ماوى سينا . فان الريح الهابة من المنخفض لن تدعنا ننام . من الافضل ان نسير بهدوء تحت النجوم - ما ابداع العالم ! - ورفض وجهه الاحمر الماكر ، وكأنه يتأكد من ان كل شيء على ما يرام في مملكة السماء - ليست تلك معجزة من المعجزات ، يا حلوة ، ان يسير مخلوقان في الكون ، يتابعان بعض مدقق ، تعاقب الظاهر ، وكل ظاهرة ادهش من الاخرى ، يصلان الى استنتاجات لا تلزمهما بشيء ، يشبعان جوعهما وعطشهما ، ولا يكرهان ضميرهما عملي شيء . . . لا ، لا تستعجل ان تنتهي الرحلة بسرعة . واخرج كيس الملح من جيبه ، ورفض بطائفة على كفه وقلدها ناعفا على اصابعه ، وشطرها وتناول داشا شطرا .

- طالعك كمية هائلة من الكتب . وتلفت على ذهنسى بلا نظام . حررتنى الثورة من سجن الدير ، وقتفتنى الى الحياة بشكل خال من الرقة تماما . واعطاني رئيس ميليشيا متعلقة ساراتوف ، وهو رجل ذكي جدا بقيت محبوسا عنده اسبوعين ، بطاقة هوية كتبها بخط يده : المهنة : طيفلى ، التعليم : علم زائف ، العقيدة : بلا ميذا ، وهكذا ، يا داريا دعيتروفتنا ، عندما وجدت نفسى بلا شيء غير كيس ملح في الجيب ، حرا تماما ، ادرت معجزة الحياة . وبدأت المعارف غير المجدية التى تريك ذاكرتى لتبتد ، والكثير منها بدأ مفيدا ، حتى من حيث القيمة التبادلية . . . مثلا دراسة كلف الانسان او قراءة الكف . فانا مدين كثيرا لهذا العلم فى الحصول على احتياطي الدائم من الملح .

لم تستمع داشا اليه . ان سينا ما ، ربما هو صبير الريح الخفيف في احواد القمح ، كالحبث الشريد ، جعلها تود كثيرا لو تبكى ، فكانت تلوى عنقها دائما لتنتظر الى الغروب الموحش . استولى عليها اليأس من تلك الرحابة اللامتناهية التى كان عليها ان تلمعها بحثا عن ايمان ايليتش ، بحثا عن كاتيا ، بحثا عن سنين نفسها هي . ولعلها كانت ستجد في الزمن القديم لذة في اشفاقها على نفسها في عجزها هذا ، في ضناتها ، في ضياعها في السهب البارد . . . لا ، لا ! تناولت داشا قطعة البطاطس من كوزما كوزميتش وضغفتها

بالع اباها مع دعوها . . . وتذكرت كلمات من رسالة كاتيا التى تسلمتها في بتروغراد «الماضى مات ، انقض الى الابد ، يا داشا» . - والى جانب الانقطاع التام عن الحياة ، فان الاستعجال المدمم النفع ، الانشغال بالتوافه احدى نواقص متقينا ، ياداريا دعيتروفتنا . . . ألم تلاحظى مرة كيف يشى ذوو المهنة الحرة ؟ كيف يطالبيروا الارض بساقيه الرفيعتين في تغاد صبر ، وكأنه يسير على تار . . . الى اين ، ولماذا ؟

ان هذا الرجل المزعج كان لا يكف عن الكلام مظهرها نفسه . - لا ، يجب ان نواصل السير بالطبع . لنذهب . قالت داشا وشدت متديلبها الصوفى على رقبتها بكل قوتها . نظر كوزما كوزميتش اليها متقصيا ، وفي ذلك الحين لمعت ومضات في ظل المنخفض الدامس ، وترددت طلقات .

ما كادت الرصاصات الاول تطلق حتى ردت الحياة للسهب المقلب الذى تلاشى قوته خط من الغروب فى السحب البعيدة . لم تلحق داشا ان تقفز ، وهي تمسك بطرفى متديلبها . واصل كوزما كوزميتش الى اطفاء النار بقميحه ، الا ان الريح اشتدت ، فتطايرت الشرر . فاضاء فرسانا منطلقين . كانوا منحنيين على رقاب افراسهم يسيطرونها مبتعدين عن الطلقات من المنخفض .

ومر كل شيء مندقما ، وهذا . ولم يبق الا قلب داشا يخفق بجنون . اخذ صراخ يتقاطر من المنخفض ، وفي اللحظة التالية انزل من هناك رجال مسلحون . كانوا يتحركون بعذر ، منبسطين في السهب . التفت اتريم نحو النار ، وصاح بصوت قس متكسر «اي من اتما ؟» رفع كوزما كوزميتش يديه فوق راسه ناشرا اصابعه طمعا . تقدم شاب في معطف جندى . «ماذا تملآن هنا ؟» وادار وجهه ذى العاجبين الداكنين ، المتهيى لكل طارىء نحو الجالسين عند النار «جاسوسان ؟ من البيض ؟» ودفع كوزما كوزميتش بالخصم بتدقيته دون ان ينتظر جوابا : «هيا ، حدثنى ونحن سنأروون . . .»

- لسنا الا . . .
- ما هذه «لا» ! الا ترى اننا في معركة !
لم يحتج كوزما كوزميتش ، وتابع سيره مع داشا تعسبت

كان ايمان غورا منظرها على وجهه كبيرا طويلا وقع حالها خرفت الرضاة ذلبي ، بانسبا ذراعيه ، وكانه يحتضن الارض كلها ، لا يريد ان يعطيها للعدو حتى في موته .

اجتمع الرجال القدامى من فوج كاتشالين من الذين عرفوا ايمان غورا منذ ان كان جنديا اسمر ، ثم امر سرية ، اجتمعوا ليلا في الغراء ، وتساووزوا في دفن المفوض في مكان بارز مشهود ، على رابية عالية تطل على شاطئ مانيشس .

كانت الروايين في ذلك المكان كثيرة متناثرة ، ولكن هذه الرابية مرتفعة كالتل . ولعلها في الزمن القديم قد رفعت لعيمة الخان لترى من الاعلى الى مسافة بعيدة افعال الخيل العفيرة العديدة في السهب . وربما في زمن اوغل في القدم دفن السكيشيون تحتها زعيمهم مع جواده وزوجته المحبوبة ، ووضعوا في الاعلى القفصان المصطاف صفوفا وفرزوا سيفا برززيا ضنفا موهجا حده الى السماء . كانوا يعبدونه كاله العصب والسعادة .

عبروا المفوض ايمان غورا التهر حاملين اياه بايديهم ، ووضعوه فوق الرابية على العشب الربيعي ، ومسطوا شمره ، وغطوا بجماله الطويل بزاية الفوج .

كان الليل ساجيا ومثيرا بضوء القمر . ووقف ايمان ايليتش عند قدمي المفوض وسيفه مجرد ووقف عند راسه بابوشكين مفوض السرية الاولى ، والشيوخ من بتروغراد . ومر المقاتلون الحمر به فردا فردا مودعين ، وكل واحد يعنيه بيندقته .

- وداعا ، يا رفيق ...
وحين ودعه الجميع ، وكان وقت ازالة المفوض في قبره ، صعد لاتويف الى الرابية ثانية وصاح :

- اليوم قتل اعداؤنا الالاء افضل وراقنا ... لقد علمنا ، لاى شي اعطيت لي هذه البندقية ... لتقاتل في سبيل الحق ! من اجل هذا هي في يدي ... وقد كان هو نفسه رجل حق ، وجلسنا حتى الجذر ... لقد علمنا : اذا كانت امك قد ولدتك ، فقد صرخت في الدنيسا ، وليس لك من قضيسة غير الكساح من اجمل الحق ... وانا اريو من امر الفوج والمفوض بابوشكين ان يقبلنا متى

طلب التماي الى الحرب ... وانا اقول ذلك باخلاص ، اقام هذا الجمنا ، امام الرابية ...

دفن المفوض ، وفي ساعة متأخرة من الليل دعت داتشا ايمان ايليتش من المغيا ، وقالت وهي ترقع باصابعها :

- اذهب اليها ، ارجوك ، وحظها .
وقادت ايمان ايليتش الى الرابية . وكان الليل قد احلوك قبيل الفجر ، اخشى القمر : والريح السهبية تصفر قرب الاذن .

- تعذبتا انا والنيسيا ، ولكننا لا تصغي لشي ...
كانت افرينيبا جالسة على تلة قبر ايمان غورا على الرابية وكذ غلضت راسها بعبوس ، وقبعتها وبندقيتها بالقرب منها . وكانت انيسيا تجلس على مبعدة منها .

همست داتشا :
- انها كالتحجرة ، والشئ الاعم انتزاعها من هناك وجلبها - واقرت داتشا من افرينيبا - انظري ، ان امر الفوج ايضا يطلب منك .

لم ترفع افرينيبا راسها . كانت كلمات الناس تمر بها كالريح المتطايرة فوق القبر . انزلت انيسيا وجهها على ركبتها وعن ما تزال جالسة على مبعدة . سعل ايمان ايليتش وقال :

- هذا لا يجوز ، يا افرينيبا ، قريبا سيطلع الفجر ، وستنتقل جميعا الى الضفة الاخرى ، فهل تبقيين وحده ... ليس ذلك صحيحا ...
تمتعت افرينيبا بصوت باهت ، دون ان ترفع راسها :

- قبلنك لم اتركه ، والان ايضا ... الى اين اذهب ؟
همست داتشا ثانية مشيرة الى جبينها :

- اتفهم ؟ . وراسها مضطرب ...
- لتفكر ، يا افرينيبا - وجلس ايمان ايليتش مقرظنتسا بالقرب منها - انت لا تريدن تركه ... احقا هذا كل ما تريين من ايمان شينيانا لوفيتش ؟ سيعيش في ذاكرتنا ، ويلهنا الشجاعة ... فاقهم ذلك ... انت زوجته ، يا افرينيبا ... وولي وعيك بلذته بما تزال تنمو ...
رفعت افرينيبا يديها وضمتها بالقرب من وجهها وانزلت يدها

انفجرت شفتنا داشا ، وتدنت منه بحركة الدفاع ، كما يحدث ذلك معها دائما ، وقبلته من غده الحار الضن . فوجهي الجدي بذلك ، فنظر الى داشا رامشا . . . ونهض ، وامسك بالبنديقية ، وابتعد ملقيا حزام البنديقية على كتفه . وقال مهددا :
- اتركي ذلك ، فانه لن يساعدك ، ابتها المواطنة .

سألت داشا بلهفة :

- ما الذي يساعدني اذن ؟ انت وجدت ما تفعله . اما انا فلم اجد . . . لقد هربت من تلك الحياة كالمجنونة . هربت لأجد سعادتي . وانا احسدك . ليتني اشد الحزام على معطف عسكري مثلك !

وقد استبد بها الاضطراب حتى انها التفت المندبل من رأسها . وعصرت نهائيه بقضيتها بكل قوتها .

- كل شيء عندك واضح وبسيط . . . من اجل اي شيء تحارب ؟ لكسي تستطيع المرأة ان تنظر الى هذه النجوم دون ان تبكي . . . وانا ايضا اريد مثل هذه السعادة .

كانت تتحدث ، وهو يصغي دون ان يحاول إيقافها ، وقد اربكته هذه العاطفة غير الطهومة . وفي تلك اللحظة خرج من الكوخ أمر الفصييلة ، وتنادى بصوت عميق :

- هاي ، الفريينا ، اجلسي الوجددين هنا .

كان قائد الفوج وأمر الفصييلة ، وكلاهما في معطف عسكري وقبعة ذات حافة نائنة ، يجلسان عند طاولسة في الكوخ واضعبي مرفقيهما امام سراج نفطي . وكان قائد الفوج ذو العينين اللامعتين المتباعدتين يضع غليولا بين أسنانه . وكان وجه الثاني قد لاحته الريح فاضحى كقشرة شجرة . طلب أمر الفصييلة من داشا وكوزما كوزميتش الواقفين عند الباب ان يقتريا قليلا .

- لماذا كنتما في السهب في مواقع القوات ؟

وكانت عيناه تحدقان في عيونهما . ومن تلك النظرة احست داشا بوجه من مفاجئ ، وتمتدت بشفتيها الجافتين :

- سيحدث هو . فهل يمكن ان اجلس ؟

وجلست ماسكة بحافة المسطبة . ناطرة الى السراج يرف في تحف من فغار . وبدا كوزما كوزميتش يتحدث متسلفا وهو

يحرك قدميه بعصية ، كيف وجد داريا دميتروفنا في السهب ، وكيف سارا نحو الدون مفكرين في الغالب بمواضيع سامية . وتحدث بتفصيل عن هذا الجانب من رحلتها لاهتا مستعجلا حتى لا يقاطع . الا ان الأمرين ظلا جاسين وراء المنضدة مثل عملاطين .

- انه لشئ عظيم ، ايها المواطنان الأمران ، ان يفكر الانسان بأمور عظيمة . ماذا اريد ان اقول بذلك ؟ شكرا للتورة على انها صرفتنا عن الاشياء التافهة الكثيرة ان الانسان ، المخلوق المساوي لئلاه ، العمدة لتحقيق المهمات الرفيعة يحرك مثل اورفيوس الحياة في الصخر ياوتار مزهره ، ويطوع جنون الطبيعة الوحشية - كان هذا الانسان يلمسح أوراق النقد وفكره بشيء فتيلة داخنة بحثا عن سبل احقق لخدع جاره . . . شكرا لكم لتعطيمكم مبيشتنا التعيسة ، وبلا للعتة على ذكرها ! . . . لم يسبق شيء يلمسح . وعليك ، اردت ام لم ترد ان تدير فكرك الى المواضيع الرفيعة . . . وهذا هو اثبات لا خلاصي هذا (واخرج كيس الملح) . . . هذا هو الشئ الوحيد الذي املكه في الدنيا ، ولا احتاج الى شيء آخر .

البقية اما ان اطلبها او اسرقها . ولكن اريد ان اناقشكما ، ايها المواطنان الأمران . . . انتم تحاربون في سبيل سعادة الانسان . ولكن الانسان غالبا ما تنسونه ، وهو عندكم يسقط بين السطور . . . لا تفصلوا التورة عن الانسان ، لا تجعلوا منها فلسفة تجريدية ، لان الفلسفة دخان يختلف بعد ان يشد شكلا فريبا . ان ما يفسر اهتمامي في عصر هذه المرأة هو انني تصفحت فيها رواية شاعرية جذابة . ومن ، بالتماسية ، ما اجد في كل انسان اذا نظرت اليه بحب استطلاع ، ويتعطش . . . لانه الكون نفسه يظهر امامكم في معطف مهلهل وحذاء مستهلك .

قال قائد الفوج ناقدًا الدخان :

- حديث مأك .

وقال أمر الفصييلة بعده :

- ارني اوراقكم .

تناول الهويتين من كوزما كوزميتش وداشا ، وقدم السراج ، والغنى كثيرا . وبلبل اصبعه وورق الهويتين بعناية ، وكان قائدا

يريد فقط ان يصور الشيء الكبير المحسوس الذي حصل لها في السهوب . ولكنها لم تستطع التعبير عنه) وحين وصلنا الى هنا بدأنا وكاننا عائدون من مهرجان . واليوم اعلنت اتنى خطيبتك . وقد اعلنت ذلك عن قصد . . . فانتهى كل شيء . . . فماذا بعد ؟ انجاب الاطفال . . . سجنى بيتا . وعن قريب ستكون ميسور الحال . ثم تريا . . . انا عرفت كل ذلك . وقد خلفت في الجانب الآخر . . . كان ذلك في بطرسبورغ . وكان ذلك في موسكو . وكان في باريس . والان يبدأ من جديد في قرية فلاديميرسكويه . وكان مثل هذا الضيق في يدىها المبرحتين على ركبتيها وفى راسها المنكس يفرقه الواضح وشعره الكستنائسى الدافئ كالرماد . حتى فقص الكسى عينيه بشدة . . . طار طائر النار هذا . واقلت من يديه . . . قال خافت الصوت :

- انت حقا جدا . بكارتينا ديميتريينا . ميليلة الفكر . . . اتريدين ان تغوصي في الدم مثل اخي سيميون ؟ استغربت من احاديثك هذه . . . لا . مع ذلك ، لن اتركك تبهين . . .

سافر ايفان ايليتش وداشا الى الفوج وتزلاقي بيت معلى بالعين في مزرعة . وكانت غرفة استقبالى تليغين المزودة بتلفونات وصندوق للنفوس وراية موضوعة في قرابها على مرفقة في الجانب الآخر من الرواق . ولكن هنا توجد مملكة داشا وحدها : موكه دافى لم يستخدم للمطبخ . الا ان داشا كانت تغتسل فيه متبعدة على القس داخله . كما علمتها الفوازيات ، وسرير عليه وساداتان قاسمتان وبطانية خفيفة (كان ايفان ايليتش يتفطس بملطفه) ، ومائدة مغطاة بقماش نثيف كانا يتناولان الطعام عليها ، ومرآة صغيرة معلقة على الحائط ، ومكنسة عند عتبة الباب ، وعلى كوة في تجريف الموقد المجصص تلقف القطة والكلب من الخرف الصينى . قبل عامين كانت داشا وايفان ايليتش وهما في غمرة الحب والاتلاق قد اتاما في وضع كهذا ايضا . ولم يغب عن ذاكرة داشا قط النساء الاول الذي قضياه في شقتها الجديدة بنوافذها

المتفرحة على شارع كامينو اوستروفسكى المضحك بطراوة المطر . وكانت تحس بصفا ، وهدهو ، طهرين . وكان ايفان ايليتش يجلس عند النافذة في العسق . وقد احسنت انه مرتبك الى حد العذاب . فقررت ان تاخذ المبادرة بنفسها عارفة ان ذلك سيدخل سرورا عظيما الى قلبه . فقالت : «لصبا ايفان» . ودخلت غرفة النوم حيث كانت باقة كبيرة من الميموزا فرامة برائحة عذبة موضوعة في علبه على الارض . فتحت داشا باب الدوالي ، وخلعت ثيابها وراءه ، وعبرت الغرفة حافية . وانصت تحت البطانية . وسالت بلهجة سريرة «ايفان ، هل تحبني ؟»

كانت داشا لا تعرف شؤون الحب . ولو انها انشغلت فيها اكثر من اللازم . وما حدث في ذلك المساء بينها وبين ايفان ايليتش غيب ظنها . انه لم يكن ذلك الشيء الذى كتب من اجله هذا العدد الضخم من القصائد والقصص الغرامية والموسيقى . تلك القوة السحرية التي تثير النشوة والدموع . تلك القوة التي كانت تحس بها وهي جالسة وحيدة في شقة كاتيا الفارغة تعزف على البيانو «لستينوى» الاسود . فاذا بها تعلق الموسيقى فجأة . وتنهض . وتشبك اصابعها . ولو لم يكن جسدها كله في تلك اللحظة باردا شغافا كالزجاج لخنقا . في اغلب الظن . ذلك الذى يعتمل في نفسها ويفور .

وبعد ذلك بقليل من الوقت حملت داشا . وقد احبت ايفان ايليتش كثيرا . ولكنها اخذت تبعده عنها . ثم بدأت الانهسار الرهبة - المجاعة وظلام غريف بترفوراد . والحادث الوحش عند فتنة ليايس الذى انتهى بولادة قبال الاوان . وموت الطفل . والرهبة الوحيدة في ان تفارق الحياة . ثم الفراق .

والآن بدأ كل شيء من جديد . كان شعورها اكثر تعقيدا واعين من ذلك المشق القديم الايرى الذى بدأ معه كل شيء. العازا واحاجى . كما في صندوق سحرى شديد التزويق فيه هبات غير معروفة . لقد عانى الاثنان اشياء كثيرة . ولم تنح لهما الفرصة بعد لان يعطى احدهما لآخر تجربته . كان حينها الآن - ولا سيما بالنسبة لداشا - ممتلئا ومحسوسا كالهواء في اوائل الشتاء . حين تكون عواصف تشرين الثانى قد ولت وبواكير الثلج تعمل في

فدا . يمكنك ان تستغري هنا . اخرجي الى الرواق واستجدي مطبعا . ونامي هناك بهدوء .

سارت داشا ووراهما كوزما كوزميتش - الذي يسدا ان الامرين لم يعودا يهتمان به - عبر الرواق ودخلا مطبعا فارغسا دافى . تصح كوزما كوزميتش داشا بان تصمد وترقد على سطح الوقد : «دقنى عظامك ، ونامى فى ليلة مقدار ما نمته فى اسبوع - دعيني ، اساعذك ، يا عزيزتى . . .»

صعدت داشا الى سطح الوقد بصعوبة ، وفكت متدبليها ، ووسدته خدعا ، وغطت جسمها بالمعطف ، ساحة رجليها . كان المكان مريحا وفيه رائحة اجر دافى ودخان خبز . صرصر جديد . . . ساكن المواقف الدائم . ولم يدع داشا تنام راسا . غشاهها النوم بسنة وثيقة ، والجديد يصرصر عطرزا لونها يخبث رمادى . . .

وتخيلت ان بتدول الايقاع يدق ، وانها تجلس الى البيانو ، وقد ارتخت يديها خدرا . وقلبيها يخفق مدغورا من الانتظار . ولكن لم تسمع خطوات المحبوب ، المعبود - لاشء غير صرصره الجديد - يطرز لونها خبيطا وراء خبث . . .

وتردد صوت فى داخلها «يا للهدوء ، يا للهدوء . عادت الى وطنها ، داشا المسكينه . . . ولكنك لم تعرفى وطنك قط داشا ، داشا . . . آه ! لا تعيبنى . . . ولكن هذا قائد الفرقة ، بالطبع ، يضرب بعصاه ، والان مستصوح الموسيقى . . .» والصرير مسن جديد . . .

استلقى كوزما كوزميتش على عسطة تحت الوقد . انه هو ايضا لم ياته النوم راسا . تتم متطلعا :

- صدقوا ، صدقوا . . . فلوب بسيطة . . . لو كنتست فى مكانهم لما صعدت بهذه السرعة . لماذا ؟ لانك لا تعرف نفسك . . . الانسان جاهل . . . صدقوا . لان الاقوياء من الناس يسنطوا . داشا . . . وفى ذلك قولهم . الان اعلمونا هويتنا . صدقوا . ولكن هل انتتم بحاجة الى انسان مفكر ؟ هل الثورة بحاجة اليه ؟ نعم اها انا ذا . . . داريا دميتروفنا . . . اتاسال : هل الثورة بحاجة الى انسان مفكر ؟

كان ايفان ايليتش تليفين قد تلقى مهمة جديدة بعد عملية سامارا .

كان الجيش الاحمر العاشر قد استنزف ذخيرهته القليلة فى معارك آب قرب تساريتسين . وكان المجلس العسكري الاعلى للجمهورية يرد بتأخير يالغ وبلا رغبة على الطلبات فى اعداد تساريتسين بما هو ضرورى للوقوف امام الهجوم العنصرى الجديد لجيش الذون . الا انه كان فى موسكو رفيق سلاح لقائد الجيش فوروشينوف ارسل الى هناك لمهمة خاصة هي التغلب على التأخير غير المفهوم والبيروقراطية المكتيبة لمؤسسات الثورين التابعة للمجلس العسكري الاعلى . وقد استطاع هذا الرجل ان يرسل كمية معينة من الثورينات الى جبهة تساريتسين .

وقد عهد الى ايفان ايليتش بتحميل صناديق الذخيرة ومدفعين فى سفينة تحن فى مدينة نيجنى ، وايصالها الى تساريتسين . وهذا قد وجد نفسه مرة اخرى ، كما كان فى هذا الصيف وكما كان منذ سنوات ، يعم على الفولغا الكسول الواسع الجبار . كانت السفينة البنية الواطئة تضرب بدواليبها الماء الراكد . وكانت الضفاف ترى دائما فى الامام ، وكان النهر ينتهي بتمتعها ، بينما كان اتساع جديد للنهر يفتح بعد عطفه عريضة عميقا رقرقا تحت شمس الخريف . فى تلك الشهور كانت الفولغا قد ظهرت من البيض ، ومع ذلك فقد كانت السفينة تسير بعيدة عن الضفاف ، كلما ظهرت قرية كبيرة بيوتها الممتدة فوق الضفة العالية . او لاح من خلال اوراق شجرة مسفرة برج جرس على رابية جرداء ، حيث كان من السهل الاطلاق من رشاشته .

كان عشرة من بحارة البلطيق يتعدثون ويضحكون بالقرب من مدفع عند مؤخرة السفينة . وهناك كان ايفان ايليتش غالبا مسا يستلقى على جنبه متواها متهافتا ضاحكا على حكاياتهم حتى تتمع عيناه . وكان مصغيا بسيطا سريع التصديق . وهو النوع الذى يحتاج اليه البحار الذى يحب من يصفى اليه .

كان شاريفين الكوموسوموفى الطويل المهيب وهو احسدت
البحارة سنا ، يتقدم من جرس السفينة كل يوم ، ويدله ليدعوا
الجميع الى فوق . وكان البحارة يجلسون في دائرة ، ويخرج من
باب العتير الميكانيكى العجوز الذى ، قيل ، انه فقد تقسودا غير
قليلة في الثورة ، ويطلع الوقاد جسمه حتى الوسط من السباب
نفسه ، وهو رجل غير ودي مشيرم . وتخرج الطباخة من المطبخ وهو
تسمع يديها . وكان شاريفين يجلس على لفة من العبال ، ويبدأ
حديثا تنقيها بصوت وائق مفرور . لم يستطع لصفر سمته ان
يقرا كثيرا ، ولكنه قدر ان يفهم الشيء الرئيس . وكان تحسنت
طاقيته البخارية شعر مجعد داكن ، وله عينان جميلتان وضادتان
الا ان لانفه عيبا . فهو لصغير مرفوح كان يبدو غريبا على وجهه .

لم تكن مهمته سهلة . كان البحارة يهفون الثورة فهم رجال
انفصلوا منذ زمن بعيد من مزارعهم ومن المعراث العبدالي ، عسن
قارب الصيد في الساحل . وقد ادوا خسة الاسطول الثقيلة ، وحين
دقت الساعة القوا ضباطهم في البحر . ورفعوا علم الثورة العالمية .
وكانوا قد راوا العالم ، وطافوا فيه . وكان شيتا عريضا مفهوما
لهم كرجال البحر ، في الماضي كان كل ما يملكه البحار في صندوقه
الصغير . اما الآن فلا يوجد حتى هذا الصندوق الا ان كل ممتلكات
البحار هي بندقية وشريط عتاد للرشاشة والعالم كله . . . فلو
كان هذا عهد ستيبان رازين لامال كل واحد منهم طاقيته ذات السطح
الاحمر على اذنه . وسار على مشيته يجر حساب العالم ، تاركا
براءه وهجا يتصاعد الى عتاق السماء . . . الى ، يا عبيد القصر ،
يا ارقاء الارض ، ايها التعماء ، يا رعاع الحانسات ، اقتسموا
الارض ، واقتسموا الذهب ، ان كل شيء لكم ، فانعموا . . . ولكن
الثورة البروليتارية طالبتهم ببرنامج اكثر تفليدا وطالبتهم بضغط
النشاعر .

كان شاريفين يقول لهم بصوته الواثق :

- الثورة ، ايها الرفاق ، هي علم . والمير لن يبزها ولو كان
سليمان الحكيم ، ولا يد من ان يخطا . ولكن ما هو الخطا ؟ حسن
الافضل ان تقتل اباك وامك من ان تلغ في الحكما . فانه يقولك ان
وجهة النظر البرجوازية ، كما يقرى الطم الغازة الى الضميدة ، واذا

ما وقعت فيها فاجلس حيث اتت ، واقسم ذلك . فان كل خدماتك
قد شطب عليها ، فاصبحت عدوا . . .

ولم يكن البحارة قادرين على الاعتراض على ذلك بشيء . فانت
بدون علم لن تستطيع ان تقود حتى سفينة كيف ان تقضى على
الثورة المضادة . واحيانا كان احدكم يحتضن ركبته بيديه الضمختين
الموسمتين ، ويسأل : - حسنا ، قل لي اذا : بدون موهبة لن تستطيع
ان تركب موقدا في حمام . وبدون موهبة لا تستطيع المرات ان تصنع
عجيتا . فهل الموهبة ضرورية ام لا ؟

- انظروا ، ايها الرفاق ، الى اين يسوقنا لانومين ؟ الموهبة ؟
ان الموهبة شيء متاصل فينا ، انها شيء خطير . وقد تتولد الشخص
الى الموضوية البرجوازية ، الى الفردية . . .

فلوح لانومين بيده مبدئا يسه :

- حراء ، عليك اولاً ان تضغ هذه الكلمات ، وتبتلعها
وتتبرزها ثم استخدمها . . .

قال الوقاد غاضبا من باب العتير بصوت اجش :

- الموهبة ، الموهبة ! يصبح اطافره ، ويلبس بنطلوننا
عريضا ، ويضع سلسلة في رقبته . . . هذا هو صاحبنا ، . . .
الموهبة !

عندئذ ارتفع لفظ بين البحارة . وقال الوقاد بصوته الاجش
«انتم بحاجة الى عشرة اعوام تقضونها بالقرب من الموقد» واختفى في
قسم السكان تلقيا للعواقب . وكان شاريفين يهذي دائما الضجة
المبهدة ويقول : «بالفعل ، يوجد بيننا رفاق يضيغون اطافره ،
ولكنهم لغاية ، ولن ينتهوا الى نهاية حسنة . كما ان هناك من
السدسم الاشتراكيون الثوريون . ولكن غالبية البحارة قد رهبت
لنفسها للثورة كلية . ويجب ان تنسى ما يخص الموهبة . ويجب
ان تضغها . وسنمرح فيما بعد ، من يبقى على قيد الحياة . اما
انا شخصيا فلا احسب حسابا لذلك . . .»

وهز شاريفين خصلات شعره الاعمى ، وبعض الوقت
كان لا يسمع هناك سوى خرير الماء تحت رأس السفينة . لقد
الرت صرامة الكلمات في المستمعين تأثرا قويا . فان الانسان
الروس ضعيف ازاء كل ما هو احتفال : فاذا شرب يتعادي حتى يفقد

تبعته ، وإذا حارب يعارب بجثون فلا تستطيع أن توفقه . والموت رهيب في الأيام الاعتيادية ، في المطر الشديد ، أما في المعركة العادية ، من أجل قضية عظيمة فإن الموت يصب النفس فلا يحس الانسان الروسي بخوف ، وعده فقط ان يحس الحياة بحرارتها كما هي في العيد . فاذا أصيب برصاصة العدو أو طعن بتصلسه اللامع ، فعني ذلك أنه تعثر ووقع بأسطار رجله ويديه في سبب واسع ، وقد تمل رأسه بأقوى خبرة في العالم .

واعجب البحارة قول شاريفين بأنه لا يحسب ان يبقى حيا . كما لغروا له الخطبة المنبرية وثقته الصبيانية بنفسه ، بل حتى أنه المرفوع بما مقبولا . وبدا يحذتهم عن احتكار الدولة لتجارة الحبوب ، عن الصراع الطبقي في الريف ، عن الثورة العالمية . والمضن الميكانيكي الاضبيب الشاريفين عينيه نصف انماض ، وشبك اصابعه على يظنه ، وهز رأسه مؤكدا لا سيما في المواضيع التي يتعثر فيها ذهن شاريفين ، وبدا بالتعبير بشكل مبهم . وكانت الطباخة انيسيا نازاروفا التي اخذوها الى السفينة من استراخان في الرحلة السابقة لا تجلس قط مع الرجال ، فكانت واقفة على جانب تنظر الى الشواطئ المتباعدة . كانت السكينة والرصانة تنعكسان على وجهها الفتي الذي انحلته الالام ، وكان جبينها بارزا وشعرها رماديا جميلا قد سفر بضعفة حول رأسها ، الا أن قصة كانت تصعد الى خلفها احيانا فتبتلعها بصعوبة .

وكان تليفين يشترك في هذه الاحاديث ايضا ، متحدنا عن الشؤون العسكرية ، وكان يرسم بالعياضير على سطح السفينة مواقع الجبهات :

— ان الثورة المضادة ، كما ترون ، ايها الرفاق ، تسير على خطة واحدة : تطويق روسيا الوسطى ، وقلعها عن الترموسين بالحبوب والوقود ، ثم تحطيمها . والثورة المضادة تقدم في المناطق البعيدة عن المركز ، وفي الاراضي الفتية . ففي كوبان ، مثلا ، مليون ونصف مليون قوزاقى ومعلم من الملاحين المؤجريس للاراض . والعداوة بينهم مستهينة . وقد ادرك دنيكين ذلك منذ جيدا ، فاندفع الى النار بجراء مع حفنة من الضباط المتطوعين ، وحطم جيشا قوامه مائة الف رجل ، كان يقوده الوليد سوروكين

الذي كان يجب ان يرمى بالرصاص منذ البداية على فوضويشيه وتمطشه للخيانة ، والان يبني دنيكين لنفسه مؤخرة قوية مساعدا القوزاق على ذبح العمر في كوبان . ان دنيكين عدو ذكي وخطين ، وكان البحارة ينتفرون الى تليفين وانولهم منتفخة ، والقروق الزرق تبرز من تحت البشرة السمراء . بينما كان الميكانيكي يهز رأسه دائما مؤكدا كلام تليفين «بالضبط ، بالضبط . . .»

— ومهمة الزعيم كراسنوف اضيق بكثير . لان من الصعب اثاره القوزاق خارج حدود الدون . انتم تعرفون المثل القائل : يبدو القوزاق مرتاحا لأنه يأكل مريا وينام هراما . القوزاقى جرى حين يدافع عن بيته . ومع ذلك فان ثورة كراسنوف المضادة هي الآن بالنسبة لنا اكثر خطرا من كل شيء . واذ نراجمنا عن القولسا ، وفقدنا تسارستين فان كراسنوف ودنيكين سيلتقيان بكل الثورة المضادة في مسيبيريا . ومن حسن حظنا انه لا يوجد لغام كامل بين كراسنوف ودنيكين . وقوزاق الدون يسبون المتطوعين به الموسيقيين الجوالين» بينما يسمى المتطاعون قوزاق الدون «الباغايا الالمانيات» . ومع ذلك علينا ان نكون يقظين ، وان نعارض خطة الثورة المضادة بخططنا الكبيرة . وهي ، بالمرجة الاولى ، تنظيم الجيش الاخر تنظيميا صحيحا . لكي لا يكون مجرد اعصار ينتقلون في عربات .

نظر شاريفين الى تليفين في حسد ، واعلن :
— هذا صحيح . . . وهكذا ، يا رفاق ، نعود الى النقطة التي بدأت منها . . . ما هو الضبط الثوري ؟ . . .

وفي احدى هذه المحادثات مدت انيسيا نازاروفا يدها الى الامام فجأة ، كالعمياء ، وقالت بصوت متساقط ذي نبرة خطيرة حتى ان الجميع التفتوا نحوها ، وصاروا يسمعون اليها :
— اعدوولي ، يا رفاق . . . اصعب ان اقول لكم . . . احدكم بهذه الشؤون . . .

في الصباح الباكر ، عند الفجر ذهبت انيسيا نازاروفا لتحلب البقرة . ولكن ما كادت تفتح ذريسة الاقار — وجاها من الظلام حوار البقرة تطالب بالحلب — حتى سمعت طلقات من السبب . فوضعت انيسيا الجردل ، وعدلت المنديل على رأسها . وكان قلبها يغفق ، وحين التزمت من باب الحديقة ارتخت رجلاها ، ولكنها فتحت الباب .

كان جمع من الناس يركضون في شارع القرية وراء عربة رشاشة
يركبون فيها أثناء سيرها . واخذت اللقائات تسمع في مكان اقرب واكثر
ترددا ، من ناحية السهب ، ومن ناحية البركة ، ومن طرف الشارع
العريض ، ومن الطرف الآخر . ولم تلحق العربة التي كانت تقل رفائقا
من سوفيت القرية ان تلتحق ، فقد حاصرتها الخيالة ، وداروا حولها
كالكلاب حين نهجم كلبا ، واطلقوا النار ، وطمعوا بالسيف .

سعدت انيسيا باب العذيسة ، ووسمت غلامة الصليب ،
وذهبت لتجلب الجردل ، الا انها استودتكم فجأة ، واندفعت الى
البيت ، حيث كان ينام طفلها بيتروش وانيوتا . ايقظتهما وهي
تمسك على رأسيهما ، وتهمس في اذنيهما ، واليستيها ملاسيها ،
واخرجهما الى الغناء وراء زريبة الابقار ، حيث كان يوجد تل من اقراص
الروث المجفف قد صف كبيت التمل ، ومن الداخل فارغ . رفعت
انيسيا بعض اقراص الروث ، وطلبت من الطفلين ان يدخلوا الى
داخل التل ، ويجلسا هناك دون ان يصدرا صوتا .

والآن صار الشارع كله يغلى بكركة حوافر الخيل ، وصيحات
الناس ، وقرعسة السلاح ، واشرا اخذوا يطربون باب انيسيا
باخامس البنادق قائلين : « افتح ! » وحين فتحت انيسيا الباب
امسكها قوزايتان احمتها العمة المنزلية . « اين سينكا نازاروف ،
اين زوجك ، تعديني ، او تذهبك في مكالكه » . ولم يكن زوج
انيسيا قوزاليا ، بل من الاقرباب ، وقد انضم الى الجيش الاحمر ،
كانت لاتعرف اهو حتى الآن ام لا ، وهكذا قالت انها لا تعرف اين
زوجها . فقد اخذته بعض الناس في الصيف . كف القوزايتان عن
هز انيسيا والدعوا الى البيت ، ولقيا كل شي فيه وحطاه ، وحين
غريا امسكا مرة اخرى بانيسيا ، وجراها في الشارع الى سوقيت
القرية ، حيث كان الزعيم يعيش في السابق .

وكانت الشمس قد ارتفعت عاليا بينما اغلقت القرية بواباتها
وتوافذها ، وكانها ما تزال نائمة . واعام السوفيت فقط كان
القوزاق يروحون ويجيئون خيالة ومشاة يسوقون فلاحين وقوزانا
بعضهم مشدود الوثاق ، والبعض الآخر مدمن . وفيما بعد عرف ان
قائمة قد وضعت باسماء جميع الذين صوتوا في الربيع الى جانب
السلطة السوفيتية ، فاخذوهم جميعا .

كان يجلس في بيت الزعيم ضابط ناعس شيطت على كمنه
جمجمة وعظمان ، والى جانبه الضابط القوزاكي زمينيف المعروف
جيذا لدى الجميع ، والذي كان قد هرب من القرية قبل ستة اشهر .
وكان الجميع قد تسوا حتى ذكره ، وما هو الا بشازيبه المتدلين
مشلتنا ضغما احمر كالتعاس . وحين دفعوا انيسيا الى البيت كان
زمينيف يصيح على المعتقلين ، وكان عددهم اكثر من خمسين
شخصا تحت الحراسة :

- هل ساعدتكم السلطة السوفيتية ، ايها الاوغاد الحمر
البطون ؟ حدثونا الآن ماذا عليكم مفوضو موسكو ؟ ..
وكان الضابط ينظر في القائمة ، ويقول يدهو لكل من كانوا
يدفعوه نحو المنطدة :

- هل تعترف باسمك واسم عائلتك ؟ حسنا ، هل انت
متعاطف مع البلاشفة ؟ لا ؟ هل صوت في شهر ايار ؟ لا ؟ اذن ، انت
تكذب . ايلدووه ، الثالث ، القوزاكي روديوف - وكان يرفع عينيه
الشاحبتين كعيني خروف ، ويقول - قف باستعداد ، وانظر الى
هل كنت مندوبا في المؤتمر الفلاحي ؟ لا ؟ وحرقت داعيا الى
السوفيات ؟ لا ، مرة اخرى ؟ اذن ، انت تكذب على المحكمة
العسكرية . الى اليسار ! التالي . . .

وكان القوزاكي يسكون بالناس ويدفعونهم من على مقدمة
البيت ، ويلقونهم ارضا ، ويسحبون سراويلهم ، ويعروهم .
ويجلس احدهم على الرجلين المرتجتين ، والآخر يضغط على الراس
بين ركبتيه ، ثم يخرج اثنان آخران قضيبى التنظيف من
بنديقيهما ، وينزلان بالضرب على المطروح محدثين صغيرا في الهواء .
ولم يعد الضابط يستطيع ان يتكلم بصوت هادي ، فقد كان
الذين خارج التوافذ يولولون وصيحون ، وكان يعيط بمكان
التأديب جمهور من القوزاق خيالة ومشاة من الفصيلة المقوية ، ومن
القوزاق المحليين الذين خرجوا من بيوتهم للقاء الفصيلة صالحين :
« المسيح قام ! . . » كما كانوا يزعمون ويشتمون : « ايلدووهم حتى
العظام ! المرهوعم الى آخر لظرة من الدم ، حتى يتذكروا سلطانهم
السوفيتية ! » .

واخيرا لم يبق في بيت الزعيم غير انيسيا ومعلمة شابة . وقد

جات الى القرية برغبيتها . وحاولت جاهدة ان تنور اهل القرية . فقد كانت تجتمع النساء ، وتقرأ لهن بوشكين وليف تولستوى ، وتصطاد الخنافس مع الاطفال - تصطاد الخنافس في مثل تلك الاوقات ! صرخ الضابط زميميف بها :

- انهضى ! ابتها السحنة اليهودية !

نهضت المعلمة . وظلت تحرك شفيتها لبعض الوقت دون ان تتلق بشئ :

- انا لست يهودية ، وانت تعرف ذلك جيدا ، يا زميميف
وحش لو كنت يهودية ، فانتى لن اجد في ذلك جريمة

وسأل الضابط :

- هل انت في الحزب الشيوعى منذ زمان ؟

- لست شيوعية . انا احب الاطفال ، واجد من واجبى تعليمهم القراءة والكتابة
يعرفون القراءة والكتابة ، فتصور

قال الضابط :

- اصور وسنجدك الآن .

شعبت وتراجعت . وصرخ زميميف بها : « اخلصى ! » واختلج وجهها الحلو ، واخذت تلك ازوار معطفا ذى الربعات ، وشعلته ، وكانها نائمة

- اسمع ، اسمع - ولوحظ بذراعها على الضابط - ما هذا منك !

ومن وراء النافذة ارتفع صوت تحيل بشكل لا يطاق . بينما كان زميميف ماشيا في اوامره واخلصى سروالك ، ابتها الفاجرة ! » وصاحت به المعلمة « ايها الولد ! » وتاجعت عيناها ، واحمر وجهها بحمرة الحنق :

- اقتلوتى ، يا وحوش ، يا الحوال
لن يمر هذا بسلام . عند ذلك امسكها زميميف ، ورفعها قليلا والناها ارضا . ورفع قوزاقيان تنورتها ، وضغطا على راسها وقدميها ، وخرج الضابط من وراء الطاولة على مهل ، وتناول السوط من قوزاقي ، واطلت بسمة ساخرة على وجهه الرمادى . ثم رفع السوط ، وانزله بقسوة على مكان الخمرة منها ، ومال زميميف من كرسيه الى الامام وصاح بصوت

على : « واحد ! » واخذ الضابط يسوط ، والفناة صامتة
خمسة وعشرون - كفى ذلك - قال الضابط . والتقى السوط - اذهبى الآن ، اشتكىنى لزيميع المنطقة ! » وكانت رائدة كالميتة ، رفعها القوزاق ، وحملوها الى الرواق . وكان دور انيسيا .

شد الضابط حزامه الثقافسى ، وأشار براسه اشارة خفيفة الى الباب ، وبين جنون انيسيا حقدًا وحاولت ان تتخلص ، حين جروها امسكت بشعر بعضهم ، وتشبثت ، وغضت ايديهم ، وركلتهم بركبتيها . واطلقت نفسها حاضرة الراس مزوقة الثياب . وهاجمت القوزاق ، وفقدت الوعي حين ضربوها على راسها . مزقوا الجلد على ظهرها بقضبان تنظيف البنادق ، والقوها عند مقدمة البيت ، طالين ان هذه المرأة الخبيثة قد ماتت .

واعادت فصيلة النقيب نيمشاياف التاديبية النظام في القرية . وازامت زعيما ، وحملت عدة عربات من الخبز وشحم الخنزير المقدد وبعض الاشياء الاخرى المنهوبة ورحلت . وبقيت القرية طوال النهار ساكنة لم يوقد فيها موقد ، ولم تخرج ماشية . وفي الليل ادخلت النار في عدة بيوت للافراق ، ومنها بيت انيسيا .

وخاف الجيران اطفاء الحريق ، لانه عندما اندلعت النار الاولى في طرف القرية مرع بعض القوزاق بافراسهم الى هناك . وسمعت طلقات . وقد احترق بيت انيسيا كليا . وفي الصباح فقط استندرك الجيران : ابن ولداهما ؟ ان ولدى انيسيا ، بيتروش واتيوتا ، اللذين طلا الى الليل جالسين في تل اقراص الروث قد احترقا مع البقرة والاغنام والدواجن .

والتقط الطبيون انيسيا التي كانت تنن مغيبا عليها عند بيت الزعيم . واخذوها الى بيتهم ، وارقدوها هناك ، واعتنوا بها . وبعد عدة اسابيع اخذت تهم ، فقد حدثوا عن ولديها . ولم يعد لانيسيا شئ تفعله في القرية . وهذا ما قاتله للناس الطبيين . وكان الفضل خريفا ، ولا اخبار من زوجها . وقد زهدت في العيش . فتنقلت من قرية الى اخرى ، متسولة تحت التواقد . وبلغت الخيط الحديدى ، ووصلت اشيرا الى استراخان ، حيث اخذت طباعة على السنيطة . لان الطبايع قد لزل الى الشاطىء في المرة السابقة ، ولم يعد .

روت انيسا نازورفا هذا الحديث من حياتها ، ثم قالت :
- شكرا لكم ، يا رفاق . انتم تعرفون مصيبي الآن ، فاشكرا
لكم .

ومسحت عينيها بالمنز ، ونزلت الى مطبخ السفينة . وظل
البحارة طويلا جالسين في صمت جاهم يحتضنون ركبهم بايديهم
المعروفة . انصرف ايفان ايليتش عنهم ، واستلقى في ناحية .
وفكر كأنها حسرتة «ومعكنا تلتقي بانسان ، وتمر به ساهيا . بينما
هو امامك مملكة كاملة من غرائب داخلة . . .» .

وبالتدريج تحول من قصة هذه المرأة الشجيرة الى صومه هو .
وكان يغنيها عنيقا في طيات نفسه من الجميع ، وعن نفسه بالدرجة
الاولى . وكان قليل الامل في ان يلتقي مرة اخرى بانداسا حسا ان
الانسان الحر يتحمل من الجراح والصلاب ما لا يتحملها اى
حيوان . ولكن ما ارحب الارض ! وابن يبحث عن دانا في سبل
الملايين التازمين الى الشرق . ثم ان الاحمق العجوز ، الدكتور
بولاقين ، قد يذهب معها الى الخارج .

وتذكر ، وهو يمز رأسه ويتحسر رثاء ، ميول دانا نحو
الراحة النفسية ، نحو الاناقة ، وتوقده عاطفتها الباردة
قليلا ، مثل فوان ليلة منجم . «لم تكن تقوى على ذلك ،
لقد تمت في دينة ، فاذا بها تضادف تيارا قويا يمز العالم . . .
مسكينة ، مسكينة . . . رفضت ان تعيش بعد وفاة ابنها في
پترسبورغ وكانت تنظم في الطلعة الباردة . . .» .

وكان ايفان ايليتش لا يعرف ما حصل لها بعد پترسبورغ الا
من قراءته لرسالتها على عجالة . لا شك في ان دانا قد عاشت
كثيرا بعد پترسبورغ ، وفهمت الكثير . . . بابة عاطفة جذبه في ذلك
اليوم الى النافذة ، وهي تنقله من الملاحظين : «سابقى وقية لك
مدى الحياة ، اهرب ، اهرب . . .» وقد التصفت به راحة شعرها
الكتاني المديق . . . انه لم ينس ذلك ولن ينسا . يا لها من
امراة عجيبة معبودة . . . «وه كفاك ذكريات . . .» .

وبدا الجو يسيب . وعمت الغلغا ، ونهضت من الشمال
كالحواجز سحب باردة موحشة ، وصرفت الريح في الصواري

القصيرة . ومرت كاميشين ، وهي بلدة خشبية هائلة بعدالقلها
العازية على النل . وبعد كاميشين تماما بدأت جبهة تساريتسين .

٣

كانت السحب المترعة بالبرد تعوم فوق تساريتسين . وكانت
الريح تصعد الغبار ، وكالدوامات تفرش به البيوت الخشبية
الملاصقة التي كان بعضها يواجه النهر وبعض الآخر يدير له
ظهره . ناهضة فوق المتحدرات الوعاء ، بين المرايض والمضامع .
كان ايفان ايليتش يصعد شارعا مرتلعا قلعت الامطار حجارته .
وكان الكوريشين ، والارضفة الضارفة ، وشوارع المدينة ايضا
خالية من الناس . وفي الساحة فقط ، حيث كانت الكانتراليسية
الرمادية الضخمة تلوح خلف نقاب من الغبار . تقابلت معه
فصيلة مسلحة . كان افرادها من الكهول والشبان المرتدين كيفما
الفق يسرون مديرين ظهورهم للريح في مقاومة جامحة .

وكانت تسير في المقدمة عجوز تحيلة يابدة الغضب في قبة من
قبعات الجيش الاحمر . وقد التت بندقيتها على كتفها . مثل الجميع .
وحيث حاذت ايفان ايليتش سألها عن مقر القيادة . التت العجوز
نظرة شرداء عليه ، ولم تجب . ومرت الفصيلة كلها في عجلة تنير الغبار .
كان على ايفان ايليتش ان يذهب الى قيادة الجيش ، وبلغ
بوصول السفينة بحمولتها من الشيرة ، ويقدم ورقة الشحن . ولكن
اين يجد هذه القيادة ! لا شيء حوله غير حوايت مغلقة بالالواح ،
ولوافذ خالية من الحياة ، ولافتات تترقق بحدبها ويغيب اليك
انها مستسط في اللحظة التالية . وفجأة امترض سبيله عسكري
مضمد اليد زفر بالم في خلال اسنانه ، وشتم حسا . اعتلر ايفان
ايليتش ، والقى عليه نفس السؤال عن القيادة . فاذا به يتبين ان
الرجل الذي امامه هو سيرغي سميرغيفيتش سابوچكوف ، قائد
فوجيه السابق . وقال سابوچكوف :

- ما لك متدفع كالمجنون . سلمت .

هم ايفان ايليتش بان يعاتقه ، الا ان سابوچكوف تنحن
قالا :

- دعك عن هذا ، عفا . تمسك بالهدوء . من أين جئت ؟
 - جلبت سفينة الى هنا .
 - يا للمجانب ! انت حى تترق ؟ خذك يستفتان من العافية !
 هذا هو الصفت الروسي ! تريد مقر القيادة ؟ انه هنا . أين نزلت ؟
 بالطبع ، لم تنزل في مكان ما . حسنا ، ساتنترك .
 ودخل مع تليفين في مدخل بيت آجرى يبدو من بيوت التجار ،
 و اشار الى حجرات القيادة في الطابق الثاني :
 - اسمع ، يا ايفان . انا منتترك . . .

كان ايفان ايليتش قد شاهد مقر قيادة سوروكين وجيوش
 الجبهة الجنوبية ، حيث لا يستطيع المرء ان يعثر على الحجرة التي
 يريدعا ، فقد كان الجميع يكذبون وكانهم على اتفاق ، وفي كل مكان دغان
 التبع ، وكانبات الآلات الطابعة يضربن على آلاتهن يذعر ، والمراقلون
 يتنفقون من باب الى باب مهيبين بنشاطيل ركوب الخيل . اما هنا
 فكان الهدوء . وقد وجد الباب المطلوب حالا . كان ضابط الخفر
 يجلس عند نافذة متربة لا يكاد النور ينفذ من خلالها . وقد رفع
 وجهه العظمى العليل وثبت بصره في تليفين دون ان يحرك جفنيه
 المحمرين . واجاب :

- لا يوجد احد . القيادة في الجبهة .
 - اسمع في ان الفصل بالقائد . يجب تسليم الحمولة بسرعة .
 رفع الضابط الخفير جسده برخاوة رجل اذبله الأرق ، ونظر
 في النافذة . قرأى سيارة قد وصلت من توها .
 - انتظر .

قال ذلك بهدوء . وتابع تصنيف المراسلات والتقارير في عدة
 اظبارات ، وكان بعضها مكتوبا بالقلم الرصاص لا يتبين الانسان
 من محتوياتها سوى عظمة نفس كاتبها الشهمة البسيطة .
 دخل اثنان يرتدى احدهما معطفا استراخانيا ، ويتبدل منظار
 من رقبتة ، وعلى جنبه سيف خيالة ثقيل في محفل من الجلد العشن .
 والثاني في معطف من معاطف الجنود الطويلة ، وقبعة من تلك التي
 يرتديها شمال بطرسبورغ في ايام الشتاء ، وكان لا يحمل سلاحا .
 كان وجهها الرجلين داكنين من الغبار . قال الخفير :
 - صلح الخط المباشر مع موسكو .

توقف الرجل ذو المعطف الاستراخاني في الحال ، وكان قنبا له
 عينتان بنيتان مستديرتان مرحتان شبيه مستأز :ه امسا الآخر ذو
 المعطف الذي لطخة الوحل فقد اخرج مندبلا ، ومسح به وجهه
 التحيل ، معاولا ان يزبل اكبر قدر من الغبار من شاربيه الاسودين .
 وانس تليفين بان عينيه اللامعتين يجفنيهما المرتفعين الرقيقين
 نيتان عليه بصرهما .

قال الخفير :
 - الرفيق جاء ببلاغ لكم .

وكان ايفان ايليتش يرى هذين الرجلين لأول مرة فلم
 يعرف من هما ، فتردد قليلا . وعال الضابط الخفير نحوه وقال :
 - تحدث ، يا رفيق ، هذا هو المجلس العسكري للجبهة .
 اخرج تليفين اوراقه ، وابلغ . تبادل الرجلان النظرات بعد
 ان سمعا بان سفينة محملة بالذخيرة قد وصلت من توها . تناول
 الرجل في معطف الجندي ورقة الشحن ، بينما راح الثاني يمرر عينيه
 على سمورها من وراء كتفه مثلها ، بل ان شفتي فمه الصغير تحركت
 تردد ارقام كمية العتاد والقذائف واشرطة الرشاشات . . .

سأل الرجل في المعطف العسكري :
 - كم عددكم في السفينة ؟

- عشرة بحارة من بحارة البلطيق ، ومدفعا للميدان .

وتبادلا النظرات ثانية . وعاد نفس الرجل يقول :

- املا الاستمارة . في الساعة الخامسة بعد الظهر عليك ان
 تكون مع طاقم السفينة امام قائد الجبهة - وادار بحركة متهلة يد

جهاز التلغون الذي صرف سريلا جافا ، واتصل بشخص ما ، وهمس
 له ببعض الكلمات ، ووضع الساعة ، وقال : - ايها الرفيقي

الخفير ، جهز على الفور اكبر عدد ممكن من العريات . ولتفريغ
 استمعن بعامل مصنع المدافع . تاكد من التنفيذ . وابلغني .

وذهب كلا الرجلين الى الغرفة المجاورة . واخذ الخفير يدير
 يد التلغون ، وراح يكرر بصوت مكتوم : «فسم النقل . . . الرفيقي

ايفانوف . لا يوجد ؟ قتل ؟ اعطني خفيرا آخر . مقر قيادة الجبهة
 يتكلم . . . » جلس ايفان ايليتش ليلا الاستمارة . وكان الامر
 واضحا : الحضور امام الثلاثة . بعض الضعاب الى الخنادق راسا .

استرخى إيفان إيليتش على السفينة ، وإذا به يشعر الآن ، وهو يفرش بالقلم الذي يعض على الورق ، بحركة الإرادة المألوفة التي تكررت كثيرا خلال هذه السنوات ، حين كان يتراجع الى الخلف كل ما هو ساكن دافئ شخصي في الانسان ويتضائل حرصه على حياته ، وسعادته . ليحل في محله بقوة غير منظور إيفان إيليتش آخر انسان يداني قاس عازم .

كان ما يزال ثمة وقت كثير حتى تحل الساعة الغامسة . سلم تليفون استمارته وخرج الى العمر ، نهض سابوچكوف بسرعة من الاريغة الخشبية .

هل فرغت ؟ لنذهب الى مكان ما .

ونظر بإستساعة ساخرة الى تليفون الداخل . وكان سابوچكوف على حاله عصيبا عتورا . وكأنه يعرف ما لا يعرفه الآخرون . الا ان مظهره الخارجى قد تغير كثيرا . فقد اضحى وجهه الوردى صغيرا مثل وجه عجوز . اوضح له تليفون بان عليه ان يهرع الى رصيف النهر ، ويجمع طاقم السفينة . ويفرغ الصناديق .

- مؤسف . ولكن ما العمل ؟ لنذهب الى الرصيف . صمت ثلاثة اشهر . يا إيفان ، وبلغ بين الأمر في المستشفى الى حد اننى كتبت اكتب «يوميات متلف سائقي» . ولم اعده اشرب ، يسا الخ ، نسيت . . .

كان سابوچكوف متأثرا جدا في لقائه بإيفان إيليتش ، خرجا من البناية . ودفعتهما الريح في الشارع نحو القولغا العثم المتنتس بأمواج مزيدة طويلة .

- أين العوج ، يا سيرغى سيرغيفيتش ؟ لماذا انفصلت عنه ؟ لم يبق من فوجتنا شيء في الواقع . لا وجود الآن لهكذا الفوج في الجيش الحادى عشر .

نظر تليفون اليه صامتا ، وفي نظراته ذعر . بدأ سابوچكوف يروى حاجبا عينيه عن الخبر بيده .

- انتهينا في ضيعة بيسوكوي . هل لك علم بإستساعة الجيش الحادى عشر ؟ ان القائد العام سوروكين فعل من الأمور ما يستحق عليه أكثر من ثلاثة اعدامات ، ابن الكلب ذلك . فقد اخلى عن الجيش امر المجلس العسكري الثورى لتساريتشين القاضى

يقطع الجبهة والالتقاء بالجيش العاشر . ولم ينفذ هذا الأمر الا من قبل فرقة شيلست وحدها ، واتجهت نحو تساريتشين ، وهذا فقط لان سوروكين اعتبر شيلست خائنا وامر باعدامه رميا بالرصاص . وتصور الأمر : انقطعنا عن مينيرالنيه فودى ، وانقطعنا عن ستافروبول ، حيث هلك جيش تامان . وفي حالة ذعر ترك سوروكين احتياطات الذخيرة في تيخويريتسكيا . وكانت خيالة الجنرال شكوره تضغط علينا من الجهة اليمنى وخيالة فراغيل من الجهة اليسرى . فتراجعنا شرقا في سهب بلا ماء . . . ولم يبق من فوجي غير سرينة وامد . وكنا ننام اثناء سربنا ، نتخلص من العدو ، وشققنا طريقنا عبر منخفضات ، ولم يكن لنا طعام نأكله ، ولا ماء نشربه . . . لا شيء . في ذلك السهب اللعين غير الرياح القارصة ! احيانا كان يسقط انسان وفرسه متجمدين وتفتيطهم الرمال . . . ووصلنا الى ضيعة بيسوكوي ، فلم نجد فيها انسانا ولا دجاجسة ، وحتى الكلاب اخذها القوزاق . اما البيوت فكانت أبوابها مفتوحة . ووجه الفتيان حليا فشرهوه بكل قوة عطشهم . فهمت ؟ وإذا بهم يتلوون على الأرض . ولم يبق احياء منهم غير حوالى ثلاثين شخصا . . . وفي البحر طوفونا طعنا بالرشاشات ، وقضوا علينا . . .

وبينما كان إيفان إيليتش يصغى كان يسرع خطاه حتى تعثر . - وانت ، كيف ؟

- الشيطان يعلم . لقد استعصى الحظ . . . جرحت حسنة البداية ، في يدي ، واصيبت اعصابى اوشى . من هذا القبيل ، وفقدت الوعي . . . ومنذ تلك الساعة بدأت اعيد النظر في الكثير مسن الانبياء . وبينما كنت منبطعا فسمه الاجتود خرامى ، وحملونى الى كومة قش ، وغطونى بالقش . . . يعنى اهتموا بي في مثل هكذا الوقت . - اؤكد لك اتنا لا نعرف شعبنا ولم نعرفه قط . . . يقول إيفان بوتين انه وحش همجى . بينما يقول ميريجكوتسكى انه رعاع ورعاع المستقبل ايضا . . . هل تذكر حديثنا في غربة القطار ليل ؟ كنت سكران ولكننى لم انس شيئا . اين كان يكمن الخطأ ؟ الفلسفة والمنطق في حاجة الى هدف يصحهما ، مثلما يحتاج التصويب الى هدف متطور . وهذا الهدف هو معرفة عميقة لتجارب الحياة . . . ان الثورة شيء ، وعما توبيل كانت شيء آخر !

سريفي سيريفيتش ، وماذا حدث بعد ذلك ؟ ..

بعد ذلك... خرجت من القش ليلا في الضيعة كانوا يفتون الاغانى . يعنى ان المتصربين قد سكروا . اصطدمت بجنة مقطوعة القوائم ، وبأخرى ، وفهمت كل شيء . . . واخذت حصانا ، وانطلقت في السهوب ، حيث قضيت عدة ايام مزملة . . . والتقتنى فضيلة من شبالة يردوني ، وهو فارس في سهوب سانسك . . . واوصلونى الى محطة كوبرى ، ومن هناك الى هنا . وهنا بقيت طويلا في المستشفى . . . وبقى دفتر الخيمة والثالثى في معطسى ، في القش . . . اذكر معطسى ؟ انك لن تحصل على مثله الا ان . . .

- اسمع ، وهل قتل غيرنا ايضا ؟
- فقدنا غيرنا منذ زمان مع صف من العربات . وقد اصيب يحيى تيلوس شديدة . . .
- يؤسفنى امر غيرنا .

- الجميع مأسوف عليهم ، يا ايفان . لا ، انا اكذب . ليس ذلك اسفا . . . لقد تعودت على الفوج ، وليس من اللائق ان ابلى وحدى حيا . . . انا لا اجد مكانا لي ، يا ايفان . ذهبت الى مقر القيادة ، وطلبت سرية على الاقل . . . انا افهمهم جيدا . فانا رجل غير معروف لهم . وليس لدى غير البطافة العسكرية . . . تكلم عنى في القيادة ، ارجوك . . .
- بالطبع ، يا سريفي سيريفيتش . . .

- ان احسن شيء هو ان تقمصت الى الضيعة . كلمة شرف . . . مساعد على الاكل ، جنمى الاتصال . . . انظر ما فصل القدر بنا . . . هل تذكر كيف كتبنا الاشعار في شتتك ، واخذنا البرجوازيين ؟ كل شيء لا يذهب سدى ، وكل شيء يخلف اثرا . عبت وتنتيت . . . واذا بك تجد نفسك امام لوحة جبارة يلق لها شعر رامسك . اسمع ، هل تذكر كيف عثرت عليك في زريبة عند الالمان ؟ كانت غارة عظيمة ! ثم حين كسرت سيفي . . . لطيف جدا اننا نلتقى من جديد . . . انت تيدو في صفة ممتازة ، يا ايفان . لقد تعلقت بك ، او شيء من هذا القبيل . . . اسمع ، واين زوجتك ؟

وانقطع حديثهما ، فقد لحقت بهما العربات التي انطلقت بسرعة نحو الرصيف .

عبط غروب هائل كئيب وراء سطوح المدينة ، ومن خلال دوامة الغبار ناشرا حمرته العموية في السحب المتحركة . وتحرك تلح قليل دائرا فوق التولفا . وكانت العربات المحملة التي يحرسها العمال المسلحون قد اقلعت منذ وقت بعيد . واقفر الشماطي . ابتعدت السفينة عن العرس ، وسارت مع التيار ثم لرست دون ان تشمل الاضواء .

وجلس البحارة يستترهم المحزمة وراء حاجز العرس محبوبين عن الريح صامتين لا يدخنون ، ومعهم القنابل اليدوية واكياس الامتعة والبنادق . وقد عرفوا من احاديث العمال ماذا كان يجرى في هذه المدينة الغالية الضامة بقروب دلم كدر . وكانت الامور لا تبعث على الفرح .

كان ايفان ايليتش ينتظر الخيول لتفريغ المدفعين ، وينظر في ساعته قلقا ، وقد تلافى عدة مرات الى مقر القيادة . واتضح ان الخيول قد لرست ، والعروا الضيعة بان تاتي مع المدفعين الى المحلة . خرج ايفان ايليتش الى سطح العرس متقلبا على قوة الريح المطبقة على الباب . فوجد انيسيا نازلوقا امامه .

- لماذا انت هنا ؟

صمتت مطبقة شفتيها ، وخففت راسها ازاء نظرتة . كان شمال مهلهل مرعب ، ويبدو حاميها الوحيد من البرد ، مشدودا على كتفيها . ووراء ظهرها كيس من الجنفاص . قال ايفان ايليتش :
- لا ، لا ، لا . اتزلى الى السفينة ، يا انيسيا . لست بحاجة لك في قصيتي .

بينما كان الرجال يسحبون المدفعين عبر المعبر الخشبي الى رمل الساحل ويشدونهما الى الخيول . انطلق الغروب في السحب واندمج النهر بالضفاف الداكنة . سارت الضيعة نحو المدينة وهي تحت الخيول المشدودة الى المدفعين . اقبل شاريفين نحو ايفان ايليتش ، وقال بصوت خفيض :

- ماذا سنفعل مع انيسيا ؟ الرفاق يطلبون ان تبقى مع الضيعة . . .

وفي اللحظة التالية ابتعد لاتوغين عن عجلة المدفع ، وتقدم نحو إيفان إيليتش من الجهة الأخرى :

- ايها الرفيق القائد ، انها بمثابة أم لتسا . انت تعرف ما الجبهة . . . يمكن ان تأتي بشيء وتسامع وتغسل قبصا . . . انها امرأة قوية الشكسية ، ولو كانت هادئة المظهر . ظلت متعلقة بنا تعلق الكلية ، ما العمل . . .

وكانت انيسيا وراء إيفان إيليتش ، كانت تسيير مع الفصيلة مطرقة الرأس أيضا . قال شاريفين :

- لنقل انها ممرضة غير متدربة . . . شيء رقيق . . .

وهو إيفان إيليتش رأسه - «صحيح» - انا أيضا اودت ان ايقبها» - عاد لاتوغين ثانية الى عجلة المدفع ، وامسك بها ، وصاح بالخيول التي كانت تجاهد بكل قوتها لتتصدع المرتفع «هيا ، يا لطاف ، اصعدى» وكان الرمل المتطاير من المرتفع يتناثر على الفصيلة ، ويدور مجنونا . واثيرا سارت العجلات على ارض الشوارع . كانت البيوت التي لا تكاد تبيّن مظلمة وما من نافذة مضائة فيها . وكانت الاسلاك على الاعمدة تلظن طنينا شديدا ، وتلطق اللافعات . وكان إيفان إيليتش يسير بينهما . «ها انت قد تلقت درسا ، وضربت على انك ، اي ، يا قائد ، لا اراك مراعي شعور الناس ، صحيح . ولا اعتراض عليه . . . استلقتك على جنبك من يجنى حتى تسارتسني ، مصفيا الى الترترة ، ولم تعرف اي اناس هؤلاء الغتبان . . . انظر اليهم يشون مشية البحارة المتأيلة ، والريح تعبت بالانزلة على قبعاتهم . . . لماذا يرموا مصيبة انيسيا ومصيرها البائس يصيرهم بدون مناقشة ، وفي ساعة كهذه ، حين امروا بترك الحياة السهلة على السفينة ، والزحف خلال الزواجع الرملية الباردة ، في هذا القلام ليحاربوا ويموتوا ؟ هل هم بواصل الى هذه الدرجة ؟ لا ، كلا ، انهم يريدون اناسا اعتيادين للغاية . نعم ، لمست بالقائد ذي الشان ، يا إيفان إيليتش . . . الجامل . . . القائد الجيد هو الذي يحلف في اصعب الاحوال لتسمية كل مقاتل مهما كانت معقدة . . .»

واستبد به قلق شديد من حديثه الاخير مع سايريجوف ، ومن عادة انيسيا التي قد تبدو غير ذات اهمية . ووجه اللوم

لنفسه . قبل كل شيء ، واتهم نفسه بالانانية ، واللامبالاة ، والارتقاء ، وكمد الذهن . . . في مثل هذا الوقت جعل خديه يمتلئان ، وحتى سيرغي سيرغيفيتش لاحظ ذلك . . . وبينما هو يفكر وقع على فكرة اخرى ، واحس فجأة بالنفء ، وبان قلبه يهنا يلحظة مضبنة ، فقد كان وراء كل هذا التدقيق مع النفس فكرة خفية ، هي ارجاع حب واثنا السابق لنفسه . . . ثم نخر في هبة غبار حاجته من وراء منعطف ، فطرد من ذهنه هذه الافكار غير التامية كليا .

في اللحظة تلتها إيفان إيليتش امرا بتحصيل المدفعين فوقا ، واتخاذ مواقع المدفعية في منطفة محطة فروبونوفو . وقد سلم له الملاط الامر ، وهو شاب غارء ذو عينين رهيبتين سوداويين كلبانة من آذار ، وشعر نام على خديه . ارتبك إيفان إيليتش بعض الشيء ، واخذ يشرح له بانه ليس مدفعا ، بل من المشاة ، ولا يستطيع ان يأخذ على عاتقه مسؤولية قيادة بطارية . قال الملاط بغوت وتهديد :

- هل مفهوم لك الامر ، يا رفيق ؟

- مفهوم ، ولكنني اوضح لك ، يا رفيق . . .

- في اللحظة الزائفة ليست القيادة بحاجة الى توضيحات . هل تنوى تنفيذ الامر ؟ . . .

«او» ، يا للشيطان ، كيف يتحدثون هنا» فكر إيفان إيليتش مع نفسه ، ووجد نفسه يؤدي التحية العسكرية : «حاضر» واستدار ، وسار الى السكة .

كانت الامور في هذه المدينة لا تشبه الامور في أية مدينة اخرى . ففي محطات المدن الاخرى مثلا ، اذا كنت تريد الذهاب الى اي مكان كان عليك ان تسيير خلال جموع من البرجوازيين المتنكرين المستلقتك جنبا الى جنب والجنود الهاربين والفلاحين والنساء مع اكياس يخرج منها ذبل ذيك او يقبح فيها خنوص ، لما هنا فلا يوجد احد ، بل تبدو الارض مكتوسة رغم ان الغبار الذي تطلقه الريح خلال النوافذ المحطمة كان يغطى ببطقة كثيفة المصصقات على العيطان ، وحاتوت المرطبات الذي تركه صاحبسنة منذ زمان . وحتى الاحاديث كانت تدور هنا بطريقة خاصة -

باختصار وتحذير ، كما يتحدث الانسان واصبعه على الزناد .

تسلم ايفان ايليتش قاطرة وامرا بالشحن بسرعة دون جهد زائد ودون ضياع . فلن انظر الى مقر القيادة وسألم عن سابوجكوف فاجابوا : «حسنا ، غنم على مسؤوليتك ...» وكان الطاقم قد بدأ بشحن المدفوعين على عربتي شحن على ضوء الصابيح المتأرجحة . وقف ايفان ايليتش يتنحنق في وجهه البحارة . هذا هو غاغين من مدينة نوفغورد بوجهه القاسي ذي التعابيد المعيقة ، والشعر الأسود الساقط من تحت طاقيته على جبينه حتى جفنيه ، وهذا بايكوف الهزل السكر ذو اللحية المريشة المقبرة التي تبدو معلقة في وجهه الصغير ، والراس المستدير القوي كالجوزة ، وهو من التماسك . وكان رفاقه التسعة قد امسكوا بعجانتي المدفع دافعين اياها على اللوحتين المنحدرتين ، بينما كان بايكوف يجلس مقرصا تارة ، وتأشرا من الجانب الآخر تارة اخرى مرودا : «يتحرك ، يتحرك ، يا اولاد ، اضغطوا ، هيا ...» بل ان احدكم لكزه بركبته : «اضغط انت ، يا رجل ...»

وهذا لا توفين من تيشني نوفغورد بوجهه العريض المنم عن جسارة ، والانف المبحوح الذي لا بد انه انكسر في عراقك ، الرجل الشديد اليأس المتوسط القامة ، الذكي ، الخطر عند الشجار و«الشرس» مع النساء ... وهذا زادوفيتز ...

وتقدم منه شاريفين :

- ايفان ايليتش ، اعرف اين تقع فوروبونوف ؟

- لا اعرف شيئا هنا .

- انها قريبة . عند تساريتسين تماما . وهناك تقع الجبهة .. يقولون ان البيض يضغطون ... بالمدافع والدبابات يتبعونها على عربات . والطائرات ... كما ان وراء القوات حوالي مائة ألف من القوزاق كان شاريفين يتحدث بخفوت وانفعال . لمعت عيونه الزرقاوان ، وارتعشت شفاهه الجبيلات وهو يتسهم . تجههم تيليفين .

- ألم تجابه بكل هذا في المعارك الجدية ، يا شاريفين ؟

فترجع وجه شاريفين ، وسعد الدم الى الله الصغير ، واحمر تماما . فتابع تليفين قوله :

- نسيحت ان تقلد من سماع الاقوال ... كل ذلك لا تارة الذم ... هل اهتمت بعلام الفصيلة ؟
- حاضر ا

ورفع شاريفين كفه الى طاقينه بالتخية ، وهو ما لا يفعله عادة . وتأتق وجهه . وكان فتي طيبا سريع الانفعال ، ولكن لا بأس . سيجتاز الامتحان . ذهب ايفان ايليتش الى عربة الضاعية التي كانوا يربطونها وراء العربات المكتشفة العاملة للمدفعين . فرأى سابوجكوف يركض على رصيف المحطة متفلا ، وقد تآبط كيه وسيفه .

- ايفان ، تحدثت عنى ؟

- كل شيء على ما يرام ، يسا سيرغي ميرغيفيتش ... اركب .

صعد سابوجكوف الى عربة الضاعية . وكانت انيسيا تجلس في ركن منها على كومة من اتمعة البحارة .

انزل المدفعان قبل الفجر على مسافة قريبة من فوروبونوف ، وهم محطة على الخط الحديدى الغربى ، ونصبا تحت تصرف احدى كتائب المدفعية . وهناك عرف تليفين وفصيلته ان الاوضاع في العجبة صعبة جدا . وكان خط الاستحكامات يبني بالقرب من فوروبونوف بشكل قوس يمتد حوالي عشرة فراسخ عن تساريتسين ابتداء من عند محطة فورمرا شمالا ، وانتهاء عند ساربيتا جنوب تساريتسين . وكان قوس الاستحكامات هذا يمثل خط الدفاع الاخير . وفي المؤخرة ورائه تمتد سلسلة واطئة من التلال ، وابتعد منها يحدو سهل حتى المدينة نفسها . وكان التراجع يعنى النزول الى امواج التلويغا الثلجية .

كانت الريح بالامس قد بددت السحب ، وجمعتها عند حافة السهب في دجلة حالكة . طلعت الشمس خالية من الدفء . وكان السهل البني المسطح يمور بعدد جم من الناس ؛ بعضهم يحفر

- ساكنكم - يا سادة ، ولكن ليس مسح غريغوري
غريغوريفيتش ... يجب ان نلبس العداد جميعها على غريغوري
غريغوريفيتش ...

وفي تلك اللحظة انفذت حجارة من المتراس ، وظهر فوق
الحفر بوز حصان بعض الشكيبه باستانه ، ومن الاعلى الحنى من
المرج فارس عرض المتكيبين ، محصر الخدين ، ملتج يضع على
رأسه قبعة كويانية . قلص عينيه ، وسأل ساعرا :

- الا تستطيعون ، ايها المواطنين ، ان تقررؤا العملون

لم لا ؟
عندئذ تقدم ستيان الكسييفيتش قليلا الى الامام بنعله
اليشود بحبل ، ووقع رأسه الى الفارس ، واجاب برقة مقنعة ،
كذلك التي تستعمل مع الاطفال في الدرس :

- يا رفيق ، انت الرئيس الكبير هنا ، على قدر معرفتي ...
ومن الفارس رأسه مرعا ، وريبت بيده المقفزة على حصانه الواقف
بحذر على حافة الحفرة . يا رفيق ، باسم فريقنا الذي جند الليلة
بالقوة على اساس قوائم لا يعرف احد عنها شيئا ، اعلن عن
امتجاننا الطامع ...

فقال الفارس الملتحي ، ولكن بلهجة مهددة هذه المرة :
- اما ا

- نعم ، نحن نحتج ا - وتقطع صوت ستيان الكسييفيتش -
انتم تضطروننا ناسا غير قادرين على العمل العضل ، على ان يعفروا
لكم الخنادق ... ان ذلك اسوأ اوقات التحكم .. انتم تمارسون
العنف ...

واختلج خداه كلاهما ، وانقض عينيه ، لانه تكلم كثيرا
جدا ، وتأرجح وجهه الاصفر المرفوع ... نظر الفارس اليه وقد
تلفست عيناه ، وارتمى متفراها الكبيران ، وانطبق فمه بقوة .
فلاح كالجرح - نزل من الفسرس ، وهبط الى الحفرة ، وضرب
ينطلقون الركوب ضربة واحدة ، وقال :

- بالسهب . نحن تضطركم للدفاع عن تساريتسين ، اذا
كسرت لا تستطيعون ذلك اختيارا . فلماذا يضايقكم هذا ؟ .. هيا
ليعطس احدكم رفشا .

الارض ، والاخر يندق الاوتاد ، ويصد الاسلاك الشائكة ، ويضع
اكياس الرمل . ومن تساريتسين كانت تأتي قطارات الضاعسة
محملة بالناس ، فينزلون منها ، وينشقون ، ويختفون في الارض .
وكان آخرون يخرجون من تحت الارض ويتجهون نحو المحطسة
متدبين . وكان يبدو وكان كل سكان المدينة القادرين على حمل
رفش قد سبقوا الى هنا للعمل ، ارادوا لم لم يريدوا ...

جاء فريق من هؤلاء ، حوالي خمسة عشر شخصا من مختلف
الجنات من كلا الجنسين ، الى موقع بطارية تليفين يتراسهم مهندس
عسكري عجز ضئيل البنيان .

وقد هتف بصوت اجش معلما شاربيه الاشيبين من لمساح
وبرى سميك ملفوف عليه :

- ايها المواطنين ا ان مهمتكم بسيطة . اريد ان تقيموا
متراسا ارتفاعه نحو ١٤ ذراع . خذوا التراب من هنا ، والقوة هناك
حتى يصل الى هذه العلامة على الورد ... تفرقوا خطوة ، وانكبوا
على العمل بهمة !

وصفق بيديه الصغيرتين الموردين من البرد ليشجعهم ،
وخرج من الحفرة بسرعة . شيعه الناس بنظرات متسعة بالحقق .
هزأت امرأة وجهها المستدير في اثره :

- اجمل ، يا غريغوري غريغوريفيتش ، اجمل ا

ويبقى الآخرون واقفين ، حاملين الاغراض بشكل يوحي بان
هذه الاغراض بالذات هي الادوات الطيعة للدكتاتورية البروليتارية .
ولم يشرع بحفر الارض غير فت فليظ الشفة بارز الحنجرة كان
مسرورا جدا في ان يكون في المواقع الحربية ، الا انهم عسوا به في
الحال :

- اجمل ، يا بيتيا ، اترك العمل حالا ...
وشرعوا يتحدثون جميعا مغاطبين شخصا ذا وجه اصفر عصبين
كان حتى ذلك الحين يلق مقفش العينين ، مترنعا بعض الشيء .
وكان معلمه الرسمي لوظف وزارة المعارف قد شد بحبل في تحد .
- لماذا صمت ، يا ستيان الكسييفيتش ؟ .. انتخبناك ...

ولنتظر منك ...

رفع جفنيه باستشهاد ، واختلج خداه .

ودون أن ينظر مدّ يده الكبيرة بقفاها البني ، فأسرت تلك المرأة المتلذذة المستديرة الوجه لتقدم رقبها اليه ، وكانت طوال الوقت لا تصرف عنه عينيهما الدهاقتين .

- لا حاجة لأن نتشاجر . إن ذلك سيؤذي تفاهم محض - وغرس الرقب ، وقلع التراب ، والقضاء بقوة على المتراس في الأعلى - نحن لعارب ، وأنتم تساعدوننا . وعدونا واحد . . . فالتوراني لا يرحمون أحدا . سيسلخون جلدي . وسيجلدونكم واحدا واحدا ، ويقتلون بعضكم بالسيف . . .

كان يضطرم بالعافية والقرعة كما يضطرم الموقد . التي بعض الإفراش من التراب ، والتي نظرة سريعة على الواقفين . «هيا» وربت على كتف التي ذى العنجرة البارزة ، وعلى آخر لطيف المظهر ابتله قليلا له رموش بلون الفس . «هيا» لترهبهم كيف يكون العمل . ابتسم الشايان بارتباك . وشرعا يحفران ويلقيان التراب . وهم الآخرون اكتافهم ، ثم أخذوا الإفراش وبدأوا العمل . وقالت السيدة ذات الوجه المستدير : «وانا أيضا . اسحوا لي» وتعثرت برقبها . فأمسكتها الأمر الملنحي ولا بد أن قبضته كانت قوية ، فقد احمرت وبدأ عليها العرج . وخشى ستيبان الكسيسيليتش أن يظل وحيدا ، فقال بصوت عال :

- ولكن كيف ذلك يا رفاق . والثورة . والعنف ؟ الثورة قبل كل شيء . هي ضد العنف .

اجاب الملنحي بصوت وناز :

- الثورة تطبق العنف ضد أعداء الضعيلة ، وتحقق هي نفسها عن طريق هذا العنف . مفهوم ؟

- . . . ولكن هذا ضد الاخلاق . . .

- . . . تطبيق البروليتاريا العنف عليكم ليثحسرد العالم كله من العنف .

- اسمح . اسمح . . .

- لا ، - قال الرئيس بقوة - لا اسمح لك . لقد أخذت تشاكس ، وذلك تخريب . خذ الرقب . . . يا رفاق . يعني

استطيع ان أمل بان المتراس سيكون جاهزا في الساعة العادية عشرة . الى اللقاء . . .

كان الجازة يستمعون الى هذا الحديث من بعيد . وبغالليون الضحك . وعندما فادر رئيس مدفعية الجيش العاشر قبلوا على المتفاني للمساعدة ولكيلا تتراخي همتهم .

٤

كان فوج بيتر تيغولايفيتش ملتبس متراجع مع الفرقة كلها على طول الجهة اليسرى من الدون صادوا ليل نهار الوحدات الامامية للتايور الثاني التابع لجيش الدون المجهز بشكل جيد ، والمؤلف على الطريقة النظامية . كان رجال فوج ملتبس قد اختتمت المعارك والمسيرات الليلية ، بلا طعام ساخن ، ولا نوم ولا راحة . وكان قوزاق كرامستوف يعرفون جيدا كل وحدة ، وكل منخفض مائي في تلك السهوب . ويحرسون الخصم في الاماكن الملائمة لهجومه . في فجر بدأت وحدات مشاتهم في اطلاق النار لصرف الانظار ، بينما كانت خيالتهم تشق طريقها خلال الوهاد والمنخفضات مسن الجناحين . وتهاجم بشكل مباغت وبضراوة وصفيح وصياح .

وكان ملتبس يقول للمقاتلين «الصمود . يا رفاق ، هو اهم شيء . قوتنا في التلاحم . ونحن لا نهاب هؤلاء البرابيت . فنحن نعرف الغاية التي نقاتل من اجلها ، والموت عين لنا . القوزاق جري ولكنهم طماع . وهو يريد غنيمة ، ولا يريد ان يفارق حياته ، ويحرص على فرسه اكثر من اي شيء آخر» .

سارت سرية ايفان غورا كحراسة المؤخرة مقفية طايور العريبات ، حيث كان الجرحى في كل عربة فيسه . وكان من غير الممكن تركهم ، وما من مكان يتكئون فيه . فقد كان القوزاق لا يخلعون اسرى . خيالة كانوا اومشاة . وكانوا يجردون كل من تجا عن المعركة ممن ذوي التجوم العمر من ملابسهم ويذبحونهم بالسيف . وبعد ان ينتشروا من ذلك ينصرفون تاظرين الى الجنت السطلمة بغلظامة ، ماسحين سيولهم باعراف خيولهم .

لم يكن في الدون قط متبل لتلك البغضاء الضارية التي ظهرت

في القرى الغنية . . . فقد جاء اليها محرضون من نوفوتشير كاسك .
 وطاف الزعيم كرامتوف بنفسه في بعضها . وبنجح الجرس جمعوا
 «حلقة انقاذ الدون» وحسب العادة القديمة خلعوا القبعات والخنوا
 ودعوا القوزاق الى شدة السيوف وامتناء الخيول : «حانت ساعتك»
 ايها الدون الحر . . . فانهض . . . سنزحف على تساريتسين كالسحابة
 القوزاقية الرهيبة . ونلقى على وكر الشيوعيين اللعين . ونظير
 الدون من الجرثومة الحمراء . . . انهم لا يريدون ان يعيش الدون
 غنيا مرحا ! انهم يريدون ان ينتزعوا خيولنا وماشيتنا . ويعطوا
 ارضنا الى الغلاصين القادمين من تولا وايرول . وياخذوا زوجاتنا
 الى قرشهم . ويرسلونا نحن . القوزاق المعاقلة . ملح ارض
 الدون . الى المناجم الى الابد . . . لا تدعوهم يلوثون معابد الله .
 وتنافعوا عن محراب وطننا . لا تضنوا بالحياسة . . . وسيقدم زعيم
 جيش الدون العظيم تساريتسين لكم لمدة ثلاثة ايام بدياليها» .

كان امر السرية ايفان غورا المديد القامة المكور الكتفين ذو
 الوجه المسود من السهر . قد تعود في تلك الايام على رؤية خيالة
 القوزاق يلوحون من بعيد في الافق . وعرف عاداتهم . فلم يكن
 يامر رجاله بالانبطاح دون فائدة . بل كان يطلب اليهم ان يسيروا
 دون ان يلتفتوا الى الوراء .

سار طابور العريبات في المقدمة في صف متراص عريبة وراء
 عريبة . يعقبه الجنود في مشية ثقيلة مهلهل التسياب . تعيلين .
 مطلمة الرؤوس . وكان ايفان غورا نفسه يسير في المؤخرة
 كالشيل . قبل نصف عام كان رجلا قويا . الا انه اصيب في هذا
 الصيف بجرح في راسه اثر ضربة بالبناس في زريبة حين كان يصادر
 الحبوب . ثم اصيب بارتجاج الدماغ في معركة قرب محطة ليخايا .
 كان يسير لشيئا تارة . ويطفو في السير تارة اخرى . وامام عينيه
 الغائبتين تتراى ذكرى لطيفة ما : الناس يجلسون على جنوح
 الانسجار في غسق الصيف . وحطاف يطير محوما فوق رؤوسهم . . .
 او اعشاب خضراء وعليها وسادة عليها الغريبتا ضاحكة . . .
 وكان يطرد من ذهنه هذه الاحلام . ويتوقف . ويعدل وضوح

البتديقية على كتفه . ويفتح جفنيه الثقيلين . وينظر الى السالميرين .
 والى العريبات يجرعهاها المتقلبين . والى السهوب المتبسطة المحروق
 الداخل في روحه . يتداح على امتداد البصر . بين الاديوم موحشا
 متناوبا لا شجرة فيه ولا عمود لتلغراف . وتعثر . وهز رأسه . . .
 آه . لطيف ان يسير الان بجوار عريبة . ويضع يدا على حافتها .
 ويطفو لعلة في السير !

وما هم ثابثة الغريمان الصغار في طرف السهوب . وطلقات
 من هناك . ويصرر الرصاص بيرات .

« انتباه . يا رفاق ! يا من في العريبات . لا تناموا ! . .
 كانت في العريبة زوجته الغريبتا جريحة في ذراعها . ووراء
 هذه العريبة سارت داتسا وكوزما كوزيميتش .
 ارتفعت في الظلام صيحات مسطولة . وتوقف طابور العريبات .
 ومالت داتسا على حافة العريبة في الحال . ووضعته راسها على يدها .
 ومن خلال تهويبتها سمعت ايفان غورا يقترب . ويتكلم بصسوت
 خافت مع الغريبتا الجالسة في تلك العريبة . . .

- اتسنى لو ادخن . . انتي اكاد اسقط .
- لماذا توقفتنا ؟
- استراحة حتى الساعة الغامسة .
- من قال لك ؟
- جاء مراسل .
- القى مراسلك علي . يا ايفان . وانفذ .
- وهل هناك فرصة ؟ . . انظري الي قتيانكنا . . . كيف
 هدّمهم التعب . . . وانت لماذا لا تنامين . هل تؤلمك يدك ؟
- تؤلمني .

حرفت العريبة صريحا خفيفا . جذب نحوه الغريبتا . ووقف
 بعين مثل حصان متعب .

- يقول المراسل : ان العدو يعبر الدون ومعه قوة هائلة !
 ووراء الافواج يسير الرعيان مع الرايات . والعريبات تحمل براميل
 الفودكا . والقوزاق ييجنون وهم سنكاري . جزايرين تناموا . . .

- كل شيئا من الخبر . يا ايفان .
- اعد يوضع بيده . ويتبلع يعبر . ثم نستم :

- نحن على مقربة من الدون تماما . وعلى مسافة قريبة يوجد معبر . وقد اشدت اللوزان الى الضفة الأخرى . ولهذا السبب توقفنا ، على ما أظن .

اعتزت العربية مرة أخرى . وانفصل ايلان غورا عنها . وانصرف بخطوات ثقيلة . وهذا كل شيء ؛ الناس والغبول . وكانت داشا تنفخ في كفاها . . . ستتخل عن كل شيء من اجل لحظة مثل هذه من التعاطب المكثوم مع من تعبسه . اوه ، يا للقلب العاسد الغيور ! عم كنت تفكرين من قبل ؟ وماذا كنت تنتظرين ؟ كان جيبك العزيز على مقربة منك . ولكنك لم تهتمى به وفقدته الى الأبد . . . ادعيه الآن ، واصرخي : ايلان ايليتش ، ايفسان ، فانيا . . .

. . . ايقظها كوزما كوزميتش . . . كانت ترقد منطوية تحت العربية . كانت طلقات تردد من بعيد ، وكان فجر اخضر ينتشر في الرحاب . وكان اليرد شديدا جعل اسنان داشا تصطك ، واخذت تنفخ في اصابعها .

- داريا دميتروفنا ، غشى حقيبتك بسرعة ولنذهب . . . هناك جرحي . . .

ترددت الطلقات في الاسفل عند النهر حادة في سكون الصباح . نهضت داشا بصعوبة ، وقد تقدمت تماما من النوم الفصير على الارض الباردة . عدت كوزما كوزميتش عليها بشارة الاسعاف ، وركض في المقدمة ، ثم عاد :

- اسرعي ، يا عزيزتي ، اسرعي . . . جاعتنا على مسافة قريبة . الا تسمعين انينا ؟ لا ؟

ركضت ثم توقف ماذا رقبته ، وتلخص ما حوله . لم تلق داشا بالا للدهاب ومجيبته ، ولكنها كانت تسمع من جبهته هذا .

- عزيزتي ، انحنى . الا تسمعين صفير الرصاص ؟

وكان كل ذلك توها متسه . فلم يثن جرحي ، ولم يصفر رصاص . وتوجه ضوء الفجر . والى الامام لاح نقاب ابيض ، وكان النهر قد غاض على الضفاف . كان ذلك الضباب الخريفى الواطئ ينقرش فوق النهر . وعلى شجيرات الصفصاف العارسة عند الشاطئ . وكان ايلان غورا يفوس فيه الى الوسط . وكاله يفوس

في حليب . وعلى مسافة ابعده جندي آخر في قبعة عالية وثان وثالث يابحون حتى الحزام . كانوا يمدون ابصارهم الى شفة الدون اليمنى العالية التي لم يصل اليها الضباب . وهنساك ، وراء النباتات السوداء تصاعدت غيوما كثيرة من الدخان في الهواء الراكد .

وقد رأها كوزما كوزميتش ايضا ، فبدا وكان القبطة قد خنقته . وانسمت عيناه وقال :

- انظري ، يا داريا دميتروفنا ، انظري ماذا يجري ! انهم يبادون مع الجيش لينهبوا . مائة الف عربية . . . هؤلاء كقبائل الرجل القديمة ! انظري ؛ خيول غير مسدودة ، وعربات ! وعند النيران يضطجع رجال ملتحمون وسكاكينهم وراء جزماتهم . . . انظري ، يا داريا دميتروفنا . . . منظر يري مرة واحدة في العمر . . .

ولم تر داشا عربات ولا خيولا ولا نوزاكا يضطجعون عند النيران . . . ومع ذلك فقد احست برهبة . استدار غورا وأشار لهم بيده ان يجلسوا في الضباب ، وتتمت كوزما كوزميتش وكأته مستغرق في قراءة رواية شيقة :

- حينما لو نرى ذلك لمثليشا . ها ؟ حلم لا يروى . . . ارادوا دستوروا ، وهذا هو ! ارادوا ان يحكموا الشعب الروس . . . اى ، اى ، اى . . . اختلقوا الروايات عنه ، صبور وكسنول وخانتس . . . اى ، اى ، اى . . . وهذا هو . . . يقف الى حزامه في الضباب رهيبا ذكيا ، يفهم كل مصيره ، وعيناه ناقدتان في حياض العدو . . . انظري الى هذه الجسوع . . . لقد شجعت ازمتهما ، ولبست قفازهما . . . لئن تجدى ذلك في اى كتاب تاريخي . . .

وفجأة توقفت طلقات بنادق ورشاشات . وتوقف كوزما كوزميتش في نصف جملته . كان ايلان غورا واقفا في المقدمة فادبر راسه . وانهدب انتحاران كامدان عند النهر في الاسفل ، وفي الحال اسطبخ الضباب يوهج ارجوانى ، وتناهدت صيحات بعيدة وتناهدت الطلقات من جديد .

- يبدو ان اصحابنا احرقوا المعديفة على الضفة الأخرى - قال كوزما كوزميتش ذلك واطلع راسه من الضباب - مذهبة ، هناك ، مذهبة . . .

الشماسي العاني ، ويصطلون وينادقهم عند اقدمهم ، ويغلقون قبايعهم . وكان السامسة بخصلاهم المتطارية يصرخون كالوحوش ويفرقون بمياترهم ، بينما كان الساموسة الذين يبدون كالجراس الذهبية يحملهم المزهرة يباركون القوات .

كان الجنرال مامرتوف يراقب العبور وهو واقف تحت راية القائد العام على رابية امام ضباط القيادة والعراس . وكان منظورا جيدا من قبل الجميع في بزته العسكرية القوزاقية السوداء ، على صورة جواد فضي كان يضرب الارض بحافره . كانت القوات تسير منتشرة الاناشيد على قرع الطبول ، وخصصل شعر الخيول على الصوالجانات القوزاقية تتطير في الهواء . وكان هدير المدافع يسمع في شرق السهب المغلف بشباب القوات المسائرة .

رفع القائد يده التي يشد منها السوط ، محتجا عين الشمس ، ونظر الى الطائرات وهي تطير واجتاحتها مائلة قليلا الى الورد ، وعدعا ، ورائبها حتى اختلفت هائلة نحو الافق . مرت بالرابية المدافع الثقيلة التي انزلت لثرتها من السفينة ، وقد رسموا على دروعها ومواسيرها خطوطا للتويه . ومرت عربات تجرها خيول صغيرة مختلفة الالوان تصيرة القوائم شعت الاعراف وسواقها الملتحون يسوطونها بجنون . وقيل ان بهذا الغبار جات الدبابات الضخمة من الواح التنوع المبرشمة وقد ارتفعت انوف جنايرها المستنسة ، وعدعا القائد . عشرة من الاغوال الفولاذية مستسحق الاغواد البحر في شوارع تسارستين . نزل من الرابية وعدا يفرسه بحالاته الشماسي ورايته الزرقاء السوداء تغلق وراءه مرفوعة بنواع حاملها .

وحملت القوارب قوات جديدة ، وسارت المعديات تحمل عربات العلف ومختلف الامتعة ، وبالقرب من المعبر وفتت عربات مختلفة الاشكال منها عربات كبيرة تستخدم في حمل الحزم من الحقل . والقوزاق الموقرون واقفون بينهم بهسدوه ينتظرون المعدية ، اوسانرون او جالسون عند النار يمشقون . كان هؤلاءهم التجار الذين ارسلتهم القرى القوزاقية الى قواها . وكانوا يقومون بالشلون المعيشية . ياخذون المقام من النقود والماشية والحبوب والعلف او الاشياء الاخرى الضرورية من الملابس والبطانياسات

ركش ايفان جورا وصف من جنوده نحو الشماسي متحنين ، واختفوا في الاجمة . انتشر الشروق عريضا على السهب . وتشف الضباب واهتز وتمزق بين الضمان الضفصاف العارية . وارتفعت فجاء شيعات زهية فوق الشماسي ، فوق نقاب الضباب عند النهر حتى ان دانتا ضغطت قبضتها على اذنها . وانبطح كوزما كوزميتش على الارض .

خريبات ، وصلصلة ، وطلقات ، وعويل ، وطرطشة مياه ، وانفجارات قنابل يدوية .

ثم ظهر ايفان جورا من الاجمة . سار مثلعا الهواء . زافرا بقوة . وكان راسه غاليا من الطاقية ولكنسه كان يجعل قبعتين قوزاقيتين عليهما شاراتان حمراوان . تقدم من دانتا وقال :

- سارسل نقالة ، فاركضى سريعا الى النهر . هناك رقيقان يحتاجان الى تضميد ...

ونظر الى القبعيتين ، ورمى واحدة منها ، ووضع الاخرى على راسه بحركة عصبية .

- اراد الاوغاد تطويقنا على القوارب ... اذهبى ، لا تخافى . قضينا على الجميع هناك ...

5

كانت شماسي الدون تضج بين قريتي نيشنى - تشيرسكايا وكالاتشى . فقد كانت افواج جيش الدون العظيم يخيلتها ومشاتها تعبر النهر على ثلاثة جسور عائمة وفي المعديات والزوارق . كانت الخيالة تسير بتشكيلة الزحف ، وهي في بزات جديدة ، وقبعات مائلة وخصلاها التقليدية بارزة منها على الجبين ، حسب العادة . والاعلام الصغيرة الملونة على رؤوس الرماح . والماء يتناثر من بين الواح الجسور من تحت حوافر الخيول الفشية التي كانت تحدد الدون الرمادي المياء بعيون زائفة .

كان المشاة من الضباب الغض يجازون النهر بزوارق طويلة ، وقد افروا اقوامهم ، وهم ينتظرون الى التجمس الضخم للغوزاق والخيول والمجلات ، ويقفزون من الزوارق الى الماء ، ويتسلقون

والحضايا وتضمد الریش والمرايا والسلاح . ومن هذه المغامرات كانوا يزودون قواتهم بالمخلف والاغذية وباللباس والسلاح اذا اقتضت الحاجة . ويسجلون الاشياء الباقية في قوائم يضعونها على العربات . ويرسلونها الى القرى ببيعة الاولاد والنساء .
مرّ مامونوف بضيعة ريشكوف . حيث احرق لصف البيوت . والاهراء قد اسودت من الرماد . واستدار بمعاذاة الخط العديدي . وانتظر قدوم القطار المصطف من الجهة اليمنى .

كان جيش المدون المؤلف من اثني عشر فرقة خيالة وثمانين فرقة مشاة يهاجم بخمسة طوابير .

سارت الطوابير الخمسة كلها بزحف سريع نحو آخر خط لاستحكامات الدفاع عن تساريتسين . وكان الجيش العاشر الذي فقد الاتصال مع الوحدات الشمالية والجنوبية يتراجع متراسا في جبهة تزداد ضيقا . واستنفدت فرقة العسس بتمدادها القليل آخر الذخيرة وآخر القوى .

كان المجلس العسكري الاعلى للجمهورية الذي كان عليه ان يقدم مساعدة حاسمة للجيش العاشر مشلولاً في تلك الايام بالذات بفعل خيانة سرية حسنة العبكة انعكست في التأخير الشديد لجميع التحركات . وفي الاصرار على ان الكفاح في سبيل تساريتسين امر ثانوي ليس له اهمية وعلى دخر مجلس تساريتسين العسكري . وتركت تساريتسين لتدافع عن نفسها ضد القوزاق بغواها الغامسة .

في تلك الايام اصدر المجلس العسكري للجيش العاشر امرين : اولهما بتسيير جميع السفن والصنسدال والقوارب والمعدنيات من تساريتسين الى شمالها متما حث للتفكير في تراجع القوات الى الضفة اليسرى من الفولغا . اما الثاني فكان يخص الجيش . ويتضى بعدم التنقل عن المواقع المحتلة حتى وصول الاوامر . والتراجع عقباه الاعداد رميا بالرصاص .

من النصف الاول من النهار هادنا في بطارية تليفين . وترامس هدير المدافع وراء الافق . الا ان السهل كان مقفرا . وكان

البحارة يعرفون ملجا . ذهبت انيسيا الى الحطلة . دون استئذان . وعادت بعد حوالي ثلاث ساعات تحمل كيسين ثنوء بهمساً . في احدهما خبز وفي الآخر بطيخ . افترحت الكيسين وفرشتهما على الارض بين المدفوعين . وقطعت الخبز . ولطعت كل بطيخة الى اربع قطع . وقالت : «كلوا !» . واتحت هي جانباً بسيطة راضية تنظر الى البحارة الجياع يلتهمون البطيخ . كان البحارة ياكلون دون ان يسعوا خدودهم . وهم يقدون في الشتاء :

- غليظة انت . يا انيسيا . . .

- من العسير ايجاد امرأة مثلك .

- ... امرأة تادرة حقا . . .

وقال شاريفين الرصين الذي يدل بدلوه في كل حديث :

- انها صاحبة المبادرة . وذلك المهم في الموضوع .

رفع البحارة رؤوسهم من قطع البطيخ . واطلقوا ضحكة صاخبة . تبس شاريفين . وهنئ . وتناول الرقش قائلاً :

- اقترح . ايها الرفاق . ان نحفر لانيسيا ملجا منفصلاً . فان من الضروري الحرص على مثل هؤلاء الناس . يا رفاق . . .

ضحك البحارة . وراحوا يعرفون خندقاً صغيراً لانيسيا في متخفص وراء البطارية لتختبئ به عند اطلاق النار . ولم يكن هناك من عمل آخر . افترحت القنايسل من السفيتية . وصفت صغولاً بالقرب من المدفوعين . ونظفت البنادق . واقام سايرجكوف الاتصال مع نقطة قيادة الكتيبة . استلقى البحارة في الاخدود يتدفقون في الشمس . ولسان حالهم يقول : نحسن على استعدادنا لاستقبالك . يا جنرال مامونوف .

جلس ايفان ايليتش على عربة المدفع . ولوى لصلباً جاقاً وكسره . ولم يكن يدخل في مناقشات كبيرة . فقد كان يعتز بهذا العالم الصغير من الناس الذين جاؤوا من مختلف الانحاء . والذين يختلف بعضهم عن الاخر ولكنهم ربطوا مصائرهم مع بعض . فهذا سيرغي مينزيفيتش الذي يبدو وكأنه لا يتسجم مع احد ويفيض دائماً بافكار حادة اصبح في الحال ضرورياً للجميع . وقد وجسه مكانه فوراً . واستقر عند عجلة المدفع يتنفس بعمق . وشاريفين -

الشباب الطوبح الذي لا يتميز بالذكاء ، ولكنه صلب ذو روح صافية بلا ظلال - ينام على جنبه هادئا ، وقد وضع قبضته تحت عنقه . وتتمد زادوفيتش على الرمل بعظمة نحوها الى الشمس وجبهه الجميل الخشن المتناطيس . انه فلاح ماهر جنود مديري اذا كتبت له الحياة فسيعود الى بيته ليدير شؤونه . ولاتوغين مراد آخر من غابات سيبيريا يشخر جبارا وقد غطى وجهه بطاقيته . انه اكثر تعقدا بكثير وبلا مكر - فهو ليس بحاجة اليه - وهو نفسه لا يعرف بعد اي سماء سيتسلق ومعه سدس وقنبلة يدوية .

اوكل اثنا عشر رجلا حياتهم الى ايفان ابلتيتش . وسلبه المجلس العسكري البطارية في مثل هذه اللحظة العرجية . . . صحيح انه كان يعرف شيئا في الرياضيات ، ومع ذلك فقد كان عليه ان يعلن لهم بثبات انه لا يصلح للقيادة البطارية . . .

- اسمع ، يا غاغين ، هل يعرف احد منكم حساب زوايا التسديد ؟ اذ ليس عندنا مقياس المسافة . . .

كان غاغين واقفا على سلمة الخندق يتطلع الى السهوب من فوق المتراس ، فالتفت وسأل كتيبا مشتبها نظرة سوداء في تليفين :

- مقياس المسافة ؟ وما حاجتك الى مقياس المسافة ؟ سيبلغوننا بالتلفون من نقطة القيادة عن الزاوية والتسديد .

- صحيح .

- كلنا نعرف الزوايا والتسديدات والمسافات . ولكن ليس هذا هو الامر ، يا رفيق تليفين . . . ستكون المعركة رهيبة دون مقياس المسافات ، بل بالحد . عمل المستحيل ، واضرب حتى آخر قذيفة . هذا ما ينبغي ان تفكر فيه . . . تعال هنا ، سنأريك شيئا .

صعد تليفين اليه على السلمة ، اشتد هدير المدافع ، وكأنه قد اقترب . وكان الافق في القرب والجنوب ملغما بعظمة داخنة . نظر تليفين الى الانجساء الذي يشير اليه اصبح غاغين ولاحظ في السهوب مجموعة من الرجال ترتجف من الشمال ، وصفا مسن العريبات .

قال غاغين وهو يشير برأسه الى دخان هائل يرتفع بشكل منملة في الجنوب صوب ساربيتا :

- رجالنا يتراجعون . منذ مدة طويلة وأنا ارى الاقا والاقا يرتكضون في هذا الاتجاه . . . هل ترى الانفجارات ؟ انها لم تكن من قبل . انهم يطربون بالمدافع الثقيلة . توقع ظهور الجنرال هنا في صباح الغد .

تفقد ايفان ابلتيتش مرة اخرى لجهزة البطارية . واحصى القذائف والخراميش . لم يكن هناك غير مضطرب لكل بندقية . وقد اقلته بشكل خاص موقع البطارية المكسوف . كانت الخنادق المحفورة حديثا تلوح من الموقع على مسافة ما يقرب من اربعمئة متر ، ولكن لم تكن تبدو فيها أية حركة . بينما كانت وحدات القوات الحمراء تمر الى مسافة ابعد بكثير ، جلس تليفين بالقرب من سابوجكوف . كان وجه سابوجكوف متفعضضا ، وكان النوم لم يعد سهلا عليه .

- اعزوني ، يا سيرغى سيرغيفيتش ، على الزعاجك . صلني بأمر الكتيبة . . .

فتح سابوجكوف عينيه الغالمتين :

- ولماذا ؟ لقد اعطيت الاوامر بعموم اطلاق النار . وسيبلغوننا اذا انقضت الامر . . . ما الذي يقلقك ؟ - وتحرك نحو العجلة وتناوب بتصنع واضح : احسن ما تفعله ان ترقد وتضجع يوما .

عاد ايفان ابلتيتش الى السلمة ، ووقف طويلا بلا حراك واضعا يديه على المتراس . كانت شمس برتقالية داكنة هائلة تدوس في العتمة التي انارتها حوافر الافواج الغوزاقية التي لا عد لها في مكان ما وراء الافق . تحرك ظل الليل على الوادي ، ولم يعد من الممكن تبيين حركة القوات فيه . وصارت السماء في الشفق تحت نجمة السماء الصافية كبلاد خيالية عند بحر اخضر ، وقد اصطلت هناك ابراج صينية ، ثم انفصل واحد منها ، وعام ، وتحول الى حصان ذي رأسين ، ثم الى امرأة تلوي ذراعها . . .

وبدا وكان المرء ما ان يخرج من الحفرة ، ويحرك قدميه ، مثلما يحدث في الاعلام ، حتى يجد نفسه قد طار الى تلك البلاد

الرائعة . والا فما معنى ظهورها لك في ساعة المعركة المميته .

قال سيرغي سيرغيفيتش ، وقد وضع يده على ظهره :

- دعك من هذا - فانه متايحة محض ، يا ايفان ، ان تحدث في الاشباح . هل تلف سيكارة ؟ لقد سركت في المستشفى عليه الشبع . فانا احرص عليه لادخنه قبيل الموت . . .

وكان على عهده يتحدث بلهجة ساخرة ، رغم ان حزنا يختمى في العيون القاسية عند فمه ، وفي عينيهِ الغائمتين . لفسا سيكارتين ، وشعرا يدشان . سخن تليفين دون ان يمس المدخان ، بينما راح سايرجوكوف يعبه شاعقا .

سال تليفين بغلوت :

- لماذا تضرب على وتر الموت ؟

- اصبحت اشاق الموت . . . اخاف ان تصيبني رصاصة في الراس . فانها لن تقتل في مكان آخر ، اما في الراس فاشاقها . الراس ليس هدفا ، فقد صنع لشيء آخر . انتى الشفق على الفكارى . . .

- كلنا تخاف ، يا سيرغي سيرغيفيتش ، فقط لا يحسن التفكير في ذلك . . .

- وانت هل اهتممت بالفكارى مرة واحدة ؟ انت لا تعرف الا ان سابوچكوف فوسوى ، وسابوچكوف يعب الفودكا . . . بينما ارى انا من خلايك ، وكالما من زجاج ، حتى آخر تلافيف دماغك . واستطيع ان انقل رسالتك الى الاحياء ، بينما انت لا تستطيع ان تنقل شيئا عنى . . . وهذا شيء مؤسف جدا . انسا احسنك ، يا ايفان .

- على اى شيء تحسدنى بالذات ؟

- انت انسان مكشوف : الواجب ، والحب المخلص ، والتقد الذاتى ، خادم في منتهى الوفاء ، وفق طيب - وستعبدك زوجتك حين تستقر - وحياتك بسيطة ، لانك انسان من طراز قديم .

- شكرا على الشهادة .

- اما انا فاقسف لان غيمزا لم يرمى بالرصاص في ذلك الصيف . لقد انتظرنا الثورة ونحن نترعش من الهبة . وقلدنا

في العالم بحزمة من الافكار : ذلك هو العصر الذهبي للفلسفة والحربة المنشودة . فاذا بها كارثة ، اطلع كارثة . . .

وضرب بكفه فوق عينيه ضربة لزامت طاقته على علباته .

- كنت اود بهذا الخصوص ان ادلي ببيان الى البشرية . - لا اكثر ولا السل - بيان خبيت للغايصة وليس للجير - فليذهب الخير الى الشيطان - بل للشر . ولكن لا توجد نسخة مكتوبة ، لم اكتبها بعد . . . ارجو العفوة .

وكان الظلام قد خيم . وعلى الافاق اشتعل حريق وتصاعدت التورعجات الحمراء الداخنة واتسعت ولاسيما الى الجنوب في ناحية ساريتا . فقد كانت المزارع تحترق ضيئة الطريق لمعدو المهاجم بسرعة . كان تليفين الآن يسمع باذن واحدة : هناك بعيدا في الغرب كانت المنواربخ الخضراء تنطلق ثلاث دفعة واحدة ، وكالما افجاج تطل برؤوسها البراقة من وراء الافق .

الا ان سيرغي سيرغيفيتش واصل كلامه بعناد وبصوت مرتعش دون ان يعير التفاتا الى هذه الاضادات ، مما جعل جلد ايفان ايليتش يقشعر بين لحظة واخرى .

- ام اتنا نعيش لكي ناكل ؟ في هذه الحال لتحطيم الرصاصة جميعي ودماغى الذى كنت اعتبرته ، وانا في تمام الخطاء يعادل الكون كله ، لينفجر مثل فقاعة صابون - الحياة ، ولعلك تسمى ، هي حلقة من الكاربون زاندا حلقة من الازوت ، زاندا مادة اخرى تافهة . ومن الجزئيات البسيطة ننسأ اشياء اكثر تعقدا . تم معقدة جدا ، ومن ثم معقدة بشكل رهيب . . . وبعدها انفجار ! وبعدا الكاربون والازوت والتفاعة الاخرى بالتحلل الى ايسر حالة . وهذا كل شيء ، كل شيء يا ايفان . . . فما علاقة الثورة هنا ؟

- اى هراء تقول ، يا سيرغي سيرغيفيتش ؟ الثورة هي التي ترفع الانسان فوق الابدال .

- اتركنى وشأنى ! ثم انتى لا اتحدث معك ، فانت لا تفقه في الثورة كثيرا . الثورة انتهت ، حطمت . فانظر ابعد ممن انك . . . ان روسيا السوفييتية الآن في حدود ما قبل ايفان

الرهيب . وقريبا ستكون جميع الطرق بيضاء من العظام . وستنتشر
حلفاء الكاربون والازوت ، واعتني بذلك اولئك الذين سيأتون في
الصباح على خيول .

صمت تليفين متصبًا في وقتته ، وبداه وزاد ظهره ، وفي
الظلام كان من الصعب تمييز تقاطيع وجهه الحمراء من الوهج .
- ايفان ، لا تستاهل الحياة ان تعاشي الا من اجل مستقبل
خيالي ، وحرية عظيمة كاملة ، حين لا يعاق الفرد بأي شخص
او بأي شيء من ان يشعر بأنه معادل للكون كله . وكم من امسيات
تحدثت فيها عن هذا مع رجال ! كانت النجوم التي فوقنا حسي
نفس النجوم في زمن هومبروس العظيم . والثيران التي كانت تحترق
هي نفس الثيران التي اضاءت الطريق خلال الوب الاعموم . واصغى
الفتيان الى حديثي عن المستقبل وصدقوا بي ، وفي عيونهم التفتت
النجوم . والعكس ضوء الثيران على حراب القتال . . . وهم جميعا
يرقدون الآن في السهوب . . . لم اكد رجال الى النصر . . . يعني ،
خدعتهم !

على بعد حوالي مائة وخمسين خطوة الى اليمين ترددت صيحة
حارس تبعها حديث خافت . التفت تليفين متفحصا . لا يد ان احدا
من الجماعة تقدم من غافلين الوائف في الحراسة في الجانب الآخر .
- وماذا لو كان هذا المستقبل ، يا ايفان ، مجرد حكاية
اسطورية رويت في سهوب روسيا النائية ؟ وانه لا شيء ؟ واذا كان
الامر كذلك فان الربيع يجتاح العالم . - وتقدم
سابورجوف من تليفين تامسا ، وقال همسا - وقد جاء الربيع
وحق الآن لم يصدق احسد بذلك عن حق . والربيع اخذ من
توه يمتحن قوة المقاومة . ان اربع سنوات من اباداة البشر ليست
شيئا اذا قيست بما هو ات . ان تدمير الثورة عندنا وفي العالم
اجمع هو الشيء الاساسي . . . وبعد ذلك التعنت الشاملة العامة
لل فردية . رؤوس حليقة وغل في اليد . . . وفوق رقاق العالم
الرمادية يسيطر الربيع المنتصر المنتفخ . . . من الافضل ان
اقتل في الحال بضربة حارة من سيف توتازكي . . .

قال تليفين :

- انت بحاجة الى راحة وعلاج ، يا سيرغي سيرجيليتش .

- لم اكن اتوقع جوابا آخر منك . ! .

زل غافلين الى الحفرة بصعوبة عسكرية طويل مكور الكتفين .
فرح تليفين فرحا غامرا بانتهاء حديث ثقيل لا يطاق . كان القادم
مطلعا بالوجه وذليل مغلته مزرق ، ومن الغريب انه كان يرتدي
قعة توتازكية . وقد تكلم بصوت كثيف ، وكأنه ظل اسبوعا
غاطسا الى رقبته في مستنقع :

- مرحبا ، ايها الرفيق الامر . كيف الحال عندكم ، هل
لديكم قذائف ؟

اجاب تليفين :

- مرحبا . ولكن من انت ؟

- انا من سرية في فوج كاتالين . وقد امرنا بانفساد
موقعنا امامكم . انا امر السرية .

- لطيف جدا . لقد بدأت اللق : الخنادق حفرت ، ولكن لا
توجد لدينا نقاط حراسة .

- وها قد جئنا وانظروا . كما جلبنا جرحى . وسنضعهم
في قطار . اردت ان اطلب خبزا من الملاحظ فقال : لقد سيكون
غدا . بينما السرية لم تتناول شيئا منذ ثلاثة ايام . . . الا يوجد
لديكم ؟ على الاقل قطعة لكل فرد ، ليشربوا والحنه . . . سنرده
لكم غدا . وقد نهدي لكم بقرة .

سمع تليفين من بناديه ، فالتفت . كانت انيسيا قد اقتربت
كانتل وسمعت الحديث ، فقالت :

- ادخرت خبزا يكفي لثلاثة ايام . يمكن ان تعطى لهم . . .
في الغد ساصنع على كمية اخرى .

ضحك تليفين ضحكة قصيرة :

- حسنا اعطى للرفيق امر السرية اربعة ارفعة .

لم يكن امر السرية يتوقع ان يقدموا له الخبز بهذه السهولة .
فتساءل « حقا ؟ » وشكر . وتناول الخبز الذي جلبته انيسيا ،
ووضعه تحت ابطه . الا ان الخجل منعسه من الانصراف حالا .
وجاء البحارة يطمطون بعد النوم ووقفوا يحدثون في هذا الزيل
الموحل المهلهل الشباب . فاحذ يحدثهم عن مآثر الفوج الذي ظل

عشرة أيام يخترق الحصار دون ان يلق مدفعا واحدا ، ولا عربة جرحى ، الا انه كان يتكلم يتشوش وعموض حتى ان بعض البحارة اشاح بيده وانصرف .

قال لاتوفيق ، وهو ينظر اليه بيروق :

- خذ فسطك من النوم اولا ، ثم حدثنا . . . ولكن الا تعرف لم هذا الضوء الساطع هناك ؟ - وأشار بيده ناحية ساربيتا .

اجاب ايمان غورا :

- انا اعرف . لقد التفتت في المحطة برجل من هناك . . .

ان الجنرال دينسوف يقتم ساربيتا . يقولون : في الحرب مسح ألمانيا لم تكن التيران يمثل هذه الشدة . المدفعية تمحو ككل شيء . والقوزاق يتدفقون من المنخفضات . . . يا للهول . والزيد يسيل على لعاهم . . . يا للهول . . . انها مذبحة . انهم لا يأخذون اسرى . لم يبق من فرقة مروزوف الا نصفها . والعدو يتدفع نحو الفولغا حتى يطلع اليها ما بين ساربيتا ونشابورنكي . عندئذ سيقتلهم الامراء !

وهز راسه للبحارة ، وخرج من الحفرة . سألته تليغين :

- من هو قائد فوجكم ؟

اجاب غورا وقد اختفى في الظلام :

- ميلستين بيتر تيغولايفيتش . . .

٦

طلت فرقة مروزوف تتقهقر ببطء تحت ضغط الطابور الخامس طوال الليل واليوم الثالث نحو ساربيتا . وقرية تشابورنكي الواقعة على بحيرة . كانت منات الجثث تنتثر في السهل . لم يترك الجنرال دينسوف الحمر يلتفتلون الفاسهم . وكان كل هجوم يصعد يقبله هجوم جديد في الحال . وكانت قتال الشراييل تعول وتنفجر فوق الخنادق . والانفجارات تهز الارض . وزوايح الشراب تنهال على المقاتلين . وعندما نصبت مدافع القوزاق . كان المقاتلون يخرجون من الخندق وجوههم التي شوهها الحنق والالم ولتلخها الدم .

ظهرت مجموعات عديدة من الغيالة من وراء التلال والوهاد وانتشرت في عدوها كالمطح البركاني . وتساعد الغيار من تحت حوافر الخيل . . . لوحوا بسيوفهم . وولولوا على العادة التترسة القديمة . فلو حين مقاتلس ورفض مدعورا امام الانتبال العاصف للخيول الصهبا ، العريضة الصدور والفرسان السود المطبقين على اعراف خيولهم في اندفاع لا رواء سيوفهم بالدم الحار فان صف المقاتلين سميتعلسم ويطعنن بالسيوف ويداس بحوافر الخيل . . .

تبت جناحا فرقة مروزوف بعزم وقد دفعا الى حدائق ساربيتا واعراء قرية تشابورنكي الا ان الوسيط التوى نحو الفولغا دون ان يتكسر ، تماما مثلما تنوء اليد تحت ثقل ضابط . وهنا بالذات ، في الوسط ، على الخطوط الامامية كان يوجد قائد الفرقة والمفوض السياسي والمراقب والمراسلون المقرضون وراء اجسام خيولهم المبطوحة . وكان القائد يستعيب عن القتل والجرح بالامتدادات المتضائلة بالتمويه والتي كان يسحبها من الجنائين . الا انه لم يطلب احتياطات من قائد الجيش حيث لم يعد هناك شيء يأخذه في تساربتين .

واليوم صباحا حصل حادث مؤسف في الخط الرئيسي للدفاع . فان افراد الفوجين الاول والثاني من الفلاحين الذين عتبا مسن المزارع والقرى القريبة قد خرجوا من الخنادق فجأة . ورفضوا بناءهم فوق رؤوسهم ، وذهبوا للاستسلام للبيض . وفي قيادة الفوج الاول احاط بعض امراء الوحدات في مطبخ الميسدان بقوميسار الفوج والشيوعيين ودومهم بالرصاص . وفي نفس الوقت حدث الشيء ذاته في الفوج الثاني حيث رمى بالرصاص قائد الفوج والقوميسار وبعض الشيوعيين . وبقيت سريتان فقط على الوداء ، ولم تستجب لاستفزاز ، وفتحت النار على الفرقة الذين كانوا يركضون والهمع رايات بيضاء نحو مواقع البيض للاستسلام . ولما رأى جنود مامنتوف هذه الجموع عن بعيد طنوا انهم مهاجمون ففتحوا نارا خامية عليهم . وارتيكت فلول الافواج الفلاحية واقت السلاح وارتدت الى الوداء . وخصروا ، واقتيدوا . وصارت الجبهة مكشوفة الخمسة فراسخ تقريبا .

وفي تساريتسين صدرت صفارات الانذار في مصنع السلاح
والمصنع الميكانيكي وجميع مصانع لشر الاخشاب . وكان
الشبيوعيون الذين ارسلهم المجلس العسكري يطوفون الورش
ويقولون :

- اتركوا العمل ، ايها الرفاق ، واحملوا السلاح ، وانقلوا
الجبهة .

ولم يكن في المصانع من العمال غير الشيوخ والعجزة والاولاد
القاصرين . فتركوا العمل ، وخابوا المعدات ، واولفوا الآلات ،
واطفأوا الافران ، وهرعوا الى المستودعات حيث كان يحفظ ما
لديهم من اسلحة . واصطفوا وراء البوابة ، واتجهوا نحو محطة
القطار .

هرولت الزوجات والامهات من البيوت الصغيرة في الضاحية ،
ودسمن في ايديهم صرر الطعام الصغيرة ، وسارت نساء كثيرات
الى المحطة وراء الفصائل التي كانت تسير في صفوف متخلخلة
وكثيرات منهن صاحبتهم ابعدهن من ذلك ، الى المواقع نفسها . وهناك
ظلت الامهات والزوجات واقفات طويلا على التلال حتى جاء قائد
الجيش وتوسل اليهن ، وهو يضع يده على قلبه . بان يعدن الى
بيوتهن . لانه لا حاجة اليهن هنا . بل من مصدر اعاقسة ، لانهن
يجلبن من انفسهن وهن واقفات على مكان مرتفع هدفا واضحا
لمدفعية مامتوف .

وقيل ان ينتهي النهار سداً ثلاثة الاف عامل من عمال
تساريتسين التفر على الجبهة ، حيث بدأ البيض يتفدون منها ،
وقدفوا بهم الى الورا متكبدين خسائر فادحة .

كان ذلك حين كانت فرقة مروزوف تتحلل ضغطا لا مثيل
لاستقامته من الغيالة والشاة . وقد دفع بوسط الفرقة الى
القولفا تقريبا . وكانت القذائف تتلجر في شوارع ساريتشا .
واحترقت قرية تشابورتكي ، وانتشر الذهب في سطوح القس ،
واحترق القصب على ضفاف البعيرة في السهب .

كان قائد الفرقة يتفحص السهل بالمنظار . كانت الشمس
تغوص في الافق . راي الغيالة القوزاق يتجمعون ويشترقون ببطء
دون محاولة للاخفاء ، وقد عرفت عينه المجربة من تحفز الخيول بان

هذه وحدات جديدة متهينة لآخر هجوم . واذن فبحلول المغرب
ستكون فرقة مروزوف كلها وعلى رأسها قائدها قد بدأت مسيرتها
الاشيرة عبر صفحات التاريخ .

انزل المنظار ، واخرج غليوننا مسودا ، ووضع فيه معيدين
تشكيلتهم قبضة من تبغ ساراتوف ، واخذ يبعث عن عذبة الكبريت
متلمسا جيوب معطفه - ولم يجدها . تلفت يمينا ويسرة . كان
القاتلون يستلقون على بعد خطوات الى الامام امام اكولم من
التراب . كانت بقعة سوداء تنتشر على قميص احدكم ، وكان الآخر
يشخر كأبلة حاكما خده على مقبض البندقية .

القي قائد الفرقة الغليون على الارض بحسب امر فتدحرج في
الافستين ، وتناول المنظار ثانية . فارتجفت يده بشكل لا ارادي .
كانت تحشدات جديدة ضخمة من الغيالة ترى الى الجنوب
الغربي فقد ظهرت من مكان ما بينما كان يملا غليونه .
طلعت عدة الاف من الغيالة من وراء التلال مثيرة الغبار السلي
اضاءته الشمس المائلة . قال القائد لنفسه : ان قوة كهذه
يمكن ان تحطمت وتدمرتنا بضعفة واحدة ا ابعده قائد الفرقة عينيه
عن المنظار لعظما . سكن كل شيء في الخنادق ، وتوترت . ونهض
المقاتلون ، ضافطين على البنادق . وقبل ان يفتح قائد الفرقة فمه
ليقول لهم كلمة حادة تراسم حدير المدفعية من بعيد فعاد الى منظاره
مرة اخرى . اي شيطان هذا ! ارتفع زهاء عشرين النجارا في السهل
قرب خيالة القوزاق المتحمسة . واسرع القوزاق يعدون متحولين
الى جبهة عرضة لهجوم ، ولعبت راية الزعيم في الوسط . واستدار
القوزاق ليواجهوا هذه الكتلة المنطفعة من الغيالة . تراجمت العصبة
الكثيفة من القوزاق وقد عدت حرايها . تم اصطلت . واطلقت
خيولها الى الامام . واندمجت كلتا الكتلتين من التلال . وتقايرتا
واختلطتا . وارتفعت سحابة عانسة من الغبار فوق ذلك
المكان .

قرب قائد الفرقة عذسة منظاره . وراى مشاة العدو ينهبون
بذعر من الارض التي كانوا ينهبون عليها .

وقال قائد الفرقة لنفسه : «ها ! لهذا السبب اذن الح' وليس
المجلس العسكري في التلغسون على الصمود لآخر لحظة من

دم يعني وصلت فرقة دميتري شيلست الفولاذية
وفي اثر الخيالة التي هاجمت التوراق نهضت من وراء التلال
صوف كفيفة من مشاة الفرقة الفولاذية . وابعدهم ذلك ، عند
الاقبال لاحت من خلال الغبار جمال وفرجات وجموع من الناس . انها
فواهل الفرقة التي كانت تجر ورائها ، كما اتضح بعد قليل ، كميات
هائلة من القمح ، وبراميل الكحول مع مئات الناظرين وقلمعان
المواشي .

وسقط فوزاق كثيرون في المعركة ، وتراجعت الخيالة البيضاء
المحطبة نحو الغرب ، واختلط مشاة العدو بين صفوف الفرقة
الفولاذية وفرقة مروزوف وتحطم قسم منهم . واستسلم القسم الاخر ،
ولما انتهى كل شيء وقد استمرت المعركة نحو ساعة - ركب
قائد الفرقة جواده ، وسار به في السهل المزروع بجنت القطن من
الرجال والخيول . وكان الدخان لا يزال يتصاعد هنا وهناك ويتردد
التي الجرحى الذين لم يلتفتوا . التقى قائد الفرقة بجماعة من
الخيالة . كان يتقدمهم رجل يرتدى ملابس كويانية وضع صفوفا
من الرصاص على صدره ، وخنجره كبيرا عند خصره بينما تدلت
نهاية مقبده الصوفي على كتفيه . وقد حث حصانه الاسود وتقدم
من قائد الفرقة واوقف حصانه فجأة ، وقال بصوت حاد أمر :

مرحبا ، يا رفيق . مع من اتحدت ؟
مع قائد فرقة مروزوف الدوتية - مرحبا ، يا رفيق . ومن
انت ؟

اجاب الفارس بضحكة مقنطبة :
- من انا ؟ تمنع في انا ذلك الرجل الذي اعتبره قائد
الجيش العادي عشر خارجا على القانون ، واراد ان يرميه بالرصاص
في نيفنوميسكيا ، ولكنني جئت الى تساريسين ، وفي الوقت
المناسب ، كما يبدو .
لم يعجب قائد الفرقة كثيرا بهذا الكلام المتباهي الطويل ،
فتعيس ، وقال :

- اذن ، انت دميتري شيلست
- اعتقد ان هذا هو اسمي منذ الطفولة . والان ارنى اين
يمكن ان احدث بالتلفون هنا مع المجلس العسكري .

- لقد تحدثت اليه ، والمجلس العسكري على علم بكل
شيء .
اجاب دميتري شيلست بهجره :
- لا يهتم ما تحدثت به . دعهم يسمعون صوتي .
ولكن حصانه الاسود لكزة جعلته ينطلق كالجنون .

V

في ساعة متأخرة من المساء ارسل ايفان ايليتش مذكرة
الى العقيد ميلشين : « يا بيتر نيكولايفيتش ، انا هنا ، واود كثيرا
ان اراك فرد ميلشين مع نفس العرائل : « سعيد جدا .
سأنى حالما ادبر امرى ، عندي اشياء كثيرة احديثك بهيها ،
بالمناسبة هل تعرف من عندي الآن ؟ »
ولكن القلم انكسر ، او انه كان يكتب في الظلام فلم يتبين
ايفان ايليتش الكلمات الاخيرة ، رغم انه اشعل بضعة اعواد من
التباق

ولكن ميلشين لم يأت . وبعد منتصف الليل اخذت السواربع
تشي السهب . وثقلت البطارية امرا بالاستعداد .
قال ايفان ايليتش لرجاله :

- والان ، يا رفاق ، يجب اعتبار المعركة قد بدأت . يعني
كونوا حريصين حتى لا تتفجر قذيفة واحدة عيشيا ثم انكم
على علم يا امر قائد الجيش القاضى بعدم التراجع خطوة واحدة دون
امر خاص بذلك . يعني كل شيء يحدث في المعركة (وقدر
مع نفسه النعنة كيف لصقت بي « يعني » هذه) في عام ١٩١٥
وضمروا خلفنا رشاشات ، لان الجنرالات لم يكونوا يتفوق بان
الفلان سيريق دماغه في سبيل مولانا القيصر وعلى الرغم من
انهم كانوا يلعنون نيقولا في الخنادق ، ولكن روسيا . على أية
حال ، هي بلادهم ولم يكن في تلك الحرب اروع من هجوم
الغراب الروسية

وفجأة سأل لاتوغين بيعة :
- يا أمر ، ما معنى هذا الهراء ها ؟
الا ان ايفان ايليتش تابع كلامه وكأنه لم يسمع شيئا .

- والآن لا توجد رشايات وراء ظهورنا ، وخيانة الثورة هي افطع من الموت بالنسبة لكل واحد منا ، يعني لكي تنجسوا بجندك . . . يجب ان نفهم امر قائد الجيش على النحو التالي : الاتضعف في الساعة العاشرة حين تستعمل الارض تحت اقدامك . يقولون هناك اناس لا يعرفون الخوف . ان ذلك كلام فارغ . . . فان الخوف موجود ، وهو يرفع رأسه . وعلينا ان نحطم رأسه . . . فالعار اقوى من الخوف . . . وانا اقول ذلك ، يا رفيق لاتوغيين ، لأن هناك رفاقا لم يشرسوا بعد في معارك خطيرة . . . وهناك رفاق ذوو اعصاب ضعيفة . وقد يصاب احثك الناس بالارتباك . ولهذا لم تصبت . انا الامر . بالضعف وخرجت من البطارية . مثلا ، آرمك يرمي بالرصاص في الحال . وانا من ناحيتي ارمي بالرصاص مثل هذا الرجل . يعني هذا كل شيء . . . امع التمدخين حتى يحل الصباح . . .

سعل عزة أخرى ، تمش وراء المدفوعين بعض الوقت . وكان يريد ان يقول اشياء كثيرة ، ولكنه لم يستطع . . .
- لا مانع من الاحاديث ، يا رفاق .

ناداه لاتوغيين مرة أخرى :

- يا رفيق تليغيين - والترت تيليفيغين منه واضعا يديه خلف ظهره - قبل انخرافي في الجيش طوفت في الدنيا . . . عاريا حافيا مشاكسا . وعملت حمالا في البوائين* ، وكسرت الحطب لالتجار ، ونظفت المراحيض ، واشتغلت سائسا في اسطبل الاسبف ، وتسامتت مع ثيافته بسبب سوء الطعام ، واشتبكت مع المصوص في وقت ما . . . رايت كل شيء ، اوه ، كنت احق ، شغيا ، وكانوا يشربونني . . . احيانا حتى اكاد اموت . . .

قال يايكوف :

- من اجل النساء ، في الغالب ؟

وانفجر ساروخ بعيد فلمعت في ضوءه الشاحب اسنانه الصغيرة وسط لحة كثيفة .

- ومن اجل النساء ايضا . . . ولكن ليست هذه هي المسألة . المسألة انك ، يا رفيق تليغيين ، لم تقبل لنا الشيء

الاهم . حمت حول الموضوع ولم تصب ليه . . . الواجب الثوري ، هذا صحيح . ولكن لماذا اخذنا هذا الواجب على عاتقنا طواعية ؟ علا اجبت على ذلك ؟ لا تستطيع ؟ طبعا ، لقد اكلت طعاما آخر . اما نحن فقد ذقنا الويل ، وسلبت ارواحنا . ويبدو ان ما من حيوان يستطيع ان يتحمل ما تحملهنا . لو كنت في مكاننا لعليت عنك منذ زمان ، وجررت الحبل . انتظر ، لا تتكدر ، فتحسن تتحدث انسانا لانسان . لماذا قمت امي حياتها كلها بتخدم الناس ؟ ما الذي يجعلها اسوا من ملكة اليونان ؟

قامطه يايكوف ثانية :

- يا لها من شطعة ! راينا ملكة اليونان في عام ١٩١٣ في اثينا . ما الذي ذكرك بها ؟

- ولماذا عاش ابي عيشة الخنزير ، حتى ضربه الجندمة في القفسل حتى الموت ، وبصقوا عليه ؟ لماذا يسمونني ابن الكلب ؟

قال شاريفين ، وقد نهض من ركبتيه وكان جالسا في مكانه عند الفدائف :

- هذا لا يصح . انت تتحدث حديثا غير منظم ، يا لاتوغيين .

ما شأن ابن الكلب هنا ، وما علاقة ملكة الاغريق ؟ . كل ذلك بناء فوقي . ولكن الجوهر في الصراع الطبقي . عليك ان تعرف مكانك : من انت ؟ بروتيتاري ام عنصر لا طبقي . . .

صاح به لاتوغيين :

- اذهب الى الشيطان ! انا ملك الطبيعة . هل هذا مفهوم لك ام ما زلت غمرا ؟ كنت قد طالعت كتابا جاء فيه ان الانسان ملك الطبيعة . ولهذا السبب اقف عند هذا المدفع . ان ملك الطبيعة يعيش قينا . الواجب ، الواجب ، الخوف الخوف ! انا اليوم ساضرب بمدفعي الرب نفسه لا الجنرال ماموتوف . ذلك هو يتاؤك الفرقي ! ساقضم عظامه باسناني . . .

صاح سيرغي سيرغيفيتش من مكمنه عند تلفون الميدان :

- سكوتا ، يا رفاق ! ابلغكم ان نجاحا كبيرا قد حققناه قرب

ساربيتنا . حملنا فوجين من الخيالة ، وفوجا من مشاة القوزاق . وقد قتل الف وخمسمائة واسبغ ثمانمائة .

وسرى نيا النجاح قرب ساربيتا في الجهة . وفي هذه الاثناء كانت وحدة من وحدات الجيش العاشر - فرقة يودوني للخيالة - تسبق طريقها من سهوب سالسك الى تساريتسين . وكان قصد قطعها هجوم الطابور الخامس . كانت المسيرة قاسية . وقد اصاب لاعبيها الناس والخيول . ثم استطاع احدهم في محطة صغيرة ان يتصل بالمصادفة لتليفونيا يسبق قيادة مرووف وسمع صوتا مرعا يهتف بالسماعة قطعها كلامه بعبارات لاذعة : «هل انتم نائمون ؟ ولا تعرفون اننا قطعنا فرقتين من خيالة الاوغاد طعاما للكلاب ؟ تعالوا لتحصوا الاسرى» ولدى سماع هذا النبا العظيم ، وان كان مبالغ فيه كثيرا اوقفت الفرقة توالفها تحت الحراسة ، وقامت بمسيرة مائة فرسخ صوب الشمال لملاقاة اوغاد الجنرال دينسوف .

الا ان النجاح قرب ساربيتا كان محليا على اية حال . ولم يخفف الوطأة في مواقع تساريتسين الرئيسية . بل جعلها اصعب . واستفاد مامونتوف بسرعة من العادت السار بخصوص فوجسي الغلائق الهاربين وبعيد في الليل تنظيم طوابير للهجوم . ومنذ الفجر حول كل نقل الهجوم الى هذا القطاع من الجهة الاثني حصالة والمشد خمسة فراسخ الذي كانت تحمية حفنة ضئيلة من فصائل العمال .

كان السهل الذي دخلته نخبة قوات الدون مقطوعا بمنخفضين عميقين ضخمين يقطعان الجهة من الغرب الى الشرق ويمتدان حتى المدينة نفسها . واخذت الخيالة الفولاذية تسير فيها مقتربة من خنادق الحبر . وكان السهل كله يبدو مغطى بكتل من التراب تبدو ماضل بيوت التمثل - ذلك زحف المشاة - وامامهم زحف دبابات هائلة بجنازيها العمياء . وكانت الطائرات تهجم حول البطاريات وعربات المؤنسة الممتدة عبر السهوب من تساريتسين والى تساريتسين . وتلقى قتالبا صغيرة كالكمشري تفجر بقوة وهيبة .

كان قطار مامونتوف المصنع يرسل ذخانا في الافق . وكان السهوب كله الى يساره وبيته مملوا بعربات الريفين التي كانت تتحرك في اعقاب القوات في كتل متلاصقة . وكان تجسار القوزاق يرون المدينة بقاياها ومدائن معاملها وادخنة الخرائق في الضواحي .

٤٧ . كم كانت العيون تلمع تحت الحواجب الكثيفة لهؤلاء الناس الفواحين براعة الدخان وشحم الخنزير والتطران !

وفوق السهوب كانت الغلاف تنطلق مخترة الهواء هادرة مطوقة مواقع الحبر بنواقيير من التراب . وقفز الخيالة من المنخفضين العميقين زاعقين واندفعوا الى الخنادق خلال الاسلاك الشائكة لا يلبثون على شيء بضراوة غارمة بحيث ان رصاصه او اصابت قوزاقيا ولاح في عينيه ظل الموت فانه سيمضي في عدوه شاقا الهواء بسيفه حتى ينهار على السرج . ويبسط ذراعيه وكأنه يتفقه بجنسونه ويتدحرج من حصاته المدعور .

زحمت صفوف المشاة ثم اندفعت الى الامام . واشتبكت الخيالة والمشاة في عراقك عند خنادق الحبر . وقد امر مامونتوف جميع القوزاق في ذلك اليوم بشد شريط ابيض حول قبات طلائعهم خوفا من ان يخطئ رجاله فيظن بعضهم بعضا في مصعان المعركة . وازداد القتال فطاعة واستماتة لان المتحاربين في كلا الجانبين كانوا من الروس . بعضهم في سبيل حياة جديدة غير مشهودة والبعض الآخر في سبيل ان يبقى القديم على حاله .

وفي كل مرة كانت موجات الهجوم تتراجع مصطدعة بقطارات الحبر الصفيرة المنعدمة . وكانت هذه القطارات المصنوعة على عجل في مصانع تساريتسين - اما من صهرجين لينيزين او من عربتين للبخاعسة مكشوفتين بينهما قاطرة - تسير على طرق خلف الجهة . وكانت احيانا تنفذ برشاشاتها ومدافعها الى قلب المعركة . وكانت تعترض من قاطراتها القديمة الصغيرة آخر ما تبقى لديها من قوة . وتنتطلق وسط الانفجارات وسحب البخار المنعدمة من جوانب القاطرات التي اخترقتها الرصاص . وتجسوب الطرق المحلطة حاملة الماء والخيزر والذخيرة الى الخنادق .

- استلحق !

وعلى مقربة حدث انفجار شديد جعل الضوء يشحب . والجسم ينضفط . وتساقت على الفور كتل التراب على الظهور والرؤوس والايدي التي ارتفعت لتلتقيها .

- الى المدفع . الى الاماكن !

صاح تليفين ، ووثب ، ولمح بشكل مبهم ومن خلال الفيار مدفعا محطما برزت إحدى عجلتيه الى الاعلى ، والرجال يقفزون نحوه غضابا . . . «كلهم سالمون . لاتوفين ، بايكوف ، غاغين ، زادوفيتز . . . اين شاريفين ؟ . . . هنا . . . سليم . . . المدفع الثاني سليم . بيتشيكين ، فلاسوف ، ايبانوف . . . بهز رأسه . . .»

وصرخ سابوجكوف بصوت مبحوح طالعا من الخندق المتهدم وفي يده سماعة تلفون :

- ابعد الى اليسار ، ستة وثمانون ، التسديد مستمعة صفر ، البطارية ، نار !

ويكرر تليفين الامر ساعةا غيارا . ويلقى شاريفين القذائف الى بايكوف ، الذي يماين فتيلة الانفجار . ويقذفها الى غاغين المعيب . ويفتح زادوفيتز المغلاق ، ويقوم لاتوفين بالتسديد ، ثم يرفع يده :

- نار !

تهتز ماسورتا المدفعين . وتنتطلق القذائف . . . جمدت حركات الرجال السريعة ، مثل شريط سينمائي قد اوقف . . . وهذا ما حصل . القذف ظل ضار ، ومض بريق ، على مقربة .

- استلق !

وتكرر كل شيء . الهدير ، وزويعة التراب ، والاختناق . وكان الغيث قويا حتى ان العروق تبدو وكأنها ستنفجر . ولكن ما العمل اذا كان الجانب الآخر لا يبخل بالقذائف ، اما هنا فلم يبق منها الا القليل ، بينما يجلس في نقطة المراقبة للكتيبة غبي لا يستطيع ان يحدد بالضبط موقع مدفعيصة العدو الثقيلة .

جرح لاتوفين في هذه المرة . وقد جلس يصر باسنائه ، بينما كانت انيسيا تتحرك الى جانبه وبقية خليفة - لا يعرف احد اين تروح ومن اين تجيء - وخلعت سترته وقميصه التحتاني بسرعة ، وضمدت كتفه ، وقالت وقد قرصمت امامه «تعال ، يا عزيزي ،

سأخذك الى نقطة الإسعاف» . ولكنه دفعها عنه وهرع الى المدفع وهو عار الى التصف مدمى يصر باسنائه ، وكأنه يقضم عظمة بالعلل .

واخيرا تفجر الحق الذي لا يطاق والذي اعيا الجميع ساعات طويلة منذ بداية هذه المعركة غير المتكافئة . وكان سابوجكوف قد اجاب من توه على سؤال امر الكتيبة حول عدد القذائف المتبقية وكان ينتظر الرد . كانت دموع قدره تنحدر على وجهه من عينيه الملتهبتين ، وكان بين العينين والآخر يرفع السماعة من اذنه ، ويفتح فيها . وقد حدث شيء ملاحظ في الهوا . نفسه . فقد غيب سكنون ، وامتلأت الاذان بالطنين . زحف تليفين على بطنه الى المتراس قلنا . وكان ذلك في اللحظة المناسبة . . . لقد بدأ الهجوم الحاسم . وكانت العين تميز الكتل الداكنة للحياة التوزايق والمشاة تلمع بينها هنا وهناك رايات مذهبة . انهم القساوسة الذين تقلدوا في السيارات لمباركة القوات في الميدان المكتشف ، على مرأى من بطاريات العمر .

طلع البجارة على المتراس زاحلين على بطونهم . وكانت انفاسهم ثقيلة . وقال بايكوف ليشير ضحكهم :

- لنضرب الملائكة ضربا مباحرا .

ولم يضحك احد . وقال لاتوفين بحدة وبلهجة أمرة :

- يا أمر . دعنا نخرج المدفعين الى الارض المكتشفة . لماذا نحن كالفئران في حفرة . . .

- لن نستطيع ذلك دون خيول ، يا لاتوفين .

- نستطيع . . .

وصاح شاريفين :

- لا تجادل الأمر اثناء المعركة . هذه فوضوية !

ودوت صرخته المبالغتة هذه سببانية غريبة حتى ان البجارة انتفتوا اليه متجهمين فحرف الرمل بكنتا يديه ، واخذ يفرك به وجهه بكل قوته . وعاد الى مكانه ووقف بلا حراك سوى ان رموشه الطويلة كانت ترف فوق خديه المفروكين .

نزل تليفين من المتراس ، واقترب من المدفع ، وامسك بعجلته .

- لا توغين على حق ، يا رفاق . على العموم تعالوا نلحق هنا .
خرج البحارة الذين كانوا يتابعون حركته صامتين الى الافاض
واخذوا يفررون متحدرا في الحفرة في اسهل موضع لاجراج المدفع
الى مكان مكتسوف .

صاح سايوجكوف بصوت متوتر مبحوح :

- يا تليفين . الامر يسأل هل يمكن برجالتنا ان نخرج
المدفعين الى مكان مكتسوف ؟
- ممكن !

قال تليفين ذلك بهدوء وثقة . كان لا توغين يعمل برفشه ،
رغم ان كتفه الجريحة كانت تسيب له الماء محرقا والدم يسيل منها
خلال الضمادة . ثم لكر بايكوف فقال :

- احب المتقنين . ها ؟

واجاب بايكوف :

- سيحصلون حمل الماء بالمخال . سيحصلون شيئا من
الفلانين .

وفجأة تمزق السكون بهدير عاصفة نارية . اندفع تليفين
الى المتراس . وامتلا السهل كله بالقوات المتحركة . ولتسطع
طريقها انطلقت من اليمن وعلى خط غير عال الضمادات المسفحة
التابعة للأمر اليابيف الذي اشتهر في ذلك اليوم وهي تعوى
وتلهت وتنفث دخانا صديا . وكان ايفان ايلييتش يركز انتباهه
على اقرب استحكام لسرية من فوج كاجالين كانت تتخذ موضعها
وراء الاسلاك الضالكة . لا في خنادق ، يسبل في حجر .
وكانوا قد جذبوا اليهم الماء تروا في برميل ، الا ان الحصاد
فرغ . واستدار ولقب البرميل ، والطلق مع العربة . وشاهد
تليفين ايفان غورا ، ذلك الرجل الطويل الغريب الاطوار الذي زاره
يوم امس . كان يركض خلال الخنادق مقرصا ، يبدو انه يوزع
آخر ما تبقى من ذخيرة .

والى يسار موقع السرية (ويسار بطارية تليفين) وعلى بعد
اقل من نصف فرسخ كان يستند المنخفض الذي يسبق الجبهة حتى
المدينة نفسها . وكان المنخفض طوال النهار تحت القصف ،
وكانت موجات القوزاق تتدفق منه بعيدا من هذا الموقع . والان

فهم ايفان ايلييتش وهو يراقب القلق الظاهر بين مقاتل ايفان
غورا ان القوزاق لا يدان يتوغلوا في المنخفض . ويهاجموا
الخنادق من المؤخرة ، والبطارية من الجناح ، فيشيرون المتاعب .
وهذا ما وقع بالفعل . . .

لقد طلع الغيالة من المنخفض قرب الاستحکامات مباشرة
وانتسروا ، واخذ جزء منهم يلتف على مؤخرة ايفان غورا ، والطلق
اغرون نحو البطارية . فاندفع تليفين نحو المدفعين . كان البحارة
يدفعون المدفع من الحفرة الى الاكمة لاهتين شامتين : لقد غطست
عجلتاه في الرمل .

قال تليفين ابعدا ما يمكن :

- انهم القوزاق ا ادفعوا !

وامسك بالمجلة بقوة جعلت ظهره يقرقع :

- كنبلة شظايا ! بسرعة !

وتردد زعيق القوزاق الرحى وكان جلودهم تسليخ وهم
ايها . استلقى غاغين تحت عربة المدفع ووقعها على كتفيه :
«ياالله يا شباب !» وشرجوا المدفع من الرمس ، ووضعوه على
الأكمة ، فانصب مالا منكس الماسورة . تناول غاغين قذيفة في
يديه الكبيرتين ، ووضعها في المدفع ، وكانه في غير عجلة من
أمره . . . كان حوالي ثلاثين فارسا يتطلقون نحو البطارية ، متحينين
على اعراق خيولهم ، هارزين سيوفهم . وحتى قابلهم لهيب طويل ،
وانفجرت قنبلة شظايا . شبت بعض الخيول ، واستدارت اخرى ،
الان عشرة من الفرسان صعدوا الاكمة غير قادرين على كبح جماحها .
وفي تلك اللحظة تغير الحق المحتدم . فقد ارسل لا توغين

العاري حتى الوسط صيحة مبهجة ، وبأد في الهجوم يخرج معقوف ،
وغرسة في سترة قوزاقية سوداء تحت حزامها الزين . . . ووقع
زادوفيتز تحت حسان فشق بطنه بغيظ ، وما كاد فارسه يقع على
الارض حتى عاجله بطعنة خنجر . وتنادى غاغين خربة سيف ،
وامسك بتلابيب خائب ضخم - وجره الى الارض ، وطرحه ، وشد
قبضته عليه . امسا الآخرون فكانوا يطلقون النار من بنادقهم ،
واثنين وراء المدفع . وراح تليفين يضغط على زناد مسدسه
بسطه وهدوه ، كما كان يحدث له دائما في مثل هذه الاحوال

فان الانفعالات تأتي فيما بعد) . كان الاشتياك قصيرا ، ويقى
اربعة من التورزاق مطروحين على الاكمة ، وهرب اثنان ثم وقعا تحت
التيران .

وصد الهجوم الأخير كما صدت الهجمات السابقة في ذلك
اليوم . ولم يتمكن العدو من خرق جبهة الحبر ، سوى ان مشاته
توغلوا عميقا في اخضع مكان بين فرتين للحبر ، وحل المساء ،
وكانت ماسورات المدافع حامية ، والخيول متعبة ، وكنت حدة
الخيالة ، وصار من الصعب دفع المشاة الى الهجوم . وانتهت
المعركة ، وسكنت الملققات في السهل الذي خلا الا من رجال
الاسعاف الذين كانوا يحطون لالتقاط الجرحى .

وانجعت نحو الطائرات والخنادق براميل المساء وعربات
الخبز والبليخ ، وعادت محملة بالجرحى . وكانت الخسائر فادحة
في جميع وحدات الجيش العاشر . ولكن الافدح من ذلك كان
استنفاد جميع الاحتياط في ذلك اليوم ، بينما لم تعد المدينة قادرة
على مد الجبهة بشيء .

وعاد قائد الجيش الى عربة ركاب كانت واقفة وراء محطة
فروبونوفو . وترجل ببطء ونظر الى الرجلين القادمين اليه ، وعما
رئيس مدفعية الجيش - ذلك الرجل الضخم الملتحي المورود الخدين
التي كان قد جاء وتحدث الى المتفقيين في بطارية تليفين -
والياييف قائد القطارات المصفحة التي كان يبعد كطالب متفعل
عائد من المتاريس . وقد اهتمسا للقائه ، سعيدين بعودته من
الخطوط الامامية ، حيث كان قد اشترك عدة مرات في ذلك اليوم
في المعارك بالسلاح الابيض . وكان معقله متقبا ، ومستند
قربينته المعلقة على كتفه مهشما .

دخل قائد الجيش في العربة ، وطلب ماء . وشرب عبادة
انداح ، ثم طلب سيكارة . اشعلها ونامت عيناه الجافتان فوضع
السيكارة على حافة المتقدمة ، وقرب منه مجموعة من البلاغات ،
وانكب عليها . . . اجل ، ان الخسائر لفادحة ، فادحة للغاية ،
ولم يبق ليوم الغد سوى القليل من الذخيرة ، بل النزر اليسير .

لشر خريطة ، وانحنى الثلاثة عليها . ورسم قائد الجيش بالقلم
خطا - كان قد خرق خلال ذلك اليوم في بعض المواضع فقط - ولكن
ليس بالقدر الكبير ، بل وقد التوى عند ساربيتا نحو البيض ، الا
ان خط الجبهة في القطاع الذي وقع فيه يوم أمس الحادث المؤسف
لعوجى الفلاحين ، قد مال بشكل حاد نحو تساريتسين فتيطا القلم
في يد قائد الجيش . وقال القاسد : «والآن دعونا نتأكد مرة
اخرى . . .» كانت التقارير مضبوطة . وتوقف القلم على بعد
سبعة فراسخ من تساريتسين ، في قاع المتفغن تماما . ثم
استدار بشكل حاد عالمدا نحو الغرب واسما اسفينيا . فالتقى قائد
الجيش القلم ، وشرب بكفه على هذا الاسفين :

- هذا يقرر كل شيء .

وعيسى رئيس المدفعية ، وحول عينيه ، وقال بعناد :
- آخذ على عاتقي تقطيع هذا الاسفين اذا حصلت في الليل
على مزيد من الدخائل .

وقال رئيس القطارات المصفحة :
- المتعويات في الوحدات عالية . سيصمدون اذا اكلسوا
رانعوا ساعة او ساعتين .

واجاب قائد الجيش :

- الصمود لا يكفي . بل يجب تحطيم العدو ، بينما خط
الجبهة غير ملائم لذلك . قل لي هل القطار جاهز ؟ اذن فانسا
ذاهب .

وجلس دقيقة اخرى مشلولا بالاعياء ، ثم نهض ، وطوق
كتفي رفيقه وقال :

- اتمنى لكما التوفيق .

عاد رئيس المدفعية ورئيس القطارات المصفحة الى نقطة
الراقصة اى الى برج الماء لخط السكة الحديدية البارز لرحده .
والذي كان طوال اليوم عرضة لضرب مركز من الارض والجو .
صعدا الى حيث تقع التلغرافات في الاعلى ، ووجدوا العشاء في انتظارهما
وهو عبارة عن قطعتين من الخبز الجاف ونصف بطيخة لغير ناضجة .

كان رئيس المدفعية رجلا موفور الصحة بشوشا ، وقد غمته هذه
الحصة الشحيحة من الطعام .

قال وهو واقف عند فتحة في جدار أجرى :

- بطيخ سيي . اذا كان البطيخ يقطع بالسكين فهو ليس
بطيخا . يجب كسر البطيخ بشربة من قبضة اليد .

ويصق الحب ، وقذّس عينيه ونظر الى السهل المكتسوف
المسطح تحت الشمس الغاربة وقال :

- لو ان طاسة من الفطائر الحارة لشبعت . ما رايت يسا
فاسيل ؟ يبدو ان امرا سيصدر في هذه الليلة بالانسحاب .

- كيف الانسحاب ؟ تسليم الطريق الدائري ؟ هل جننت ؟
- واين كنت انت ، حين سمحت للعدو بفتح ثغره ؟ اين
كانت قطاراتك المصفحة ؟

كان رئيس المدفعية وهو يتكلم يرفع الي عينيه بين العين
والآخر اصبعين منفرجتين ، او يخرج من جيبه عليه كبريت ويسمكها

بيده الممدودة ويحدد الزوايا والمسافات بدقة تفصل الي خمسين
خطوة .

ولكن جنودهم من سلاح الهندسة ساروا خصيصا وراءه
صفوف المهاجمين ، فاستطاعوا ان يتسلقوا الغط في عشرات

الاماكن .

فكرر رئيس المدفعية بعناد :

- ومع ذلك كان لا يجوز السماح ببق أسفنجي . . .
اسمح ، الا لتلاط شيئا ؟

كانت العين الحادة الجرية وحدها قادرة على ان تلاحظ ان
السهل البني الممتد نحو الغرب لم يكن هادئا خاليا من الناس ،

بل ان فيه حركة حذرة . فقد كانت تجاميد الارض كلها ، وكل
الاكبات الشبيهة بالآف من كتل التمثل تلقى لطلا طويلا ، وكانت

بعض هذه التلال الطويلة تغير مواقعها بيده .

قال رئيس المدفعية :

- انهم يغيرون القوات . يزحفون . . . غل المنظار . . .
التلاط وكان اشربة صغيرة تلمح ؟ . . .
- اري بوضوح . . . وانها كتافيات ضباط . . .

- مفهوم ان كتافيات الضباط هي التي تلمح . . . انظر
كيف يزحفون . . . انظر كالكناكب ! . . . وما اكثر كتافيات
الضباط . . . لا ترى العين غيرها . . .

- تحريب !

- منذ ثلاثة ايام تبهنا ستالين على ان نتوقع ذلك . وهذا ما
حصل بالفعل . . .

نظر اليابيت اليه . وخلص قبعة ، ومرر اطافره على راسه ،
ومشط الشعر المتبلد من العرق ، فانطفا البريق في عينيته

الرماديتين ، وتكس راسه ، وقال :

- مفهوم لماذا عداوا اليوم في ساعة مبكرة . . . كان يجب
ان نتوقع ذلك . . . سيكون يوما شاقا .

وقعد الى التلغون بسرعة ، واتخذ يتلغون . ثم امال قبعة على
جبهته ، واندفع على السلم الحلزوني .

وظل رئيس المدفعية يراقب السهل حتى غابت الشمس .
وبعد ذلك اتصل بالمجلس العسكري ، وقال في الساعة بخفوت

ووضوح :

- يا رفيق ستالين ، في الجبهة لواء ضباط يحل محل
القوزاق .

فجاء الرد :

- اعرف . سيصلك قريبا مطروف .

وبالعمل بعد مدة قصيرة سمع فرقة موتسيكل . وتردد
صريف على السلم ثم السبل في الفتحة بصعوبة رجل ثيابه من الجلد

الاسود . ولم يكن رئيس المدفعية قصير القامة ، اما سائق
الموتسيكل هذا فقد كان اطول منه :

- من رئيس مدفعية الجيش هنا ؟

ولما سمع «انا» طلب منه الهوية ، واشتعل عود الثقاب وقرا
حتى احترق العود كله ولسع اطافره . عند ذلك فقط قدم له

المطروف بشك بالغ ، ونزل عائدا الى الاسفل .
كان في الطرف قصاصة ورقة صفراء . كتب فيها رئيس

المجلس العسكري بيده :

«أمرك ان تحشدوا في الليل وقبل حلول الفجر ، كسل المدفعية (وهناك خط تحت «كل») والنخوة المتوفرة في القطاع الممتد خمسة فراسخ بين فروبولوفو وسادوفابا على ان يجرى التحرك بكل سرية ممكنة» .

نظر رئيس المدفعية بقرا ويعيد قراءة هذا الأمر المماجي* والخفي . كان يحمل في طياته اكثر من المجازفة ، وتنفيذه صعب بشكل لا يصدق . فقد كان يعنى حشد كل البطاريات السبع والعشرين (٢٠٠ مدقح) في قطاع صغير جدا هو قطاع الثغرة . فماذا لو ان العدو لن يزحف على هذا المكان بالذات ، بل يوجه ضربته يساراً او يميناً ، اوريا ضرب - وذلك اضطر - على الجنائين في ساربيتا وغومراك ؟ عندئذ سيكون التطبيق ، الهزيمة !

جلس رئيس المدفعية الى التلغون في حالة من الارتباك النفس العميق ، واهد يتلغز الى امراء الكنايب مشيراً عليهم بالطرق التي يسلكونها ، والاماكن التي يتقلون فيها جميع قواتهم البائلة الضخمة : الاق الناس والخيول وعجلات الجيش والعربات والخيام . وكل ذلك يجب ان يحصل ويرسل وينقل ، ويخرج ، ويوزع بين المواقع . ثم يجب حفر الخنادق للمدافع ، ومد الاسلاك الضالكة وكل ذلك خلال بضعة ساعات قبل الفجر .

ودون ان يتحول عن التلغون صاح على الرجال في الاسفل بان يجلبوا الفانوس ، ويبلغوا جميع المرسلين باعداد الخيول . فك ياقتة قميصه السميك ، وراح وهو يمسده على راسه الخلق ، ورسل اوامر قصيرة يتسلفها المرسلون ، فيهرولون من برج الماء ، ويمتطون الخيول ، وينطلقون في جنح الليل . كان رئيس المدفعية ذا دعاء ، فقد امر بان تشتعل نيران في مواقع البطاريات بعد ان ترفع هذه البطاريات من أماكنها ، وان تكن هذه النيران غير كبيرة لتبدو طبيعية حتى يظن العدو بان الحمر في الليلة الباردة يدفنون اقدمهم الحافية على النار .

ثم قرأ الأمر مرة اخرى ، وفكر بان من غير الصحيح تماما تمرية الجنائين ، وقرر ابقاء ثلاثين مدقعا قرب ساربيتا وغومراك . وحين اجابته امراء الكنايب بان الفيضول جاهزة ، وان القذائف والمعدات الطبية قد شحنت ، واشتعلت النيران هنا وهناك حسب

الوامر جلس رئيس المدفعية في سيارة قديمة تسير على خليط من الكحول والكبروسين ، وتقرقع بجسمها مثل عربة فجر . واتجه بها الى مقر القيادة في ساربيتين .

سار مقرعنا في المدينة المظلمة الغالية ، وتوقف عند دار تاجر ، وركض على السلم غير المضاء الى الطابق الثاني ، ودخل غرفة كبيرة ذات نوافذ قوطبية وسقف بلوطي لا يشيؤها غير شمعتين تقف واحدة على منضدة طويلة تناثرت عليها الاوراق . اما الثانية فيرفعها قائد الجيش في يده عاليا ، حيث كان واقفا عند العائط امام المرافق . والى جانبه رئيس المجلس العسكري يعلم بالقلم الاحمر على مواقع القوات للمعركة في الغد .

ورغم ان الفرقة لم يكن فيها غير هذين الشخصين - الصديقين القديمين - فان رئيس المدفعية قد تقدم حسب الاصول العسكرية ، وابلغ عن سير تنفيذ الامر . ازل قائسد الجيش التسعة ، والتفت اليه . وابتعد رئيس المجلس العسكري عن الخريطة وجلس الى المنضدة . قال له رئيس المدفعية :

- سيتم نقل عشرين بطارية قبل الفجر الى القطاع الاوسط كما وضعت سبعة بطاريات على الجنائين قرب ساربيتا وغومراك . واشعل رئيس المجلس العسكري غليونه ، وطرد الدخان من وجهه ، وسال بخفوت وصرامة :

- اي جنائين ؟ ما شان ساربيتا وغومراك هنا ؟ الأمر لم يتحدث بكلمة واحدة عن الجنائين . انت لم تفهم الأمر . - لا ، ابدا . فهمت الأمر .

- جاء في الامر (وازعش جفناه السفليان وتقلصت عيناه) جاء في الامر بوضوح : تركيز جميع المدفعية ، كلها حتى آخر مدقح في القطاع الاوسط .

نظر رئيس المدفعية الى قائد الجيش ، الا ان هذا رد على نظرتيه بنظرة جادة معبرة .

قال رئيس المدفعية بحرارة :
- لكن هذا الأمر ، ايها الرفاق ، رمان على الحياة والموت .
واكد رئيس المجلس العسكري :
- بالضبط !

- ولكن ماذا سيحدث لو اننا نجعل قبضة قوية في القطاع الاوسط ، ونكتشف الجناحين تماما ؟ اين الضمان في ان البيض سيحطون على القطاع الاوسط فقط ؟ وماذا لو شنوا المعركة في مكان آخر ؟ المشاة وحدهم لن يصمدوا للهجوم . فقد انهكوا خلال اليوم . وسيكون الوقت متأخرا لاعادة تنظيم البطاريات من جديد . . . وهذا ما اختشاه . . . التغيرات المصغرة لا يعتمد عليها بعد الآن ، وسيضطر المشاة على اية حال الى التراجع هذه الليلة عن الطريق الدائري . . . وهذا ما اختشاه .

تفر رئيس المجلس العسكري باصبعه على المنضدة مرة ثم اخرى وقال :

- لا تخش ! لا تخش ! لا تتردد ! ليس مسن الواضح لك ان البيض لا يد سيقفون بكل قواهم غدا في القطاع الاوسط بالذات ؟ . . ان ذلك تمليه بالضرورة نتائج العمليات الحربية يوم امس . ان اكبر فشل لهم كان بالقرب من ساريتنا ، ولن يرغبوا في ان يدسوا بانفهم هناك مرة اخرى ، فهم يعرفون حركة لواء بوديوني في مؤخرتهم . ونجاحهم بالامس في القطاع الاوسط تنلخص في انهم تمكنوا من التوغل في خطوطنا الامامية . واغورا قطاع فرويونوفو - سادوفايا هو النسب مكان لهم اذكله منخفضات ، كما انه اقصر طريق الى تساريتسين . وانت نفسك ابلغتني عن وضوح لواء الضباط في محل القوزاق . فاستخلص استنتاجا من ذلك . ان لواء الضباط هو اثنسا عشر الفا من المتلويين الضباط النظاميين المتوسمين بالقتال . والجنرال مامونوف لا يرمي حسنه القوات للفرجة . . . ان لدينا جميع الاسس للاعتقاد بان الهجوم سيكون في القطاع الاوسط بالذات .

وقال قائد الجيش :

- التقارير المسائية تؤكد ذلك ايضا . البيض سحبوا من القطاعين الجنوبي والشمالي اربعة عشر او خمسة عشر لوجا ، وهم سيبرونهسا الآن عبر السهوب . . . هذا بالاضافة الى لواء الضباط . . .

قال رئيس المجلس العسكري :

- وبهذا الشكل ، يقدم العدو بنفسه الطرف الموالي لنا لمس قواه الرئيسية اذا ما كنا حازمين وجريئين غير مترددين . ومهنتنا غدا لن تكون رد الهجوم بل القضاء على لواء جيش الدون . . .

ابتسم رئيس المدفعية ابتسامة عريضة ، وجلس وضرب ركبته بقبضته ، وقال :

- يا للجرأة ، يا للجرأة ! لا مجال للاعتراض . سأسأليه تاراحامية لتعلمه يركض مدعولا حتى الدون .

حرك رئيس المجلس العسكري الشمعة نحو الخريطة التكتيكية ، واثبت رئيس المدفعية وضوح نيته في وضع البطاريات واحدة لصق الاخرى في عدة صفوف .

قال له قائد الجيش :

- لا تتفخفخوا . ضعوا المدافع على اكمام مكشوفة . وقدموا المشاة لصق المدافع تماما . اذهب لتتلفن الى امراء الوحدات .

وبعد عدة دقائق بدأت حركة صامتة عجيب على طول خط الجبهة الممتدة اربعين فرسحا . وفي السهل المنظم ، تحت السماء المرصعة بالنجوم بحيث كانت المجرة تلمع ذلك اللعنان الذي لا يحدث الا في ليال نادرة من الخريف انطلقت الغيول بالمدافع ، ومدافع الهاون ، وسارت المدافع الثقيلة تجرها ثمانية ازواج من الغيول ، والدفعت العربات ذوات العجلتين . وتحركت وحدات المشاة من اماكنها دون ان يلاحظها العدو وتراجعت في شبه دائرة دفاعية متساكنة .

ولمخ البراقون قوية استيقاظ في السهوب الاشيب المغطى بظفرة من الجليد مستنقذين الافواج القوزاقية الى المعركة . ونهضت الشمس من وراء سهوب فولغا . وهدرت المدافع من بعيد . وطلعت الرشاشات . وكانت جبهة الحمر صامتة وكلها في الظل ، والشمس قبالتها . وكان الامر قد صدر لجميع البطاريات بانتظار الاشارة ، وهي اربعة انفجارات عالية لتقابل الشرايتيل . بدأ هجوم البيض بزوبعة من النيران من خط الافق . والتصق كل ما هو على الارض متكشفا متقربا وقد اصبح كل نتوء ، وكل حلقة غطاء وملجأ . ومن خلال الهديز كانت في بعض الاحيان

تتردد صيحة وحشية ، وتطالير كتل الارض سوية مع عجلة من
 عربة او معطف عسكري داخن . واستغرق القصف التمهيدى خسا
 واربعين دقيقة . وحين استطاع الناس ان يعرفوا رؤوسهم كان
 السهل كله يموج بالقوات المتحركة . كان الضباط يسيرون في
 عدة خطوط شاهرين حراهم بلا عجلة او توقف . ووراهم سار
 اثنا عشر طابورا من كتائب الضباط وبين كل طابور وآخر فاصلة ،
 وكانهم في استعراض . وزفرعت عاليا وايتان لفرجين . وكانست
 الطبول تفرع فرعا صاخبا ، وتمول النايات . والى الخلف مسن
 المشاة ماجت كتل سوداء لعددا يحصى من التوزاق .

— انظر يا ايفان ايليتش ، ما هم الاعداء الطليقيون ! . . .
 ما هم المحاربون ! يا سلام !

— انظر الى ملابسهم . . . واحذيتهم . . . متشبعون باللحم . . .
 — من المؤسف ان تمزق هذه الملابس . . .
 — يا رفاق ، كلوا عن الزواج ، والنهبوا .
 — نحن نمزج لتبعد الخوف عنا ، يا رفيق تليفين . . .
 . . . حث الضيوف المتقدمة خطاهم . وكانت على بعضه
 خمسة خطوة . . . وكان من الممكن تبين وجوههم . . . بالها من
 وجوه بشعة يعيونها الغائرة الشاحبة من الحدق ، برجاتها
 النانئة متحفرة لتفتح اسناقها بصيحة الحرب «هورا !» .

أطل رئيس البندقية بجسسه من فتحة الجدار الاجرى لبرج
 الباد ، ومد ذراعه الى الخلف ليعطى جندي الاتصال اشارة قتال
 الشراينيل الرابع ! وانتظر دقيقة اخرى ، فقد كان يجب ان تعبر
 الضيوف والطوابير السائرة بازان على وقع الطبول والنايات خذ
 الطريق الدائري لسكة الحديد . . . ومرت دقيقة اخرى . . . المهم الا
 يتحول هؤلاء الشياطين من الخطو الى الركض . . .

— . . . يا رفيق أمر السرعة لا استطيع اكثر . . .
 بالشرف . . .

— عد الى الخندق ، يا ابن . . .
 — احس بالغبثان . . . دعنى ابتعد فقط . . .
 — ساقتلك ، يا ابن . . .
 — ارجوك . . . يا رفيق ايفان غورا !

— اسكك البندقية 1

تتردد صيحة وحشية ، وتطالير كتل الارض سوية مع عجلة من
 عربة او معطف عسكري داخن . واستغرق القصف التمهيدى خسا
 واربعين دقيقة . وحين استطاع الناس ان يعرفوا رؤوسهم كان
 السهل كله يموج بالقوات المتحركة . كان الضباط يسيرون في
 عدة خطوط شاهرين حراهم بلا عجلة او توقف . ووراهم سار
 اثنا عشر طابورا من كتائب الضباط وبين كل طابور وآخر فاصلة ،
 وكانهم في استعراض . وزفرعت عاليا وايتان لفرجين . وكانست
 الطبول تفرع فرعا صاخبا ، وتمول النايات . والى الخلف مسن
 المشاة ماجت كتل سوداء لعددا يحصى من التوزاق .

— انظر يا ايفان ايليتش ، ما هم الاعداء الطليقيون ! . . .
 ما هم المحاربون ! يا سلام !

— انظر الى ملابسهم . . . واحذيتهم . . . متشبعون باللحم . . .
 — من المؤسف ان تمزق هذه الملابس . . .
 — يا رفاق ، كلوا عن الزواج ، والنهبوا .
 — نحن نمزج لتبعد الخوف عنا ، يا رفيق تليفين . . .
 . . . حث الضيوف المتقدمة خطاهم . وكانت على بعضه
 خمسة خطوة . . . وكان من الممكن تبين وجوههم . . . بالها من
 وجوه بشعة يعيونها الغائرة الشاحبة من الحدق ، برجاتها
 النانئة متحفرة لتفتح اسناقها بصيحة الحرب «هورا !» .

أطل رئيس البندقية بجسسه من فتحة الجدار الاجرى لبرج
 الباد ، ومد ذراعه الى الخلف ليعطى جندي الاتصال اشارة قتال
 الشراينيل الرابع ! وانتظر دقيقة اخرى ، فقد كان يجب ان تعبر
 الضيوف والطوابير السائرة بازان على وقع الطبول والنايات خذ
 الطريق الدائري لسكة الحديد . . . ومرت دقيقة اخرى . . . المهم الا
 يتحول هؤلاء الشياطين من الخطو الى الركض . . .

— . . . يا رفيق أمر السرعة لا استطيع اكثر . . .
 بالشرف . . .

— عد الى الخندق ، يا ابن . . .
 — احس بالغبثان . . . دعنى ابتعد فقط . . .
 — ساقتلك ، يا ابن . . .
 — ارجوك . . . يا رفيق ايفان غورا !

تشرير الاول . كانت العصافير المتخمة الحواصل تنفخ ريشها وتزقزق ويتباهى بعضها على بعض ، على انصاف عارية ، حيث كان ينتهي ظل السطح . وكانت منذ حين في الشارع تشتلق الشمير وروت الخيول الذي يثائر كثيرا امام المنزل الابيض ذي الطابق الواحد . وقد افزعها قدوم العربات فطارت الى شجرة بتولا . كانت زغردة العصافير تبدو لداشا موسيقى مريحة للغاية وكأنها تقول :
مهما يكن فما زلنا نعيش .

كانت داشا في معطف ابيض مبغ بالعم وقد شدت مندبلا بقوة حتى حاجبها . في المدينة لم يعد تصف المدافع بهز زجاج النوافذ ، ولم تسمع الانفجارات المدوية لتقابل الطائرات . فقد انتهى فزع اليومين السابقين بزغردة العصافير . ولو اعين المرء التفكير في الامر لشعر بالكدر من مدى ازدياد هذا المخلوق الحظير المتعم الحواصل للانسان . . . يزغرد العصفور : الى سفير ولكن حكيم ، انقر الزوت ، وانقر من غصن الى آخر وراء عصفورة ، وانزغرد للشمس الافلة ، ثم امام حق الحجر ، وتلك هي كل حكمة الحياة . . .

سمعت داشا صوت عربات تتوقف خلف البوابة . . . لقد جعلوا جرحي جيدا ، وادخلوهم الى المنزل . كانت متعبة بحيث لم تستطع حتى فتح جفنيها اللذين ينسل ضوء وودي من خلالهما . سيدعوها الطبيب اذا اقتضت الحاجة اليها . . . ان هذا الطبيب رجل لطيف في صوته غظظة وفي نظراته رقة . قال لها «خرجي الى الغداء حالا ، يا داريا دعيتي بيانا ، فان حالك صعبة ، واجلسي في مكان ما . وساقظك عند الضرورة . . . كم من اناس طبيين في هذه الدنيا ! وفكرت داشا مع نفسها : لو انه يخرج الان للتدشين لتقص عليه ما لاحظته على العصافير ، فقد بدت لها ملاحظاتها عميقة المغزى . . . وما العيب اذا كان الطبيب قد اعجب بها ؟ وارسلت داشا زغردة ثم اخرى اعمت . . . كل شيء يمكن تحمله حتى الذي لا يطاق اذا قابلتك نظرة حنون . . . ولتكن عرسية ، فان التفاني بها ترفع روحك المعنوية ، وتلتك بنفسك فيعود الانسان حيا من جديد . . . وذلك ، ايها العصفور ، لا تفهمينه !
وبدلا من ان يخرج الطبيب طلع من السرداب الذي يقع المطبخ

فيه رجل ذو وجه مصفر عصبين وعينين ماساويتين . كان يرتدى معطف بزة مصلحة التعليم الشمسي ، ولكن في هذه المرة لم يكن محزما بحيل . صعد بضع درجات من السلم الاخيرى ، ومد عنقه التحيز مستنعا . فلم يسمع غير زغردة العصافير وقال :
- فطاعة . كايوس ! هديان !

وضغط كفيه على اذنيه ، ثم رفعهما في الحال . كانت الشمس الواطئة تضي جانب وجهه بانفاه الدقيق العسروق وشفتيه المكتنرتين .

- لا تبدو نهاية لذلك ، يا الهى ! . . . ثم سال داشا فجأة - هل اصبت بهلوسة صوتية في وقت ما ؟ اعلمنى ، نحن لم نتعرف على بعض ، ولكنني اعرفك . . . كنت قد التقيت بك قبل الحرب ، في بطرسبورغ ، في «الاسميات الفلسفية» . كنت آنذاك اكثر شيئا ، ولكنك الان اجمل واكثر جاذبية . . . الهلوسة الصوتية تبدا من بعيد ، وتكون حينذاك بلا صوت ، ولكنها تقترب بسرعة مزعجة . وينمو طنين متنوع الاصوات لا وجود لثقله في الطبيعة ، ويملا الدماغ والاذنين . وانت تعلم ان لا شيء هناك ، الا طنين في الواقع ، ولكن هذا الطنين في داخلك انت . . . النفس كلهسا متوترة ، ويبدو لك انك لن تعودى بعد قليل قادرة على تحمل هذه الاوقات الجهنمية . عندئذ تفقدن الوعي ، فينتفك ذلك . . . وانا اسئلك : متى النهاية ؟

كان يقف امام داشا قبالة الشمس مطلقا باصابعه الرقيقة واحدة بعد الاخرى .

- على ان احفر الطين في مكان ما ، وازمجه واصلح الوقود ، لاهم الزلوانا الى السرداب باعتبارنا عناصر طفيلية . . . ان ابني استغل طوال حياته مديرا لمدرسة ، وبني هذا البيت من ادخاراته . . . تفوق ذلك لهمم ا وفي السرداب يتكدس اجر محروق ، وهناك نافذتان تطلان على الرصيف ، وهما مرتبتان جدا بحيث لا يشرب النور منهما . وكثيري مكندسة في ركن . . . وامر مصابة برمش قلب ، وهي في العائسة والخسبين من العمر . واخن مشلولة الرجلين من الملايا . والشمشاء على الابواب . . . آه ، يا الهى !

وفكرت داشا مع نفسها بأنه مثل روح «سكر» في مسرحية «الطائر الأزرق» على المسرح الفنى ، وأنه سيكسر كل أصابعه العشر .

- من لا يعمل لا يأكل ! ... لقد تخرجت من كلية التاريخ والاداب وكنت أحصل على الدكتوراه ... وقد أسست ثلاثة اعوام في مدرسة للبنات في هذه المدينة المنحوسية ، في هذا الحب المفضول عنيسه ، حيث انا مكبل من يدي ورجلي يمرض امي واخي ... ثم هذا هو حصاد الحياة كلها ؛ من لا يعمل لا يأكل ! انهم يسمعون في يدي ورقشا ، ويجروننى بالقوة على حذر الخنادق ، ويهدوننى حتى اضع للثورة ، لهذا الاستتار بحرية الانسان ! لسيطرة القوة البدائية ! ... وانتهاك الفكر ! ... انا لست ممن الاحيان ولا ببرجوازي ، ولست من «المائة السود» * .. وجسمي يحمل ندبة من ضربة حجارة في مظاهرة للطلاب ... ولكننى لا اريد ان اتضع للثورة التي دفعتنى الى سرداب .. ولم اكن اصقل عقل لى انظر عبر نافذة صغيرة متربة في سرداب الى اقدام المنتصرين السالزين على الرصيف ... انا لا املك الحق لاقي على حياتسى بالقوة ، فان لي اما واخا .. وحتى في العلم لا اجد مكانا الجا اليه ، واخفى فيسه ... «لنحمل المشاعر المتوقدة» ! ولكن الى اين تحملها ، ولم تبق في الدنيا كهوف معزولة ...

وكان يتحدث بكل ذلك بسرعة غير اعتيادية ، وعيناه تائهتان ، اصغت داشا اليه بلا دهشة ولا عطف ، وكان هذا الرجل العصبي الذي طلّح من مطبخ في شبسه سرداب تمشة ضرورية لرعب تلك الايام من الدوى والخرائق والنسات الجرحى .

وسال مياغنة بصوت اعتيادى مدمم :

- ما الذى جاء بك اليهم ؟ التهور ؟ الخوف ؟ الجوع ؟ اود ان اقول لك اننى راقبتك خلال هذين اليومين وتذكرت كيف كنت انتظر اليك بعين الاعجاب الصامتة في «الامسيات الفلسفية» في بطرسبورغ ، وانا لا اجرؤ على ان اتقدم منك واعرفك بنفسى .. أنت تقريبا

* مصابات ملكية رجعية معادية للثورة - (المترجم)

«السيدة المجهولة» * لاليساندرا بلوك ... (وفكرت داشا على الفور : لماذا «تقريبيا» ؟) الاميرة التي يجب ان تطرز بالنهب تلبس مبذلا قذرا ويندها حراوان ، وتنتقل الجرحى .. فطاعة ، فطاعة ! ... هذا هو وجه الثورة ...

واعتمل الغضب في قلب داشا فجأة حتى انها زمت شفتيها ، ولم ترد بكلمة واحدة على هذا العصابى الاصغر الشاحب ، ودخلت البيت فسدستها ، بعد الهواء الطلق في الغناء ، رائحة اليودوفورم والجسد الانسانى المعذب .

كان الجرحى يرددون في كل حجرة على اسرة متلاصقة مصنوعة من الواح خشنة ، ورات داشا الطبيب في غرفة العمليات ، نفس الغرفة التي كان معلم مفوسة البنات يكتب رسالته فيها قبل اخراجه عنها . كان الطبيب يسمح باللوطة ذراعيه المشعرتين المشعرتين الى ما فوق العرقق ، وحين رأت داشا غمز لها بعينيها البينيتين .

- هل غفوت قليلا ؟ اما انا فقد اجريت هنا عملية طريفة : قطعت لشباب حوالى خمس اذرع من اعاله الدقيقة ، وبعد شهر سأترب مع الفودكا . ثم انهم جلبوا آمرأ آخر مصابا بصدمة حادة ... سقنته بالكافور ، والغلب يعمل ولكنه ما يزال فالسند الرعى ... راقبى لبسه ، فاذا بدأ يتخفّض اعنقه مرة اخرى ..

الفرى اللوطة على كتفه ، وقاد داشا الى سرير خشبي . كان ايمان ابلينش تليفين ممددا على ظهره . كانت عيناه متقلصتين بشدة ، كان ضوا قويا مسلط عليهما . وكانت شفاته المشروذتان مضمومتين . امسك الطبيب بيده اليسرى الموضوعة على صدره ، ومس النبض ، ومن اليد عزة خفيفة :

- اترين ؟ لقد كانت متجمدة وكانها متشنجة .. الصدمة تكون احيانا بصورة غريبة ... انها لم تدرس الدراسة الكافية ... ومظاهرها تشبه مرض الصرع لدى الصغار الرضع ... الجهاز العصبي المركزى لا يتسكن من الصعود امام هجوم مياغنة . وقطع الطبيب كلامه ، لانه هو نفسه اصيب بصدمة مياغنة

* السيدة المجهولة من قصيدة رمزية كتبها الشاعر الروس الكبير آ . بلوك (١٨٨٠ - ١٩٢١) - (المترجم)

ولو كانت خفيفة . اذ ركعت داريا دميترييفنا على ركبتها برقصة امام السرير ، وضغطت وجهها كله على ذراع الامر . حين تركها الطيب .

٩

استيقظ فاديم بتروفيتش ووتشين في ساعة متأخرة في غرفة الفندق الوضيعة بشياكها الفلتر المغطى بجريدة مصفوفة . وكان يلتحف بطانية خفيفة في سرير تفسير . سيخادر القطار في ساعة متأخرة من الليل . وكان امامه نهار طويل خاو . ولم تبق في علبه السكان غير سيكارة واحدة . دعكها . واشعلها . واخذ ينظر الى يده النحيلة المعروفة بشترتها المنكشنة من البرد . لم يؤد بعنه عن كاتيا الى نتيجة . . . انه لم يجدها . والاجازة قد انتهت . وكان يجب ان يعود الى فوجيه في كوبان .

بعد يومين سينزل من عربة القطار . ويستقل عربة . ويسافر في السهوب دون ان يتحدث الى ضابط الصف الجالس على مقعده السابق . وفي الشوارع العريضة في القرية ستغطس عجلات العربة في البرك المملوءة بماء المطر الخريفى الذى لا جدوى منه . وسينزل في العربة الى الوحل . ويامر بان تحمل حقيبته الى الكوخ . ويذهب هو الى ادارة القرية حيث مقر القيادة ليقابل امر الفوج اللسواء شيفسى .

وسيجد هذا الاحمق السعوم يبالغ مقطوعات شعرية للرمزيين : «الدائرة الملتصقة» لسولوغوب او «اللؤلؤ» لغوميليف . وبعد تقديم التقرير سيستلم فاديم بتروفيتش مفرزة . وقد يتسلم سرية . ولها الاعمال الرتيبة : التهرب العسكرى ، وزيارة نادى الضباط حيث نميسالونه عن الفتيات . والسكر والعريضة ويتكلمسون على تحوله ويشروه الشائب وهينته المتجهة . وفي الامسيات يلرح حجرته من ركن الى ركن . وفي الساعة العاشرة سيبلغ له الجندى المرافق حذاءه في صمت . وهذا احتمال واحد . اما الثانى فقد يكون الفوج في الجبهة . في القتال . . .

وتراى له نفس السهوب المفسر قلظه طبقات مسن سحب الشمال . وفيه مداخل الموائد المتبقية بعد العرائق . والعربات

المفروزة في الوحل وعليها الجرحى . والخيول النافقة . وفي الطرف الاقصى من هذا السهوب شندق فيه ناس . واقفون بين الغائط والخرق المدعاة . . . وتخييل نفسه متفانلا دائما . ثم قدريا ذائع الصيت ومثالا للكراهية الباردة التى ليست في نفسه . والتي لم يمد يشعر بها منذ زمان . فليس في نفسه تغير الثغور والغتبان لدى التفكير في الناس .

قعد على السرير محاولا ان يزود قميصه . ومد يده يبحث عن تبيغ في بطنلونه الذى سقط على الارض واستلقى ثانيا شايكا يديه وراء راسه .

«لا يمكن البقاء في هذا المزاج على اية حال» قال لنفسه بغلوت . ولم يكن ذلك صوته . ولم يعبه . واقرفته الطريقة التى قاله بها . . . «لماذا لا يمكن ؟ وما هذه «على اية حال» لا يمكن ؟ كل شئ ممكن ! حتى شد طرف الحزام على قبضة الباب والطرف الاخر حول الرقبة . . . هيا . يا ووتشين . كن نزيها . . . يالك من طاهر . . . انت وقد مثل الاخرين» .

واغسل يتركه يغيظ وانتقسام آلاف اللقاءات حسبا في يكارترينوسلاف . . . نساء على وجوههن آثار التعب بسبب الاجلاء وبغايا بانسة من العفة . يتجولن من فندق الى آخر يعرضن مختلف الانساء «العزوة كالكذريات» . ويجترالات بلبطسون على ظهورك بكتبات تحيب . حليقي الوجوه جفا . مفصعين بالصحة . ومضاربن وتحين متخصصين في بيع وشراء فواتير شحنات البضائع الحكومية على السكة الحديد . والتماعين ضامنين حاربين من هزيمهم . فكانوا يزدهجون في غرف الفنادق مع زوجاتهم الحقاوات وبناتهم الطويلات المنمشات التعيسات يستندبنون وساكلمون في المطعم بتصرف . ويعلمون الطباخين طهى اكلات خرافية ويسمون الثورة شغيا . وبشكل عام . يقضون الوقت وسط ابهج الامال التى لم تنزابل اعيان الروس حتى في اهلك الاوقات . وتذكر غلظت التنسان في بهو الفندق . الذين فقدوا الوضع الاجتماعى بسرعة بالغة . فلم يكن من الممكن تمييزهم الا من ازراهم المعلمة والمطية رؤوسهم . لهذا مدح عام امسك بتسحاب وقع ومضمارب محظوظ .

يحاول ان يلقته بشراء ساعة عاتلة . اما هذا الرجل
الاشيب الساعل ذو العصا فريسي دائرة المالية . والظاهر
انه قد بدأ اشياء الثمينة ، فهو ينظر بحسد الى الصفقات الكبيرة ،
والى الايدي المرمية التي تتعامل بالثمن .

والمضاربون الضمائر في بدلاتهم الفاخرة يدخلون واكثفين من
الابواب الامامية . ويتجمعون جماعات ، ويتهايمون بعصبيته
واصابعهم وعيونهم لا تستقر ، ثم يندفعون ثانية الى الشارع وكانهم
آلية التجارة والنجاح . وفي البهو يمكن ان تعرف عن حركة الشحنات
الحكومية . وعن صهرج زيت صناعي قد فقد ، وعن سعر الدولار
الذي يصعد ويهبط عدة مرات في اليوم في تبعية مباشرة لهجمات
الفرنسيين والالمان المضادة في الجبهة الغربية . ولكن هذه امور
جدية . . . والمضاربون الصغار في البهو ينتحون جانبا ، وتتركز
عيونهم المترافضة من الانفعال على رجل «كبير الشأن» .

وكان مثل هذا الرجل يدخل وتورا متهايلا يرتدي معطفا طويلا
جدا وسدارة مصلية تتحدرد على ياقوعه ، وفي يده مظلة ، ولحيته
تسدل على رقبته . فتبدو مصونة لا تمس ولا يمكن لصاحبها ان
ينزع منها شعرة واحدة ويلويها الا في حالة التركيز الفكري فقط .
وتعكس عيناها صورة لحيات فكرية مبهمة منزهة من الاشياء الناقصة ،
لرجل مفكر يوازن ويبحث ويجه تلك العناصر التي تسبب هبوط
او ارتفاع خلاصات الطاقة العالمية ، اي العملة الصعبة .

وفي البهو وفي الشوارع القريبة من الفندق تجرى اللعبة .
وهي مخزومة رسنيا من قبل سلطات الهيتمان وقيادة الاحتلال
الالمانى . والتلاعبون في حركة دائية على الرصيف من باب الفندق
حتى الرب مفرق طرق . وهم يشترطون ويبيعون مستعنين بالظنرات
المتفرسة ، وحركة الاصابع . وبعض الكلمات . ولا يملك احد
منهم عملة صعبة . فهي مغفلة وكفيتا في المدينة غير معروفة
بشكل عام . وهم يلعبون على فرق السعر ، وتسوى الحسابات
بالعملة الهيتمانية . وفي دقيقة واحدة تتكون ثروات . وفي دقيقة
اخرى يصبح الفنى مفلسا . ويذهب المحظوظ مع بطاقته الى المقهى
حيث ياكلون الكعك مع قهوة بذور البلوط . اما الغالب فيستكع
على الرصيف بالساء ، ويح تفرين الثاني التي تكس قصاصات

الورق والاوراق الساتطة تعصف باذيال معظمه الطويل
المرتبة .

ان تزلزل هذا الفندق المزدحمين على الارصفة وفي حوائيت
التبغ والمقاهي والمطاعم ، والمتاجر فيما بينهم حيث يفش اقدم
الآخر كانوا جزءا من الطليح الصاحب الجمع الذي كان يجاز ويشفر
في كل المدن المنتزعة من الثورة . حيث يجد الحرية في ان يزدرد
ويشرب ويتسافد ويفش ويدخل في مضاربات . . . وكان ينبغي ان
يحمى هذا الطليح بالحرب والمدافع ، وتنتزع له مدن جديدة ،
وتقام له روسيا عظيمة موحدة غير قابلة للتقسيم مطهرة من
الافة البلشفية .

ردد قادم بتروفيتش بصوت مسموع مرة اخرى :
«وضاعة . وضاعة وكذب . . . حسنا وماذا لو هربت من
الجيش ؟» .

واخذ يفكر في ذلك مرشيا لأول مرة في حياته الاعنة الخلفية ،
كاشفا في نفسه باستمتاع حاد مكامن الدناءة والخسة . . . بل
وضحك واسنانه مصكوكة . . . لقد كانت افكاره كابداع فجائي ،
كلائم الاول . . .

«من اجل اي قدسيات ، يا صاحبي ، جريت في دروب الحياة
ممسكا عنان نفسك ؟ واعتبرت نفسك رجلا لائقا ، عضوا في مجتمع
لائق ، بل وغادرت الفوج الى الجامعة لتوسع افكك الفكري . . .
في صباح كان يغلي اليك انك تشبه بالتمريه بولكوتسكى . واعطاك
الدافع الخلقى الرضا ، وكان ذلك كافيا تماما : فقد شعرت
باتك طاهر . كنت تدبر وجهك باشمئزاز عن كل ما هو مشكوك
فيه وغير نظيف كما تدبره من حرة قاذورات . وكانت لك ثلاث
علاقات فقط مع نساء متزوجات ، تلعتها عندها كانت هذه
العلاقات في ذروة الصفاء ، حين اخذ الفضول المضطرب مكانه للقبل
الرطبة المعتادة . . . وهذه هي الحصيلة العامة : الى اين فادتك
الحياة اللائقة ورأسك المرفوع بعة ؟ الى رفات تار 1 الى هيكل
محترق لانسان ١»

ولما وصل قادم بتروفيتش الى هذه النتيجة بدأ يتقلب
منهجي لامكانيات الهروب من الجيش . الفرار الى خارج البلاد ؟ ان

الحرب تحتاج العالم بأسره . وفي كل مكان يبحث المخبرون عن الإجابات المشتبه بهم ، ويسوقونهم إلى السجن ويستقلونهم هناك . . . وفي جميع العالم تحمل البواخر الشبان المتحصنين . . . وهؤلاء يزعمون «عن قريب ستفتنى على الألمان الخنازير ، وتعود إلى فتياتنا المرحات . . .» وفي المحيط يصيهم طوربيد ، ويتخطب الشبان المرحون في الماء المتثلج حول رقعة من الزيت . . . في أوروبا طوابير الشبان في البسة الكاكي المخاطة كما تغط الأفنان على الاموات يندفعون مطيعين يصفوف متراصمة وفي ياس قاطب للقاء الرشاشات وقاذفات القنابل ومدافع الهاون وقاذفات النار . النار من امامهم ، والنار من خلفهم . فالسفر إلى الخارج يستقل من الحساب . . . من الممكن التسلسل إلى اوديسا ، والحصول على جواز مرور ، والعمل نادلا في مطعم كياب . . . ولكن أحدا حسن الناس سيكتشفه ويقول منهضا : «أى ، أى ، أى . روتشين» ، «هذا أنت يا صاحبي؟» أم لعله يشارب بمقادير صغيرة ، أو حتى يسرق ؟ إن ذلك يحتاج إلى وصيد كبير من العبوية . أم يعيش على صاحبة النساء ؟ ولكنه ليس شابا . . . «حسنا ، وانفرض أنني عشت بطريقة ما حتى النصر النهائي : الاستراكيون كسدت شفتوا جميعا ، والفلاحون يجلدون ، والانجليز قد صفحوا عنا ، وتبدأ بشعور من التقصير في جمع جيش وراء الفولغا لسحق الألمان . تم نوزع السلاح ، وفي يوم من الأيام يتقلب الجنود على الاسياد الضباط ، أبطال «الحملة الجليدية» . وتبدأ الحكاية من جديد ، وكاتباى المسكنة التي لم ابدعها حتى الآن سنتأدى لآخرة مرة في مكان ما في محطة قطار محطة النوافذ ، وسط التالين والهازين والموتى : «فاديم ، يا فاديم . . .» ثم أن هناك مكتابة أخرى : أن اشتق نفسى . . . في الحال . . . ذلك شيء رهيب ؟ أبدا . . . ولكن من المرفق إن أقوم بهذا الجهد على نفسى . . .

كانت يدها ياروتين كالثلج ، وقد أمس بيرودهما يقفاه . ولم يستطع أن يستقر على قرار . وكان اشخاصا صفارا يذبون في نفسه كالذباب ويتهايون ارادته وروحه . . . وحتى يأخذ الظلام بالهبوط سينهض ، ويلبس بنطلونه ، وينهب ماشيا إلى محطة القطار ، ولربما يشتري سيكائر احتياطا للطريق . . . وسيمضى في

العيش ، فإن سيلسا لن يمس مثل هذا الرجل ، ولا تصيبه رصاصة ، ولا تلمسه قملة تيفوس . . .

كان صوتان رجوليان غامضيان يتجادلان بعجالة منذ وقت بعيد وراء الجدار ، فيترددان اليه من خلال باب وضعت امامه خزانة . وكان صاحب احدهما يبدأ كلامه دائما بعبارة «اسمع ، يا سيد باريكاكي ، لو كنت الرب . . .» ولكن الآخر لم يدهسه يكمل فكان يقول : «اسمع يا غايل انت ، لست ربا بل غمارا ! يجب ان يكون المرء مغبولا ليشتري اسمهم «كروب شتالفيركه» قبل نصف ساعة من صدور الجريمة . . .» «اسمع ، أنا لست ربا ! . . .» «اسمع يا غايل ، لو جمعت كل ما عندك لما استطلعت تغطية خسائري . أنت جيفة . . .»

كانت هذه العبارات تقتحم اذني فاديم بتروفيتش بالقوة . فكر مع نفسه «اللعنة ، لعنتي ارمي الباب بالرصاصة . . .» ثم بدأ جرى واصوات متفعللة وراء الباب الآخر المؤدى الى ممر الفندق : «يجب استدعاء طبيب . . .» «ما الحاجة الى طبيب انه بارد . . .» «ما هذا وكيف حصل ؟» «حصل كما حصل ، هذا لا يعنيك . . .»

حقت الاصوات ، وتردد رنين مهمازين .
 - اعفوني ، يا حضرة رئيس الشرطة ، ارجوك . هل صحيح انه ابن اخ امبراطور النمسا ؟
 - صحيح ، كل شيء صحيح . هيا ، يا سادة ، افرسوا المر .
 وبعد ذلك تحدث شخصان بصوت خفيض عند الباب تماما :
 - ليس هذا انتحارا على الاطلاق . مرافقة اطلق عليه النار . انه يمشي .
 - كيف يمكن ان يكون ضابطا مساويا وبلشفييا ؟
 - لا يهم . انهم في كل مكان . ليست فقط فينا ، بل برلين نفسها في ايديهم منذ الامس . . .
 - يا الهي ، يا الهي . انا لا استطيع ان استوعب ذلك .

- نعم ، يجب الفرار . . .

- الى أين ؟

- الشيطان يعلم . ربما الى جزيرة ما . . .

- صحيح . . . بالأمس سمعت أن في اندونيسيا الهولندية

جزرا تفتت فيها اشجار الخيز ، ولا حاجة هناك الى ملابس . ولكن

كيف الوصول الى هناك ؟

وبعد ذلك دخل صبي الغرفة بسرعة دون أن يترك الباب .

انه متلف الاذنية في الفندق ذو الالف الافطس ، والفلم بالاسم من

الاذن الى الاذن . . .

- طعة استثنائية ، الثورة في ألمانيا . . . يا مسافر ، ادفع

ثلاثة روبلات . . .

والتي الجريدة على صدر روتشيد دون أن يلاحظ عيني هذا

المسافر المفتوحين المزعجين ، ولا وجهه الشاحب كوجه الاموات .

- سأخذ الفلوس من الحزير الشابك . اقرأ الجريدة ، يا

مسافر .

وخرج من الغرفة وثيا . أخذ قلب فاديم بتروفيتش يدق

بعنف ، الا أن ورقة الجريدة الصغيرة المطبوعة بصورة غير واضحة

ظلت مطوية على صدره وقتنا طويلا . . . ثورة في ألمانيا . . .

الجنود على سطوح العريات ، المحطات المحطمة ، الجماهير المنشدة

باصوات وحشية ، الغطاء الهائلون من على قواعد النصب التذكارية

قارعين الهواء بيقضاتهم : الحرية ، الحرية ! وكان الحرية تموش

عن خبزهم ، عن الوطن ، عن الشعور بالواجب والهدوء الموزون

للدولة التي تكونت عبر قرون الثورة - السدود المملوءة

بالبقايا ، القتيات الضعافات في البوليفارات . . . والشوق . . .

شوق الانسان الذي ينظر من النافذة الى السطوح الناهلة للمدينة ،

حيث لم تعد سرا . . . وحتى الشمس ارتفعت الى علو شاهق لا

يطال . . . شوق الانسان الساعي بجهود جهيدة أن يجعل نفسه

عبر الحياة وأن يحيى استقلاله وعزته وشجاءه .

وقطن فاديم بتروفيتش اخيرا الى انه يتكلم بصوت مسموع .

لقد كان ذلك يشبه هديانا والعيان مفتوحان . . . تشر صفحاته

الجريدة . كان نيا الدلاع الثورة في ألمانيا مطبوعسا على عرض

الصفحة كلها بحروف كبيرة . لقد بدأت اتناء المفاوضات على الهدنة

في غاية كومبيان ، حين جاء المفوضون الالمان الى قطار الجنرال

فيغان الواقع على خط مسعود للدفاع .

وقد سألوا : ما هي اقتراحات الفرنسيين ؟ ولم يدعهم

الجنرال الى الجلوس ، ولم يمد لهم يده ، واجاب بشراسة باردة :

« ليست لدى اية اقتراحات . يجب حمل ألمانيا على الركوع » .

وفي ذلك اليوم اطيح بالعكام الذين جلبوا العار لآلمانيا ،

وتشكل في برلين سوفيت تواب العمسال والجنود . وغادر

الامبراطور غليوم مقر القيادة في سبا سرا ، وهرب الى هولنده ،

وعلى الحدود قدم سيئه الى ضابط الجيش الهولندي .

بعد بضخ دقائق كان فاديم بتروفيتش مرتديا معطفه

المشودود يحزم شدا محكما ، وقبعته ، واعاد قراءة الجريدة مرة

اخرى واقفا عند النافذة . ثم دس في جيبه اوراق النقد المجدعة ،

وخرج الى الشارع .

واى وجلا زكيئا يسير امام الفندق وكأنه قد خرج لتوه من

بدلة الغوص من عمق سحق . كان وجهه الاحمر منتفخا ، وعيناه

بارزتين من محجربهما . وكان يكرر وهو يحرك شفطيه الغليظتين

المسفوعتين : « ابيع سفنات كروب شتالفر كسه ، ابيع ، ابيع ،

ايبع . . . » وكان يقلب عينيه على السابلة بأهل معنون في أن يجده

من هو اكثر حفاقة منه . . .

أخذ الجنود المتساويون يدفوعته ويضغطونه نحو الحائط .

وكانوا قد جاءوا جماعات لا نظامية ، وقسده القوا بتادفهم وراء

ظهورهم وسيطاناتها الى الاسفل . . . وكان ذلك احد مظاهر

الثورة : الامتناع عن قتل الانسان منذ يومها الأول . . . وعلى

الرصيف الى جنب هذا الجمع سار ضابط نجل ذو شاربين حريزيين

فتين ، ووجهه الرقيق الذي توترت قسباته يشمخ

بترقع ، وعلى كتافيه اليسرى حريط احمر . ان هذا الفتى الذي

ارسل الى الفوج في زمن الحرب لم تنح له الفرصة ، على ما يبدو ،

لان يزهر في بزته العسكرية الجديدة ساجبا قراب سيئه المعندي

على ارضها فينا العرصة بفسانها الصعوبات الفاتئات . وقد كتب
له وهو في ريعان الصبا وبشاشته ان ينتخب الى لجنة الجنود ،
وعا هو يقود سريره الى محطة القطار للجلاء تحت تبار النظرات
الشامتة الهازئة المتقاطرة عليه من الجانبين . . . بينما تجتاح
فينا الغوض والمجاعة ، ويقم العمال المتنازسين .

تابع روتشيف بصره طويلا هؤلاء الاوروبيين المتشامخين .
وقد خامرته ايضا شعور التسامت معدنا نفسه : «لم تمكثوا طويلا
في اوكرانيا ، تاكلمون الوز وشحم الخنزير . . . يبدو ان اتفاقية
بريست المنقبت عليهم في متقلب وغير . . . الا انه تعيش في الحال ؛
«ولكن ما فائدك بذلك ؟ انهم يخلدون الى الدعة في موسكو ، اما
انت ، فاذهب الى خندق عفن ، مع اصحابك المعادين للثورة . . .»
وازداد عيوسه لانه تطق بهذا التعيير الأخير لأول مرة
ويهدوه وسخرية . . . ففي هذا التعيير بالذات كان يكمن سبب
تجزئه الروحي . لقد كانت كاتيا ابعد بصرا منه حين قالت عند
تساجرهما العنيف في روستوف «لو كنت مؤمنا من كل قلبك
بعدالة قضيتك فاذهب واقتل . . .» ولكن كلمة المعادي للثورة
تضئ الوضد السافل وفق كل المفاهيم التقليدية للمثقف التزيه
الذي يحترم نفسه . . . فعاول ان يعيش مع ذلك . . .

حضر يديه في جيبي معطفه وسار مصعبدا في بولفسار
يكاترينينسكي العريض . وكانت مشيته ايضا مشية وقد سافل ،
مشية شامطة متناقلة . من بضارون حلالة فوجد نفسه ينظر
دون ارادته الى هيئته في مرآة ضيقة معلقة الى جانب الباب . واطلت
استماعة خبيثة موعة على وجهه التناطح شحوب الموتى . دخل ،
وجلس على مقعد الحلالة دون ان يخلع معطفه . وطلب ان يخلق
ذقته . وهناك في هذا الصالون ايضا ، كان كسل شيء يدفعه الى
الغبثان : المكان الواطئ الذي لصقت عليه باهمال اوراق
جدران رخيصة ، والحلاق نفسه وقد وضع المشط في شعره المملوء
بالقشرة ، ويدهم القترتان الرقيقتان الفواحتان برائحة حلوة
كريمة .

تحدث الحلاق وهو يترك زبد الصابونة متياطنا في يده دعك
ذقن فاديم بتروفيتش :

- وكان الحياة ذات بلا متاعب لتتفرق في متاعب اخرى . . .
حاربوا اربع سنوات ، والان عندهم ثورة . . . فيم كانوا
يفكرون ؟ لماذا لم يسألوني ؟ - وفتح الموسى ، واخذ يشدحا
بعنف - هناك سياسة كبرى ، وهناك مشغلنا الصغير الهادي ،
فارجو لك ان تعرف الفرق بينهما - واخذ يفرك خدي فاديم
بتروفيتش بالزبد الحار - انت اليوم اول زبون لي . ان الناس
يفقدون عقولهم . فاذا كان الاميراطور غليوم قد فر الى هولنده
فان احدا في بلدنا لا يريد ان يخلق ذقته ! دعني اسولك
السبب . انهم جميعا يخافون البلاشفة ، ويخافون فضائل ماخو ،
فهم يريدون ان يرسلوا ذقوتهم ، ليشبهوا البروليتاريين -
وسحب الموسى على ذقن زبونه بسحب - اعترفتي ربما لا تحب
ان يمسك الحلاق بارتية اتك ؟ هناك من الزبائن من يطلب ذلك .
لقد تدرت في كورسك ، وكان استاذنا يعمل حسب الموضة
القديمة ، فكان يدخل اصبعه في فم الزبون ، اما بالنسبة للاعيان
فكان يستخدم العبارة . فكان يتفاضي على العلاقة بالاصبع عشرة
وبالعبارة اثني عشر . وكان ذلك ثمنا طيبا . ساحلق لك مرة
اخرى ، عندما متسع من الوقت . قيل ان تاني بلحظت مر على
رجل مجنون . هل تعرف بابريكافي ؟ انه مالينا الكبير ، عنده
اضطراب اعصاب ومن المستحيل ان تحلق له ، فان على خديسه
يتورا ، وحتى لمسها بالفراشة يسبب ألما قتيما له . واليوم ،
والحمد لله ، قد انتشرت في جسمه كله . اراد ان يدخل السلوان
الى قلبي يقول : ان الالمان مزعمون على الخروج من اوكرانيا ،
وان البلاشفة بدأوا الهجوم بالثرب من بيلغورد ، بينما اعلمت
سكومة اوكرانيا جديدة في بيليا تسييرك : حكومة مديريين . في
الماضي كان عندنا «مجلس راداه» وكانت سوفييات ، وهيتمان
ولكن لم تكن لدينا بعد حكومة مديريين . وعلى راسه بيتلورا
وفينيتشنيكو . وكلاهما كان من زبائتي في كييف عام ١٩١٦ .
وبيتلورا كان يشغل محاسبا في اتحاد الزيمستفو . وفينيتشنيكو
كاتب وقد شاهدنا مسرحياته . ليس فيها شيء مميز . . . تصور
ان امرأة تخدع رساما ، فيتكلم معها كلمات ضخمة . وفي تلك
الحلقة باتى اليها عشيقها ، فستقبله في غرفة مجاورة . وتصور

أن الرسام لا يقدر أن يدخل عليهما الحجر ، كما أنه لا يريد أن يطرد هذه الساقطة ، فيمد إلى عض يده ليقطع وترها ، ويصير مشوها نكابة بهذه المرأة . كنت أحلق للبينيتشيتكو وكان وجهه رخوا متعبا . . . يقول باريكاكي إن حكومة الميريين اصدرت نداء تدعو فيه الفلاحين إلى الإطاحة بالهيتمان سكوروبادسكي . . . وكان الهيتمان هذا بلا متاعب - وحلق الحلاق وجه فاديسم بيتروفيتش للمرة الثانية ، ولصق عينيه نائرا نظرة غير راضية إلى شعره الأبيض غير المشذب ، وقال : اسمع في بأن أحلق لك شعرك على طريقة à la boxe . ثم لعلك تزغب في صبغة شعر ؟ بقى عندي شيء من صبغة شعر اجنبية من صنف «جناح الغراب» . فما حاجة الانسان إلى هذه الليفة الضيافة ؟ (فقال روتشئين من خلال استانه : «أحلقه كله») سمعا - ولقطسق الحلاق بقصه بالقرب من اذنه ، وكأنه يسترسل في منطلق جديد - اتعرف ، يا حضرة الضابط ما هو احد الاملاء ؟ ان أجد في الدنيا بلدة صغيرة هادئة ، ولو كانت تائبية تنيرها مصابيح الكيروسين . . . وهل ترى بحاجة إلى زبائن كثيرين ؟ عشرة زبائن ، وعندما أفرغ من العمل اشعل قلميوني واجلس عند الباب . هدوء وسكينة ومجاز مسالمون يرون بك قففتهم وتحتني لهم بالتحية فيردون عليك بمثلها . لا احد يفكر بالناس الصغار ، يا حضرة الضابط ، فقد شطبوا من الحساب - نحن لا نحسب في الوجود ، حتى نتمو لك هذه الليفة . انظر بآية هيئة جنت ، وماذا صنعت منك : صورة بهية !

نظر روتشئين إلى نفسه في المرأة . كانت ججمته اللامعة حسنة الشكل رحيبة للأفكار النبيلة السامية ، والوجه ضيحا بالحداد لطيف من عظمى الوجنتين البارزين بالكاد إلى الذلل غير المفرط في بروزه ، وغير المستكين أيضا . كان حاجباه الداكنان معقودين على قضية الألف فتباعا نحو الصدفتين بنزوة ملطفتين من صرامة العينين الذكيكتين الصغيرتين اللتين تبدوان داكنتين من حدتتهما المستمتعتين . لا شيء في هذا الوجه يجعل صاحبه منه . الا أن الفم ، على ما يبدو ، قد افسد الأمر كله . في الامكان أن تكذب العينان ، فاهما كاذبتان كاتمتان ، الا أن الفم لا يتقبل التوبة . انقل اليه

دائم الحركة ، بلا شكل ، كالتيرقانة . . . الشيطان يعرف مما هذا ! لست فأوست ، يا فاديم بيتروفيتش . . . نهض ، والتي على راسه قبعة الميدالية القلوة المنقوية برصاصة مائلة قليلا إلى جانب ، ودفع آجرة سغية وخرج . . . مما زال لم يستقر على قرار . . . الا أنه لم يعد يشعر بارتغاه في رجله ، ولم يعهد يعثر بطرق حدانه على بلاط الشارع . تلك حسيمة اللعاب إلى صالون حلاقة ! ان قطرة صغيرة من العب قد تسربت في ياسي نفس الكثر .

اضيت الاضواء في التوافسذ . وكانت الريح تعصف في اشجار الحور الجرداء الضائعة ذراها في الظلام . وشع مصباح تير بوقاحة فوق باب منظر لمطعم كابرية «بي - با - بو» بجذ جذوع الاشجار في الجانب الآخر من الشارع . وكان هذا المقصف مشهورا بالشواء على الطريقة الجورجية . وأحس فاديم بيتروفيتش بعصرة في معدته ، وهو يفكر في الطعام ، فانه لم يتناول طعاما منذ يوم امس . كان ذلك احساسا بالجوع ثوبا فأهرا استولى عليه ، وازاح من طريقه جميع التعقيدات السايكولوجية . استدار روتشئين نحو الباب المضاء بعزم . طلعت مخلوقة في تنورة بيضاء من وراء شجرة ، وحاولت ان تسد عليه طريقه ، وتابعتها بهسيس متواصل : «يا عزيزي الضابط ، دعني اوفر لك متعة . . .»

كان مكانا واطي السقف طويلا زينة منذ وقت ليس بالبعيد جدا الرسام اليساري المشهور قايلت الهارب من بتروغراد . وكان سلف «بي - با - بو» اسود مرضعا بنجسوم كبيرة من الورق الابيض . وعلى الجدران السوداء طيف آجروس وصفراء وبرتقالية منشورة الاطراف تبدو وكان عاصفة قد اكتسحتها - هي لتخاطب مستطيلة لرجال ونساء . وكانت هذه الصورة الجدارية جدية جدا بالنسبة للكابريه . فقد كان الرعب ، لا الحساسية ، هو الذي يسوق هذا الطليع العاري فوق الجدران . وقد قال الرسامال الذي مول هذا المشروع - وهو باريكاكي نفسه - قال ذات مرة «انقلوا اطراف عن جسدي لو كنت افهم هذا التصبيغ ، فهو يفرقني ، بينما يجد اعجابا من الجمهور . . .»

تناول ووتشين فداء ، وشرب نبيذا . وكان القطار يغادر في الساعة الرابعة ، فزم أن يمكث في المطعم حتى الثالثة ، وسيرى كيف تسير الأمور . . . كان يشعر بالدفء ، وبشء من الطين في رأسه .

وكان النادل - وهو تترى من مطعم «يار» الراحل في موسكو ، وصاحب قديم - غالبا ما يقبل عليه ويرفع الزجاجات من جردل الثلج ، ويقول وهو يتحنن ليصب الشراب :

- اعذرني ، يا فاديسم بتروفيتش ، فانا اجي اليك باستمرار . . . هل تذكر موسكو . . . آه ، انت ترى كيف نعيش هنا . . . ان هؤلاء الاوباش يتراهنون لي حتى في النوم . . . كان المطعم غامضا بالناس ، ورغم جو القلق في المدينة ، حيث كانت طلقات متفرقة تتردد في الاطراف وفي ظلام الشوارع الخلفية . فيحاول الخيالة الهيتمانيسون من الحرس ان يصوموا اذاتهم عنها . اثناء مرورهم مضعين الى قصر الحاكم ، ورغم الذعر في السوق السوداء اليوم ، لم يكن برنامج الترفيه قد بدأ بعد . وقد جلس الى البيانو على المسرح الصغير شاب طويل ذو رقبة ممدودة يمسك الساعد ، وشعر زنجي منتصب ، مائل الى قفاه . وكان يعرف لنا من اوبريت .

كان يحيط بمائدة ووتشين جو من الضجيج والسكر . كان بعض اصحاب العقارات من ضالوا من السام في حجرات فندقهم بين بناتهم الغائبات يتفلسفون عن هومهم وراه اباريتش الخمرة .

صرخ رجل له خدان ناعمان :

- اؤكد لكم ان نهاية الالمان قد حانت الان ! وفي عشيبة العام الجديد سيكون فيلق الحملة الانجليزي في موسكو . وستشرب الويسكي الاسكوتلندي . لا يخلو شر من نفع ! - وقفه الرجل المليب فافرا فمه منظرا استنائيا جيدة - اذن ، فالتصير للثورة الالمانية ! ورفع شخص آخر يده طالبا الانتباه ، وكان شديد الهزال ذا عينتين تلمعان بسخرية من داخل محجرهما الرماديين :

- اللورد مستشار الخزانة يجلس في مجلس اللوردات على نضد من الصوف ، كما هو معروف . . . الا ان نيلاه سيبيبرسك

كانوا يغفرون بالعمود المرمرى في فناء جمعيتهم للتأكيد على ان ما من شيء مزعج يستطيع ان ينال من السادة اعمدة النبالة حتى آخر الدهر . . . ولهذا كانوا يهيمون مرتاحين تحت طلة الافطيون . . . لقد انتهى تاريخ النبلاء الروس . . . وليس لنا ما يكفينا من لضمند الصوف . . . تماما كما انتهى تاريخ امنا روسيا ، ايها السادة . . . قترت آخر صلعة من قصة مدينة غلجوبوف . وتلف الكتاب في زاوية ، ولم يحدث هذا خلال الزويمة والعاصفة ، كما قال احد الاذكياء الكبار ، وفي يوم اثنين اعتيادي . بصصق الرب واعطا القنديل . . . لقد بعث ارضي الصغيرة في عام ١٩١٤ ، ومثل ذلك العين وانا مواجل عالمي . . . ذلك افسن شيء . . .

- ذلك جيد بالنسبة لك ، يا سيد ، فقد اتهيت جامعة اكسفورد . اما انا فابن اولي بيناتى الثلاث ؟ اين ؟

تسأل الرجل الطيب المورد الغدين ، وتغر . ومد يده الى ابريق الخمرة واضاف قائلا :

- اما بشأن نهاية روسيا ، فانا لا اوافق ايضا . ذلك من اثر تعليمك الانجليزي . . . استطع انا ان اعصل مساعد مأمور ، او رقيب عمال ، واستطيع ان احرت بنفسي ثلاثة اقدسة ، ولكن سوا من يروسيا .

وصب شيئا من الخمرة ، والتفت في الحال ينقله الى الرجل الثالث الجالس الى المائدة ، وسأل :

- اين اخصب بهن ؟ نشان قارعات مسطحات متنشات سريمات التأسو كانهن من السيدات بطلات قصص تورجيتف ، وذلك كله في زماننا ! وامهن مسؤولة عن كل ذلك ، ولكن الذهب يقع على . . . انا اعترف بذلك نادما . كانت الكبرى تريد الالتحاق بديورات النساء العليا ، ولكننا افتنعنا بالدول ، وهي فضلا عن ذلك كسول . . . وانجذبت الصغرى الى المسارح ، وكان من الممكن ان تكون مشغلة من العرجة الاولى ، واؤكد لك ذلك . . . وصرفناها عن ذلك بجهد كبير ، بل واستخدمنا التهديد . . . وباختصار كنت الأب المستبد ، وذلك في زماننا هذا ! وكل ذلك بسبب من قلعة التروي . . . والانجليزي ينظر ثلاثة اعوام الى الامام وهو جالس على نضده الصوفي ، ان هذا صحيح . . . اما نحن فكنا نفكر من

فصل الى فصل ، كما يقولون - وشرب من قدحه محركا
خديه ، واضاف بشكل مفاجئ - ولكن يشكك عام لمن
نضج ...

وكان ثالث الجالسين شديد السكر بحيث لم يكن يستطيع الا
ان يصرف بامتثاله ، وبأكل الزهور - زهور الاسطر الصغير -
يقطعها من مزهريه على المائدة - ولم يكن يصغى الى شيء ، مثبتا
عينيه الكدرتين في المائدة المجاورة حيث جلست عليها فتاة على
قدر كبير من الجمال لها عضة كبيرة بريسة من شعر شاحب
الشفرة ، وشاب ضخم في لباس شبه عسكري . كان يبكي بصمت
واضعا ذقنه على راحة يده . لا يعير التفاتاً الى احد ، وكان كل
الموجودين هنا مليوف حفا . غمخت الفتاة وجهها المستدير الأزرق
العينين في ضيق ، ومدت على يده ، وامسكتها ، وراحت تقبلها ،
واحتت رأسها على مقربة من الشاب ، وهستت له بعجالة وعلع .
هز الشاب وجهه الضخم هزا بطيئا ، وسمع روتشبين صوته الكامد
الهامد التنبه بصوت دعمة النيام :

- أتركيني ، زينا ، أتركيني . . . لم أعد أريد شيئا ، لا اياك

ولا اياي . . .
وكان في امكانه ان لا يقول شيئا آخر ، فقد كان مفهوما
يدون ذلك بم ستنتهى الليلية بالنسبة لهذا الشاب . . . كانت
الفتاة تشبه كاتيا بشي . ما ، لا بوجهها ، بل بعذوبة حركاتها
الهادئة . . . ستنتهى حياتها ايضا في مكان ما بين مرضى التيفوس
في محطة قطار على مفترق طرق . . . جاء فتيان ، وجلسا على عجل
الى مائدة شاذرة ، وجحباها . كان لكليهما خصلة شعر مشذبنة
نازلة حتى حاجبيه ، ولستان موصولة . وخواتم من الالاس في
اصابعه اللدرة . قال احدهما للأخر مياها «ضربت مانكا بقضيب
حديدي ضربا موجعا ، ودست عليها حتى قرععت عظامها ،
الساقطة . . .»

- هل تسمح لي بالجلوس الى مائدتك ، ايها الضابط ؟

هز روتشبين رأسه دون ان ينطق بكلمة . فجلس الى مائدته
وجل في نظارة من التيكال دافعا قدمين ضخمتين تحت المائدة . كان
يرتدى بزة عسكرية خضراء ، ومادية ضيقة عند الصدر لضابط

الماني من فصائل «لاندشتورم» المتلوعة . قال للتادل وهو ينطق
الكلمات الروسية بعسر :

- أروحك ان تطعمني . عند وقت طويل وانا لم أكل . تم
بيرة ، بيرة !

ونفخ خديه التحليلي مظهرا كيف سيشرّب البيرة ، وضحك ،
ثم نظر بشي من الدهشة الى روتشبين العبوس مضوبا اليه فيبتئ
هادئين ذقواوين كعيتي غرباب الزرع :

- هل يتكلم حضرة الضابط الالماني ؟

- نعم .

- اذا كنت اضايك بحث عن مائدة اخرى بكل سرور .

- انت لا تضايقي .

وكان جواب روتشبين في هذه المرة اكثر لطفا . كان للضابط
الالماني وجه من تلك الوجوه الالمانية التي تمتاز بالضحيق وصغر
القم مع اتباع خفيف فيه ، وتظل تحتفظ بمسحة الطفولة والتورود
الرفيق حتى الشيخوخة . كان انه مرفوعا ، وكانه يدافع من
التطلع الحسن النية الى كل انسان . قال :

- من قبل كانوا لا يسمحون لنا ، نحن الجنود ، بارتيساد
المطاعم ومنذ يوم أمس أصبح الانضباط الالماني اكثر معقولة .
ابنسم روتشبين ابتسامة موعجة ، فاسرع الضابط الالماني
بتعديده فكرته على وجه الدقة رافعا كالمستأذ اصعبا لوية الاطر :
- الانضباط لا يد ان يكون معقولا واذا ذلك يكون على شاكلة
النظام الاجتماعي ، وشرطا ضروريا للتطور . ومثل هذا الانضباط
المعقول يوله من الحركات الاجتماعية العميقة . ولكن اذا لم يكن
كذلك ، وكان سن وسائسل الاكراه فاننا لن نسميه
انضباطا .

وهز رأسه مرحبا ، منهايا فكرته العامضة قليلا هذه .

سأل روتشبين :

- اتعلمون الى المانيا ؟

- نعم ، ان وحدتنا انتخبنا لجنة فاصدورت هذه اللجنة قرارا
مبدليا تماما من حسن العطف رغم انه لم يتخذ دون مقاومة .

- انت تعرف ما تعنى العبارة الروسية : لا أحد يستطيع من
رجليك .
- معرفتي بالروسية ليست قليلة . اعرف انهم حين يقولون
لك ذلك فعنتي ذلك «الذهب الى جهنم وبنس المصير» . . .
- وليكن ذلك . . . يبدو لك ذكي فما حاجتنا الى
التظاهر ؟ كنا اعداء . واقتربنا اعداء .

- اها ، حسنا - وفكر الالمان همز رأسه وقال :

- من ناحيتي سيكون نكران ذلك من العيب بل وعدم اللياقة .
وانفجرت شفاته الريقانان عن ابتسامة مرة أخرى منها هذا
الموضوع . احضر له الطعام والبيرة . ابدى اعتذاره لأنه سينقطع
عن الحديث بعض الوقت . واقبل على الشواء غير متعجل ، بل
وماضيا قطع اللحم والخبز والطماطم المشوية بتوخ مسن
التجليل .
- لذيذ .

قال ذلك شاعرا بان روتشين لا يصرف عنه عينيه الداكنتين
الحادتين . واتي على كل ما في الصحن ، ومسحه بقطعة صغيرة من
الخبز ، ووضعها في فمه . وشرب القدر الكبير من البيرة الباردة
مسبلا جفنيه نصف اسمالة .

- الالمان يهتمون بالطعام اهتماما جديا جدا . جاوعوا
كثيرا ، وسيجوعون طويلا حتى تحل مشكلة الطعام حلا نهائيا .
وارتفعت اصبعه الملوية الى الاعلى مرة اخرى .

- في فجر التاريخ ، حين انتقلت البشرية من الجمع البدائي
لهبات الطبيعة الى التدخل القسري في الطبيعة اصبح الطعام حصيدا
العملية الصعبة الخطيرة للحصول عليه . وضار الطعام عملا مقسما .
الاكل يعنى امتلاك حياة اخرى ، قوة اخرى . ومن هنا تانى فكرة
امكانية رقى الطبيعة ، اى السحر . . . وطقوس الطعام السحرية هي
في اساس كل العبادات الباطنية . انهم ياكلون جسد الله . . . وقد
سجلت حوارا طريفا مع عالم روس عن اصل قرص الفطائر . وايام
القرع هي عيد اكل الشمس . وقد طلسموها برقصات دائرية ،
ثم اكلوا صورونها ، وهي قرص الفطيرة . وهكذا ترى ان السلاف
في معتقداتهم كانوا دائما يطمحون الى ذرى عالية جدا .

وشحك ، وفق الزر المعدني لسترته العسكرية ، واخرج
دفتر ملاحظات سيبكا ذا كعب جلدي متهدى . نفس ذلك دفتر
الذي اخبره في عربة القطار قبل شهرين ليقرأ لكاتبيا ووتشينا فقرة
من اميان مارتسلين . وضع الدفتر على المائدة ، وقلب بعذر
اوراقه المدونة بملاحظات ومقتطفات وعناوين مكتوبة بخط
دقيق .

قال وقد وضع اصبعه على صلعة :

- انظر .

الا ان روتشين لم ينظر الى تلك السطور الصغيرة ، بل الى ما
خطته يد كاتبيا في الاعلى : «يكاترينا دميترييفنا ووتشينا ،
يكاترينوسلاف ، شباك البريه» .

فسأله بصوت اجش :

- من اين لك هذا ؟

وتدفق الدم الى وجهه . لرفع يده الى يافة قميصه المسكرى .
وخيل للالمان ان الضابط الروس سيخرج مسدسه باليد الاخرى
حالا ، على عادة سنس الحرب . . . الا ان عيني الضابط المخيفتين
لم تعبيرا الا عن المعاناة والتوسل . . . قال له الالمانيا باكثر ما
يكون من اللطف :

- يبدو انك تعرف هذه المرأة معرفة جيدة جدا . استطيع
ان احدثك شيئا عنها .

- معروفة لي . . .

- اوه ، تلك قصة من القمصن المحزنة .

- ولماذا محزنة ؟ هل قتلت هذه السيدة ؟

- لا استطيع ان اتول ذلك عن ثقة . واود ان امل بمصير
افضل . . . خلال سنس الحرب ادركت ان الانسان هو مخلوق يملك
قوة بقاء خارقة . رغم ان من السهل جرحه ، وانه سريع التائر بكل
الم . . . وهذا يحدث . . .

ودفع اصبعه من جديد . الا ان روتشين قال وقد تلوى وجهه :

- قل لي اين رايتها ، وماذا حصل لها ؟

- تعرفنا في عربة قطار . . . وكات يكاترينا دميترييفنا قد
قدت لتوها زوجها الذي تحبه بحرارة . . .

- كان ذلك اقترافاً مقصوداً . . . فانا نحن ، كما ترى . . .
 التي الضابط الالمانى ظهره على كرسية ، وتكور فيه الصغير ،
 وصارت عيناه الشبيهتان يعينى غراب الزوج مستديرتين ، وضرب
 كفيه على السادة :

- انا ادخل هذا المعلم لأول مرة ، واجلس الى هذه العائلة ،
 واخرج دفترنا . . . واذا بالاموات يستيقظون ! انت زوج تلسك
 السيدة ؟ لقد حدثنى عنك ، وكنت انا ايضا انصورك آنذاك في
 الصورة التي اتت فيها . . . لا ، يارفيق روتشين ، يجب الا ، الا . . .
 وتلعت ، واطبق شفطيه الرقيقتين ، ونظر من فوق نظارته
 نظرة صارمسة متفحصسة في عيني قادم يترقفتش المعروفتين
 بالدمع . وظهرت قطرات العسوق على انفسه المرفسوع
 بحسن لوية :

- نزلت من القطار قبل يكاترينوسلاف ، فكتبت عقيلتك
 عنوانها لي . وقد اصرت انا على ذلك ، اذ لم ازد ان افقدها ككثير
 عابر . وخلال الطريق استطلعت ان اشعرها بعض البشاشة . انها
 ذكية جدا . وعقلها الصافي والمقابل التطور متمشئ للافكار الطيبة
 الرقيقة . وقد قلت لها : « ان الحزن هو نصيب ملايين النساء في
 وقتنا هذا . ويجب ان يحول الحزن والشقاء الى قوة اجتماعية . . .
 ليهلك الحزن الصوره » ، سألتنى «وما حاجتى الى هذا الصود ؟
 وهل ترائى اريد ان اعيش اكثر ؟ » قلت لها : « نعم ، انت تريدان
 ان تعيشي . ليس هناك اهم من الرقية في الحياة . واذا كنا لا نرى
 من حولنا غير الموت والشقاء والحزن فانا يجب ان نلهم باننا نحن
 انفسنا ملومون لاننا لم نزل حتى الان سبب ذلك ، ولم نحول
 الارض الى مسكن وادع سعيد للانسان ، تلك الظاهرة الرائعة .
 خلفنا صمت ابدى ، وامامنا صمت ابدى . وليس لنا غير فترة قصيرة
 من الزمن علينا ان نعيشها كتملا سعادة هذه اللحظة كل فراغ الصمت
 الالتهائى . . . » لقد قلت لها ذلك لادخل السلوان الى نفسها . . .
 وعلى هذا النحو نزلت من القطار ، وانضممت الى وحدتي . وفي الليل
 تلقينا اخبارا تقول ان القطار التي كانت زوجتك تقفه قد اوقفت من
 قبل شرمة من الماخويين ، ونهب ، واقتيد جميع المسافرين الى
 جهة غير معلومة . هذا كل ما يعرفه ، يارفيق روتشين . . .

بدا برنامج الترقية على المسرح الصغير . دفع البيانو
 والموسيقى ذو الشعر النابت الى ما وراء الكواليس . وظهر دون
 ليسانو عريف الحلات الموسكوفى الذائع الصيت ، وهو رجل حسن
 المظهر لا يحزر عمره ذو عينين مصبوغتين يرتدى سترة «سموكين»
 وقبعة قش قاسية انزلها على حاجبيه .

- اهتزم ، ايها السادة ، بالثورة الالمانية - وصافح نفسه
 بنفسه بشدة - كنت قبل برهة في محطة القطار . وقد قلت لضابط
 العالى : مرحبا ، كيف الحال ؟ فقال لي : « حسن جدا واثت كيف
 حالك ؟ » قلت : « كذلك حسن جدا ، ما هو شهر تشرين الثانى ،
 وقبعة القش باردة فيه ، بينما تركت يعنى الشتانية في موسكو ،
 والان لا اعرف متى ساحصل عليها » فيقول لي : « اشترى لك قبعة
 شتانية » قلت : « ادخرت الف مارك للقبعة ، اما اليوم فقد اعطوني
 مقابلهما خمسة روبلات » فيقول متعجبا : « آى ، آى ، آى . قلت له : آى ،
 آى . » وهكذا تحدثنا عن هذا وذاك ، بينما كان جنوده يصعدون على
 سطوح العربات . قلت له « هل انتم واحلون ؟ » قال « واحلون » . قلت
 « نهانيا ؟ » قال « نهانيا » . قلت : « مع الاسف الشديد » . قال « ما
 في اليد حيلة » . قلت : « باى معنى : ما في اليد حيلة ؟ » قال « يعنى
 الخلو من كل معنى » . قلت « آى ، آى ، آى » . بينما كنا نأمل ان
 ذلك لن يحصل عندهم . وهنا غنى الجنود الجالسون على سطوح
 القطار المنحية «التفاحة» الروسية فانصرفت . . . وكان الظلام من
 حولي ، والريح تصفر ، وفي السوارع الجانبية طلقات نارية . وكان
 على ان ابدأ البرنامج ، فقد تأخرت عن موعدى ، وقلبي يرتعش .
 فاقنعت المنى .

ودف البيانو وراء الكواليس ، ففقر العريف محركا رجله :

١ ، يا فلانة

كليل مظلم

قال ايرى اوجه ؟

مقول ان اعرف . . .

وادار روتشين ظهره الى المسرح ، وتطر في عيني هذا الالمانى
 العجيب . وسأل :

- هل تستطيع ان تلبغنى في اى منطقة يعمل ماخنو الآن ؟
- تقول تقاريرنا الاخيرة ان ماخنو بدأ يضغط بشكل خطير على
الوحدات المتساوية المتراجمة وعلى الوحدات الالمانية في بعض
الاماكن . ومقر قيادة ماخنسر عاد من جديد الآن الى غولاى-
بوله . . .

١٠

في بداية تشرين الثانى كان فوج كوتسالىن في الاحتياط
للمتريز والاستراحة . ولم يبق منه بعد انتهاء المعارك غير ما بين
مائتين وثلاثمائة مقاتل . وكان بيتر ليقولايفيتش ملبس بالمدى
وعهد اليه اللواء كمفاجأة له نفسه قد تحدث في المجلس العسكري ،
واقترح منه حين تلبغين أمرا للفوج كوتسالىن ، وكان تلبغين
يرقد في المستشفى ، كما عين سابوجكوف مساعدا له . وايضا
غورا مفوضا للفوج . وضمت بطارية تلبغين الى مدفعية
الفوج .

كانت اباما رطبة نفوح برائحة دخان الموائد ورائحة الكلاب
المبللة . وكانت الرطوبة تقطر من السطوح المعتمة ، والارض
تتحول الى وحل ، وكان المقاتلون ، وهم يمدون من التدريب
يعلمون باحديتهم كتلا ضخمة من الوحل . وكانت معنويات الجميع
عالية . وكان الموسم الرهيب في نهايته ، فقد دفع جيش الدون
بعيدا وراء شاطلي* الدون الايمن . وترددت الشائعات عن ان الامان
كراستوف في نوفوتشيركاسك ضرب رأسه في الحائط يائسا بعهد
ان علم بهزيته الماحلة الثانية هذه قرب تساربتين .

كان المقاتلون ، بعد انتهاء يوم من التدريب العسكري
والدراسة السياسية ومعو الأمية ، يتفرغون عند هبوط الظلام في
القرية متكسبين من البرد ، بعضهم الى معارفهم ، والبعض الآخر الى
«الصديقة الجديدة» . اما الذين لم يكن لديهم معارف ولا صديقة فقد
كانوا يقضون اوقاتهم في السير متشددين الاغاني ، او في اغواء الفتيات
بالاصعب الهائلة جالسين في مكان جاف . وما كان يشد بالنتكات
والضحك غالبا ما ينتهي بالتقاشات العادة في بعض الاحيان لان
اعصاب الجميع كانت متوترة .

كان اثنان من بطارية تلبغين العشرة قد جرعا جرعا
خلطرا وقتل ثلاثة . وبقي خمسة . ونزل البعارة في بيت فوزانى جيد
كان قد تركه صاحبه الهارب . وكانت انيسيا تعيش معهم وقد
سجلت في الفوج اسميا كجندي غير محارب . وكانت تصطف اسوة
بالمقاتلين الآخرين وتشرق على الرمي وتحضر التثقيب السياسي .
وصارت ترتدي بزة نظيفة لجندي احمر ، سوى انها لم ترد ان
تعلق شعرها المعجم الجميل . وقد رأت الكثير من الفطائع والموت ،
وفي عهد تشرين الاول المضنى خوصت في مصيبتها التي لا تحوس ،
كما يغرض الناس الى اذقائهم في مخاضة نهر . ولم تظهر نجاعيه
جديده على وجهها الذي عاد اليه الشباب ونقى ، واترخ خديها
فداء الجنود في المؤخرة . وانصبت فائتها ، وصارت مشيتها
خفيفة ، وتجددت بكليتها . وفي الليال حين كان البعارة يشغرون
بقوة في المسكن غير المدفأ كانت هي تفسل ملابسهم خفية ، وترفوها
وتصلحها ، وفي بعض الاحيان كان عملها يستد حتى يصعد بسوق
الاستيقاظ مبدودا في الفجر الرمادى .

كما بقي في الفوج كوزما كوزميتش ليفيدوف في منصب غير
رسمى هو كاتب الفوج . وفي اصعب الايام ، اليوم السادس عشر
والسابع عشر ، ابدى شجاعة بل واستماعة خاصة حين كان يخرج
الجرى من النار . وقد لاحظ الجميع ذلك . ولم يتفانس فيما
بعد ، حين انتقلت بقايا فوج كوتسالىن الى الهجوم المضاد . كما لم
يتأخر وراء الدون ، حين بذل الفوج ، وحول الى المؤخرة .

ذات مرة التقى به ايلان غورا عند مطبخ الميدان مبلا قلرا
تحللا متفعلا فدعاه باصبعه : - ماذا عساني الفعل معك ،
يا تليفيدوف ؟ لا استطيع ان افهم اى شخص انت ؟ نس مجرد من
مسوحه ، وفي سن محترمة . . فما الذي جعلك تتعلق بنا ؟

تنتشق كوزما كوزميتش لان قطرة من المطر سقطت من على
انفه المقشر ، وتطلع الى المفوض بعينيه الصهاوين المرتحنين :
- هذه طبيعتي . يا ايلان ستيتيانوفيتش . اتعلق بالناس . . .
الى اين اذهب . وعن اى مجتمع انساني آخر ابعث ؟ فانا رجس
مفكر .

- ولكن ليس هذا هو الموضوع . اسمع . . .

- لما بخصوص مؤنة الفوج (واشار كوزما كوزميتش الى القصة المملوءة التي كان يحملها) فان هذه الشجيرة من شجيم الخنزير قد اكتسبتها بنزاحة . ولا ترائي قد حرصت على سلامة جلدى . . . اما البطال والعداء فقد حصلت عليهما بنفسى من العدو في ساحة المعركة . . . وانا لا اطلب شيئا . ولا اقل عمل احد . وفي المستقبل ايضا امل ان اكون ناقما . البيست الشجيرة بحاجة الى انسان ذكى ؟ بلى . . . وليس في فوجكم كاتب متعلم . . . وانا فضلا عن ذلك اكتب باللاتينية والانجليزية . وقد اتفق في مواضع اخرى . . .

فكر ايفان غورا مع نفسه : «حقا لماذا لا نستفيد من انسان ، اذا كان ذكيا ويريد العمل ؟ »

قال :

- الموضوع ان اصلك يفلتني . لخشى ان تبست الافكار الضبابية . . .

قال كوزما كوزميتش :

- نعم ، مر وقت كنت فيه اركض وراء السراب . ولا حاجة الى ان اخفي شيئا . . . كنت تائها فيه . لا ، لا تخشوا شيئا من تعريضى . فانا مع الله في نزاع . . .

سأل ايفان غورا :

- في نزاع ؟ ما ؟ حسنا ، تعال الى منزل في المساء لتتحدث . . .

وعند هبوط الظلام ظهر كوزما كوزميتش في منزل الملووس الذى كان جالسا عند النافذة وهو في معطفه وبعته ، بقرا جريدة محركا شفتيه . طوى ايفان غورا الجريدة ، ونهض وانطلق الياب :

- اجلس . . . هناك شيء غير جميل قد حصل . هل انت قادر على ان تظم لسناك وراء اسنانك ؟ بالمناسبة ، سيكون وضعمك اسوأ اذا بدأت بالكلام الزائد : فانا اعرف كل شيء . حتى ما يحلم به المقاتلون اثناء نومهم . . .

واخذ يقطع شريطا ضيقا من حاشية الجريدة البيضاء ، ونخر ، وهو يحاول لطف الشريط باصابعه التي لم تكن تتطويعه في تشنيتها .

- حسد الناس . وخزن القمح . اما دورسه فقد تأخر بعض الشيء بسبب الاوضاع العسكرية . . . الا ان الناس يتقون بنا ، وهذا الشيء الرئيسى - انهم يريدون الاعتقاد بان السلطة السوفييتية اصحت متينة . . . حسنا . . . ولكن عن قريب سيحل عيد العجائب المقدس . . .

ورفع ايفان غورا بصره الى كوزمسا كوزميتش قليلا ، واختار منظر انه الكبير في ارتباك . . .

- عن قريب عيد العجائب المقدس . . . والغرافات ما زالت حية في الناس . . . ولا تستطيع معها برسوم في يوم واحد . . .

انها تقتضى وقتا طويلا ، كما يمكن ان يقال . . . بينما الفتيات غير راضيات . وهن ينتظرن العيد ، ولا احد يرسل لهن الخطابات .

بالامس كنت في قرية سياسكويه . اوقفت النساء عربتى ، وصرن يكتبن ويشتمن ويضحكن . . . التعاطف مع السوفييتات كلنى ، ولكن هذا العيد يصعب عليهن . . . القرية غنية ، والحروب كثيرة ، ولم تطبق عليهم حتى الآن ضريبة فائض الحبوب . . . ويجب التعامل معهم بذكاء ليقدروا العيوب عن وعى بالامر . ولكن كيف يمكنك ان تقوم بالدعاية بينهم ، اذا كانت النساء قد اسكنن بعمان العربية

وهن يصرخن : هين لنا قسا . . . وقد اجعلتهن قائلا لهسن :

كناكم من قساوستكم وقد رايتهم يلوحون يباخرهم امام الجنرال مانتوف . فيقولن لي : «اولئك كانوا قساومة ايضا ، وقد طردناهم

يانفستا من القرية . . . ولكن اعطنا قسا احمر . . . نحن بحاجة الى عقد حفلات زفاف ، وفتياتنا تعبن من الانتظار ، وعندنا مائة وخمسون طفلا يصرخون في اليهود ، وهم لم يعمدوا بعد . . . »

تفر . . . لقد ظل رأسى يرجعنى في اليوم التالى . . . الى هذا الحد ازعجتنى النساء . هل استطيع ان ارسل لهن قسا ؟ ولكن يجب حل

المسألة . انهن بعد التفكير الطويل قد يرسلن في طلب القس القديم من نوفوتشبركاسك . . . وسيكون ذلك تضادما . . . انت ، يا

كوزما كوزميتش ملم في هذه الامور ، فالقدلى . خذ عربة . واذهب الى القرية وتكلم مع النساء . . . ولكن وكائى لا اعرف شيئا . انا

رأيت أولئك الفتيات ، فطاعة : انهن ناضجات - وانشاء ايمان نوراً الى صدره - ان القضية انسانية . - فهل تدع ؟

اجاب كوزما كوزميتش :

- بكل سرور .

وهز راسه مكوراً شفتيه .

- انت رقيق مضجر في الحديث ، يا شاريفين . دعنا نأشرف يجعل البر ، ينفق عقله .

واخذ لاونغين قبعة ، وارتداعا عائلة ، وحافظها النائفة على اذنه ، وتحرك على المصطبة ، الا انه لم ينهض منها ، وحرك مقلتيه ، ونظر الى اتيسيا .

كانت تجلس مقلية الجبين من جهد الانتباه ، مثبتة بصرها كما هي الحال دائما في ساعات القراءة في اى شيء كان ، وليكن مسمارا في الحائط . فان عقلا غير المتعلم كان يجد عمرا في تقبل الافكار المجردة ، فقد كانت مثل كلمات من لغة غريبة ، لم تكن تنفذ الى احساسها الحية الا اجزاء وومضات متقطعة . كانت كلمة «الاشتراكية» تثير فيها تصور شيء جاف مهسس ، مثل شريط امر ثلاثين زغبه ايد خشنة . وقد حملت بهمسدا الشريط . وكانت «الامبريالية» متدها مثل الملك يتو خدنصر الذي رآته في صورة شعبية رخيصة التصق بها فضلات الذباب وقد وضع التاج على راسه وليس ردا صبيح بلون قرمزي زاه . وكان الملك قد القر صولجانته وكرته الملوكية عند مزاى يد كتعب على الجدار كلمات تنسج بهلاكه .

الا ان اتيسيا كانت محبة للعمل ، وقد بذلت جهدها للتغلب على هذه التصورات الناقصة .

وكانت تحسن بنظرة لاونغين عليها ، الا انها لم تصرف بصرها عن المسمار في الجدار ، ولكنها اطبلت ببط ، وكتبها المتباعدتين .

سأل شاريفين :

- لماذا انا مضجر في حديثي ، يا لاونغين ؟ المقالة التي انتدارسها منشورة في «لوقستيا» ، افلا تعجبك ؟ اذا كنت مقانلا في

سبيل الثورة وجب عليك ان تتمثل بدقة ، وانت تحشو بندكتيك ، الوضع الرامن والمهمات العامة ايضا .

وجين قال شاريفين ذلك نقل نظرة داكنة من عينيه الزرقاوين الجيملتين الى اتيسيا . فتابعت هي النظر الى المسمار . وقال بايكوف بصوت رفيع ، دون ان يضعك :

- ولكن ما تفعل الصدار للذب ، فانه مميّزته في الاجامات ، على اية حال . والعلم حال من المتعة بالنسبة لرجل شاطر .

رد لاونغين فوراً بدون تبرة مز : ايضا :

- كلام ليق ! ولكن صحيحا تماما . لا ، ليس العلم خاليا من المتعة بالنسبة لرجل شاطر . انا احترم العلم ، اذا كان الاطفال يخرجون منه . ولكن الامر الخالي من المتعة الا يعرف الانسان اين يدا الفيل من رجليه واين راسه . . . ولكن كفاك اغاضة لي . ان كلمة حقيقية ، كالمرآة ، تعانق وتحرك ، وتجعلك تركض حافيا على الجمر . بهذه الكلمات تحدث معي ، يا شاريفين . . . بينما اراك تعزف على نغمة واحدة : «البروليتاريا العالمية والاشتراكية . . .» لقد تفحمت الموت في سيبلها . وانا اريد ان يحدثولي عنها ، ولكن بالطريقة التي اصفى اليها واصدق بها : ايسة شجرة ايدا يتكسرها واصنع بيتا ، وفي اى مرجة اتنزّه في قميص الحريري . . . آه ، لو تطرب على راسك بكرة ارضية لتعرف كيف تتحدث عن الثورة العالمية .

نظرت اتيسيا الى وجهه القوي العريض بعينيه المتباعدتين مثل عيني تور اصيل . نظرت وقالت لنفسها بوحشية ان فقدها لعينيتها خير من النظر بهذه الصورة .

لم يكن غانغين ، ولا زادونيفيتش ، ولا بايكوف يوافق على سلوك لاونغين . كانوا يتحدثون بملف وهدوء تحت شريرة المنظر الهادلة على السطح القش . حقا ان شاريفين كان في بعض الاحيان ، يسبب من حذائة سنة وعدم امتياعه العلم بعد ، يعبر عن افكاره بطريقة ثقيلة خائفا من استعمال الكلمات البسيطة ، وكانه يخشى ان توقعه في مازق . وكان يشعر بحيرة اكثر مع الكلمات الاجنبية المجربة ، ومع ذلك فلم يكن يحسن بلاونغين ان يهزأ برفيق مخلص ، فضلا عن ان الجميع كانوا يدركون ان احتدامه وتبجعه

يرجعان الى سبب آخر بالطبع ، ولم يكونوا يوافقون على هذا السبب
ايضا .

قال غامغين له :

- المقروض يهيءُ فصيلة تموين ، فاذهب اليه واسأله ان
يشمك اليها ، فانت خسر لانك لا تفعل شيئا ، لا احد ينتظر منك
شيئا . فقد طال وغفوك ، يا فتى . . .

من بابكوف لعينه ، واخذ يشمك . كما ان زادوفيتش حدس
ما يلج اليه غامغين ، ففتح فمه باسنانه القوية وقهقه . وتدفق
الدم الى وجهه ايسيا ، حتى انفجرت الدموع من عينيهما . تناولت
معلطها ، واستعدت وليسته ، وتحزمت عليه بقوة ، وخرجت من
الكوخ . وشعر الجميع بالخروج تماما . طوى شاريفين الجريدة ببطء ،
وهو يتشمم ايتسامة هائلة . وقال للاتوغين :

- لنذهب ، ولنحدث .

فقلص هذا عينيه ، وقال :

- لنحدث .

وخرج الاثنان الى الفناء في الظلام ، تحت رذاذ دقيق يتدغدغ
الوجه . واحس شاريفين ان لاتوغين ينتظر بداية الحديث وعلى فمه
ايتسامة هائلة ليرد عليه ردا لاذعا لتبينا . . . كان شاريفين يريد
ان يطرح بهدوء تام مسألة خرق الانضباط الرفاقى وضرورة التحرر
من التركة البرجوازية الفاسدة . . . ولكنه قال بدلا من ذلك .
ويعد ان استنشقه بمنخره نفسا عميقا من رطوبة الليل .

- اترك ايتسيا وشأنها . . . ليس هذا لطيفسا . . . بل
تفارة ، ومشاكسة . . .

قال ذلك وصمت . اما لاتوغين الذى لم يتوقع مثل هذا المنقلب
فقد وقف امامه بلا حراك . ولم يستطع ان يجد ما يصلح ان يرد
به . لا «من طلب منك ان ترعاني ، ايها العسر ، ايها البكر ، ايها
العليف ؟ » ولا «كثيرون سألوني عن هذه الامور ، ولكن الغليلين
خرجوا منى سالمين . . . فقد تبين تماما انه ، اى لاتوغين ، انسان
قذر . . . انبعت في نفسه احساس حارق بالمهانة . . . ولو حدث
ذلك في الماضي لأخرجه عن الطوارء . . . قلص عينيه ، وصك على
اسنانه . . . مستحيل !

قال :

- نعم . نعم . تقريصك هذا يعنى اننى ارتقت دمي عبسا ،
يعنى ما زلت كما كنت ضعولكا ، قاطع طريق ، ابن كلية ؟ حسنا ،
شكرا لك ، يا كوستيا . . .

والجاء نحو المخرج ، وضرب بشدة باب السياج بقبضته .
عادت الحياة الى ايدان ايليتش تليفين ببطء . (كان الى جانب
اعتزاز الاصحاب مصابيا في عدة اماكن بشنطايا الفولاذ الصغيرة من
النجار قبيلة) .

في اول الامر كان في عيبوبة مستديرة . ثم حل محلها نوم مع
فترات متقطعة من اليقظة حين كانوا يقدمون له الطعام . وبعد ذلك
اخذ يحس بحالة هينينة من السكينسة . كانت عيناه معصوبتين
بضادة . وكان يردد في غرفة منفردة سدت نافذتها باحكام .
واحيانا كان يسمع خطوات خفيفة ، وهمسا - ليس اعلى من خششة
الاوراق - ورنين معلقة ، وحفيف ثوب . وكانت بالقرب من راسه
ساعة صغيرة تدق بلا انقطاع تارة اكثر وضوحا ، وتارة اكثر
خفوتا . وكانت الاحاسيس الآتية اليه من العالم الخارجى محدودة
بهذه فقط ، وبحضور غير مرئى لمخلوق حلو . ما ان يذفر زفرة
حتى تسرى حركة خفيفة في الهواء ، فينتحن «عذاه» المخلوق فوقه ،
يل ويحس رائحة رقيقة طرية .

وبين الحين والآخر كان يتدخل مخلوق غليظ تفوح منه رائحة
عزق قوية ، وتبع بشكل رئيسي :

«ما هو نفضه ؟» .

ويهمس المخلوق الترييق بالجواب همسا لا يكاد يسمع ،
فيقول الغليظ بانشرح :

«رائح . الرجيل قوى . . . يجب ان تراعى بشكل اساسي :
الهدوء الكامل ، دون اى مهيجات خارجية . . .»

ثمغم تليفين في ذهنه ببطء : «انت نفسك مهيج خارجي . . .
اخرج . ولا تملطن . . . اما انت ، ايتها الحنون ، فاحضنى وعدنى
شيئا ما ، ولكن الاحسن ان تسدى على يدى . . . ما ان فكرت بذلك
في سحري حتى فهمت ومسدت على يدى . من هذه المعرضة ، ومن اين
وجدتم مثل هذه الحبوبة ؟»

وكان الكلام متوترا عليه . ولكن لا يمكن أن يتصوره مسن التفكير . منذ سنين عديدة لم يخلت له ان خلا لنفسه بدون ملامات ولا هموم . وكان ذلك مكافاة كبيرة على كل السنوات الصعبة من الخدمة الزهية . لم يفعل شيئا تنقصه النزاهة ، وضميره ينام هادئا مثل قط داخل اللون في يوم مطير . وكانت افكاره تهيم في عالم نصف واتسى . واكثر الايام يتذكر شمس الشمال الصيفية ، كذلك التي كانت في بطرسبورغ في يوم بارد ، تسكب الضوء على اسفلت الرصيف الضارب الى الزرقاء ، حيث تجرير الريح اذبالها ما اكثر ما مرت به من افكار وما اكثر ما شهد في بطرسبورغ والان تمر امام جنبه المطبقين نافذة بيت خنسي ، والشمس تطرب باهتة على الزجاج المحبب ، ووراء الزجاج شيء يتراهي له الا ان الذكرى انطفأت واختفت ، ولم تيسق الا كابسة الهوسى من تماس الذكرى به .

وكانت تتردد في ذاكرته باستمرار كلمات طال عليها السنين من الغنسة لا يعرف اين سمعها بالضبط ، ربما في توفيا دريفتيا ، في بيت ريفي وراء نهر كرسنوفكا . كانت لجرية مكسال تحيلة لغنى بصوت خفيض في لوزقات الغسق الليل ، وهي تعزف على الاوتار : «لك ان تذهب بيثنا وشمالا ، ثم تجوب البيت كله عبر دهايلزه المطلمة ، فتجد بابا الى اليمن ، ووراء الباب غنية ، وكلما كنت تبحث عنه لن تجده ابدا »

غنت لهم - للرجال الذين جلسوا امامها ساعتين - عن الشوق الابدى الذي لا تكسون الحياة بدونيه اجبت ، اجبت ، وانظر الى الغلبة ، فلعله هناك ؟ آه ، انتم ، يا حقى ، يامن يلوح عليكم غمار الباحة ! ممن تبحثون ؟ سيرون في الشارع الطويل عند غروب شمس الشمال ، والريح الخفيفة تنوق الغبار تحت ارجلكم ، وتبحثون . اين تلك النافذة ذات الزجاج المحبب ؟ وهل على افرزها تجلس اهل فتاة على الارض ، في ثوب قطنى ، وقد طوفت ركبتيها ، وراحت تقرا كتابا ، والكتاب يتحدث عنك ، يا من تبحث . كل ذلك هراء ، فانتم تبحثون عن انفسكم

في السكون والظلام ، وتحت تبتكة الساعة كان ايمان تليغين يهوم ويحلم : مع عودة الحياة اليه استيقظ في نفسه حب النفس

المختفى في اعماقه ، والذي يتكره ميديليا . وفي هذا العالم نصف الخيال كان يبدو وكأنه يجعب ذكرياته ، اطييها وابراها واحبها - تلك التي يفقدنا الانسان في طريق حياته ، وبلا عودة في الغالب . وقد اقبل حب النفس عليه ، مع اقبال العاقبة . فكان يأكل بشوية ، ويتمدد بقوة خفية عن المرضة .

ذات مرة ، بعد ان تام تومسة مربعة ، واكل عصيدة الكمع اراح راسه جيدا على الوسادة ، وقال فجأة بصوت عال :

- يامرضة ، هل من الممكن ان نتعادت قليلا عن اشياء صغيرة ؟

انعت المرضة عليه بسرعة ، وهمسرت مدعورة ، وضمت شفتيه براحتها :

- شش ! شش !

وحين رفعت يدها عاد يقول بوقاحة هذه المرة :

- اذن ، نصي على شيئا ما ان لك يدا لطيفة صغيرة . كم عمرك ؟ ما اسمك ؟

ارسلت بضع زفقات قصيرة ما بين التشيج والفضة ياغراينها وكان هو يريد ان يقول لها : «استيقظت وفجأة عن ل اذا كان الانسان لا يحب نفسه ، فانه لا يقدر ان يحب احدا فما نفعه بعد ذلك ؟ قتيلا ان السلفاء والاوغاد لا يحبون انفسهم انهم يتآمرون نوما شيئا ، وكل جسمهم يهرشهم ، مرة يفتنلون بالقطب ، ومرة يلهثون من الرعب يجب ان يحب الانسان نفسه ، وان يحب في نفسه ما يمكن ان يحبه الآخر فيه لاسيما المرأة ، امراته »

الا ان ايمان ايليتش لم يقل شيئا من هذا . وخرجت المرضة من الغرفة ، وبعد قليل عادت مع الطبيب عدو الهيجات الغارجية ، التي صار يظنطن باواقع طريقة :

- اراك تبدي وقاحة ، ايها الرجل ؟ لا يجوز اسمح لك بتحليل من الكلمات الضرورية للغاية يجب ان ارسلك الى الفوج في احسن شكل وواجبك ، يا حلو ، ان تصيح انسانا صحيحا في اسرع وقت ممكن اغضبه متوما ، يا مرضة

قال كوزما كوزميتش :

- نف ، يا صاحبي ، ودعني ازل هنا . وسادخل الى القرية ماشيا .

- ولماذا ماشيا ؟

- لا تعلمين . سادخل اليها كالحاج . هل فهمت ؟

- انت وشأنك ...

واوقف لاثونين حسان المدفعية المحصى الممتلئ ، على الطريق المتأكلة بالغرب من سدة عليهما اشجار صنصاف معوجة بدأت اوراقها تتساقط . كانت قرية سياسكويه على الجانب الآخر من بركة مسطحة . وكانت مستودعاتها ياكوام الدريس الطرى تقترب من الشاطئ . وكان المخاين يتصاعد من المداخن متلويها فوق سطوح القصب التي تكفل على البيوت الصلصالية واطلة باعثة للدق .

قال لاثونين :

- القرية كلها تظفر الخمر .

وارسل زفرة عميقة ، واخذ ينظر الى الوزات التي كانت تسير على السدة مثلثة بيضاء مهيبة . لاحظ ذكر الوز في المقدمة عربية واقفة وفيها رجلان فتوقف متعظا ، وتوقفت وراء زهاء خمسين وزه . ووزوت الوزات فيما بينها تتشاور ، وتهادت متحدرة على يطونها على منحدر السدة الى الماء ، وعامت فيه ، وكانما تدفعا نسمة خفيفة على الماء المضرب الى السبخة .

قال لاثونين :

- كل وزه وزن خمسة عشر رطلا ، البهيمة ما انتهى ان

تسلق ، يا امي العزيزة !

قال كوزما كوزميتش :

- اذهب ، يا صاحبي - ومد له يده على عجل - وقيل للمفوض

يجب ان ابقي في القرية لالتي نظرة ولأرى ما يجري هنا . وبعد

اسبوع تعالوا مع فصيلة التمرين ، ستكون كل الامور على ما يرام .

- مستغرق في الخمرة هنا ، يا كوزما .

- انا ، يا اخ ، لا ارفهسا الى قمى . والان ، استدر ،

استدر . والا فسيرانا الناس ...

ادار لاثونين العربة ، وضرب الحصان العريض الكفل بعسلاج

غاشيا ، فركضت العربة به دون ان يلتفت . لما كوزما كوزميتش

فقد سار على السدة الى القرية . كان يرتدى معظلا مضفرا من

القدم ، تمس في وقتها من مسوح قس وقد تحزم عليها بمندبل من

القطن ، وحمل وراء ظهره كيسا من الخيش من النوع الذي يجعله

الجنود الحمر . ووضع على رأسه قبعة جندي عالية يعود تاريخها

الى زمن الحرب الامبريالية المشحوسة . وباختصار ، كان مظهره

مناسبا .

الريف موحش في اواخر الخريف . فان اشجار الكرز والتفاح

قد الفت اوراقها ، فهي الآن مطروحة مبللة من جمد الليل على رفع

الارض التي اثلثت منها الخضروات . اما عباد الشمس الذي يغري

الشمس لتعكس على نوافذ البيوت الصغيرة فلم تبق منه غير

سيقان متعفة . والوحد منتشر في كل مكان حتى غتبات البيوت ،

وصفائف النوافذ الناصلة الالوان تصرف وتضطرق من الريح

المشجعة . ولا احد يريد ان ينظر من النافذة ، فان كل ما يستطيع

ان يراه هو لمراب يعط على السياج منتظرا بوعق ان تغلق ربة البيت

في الغناء شيئا يؤكل .

«يشمون في سبيسات ، يندعمون ويهرشون . والعواطف

تائسة ، والرفقات خارج الغيالي ... ولكن كل انسان مخلوق على

صورة وشمته ارسطاطاليس او بوشكين . ان لكم عيوننا ايضا يمكن

ان تروا بها عجائب الارض التي لا يمل منها ... ولكل واحد منكم

راس بين كتفيه وهو اعجب العجائب ... (وهنا هم كوزمسا

كوزميتش قبعتة العالية على راسه) اذا قارنته بالكون ، فان هذا

الراس لا شيء بالنسبة له اطلاقا . الا ان الكون كله ، من الناحية

الاشرى ، موجود في هذا الراس . فانه ، اي الراس ، يتخذ الى الاسرار

الغريبة عن رب الانجيل .. ولهذا فما العاجبة الى ان ينظر الانسان

من الشباب الى غربا ؟»

سار كوزما كوزميتش يفكر بمثل هذه الافكار متعظا من

التلذذ ، مارا بالاسيجة الواطئة والبيوت التي تنقل عليها سطوح

القصب حتى التفتة فتاة ترتدى حذاء طويلا ومعظلا قضيرا من قراء

الانعام ، وتحمل دلوين مملوئين واثنين على كتفها

يعرفنا من الخسب . كانت عرضة الاكتاف عرضة غير ودود .

- اسمك ناديجدا ؟ أم أنا مغشى ؟ مرحبا .

توقفت الفتاة ، وادارت اليه ببطء وجهها العريض .

- نعم ، ناديجدا . ولكن من أين تعرف ؟

- اقرأ ما في القلب .

- لا تقرا مثل هذه الاشياء عندنا . سر في طريقك .

قال كوزما كوزميتش :

- مادمت قد طردتني فانسا عائد الى السهوب أعد حدييات

القبور . ياله من طريق طويل لاسيما حين يسير المرء وحيدا . اوه ،

يا الهي ، ما اطوله !

ارتجفت شفتا الفتاة . وعشت متصرفة . الا انها توقفت ثانية

ونظرت برؤية الى وجه هذا الرجل الباسم الماكر جدا . وبسط

كوزما كوزميتش ذراعيه امامها :

- اذا رغبت في النوم تمت علي كومة قش . واذا جئت سرفت

شيئا ما . . . وليس هذا ما اريده . يا فتاتي العلوثة . . . الاثياء

ساروا حفاة على الاحجار الحادة . وظلوا يبشرون برسالاتهم . . .

والقديسون وبقوا على الاعمدة . وانثاثوا على الجراد . وهل تعرفين

ما هو الجراد ؟ جنادب . . . ولاى شيء تعذبوا ؟ اجيبيني . . . اراك

تفكرين . . . (تقدم منها . ومط شفتيه) لقد احبوا الانسان . . . كل

انسان هو معجزة . اما انت ، يا ناديجدا . معجزة مزدوجة . . . انا

ارى انكم قد درستم القمع . وقلترت الخمرة . واقنية بيوتكم تفوح

منها رائحة لحم الخنزير المشوى . . . عندكم من كل شيء . ما

يكفى . . . ولكن لا فرح عندكم . . . لا ضوء عندكم . . .

سألت الفتاة ناظرة حولها وقد تراخت :

- العلك تبيع الكيروسين ؟

- انا لا ابيع شيئا . ولا اطلب صدقة . جئت لامرح عندكم

واجعلكم ترحون .

صمتت الفتاة برهة . وعادت تنظر اليه بعينيهما الطويلتين

الرماديتين كالسحابة . انحنت لتضع الدلويتين على الأرض . ووضعت

المرفاع عليها .

- العم قائم عندنا في القرية . ولا احد يستطيع ان يدخل

المرح عليها . . . باى شيء تريد ان تدخل المرح ؟

- حين اقول فمعنى ذلك ان لي وسيلة . . . انا قس مجرد من

مسوحه . . .

فقرت الفتاة فيها . وكان قما غضا له استنان يبشاه منتظية .

حتى ان كوزما كوزميتش وروح في مكانه بهجة . وانجل الجفاء من على

وجهها وكانما اطارته حبة ربح .

نبت منها آه التعمب . ووضعت يديها تحت نهديها اللذين

الفرج عنهما المعطف الفرائس . ثم اعدت ثانية . واهتز ردفاها :

- اذن . تعال الى البيت . . . سيتحدث ابن معك قليلا .

قال كوزما كوزميتش :

- لا . لا اذهب . . . تعالوا انتم الى . . . هكذا .

يا سوداء العاجين . . .

ولهمز . وهز كتيفه بمرح . وسار في الضارع باحثا بعينيه

عن اقرب بيت .

حل اليوم الذي رفعت فيه الضمادة عن عيني ايليتش .

وقد جرى ذلك عند هبوط الطلام . وكانت المرخصة تهمس

للدكتور مدفوعة وراء الباب . . . فكرر الطبيب : «مخافسة . . .

الرجل ليس ثيابا ضعيفا . افعل ما قلت لك . . .» واستدارت

المرخصة نحو السرير . وانجنت حتى ان شعرها الناعم مس اقت

ايلان ايليتش . ورفعت الضمادة . ولأول مرة سمع بدلا مسن

الخشخشة والهمس صوتها ضعيفا متقطعا .

- استلق عادتا . ارجوك . وتعود على الضوء .

وقعت عينيه بشيء من الخوف بعد فترة طويلة قضاها في

ظلام . كان كل شيء مغيشا . وكان ضوء شاحب ينفذ الى الغرفة .

وكانت البطانية التي تغطي النافذة قد سحبت من احد طرفيها .

وكانت المرخصة تجلس الى طاولة صغيرة عند نهاية السرير -

لم يستطع ان يتبين وجهها - فقد كانت تنحني بانخفاض . وتقلع

شيئا بضمادة من الشاش .

ظل ايفان ايليتش على استلقائه يتسهم . فوق رأسه سقف متعرج ، ولا بد ان يكون هناك سلم مزد الى العلية . اما هذا فهو شبك ذو زجاج مجيب . ولا افضل من هذا المكان . . . وفي الحال طافت في ذهنه ذكري مكان آخر ، وكان احدا ازال جلدة غشمة عن جرح ، مكانا داشنا واعدنا متفجرا ، حيث وقع امامه انفجار خاطف مصفر اللون . . . وابتعد ايفان ايليتش هذه الذكري عنه قائلا لنفسه : «لا حاجة ليها ، لا اريد» وقد كادت تسحق دماغه . . . وعاد يسمع لتكتكة الساعة من جديد مقطعة فترات متساوية من الحياة بظلم وبلا الم . . . نادى ايفان ايليتش :

- ايها المرعبة . . . انا لا اراك بشكل جيد .

هزت رأسها ، وتدهجرت اللقافة من على ركبتيها . وانقلبت ، فعادت لتلفها من جديد . كانت حركاتها خفيفة ، فلا بد انها ما تزال في ريعان الشباب . . . ومحتكة ايضا ا ومهما جاهد ايفان ايليتش ان يتفرس فيها تكالفت طبقات الظلام ، والان لا يميز وبشكل مبهم غير مريولها من القماش المشتم ، ومندبيلها الذي يغطي كتفها مثل مندبل ابي الهول .

وتفكر ايفان ايليتش مع نفسه :

«مفهوم ، مفهوم . . . لا بد ان المسكينه مجردة الوجه او قبيحة بشكل كبير . . . انها بالطبع تشعر بانتميمت لها - وتنهت ايفان ايليتش - ما اكثر اولاد من الرقيقات والوفيات ، الصديقات في الحياة والموت . . . وهي ذكية ايضا ، على ما يبدو . . . فان جميع غير الجميلات ذكيات . . . وايها من يجب ان يتزوج الرجال وايها من يعيون . . . بينما الرجل يبذل كل شيء في سبيل ان يكون على وسادته وجه وسيم لامرأة لها موش الدمى تهمس له بكل صنوف السخافة والروضاة . . . اما داشنا فشيء آخر . لم احبها من اجل جمالها . . . وانغض ايفان ايليتش عينيه ، ووضع قبضته تحت خده - هذا كذب . لقد احببتها ، يا رجل ، من اجل جمالها الاخاذ . . . وهذا ما لم تردده هي . . .»

نهضت المرعبة دون ان تحدث حركة . وهي تظن انه نائم ، وخرجت وظلت لغائبة وقتا طويلا . ثم صرف الباب ضريفا لا يكاد

يسمع . ولاح ضوء اصفر كامد . فتح ايفان ايليتش جفنيه قليلا دون ان يبدى حركة . وراى داشنا تدخل في مريول ابيض ومندبيلها . كانت تحمل مصباحا صغيرا من التلك ، حاجة ناره يكفها الوردية الضلافة . ولم يتدهس ايفان ايليتش من رؤيته داشنا . سوى انه لم يصدق بان هذه هي داشنا .

وضعت داشنا المصباح على الطاولة ، وغضت الذبالة . وجلست واغثت تنظر الى ايفان ايليتش . كان وجهها نحلا مثل وجه فتاة اصيبت بالتفوليد . ولاحظت غشنة في طرف فمها المنتفخ قليلا . كان ضوء المصباح لا يظهر غير خدعها وعين واحدة وادعة وسبعة العكست نقطة ضوء المصباح على حديقتها . كانت تبدو وكأنها قد عزمت على ان تجلس طويلا ، وقد اسندت مرفقها على ركبتيها ، وانزلت عنكما على جمع يدعا الصغيرة المضمومة . ان داشنا وحدها كانت تستطيع ان تجلس هذه الجلسة .

. . . في ذلك المساء في بطرسبورغ ، وعندما جاءت الى «الجمع المركزي لمكافحة العرق» الذي كانت شقة تليفزيون مقرا له . يوم ان رآها لأول مرة بدت له رائحة كالربيع . كانت وجنتاها تتومجان . وكان الدم ، يسبح منها وهي في ثوبها من القماش الاسود السميك . وقد ملا عطر رقيق العرقة التي كان الضمراء المتشركون في «التدريسات العظيمة» يجلسون فيها على الارواح التي مدت على كتل خشبية . انزلت داشنا حثكها على جمع يدها مستعمدة الى قصائد متحذقة ، ماسة بظرف خضرها شفتيها التزقن المتنتفختن قليلا . . . وفيما بعد نقل ايفان ايليتش الى غرفة المقعد التي جلست عليه . . .

كل ذلك شع في ذاكرته بين شفتين من قلبه . وكان يدق في صدره ذقات متعالية مثل حارس يترق الباب في منتصف الليل ؛ استيقظت ! الا ان هذه المرأة الجالسة على مقعد عند قدمي السرير لا يمكن ان تكون داشنا . وكان يرمعها بنهم من خلال شقي جفنيه دون ان يتحرك . . . لا بد انها لاحظت ذلك فقد دفعت جسمها كله الى الامام . . .

ناداها : يا مريضة ، يا مريضة !

ورقع جسمه فاتحا عينيه على سمعها . . . اندفعت دأشما
لحوه بصيحة مذهورة خافتة سعيدة . . . امسكها من كتفها ، ومن
ظهرها ، وكانها يقضى أن يقبض الطيف عنه . . . انها دأشما
حفا : ليلة هشة حية ! شغط وجهها عليه ، وأحس بارتجاف
شفتيها ، واعتزاز جسدها كله . . . امسك رأسها ، وابعد عنه
لينظر في وجهها الحبيب الجديد أبدا ، الجميل أبدا بشكل غير متوقع .
وراحت هي تكرر وعينها مغمضتان :

- أنا معك ، كل شيء بخير . . . كل شيء بخير . . .

أخذ يقبلها من فمها ، ومن طرفي فمها حيث رسمت عليه المعاناة
خطين صغيرين ، ومن عينها . همست له :
- والآن اهدأ ، اهدأ ، يا عزيزي ايقان . لن افترق عنك .
معك الى الابد ، الى الابد . . .

ما إن حل المساء حتى كانت القرية كلها تعرف أن في بيت
الامثلة الفقيرة انا تريجيلنيا يجلس الرجل الذي لعق ناديجدا
فلاسوفا في الشارع ، وقال لها : «جئت لأجعلكم ترحمون . أنا قس
من جانب البحر . . .» وصدقت بذلك جميع النساء ، المسنات
أن في بيت الامثلة الفقيرة انا تريجيلنيا يجلس الرجل الذي لعق
ناديجدا فلاسوفا في الشارع ، وقال لها : «جئت لأجعلكم ترحمون .
أنا قس من جانب البحر . . .» وصدقت بذلك جميع النساء ،
المسنات متهن والشابات . وقد شعرت ناديجدا بوجع في لسانها
من كثر ما رددت كيف انها كانت تحمل ولوين ، وأن قلبها أعلمها ،
وإذا به يتادبها باسمها : «ناديجدا !» (كانت الصغيات يقاطعنها
قائلات : «باللهي ، من أين عرف اسمك ؟») «هذا مما يسمى
بقرائة ما في القلب . . .» كما أن وجهه روسي ، أحمر وكان كسل
جلده قد سلخ ، وشعره يصل الى كتفيه ، وعليه ملابس رثة .
ولكنه لم يكن يبدو جالعا ، بل مرحا كل كلامه احازير . . .

وضحك الرجال ، وهم يسمعون لثرثرة النساء : «دعونا نامل
بالا يعرف هذا العارف بقرائة ما في القلب القرية من جهاتها الأربع . . .
لو كان قسا من صحيح لأجده الى المنى بيت في القرية . . . والا

فحق الصراصر لا تجد مما تأكله عند تريجيلنيا . . . لا ، يا
نسوة . . . يجب أن يؤخذ أن مسويات القرية ، وليظهر هوياته
هناك . . . فقد يكون جاسوسا من قطاع الطرق ؟ هكذا . . .»

عندئذ قالت زوجة زوجها «كفالك تحريك لسنان ، الناس
يضعكون منك» فأبدتها التمساء الاخريات بالاجماع . وصاحت
الزوجة وعيناها للمعان جسارة «قبل الثورة كنا نطيعكم . ولم نر
شيئا كثيرا من اوارمكم . ان عقولنا ليست اقل ذكاء من عقولكم . -
ونفهم اكثر منكم . . .» ثم غاطبت النساء قائلة : يا عزيزاتي ،
انظرن الى ابيتي ناديكما ، ان صدرها يكاد يشق بلوزتها . . . وهي
تنظر في المرأة ، وتقول لي : لماذا يضع عمري هدرا ؟ فهل
اقول لها : انتظري الى عبد الحجاب المقدس المقبل ؟ فاقول لزوجي
مجددا : لماذا لا يريد ان يأتي الى بيتك لياكل لحم الخنزير ؟ وهل كان
المسيح يأتي الاغنياء فقط ؟ انه ذهب الى بيت آنا الفقيرة ، لانه
قس احمر ، ولا حاجة به الى لحم خنزيرك . وهو يفكر بحظنا التمس . -
اكتفى الرجل بهز ذراعه ، وانصرف . وفي النساء احتشمت

النساء قرب بيت آنا ، ووقدن اليه موفدات . وقبل أن تدخل
الموفدات الى البيت عرفن من قفلة صغيرة ، هي جارة آنا ، أن
آنا تريجيلنيا سمنت اليوم حمامها منذ الصباح (وهو مئس صغير
متناع وراء البيوت على ساحل البحيرة) وأن القس استحم هناك ،
وانها اعطت له قميصا نظيفا كان لزوجها المتوفى ، وأن القس الآن
يستعد ، بعد الحمام ، لشرب «التصمغ» مع آنا (وكان أهمل
القرية يشربون هذا الشراب بدلا من الشاي) .

كسان القس يجلس على المصطبة مرتديا قميصا ازرق
ناحلا ، وقد وضع يديه على الطاولة . ولم تكلم ناديجدا ، فقد
كان وجهه أحمر يمكن ان يشير الخوف ، وقد اطبق شفتيه
بطلاوة ، كالمب . وكانت الامثلة تغلق البيض على نار من احواد ،
وكان لهب ازرق يظن خارجا من مدخنة سماور بالية مثقبة .
دخلت الموفدات الثلاث البيت ، وسلمسن بانحشاء ، وجلسن
على المصطبة اقرب الى الباب . ولم يقلن شيئا ، الا ان عيونهن
لاحظت كل شيء .

وفجأة سال كوزما كوزميتش بصوت عال :

— قلن : ماذا ورايدن ؟

وتقلبت عيون الموقدات . واجابت احداهن . وهي ام ناديجدا . بصوت مسمول :

— يقولون ان العادات قد الغيت ؟ بينما نحن معها . يا ابانا . الزفاف يحدث مرة واحدة . بينما الحياة طويلة . اليس كذلك ؟ اجاب كوزما كوزميتش :

— كلما طالت الحياة كثر خبرها شيئا . فماذا خبركن ؟

— ولكن لا تخف عنا . فنحن سوفيتيات . انتخبنا سوفيتية القرية . وصوتنا الى جانب السلطة السوفيتية . والفلقنا الكنيسة بالعلم . وقدمنا القس الى «اللجنة الاستثنائية» المحلية لحياته رشاشة .

قال كوزما كوزميتش :

— اها ! ان ذلك القس كان ذا خطر .

— ولو تعرف كيف كان يهدنا . فيقول : «يا اعداء المسيح . سارم اجتماعكم برصاصة رشاشة مكسيب» مسن النافذة . . . على هذا النحو كان يخيفنا . كانت فتياتنا العرائس يصوتن . بالطبع . مع الجميع . ولكن حين اقترب عيسه العجائب المقدس اردن ان يعقد قرانهن في الكنيسة . وقد عاندن . واجمعن امرهن . وانت تعرف ان الفتيات اذا اجتمعن على امر قلن تستطيع ان تنتزع واحدة منهن . . . فقل لنا الآن : «ما العمل ؟ سمعنا انهم تزعموا مسووك . اهدا صحيح ؟

اجاب كوزما كوزميتش :

— مؤكد .

— وما السبب ؟

— بسبب من حرية راين . فانا في نزاع مع الرب .

وتبادلت الموقدات نظرات هلع . وهست ام ناديجدا في اذن واحدة ثم الاخرى . فهست هاتان لها ايضا . فقالت بصوت اكثر جسارة :

— اذن . سيكون القران باطلا ؟

— ولماذا . اذا كانت الفتيات رافعات . . . ساعقد قرانهن واسجلهن في سجل الزواج . عشه ذلك حتى المجلس

المسكوني لن يستطيع لسنح القران . وسأضع التاج فوق رأس العروس . وكانها ملكسة الديناري . اطوف بالعروسين حول القرا . واسألها الاستلة المطلوبة . واقل الاشياء التي تقال في مثل هذه المناسبة . وسنعهده الفرح بلا معصية ولا تقصص . . . فماذا ترين بعد ؟

قالت احدي الموقدات :

— وصغارنا ايضا لم يتعدوا حتى الآن . وليس لهم يوم فديس يتبركون به .

— كم عدهم ؟

— كثير . يمكن ان نعدهم .

— وهل هم لا يرضعون بيذا . لانهم بلا تعويد ؟

وتبادلت الموقدات النظرات ثابته . وهززن اكتافهن . وضعت الامزلة المغلاة على الطاولة . ولدى عودتها الى الموقد نظرت بحزن الى كوزما كوزميتش . وهو يفرغ البيض بالملعقة . ويأكل بتلقذ مضطبا عيشه باستمتاع .

سألت موقدة اخرى :

— وهل سيكون التعويد معترفا به ؟

— تمام الاعتراف . كما في عهد الامير فلاديمير .

— وكيف ستعمل واث بلا شناسي ولا مرتلين ؟

— وما حاجتي اليهم ؟ سأقوم بالأمر وحدي بصوت مختلفة . عندئذ تقدمت منه ام ناديجدا . وجلست بالقرب منه . وسألت وهي تلبق الطاولة بعد كفاها :

— وهل ستأخذ فلوسنا كثيرة ؟

وتأخر كوزما كوزميتش في الجواب . حتى ان المرأة تناقلت انفاسها . واخذت يدها ترتعشان . ومدت الموقدتان الاخريتان عنقهما . وهما جالستان عند الباب .

— لن اخذ متكن فلسا واحدا . انا لم آت الى هنا مسن اجل ذلك . ادفعوا فقط لكاتب سوفيت القرية لقاء كتابة الوثائق .

وبدا الفتراح هذا الرجل مغربا من جميع النواحي . ولكن الشيء الرهيب ايضا انه قد يكون زانفا . . . قبل شهر ونصف .

عندما كانت القرية ما تزال تحت حكم الاتمان ماموتوف حدث أيضا أن جاء رجل ينقل خفيين على قدمين حافيتين ، وقد نمت لحيته حتى عينيه . والنجم إلى بيت كان يستريح بالقرب منه الناس عند المسق ، ووقف حتى أله الناس ، ثم جلس بالقرب من العم المعجزة كيم ، وطن انهم سيقدمون له لفاقة تبيع ، الا ان احدا لم يفعل ذلك . عندئذ وضع رجلا على رجل وسر في اذن كيم : «لا تعرفني ، ايها الجندي القديم ؟» فاجابه «لا ، ايدها» فهمس له بصوت اخفت «اعلم اذن ، انتي الامبراطور ليوقلا الثاني ، ولست انا الذي اعلموه في يكاترينبورغ ، بل شخصنا آخر . وما انا اسير في الارض خفية حتى يعين الوقت الذي اكتشف فيه عن نفسي . . .» وكان العم الكيم قليل السمع ، فلم يسمع كل شيء ، فكان عليه ان يرفع صوته ، والناس ليسوا يملها . فقد جروا هذا الامبراطور في الحال الى السدة ليغرقوه في البحيرة . الا ان الذي انقذ حياته هو انه راح يصرخ : «ما هذا ، يا اخوان ؟ كنت امزع . . .»

قالت لم ناديجدا :

— لا يبدو انك من المهوسين بالرأب . ثم انهم ، ليسوا موجودين الآن - وقتك معظمها لانها شعرت بالحرارة - فلماذا لا تأخذ فلوسا ؟ ماذا في فكرك ؟ وكيف يصدق الانسان بك ؟
— انا احب الملح . اضطررتي قبيصة في كل بيت اعقد قرانا له او اعمد له طفلا - ووضع كوزما كوزميتش الملحقة ، والتفت الى الازمعة قائلا - قسني السماور ! ها انتن ترين - واشتار للموقدات الى انا التحيلة بوجهها الماكن المرتضى وصدرها المسطح وتوتورتها المرقعة المعكوفة - انها صدقت بي . ومستهذب معي الى ابي مكان . اما انتن ، الشيبعات ، الشاعسات ، فغالما تبحتن عن موضع السفالة في الانسان ، وترين فيه محتالا . انتن كولاك ، وانا اشعر بالضييق معكن . واذا تمككني الغضب ، فسأرحل عند الفجر بحثا عن الحظ في مكان آخر . . .

وضعت انا السماور على الطاولة . ورات الموقدات انها تبسم ، وكانت السعادة تفسر وجهها الجدر المنهوك من الغم والدميم . التت لم ناديجدا نظرة خاطلة عليها كنظرة الصقر ، ومدت يدها الخشنة الى كوزما كوزميتش :

— مقبول ! لا تغضب ، ولا حاجة بك الى الذهاب بعيدا .
فات ستجد كل شيء هنا .

في الصباح سعد كوزما كوزميتش الى برج الجرس وقرع الجرس الكبير ، فانداح الرنين النحاسي في القرية وهرع الشيوخ والمجانز الى النوافذ للتطلع . ثم قرع قرعة ثانية وثالثة ، وامسك العبال المشدودة بالاجراس النحاسية الصغيرة ، واخذ يدق دقات صغيرة متسارعة ، ثم قرعة عالية من الجرس الكبير . وقبل ان تستطیع اطراف الاصابع ان تصل الى الجهة لترسم علامة الصليب كان الناس يسمعون دقة اخرى ، وكان القس المجرى من مسوحه يعزف لعنا راقصا .

خرج بعض اهالي القرية المحترمين الى خارج بيوتهم ينظرون الى برج الجرس بدون رضا . . .

— القس يعبت . . .

— يجدر أن يجير من هناك من شعره ، ويصرف . . .

— يصرف . . . انه هو الذي سيصرفك . . .

— ومع ذلك فان قرعة كان موزوتا . . . دعوه يدخل المسرة الى الناس لغاظر الفتيات ، لغاظر النساء . . .

وتنهيا اهل القرية كلها - المدعوون منهم وغير المدعوين - الى اقامة الافراح . كان النهار مضيقا ، والجمد على الارض ، وفي الجو رائحة خبز طازج ولحم خنزير مشوي . وبدأت في فناء احد البيوت حركة غير اعتيادية ، واصوات طيور داجنة ، وتطايير النباح والوز من خلال الابواب الخاريجة . . . في بيت كان العريس حليقا مرتديا حلتته منزويا على المصطبة في ركن الايقونة لم يأكل ولم يدخن . وفي بيت آخر كانت العروس تزين . وكانت المعاجز اللواتي شعرن بانهن ضروريات في مثل هذه الامور قد علمتها ان تستحب بطريقة مستحبة :

ليس هذا صوت ورة توز على الشاغر ،

بل تحيب فناء حساء في حجرها .

وكانت الجدة تندب بصوت شالخ فتتضم اليها اخرى ملتقبة خدما المتفلسن على راحتها يتنقع :

وداعا ، وداعا ، بالخمسة الحساء .

ان ابن الذي اعانى

ووالدني التي الجيتني

زوجاني ، وباعاني .

باعاني ، باعاني

الى طرف ناء غريب . . .

اسبوعا كاملا في العام الماضي يطلب مني مائتي روبل ليستلف بيته
بالالواح ، وما هو الشيطنسان ذو الرجل الواحدة ينتقم ! خرب
الزفاف .

- ماذا جرى ؟

- حدثت ثورة اخرى في مكان ما ، في ألمانيا كما يبدو .
وقد حشد الناس لاجتماع عام . انسه لا يستطيع ان يصبر بلا
سياسة ! اي احبب هو ، يا آلهي !

كان ستيفان بترفويتش يخطب في الناس من على مقدمة
سوفييت القرية ، وهو يمز الهواء بغبضتيه وهدق الواح الارضية
بقدمه الخشبية . كان وجهه مشدودا ، وقمه فاغرا ، وشارباه
خشنين . قال عندما شق كوزما كوزميتش طريقه في الزحام ليكون
اقرب الى الخطيب :

- ان الوضع الدولي يتطور لصالح السلطة السوفييتية .
والالمان يمدون لنا يدهم البروليتارية . وذلك عون كبير لثورتنا ،
ايها الرفاق . لقد التقيت بالمان ، وكنت في ألمانيا . واستطيع ان
اقول لكم شيئا واحدا ، هو ان الالمان يعيشون في تقفير ، ولكل
قطعة خبز حسابها ، ولكنهم يعيشون احسن منا . ويجب التفكير
في هذه الحقيقة ، يا رفاق . ان قرية المانية مثل فريتنسا مزودة
بانابيب لمياه الشرب ، واقنية لنقل السماد الى حدائق الخضروات ،
وتلفون ، وانابيب غاز تصل الى كل شقة ، وصالون حلاقة ،
ومشرب للبييرة فيه متصددة بليارد . اما المدارس فلا حاجة الى
الحدث عنها ، كما لا حاجة الى الحديث عن اعدام الامية . . . وتوجد
في كل بيت دراجة ، وغرامفون . . .

سرى طنين في الحشد ، وصفق احد ، فتبعه الجميع مصفقين .
- ان ساني قد قلمتها قنبلة المانية في بروسييا الشرقية .
الا انني ، في اللحظة الراهنة ، ارتفع فوق اعتباراتي الشخصية . . .
صرخ صوت عال فتي :

- تكلم اوضح !

- انا لا اوم الشعب الالمانى على فقدي لساني ، بل اوم
الامبريالية العالمية . . . وهي التي يجب ان تقطع رقبتهسا بكل

ولكن لم ترد اية عروسة ان تنتحب . بل كان ذلك يعزفها .
- في زمانكم ، يا جدتي ، كانوا يرسلونكم الى طرف غريب .
اما نحن فطرف واحد : سوفييتي .

وكانت روائح الطهي وخبز الفطائر تنبعث من كل مكان .
وكانت النساء يترافكن حاملات الدلاء والمكانس . وكان الخطابون
ينتقلون من بيت الى بيت ، ورائحة الخمر تلوح منهم قوية
واجتمعت الشبيبة في فناء الكنيسة ، وعزف غازفان على
اكورديون . . .

في ذلك الحين جاء رئيس سوفييت القرية ستيفان بترفويتش
نديوشكاشي قادما من البريه ، وهو من عجزة الحرب وحائز على
وسام صليب القديس جيورجي اربع مرات . لم يعر التفاتا الى
رئي الاجراس ، واكله لا يسمعها ، وفتح باب سوفييت القرية ،
ودخل ، وبعد قليل من الوقت خرج الى مقدمة البيت يحمل مطرقة
وورقة وهدق الورقة على الباب ياربعة مسامير ، واخرج من جيبه
ختما ملفوفا في قصاصة جريدة ، ووزر فيه ، ودفع به على امضائه .
وكان مكتوبا في الورقة :

«يا مواطني قرية سيابكويه ، بمناسبة قيام الثورة في ألمانيا
تقرر عقد اجتماع عام في الساعة العادية عشرة من هذا اليوم» .
وتوافد الناس على سوفييت القرية . ولما رأى كوزما
كوزميتش من فوق برج الجرس ان ساحة الكنيسة قد غلخت كف
عن قرع اجراسه ، ونزل من البرج . وقال شيخ الكنيسة ، وهو
والد ناديجدا ، وكان في قطبان ازرق ذي شرائب ، قال صفق
لفظا ، صندوق الشموغ في اسي :

- ان ابن الكلبة ستيفان نديوشكاشي هذا ظل يلاحقني

تصميم ... ونحن ، الروس ، قد عرفنا ذلك من قبل . ولكن
الالمان قد فهموه اخيرا . اتنا في هذا الاجتماع ، ايها الرفاق ،
نهدف لكلا الشعبين : عاشت الثورة العالمية . . .

هتف صوت شاب : هورا !

وصفق المجتمعون مجددا .

- لانتقل الى الشؤون المحلية . . . في مدرستنا يتسرب
الماء من السقف كما يتسرب من منزل . وقد اتخذ قرار بشأن
ذلك . وانا اتساءل : هل جمعت الفلوس ، واشترت الالواح ؟ لا .
بينما لديكم الفلوس لتنفقوها على الافراج ، ولديكم فلوس
للقس . وزيين الاجراس بزعج الناس في دائرة سمعتها عشرة
فراسخ . . . الابل هذه الوقائع بيد الالمان لنا يدهم البروليتارية ؟
اقترح اتخاذ قرار تمنع بوجبه اقامة الافراج وفق الاجراس الا بعد
ان تجمع النقود لاصلاح المدرسة ، واجرة عمل المدرسة ، وامان
الدفاتر والاطلام ، وتغطية مبلغ اجمالي هو اربعة آلاف وتسعمائة
وسبعة روبلات وسبعة كوبيكات .

وترك خطاب الرئيس اثره ، واجعل الناس ، وهذا هو الامر .
وخطب بعده عدة خطباء كرر جميعهم كلماته ، ولم يشيخوا اليها
سوى انه ما دامت الاستعدادات للافراج قد بدأت فلا داعي لتضييع
الوقت ، ويجب جمع النقود على الفور ، ولكن ليس على اساس
اسهام الجميع ، بل على ان تدفعها تلك العوائل الست عشرة الغنية
التي تقيم الافراج . واتخذ الاجتماع العام قرارا بذلك .

ولما علمت العرائس بالقرار اثرن صراخا شديدا ، ووجهن
الى آباءهن وامهاتن كلمات حادة جعلت آباء يمدون الفلوس
ويحملونها الى سوقبيت القرية . قدم ستيفان بيتروفيتش
وصولات بها ، ولم يقل الا «سيروا في طريقكم» .

وكاد المساء يحل حين ساروا بالعرائس الى الكنيسة .
وتعجب الناس مما طلعت به من فاخر الثياب : معاطف لها اياق
فرازية ، وبرايق مزطرة بالفضة والذهب ، واحذية عالية الكعوب
بدأت فيها العرائس وكانهن يسرن على اطراف اسماجهن . وحين

خلعن عنهن معاطفهن عند مدخل الكنيسة كسفن عن حبل لينة
واتواب نادوة النعال مختلفة الالوان ، ضيقة من الخلف حتى لتكاد
تنشق ، وعريضة في الاسفل كالباقية ، والاعناق عاريسية . اما
ناديجدا فلاسوقا فقد كانت يداها ايضا عاريتين حتى الاطمين .

«انظروا ، انظروا ، امن المعقول انها اولغا غورلخاستوفا ؟»
«انظروا الى مستشكا ، كيف حسي !» «من اين لهم هذا ؟»
«معروف . ذهبت هي وابوها الى نوفوتشركاسك خمس مرات في
عربة يجرها ثور ناقة معها الطحين ودخن الخنزير . . . وبادلتها
مع سيدات نوفوتشركاسك . . .»

وقال بعض العارفين :

«لقد شاهدت حفلات راقصة عند حاكم الولاية . . . ولكن اين
هذه من تلك ! . . .»

«حفلات والقصبة . . . في نوفوتشيركاسك احتفل بمرور
ثلثمائة سنة على آل رومانوف ، واجتمعن سيدات المجتمع في
الكاندراية . نزلن من العربات ، وسرن على الايسطة ، ولكن لا
تفارتعن بهؤلاء . . .»

خسرج كوزما كوزميتش برداه القس الاعتيادي لا يرداه
القداس ، وعلى راسه طاقية قس متسخة تقطى صلته . ولان القس
التقديم لم يكتف بالهروب من الاعتقال ، بل استطاع ايضا ان ينهب
خزانة لدية الكنيسة) . نقل كوزما كوزميتش بصرة بين العرائس .
كهن جنيلات ناهدات مودرات الغدود ! وبدا العرسان يوجههم
الهلعة اصفر منهن . تنحج كوزما كوزميتش واضيا ، وفرك يديه
المتلجلجتين ، واتم مراسيم القران سريعا مرعا تارة يتمتم في
بربرة عجل ، وتارة يلقد صوت الضمائم العالي ، وتارة يتنرم ،
ولكن كل شيء كما يجب حسب الاصول كلمة بكلمة ، وسرفسا
بحرف .

وبعد ان انتهى من مراسيم القران طلب من العرائس
والعرسان ان يتبادلوا القبل ، والقر فيهم كلمة :

- في الايام الماضية كانوا يعدونكم حكايات واعطة .
ولكنني ساروي انا لكم قصة من الحياة . قبل الثورة بخمسة عشر عاما
كانت لي ابرشية في قرية نائية . وكنت آنذاك اعيش في قلسق

كبير ، يا مواطني الأعماء . وأنا رجل روسي غير هادئ ، وكل شيء لا يوافق مزاجي ، وليس كما ينبغي ، وأتلقى منه ، بينما أجد نفسي معنيا بكل شيء . فانا أبحث عن العسل . وحدثت حادثة أنهت شكوكي . جاءني شيخ طامع في السن ضير يقوده صبي . أخرج من تحت لفافة لعله ورقة من فئة ثلاثة روبلات حرمة أيضا ، ودفعها وتلصقها ، ووضعها امامي وقال «هذه لك لتصل جنتا الأربعين على روح امرأتي العجوز» قلت له : «أيها الجد ، خذ الروبلات الثلاثة ، وسأسأل على عجوزك بدون مقابل . . . هل جئت من مكان بعيد ؟» نعم «سرت عشرة أيام» «كم لك من العمر ؟» «ضمنت الحساب . ولكن أظنني تجاوزت المائة» «هل لك اولاد ؟» - «لا أحد ، كلهم ماتوا . وكانت العجوز حية ، وقد عششنا سوية ستين عاما ، وتعود أجدنا على الأثر . وقد اشفتك على واجبتهسنا . ثم ماتت . . .» - «وهل تعيش على التسول ؟» - «نعم . . . اصنع معروفنا . خذ الروبلات الثلاث ، وأقرأ جناز الأربعين . . .» قلت «حسننا ، قل لي الاسم» - «أي اسم ؟» - «اسم العجوز» تفرس في بعينه الضرتين : «ما اسمها ؟ نسيت . غاب عن بالي . . . عندما كانت شابة كنا نسميها الشابة ، ثم سميناها ربة البيت ، وفيما يعد مرنا نسميها العجوز ، وظلت على ذلك . . .» «وكيف أصل عليها بدون اسم ؟» وقف العجوز طويلا متكئا على عصاه . وقال : «نعم ، نسيت ، ذلك من الضحك ، كنا نعيش في عسر . حسنا ، انا ذاهب ، وسأبحث ، فقد يكون هناك اناس ما يزالون يذكرون . . .» وقد عاد هذا الشيخ في الخريف ، وأخرج من لفافة لعله نفس الروبلات الثلاثة وقال : «عرفت . في القرية تذكرها شخص : انها ابنة بيتر» .

كانت العرائس الست عشرة جميعا واقفات متكسات الرؤوس مطبقات الشفاه . وكان الأزواج الشبان العمر الوجوه توترنا بسبب ضيق ياقات القمصان يغلون الى جانب زوجاتهم بلا حراك . بينما سكن الناس مصفين .

- ان الروسي قد نسيها جاهلا لا يتذكر اسمها . كان السادة يعيشون حياة الاسياد . والتجسار يفرغون الفلوس ، ونحن الفساسة نلطف بالمياعر . اما انتم وانتم يا

اهل الصبا والجمال فما كان من الممكن في تلك الازمنة الملعونة ان تسمعوا بالشم الحار يجري في عروقكم ، بل تدوون كالزهور وسند الحماض قبل ان تتفتحوا .

وقطع كوزما كوزميتش خطبته ، وكأنه يفكر ، وخلص طاقته ، وحك صلعته . سألت ناديجدا فلاسوفا بصوت خافت : - والان هل يمكن الاصرالى ؟

- لا ، انتظرى . . . وما انا في منحدر حياتي وقتت في ان ارى العدل . انه ليس كالعدل الذي وصفه نيكراي سوف . هل قرأتوه ؟ لا . . . وليس كالعدل الذي كنت احلم به ، وانا عند النهر في ساعة المساء استناد السيك وعيدا جالسا قرب النار ، ضاربا البعوض على رقبتي . العدل كفاخي ، متوعد ، متصلب . . . وافول لكم بصراحة انسى كثيرا ما خفته . . . فحين تلعلع الرشايات ، ويهجم عليكم الفرسان بالسيف ينتهسي وقت الفيلسوف (سرى بين الحاضرين ضحك مكتوم) . انكم لن تجدوا العدل هناك - وأشار الى قبة الكنيسة - ولا حولكم . ان العدل حوانت نفسك ، ايها الانسان الشجاع . فلتكن لديك الرغبة والجرأة . . . لماذا ننظرون الى ؟ ام لعل حديثي غير مفهوم ؟ جئتمك لاعلمكم كيف تفرحون . سترقصين اليوم بالولفسا وناديا وستيتسنا وكاترينا - وكان لدى كل اسم يشير بيده الى صاحبته - حتى تنزل الواح الارضية ، وحتى تترجم عيون نيفولاي وفيدور وايفان توهج عيون المسعورين . . . وهذا كل شيء . . . انتهت البوعطة . . . وادار كوزما كوزميتش ظهره للناس ، ودخل حجرة الخزانة .

عاد مفوض الفرج ايفان غورا من تساريتسني وقد قالوا له هناك ان فصائل الثموين التي ارسلت من بتروغراد وموسكو اسم تكن دائما على مستوى المهمة الموكلة اليها . وبين رجالها اناس غير مجريين احتقم الجوع ، واخرجتهم عن توازنهم رؤيتهم الناس ياكلون الوزق القرى . وقد اخشعت احدى هذه الفصائل دون اثر ، ووجدت فصيلة اخرى في محطة فورونيج في غربة بضاعة مختومة عثر فيها على جثث ثلاثة من عمال بتروغراد شقت بطونهم .

وحشيت بالحروب ، والصفت على جبهة احدهم رتعة كتب فيها «كلوا حتى الشميع» .

وعد العلوش الرفاق في تسارستين بالمساعدة . ولدى عودته الى الفوج انشأ بخيار الرجال للفضائل مجريا ابادرت اولية معهم . وعين لاتوغين وبايكوف وزادويغيتش للسفر الى قرية سياستكويه ، ودعاهم للحضور الى كوخه الذي كان من قبل حاويا غير مدفا ، ولكن الآن ، وبعد عودة الفريبتسا من المستشفى ، كانت ارضه مكتونة ، وعند العتبة فرشت حصيرة ، ووضع فوطه مطرزة على الطاولة . ولم يكن يوح بالتبع الرخيص العامض بل برائحة خبز طازج . طلب من الرفاق ان يسحروا احديتهم جيدا لدى الدخول وقال :

- اجلسوا . ماذا عنكم من اخبار سارة ؟

اجاب لاتوغين :

- وانت ماذا عنك ؟

- اسمعوا اذن . يبدو ان فتياتنا لا يذهبون لجمع الحبوب عن رغبة .

- وما دخل الرغبة هنا او عدم الرغبة ؟ اذا وجب ان يذهبوا فسينهبون . وانت تتطلب الرغبة ا

- ولكن القضية دقيقة جدا .

كان ايفان غورا يجلس وظهره الى النافذة ، فغاطب زادويغيتش الذي كان يلقى الطاولة باظفاره جها :

- انت ، يا حارت الارض ، ما رأيك في هذه الامور ؟

- كم تريد ان تاخذ من الحبوب من سياستكويه ؟

- كمية كبيرة نوعا ما . اربعة آلاف وخمسمائة يود * من مائة والتمين وستين بيتا ، مسح الترابيق بين الفئسسي والفقير بالطبع . . .

- اشك في انهم سيعطون مثل هذه الكمية .

- ولهذا السبب ارسلكم ، لكي تجعلوهم يعطون . ارسلكم بلا سلاح ، ايها الرفاق .

* البود يساوي ١٦٠٣ كيلوغراما . المترجم .

نعم لاتوغين :

- لا حاجة له .

نعم بايكوف وقال :

- بدونه سنبرهن بصورة اتوي . نحن ذاهبون الى اصحابنا لا الى اعداء .

قال ايفان غورا عابسا :

- الى اصحابنا والى الاعداء .

قال زادويغيتش :

- اسمع ، يا علوش . انا لست اتراجع ، ولكن ليس من

عقلنا ان نتسلل الى ابراء الآخرين . فان ذلك مقرف .

- وانت ، ما رأيك ، يالاتوغين ؟

- لا تحاول ان تنفذ الى سريرتي ، يا ايفان . . . سنجلب لك الحبوب ، وكفى .

- وانت ، يا بايكوف ؟

- انا من البحر الابيض ، واحترم الجماعة .

- يارفاق ، لهذا السبب دعوتكم - ووضع ايفان غورا يديه

الكبيرتين على الطاولة ، واخذ يتحدث بصوت هادي* . كما يتحدث الاب مع ابنته - ان احتكار الحبوب هو شريان الثورة الحيوي -

اذا الغن الاحتكار الآن فسيصبح الكولاك سيذا هما بدلنا من عرق ودم . وهو ليس صاحب العائزات السابق ذا السماور المتلطف ، بل كولاكا مشكنا واسع العيلة متمرسا .

صاح زادويغيتش :

- كولاك . . . كولاك ؟ قل لي ان في استثمارتي بقرتين ،

فمن انا ؟

- ليست مسألة ايفار ، ولكن لمن ستكون السلطة ؟ ان

كولاك القرية يفكر في ذلك ليل نهار . فقد سرح شغيفه ، وذبح بقرته ، ولم يحرت الارض في الخريف ، وهو يهتف في الاجتماعات العامة ، ويصوت للسلطة السوفييتية . انه سرع الحركة

كالبرغوث .

- حسنا ، يا ايفان . . . لو اعود الى البيت ، واشترى

بقرة اخرى او ثورين فماذا اكون ؟

- هل دخلت الى الجيش الاحمر عن رغبة أم كراهية ؟
 - عن رغبة ، بالطبع .
 واقفه زادوفيتز فقال ايغان :
 - اذن ، فلن تشتري ثيرانا .
 - ولماذا ؟ لا اعرف لماذا ينبغي الا اشتري ثيرانا .
 - يجب ان تكون اهتمامك اوسع . فانت لم تحصل
 الهندية من اجل هذين الثورين
 قال لاتوغين :
 - ولكن سيشتري الثيران . فلماذا تعذبه ؟ تابع حديثك .
 هز ايغان غورا وراسه مبتسما :
 - لا اريد ان ادخل في جدال ولكنني اؤمن بالانسان
 ولكن ، حسنا . . . ما هي مهمة هذه الطيرة ؟ مهمة الكولاك هي
 الاستيلاء على تجارة الحبوب . ان الثورة فتحت عيني الكولاك وهو
 الآن لا يحلم بديكان في القرية ، او بجانوت يسئل بستيوات
 حبوب وسفن . . . ولو استطاع ان يشتغل الثورة فانك ستحصل
 له ، يسا زادوفيتز ، حتى تنضج عرقا ودمعا . وستكون
 ثيرانك له . انه يفكر ايضا بتحويل الاحتكار لصالحه . ذات مرة
 دخلت قرية مع فضيلة ثورين ، وبذلتنا قصارانا فلم يجد ذلك
 تقعا . العداة فيما حولنا وكل كلمة نقولها لا تترك الاثرا . كان
 بابولين مصاص دماثهم في معطف رت من فراء الالغام . وحذاء ليادي
 مرقع يبدو ناعما رقيقا لا يلتصق بشعر لحيته فكرت مع
 نفسي : اي شيء هذا ؟ . . . ذهبتا الى اهراته فلمس نجد حروبا ،
 وحفرنا هنا وهناك بالطبع ، ولكن لم نعتز على شيء . وفي زريبة
 الحيوانات لم نجد غير حسان هزيل ، وجلدتين من جلود الابقار
 معدلتين من السقف . فما الذي فعل ؟ ان ابسن الكلب هذا عرف
 بمجيشنا فطاف على الفلاحين قائلا : « آه ، آه . . . الجندرمسة
 القيصريون لم يعذبوك مثلما تعذبكم السلطة السوفييتية . انا لا
 يهمني شيء . استطيع ان انتقل الى اينتي في المدينة . فقد تزوجت
 رئيس اللجنة التنفيدية هناك . اما انتم فلا اعرف كيف ستفعلون
 هذا العام . ان البلاشفة يأخذون كل شيء ، وحتى القش الذي على
 سطوح بيوتكم سيأخذونه للجيش الاحمر والله يحسب

المحسنين ، فاذهبوا ، يا اخوان ، الى اهرائس ، وخذوا ما فيها من
 حبوب ولا يتقوا على حبة ، سنعيش ، وستحاسب فيما بعد
 ومع ذلك فقد اخذ منهم وصولات ، ولكنه ظل محسنا . . . ولم
 يعطنا شيئا ، بينما ستعود حبوبه من الفلاحين مضاعفة . قسند
 يكون صغيرا ، ولكن امثاله كثيرون في كل مكان . وليس القضاء
 عليه سهلا . وهو منذ الق عام يتحكم بما يدخل في فم الفلاح من
 طعام . ويعرف اي خيط يمد ولاى انسان . نعم ، يا اصحاب ،
 ان احتكار الحبوب قضية رئيسية بعيدة النظر . حقا انها صعبة .
 ولكن ما هو السهل ؟ ان حرارة الارض البكر صعبة دائما . والسهل
 فقط هو العرف على البلايكا . واذا كان الفلاح لا يفهم هذه
 السياسة الكبيرة فانك الملوم في ذلك بالمرجة الاولى . اذهب الى
 بيت مزرعة الترى وقبّل له : « افتح اهرائك » . ان كسل
 حبة فيها عزيمة كالدمع . ولكن كل حبة فيه مقدسة لقضية
 مقدسة .

- اين ملاتيج سوفييت القرية ؟

- عند الرئيس

- واين الرئيس ؟

- ما يزال هناك يرحح

زلزل لاتوغين وبايكوف وزادوفيتز من العريسة ولم يعرفوا
 ماذا يفعلون . والصرف الذي سألوه ، راقبوه طويلا وهو يتوغل في
 الشارع ، وكان الارض نفسها قد غلته . وانفجرت عين حاوية .
 جلسوا على مقدمة سوفييت القرية ، ولقوا اللغائف ، ودغنوا .
 كانت تهب على وجوههم ريح باردة تسوق السحب . ووزلت حبات
 لادعة من الثلج وكان متخلا ينخلها ، وسرعان ما امتلات بالثلج
 اخاديد الطريق الاسود ، واستحال الجو اكثر القلارا .

قال زادوفيتز :

- حين اسمع المغوض يتحدث احس بيدي تريد ان تمسك
 سيفا . ولكن الواقع ان هذه القرية مثل كل القرى . اين اولئك
 الاعداة ؟ اسمع عزف الموسيقى الصاخب ا

على بعد عشرة بيوت منهم ظهر صغير من الناس لا يد
انهم كانوا من غير المدعوين الى العرس ، او الذين ضاق بهم
المكان . وترامت من هناك اصوات اكورديون تمدد الى اقاصم ايد
تلمة ، وطبقة اقدام .
قال لاتوغين :

- انت تريد ان تبلل اصابع قدميك فقط ، بينما يجب
الغسل الى الكاح ، ايها الرقيق العزيز . ان الثورة تتطلب التعقيم ،
وقد تحدث المفوض عن ذلك .

- التعقيم ، التعقيم ! والى اى حد ؟ اننا نقلب كل شئ ،
ولكن يجب ان يمشى الناس ، ويبدروا الحب ، وينجبوا الاولاد .
فمن سيكون ذلك ؟

- الشيطان يعرف ، منى . لا توجه السؤال الى .
كان لاتوغين حائقا بقضم القش . فحتم زادوفيتش جيبه .
وفكر في كلمات المفوض يوم امس مستغرفا فيها غير منقطع عنها
على طريقة اهل الريف . قال بايكوف :

- اذا بقينا فان قضيتنا تظل جامدة لا تتحرك ، يا اولاد .
فهل نذهب للبحث عن رئيس السوفييت ؟
ورفع جسده . فقال له لاتوغين :

- لا تذهب .
- يعنى كيف ؟ ولماذا ؟
- ليس من المستحب ان اشرح لك السبب .
عندئذ قال زادوفيتش بتصميم :

- اذا كان لا يد من الذهاب ، فلنذهب سوياً . هيتا الى
الرئيس .

- لا اذهب .
- يجب ان نخضع .
- كفك ، يا لاتوغين - قال بايكوف بمصاحلة - لن تقترب
من المائدة ، ولن تشرب قطرة واحدة . مستنادى على الرئيس من
الرواق .

وذهبوا للبحث عن الرئيس . وكان ستيبان بيتروفيتش
نيدوشكاشي قد امسك لنفسه يومين وفي اليوم الثالث اخذ يفكر

بان القرية قد تفلت منه . نظف الوحل من رجله الخشبية ، وليس
بنظالا اسود دون ان يحترقه في راس حدائه ، وقتل شاربيسه ،
وسار مهيبا في جولة في القرية .

«الحمد لله . . . تفضل ، باستيبان بيتروفيتش . . .»
فكان بين معانقة من رب بيت ومصافحة ودية من رب بيت آخر :
«لترئيس مكان الصدارة !» وكانوا يجلسون في الركن تحت
الايقولة ، وكانت العطاية تجلب له العصيدة الكثيفة المالحسة على
طبق صغير ليذوق فدية ، فكان يدفع رويلا واحدا (لا اكثر) ،
ويقبل قديما مملوا بالودكا ، ويتمزج بقطعة من السمك الجاف .
كان على خطأ في شئ بان الاحتفالات تستهني في اليوم الثالث ، فان
اليوم الثالث لم يكن الا بداية للاحتفال الكبير ، والرخص والعناء
والعناق والاحاديث القلبية ، والمشايرات ، والمصالحات .

ثم ما اقرب هؤلاء الناس ! وكم تحملوا خلال هذه الاعوام :
التعبات في عهد القيصرية ، حين بدأوا يستدعون في اخر المطاف من
كانوا في سن الاربعة والخمسين ، ولم يبق الا النساء بحرث الأرض .
وفي مكان ما في الشمال كانت المرأة تسوق محراثا يجره حصان واحد ،
اما في هذه الاماكن فقد كن بحرث ثقيل يجره زوجان او ثلاثة
ازواج من الثيران ، وما تزال النسوة يتذكرن ذلك الغريف حتى
الآن . ومسات الكثيرين من الناس من الانفلقوزا العظيمة
واخترت القرية مرتين . وما كاد الرجال يرجعون من العرب
العالمية حتى بدأت التعبئة لجيش كراسنوف والابتزازات الثقيلة ،
وابواب القوزاق . والقوزاق ، كما هو معروف ، خلاف الاسدى .
ينمو القوزاق لك في ساعة وكانه صاحبك الودود ، ولكن ما ان
يحطى سرجه حتى يتقلب الى قوزاق اصيبسل لا يتورع عن طعن
شزريك بمزراق اذا رآه في الشوارع . وكل ذلك اصعب في الماضي .
ومسرات السلطنة لنا الآن ، والضرائب والامتاوات الغيت ، واضيفت
قطع اراض جديدة ، وكان الناس يريدون ان يفرحوا بلا قيد .

وكان ستيبان بيتروفيتش يجلس في كل بيت وقتا كافيا
لارضاء رب البيت ، ثم ينتقل الى بيت آخر فيه وليمة . وكان
يتحدث في ركن الايقولة احاديث رصينة مع ابوي الزوجين وامهينما
عن الحرب الاحلية المتداعلة الآن في شمال الدون قرب قوزونج

وكاميشين حيث كان كراسنوف يمزق الجيش الثامن والتاسع .
« . . . ولهذا ، ايها العمو العزيز ، والحماة العزيزة والخطابون
الاعزاء ، لا يجوز لنا ان نغفل ، حتى لا تؤخذ على غرة ا بل يجب ان
نساعد السلطة السوفييتية . . . » وكان يتحدث عمن الشؤون
الحالية ، وعن هذا وذلك ، فكان اصحاب البيت يدهشون من
سعة اطلاع ستيبان بتروفيتش . انه يعرف ما يوجد في حشرى هذا ،
وما تضم زريبة ذلك ، وما يخفي ثالث من اشياء .

وصعب عليه اكثر فاكتر الانتقال من بيت الى بيت على رجله
العشبية ، وان يبدأ من جديد الشيء نفسه : تبادل التحيات
والجلوس . وفي احد البيوت تناول فجة صحن العصيدة من يد
الخطابة واكلها كلها ، وكانت ملحا ققط ، واخرج من جيب معطفه
المسكري اوراقا نقدية مدعوكه ، من كل ما تبقى له ، وحشرها
في يد الخطابة ، وجرح قدحا كبيرا من العمرة البيتية ، وصاح
بالمرس التي ظلت ترتص لليوم الثالث في الوفرة العارة وضيق
المكان رقصه الكادريل لعشرة ازواج من الرافضين :

«ستيبانيدا ، ارقصي اقوى ا!»

وفي ذلك الوقت اخبروه بان ثلاثة من الجنود الجمر يسألون
عنه : فقال : «دموهم الى هنا» اجابهم : «معوانهم ، فليس
يقبلوا . . . »

استند ستيبان بتروفيتش يديه على المائدة ، واحنى رأسه ،
ووقف برهة ، وطلع شاقا طريقه بين الناس ، وخرج الى الرواق
حيث وجد بالفعل ثلاثة رجال يبدو عليهم الجهد .

سأل بصوت ثابت :

« من انتم ؟ »

« فصيلة التموين ا . . . »

اجاب لا تفرغ بلهجة تهديد متوقعا ان يجفل رئيس السوفييت
على اقل تقدير . الا ان ستيبان بتروفيتش - الذي كانت تفرح
منه رائحة قويسة لطيفة جعلت بايكوف يقرب - لم يجفل البتة -
ينتم في اللحظة المناسبة ا انا انتظركم منذ زمان . . . ياناس ا
- صاح ستيبان بتروفيتش في الباب الموارب الذي كان ينبعث
منه الضجيج ورنين الاواني وطبقة الاتمام - اوقفوا الموسيقس

مؤقتا ا - وفي هذه المرة ترنح بشدة حتى ان بايكسوف استند
بمسكة من يده - يارفاق ، جشم اتسم الى سوفويت قرية
سباسكويه ، لا الى اى مكان آخر ا
وامسك بعضادة الباب ، وصاح في داخل البيت بتصميم
لشد :

« ايها المواطنين ، الى الاجتماع جميعا ! »

وخرج من الرواق الى الفناء ، حيث كان ثلاثة فلاحين كهول
متكئين على عربة معلولة من خيولها يغنون الغنية قوزاقية باصوات
متناثرة ، واثنان متعاليان يبرهن احدهما للآخر على شيء ما . بينما
كان شخص آخر يدور محاولا ان يجد باب الخروج ليذهب الى
بيته . وهنا ايضا ، و خارج البوابة حيث كان الناس يرتصون
على الاكورديون كرو ستيبان بتروفيتش طلبه في الذهاب الى
سوفييت القرية دون تلكؤ .

وكان يقول وهو يسير ضاربا رجله العشبية على الارض
المتجمدة بعدة :

« الافراح افراح ، والعمل عمل . القوائم جاهزة .
والاحتياطات قد عرفت وسجلت . . . ارسلوا برقية الى
تساريشين اذكروا فيها ان الحروب سلمت كاملة - وعندما حاول
بايكوف وزادوفيتش ان يقنعه بتأجيل الاجتماع ولو الى الغد حتى
يصحو الناس من سكرهم على الاقل واح ستيبان بتروفيتش يكرر -
من يكون ذكيا وهو سكران ، فان نفعه مزدوج . لا حاجة لكسب
لتعلمس ، غذا سيكون الامر اصعب . يجب الا تدع احدا يفكر في
الامر مرتين . »

وبينما كان الناس يتوافدون الى سوفويت القرية وضج
ستيبان بتروفيتش امام الرفاق من فرقة التموين السجلات
والقوائم ، واخذ يهس بهماس :

« لدينا ثلاثة بيوت من الكولاك : كريفوسوتشكا وهو
لنس ، في عام ١٩٠٧ تهب البريد ، وقتل الساعي ، واخفى الفلوس
عشرة اعوام ، وبعد مرور فترة طويلة على الجناية بنى لنفسه هريا
من الاجر ، وعجزنا . واثناء الحرب جمع المال من صفقات الجلود .
وفي قرية سباسكويه وعدنا لحر نصف العاشية . والآن يسمى الى

— آء ، لو تعرفين ماذا يحصل في سوفيت القرية ! الفلاحون
يقنعون اوتاد السياج . . .

وبنظرة واحدة من عينين لا ترمضان المذ بكل شيء . وات
آنا في فستان قرمزي كانت قد ارتدته مرة واحدة في حياتها حين
كان زوجها حيا ، وعذاه له حاشية ، وجوربين ابيضين ، وكانت
تجلس حاسرة الرأس على حافة السرير حيث استلقى القس المجرد
من مسوحة عاكرا ركبتيه ، وقد لبس قبضعا نظيفا اعطته لسه
آنا مرقطا بنقاط سود . وكان يمسك بيد آنا . . .

صاحت آنا بها خجلة :

— ما لك تندفعين الى ابواب الناس !

فوثبت الفتاة خارجة من البيت ، ولم تقل كلمة واحدة من
الخوف . الا انها جعلت كوزما كوزميتش يستعطف . وكان قد
تعب خلال الايام الاخيرة ، فقد شرب وكلا كثيرا ، وتحدث اكثر .
ولم يفوت الفلاحون كلمة واحدة من موعظته ولم يكونوا قد فهموا
بعض الاقسام منها ، الا ان ذلك لم يرددها الا قيمة . وكان في كل
بيت يضطر الى ان يتحدث عن الشيء الذي اثر فيهم اكثر من
غيره : عن العدل . وحين كانت المائدة تخلسو الا من الشيوخ
والاجلاء كان احدهم ممن ارتخت العمرة افكاره يدفع العظام والفتات
يكمه ، ويبتسمه قائلا :

— ازعلتنا ، يا كوزما كوزميتش . . . كيف تقول لا يوجد
عدل ؟ . . . عند ذلك سيكون العالم غاية وحشية .

وكان شخص آخر يقاطعه : — شبانتا — وبشير براسمه
الى الطرف الآخر من البيت ، حيث كانت التنورات والضمفان
والشرائط والوجوه المنفعلة تدور — لا تمكن السيطرة عليهم .
اهم يقولون الآن ان كل شيء ممكن : لا وجود له ولا للقيصر ،
وآباؤنا وامهاتنا حقن . لطيف هذا . . . فاي شيء يمسك
اولادنا الآن ؟ اين الرابض الذي يشدهم ؟ وعلاوة على ذلك تقول :
لا يوجد عدل . . .

فيستغل شخص آخر ذل لحية في الحديث :

— حين يأتي من انسان قوى . فان هذا سيكون في الاعلى ،

تكوين جمعية تعاونية ، وينقل اليها مغزله ، وساكشف هذه
الهيئة سريرا . . . انه يقول عن نفسه انه مسلول ، وأنه يسرى
النور في الليالي . . . انه رجل خليل . اما البيت الكولاكي الآخر
فهو بيت ميليفودوف ، وكان هذا متعهد مناخ عاد الى القرية
قبيل الحرب ، وصار يدير حانة سرية مع محل للرهون . . .
انه عنكبوت مراب وقد امتص القرية كلها قطعة قطعة . وقد
عرفنا انه هسو الذي ارسل الى القرية الشخص الذي زعم
انه الامبراطور نيقولا الثاني وذلك ليعرف مزاج الناس . . .
والكولاكي الثالث هو ميكيتكو تاجر المواتى ايسا عن جنه .
وكانت له صداقة على الدون ، وبلاضافة الى هذه البيوت
الثلاثة يوجد حوالي عشرة بيوت من ذوى قرياهم والانساب
والاصدقاء المقربين . كما ان هناك فلاحين حذرسن يقولون :
«من يبرى بم ينتهي هذا كله ، ولمن ستكون السلطة ، والذي
لا ينشل في خصومة مع احد هو الاكى من غيره» . اولئك من جهة
الاعداء . . . اما هؤلاء فهم جميعا من جامعتنا — ومرر اصبعه
السميكة على القوائم قائلا : — الوضع في القرية حرج . اما ان
يقتلوني ، واما ان القس جناح بعضهم .

تجهيز الناس على سوفيتست القرية صاعين وسكارى .
وتزامم الجمهور وتماوج وهدد . كان بايكوف يتطلع من النافذة
فترنم مع نفسه باغنية بحرية :

طيور النورس تحوم على الرمل ،

امارة على مين البحار ،

وما دامنا لم تقع على سطح الماء

فالقبح ماضف الجو . . .

وقال بصوت عال لرفاقه :

— هيا الى واجهة البيت سريرا ، والا لسيحصل اضطراب . . .

اندفعت الى بيت آنا فتاة من الجيران صغيرة منمشة زرقاء
العينين عارفة بكل شيء ، وقالت بسرعة الكلام لعب الهواء مع
كلماتها :

وسيتكون عادلا أيضا ، وستكون نحن مرة أخرى مثل اجمة
مشدبة . . .

سأل كوزما كوزميتش :

- هل انت قوى ؟

- انا قوى . . . ولكن الروبل اقوى منى . . . تلقيت منه
الضربات طوال حياتى .

- وهل شكوت الى احد ؟

- والى من اشكو ؟

- وهل ذهبت للاخرعة المقدسة فى دير كييلو -
بيشورسكيا ؟

- لا ، لم اذهب .

- اذن ، لا يوجد عدل ؟

- كيف لا يوجد ؟ كنت اعلى من الغيظ . وقد عدت من
الحرب ومعى بندقية ، وولفت على العدو الذى يوصل ارضى ،
وفلتت : هيل اعتبارتمونى مقتسولا ؟ اعيدوا لى اعدتى

الثلاثة . . .

- وهل اعادوها ؟

- بالطبع . . .

- اذن ، يوجد عدل ؟

- اى عدل هذا بتخويف الناس بالبندقية ؟ لا ، يا اخ انا
لا اريد ان اودى احدا ، ولا اريد ان يؤذنى احد . هذا هو الجد
الكيم . وحيد فريد . . . لم يعد قادرا على العمل ، ويعيش على عطايا
الناس ، يقدمون له قطعة خبز مرة ، اين ذهب كل ما عمله ؟

كان له كوخ صغير ، فاستول عليه ميلوفيدوف لقاء ديونه . . .
واعمالى اين ذهب ؟ كدحت خلال خمسين عاما ما يكفى لثلاث اربعة
بيوت اجرية ، بينما هذه ثيابى ممزقة عند الكوعين . . . اعمالى
كالحمام تطير منسى ، وتحط على سائق شخص آخر ، لا على
سائقى . . . جميل قولك : «ان العدل هو انت نفسك ، ايها الانسان

الشجاع» . انا ، يا كوزما كوزميتش لا اخاف الموت ، وما ازال
قادرا على حمل عشرين بودا على ظهري ، ولكننى لا استطيع ان
اتال العدل ، لو كان هناك عدل للعدو الانسان حسب عمله لا

حسب ما يملك من الفلوس . . . كيف يمكن تحقيق ذلك ؟ شكرا
للسلطة السوفييتية عند ذلك . . .

- ذلك بالذات قانون السلطة السوفييتية ، يا عجيب . . .

- يعنى ، ما زال فى الطريق البنا .

واحرز كوزما كوزميتش انه على الرغم من كل دهائه لسم
يستمتع ان يجيب هذا الرجل بشئ . فقد كان تجاذب الحديث مع
المتفلق اسهل بكثير من تجاذبه مع الفلاحين ، وفى جميع الاحاديت
حول الموالد التقط ما يشبه الرضا مشوبا بعدم الإرتياح والامتعاض

والترقب . وبدا وكان هؤلاء الناس ينتظرون على نحو غامض شيئا
جديرا تانى به الثورة ، ويستعملون ميجته سريعا .

وفى ليلة اليوم الثانى جرح نفسه الى بيت انا وهو فى حال
سيئة تماما . وجلس على الارض الى جانب المصطبة ، وطببط على
وجهه يكفيه ، ولفى وجهه بيديه ، وضحك وهو يردد : «احسن
بضعف ، يا انا ، صرت عجوزا ، يا اوشككا» .

قاده انا الى الحمام على شاطئ البحيرة دون ان تنفوه
بكلمة ، وغسلته بنفسها وسخت جسمه بالبخار . وكان الهرم لا
يبدو الا على وجه كوزما كوزميتش ، اما جسمه فابيض امس .
واستول الحنان على انا حين رآته يقفز على الرف كالمسكة ويقول
«على بالليفة . . .»

وبعد الحمام هما ونام حتى الضحى منتظم الانفاس . ولما
استيقظ شرب حليبيا وقال «اعزيتى ، يا اوشككا ، ولا تعشى على .
راسى يوجشى . . .» ولقها تالية . وحين ابتلته الفتاة الجارة كان
مرحه المألوف قد عاد اليه .

- ما الذى جاء بالفتاة الصغيرة ؟

- اجتماع عام ، كما يبدو . جاء جنود من الجيش الأحمر
لجمع الحبوب ، وعلا الهرج .

- انهم جماعتنا ، يارب ا

اخذ كوزما كوزميتش يلبس ثيابه على عجل . نظرت انا
اليه من تحت حاجبها صامتة . وفى تلك البرهة الفتح الباب مرة
اخرى ، وادخلت تلك الفتاة الصغيرة واسها فقط :

- انهم يتعاركون . المصابون كميرون ا عادت فلاسوفسا

بزوجه الى البيت مضجعا بالدم . . . ملأت الشارع صراخا ، وهي
تشتبك . . . واخذ ميتروفان كريفوسوتسكا يشد حباله ،
فمنعه ، جروه وراء البوابة ، واخذوا يضربونه بقسوة . .
يا ويل !

واختفت مرة أخرى . وسار كوزما كوزميتش في اثرها الى
الباب ، فصرخت آنا بصوت مرعب :

— لن الترك !

ولفت عند الموقد طويلة نحيلةرافعة كتفين شبيهتين باكتاف
الرجل ، ودفعت رأسها الى الخلف وكالما قسم ظهرها . ضغط
كوزما كوزميتش على يدها بكل قوته :

— آنا ، لا تكوني حقا ، والا سأمسك بقضيب النار . . .
اهدئي . ساعد بعد قليل . نتفد مع الرفاق . فاعدى لنا قطار ،
اسمعي . . . كفى عن هذا ، اقول لك !

قالت بجهد من خلال أسنان مصكوكه :

— طيب ، يا آنا . . .

كانت الجارة الصغيرة تريد شيئا أرعب بكثير مما شاهدت ،
وهي تركض نحو سوقبيت القرية وتعود ناشرة الخبر في البيوت .
الا ان الاجتماع كان ضاميا حقا . لم تنر مسألة اعطاء الحبوب
تفاسات كبيرة : «اللازم لازم» . واصفى الناس يهدؤ الى الرئيس
وهو يقرأ قائمة الحصص العادلة ، وجعلوه يكررها . وبدأت في
الجمع احاديث قصيرة وحرمة ، واخذ بعض الناس يتزاحسون
ليقتربوا من واجهة البيت ، وآخرون يتدافعون الى الشمال نحو
حديقة الخضروات المجاورة ، المحاطة بسياج من الاغصان
المضفورة .

صاح ميكيتكو بصوته الطافي المعروف للجميع : «ليس هذا
صحيحا !» فرددت عليه اصوات كثيرة «صحيح ، صحيح !» والدفع
الى واجهة البيت رجل ملتصق مزق الكم ، والفر تبعته تحت رجليه ،
واخذ يلقي مظالم قديمة :

— اين ذهبت كل اعامى ؟ الى هؤلاء . وهل على ان اركع على
الاندام امامهم لقاء كسرة خبز ؟ وهل هذه هي السلطة السوفييتية ؟

دفعه شخص آخر مبتلع الوجه من الغيظ ، واخذ يتلوه
كلمات الفصح . عند ذلك اندفع قسم من الذين كانوا
والذين على بعد مقربين من السياج ، وانتزع الاعواد ،
وهاجم المجتمعين من الخلف . نزل لاتفين وزادوفيتسر
وبايكوف من واجهة البيت ، ودخلوا بين الناس مفرقين ايهم ،
منتزعين الاعواد من ايديهم ، صالحين : «بلا فزع ، كل شيء على ما
يرام . واللعة على الشيطان . . . الاجتماع مستمر . . .» .
وكانت المشاجرة قصيرة ، فقد كان المهاجمون قليلين .
بعظم احتفى ، والبعض الآخر لرحق في الشارع . وبلى بعض
الناس منطرحين على الأرض المغطاة بالثلج . . .

سار كوزما كوزميتش عبر اسبعية حدائق الخضروات تقصيرا
للطريق ، واضاع طريقه ، ووجد نفسه في بيت لا يعرفه . ورأى
نسوة كانت احدهن تنتحب ، والاخرى يستمعن اليها . وحين
وقع بصرهن على كوزما كوزميتش اخذت يتحدثن . وتقدمت فارافرا
فلاسوقا ام ناديجدا نحوه طاوية كسي مغطها الجناصى الطويلين
وقد بدا عليها الغيظ ، وتحركت الاثريات ورائها . قالت فارافرا :

— لهذا السب لم تأخذ فلوسا منا ، ايها القس المجرى من
مسوحه . . . بينا نحن ، تحقارات ، صدقنا به . . . جعل
القرية كلها تسكر . . . التزع كل شيء منا . . . شوش عقول
جميع الحقى . هذا المشوش . . . باعنا للشيوخيين . . . لا
تجعلن فيهِ ، بل اضربنه حتى الموت .

رد كوزما كوزميتش متراجعا :

— لا يجوز لكن خربى . . . ستأسفن ، يا نسوان . . . لا

تمسستى !

— وهل اسفت انت علينا ؟

خلعت النسوة المناديل من رؤوسهن هانجات واخذن يتكلمن
دفعه واحدة ، متهات القس المجرى من المسوح بالايجاف في
تعيين الحصص ، وبسلك الدعاء في سوقبيت القرية . وبانه هو

الذي جعل رب البيت المعتد لا يجد مكانا له الآن في القرية ، كما انه المسزول في ان ينحر ويؤكل هذا العدد الكبير من الوز والغنايص في هذه الايام ، لقد كان المذب في كل شيء . وحصرته النساء على السياج . وذهبت جهود كوزمبا كوزميتش عينا في سحرهن من جديد ، مكرها نفسه على الابتسام ، متمتا : «هيه ، اعلتن عن غلظتك ، وكفى . . . لتشكل بهدوء . . . » كانت قارافرا فلاسوا اول من جذبت شعره من جانبي اذنيه ، وتتابع غربات النساء على ظهره المحنى . وفكر ان افضل طريقة هي ان ينطح ، ويفطى وجهه بيديه . كانت اضلاعه تطلق . وتمنى في سره : «قط ان لا يضرني بشيء صلب . . . » واذا به يسمع صوتا قويا : «اغرته بالعود ، هذا المسخ !» حاول كوزما كوزميتش ان يقفز ، الا ان غشاوة غطت على بصره . وفجأة رفعوا ايديهن عنه . عندذاك سمع نوجهه واجبر نفسه على ان يسبح نفسه عنه . رفته ايد واستندته الى السياج . مسح كوزمبا كوزميتش الثلج والغش من عينيه ورأى آنا ووراد تنورتها وجه الفتاة الصغيرة المتمش يبدو عليه التحس . كما رأى لاونغين وزادويغيتش وبياكوف .

سأل لاونغين :

- هل انت حي ؟ ليحلب له بعض الناس قدام من الغمرة البنية الآن . انك ، يا كوزما ، فعلت الكثير هنا . . . واتخذ الاجتماع قرارا بشركك على الدعوة ضد الكنيسة . . .

- لا يمكنك ان تتصورى ، يا داشا ، الى اي حد كنت غنا ، اسانا كتيبا طوال المدة التي اعقبت اقترانا في بتروغراد . نعم ، كنت ذلك الرجل . . . ان لنا حياة لا شعورية . انها كالعلة تعذبك وتضحك على نار بطيئة . . . وتفسير ذلك سهل بالطبع . . . انت كلفت عن حبي ، وانا . . .

ادارت داشا راسها اليه بحركة سريعة ، فقرا في عينيهما الرماديتين التديتين الرهيبتين دائما انه على خطأ ، فانها لم تكف عن حبه . وخبرته تلك النظرة لحظة ، ثم انفرج فمه عن ابتسامة لا تتم عن ذكاه كثير ولكنها فرحة على اية حال . واصلت داشا

وضع الاشياء في سلة صغيرة ، وهي اشياء حصل عليها ايفسان ايليتش صباح اليوم كجرايات من الالبسة بعد ان طاف على عدد من المؤسسات .

كانت اشياء ضرورية ومفيدة : جوارب ، وبعض القطع الصغيرة من القماش يمكن ان يفصل منها فستان ، وملابس داخلية جميلة جدا من البسته لا تصلح الا لصبية ، مع الاسف . الا ان داشا كانت من الهزال والنحافة بحيث كانت تبدو صبية . وكانت من بين الاشياء احدى طويلة . وكان ايفان ايليتش معتزا بها اعتزازا لا يقل عن اعتزازه لو انه استولى على طائرة للعدو . وكانت هناك اشياء تدعو الى التفكير فيما اذا ستكون نافعة في حياة التنقل التي تنتظرها . وقد اعطيت لايفان لايليتش بدلا من الملابس واخذها من احد المستودعات . انها قطة وكلب من الصينى ، وبعض عاقصات الشعر من الجلد ، ووزينة من بطاقات البريد عليها مناظر من القرم ، وكورسيه من قماش جيد للغاية له اذنيات من عظم الحوت ، كبير جدا حتى ان داشا استطاعت ان تلمح على نفسها مرتين .

- دانسكا ، انا اتكلم عن وداعنا في محطة القطار . . . لقد قلت في شيئا مثل : «وداعا الى الابد . . . » ربما اعطأت في سمعي . . . كنت ايضا مغموما جدا . . . وكنت انت عشة شاحبة بعيدة المال ، عازقة عن الحب . . .

- اية فطاعة !

قالت داشا ذلك دون ان تلتفت . وكانت تلف القطة في جوب سميك لكيلا تتسكق في الطريق . وكانت داشا دائما غير مكترثة بالاشياء ، ولكنها لعجت بسبب ما بهاتين الدمييتين مسن الفغار الصينى : القطة الحلوة ، والكلب النائم باذنيه الكبيرتين ، وكأتهما قد سمعا اليها سمعا ليقيعا لها عالما صغيرا من البسمات البرينة في هذه الحياة الكبيرة الرهيبة المتهدمة التي كانت تغيم عليها سحب متفرقة من الافكار والاهواء . . .

- وعلى اية حال غادرت بتروغراد بهذه الصورة عنك . . . حملتها وعشت معها . . . كنت تصاحبيني كغلبسى . وعزمت على ان اعيش وحيدا عازبا . . .

وحاول ان يسير في الغرفة بحيث تكون داشا مركز دورانه .
 وكانت قد شلعت متدبل واسما . وكان شعرها المتلوي ذو الشفرة
 الساحبة مضفورا في قفاهها بشرط من السنان الاحمر (اعطوه لها
 من مستودع ادارة المدفعية) . كانت داشا تارة تحتني على السلة
 الموضوعه على مقعد ، وتارة تنزل ذراعها على جنبها ، وتفكر في
 شيء ما . كانت ترتدي مريول مرشحة ابيض افنت من اى فستان
 تفتنوا في تقصيله ، وقد شدته من خصرها (من غرض ، شأنه
 شأن الشريط)

- غريب ، يا داشنكا ، كان الخطر والموت من قبل بيدوان
 امين غير مهمين . فليقتلوا ، ذلك لا يهم . في الحرب لا يدل ذلك
 على الشجاعة مطلقا . بل مجرد سوداوية . . . اما الآن فحين افكر
 في الماضي اشعر احيانا بالرعبه . . . اريد ان اعيش اليك عام لكي
 اتلصك ، وانظر اليك . . .

- حلوه سناكون بعد اليك عام . . . اسمع ، يا ايفان ،
 ماذا ساقبل به على اية حال - ويضبط الكورسيكسه مرة اخرى ،
 ووضعته على صدرها - يمكن ان تدخل فيه ثلاث نساء . ربما لا
 ناخذ ؟

- وما اذا لو سمحت ؟ سينفك .
 - انا لا اليس كورسيكسات ابداء ، انست فقدت عقلك .
 اسمع ، لو رغبنا منه العظام ، وشغلناه نحن الممكن ان يصنع منه
 صدار لطيف . . .

استغل ايفان ايليتش الضغال كلتا يديها فخلتم من ظهرها ،
 وجذب داشا اليه بلطف :

- اصحح ما تقولينه ؟ قوله مرة اخرى .
 - صحیح ، بالطبع . . . انت رجل الوحيد على هذه الارض .
 وانا بدونك لا شيء . . . جئت لفيحت عنك . . . ايفان ، فكر ، على
 اية حال - وصرت كنتفها ، وتنتح قليلا - يجب ان يكون هناك
 تناسب في التوى . انك ستحظنن يوما ما . . . اسمع ، ماذا
 نسينا ؟ فات الوقت الآن على كل حال

- قول وساطير حالا . . .
 - لطيف لو نحصل على اسفنجة . . .

- توجد اسفنجة .

وهرع ايفان ايليتش الى مطهه ، واخرج من جيبه اسفنجة
 وبعض الاشياء غير اللازمة .

- هذه هي اشياء ، يا داشا ، لم يستطع احد ان يشرح لي
 لاي لغرض هي ، ولكننى اخذتها على اية حال .

- انها شيء نفيس يا ايفان . هذه قطعة من السطاط لتدليك
 الوجه ، يا لروعتك ! ان هذه ضرورية جدا لي .

اعدت داشا السلة ، وتقدمت من ايفان ايليتش الذي كان
 جالسا على طرف التفت ، متهيئا في كل لحظة الى الوتوب . رفعت
 داشا وجهه ، وحدقت في عينييه باهتمام :

لقد تطلعت على نفس عهدا . ان انتظر شيئا في حياتي الجديدة ،
 فانا لست سولفيج * . ولا اريد ان احقق بعهد الان في ضباب
 البحر . بل ان احب فقط ، واعمل خذني كما انا سينة او
 حسنة ، ولكننى زوجة وفيه لك . . . لنبدأ يداية جديدة في كل
 شيء

دخل الدكتور دون ان يترك الباب على عادته ، ومعه آخر عدد
 من جريدة واخذ يعلن الانباء العسكرية بصوت راعد :

- ان الاميرال كولشماك ، ذلك الرجل الذي طرد الادارة
 من اومسك ، واقام للعمال حمام دم قد نصب نفسه الحاكم الاعلى
 لروميا بدون تواضع . . . واعترف بيه الفرنسيون
 والانجليز . . . ما رأيك في هذا ؟ ان له جيشا قوامه مئتا الف
 رجل وستتنازل على ما يبدو عن الشرق الاقصى للياياينيين بلطف !
 ثم اسمع الشيء التال : ان الاسطول الانجليزى والفرنسي المتحد قد ظهر
 في ممرات مينياستربول ونورفورييسك المالية . . . حلفاء ! انظر
 ابا ساعدنا ليربح الحرب بدعائنا ! - ومط الدكتور شفثيه بحق ،
 وتابع قوله - تدخل ، تدخل على المكشوف تماما ! يا داريسا
 ديميترييفنا لا ننظرى الى بهاتين العينين الرهيبتين . . . خذني

* سولفيج - خصية نسائية من دراما اسن القاعريسة
 ويرغولت ، المترجم .

العنائم ، ويضرمون النار في ضياع اصحاب الارض الذين ما يزالون
لحناقتهم قابعين فيها ، ويهاجمون بجراة المستودعات العسكرية
ومصانع التفتيز ، ويحرمون حول المدن .
وقال الجابي الاقدم بصوت جهورى :

- لا بأس لو ان الامانات بلا رئيس . ولكن لهم رئيسا .
وماختر انمان على جميع الامانات . رجل له شعبية - وله دولسة
كاملة وعاصمة هي غولاى - بوله . وهو لا يضيع وقتسه في
الصفاخر . انه يدع القطارات تمر دون عراقيل . ولكن يقتشمها
بالطبع ، ينزل من يشاء ، ويطلق النار عليه في البقعة امام ملوحة
الخط الحديدى . في السفرة الاخيرة ، ونحن نتقرب من الرصيف
رايت ماخنو يقف تحت العرس وهو يدخن سيغاراوا . ففزت من
العربة ، واقتربت منه ، واديت له التحية . ومع ذلك فقد قال لي
بغلظة : « انزل بك . فانا لست قبيضا او ربا لك . . . هل معك
شيوغيون ؟ » اجبتة « لا ، على الاطلاق » - « او حراس بيض ؟ » -
« لا ، مجرد مسافرين محليين » - « وهل تنقل تحاولي تقديسة ؟ »
وسحرت بان صمدى يتمرق . قلت له : « تعال ، وتأكد بنفسك .
عربنا الامتعة والبريد فارغتان » - « حسنا ، اذن ، سر بالقطار » .
وكانت التوقفات في المحطات الصغيرة مؤلمة ، سكنون دعمة
العجلات ، الزكود ، الانتظار المرحق . وكان فاديم يتروفيش
يخرج الى فسحة العربة ، فلا يرى احدا على الرصيف المنظم ، ولا
على الخطوط ، لا شيء غير غنوه شاحب لفتيلة مفروزة في زيت يتراى
اصفر من نائلة المحطة ، وشخصين يريان جالسين حسا الجابي
والمتنص بالبرقيات مستمعين للجلوس هكذا طوال الليل ، وقد
دفنا انفيهما في ياقتيهما . والذهاب اليهما ، والاستفسار بلا
فائدة . فان القطار يتحرك حين يعطى الطريق له من المحطة
الجاورة ، وقد تكون تلك المحطة خالية من كل شخص حي .

استنشق فاديم يتروفيش الهواء البارد ، وقصد توتر كل
جسده ، وتصلب . . . لم يكن في هذا الظلام الغريزي ، في روسيا
المعقرة المترامية الاطراف غير لقطعة واحدة حية - قطعة من اللحم
الغار يشعر بحب عارم نحوها . . . كيف كان من الممكن ان يملكه
ذلك الاخساس المعتم في لحظة من لحظات الرغبة العاتية في الانتقام

زوجك ، وتعال الى غرفتي لتناول حساء البورس . . . انت تذكرين
الرجل الذى كان يرلد عندنا مصابا بجراح حراب . لقد ارسل لي
كيسا من الكرنب ووزة ولحم خزير . . . مع الاسف . يا ايها
ايبيتش . مع الاسف انك تأخذ منى مثل هذه المعرصة الرائعة على
مراى منى . . . بالمناسبة سنشرب اليوم القودكا ، وليذهب
جميع المتدخلين الى الجعيم . . .

11

احتاج فاديم يتروفيش الى شيء قليل ليثقلب على ترده .
وكان هذا الشيء القليل هو وقوعه على اثر لكاتيا . فان السنر
قدم امرأة حافية على رمل شاطئ يجعل رجلا يزلق في مقلته قصة
كاملة عن تلك - الرائعة - التى مرت من حسا على ضجيج امواج
البحر الكبير . شبت فيه عاطفة الغيرة العبدية ، متغلبة على افكاره
اليالسة ، وجزعه الفاهر ، وصار كل شيء يبدو له بسيطا واضحا .

غادر يكاترينوسلاف في تلك الليلة ذاتها (بعد الحديث مع
الضابط الالمانى) . ترك الحقيبة في الفندق ، ولم يأخذ معه غير
تبديلة من الملابس الداخلية ، وحقيبته النظوية . وفى الطريق خلغ
كتافيتيه كضابط ، وعقدت شريط القبعة ، وخلغ الشارة من كفه
الاسير ، والقاعا من النافذة ، ومع هذه القاذورات ذهب نهب الربيع
كل ما كان يبدو له حتى تلك الليلة في « بي - يا - بو » شروويسا
لاحترام النفس . الفرح سلابه ، وحشر كفيه وراء حزامه وجلس على
التخت في العربة المظلمة الفارغة تقريبا ، وقد اغم قلبه فرح
وحسى . انها العربة ! كان القطار يتنطق به الى كاتيا . ومهما
حدث لها ، فانه سيجد طريقه اليها ، ولو تقطع جسده اربا اربا .
في يكاترينوسلاف حذر ناظر المحطة من ان قطاع الطرق
عادوا الى طغيانهم في منتصف الطريق الى روستوف ، وهذا هو آخر
قطار تنجه شرقا ، وليس من المؤكد حتى ما اذا كان سيسير على
الخط الاسفل عبر لولاى - بوله ، او على الخط الاعلى عبر يوزوقا .
وفى المحطة نفسها تحدث الجابي الاقدم الى المسافرين الذين احاطوا
به عن قطاع الطرق الذين ينطلقون في السهب على العربات بحثا عن

والتشكيل ليُدفعه الى ان يلقى عنه يدى كاتبا المتشبهتين، به في اعل درجات القنوط ، ويتركها ببطاظة وحيدة ، في مدينة غريبة . ومن اين ستاتيه تلك الثقة التي تجعله ، بعد ان يجدها ، ويدون ان ينطق بكلمة واحدة (تلك هي الطريقة الوحيدة المقبولة) يرمى نفسه نحوها ليقبل قديمها بجوربيها المرغزين للغاية ، على الاكثر ، ويحصل مع ذلك على العفران منها ؟ ان مثل تلك الحيوانات لا تغتفر بسهولة !

وبينما كان فاديم بيتروفيتش مسترسلا وحده في افكاره في قسعة العربة ، متشبا في غضب ، محركا حاجبيه ، خرج الجايي من المحطة ، ووقف عند العربة غير مكترب بما قد يقطع القطار من مسافة ... سال فاديم بيتروفيتش هل سيطول الانتظار ؟ لم يجد الجايي الرغبة حتى في مز كنفية . كانت الريح تهب الفانوس السود الذي كان يسكده في يده فيكتشف عن اطراف معطفه الاسود المتطايرة . وفجأة انطلق الضوء الشامخ في نافذة المحطة ، وصُفّق باب . وتقدم المختص بالبرقيات وظل الانسان يطيلان النظر في ملوحة الخط الحديدى .

همس المختص بالبرقيات :

- اطمنه !

رفع الجايي الفانوس الى وجهه المشورب المنتفخ ، وتنفخ على الذبالة الساتمة وسعد في الحال مع المختص بالبرقيات الى قسعة العربة ، وفتح الباب في الجانب الاخر من العربة .

- اخرج - قال الجايي لفاديم ونزل على عجل وهروول .

فقر روتشين في اثره - تعثر بالخط ، ووقف على كومة من العواض ، وصعد الى حقل كانت الظلمة اشفق قليلا فيه ، فلاح شخصان سائران . لحق بهما . قال المختص بالبرقيات :

- في هذا المكان سفر . اللعنة على الظلام ! كانوا يرفعون الرمل . وانا دائما اختفى هنا .

وتبين ان الحفر كانت تقع الى اليسار قليلا . نزل روتشين فيما يشبه الخندق مقلتا اثر صاحبيه . وبعد قليل جاء شخصان آخران هما سائق القطار والوقاد ، وارسلوا الضئام ، ثم نزلوا الى الحفرة ايضا . زفر الجايي زفرة ثقيلة :

- سأترك هذه الخدمة . لقد خجسرت . اية مواصلات هذه !

قال المختص بالبرقيات :

- صمتا . الشياطين آتون .

الآن كانت كركبة حوافر الخيول تسمع من السهب ، ومعها ثعثة عجلات العربات .

سال الجايي المختص بالبرقيات :

- من الذي يبعث في هذه الاتهام ؟ جاكى الموت ؟

- لا . ان هذا في غاية ديريفسكى الآن . بل اظنها ماروسيا . لا وليست هي ايضا . فمن عادتها ان تجرى بالشاعل ... لا يد انه اتمان صغير من هذه النواحي .

قال سائق القطار بصوت مبحوح :

- لا . ابدا . انه ماكسيوتا من ايزوان ماخو . . . اللعنة عليه ...

زفر سائق القطار ثانية :

- عندي يهودى في العربة الثالثة ومعهم حقائب ... لم اخبره ، مؤسقا ...

كانت كركبة الخيول تقترب ، وكانها الريح قبيل العاصفة الرعدية . اخذت العجلات تدمعم على البلاط قرب المحطة ، وارتفعت صيحات : «هيا ، هيا !» - وسمع صوت تحطم زجاج ، وطلقة ، وزقيق قصير ، وضربات على الحديد ... اخذ الجايي يتنفخ في يديه المكورتين :

- لا بد ان يفعلوا ذلك . ان يكسروا زجاج النوافذ ، على عادة السكارى ...

لم يستمر كل هذا الشغب طويلا . وصعد صوت يالس «لركبوا» - وصرفت العربيات ، وحجمت الخيول ، وقرمت العجلات ، وانطلقت عصاية الاتمان مبتعدة في السهب . عند ذلك خرج الجالسون في الحفر ، وعادوا على مهل نحو القطار المظلم ، وصعدوا الى اماكنهم . اشعل المختص بالبرقيات قنديل الزيت ، واخذ يتصل بالمحطة المجاورة ، وتلفذ السائق والوقاد القاطرة ليتأكدوا من ان قطاع الطرق لم ينتزعوا شيئا منها . وصعد

روتشبين الى العربية . وتمت الجايب وهو يسحق بقديمه هشيم
 الزجاج المعظم على الرصيف :

- وهذا ما حصل . قتلوا المسكين ... فلو اخذوا العلاب
 وهدمها . ولكنهم يريدون دائما اذحاق روح انسان .

ومضت فترة اخرى من الوقت طويلة وغير معلومة . وصفر
 الجايب اخيرا سفرة قصيرة . واعولت القاطرة كالناشطة في السهب
 الخاوي . واتجه القطار نحو غولاى - بوله .

وضع فاديم بيتروفيتش مرقله على الطاولة المطوية ودفن
 وجهه في يديه . وراح يركز ذهنه كله في حل المشكلة : ان كانتيا
 فادرت روستوف في اليوم التالي مباشرة . بعد ان ابلغها اوتولى
 التذلل عن موته . ومعنى ذلك فان لقاءمع الضباط الالمان في القطار
 جرى بعد يومين . . . ولنفرض ان هذا الالمانى سرى عنها بدون
 اى محاولة للتلصع فيما يأتى . . . لنفرض انها كانت في ذلك اليوم
 في حاجة ماسة الى من يبعث في نفسها السلوان . ولكنها بعد يوم
 واحد من فقدتها لمن تحبه كتبت في دفتر رجل غريب . وبشكل متقن
 جدا . عنوانها . واسمها . واسم ابها دون ان تنسى ان تضع
 الفواصل بين العبارات . ان ذلك للفرغ الساء قد طبقت عليها .
 وزوجها المحبوب مطروح في مكان ما . كالجيفة . ان من الطبيعي .
 على ما يبدو . ان تصاب ببأس قاطع في الايام الاولى من ذلك .
 يظهر انها اعطت عنوانها على «شيباك اليريد» . ومعنى ذلك انها كانت
 تجد بضميما من الامل . . . فاي لغز !

- ايها المواطن . ارنى اوراقك - وجلس الجايب مقابل
 روتشبين . ووضع الفانوس المسخم بالقرب منه - حين نتجاوز
 غولاى - بوله يمكنك ان تنام باطمئنان .

- سأتزل في غولاى- بوله .

- اها . . . ذلك يزيد الامر ضرورة . . . السا الذى
 سيسالوننى : من احمل من الرقاب . . .

- ليست لدى اية اوراق . . .

- وكيف يكون ذلك ؟

- قطعنا ورعيتها .

- عندئذ يجب ان ابلغ عنك . . .

- بلغ . عليك اللعنة . . .

- ولم هذه اللعنة في مثل هذا الوقت ؟ - هل انت ضابط ؟

كانت افكار روتشبين مشدودة متوترة . فاجاب من خلال
 اسنانه :

- قوضوى .

- نعم . مفهوم . . . ثقلت الكثيرين من اخوانك مسبن
 بكارتونسلاف . - وتناول الجايب الفانوس . وامسكه بين رجليه .
 واطال النظر . حيث كانت الشرارات التى ترسلها القاطرة تتطاير
 وراء النافذة المظلمة . وقال بخفوة : - انت رجل
 متقف . فعلمنى كيف انصرف ؟ في السفارة اليابانية تكلمت
 ايضا مع قوضوى . وهو رجل وصيى اشيب وعق . قال لى : «نحن
 لسنا بحاجة الى السمك الحديدية . مستخدمها كلها بحيث تكون لسيا
 منسيا . فان السمك الحديدية تولد العبودية والراسمالية . سنقسم
 كل شيء على الناس بالنسوى . والانسان يجب ان يعيش على
 الطبيعة . وبلا سلطة . كالحوان . . . شكرا على ذلك . . . انا
 استغل على القطارات منذ ثلاثين عاما . وقد بنيت عن ذلك بيتسا
 صغيرا . في فالناروغ . حيث توجد زوجتى المعجوز مسع معزة
 وشعرتى غوخ في العديفة . وذلك كل ما املك . فما حاجتى الى
 هذه الطبيعة ؟ ان ارعى المعزى على المنعمر ؟ قل لى هل كان هناك
 نظام في الحكم السابق ؟ كان هناك استقلال . وانا لا انكر ذلك .
 لتأخذ عربة من الدرجة الاولى نجد الهدوء والاختتام . بعضهم
 يدخن سيقارا . وبعضهم يهزم بيهابة ووقار . فتحس ان هؤلاء
 مستغلون . ولكن لا تسمع منيايا صريحا . اعوذ بالله . . . فترقع
 يدك بالنتجة . وتمر في العربة بهدوء . . . اما في الدرجة الثالثة
 فالنلاحون . بالطبع . متكومون واحدا فوق الآخر . ولا مجال
 للخليل . . . كل ذلك كان موجودا . بالتأكيد . . . ولكن كان لديك
 ايضا دجاجة محمصة . ولحم خنزير مقدد . وبيض . اما الخبز فانت
 تذكر الارغفسة . يا صاحبي ؟ - وضمت ناظرا الى الشرير وراء
 النافذة - هذا محور يحترق في عربة الامتعة . بسبب انعدام الزيت .
 يعنى ان التقلبات في طريقها الى النهاية بدون تدخل القوضويين . . .
 والان قل لى ماذا سيحصل الان ؟ استبدلوا القيصر برادا . والرادا

باليهتمان ، والهيتمان بمن سيستبدلونه ؟ وماحتو ؟ اراد احد
 الحقني ان يصب سكين محراث ، فوضع الحديد على النار حتى ذوب
 نصفه وانلفه ، فقال لنفسه : لاصنع قاسا ، فاذا ب نصف البالي
 ايضا ، ولم يبق الا ما يمكن ان يصنع منه مقبعا ، فاخذ بطرقته
 بمطرقته طرقا شديدا حتى لم يبق شيء . . . وهكذا . . . لا
 نظام ، ولا خوف ، ولا سلطان . . . تستصل الى فولاي - بولسه
 وترى كيف يعيش الناس في ظل «النظام القوضي الحر» . شيء واحد
 يمكن ان اقله : انهم يعيشون في سكر ومتعة لم يسمع احد بمثلها
 منذ قديم الزمان . وقد اعلمت المنظمة كلها «بستان عنب» . وما
 اكثر الموصات اللواتي تقلقن الى هناك ! . نعم ، كلام بلغة
 الشيوخ ، فاعلرني ، ايها الرفيق القوضي : ان روسيا ضاعت . .
 اخذ الكتيسرون من الفلاحين الميسورين الذين انضموا
 في الصيف الى فصائل الالمان يفكرون الان في العودة الى قراهم .
 حملوا العربية بكل ما وقع من نصيبهم بالعدل من الغنائم ، وسولوا
 العملات المحلية المختلفة الى العملة القيصرية ، وشدوا المشمع
 بقوة على اشيائهم ، وربطوا سخانا في المحاور الخلفي ، وخرج
 بعضهم سرا ، وآخرون ذهبوا علانية الى الالمان : «وداعا ، يا سيد ،
 لست جنديا عندهك بعد الآن» - «ولم ذلك ؟» «مشتاق الى بيتي . لا
 اجده في رغبة في طعام او شراب او نوم . ومن تقتضي الحاجة مرة
 اخرى ، اعدنا ومساتي» ، وشدوا الخيول الجيدة ، وخرجوا الى
 الضياع ، والقرى والنواص التي تخلصت من ايواء الجنود الالمان ،
 وفكر الكسي كراسيلنيكوف ايضا في ذلك . تشاور مع
 ماترينا زوجة اخيه ، بل ومع كاتيا روتشينيا ايضا فيما اذا كان
 من المبكر العودة الى البيت ؟ الملمهم مسجدين في انتظارهم
 متفصتات . . فان من المتعذر التسلسل الى قرية فلاديميرسكويه سرا ،
 وقد تلقى عليهم مسؤولية قتل العريف الالمانى . والالمان قنوم
 جادون - ومن ناحية اخرى فالهم حين يهدون النار قد اتت على كل
 شيء سيضطررون الى بناء البيت ، وتنظيم العرافق . وكل ذلك يجب
 ان يجري الآن ، في الخريف .

ومختلف المتاع . وكل هذه الاشياء جمعتها ماترينا اكثر مما جمعها
 الكسي . فقد كانت تحضر الاجتماعات غير هياية ، حيث كانت
 فسيلة الاتمان او ماخو نفسه يقسم الغنيمة . وكانت دائما
 مهتمة جميلة مهتاجة فكانت تأخذ ما تريد . وعين كان احد
 الفلاحين يتعبا للجدال معها كان هدير الضحك ينبعث في كل مكان
 حين كانت تنتزع منه الشيء المتنازع عليه سواء اكان شالا او
 معطفا قرانيا او قطعة من القماش الجيد . وكانت تقول : «انسا
 امرأة ، وانا احوج الى ذلك . فانك ستبيعه لتشرب بشفة ، ايها
 اللص . ستاتي يسه الى ليلا . . . كمسا كانت تيسأل
 وتناقش . وكانت تحتفظ في العربة ببرميل من الخمرة لهذه
 الغاية .

تلب الكسي الافكار في رأسه ، ولم يستقر على رأي ، حتى
 وصل ليا سار ، وهو ان سكوروبادسكي الذي تغل عنه الالمان
 وقوانه نفسها قد تنازل عن الهيتمانية ، وان رجال بيتلورا دخلوا
 كريف ، واعلنوا فيها «الجمهورية الاوكرانية الديمقراطية» . وفي
 نفس الوقت تحرك الجيش الاحمر الاوكراني من الحدود السوفييتية .
 وكان الامر الاخير يوحى بالثقة التامة .

في الليل ، ودون علم احد جلب الكسي الخيول من السهوب ،
 وايقت ماترينا وكاتيا ، وطلب ان يعد الطيور بينما هو يشد الخيول
 الى العريبات . واكلوا حتى الشبع قبل ان يخرجوا في السفر الطويل .
 وقبل انفلاق الفجر ساروا خلال طريق وعر في الضباب قاصدين
 بيتهم في فلاديميرسكويه .

كان من الصعب ان يرى المرء في كاتيا روتشينيا المسافرة
 على عربة في مشرة من فراء الغنم ، وعطاف طويل ملطخ ، والربيع
 قد اسعدت خديها ، وتركتها كالعوخ ، ان يرى تلك السيدة
 الناعمة المتهينة عند اقل صدمة تصيبها في الحياة ، الى ان تعلم
 اطرافها مثل قطيعة مسكينة . كانت ، وهي نصف مستلقية على
 القش ، تسوط الحصان حتى لا يتأخر عن الخيول الثلاثة التي كان
 الكسي يسوقها على عربته فتندفع بين الحين والآخر في عدو .
 اما العربة الاخيرة فكانت تسوقها ماترينا التي لم تكن تثق حسه
 ماشيا كان او راكبا .

كان السهوب مقفرا . وكان الثلج يلوح في ثنايا الوهاد وقد حملته رياح كانون الاول من الهضاب المطباتية . وفي الاقل كانت ترتفع اهرامات بلون الصدا هي ما تغريه المناجم . والحياة لم تبدأ بعد في المنطقة التي عبرها المحتلون . وقد انضم الكثيرون من عمال المناجم والمصانع الى فصائل الحرس ، وهم الآن يعاربون قرب تساريسين . وهرب كثيرون الى الشمال ، حيث كانت وحدات الجيش الاحمر الاوكراني تتشكل عند الحدود السوفييتية . وقد نما العشب في الطرقات ، والاعشاب في حقول القردة المهمله ، حيث كانت اضلاع صفراء لغرس ميت تبرز من خلالها هنا وهناك . ولم يكن في تلك المنطقة غير النادر من البيوت .

كانت ماترينا تردد قائلة لاشي زوجها : «استعد عن الناس ، ولا تنتظر منهم خيرا . فكانا يكتفي بالضحك «آوه ، عملية . . . كنت امرأة عذبة . . . والان أصبحت مفترسة ، يسا عزيزتي ماترينا . . .»

وكان لكاتيا وقت وافر للتفكير ، وهي تهتز في العربة . وتفطم الفتي . كانت تدرك حق الادراك انها يحملانها الى قرية فلاديميرسكويه كغنيمة لكسي ايفانوفيتش ، ولربما هي اقل كل ما كان له مخلا على العرابيات الثلاث . ومن هي غير اسيرة من العالم المحظوظ سيقدم لكسي ايفانوفيتش على ركام بيته بيتا جيدا ، ويفصله عن الناس الآخرين بسياج قوي ، ويحسى في السرداب كل نقالسه ، ويقول بحزم : «كاترينا ديمترييفنا ، لم يبق الآن الا شيء واحد - الاخير - وانت صاحبة الكلمة . . .»

كانت الحياة يكتفيها تبدو لها كمدينة احرقها الحرب ؛ لكواما من الرماد . ومدائح موافد محروقة . مات الاحياء . ولا خير عن الاعزاء . قبل فترة تلت ماترينا رسالة من زوجها سيميون مرسله من سامارا ، كتب فيها ، فيما كتب . انه ذهب الى العنوان المذكور في الشارح الذي كان يسمى دفوريانسكيا سابقا . ولم يجد هناك دكتورا يدعى بوليغافين ، ولا احد يعرف الى اين ذهب مع ابنته . ولم يبق لكاتيا غير شخصين يشفقان عليها ويحبانها مثل قطيطة اليفة هما لكسي وماترينا . فهل من المعقول انها كانت قادرة على ان ترفض لهما امرا ؟

كان لا بد لها ومنذ زمن طويل ان تصير عجوزا محت الدموع بريق عينها بعد ان عانت تلك السنين الطويلة القاسية بالاحداث كفرن من الزمن . الا ان خديها كانا يتوردان اذا مستهما الريح الباردة قطط . وكانت تحس يدها كدف الشباب ، وحسى في فروتها . وكان هذا الاحساس بالشباب الذي لا يزالها يقمعا بالاسى ، فهل شاخ قلبها ؟ لم هو ايضا ليس كذلك ؟

وقد قالت لها ماترينا غير مرة : «ان الرب قد ربطها بهما ، والرب وحده سيحل هذا الرباط» . ولم يفرض عليها الكس مثل هذه الاحاديث قط . ولكنه في بعض المناسبات جازف بشدة لينقذ كاتيا من اذى مباشر متصرفا كرجل اراه امرأة يحرض عليها نفسه . وما كان في وسع كاتيا ان ترفضه ، فما كان لها ان تجد الكلمات لتبرر جرحها . ولكنها كانت تود الا يحدث ذلك اطول فترة ممكنة . كان لكسي ايفانوفيتش رجلا جذابا - كان الشمس تشع دائما في وجهه المفتوح الغليظ قليلا - وكان قويا رابط الجأش ، مستقيم الظهر . عريض الصدر ، شعره الغزير كالطرة . وكان جريئا متعقلا في ساعة الخطر ، يعامل كاتيا بنظية ورقة مشوبة بالمعابة . ولكن كاتيا ، حين تفكر في اليوم الذي لا بد ان تصبح فيه قريبة منه ، كانت تغض عينها وينكس جسمها كله . وكانها تود ان تدفن نفسها في الفس على العربة .

ذات مرة ، في وقت الغذاء ، انعطفوا عن الطريق الى جدول كون في تلك البقعة مجمع ماء صغيرا عليه اطلال طاحونة مائية وقصب مداس . ذهبت ماترينا لتجمع حطبا للئار ، وسارت كاتيا الى الجدول لتعسل القدر . وبعد قليل من الوقت جاء لكسي والفتى تبعته وفلازيه على العشب ، وجلس عند الماء قرب كاتيا ، وبلل وجهه بالماء ، ومسحه في طرف فروته . . .

- ستجدين يدك . . .

وضعت كاتيا القدر على العشب ، وولعت جسمها من على ركبتيها ، وقد احست بيديها تجيدان حتى العظام ، تقطعت عنهما قطرات الماء واخذت تمسحهما ايضا بفروتها . قال لكسي متوترا خشنا متحفزا :

- والمعروف فاديم بيتروفيتش لم يرد ايضا ؟
 قطبت كاتيا حاجبها ، وانماحت بوجهها ، ولم تجب .
 - كنت اريد ان اسألك منذ زمان . . . ان تجربتك
 كبيرة . . . كيف بدأت هذه الاشياء الحلوة ؟ هل قبلت زواجك ،
 اقصد خطيبك ، يدك ؟ تطرقا وعاما حول الامر ؟ كيف يجري
 هذا الامر عند السادة ؟
 وصلا الى العربات . التي الكسى على الارض عدة الفرس التي
 كانت على العربة ، القاعا بكل قوته ، وتناول قوس العرش من
 تحت العربة ، وامسكته الى العرش ، واخذ يسعد القدر الى
 نهايته . . .

- انت من الطبقة الراقية ، وانا من بيت فلاح . . . ولد
 التلينا في طريق شيق . وليس لك من عودة الى الورا . . . انتهى
 الامر ، والشئ الذي لم تعلقه راسا على عقب بعد ، سنقلبه حتى
 النهاية قريبا . . . وليس لك من مخرج غير ان تجدي سييدا
 جديدا . . .

- هل امست اليك في شئ ، يا الكسى ايفانوفيتش ؟
 - لا ، ايدا . . . انا الذي اريد ان اسئ اليك ، ولكنك
 كمناسي لا تكفي . . . فلاح . . . احسق . . . كم انسا
 احسق . . . انا اعرف ، اعرف . . . ان كل ما تعقلينه هو ان تنتهزي
 فرصة لشهري الى الخارج . . . احسن مكان ملائم لك . . .
 - كيف لا تجعل من ذلك ، يا الكسى ايفانوفيتش ا هل فعلت
 شيئا استحق عليه هذا الاتهام ؟ . . . انا مدينة لك بكل حياتي ،
 ولنا انسى ذلك ايدا . . .

- ستسسين . . . ارايت كيف تخاف ماترينا الناس ؟ وانا
 ايضا لا اتق بالناس . . . منذ عام ١٩١٤ وانا اصبح بالدم . اصبح
 الانسان اليوم حيوانا . ولعله كان من قبل ايضا ، ولكن لم تكن
 تعرف . كل واحد ينتظر ان يلقي الآخر من على سريجه . وانا ايضا
 حيوان ، ام لعلك لا ترين ، ايها الحمامة الودعة . . . انا اريد ان
 يعيش اطفالي في بيت آجري ، وان يتكلموا بالفرنسية احسن منك . . .
 باردون ، ميرسي . . .

- اظن ان الناس كانوا يقبلون يدك هاتين في العهد القديم .
 مدجته بنظرة صافية وكانها تسأله : ماذا حصل ؟ لم تكن
 كاتيا تعرف قط قوة جمالها ، وتعتبر نفسها ببساطة قلب حلوة ،
 واحيانا حلوة جدا ، وتحب ان تكون موضع اعجاب . مثل طائر
 صغير يفتش ريشه (حين تبدأ الشمس الوردية تشع على التدي
 الشاحب ناهضة بين جذوع الانجار) . ولكنها لم تكن عارفة بجمالها
 الذي جعل الكسى ايفانوفيتش الآن يصرق عنها عينيه بعد ان لعمتا
 لعمانا جافا .

- اريد ان اتول : عمدي قتيبة زيت عباد الشمس في العربة ،
 فادعني به يدك ، والافستشقق البشرة . . .
 وبدأت ابتسامته الهائلة المعتادة تطل على شفثيه المريرتين

تحت ضاربيه الاجمدين الخضنين . زفرت كاتيا مستروحة ، ولسو
 انها لم تفهم تماما كم كان قريبا في هذه المرة ذلك الشئ الذي لم
 تكن تريد . كان الكسى ، بعد ان ذهبت ماترينا لجمع الحطب ،
 يهدق في كاتيا الجالسة قرب الماء ، اما بتأثير التعاس وهو
 مشتاق على النفس في العربة المتأرجحة ، واما من سكنوا السهب
 الجاتم . وقد جاء اليها مثل صبي سجع فجاء صوت العصا تهبط
 على الواح العنيل عند النهر ، فحس ان الجارة برسوكا تغسل
 الضليل رافعة ثورتها وربلتا سابقها تيدوان بيضاوين شهيتين ،
 فاذا به ينسل اليها خفية خلال ثبات الارقطيون والقوام مستشقا
 بينهم جميع الروائح التي استعالت فجأة روائح مشقة . ولكن في
 هذه الحال لم يكن الخوف هو الذي اوقف الكسى ايفانوفيتش ، فان
 تخويله لم يكن من السهل . بل ان كاتيا بنظرة عينها الجميلتين
 الهادئتين قالت له : ليس هذا جيلا ، ولا لافقا .

وكان يسيطر على نفسه في مواقف اصعب من هذه المواقف
 التافهة ، ومع ذلك فقد كانت يداه ترتجفان وكانما بعد جهد بذله
 في رفع حجر طاحونة . تناول القدر من على العنكب .

- عيا اذن ، لنطبخ عصيدة - وانجها تحسبو العربات -
 بكاترينا ديميتريينا ، لقد تزوجت مرتين فلماذا لم تزفني بطفل ؟
 - هي الظروف ، يا الكسى ايفانوفيتش . . . زوجي الاول لم
 يرغب في ذلك ، وانا كنت حقا . . .

جات ماترينا تحمل بين ذراعيها عساليح وجدامات ، والقنفا تحت القدر المتدل من طرف العريش ، وامعت النظر في الكسي وكاتيا .

- لا يحق لك ان تكلمها ، يا الكسي - قالت بصوت خافت - هل رويت الخيول ؟

استدار الكسي ، واتجه نحو الخيول . واخذت ماترينا تضع الحطب تحت القدر :

- انه يحبك . كم غلبت له من الفتيات ، وهو لا يريه
وانا لا ادري ماذا يحصل لكما . صعب عليكما كليكما

انتظرت ماترينا ان تقول كاتيا شيئا . اخرجت كاتيا الحبوب المدقوقة ووضعت الخنزير صامتة . ويسطت قماشة على الارض ، واخذت تقطع الخبز .

- لماذا تصمتين ؟

زادت كاتيا من اطرافة راسها ، وهي تقطع الخبز . وتحدثت الدموع على خديها .

كانت سهوب يكاترينوسلاف الخصيبة الممتدة نحو البحر الاسود وبحر آزوف منطقة جديدة . لقد كانت من قبل تدعى بالسهب الوحشي ، حيث كان السكيتيون القصار البدناء الطوال الشعوب يتنقلون على خيولهم الشعاء ، خلال اعشاب تصسل الى اكتافهم ، والنجار الافرقي المعتمدون على حراسة موثوفة يتنقلون من الفيوبول الى تاناس . والقوط الرجل بعبراتهم الضخمة مسا بين البحرين يسوقون قطعانهم من الماشية . والى هذه المنطقة ايضا اندفعت من حدود الصين الشمالية جحافل هون المتعددة اللغات مثل سحب الجراد ناشرة الرعب الشديد حتى ظلت هذه السهوب مقلقة قروا عديدة ، ونصب الخزر خيامهم المخططة في طريقهم من دريند ليحاربوا روسيا الدنيبرية ، وطافت لباتل البولوغترين بقطعانهم الهائلة من الخيول والجمال ، وهم في قفاطيتهم العريضة الخوارزمية حتى وصلوا الى استحكامات سفياستلاف ، وبعد ذلك

بزمن وطاتها جحافل التتر بخيولهم الخفيفة متجمعين لشن الغارات على موسكو .

ومضت موجات الاقوام ، ولم تبق الا حدبات الفيور ، وعلى بعضها اصنام حجرية ذات وجوه مسطعة وايد صغيرة مطوية على البطن . واثلت سهوب يكاترينوسلاف تستوطن بزراع العسبوب الاوكرانيين والروس والغوزاق التناجيين منس الدون وكوبان والمستعمرين الالمان . وكانت جديدة عليها القسرى الكبيرة ، والضياع التي لا تعد وهي بلا عادات متوارثة . ولا امان قديمة ، ولا بساطين زاهرة ، ولا مروج مروية . لقد كانت منطقة قمح واصحاب اراضي اعمار حسنى الاطلاع على اسعار القمح في الخارج . كما كانت غولاي - بوله جديدة ايضا . بلدة صغيرة كثيفة ممتدة على طول نهر غايتشور المستنقى والناسب العيساء بين العين والآخر .

كانت المسافة بين محطة القطار وغولاي - بوله سبعة فراسخ عبر السهب . استاجر روتشين عربة «منطوق» اوصلته الى السوق الكبيرة الممتدة في مرجة . وفي السوق اخسدة فاديم بيتروفيتش يفاكس على دجاجة محمصة مع امرأة وثقة تجلس متفرجة الساقين على عربة بين الحرائج التي جلبتها من القرية للبيع ، وكانت هذه العراء التي لم تكن تجيد عملها تحدد فتدفع بضاعتها الى ائف المشتري تارة ، وتتنزعها من يده تارة اخرى ، وتشمته بصوت زاعق متلفتة في كثير من الحركة مخافة ان ينشل شيء من عربتها . طلبت خمسة روبلات تمنا للدجاجة المحمصة ، ثم عدلت عن طلبها في اللحظة التالية فلم ترد ان تبيعها بالفلوس ، بل بثلثة من الخيوط . قال روتشين لها :

- خذى الفلوس مني ، يا حقا . يمكنك ان تشتري الخيوط . هناك بيعونها .

- لا استطيع ان اترك العربة . اعد فلوسك الى جيبيك وابعد عن البضاعة

وبعد ذلك شق طريقه الى رجل في زي عسكري غزير الناصية ، مدمج بالسلاح كان يسير في السوق ويفز على كفيه

لفتح من الخيوط . القر نظرة ككرة على روتشين ، وحرك شفطيه المتورمتين قائلا :

— لا اقايش الا بالكحول .

وعلى هذا النحو لم يستطع روتشين شراء الدباجة . كان اكثر ما يجري في السوق هو تجارة المقايضة ، والابتزاز الخالص ، حيث السمر يتخذ بالدباجة ، فكانت الابرتات تقايض بخنوس ويشي آخر زيادة ، اما البنطلون الخالي من الرقع فكان يحوك البائع مع دم المشتري . كان مئات من الناس يتاجرون ، ويصرخون وشتمون آخذين طرفهم بين مجموعة كبيرة من العريسات ، وفي نفس المكان كان الحلاقون يقدمون مقعدا او حى عجلة وقد اشروا ادواتهم امامهم ، وكان المصورون المتجولون ومعهم آلات تصوير وتحميض آتية تلق على ثلاثة ارجل يقدمون للزبون بعد خمس دقائق صورته الفوتوغرافية مبللة ، وكان عازفو الكمان العميان معاطين بالتسمةين غير متورعتين من مد ايديهم في جيب اخمصك يتشاب . . . وكان جميع هؤلاء الناس مستعدين ان يقلعوا من اماكنهم في اقصر وقت ، ويتفرقوا ويختبئوا اذا ما بدأ قرأتسقي جدى بالنار وهو امر لم تكن اية سوق في فولاي — يوله تسلم منه ، اخذ فاديم بيتروفيتش طريقه بين العربات . فوجد نفسه في جمع متهلل قرب دواره ، اناس ذوو شوارب في بزة الفرسان ، وفي ستر البحارة ، وفي معاطف الخيالة الصميرة مسلحون بالقناويل البدوية ومختلف الاسلحة الباردة والحارة . كانوا يجلسون في اعتبار ويدورون على احصنة خشبية لها اعناق ممدودة بصورة خيالية والذمام طالرة . وكان احدهم يردد بصوت عال النبرة متعرج : «سرع ، اسرع» . وكان شخصان في ثياب رثة يدبران الدوارة بكل ما لهما من قوة ، وعازقان على الاكورديون يعزقان لعن «الفتح» محركين المتفاح بضراوة ، وكانتا ليستوعبا كسل ما في نفوس احرار ماخنو من سعة وجراة . صاح الذين كانوا ينتظرون دورهم : «كفاية ، ازلوا» «فزار الدائرورن على الاصنعة «اسرع» . وهنا طارت قبعة احدهم من على راسه ، وفي نشوة الانشراح جرد شخص سيفه ، وضرب به الهواء وكأنه يقطع به رأس عدو موهم . وعندئذ اندفع الفولون فجأة وجذبوا الجالسين على الاصنعة والدوارة

والرثة . وحدث هرج ، ودمعت قبضات مع صليب صافرة ، ثم دارت الدوارة من جديد ، وتوهم الفرسان الجدد على الاحصنة بتأخيرها المتسعة المحرمة .

ابتعد فاديم بيتروفيتش اذا لم يعد هنا احدا متعلقا كان من الممكن ان يتحدث معه . اشترى من بائع متجول قطعة فطيرة فيها جينة هشة ، وسار . وهو يصفقها في شارع عريض مصفوف بالطلاط . لم تبق لديه الا فلوس قليلة ، واذا قيس الامر على ما دفعه ثمنا للفطيرة فانها لن تكفيه اسبوعا واحدا . كان ينظر بسهم الى البيوت الاجرة ذات الطابقين من تلك التي يبنوها التجار ، والى حوانيت العنطة ، والمداككين ، والى اللافعات الزاهية . كان يضع ويفكر بسهم ايضا : ان توافه الحياة لم ترهيه كثيرا بعد ان وثب الى الحرية الثالثة .

قابله رجل يركب دراجة عجلتها الامامية متغلغلة . سم عسكريان يركبان فرسين يرتديان سترتين جركسيثين بلا اكمام وقبعتين مائلتين من فراء الاغنام . وكان راكب الدراجة الصغير التحيل يرتدى بنظالا زغاديا وستره مدرسية وكان شعره السبط يكاد يصل الى كتفيه من تحت قبعة مدرسية زرقاء ذات ظليلة مؤطرة بالابيض زرقاء . وحين حاذى فاديم بيتروفيتش رأى بدهشة وجهه الناحل المعدوم الحاجبين . حدج روتشين بنظرة نافذة وعالت العجلة في تلك اللحظة ، وتماسك راكبها بصعوبة مضطنا وجهه الاصفر الشيبس ، ومر به .

بعد دقيقة ادار احد الفارسين فرمسه ، وخب به نحو روتشين ، والعتى على سرجه متنعنا فيه بحدقتين متحركتين . سال روتشين :

— ما الخير ؟

— من انت ؟ ومن اين ؟

— من انا ؟ — واتضح روتشين وجهه من رائحة البصل والخمرة البيشية القوية — انا رجل مستقل قادم من يكاترينوسلاف .

سال الفارس بلهجة تهديد :

— من يكاترينوسلاف ؟ ولاى فرض انت هنا ؟

— جئت لاحت عن زوجتي .

— تبحت عن زوجتك ؟ ولماذا خلعت كتافيتيك ؟

اجاب روتشين باكير قدر استطاع من الهدوء وهو يكتلم
قبضه :

- اردت ذلك ففعلت . لم استاذن منك .
- انت ترد بجرأة .

- وانت ايضا لا تخوفنى ، فانا لست من الغافلين .
طوف الفارس بصره في وجه روتشين باحثا عن جواب . ورفع

قامته فجأة . ولاحت ابتسامة وقحة على وجهه المستطيل المشوه
بانتلال التناسق . ولكن حسانه بهمازيه ، وعدا نحو راكب

الدراجة . استمر روتشين في سيره متعترا من الانفعال .
ولكن اولئك الثلاثة لحقوا به في الحال . صاح راكب الدراجة

ذو السترة المدرسية بصوت عال يهتف الاذن :
- لا يريد ان يتكلم معنا . ولكن سيتكلم مع لوفكا .

ضحك الفارسان ضحكا حاضحا . واطبقا على روتشين
يفرسيهما من الجانبين . وهو راكب الدراجة متقدما الى الامام مديرا

الدواستيق بكل ما لرجل سكران من عول . وزدد الفارسان «امش ،
امش» مجبرين روتشين على ان يمشى تقريبا بين

الحصانين . وكان من الميث التخلص او الاحتجاج . ثوقلوا في نفس
الشارع عند بيت اجرى ذى حديقة صغيرة وطاقها الاقدام . كانت

ثواقذ البيت مطلية بالطيناسير . و فوق الباب يتدل علم اسود تحته
قلعة من الخشب الابلكاش كتب عليها : «المركز الثقافي التعليمي

للجيش الثورى الشعبى للاتمان ماخنو» .
كان القبط قد نحس على ذاكرة روتشين حتى انه لم يتذكر

كيف دفع الى البيت . واقتيد عبر ممرات مظلمة الى حجرة تقاتر
فيها البضاق والقدارة لها رائحة شديدة العوضه تكلم الاناسى .

ودخل في الحال رجل ميمس لامع الوجه يترنج قليلا لبدانته يرتدى
سترة قصيرة من تلك التى كان يرتديها في الاقاليم المعروفون من

الموسيقيين والمغنيين الكوميديين .
- اذن ، ما الامر ؟

سأل الرجل وجلس عند طاولة مهزوزة بعد ان ازاح اعقاب
السيكار من عليها .

قال له ذو الوجه المعوج الذى صحب روتشين :

- امرنا الاتمان ان نعرف هل هو وقد ام شىء آخر .

- الشرح الاذن ، يا رفيق كاريتنيك (وبعد ان خرج هذا)
اجلس الاذن .

قال روتشين متعللا للرجل الميمس البديسن ذى السترة
القصيرة :

- اسمعنى . انا اعرف اننى وقعت في ايدى الاستخبارات .
وانا اوضح لك من انا ولماذا انا هنا . فليس في ما اغفبه

جئت لكى
- انظر الى - قال الرجل ذو السترة دون ان يصفى اليه -

انا ليفا زادوف . ولا داعى للكذب على . ساستجوبك وسترد على
استجوابى .

وكان اسم ليفا زادوف معروفا في الجنوب بما لا يقل عن
الاتمان ماخنو نفسه . فقد كان ليفا (لوفكا) جزاوا . ووجلا شديد

البطش بشكل مذهل حتى زعم ان ماخنو حاول غير مرة ان يقتله .
ولكنه كان يعفو عنه لولائه . وكان روتشين قد سمع عنه ايضا

واحس لاول مرة بالدم يجعد في عروقه . كان يقف امام الطاولة .
لوفكا زادوف يجلس ابعد الشمر ليزيره . مورد الغدين ، مثلنذا

بسلطانه على رجل بث فيه الرب .
- اذن ، تكلم ، هل انت من ضباط ديتنيكين ؟

- نعم . سابقا
- سابقا ؟ اى ، اى ، اى . . . من اين انت قادم ؟

- من يكاترينوسلاف الى هولوى - بوله . ها انا اقول لك
- اى ، اى ، اى . . . لماذا تقول لليفا انك قادم من

يكاترينوسلاف . بينما جئت من ووستوف .
- لا . جئت من يكاترينوسلاف .

واخذ روتشين يبحث عن تذكرة المنفسر بعجالة . وسرت
البرودة في جسمه ثانية . فقد يكون قد رامها . وتبين ان التذكرة

في جيب القميص مع سورة فوتوغرافية باهتة مدفوعة لكتايا . قدم
التذكرة الى لوفكا . فقلبها هذا وقتا طويلا . ودققها في الضوء .

لقد كانت التذكرة صحيحة على اية حال . وهذا ما حير لوفكا قليلا .
وكان قد توصل . على ما يبدو . الى اعتقاد . بل وحدد الحكم .

وغيرت التذكرة الامر كله . وكلف لوفكا عن تكثيرة السغربة ،
وارتمعت شفتاه الغليظتان بزرابة :

- ما الذي جعلك تتوقف في فولاي - بوله اذا كنت تحمل
معلومات استخبارية الى قيادة دينيكين ؟

- انا لا اعمل معلومات استخبارية غادرت الجيش منذ
شهرين ، وتركت الخدمة . ومزقت الهوية العسكرية . وقد جئت
الى هنا كرجل غير مرتبط

لم يصرف لوفكا عنه عينيه السوداوين . وبذل روتشين كل
بهدء ليكنج الفعالة ، ويجب اجابة مروى بها ، وهو تحت هذه
النظرة الغالية من اي شيء مقول وانساني ، فانثما يتحدثت
(بتبسيط وسهولة ادراك) عن الاسباب التي دعته الى الهروب من
الجيش

قاطعه لوفكا بصوت عادي :

- لو تكلمت على ايها الولد ، مرة اخرى للعلت بك ما لم
يلعله احد

وبحركة سريعة لصومية انتشل من روتشين صورة كاتيا ،
وتعان فيها مبتسما مثل رجل عليم بالنساء ، ولقر عليها باظفره
وقال :

- من هذه الكلبة ؟

- زوجتي جئت من اجلها اعطيت الصورة . . .
- ستوضع فوق جنتك الدائمة - وغطى لوفكا الصورة
بيده البدينة - والان ، هيا حدثني عن معلومات استخبارية . . .
صاح روتشين :

- لن اتول كلمة اخرى لك بعد !

- ستقول لي ، فانثاس يثلقون عندي .

ورفع لوفكا جسده قليلا ، وضرب قاديم بيثروفيتش على
وجهه مثلما يضرب القط بمخلبه . وانثما التسديد فوقعت الضربة
على الصدع . ووقع روتشين مغشيا عليه .

كان اعداء الجمهورية السوفييتية يصورون انها محكوم
عليها بالسقوط في ايام وقت تحت ضربا لهم . الا ان هذه

الجمهورية نظمت كل رهافة العقل والعلم ، وجميع قوى الشعب
الروحية والمادية لتتحول هي نفسها الى الهجوم . وكانت غلطة
البلاشفة العسكرية من اغضاع كل شيء لهبات الدفاع ، دون
التراخي ساعة واحدة في القيام بالثغرات الاجتماعية العميقة ،
مطبقة بشجاعة المبادئ التي كان تحقيقها خارج نطاق عمل اليوم .
ومن ثم : انشاء جيش اممر قوامه ثلاثة ملايين رجل ، وتنظيم حياة
في الشمال ، والقيام بهجوم في سيبيريا وجنوب الاورال ، وتشديده
العمليات الهجومية بشكل رئيسي ضد قوزاق كراستوف على
الدون ، وضد دينيكين في شمال القوقاس .

واقامت جمهورية روسيا السوفييتية الواقعة تحت ضغط
الجيوش البيضاء ، من كل الجهات جبهة طولها اكثر من خمسة عشر
الف كيلومتر ، احبفت اليها بعد ذلك جبهة معقدة ومتركة هي
الجبهة الاوكرانية .

واشتهت اوار الحرب الاهلية بشكل خاص في اوكرانيا الفنية
التي احدث الاحتلال الغريب العهد والحكم الهيثماني عودة اصعاب
الاراضي الانتقامية تصدعا عميقا بين الفئات المختلفة من سكانها .
فانجذب العمال وعمال المناجم في الدولاس والفلاحون ذور الاراضي
الصغيرة والعمال الزراعيون الى السلطة السوفييتية ، بينما انحاز
الفلاحون الاغنياء والبرجوازية الى المديرية المستقلة ورئيسها
الامتان بيتشورا خالفين من اللجان الثورية ، ولجان قسراء
الفلاحين ، واللجان التنفيذية ، والمفوضين ، ومصادرة فائض
الحبوب . وكان بيتشورا موضع تأييد ايضا من المثقفين الذين
كانوا يردون على موضوع الثورة السوفييتية بكل ضخامته :
«خرجوا ! ايها اليوسكوفيون الملاعين !» وغطت الرومانطيسية
القديمسة لسراويل الفضفاضة بعرض البحر الاسود ، والعبادات
الفوزائية ، والسيوف المعقوفة وتوامس الشعور الطويلة على
المخالفات التاريخية الخزينة حول التضحيات الدموية للشعب الاوكراني
الذي تاخذل خلال ثلاثة قرون في سبيل استقلاله .

طرد بيتشورا الهيثمان ، وتبوأ المديرية في كييف ، واعلن
جمهورية مستقلة ، وبدا يخوض لاضالا ميثوسا منه ضد الثورة
البروليتارية . وكانت له بعض الفرق المؤلفة من جنود الهيثمان

وكان ماكرًا كتروما مرواغًا مثل وحش تعرض مرارًا لمخاطب
الصيادين .

كان ماشو يتكسب الوقت . في تلك الأيام كان عليه ان
يتخذ قرارا كبيرا الاهمية . لقد فرغت يكاترينوسلاف من الالمان
والهيتمان ورجالهم الذين كان يحاربهم . وولى اصحاب الاراضى
حاربتين . وكانت المدن الصغيرة قد نهبت . وكان اعداء جنود
يزحفون عليه من ثلاث جهات : المتطوعون من القرم وكوبان ،
والبلاشفة من الشمال ، ورجال بيتلورا الذين احتلوا يكاترينوسلاف
لتوهم ياتونه من الدنبر . فمن هو الاقوى من هؤلاء ؟ والى اية
جهة يحول عربات الرشاشات ؟ كان يجب اتخاذ القرار دون تأخير .
كان الجيش يقبل افرادا . وتظهر مظاهر الزعزعة عليه . وكان
الجنود من الفلاحين يزرع الحبوب يقولون : « من حين العطف ان
البلاشفة قادمون الى اوكرانيا والان يمكن ان نتفرق الى بيوتنا ،
ومن لم يسام بعد فليضع النجمة الحمراء على طاقيته » اما نواة
الجيش «المائة السوداء» المسماة على اسم كروبوتكين رجال السيف
الشجعان الذين انصرفوا عن كل عمل من اجل الحياة الحرة متمطين
ظهور الغيل . فقد كانت تصيح :

« . . . لنن اراد الاتمان بيعدنا لبلاشفة لقطعنا راسه امام
الجهة . وكفى . . . ها هو بيتلورا قد استسول على
يكاترينوسلاف . اما نحن فليس لنا الا الانتظار . . . نعد طعامنا
واسبعنا حفاة عراة . وبعد قليل سنعوى في السهب مع الذئاب . . .
يا اخوان ، الى يكاترينوسلاف ! »

ظل البحار تشوغاى الوديع من القائد العام للجيش الاحمر
الاوكرانى ثلاثة ايام في غلواى - بوله ينتظر شبات اعصاب ان يصح
ماشو الى نفسه ويتحدث معه . وفي هذه الايام قدم من خاركوف
الفيلسوف الشهير عضو امانة الاتحاد الفوضوى المسمى «الناقوس»
ليتحدث الى الاتمان ايضا . وكان اعضاء المجلس العسكرى السياسى
لماشو . والفوضويون المحليون . والمستشارون القريبون
يخصمون الاتمان اينما استطاعوا . ويعزرونه عن
غيرة حتى لا يصفى الى احد . وان يتمسك بالحرية العليا
للشخصية .

الذين انجازوا الى جانبه . ومن الغالبيين الثابتين المنضبطين الذين
كانوا يؤمنون بتحقيق الحلم القديم في اتحادهم مع اوكرانيا الحرة .
ومن مختلف اصناف المفارمين الذين كانوا يطعمون انفسهم من
النهب العربى . ولكن لم يكن لبيتلورا القصد الكالى من الذكاء
والدهاء يجعله يقترح لاوركرانيا الفلاحية المجرة الى فئات . والهاجة
شيئا ملموسا غير الحراسيم الفخاخة . كما لم تكن له احتياطات .
في كانون الاول الفت حكومة اوكرانيا السوفيتية السرية في
بلدة سودجا من مقاطعة بولتافا . وقد ارسل رئيس المجلس
العسكرى لئنساريتسين فوروشيلوف قائد الجيش العاشر الى سودجا
ليتنضم الى الحكومة . وشكل مجلس عسكرى ثورى في البلدة .

وفي ذلك الوقت بدأ الجيش الاحمر الاوكرانى النظامى الهجوم في
الغرب باتجاه كييف . وفي الجنوب نحو خاركوف ويكاترينوسلاف .
وكان هذا الجيش قد تشكل عند كورسك قبل هذه الاحداث بوقت
طويل . ولعالية رجاله من الفلاحين الاوكرانيين الهاربين الى هناك
من المحكبة والاعداء . وكان يتألف من فرقتين . ولما كانت الفرقتان
ليستا بالقوة الكافية تماما فقد عول على تأييد فصائل الانصار .
وكان جيش الاتمان ماشو اكثرها قوة .

كان ماشو يلهو . كان يجوب المدينة كلها على دراجة
عارضا نفسه في بزة مدرسية حصل عليها بعد الغارة على
برديانسك ، او يغنى الاغانى على الاكورديون مترنحا في
الشوارع مع مرافقه كاريتشيك ، او ياتى الى السوق لفضوسا
مستقفا باحسا عن المشاحنات ، الا ان الجوع كانوا
يتحاشونه عارفين البساطة التي يخرج فيها مسدسه من جيب بظفاله .
وكالعادة حين رآه رجاله الجسورون الذين لا يخافون الله ولا
السيطان على مقربة من الدوارة تزلوا من احسنتهم الخشية .
وانسلفوا متواركين . فنتسى للاتمان ان يركب وحده الدوارة بصحبة
كاريتشيك ويدور بها حتى يصاب بالدوار .

وشاح في غلواى - بوله كلها ان الاتمان اعد في السدة
الاشيرة يكثر من الشراب . حتى ليخشى ان يبيع الجيش ويشرب
يشته . ولكن القليلين من الناس فقط حدسوا انه يضمير مكيدة .

كان ماخنو يردد انه ما لم يتخذ قرارا حازما ملائما للجيش فان قضيته ومجده سينتهيان . والان كان امامه خياران : اما البيل نحو البلاشفة . والعمل بمسأ يامر به القائد العام . ثم الانتظار . في آخر المطاف . الساعة التي سيرمونه فيها عقابا على تصرفه الفردى . واما قتل الموقد تشوغاى . والارادة الانتفاضة فلاحية في اوكرانيا ضد كل سلطة . ولكن هل الوقت مناسب لذلك ؟ ربما يكون على خطأ . . .

وكانت هذه الافكار سرية جدا حتى كان من الخطر ان يفضى بها حتى الى الكلدان الوفيين : لوفكا وكاريتشك . وكان يحس بالضيق من هذه الافكار . كان الجيش ينتظر . والموقد تشوغاى والفوضوى الشهير الشيخ الجليل القادم من خاركوف ينتظران . وكان ماخنو يشرب الخمر . دون ان يفقد توازنه . ويتحاشى ويعبت لغاية مقصودة . فقد كان يصبر حادا ويسمعه مرهلا . فكان يعرف كسل شى . ويرى كل شى . وكان الغيظ يغلي في داخله .

كان ماخنو قد امر باعتقال الرجل الغريب الذى كان يرتدى معطف الضابط . والذي ادعى بانه قادم من يكاترينوسلاف . وطلب ارساله الى لوفكا . وبعد ذلك بولت قصير حضر ماخنو نفسه الى المجلس التتاقى التعليمى ودخل مع دراجته الى الحجرة التي كان يجرى فيها الاستجواب . بعد الضربة المغالطة التي وجهها لوفكا زادوف الى روتشين جلس لوفكا وراء الطاولة . ووضع قبضة فوق قبضة . واستند خنكه عليهما . نظر ماخنو الى الرجل المطروح على الارض . واستند الدراجة :

- ماذا فعلت معه ؟
- ربت عليه فقط . - اجاب لوفكا بذلك .
- احقق . . . هل قتلته ؟
- لست جراحا . فكيف لي ان اعرف ؟
- هل استجوبته (هو لوفكا كتفيه) هل حسو من يكاترينوسلاف ؟ ماذا يقول ؟ من استخبارات دينيكين ؟
وكان ماخنو يحدق بلفوفا تحديقه شديدة غير معتملة حتى ان عينى لوفكا احتجبتا تحت حاجبيه .
- لا بد ان لديه معلومات . اين هي ؟ انت تلعب مع الموت . . .

- بدأت من توى . يا نستور ايفانوفيتش . . . لم اكن اعرف ان الوعد بهذه الدرجة من الضعف .
اجد روتشين ينن في تلك اللحظة . وطوى ركبتيه . قال لوفكا فرحا :

- لا شى . اعصاب .
امسك ماخنو الدراجة . فوقع بصره على صورة كاتيا ملقاة على الطاولة . اختطفها وتمعن فيها :

- اخذتها منه ؟ من هي ؟ ذوتها ؟
كانت نستور ايفانوفيتش ذاكرة جيدة . مثل جميع الناس ذوى الارادة القوية والتركييز والشكاك والتجربة الكبيرة في الحياة . فقد تذكر على الفور رؤيته لكاتيا لاول مرة (حيث جعلها تطل اطرافه) وتدخل الكسى كراسيلنيكوف وكل المعلومات التي استغناها عن هذه المرأة الجميلة . وضع الصورة في جيبه . وفاد الدراجة . وتوقف . فقد راي وجه روتشين تعود اليه الحيوية . وقمه يفتح قليلا .
- اجلبه الى . سامستجوبه بنفسى . . .

فكرة واحدة ترسخت في ذهن نستور ايفانوفيتش في ايام اللهور هذه . وهي ضرورة الغرؤج بالجيش الى يكاترينوسلاف . واجتياحها بالقوة . ورفع راية الفوضوية على دوما المدينة . ان مثل هذه الغنينة ستقوى عزيمة الجيش وتلاحمه فان يكاترينوسلاف مدينة لغنية تكفى منتوجاتها من الانسجة والاشياء الاخرى ولاية كاملة . بحيث يمكن ان تلقى على القرى والارياق من عربات القطار والعجلات قطع الاقمشة والأجواح . وينثر السكر بالاراضى . ويلتعدق عن الغننيات بالاشربة والجدائل والجوارب الاحذية : «هذه لكم . ايها الفلاحون . هدايا من الاتمان ماخنو ! هذا هو النظام الحر اللاسلطوى . بلا اصحاب اطمسان ولا بريجولزيين . بسلا سوفيتيات ولا اجسان استثنائية . . .»

اما سائر الاشياء فلم يجد لها حلا بعد . والان . وبعد ان التقى نظرة على صورة كاتيا وجد الحل فجأة . وقد قلب الى ذهنه مثل عفريت الزنبرك في علبه من لعب الاطفال . ولكنه لم يبد اي شى . يدل على ان كل شى فيه كان يرتص طريسا . . . ركب الدراجة . وسار في الشوارع الى بيت طويل ذي نوافذ كبيرة في مقدمته اشجار حور عارية .

كان هذا البيت مدرسة كانت تستخدم مقرا للعبادة . وكان مرافقوه وهو نفسه يعيشون في غرفة واحدة .

بعد مضي ساعة جليبا روتشين اليه . كان لوفكا يسير امامه ، وخلفه رجل من رجال ماخنو يضع على راسه قبعة فرائية صنعت من يالة مطلف قسيس ، عليها شريط اسود مائل كان يدفع روتشين من ظهره بمانورة مسدسة . كان ماخنو جالسا على اريكة صغيرة غطيت بقباض خشن تشقق حتى برزت اللوالب من تحته . صاح بصوت عال :

— ما هذا ؟ كانكما تقومان بدور الجنود في المعهد القيصري ؟
اترك السلاح ! اخرج .

ودفع بوجهه الاصفر الهزيل من اسفل الى فوق يشير الى الرجل بالخروج (فامتثل هذا في الحال ، وضرب الارض بحداه ، وخرج) نهض ماخنو من الاريكة . وضم قبضته اليابسة وضرب لوفكا على وجهه ، وشفتيه والله .

زعم :

— جزا ! سكير ! مصاب بالسفلس ! تلوث الفكرة !
وتلوثني !

لم ينتشر لوفكا زادوف اهتمام الغضب في صدر الاتمان ، اذ كان يعرفه جيدا . بسل حشر راسه بين كتفيه السميتين وحمى لفسه بيديه من الضربات ، ولاذ خلف الباب ، وانلقه خلفه .

خلع ماخنو قبعته . كان جبينه عريسا . وجلس ثانية على الاريكة . ولو كانت لديه منسعة ليدا مترهبنا تزمتا كليا .

— تفصل بالجلوس — وأشار بيده الطويلة الى مقعد ليجلس عليه روتشين — لو نظرت الى زميك فان ذلك لا يغير من الامر شيئا . انه عار . عار ان تهان الكرامة الانسانية . خذ سيكارة ، ودخن . هل انت من الاستخبارات ؟

— لا .
قال روتشين بصوت لا رنة فيه وتبسم ابتسامة ساخرة .
وتناول سيكارة .

— من ضباط جيش المتطوعين ؟

— عريت ، وانتهيت منه . على اية حال لن تصفق بما ساقول لك فلا داعي للكلام .

— الناس لا يكذبون على — قال ماخنو بنفس الصوت العال ذي الثيرة المشيرة التي كان من الصعب تسجيله بعلامات التوتة . وخيل لروتشين انه يشبه صوت طائر جارح وكرر ماخنو : «الناس لا يكذبون على» وكانت عيناها الجافتان الجامدتان تعكسان قوة ارادة بالغة حتى كان ليصعب النظر اليهما ؛ وما كان في مقدور انسان ان يتحمل نظرهما دون ان تترقق عيناه بالدموع . ومع ذلك فقد تحملها روتشين . احسن براسه يتصدع بعد حادث الاعمى . وغالب هذا الالام ، وجمع كل قواه للمناوشة الاخيرة .

— اذا كنت بحاجة الى معلومات عن جيش المتطوعين فلك ان تسأل . ولكن معلوماتي قديمة . خرجت في اجازة منذ شهرين . وفي هذا الربيع قمت بعمل غير صحيح ، ثمنه حياتي . . . انت ستنتوي رمي بالرصاص . سواء بهذه الطريقة او ياخرى . الان او فيما بعد فانني لن افلت من مصاصة مستكون من نصيبين يسبب غلظتي . . .

لاحظ في عيني ماخنو واختفت ومضة من السخرية . . . «انه لا يصدق بي . . .» وعص فاديم بتروفيتش نفسا عميقا مسن سيكارته . ووضعها على حافة المنضدة . ودس يديه في حزامه : «تصدق بما اقوله لك . . .»

— قبل كل شيء : كيف انضممت الى معسكر البيض ؟
تصدحت مثل لثاعة على منحدر . . . حسنا ، كنا متلقين روسيا ، يعني : ملج الارض ، وقد قرانا ميخائيلوفسكي وكانت وكروبوتكين وحتى بيبل الى جانب الكتب الاخرى المهدنة . وانا اذكر كم ليلة مؤرقة لظيبتها في مثل هذه الاحاديث مع الكسي بوروفوي * (وحدث ما توقعه عند ذكر هذا الاسم ، فقد نامت فينا ماخنو في الحال كالحقائرين ، ولكن للحظة واحدة لا لغير) كنا مضمين بالتوقعات العاصمية . ثم جاءت ثورة شباط ! وانتهى كل ذلك بشيء حامض

* الكسي بوروفوي : منظر فوضوي في ذلك الوقت ، معروف بين الفوضيين المحيطين بماخنو .

المذاق : فبدلاً من العيد الضخم رأينا البولفارات تنتشر فيها تقشور
بذور عباد الشمس ، والبخارة والجنود والهرج ، ولم نر بلادا عظيمة
بل لينة ، وعصيدة دشن بلا ملح . . .

تتمثل ماخنو على الأريكة ، وفجأة ودون أن يظن أن ذلك ،
جلس وكأنه في اجتماع عمال سرى في عيد أول أيار ، محتضناً ركبتيه
الهزليتين ، بل ولاح في عينيه ما يتم على الانتباه .

- وظهر ان المثقفين خارج الموضوع . اما في اكتوبر فقد
امسكونا من مخايننا كالقطب الصغيرة ، والتوتا في المزيبة . . .

وهذا كل شيء ، وجه التصبيل وجيش المتطوعين مزيلة عمسوم
روسيا . انه خال من كل شيء انشائي وحتى لا يمكن أن يكون فيه
شيء مزمع . ولكنه قادر على ان يدمر . بل وبشكل خطير . . . ومن

المؤسف انني وعيت كل ذلك في وقت متأخر . . . ولكنني سعيد
في انني وعيت . . . ذلك هو الامسر . يا نستور ايفانوفيتش . . .

(وقد خرجت تسميته باسمه واسم ابيه بشكل طبيعي) . . . وما كان
في ان اطل على قيد الحياة ، ولم ارد ذلك . . . ولكن هناك مخلوقا الخي
عندى من كل الفلسفات ، واقل من شميري . . . وهو الذي
اوقفني . . .

- اهر هذه ؟

سأل ماخنو فجأة متسيرا الى الصورة .

- نعم هي .

- خذها ، فانا لست بحاجة اليها . . .

أخى روتشين صورة كاتيا في جيب قميصه . وتناول غلب
السيكارة ، ودخن . ولم تكن يدها ترتجفان . ولم يفقد سيبساق
الحديث :

- مررت الهوية العسكرية ، وجئت الى هنا مقتنيا اترها .
وما دمت قد عدت الى الحياة من جديد ، فمرحبا بالعودة الى الفلسفة
والايدولوجية . فنحن لسنا من ارباب الحرف . . . والشئ الوحيد
الذي اتقبله . . . بشكل مجرد كلياً ، بالطبع ، بشكل مجرد . . .

هو الحرية المطلقة ، الحرية الثالثة . . . ولكن جنونية ،
مستحيلة . ومع ذلك . . . يجب ان يموت الانسان في سبيل شيء
ورا ، حدود الخيال .

قال ماخنو خافت الصوت :

- على اية حال اعطني الاستخبارات التي لديك ، اين خباياها ؟
توقف روتشين ، وادار راسه ، وهن ذرافه يوهن ويأس .

ظل ماخنو وقتاً طويلاً على الأريكة لا يريم حراكا . وفجأة وثب ، واخذ
ينبش في كومة من الاشياء في ركن الحجرة - اسلحة واسرحة وعدة
وعقائب ووقية . . . ويوجد بعض المعلبات ، وزجاجتين من الكحول ،
ووضع كل ذلك على المنضمة ، ثم اخذ يدبر المفتاح ليقتح علية

سردين . قال :

- سأخلك الى القيادة . زوجتك في السرية السادسة عند
كراسيلنيكوف في ضيعة بروخلادني . وسياتي موفد من البلاشفة
بعد قليل الى هنا ، ادخل في ظنه انني متواطئ مع جيش المتطوعين .

ان مهمتك ان تضلله . مفهوم ؟ هل تلعب الورق ؟

وبهت فاديم بتروفيتش في هذه المرة عن حق وظل يرمش
بعينه فقط دون ان يحاول حتى ان يفهم كيف انقلب الامور هذا

المنقلب ، وما معنى هذا كله . كسر ماخنو مفتاح علية
السردين ، واخرج من جيبه مطواة من مسرق اللؤلؤ لها عدة
شفرات ، واخذ يستعملها في فتح علب من الالاناس ، ومعبسوں

اللحم الفرنسي ، وسراطين البحر ، ففاحت روائحها القويصة في
الحجرة .

- لدى دالما الوقت الكافي لريميك ، ولكنني اريد ان
استخدمك - فقال ماخشو وكانسه يرد على افكار روتشين
التشادة - هل انت من ضباط الاركان ام من ضباط
الجبهة ؟

- في الحرب العالمية كنت في اركان الجنرال ايفرت . . .

- والان ، ستكون في اركان الامان ماخنو . . . في الاشغال
التشادة في عهد القيصرية دفعوني من راسي ، ومن قدمي ، والقوتني
على الارض الاجرية . . . بهذا الشكل يسررس زعماء الشعب . . .
مفهوم ؟

ون التلغون في صندوق اصفر كان على الارض بين النفايات .
قرص ماخنو . وصرخ في السماعة بصوت الطائر الجارح :

- انا في الانتظار ، في الانتظار !

كان الموقف تشوغاي رجلا بطي' الحركة قويا جدا في ستره من قباض خشن مستهلكة ولكنها لطيفة . وطافية لا ظلية لها منسرحه على علبانه . وكان يجلس مستنكا الورق بشكل لا يدع الاثريين يتسلطون النظر اليه . وكان يراقب بعينيه اللامتعتين الجاحظتين كل حركات نستور ايفانوفيتش . وكان وجهه الساكن العريض عند الوجنتين ذو الضاربين الاسودين خاليا من التعبير . ولكن الكرسي القوي كان يرسل تحت ثقله عربقا بين العين والآخر . فكان هذا الشخص الذي ليس سروال بحسابة حشره في نهايتي حذاء عريض قصير لو جلس بين سبع تنانين برنزية ذات اعناق منشفة لسجدت له .

كانوا يلعبون لعبة «العاز» وهي لعبة ابتكرت في الجبهات لكي تلهي الرجال بالضحك عن جراهم ومخاوفهم . وكان نستور ايفانوفيتش قد اقترح على سيفيه جالما دخلا ، ودون ان يتنهض من المنشفة ويصافحهما ان يلعبوا لعبة «التسمة» بالفرد (وكانسا دعاهما لاجل ذلك) . ووزع الورق بسرعة حتى لتعلم على العيون ان تلاحق حركة يديه ، ووضع على المنشفة ورقة من فئة الف روبل ، وغطاهما بملبة سرامطين البحر . الا ان تشوغاي تناول ورقتيه ، ووضعهما تحت نفس اللعبة . فقال ماخو :

- انت خائف ؟

اجاب تشوغاي :

- لا ، لا يمكن ان تلعب معي بالفلود . تعال للعب لعبة «العاز» .

جلس ماخو بانبطا ساقيه ، واضعا الورقة تحت الطاولة ، مديرا ظهره الى الباب تاركا وراءه مكانا فارغا (وهذا ما لاحظته تشوغاي في الحال) . وكان روثشين يجلس الى يساره . بينما جلس الى يمينه ليون تشورني - عضو امالة اتحاد «التاقوس» - وهو شخص اتعبت الشعر لا يحسد عمسره ، ضئيل الجسم ، جاف جدا ، ناتي' عظم القن حنسي لكان صغره بلا رتتي بشكل يخيل اليك انه يعيش بروحه فقط . وكانت قشرة الرأس والشعرات الشيب تتناثر على سترته المدهوكة . ومن اسراع فكره ترك اوراقه كلها مكتسوفة للاخرين .

وكان في محبته الى هنا قد استعد الى صراع قاس مع تشوغاي الذي كان ينوي التصاب ماخو وجيشه - الطاهرة العاقلة بالامكانيات التي لا تنضب . وكانت افكار ليون تشورني معبأة كالدبابميت في علبه من القصدير . وكان مرتبكا بعض الشيء لانه بدلا من ان يدخل في معركة عامة مع البلشفي صار عليه ان يلعب لعبة «العاز» ، فكان يلقي الاوراق المغلوطة ، او يوقعها تحت الطاولة . حتى غسر اللعبة اربع مرات متتاليات . وجعل ماخوسو يصبح عليه بنسده الغامر «العاز» . «العاز» . «المتن» ضاحكا باسفل وجهه فقط .

وكان ماخو ، بعد كل لعبة ، يمد يده بحركة حركة الفرد الى زجاجة الكحول ويصب في الاقتاح والكؤوس متكادما من ان الجميع يشربون بالتساوي . وكان الحديث حول المنشفة فارغا للغاية ، وكانهم في الواقع اصداق اجتمعوا في مساء سيب' العتس يضرب المنظر فيه النوافذ السوداء ، وهن الريح اشجار الحور العازية امام البيت متغلغلة فيها صافرة معولة وكانها روح شريرة .

كان ماخو يتحبن الوقت . وكان تشوغاي ايضا يتحبه يهدوه مستعدا لكل المضادفات ، لا سيما حين ادرك من بعض تلميحات الضيف ان الشخص الرابع الجالس حول المنشفة الصوت البادي الوقار الاثنيب وتحت عينيه كدمات زرق هسو ضابط في جيش دينيكي . وكانت كل الدلائل تشير الى ان ليون تشورني لا بد ان يكون اول من قرع صبره ، فقد اخرج متذبذب جيب قلبه ، وكوره في يده بعصبية ، وراح يدفعه الى انفسه وعينيه بعد كل كأس من الكحول . وهذا ما حدث فعلا .

- بدانا الجدل مع جماعتكم البلاشفة منذ ان كنا في باريس - بدأ القول مندعما . محركا اوراقه باتجاه تشوغاي - ولم ينتسه الجدل ، ولم يثبت احد حتى الآن ان لتيين على حق . انشاء دولة عمال وفلاحين بدلا من الدولة الانطباعية البرجوازية ا . . . ولكن الدولة دولة ! استبدال سلطة بسلطة . خلق قطبان الاضيان وارتداء قميص الفلاحين ! وسيكون عندذاك مجتمع بلا طبقات ! وضحك ضحكة خفيفة ضافطا متديله على شفثيه الجافتين . ولم يظهر على وجه تشوغاي ما ينم عن الاعتراض . سوى انه

تفرس في غلبة سرطاني البحر ، ولربها منه . وتناول ما استطاع ان يتناوله بالشوكة :

- ترى ، ماذا تقترح ؟ الفوضوية ، ام النظام ؟

- التهديم - همس ليون تشورني له وقد سلبت الغمرة صوته . وتصلبت عضلات لعينه الرمادية كسيلة كلب الحراسة - تهديم المجتمع المجرم بأسره ! تهدينا لا رحمة فيه ، حتى ينسو ارضنا فلا يبقى منه حجر على حجر . . . بحيث لا تخرج من البيضة اللعينة دولة او سلطنة او راسلما او مدن او مصانع اخرى . . .

- ومن يعيش عندكم في هذا المكان المنقر ؟

- الشعب !

- الشعب - صرخ ماخنو ماذا عنك نحو تشوغاي - الشعب

الحر !

قال تشوغاي :

- اذا بدأنا بالصراخ فلا بد ان ننتهي باطلاق النار - وتناول الزجاجاة وصب للجميع (دفع ليون تشورني كاسه فانسكبت) - في امكانك ان تهدم ، فذلك لا يحتاج الى دهاء . ولكن كيف تنوون ان تعيشوا بعد ذلك ؟

قال ليون تشورني متوجسا ان يتصدى نستور ايفانوفيتش لتجواب :

- ان مهمتنا هي التهديم العريض التام الذي لا يرحم ، وهي تستنفد كل طاقة وحساس جيلنا . انت اسير ، اياها الجبار ، اسير تفكير مقصود الجناح جبان . كيف للشعب ان يعيش حين تهدم الدولة ؟ هاها ، كيف له ان يعيش ؟

فقال له ماخنو في الحال :

- اعذرني ، يا رفيق تشورني . المشاريع الصغيرة لا ائوي ان اهدمها ، كما لا اهدم الفرق الجماعية ، ولا اهدم استثمارات الفلاحين . . .

- اذن ، فانت جبان كهذا البلشفي .

- اوه عبثا اهانك ايساء بالجبن - قال تشوغاي وغمز لنستور ايفانوفيتش مشجعا (كان وجه هذا احمر كالجمرة) - ان

نستور ايفانوفيتش لم يبخل بدمه ، وهذا شيء معروف . . . ان تلخل عنه لكم بالسهولة التي تتصورها . . . سحاروب عليه .

- تحاربون . ابدأوا ، حاولوا .

قال ليون تشورني يهدوه غير متروكس . وارثت خصلات لعينه على خديسه . واخذ يلتهم معجون اللحم ينهم وسرعان الفكر . التي تشوغاي على روتشين نظرة من طرف عينه . كان روتشين يمشن يخلويال والها عينييه الى السقف . كشف نستور ايفانوفيتش عن اسنانه الكبيرة الصفراء بضحكة صامتة . وقرر تشوغاي مع نفسه : «ان في الامر تواطؤا ، على ما يبدو» . وصر المتمد تحت . كان على تشوغاي ان ينفذ امر القائد العام بانفاج ماخنو في القيام بعمليات مشتركة ضد يكاثر يتسلاف بوجه خاص ، ولكنه الآن ، بالاضافة الى ذلك ، يجد كل هيزرات للتحوف مسن الاستنتاجات التنظيمية الخطيرة في حالة الدخول في جدل غير موفق مع هذه الفوضوي الذي التهم . في الغالب ، مئات من الكتب السميكة ، كما لم يعجبه صمت الضابط الدينيكيشي الذي يبدو - من بوزء - انه من المتقنين ايضا . ولكن تشوغاي لم يصدق بانه من ضباط الاركان لدى ماخنو .

ثبت طاقته على يافوخه بشكل القوي .

- اريد ان اسالك سؤالا .

قال ليون تشورني من فم مملوء :

- تفصل .

- قال الرفيق ليتين : بعد نصف عام سيكون في الجيش الاحمر ثلاثة ملايين رجل . فهل تستطيع ، يا ليون تشورني ، ان تعبر* في مثل هذه المدة ثلاثة ملايين ؟

- انا واتق .

- يجب ان يفهم من هذا ان لديكم الجهاز لهذا الغرض ؟

- هذا هو جهازى .

قال ليون تشورني متبيرا بالشوكة الى ماخنو .

- جيسد جدا . لتتوقف عند هذه الشخصية . يعنى ، تستطيعون ان تجهزوا نستور ايفانوفيتش بما يكفى ثلاثة ملايين مقاتل من الاسلحة والذخائر ، الى جانب المعدات والاطعمة والملف

بالطبع . ان مثل هذا الجيش يحتاج الى نصف مليون رأس من الخيول وحدها . يجب ان يفهم انكم تملكون كل ذلك ؟

دفع ليون تشورنى عنه اللعبة التي افرغها . وانكمش بيئته في غضون صغيرة :

- اسمح ، يا بحار ، لا تخيفنى بالارقام . ان وراء ارقامكم فرافا ، معاومات بالسة في لم شعث روسيا القديمة الممزقة بشيبتها بخيوط متفرقة . انها قومية مستترية ! ثلاثة ملايين جندي في الجيش الاحمر ! اوه ، لكم حلت ! عبتوا ثلاثين ميونا . ومع ذلك فان الثورة الحقيقية المقدسة مستر بلايتكم من الفلاحين - المالكين الزيتين بالتجوم الحر . . . ان جيشنا - وهنا شمس قبضته - هو الانسانية ، وذخيرتنا هي حنق الشعوب المقدس ، تلك الشعوب التي لم تعد تطيق اي تنظيم للدولة . ولا راسمالية ، ولا دكتاتورية البروليتاريا . . . الشمس ، والارض ، والانسان ! ولتلقف الى نار عظيمة جميع المؤلفسات من ارسطاطاليس الى ماركس ! جيش ! خمسمائة الف حصان ! ان خيالكم لا يرتفع اعلى من شارب وقيب اول . خلعا هدية . اننا سنسلب مليار ونصف مليار انسان . وما دامت لنا اثنتان واطافر واحجار تحت اقدامنا فاننا سنهدم جيشكم . وسنحول المدينة وكل ما تشتمون به مرتعصين الى كومة من خراب ، ايها البحار . . .

«ها ، شيخ خفيف اللسان» فكر تشوغاي مع نفسه وهو يرى ماخو الذي ركز كل انتباهه في البداية ينزل كتفيه ، وينطق التورد في عديه اللذين تغورا . وكف عن الفهم ، فان المعلم حاد عن الادراك السليم .

عندئذ قال تشوغاي :

- عندي سؤال ثان لك ، يا ليون تشورنى . . .

- هات . . .

- الذي فهمته من كلامك انكم لم تستعدوا للمتعبنة العامة . ولكن كل امر يحتاج الى ما يبدأ به : القنبلة تحتاج الى قتل ، والثار الى عود ثقاب ، فعل اي شيء تعولون انتم ؟ اين ملاكاتكم ؟ الائمان ماخو ؟ (تقلبت حديثا ليون تشورنى ، فقد كان يبحث عن

احبولة) جيشه ذو روح قتالية عالية . صحيح ، ولكن نسبة الغوضيين ليست كبيرة . انه ليس جيشكم . واختلس جانبية الى ماخو ليتأكد من انه لا يمد يده في جيبه ليخرج سمسنة . لا ، لقد رآه جالسا في هدوء . اخذ ليون تشورنى يتشم ابتسامة ازدهاء :

- يبدو ان حديثنا وصل الى نقطة تقتضي ان اعلمك الالف باء ، ايها البحار .
- سيكون لظفا منك .

- ان العالم الخارج على القانون هو ما نعتمد عليه ، وهو ملاكاتنا . ان الخروج على القانون هو التعبير الاكثر احتراماً عن حياة الشعب . . . ذلك يجب ان يُعرف ! والخارج على القانون العدو للدود لكل تنظيم للدولة ، بما في ذلك اشتراكيتمكم ، يا عزيزي . وفي الخروج على القانون دليل على فطرة الشعب على العيافة . . . الخارج على القانون لا يتصالح ولا يهاب ، يهدم من اجل التهديم ، وتلك هي العفوية الشعبية الاجتماعية الحقيقية . افرك عينيك . وخلال هذا المدفق العاسي من الافكار سار ماخو على اطراف اصابعه الى الباب ، وفتحه قليلا ، والقي نظرة على المرء ، ثم عاد الى المتضدة . صار روتشين الآن ينظر الى العجوز المعجب بحسب استطلاع متسائلا مع نفسه : العله يتحاقق عن قصد ؟

صاح ليون تشورنى :

- اراك ترف برموشك مذهولا ، ايها البحار . ان فضالك قد ارتبكت ! فاعلم اذن : اننا كسرنا الامتنا ، وافرغنا الحيز من محابرنا ، فليرق الدم ! لقد آن الاوان ! والكلمة تشعل الى عمل . ومن لا يلهم في هذه الآونة الضرورة العميقة في الخروج على القانون كعروة عفوية ، ولا يتجاوب معها يُنبذ الى معسكر أعداء الثورة . . . اخذ ماخو يقضم اطافره مقلصا عينيه . وفكر روتشين مع نفسه : «لا ، ان العجوز يعرف ما يقول» - مال تشوغاي تحسوا المتضدة ، ووضع عليها مرفقه ، ورفع اصبعه ، ليكون لليون تشورنى ما يركز عليه .

- السؤال الثالث : حسنا لنقل انكم غيبتم هذه الملاكات . وعملت هذه عملها . قلبت الاشياء رأسا على عقب . . . ولكن الا ترى

ان هذا الضئيل لا بد ان يصل الى نهاية ؟ لا بد . والمخرجون على القانون - في رأينا هم لصوص - . اناس فاسدون . لا يستطيعون العمل - انهم لا يعملون . ولم يعملون . وهم يأخذون كل مسا يريدون . وماذا سيكون عندئذ ؟ مرة اخرى لا بد ان يكون هناك من يعمل لهم . لا ترى ذلك ؟ ولكن لم يبق شيء ينهبونه او يحطمونه . يعني لن يكون امامكم الا ان تسوقوا اللصوص الى تجاوبف الارض وتقتضون عليهم ؟ اليس كذلك ؟ اجبني عن هذا السؤال . . .

ساد الصمت في الغرفة . وكان المتعادلين ركزوا كل انتباههم على الاصباح التي رفعها تشوغاي ثم عكفها . نهض ليون تشورني ضئيلا (كان يبدو في جلسته اطول قامة) عنودا كالكرة الفلسفية . وقال ملتفتا نحو ماخنو ماذا ذراعاه نحو تشوغاي :

-ارعه ! ارعه . . . انه مقبر عميل . . .

وثب ماخنو في الحال الى المكان الفارغ من الغرفة نحو الباب . وحك تشوغاي بانظاره في حركة سريعة سطح الشمس المتمثل من حزامه تحت سترته . وتراجع ووثق من المتضخمة . وتعثر . وجلس على الارضية . ولكن سلاحا لم يسهر : فقد كان كل واحد يعرف انه لو اخرج سلاحه فلا بد له ان يرمى . برقت عينا ماخنو من التوتر . وتكلم تشوغاي بلهجة ارشادية :

- عينا . يا جسد . . . اللجوء الى طريقة وخصية ليس بالجيد . . . وانت تستحق هذه على اتمامك في بالمعالة (ولوح بقبضة كبيرة جعلت وجه ليون تشورني يرتعش في ألم) . ولكن لن ارد عليك رقبا بصندك الضعيف . . . يا جد . يجب ان تستخدم الالفاظ بعناية اكبر . . .

وفي هذه المرة ايضا لم يلق ماخنو في صف المعلم . غض ليون تشورني بصره . وكأنه يريد ان يختفي في خصلات لحيته . وتناول منقلبه بياقته البالية التي كانت من فرو القندس في يوم ما . وقبحة مغلقة بنفس التهور . وليسها وخرج متحملا الضيعة بربولة .

قال ماخنو وهو يعود الى المتضخمة . ويسمك بالزجاجة :

- الا تواصل الشرب ؟ يا رفيق روتشين . اذهب الى الغلين ليخصص لك سريرا شاهرا .

ادى روتشين التحية . وخرج . وسمع وهو خارج الباب صوت ماخنو يقول لتشوغاي :

- هؤلاء بنادون : «اللائمان ماخنو» واولئك «اللائمان ماخنو» فماذا تقول انت لللائمان ماخنو ؟

١٢

ما ان وصل الكسي كراميلنيكوف الى قريته فلاديميرسكويه وسار في رماد بيته المزورر بالنفخ . وشم رائحة الدخان الآتي من بيت الجيران . وراى الوزات سماتا . والبرد مسا يزال في اوله . ناشرات اجنتها موزوزات . واكضات مرتفعات قليلا عن الارض . في المرجة المكسوة بطبقة رقيقة من الجمد . حتى ادرك الى اي حد كان ضيقا بحياته قطاع الطرق .

فليس من عمل الفلاح ان ينطلق في السهب في عربة رشاشية بين الضياع المحترقة . بل عمله ان يفكسر دائما حول الارض ويشغل . اجتهد وسهر . امنا الارض تهب نفسها لك . وكان كل شيء يدخل الفرحة الى قلب الكسي ايفانوفيتش : الافكار المتعلقة باقتصاد بيته . وهي افكار تساهها اثناء اقامته عند ماخنو . والنهار الناعم الرمادي . وثمار الثلج البطي المتطلع . وسكون القرية . ورائحة الدخان المألوف . وكان الكسي في سيره يلتقط من حين لآخر صليحة صعدة من صفائح السطح . ومسناوا . وقطعة حديد محترقة فيكوماها في كومة واحدة . لم يكن معتزا بما كسبه محبولا على ثلاث عريبات . بل كان معتزا باله سيبيني وقيم استثمارته الفلاحية لغير مدقق في كل رويبل . ستكون امامه اعمال لا تضي ولا تعد منذ اول وقد يدفعه على الارض الغريسة حتى ذلك اليوم التي ستخرج ماثرنا فيه خبز قمحه شلى الرائحة من الموقد قائمة : «موقد جديد يغيز بشكل رائع» . وهذا ايضا كان يدخل الفرحة الى قلب الكسي . لا بأس فان عرق الفلاح سيمعش . . .

وجد . وهو يثيش الرماد بطرف خذالسه . فلما احترق مقيضها . وقلبها بين يديه طويلا . وهز واسه باهتسامة مسخرة . فقد عرف انها نفس الفاس ! ومعنا بدات كل المصائب . وتذكر

كيف ان اخاه سيميون ، وقد سمع صحيفة ماترينا الشاكية وثب مسعورا من البيت . وكان الكسى قد غرس الفاس في قرصة في الرواق عند الهاب . ولو لم يقع بصر سيميون عليها لما حدث اى شئ ، في الغالب . . .

«آه ، سيميون ، سيميون - والقى الكسى الفاس الصدفة على نفس الكومة - لو كنا معا لقمنا بالعمل اسرع واقرى . . . نعم ، يا اخى ، اغتت كتابين من الضوضاء والشجيج . . .»

والقى نظرة على الارض مفكرا في رسالة سيميون التي تلقاها وهو في مولاي-بوله . كتب اخوه هذه الكلمات : «قل لزوجتي ماترينا ان تصون نفسها - رجا - من كل لهر ، فانها ليست بحاجة الى ذلك ، وليس الوقت وقته . . . وخين اقتل ستكون حرة . . . انه وقت عصيب يجعل المرء يصك على اسنانه . وانا اراكم في العلم فقط . لا تنتظروا مجيئى قريبا ، فان الحرب الاهلية تيسدو بلا نهاية . . .»

وهن الكسى نفسه . . . اللعنة عليها ، ومع ذلك فان المرء لا يستطيع ان يلعب بصره بعيدا . ومرة اخرى اخذ الكسى ينظر الى الاذنة الهادئة لتساعد هنا وهناك وراء الاسيجة ووراء الحدائق الجرداء . وفوق الاكواخ المغطاة بالضبب والقش . كان الفلاحون يتهيئون لغضاء الشتاء في الدفء . وهم على حسيق ، فان الجيش الاحمر سيأتى الى هنا ان لم يكن بعد اسبوع ، فبعد اسبوعين . كيف ان الحرب الاهلية لا تبعد لها نهاية ؟ لعل سيميون يهدى ! ومن سيأتى الى هنا اذن ؟ «آه ، سيميون ، سيميون . . . انك بالطبع تروح وتجر» على سفينة الغام في بحر قزوين . والدم يتصاعد الى عينيك وبغضبيهما . . .»

ومع ذلك فان الكسى كان يستشعر اضطرابا داخل نفسه . اخرج غلبة التبغ وطقن . اللعنة . ليس له ورق للغه . . . في هذا الصيف قال احد المطيبين ان جيش ماخنو يضم الكثيرين من ذوى الاعصاب المتوردة . تراء في مظهره الغاربي رجلا معافى ، يلمتهم ضوحا من العصيدة . اما اعصابه فهي كامعا، فطة مشدودة على كمان . ودعالم الكسى مع نفسه «آوه ، اعصاب . من قبل حتى لم اسمع بها» . ووصل الى مدخنة موقد بارزة محروقة ، وحاول ان

يهزها ليرى هل هي ثابتة في مكانها . دفعها يكتفه ، فترنحت . . . «اعصاب . . .»

زلزل الكسى مع كاتيا وماترينا في بيت اربعة من اثاربه . وكان المكان شيقا وغير مزيج . بيضت ماترينا الموقد ، وطلت الارض الترابية ببطقة من الطين الرمادى ، وعلقت ستائر مسن الدنتلا على النوافذ الصغيرة المغيرة . واشترى الكسى طحينسا ونطاطس وكمية كافية من العلف للخيول ، ملء عربسة من هذا وعلء عربتين من ذلك . ولم يباحك مع احد في سعر ، ولم يبخسل بالفلوسى ، وحتى حين كان الناس يلغفون بطلب الملح ، الذى كان اقل من الذهب ، كان يعطيهم قليلا منه . وكان يعرف ان اهل قريته يعتبرون انه قد حصل على فلولسه بطريقة سهلة . كما كان يعرف ان العربات الثلاث من الامتعة والخيول الخمسة مستظل طويلا تجلب الموقعة له .

وكان الاصعب من ذلك التغلب على معارضة اهل قريته في بناء بيت له . وكان قد فكر في تفكيك جناح في ضيعة الامير كان يقع في مجمع للاشجار الجرداء على مرتفع . وكان مهندما مهيلا . وكانت دار الامير قد خويت . ولم تبق الا النوافذ المخططة فارغة بين الاعمدة التي تساقطت قشرتها . وكان هذا الجناح الذى كان يقيم فيه التقيم سليما . ولم يكن صعبا تفكيكه ونقله الى مكان بيته المحروق .

الا ان الفلاحين كانوا ما يزالون تحت خوف ما . ولم تكن في القرية اية سلطة . فقد طردوا ادارة الهيتمان ، والبيتلوريون ما يزالون متشبهين بالمدن فقط على نحو ما . والحمر لم يأتوا بعد . ولاهم تعودوا على السلطة فان غيابها كان بيت فيهم شيئا من الخوف . فقد يحاسبهم احد على افعالهم فيما بعد ، ولهذا قرروا انتحاب عمدة . ولكن لم يرد احد ان يصير عمدة . كان الاغنياء والاذكياء يكتفون بهم اذرعهم قائلين : «لا ، لا . وما حاجتسنا الى ذلك . . .» ولم يرغب اهل القرية في ان يضعوا في هذا المنصب مدمعا ليس له ما يفقده . وقد سرت شائعة عن الجالب السوفييتى عن عزلاء المدمعين الوداعين الذين يتغلبون . اذا تسلطوا السلطة ، الى ماركين اشداء .

ووجدت النساء الشخص الملائم ، اقترحت واحدة للآخرى ،
وتهايمن في القرية كلها بان الرب نفسه امر بان ينتخب الجسد
افاناسى عمدة للقرية . وكان هذا المعجز يعيش بطمأنينة مع
كنتيه (فقد قتل ولدها في الحرب مع الالمان) ولم يكن يشتغل في
الحقل ، فكان يقضى وقته في رعاية الطيور الفاجنة ، وما حول
البيت ، ويحسب على كنتيه . وكان يهتم بالصغار ،
متسلطا للعثرات ، وكان في الزمان القديم يختم عند الجنرال
سكوبيليف .

ووافق الجد افاناسى على منصب العمدة في الحال قائلا :
«شكرا على تقديركم ، ولكن لا تراجعوا . ساحلحكم على الطاعتى» .
فكان يتجول في القرية متفحضا متسلطا العثرات في لحيته الرمادية
المنشورة شطرين مثل لحية الجنرال سكوبيليف ، ومعطفه من
جلد الاغنام مخزم في اسفله بحزام ، وبعضه العالي من خشب
الجوز .

وكان الكسى يرفع قبعته له كلما التقى به ، ويحتج احتراما .
وكان الجد افاناسى يظلل عينيه بحاجبيه الخفيفين ويسأل :

— عيب . . كيف الحال معك ؟

— لا بأس . شكرا ، يا افاناسى افاناسيفيتش . ما ازال
اعتذب في نفس المكان .

— الا تستطيع ان تسوى امورك مع الفلاحين ؟

— املنا الوحيد فيك ، يا افاناسى افاناسيفيتش . . . وودت
لو تزورنا مرة . . .

— الا يكون ذلك شرفا كثيرا عليك ؟

ومع ذلك فقد استمال الكسى العمدة افاناسى . ارسسل
ماتريشسا الى كنتيه لتشتري وزة سمينة قدر الامكان ،
وتقول لهما انهم سيحتفلون غدا بيوم ميلاد ، وانهم لن يدعوا
احدا ، لان المكان ضيق ولكنهم سيكونون سعداء في استقبال
الطيبين . وكان الجد فضوليا الى جانب صفاته الاخرى . فما كادت
طلعة الشتاء تعمر القرية حتى ذهب الى الحقل ودخل الكوخ المدفا
تدفئة قوية ، وارضيته مفروشة بقطعة من سباط من الشبة حتى المائدة
المنقلة بغال الطعام . وكانت المسارج والفتائل المعدنية الموضوعة

في علب المعليات تشتغل في كل مكان ، اما هنا ، فسوق المائدة
فاضى مصباح كيروسين .

دخل الجد افاناسى بهما كما تقتضى السلطة ، وراى وهو
يخلع قبعته ماتريشا الجميلة بشلتيها المضمومتين وعينيهما
السوداوين الغبيبتين ، والمرأة الاخرى - صاحبة يوم الميلاد -
الجميلة ايضا التي كانت تفور عنها احاديث سنن في القرية . وكانت
كلتاهما - ماتريشا وكاتيا - ترتدى فستانا من فساتين اهل المدن
الاولى احمر والثانية اسود . فك الجد افاناسى لفاحه ، وخلع
معطفه ، ودفع لحيته على الجانبين بحركة سريعة . وقال في كبرياء
راضية :

— آها ، احترامى للمجمع اللطيف .

وجلس الاربعة الى المائدة . تناول الكسى من تحت المصطبة
زجاجة فودكا قديمة ، وبدا حديث لطيف .

— افاناسى افاناسيفيتش ، دعنى اعارفكما . صاحبة يوم
الميلاد ، خطيبتي . ارجو ان تعجبك وتكون عند مرضاتك .

— هكذا ، اذن ؟ بالتأكيد . النساء يجبن الجنان . من اين
هى ؟

اجاب الكسى :

— ارملة ضابط . كنت مرافقا لزوجها المرحوم . . .

— هكذا ، اذن - مضى الجد في تعجبه - وكان لديه ما يحدث
به النساء فيما بعد . ورغب هو لنفسه ان يتباهى فقال - عندما
حصلت على نيشان جيورجى بالقرب من بلافنا ، جعلنى الجنرال
سكوبيليف مرافقا له . . . كان يرسلنى تحسنت نصف الفدائف
والرصاص . . . كان يقول : اخرج في حصانك ، افاناسى . . .
آه ، كم كان يجننى . . . يعنى ، خطيبتك من طبقة الاغبيان . . .
سيصعب علينا عمل الفلاحين بعض الشيء . . .

— لا تقوى على عمل الفلاحين ، يا افاناسى افاناسيفيتش .
العمد لده على ان لدينا الكفاية من الفلوس لاستخدام الايدي العاملة .
— بالطبع . . . اذن ، لتشرب نخب صحة الخطيب ، المر من
اجل العلو - شرب الجد قدمه وتحتج ، ولكن بشدة شاربيه الاصفرين
بيده - كنتاى تيملان اكياسا زنتها عشرات الكيلوغرامات - وفي

البداية ، عندما خرج الزوجان الى الحرب ، واضطرت الحمقاتوان الى القيام بعمل الرجال كأننا تشكيان «أوى ، ظهري أنكسر» وتنتان «أوى ، يداي ، رجلاي» «فكاد انفجر من الضحك - وضحك الجذ فجأة ضحكة بلها ، انا اعرف كيف ادارى النساء . كان سكوبييليف يدعوتى : ملك النساء . . .

نهضت ماترينا فجأة كاتمة ضحككتها ، وذهبت الى الموقد وراء الستارة لتخرج الوزة المحمصة . وكانت كاتينا تجلس هادئة متواضعة فاضة بصرها . قال الكسى بحرارة وهو يصب الخمر :

- ليس هذا مصدر الحرارة والازعاج ، يا افاناسى افاناسيفيتش . يمكننى ان اقيم الزفاف ولو يوم غد ، ولكن هل تستطيع ان اسكن زوجة شابة في هذا الخن ؟ انها وماترينا ثمانان على نخت واحد ضيق ، وانا على الارض العارية . . . المزيج ان لعل القرية يظنرون اليها وكانهم يظنرون الى غرباء . . . لماذا عابدوا ؟ ان ذلك الجناح يقف بمفرده بلا قائدة ، والمصادفة هي التي سلمته من الحرق . ومن بحاجة اليه ؟ ينتظرون ان يعود الامير الى هنا ثانية ويشكرهم ؟

- هناك مثل هذا الطن .

قال الجذ افاناسى وهو يكسر فخذ الوزة .

- الشيطان سيبعد الى هنا قبل ان يعود صاحب الامليات . . . حسنا ، استطيع ان اشترى هذا الجناح من المجمع ، واكسون مسؤولا عن كل شيء . . . (حدثت ماترينا الكسى بعينيتها ، وضرب الكسى المائدة) اشتره ا . . . انا رجل قليل الصبر . . . لا يأس . . . من اجل هذا اللغاء . اعطينى ، يا ماترينا ، الشيء الملقوف في خرفة تحت المغدة . (علقت ماترينا حاجبيها ، وهزت رأسها) هاتى ، هاتى ، ولا تبخلى . . . قليل هناك شيء اغلى من الحياة .

اعطته ماترينا . فلك الكسى الخرفة واخرج ساعة متفوشة دفاقة لها سلسلة من الفولاذ ، وهزها ، ووضعها على اذنه .

- حصلت عليها مصادفة ، وكأنما كنت اعرف لـمـسـن ساهديها ، احصلها موقفا ، يا افاناسى افاناسيفيتش .

- ما هذا ، اتقدم رشوة لي ؟ - سال الجذ افاناسى بصرامة ، الا ان يده ارتجفت حين وضع الكسى الساعة في كفه .

- لا ترعلنا ، يا افاناسى افاناسيفيتش . انا اهديتها لك من صميم قلبي . . . عندى حوالى عشرين من مثل هذه التوافه ، وقد فاوضتها ماترينا جميعها بالكحول ، وهذه احسنتها لانها تعلق . وبدلا من سماع الذبقة عند الصباح اضغط على هذا الملوكب تدق لك ، فلتلبس خذاك اللبادى ، وتخرج لتفقد الماشية . . .

- اها - قال الجذ افاناسى وفتح فمه ذا الاستنان القليلة - اها ، اذن ستوقظ كنتى ! الآن ، لا تستطيعان ان تنامسا الى الضحى ، السيمتتان .

لف الجذ رقبته المعروفة بللماحة ، وليس معطله مترنعا ، وخرج . خلصت ماترينا ذبالة الصباح فوق المائدة ، وجمعت وكاتينا الصحون وحملتها الاثنان وراء الستارة . وظل الكسى جالسا الى المائدة . وقال بصوت لارفة فيه :

- اهذه الخمرة القديمة قوية ، ام لاننى لم اشرب منذ زمان ؟ ماترينا ، لطيف لو تخرجين لتفقد الماشية .

لم تجب ، وكانها لم تسمع . وبعد برهة نظرت الى كاتيا ، وابتسمت ابتسامة هازئة .

قال الكسى مرة اخرى :

- انا لا افهم . . . اما انك تأنفين هنا ، واما انك ساذجة كليا . . .

حدثت ماترينا كاتيا بنظرة نارية تامرها بالا ترد عليه . وتوهج خذلها .

- على الاقل ابكى . . . انا لاول مرة ارى من امثالك ، يا ديبى . . . اعلمتها خطيبة لي ، وعسى لا تحرك شعرة في راسها . . . تجلس منكسة عينيتها . . . لا هذا ولا ذلك . . . حورية ماء ، والله ، ماترينا ا - عتف الكسى - انها لا تفهم ان الاطلمال يشيرون اليها باصابعهم . جلبها الكسى على عربة ، وقد ربحها من ماخوتو في لعب الورق . . . هذا لا يعينها . . . اما انا - وصاح بجنون - دعوهم يعرفون الان انها خطيبتى ا

شجبت كاتيا ، وذعبت وراء الستارة ومعها لوطاة وصحن .
جدبت ماترينا كلتها بقوة .

- نحن نعرف الآن من اى طرف نسيرك الحياة . . . قلت
اول رجل في عام ١٩١٤ - وارسل الكسى ضحكة مقتضية - رايت
المانيا يرف ، ووقع الله فاطلقت عليه رصاصة اصابته وسقط
على جنبه . وانتظرت لارى ووجه نظير منه . انا قتلت الكثيرين ،
ولكن لم ازر روح احد منهم . . . اوه ، كفى ، شكرا على
المعرفة . . . سنبني بيتا على العظام : الاول خشبي ، والثالث
آجري ، والثالث تحت سقف ذهبي . . . عينا ، يا يكاترينا
ديميتريفا ، عينا ان تسلكي هذا السلوك معي . انا لا امسك
بالقوة . اذا كنت لا اروق لك ، اذا كنت هولة يمكنك ان تذهبى
الى حيث تشائين . خطيبة انا لا اتوقع اية منعة من خطبتي هذه .
مست ماترينا بسفتيها خد كاتيا ، واسرت في اذنها : «احق
سكران ، فلا تلقى بالا له . . . علفت كاتيا لوطاة على حبل
مدود ، وخرجت من وراء الستارة . كان الكسى يجلس بانحراف
على المائدة وقد وضع ساقا على ساق ، ودل يده الكبيرة
المنتفخة . نظر الى كاتيا بعينين غائرتين . جلست كاتيا على مقدم
قيائه . كانت نظرة الكسى صاحبة متفرسة ، ففضت كاتيا بصرها .
- الكسى ايفانوفيتش ، كان يجب ان تحدث منذ وقت
طويل . . . انا اعتيرك انسانا طيبا ، يا الكسى ايفانوفيتش . لم
اجد منك غير الطيبة الاسبيلة طوال حياتنا المتقلبة . وقد تعلقت
بك . ولكن ما اعلنته اليوم لا يدعشني . كنت اتوقع هذا منذ
زمان . . . ان شيئا ما حصل لك منذ مجيئنا الى هنا . . . يا
الكسى ايفانوفيتش . انت هنا انسان آخر . . .

تلتفت الكسى متظفا متحيرة ، ثم سال :

- ما يعنى «الانسان آخر» ؟ ثلاثين عاما كنت شخصا واحدا ،
والآن صرت شخصا آخر ؟

- ان حياتي ، يا الكسى ايفانوفيتش ، كانت كنوم لا يقظة
فيه . . . وهذا ما اقله لك . . . كنت حيوانا بيتيا لا نفع فيه . .
آه ، نعم ، كنت مجبوبة . ولكن ماذا في ذلك ؟ من الاستنزاف ،
وشىء من القنوط . . . ومن احداثت بنا الحرب ، كان ذلك يقظة

لى : الموت ، والدمار ، والمذابح ، والنازحون ، والمجاعة . . .
ولم يبق للحيوان البيق العديم النفع غير ان يولول ويوت . . .
وكان ذلك سيحدث لو لم ينقذنى فاديم . . . كان يقول لى وكنت
اصدق بان حينا هو معنى الحياة كله . . . ولكنه كان لا يبحث الا
عن الانتقام والتعصير . . . الا انه كان طيبا ؟ انا لا افهم . . .
(ورفعت رأسها ، ونظرت الى ذبالة الصباح التصديرى المنخفضة
فوق المائدة) وقتل فاديم . . . عندلثة التقطتني .

- التقطتني ، قال الكسى باستهامة هائزة غير صارف عنها
بصره - ربما تصومين لنفسك قطة . . .

- كنت اياها ، يا الكسى ايفانوفيتش . ولكننى الان لا
اريد . . . لم اكن طيبة ولا شريرة ، لا روسية ولا اجنبية . . .
حورية ما . . . وارفع طرفا شفيتها بمعابنة ، وتجهم وجه
الكسى - وظهر انى لست الا امرأة روسية . . . وساطل على ذلك
الآن . . . لقد رايت معكم الكثير من المضاعف والفظائع . . .
وتحملت ولم اقل اف . . . انا اتذكر احد الامسيات . . . كانت
عُدد العريات محلولة ، وجاء الغيالة . . . واجتمع حول القدر
الفاتر اناس محتدون صاخبون .

- تذكر ا ماترينا ، هل تسمعين . . .

- وظلوا يتجمعون حول القدر الفاتر . . . وتحدث كل واحد
عن خبراته الجديدة ، كيف ينز رأسا ، وهجم ثانية وتشابك في
المعركة . . . يبدو انهم لفقوا الكثير من ذلك . . . ولكن شيئا
كبيرا توبيا كان في ذلك .

- ماترينا ، انها تتذكر المعركة مسح الالمان قرب ضياع
فيرخنى . . . كان قتالا جسورا . . .

- واتذكر كيف وثبتت من عربة الرشاشية . . . كنت
اتخاف ان اتقدم منك - وصممت كاتيا قليلا وكان حدقتهىسا
المستعصين كانتا تريان شيئا بعيدا - هذا ما كان . . . وعندما
سافرا الى هنا قلت لنفسى : ان امامى حياة واسعة . . . وليست
على تلمعة صغيرة من الارض . . . هنا لا يوجد غير الخناييص
والدجاج وهديقة الضفريات ، ورائها سباح اصم وايام رمادية لا
وهضة فجر فيها . . . (ولغضت كاتيا جبينها ، وكان مقلها البانس

الصمت الزمهريري الخفيف واحة بطيخ مقطع . وكان ايفان ايليئش يعرف كل شيء . ويوجد كل شيء . ويستطيع ان يجد جوابا لكل شيء . وعلا لكل رغبة . ومن جديد تراه الصندوق السحري المزوق امام عينى داشا . ولكن لم يكن يحوى احاسيس فائتة مستقلة . ولا الغازا واحاجى . بل كانت فيه حبات واقراخ حبات قاسية واتراجم .

شيء واحد لم يكن مفهوما لها في ايفان ايليئش . وقد اضحى بعضها . وهو تكتمه . فقد كان ايفان ايليئش كلنا اوريا الى فراشها في المساء يستغرق في افكاره . كتم عن النظر الى داشا . كان يتنحى وهو يخلع حذاءه على المصطبة . واحيانا كان يقول لها وهو يخلع حذاءه «داشونكا ، عزيزتى ، نامى . يا حبيبتى» . ويذهب حافى القدمين عبر الرواق البارد الى غرفة المكتب . ويعود على اصابعه ويشلمع على حافة السرير خذرا من ان يصر تحته . ويتفوق في الحال متفطيا بمعطفه حتى رأسه .

اما في النهار فقد كان يادى المرح متشرحا مورد الغدين يروح ويجري . ويقلب داشا على شديها ودعا رأسها الاشقر الدافئ الحبيب .

- مرة اخرى . مرحبا . يا زوجة الامر . . . خبرينى . هل شؤلك اخلتة في الانتظام ؟

وكان يسأل عن ذلك ثلاثين مرة في اليوم . وكان المفوض ايفان فوروا قد اقترح على داشا تنظيم مسرح للفوج من بين المواهب المحلية .

ورفضت داشا فزعة : «يا ربى . . . انا لا افهم شيئا حسن ذلك . . . » ربت ايفان فوروا على يدها قائلا :

- ستتفدين على ذلك . يا عزيزتى . تعلمى من الاخطاء . لقد نهضت باشياء اصعب . فقط ان تخلص مسن هذا الروتين اليومى . اعترى على شيء تورى حماس يجعل عيسون المقاتلين تلتهب .

وكان المفوض عجولا على المسرح جدا . وكان فوج كاتشالين تساربتسين لشمون يستعد الى الخروج الى الجبهة قريبا . وكان الذى اعيد تعزيمه وكسوته من الاحتياطات الضئيلة لسدى ادارة

المقاتلون رغم التمرينات المتعبة والساعتين من التثقيب السياسى اليومى قد بدأوا . وقد شعوا في المزارع . يتعابون من فرط ما جمعوا من قوة . ويعد اجتماع .

وخطب سيرغى سيرغيفيتش سابوجكوف فيه . وقد وجسه الفرصة . بعد سنوات عديدة من الصمت . ليقتف الى العالم بمجموعة من الافكار تفجرت فيه . تحدث عن النحل النورى في المسرح . وتحطيم كل الحدود بين خشبة المسرح والمتفرجين . وعلى مستقبل المسرح تحت السماء المكتوفة او في حليات السيرك الضخمة التى تتسع للحسين الك متفرج . حيث ستشترك اقواق بكاملها . وتطلق المدافع . وترتفع البومات الهوائية . وتندفع الصللات الحقيقية . وتقوم الجماهير لا الممثلون الفرادى بتمثيل الشخصيات البطولية .

- اين اتم . يا مسرحى المستقبل - ٤ - سال سابوجكوف رجال الجيش الاحمر باسما ذراعيه . وكانه يوم بالظهيران حتى وراقد السقف . وكان هؤلاء يستمعون اليه بمرح رغم شموض الكثير من كلماته التى كان ينطقها بعجالة واحدة في ذيل الاخرى - اين اتم . يا درامالى عصرنا العجيب ؟ اين اتم ابها الشكسيريون الجدد ؟ والسوفكولسيون الذين نزلوا من قواعدهم الرمزية ليشاركونا مهرجان الفن . ومهرجان الابداع ؟ احقا ان الانسان كان في يوم ما مكتسوبا امامكم كما هو مكتسوف الان ؟ احقا ان التاريخ قذف في يوم ما مثل هذه التروات الضخمة من الافكار ؟ وبالطبع كان التهاب يستولى على داشا تماما بعد امثال هذه الغضب . ولكن التراجع كان متفورا .

سافرت مع سابوجكوف الى تساربتسين لجلب الكتب والجنافى والاصباغ . واستطاعا الحصول على شيء من ذلك . ولتم سيرغى سيرغيفيتش لها الكثير من النصائح المفيدة وما يزيد عليها من النصائح الجملة . وتقرر انتقاء الممثلين دون اى تدقيق وسماحة . والبدء في اجراء التمرينات على تمثيل «اللمصوص» لشيرل .

وكان تليغين في غبطة عظيمة لا ترجع الى لهفته لتمثيل «اللمصوص» الثقيل بقدر ما ترجع الى شعوره بان داشا وجدت اخيرا

ما تعلمه وتنجذب إليه ، وتروح وتجرى ، وتحدث إلى رجال الجيش الأحمر ، وتغضب ، وأحيانا تبكي من الانزعاج ، وهي الآن (كما بدأ له في بساطة قلبه) لا تعود إلى التركيز الشديد على صومها الشخصية وسدما .

وبأمر من الفوج ضم إلى الفرقة الدرامية الفريينسا وأنيسيا ولاتوغين (الذي ذهب إلى المفوض يطلب ضمه إلى هذا العمل) وكوزما كوزميتش وياكسوف وبعض العازفين على الاكورديون والبلايكا والمغنين من رجال الجيش الأحمر .

وفي المساء قرأت داشا التمثيلية في السقيفة في ضوء بقية من شمع . وكانت وجوه الممثلين في الضوء الباهب لا تكاد تبيّن من خلال البخار الطالع مع الانفاس . وكانت الريح المتصاعدة ترسل الثلج من خلال خصاص بوابة السقيفة . قرأت داشا بصوت واضح صاف محاولة ان تتسلل - بنقدار ما تسمحها ذاكرتها - الطريقة التي كان يقرأ بها بيسونوف في عهده : يد واحدة وراء طية سترته السوداء وصوت مفصول عن الحياة ، وكلمات مثل قطع الثلج ، تزدودها بنهم سيدات الأدب المتفنسات يعسر وهن جالسات حوله على مقاعد وثيرة . . .

وادركت داشا وهي في منتصف القراءة ان التمثيلية لا تحظى باعجاب ، رغم العشق الكثير الذي أجرى عليها . وقرب النهاية استمجت تماما . وعندما فرغت منها ، وبعد فترة من الصمت الثقيل قالت :

- هذه من «الصوم» شيلر التي يجب ان نعملها . . .

أخذ الرجال يدخنون ، وقال احدهم ، وهو لاتوغين ، بصوت خافت :

- تمثيلية ذهنية .

عندئذ أخرج كوزما كوزميتش عقب شمعة من جيبه ، وأشعلها ، وجلس إلى جانب داشا .

- أيها الرفاق ، اطلعنا داريا ديميتريفتا على النص والان سافرؤه لكم .

وتناول الكتاب منها ، وأخذ يقرأ بصوت عال ملوئا صوته ووجهه حسب جميع الشخصيات ، فمرة يصور الاسى الابوي ليكونست

العجوز مور ، ومرة يهمس بازيز ، وقد تسطح انفه ، وتقلبت عيناه كنت الآن مغللا يستحق الاستفاق لو لم استطع التزاع ابني المحبوب من قلب الوالد ، ولو كان مشدودا اليه بسلامل من حديثه . . . آه ، أيها الضمير ! يا فراغسة الطيور الممتازة . . . ليسبح من يقدر على السباحة ، ويغرق من يجسد نفسه ثقيلًا . . .

وترات للمستمعين في عين خيالهم ذلك التعبان ، فرانس مور ، وهنا تحشرج صوت كوزما كوزميتش ، لمرس يده في شعرة دافعا إياه إلى صلغته وحط شفثته بشكل رهيب ، والتمتع عيناه بحقد نبيل : أيه ، أيها الناس ! أيها الناس ! يا ذريرة التماسيح الكاذبة الغيبطة ! قبله على الشفاعة ، وخنجر في اليد ليغرز في القلب . . . إلى جهنم وينس المصير ! التهب كالنار يسا سير الرجل النبيل ، وانقلب ذليبا أيها الحبل الوديع

أهت انيسيا نازورفا أعة خافتة ، ومال لاتوغين بكل جسمه نحو الشمعة التي كانت تضيء الكتاب السحري التي كانت اطافس كوزما كوزميتش تدب في صفحاته ، وفي عمسة السقيفة كان يهدر كارول مور لفسه - الرجل المترد المفهوم بالنسيبة للمستمعين والذي أثار قلقهم . . . فيا لهسا من كلمات استطاع أن يعبر بها عن المسادات التي لحقت به . انها لتمثيلية تنفذ إلى الاعماق !

وحين وصلتت الشمعة إلى نهايتها ، ونطق كوزما كوزميتش عبوسا بأخر كلمات كارول الذي كان يتذكر ، وهو يسير إلى الاعدام الرهيب ، الكادح المياوم اليانس أخذت انيسيا والفريينسا لفركان عينوثما يكمن مططيفهما وقال لاتوغين «تلعة صادقة من الحياة» . وانفق الجميع على ان كارول ما كان ينبغي له ان يقتل عينا ويتأثير الغضب لعاليا التي يعنها ، وكان يجب ان يأخذها إلى العصابة ويعيد تقويمها . ولا يد من تعديل شيلر في هذا الموضوع ، والا فان رجال الجيش الأحمر لن يعجبوا بنقل هذه التمثيلية الجيدة بسبب هذه التقلبة النافهة . بل وقد تترك آثارا سيئة على المقاتلين . وتقرر في نفس الجلسة الا تقتل لعاليا ، بل يقول لها كارول «ذهبي إلى البيت ، إنتها التمسيسة» فتبكي بكاء مرا ، وتخرج .

وعهد دور داشا الى انيسيا . ودور كارل الى لاتوفين .
 وارادوا امتداد دور فرانتس النبل والوغند الى بايكوف ، ولكنهم
 خافوا ان لا يضبط نفسه فيكون اضحكة لدى المتفرجين . لان
 الجنود ما ان يروا لعبته حتى يتفجروا ضاحكين . وتقرر ان يمثل كوزما
 كوزميتش دور فرانتس ، ولكي يبدو اصغر عمرا الزم بحلق وجهه
 تماما . وعهد الى رجل ذي صوت كثيف من رجال الجيش الاحمر دور
 المعجز الكونت ماكسيميليان قون مور . وتناهت اغريبيستا
 والمقاتلون الشبان بقية الادوار . ودخل شخص يحمل فتيلة
 علبه كيروسين . واضيئت السقفة بالفتيلة المشتعلة الداخنة .
 وبدأوا التريبات قبل ان يتفجروا .

ولم تعد داشا الى البيت الا قبيل الصباح ، وظلت تحكسي
 طويلا لايفان ايليتش ، فضحك مقلها وهو جالس على السرير حافيا
 واضعا معطفه على كتفيه . . .

- لاتوفين يمثل دور كارل مور ؟ (ونفر وجمع ماسكسا
 بطنه) ساموت من الضحك . . . ولكن التعرفين لماذا اخذ الملعون
 دور كارل مور ؟ انه يغازل انيسيا . . . بينما الذرة شاريفين بان
 يفرى كيد . . . وكوزما كوزميتش ؟ فرانتس . . . هذا ممكن . . .
 اي ملاين سيرتدون ؟ يتخثرون في القمصان العسكرية ؟ سارسل
 المسئول عن الميرة . في الضيعة انصر معام من بتروغراد وعده
 مع محاقبه . . . ربما تحصل على الستر الطويلة والفرانك . . .

- انت تجميع بشكل لا يجعل في رغبة في ان امك لك .
 اتركني - وانسلت داشا الى السرير ورتعدت لصق الحائط ،
 وادارت ظهرها لزوجها . وعندئذ حشر البطانية تحتها يحضر ،
 وغطى قدميها بالمعطف ، لان الموقد قد برد . والبرد تسرب الى
 البيت . وقالت داشا ناعسة :

- كل شيء سيكون على ما يرام .

واخذ الفرج لا يتحدث الا عن المسرح . والقى سابوچكوف
 محاضرة عن الادب الالمانى في عهد «العاصفة والهجوم» فسيبسه
 العبارة العاصفين - شيلر وغوته وكليبتغر - بالنسور الفتيسة
 التي اغفلتها بروق الثورة الفرنسية العظيمة . واطمئ سابوچكوف
 بالاسئلة حتى اضطر الى ان يعلن عن سلسلة من المحاضرات عن

تاريخ نهاية القرن الثامن عشر . وقضى ليالي كثيرة مستضيئا بسراج .
 محركا قلعه ، عاصرا ذاكرته قائما يدخان التبغ لانعدام الكتب
 والمراجع . وكانت الاسئلة تتساقط عليه في المحاضرات كالانهار
 الجبلي ، فقد كان رجال الجيش الاحمر يريدون معرفة كل شيء .
 فما ان يذكر شيئا حتى يسال عنه بالتفصيل . وما كاد يتطرق الى
 الدينسبريغ حتى طلب منه ان يقص كل ما يعرفه عنهم .

وكانوا يستمعون اليه لساعات عديدة مقابلين التعب . وكان
 بعضهم يهون في غفوة . ثم يعز رأسه نافضا التماس عنه . وكان
 يجذبه الحديث عن الازمنة الغابرة ، والبلاد الاجنبية ، حيث كان
 اناس مثلهم وضعا طربوشا احمر على راس رمح ، واندفعوا وحدهم
 ضد العالم كله . وابتكروا ، وهم الجياح الحفاة ، تكتيكيا حربيا
 جديدا يحقق لهم النصر . وحتى انتصروا اولتقوا من ايديهم وارجلهم
 من قبل الذين لم يظنوا الى ان يقتلوا رؤوسهم في الوقت المناسب .
 وهتف سابوچكوف بصوت متقطع مجروح :

- آوه ، ماكسيميليان رويسير ، كان في وسعك ان تنتصر .
 وكان في وسعك ان تنفذ الثورة ! وقد عيشت يوم حثسك . حتى
 انزلت راية الكومونة السوداء من فوق بلدية باريس . . .
 وكانت الديكة تصيح في الافنية حين اقتبسل المفوض ايفان
 غورا . ودعهم :

- يا رفاق ، بعد ثلاث ساعات سينفخ في بوق الاستيقاظ .
 قاطعت داشا وهي تقوم بالتلفين :

- توقف يا رفيق فلانين ، انت تمثل شخصا ميتا . فلماذا
 تسعل متعمدا ؟ من اين لك هذه الطبيعية المقرقة ؟ مثل بصوة
 اكثر حرارة ، ضع نفسك في الدور . . . كل شيء من جديد . . .
 عثرت داشا بين الكتب التي جلبت من تساريتسج في مجلة
 مسرحية فيها مقالة لكوغول بعنوان : «استخدم كل ما هو تحت يدك»
 وقد امتلأت بالنفسد اللاذع للمسرح الفنى . وقبسه اشار
 المؤلف الى تعاليد ممثل الدراما الروس العظام الذين كانوا يخلدون
 بالالباب والقلوب بعقريتهم الوحشية . عنده ذلك كان المسرح
 ممبدا وتنيا . والستارة غطاء سحريا لتنايتا * . واسفاه ، ان نسل
 * ربة القمر عند الهون القدامى .

همة اضافية جزءا على اسراجها التام . واضطر المفوض الى التدخل ، فاستبدل ذلك بتوبيخ شديد . وهي الآن جالسة هادئة الى جانب لاتوغين وفي عينيها الزرقاوين الواسعتين حلم . وشفتاها تتسحمان تارة . وترتعثمان اخرى . وهما تلفظان الكلمات بلا صوت .

قال لها لاتوغين بصوت خافت :

- كانت في تربتنا فتاة ذات عينيّن صالبتين تدعى ساشا . وكنت آنذاك في الرابعة عشرة . وهي في السابعة عشرة . لست ادري هل كانت مشيبتها تلفت النظر ام شيء آخر ؟ كانت الفتيات يأتين من الحقل وهي مغمى في شال صغير ويلوذة كثارية اللون تحصل كياشة ، فكانت تبدو وكأنها ستعاك في اللحظة التالية . . . وزوجوها شيخا هرما . وذوت فتاتي ساشا . . . وانت تستغربين لماذا اشواتنا متلهفون (نورد خدا انيسيا قليلا وهو يتكلم ، وكأنه ينازلها) نحن نبحث عن حياة جديدة غير معروفة من قبل ولم يجربها احد . يا عزيزتي انيسيا . نحن جميعا نلكر في واحدة لا ترى حتى في العلم . . .

- لا توجد مثل هذه النساء .

- انت لا تعرفين ! ان مثل هؤلاء النساء يعيشن في جزيرة مرجانية في المحيط الهادي .

نظرت انيسيا الى وجهه العريض بعينييه المتباعدتين الثور والارتعش شيء في داخلها مرة اخرى . وسرت رقة حارة ندية في جسدها . ولكنه لم يكن في هذه المرة حثينا انويا خاشعا - فقد التقى ذلك بفضل الزمن - بل كانت تحس الآن بصرح . ضحكت ضحكة مقتضبة وقالت :

- وهل كنت هناك ؟

- لا بهم ذلك . . . ذلك مكتوب في سجل البحر .

- في اي سجل للبحر ؟

- في كتاب بحري عن مختلف المعانين .

- انت تكذب ، يا لاتوغين ، والاستماع اليك لا يربح .

- اسمعي انت ، وانا سامعي في كذبي . . . ولكن سأقول لك الحقيقة . فكرت ذات مرة ، يا انيسيا ، بان اقدم على عمل سيء .

مثل الدراما العبقريين قد انقرض ، وآخر ذرية له . ما عولت دالسكر ، بدل جزمة الممثل التراجيدي التقليدية بشدة من الورق . وذهب اولئك العظام الذين كانوا يهزون النفوس ليحل محلهم المخرج ، السيد المتعلم الذي صار يمرض للجهشور المحترم مزاجيا ، وستائر مهزوزة ، واوبوا باحقيقية ، وطئين العوض بدلا من نفس انسانية مضلوبة امام فاعة المشاهدين . ويهتف كاتب المقال : «لا ، ان المسرح الحقيقي هو قول العواطف الانامت !» استقت دائما من هذه المقالة بعض المعلومات العنلية التي ساعدتها في التهربات .

كان لاتوغين وانيسيا جالسين في ناحية ينتظران دورهما . كان وجه انيسيا خلال هذه الايام القليلة قد بدا عليه النحول ، فليس من السهل تقصن نفس انسان آخر . وفقدت انيسيا شهيتها ، واضحى الطعام يثير غثيانها . فكرت طويلا ، كيف تجعل اماليا قريبة الى نفسها ، ووجدت البتلة حين رأت في الكتاب صورة تلك الانسة في قستان عريض (تصور اماليا حزينة وقد وضعت خدعا على يدها) . ظلت انيسيا تمنع النظر طويلا في الصورة مرسلّة الزفرات ، وتصورت : عندما كنت والعة في مصيبي التي هسي افدح منها بكثير كنت اهيمن متشرّة متقلبة من قرية الى اخرى ولا ارى النور من خلال الدموع ، اعد يدى من اجل قطعة بانسة مسن الغير . . . لا ، ان الصورة غير صحيحة . لو كانت اماليا ، الرافلة بالحري والمخمل ، قد تحلّت مصيبة انيسيا لكالت يدها معوجتين في كميها الضصيرين المدلتلين ، ولكانت الدموع في عينيها !

وعن هذا الشكل ، وحينما قضينا انقلبت اماليا فون ادوليفن محبوبة كارل مور الى انيسيا . بالامس اناء التهربات صممت الجميع حين خلعت انيسيا قبعتها العالبة بنجبتها من القماش الاحمر وسبت يدها شعرها المثنائس ، وجلست على مقعد ، وتكلمت وكأنها تحس شفاف القلب :

«آه ، يعنى الرب ا يعنى الرحمة الكاملة ! لم اعد بحاجة الى الحب . . . ولا اطلب منك الا الموت . . . انا مهجورة ، مهجورة ! اتفهم انت رئين هذه الكلمة الرعيب : «مهجورة . . .»

ومصباح اليوم ، اناء التهرب فرض وليس القسم على انيسيا

تجرك ، ولكن احد الاشخاص تحدث معي ، مرغوا اني ، كما
يفعلون مع قطة . . . أم . . . لا بأس . . . الانسان ملك الطبيعة ،
شكرا على العرس .

نظرت البسبا اليه نائبة ، ولكن بدعشة ، وكان لاتوغي قد
رفع صوته حتى ان داشا تفرت بالقلم : «يا رفاق ، لا تعرقلوا
التمازين» .

تابع لاتوغي كلمة حسا :

- في منطقتنا كرجينتش توجد جماعة من طائفة الطوائسية ،
انهم يخصون انفسهم لانهم لا يستطيعون السيطرة على النفس .
وقد حكى لي احدهم قائلا «انا احلم بطائر النار ، احلم ولكن حين
افتح عيني لا اجد غير التعاسة الشوها» . . . وهم ياتون باعمال
متكررة ، ويسوطون زوجاتهم حتى حافة الموت . . . ويذهب احدهم
الى بيطاره - الحاماة البيضاء - قائلا : «القد روحى .» فيطفى ،
هذا روجه كما يطفى الشمعة . . . «عش ، ايها المخصى ، بغير
وسلام ، والله ملك . . .» لا ، يا انيسيا ، سنستلم بالدم ،
وتسلق بالصودا الكاوية ، ولكن سنصيده طائر السن ، ولو طار
الى آخر الدنيا . . .

دقت داشا بالقلم :

- ايها الرقيقان ، كارل ، اماليا ، المشهد الاخير ، غيروا
ترتيب المسرح . . .

حين لاح فجر الصباح القرمزي الزمهريري وراه ادخنة الضيعة
قفز فارس من فرسه قرب البيت الذي اتخذ مقرا لقيادة الفوج ،
وترك فرسه المكسو بقشرة من الجسد ، واخذ يطسرق الباب
بضراوة ، فتح ايقان ايليتش بنفسه الباب له ، فسلبه الجندي
طرفا . وفي ذلك اليوم ذاته جمعت كل العريات من الضياع المجاورة ،
وبدا الفوج مسيرته .

بدا تطويق جيش الدون لتساريتسين للمرة الثالثة على
التوالي منذ شهر آب . وفي هذه المرة وضع الجنرال مامونوف

تساريتسين داخل كماشة من الجناحين . وعلى بعد عشرين فرسفا
الى الشمال من المدينة خرقت افواج الغيالة الثلاثة للجنرال
تاتاركين الجبهة بضرية مباغتة . وطلعت على الفولفا قرب
حاضرة دوبروكا .

وبعد يوم بدا هجوم شبالة الجنرال بوستوفسكي جنوبا بالقرب
من ساربيتا . وكانت وحدات من فرقة دميتري شيبست الفولاذية
تدافع عن ساربيتا . ولم يكن شيبست نفسه موجودا ، فقد تشاجر
مع المجلس العسكري الذي حطر عليه الاستقلال بالثوبين والتفرد
بالامر ، ولخصته من الاعتقال سافر الى موسكو ليقيم الشكوى .
كانت الفرقة الفولاذية في فوران ، كان البعض يقول ان الرئيس
شيبست سيعدو كقائد جيش ، والبعض الآخر ان الرئيس اعتزل ،
ويجب الذهاب الى تساريتسين «في كتلة واحدة» لاقائه ، ولكن
الغالبية صدقت بما راج عن هروب الرئيس الى استراخان ، حيث
اخذ يجمع جيشا من المتطوعين . غادر حوالي الف وخمسمائة مقاتل
خيال الجبهة وغبروا الفولفا ، وساروا بمعازاة الضفة اليسرى الى
استراخان ، وتفككت الفرقة الفولاذية ، واستولى الجنرال
بوستوفسكي على ساربيتا ، وصار يهدد تساريتسين من الجنوب .
كان المجلس العسكري للجيش العاشر ، في توقعه لهذه
الضربات الجانبية ، اخذ قبل اسبوع منها يركز جماعة ضاربة مؤلفة
من لوائين للخيالة : لواء الدون - ستافروبول ولواء سيمييون
بودوني . الا ان هذين اللوائين لم يجدا الوقت الكافي للانحام
فحصل الاختراق ، وتحمل لواء الدون - ستافروبول الضربة كلها
على نفسه . وكان بودوني يمت الخيول ليل نهار لتجديته .

ووجه فوج كاتصالين الى مكان تركز الجماعة الضاربة .
طل اللوح يسير طوال بقية النهار ، والليله التالية - بعد توقف
قصير - ميمما نحو وهج كدو كان يلوح في الظلام القارس . وكان
الوهج يحجب ضوء النجم ، فارتفعت الشمس الى يمينه ، ولم تظهر
الا قليلا بين السحب الزرقاوية المتوهجة كالتحاس .

كان تليفين وايقان غورا وسابوجكوف يركبون الخيول ،
ورراهم كانت العريات الحاملة للجنود الحمر ، والمدافع وعربات
المتاح تمقت صفوفها عديدة في السهب الثلجي . وكانت خيالة

الاستطلاع تلوح على مسافة بعيدة . سمع الامران والموطس ، وقد اخذتهم الدهشة ، اصوات النصف الدفعم الغاضبة آتية من مكان ليس بالبعيد كثيرا . اطلقوا فرسانهم وحلفوا الفوج ورائهم ، وانترب اقدمهم من الآخر وتوقفوا ، وانرجوا الغارطة من الحقيبة ، واخذوا ينظرون فيها . كان المكان الذي امر الفوج بالتوجه اليه ما يزال بعيدا ، ولكن سماع قصف المدافع بهذا الشكل كان يدل على ان الجبهة قد اقتربت . ولم يكن لهم معها اى اتصال ، لا هاتفيا ولا بواسطة السماعة من راكبي الخيول . وكان من الممكن ان يقلب هذا الموضى الى حلاك .

قال ايفان غورا :

- هذا السهب الملعون ، نحن فيه كالذباب الزاحف على مفروض مائسدة . ومن حسن الحظ ان القوزاق لم يكتشفونا بعد .

قال تليفين :

- وكيف لم يكتشفونا ؟ ان لهم ساعاتهم ، وهم يراقبونا منذ خروجنا من الضياع .

انزل سابوجكوف قبعته حتى حاجبيه ، وادخل نحو رجال الاستطلاع .

وصلت العربات الامامية تجرها خيول شعناء الاعراف من العرق ، لاهثة الانفاس . امر ايفان ايليتش الجنود العمر الذين قفزوا منها بان يهرعوا لينادوا ويلوحوا للذين تاخروا ليتقاربوا ويتراصوا ، وشرق طريقه بين العربات فرأى كوزما كوزميتش ، وقد شد عنقه حتى اذنيه بالخرق ، يسوق الحصان ، وكانت دasha تجلس على كومة الدركور على العربة ، وهي ترتسدى قلنسوة ومعطفا ابيض من جلد الغنم ، ووجهها شديد التورد لاهسا كوجه الطفل . هتفت بشيء له وهي تقلص عينيهما من تصاعده الثلج ، الا انه لم يتبين شيئا مما قالته بسبب صريف العربات ، وضحيج الاصوات . ثم رأى الفريقينا جالسة مع ثلاثة جنود حمر ، وهى الاخرى اخذت كهتف يشبه ما مشيرة الى السماء بيدها المقفزة .

ماذا كانت تريد من هناك ؟ الذى ايفان ايليتش راسه الى الخلف ، وهو على سرجه فرأى يوضوح طائرة تلوح كالثائسر الاسود ،

وتظير اسفل من سحابة رقائقية كانت اشعة الشمس المعبسة تنتشر تحتها .

ثم رأها الجميع . ضرب ايفان ايليتش حصانه وشرق طريقه بين العربات صائحا : «تفرقوا !» . صاح ايفان غورا الضخم بصوت كتيق فارجا سابقه على الركاب : «اطلقوا النار على الطائرة !» انطلقت عربة مارة بايفان ايليتش تحمل دasha وقد لاح الرعب في عينيهار وكوزما كوزميتش يسوق الحصان باطراف العنان . وبدا اطلاق نار مضطرب ، فاختلت الطائرة بجناحيها المعكوفين وهدير محركها الضارى تصعد وراء السحابة ، وتناثرت من بطنها بيشات اندفعت صافرة الى الاسفل ، وانفجرت على الثلج الابيض كالاجمات السوداء .

كان الكثيرون من رجال الجيش الاحمر يلتقون بهذه التجربة الفظيعة لأول مرة . تراكضت بعض العربات بعيدا في السهب . وارتفع صوت البوق المطوط ليجمع الصف المشتت . وظل الفتيان ينظرون طويلا الى السحابة في خوف .

ثم بقى عليهم ان ينتظروا القوزاق انفسهم . سارت العربات متلاصقة في صفوف مترامية . رفعت الاعطية عن المدافع التي كانت تسير بطيئة في مربع ممدود . وفي الغروب لاحت معالم القرية الى الامام ملونة بلون ليلفى . اقبل سابوجكوف يعده من تلك الجهة مع رجلين من رجال الاستطلاع . وتقدم من تليفين وايفان غورا متنعلا مرحا ، وخلع طاقيته ، ومشط شعره الجبلل بيده .

- كل شيء على ما يرام . لا يوجد احد في الضيعة غير النساء والاولاد . ويعدنا ، عن بعد خمسة فراسخ توجد قرية فيها قوزاق ، قاطعه ايفان غورا غاضبا :

- قوزاق ، قوزاق ، يا لها من اخبار مطمئنة ! ولكن ايسن قواتنا ؟

- اتقول لك لا اعرف . . . تركت قواتنا القرية ، كما انها لم تكن في الضيعة .

قال ايفان ايليتش :

- يجب احتلال الضيعة . ولكن لن اتقدم بعدها خطوة واحدة حتى اتصل بالجبهة .

احتلوا الضيعة في الفسق . وكانت تمتد على حافة خندق
مغور بالبياء . اخذ الجنود الحرس يدفون على صفقات التوافقة
صالحين في ترحيب : « يا اصحاب البيت ، اخرجوا ! » ودخلوا البيوت
المتعمدة الدافئة . ولكنهم لم يجدوا غير امرأة مع طفل وراء الموقد
في احد البيوت ، وعجزوا تدمدم من الخوف وراء موقد في بيت آخر .
وكان جميع الرجال قد هربوا الى القرية اللوزيانية . امر تليفين بان
يتخذنوا . وسه طرقت الشوارع بالعربات المتلاصقة . وكان
تليفين قد ارسسلسل سايوجكوف قبل زوال ضوء النهار مسح
جماعة من المتطوعين في استطلاع في العسق ليتصل بالجبهة خلال
الليل .

مر الليل في توجس . ورغم ان القوزاق ليسوا عشاق القتال
في الليل ، الا انه كان من الممكن توقع اية حيلة منهم . كان
ايغان ايليتش وايغان غورا يقطعان الضيعة من طرف الى آخر ،
ويسيران على الجليد الذي ما يزال غير متماسك ليعبرا الى الجانب
الآخر من البركة . كانت السماء مليدة بالغيوم ، وحسب الغصف
المدنم في الشمال الشرقي ، وهبت الريح حاملة الرطوبة ، وخفضت
شدة القوس ، ولم يعد التلج يتخشخش تحت الاقدام .

دعلم ايغان غورا وعمقا وهو يسير الى جانب تليفين :

- مضيئة . وقتنا في مضيدة حقيقية . لم تستطع ان تسير
بالفوج الى المكان المعين له . . . عازا ! انهم يبحثون عنا ، ونحن
نبحث عنهم . يا لها من ليخة ! من المعلوم ؟ من ؟

- دع عنك . لا لوم على احد .
- ايا سيبالون اولا ؟ اياي ! وهذا حق . مفوض ضاع في
السهب مع فوج . آه ، ليخة ! .

انطلقت طلقة منفردة بصوت رنان . توقف ايغان غورا بفتة .
وسمع دقات قلبه . وفجأة بدأ اطلاق نار عاصف . ثم هذا فجأة
كما بدأ . ولم تبق الا وشوشة الناس وهم يتبادلون الحديث
وقد خرجوا من بيوتهم والنوم عالق في اجفانهم . قال ايغان
ايليتش :

- الفتيان متوترو الاعصاب . شباب لم يقع تحت الثيران .
تعال ندخن .

قبيل الفجر دخل البيت برهة متخطيا ارجسلا التالمين في
حذر ، ووصل الى الموقد بالتلمس . بحث يد داسا عنه في الظلام ،
ومسدت عنده . فالصق كلها الدافئة على شفتيه .

- لماذا لا تنامي ؟

- اتعرف فيم افكر ، يا ايغان ؟ اذا طال مكوثنا في الضيعة
فلاننا في آخر الامر سنتمثل «للمصوص» في الغراء . بل ونحن في
العاطف ، فليس هذا المهم . . .

- بالطبع ، يا داسونكا . . .

- قمتا بالعمل في حماس . وسيكون من المؤسف ان يتسبع
كل شي هباء

- صحيح . . . فدا سألحق في الامر ، فقد تكون هناك
سكيفة . . . ناصر ، يا حبيبي . . .

وخرج الى الشارع ثانية ، واستنشق نفسا عميقا من الريح
الرطبة . لم يستطع ايغان ايليتش حتى الآن ، بعد تلك السنوات
العديدة من الاشتياق ، ان يعود ذهنه على انها قريبة منه ، وادفة
تحت معطف من غراء الغنم على الموقد . في هذا البيت الواسع . .
«انها لا تنام من الفلق . . . لم تقسسل كلمة واحدة . . .

ولكنها سرت فمدت يدها ل . . . اية امرأة مدعشة هي ! . . .
وتأثر ايغان ايليتش تأثرا شديدا بتحسبها اياه في الظلمة ،
وانطباع كلها على شفتيه ، حتى احس بان وجهه يلتهب في الريح . . .
امن المعقول انه مغفل ، على اية حال ؟ لا ، يا غريسيزي . هذه
سخافات ، فارتكها . . . انها صديقتك ، نعم ، نعم . نعم . . .
ووقية . نعم ، نعم ، نعم . . . فكُن سعيدا بذلك . . .»

انه لن يستطيع ان ينسى ابدا تلك الانسيات المظلمة في
بترسبورغ ، حين كان يهرع الى البيت حاملا فطيرة ، او شيئا من
العلوى حصل عليها لداشا ، فلا يوحى لها بغير التفور والذعر . . .
يعتبر انه كان ينطوى على شي من هذا ، وما زال كذلك . ولكن
يا الهي ، كم أحب هذه المرأة ، وكم عن اليها !

اقبل ايغان غورا من الظلمة ، وقد حشر يديه عميقا في جيبي
سترته .

- وكيف لو امسكوا بسايوجكوف ؟

- من المحتمل جدا . . . سارسل في الفجر بعثة استطلاعية اخرى .
 - كان يجب ان اقبل ذلك في وقت ابكر من ذلك . ابكر بكثير - واخرج ايفان غورا يده من جيبي . وضرب يبهته بقبضته - لم تثبت اعليتك لما اوكل اليك . ايها الشيوعي ! حتى اذا خرجنا من هذه العادنة بسلام فانت لن اغفر ذلك لنفسى . . . لو كان الامر بيدي لقدت مثل هذا المفروض الى ما وراء عتيس الغلال . وودعته الوداع الاخير !
 - ايفان ستيبانوفيتش . انا مفسوم بنفس الفجر اذا كان الامر كذلك .
 - دع عنك ! حسنا . لنذهب . وتدخن . . .

سار سيرغي سيرغيفيتش سايبوكوف مسح خبسة من المستلمين المتطوعين في السهب على امل العثور على اية دلائل تشير الى الجبهة . الا ان السهب كان غاوبا دامسا لا يتفد فيه البصر . استعملوا اعداد التتابع واستهدوا بالبوصله . تعبت الخيول تعباً شديدا . وهي لم تعلم . واخذ الحصان الذي وضعت عليه الرشايشه يعرج . ويجذب العنان . امر سايبوكوف بان يترجلوا . وبقوا للجام وحزام السرج . اخرجوا القمح من الاكياس المشدودة على السروج . وسكبوا منها مقادير في قبعاتهم واغشوا بعلصون الخيول . مولين ظهورها وجه الريح .

ايها الرفيق الامر . وجدت تفسيراً لاخفاقتنا في الاتصال بالجبهة - قال شاريفين مختاراً كلماته بروية . كما هو دائما - الجبهة متركزة . . . (وتشلع وعسر عليه تحريك شفتيه) نحن مدنا جناحيها في منطقة العمليات والقوزاق متمركزون . . . ربما هذا ممكن ؟

- آوه . القوزاق . القوزاق . ذرية التماسيح الكاذبية الخبيثة ! الى جهنم وبئس المصير !
 قال لاتوغين ذلك بلهجة جادة . انفجر بالضحك الفتيان الشبان الثلاثة الذين جندوا من القرى القوزاقية . اجاب شاريفين راسا :

- ليس الوقت ملائما دائما للمزاح . يا رفيق لاتوغين . يجب كبح البذاءة في الامور الجدية .
 قال سايبوكوف بصوت خافت :
 - كفى . يا اولاد . لا تتشاجروا .
 صلصلت الخيول يشكاتها . وهي تمضغ حبات القمح بقرقشة . وكانت الريح وراه ظهور المستلمين تصفر في مواسير البنادق .
 - امضغ . ولا تعبت يا وباء !
 صاح لاتوغين حين اخرج قمرسه بوزءه من القبة واخذ يعنسى له راسه .

قبل هذا بوقت قصير حين كان المحاربون الحمر مجتمعين عند البئر في الضيعة نادى سيرغي سيرغيفيتش سايبوكوف على من يريد التلوع في مهمة استطلاعية . فكان شاريفين اول من جاء اليه قائلا «انا ذاهب معك» وفي نفس الوقت لم يحجم ليضيف متنعلا : «لا تثق ايها الرفيق الامر . انتى قادم لا لاشهار شجاعتي . بل عن وعى . ككومسومول .»

وسمع لاتوغين هذا الكلام وهو يسوق خيول المدفعية الى البئر فضحك مع رجال آخرين من الجيش الاحمر . وراى وجه شاريفين الاحمر المنفعل . . . «آخ . ايها الشيطان الافطس . انت تكذب . لن تتلوق على» وهز كتفيه . وتقدم من سايبوكوف :
 - الا اكون زائدا عليكم . يا سيرغي سيرغيفيتش ؟ وسعى ان اذهب الى البطارية . واستأذنها بالخروج .

وكان طوال الطريق يتعارض يشاريفين . ويضحك الجنود الحمر . والآن لعنت البذاءة . فوبخه الامر . هكذا اسكب لاتوغين بقية القمح في كفه . والتفاحا في كفه .

- يجب ان نمسك اسيرا . والافستدور في السهب بلا فائدة . . . عندئذ سنعرف اين تتركز الجبهة . . .

قال شاريفين مؤكدا :
 - حقا ! اقتراح محقول .
 - الى الخيول . ايها الرفاق !
 ليس سايبوكوف قبعته . والجم حصاله . وشد حزام السرج

متنحما ، وقفز على السرج ، وقبل الفجر اشتد الصقيع ، ولم يكن الليل على حلكته السابقة ، وكشفت النور المخشوش المبرش بالصباح عن حراق السحب الكثرة ، والطلق الفتيان في عمو متكبين على سرورهم .

- ففوا ! ها هم ! - قال لاتوفين ، وأخرج بتدقيته من فوق رأسه فوقما تبعته - انهم ستة ... سبعمة ! - وفي تلك الكثرة المخشوشة لم تستطع الا عينا ، عينا بهار ، ان تتبيننا شيئا ممسوح الملامح كلا - لا ، ليس هنا ، اللثة - همس للمستطلعين الذين اقبلوا عليه - ليس في هذه الجهة ... اولئك هم ، يلوحون بالكاد ...

وبينا كانوا ينزلون الرشايش من على ظهر الحصان على عجل تردت كركبة خيول ، ولاحت اشباح خيالة متضخمة غير واضحة .

صاح لاتوفين بصوت وحش :

- اتقوا اسلحتكم ، واستسلموا ، ايها الفساق ! وضرب حصانه بياسورة بتدقيته بطريقة غريبة على راكبي الخيول ، وانطلق ، فاندفع شاريفين في اثره ليحقق به . زعق سابوچكوف بصوت حاد « عُد ، عُد » توقف الفوزان برعة - وكانوا من رجال الاستطلاع ايضا ، على ما يبدو - ثم اداروا خيولهم ، واخذوا يتعدون . اطلق لاتوفين عدة طلقات من على سرجه - جنح فرس كانوا يرقل في المؤخرة فمال براكبه وسقط اما الآخرون فكانوا على مسافة بعيدة فلا تكاد العين تراهم . دار لاتوفين وشاريفين حول الفارس الذي قفز من فرسه . نادي لاتوفين وهو يتصارع مع الفارس قرب الفرس الساقط : « تعالوا ، يا رفاق ! » وعندما اقبلوا عليه كان راكبا فوق الفوزاني وكانه راكب فرسا ، وقد لوى يديه . « ليس كبيرا ، ولكنه رجل ركين ... » كان الفوزاني منبطحا

على وجهه ، وخده مفرغ في الثلج ، يشخر مقلصا عينيه في غشون . امره بالتهوس ، ودفعوه ، وقلبه على ظهره . اخذ الفوزاني يشتم شتائم مقلدة بذيئة وكانه يحرضهم على قتله بأسرع وقت . امتنع سابوچكوف ، وطربه بغد سيفة : « انهض ! » رفع الفوزاني رأسه قليلا ، ونظر اليه نظرة وحشية ، ونهض مترنحا . كان رجلا

تصير القامة منحدر الكتفين ، ذا لحية عريضة كالهالة منطخعة بالثلج .

صاح سابوچكوف به :

- امسك لسائك ، يا بذي اللسان ، يا خالق الدياج ، اعامك أمر الفوج ، فاجب عن اسئلتى .

مد الفوزاني ذراعيه المشدودتين في حزام وراء ظهره ، ونظر الى الواقفين امامه بعينين مستديرتين صفاوين مديرا لحيته . وفجأة لعق شفتيه ، وقال لواحد من المعارين العمر مورد الوجنتين متهميا للضحك :

- انا اعرفك . انت ايسن عم كوركين ، الا تستحس من نلسك ؟

- بوه ، وانا ايضا اعرفك ، ياكوف فاسيليفيتش ...
- مرحبا ، ياكوف فاسيليفيتش ، على الرحب والسعة - قال لاتوفين ، وضحك المعارب الاحمر ثانية غير ضابط نفسه - يا ذا اللحية العجيب ، نحن نبحث عنك طوال الليل ... اين فوجك ؟ ومن اي قبيل هو ؟

لحاء سابوچكوف ، واخرج خارطة ، وشرح بالاستجواب . كان الفوزاني يرد كارها ، ثم فكر على ما يبدو بان في الامكان ان يكسب الوقت في الحديث ، وان الحمر الملاعين سيبردون قليلا ، وقد يجد مرجحا ، فاخذ يتحدث . ومن كلامه عرفوا ان الجنرال تاتاريكين قد حرق الجبهة ، وان لواء الدون - ستافروبول اوقف نجاح تاتاريكين عند حده ، وان معركة دامية تدور رحاها الآن قرب دزوبوكا حيث تتجمع قوات البيض والحمر على السواء .

وعثروا على رأس الخيط لشيئا ، وقرروا ارسال الفوزاني الى الفوج مع واحد منهم ، اما الآخرون فيجب ان يتوجهوا الى دزوبوكا غير متسلقين على خيولهم من التعب ليبلغوا القائد بوصول فوج كاتشالين . وهنا فقط تساءلوا : اين شاريفين ؟

نادى لاتوفين :

- ميشسكا ! هل غفوت مع الخيول ؟

كان حصان لاتوفين يلق وقد وطأ العنان . ومن تحت بطن حصان آخر دل عنقه التحيل لاحت سافا شاريفين معكوتين بشكل

غرب ، كان شاريفين يحضنن قريوس سرجه ضاغطا ويهسه عليه .

- ميشكا 1- وامسك لاتوغين كتفه بفرع ، وجذبه اليه -
يا اخ ، ماذا دهاك ؟

مال شاريفين الى الوراء ، وسقط عليه ثقيلًا ، كان وجهه يلمن التراب ، ومعلمته مشبعا بالدم من صغره حتى حزام الخرايطش - القساء لاتوغين على الارض يرفق ، وعري بطنه الابيض ، وضغط بكفه على جرح دام من اثر طعنة .

- انت الذي طعنته بالسيف ؟ آخ ، ياكوف ، ياكوف ...
خلع لاتوغين معطفه وسترته ومرتق ثيابه من ياقته ، ولله كجديلة ، وانشد يشد بطن شاريفين بحوية وخفة .

- سيرغى سيرغيفيتش ، يجب نقله الى الضيعة .

- ولكن كيف ؟
- ما هذه «كيب» ! ... استطيع ان اخذه وحدي ، واسوق الاسبير ايضا .

نضح عرق من وجه شاريفين الشبيه بوجوه الموتى ، ودبت الحياة في عينيه المملوتين ، وعاد اليهما الوعي والاستغراب والذعر مما فكر في نفسه : ماذا حصل له لينهار جسمه الفئ القوي الذي لم يعرف المرض قط ...

- يا رفاق ، يا احيائي ، ماذا علي ان افعل الآن ؟
- عليك بالتلج ، يا عبيط .

ولرف لاتوغين الثلج ، ووضع على شفتيه .
وخلال انتشالهم بشاريفين ، وانزاهم الرشاشة من فوق الحصان الذي اشد يمرج تنورت الدنيا تماما ، وسساقات الريح السحب الواطئة المهلهلة النائرة مطرا خفيفا متلججا . ولشمسة اغفاسهم لم يلاحظوا خشودا ضخمة من الخيالة آتية من الجنوب مع غمام من الضباب .

دعهم السهوب يوقع الحرائر . مرت طوابير متواجسة من الخيالة تعدو ، وعربات مدافع وزشاشات تجرها الخيول . نظر المستطلعون اليها ماسكين خيولهم من مقاودها . قات الاوان ولم يستطعوا التراجع .

واكتشف امرهم ، فانفلض حوالى عشرين فارسا من مقدمة الطابور العابر ، وانطلقوا ليلاحقوا بهم . التفت سابوجكوف فرأى لاتوغين وقد بدا عليه الجهد والشحوب يستل سيفه بيده ، وحرك المحارب الاحمر الضحوك تراسس يندقيته بلا غاية ، وغضن وجهه كله ، وكانا من الم ...

هتف الفارس الذي كان في المقدمة بشيء ما ، وانسار الى رجال الاستطلاع . كان في قبعة مائلثة من فراء الاشم ، وعباءة قوزاقية سوداء واسعة عند الكتفين تغطي حصانه الضخيم حتى اعلى ذيله . اطلق سابوجكوف النار ، الا ان لاتوغين اسرع فنسقط عليه من السرج ، وامسك يده :

- اللعنة لا ! لا تطلق ! انهم جمعنا !
واقرب العيالة . لرمى الذين جاؤوا من الجانبين على خيولهم وهم يطوقون رجال الاستطلاع . اندفع الرجل الطويل ذو العيابة مضطجعا بسابوجكوف ، وهزه من صدره بقوة اخلت كلتا قدميه من الركاب .

- اعنى ا من انتم ، ومن اي وحدة ؟
وتقلبت عيانه السوداء وان ، ووقف شعر شاربيه ، وما كاد يسك نفسه من ان يضرب سابوجكوف المرعوب بمقبض سيفه .

- نحن من فوج كاتشالين للشمشاة . نعالون ان نتصلل بالجبهة .

- لا داعي لمحاولتك والجبهة بالقرب من انك . - اجاب الرجل ذو الشاربين وقد برد غيظه واعاد سيفه الى شمهده في قرقة - اركب حصانك وتعال معنا .

- معنا جريح ...
- آو ، يا رب . هل فوجكم كله يمثل هذه البلاعة ؟ ضح الجريح على الحصان مع هذا الشاب الركين - وانشار الى لاتوغين - وما هذا البطل ؟

- اسير قبضنا عليه .
- اعط الاسبير لنا ، (تلعثم سابوجكوف ليقول ان الاسبير يجب ان يرسل الى الفرج) آه ، يضعب علي التكلم معك . سيتحدث

معك رئيس الأركان ، يجب ان يكون لك ادراك - وعقل العبادة
يكتفه ، وانطلق بعدو سريع ، وكان الفرسان يتعطر مرعا تحتسه
ناثرا الثلج بحوافره اللامعة . وبخ الجميع وراه بمن فيهم لانويين
يسند شاريفين ، والاسير الفزازي المحلول اليدين الذي دفن
عبوسه في لحيته المريضة فجلا وحزنا .

اندعش الخيالة يشد من سؤال ما يوجكوف : من هؤلاء
الفرسان المتطلقون بسرعة في طوابير زاحفة ، وهم الآن يلحون
اشباحا مبهمة من خلال الضباب والمطر ؟

- الا تعرفهم ؟ انهم لواء سيميون ميخائيلوفيتش بوديوني .
- هل استرحت قليلا ، يا داريا ديميتريفنا ؟ لماذا يبدو
القلق على وجهك ؟ منذ الصباح لم تأكل ؟ اها . . . حلبت ملة
جردل من الحليب . صدقيني بودي ان اجلب منه شيئا لك ، ولكن
المحاربين الحمر شربوه كله ، وقتننا العيز . واكنا ثلاثنا .
وهكذا ملانا بطوننا .

كان كوزما كوزميتش يتعجر بعنفوان الحياة . وكانت داشا
لا تستطيع النظر الى وجه الحليق تماما بشكل يبدو خاليسا من
اللياقة : هناك صغير كثير الحركة وفم مكشوف اجرد . كانه نفسه
يتوسل ان يغطي . استيقظت داشا في وقت متأخر فلم تجد اجدا
في البيت ولا في الفناء . كانت في الهواء رائحة من الرطوبة المضاحية
لدويان الثلج ، ورائحة اسطبلات ، وكانت لسمائم من الضباب مغلقة
على السطوح القصية . واما كوزما كوزميتش من الفناء المجاور
فغير السياج بحيرة واخذ يرقص حولها ماسحا يديه الصغيرتين
القدوتين .

- اولا ، ان كل شيء يخسر وعلى ما يرام ، يا داريا
ديميتريفنا . . . وزيوك في الجانب الآخر من البركة . اما انت فقد
كنت تظلمين بنوم عميق فلم تسمعي بالتراششق بالثار . اراد
الفزاز ان يجسوا ايضا ، فرددا عليهم ردا حادا جعلهم يتراجعون
الى قريتهم لا يلحون على شيء . ما زلنا نلحق الخنادق - ذهبت الى
البطارية فعرفت ان كارل مور لم يعد حتى الآن من الاستطلاع .
مرت انيسيا ومعها برميل ، وقد تغير وجهها ، فشققتها مزمزمتان
وانها مديب . ولم ترغب في الكلام معي . هذا ملخص الاحداث

الخارجية . اما بخصوصك فغذى جردلا ، وافرغ الماء الدافئ من
المرجل ، ولتذهب لتعلب البقرة . فليس هناك مهدي للروح
والجسد احسن من لمس حلمات البقرة لا سيما بالنسبة لمنقلة
حاملة .

ضحكت داشا ، الا انه اصبر قائلا :

- شينلر هو شينلر ، ولكن اصحاب ضيعتنا رحلوا دون
ان يسقوا ماشيتهم او يطعموها ، او يحلبوها . وهذا ليس
بالاصول - اذهبى واجلبى الجردل .

- ولكنني لا اقدر على حلب البقرة ، يا كوزما كوزميتش .
- جوب نموذجي . لم تكوني تقدرين على شيء ، يا داريا
ديميتريفنا . لم تكوني تقدرين على امساك الابرة ، وكنت تفقدين
زوجك الى الابد بسبب عدم مقدرتك هذه . ولكن سنحلب الحليب
واعلمك كيف تصنعين زائق الحليب ، وكيف تقفلي البيض على
شظايا الخشب وسياتي ايفان ايليتش جالعا كالثلب . فتقدم له
زوجته الجميلة المقلدة والشحم المقدد ينش فيها تشيشا
مجزئا . فيشكب عليها . واذا بك تقنعين له الرقائق ! قسم
تجلسين قبالة وتظنرين اليه بابتسامة هادئة . فتبدو له
مفوضة كابتسامة الجوكند . هؤلاء من زوجات قسواد الجيش
الاحمر !

واصر كوزما كوزميتش على رايه ، فان اية فكرة تخطر له
تبدو كسوكة في راسه ، والافضل ان توافقه عليها . طوت داشا
ثوبها في الزريبة نصف المظلمة ، وقرصت تحت البقرة فلم
تضربها هذه بركلها ولم تركلها . غسلت داشا الضرع بالماء
الدافئ . وابتدت تسحب الحلمات المحرشفة . كما علمها كوزما
كوزميتش المقرص خلفها . وكانت تخشى ان تنقطع الحلمات
ولكنه كان يردد : « اسحبي اقوي ، ولا تخافى » . ادارت البقرة
العريضة راسها وغفلت داشا بتشييقها الصاحب ونفسها الحسار
الطيب . رنت خطوط الحليب الدقيقة وهي تسقط على الجردل
وتلكرها بالطفولة . لقد كان ذلك عالما ابكم «واطنا» و«لطيفا» لم
تحس داشا بوجوده قبل هذا . وهذا ما فاتته لكوزما كوزميتش
حسا . ففهنس لها ايضا وراه ظهرها :

- فقط الا تقسوى ذلك لاحد ، فانهم سيضحكون منك
قالين : داريا ديمترييفنا كشفت في زريبة الابقار عالما مجهولا .
هل تعبت اصابعك ؟

- بشكل قطع .

- اتركى ... (وترفص في مكائنها) .. بهذه الطريقة ، على
هذا النحو ... اى ، اى ، هؤلا ، هم المثقفون الروس ا كانوا
يجنون عن الحقائق الازلية فوجدوا بقرة ...

- وانت ؟

- انا ؟ وترك الحلب من شدة الازعاج .

- تجلس تحت بقرة وتنتلسف .

- يا عزيزتى ، من الافضل الا تحاولي المشغول في جدل مع
كس سابق .

وتناول الجردل وخرج مع داشا من الزريبة الى البيت . حيث
اخذ يقطع قطعة خشب الى شظايا .

- التفلسف هو تجول الافكار . كان يوحان جورج هامان
المدعو بالساحر الشمالى يؤكد ان «وجودنا ووجود الاشياء الاخرى
خارجنا لا يخضعان للبرهنة ابدا ، ويتطلبان الايمان فقط ...»
ايضى اذا لا يوجد ايمان لا يوجد عالم ايضا ؟ لا انا ولا انت ؟ وان
هذه ليست شطبيسة بل لا شيء ؟ افعل هذا «لا شيء» سنغلى
البيضى ؟

ووضع شظايا الخشب على الفريز الموقد واخرج من الموقد
بعض الجمرات ، واخذ ينفخ فيها .

- ولكن فلسفة الحياة ؟ اخر ، يا داريا ديمترييفنا .
ادرسى الحياة واغرفها واستوعبها ... فالحياة بدون تفعل العقل
الرفيع تسير في طريق خيبت ، ان وجودى حقيقة ، لا ذرة للشك
فيها ، وهي بالنسبة لى مهمة للغاية . ولما كنت معجبا للعشرة
والاستطلاع فانتى اريد ان ارى كل شيء ، واقفهم كل شيء . ولن
يمضى وقت طويل حتى اعرف كل ما يدور حولنا وفى داخل نفوسنا .
هذا ليس ظاهرة عنوية بل تحت توجيه العقل البشرى . ولكننى
لا استطيع التحدث مع مفروضنا عن ذلك . غير انى اود ان اتحدث
مع شخص آخر في لباس مدنى ، واجلس معه ساعة من الزمن ...

داريا ديمترييفنا ، اخرجى الى الفناء ، فهناك صومعة مؤنسة في
اخره ، لاحظتها قبل حين ، بل وكسرت القفل على بابها . اجلسى
من هناك شيئا من المحلين . حفتين منه ...

واعده الفطور . وبدلا من ايمان ايليتش الذى كانت داشا
تنتظره من لحظة الى اخرى دخل البيت جندى احمر يحمل بتدقية
وكيس خراطيش ملوئا :

- امر الامر يشد الخيول على العربا وتحميلها ... وجمع
المتاع !

واستنشق من الله ، ودفع طائفته على علبائه ، وتقدم من
الموقد ممسكا بتدقيته ، واخذ من المقلاة ما استطاع ان يسكه
من الرقائق العارة ، وتشم خجلان ، وخرج .

صاحت داشا :

- يا رفيق ، يا رفيق . ماذا حصل ؟

- كيف ماذا حصل ؟ انظرى الى الشارع .

وفى تلك اللحظة حدث انفجار بقوة شديدة فبدا قريبا جدا
وكانه في الفناء المجاور ، حتى ان الزجاج تطاير متهشما في كلتا
النافذتين الصغيرتين .

كانت خطة الهجوم على تساريتسيف في كانون الاول قد وضعها
الاخصائيون العسكريون في مقر قيادة دينيكين . وقد اشار البارون
فراغفل وهو من اصغر الجنرالات سنا الى الاهمية الهائلة للسيطرة
على تساريتسيف . وصادق الاتمان كراستوف على الخطة . وازسملت
للساعدة جيش الدون فرقة تحت امره مايمايسكى بقيت بلا
همة بعد هزيمة الحمر في شمال القفاس ، وقد عززت باحسمن
الوحدات القتالية من جيش كورنيلوف وماركوف ودرزدوف . صار
مايمايسكى عبر الدونياس لتغطية مؤخرة جيش الدون الذى كان
مكتسوقا للضربات من الغرب . من ناحية اوكرانيا ، ولم يترك على
الحدود الشمالية غير قوات دفاع قوية . زحلت جيسون الفا من
القوات المنتخبة من جيش الدون نحو تساريتسيف .

وفى نفس الوقت كان المقر العام لقيادة الجيوش الحمراء
للمجهورية يضع خطة لمواجهة الهجوم . فكان على الجيش الثامن
الاحمر والجيش التاسع الاحمر المرابطين على الحدود الشمالية

للقاطعة الدون ان يدخلها من كلا جانبي الدون ، وبدفعا قوزاق كراسنوف البيضي الى حراب الجيش العاشر ، وبالجهود المشتركة للجيش الثلاثة يسحق جيش الدون في سهوب تساريتسين . وبعد ان يصر تمطقت الجيوش الحمراء في جهة مقابله تماما وتحرك غربا ، نحو الدينير ، وتظهر اوكرانيا من البيتلويين .

في هذه الخطة اغفل شيء رئيسي ، وهو ان خطوط ودوائر الغازطة العربية ، وشبكة الاشارات والارغام كانت تطلو تحتها صراعا طبيا يغفل بقوانينه الخاصة واحتمالاته ، وان هذه الدوائر والخطوط مختلفة في نوعيتها ، فبعضها كان يمكن ان يصب قوى جديدة في الافواج والاولوية والفرق الحمراء ، وبعضها الآخر كان يضعفها .

ولم توجه خطة مقر القيادة العام للجيش الحمراء في الاتجاهات التي تقتضيها الاستراتيجية العليا للحرب الاهلية . فان تحركها من الشمال الى الجنوب الشرقي عبر الدون وخوزر ومدفيدتسا وخلال القرى القوزاقية ذات البيول العدائيسية قد اضعفت قوة الهجوم ، واطالت مدته ، واعطت للعدو امكانية المتاوررة واعادة التنظيم .

ومثل هذه كانت الخطوات الخفزة التي اتخذتها فيما بعد القيادة السرية في داخل المجلس العسكري الاعلى للجمهوروية الذي صادق على تنفيذ الخطة المناهضة التي وضعها مقر القيادة العام . فان الخطة التي كان يبدو في الوهلة الاولى غالبا ومن الصعب تلسمه قد كبر خلال ستة اشهر فضاء خطرا جديا .

بما هجوم كانون الاول المضاد للجيش الحمراء . وقد جرى في منطقة ابعده كثيرا في شرق الدونباس ، حيث كان التناسي في مناطق المصانع والمنجم ينتظرون الجيش الاحمر بنفساد صير ليقيموا بانتفاضة . الا ان فرقة مايمافسكي قد بدأت تدخل المنطقة من الجنوب ومعها مدكات البنادق والمشاقق . ووقع الجناح الايمن لهجوم الاحمر تحت العطر . وتوقف الهجوم . ومن جديد تحمل الجيش العاشر قوة الضربة كلها للمرة الثالثة منذ شهر آب . كان العدو اكثر عددا واحسن تسليحا واغنى تموينا . وكان لديه اندفاع عازم لحسو الهجوم . وبدت القوتان غير متكافئتين

بشكل كبير . وارسلت تساريتسين الى الجبهة التعزيزات الاخيرة ، وهي خسة آلاف عامل ، كل ما كان في وسعها ان تجمه . وجاءت النجدة من الابداع الثوري .

في عام ١٧٩٢ ابتكر الشعب الفرنسي الجائع العائى المسلح بمزاريق مصنوعة بيتيا نار المدفعية الصافسقة ليسر القوات المدوية للاتلاف الاوربي ، وخلافا لكل القواعد الحربية قام بهجوم كاسح للمقشاة ضد تشكيلات المربعات الشهيرة للملك فردريك . وابتكر الشعب الروسي اشكالا جديدة لتنظيم وحدات الخيالة .

وكان من بينهنس لواء سيميون بوديوني الذي خرج من سهوب سانسك . ولم تكن قوته تكمن في البسالة وحدها . فقد كان القوزاق البيض يجيدون ايضا سقى الراكب الى نصفين . لقد كان لواء بوديوني محبوبا بالولا ، والانقياط ابتداء من حامل الراية ذى الشاربين الطويلين وحتى حارس العربات الملتحي . وقد شكلت كل كتبية ومفرزة من سكان قرية واحدة . وصار المحاربون الذين كانوا في يوم ما يصطادون الجنادب سوية في السهوب وهم صفار يتطون الخيول جنبا الى جنب . البناء وابتاء الاعمام في الصفوف ، والاياء ، والاعمام في عربات العمولة والرشاشات . ومنذ اليوم الذي خرج فيه سيميون بوديوني من قرية بلاتوفسكيا بتفصيلية من حوالي لثشائة فارس وحتى اليوم لم تحدث حالة هروب واحدة . . . ثم اين يذهب مثل هذا المحارب ؟ لا يمكن ان يعود الى قريته او ضيعته . فان ذلك يعنى العار والتموت امام محكمة .

وكان في اللوا محكمتان حسب عرف لم يدون في نظامه الداخلي : محكمة رسمية عسكرية ، ومحكمة رقابية غير رسمية . كانت المحكمة العسكرية تحاكم المحارب المذنب سواء على جيته في المعركة ، او عدم اطاعته للامر ، او وضع يده على مال الآخرين . وبلاضافة الى المحكمة العسكرية كان المحاربون انفسهم يحاكمون المذنبين في الحالات الخاصة . كانوا يجتمعون في مكان بعيد عن الاظار ، ويبدأون محاكمتهم لهذا الشخص . وكان يحدث ان تبرى المحكمة العسكرية ساحة المتهم آخذة بعين الاعتبار هذا الطرف او ذلك . بينما كانت المحكمة الرقابية تحاكمه بصرامة اشد ، وتصدر حكما عليه ، فلا تستطيع ان تسال احدنا عن مصيره .

وكان نظام القتال هو الآخر قائما على قاعدة جديدة غير مدونة أيضا في أي من قواعد الميدان . كانت الكنيسة تنظم نفسها في صفين للهجوم بالكتاسح . في المقدمة يسير المحترقون من الطاعنين بالسيف ذوى الأيدي الثقيلة وهم في العادة فرسان لهم تجربة كبيرة . وكانت ضرباتهم من القوة بحيث ترسل فرس العدو يرقط وعليه الجزء الأسفل من جسم راكبه . ويأتي وراءهم فرسان ماهرون بالتسديد من المسدسات والبنادق . وكل واحد يحمي في القتال الرفيق الذى يتقدمه . ويندفع الأولون ، وهم تحت حماية نار رفاقهم . ليغرسوا سيوفهم في العدو بجراة ودون تلمت إلى الواء . ولم يحدث قط ان استطاعت خيالة للعدو حتى ولو كانت أقوى عددا يمتزتين أو ثلاث ان تصمد لهجوم البودويين المركز . المؤلف من حلقات ذكية منفصلة متلاحمة فيما بينها .

كانت الضيعة تحترق في عدة أماكن . وتكرر الدخان بين المنوف المتلاصقة . واندلع اللمهيب نائرا الشرير وتنفذ النفس المحترق تحت السحب العائمة على الخاض . وكانت الحامم تحوم وتقع في النار . وكانت المشايخ ترسل الخوار في الزرابى . حطم نور اسيل السياج . وتحترق طليقا مندفا في الشوارع في خوار . وخرجت النساء من البيوت المحترقة وأكضات يحملن أطفالهن على أيديهن باحبات لهن عن ملجأ . ومن ناحية القرية القوزاقية وراء التلال طلت المدافع تصنف بلا انقطاع .

وفي منتصف النهار ظهرت من هناك صفوف القوزاق المشاة الأولى كقطا صغيرة مبنوثة على امتداد واسع . وهي تنوى الاطاحة بالضبيعة المحترقة ومعاشرتها . ودفع فوج كاتسلاين المتخذق في خنادق حفرت في عجل والقاه في النار . وكانت هذه الخنادق تبدا من دكان الحدادة في طرف الضيعة . وتمتد على حافة البركة . حيث الجليد الممزق بالفنايل اليهودية . وتلتوى نحو الطاحونة الهوائية على الرابية .

سار تليبين وإيفان غورا على فرسيهما بمحاذاة الخنادق تتبعها المربيينا مرافقة المفوض مرتدية قبعة مائلة من فراء الغنم على غرار ما تعلمته من التوزاق . كاسا يتوقسان

تارة بالقرب من مقرزة متخذقة إلى وسطها في احدود شيق ومتجمعة في مثل هذا الطقس . او بالقرب من حظيرة للرشاشات . إيفان إيليتش مررد الوجه ذو عينين بشوشتين . وإيفان غورا مسود الوجه ناعل من متاعب الليل . الا انه الآن قد هذا حين انقصح الموقف . عدل تليبين جلسته على السرج . ومرر يده المقفزة على شفتيه . وكالما يسمح الابتسامه منها . وتكلم مستغلا الصمت بين هدير الانفجارات :

- ايها الرفاق . لديكم الفرصة لانزال خسائر دائمية في العدو . اطلقوا النار بهدوء . ودون فزع وبانتقاء . وضاة لكل رجل . انا والمفوض تنتظر مثل هذا التسديد متم . انتقلوا الى الهجوم المضاد بالحرص في تعاون واندفاع . . . أحرمكم بالا تتراجعوا مهما تكن الظروف .

هو المفوض إيفان غورا راسه . وعتف :

- عاش الرفيق لينين ! ولتسقط الراسالية العالمية ! وبعد هذا الكلام ذهب الى الجاعة التالية من المحاربين . وبعد ان فرغا من الجولان في الجبهة كلها . ترجلا من فرسيهما عند الطاحونة الهوائية . خلال ذلك الوقت عرف رجال الاستطلاع ان قوات كبيرة من القوزاق قد دخلت القرية اثناء الليل . وكان من الممكن الاستدلال من الطريقة المتهوره التي هجموا فيها ان شهور فوج كاتسلاين في الضيعة قد فاجاهم بينما هم منهمكون في تنفيذ مهمة اخرى . وأهم - على ما يبدو - قد عزموا على تشليف الطريق من الحمر بضربة واحدة .

كانت الريح تصفر تحت سطح الطاحونة والتروس الخشبية نصر . وفي الجو رائحة بيتية للطحين والفتران . تنهد إيفان غورا بقوة . واشد يطل براسه من حين لآخر بين الألواح المغلوعة لعله يرى سيرغى سيرغيفيتش يلوح في السهب البنى الى الشرق . صاح تليبين بالتلفون في الأسفل ثم صعد السلم التسديد المرتقى . وقال متفعلا وهو يرفع المنظار :

- نحن نعيد عملية تساريتشين .
- اية عملية لعينة هذه ! نحن محاصرون كالغنم . . .
أكد لك انه قتل . فهذه هي الساعة الثانية .

- ليس من السهل قتل سيرغي سيرغيفيتش ...
- لماذا انت بشوش بهذا الشكل ؟

- يجب ان تعارب بزوح بشوش ، يا ايفان ستيبانوفيتش .
انتشر الدخان المتعمت من القش المحترق في اماكن درس
الحيوب واما فوق الارض باتجاه المهاجرين . والآن حسان من
الممكن تبين شخص متفرقة تترأض - تراجمت النقاط الامامية
للحمر الى الغنادق وهي تطلق النار . واستعدت جبهة فوج كاتساليين
كلها ، وكانت تحيط بالضبعة المحترقة مثل حذوة حسان معوجة .
هتف تليفين :

- اها ! اخلدوا وضع الاستلقاء . عصبوني لم يتحملوا
الموقف . هؤلاء الاوغاد ! انظر ، انظر الى الصفوف تستلقى ...
ايفان ستيبانوفيتش ، اذهب بحق الرب واخبر الجنود بلهجة اكثر
جدية بالا يطلقوا النار ... لا رصاصة واحدة بدون امر مني .

هتف بايكوف بخوف مقصود :

- يا ابن المفوض ! العظيمة ! اماكنها !

ونفض طاقم العظيمة التابعة للمدفع الاول والمؤلفة من
بايكوف وزادوفيتش وغاغين وانيسيا المساعمة ووقف كل واحد
في مكانه . ظهر ايفان غورا من وراء حائل طيشي لكوخ محترق
تتبعه اقربينا على بعد خطوة وراه . سارا نحو المفزة التي كانت
تغطي البطارية . اخذ ايفان غورا يتحدث الى الجنود الحمر . بينما
وقفت اقربينا الى جانبه متوترة كالسوط حاملة مندسنا في يدعا
المسيلة .

وتراهم صوت ايفان غورا الدافق :

- ... لا تطلقوا رصاصة واحدة بدون امر خاص . ايفان
الرفاق . احلزمكم من ان المغاللة تعنى رمس المخالف في مكانه ...
من بايكوف لحيته البيضاء من قطرات المطر :
- يا اخوان ، اياكم من هذه الفتاة حاملة المندس ، فانها
ترمي دون ان يرق لها جنن ...

اجابت انيسيا :

- لماذا تضحك منها ؟ اقربينا رفيقة امييلة ...

تحول ايفان غورا الى العظيمة بادي الجذ حتى ان طاقمها قد
جهد . وسارت اقربينا خطوة بخطوة وراه زوجها . وكانت مربوطة
به . كان المدفع الاول يقف فوق تركيب قريب من الواح متصلة
بعضها ببعض وعجلات عربات ، وحوله تناثرت مناشير وفؤوس
وقطع من الخشب . نظر ايفان غورا الى هذه الغرابية ، ودمعت
جفونه وسال :

- ما هذا ؟

اجاب بايكوف :

- من اختراعنا . ايها الرفيق المفوض ، تشبه بيرج سفينة
دائر .

- وما الغرض من عجلات العربات ؟

- لتدوير المدفع بسرعة . ابتكار حاذق ...

- هكذا اذن - واصل ايفان غورا سيره واقربينا وراه .
اشار بايكوف اليها بحاجبه قائلا :

- انا وهي في فرقة مسرحية واحدة ، يا رفاق . انا لا اخاف
من المفوض ، ولكن اخاف منها ... عينها مستديرتان كعيني
الغارة ، وغاليتان من الرافة ... آه ، يسا تسوان ، لاي شيء
تقاتل ؟

- اوصلتها له ، يا داريا ديستيرييفنا ... لم يسبحوا لي
بالدخول الى الطامونة ... هز رأسه في من الاعل وقال : « احقا ان
داشيتكا لفسها قد ضمنتها ؟ » قلت « بنفسها ، ولكن الفطائر باردة
مع الاسف ... » فقال : « انا احب الفطائر الباردة اكثر ... »
انقل لها الف قبلة ... »

- كل هذا من اختراعك .

- والله ، لا . . . هل سمعت بما حدث ؟ . . . صاحبتا
ايفانوف - اقمصد الطبيب - استولى عليه الخوف ، كالأطفال ، حتى
اصيب بقى ، واسهال . . . واغتاط المفوض قائلا « اعصابه تحتاج
الى تقوية ! » وامر بخلع ملابسه وصب الماء عليه عند البئر . . .

اسمع زعيقه ، اثم يصيون عليه الدلو الثالث . . . شيء مضحك !
انا ايضا جبان ، يا داريا ديميتريفتنا . . .
كانت داشا تفرح العزفة من النافذة الى الباب وكانت هي في
قفص . وقد صفت مواد التضصيد ، وفاحت في جو الغرفة رائحة
الفينول والبيودوروم . وكان كوزما كوزميتش يحوم حولها :

- تعلق بي حلم ما يفتا يراودني كل ليلة تقريبا . احلم
بان في يدي بندفية وقلبي يخفق كالخرفة ، وانا اطلق النار . اضغط
على الزناد بكل قوتي ، وكأنني اضغ كل نفسي في هذه البندفية
الملعونة . . . ولكن البندفية لا تطلق ، والزناد يتحرك بهمة
شديدة ، ويخرج من فوهة البندفية دخان باهت . والشخص الذي
اطلق عليه النار بلا وجه ، او لا يستطيع رؤية وجهه ابدا ، وهو
يتحرك ويتسع . فوا فظاعة ! . . .

- ليم هذا السكون ؟

سألت داشا وطمطقت باصابعهما ، وتوقفت بالقرب من
النافذة . . . بدأت بوكير السماء تهبط ، وتحدث نيران الحرائق .
ولم تعد تسمح للانجارات وصغير الغداف الممزق للاصباح ،
وسكنت طلقات البنادق . تقدمت صفوف التزواقي زاحلة ، واوشكت
على معاصرة الضيعة كليا . ابتعدت داشا عن النافذة وعادت تلوح
العزفة قائلة سيكون ثمة جرحي كثيرين . كيف ستعالج
الامر ؟

- المفوض سيرسل اغريبتنا ، وتلك مساعدة كبيرة .
وطلبت منه انيسيا ايضا وقلت له "ان مكانها ليس الى جانب
المدفع . رومانسية محض ان تكون الى جانب المدفع . . ."
لعمد لي حديثي . ما رايك في حلمي ؟

- قل الصدق ! هل ايفان ايليتش سالم ؟ وكل شيء بخير ؟
- اخرج رأسه لي من تفرجة في السقف ، والابتسامة تملأ
وجهه . وهو على ثقة مطلقة في النصر . . .
- اها !

وهزت داشا رأسها . كان يجب ان تجبر نفسها على عدم
التفكير في هذه الآلاف من الرجال الزاحطين الكوموش . فانها لا
تفهم في ذلك ، على اية حال . . . وبدأت تصاري جهدها لتحول

فكرها . وكانها تجر غزلا خرافيا مريوطا يعبل ، الى هذه الاشياء
هنا . الموضوعية على المضعدة ، ال الضمادات والفئاني والادوات
الجراحية . . . اليود قليل ، وذلك شيء مريع ! اطاعها فكرها
ببساطة ، ولكنه سرعان ما انسل الى هناك ، دون ان تلحظه ،
وكانما من خلال كوي غير متطورة ، موسعا عينيه كجبريتين . . .
آه . ما حاجة هؤلاء الناس الملحة الى ان يقتلوا كل الابرياء ، كل
الطيبين ، كل المحبوبين ؟ اي شيء يمكن ان يكون اكثر فظاعة في
الانسان من الكراهية ؟ وقد احدثت الكراهية بداشا وضايقتها
متحولة متصلة لتفرغ فيها حربة ستمسكها باصابعها
المرتعدة . . .

- لا . هذه وقاحة صرف . نعم - قالت داشا ذلك ، وروعت
التظرة الوحشية من عينها المشتمتين كوزما كوزميتش - لماذا
تنظر الي ؟ انا اسعر بالفتيان مثل طبييتنا تماما . . . لا يستطيع
تحمل الكراهية . . . الاثنى تربيت على الرقة ؟ وليكن
ذلك . . .

واخذت تنقل الفئاني واللحائف من مكان الى آخر بلا هدف :
- ثم انسا لا افهم : لماذا بدأت تلصق علي مثل هذا
الحلم ؟ . . .

- اها ، داريا ديميتريفتنا . الحلم تحقق . . . هناك
كراهية مطهورة كالحب . . . كراهية كنجسة الصباح على جبتي
عال . . . وهناك كراهية راسخة في الاحشاء ، وحشية ، متحجرة . .
وهي التي يجب ان تغالي منها . . . وانا ايضا قد دخلت منها في
عام ١٩١٤ . . . يقال ان بعض الروس كانوا في خارج البلاد حين
اغلقت التفتية ، ففرعوا الى آخر قطار . . . حياة العربسات الالمان
بصقرون الابواب على ايدي الاطفال الصغار . . . اما حلمي ،
الذي لا اجده في نفسي الرغبة لاقصه على المفوض او على اي شخص
آخر غيرك ، وفي مثل هذه اللحظة ، فيعني اثني مائتين . وان رحلني
على الارض قد انتهت - ونشج فجأة - بندفيق لا تطلق النار ،
بل تهس فقط .

- انا اكرههم ا - صرخت داشا فجأة ، واخذت تضرب
صدرها باصابعها المشبوبة الاطراف - لقد شاهدتهم وانا اعرف

تلك الوجوه : عيون قتلة محترقين ، ووجنات عليها بثور العرامة
ووقون غائصة ... اوفاد ! . . . مبلندو الاحساس ، جهلاء ...
ومثل هؤلاء لا مكان لهم تحت الشمس ! . . .

- اهدئي ، اهدئي ، داريا ديميتريينا . من الافضل ان
ترى هل غل الماء في الرجل ؟

ذهبت دانا الى النافذة مسرعة . في المساء الرمادي كان
الجود الحمر يمرن راكضين منحنين وقد وضعوا بنادقهم في تاهب
لل هجوم . بل ولمحت وجوههم المتوثرة الى حد التغضن . تعسّر
احدهم وكاد يسقط الا انه شمر ذراعيه ليوازن نفسه ، ومسر
راكضا ، ثم التفت مكشرا عن اسنانه .

ارتفع صاروخ فوق السهوب ، ونثر اسواء خضراء ساطعة
اضابت لدى سقوطها البطيء الطيور الرمادية المضغوطة في الخنادق
وشخص القوزاق الناهضة على مسافة قريبة لا تتجاوز مائتي ذراع .
كان شخص يجري بينهم وهو يدبر سيفه فوق رأسه . انطلقات
الاسواء ، وفي لحظة الظلام الدامس بدأ عتاف ظل يتعالى كريح
الزوبعة : «هوررورا !»

خلع تليفين قبعته ، ومرر كفه على شعره المبتل . لقد تم
كل ما كان من الممكن التفكير فيه والتنيز به وانجازوه . والان بدأت
المعركة النفسية ، كان العدو اقوى باربع مرات ، في القلب الظن ،
اذا ما اخذت بعين الاعتبار تجمعات احتياطياته التي كانت تلوح
بالكاد من خلال المنظار .

طلع ايفان ايليتش حتى كتفيه من ثغرة في السطح وهو يراقب
الوضع . ووجهه طرفت الضيعة يتيران الطلقات . ودار كل شيء في
عيني ايفان ايليتش . . . تجمعت زمر من الرجال هنا وهناك في
الخنادق . . . اخذ يبحث عن قبعته مفكرا «من الاسف ان تضيع
مثل هذه القبة ! . . . هبث الى الاسفل على الفور . ونزل مسرعا
الرابية الى الخنادق .

ارتد هجوم القوزاق الاول في كل مكان تقريبا وبالقرب من
دكان الحدادة فقد كانت المعركة مشتتة . كما توقع ايفان ايليتش .
لقد نشب هناك اشتباك ، وتعالمت ضيحات وحشية ، وتفتحت

قنابل يدوية . وصل راکضا الى حائط السقيفة الطينين ، حيث كان
يوجد الاحتياط . ولكنه لم يجد اعدا . فان المحاربين الحمر لم
يذهبوا انفسهم ، وتصرفوا من تلقاء انفسهم ، وانطلقوا الى
دكان الحداد لتقديم العون . كما هرع الى هناك ايفان غورا في عدو
وتبد منحنيا تحت ثقل كيس من القنابل اليدوية . . .

عتف ايفان ايليتش :

- يا مغوش ! ما هذا ؟ غوش ! لا يجوز ذلك !
لم يلفت ايفان غورا اليه الا بانفه الصارم الطالع من تحت
الكيس . . . وبعد خطوتين رآى ايفان ايليتش دانا تدخل
البوابة وهي تسند محاربا يتقز على رجل واحدة . توقف ايفان
ايليتش ، ووقع يده المتفرجة الاصابع وقال «ها . . . هذا ما
جئت من اجله . . .» واستدار وعاد راکضا الى البطارية .

- هل كل شيء على ما يرام في البطارية ؟
- كاحسن ما يكون الحال . مرجبا . يا ايفان ايليتش .
- ايها الرفاق ، اطلقوا قذائف الشراييل على الاحتياطيين !
صعد ايفان ايليتش على سطح قريب ، والصق المنظار على
عينيه . كان الاحتياطيون الذين لاحظهم قبل حين من الطاحونة
يقتربون بكتل متراصه . صاح من السطح :

- نار سريعة !
اخذت قذائف الشراييل تتلجر واحدة تلو الاخرى في عتمة
المساء الرصاصية . تماوجت صفوف المهاجمين . ولكنها واصلت
تقدمها . وظلت قذائف الشراييل تنفجر فوق الرؤوس اوطا
فاوطا . الا ان الصفوف طلت تتقدم . ارتفع صاروخ ، وتندل
كالاقص . كالرؤوس النارية فوق صفوف الجنود الصغار كجنود
اللعب التصديرية ليضيء عملهم المألوف وكانه يقول لهم مشجعا
«تقدموا الان . يا اخوان . زاملين على عظام البلاشفة . . .»
وما كاد الصاروخ ينطلق حتى ارتفعت الى اليمين في الشرق ثلاثة
صاروخ متتالية وهبعت كاسواء كدرة متحوسة شاملة
السماء كلها . وصاح تليفين :

- اجبوا بثلاثة صاروخ حمراء متتالية !

في عمدة النساء سار رجال بوديوني في قاع وهدنة مسطحة ،
 وولوا على الجناح الايسر للمهاجمين مباغتة وبقوة شديدة مزقت
 صفوف القوزاق المشاة واكتسحتها في برهة قصيرة من الزمن ،
 وبدأ الشرف الرهيب الذي يخشاه المشاة لدى التقاليم بالخيانة ،
 والذي لا منجز منه ، وهو الطعن في الرماحين ، وكانت اسوار
 الصواريخ المتطلقة من الضيعة تضره السهوب حيث لا مكان ينجى
 من الموت يتصل صافى ، التي الرجال اسفلحتهم وهم يركضون ،
 ولغوا رؤوسهم بايديهم ، وكان الظل الاسود للفارس وراكبه يخلق
 بهم ، ويقف الفارس البوديوني على الركاب مرنا ويميل جانباً ،
 ويلطم بكل سعة كنهه فيتهدج جسم القوزاقى تحت حوافس
 حصانه .

ولما رأى بوديوني ان قوات القوزاق قد دحرت في كسل
 الميدان وهي تولى هاربة اوقف فرسه ، ورفع سيفه صائحاً :
 «الى» واستدار مع خمسين فارساً اتبلوا عليه ، وانطلق نحو
 الضيعة . كان حصانه سريع العدو . اندفع سيميون ميخائيلوفيتش
 بوديوني على فرسه دافعاً جذعه الى الوراء ، على السرج ، مرخياً يده
 الممسكة بالسيف قرب الركاب لتستريح ، وقد انزل على علبانه
 قبضته الضيقة اللون من فراء الغنم لكي تطرى الريح وجهه العرق ،
 وتتخلل شاربيه بحرية . وكان الفرسان الذين ينطلقون وراءه
 مضطربين الى هز خيولهم للحاق به . ساروا على حافة البركة التي
 كانت نجوم الصواريخ الساقطة تنعكس على البقع المتحررة من الثلج
 فيها . فر بعض الناس مبتعدين عن الفرسان ، والبطحوا على الأرض .
 لم يلق سيميون بوديوني بالا اليهم ، وانتار بسيفه الى دكان
 الهدنة . حيث ما يزال القتال ناشباً بين القوزاق ورجال كاتشالين ،
 فكان هذا الجانب او ذلك يهجم بالسيف مرة بعد اخرى ، ثم
 يتراجع ويستلقى على الأرض .

انتشر فرسان بوديوني الخمسون كالمرحوة واطلقوا العنان
 لخيلهم ، وعيونهم مصوبة نحو الدببة الضيعة المسنون القاذرة
 امامهم ، واندفعوا من التلة عند البركة مهاجمين القوزاق المشاة ،
 وما من صلبة رشاشة ، ولا انهيار وصاص ، ولا حراب مصوبة
 كانت في وسعها ان توقف اندفاع الخيول النائرة من شدة الجهد .

واعملوا الطعن في كل من وقع في ايديهم ، ولم يوقف سيميون
 بوديوني فرسه الا في شارع الضيعة .

اسرع تليفين للغانه . لم يجه سيميون ميخائيلوفيتش
 بوديوني رأساً . بل منع فصل سيفه بتمديد ، ورمى التمديد على
 الأرض ، واعد السيف الكبير ذا المقبض النحاسي الى عنقه ،
 ورفع كفا مستقيمة الى صدغه بالتحية وقال :

- مرحبا ، ايها الرقيق . مع من انكم ؟ مع أمر الفوج ؟
 انا أمر اللواء بوديوني قائد الجماعة . أمرك بان تبقى سرية واحدة
 لحماية العربات والجرى وان تتقدم بالوحدات الاخرى ومع المدفعية
 الى القرية فوراً ، وتحتلها ، وتنظفها من القوزاق البيض .

- سمعا ، وستشفق الامر .
 - لحظة ، يارقيق . . .
 ووثب من على صهوة حصانه ، وحشر كله تحت حزام السرج ،
 وضرب باصابعه مشفري الحصان الذي جاهد ليمسك بكفه ، ومد
 يده الى ايفان ايليتش :

- هل الخسائر كثيرة ؟
 - ليست كبيرة .
 - هذا شيء جيد . اذن كان في امكانكم ان تصمدوا بلواكم
 الخاصة وبدولنا ؟
 - نعم ، كان في امكاننا ان نصمد . فان الذخيرة كافية .
 - هذا شيء جيد . يمكنك ان تصرف .

- زالت الامم في منطفة البطن تماما . يا انيسيا
 كونستانتينوفنا ، بل ولا احس بطنى . . . هذا سوء تركيب . . . ان
 عضوا مهما للغاية كالبطن يترك مكشوقاً بلا حياية . . . انفسر
 السيف اقل من بوصة واحدة فاحدث مثل هذا التخريب . . . مثل
 هذا التخريب . . . اعطيني شيئاً من الماء . . .

كانت انيسيا تجلس بالقرب منه متعبسة صامتة . وكان
 المستشفى الا ان يحتل بيتا اجرياً من طابقين في القرية . ولم يبق
 فيه غير الذين اصيبوا بجراح شديدة والذين كان من الصعب نقلهم

من هنا . اما الاخرون فقد ارسلوا الى تساريتسين قبل عدة ايام .
كان شاريفين يحضر . وكان لا يريد ان يموت ويتأسف كثيرا
لمعارفته الحياة . حتى ان انيسيا تعذبت معه ايضا . وقد كفت عن
التسرية عنه . واكتفت بالجلوس على مقربة من سريره . والاصغاء
اليه .

نهضت انيسيا لتغرف قمع ماء من الجردل وتقدمه له ليشربه .
كان وجهه منتفها وعيناه الكبيرتان الزرقاوان تبعان انيسيا ولا
تصرفان عنها . وكانت هي ترتدى كما ترتدى النساء اى مريولا
ابيض . وكان شعرها الذهبى الذى غالبا ما كان يعلم به قد شفر
في ضفيرة واحدة لى حول راسها . كان يخاف ان تصرف فلا
يبقى امامه الا ان يدفن راسه تحت المغدة . ويصك استانه .
ويسمح الدم يتبض في صدغيه بلا انتظام . وكان يتحدث بلا
انقطاع . وكانت افكاره تتوهم مثل فتيلة قنديل موشكة
على الانطفاء - مرة تلتصق الحوائس . ومرة ترتفع وتضئ
بسطوح . ثم تطفئ وترف .

- لم تكوني في ذلك الوقت جميلة . يا انيسيا
كونستانتينوفنا . وكنت تبدو اكبر من عمرك بمرتين . . .
تستدين خدك عن يدك . وتنتظرين دون ان تبصرى شيئا . فقد
كانت غشاوة المصيبة تغطي على بصرك . . . مع ذلك فانا لست
من المشغلين . فقد مسحت التفتحة من نظري . . . المشغلون من
الناس هم اكثرهم تيبسا . يجب ان يشفق الانسان مرة في
حياته . . . وكفى ! وينتهي الامر . . . يجب ان يوضع القلب تحت
الستدان . ويلقى على الجسر المتوهم . ومسررة اخرى تحت
المطرفة . . . في هذا النحو يجب ان تكون الكومسوليون . . .
عندما كنا على ظهر السفينة دعوت الى اجتماع سرى . واقلت للرفاق
انه لا يلقى بالمقاتلين في سبيل الثورة ان يمسوك . . . عند ذلك
بدا لاتوغين الحديث حول غاسلات الاواني . . . آه . لاتوغين .
لاتوغين ! . . . لا يلقى هكذا بك مطلقا . يا انيسيا
كونستانتينوفنا . . . الثورة اوقفتك على قدميك . فصرت تتفتحن
جمالا . ولكن ليس له . . . ان ذلك طريق مندود . ويجب ان
تطرح هذه المسألة وتناضل في سبيلها . . .

لعلت ذباثته حوائى الحياة . وقاست الظلام الدانى . وعلقت .
مزر شاريفين لسامه على شفطه الجافتين . قربت انيسيا قمع
الماء منه . وعاد يتكلم مرة اخرى :

- انا اعرف من اجل اى شيء اموت . ذلك لا يشير اى شك في
نظري . . . اود ان تذكركى . . . انا من بترولفسراد . من
جزيرة فاستيايفسكى . . . كان ابي نجسارا . وقد تعلمت
في المدرسة الهيتية . وعلمت معه . . . كان يسبح فانسج
معه . ويسبح فانسج معه . وكلانا صامت لا يتكلم . . . وذهبت
للمعمل في مصنع البليط لبناء السفن . . . وهنا تكشف لى الشيء
الرئيسى : لاي شيء انا موجود . . . وبدأت حتى الافكار . وعلم
الاصطبار . وجذبني العلو . ولم تعد لى القوة على البقاء ساعة
واحدة في الاسفل . . . ثم جاءت الحرب واستدعيت الى الاسطول .
وصحكت على استناني داخل نفسي من الغبط . كيف لا يمكن ان
تفهمي . يا انيسيا كونستانتينوفنا اثني رايت السانا حيا .
ابتدعناه نعم . واكتسبناه . وصنعناه . كيف تتركك تجوبين
الارض تالية منكرة الراس ؟ . . . لم الثورة اذن ؟ لن يكون
ذلك صحيحا . . . يجب ان تكوني مثلة . . . كنت كل مساء اجوم
حول هذه السقيفة واتشاهد واسع . . . آه . يحق الرب . يحق
الرحمة . . . انا مهجورة . مهجورة . . . ستتهز الجبهات كلها
بشمليك . . . ستتهز العرب الاحلية وتصيرين مثلة عالمية . . .
عليك ان تسيرى في هذا الطريق . . . ولا تضعني . . . انسة
سينتي لك . ولكن لا تصغى اليه . يا انيسيا كونستانتينوفنا .
اود ان ابرهن لك انه لائق لك في حياة شخصية . . . عزيزتي . . .
لماذا ادبت راسك ؟ ناستريج قليلا . واجلس افكارى .
فانتى اريد ان اقول شيئا آخر . . . فقد اغفلت دليلا مهما . . .
وتقلب راسه على الوسادة . ثم هذا وصمت صمتا طويلا حتى
ان انيسيا اخذت قريبا منه . كانت مقلته لا تلوحان من خلال
غضبه نصف المسيلين . لم يهتز قلب انيسيا لاحاديثه . بل لتقلب
عينييه في جزع . وصار مفهوما لها كل ما جاهد ليمير لها عشه
بكلساته العارة المشوشة . في قلب الظن ان طليها الضغفيرين قد
ناداها على هذا النحو اذذاك . وقد افرعتها النار التي تلمظت في

كومة الدريس حولها ، حيث كانا يجلسان متقاربين ، ولم تكن
أينسيا حتى هذا الحين تسترجع في ذاكرتها وجهيهما الطولوين خالفة
من ذلك . وما هي الآن تراهما بطرفان في عين خيالها كالأحياء ،
بتروشكا في سنة الرابعة ، والصغيرة النيوتا . وكلاهما ذو
شعر جعد وخدين ممثلين وقسم ضاحك ، وانف صغير . . .
والآن هذا هو الثالث قد ناداهما ، وستودعه ، وترافقسه حتى
نهاية حياته .

أخذت أينسيا تمسك بتعمرة شعره المتلبس . اختلجت
رموشه ، ورات بقما زرقاء تنتشر على صفديه .

١٤

كان القائد العام دينيكين يلعب في مساء كل جمعة
لعبة الورق «الفينت» مع يكاترينا الكسييفنا كفاشيتينا قريبته الجيدة
من ناحية امه . وكانت لعبة «الفينت» هذه قد بدأت منذ العقد
الأخير من القرن الماضي ، حيث كان انتون ايفانوفيتش يدرس في
الأكاديمية ، ويستأجر غرفة في شقة يكاترينا الكسييفنا الحسنة
الترتيب - على الذوق البطرسيبورغي - الواقعة في الطابق الأرضي في
الشارع الخامس في جزيرة فاسيليفسكي . ولم يبق على قيد الحياة
من اللاعبين الأربعة في ذلك الحين الا امر وحى ، وقد قامها الزمن
العصيب في يكاترينوبدر ، حيث اصبح انتون ايفانوفيتش ، بارادة
الله ، على رأس قوات البيض المسلحة . بينما كانت يكاترينا
الكسييفنا التي هربت من بتروغراد في بداية عام ١٩١٨ تعيش
عيشة متواضعة في هذه البلدة مع ابنتها التي كان اسمها اينسيا
يكاترينا الكسييفنا ، الصغرى .

وقد عرض عليها القائد العام غير مرة تحت هذا العذر او
ذاك ان يمدحها بالوطن ، الا انها كانت ترد قائلة «الأفضل الا يكون
هذا بيننا ، يا انتون ايفانوفيتش ، فان الفلوس تصبح الصدقات» .
وكانت تعيل نفسها بتصحيح مسودات مطبوعات وكالة الاستعلامات
في بيتها ، كما انها كانت تحتفظ هي وابنتها ببعض الاشياء الثمينة
الصغيرة لليوم الأسود .

وكان مساء الجمعة مقدسنا ، ولم يكن احد ، حتى الجنرال
لعبه «الفينت» التقليدية . ففي الساعة الثامنة مساء كانت عربية
رومانوفسكي رئيس الاركان ، يجرؤ على أنتزاع القائد العام من
يجرها حصان واحد ولها ظليقة جلدية مرفوعة تلقف امام بوابة بيت
خشبي صغير متواضع في الجزء السهلي البعيد من البلدة . ويامر
القائد العام العزى الملتحي الذي يعلق على صدره نياشين القديس
جيورغي ، بان يعود ليأخذ عند منتصف الليل ، ويدخل البوابة
بخلاوات خافتة ويضعه الى مقعدة البيت الصغيرة ، حيث يبدو الباب
وكانه ينتفع له من تلقا نفسه .

وكان المخبرون الذين يرسلهم رئيس الاستخبارات كسل
جمعة الى هنا يحاولون الا يقع بصر القائد العام عليهم . كان احدهم
يجلس على سقف البيت مغشيا وراء مدشنة الموقد ، والثاني وراء
شجرة الحور الهرمية في الجانب الآخر من الشارع ، والثالث آخران
وراء القاذورات في الفناء . وكان دينيكين كرجل عسكري لا يطلق
المخبرين . وذات مرة ، والورق في يديه ، وروى هذه القصة عن
القيصر الراحل ليولاي الثاني بخصوص هذه الضرورة المؤسفة .
كان هذا القيصر يهوى النزعات المنفردة في المنتزه في تسارسكويه
سيلو . وكان المخبرون قد بنوا منذ الصباح وراء أحواض الزهور
والاجمات على طول الدروب التي يسكن ان يسلكها القيصر . وفي
فصل الشتاء كان الثلج يتساقط فيحجب الرؤية عنهم . وذات مرة
بينما كان القيصر يتمشى سمع وراه صوتا يهس مكتوما : «الرقم
السابع مر» والفتاط يقولوا غيظا بالغا لان المخبرين سموه «السابع»
فقرط رئيس البوليس السرى ، وبعد ذلك صار يسمى «الرقم
الاول» .

وكان دينيكين يدخل الرواق الصغير المضاء بشعلة وينزع
كالوشيه الجلديين يعقبهما المطرئين بالبرز ، ويخلع بنفسه
دائما وبدون معونة احد معظمه العسكري الجوخ العريض بنطالته
القرمزية ، ويصف شعره الشاب المسرح الى الخلف بلمعته
الرصامية ، ويتقدم ليخضى على يد يكاترينا الكسييفنا ، ويأخذ
بين يديه يد ابنتها الصغيرة النحيلة الجميلة ، ويربت عليها
بلفظ ، ويتوجه بتحية متقضية ناعمة : «مرحبا ، ايها السادة» الى

اللاعبين الآخرين وهما مرافقه الامير لوبانوف وروستوفسكى ،
وفانسيل فاسيليفيتش سترويه الرئيس السابق لتسم في احدى
الوزارات ، وهو رجل عجوز لطيف المعشر من بطرسبورغ .

وفي غرفة الاستقبال تكون الطاولة قد اعدت ، ووضعت عليها
شئمتان ، وصف الورق بشكل مروحة على الجوخ الأخضر . وحتى
قطع الطباشير والمماسح المستديرة كانت تقليدية كذلك التي
كانت في الاعوام المنيرة في جزيرة فاسيليفسكى .

وكانت يكاترينا الكسينيفنا البادية المرح دائما ، الصغيرة
القامة جدا ، الممتلئة بالفراط في الجزء الاسفل من جفنها تقبل
متهادية نحو الطاولة يتوهمها الاسود الملبوس كثيرا ، ووجهها
المستدير ضاحك ، وفمها الكبير يهيمس بلطافة ، وكان الكرسي القديم
المعوج يصرف تحتها دائما من جراء تسللها ، وكانت تضع تحت
مصطبة صغيرة لتضع قدميها عليها . وقبل سحب الورقة التي
تحدد شريكها في اللعب كانت تخشع ، وفي كل مرة كان يصادف
ان يكون القائد العام شريكها . وكانت تصفق مرحة امام انفها :
- ها قد مررت ، كما رايتم ، ايها السادة . . . كاتيا ، شريكى
في اللعب انتون ايلانوفيتش مرة اخرى . . .

يقول فانسيل فاسيليفيتش بصوت كتيب :

- ممتاز !

ويجلس مختارا لنفسه طيشورة ومسحة .

وفانسيل فاسيليفيتش يارد الدم ملم بكل شيء ، شكوكى
حاضر البديهة ذو وجه نجيل صارم بدا عليه الهرم المبكر ، وكان
منافسا خطرا للغاية في لعبة «الفينت» يعامل هذه اللعبة بلياقة
صارمة مثل جميع البطبورغيين . وعاد يقول :

- ممتاز ، كما قال مستشار حكومى وهو يتخلل عن اوراقه
الرابعة .

وتأخذ اصابعه الناعمة باطرافها الصلبة بتشبيط الورق
بسرعة .

وكان اللاعب الرابع ، الامير لوبانوف وروستوفسكى ، رغم
شبابه ، شموقا بالفينت ايضا . وكانت واجباته كمرافق قائد عام
تقتصر على ذلك وعلى بعض المهمات الشخصية . وكان هناك اشخاص

آخرون عن نمط حديث يقومون بالاعمال التنفيذية ، وكان الامير ،
مثل جميع آل لوبانوف وروستوفسكى ، قبيحا له جمجمة مستطيلة
صلعاء ، وجبهة ضخمة وقسمات وجه لا تلتفت النظر . وكان الامير
رفيع التهذيب ، اذا المفلتا تقبصة وحيدة ، وهي دفع رجله
الطويلتين تحت الطاولة كما لو كان متضايقا من امتلاء مثانته . ولم
يحدث قط ان اعرب عن رايه ، واذا سئل عن شيء اجاب ببلاهة غير
متوقعة ، لانه كان يعرف جيدا انهم لن يتوجهوا اليه بامر جدى .
وكان خدوما ، وفي هذا الصيف ، وقبل ان يرحل ويعفى ايدى
شجاعة في المعارك .

كانوا يلعبون وكانهم يادون طقوسا ، وكانوا لا يتطرقون
الى السياسة او الحرب في تلك الساعات التي يقضونها في
هذا البيت . فكان لا يسمع لغير «دينارى . . . كوبيه . . . عن غير ورقة
رابعة ، الشئتان من غير ورقة رابعة» . فرغلت الشمعة ، وارسلت
الخدان سيكارة موضوعة على حافة منقطة زجاجية . واخيرا :

- اذن ، هل نستسلم ، يا يكاترينا الكسينيفنا ؟

- مؤسف ، آه ، مؤسف ، يا انتون ايلانوفيتش . . .

وكانت يكاترينا الكسينيفنا الالينة جالسة في الغرفة على اريكة
صغيرة مغلقة بقماش البشيش ، تحرك وتبتسم دون ان ترفع رأسها . . .
كان وجهها وعيناتها ، وشعرها بلا لون ، وكان في العناية جيدا
الرفيق ، وفي يديها الجميلتين طما الى الحنان لا يثبل ، كانت
يكاترينا الكسينيفنا الصغيرة سريعة التعرض للعب ، في عامها
السادس والعشرين ، وكانت كل علاقاتها العاطفية تنتهى نهاية
مجزئة ، ادهم جاء يودعها على عجل ، ويرحل الى الجبهة ، والثاني
بوفنت بان له عشيقه ، وقد اعلن عن ذلك دون شفقة وهي الان
والعسة في غرام لوبانوف وروستوفسكى الديميسم ، واللطيف
مع ذلك .

وكان يغازلها مازحا ، وكان ذلك يسر القائد العام الذى كان يعامل
يكاترينا الصغيرة معاملة الابنة تقريبا ، وكانت تعلم على الطريقة
القديمة بان ينسى الامير غلبة سيكائره وفي صباح اليوم التالي ،
ويغيب يكاترينا الكسينيفنا الام ، يظهر امام شباك البيت راكبا
فرسه ، ويضلل البيت ، ويحببها صافقا مهازية (وهي في فستان

صوفى اسود ذى ياقة بيضاء وكفتين بيضاويتين في طرفي الكمين ،
 ويعتذر ، وتجدد احدي كانه على شفتيه قيل ان يكملها ، وينفوس في
 وجهها ، وينهم ، ويدخلان غرفة الاستقبال ، والانفعال يعتمل في
 نفسيهما . . . فوجدت بسبك عضد فزاعها ، ويجذبها اليه ، ويقول
 يادى الانفعال «لم اعرفك ، لم اعرفك ، انت مختلفة تماما . انت
 شذية الرائحة . . .» بهذه الكلمة كان تحليق خيالها ينتقل .
 كانت يكاترينا الكسييفينا تحرك وتبسم دون ان ترفع عينها الى
 الامير الجالس بين السمعتين . كان يكفيها ان يكون موجسودا في
 الغرفة ، وانها تسمع رائحة نيفه الطيب . . .

كان ذلك هو العالم الصغير المقطع من روسيا القديمة ،
 والذي كان القائد العام يستريح فيه ايام الجمع من المتاعسب
 الثقيلة .

اليوم جاء القائد العام متاخرا خللا لمادته ، وقد بدأ عليه
 الاستغراق وشيء من الذهول . وبينما كان يخلع كالوشيه وطأ
 رجل قطة كانت تحوم عند قدميه ، وزعقت القطة بصوت كزبه .
 اختلطها لوبانوف-روستوفسكى ، وحملها الى المطبخ . ضحكتم
 يكاترينا الكسييفينا الام ، وقال فاسيل فاسيليفيتش «توجد قطة
 لا تطاق» . وانتظر الجميع ان يدخل دينيكين غرفة الاستقبال . الا
 انه علق معطفه فارقا في افكاره ، وظل واقفا ، جاذبا شعر لحيته
 الشبيهة بالاسفين في شكلها . عندئذ بدأ الجد على جميع الوجوه .
 واستمر الضمت المقلق حتى جاء الامير واعلم ان القطة في حالة
 جيدة . قال دينيكين :

- اها . . . هذا حسن . . . دعونا لا نضيع الوقت .
 ولعب اسود من المعتاد . ملقيا الورقات التي لا يتفهم
 اللأفا ، متلفتا طوال الوقت نحو الترافد رغم انها كانت مغلقة
 بالصفقات . نهضت يكاترينا الكسييفينا الصغيرة يهدوء ، واثقت
 معطفها على كتفها ، وخرجت الى الفناء لتتأكد من ان الغرامس في
 امكانهم . اصطلكت اسنان المخبر التي كان جالسا على السطح وراء
 المدخنة حيث كانت الريح اللاذعة تصفر ، والى الاعلى كان الهلال
 الكدر يقوس في السحب كالمجنون ثم يظهر ، وصاح المخبر :
 - ابنتا الأنسة ، اجلسي لي شيئا من الفودكا بحق الرب . . .

وقى حوالى العاشرة وصلت سيارة - وضع القائد العام اوراقه ،
 ولمعت عيناه المجهدتان . فدخل الجرنال رومانوفسكى طويلا
 مورد الخدين متشامخا يرتدى معطفا من معاشق الضباط وقصد
 تصائب على صدره طرفا فلتسوته القوزاقية . خلع الجرنال
 قبعته ، وضرب مهبازيه بطريقة باقة ، وانحنى الحناة عامسة
 للجميع :

- انتون ايفانوفيتش ، جئت لأخذك .
 - اذن ، فقد حصل ؟
 - بالضبط ، يا انتون ايفانوفيتش .
 اصرخ دينيكين يقول :

- سأعود ، يا سادة ، فاعزروني ، فانها الظروف - وقى
 الرواق لم يستطع ان يدخل يده في كم معطفه الا بعد محاولات -
 ابق ، يا اميسر ، هنا ، والعب بعض الوقت . . . اذن ،
 لا اتوادم معك ، يا يكاترينا الكسييفينا . . .

عاد اللاعبون الى الطاولة ، ولكن رفبتهم في اللعب قد زالت .
 تههدت يكاترينا الكسييفينا الام لتهدئة مكبوتة . عند فاسيل
 فاسيليفيتش حاجبيه الكئيبين ، ورسسهم على المفرش الجوخ
 بالطباشير مشاقق صغيرة وعفاريت . وجلس الامير على الاركة
 قرب يكاترينا الكسييفينا الابنة ، فالتفت ، وترك حياتها . بدأ
 الامير ، وهو يهز ساقيه ، يتحدث بانها اكتشف هنا قارئة بحث
 مدعشة ، ويود ان يأتي بها الى انتون ايفانوفيتش .

- انها تأخذ شعرة من راسك وتحرقها من الشمعة فيظهر
 الزيد من فمها

- ماذا تنيات لك ؟
 - تنيات يسفر على الحصان ، ويأتني ساجرح ثلاث مرات ،
 ولكن كل شيء سينتهي بزفاف . . .
 وحرك رجله ، وتمايل وكان احدا كان يهزم من وراء كتفه ،
 واخذ يهض بالضحك . تودرت رقبة يكاترينا الرقيقة واذنها .
 وقالت يكاترينا الكسييفينا الام ، وهي تسمع عينها :

- كل شيء مقلق هنا ، واصحاب الجميع متوتره . . . يسا
 أهى ، لم تتصور قط اننا ستكون بهذه الحال . . .

وفي ذلك الوقت جلب الديك الرومي - التي القائد العام ظهره
على المقعد ، وراقب بعصر حاد دخول هذا الطبق ، ووضع على
المائدة بين الاواني المتزاحمة ، وقد تصاعد البخار منه الى ضوئي
الشمعتين فتمايلا تمايلا خفيفا .

قال القائد العام وانقطع لنفسه الجناح :

- في روسيا فقط توجد مثل هذه الديك الرومية .

نهض الامير ، وفتح زجاجة الشمبانيا دون ان يحدث صوتا ،
وصبها في اقداح الشاي . خلع انتون ايفانوفيتش فوطاة الطعام من
وراء يافته بيضاء ، وتناول القمح ، وانهض مسكبا بعمقه ، وقال :
- ايها السادة ، لا استطع ان امنع نفسي من اخباركم
باخبار سارة . . . بان القوات الفرنسية قد نزلت صباح اليوم في
اوديسا ، واحتلت القوات اليونانية خيرسون ونيكولاييف . ان
معونة الحلفاء التي انتظرناها طويلا قد جاءت اخيرا . . .

في يكاترينودار هبطت طائرة انجليزية نزل منها رجل غريب
جدا حتى ان الدوائر الحاكمة وذات النفوذ لم تعرف ماذا تعتبره :
أهو عميل سرى لكليمانسو ، او مجرد مفاسم ، او ربما شخصية
خطيرة الشأن . وكان اسم عائلته قرنسيا : جيرو ، واسمه يثير
بيتروفيتش ، وكان يتكلم الروسية بدهشة جنوبية ، وبطلاقة ،
ويجعل جوائز سفر اورغوايا ، رغم ان هذه الحقيقة لم تكن تشير
الى نوعيته ، بقدر ما تشير الى قدرته على التغافل بدهاء . وكان
قد جاء من باريس على ظهر باخرة افرغت في نوفوروسيسك محولة
من البنادق والمخيرة ومعدات اخرى . وكانت الوثائق التي قدمها
لاجر المدينة العسكرية في غاية الضميط ، وهي رسائل توصية من
نواب في البرلمان ، ورسالة من وزير الشؤون الكنسية ، ورسالة
اخرى من كوتنسية فرنسية يصعب تلفظ اسمها ، وبطاقة صحفية
من جريدة "الو بيتي باريزيان" واخيرا عروض عملية من دوائر
مختلفة اخذت في ذلك الوقت تطلع كالطير على الاحتياطات الضخمة
من كل اصناف البضائع والحواملات السريعة التلغ الموردة الى
فرنسا من كل انحاء العالم .

- نعم ، نعم ، كنا نتصور القليل - اجاب فاسيل
فاسيليفيتش ، ورسم فاسا ومقصلة - روسيا بلاد عجيبة . . .
ووفي القائد العام بوعده ، حين دقت الساعة الانجليزية
الصغيرة بعليتها دقا خفيفا معلنة العادية عشرة بربرت السيارة
خلف النوافذ ، وعاد انتون ايفانوفيتش دينيكن يخلع كالموشيه ،
ويقول :

- كنت اعرف ، يا يكاترينا الكسييفنا انك قد هيات اليوم
ديكا روميا مع الكستناء . . . اذن ، ارجو ايها الامير العزيز ان
تخرج من سيارتى زجاجة شمبانيا . . .

كان باي بيدي ، يفرح بديه . الا انه رفض الاقتراح اكمال
اللعبة . «اتركوها ، انا ويكاترينا الكسييفنا نستسلم مقدما ،
منقولين شرفنا فقط» - بل وتناول سيكارة من علبة سيكارا فاسيل
فاسيليفيتش الذهبية ، وشرح يدخن - وهذا شيء لم يحدث معه
قط . واستعملوا في اعداد العشاء ، ودخل الجميع غرفة الطعام
الصغيرة ، حيث كانت شمعتان تضيء بضوء رقيق ، وعلى الطريقة
القديمة ، اوراق الحيطان الرخيمة ، وعلى المائدة صفت اوان
معلبة عليها معجون البيرة والمكشبات . وكان الشيء الوحيد المفقود
هو سبك الجلكر مع صلصة الخردل ، وهو الطبق المفضل لدى
انتون ايفانوفيتش . كما لم تكن ايضا الطماينة المعتادة ، حين كان
الاصيون بعد انتهاء اللعب يتعلقون حول المائدة متابعين الجدل
«اؤكد لك انه كان عليك ان تلقى البيستوني . . .» او «يا سيدتي
كنت اعرف ان في يديه اسما وملكا وملكة بينما كنت تضربين قدمي
من تحت الطاولة . . .»

احس الامير ببعض التوتر فلفت الانتباه اليه بشهامة الا اخذ
يتكلم عن بواب في بطرسبورغ كان يملك قوة فاعضة لمعالجة وجع
الاسنان ، والحروق والالتهاب الجلدي ، وبالمناخية ، انه تنبأ
بالعرب الالمانية ، وهو ينظر في سجن فيه ترسيات القوة . ولم
يكن ذكر الحرب في محله تماما . فاسرع فاسيل فاسيليفيتش في
تناول القارورة ، وصب الفودكا قائلا :

- يتعين علينا ان نشرب ثقب الا نحرم روسيا من البوابين
المدعشين . . .

وجد الثائون بالامر انفسهم امام حقيقة واقعة مهما قلبوا الفكر : فهذا رجل قادم من باريس الى يكاترينودار الثانية التي ما تزال تحتفظ بانوار معارك اذار والصفى ، وكأنه نازل من السماء ، رجل انيق اللباس ، اوروبي بكامل قيافته ، في ستره قصيرة لها ياقة من فراء الظربان الامريكى ، ولقناع زاهى الالوان يغطي صدره كله ، يحمل حقيبتين جديديتين ، وآلة تصوير معلقة على كتفه . وكان ينتعل حذاء اصفر بديعا ذا نعلين سميكين بارزين لم يستطع حتى الامر نفسه ان يتنزع بصره عنه . كلفك بجمهور الناس في الشوارع حيث سار بيتر بيتروفيتش جيرو وراء قرزاقى يحمل حقيبته واقفا راسه بقبعته الرمادية الفاتحة العمالة بانافة .

انزلوا هذا الاجنبى في احسن فندق ، وفي غرفة «لوكس» بعد ان افرغوها من المسافرين المضاربين بباريكاكى وفتاته . وفي اليوم التالى قام جيرو بزيارة الجنرال دينيكين . اضطرب انتون ايفانوفيتش دينيكين ، وارسل اليه الجنرال رومانوفسكى الى غرفة الاستقبال معتذرا بان القائد العام قد امت به وعكة خفيفة ولكنه سعيد من وجود ضيف بارز في بلدته .

فذهب جيرو لزيارة البروفيسور كولوغريفوف احد اصحابين دوما الدولة ، والذي يحيط دينيكين عنا بجو الافكار السياسية تحت اسم «الجمع الوطنى» . وكان البروفيسور كولوغريفوف يعرف باريس جيدا ، ويحبها فائقى جيرو العزيز عدة ساعات مثلكرا بنشوة الغدابات في المطاعم الصغيرة والترفيهات الليلية في موشواتر . وتذكر واقعة البولغارات ، وعلى الرغم من بطنه المترهل ولحيته الضعفاء الكتلة فقد لاحت على وجهه بسماتسة فتية .

- شير امى * هذا لا يحتاج الى اللول . ثم تلك الزائحة الفريدة الخاصة بالنساء الفرنسيات ! . . . انا مستعد ان اقبل الاجبار في شوارع باريس . نعم ، نعم ، وارجو الا يبدو ذلك غريبا لك ، فانك وايدى في كل روسى وطنيا محسبا لفرنسا . . . وهذا ما يجب ان تكتب عنه ! .

* يا صديقى العزيز - كما تنطق بالفرنسية . (المترجم) .

وتقرر جمع حلقة معددة من ممثل «الجمع الوطنى» في بيت احد الافراد ، والاستماع اثناء الفطور الى ما يتحدث به السيد جيرو عن السياسة الدولية .

- شير امى ! - هتف البروفيسور كولوغريفوف وهو يولى اذوار ستره الضيف علامة على الالفة - انك ستجده اناس اذكروا قبلكم في اوربا الخطر المريع لالة قزم اللحسب الحمراء . . ان البلشفية هي فقد الطبقات الواطنة المغرب لكل شىء ، وضراوة حالات البشرية . . . انكم تؤدون اعناية الاحترام الى الاشتراكية ، ولا يسلم من ذلك من احسبكم وانكركم ذلكا . هراء ! وابتذال ! توجد اشتراكية ، ولكن لا يوجد اشتراكيون ، لان الاشتراكية غير قابلة للتحقيق . . . وستنقبت لكم ذلك ! وروسيا مدعوة باوادة التاريخ الى ان تكون حايضا مستحطم عليه الموجسات الابدسية للفوضوية . وبهذا دفع لذلك جلودنا . ونعنى الامكانية لتطور هادى للحضارة الاوربية . . . ومن اجل ذلك ، من اجل انقاذ اوربا والعالم اجمع من التسبح الاحمر ليسط لكم ايدينا ، فعدوا لنا يد المساعدة . . . نحن مستعدون للقيام باية تنازلات ، فان روسيا تتحمل كل تضحية . . . وهذا ما يجب ان تكتب عنه . . .

واقضى الفطور كثيرا من المشاغل ، فلم يكن في يكاترينودار شىء من الاطعمة الرهيفة الملقى ، لا شىء غير شحم الخنزير المقدد والوز ولحم الخنزير ، واثت لا تستطيع ان تطعم الياريسى لقم العجين والذمم ! واقترح فون ليزه عضو «الجمع الوطنى» والمعروف بدهوه الرهيف قائمة طعام تتألف من حساء اللحم والبطائر ، وطبق مثلوت من سمك البريوط بالثببية الاخرة ، وطبق ثالث ، هسو دجاجة مسلوقة في مائة خنزير بدون اية فطرة من الماء . وحصلوا على لبيبة جيد عن طريق المضاربين باريكاكى . وفي تمام الساعة الواحدة اجتمع ستة اشخاص من ضمنهم بيتر بيتروفيتش جيرو في شقة شولغين عضو دوما الدولة ومحرر وناشر صحيفسة «رودنايا زيملا» . وكان الفطور رهيفا حقا . ومين قدمت القهوة الصنوعة من الشيعر المحمص ، اخذ جيرو يدلى ببيانه :

- ساعدكم بعضى الكلمات عن باريس ، ايها السادة . . . انتم على معرفة جيدة بها . كان الاجانب يشكون فيها كل عام اكثر

من اربعة مليارات فرنك ذهباً . فلا عجب ان تدبر الرؤوس الابخرة المتصاعدة من شوارعها . ومن ذلك رؤوس العالمين الناطقين الى سيول السيارات الالاعمة من علو نوافذ العليات . والآن ، واسماف ، لا وجود للعالمين في باريس ، فان جشهم تنفسخ ملوثة الهواء على نهر سموم ، وفي شبانيا ، وفي اردن . لم تعد باريس مدينته المرح ، حيث يرقص الناس في الشوارع ، ويقهقون بكل حناجرهم على لعبة الملك ليوبولد ، او على غراميات الفرانسدوف الروسى العاشلة . ان باريس وفرنسا قد فقدتا مليوناً ونصف مليون رجل صبروا في الحرب . وباريس مملوئة بالصبيان الذين يخترسون اللواط . وعلى سطحيات المقاهى لا يجلس الا الشيوخ الكئيوب الذين لا يثيرون الاهتمام حتى بين المومسات ممن يتقاضين للخلوة بين عشريين فرنكا . وتسير سيارات الاجرة التي بعجت في مارنه مفرقة على الارصفة المهتسمة . وما يزال الجنود الامريكويون العمرون كالبخول المستريحة يتقبلون في المطاعم والمقاهى الفاخرة . النساء اوه ، النساء دائماً في المقدمة . قطعن فسائنتهن الى حد الركبة والغنى الملابس الداخلية .

اصوات حول العائدة :

- اوضح اكثر ، ارجوك .

- في النساء تخرج النساء الى المسرح والمطعم متفليات من الخارج فقط بما لا وزن له ، وبعبارة اذق ان فسائنتهن ليست الا قطعتين شيفتين من القماش ربطت بهما تنورة قصيرة . . . وكسل وشائنتهن في سيقانهن العارية ، وسيقان الباريسيات فاتنة . فما الحاجة الى الملابس الداخلية ، اذن ؟ المنة ! لقد تحملنا الحرمانات في الخنادق من اجل شيء مسا . ولكن كل هذه الاشياء نوافه . ان باريس اليوم هي المدينة المنتصرة ، وهي كتيبة ، شوارعها غير مكتومة جيداً ، الا انها مشحونة كلها بالاحاديث المملقة ذات الوجهين . كسبت باريس الحرب العالمية ، وهي تستعد لتكسب الثورة المضادة على مستوى العالم .

قال ثلاثة من حول العائدة «براغو» بصوت خافت . وامتنع الرابع عن التعليق لانه كان مشغولاً بصنع كرة من فئات الخبز .

اما الخامس فهو كتفا واحدة بحركة غامضة اشغفها باستماسة غامضة ايضاً .

- باريس اليوم مفارة لمر هائج ، وكليمانصو متعطش للانتقام . وقبل ان يعقد الصلح - وهذا لا يحدث قريباً - ستعاني المانيا جميع احوال حصار الجوع . وستقلع انايبها وتقلع اطفالها الى الابد . وقد قال كليمانصو في حديث شخصي له «ساقتل لدى الالمان حتى الامل في ان يصيحوا اكثر من بلاد بلا مقام ، وكنية البازلاء والبطاطس التي يملكونها لا تقمهم الا من الموت جوعاً» . ولكن كليمانصو ، ايها السادة ، كان قبل خمسين عاماً يعانى من ذل الرعب امام كومونة باريس الى جانب ذل العصار في سيدان ، وذات مرة ، في حفلة فطور للمصحفين استغرق في الذكريات ، وتعدت عن الاثر الذي خلفته في نفسه رؤيته لقطع عمود الامبراطور العظيم المقلوب في ساحة فاندوم . وكان الكوميونيين قد اطاحوا بهذا العمود بعمونة عدد كبير من الحبال والرافعات . فقال «لم يصعقتي التهديم بل الفكرة التي حتمت العمال الفرنسيين للقيام بذلك . ان خطراً مميتاً يرحف على الحضارة ، وفي الامكان ابعاده ، ولكنه سيعد ، وسيعد في اليوم الذي يوضع فيه السلاح في يد الشعب . وسيكون ذلك يوم ثارنا لسيدان ، يوماً ستيعين علينا فيه ان نحارب في جبهتين» . ايها السادة ، لقد تبين ان كليمانصو كان على حق . ان باريس يعود المسرحون من الجيش ، وقد مروا بقطاع غردن وسموم ، واماثة الشايزيس والقتال في الشوارع بالنسبة لهم مجرد تسلية . انهم في كل العائات يجعسون حولهم المستمعين ويصرخون بانهم قد خدعوا ، فالذين حاربوا تسلموا الشرطة ونياشين وسيقان اصطناعية ، اما الذين حاربوا من اجلهم فقد كسبوا المليارات من النقود الضافية . . . والبرجوازيون الذين دمرهم التضخم النقدي يفرعون الانتاب مع المتلمزين . وضواحي باريس مضطربة . والصناعات معطلة ، وقوات حامية باريس يشوبها القموض . وفي المانيا فوضى التسود ولا يكاد الاشتراكيون الديموقراطيون يتحلون ضفطها . وهنغاريا ستعلن السوقيات ، ان لم يكن اليوم فغداً . . . وانجلترا تعاني من شلل الاضرابات ، وحكومة لويد جورج لجاهد فقط لان تسوق المركب بين الصخور

على الجانبين . وانظار الجميع مصوية نحو كليمانصو ، فهو وحده يدرك ان الضربة القاضية على ثورة اوروبا كلها يجب ان توجه في بلادكم ، في موسكو . ان الصيادين الايطاليين حين يخرجون الاخطبوط من الشبكة يقرضون بالاسنان مثاقته الهوائية فتترنخ اطرافه بصصاصاتها الفلطيعة عاجزة عن الحركة
 تفتحت شعور الجالسين حول العائدة ، وعبرقت نظراتهم فخلعواها . وحين توقف جيرو ليقتضم نهاية سيفار جديد انتهالت الاسئلة عليه :

- كم فرقة فرنسية ارسلت الى اويسا ؟
 - هل ينوي الفرنسيون التوغل في عمق البلاد ؟
 - هل يعرفون في باريس عن الاخفاقات الاخيرة في هجوم كراستوف على تساريتسني ؟ وهل مستقدم المساعدة لكراستوف ؟
 - هل تم تقسيم مناطق النفوذ في روسيا ؟ وبالمناسبة من ينوي ان يساعده بشكل جدي جيش المتطوعين ؟
 اطلق جيرو دخانا لزرقي بيضاء :

- ايها السادة ، انتم تسألونني وكانني كليمانصو نفسه . انما صحفى . وقد ابدت عدة صحف اهتماما بالمسألة الروسية ، فارسلتني اليكم . ان مسألة المساعدة المباشرة بالقوات تتعقد . ولويد جورج لا يريد ان يشير الاصاب بلا فائدة . فلو ارسل الى توفوروسيسك مجرد كتيبتي من المشاة الانجليز فانه سيخسر دوؤزيتيتي من الاصوات في الانتخابات التكميلية الى البرلمان . ومعلوماتي الاخيرة هي كالآتي : اسرع لويد جورج بالسفر الى باريس على طائرة ، مفضلا هذه الطريقة في التنقل جوا لاحتمال وقوع انفجار في البحر لان المائض قد امتلا مرة اخرى بالالغام العائمة بسبب العواصف ، وقبل ايام قليلة اعرب في مجلس العشرة عن الافكار التالية : ان الامل في انهيار سريع للحكومة البلشفية لم يتحقق ، وهناك معلومات تقول ان البلاشفة اقوى الان من اى وقت مضى ، وان نفوذهم بين الشعب قد قوى ، وحتى الفلاحون يتحازون الى جانب البلاشفة . واذا اخذنا بعين الاعتبار ان روسيا البلشفية قد عادت الى حدودها الطبيعية في زمن دولة موسكو - سوڤدال في القرن الخامس عشر وانها لا تشكل خطرا

جديا على احد فانه ينبغي ان يقترح على حكومة موسكو ان ترسل من يمثلها الى باريس ، ليبحث امام مجلس العشرة على نحرار ما فعلت الامبراطورية الرومانية حين استعدت زعماء المقاطعات البعيدة الخاضعة لروما ليقيم هؤلاء تقارير عن اعمالهم هذا هو ، ايها السادة ، وضعنا في الغرب . . . هل لديك اسئلة اخرى ؟ . . .
 وبعد عدة ايام من هذا الطور (الذي ادخله البروفيسور كولونجريفوف في الحوليات) اعلن الامر العسكري في تقريره للعائدة العام :

- مقابل فندق «ساقوي» تماما ، يا صاحب السيادة ، فتح محل مشتريات لا يقبل الا الذهب والماس ، ويدفع لقاءها اثمانا عالية للغاية من عملة الدول . . . وتوعية النقود مشكوك فيها ، لان الاوراق النقدية جديدة
 قال دينيكين غاضبا ، وهو ينظر في الواح الطبعة التجريبية للنشرات العسكرية :

- انت تشك دائما ، يا فيتالي فيتاليفيتش . ها انت مرة اخرى جلدت يهوديا دون علمي ، بينما ظهر انه لم يكن يهوديا على الاطلاق ، بل صاحب اراضى من مقاطعة اورال . . . بين سكان هذه المقاطعة يوجد اناس شعرهم اسود ، بل وحتى من اهم شبه بالجنج . . . آه ، يا لك ا

- اعتذر ، يا صاحب السيادة . حصل التباس . . . لنعد الى محل المشتريات هذا - الترخيص مسجل باسم الطنابرب بايريكاكى من سكان يكاترينوسلاف ، بينما اتضح لنا ان صاحبه الحقيقي الذى وظف فيه واسمالا مشكوكا في قبيلته هو (وهنا احنى الامر الانحانة التى تسمح بها سميتسه) الفرنسى يثير بيتروفيتش جيرو

التي دينيكين الاالواح على الطاولة :
 اسبح ، ايها العقيد . لعلك تريد ان تفسد علاقتنا بفرنسا بسبب صفاتى . بسبب سلاسل وخواتم صغيرة ! وماذا فعلت ايضا مع هذا المحل ؟
 - ختمت على القاصة

- اسرع على الفور ، وقض الغتم ، واعتذر بحيث

- سمعا .

وسار الأمر على أطراف أصابعه ، وغاب بكرشه وراء الباب .
وبعد ذلك ظل القائد العام ينظر بإصابعه على المنشورات العسكرية
وقتا طويلا وشاربها الاشيبان يرتعشان .

- شعب ماعز ا

قال ذلك . ولم يكن واضحا اي شعب يقصد به : شعبه ام
الشعب الفرنسي . . .

١٥

في ضيعة بروخلادلي كانت في انتظار فاديم بيتروفيتش
روتشين خيبة امل جديدة . رأى الباب الخارجي للبيت الذي عاشت
فيه كاتيا مع عائلة كراسيلنيكوف مفتوحا على مصراعيه ، وقد غطي
الثلج النقي على آثار الاقدام كلها . وتكوم على عتبة البيست
المهجور كومة تقريبا فطرات الفويان .

ولم يستطع احد ان يقول لفاديم بيتروفيتش روتشين الى
اين رحل كراسيلنيكوف مع العرائين . لم يفلوا ان شخصا يدعى
كراسيلنيكوف كان يعيش هنا ، ولكن لا احد يعرف من اين هو .
ولا القرية التي جاء منها ، فان ناسا كثيرين من شق الأوزاع قد
جاءوا الى الايمان ماخنو .

في البيت رائحة موقد بارد ، وعلى الأرض قاذورات . وقد
تسرب الثلج من النافذة المحلقة . وعند الحائط تختان عاريان .
ولم يبق من كاتيا الرحلة ولو مجرد ظل على الحيطان المقشورة .
وبعد الجهود الكثيرة تقاطع طريقهما ، ولكنه جاء متاخرا .
جلس فاديم بيتروفيتش على تخت قد صنع من الواح غير
مسحوجة . ايا من التختين كان تخت الزوجية ، هذا أو ذلك ؟ الكسي
رجل جميل وقح . . . «بكيت بولكني . امسح الآن عينيك» قال لها
بلهجة غير فظة - فقد كان اذكي من ان يكون غليظا مع سيادة
محترمة - قال بمرح وبشكل قاطع . . . وهذات القطيطة . . .
واستجابت وخضعت . وبش . من الخجل والاحتمام تركته ليعمل
بها كل ما يشتهي . . . وفي الغلب الظن لم تنطح الحائط برأسها ا

التصقت به والتفت حوله مسلوية الارادة وبلا عاطفة كما يلتف
الديباب الشاحب ذو الازهير المرة حول جذع شجرة . . .

دار فاديم بيتروفيتش في البيت ، واطنا غلبا فارغسة
للحلبات . تحيل فالت فاسق . كذب ا - عاد فاديم يقول لنفسه -
لا بد ان كاتيا صارت . ولم تستسلم . وبقيت وفيه طاهرة ا انه
لجان . ويمتدلل ا ايظن انها ستظل نقية وفيه اخلاصا لذكراه ؟ من
الافضل ان تجيب : هل ستقتل الاثنين لو زايتهما عن هذا التفت
الصارف ؟ ام ستنتظر اليهما من العتبة . وترى عيني كاتيا .
عالمك المفلود . وتقول : «اعلراني . يبدو انتي زائد هنا . . .»
وهذا هو امتحانك في الالم . . . تلك هي المحنة الرهيبة اخيرا . . .
والآن لا تقدر ان تحمل اكثر ؟ لا . تقدر . تقدر ا ستظل تبحت
عن كاتيا . تبحت . وتبحت . . .

كان كاريتنيك ذو الوجه المموج الذي يصاحب فاديم ينتظره
في العربة . خرج روتشين من باب البيت الخارجي . وصعد الى
العربة . ورفع ياقة معطفه محتشيا من الريح . كان سائق ماخنو
الشخصي وحارسه والصادق على الفور باوامره القصيرة . هو الذي
يسوق العربة . كان رجلا طويلا ضموتا يكنى بالآخرس العظيم . له
وجه قد استطال جزؤه الاسفل . وكانه منكمس عن مرآة معكوفة .
وقد ساق الغيول الاربعة بعنف شديد حتى ان الراكب لا يكاد يستقر
في جلسته متشبثا بكلما جانبي العربة .

قال كاريتنيك واقفا الكلفة وهو ينط ويشامبل ويتخبط في
العربة :

- كفي تكثيرا . اياها الراس الاغبر . اذا امر الايمان وجدنا
زوجتك من تحت الأرض . اه . يا ربني . كان ذلك شيء يفلق ا
النساء مصبوبات من الخارج فقط . ولكنهن من عجيبة واحدة .
بلاد . . . ايسق عليها . لن نرحل عنه . ملا الكسي كراسيلنيكوف
ثلاث عربات من الفئام . . . كان لقي السرية الاول في النهسب
والسلب . ومن حسن حظ انه غادر في الوقت المناسب . . .

ردد فاديم بيتروفيتش مع نفسه . وهو يدفن وجهه حتى
حاجبيه في ياقته المرفوعة : «انت تقدر . تقدر ليست هذه الا
بداية لحنك . . .»

دخلت العربية الأولى - بوله منطلقة في شارعها المرصوف
 بالجاردة دون أن تقلل من سرعتها . ووقوف الأخرس العظيم الخيول
 الأربعة العربة عند مقر القيادة . وكانوا يتوقمون روتشبين هناك .
 وسرعان ما استدعى لمقابلة الألمان . كان ماخو يرأس اجتماعا
 للمجلس العسكري الكبير في غرفة صف غير مدفأة ، حيث كان
 أمراء الوحدات يجلسون على المقاعد المدرسية الصغيرة بأوضاع
 غير مريحة . وكان نستور ايفانوفيتش ماشسو في ستره سوداء
 متسدودة يحزامين اصفرين متصلبين يسير امام المقاعد كالفهد .
 وكان وجهه وهو صاح ، يبدو أكثر نحولا . وكان يضع يديه وراء
 ظهره ممسكا باليمنى يده اليسرى المرتخية كالسوط . ويرعه من
 الوقت الى اوقات فاديم بيتروفيتش ينظره حادة . وقال له بصوت نافذ:
 - مستأفرا الى يكاترينوسلاف . وتقدم التفويض الى اللجنة
 الثورية . وتراتب خطة الانتفاضة نيابة عن قيادتي - اذهب .
 رفع روتشبين يده الى جعبته بتعبه نصيرة . واستبدار ،
 وخرج . وكان لوفكا زادوف يشتره في العمر .

- كل شيء على ما يرام . التفويض مهي - وطوق كتفي فاديم
 بيتروفيتش وقاده في العمر ، ودفعه برده الى احد الابواب -
 عليك ان تطلع مطلقا . وسأهدى لك معطفا آخر بطيات عند
 الضر - ودون ان يرفع ذراعه عن كتفه فتح الباب بثلاثة مفايح -
 انه عائد لي شخصيا ، وميطان بالفراء الفاخر . يجب ان تكسب
 صدافة لينا . فمن يكن صديقا لينا يكسب ورقة رابحة .

وادل روتشبين في غرفة لها نفس الراحة الحامضة الموجودة
 في المركز الثقافي . واستمر في المفارقة بنفسه وباشياكسه
 المتناثرة في ارجاء الغرفة ، وقدم لفاديم بيتروفيتش معطفا جيدا
 حقا سوى انه متعب ببعض تقرب الرضاخ على الصدر والظهر .
 واندى تحت الثخت وهو يلهث لبذته ، واخرج كومة القبعات
 واختار واحدة من فراء الحبل لها قمة قرمزية ، والتفاه الى روتشبين
 عبر الغرفة واتقا من ان هذا سينتلقها وهي طازرة . ثم اخذته توبة
 البذخ فاختلف من الحائط سيفا لفقاسيا مزينا بالفضة : «ولكن
 ذلك . تقليد» . انه عائد الى احد الفرسان . . . ثم اخذ يهتشم
 نفسه . شد على كل من معصميه ساعة ذهبية بسوار - وحزم

سترته يحزام عليه مسدسان «موزر» وتلقد سيفا له عند تساقطت
 قشرته . بعد ان جرب حده باصبعه مقدما : «هذا . . . لعجل
 اليوم» . . . وادخل رجله فيه في كاروشين مطاطيين عاليين : «من
 يستطيع ان يقول اني لست فارمسا ، على حد تعبير الناس في
 اوديسا الام . . . و فوق ذلك كله ليس فروة خروف : «لنذهب ،
 ايها الهر الصغير ، سارافتك . . .»

واوصلهما الاخرس العظيم بعينه الى محطة القطار وقال لوفكا
 بحضوره ، وبخيت لا يسمعه هذا :

- انه رجل ذو قوة نادرة ، من المحكومين . هرب الايمان معه
 من السجن القيصري . كن حذرا معه . الوحش لا يحب ان ينظر
 الناس اليه طوليا . . . حتى انا اخافه . . .

وانطرح لوفكا في العربة راضيا عن نفسه ، منشرا متوددا .
 - اسعدك الحظ ، يا روتشبين . اعجبشني لسبب لا
 اعرفه .

. . . انا احب الاستراطين . . . قبل ايام تعين على ان اقتسل
 ثلاثة اخوة امراء من آل غوليتشين . . . تصرفوا بروعة . . .

طلب لوفكا ان يجلب الى مقصورة العربة بعض الكعك
 والاطعمة الخفيفة من برفه الحطة ، واستمرت نفس الاحاديث .
 خلع لوفكا فروته ، وفك حزامه . وقال وهو يقطع شرائح سمكية
 من شحم الخنزير :

- انا لا اقوم ، لا افهم كيف لم تسمع بي من قبل . اوديسا
 حملتني على الايدي . في بحريرة من الفلوس والنساء . . . كان
 الامر يقتضى قوة عملاقة كقولتي ، آه ، الشباب ! كل الجرائد كتبت:
 زادوف شاعر ساخر . آوه ، لمن المعقول انك لا تذكر ؟ سيرة
 حياتي طريفة . انهيت المدرسة المتوسطة حاصلا على الميدالية
 الذهبية . ابي سائق عربة بسيط من بيرسيب . بينما وصلت
 انا الى ذروة النجد راسا . هذا شيء مفهوم فانا جيل بشكنا الهى -
 لم يكن هذا الكرش موجودا - وجرى . . . ووقع ، ولى صوت فاخر
 ذو نبرة عالية . وسيل من المثالي الشعرية اللاذعة . ثم اتسا
 التي ادخلت في المؤسسة السترة القصيرة ، والاحذية
 الطويلة المصقولة بالورنيش : الفارس المتجول الروسى ! كانت

المصفاة تملأ جذران اوديسا كلها . . . ولم يبخل زادوف بشيء .
وكان يجب كل شيء بسهولة ! الفوضوية هي الحياة ! وانا منطلق
في دوامة من الدم . فلا تمتصم بالصمت ، اهبسا الهر الصغير ،
وكن اكثر رقة مع لوفكا . ام ما زلت غضبان ؟ احبتي . الكثيرون
يبتلع لوفهم حين انكلم معهم . . . والذي اكون له صديقا يصير
وفيا لي حتى الموت . . . الناس يعبروني حبا جما .

كان فاديم بيتروفيتش يحس يدوار في راسه . فبعد الصدمة
التي تلقاها في صباح اليوم لم يكن امامه الا ان ينيح كالكلب في
برية على ضوء ثمر شاحب . وكانت المهمة المفاجئة - الامسر
المقتضب الغامض - امتحانا جديدا لقواه . وكان يدرك ان الامسة
خطوة خاطئة او مشبوهة مستكففة حياته . ومن اجل ذلك يمشوا
لوفكا معه . ما هذه اللجنة العسكرية الثورية التي يجب ان يذهب
اليها لمراقبة الخطة ؟ وما هي خطة الانتفاضة هذه ؟ انتفاضة من
وحد من ؟ كان لوفكا يعرف . بالطبع . حاول روتشين عدة مرات
ان يوجه اليه اسئلة استدلالية ، ولكن لوفكا اكتفى بان رفع حاجبيه
الى الاعلى وجعله عينيه تبهوان كالزجاج . وتابع ثرثرته . وكأنه لم
يسمع شيئا . واكل وتسلق . دون ان يسمح لشفتيه . واحمر .
وفك باقة قميصه المطرز .

احسني فاديم بيتروفيتش قدما من الكحول ايضا . وراح
يسنح شم الخنزير بلا تدقيق . وكبت بكل فزاع غفوره من هذا
الرجل المرعب الضحك البغيض . . . فمثل هؤلاء لم يصادفهم حتى
في الروايات التي قراها . وردد مع نفسه : «يا له من متباه . منطلق
في دوامة من الدم . . . وسرى الكحول في دمه . وارثنت الكماشات
التي كانت تضغط على دماغه . دخلت لامبالا واثقة محل الامسر
الذي تقريرا والعدم المفعول تقريبا «تقدم ، تقدم» .

وقال للوفكا :

- على كل حال ، كف عن التباهي معي . لقد اعطاني الايمان
توجيها معينا ، وانا رجل عسكري ، ولا احب الالغاز فحبرتي : ما
الظنية ؟
وانجذبت علي فم لوفكا ابتسامته . وكانت يده المنتفضة
بمسامحتها الكبيرة تتعلم بالزجاجة فوق القدر :

- اتضحك بان تقلل من اسئلتك وتقلل من استقهاماتك .
فكل شيء قد نظم .

- يعني انا لست موضع ثقة . . . اذن ما الغاية ؟
- انا لا اتق باحد . . . وحتى بالاتمان لا اتق . . . هيبسا
لشرب . . .

وفتح لوفكا فمه حتى مست حافة القدر حد اسنائه السفلي .
وجرح الكحول ببطء . وفاحت من الكحول عفونة حلوة ، كرائحة
لحم لبيء مع سكر . . . هز شعره الغزير المشعب بالكهزية . واخذ
يبتلع فخذ الدجاج .

- لو كنت في مكانك لما قبلت هذه المهمة . ولا يهلك ان
يكون الايمان الامر . . . فهو يجب ان يستغفل . يستغف في ورطة ،
ايها الهر . . .

فرك روتشين وجهه براحتيه بقوة ، وضحك .

- اتصنحتي بان اتملص ؟ ربما اذهب الى دورة المياه ،
وانفذ من القطار . وهو منطلق ؟ اهذه نصيحتك ، كسديق ؟
- قلت لك ، وعليك ان تستغلف . . .

- تقاعة . . . اتظنني اخاف الموت ؟

- وما الداعي الي الظن اذا كنت انفذ من خلالك وراك دودة
زحلقة . . . اتفق اسئلتك والا خلعتنا . . . هيا ، صب قدما . . .
زفر روتشين زفرة عميقة بعسر :

- اتعرفني ؟ لا . يسا زادوف ، انت لا تعرفني . . . لو
وضعت امام الحائط لترمي ، ايها الونف ، لصرت تقيح قيساع
الخنزير . . .

كان لوفكا يهم بنهش فخذ الدجاج فاطبق فمه بشدة حتى
ارتطمت اسنائه السفلي بالعليا وارترخ وجهه العسرق . وقال
بامتعاش :

- العكس هو الذي حصل حتى الآن . آخرون فيري قبعوا
قباغ الخنازير . . . العلك انت الذي تنوي القضاء علي ؟
- لو كنت وقعت في يدى قبل ثلاثة اشهر . . .

- لا تراوغ ، ايها الضابط الابيض ، واكمل جملتك .
- الا تنتظن ، ايها الجزائر ؟ . . .

يا أبح ، اخرج من المقصورة ، فانا أريد أن اكللهم معك بدون حضورك .

كان تشوغاي يجلس متناسكا ، وذراعاه ممدودتان على بطنه ، وقفذه متباعدان ، وكان وجهه يبدو في ضوء الشمعة وديا وكأنه من فخار ، وكانت قبعة الصغيرة ذات الاشرطة تقف على عذباة باعجوبة . انتظر بهدوء أن يتحمل لوفكا الاهانة ، ويخضع .

نظر لوفكا وعلما محمرا ونظرا الى روتشين نظيرة متوعدة ، ونهض صاخبا ، ولسع حذائه الطويل الضيق عند الباب ، وخرج .
رد تشوغاي الباب :

- ما الذي جعلك في غير وفاق معي ؟

- شيء تافه - قال روتشين - شربنا نحن الاثنان .

- جوايك صحيح . ولكن أريد أن اقول لك ، يا أبح ، انك قد دخلت تحت تصرفي ، فيجب أن تجيب عن كل سؤال اطرحه .
انتقل تشوغاي ليجلس قبائته ، وبالتقرب من الشمعة نشر ربع صفحة من الورق موقع بتوقيع ماخو ومطربوع على الآلة الكاتبة بحروف متلاصقة وبإخطاء نحوية وبلا علامات ترقيم ، وقد ذكر فيه أن روتشين قد وضع تحت تصرف هيئة الاركان العسكرية الثورية لمتطلة يكاترينوسلاف .

- اهذا مقنع لك ؟ (هز روتشين رأسه) هذا شيء جيد .

خبرني : ما الذي جاء بك الى هذه الجماعة ؟

- اهذا استجواب تقتضيه الشكليات ؟
- نعم . - حررت . لا يجوز وضع قنك في شخص لا تعرفه . ولا سيما في امر مهم كهذا الامر . هل توافقني على ذلك ؟ (هز روتشين رأسه) قمت ببعض التحريات عنك . . . ليس هناك شيء مطمئن : فانت عدو . عدو لعدو . يا أبح .

تهد روتشين ، والتي يظهره على التخت . كان ليل دامس كالأبدية ينطلق وراء النافذة السوداء ، التي انعكس ضوء الشمع على زجاجها . وأحس روتشين بظمائية ، وراح جسمه يهتز اهتزازا خفيفا . لقد بدأ استجوابه الثالث ، والأخير على ما يبدو ، والنهائي خلال فترة لا تتجاوز ثلاثة أيام قضاهها بلا نوم تقريبا . ومهما يكن من شيء

- انا في انتظار . فأكمل . . .

وتكلما بعجالة . والان كان كلاهما يتنفس تنفسا ثقيلًا ، واقدمهما تحت التخت ، واحدهما يتفرد في حدقته الآخر متوترا . فرتمت الشمعة ملتصقة على المنضدة الصغيرة المبسوطة ، واخذ الضوء يخفت . ولاحظ روتشين أن وجه لوفكا يبرد ثم قال لوفكا له بصوت كامد الرنين :

- لنخرج الى الممر . . . اخرج في المقدمة .

- لا اخرج . . .

- هيا . . .

- لا تامر ، انا لن امثّل . . .

لم يبق الا بصيص ازرق في نهاية الذبالة مثل نفس تتعسر على الموت . والظاهر ان لوفكا كان يدرك ان التفوق في المقصورة الضيقة سيكون الى جانب روتشين المعروف الصغير اذا هاجم احدهما الاخر في الظلام . . . جار بصوت كصوت الثور :

- اهض . . . الى الممر !

سحب باب المقصورة ، ورف بصيص الشمعة . والتهب . ودخل تشوغاي .

- مرحبا ، اخوان - وانفج غمه عن ابتسامة ساخرة تحت شاربيه الصغيرين ، وتندقت عيناه الجاحلستان من لوفكا الى روتشين - انا ابحث عنكما في الظلام كله .

وجلس الى جانب روتشين ومقابل لوفكا . وتناول الزجاجاة الفارغة ، وهزها ، وشمها ، ووضعها .

- ما سبب هذه الجماعة على وجهي كما ؟

- لم تتوافق بطبعنا .

قال لوفكا مشيحا وجهه عن نظراته الساخرة .

- وانت تصعبه على شاكلة ملوش ؟

- لست انا على شاكلة شيء . ما ، بل اعل . . . ولكن لماذا

تسال ؟

- وهذا على الاكثر يقتضيك أن تفهم ان عمل مسؤول تصعب الرفيق اليه . اما الطبع فيجب ان تسيطر عليه . والان .

فأى حقيقة كان في وسعه أن يقولها عن نفسه ؟ قصة معقدة مشرّكة عن إنسان قدّمه أناس مجهولون خارج بيته القديم الذي ولد فيه ، وخارج شارع ، ومملكته . ولكن أهذا الذي حصل ؟ اليس هو الذي أمسك نفسه من تلايبيها ، وقذفها في القمامة ؟ ما الذي أضافه على وجه التحديد ؟ وما الذي كرهه على وجه التحديد ؟ وهل كان بيته القديم ومملكته البريعة القديمة ضروريين حقا لسعادته ؟ أو ليس هما شيخين من صنع خياله المريض ؟ ولو ينشئ ذاكرته لن يجد في أفعاله خلال هذا العام شيئا معقولا ومبررا ؟ في هذه المقصورة لا توجد محكمة فيها هيئة محلفين ومعام دفاع رائع يهين ناصية شعرة الرومانطيقية . فقد كان عليه أن يقوم - وجهًا لوجه - بشيء مستحيل تقريبا : أن يقول الحقيقة ، لا عن أفعاله كإنسان صغير ، فإن ذلك غير مهيب ، وليس لهيا شأن في هذا الحديث ، بل عن نفسه كإنسان كبير . . . انه هنا المتهم والحاكم في آن واحد . . . كما ليس مهما الاستنتاج العمل من هذا الحديث إذا كان الأمر قد مس هذا الإنسان الكبير .

قال تشوغاي :

- ما بالك تغمغم . تكلم بصوت مسموع .
- لا ، أنا لست عدوا . فإن ذلك زيادة في التبسيط - قال روتشيفين ضافطاً عليهما على متكا التفت - أن للعدو هدفاً ، ولؤلما وسوء طوية . . . أريد أن أسألك . . .

هيا .

- هل أنا لازم لكم كأخصائي عسكري ؟

صمت تشوغاي برهة متفحصا وجهه بظلاله العميقة والتجاويف في خديه .

- ولكن كيف ستجيب أنت عن السؤال ؟

- اطن أنتي لازم ، وعلى الأخص لكم ، لا للاتمان .

- من الأفضل أن تخاطبني بالفراد ، فذلك يسهل الكلام .
- حسنا ، سأفعل .

- زعم الاتمان أنهم جنودك في صفوف جيش المتلوعين ، ولكنك فوضوي صادق ، وملائم من حيث المنشأ أيضا .

- كل ذلك كذب . . . منشئ غير ملائم مطلقا . كما أنتي

انضمت إلى جيش المتلوعين بمحض إرادتي ، وتعادته بمحض إرادتي .

- هل صرت تشعر بالعار ؟

- لا . . . ولكن لماذا تلمنني ؟ لا تحسبني أحاول التثبت بقشة ، فانا في الحضيض منذ زمان . . . جيدا لو يؤمن الإنسان بالتفكير عن الغلایا الثقيلة . . . ولكن حتى هذه السنوي لا املكها . . .

- هل قمت بأعمال منكرة كثيرة ؟

- كان ، كان . . . طوال حياتي طاليت نفسى بالصفاء ، ولكن صفائي لم يكن صافيا . . . كل شيء كذلك ، لقد تقلبت ظهرا على بطن ، وصار من الأبيض أسود .

- أروني سيرتك ، يا أخ ، حسب الأصول .

- تخرجت في جامعة بطرسبورغ . . . حقوقيا . . . أنت تريد أن تعرف المنشأ . . . كنت صاحب الطيران ، من أصحاب

الاطيان الصغار . . . بعد وفاة والدي بعث آخر ما تبقى من ميراث : البيت ، والبستان واللبور وراه السياج . وتركت الفوج . . . ثم ماذا بعد . . . كنت ليبراليا ، مثل جميع الذين لهم

شيء من التعلل (وعرض فاديم بيتروفيتش وجهه باستنزاز) وطبيعي أنني كنت أتعاقد مع الثورة المقبلة ، وحتى في زمن الاضطرابات ، عام ١٩١٢ ، على ما يبدو ، فتحت نافذة التهوريسنة وصرخت

بتوكية مارة من خيالة البوليس : «جزارون ، جلاوزة . . . » وبهذا أو نحوه كان ينحصر نشاطي الثوري . . . ولم تكن بي حاجة إلى الاستعجال ، فقد كنت أحميا حياة لدينة . . . (وفي هذه المرة اهتز شاربيا تشوغاي) لا ، لا تتعجل احتقاري . . . فانا اتحدث بصفتي

فانا على الأقل لم أرفع في الحفلات كأس الشمبانيا لأشرب تخسب الشعب الروسي المعذب . وفي عام ١٩١٧ كدت أجن في العجبة خجلا

وعارا . وقد قضيت عامين ونصفا في الخنادق دون أن أعلن عن نفسي . ولم ألبس ملابس داخلية حريرية لاتفق القمل .

- جدارة .

- لا تسخر . فلاداعي لذلك . . . (وعرض فاديم بيتروفيتش

جبينه ، وهددت وجهه التعليل للال عسيفة) والان أجبني : ما هو

الوطن بالنسبة لك ؟ يوم حزيرانى ، الطفولة ، وازيز النحل في
 زيفون ، وانت تحس بالسعادة تنصب فيك كجداول من العسل . . .
 والسماء الروسية فوق الارض الروسية . . . وهل من المعقول اننى
 لم احب ذلك ؟ امن المعقول اننى لم احب الملايين من ذوى المعاطف
 العسكرية الرماوية تنزل من القطارات ، وتسير الى خط النار للقاء
 الموت ؟ . . . لقد عقدت اتفاقا مع الموت . ولم احسب انسى
 ساعدو من الحرب حيا . . . الوطن كان انا نفسى ، انسانا كبيرا
 ايبا . . . فظفر انه لم يكن ذلك ، بل شيئا آخر . . . انه الآخرون .
 اجبتى : ما هو الوطن ؟ ما هو بالنسبة لك ؟ اراك صامتا . . .
 ان اعرف ماذا ستقول . . ان الناس يسألون عن ذلك مرة واحدة
 في الحياة ، وذلك اذا قدوه . . آه ، انا لم افقد شفقة في
 بترسبورغ ، ولا مستقبل كعالم . . . بل فقدت في نفس الانسان
 الكبير ، بينما لا اريد ان اكون انسانا صغيرا . . . يمكنك ان
 تطلق النار على " لو رايست ارتباكك ولو في كلمة واحدة من
 كلماتى . . . وتصرف ذور المعاطف الرماوية على طريقتهم
 الخاصة . . . فماذا تبقى في ؟ لقد كرهتهم ! . . . واطبقت على دماغى
 كمامة من رصاص . لا ينضم الى جيش المتطوعين غير الانتقاميين
 والشفاوات المسعورين المتعشقين للدم " من اجل القصر ، من
 اجل الوطن ، من اجل العقيدة ترفع اصواتنا هورا . . . فنطلق بعربة
 حجرية الى مطعم "بار" لتاكل فطائر السمك . . .

انت . يا اخ ، كعكة متهينة للدهسول الى قرن - قال
 تشوغاى ، وبدا المرح في النظرة المهجدة لعينيه الجاحظتين - تحفة
 ان تتحدث مع متفلقين ! من اين لك هذه الشريكة الدماغية ؟ انتم ،
 على اية حال ، روس ، اذكياه على ما يبدو . . . لذن فهى الترييسة
 البرجوازية . انت الذى ضيعت نفسك ! انت لا تعرف حتى هل انت
 موجود ام لا . . . آه ، ايها الدينكيون ! سليلتى . . . كيف
 سنتلق انا وانت ؟ هل تريد ان تعمل لا من اجل ان تبقى في الحياة ،
 بل ليرضى شميرك ؟
 - ساعمل ، اذا كنت تضع المسألة بهذا الشكل .
 - بدون رغبة ؟
 - قلت ساعمل ، اذن ساعمل .

تناول تشوغاى الزجاجاة الفارغة ثانية ، ووجهها ، ونظر تحت
 الطاولة المسبوبة ، ورمى بصره الى الشبكة التى توضع عليها
 الحلاب .

- لنرد صاحبك ابن الكلبة ذلك - وفتح الباب ونادى -
 يا مفوضى ، اين اخفيت الكحول ؟ - ونمز لروتشين غمزة ذات
 معنى - لا تتعامل معه ، واذا حسدت اى شئ صوب المستفس
 اليه . انه اسوأ رجل لدى الامتآن .

نزل روتشين وتشوغاى ولوكا الذى انتفخ بالشرب خلال
 الليل الى المحطة الاخرة قبل الجسر . كان الضباب الطالع مسن
 الدنيير يغطى كارتريانسلاف في الجانب الاخر من النهسر . كان
 الثلاثة منكمشين عن البرد الرطب صامتين . واخيرا تحرك الفطار
 ودب عبر الجسر ومصدات عرباته تصطدم احداها بالاخرى . ظهرت
 على الرصيف المصنوع من الراح مصفوفة امرأة ملفوفة بمنديل
 صوفى لا يبدو منها غير عينيهما السريعى الحركة . مرت بالواقفين
 ثم عادت ثانية ، ثم ثالثة وهى تباطئ سيرها . قال تشوغاى
 وهو لا يوجه كلامه اليها ، بل غفلا :

- ترى اين يمكن ان لشرب الشاى ؟
 توقفت المرأة في الحال واجابت :
 - يمكن ان اجلبه لكم ، ولكن لا يوجد سكر .
 - عندنا سكرنا .

عندئذ ازاحت المنديل الصوفى عن وجهها ، وبدا وجهها حلو
 القسماات بشكل مذهل ، فتيا له غمازة على الخد المدور ، وقم
 صغير بارز الشفتين .

- من اين انتم ، يا رفاق ؟
 اجاب لوكا بفضيب :
 - ما هذا السؤال ، من اين انتم ؟ ففى عندك ، ولا
 تتأمري ! دلينا على الطريق .

رفعت الفتاة حاجبها دهشة ، الا ان تشوغاى قال لها «انتم
 نفس الاشخاص الذين تريد ان تستقبلهم» . فسزت من وصيف
 الفطار وقادتهم عبر دروب وقتت على جانبيها عربات محطمة عديدة .
 ولم يصادفهم كائن حتى في طريقهم عبر منبسطات الفرعلة ، وتحت

العربات حتى وصلوا الى عربة بضاعة . طرقت الفتاة ،
ونادت :

- هذا انا ، ماروسيا . اثبت بهم .

سحب سلفا باب العربة بعذر ، واطل وجه نائل صارم
شاحب ذو عيني سوداوين كغم الانتراسيت . قال الرجل
بغلوت :

- انتموا بسرعة ، فاثبت ثديون البرد ينفذ الى الداخل .
انسل الثلاثة وراهم ماروسيا الى العربة . جذب الرجل سلفي
الباب سوية . كان اللف ، يتسبع في العربة من موقد حديدي محمي ،
وكان الضوء المرطوب في علية قديمة لظلام الاحذية يلقى اضاءة
باهتة على وجه صارم القساست هو وجه رئيس اللجنة العسكرية
التورية ، وعلى شخصين غير واضحين في نهاية العربة .

عرض تشوغاي التفويض ، كما ان لوفكا اخرج ورقة صغيرة .
جلس الرئيس القرفضاء قرب الضوء ، وظل يقرأ وقتنا طويلا .
ثم قال وهو يتعشى :

- حسنا . هذه الليلة الثالثة ونحن في انتظاركم . اجلسوا
- ونظر بمؤخر عينه الى حذاء لوفكا الطويل السقيم - الاتمان
ماخو لا يبدو مستجلا .

بادر لوفكا بالجلوس على المقعد الوحيد عند متضدة مسن
الراح خشبية . واتخذ تشوغاي مجلسه على كتلة خشبية ، وتراج
روتشين وانكنا على جدار العربة . هذا اذن مقر اركان البلاشفة . . .
عربة فارغة ، ووجوه صارمة تبدو من سحناتها انها وجوه عمال
سكك صموتين متوحشين .

تكلم الرئيس بصوت متوازن :

- نحن مستعدون . والشعب متحفز . ويجب ان تبنا على
القر . . . وهناك معلومات تقسمون ان البلطويين قد تسموا
شيئا . فقد اتزلوا في المدينة يوم امس مدغعية ثقيلة . وهمس
ينتظرون قوات من كييف . لا يوجد خونة بيننا ، ولهذا يمكن ان
تكون المعلومات مشرحة من غولاى-بوله فقط .

قال لوفكا بلهجة متوعدة :

- اياك ، اياك . . . فكر فيما تقول !

وفي تلك اللحظة تحرك الشخصان خارجين من الظلمة . وتابع
الرئيس كلامه بنفس الصوت المتوازن :

- كل شيء عندكم يجري على المكشوف . وهذا لا يجوز ،
يا رفاق . . . في يكاترينوسلاف بدأت اعتقالات . . . انهم الآن
يعتقلون لا على التعيين . الا انهم اعتقلوا رفيقا لنا بالفعل . . .
- انه ميشكا كريفوماز ، الكومسومولي .

قالت ماروسيا ذلك بصوت رنان فيه شيء من التكسر الاتوي .
وكانت تتفقت بالقرب من فاديم بيتريشيتش وقسد القت متديلبها على
كتفيها .

- واستجوبه ناريفورودتسيف رئيس استخباراتهم نفسه .
ومعنى ذلك انهم في حالة انفراد . . .

- ضربوا ميشكا كريفوماز بتضيق من المطاط على جبينه ،
وظلمت عيناه ، المسكين - قالت ماروسيا بسرعة ، وتشجبت من
انفها فجأة - يتروا اصبعين من اصابعه ، وشقوا بطشه ، ولم
يش شيء .

وضع لوفكا سيفه بين رجليه ، وقال بازدراء :

- عمل رخيص . اتقولين انه ناريفورودتسيف ؟ سنتذكر
ذلك . ومن المدعي العام هنا ؟ ومن هو رئيس البوليس ؟
- مستغربكم بالاسماء والعناوين . . .

اوقف الرئيس ماروسيا :

- لتلتزم بالنظام ، يا رفاق . سيقدم فديوك تقريرا لنا عن
قوات العدو (واشار الى رجل ركبت حشر في حزامه ودنا فارما من
سنتره المتسفة) وساقدم انا تقريرا عن عمل اللجنة التورية .
وساعطي الكلمة لكم عن ماخو . والمسألة الرابعة حول المتاشفة
والغوضويين والاشتراكيين التورين اليساريين . ان هؤلاء الاوفاد
يشتمون طعاما طيبا ، وهم كاثوليا يتجهلون للمرآك من اجل مقاعد
في السوفييت والان . ابدا ، يا فديوك .

بدا فديوك كلامه بصوت صلب عن اعداء الماضي فاشار
الى الخطلت الدعوية للبرجوازية العالمية . الا ان الرئيس قاطعه في
الحال : «لست انت في اجتماع عام ، فقدم الحقائق المجردة وظهر
ان الحقائق المجردة خطيرة جدا : ففسد كان للبلطويين في

بكاترينوسلاف حوالى الفى رجل من المشاة ، وستة عشر مدفعا من بينها اربعة مدافع ثقيلة . وفضلا عن ذلك كانت توجد وحدات لبيش المشاة تتألف من العناصر البرجوازية والضباط لديها عدد كبير من الرشايات . وحتى كيف كانت مستعدة لتقديم التعزيزات .

واتضح من التقرير الثانى ان اللجنة العسكرية الثورية تستطيع ان تعتمد على ثلاثة آلاف وخمسمائة عامل سيقفون الى جانب المنظمة البلشفية دون تردد ، وعلى دفع من الشبيبة الفلاحية من القرى المجاورة ، حيث جرى نشاط تحريض فيها . الا ان السلاح قليل : يمكن القول ان عشر العدد مسلح ، والبقية بايد فارغة .

وحين رآى الرئيس تامل تشوغاى ، وتدل شقة لوفكا السفلى رقم صوته وقد التفتت عيناه بلون فحم الانتراسيت .

- نحن لا نصر ، اذا كان الاتمان ماخو يخاف ان يهاجم المدينة بنفسه ليبق فى غولاى-بوله ، فقط ان يعطينا السلاح والخيرة .

احمر لوفكا ، وشرب الارض بسيله :

- لا توشى دعاغى ، يا رفيق . . . نحن لا نتاجر فى السلاح . . . الاتمان يستطيع ان يشتت الاوغاد البتليوريين كالدباب بحركة واحدة من ذراعه

عندئذ قال تشوغاى :

- لا تتحد ، يا رفيق لوفكا ، اصمت لحظة . ايها الرفاق ، اننا توصلنا الى اتفاق مع الاتمان ماخو . انسه الان خاضع للقيادة العام للجيش الاوكرانى . وجيشه الشعبى - الذى هو الآن الفرقة الخامسة - سيهاجم بكاترينوسلاف يامر من القائد العام ، وهذا الامر موجود فى جيبى . فلنتنقل الى تسبيق العمليات . . . ان معنا اخصائيا عسكريا . يا رفيق روتشين ، اقرب ، ارجوك .

سافر تشوغاى فى نفس الليلة عائدا الى ماخو فى غولاى-بوله . وقد اخذ لوفكا معه كيليا ينظر المعال شزرا الى وجهه

المستل . وحلته الضيق ، وكالوشيه العالين ، كما لم يرد ان يبقى هذا الاحق جيدا مع روتشين .

العقوا ماروسيا بروتشين للاتصال والمرافقة . لم تكن الخطة العسكرية للجنة الثورية صالحة على الاطلاق ، وقد اعلن روتشين ذلك فى الحال وبكل صراحة . اقترحت اللجنة الثورية ان يقوم هو بتفقد المدينة ، ويضع خطته ، فكان فى كل صباح يعبر مع ماروسيا الدتبير المتبخر على زورق وسط كسر الجليد ، وينزلان على الشاطئ، الاين فى ضاحية ماندريروفكا ، ويطلبان من احد الفلاحين الذاهبين الى السوق توصيلهما الى المحطة ، ومن هناك كانا يصلان الى المركز مشيا او فى عربة ترام .

كانت المحطة بجسرها للخط الحديدى تقع فى الجهة الجنوبية ، ومنها كانت جادة بكاترينينسكى العريضة تمتد عبر المدينة كلها محفوفة باشجار الاناسيا والحور الهرمية ، وعلى جانبي الجادة كانت تقف ابنية جديدة ضخمة لامعة النوافذ ، هي ابنية البنوك والفنادق والبريد والبرق ودوما المدينة ، وكانت الجادة تصعد فى مرتفع شديد نحو المدينة القديمة المحيطة بساحة الكاتدرائية . وهناك كانت تقع كتكات الجنود .

علم فاديم بيتروفيتش ماروسيا ان تعد الخطوات ، وتحدد الزوايا بعينها ، وتحفظ بشكل خاص النقاط المهمة لاطلاق النار ، وكان بين العين والاخر يدخلان مفهى ، ويغططان شطة على ورقة ، وتطويها ماروسيا على هيئة طرف وتبدها فى كلفها ، لتدسها فى فيها وتبتلعها فى حالة اعتراض الشرطة لهما . الا ان احد لم يفتلس نظرة اليها قط ، رغم ان العامل وحده يمكن ان تقيب عن لحظة ماروسيا الجميلة يستبدلها الزاهر المشهود على الطريقة الاوكرانية ، وروتشين يبعثه ذات اللغة القرمزية . الا ان الناس هنا كانوا فى شغل شاغل عنهما . فان السلطات البتليوربية التي اعلنت نفسها جمهورية ديوقراطية شربكت نفسها بين لجان من شق الاعتراف الممكنة : جماعة «النضال» والاشتراكيين ، والصهيونيين ، والفضويين ، والقوميين ، واصرار الجمعية الناسيسية ، والاشتراكيين الثوريين والاشتراكيين الشعبين واعضاء الحزب الاشتراكي البولوني والمعتمدين والمتوسطين ، ولجان لها برامج واخرى بلا برامج .

وكان جميع هؤلاء الطفيليين يطالبون بالملئنة وبالمقرات والمال ، ويهددون بحرمانها من ثقة الجمهور . وژادت الطين بلة دوما المدينة التي كان يرأسها بابريكاكى الصغير (فان بابريكاكى الكبير ، وهو أكثر ذكاء ، قد هرب الى دنيكن) . سارت دوما المدينة على سياسة الحكم المزدوج ، بل واصرت على تأليف فوج خاص يحمل اسم حاييم سولومونفيتش فيستورى عمدة المدينة الراسل . والمفهوم ان السلطات البلشويوية لم يبق لها الا مجال واحد للتنشاط تطلق فيه يديها . وهو الامارة ليلا على العمال الشيوعيين في شققهم وحتى هذا كان يقتصر على الذين يعيشون على الضفة اليمنى .

وبعد يوم من التلطف كان روتشئين وماروسيا يعودان باقصر طريق عبر الجسر الى الضاحية في الضفة اليسرى ، فاصدين بيتا ابيض صغيرا يقع على رأس منحدر على الدنيبر .

كان الفرن في البيت متوقفا دائما ، وواحدة اقراص الروت المجفف المستعمل للوقود تفوح بنكهتها الخاصة المريحة في ارجاء البيت . وكانت والدته ماروسيا تدخل ومعها شعبة سميكة من تلك الفسوخ المستخدمة في عربات القطار (كان والد ماروسيا يشتغل في السكك الحديدية) وتمس الفرن بيدها ، وتسال بصوت خافت :

- هل البيت دافئ ؟

- دافئ ، يا ماما .

- هل تعشيان ؟

- نحن جالمان كالكلاب ، يا ماما .

وتنتهد وتقول :

- تعشيتا ، انا وابوك ، فاذهبا لتعشيتا . فالشبان جاعون

دالما .

وكانت تمشي ببطء الى ما وراء الحاجز وكان فكرها مشغول بشئ حزين يعز عن الوصف ، وتناول الملقط وتحنى من الجهد ، وتغمغم : «يقع المسيح اطلح سلميحا صحيحا» وتخرج من الفرن فلما حديدا كبيرا فيه حساء «البورش» . وكان الاب يجلس على السرير في وضع غير مريح مدخنا غليوته . وكان وزوجته يحاولان ان يصرفا انتباههما عن روتشئين (كانا يسميانه فيما بينهما «السرير» ولكن حين كان روتشئين يطلب شيئا ما كفى من الماء

او عليه تقاب - كان والد ماروسيا يتب من السرير بسرعة ، والام تنهيا متحفزة لتلبية الطلب) .

كان روتشئين وماروسيا يحتميان «البورش» صابن اياها من القدر في صحتين مثلثين . وماروسيا لا تكف عن الحديث ، فقد كانت انطباعات اليوم تنطبع باق في تفاصيلها على الغضارة التساقفة لذكارتها .

كانت امها تقول وهي واقفة عند الموقد :

- بحق المسيح ، كذاك كلاما . فالطعام لا يؤدي فائدته مع

الكلام .

- ماما ، طوال النهار كنت صامتة - وتنتظر ماروسيا

الى روتشئين يعيشها الصغيرتين الزرقاويتين بصفاء والمذهولتين . اوريد ان اتول لك انى كثيرة الكلام بشكل مربع ، حتى انهم لم يريدوا ان يقبلوني في الكوسومول . فابن التكتك اذا كان الانسان يحب الهدوء واجتزت الامتحان ، حين لزمتم الصمت سبعة اسام بليلها .

وكانت ماروسيا ، بعد العشاء تلقى المندبل الصوفى عليها ،

وتخرج الى الاجتماع الحزبي . وكان روتشئين يشكر على حسن الضيافة ، ويذهب وراء الحاجز ، الى حجرة ضيقة وواطئة السقف بحيث كان يستطيع اذا رفع ذراعاه ان يمس سقفها الخشن . وكان يحتر يديه تحت حزامه ، ويسير جيتة وذهوبا بين النافذة المغلقة بالصفافة ، وصوان ماروسيا المصنوع من خشب الصنوبر . وكان يحل حزامه ويخلع قميصه ، ويجلس الى النافذة . ومن خلال الصفافة يسفر الى كتل الجليد ترسل خرخرتها الناعمة الضماء من بعيد اتنا تعذرهما على الدنيبر . واهل البيت وراء الحاجز آووا الى مضاجعهم . وفي صمت البيت الصغير كان لا يسمع غير فرقة التجصيص في الفرن ، وصرصره الجديد . وهو يحز خشبة صغيرة مثل متشار شتيل . وكان فاديم بيتروفيتش يحس برامة وطمانينة على نحو غير متوقع . ولم تكن تطوف في راسه غير افكار بسيطة من الحياة اليومية .

وكان لا يريد ان ينام قبل ان تعود ماروسيا ، فكان لكس يطرد التعاس ينهض مرة اخرى ، ويلتزع الحجرة . وقد اعجبته

كثيرا هذه الحجرة الصغيرة للغاية ، المطلية جدرانها بالكلس .
كانت اشياء ماروسيا فيها قليلة : ثوروة مغلقة بمسار ، ومشط ،
ومرأة صغيرة على كومودينسو ، وبعض الكتب المأخوذة من
المكتبة . . . وعند العالط سرير حديدي قصير تنازلت ماروسيا
عنه لروتشيين ، وفرشت لنفسها لبادة على الارض .

صفق الباب في الرواق ، وصر باب المطبخ ، وظهرت ماروسيا
موردة الغدين من البرد ، وحلت مندبلها وقالت :

- لطيف انك قد انتظرتني . هل تعرف الاخبار ؟ سيكون
مانجو هنا بعد ثلاثة ايام . وغدا يجب ان تقدم الخطة . . اما هذه
الليلة فساحرة ! ساكنة والسماء مزدهرة بالنجوم .

كانت ماروسيا مغمورة جدا بالشؤون المهمة والانطباعات
المختلفة ، وبسيطة القلب كثيرا حتى انها كانت تفرش لنفسها
على الارض ، وتخلع ملابسها بحضور فاديسم بيتروفيتش دون
خجل . وكانت تغلق ثورتها ويلوثها وجوبها حسيبا اتفق .
وتجلس على اللبادة لحظة محتضنة ركبتيها :

«آه ، متعبه وتضرب الوسادة بجمع يديها ، وتستلقى
ساحبة اللحاف حتى رأسها . ولكنها سرعان ما كانت تخرج وجهها
باناله الصغير والفاضة وهو ما يزال مختلفا بتورده ، وتلقى
ذراعيها الماريتين فوق اللحاف :

- حر شديد ! اسمع هل انت نائم ؟

- لا ماروسيا ، لا .

- اصبح انك كنت ضابطا ابيض ؟

- صحيح ، ماروسيا .

- اليوم تجادلت . . . وبعض الرفاق لا يتقنون بك . عندنا

مثل هؤلاء ، متعنتون . . . يرتابون حتى باهماتهم . . . ولكن كيف
لا نتق بالسان اذا كنت صادقا مع نفسك ! انا افضل ان اكون
مخطئة على ان اسم الظن يكن شخص . انا اقول لهم مع مسن
ستقومون بالثورة اذا كنتم تسميئون الظن بكل من حولكم ؟ . .
لن تقوم بثورة عالمية . . . والثورة قوة خاصة . هل تفهمون ذلك؟
تصدروا ماذا كان عساي ان افعل بدون الثورة ؟ ان الصق العلب في
مشغل للكاترون لمدة اثنتي عشرة ساعة يوميا . . . والتسلية

الوحيدة ان ارض يدور عباد الشمس ايسام الاحساد في بولفار
بكاتريينسكي . . او ربما اقتر لاحصل على حذاء طويل الرقبة ،
فيا له من مكسب ثمين ! والقول لهم : كيف لا تتقنون به يسا
رفاق ؟ هب انه ، وهو المثقف ، قد اضنا وغنم طبخته ، ولكنه
انسان . . . والثورة تجذب اناسا من اصناف اخرى ايضا . هل
يستطيع ان يتحول عن طبخته العفنة ؟ يستطيع . . . انه يحتاج
التيان عن وعن ، ويقاقل في سبيل قضيتنا العمالية . . . لا بد ان
تكونوا متعنتين اذا كنتم لا تؤمنون بذلك . . . حسنا ، لقد اتعت
الكثيرين .

كان روتشيين مستلقيا على السرير التصير منكمشا ينظر الى
ماروسيا التي كانت تسمر ذراعيها الماريتين تارة ، وتطويهما
بحرارة تارة اخرى . وكانت الحجرة الواحدة تيسسو وقد امتلات
بضارة عدوتها ، وكان غصنا من الزئبق الابيض قد جلب اليها .
- الامر يختلف اذا كان يتعلق بوجوب اعادة توكيسن
المثقفين الفكري . . وسنعيده توكيتك انست ايضا . . لماذا
تضحك ؟

- انا لا اضحك ، يا ماروسيا . . . عند ستين عديدة وانا
لم اشعر بانني نافع لقضية خيرة مثل شعوري في هذا الوقت . . .
انا افكر الان بان اخرج مع الفصيلا الاول للاستيلاء على الجسر .
- آه ، احقا ما تقول ؟

وخرجت ماروسيا من تحت اللحاف بغفة ، وجلست قربة على
حافة السرير :

- الان ، اومن بانك معنا عن حق . . . بينما ظلمت اجادل
واجادل لانني لا املك دليلا صريحا على اية حال .

في نهار السادس والعشرين اطلق خمسون فارسا بتليوريا
على الجسر الحديدي عبر الدبيري طارقين صفانه الحديديه يستابك
خيولهم ، وهجوا على محطة البضائع ، واعملوا سيرفهم في العمال
الذين كانوا يحرسون قطارا من اربع عربات اقيمت عليها متاريس
من اكياس الرمل ، وتفرقوا على الخطوط مطلقين النار على العربات .

وقد حصل كل ذلك بمجاعة واحتراس . وكان يتوقع ان توجه هذه الغارة الى مقر قيادة اللجنة العسكرية الثورية . الا ان البتشيورين شافوا من المكان في العجز الضيق بين العربات . وخرجوا الى مكان مكتشوف باسرع ما يستطيعون ، وعادوا من حيث اتوا .

وضعوا رشاشات في الجانب الآخر من الجسر ، واحوا يطبلون من كل عابر ابراز هويته . واشتد التوتر ، وتواردت معلومات من احياء المدينة عن غارات تفشيشية شاملة . وفي ذلك اليوم لم يأت فلاحو الضسواحي فرادي ، بل جماعات من عشرة اشخاص حزموا معانطهم من قراء الاغنام بقوة ، ولم يحملوا شيئا من متاع . وقد شكلت اللجنة العسكرية الثورية فوجا منهم وكانت الشكليات قصيرة . اذ كان كل واحد منهم يسأل :

- لماذا جئت ؟
- جئت . اعطوني سلاحا .
- وما حاجتك الى السلاح ؟
- يجب انشاء سوفيات ، والافستيد الهرجلة من جديد . وهل تعترف بالسلطة السوفييتية بدون تحفظ ؟
- ليس عندي تحفظات ...
- انضم الى السرية الثانية ...

ولكن السلاح لم يكن كافيا حتى جاء تشولساي عند الظهر بصورة مفاجئة في قاطرة تجر عربة واحدة ، جالبا معه ثلاثمائة بندقية تساوية مع العتاد . وغنق ذلك الوضع قليلا . واخيرا ، وفي ساعة متأخرة من المساء اخذ جيش ماخنو المرتقب طويلا يقترب مددفا قارعا المسهب .

وكان اول من وصل الى العاصمة «فرسان كروبوكتين» - رجال الايمان البواسل - وجميعهم متساوون في الطول ، وقد احتلوا المدرسة في الحال ، وقدفوا منها الكتب والمقاعد المدرسية والمعلبة ، واخذوا يفتقون ابواب البيوت بطريقة تسلطية . ودخل بعضهم زهاء مائتي عربة وعربة رشاشة تحمل المشاة . وبعد هؤلاء جميعا توقفت قرب المدرسة مركبة سطر كبيرة ، لعلها كانت تعود الى فلران . تجرعا اربعة خيول ، وقد جلس الاخرس العظيم على مقعد السائق ، ونزل منها ماخنو ولوفكا وكاربتنيك بعظمة .

وسارع الايمان فلطب ان يجتمع به اعضاء اللجنة العسكرية الثورية في الحال . وخلال ذلك الوقت كان عهد غير قليل من العمال المنفلطين قد تجهم قرب عربة اللجنة العسكرية الثورية . وصاحوا برئيسها :

- يا ميرون ايفانوفيتش ، اذهب بنفسك واتق نظرة . ليست هذه قوات سوفييتية ، بل قطاع طرق ... استمع الى العمة غابكا ، فانها ستروي لك ماذا فعلوا بها ...

قالت العمة غابكا وهي تتدرف الدمع :

- ميرون ايفانوفيتش ، انت تعرف احوالي ... اقتحم اثنان بيتي ... وصارا يطلقان حليبا . وشحم خنزير ... ذبيسان چانغان ... وطلبا ان اخرج ابي اللناء ، وادلهمسا على الخنزير والدواجن والتمم الفعيناك كل شيء . عسى ان يصابا بالزحار ... واضطر الرئيس ان يشرح لهم بصوت حاد ان الامر ما دام قد وقع - اذ هم الذين دعوا ماخنو وقواته - فان مجال التراجع قد فات ، ولم يبق امامهم الا مهمة واحدة : الاستيلاء على المدينة اجتياحا ، ونقل السلطة الى السوفييات . ثم صاح بالعمة غابكا فجأة :

- لا يكليك خنزيران ؟ سنهديك قطيعا من الخنازير ... فكلني عن اثاره الناس ...

في الاجتماع سلك ماخنو سملوكا غزيبيا - فلقد ابدى وقاحة وجبنا . طلب بان يعين قائدا عاما لجميع القوات ، وفي حالة الرفض عهد بان يعود الجيش نفسه من حيث اتى . وكرر القول بان السلطة السوفييتية لا تملك قوة قتالية اخرى ، وانها يجب ان تحرس على هذه القوة ، والا تبدها بهجمات متهورة . وكان يفرض اطافره ، ويحشر يده تحت سترته بين الاوتنة والاخرى ويهرش جلده . واضمح ان اكثر ما يخشاه هو مدافع بيتليورا الستة عشر .

عندئذ قال تشولساي له :

- حسنا ، اذا كنت تغاف من هذه المدافع فانني ذاهب الليلة الى المدينة لاتحدث مع امر المدفعية . كيف تتحدث معي ؟

- هذا شيء يخصني ...

- تكذب !

- لا ، لا اكذب . من هو أمر مدفعيتهم ؟ مارينيتشكو . وهو من جماعةنا في اسطول البلطيق . كان مدفعا في البدمرة «فانكوت» وهو من ابناء منتقلي . او لعنه من الرياني او ربما عرابي ... وهو لن يطلق النار علينا ...

- تكذب ! - كرر ماخنو ناشبا اطافره بكمه . والظاهر انه قد صدق . فقد هذا فجأة . واتخذ وقاره :

- حدثنا عن خفتكم للهجوم .

وعرضت اللجنة العسكرية الثورية هذه الخطة له : تعبر فصيحة من العمال المسلحين بالقنابل اليدوية الى الضفة الاخرى ليلا . ويستعمل هؤلاء واحدا واحدا الى جسر السكك الحديدية . وفي الفجر يهاجمون رجال الرشاشات المستحكمة عند رأس الجسر . ويستولون على الرشاشات . ويقعون تحت الثيران الشسوارح المؤدية الى الجسر - وحتى تندلع انفجارات القنابل اليدوية يتحرك نحو الجسر القطار المصنع (ذو العربات الاربع) بمحاله المسلحين . جزء من فوج الفلاحين المؤقت حديثا . ويهاجم محطة المدينة . وفي اثناء ذلك يبلغ اعضاء القيادة النجسان البلشيفية في المناطق مستخدمين في ذلك عناوين وتلفونات معروفة لهم وهدمهم . فتقوم هذه النجسان بالانتفاضة في المدينة . وتوزع على المجتمعين عند المحطة الاسلحة التي يجلبها القطار المصنع . وفي ذلك الوقت تنقل القيادة عملياتها الى هناك . ويحترق فرسان ماخنو المدينة من خلال جسر المارة . ويعبر المشيئة الدينير بطابورين من بين الجسر وشماله . ويلتقون في اماكن محددة في جادة يكاريتينسكي . ومن هناك يتعمدون بهجوم الى الاعلى للاستيلاء على مؤسسات المدينة والشركات . ان نجاح الانتفاضة يتوقف على السرعة والمباغتة في الهجوم . ولهذا يجب ان تحدث هذه الليلة موعدا للهجوم .

قال ماخنو :

- الرجال تعبوا من المسيرة . والغبول معظمه الحدوات . ويجب دق حذوات جديدة لها .

فردته رئيس اللجنة العسكرية الثورية على ذلك :

- يمكن ان يستريح الرجال بعد ان نستول على المدينة . اما الغبول فيمكن ان توضع بعد ذلك حذوات سوفييتية لها . وقال تشوغاي :

- هل عسكرت على مرأى من المدينة كلها لتستريح . ايها الايمان ؟ سيفقدون عليك غدا من مدافعهم من عيسار المست بوسات . باختصار : اما ان تبعد اليوم ليلا واما ان ترحل ...

حمد الدينير في تلك الليلة . الا ان الجليد لم يكن مأمونا . وخلال الليل كله اخذ العمسال يجران الالواح الى ضفة النهر لاستخدامها في العبور فالعين اياها من مصاربع البوابات . واسيجة يكاملها . كما عمل على قدم المساواة معهم جميع اعضاء اللجنة العسكرية الثورية ورئيسها .

وكان رجال الايمان وهدمهم يتجولون على الشاطئ مدجين بالسلاح بابهة خالقين من تصببهم بالعرق . واحدهم يقفز للأخر نحو اضواء المدينة القليلة في الجانب الآخر من النهر . لقد كانت يكاريتينوسلاف كبيرة ولغنية .

قبل حوالي ساعتين من بزوغ الفجر نزل اربعة وعشرون رجلا الى الجليد بقيادة روتشين . وكان كل شيء قد اوضح سلفا . وتشلق الجليد في الانصاقات بين كتل الجليد . فاضطروا الى مدّ الالواح التي كانوا يحملونها في ايديهم . ومرة واحدة فقط شمع ويمض في الضفة الاخرى بالقرب من الكتلة السوداء الغامضة للجسر المشبك . والطلقت وضاعة متفرقة . استلقى الجميع . ومن بعدها اتخذوا يرحفون متباعدين بعضهم عن بعض قدر الامكان . خرج روتشين في النقطة التي حددتها بالضبط بالقرب من مركب غامض . ومن تلك النقطة كان زقاق صغير يصعد في التل . وقد صعد فيه . واستدار نحو الجهة الخلفية للفتاه الذي عين مكانا للالتقاء - وهو فتاه مستودع للضالع خال الآن . ارسلت اوار المحلة ضوا باعنا . كانت المدينة كلها تغط في نوم عميق . نسى روتشين بعض الوقت يسير بمحاذاة الميناج بغلوات خفيفة مكررا عبارة واحدة متفحة وبلا معنى واضح . ونظر باستمتاع الى

البرودة . . . إذن ، فالذي هو أحق من الآخر هو صاحب الفلانية -
 هز الشاب رأسه وضحك :
 - قولاك صحيح ، سيقلب من له ذكاه أكثر . . . انهم بلهوا ،
 ونحن اذكيا . . . فنحن نعرف من اجل اى شيء . . . - وفتحة اخرى
 رقبته المنشفة ، والثوى فمسه الجميل - نحن نعرف في سبيل اى
 شيء نموت .

وسأل شخص آخر ، وهو يشق طريقه :

- خيرنى : اذا التيت قنابل اليدوية فهل سأصبح بعد ذلك

بلا سلاح ؟

اجابه شخص بيمس اجسئ :

- وبذلك ما نلهمنا ؟ مغلل !

قال روتشئ :

- يا رفاق ، اعيد عليكم العملية كلها مرة اخرى . سننقسم

الى جماعتين . . .

وراح ينظر ، وهو يتحدث ، الى حجر الصباح يبرز اخيرا في

الظلام العالك وراء الدينير . . . كانت سحب كثيفة تحجب ، لا معنى

الآن في ارهاق الرجال أكثر .

عدل حزامه وقال :

- حان الوقت . لننقسم . اقتحوا البوابة .

فتحت البوابة ببحر ، وغربوا واحدا واحدا ، متسللين

ووصلوا الى نهاية السياج . ومن تلك النقطة كان الجسر يرى

يشكل واضح في منتصف النهر المتجدد . وامامه كانت تلوح معالم

مهمة لحدة الخندق في رأس الجسر مع رشاشاته والطاغم الناتم ،

على ما يبدو . وكان مسة خندق ثمان معائل في الجانب الآخر من

السدة .

- تناولوا القنابل اليدوية ، واركضوا . . .

وركض الثلاثة والعشرون دفعة واحدة ، كما يركض لاعبو

الكرة . وركضوا صامتين بكل قواهم . اتجه تصفهم نحو الخندق

مباشرة ، والثلاثة عشر الآخرون انحنوا بيننا نحو

السدة . جاهد روتشئ الا يتأخر وراى كيف تغلف اشباح

طويلة في الستر الحزمة عبر سدة السكة الحديد فترات عالية .

السياج العالي عارفا انه يستطيع بلا جهد ان يقلف عبره جسمه
 العديم الوزن . اخذ الرفاق يتوافدون واحدا واحدا كالاشباح ، امر
 الجميع بان يقفروا الى الفناء ، وصلوا الى البوابة . وعاد ثانية
 يسير بخلو خفيف .

اجتمع ثلاثة وعشرون رجلا من الرجال الاربعة والعشرين ،

وضل واحد طريقه او اهنكه رجال الدوريسة . وتب روتشئ ،

وتعلق بيديه على حافة السياج ، مغربشا ببوزى مذهلة على الواحه ،

وقفز الى الجهة الاخرى ، ولكن ليس بالسهولة التي تصورها ،

ونزل على آجر مهشم .

كان العمال واقفين عند البوابة صامتين يحدقون في روتشئ وهو

يتقدم منهم . وكان البعض جالسا على الارض ، واضعا وجهه في

ركبته المرتفعتين . لم يبق وقت طويل على بزوغ الفجر . وكانت

لحظات الانتظار الاخيرة هذه حاسمة واحفل بالارهاق ، لا سيما

بالنسبة للذين يخوضون قتالا لأول مرة . كان روتشئ يلهم

بغير وضوح الالواء المطبقة بيهذه عازم ، والسبعان الجاف في العيون

التي لا ترف . لقد كانوا اثنيانا مخلصين يفكرون بنقطة وبقاء ،

روسا ثقال الايدي . وقد اتدموا يحض ارادتهم على امر خطر لا

تعرف هدفه ، في سبيل الثورة العالمية ، على حد قول ماركوسيا في

تلك الحجرة البيضاء الصغيرة النضادة بشمسة . وداهمه احساس

بنشوة خاطفة ، وعادت اليه نفس الخفة ، ونفس بالعاطلة المواراة .

وكل شيء يختلف عما كان يحسه من قبل ، كل شيء جديدا

عليه . قال وقد قلب حاجبيه :

- يا رفاق ، اذا قمنا بهذه المهمة بهدوء ، فسبحالفنا النجاح

فيما بعد ايضا . وعلينا الآن يتوقف نجاح الانتفاضة بكاملها

(نفس الذين كانوا جالسين على الارض ، واقتربوا) واكرر مسرة

اخرى : الامر لا يتطلب دعاء كبيرا . والثوى الرئيسي هو السرعة

والهدوء . والعدو يخاف من ذلك أكثر من اى شيء آخر . يخاف من

الانسان لا من السلاح . . . اذا كنت تشمر - وصعد النظر في شباب

ذئ رغبة جرداء قوية - اذا كنت ، ايها الرفيق . . . - وراودتسه

رغبة لا تكبح ، فوضع يده على كتف الشاب ، ومس رقبته

الدافئة - اذا كنت تشمر ببرودة في قلبك ، فان العدو يشعر بنفس

استدار في إثرها . وادرك ان خطأ قد وقع ، فانهض لن يلحقوا في الوصول الى الخندق الثاني ، وان إشارة الأتباع مستصغر ، صدر التجار خلفه ، وزعقت اصوات وحشيشة ، وتجتربت مرة بعد الاخرى قتابل يدويصة . . . واحتل الخندق الاول ، صعد السدة غير ملتفت بعب الهباء الجارح بفضه المفتوح . كان الرجال الثلاثة عشر امامه ينطلقون بوثبات جبارة . . . واقتربوا . . . واستقبلهم لهب الرشاش مثل فرائضة مسعورة . واحسن روتشين وكان خلفه ربح غقتت على رأسه . وفكر في نفسه «يا رب ، اصنع معجزة ، ذلك يحدث . والا سنهلك . . .» ورأى الشاب ذا الرقبة الجرداء ، يلقي قنبلة يدوية دون أن ينحني . ووثب الثلاثة عشر كلهم الى الخندق احياء . ورأى اجسادا تتخبط وتلمت . وقع شخص ملتحق في كثافة ضابط جسمه الى الاعلى منتفضسا ، وراح يطعن بسيفه في غضب كل من يسلك به . اطلق روتشين النار ، وتهاوى الضابط الملتحق ، ولوى رأسه . وفي اللحظة التالية زحف آخر في معطف من معاطف الضباط واقفا صارخا . امسكه روتشين ، فاطلق الضابط يديه ، واطبقهما على رقبته قائلا «وفد ، وفد ، وفد» وفجأة ارتخت اصابعه :

روتشين . . .

اللجنة ، من هذا ؟ يبدو انه من قيسادة ايفرت . لم يجب روتشين وضربه بسنسنه على صدقه . واحتل هذا الخندق ايضا . وادار العمال الرشاشة . صغرت قاطرة وراه الدليبير ، ودب القططار المصنوع مدعما على الجسر ليحتل المحطة .

كانت الشمس قد ارتفعت منذ وقت طويل ، وراحت تلهب بحراتها . عبر القطار المصنح الجسر ثانية نافعا دخانا اسود ، حاملا الناس والسلاح الى المحطة المحتلثة . شيعه الرجال من خنادقهم بالصياح . وصارت الامور سيرا حسنا . قبل وقت طويل عبر مشاة ماخنو جليد النهر كالتمل ، ووزحوا على الضفة الشديدة الانحدار ، واجتاحوا نقاط الشرطة ، وانتشروا في الشوارع . وكانت الطلقات تتردد بلا فتور تارة على بعد وتارة على مقربة دائية .

— ساشكا ، اذهب الى المحطة ، واعتز على القائد العام ، وقل له اننا هنا منذ الغامسة صباحا ، تجعدنا ولم نأكل شيئا . دعمهم يرسلون من يهل معلنا .

قال روتشين ذلك لصاحب الرقبة الجرداء الذي كانت الغدوش الدامية تغطي وجهه الرجولي الفق الامرد الا من شعيرات زغبية ملتفة . وكانت هذه الغدوش اتارا تركها عليه مسددة الرشاشة القوي ، وهو يراقب الحياة .

اندفع ساشكا خفيفا وهو يرتجف في سترته الخفيفة طالما الى مكان مكتشف رغم صفيير الرصاص المتكرر في الهباء . صاحوا به «ستقتل ، يا اسحق . . . ساشكا ، اجلب لنا سيكائر . . .» وعاد سريعا ، وقرض امام الخندق والتي عليه سيكائر الى رفاهه ، وقدم لروتشين مذكرة عليها ختم ما زال طريا : «انتظروا . سارسل . ماخنو» .

وقال لروتشين :

— تحية لك من ماروسيا .

ففر فاديم بيتروفيتش لمسح من المفاجأة ، ورمق ساشكا المقرض بنظرة خاطلة من مكانه في الخندق .

— انها فتاة مليحة ، يا رفيق روتشين . اسعدك الحظ . . .

— اين رايتها ؟

— انها نشيطة في المحطة . . . لولاها لما وصلت الى ماخنو . ما اكثر الناس هناك ، يا قتيان ! لا يلحقون في توزيع الاسلحة ، يكتازيتوسلاف لنا .

اتخذ ماخنو المحطة مقرا لقيادته . جلس الاتمان في صالة الدرجتين الاولى والثانية وراء منصة المشرب بتخليها الاصطناعي ، واذاحوا كل ما عليها من اوان ، فوجعت على الارض ، واخذ ماخنو يكتب الاوامر . وكان كاريتنيك يدعقها بالختم . وكان من يتسلمها ينطلق بها في الحال . وكان رجسالم منفعلون لا يفتأون يمشلون يطلبون العتاد والتعزيزات ومطابخ الميدان والسيكائر والغبن ورجال الاسعاف . . . ذات مرة جاء أمر وحدة استولى عليه العيثد لانه تسق طريقه الى البنك التجاري الصناعي ، ولم يبق بينه وبين

بابه غير خطوتين ، الا ان النفس في العناد اجبره على القعود بعض الارض من التكرار ، تقدم من الامان ، وامسك بقتلتين معلقتين في حزامه ، وخبطهما على المنصة للتحريف ، وقال :

— ماذا تفعل هنا ، تصل للرب ؟ قدم العتاد لنا ، يا كذا
ويا كيت ! . . .

وكان ماخو لا يعطى الاوامر الا لمن يطالب بها . ارتجف فكاه ليثير الخوف ، وتظاهر بأنه صاحب الامر والنهي . ولكنه في واقع الامر كان مشغول الفكر كلياً ، تقب وزقة ، ورسم صليباناً على خارطة المدينة ، في الاماكن التي يجب ان تراجع فيها القوات . ليس في هذه المدينة الملعونة مجال للحركة ، والشوارع كلها ضيقة ، والعدو في الاعل والانسفل وعلى الجانبين . . . حلق ماخو في الغارطة ولم ير لا هذه الشوارع ولا تلك البيوت . وقعد القابليسة على تعيين الاتجاه . وصارت اللعبة خبط العشواء . فلا عجب في انه كان يعتبر المدن اشياء ضارة ، آفة جميع الافات .

وفضلاً عن ذلك كان يلققه الغموض في علاقته بمارتينيكو . اكد تشوغاي ان مارتينيكو لا يريد ان يطلق النار على جماعته . وقد يكون تشوغاي قد التقى به هذه الليلة ، او انهما اتفقا من قبل . حقا ان كل شيء هادئ في مستودع المدفعية ، ونصف طامم المدفعية قد حرب ومارتينيكو نفسه قد سكر غاية السكر من دقة الموقف دون خشك . لم يكن في المحطبة غير مدفعين من مستودعه وقد تركهما البيثليوريون . وسر ماخو الذي لم يستول على مدافع قط ، وطلب ان يخرجا الى الجادة ، وجذب بنفسه جبل الاعلاق ، وطلعت على وجهه ابتسامة متفضضة حين صدر المدفع — حق الناس اتعوا على الارض — وانطلقت القذيفة صافرة فوق اشجار الحور .

وانفذت اللجنة العسكرية الثورية متراً لها في ساحة ملحقة بالمحطة . وكانت النيران قد اوقدت هناك ، وقد حولها العمال الذين جاءوا من مختلف مناطق المدينة . وكان اعضاء اللجنة العسكرية الثورية يعرفون الجميع تقريباً بوجههم والمنطقة التي جاءوا منها . نادوا العمال باسماء المصانع والزورش — عمال التعدين ، والطحانيين والديباغين وعمال النسيج — فترك هؤلاء النيران ، واصطفوا كل

عسكسين رجلاً او نحوهم على حدة . واذا كان بينهم شخص مناسب عينوه آمراً واذا لم يكن تسلم احد اعضاء اللجنة قيادتهم . وزعوا البنادق ، وفي نفس المكان عرضوا على غير العارفين بها كيفية استخدامها . كانت تستند للخصيفة مهمة قتالية ويرفع الامر البندقية ويهزها :

— الى الامام ، يا رفاق . . .

ويرفع العمال ايضاً هذه القطعة الثمينة التي وقعت في ايديهم اخيراً :

— في سبيل سلطة السوفييتات ! . . .

وسارت الفصائل نحو جادة يكاترينيسكي للقتال

شق روتشين طريقه نحو القائد العام وابلغه بالتفصيل عن احتلال التعزيزات عند رأس الجسر ، وعن الخسائر في الرجال : اربعة جرحى وواحد قتل تحت الاقدام . سلط ماخو ، وهو يقضم القلم ، نظرة قاسية الى حد المعجزة وشبه بلهاء على وجه روتشين البني الناحل .

— حسناً ، ستكافأ بساعة قضية — قال ماخو ذلك ، ودفع خارطة المدينة الموضوعة امامه الى حافة المنصة — انظر الى هنا — وخط بالقلم خطاً بين الصليبان — الهجوم لا يتقدم . ونحسن وصلنا الى هنا — شارع ، زقاق ملتو ، بولفار . . . وابعد من ذلك ، الصليبان تبدأ بالاعطاف . . . اريد ان اعرف لماذا نراوح هكذا ، وكاننا نطسنا في روث ؟ — صرخ بصوت حاد كصوت طائر — اذهب واعرف جلية الامر — وخرش على قطعة من الورق بعض الكلمات ، ونفخ كارتيتيك على الغتم ، ومد الغتم من تحت مرفقه ، ودفع به الامضاء — يمكنك ان ترمي الجبناء ، اعطيك الحق في ذلك . . .

خرج روتشين الى الساحة حيث فصائل العمال ما تزال تصطف في صفوف غير مستقيمة ، وترتفع الاصوات بالاوامر . وهتافات النصر . دار راسه من الدخان المتصاعد من النيران ، وكان على بعضها تصاع تطبخ فيها العصيدة ، لظاف في ذاكرته قدر الحساء الحديدى الذي كانت ماروسيا تقرر من وراء المائدة وتغظله من

يدي امها ، واستان ماروسيا وهي تظلم قطعة الخبز السدى .
وخرج وراء روتشين ، ساشكا وشخصان آخران يحملون
البنادق . كان احد الشخصين مجررا الوجه مرحبا ضحكا كالقذر
الكبير يدعى تشيخ ، وكان الثاني قتي جيلا له وجه قاس وعين
مغشدة وقد انزل طليقة طائيتة السوداء على حاجبيه ، وكان يتشم
طوال الوقت . انه عامل سمكرة يسمى نفسه ووبرت . واضطروا
الى ان ينسلوا اسللا في جادة يكاترينيسكي محتشين وراء برودات
البيوت ، منتقلين من مدخل الى مدخل . وكان الرصاص ما يزال
يطلع . وكان البولغار خاليا ، ولكن الوجود الضئولية كانت تلوح
وتختفي وراء الحشاي التي تغطي التوافذ في كل مكان . وعلى مدخل
محل للمصوغات جلس رجل يرتدي فروة خروف ، دفع وجهه
الصغير الذي انحله البرؤس الى الراء وكانما رفعه مع لحيته
الشائبة نحو السيدات القديمة هامسا : ما هذا ، يا ربى ؟

سأل تشيخ :

- ماذا تفعل هنا ؟

اجاب الرجل مكروبا :

- ماذا افعل ؟ انتظر ان يقتلوني .

- اذهب الى بيتك .

- ولماذا اذهب الى بيتي ؟ سيقول السيد يابريكاي ايهما
اقل : حياتك القيمة ام محل ؟ . . . اذن ، فالفضل ان اموت
بالقرب من المحل

وما كادوا يتصرفون حتى اخرج العارس لحيته مسنن يروز
الباب :

- يا شباب ، ابعد من هنا يقتلون الناس . . .

وحين وصلوا الى المتعطف اصابت صلبة رشاشة تجصيص
الحائط فوق رؤوسهم . استداروا الى شارع جانبي وظهروهم
محمية ، وضغطوا اجسامهم على تجريف بوابة . ولتروا لاهسى
الانفاس وراوا على الرصيف عند مفترق الطرق سبع جث وبنادق
مرمية . فلا بد ان قسيطة من العمال قد وقعت هنا تحت النار .
ضحك روبرت بمرارة وقال مقلعا الكلمات في هيئت :

- انهم يطلقون النار من عليقة فندق «استوريا» . اقترح
القضاء على هذه البؤرة .

وبدا الاقتراح معقولا . كان فندق «استوريا» السدى كان
روتشين قد نزل فيه شهرين واقعا في الجانب الآخر من البولغار ،
وكان لا بد من الوقوع تحت النار اذا اراد الوصول اليه .
سقط روتشين ذفاقه على البوابة بلراعيه الميسوتين :

- التنسل واحدا بعد واحد . . . وعلى قترات وبسرعة ، ولا
حاجة للمخاطرة ابدا .

انحنى روتشين حتى كاد يمس الارض . وركض الى المرفق ،
واستلقى وراء جثة . انطلقت طلقتان من عليقة الفندق . وثب ،
واندفع في خط متعرج كالحية نحو اشجار الحور في منتصف
البولغار . لعلمت النار متلاحقة من العلية ، ولكن بعسد قوات
الايوان . بعد ان وصل الى المتلفة «الميتة» . اتكا على جذع شجرة
حور وخلع قبعته ومسح بها وجهه ، وعب الهواه وصاح :

- ساشكا ، اركض . . .

واضطروا الى طرق باب الفندق الزجاجي بالقنايل اليدوية
حتى ازاح شخص من الداخل الصوان . وفتح الباب . وقع روبرت
البواب الضخم الذي صاح فيه «الى اين ، ايها الشيطان ؟ . . .»
وانطلق وفي يده قنبلة يدوية . كان بهو الفندق غامسا بالمقيمين
الذين نزلوا من جميع الطوابق . ولكنهم حين راوا الشباب الممشوق
الحلو الملامح وفي يده قنبلة يدوية ، ووراءه ثلاثة آخرون مسلحون
ارحوا يصعدون السلم صامتين لاهئين منضغطين على السلالم . عرف
روتشين الكثيرين منهم وهو يصعد الدرج . كما انهم عرفوه ايضا
ولو كان من الممكن ان تقتل التترات لكان قد وقع ضريحا مائسة
مرة من نظراتهم . ولكن واحدا منهم فقط . وهو نفس ذلك الرجل
السمح صاحب الاطيان الذي يتوه بثلاث بنات غير متزوجات ، كان
خارجا من غرفته متاخرا بعد ان تناول وجبة من الطعام البارد ،
فراى روتشين ، فكاد يأخذه بالاحضان نافعا عليه رائحة نبيسة
«المأوية» :

- عزيزي ، قادم ببتروويتش . هذا انت ، بينما بقائتي
بترنر زاعمات ان بعض البلاشفة اتعموا . . .

ولكن الكلمات وجدت على شفتيه حين رأى ساشكا الضخم والغدوش الدامية على خديه ، والسكركى الذى يغطى عينا واحدة بظليلة طاقية ، وتشيع البادى المرح المتورد ولو كان مظهره لا يتم كثيرا عن تلفط طبعي .

كان السكركى يعرف جميع مداخل الفندق ومغارجه . وحين سعد الى الطابق الثالث اتجه الى سلم جانبي ارتقاه الى العلية . كان الباب الحديدى الى هنا مواربا . وهمس السكركى «عم هنا» وفتح الباب على سمته ، واندفع بعزيمة شديدة حتى كانه كان ينتظر تلك اللحظة بلون حياته . وحين وصل روتشين الى نافذة الروشن متحميا في الظلام المشابه تحت روانة السقف ، كان روبرت يغرز حريشيه برجل في معطف فرانس منبطعها بالقرب من رشاشية :

— كنت الاول انه صاحب الفندق نفسه !

عندما نزلوا من العلية اضطرب الفتي فجأة ، واصطككت اسنانه ، وجلس على درجة ، وغطى وجهه بطاقته . اخذ ساشكا بتدليته منه ، وقال بخلقة : «لا تصور اننا سننتظرك» وقال تشيخ له «آه ، يا لك ، وتسمى نفسك روبرت . . .» . ففر وانتزع بتدقيته من ساشكا ، وركض نازلا الى الاسفل قافزا الدرجات . تركه فاديم بيتروفيتش مع تشيخ لعراسة الفندق . وارسل تذكرة مع ساشكا الى مقر القيادة ليرسلوا فضيلة الى «استوريا» وعاد وحده الى البولفار .

كان النهار في اواخره . وقد احتلت فصائل العمال البريد والتلغراف ودوما المدينة والغزاة . وقد طاف روتشين في كل هذه الاماكن ، وارسل من كل منها مراسلين الى مقر القيادة . وكانت جميع الدلائل تشير الى ان القتال قد طال . واستنفذ مشاة ماخو الدفعة الاولى من الحماس ، ويداوا يضجرون من القتال في ظروف المدينة . . . فلو كان القتال في السهب لكانوا الان قد قسموا الغنائم منذ وقت طويل وطبخوا الطعام في القدور ، وتحلقوا ، ليتفرجوا على الراصين المتحمسين يرقصون رقصة «الكوباك» الاوكرانية باحذية جيسدة انتزعوها من اقدام القتل . وكان البيشيلوريون ، من جانبهم ، قد اتفقا من حالة الارتباك ، وبعد

ان تراجعوا الى منتصف الجادة تختفوا ، واخذوا في بعض الاماكن ينتقلون الى الهجوم المضاد .

لم يعد روتشين الى المحطة الا عند هبوط الظلام . الا انه لم يجد ماخو هناك ، فقد انتقل مقر قيادته الى فندق «استوريا» . وذهب روتشين الى هناك . وكان روتشين لم يصب طعاما منذ يوم امس ، ولم يشرب غير قديم من الماء . وكانت قدماء متخدرتين من التعب ، والمعطف يتقل على كتفيه كالرصاص .

لم يسحروا له بالمعول الى الفندق . كان باب الفندق محروما برشاشتين ، وكان فرسان ماخسو يتجولون على الرصيف هازين بهمايمزهم وشعورهم طويلة مسيلة على جباههم على البوطة الشائعة في غولاي - بوليه . وكان احدهم قد اللسى معظما من فراء الطربان فوق سترته الفروسيمة المبطنة وقاية من الاصابة بالبرد . وثق آخر على عنقه لفاما من فراء السمور . طلب الفرسان من روتشين ابراز هويته ، ولكن تبين ان كليهما لا يعرف القراء ، وهذا بانهما سيقتلانه في مكانه اذا اصر على الدخول . قال لهما روتشين وهن الصوت «اذهبوا الى الشيطان ، انتما واتانكما» وعاد الى المحطة ثانية .

وفي المحطة دخل روتشين المشرب المحطم نصف المظلم حيث كانت التماعات النيران تسقط من خلال النوافذ العالية ، واستلقى على اريكة من خشب البلوط ، ولغا في الحال ، رغم الصيحات وصغير الطائرات والطلقات . ولكن كثفا مشوشة من احداث اليوم ظلت تنفذ اليه من خلال الازهاق الشديد . . . انه قضى يومه بتزامة . . . لا ، ليس تماما ، على ما يظن . . . لماذا ضرب ذلك الرجل على ساعده ؟ مع انه قد استسلم . . . لكن يغطى في آثار الجريمة ؟ نعم ، نعم ، نعم . . . وترات له اوراق اللعب على المتضدة ، واقدماع النيبي المسخن . . . والوصول الكابتن فيديانين - الفيل - بانسانته المتاكلة ، وفيه البيل مثل عبيزة دجاجة ، المضسوم وكانه متهيئ لقبلة لقائد الجيش الجنرال افرت ، الجالس الى لعبة ورق . . . اوه ، العنة عليه . . . كان محقا في ضربه . . .

تصارع النوم ودقات قلبه المرعابة . فتح روتشين عينيه ، وراى وجها وصحيفا فاتنا يضيؤه النور الاحمر المتسلل من النافذة .

زفر واستيقظ . كانت ماروسيا تجلس الى جانبه ، وهي تمسك على ركبتيها لئلا تنزف من الماء المغلي ولقطة خبز . وقالت :
- خذ ، اشرب وكل .

في تلك الليلة تسلمت تشوغاي ووليس اللجنة العسكرية الثورة الى مستودع المدفعية ، الذي لم يبق في حراسته الا الرجال المتباطلون مع السلطة السوفييتية ، وايقظا مارتينيكو ، وقال تشوغاي له ما يلي :

- جئنا لتوبيخك ، يا رفيقي ، فانك تصرف اسوأ تصرف اما ان تتعازل الى بتليورا بشكل صريح ، ولكن ان تتركك حيا ، واما ان تهيب المدافع للانطلاق
- هذا ممكن في الصباح سارسل لكم المدافع
- ليس في الصباح ، بل الان آخ ، مارتينيكو مستشبع من النوم في الاخرة
- حسنا ، فليكن الان

وفي اليوم التالي كانت جميع نوافذ يكاترينوسلاف تهتز من تصف المدافع ، وفي جادة يكاترينيسكس تطايرت في الهواء البلاطات والفضان الحور ومرق اكشاك البولفار ، وهجمت فصائل العمال وقوج الفلاحين ومشاة ماخنو على البيتلوريين وقد حسنتهم هذه الموسيقى ، ودفعوهم الى منتصف الطريق الى المرتفع . عندئذ وفي وجه مغاير كبيرة شق مندوبون عن مختلف المنظمات الحزبية واللاجزبية وكذلك يابريكاكي الصغير طريقتهم الى اللجنة العسكرية حاملين الاعلام البيضاء ، وعرضوا الوساطة لاحلال الهدنة في اسرع وقت ممكن ، وانهاى الحرب الاهلية .

كان ميرون ابغالوفيتش يجلس الى منضدة في يهو «استوريا» مكور الكتفين في معطف صغير تغلعت ازواره وكبيبهه لفة ، وقد قال للموفدين ، وهو يضحك خيرا بابسا ولله خال من اي قطرة من اللعاب :

- ليس من مصلحتنا نحن ان تهدم المدينة . وانا اقترح اندارا نهائيا : على جميع الوحدات البيتلورية ان تلقى السلاح في مدة لا تتجاوز الساعة الثالثة نهارا ، وان تكف الشراذم المعادية

للثورة عن اطلاق النار من عليات المباني . وفي حالة الامتناع ستقوم مدفعيتنا في الساعة الثالثة والدقيقة الواحدة بفتح نيرانها على المدينة بخطوط متقاطعة .

وكان الرئيس يتحدث ببساطة وبمضغ ببساطة ، ووجهه مسود من السخام ، وامسب الموفدون باليأس ، وتشاوروا طويلا هامسين ، وارادوا ان يجادلوا . ولكن في تلك اللحظة نزل الدرج الرمزي الى البهو اناس صاخبون في ملابس زاهية ومتنوعة يتقدمهم شخصان يحملان في ايديهما رشاشتين من طراز لويس ، ووراهما دوؤينة من شبان ارتسمت على وجوههم الرقاعة ، وكل واحد مزود بسلاح ، وفي الوسط رجل طويل الشعر ذو عينين لعينتين .

اختطف الموفدون ورقة الانذار النهائي من يدى الرئيس ، وهرعوا خارجين الى البولفار في الهواء الطلق تحت الرصاص المتطاير .

ولقد القيادة البيتلورية الانذار النهائي . وفي الساعة الثالثة والدقيقة الواحدة استشاط الاتمان ماخنو غيظا ودفق بالسدس على الطاوله التي كان المجلس العسكري الثوري يجتمع حولها وطلب ان تصف المدينة بلا رحمة وبخطوط متقاطعة . واشفق على المدينة اعضاء المجلس العسكري الثوري والعمال الفين ولدوا وعملوا فيها . ومع ذلك فقد كان من المتعذر اظهار الضعف ، فقرر تخريف البرجوازيين . وعهدت مدافع مارتينيكو الاربعة عشر بعد تاخير . وتطايرت هنا وهناك قطع الاجر والتجصيص من جدران البيوت الكبيرة المرتفعة كمدرج . وتراكم مثلو النجان كالفئران من البيتلوريين الى المجلس العسكري الثوري . ولم تنقطع هجمات فصائل العمال . واخذ البيتلوريون يتراجعون في نهائية البولفار الى التل .

وفي ليلة اليوم الرابع للثانفاعة اعلن المجلس العسكري الثوري السلطة السوفييتية في المدينة .

قض المجلس العسكري الثوري التليسة كلها في تأليف الحكومة . وكما توقع ميرون ابغالوفيتش في تلك المرة في العربة

كون الفوضويون والاشتراكيون الثوريون اليساريون تكتلا مع
الامان ماخو ، وتحت حمايته اقتحموا الاجتماع ، وصاروا
يتصارعون بشراوة على كل منصب . ولسبب ما كان جميع الاشتراكيين
الثوريين قصار القامة ، وان كانوا اقوياء البنيان يبدو عليهم
الارتياح بعد نوم جيد . وكان النقاش معهم صعبا جدا .

كان كل واحد منهم يشب وعلى فمه ابتسامة طرية ويبادر
بمغاطبة الامان قائلا ياته ، اى ماخو ، زعيم حقلي واستراتيجي
عظيم ، ونار تظهر كل شي ، ومكنس من معدن حديدي . . . امسا
فتيانه فقاية في الروعة ويواصل متفانوا ا

وكان ماخو يزم شفتيه الشاحبتين ويصفى مكتليا بهسز
وجهه الذي اضر به السكر . رفع اشتراكي ثوري متصلب صوته
بقوة حتى نفذ من خلال الابواب التي تفتح وتغلق الى الرواق حيث
لزدحم رجال ماخو وجمهور من شتى الانواع لا احد يعرف كيف
نقلوا الى الفندق .

- ايها الرفاق البلاشفة عم تتجادل معكم ؟ انتم الى جانب
السوفييتات ، ونحن الى جانب السوفييتات . . . واختلفنا تكتيكي
معض . نحن نرت جهازا برجوازيا لادارة المدينة . وانتم تريدون
ان تجعلوه سوفييتيا خلال يوم واحد . ونحن نعلم ان جهاز المدينة
لن يعمل مع الشيوعيين ، والتخريب واقع لا محالة . والمجاعة
والخراب متوعان . بينما هم يرمقون في العمل معنا . وهناك قرار
لدوما المدينة . ولهذا السبب نزيد ترشيح الرقيق فولين لمنصب
مفوض التموين . واقتراح فلق باب النقاش ، واجراء التصويت . . .

كان الفوضويون حتى تلك اللحظة يتصرفون بغموض يسأل
ويازدوا ، فاذا بهم قد تصرفوا تصرفا مفاجئا جعل الاتمان يدير
رقيبته الهزيلة .

ورشح ميشلم ، وهو طالب في طربوش قانسى الحرة ،
بابريكاي الابن لمنصب المفوض .

- سنصر عليه بكل الوسائل التي نملكها . . . ان
بابريكاي الابن هو شريكنا في المعتد ، فوضوي متعلم ، وخبير
بالبالية . وسيكون في ايدنا سلاحا طيعا مليدا للشعب الثالث

الحر . . . اقترح عدم اجراء النقاش ، والتصويت برفض الايدي
قسط .

كانت ماروسيا وفادي بيتروفيتش يجلسان عند الحائط على
مقعد واحد . تهيجت ماروسيسا وراحت تعصر يديها في حلق ،
وتنهض لتتهفت بصوت متكسر عال : « هذا عار ! » او « اين كنتم
حينما كنا نحارب ؟ » وعادت الى جلستها وجنتاها متوهجتان .
كانت لا تملك غير صوت استثنائي .

وكانت قد نحتت وتلوتحت بشرتها خلال تلك الايام . وكانت
تسعر بالحر وهي في معطفها المفتوح القصير من فراء الغنم ،
وشعرها مسترسل . وفي الفترات بين غلظ وآخر كانت تحدث
روتشين بجالة عن تنقلاتها . . . عملت في البداية في
لجنة تموين الفصائل بالخبز والماء المغلي . . . ثم نقلت الى فصيلة
الاسعاف ، واخيرا عينت مراسلة . . . وكانت تنطلق ضاربة في
عرض المدينة وطولها . . . وتعرضت للرصاص «عانة مرة»
وعرضت لروتشين تقويا في حاشية الثورة . . .

- ولو لم اكن خفيفة الحركة لكنت في عداد الموتى . كنت
اسمع من يناديني ، فالتفت فاذا بقنبلة تنفجر في البقعة التي كنت
واقفة عليها قبل لحظة . بينما انا مفتتة وراه شجرة حور . . .
وتملكس الذعر قبل انني احس يارتجاف ركيق حتى الان .

وكانت حيوية ماروسيا يمكن ان تكفي لعشر انتفاضات وبينما
كانت تتحدث ظهر في الباب وجه ساشكو المغدش - وشرق طريقه
بصعوبة . واوما لماروسيا باصبعه . فهرعت واسر هو لها بشي .
فبسطت ماروسيا ذراعها .

عذر تشوغاي معترضا على المرشحين :
- ايها الرفاق ، نحن لم نجتمع للجدل والنقاش ولم نجتمع
لتقديم البراهين ، بل اجتمعنا لتحكمس ، والحكم لمن لديسه
القرة . . .

تعذر على ماروسيا الانتظار ، فهرعت نحو الطاولة ، واعلنت :
- في المدينة يعم نهب شامل . . . فاستمعوا الى الرفاق . . .
هم يمنعونهم من الدخول الى هنا . . . وقد لروا ايديهم . . .
عندئذ تراسي من وراء الباب ضجيج ولغظ واصوات زاعقة ،

واتحم الفرقة ساشكو وبعض العمال بينادهم . وتكلموا دفعة واحدة :

- ما هذا الامر ؟ لقد بنت الشرطة في الفندق . من الغير ان تذهبوا . ان تلغوا نظرة . . . والبولفار كله محاط . وقتيان ماخنو يقتحمون المخازن . . . وينقلون البضائع بالعربات .

مد ماخنو شفتيه ، وكأنه يهم بقمص شي . . . ونهض من وراء الطاولة ، وخرج . تراجع فتیان ماخنو في العمر واليهو حين راوا الاتمان يكتر عن اسنانه الصفراء كاستنان كلب هرم . ولم يكن مضطرا الى ان يذهب ابعده من ذلك . فقد رأى اشباحا تروح وتجيء في الجانب الآخر من الجادة عند نوافذ مخزن كبير . وما كاد يغادر باب الفندق حتى ظهر لوفكا على الرصيف .

سأل لوفكا وقد ترنح :

- ما المسألة ، ما سبب الهبة ؟

صاح ماخنو :

- اين كنت ، ايها الرذيل ؟

- اين كنت . . . اثلثت حد سيبي . . . ستة وثلاثين قتلت بهذه اليد وحدها . . . ستة وثلاثين . . .

- حافظ على النظام في المدينة - زعق ماخنو ، ودفع لوفكا

من صدره بقوة ، وعبر البولفار راكضا نحو المخزن وتبعه لوفكا وبعض الحراس . ولكن الذين كانوا هناك حذسوا ان عليهم ان يفتروا . فاشتتت الاشباح عند النوافذ . ولم يبق الا عدة اشخاص كانوا يركضون على مسافة بعيدة ومعهم صرر ضرابين الارض يخطى ثقيلة . ومع ذلك فقد باغت الحرس احد فتیان الاتمان في المخزن ، وهو ذو شاربين كبيرين ، واخرجوه من المخزن . فمدم متباكيا بانه لم يات الى هنا الا ليرى كيف شرب البرجوازيون الملاعين دم الشعب . حلق ماخنو فيه وكيانه يرتجف . وحين جاء لضوليون آخرون متراضين من ناحية الفندق مز يده في وجه الرجل .

- هذا عميل معروف للمعادين للثورة . . . لن ندعك تمشي في عمالك القذر بعد الان . . . اقتلوه واكلوا شره . . .

اعول ذو الشاربين وسلا «لا تلعنوا . . .» - جسرد لوفكا

سيله ، وجار ، ورفع سيله عاليا وهوى به على عنقه بلهات . . .

وقال متباهيا ، وتراجع :

- سبعة وثلاثين .

اخذ ماخنو يضرب بقدمه في حلق جنوني الجسد المرتعش

المخضب ببركة من الدماء .

- سيكون ذلك عميرة لكل النسان . . . فوضى النهب قد

انتهت . . . - واستدار بحدته نحو الجمهور الذي ارتد عنه ، وقال -

يكنتم ان تعودوا الى منازلكم بهدوء .

.....

فتت ماروسيسا على المقعد فجساة . واسترخت على كتف

روتشين ، وارتقى رأسها بشعره المرسل على صدره شيئا فشيئا .

كانت الساعة قد تجاوزت السادسة صباحا . وكان خادم الفندق العجوز

الجهم الذي استبدل بدلته الفراك بسترمة منزلية مستهلكة ذات جديلتين

بمناسبة اقامة السلطة السوفيتية ، يقدم الشاي وقطعا كبيرة من

الخبز . وكان قد تم تشكيل الحكومة ، الا ان قضايا ملعة كثيرة

بقيت معللة . فمثلا قدم عمال السكك الحديدية منذ يوم امس

استفسارا يسألون فيه عن سيدفع لهم اجورهم وباية مقادير ؟

فاقترح ماخنو الذي ايده الفوضيون هذه الصيغة : ليحدد العمال

النسهم اتمان التذاكر ، ويجعوا النفود بالنسهم ، ويدفعوا الاجور

لانسهم . . .

ولكن ما كاد النقاش يشتد حتى اهتز فجأة زجاج النوافذ في

القاعة التي تلون هراؤها بلون دخان السيكالز الازرق . وترامى

صوت انفجار اصم . ويرير مارتينتكو الذي كان تالمسا على

الاركة . واهتز الزجاج ثانية فاستفاق مارتينتكو : «اللعنة

عليهم ، حاقفة . . .» . واخذ يضرب سدائره على رأسه الحليق .

وترنحت هيدة تالفة ثقيلة . انزل تشوغاي وميرون ابغانوفيتش

قطعت العز اللتين كانتا في يديهما ، وتبادلا النظرات في قلق .

واتحم الباب لوفكا واحد الفرسان يمز رأسه العاسر كالدب .

وقال الفارس ودفع يده فوق اذنه :

- هلكتا . هلكت كتبية الفرسان كلها . . .

صاح لوفكا غارًا خديه :

- قرب ديبكا ! وانت تقضى الوقت في الكلام ، يا اتمان ا...
العقيد ساموكيش يرحل بسمت كتاب ... وبمصنف المحطة
بالمدمعية الثقيلة ...

واقب سكان جادة يكاترينينسكي رحيل جيش ماخنو من جميع
التوافذ بتشف وعلى المكتشف ودون حاجة الى الاختفاء وراء الحشايا
كما فعلوا من قبل . انطلق الفرسان ضاربين خيولهم بالمقارن
بيننا وشمالا . ورفعت الريح فوق اكتافهم معاطفهم وعباءاتهم
القوقازية وستر الفرسان القصيرة والاعطية الحريرية ...
وكانت الخيول المشقة بالعدول تتمتع على الرصيف المغطى بطبقة
من الجيد ، ويتدرج الحصان وفارسه والغنمية هالكة تحت
السنانك . . . فكان الواقفون في التوافذ يصيحون «ها ا . . . واحد
آخر !» وكانت العجلات تعدو محملة بالاشياء الضخمة . وعربات
الرشاشات ذات الخيول الاربعة تتطلق مكتسحة كل شيء في طريقها
بسرعة تقدح الشرير من تحت العجلات . وكان المشاة الذين لسه
يستطيعوا الصعود الى العربات يركضون وراءها .

وكان كل ذلك يصعد متقلقا في الجادة مصحوبا بعويل
وحشى وهدير ورفعة ، متجها الى منطقة التلال من المدينة . لان
العقيد ساموكيش قد احتل جسر السكة الحديد ومحطة القطار .
وقيل ان اتمان ماخنو الذي كان قد فرج واكتفى من المجلس
المسكري الثوري طيبت بقدومه في غيب شديد عاجز ، يكي ، والتي
نفسه في عربة الرشاشة التي جلبها لرفكا له الى الفندق ، وعطى راسه
بمعطفه من فراء الغنم خجلا او حتى لا يعرف احد ، وخرج من المدينة
العينة الى جهة غير معلومة .

وبينما كان جيش اتمان هاربا من المدينة دون ان يطلق
رصاصة واحدة اصطدم بفتة بنقاط الحراسة الامامية التابعة
للبتليويين ، فاختلطت صفوفه من الذعر ، واستفاد بخيوله نحو
الديبير ، الى هلاك محقق . كان الشاطي في تلك الناحية شديد
الاحداز . حطم رجال ماخنو الاجسام والاسيجة دائرين من
العربات ، وانزلوا على جليد النهر . ولكن جليد النهر كان رقيقا ،
فاخذ يلتوي ويتصدع واخذ الرجال والخيول والعربات يتخبطون

في الماء الاسود وسط كتل الجليد ، ولم يخرج الى الضفة اليسرى
الاجزاء صغيرين من جيش ماخنو ، فلول ضئيلة .

في تلك الليلة طلب عمال كثيرون من افراد الفصائل العودة
الى بيوتهم ليتدفأوا ، ويغيروا احذيتهم ويحسوا شيننا سخنا .
ولم يبق تحت السلاح غير فصائل الدورية ومجازي فوج الفلاحين
الذين لم يكن لهم مكان يذهبون اليه . فاضطر هذا الفوج ان يتلقى كل
الضربة التي وجهتها وحدات العقيد ساموكيش البتليويوسية في
الطرف غير المتساوية ، وحوضر الفوج بالقرب من ساحة محطة
القطار ، وابيد يكامله تقريبا في معركة بالحرب ، ولم يستطع الا
نفر قليل ان ينسلوا ويهربوا من خلال الافنية الخلفية ، ويعودوا
الى قراهم ، ويحكو عن الواقعة الرهيبة التي قتل فيها ثلثمائة من
الفتيان الطيبين الذين جاؤوا الى يكاترينوسلاف ليقبوا السلطة
السوفييتية .

واسرع ميرون ايفانوفيتش وتشوغاي عضوا المجلس
المسكري الثوري ليجعنا فصائل العمال والدوريات . ولم يكونا
يزملاان الاحتفاظ بالمدينة ، بل كانت مهمتهما اتاحة الفرصة لجميع
الذين اشتركوا في الانتفاضة بالانسلال عبر جسر السابلسة الى
الضفة اليسرى من النهر . واختفت الفصائل المجموعة وراء زوايا
البيوت ، والحجارة المقلوبة والمماريس تطلق نيران الرشاشات
على البتليويين المهاجمين . ومن كل الانحاء تراكض مئات العمال
مع زوجاتهم وامطالهم الى الجسر وعبره ... وكان بعضهم يحمل
في يديه متاعا هزليا كان من الممكن ان يتخل عنه دون اسف ...
وكانت المطلقات تصسب عليهم من السطوح ومن الاسفل ، من
الشاطي .

كان آخر من تراجعوا تشوغاي وميرون ايفانوفيتش وروتشين
وماروسيا وساشكا وتشيج وعشرة وفاق آخرين . تراكضوا من
زاوية الى اخرى ، ومن ممكن الى آخر ساحبين رشاشية . وكانت
قبعات رجال ساموكيش الرماوية تظهر بين الحين والآخر غير بعيد
عن مدخل البيوت . وبقي اصعب عمل ، وهو النزول الى الجسر
حيث لم تكن توجد اية حماية غير الجيئ والصرير المتناثرة ...
ادار تشوغاي الرشاشة واستلقى وراء درعها مبقيا ساشكو بالقرب

منه ، وضاح بالأخزين «اركضوا خفاقا . . .» وركضوا جميعا تحت
لمعة الرشاشة التي بدت وكان مامورتهما مستلوب من حدة
النار .

تعثرت ماروسيا في وسط الجسر ، وسارت بتثاقيل وبلا
ثقة . . . لعق روتشين بها ، واستندعا . نظرت اليه بدهشة
تريد ان تقول شيئا ، ولكنها اكتفت بالنظر اليه فقط . قصد
روتشين نصف تمود ، وحملها في يديه كما يحمل الطفل . كانت
ماروسيا تضغط جسمه عليه اكثر فاكتر . وما هي نهاية الجسر ،
وإذا بغداديم بيتروفيتش يحس وكان عصا حديدية تصيب فخله .
جامد لكي يبقى على قدميه حتى لا يسقط ماروسيا من يديه ولا
يصيبها بأذى . جاء تشوغاي واكفنا من الخلف . فقال له روتشين
«استاركها تسقط . . .» . «استكها . . .» . وفي الحال وقعت القبة من على
رأسه ، وبدأت الدنيا تغم في عينيه . وكان ما يزال يسمع صوت
تشوغاي :

— ساشكو ، لا يجوز تركه

١٦

لم تمثل مسرحية «الصوص» الا في شباط ، اثناء فترة
استراحة قصيرة نالها فوج كاتشالين . وكانت قد تخلقت في الماضي
المسيرات الطويلة في الصقيع والزوايح الثلجية ، حين كانوا لا يرون
امامهم ، بدلا من النبيت الداني ، غير الضيق الكتيب تحت السحب ،
ولا يجدون في السهوب الثلجية جلداما من العطب يشعلون النار
بها ليدفئوا اجسادهم المتجمدة . كما تخلقت في الماضي المعارك
الطاحنة ، والانذارات الصباحية ، والمناوشات القصيرة الضارية
مع القزاق . كان ماموتوف مع فلول افواجه الممزقة بعيدا وراء
الدون . فقد تحلل جيشه . ولم يعد موضع ثقة . لقد ضيع عبئا
عشرات الالوف — زبدة قوات الدون — في ثلاث هجمات على
تساريتسين .

بعد ان احتل رجال كاتشالين قرية توارقية كبيرة استسلمت
دون قتال شعروا بالفرح ، وشبعوا ونالوا غايتهم من التوم في

دفء . والربيع على الابواب ، ولربما تنتهي هذه الحرب الطويلة
بحلوله .

اذهكت داشا مسيرة متعبة استغرقت شهرا ونصف شهر ،
ولم يمر بخلدها قط ان تسفل نفسها بهذه التمثيلية من جديد .
فقد تبددت اللوازم المسرحية ، وجرح عدة اشخاص من الفرقة ،
كما ان كتاب المسرحية نفسه قد ضاع . وكانت داشا تود لسو
تقضى ولو بعض الامسيات في دفا مع ايفان ايليتش ، وتجلس الى
جانبه دون كلمات ولا افكار غارقة في السكينة الهادئة عند الغسق
على الاغنية المستمدية المجدبة تحت الموقد .

وكان عليها ان تغسل البياضات وتصلحها ، وترسل هذه
ايفان ايليتش اللبادي ليرقع ، وتصلح من هينتها ، والا فسان
زوجها وجميع الخلق ، ومن بينهم هي نفسها ، قد نسوا انها
امرأة . في المساء الاول خرجت داشا واغريبينيتيا من الحمام فوق البرك
المتجمدة ، وكان الصقيع الخفيف يداعب خدودهما العارية المبخرة ،
فيا لها من سعادة ! هيات داشا اغريبينيتيا ، واعدت العشاء . كما ان
ايفان ايليتش وايفان غورا عادا من الحمام ايضا وجلس الاربعة حول
المائدة ، وحسح الرجلان من السرور ، فقد كان في الجو رائحة
حساء الكرنب ، كما ان رائحة طيبة اخرى كانت تنبعث من
الساوير ! قال ايفان غورا :

— هكذا ، يا ايفان ايليتش ، راحة بعد الاعمال . . .

ولم تحك داشا بالرامة . ففي اليوم التالي ، وقبل الساعة
التي يعود فيها ايفان ايليتش عادة جاءت انيسيا ومعها كتاب
سيلر وعليها سيماء الجد والتعلط ، وتكلمت رافعة عينيها
العالمتين :

— سحرة انا ، يا داريا دميتريفنا . . . لم لعل قد
فسدت . . . كل الناس يبدون اعتياديين ، اما انا ففاسدة
وقد ظهر ذلك على منذ الصغر . . . ثم ، فيما بعد ، بالطبع
تزوجت في سن مبكرة ، وانجبت اولادا . . . ثم الت بر محتس .
انا في الرابعة والعشرين يا داريا دميتريفنا . وستنتهي الحرب قال
اين اذهب ؟ اعيش مع فلاح في كوخ ريفي ، واحقق في السهيب
الغارى ؟ انا بعد كل ما رايت وسمعت بحاجة الى شيء آخر . . .

وتهد صدر انيسيا تحت مغطها ، وغمضت عيناها نصف
الماضة .

- لقد قرأت هذا الكتاب كله ، ولم اقتسرق عنه في
العراك . . . قد اكون قليلة الوعي جاهلة وغير متعلمة ،
ولكن في الامكان ان يصلح ذلك ، يا داريا دميترييتنا ، فان اصواتنا
كثيرة تتردد في داخل . . . انا لا اعرف شيئا عن نفسي ، ولكنني
اعرف عن الناس . . . عينايا تفورقان بالدمع حين افكر في اننى
تأدرة حتى على ان اروي شيئا عن الكونتيسة اماليبا هذه . . .
واذالك استنهض حية من هذا الكتاب . وقد حدثت المرحوم شارينين
عن ذلك . . . يا داريسا دميترييتنا ، اليوم وجدنا مكانسا ، في
المدرسة يسبح لحوالى ثلثمائة شخص . . . كما يوجد تجارون
عندنا ، ويمكن الحصول على خشب وجنفاص . . . فما الذى يمتعنا
عن تمثيل «الصوص» ؟ نحن نتذكر ادوارنا . . . اليوم تذكرها
الاولاد ، ويودون لو نتاح لهم فرصة للضحك . . .

جاء ايفان ايليتش ، واعجب بالفكرة بالطبع : «فكرة رائعة !
سنمكث هنا اسبوعا . . . وسيكون ذلك عيدا ممتازا للاولاد . . .»
كان ايفان ايليتش انسانا جديبا . لا شيء يمكن ان يضعف مسن
استبشاره بالحياة . وما دامت دأنا الى جانبه فمعنى ذلك انطلق
تام نحو السعادة . . . مثل تلك الايام الجزيرانية البعيدة الزرقاء
النسائية على السفينة . . .

وهكذا لم يكتب لدأنا ان تسمع في الغيش الى دقات قلب
جيببها ، وتنتسل حذرة كاستلال القطاة الى افكاره الخفية . . .
ولكن هل كان من الممكن ان يكون لديه شيء خفى ؟ ثم ما حاية
دأنا الى ذلك ؟ ان ايفان ايليتش رجل بسيط كريم يهب كل ما
لديه الى آخره . ووجهه المتبيس من الصقبح والريشح بسيط
كالشمس . . . آه ان كسل شيء سيكون مختلفا لو ان دأنا
ستحمل حياة جديدة ، لحمسا من لحمه في الظلام الغض لجسدنا
التعبل . . .

بدأت فرقة التمثيل تتمرّن . واية عذابات كانت ! بكت دأنا
في صمت ، وكان الممثلون ينجلون من تبادل النظرات فيما بينهم ،
والهزوا غمظة وقساوة ، وبخت اصواتهم من البرد . . . وابدى

سابوجكوف العون بالقائه معاخرة بين نشأة التمثيل بشكل عام
حيث اثبت ان التمثيل متاصل حتى بين بعض الطيور والحيوانات ،
فالتعبلية - مثلا - حين تصيد فلارا ، تقوم معه امام سفارها بعرض
حقيقي ، فتلتفّز ، وتقلّب على ظهرها ، وتسير على قدميها ، وتدير
ذيئها . . . وتشتط الفرقة ، وسار الامر سيرا حسنا بعض
الشيء . وضعموا خشبة المسرح في المدرسة ، وطلّسوا الجنفاص .
واعادوا اخذوا مقدمة المسرح من التناوبل المشتعلة بالسلا . وعثروا
فجأة بين الائمة في العربات على ستر الفراك ومعاطف السهرة ،
وهي الاشياء التي صادرها ايفان ايليتش من معام عابر بينما كانوا
في المزرعة .

واخيرا جاء اليوم الموعود : ما ان غربت الشمس حتى طاف في
القرية جندي على حصان رعادي تابع للمدفعية (وهذا ابتكار لايفان
ايليتش) ، وتلف في البوق النحاسي ، وانثما يصيح : «ايها المواطنين
والزقاق ، بعد قليل سيبدأ عرض «الصوص» لتسليلى . . .»

وهرعت القرية كلها الى المدرسة ، واقتم الناس مقدمة
العيشي والمدخل الى القاعة حتى دخلوا اليها وعميونهم جاحظة وقد
فقدوا في الزحام قبعاتهم وازرار معاطفهم . . . والذين لم يتسمن
لهم حضور العرض زابلهم التمد بسرعة . اذ كان يطل على القرية
خلال في اوائله في السماء الزرقاء قبيل الربيع . وارتفعت اصوات
الاكورديون امام المدرسة وادعش رجال الجيش الاحمر بغنائهم
الحجوب اللوزاقيات اللذاتي قبلن بالوضع منذ وقت قصير : «طار
العلاك في سماء منتصف الليل . . .» وجرى تعارف وثيقت نكات
وهالغزل للعيون ، والتقبل للشفاه . . . او من مثل «يريد المسكري
ان يتزوج ، والزواج ليس بعطسة ، ويمكن ان يؤجل . . .»

في البداية اخذ الجيمور في القاعة يهدر ضاحكا حين اكتشف
ان المعجوز العمود بالمكياج بخصلات شعره من الكتان ، والرداء
المصنوع من مسوح راهب هو الجندي الاحمر فانين . . . فصاح
المترجمون : «انه هو ا هيا ، فانين ، ايد شطارتك ، ولا تخف ! . . .»
وحينما ظهر من وراء الكواليس رجل في ملابس فضفاضة وذيلين
يرتلنى جوارب نسائية - وقد برزت اسنانه كلها وتباعدت عيناها
- يدلف يخطى زاحفة ذات تسط خاص ، وقع فصيح الالفي «يسا

أبي ، أنا هنا ، ابنك الوفي ، فرانتس» عرف الجمهور على الفور
أيضا انه كوزما كوزميتش ، فالتجر ضاحكا . . .

كانت داشا وراء الكواليس تمسك بصنفيها وتردد
لسابوجكوف :

- هذه النهاية . الفصل الرابع ، كنت اتوقع ذلك . . .
الا ان الممثلين تغلبوا على المرح الذي شاع في القاعة .
تعرف الجمهور على الجميع ، واتخذ يسفى . تقدم لاثونين من
التدابيل الساخنة الدافئة ، فاضات من الاسفل وجه الضيف الذي
الصقت به لعبة من صوف الغنم ، وحاجيبه الكتين المعوجين ،
وطوى يديه على صدره بقوة جعلت ستره السهرة السوداء التي
كانت تعود للحمامي في وقت ما تنفتح ، وقال بصوت قوى :
- «اه» لو كان في مستطاعي ان ادعو الى الانتفاضة الطبيعية
كلها والهواء والارض والمحيط ، وارمى بالحرب ضد عشيرة بنات
اوى هذه كلها . . .

وهذا الجمهور حالا فاهيا الاتجاه التي تتجه اليه المسرحية .
ولم يغير الديكور ، ولم تجر تبديلات تلفت النظر . وقبل
بداية كل مشهد كان سيرفى سيرغيفيتش يطل برأسه من بين
الستاريتين وعلى وجهه ابتسامة ، وكانه على علم بشئ ما خاص
يقول :

- المشهد الثالث . تصوروا القلعة المترفة للكونت مور ،
ومن النافذة ياتي عبق الحديقة . واما ليا الجميلة تجلس في
غرفتها

ويختف وجه الذي اضاءته القناديل . وتفرج الستارة . وما
من احد كان يريد ان يقر بان هذه الجميلة العائقة بتثورتها
العريضة ومتدليها الزاهي اللون الربوط بعقدة على صدرها ،
الفتاة الموردة الجمعاء الشعر الواسعة العينين هي النيسيا نازاروفا
من السرية الثانية .

تكلمت بصوت واطل وارتجاف وكانها تصدح ودقت الطاولة
بقضبتها لفرانتس «ابتعد عني ، ايها العاطل . . .» وسارت
التثيلية مثل قصة اسطورية ساحرة من تلك التي كان الجسد

برويها في الطفولة ، في اسنية شتالية ، وانت تصفى مطرقسا
براسك من الموند

وكان كوزما كوزميتش يخاف اللحظة التي تصلمه فيها اماليا
على خده . فقد كانت يدعا رغم استغراقها في العلم يد معاربة في
الجيش الاحمر . وقد همس كوزما كوزميتش لها : «أخف . . .»
ولكنها صاحت بكل قلبها «اه» ايها الكاذب الشين ! ورفعت
ذراعها وكان كل ثقل الحياة الماضية قد هبط عليها وضربت
فانقذ كوزما كوزميتش عن الكواليس . ولكن احدا لم يضحك .
وصاح بعض المترجمين «يستحق . . .» وصف الجميع لان كل
واحد منهم ود لو يفرغ هذا الوغد تلك الضربة .

ثم قطعت القلادة من رقبتها ، وألقها وسحقها بحذائها :
- «البسوا انتم الذهب والفضة ، ايها الاغنياء ! واتقوا
بطونكم وراء الموائد الفاخرة ، واريحوا اطرافكم على اريكة اللذة
الناعمة ! كارل ! احبك . . .»

ابتسم سيرفى سيرغيفيتش وهو يسحب الستارة وراءه
وقال بدلالة كبيرة : «فاصل . . .» تقدمت النيسيا وراء الكواليس
من داشا ، وانضفطت عليها وضمت وجهها في صدرها مرتعشة
ارتعاشة خفيفة مقشورة :

- لا تدعيني ، يا داريا دميتريينا ، لا حاجة لذلك . . .

وبعد ذلك سار التمثيل بانسياب ، في الفصل الاول عسوق
الممثلون عرقا شديدا ، وغف التوتر من عضلاتهم المتوترة ،
وصارت اصواتهم المشدودة السانية ، ولم يعودوا يعاينون اذا لم
يسمعوا همس سيرغى سيرغيفيتش الصافر وهو يلقتهم ، فلم
يتزعروا من ان يتكروا كلاما من عندهم اكثر مضاضة مما لدى
شيلدر ، او على اية حال اكثر افهاما .

وسر الجمهور سرورا كبيرا بالعرض . كان تليفين يجلس
في الصف الاول جنب الموضى ، وقد دعمت عناء عدة مرات .
وكان ايفان غوزا الغروض فيه ان يكون رابط الجاش ينسج من
انفه بصوت عال ، وكانه يشترك في عملية حربية مرفقة . وكان
الممثلون مسرورين بشكل خاص ، فلم تكن لديهم الرغبة في خلق
ملايسهم وازالة المكياج ، وكانوا يودون لو يقيمون عرضا ثانيا

غير ملتفتين الى صباح الديكة في القرية كلها معلنة اقتراب الفجر .

وانتهى المهرجان . وعذات الاغانى والاكورديونات . ولم يسمح غير باب حديقة يصفق هنا وهناك . وحتى الديكة كفت عن صباحها . وجمعت القرية . وسارت انيسيا بيده في الصارح والى جانبها لاتوغيين وقد التى معطفه على كتف واحدة . فقد كان ما يزال يشعر بالحر .

- نعم . يا انيسيا . نعم . شئ عجيب تسيرين في فلافك هذا . في معطفك . ولكننى اراك من خلاله الكلمات الاعتيادية غير ملائمة . ولا اريد ان اتولها لك

سارا في نهاية القرية . الى حيث كان السهوب في المدى البعيد يتدمج في الظلام . وقد تسلق الهلال عاليا في السماء التي دكسن لونها . وما زالت القناديل تترامى امام عيني انيسيا مشتعلة . ووراءها في الظلمة الحارة المكتومة نلت كل كلمة تفوحها صدى قويا . وتتصاعدت اليها زفرات عميقة . وكان في قوتها هذه شئ نسوي غير لا قرار له . وقد طاب لها ان تستمع الى لاتوغيين

- عرفت الكثيرات . يا ملاكى الى الشيطان يهسن جميعا انا لم اصادق مثلك لقد اجبتنى حيك . فان شئت اسمعي . وان شئت لا

وتوقفت وتوقفت . وعانقتها . وسقط معطفه من كتفه على الثلج . وقيل سفت انيسيا الباردتين ليلة قوية طويلة . وابعدها عنه . ونظر في وجهها الذي بدا غير مكتثر بوجنتينه المحمرتين بحمرة البحر . بينما هي لم تنتظر اليه . كانت عينها المطليتان تعقدان في الهلال .

- ذلك هو عدايى آوه . لا باس

- رفع معطفه من الارض . وتابعا سيرهما من جديد في تلك الليلة لم تتم داشا ايضا . استغنت كوعها على الوسادة وراحت تقول :

- انا افهم ان ذلك لا يمكن تعقبه الآن ولكن اسمع . عندنا انيسيا وعندنا لاتوغيين . وكوزما كوزميتش موهبة حقيقية سيكون ياغو سمشل «عطيل» سمشيل الى الفرقة عناصر

جديدة . غدا اصدر اورك في الفوج وسترى . سمشيل امام الفرقة . امام الفيلق ولكن من الضروري . اولاً : الاحتفاظ بديكورنا . تحدث مع المفوض ليخصص لنا عربات خاصة هل رأيت كيف استمعوا ! تكون لدى انطباع بان المترجم اسفجة تمتص الفن

- انت على حق .

اجاب ايفان ايليتش . كان يسير واضعا يديه وراء ظهره في قميص محلول وقد خلع حذاء الطويل الرقبة وانتل خلعين خفيفين - كانت داشا قد اشترتها من قزوافية . وفي كل مرة كان يجب شوه القنديل على الطاولة بجسمه الضخم الاسود . وكان ذلك لا يريح داشا لسبب ما . وحين اقترب من النافذة الصغيرة استدار . وانار الضوء بوجهه الباسم القوي الاحمر الذي بدا وكأنه من البرنز . ودق قلب داشا بقلق .

- انت على حق الروس يحب المسرح الروس يملك ولعا خاصا بالفن . احتياجا غير اعتيادي . تعطشا

انظري . شهر ونصف من المعارك . والناس قد الهكوا . ولم يبق منهم غير الجلد والعظم . والكذب نفسه يمكن ان يلفس فما حاجتهم الى شيللر ؟ ولكن اليوم اقبلوا على العرض كما يقبل الناس على العرض الاول في المسرح الفن في موسكو ثم غدى انيسيا انا لا افهم انها مثقلة بالفطرة ايسة حركات واية رهاقة اية عواطف ! وهي فضلا عن ذلك حسنة .

وحجب الضوء مرة اخرى وهو يهز ذراعيه . وقالت داشا :

- ايفان . الا يمكنك ان تكف عن السير في الغرفة ؟ وكان في صوتها ضيق لم يسمعه منذ زمن بعيد . كانت وهي ترتفق الوسادة تتفردس بعينين غالمتين . توقف ايفان ايليتش على الفور . وتقدم من الفراش . وجلس على حافته . وبان عليه تخوف مكتشوف .

- ايفان - وتعدت هي على الفراش - ايفان . منذ زمان وانا اريد ان اوجه اليك هذا السؤال - ومررت اصبعيها على عينيها بسرعة - ذلك شئ صعب . ولكن لا استطيع الاصطبار اكثر من ذلك

ورأت من وجهه انه فهم اى سؤال سيكون ، ومع ذلك فقد
قالت له لانها قد رددته مع نفسها الف مرة :

- ايفان ، ألم تعد تعتريني امرأة كلها ؟

اخذت كنفاء ترتفعان ، ولغظم بشيء غير مفهوم ، وامسك
برأسه . حدثت داشا فيه تحديقة ثابتة ، وكان ما يزال لديها أمل
ما . . . أمن الممكن ان يكون ذلك حكما صادرا عليها ؟

- داشا ، داشا الى هذا الحد انت لا تفهمين . . . على اية
حال يجب ان تكوني شهمة .

- شهمة ؟ (ذلك هو الحكم ! . . .)

- ان حبي لك كبير يا داشا . . . يمكنك ان تكهينى . . .
رغم اننى فى الحقيقة لا اعرف لاي شيء . . . وربما هو لغور
عضوى . . . وانا افهم ذلك جيدا . . . لقد احببتك لمدى الحياة . .
ولا يهم ، والولها لك بكلمة شرف ، ان يكون ذلك صعبا على ان
يسيرا . انت معي مثلما قلبي معي . . . فلا تقلقى ، وكونى
سعيدة . . .

كانت داشا تصلى ، وهى تهز رأسها . تفضن وجهه ، وقال
بجهد :

- لا ادرى لماذا كنت اتخيل دائميا قمعيك الصغيرتين
المسكيتين ، كم شريتا فى الارض بحثا عن السعادة ، وكل ذلك
بلا جدوى ، بلا جدوى . . .

اطلعت داشا من تحت البطانية قديمها العاريتين التحيلتين
وقفزت على الارض الترابية ، وركضت واطفأت القنديل على
الطاولة .

.
بعد ان عاد ايفان لغورا من العرض مع الغريبيتا اشعل شمعة
محترفة الى النصف واستعرض الاوراق المختلفة التى تراكت خلال
اليوم وكان من عادته ان يعين كل شيء قبل ان يتام . جلست
الغريبيتا على مصطبة قرب الباب ، فى ناحية دون ان تخلع معطفها
ولا قبعتها .

قال ايفان لغورا متتالبا حاكا رقبته :

- وانت ايضا لم يكن تمثييك سيئا . لم اسمع ماذا صايت

على المسرح . كان دورك صغيرا جدا . . . ولكنك انيسيا ،
انيسيا 1- وانزل الله نحو الشمعة ، وابشم ابسامة ذات معنى ،
واخذ يتصفح الاوراق- ربما ذلك لانها ادارت تنورتها- على حد
تعبيرك- بشكل مفرط . انها تشعر ان هناك رجلا . . . يجب
ان تصان ، ان تصان . وماذا تظنين ؟ ما اكثر ما وقعت الثورة من
امثالها ! وفى ذلك تكمن المسألة كلها . . . كسل شيء مخلط على

ذلك . . . لا ، ليس الشعب جاهلا . . . الشعب غنى بالمواهب . . .
ونحن نقال بليندخ تام . . . نحن بحاجة الى آلات . . . هناك
اقرنى . . . -ومر ببيديسه على احدى الاوراق- استولينا
على دبابة بايدينا العزلاء . . . تلك حسيجة . . . لو كان فى ابن
لورنست على صمدته : تذكر ولا تنس من انت مدين اليه بالسعادة ،
لا تنس الذين ترقد عظامهم فى اعشاب السهب . . .

استندت الغريبيتا على الحائط ، وامضت عينها ، واطبقت
شفحتها ، وراحت تتذكر امشي شيء على نفسها يخطر على بالها .
كيف كان ايفان لغورا يرقد ليلا فى السهب بلا حراك ولا نفس . ولم
يكن يهتما آنذاك اى حو ام ميت . كان فى بندقيتها آخر مشط من
الرصاصة . . . ولم تود الرحيل مع الآخرين ، ولم تتركه وحيدا فى
هذا السهب ليلا . . . ومن المؤسف ان عظامها منذ ذلك الحين لم
ترقد بيضاء هناك . . .

- لماذا لا تاتين الى فراشك ، يا الغريبيتا ؟

وحجب ايفان غورا الشمعة عن عينيه براحة يده ، ونظر
كانت الدموع تنزل من عيني الغريبيتا المطبقتين ، وغالبا ما تقطر
من رموشها الطويلة ، بينما ارتفع حاجبها الاسودان عاليا . . .
جمع الاوراق فى حقيبة الميدان ، واقترب من الغريبيتا ، وقرصها
امامها :

- ما هذا ، يا بلها ؟ . . . لعلك متعبة ؟

- اوشم صمدته ، علمه ، علمه عن العظام البيض . . .

- ماذا ورائك ، يا الغريبيتا ؟

اجابت بصوت باليس لثلاثة صغيرة :

- انا فى الشهر الثانى . . . وانت لا ترى شمسنا . . . لا

تعرف الا شبيتا واحدا : انيسيا ، انيسيا . . .

فجلس إيفان غورا عند قدمي الغربيين . وانفتح فمه من تلقاء نفسه كما يفتح فم الأبله . . .
 - الأتدبين ، يا فتاة ؟ أية سعادة هذه ، أحقا انك حامل ؟
 يا عزيزي ، يا حلوة . . .
 - دعك عني ، أفر من وجهي . . .
 ومالت نحوه ، وطوقته ، وهبطت بتقلها عليه وهي ما تزال تنسج ، وفي كل مرة يزداد تشبها تقطعا ووهنا .

أثار اندمار الامتان كراستوف للمرة الثالثة حرب تسارنسكيين حيوية في الجبهة الجنوبية كلها حيث كانت تتسلط بجيوشها الثلاثة - الثامن والتاسع والثالث عشر - على الدون والدونباس . كان القوزاق البعادون يبدون وكأنهم على استعداد لتب العداة ، وتعليق سروجهم في السقيفة - رمحها للرق الحمام - وإف البنادق في الخرق المربطة ، ودفتها عميقا في الأرض . فأى شيطان ظن أن العيش متعذر في ظل البلاشفة ؟ فالأرض لم تشعب عنهم ، ها هي ترسل البخار على الاكبات الجرداء تحت شمس الربيع ، وأيديهم ما تزال معهم ، والخيول تشهد الاطواق ، والتيران تسال عن التير . . .
 كان القائد العام في سيريوخوف يستعجل الهجوم . وكانت خطة القائد العام الاولى الناقصة قد تغيرت بعض الشيء ، وجرى تعديل في تشكيلات الجيوش اثناء المسيرة ، فبدلا من الزحف على طول الدون الى الجنوب الشرقي اضطرت الجيوش الحمراء الى أن تستدير الى الجنوب الغربي نحو دونيتس في العودة وفي موسم تسوء فيه الطرق . ولكن الوقت كان قد فات للقيام بذلك ، فإن طريق الثورة الرئيسي - الدونباس البروليتاري - قد اغلسق بالحكام . ذلك لان فرقة ماي - مايفسكي قد شقت طريقها الى الدونباس اثناء الشهرين اللذين انقضيا في المكوث في البقعة ، وعززت وحدات قوية من جيش المتطوعين اخفت من شمال القفقاس بعد ان شنت الجيش الأحمر العادي عشر على رمال استراخان . والان كان يقف على الضفة اليمنى من الدونيتس خمسون الفا من قوات

البيض المختارة بقيادة ماي - مايفسكي وبكروفسكي وشكورو . بدأ الربيع دفعة واحدة . ففتح الشمس الشعنا ذابت الثلوج ، وامتلأت منخفضات السهوب بماء أزرق ، وانتفخ نهر دونيتس ، وجرت فيضانات لا مثيل لها . ولما كانت خطوط السكة الحديد في تلك الانحاء تسير بخطوط طول ، فقد لزم الامر ان تجرى اعادة تشكيل الوحدات في الأرض الترابية ، في العودة الطريق . ولصقت العربات العسكرية بالوعل للزج متخللة عن وحداتها . وكل هذه المصاعب اوقفت وإبطات اعادة تشكيل الوحدات . وكان البيض قد احتلوا المعابر على نهر دونيتس الطامخ على مساحة عريضة . وتحول الهجوم الى معارك مطولة . وفي ذلك الوقت بالذات اندلعت فجأة في المؤخرة في قرية فيشيسنيسيا المتصالحة انتفاضة فوزانية دعوية عنيدة دبرها عملاء دينيكين . ونقلت طائرات البيض اليها المحرضين والعمال والسلاح .

وبناء على امر القائد العام تابع الجيش العاشر وحده ، وكان يشكل الجناح الأيسر ، التحرك نحو الجنوب على طول الطريق الحديدي العام داخعا ومحطيا فلول وحدات كراستوف . ومار الجيش العاشر للقاء حثفه .

في الظهيرة ، وفي السهوب حيث كانت تهب ربح حلوة كان يؤدي العين النظر الى البرك والجداول وبحيرات الربيع . فقد كانت الشمس تلتهب عليها . وفي السماء التيلية الشافة كانت عصائب الطيور تصفسق باجنحتها ، وتعللق الغرابيق زاعقة بصوت الابواق . فكان الناس يرفعون رؤوسهم وهم على درجة العربة يشعونها بأبصارهم . . . الى أين ، ايها الاحرار ؟ الى اوكرانيا ، بوليسيه ، الى فولين ، وأبعد من ذلك ، الى ألمانيا وراه الرين ، الى الاوكار القديمة . . . إيه ، يا غرابيق ، بلقي التحية للطيبين ، وحدتهم ، وانت تضعين ساقا حمراء على السقف كيف طرت فوق روميا السوفيتية . ورايت الجليد قد تشق فيها ، ومياه الربيع تطفح على الحوافي . ربيع لا مثيل له في أي صقع بضاروته وعصفه وخضوبته

كانت دلتنا والغريبتنا والينسيا غالبا ما يجتمعن الآن على فسحة العربة نعبات من الشمس والريح . وكان القطار يتجه جنوبا ، والربيع مقبل للقياء . وكان المقاتلون قد خلعوا معاطفهم واكتفوا بالقبضان وحدهما غير مزررة عند العتق . وبين الجين والآخر كانت تتراعى قرعة وعدير من وراء الافق الى الامام ، حيث كانت الوحدات الامامية للجيش العاشر تطرد من الضياع العصابت الاخيرة من القوزاق . واحتلت فليكوكتيا بسكيا دون صعوبة كبيرة . وبغسه ان تجاوزها قطسار فوج كوتسائين اقرغ حولته على ضفة نهر مايتش ، واخذ يحتل مواقعه في الجبهة .

تمتد سهوب سانسكيه متبسطة خالية مثل منبسطة اخضر متجمد من البحر ، وفي الربيع يندفق عليها نهر مايتش مياهها كثرة تغطي عيدان القصب . وهنا ، في الازمنة الغابرة ، كانت السهام تطير على مايتش من ضفة الى اخرى ، وكان الرُحَل الاسيويون يتقاتلون مع السكيبين والالائين والقوط . ومن هنا جعل الهولنديون الارض قفراء حتى شمال القفاس . وهنا كان الكالميكسيون يستمعون وهم جالسون عند خيامهم للقيادة الى القصة الماثورة عن بطولات ماناس . وكانت السهوب باذخة في الربيع . فقد كانت الارض التي اترعت بالماء تتجمل التدر بالاعشاب والزهور ، وكانت الغروبوات المسائية البليسة تورد حواف السماء باتجاه البحر الاسود ، والتجسوم الكبيرة تسطع حتى حافة الافق . وكانت الشمس الضاربة تخرج من وراء تزيوين مثل درج فارسي .

نزلت قيادة فوج كاتسائين في المينى الوحيد الصالح للسكنى في هذا القفر ، في بيت طينى مغطى بالقصب وراء سياج زربية خيل مهجلة . ولم يكتشف اثر للعدو في مكان قريب ، وتوغل رجال الاستطلاع بعيدا في الجنوب باتجاه تيغوريتسكيا ، وفي الغرب نحو روستوف . وكان من الصعب اقتناع المقاتلين بانهم لم ياتوا الى هنا لينسفوا السمك بالقتال اليدوية ، ولا يضعوا العتبات الغالي بالتسديد على الور في الشفق المسائي . فان امامهم قتالا صعبا ، لان الجيش قد تلقى في مؤخرة العدو ، وهذا العدو ليس بسيطا . كما انه لم ينهزم بعد .

ذات مرة عاد ايلان غورا من قيادة الفرقة ، واستدعى ايلان ايليتش ، وسار الاثنان صامتين على الشاطئ ، وجلسا عند الماء ، واشغلا سيكارتين : كانت الشمس الحمراء المسطحة تنحدر محجوبة بالاخرة المتصاعدة من الارض ، وكانت الضفادع تنسق على مايتش كله تليقا عاليا شيئا .

قال ايلان غورا :

- الخبيطات ، يضعن البيض .

- اها . ماذا عرفت هناك ؟

- الوضع السابق . قلق . الجميع منركون . وليس من

المسكن عمل اى شى . ان امر القائد العام القاطع هو الهجوم على

تيغوريتسكيا . ما رايك في هذا ؟

- ليس النقاش عمل ، يا ايلان ستيبانوفيتش . بل تنفيذ

الامر عمل .

- انا اسالك ماذا تفكر فيه بينك وبين نفسك ؟

- ماذا افكر ؟ . . . وانت الا تنوى رمي بالرصاص ؟

- نفو . يا عبيط . . . الجميع يجيبون بهذا الجواب . . .

انتم جننا جميعا . . .

ودفع ايلان غورا طاقته وحك راسه ، ثم شعر بان جنبه

يحكه : انقلعت كتلة من الارض من الشاطئ تحت قدميه ، وسقطت

في الدوامات المائية الكثرة بطرشة خافتة . نلت الضفادع بشراوة

عارمة ، وكالها نوت ان تسكن عشيرتها الزلقة رحاب الارض

كلها .

- اذن ، فانت تعتبر اعزاز القائد العام صحيحا ؟

- لا ، لا اعتبره .

اجاب ايلان ايليتش بكفوت وثبات .

- اها الا احسنا . . . لماذا ؟

- نحن هنا قد انقلطنا تقريبا عن الاحتياطات . عن قواعد

التسوين . وسيقطع العدو في مكان ما الخيط الرقيق الذي يربطنا

بتساريتسين . وعندئذ سنلق في المصيدة . ان الامر كله لا يبدو

ركينا .

- اذن ؟ . . .

- ان هجرنا ابعد الى الجنوب ، على ليغوريتسكيا يعنى ان نكون كالقط وهو يضع راسه في بوز العذاء . ولن يحصل من ذلك اى خير . يمكن ان الفهم المغزى لو ان جيشنا ارسل تظاهرا لاجراج قوات البيض من الدونباس باى ثمن

- وبعد

- ولكن ذلك متعة غالية الثمن : ان تحطم جيشا لمجرد التظاهر

- وما هو استنتاجنا ؟

تلفخ ايفان ايليتش غديه ، والقرى في الماء سيكارته المنطونة الملفوف تبغها بورق الجرائد :

- لم اضع استنتاجا ، يا ايفان ستيبانوفيتش

- انت تكلب ، يا اخ ، تكلب ، تكلب حسنا ،

اسكت . كسل شيء مفهوم من دون ان تقول شيئا

ذات مرة حكيت لي ، يا ايفان ، عن مفوضك غيمزا ، وكيف

ارسلتك الى القائد العام في تبليغ سبرى عن الغالسن

سوروكين وعلى هذا (وتلفت ايفان غورا وخفض

صوته) اشعر وكالنتى اود الآن لو اسافر بنفسى لا الى القائد العام

في سيريوخوف ، بل الى موسكو مباشرة هناك وغد متدس

اما في القيادة العامة او في المجلس العسكري الاعلى نعم ،

ولا يمكن غير ذلك ، فانها الحرب ونحن نثق كثيرا

فاذا كان لنا ومن لف لفنا افكار سامية ، وقلوب كبيرة فاننا نثق

ان العالم كله فاضل اذا استثنينا البرجوازيين ، فننضرب باغلاص

ذات اليمين وذات الشمال لقد تمتعت في فلاديمير ايليتش في

بشروفاد . انه له عينا روسية متقلصة فاحصة انه متحس

ومعكر ، يضع يديه خلف سترته ، ويسير بيته وذعايا ، وفجأة

يوجه جبينه وعينه نحو الشخص ، ويظهر كل شيء هذا ما

ينبئني . انا وراك اراقب كل حركة ، وكل كلمة تقولها اما

انت فلا تراقبني ، بل تنق بي لغة عمياء ساقدم لك مهمة

مؤذية . ما عليك الا ان تصمت وتنفذ

- لا ، لا ، لا

- منذ لحظة قلت : ليس النقاش عمل . حسنا ، ماذا
ستعمل ؟

- احاول ان اوقف . ان افنع

- لتنع ا مثلك يجب ان ترمى ا آه ، يا

الهي

وضع ايفان غورا يديه الكبيرتين على طاقيته ، على راسه

مستندا مرفقيه على ركبتيه . انه لم يعبر ليفين بالشيء الاهم ،

بالبرقية التي قرئت يوم امس في الاجتماع الحزبي للفرقة ، برقية

رئيس المجلس العسكري الاعلى للجمهورية مرسله من موسكو -

ردا على الاستفسار المقلق لقائد الجيش العاشر - برقية متعجرفة

مهدة تؤكد بشكل قاطع على التجهيزات التي اعطيت من قبل .

- واليك آخر الاخبار : على جناحنا الايمن تتركز اربع فرق

للجنرال بوكروفسكى جلبت من الدونباس ، وقيلسق الجنرال

كوتيبوف يزحف للفانسا ، وقد قطع علينا الطريق الى

ليغوريتسكيا بالفعل . حزر خطة القائد العام وعلى الجناح

الايسر تتجمع خيالة الجنرال اولاغاي والى الورا على بعد

اربعمائة فرسخ يوجد خواد .

قال ايفان ايليتش :

- وهذا ما سيحسم كل شيء . اذا تريد رايي فهو ان يعلى

على الفور جميع المرضى ، وترسل جميع الاشياء الزائدة الى

المؤخرة لتكون اثف . لن نستطيع الاحتفاظ بمايتش

لم يرد ايفان غورا بشيء . صمت قليلا ثم بصق في النهر

بحق :

- ان مثل هذه الاحاديث كان من الممكن ان ترسلنا انا

وانت الى محكمة عسكرية كفى ان يقال لك : مت على

مايتش فتموت

- لم ارفض ذلك قط ، ولا ارفض على ما يبدو .

في اليوم التالي من ايار ظهرت دوريات الجنرال كوتيبوف

وراء النهر . في بادئ الامر كانت مجموعات صغيرة حذرة من

الخيالة . كانوا يستكشفون السهوب ، فثائرة يتوقفون قليلا ، وتارة يتطلقون بانفسى سرعتهم تحت الرصاص على البرك الالامعة . وظلوا يتجمعون اكثر فاكتر ، ويقتربون من الجبهة بجرأة اشد ، ويترجلون مرتدين خيولهم ، ثم اخذوا يطلقون النار على النفاط الالامية .

وفي الثالث من ايار اقتربت قوات كوتيبوف الرئيسية وسط عدير قصف المدافع وخلال تركيزها في منطقة الخط العديدي اخذت تهاجم ساحل مانيتش بوثوق وبموجات متعاقبة . وحلفت طائرات استلامية ذات جناحين مختلفة عن الطائرات الروسية وعن الالمانية . وتقدمت لوريات تحمل عوامات الجسور - نائرة الماء والوحل . وفي نفس اليوم اخترقت النهر الوحدة الضاربة من قوات كوتيبوف في الموقع الذي تحتله فرقة موروزوف . الا انها ابيدت في معركة بالخراب .

ومسح هبوط الليل تراجمت الصفوف وتخذلت . ولم تشتعل النيران في اى مكان . وهذا التراسق ، وخيم على السهل ليل عادي ، وطب عبق بالزهور . ونفت يوقات الضفادع الوقعة وكان لا شئ . مهما قد حصل . وتوهم بعض الرجال التامنين واذانهم على الارض انهم يسمعون حفيف العشب الخفيف . والظلام الدامس المتحرك ببراعته الرقيقة القوية .

استمر الاجتماع طول الليل في مخبا الاركان عند ايفان ايليتش . كانوا ينتظرون بتفاد صبر امر الفرقة بالهجوم ، فقد كان واضحا للجميع ان عدوا كهذا العدو لا يجوز ان يترك ساعة واحدة للتناور دون عقاب ، وتوجيه الضربات في الاماكن التي يريدعا على الجبهة النعيلة للجيش العاتر الممتدة الى ما يقرب من خمسين فرسخا ، والمكتسوفة من الجناحين ومن المؤخرة . وتعدت امراء الوحدات عن مزاج وحدانهم . ان رجال الجيش الاحمر متجهين ولا يتأمنون ويتعامسون في الخنادق يانه لو كان هذا في عام ١٩١٨ لهرع الفوج كله لاجتماع عام مهددا يانه سيمزق امره اذا لم يصدر امرا بالزحف الى الامام ! فهناك لحظات من الياس والحق يبدو وكان في الامكان اكتساح كل شئ في الطريق .

دخل الى المخبا موشكين وهو امر سرية ، وكان قد عبر لتوه

نهر مانيتش وغطس فيه حتى رقبته من الضفة التي توجد فيها حفيرة من سريته . كان عاملا من عمال التعدين في تساريتسين ، وقد هوى الفن العسكري هوى الصياد .

- رالحة المخبا لطيفة ، يا رفاق - قال ذلك مقلعا عينيه من دخان التبغ الكثيف بحيث ان الشمعة لم تكسد ترف . وخلع حذاءه الطويل نافزا على هذه الرجل ثم على الاخرى ، وسكب الماء من ياطن الخاء ، وتابع قوله : - جرح رجال واحدا من الكاديت . وازدت ان اجليه معي ، ولكنه مات مع الانسف . . . فتح صغير ، غمر ، ولكنه مملوء بالضغينة . ظل يصرخ «اوغدا ، اوغدا !» حتى ان فتيانا ذهولوا . . . مزود يرتدى الجوخ والحذاء الطويل والاحزمة . . . شتان بينه وبين القوزاقى ! القوزاقى احسن ، ريفى ، من اخواننا ، اذا ضربته رد لك الضربة مثلها ، وازتد . . . اما هؤلاء ذوو الايدي البيض فلا يراقون باحد . . . الحضيرة متكونة من ضباط فقط . وامر الحضيرة عقيد . . . وكل واحد منهم يشد ساعة في معصمه . . . لقد قلت لرجال : يا ضعاليك ! اخرجوا الساعات ، ساكسر اسنانكم . . . وضحك موشكين كاشفا عن اسنان بيضة . وانارت الطبقة وجبهه القبيح المجبور الذكر .

- الوضع كالاتى ، يا رفاق : ترامت من السهوب شجة لا تزال نسمعا منذ زمان منذ هبوط الظلام . فارسلت المستطلع متبيكا تشايليف ، وهو ليس انسانا بل روميا قسما . . . ورحف وجاء وقال ان مدفعتهم قد اقتربت ، ويبدو ان المشاة محملون على عربات . . . استعدوا ، يا رفاق . . .

احس ايفان ايليتش بالدوار من الدخان ، فخرج من المخبا الى الهواء الطلق لبرهة من الوقت . كان هلال حاد الطرفين كالمسجل منير بشكل نافذ يطل وسط النجوم الواضحة . وكانت ثلاثة شخوص نسائية تجلس على سجاج من ثلاثة الواح . اقبل ايفان ايليتش نحوها .

- طئب الى الجميع ان يتأمنوا في الخنادق فقط . انا لا افهم .

داشا :

- يا فتاتي ، كم رأيت في حياتي من أشياء ، وكل شيء قد
مسر دون أن مستي . . . كنت طوال الوقت انتظر شيئاً غير
اعتيادي ، شيئاً فريداً . . . عذيتي ليس الأحمق وعذب آخرين . . .
الأفضل أن يحب المرء لليلة واحدة ، ولكن بشكل جيد . . . أن يفهم
كل شيء ، ويستلئ بكل شيء ، أن يعيش مديون عام في ليلة
واحدة . . .

ومالت برأسها الى كتف انيسيا ، وفكرت المريبتنا مع نفسها
ثم قالت هي ايضا على انيسيا من جانبا الآخر . وطلبن جالسات
هذه الجلسة طويلا على الحواجز ، وظهورهن الى النجوم .

كانت الطائرات الجديدة تصطح مرمى مدفعية كوتيبوف بتعليقها
فوق الانفجارات بعد ان تلقى على الحمر بعض القنابل ، وترتفع
فوق السهب كالعقبان باتجاه الأفق ، نحو البطاريات التي اخذت عند
ال فجر تتصف مائتس بشدة .

ولشوق العدو طارت من الفرقة طائرة وحيدة مرتفعة في
الجو ، وهي طائرة قديمة بطيئة السرعة كانت قد ادت خدمتها
كاملة الحرب الامبريالية ، وزعمت في تساريتسين ترميها
بداليا .

وكان من المرعب النظر اليها بهيكلها الخشبي وبتحايها
المرتعبين خلافا لكل قوانين علم الطيران ، تفرقع وتكاد تنطلق ، مارة
فوق الرؤوس . الا انه كان يديرها فالكا تشيرداكوف الشهير
في الجبهة الجنوبية كلها والمعروف جيدا عند الطيارين البيض .
وفالكا رجل ضئيل الجسم كالقرد ارجح مائل الكتف معظم العظام
كانما مشدود بعضها الى بعض بالفراء . كانوا يسمون «فالكا» امقا
ما يشاع عنك من انك في عام ١٩١٦ اسقطت طيارا المانيا مجريا ، وفي
اليوم الثاني طرت الى المانيا لتلقى الرودد على قبره ؟ « فكان يرد
بصوت موصوص : «وماذا في ذلك ؟ » وكانت طريقته معروفة : حين
يشد لديه شريط الرشاشة كان يهوي على العدو من فوق ويضربه
بجسم طائرته . «فالكا» وكيف لا تسقط أنت ؟ - «ماذا لو
سقطت ؟ غير مهم . . . »

- لا نستطيع النوم .

قالت داشا ذلك من اعلى الحواجز متحنية نحوه .
وبدت ثلاثهن جميعا - داشا وانيسيا والمريبتنا - وسينعات
العيون تحليات غير اعتيادية . . . ولم يقدر ان يتبين اهن يتسمن
له او تعبتن بطريقة خاصة .

قالت المريبتنا :

- نحن ننتظر هنا انتهاء اجتماعكم .

وقالت انيسيا :

- اما انا فاسمح لي بالبقاء معهما ، ايها الرقيق آمر الفوج .
- ازلن الى الأرض ، لماذا قعدتسن تعود المجرع ؟
الرصاص يتطاير ، الا تسمعن ؟ . . .

قالت داشا :

- في الأسفل روث وبراقبت ، اما هنا فالريج رخاء . . .

وقالت المريبتنا :

- ليس هذا رصاصا ، بل خنافس بيضا ، فلا نخدعنا .

وانحتت داشا ثانية :

- الضفادع خرجت عن اطوارها ، ونحن جالسات نستمع . . .
التفت ايفان ايليتش الى النهر ، وفي هذه اللحظة قلقت انجذب
انتباهه الى الزفرات والانبات الابغافية للهفة والانتظار ، وما هو
المنتصر ، المفتى المنفرد الكبير الغم ، بطول ثلاث يوصات ، وذو
العينين الزرقاوين الجاحظتين يبدا غناءه ويفرد بثقته بان النجوم
تفسها تسمع تناءه على الحياة . . .

- لطيف ، برافو - قال ايفان ايليتش وابتسم - حسنا ،
اجلسن ، ولكن اذا ما حدث شيء اسرعن بالمشول في الخندق فورا . . .
- وجذب كتف داشا نحوه ، وهمس في اذنها - يدع . . . حقا ؟
انت بدعية جدا . . .

وهز زراعته ، وسار نحو المخبأ - وحين عادت النساء الى
الانفراد قالت انيسيا بخفت :

- وددت لو تطول الجلسة العمر كله . . .

المريبتنا :

- السعادة تكسب بالدم . . . ولهذا فهي غالية . . .

حين رأى الرجال طائرته تعلق فوق السهب على انخفاض سرها جميعا ، رغم انه لم يكن ما يتر به . كانت الذئاب العالية الانفجار تتفجر على كلتا ضفتي مانتيش حاضرة رجال الجيش الاحمر في الغنادق . كان هناك ست بطاريات للعدو على الاقل تهمز بلا انقطاع ضد بطارية واحدة للحمر . وكانت صفوف العدو تقترب بوثبات سريعة وحساس واندفاع لا يكتبح .

طار فالكا تشيرداكوف فوق الرؤوس وجناحها طائرته يترنجان ، وهبط على مسافة غير بعيدة ، ونزل من الطائرة ، وسار بالقرب منها يعرج . هرج جنود حمر البسه . كان زيت الطائرات يقطر ويجه كله .

- اعندى فرجة ؟ - قال ذلك غاضبا ، واخرج من الطائرة حقيبة الأدوات والتعلق الاحتياطية - اهدموا طائرات العدو عني - اريد ان اعلم .

وبالفعل كان العدو قد لاحظته ، فراحت ثلاث من طائراته تحوم فوق المكان محلفة يعلو شامق لان الجنود الحمر اخذو يطلقون النار عليها . تساقطت القنابل تنرى ووقعت توافر من التراب . وكان فالكا يصلح ابواب الزيت وهو لا يلقى التفاسا لما حوله . وانفجرت قنبلة على مسافة قريبة جدا حتى ان طائرته تمايلت ، وتساقطت على جناحها كتل من الارض . عند ذلك وقع بصره الى السماء ، وهدد باسمه . وحين فرغ من التصليح صاح بالجنود الحمر :

- هيا ، تعالوا ، اديرخوا المروحة - وصعد الى الطائرة واستقر في مكانه . - كيف تديرون ، يا وفائي ؟ ليست هذه صغيرة امرأة ، هيا ، لا تخافوا من العرق !

اخذ المحرك يعطس ، وارسل صوتا مصمما ، وهدر وقفز الجنود الحمر مبتعدين ، وتدمرجت الطائرة على السهب متمائلة متوتبة الى مسافة بعيدة حتى بدا وكأنها لن تترك الارض . ثم ارتفعت . حلق فالكا صاعدا في الجو ، واخذ يتقلب لكي يختلط في خزان الوقود الخليط الراسخ من البنزين والكحول بشكل جيد . رسم في الجو انشوطه عريضة ، وهوى بكل سرعة على العدو . الا ان الطائرات الثلاث اخذت تبعد مسرعة وافضة القتال .

بعد ان طار فالكا تشيرداكوف فوق الجبهة بالقدر الذي اعتبره كافيا هبط على الارض مرة اخرى وارسل مذكرة الى تليغين : «شاهدت ثماني سيارات ركوب جديدة في الجبهة . انه دينيكين مع الاجاب . تلك حقيقة ، فالتفتوا الى ذلك . حطم مدفعا للعدو . اطلقت النار على طابور للمشاة . انا ذاهب الى القاعدة للترود بالبنزين . »

كان دينيكين في الجبهة . وقد انقضت اكثر من عام بقليل منذ ان كان يهتز في عربة مصابيا بالتهاب الضحايا وعلقتا بطنانية من فراء الثور في قافلة من سبعة آلاف من مقاتلي جيش المتطوعين تحت قيادة كورنيوف . شقوا لهم طريقا دعويا الى يكاترينودار . والآن كان دينيكين دكتاتورا مطلق الصلاحية على الدون الاسفل كله وعلى كوبان الغنية كلها وعلى تيريك وشمال القفاس .

اخذ دينيكين معه في هذه الجولة في الجبهة الى الجنرال كوتيبوف عميلين عسكريين انجليزينا وفرنسيين ايشعرا بالهرج الشديد والتخل على اوديسا وخيرسون ونيقولايف التي اعطيت للملاشقة بشكل مشين . لو كان الجيش الاحمر النظامي اخرج من هناك الفرنسيين واليونانيين لكان الامر ابل ان اللاجئين الانصار قتلوا بالسيف لو ان يونانيا كاملا في نيقولايف علس مرأى من المدمرات الفرنسية . وتراجع المعتصرون في الحرب العالمية امام اللاجئين الروس ، فرعا على ما يبدو ، وبعد ان سلم الفرنسيون خيرسون جيشا اجلوا فرقتين من اوديسا . . . شيء لا يقبله العقل ! خافوا من شيوعيس موسكو . عزم انتون ايفانوفيتش على ان يري الاوروبيين الامجاد رآى العين كيف يحطم جيشه الشيوعيين حاملا شعارا من الكليل الغار والسيف .

وكان يضم في نفسه حساسة اخرى من قرار مجلس العشرة في باريس عن تعيين الاميرال كولتسناك الحاكم الاعلى لروسيا كلها . راق لهم كولتسناك ا في عام ١٩١٧ نزع عنه سيفه الذهبي ، والقاه من سلم الاميرالية في البحر الاسود . وقد ذكرت ذلك الصحف في جميع العالم تقريبا . وفي ذلك العين كان الجنرال دينيكين سنجينا في

سجن بيخوفسكيا ، وقد صممت الصحف عن ذلك . وفي عام ١٩١٨ هرب كولتشاك الى امريكا الشمالية ، ويندرس فن الالغام في استبولم الحربي ، والصحف تنشر صورته الى جانب نجوم السيشما . . . وهرب الجنرال دينيكين من سجن بيخوفسكيا ، ويشارك في الحملة الجبلية ، ويتسلم عند جثة القتل كورنيلوف عبء القيادة الثقيل ، ويحتل مساحات اكبر من فرنسا . . . فتكتفى صحيفة باريسية هزيلة بنشر ثلاثة اسطر عن ذلك ، مع صورة متخيلة له بسبيلتين : «الجنرال دينيكين» ا بينما يعين كولتشاك حاكما لروسيا ، وهو دعى شهير ، مصاب بهستيريا وجنون العظمة مولع بالكوكاين !

لم يكن اترون ايفانوفيتش يؤمن بنجاح سلاح كولتشاك . في كانون الاول كان ببيلاييف وهو احد جنرالات كولتشاك الحديث الرتبة قد استولى على بيرم ، فاذا بكل الصحف الاجنبية تزعم : «قبضة حديدية تطل على موسكو البلشيفية» . وحتى اترون ايفانوفيتش نفسه قد صدق بذلك برهة ، وتحمل نجاح ببيلاييف على مضض . الا ان موسكو قد ارسفت الى كاما (كما ابلغت الاستخبارات) المفوض ستالين ، نفس الشخص الذي حطم في الخريف كراسنوف مرتين قرب تساريتسين ، واسرع بتدابير جديسة في تنظيم الدفاع ، وسدد لبيلاييف الشهير ضربة اخرجه من بيرم الى الوردل . وبهذه النتيجة كان لا بد ان ينتهي دون شك هجوم كولتشاك الحالي على الفولغا ، الذي يجري دون استعداد حازم ، وبطريقة خادعة مضحوية يهرج عالمي لا يصدق وهدير انتصار من قبل تجار مينسكيين سا الكساري . - تكتيكنا يختلف قليلا عن التكتيك الذي استخدمتموه واستخدمناه نحن والامسان في الحرب العالمية . الصفوف اقل كثافة ، وبفواصل كبيرة جدا ، وكل خضيرة تلقد مهمة مستقلة .

قال دينيكين ذلك واقفا على سيارة جديدة مكشوفة انيقة من نوع «فيات» وأشار بيده المقفولة بقلعز ابيض من السما الى لواء الفريق تيلوف ، وهو يقوم بحركة انتشار حاذقة وكانما هو في استعراض . وكان الى جانب القائد العام يقف الفرنسي في سترة من الجوخ الناعم السماوي اللون ، وبنطلون عسكري فاخر مثلها ، وعلى رأسه

كبيبه مغلبة صفيرة غاطسة ومالة بشكل حادق ولها شريط مذهب . ومن تحت المنظار الذي كان يحدق فيه برز شاربان صغيران ناعمان ، وعلى جانبه زمزمة من الالمنيوم للكونيالك . الى هذا الحد كان الفرنسي مزودا بأسباب الارتياح ! كما كان الانجليزى واقفا على موطن السيارة ينظر في منظار ايضا ، ولكنه اقل رعافة وبسط مليسا في لباس كاكى له جيوب عرضة محشوة بصور فوتوغرافية وتبع وغلابين وقدمات ، وطاقيته المسطحة كالعظيرة ، المفرطة في لزولها على الالف كانت موضع نقاش من قبل الحاشية الروسية الواقعة على مسافة تتم عن الاحترام . «مهما تقل فان الانجليزى لا يعرفون كيف يلبسون البرة ، انهم من النوع البلهى ! والامر مختلف مع طالية الفرسان ! ثم كيف كان فرسان جلاتها يرتدون القبعات ؟»

كان كوتيبوف الوقتى يتطلى صهوة حصان كالميكى صغير قرب السيارة . رجل وحط الشيب رأسه عرض المتكبي في فروة خروف محلولة الازوار ، وبمناسبة الاستعراض اتردى قفازين وشد مهمازين . كانت عيناه الصغيرتان ملتصقتين فلقد جاء اليوم الخامس وهو ما يزال يضرب مانيتش اللعين ، وكان يدرك جيدا ان هذه الحركة الاستعراضية التي يقوم بها لواء تيلوف امام عذبين المدللين ما هي الا باليه ستكلف اللواد غاليا .

شرح دينيكين قائلا :

- ان خاصية هذه الحرب هي قدرتها الكبيرة على المناورة . ومن هنا تنبثق كل الهمية التي تكتسبها الفيلة عندنا . وهنسا لدى الافضلية الحاسمة : تبريك وكوبان والدون تقدم لي مائة الف خيال نظامي . . .

- او لا - لا - لا - لا . . .

ترتم الفرنسي بذلك رضى البال غير تارك المنظار من فوق عينيه .

- والحمر لا يملكون خيالة ، وليس لديهم القوة التي يتشتمونها منها باستثناء لواء بوديونى الذي سبب متاعب كثيرة للاتمان السابق كراسنوف المسكين . . .

قال الانجليزى من خلال استناسه دون ان يترك المنظار ايضا :

يجب ان يكون لك مائة الف سرج ولجام .

نعم ، هنا تكمن المسألة كلها .

قال دينيكين ذلك بصوت جاف ، وامسك نفسه رغم انه كان يود كثيرا ان يقول الحقيقة كلها لهذين الحليين في هذه اللحظة بالذات . وسط قوائمه ، وتحت حديد المدافع (كانت السيارة تلقى على بعد فرسخ واحد فقط من البطاريات) ، ان يقول لهم انهم تافهون ، وان سياساتهم برمتها قاصرة النظر وجلة وبخيلة في غاية التقدير
وقد اثبت لهم مثل عملية حسابية بسيطة ان البلشفية انظر عليهم من مانتين وخمسين فرقة المانيصة فقدموا السلاح بالقدر الذي اجتاجه ، ايها السادة ، اذا كنتم تخشون ارسال جنودكم الى روسيا
ستحاسب بعد ذلك ، في موسكو .

— اذا لم يكف ما عندي من السروج فسأخذ القوزاق يجلسون على ظهور الخيول عارية .

قال دينيكين ذلك دون ان يضبط نفسه ان لم يكن بعدة فليس بزيادة في الطيبة ، والتفت الى المترجم ، وقال :
ترجم ما تعني كلمة عارية ليفهمها كلاهما .

ولكن المترجم ، وكان شابا على النمط الجنوبي مطواعا الى حد القرف عب الهوا ، بنهم فجأة ، بدلا من الجواب . وفي تلك اللحظة هتف كوتيبوف جاذبا رأس حسانه ، وهامزا ايها :
— ايها السادة ، اسرعوا ، تحت السيارة !

رغم انهم صهروا الحركة لم يلاحظوا كيف طارت فوق السيارة طائرة صفراء متهلعة . بل ولم يستمع الوقت لاي واحد منهم لاطلاق النار عليها ، فقد حلت في زاوية حادة طلع منها فالتكا تصيرداكوف الضئيل العنسن الشعر ، والتي تبتلين يدويتين احدهما على غطاء «الليات» الغابرة مياضيرة ، والثانية على مقربة لم تكشف في تكشيرة على اسنانه البيض ، وحلق عاليا .

ومسح ذلك استطاع الجنرال دينيكين والانجليزى والفرنسى الإزلاق تحت السيارة ، وقد صمب ذلك على اتنون ايمانوفيتش بشكل خاص بسبب كرشه ومعطفه الثقيل . ولم يصيبهم الا الذعر ، وتطاير افراد العاشبية في جميع النواحي كالرشاش ، كما استطاع كوتيبوف نفسه ان يتسنى .

هاجم جيش المتطوعين بعنف لا مثيل له . ويقى الكثيرون منهم يرددون مشرحين على السهب . الا ان صفوفها جديدة متزايدة ظلت تزحف نحو مانتيتش . كانوا يظهرون هنا وهناك تحت النار المتوازية المتخلقة من الرشاشات الخفيفة ويركضون منحنين ، ويتجمعون على الضفة الاخرى من النهر . امر تليغين اخراج راية الفوج من السخيا ، وخلق الخلاف منها .

لقد حلت اللحظة العاسسة . كانت مدفعية البيض توجه نيرانها على احتياطات كانشالين ، وتطاررت هناك اسدال كثيفة من التراب . ومن الضفة الاخرى كان ينهمر وابل غزير من الرصاص . واندمجت صفوف المتطوعين الاخيرة دون ان تنبطع على الارض . وتوقفت نار الرشاشات فجأة ، وقفز مئات الرجال في النهر ، بضراوة غلي بها الماء ، وخوضوا في الماء الى صدورهم واتى رقايبهم هازين البنادق ، وسيحوا وقرقروا من الماء مصابين بالرصاص ، وتخبطوا وغرقوا ، بينما انزل على جندهم آخرون جدد وجدد لم يكن عرض النهر هنا يزيد على ثلاثين ذراعا لم يعد في استطاع اية نيران من الرشاشات إيقاف هؤلاء الرجال المسعورين الزاعقين الى حد الجنون . ولكن عينا كان صباح الفريق تبلوق وهو يقف وسط التصب في الضفة الاخرى ملوحسا بسيفه : «الى الامام ، الى الامام » طانا ان زخم الهجوم المفزع سيترك العمر في حالة ذعر فيقتهقرون ، ويفرون .

كان رجال فوج كانشالين ينتظرون هذه اللحظة طيلة اليوم ، والذين اكل الفلق قلوبهم ، وعانوا انفعالهم تقسوا في نوتر حاقق . حين بدأ الهجوم صباح امراء الوحدات والشيوخيون بالجنود العمر مسكين اياهم من قصصهم او بناطيلهم لتلا يغربوا قائلين «اطلقوا ، اطلقوا . . . » وترددت شتائم مرعبة في الخنادق . اذا لم يكن بالعدد القليل منهم من شارك وهو فتى او في سن الشباب في مناوشة بقبضات الايدي في الشتاء على الجليد ، على الجسر او في وسط الشوارع شادا حزامه بقوة ، مرتديا قفازات جلدية . «آه ، اوغاد ، آه ، اوغاد» ويملا الحقن القديمة في العراك بالقبضات ، «آه ، اوغاد ، آه ، اوغاد» ويملا الحقن افئدتهم «تركى ، يا . . . ابن . . . !» وكان لاتولجين اول من لفت من الخندق شاكا حربته صاراخا صرخة وحشية . وانطلق الجنود الحمر وراه منحدرين على الساحل الصبب للقاء المهاجمين «هورا ،

هورا ، هورا . . . » فردد الولاة بهتاف مثلثه «هورا ، هورا ، هورا . . . » . كان هجوم رجال كاتشالين بالعراب لا يكبح في جماحه ، بعد ان صدوا الذين وصلوا الى التساقي من الاعداء ، خوضا في الماء ، وقتلوا في وسط النهر ، ضاربين باخاض البنادق ، ملقن القنابل اليدوية ، متقاتلين مع العدو بالسلاح الابيض . . . وكيف يستطيع الضباط ابناء الاعيان ذوو الاجسام المتألقة ان يصدوا ، مهما تكن روح القتال عندهم ، ضد فتيان الريف الاقوياء ، وعمال متاجسم الدوبلاس ، وعمال التفريغ والصمن في الفولغا ، وقاطني الاخشاب الذين كانوا يظهرون فجأة من تحت الماء ويقفزون على الكتافهم . وتعالى فوق النهر المضطرب المحمر بالدم اصوات الملقط وقطعة السلاح وهدير القنابل اليدوية المتفجرة . ودحر البيض ، وارتجعا الى الوراء ، لماخذوا يخرجون على الجانب الآخر من النهر . ازل الفريق تبولوف تعزيزات جديدة . عندئذ تناول المفوض ايفان غورا من حامل الراية راية الفوج المستوعبة من الحرير الرمزي بنجمتها الذهبية ، والمنتقبة برصاص المعارك السابقة ، ورفعها عاليا ، وركض بطلوات ثقيلة نحو مانيتش محاملا بالشيوعيين .

والى الاعل في مجرى النهر ، حيث اخذ الماء ينزل بمستواه ، وتلوح فيه رؤوس القصب كان تليفين قبيل بدء الهجوم قد وضع الاحتياط تحت قيادة سابوجكوف ، وسين تناول ايفان غورا الراية ترك تليفين نقطة القيادة ، وتوكل على فرسه ، وعدا به الى مرج مقفور بالماء . وعندما وصل الى القصب صاح بالجند الحر الذين ظلوا نصف نهار ياركين في الوحل كالخنازير البرية :

— يا رفاق ، العدو يهرب ، لا تدعوه يبق على نفسه !

عبر مائة وخمسون مقاتلا تحت غطاء القصب الى الجانب الآخر من النهر جازين بايديهم وشاشات ثقيلة ، تاركين احديتهم في الغرين اللزج زاحقين تارة وسابحين تارة اخرى ، وخرجوا الى جناح رجال كوتيبوف واخذوا يضربونهم . وتقررت نتيجة المعركة . تراجع البيض من مانيتش ، واخذوا يتراجعون تحت غطاء من التيران ويفرون . وعلى مسافة بعيدة من جناحهم الايمن ، المنتشر فوق السهب كالحمم الخفيفة هبت لمساعدة فوج كاتشالين الخيالة من القطاع المجاور لقطع الطريق عليهم .

خرجت فلول لواء ابلوف من الحصار . ولم يلق تحت حراب المقاتلين الحر غير شرادم متصلة من البيض متغلغة . واضحت الملاحقة ابعد من ذلك خطرة . امر تليفين سابوجكوف بتسوية خط الجبهة والتخندق ، وذهب يفرسه الى حيث كانت راية الفوج تلوح على بعد نصف فرسخ في السهب . وكان يراقبها منذ زمن كيف عبرت النهر ، وتقدمت الى الامام ، وتوقفت ، ولجأة ارتخت ، ولزقت من جديد ، ورفرفت وتحركت الى الامام .

غطت سحب سوداء الشمس الاقلة ، ودكن السهب بسرعة ، ولعت في الافق مدافع كوتيبوف ، وصفرت القذائف متجهة الى مكان ما ، وهذا كل شيء . ولفى الليل ميدان المعركة الدامية .

ظل تليفين يبحث عن المفوض ايفان غورا طالما كان في الامكان رؤبة الاشياء . والمقاتلون الحر الذين التقى بهم اختلفوا فيما قالوا عنه . كان الجميع قد زاوه يعبر النهر حاملا الراية . ولكن الراية بعد ذلك كانت في يد امر البرية موشكين . ولكن حتى موشكين هذا قد جرح ، واخيرا تبين ان الراية في يدي شباب متين البنيان ، جاء لاتفين وغالغين الى تليفين . وقد بقيا وحدهما حين من طائم المدفع ، بعد ان حطمت القذائف مدافعهم تماما ، وقد اكمل خدمته الوفيه .

قال لاتفين محررا شفتيه بصعوبة :

— كم كان ذلك رهيبا . ان تذكره يبعث الذعر .

وقال غالغين الصموت عادة بصوت خافت ايضا :

— حتى الان من الخطر الاقتراب من اي واحد من الفتيان . انهم

يتنلسون ، كما لو باضلاعهم . . . واذا نظرت اليهم يبدو وكأنهم

يطعنونك بعربة . . .

— العلك تبحت عن ايفان مستباناوفيتش ، يا ايفان ايليتش ؟

— نعم ، هل رأيتة ؟

— تعال .

ساروا نحو النهر ملتفتين حول الجثث . ومن الظلام ترامت هنا وهناك اناث وتمشحات . وكان رجال الاسعاف يتنادون فيما بينهم باحثين عن الجرحى . وعين ايفان ايليتش حسس كوزما كوزميتش الناشج . كان لاتفين يمشي في المقدمة فتوقف فجأة ، وقرصن .

- انت الآن عزيزة علينا عزة مضاعفة .. وسيكون طفلك ابن الفوج .. ففكرى بالهمة التي تحملينها - ومسد على شعرها - تناول البندقية ، ولذهب ..

احنت المرقيتنا رأسها بحداد الى المكان الذي جلست بالقرب منه طوال الليل . ونهضت ، وتناولت بندقيتها وقبعتها ونزلت من الرابية .

استمرت المعارك الدامية على ماينتس الى منتصف ايار ، وهدأت . حتى الجنرال دينيكين ليهود كوتيبوف العقبية في شرق جبهة الجيش العاشر ، وللخسائر الفادحة للغاية ، فاستدعاه الى يكاثريندوار . وتكلم التون ايفانوفيتش في مكتبه وبحضور رومانوفسكي المتعال المزدرى ، وكانت نبرته مرتفعة وفي غير وجهه حتى ملقيا القلم السميك على الاوراق الموضوعه امامه :

- قل لي : هل نحن نقاقل ام نقوم باستعراضات يهلوانية للسادة الحلفاء ؟ لسنا العبيد الذين كانت تلقهم يوما لصارعة الاسود ، يا صاحب السيادة ! ما الداعي لكل هذا التهور ؟ فضيحة ! عملية غير متحضرة البتة ، حرب عصايات !

كان كوتيبوف يعرف دينيكين جيدا ، وفهم السبب في قورانه هذا . صمت جعما ، ونظر يطرف عينه الى ياقسة الزهور الصغيرة بالقرب من الحبرية .

- تفضل ، اقرا ، وايتهج - وتناول دينيكين الورقة الاولى من ضمة الاوراق - غرقت جبهة الجيش التاسع الاحمر بخسائر تافهة ، وغرقت بشكل ممتاز .. ونحن ندخل منطقتنا التوزاقت المنتفضين . والظاهر اننا سنحتل قرية فيشينسكيا بعد ايام ..

الا انه كان من الممكن ان تتحول العمليات على دوليتس الى هجوم واسع ، لو لم يستخدم ذلك العدد الكبير من قواتنا على ماينتس . انا خجل ، يا سادة ، من استراتيجيتنا .. العالم كله ينظر الينا .. ولدى الناس هناك حساسية مرتفعة جدا ، كونوا على ثقة .. تفضلوا هتأ ..

وبحث عن نظارته الانفيسة بين الاوراق وسار مع كوتيبوف ورومانوفسكي الى طاولة من خشب البلوط حيث بسطت خرائط عسكرية .

كانت الخطة هي ان يقوم الجنرالان بوكروفسكي واولاغاي بعد فراغهما من تركيز قوات خيالة كبيرة على جناح الجيش العاشر باختراق مؤخرته وتحطيم قوة الخيالة البلشفية ، والاستيلاء على محطة فيليكوكتيايسكيا ، والانتهاه خلال اربعة او خمسة ايام من محاصرة الحمر كليا على ماينتس .

اخرج دينيكين من جيب جانيه متديلا قطنيا لطيفا فواحا بهاء الكولتيا ، واخذ يسبح به نظارته الالفية . وارتعشت قليلا اصابعه القصيرة بجلدها الجاف اللامع .

- ان جيش المتطوعين يحل قضايا السياسة العالمية . وقد اتد الغرب بفهم ذلك بعد سقوط اوديسا وغيرسون ونيغولايف ..

ويجب ان تقوم بضريرات عاطفة ماحقة . والثشاء في هذه الحرب يتحول الى ناقلات الاسلحة .. وقد كنت دائما احقر من المجازفة . وانا لا احب الالعاب المغامرة . ولكننى ايضا لا احب الحسارة ..

واذا نجحنا في الدونباس لا تكسب نطاق هجوم عام في عمق البلاد ولا تنتهى بوسكو فساضع رصاصه في صدغي ، ايها السادة ..

دق رومانوفسكي الرسيم طرف سيكارته على غلبة سيكارته الفضية بابتسامه متشائمة . والقى الجنرال كوتيبوف نظرة جانبية من تحت جبينه المغضن الواطي وحسن من اين لانتون ايفانوفيتش هذا الاق في الافكار . اذن ، فانهم يلغون له ذيله بقوة ، ويخرونه . ولكن كوتيبوف كان جنرال ميدان لا جنرال الركان . اى ان قضايا الاستراتيجية كانت بنموه له ضبابية جدا ومتمبة . وكان عمله ان ينحر العدو في مكانه . قال :

- سنفل كل ما في وسعنا ، يا صاحب المقام الرفيع . اذا اعزت بان نلحل موسكو هذا الخريف فنستحلها ..

ظل رجال كاتشالين خلال ثلاثة ايام يشقون طريقهم نحو الطريق العديدي دون ان يتالوا جرة من ماء او قطعة من خبز . لقد صيدوا

الحادي والعشرين من ايار امر بالتراجع . وتراجع الجيش العاشر من
مانيتش شمالا الى تساريتس حيث الحصار يهود وضحايا ضخمة .
وكانت ربيع جافة تهب ، وتسطع الاقستين على الارض ، وكان
السهب رماديا ، والافاق البعيد كدرا حيث كان غيالة اولاغاي تلقف
كقطمان الذئاب .

وكانت خيول العربات تسقط هالكة ، والجرى والمرضى من الرفاق
يتقلون الى عربات كانت مكتظة بدوتهم . وكان ذؤو الجراح الغنيفة
والمرضات يسرون وراء العربات متعثرين . وكانت الشفاء تتووم
وتنتشق من العطش . وكانت العيون المنتهية المتقلصة اتقاء الريح
الشرقية تبعث في الافق عن معالم مضمخة الماء التابعة للسكة الحديد .
ومن منخفضة السهب العريضة لم تقع حتى رائحة رطوية . بينما
كانت المياه هنا تصل الى الوسط قبل مدة قصيرة . فليت هناك بعض
القطرات من ذلك الماء ليبل الافرء السوداء !

في احد هذه المنخفضات حين تزلت العربات على منحدر معشب
وتعوا في كمين ، وارتفعت الطلقات من مكان قريب ، وعجم القوزاق
على العربات المضطربة حائث خيولهم ، طالعين من كميناً لا يعرفه الا
الشيطان . مؤملين غنيمة سهلة . اتحد زهاء عشرين من التهايين
القتلة على المنحدر شارعين لحايم . الا انهم رجعوا بنفس الخفة ،
حين اخذ الرصاص يصعد لهم من وراء كل عربة . فقد كان كل جريح
مزودا ببندقية ، وحتى داشا اطلقت النار مقلصة عينها بكل
قوتها .

استدار القوزاق بافراسهم . ولم يقع الا واحد منهم تدرج مع
فرسه . وتراكضوا نحوه املين ان ياخذوا منه زمزمة الماء . وتبين
انه يضع كنانيتين فضيتين . سجدوا من تحت الفرس القليل فراح
يكرر مذعورا : «استسلم . . . استسلم . اعطيكم معلومات قودولى
الى الامر . . .»

انزعوا منه زمزمة الماء . كما وجدوا زمزميتين اخريين في عدل
السرچ .

- اجلبوه حيا الى هنا !

صاح امر السرية موشكين الذى كان يجلس في العربة مكسور
الذراع مضمه الرأس . . .

وقف الضابط الاسير امامه في هيئة استعداد . كانت له سحنة
وذبة قلما صادف ان راى مثلها : وجه مترهل ذو فم رخو وعينين
مبتتين . وكانت رائحته حريفة ثقيلة .

- هل انت نظامى ام من رجال العصابات ؟

- من وحدة غير نظامية مساعدة .

- اتقومون بالانتفاضات في مؤخرتنا ؟

- نحن بموجب امر الجنرال اولاغاي نقوم بتعبئة الذين انهبوا
مدة الخدعة . . .

وسارت العربات من جديد ، وسار الضابط الى جانب العربة .
وكان يرد ياحر استعداد وطوعية وبدقة . كان يعرف كيف يشتري
حياته ، والظاهر انه كان من رجال الاستطلاع ذوى النواية . سار
بعض المقاتلين الحمر بالقرب من العربة ليسمع ما يقوله . واخذ الرجال
يتبادلون النظرات حين تحدث عن دونيتس في رد على سؤال عسبن
تراجع الجيش الاحمر التاسع . وكيف ان فيلق الجنرال سيكرتوف
للخيالة قد احدث تفرة بين الجيشين التاسع والثامن ، وراح يغير على
مؤخرات الحمر .

- تكذب ، تكذب . لم يحدث هذا .

قال امر السرية موشكين ذلك في غير وثوق . ودون ان ينظر
اليه .

- ابدا . هذا صحيح . لوجو المعازرة : لدى نشرة القيادة
العليا . . .

تزلت ايسيا نازاروفا من العربة ، وسارت ايضا مع جماعة
المقاتلين الحمر بالفسرب من الاسير . قرا موشكين اوراق النشرة
المعرفة بالريح . وانتظر الجميع ما سيقوله . كانت ايسيا طوال
الوقت تبعد الرفاق بيدها الضعيفة لتترب من الاسير اكثر . فكانوا
يقولون لها : «ما هذا ؟ لا يوجد شيء يلفت النظر . . .» كانت قدمها
متقلبتين ، ورأسها موجعا ، وعينها كانتا ذر فيهما رمل جاف . لم
تستطع الوصول الى الاسير فلحقت برفاقها . وتعثرت وامسكت بعنان
الفرس ، واولفت العربة . لم يدرك احد في الحال ما هي مقبلة عليه .
انلعت رقبته ، ونظرت الى الاسير بعينها الشاحبتين الواسعتين على
كل وجهها المسود الناحل . وقالت :

- انا اعرف هذا الرجل ا يا رفاق ، ان هذا الرجل هو الذي احرق ولدي حيين ، وخربني ضربا ميتا . . . وجدد في قريتنا تسعة وعشرين رجلا حتى الموت . . .
اكتفى الضابط بابتسامه ساخرة ، وهز كتفا . واطبق المقاتلون الحمر في الحال ، ونقلوا اضرارهم بينه وبين انيسيا . قال موشكين :
- حسنا ، حسنا ، مستحق من ذلك . اذهب ، وانطرح على العربة ، يا عزيزتي ، اذهب . . .

كررت انيسيا ، وكانها في السماء :
- يا رفاق ، يا رفاق ، لا يجوز ان يترك حيا . انا افضل على ذلك ان تلعنوا قلبي . . . فتشوه . . . اسمه نيميشايف ، وهو يتذكرني . . . انظروا ، لقد عرفني !
صاحت فرحة مشيرة اليه باصبعها .

امتدت عشرات الاعدى ، ومزقت سترة الضابط القوزاقية المشبعة بالعرق ، ومزقت قميصه ، وقلبت جيوبه ، وصدقت انيسيا ، فقد وجدوا هوية عسكرية باسم امر السرية نيقولاى نيقولايفيتش نيميشايف .

ظل يكرر مدلهم السحنة :
- انا لا اعرف شيئا ، لا افهم . المرأة تكذب ، تهذى ، انها مصابة بالتيكوس .

عرف المقاتلون الحمر مأساة انيسيا ، وترجعوا في صمت حين تناولت انيسيا البندقية من احداهم ، واقرتت من ليميشايف ونسخت كتفه بيدها ، وقالت :
- لنذهب .

تلقت بوخسية في وجوه المقاتلين الحمر الرصينة وزفر وازاد ان يقول شيئا لوشكين الذي استدار عنه ماضيا في قراءة النشرة . وامسك الاسير بجانب العربة ، وكان في ذلك الانقاذ له . الا انهم فصلوه عنه ، ووعزوه في ظهره :

- اذهب ، اذهب . . .
عندئذ سار في السهب مذهولا ، غارزا واسه بين كتفيه ، متعثرا كالاعمى . وسارت انيسيا على بعد عشر خطوات وراه ، ورفعت البندقية الثقيلة ، وضغطت الاخص على كتفها :

- التفت نحوى .

التفت نيميشايف خفيف الحركة متهينا للفرق ، واطلقت انيسيا النار في وجهه ، ولم تلق نثرة اخرى ، وعادت الى رفاقها دون ان تلثت . وكان هؤلاء ينتظرون بلا حراك وبجهامة وهم يشهدون عملية اعدام محقة .

وقالت انيسيا :

- يا صاحب البندقية ، خذها .

وسارت نحو العربة الاخيرة ، وصعدت اليها ، واستلقت ، وتغطت بيدثار الفرس .

١٧

كانت كاتيا تصحح الاملاء في الدفاتر المدرسية . كانت هذه الدفاتر المقطوعة والمخالطة من انواع مختلفة من ورق الجنزان (كاتوا لا يكتبون الا على الجانب الخلفى منها) اجزاءا هائلتا في حياتها البائسة . ومن اجلها سافرت بمفردها الى كييف . كان الوصول الى مفوض الشعب لشؤون التعليم سهلا . حين علم المفوض بشخصيتها وبالسبب الذى جاء من اجله - امسكها من مرفقيها ، واجلسها في مقعد ، وسكب شاي الجزر من سخان شاي مسود موضوع على طاولة فاخرة ، وقدمه لها مع نصف قطعة من العليس ، وسار على اليساط جيتة وذهابا ملتقيا على كتفه معلقا قرانيا مرتديا حذاء لباديا ، وراح ينسط لها برنامجا للتعليم الشعبى بدير الراس .

- خلال عشر او خمس عشرة سنة ستكون بلادنا متعلمة ، وستنمى كروز الثقافة العالمية لجماهر الشعب - قال ذلك بابتسامه خيالية ماسا لحيته - امامنا عمل جبار في حق الامة . ان هذا العار يجب ان ينحى . انها قضية شرف لكل مثقف . . . يجب ان يفر الجبل الجديد بالتعليم من دور الحضارة ورياض الاطفال حتى الجامعة . . . نحن البلاشفة ، لن يعيقنا احد ولا اى شيء من التحقيق عمليا ما كان احسن من مثل مثقفينا يحلسون به قتل . . .

ووعده مفوض الشعب كاتيا بعشرة آلاف دفتر وكتب مدرسية وادبية والفلام والواح كتابية ، ولوحات للصفوف . وخرجت منه عبر درج مرمرى ، وكانها تحلم . ولكن بعد ذلك حصلت مصاعب

وتمقيدات . وكلما اقتربت كاتيا من الدفاتر والكتب المدرسية صارت هذه أكثر بعدا عن الواقع ، وأصبح الناس الذين يتوقف عليهم أمر تسليطها الدفاتر والكتب المدرسية أكثر موازنة وسفرة أو جهامة . وعادت كاتيا يائسة إلى غرفتها في الفندق ، حيث السرير بلا حشبة ، والمصباح الكهربائي العالي في السقف يبدو محترقا وبكاد يلفظ انفاسه ، وجلست في معطفها على أريكة متخلخلة .

ذات يوم دخل عليها الفرقة دون استئذان رجل ضخم في قبة شعته ، وسفرة محزمة جيدا ، ودخل الموضوع أسا ، وسألها بصوت أجش :

- ما ترائين هنا ؟ أنا أعرف قضيتك . ارضي الاستشهادات التي لديك .

وراح يفحص الوثائق وهو واقف تحت المصباح المحمر . نظرت كاتيا بوثوق إلى وجه الفكرة الثوي الجليل . قال :

- اوقاد . مخربون محتالون . . . لذا تعال في ساعة مبكرة لمقابلتي في لجنة المدينة ، سنفعل شيئا ، نفكر في شيء . . . إلى اللقاء .

وبواسطة هذا الرجل حصلت كاتيا من المستودعات على ورق الجدران ، والاقلام وعلى مكتبة كاملة مضادة من صاحب معمل سنكر ذواقة جمال كان ناصفا باللغة الفرنسية . ولعل أعجب شيء لها كان طريق العودة بهذه الكنوز في عربة بضاعة كان يندفع إليها في كل محطة فلاحون ملتحمون مخيفو العيون يحملون أكياسا . ولساء هالجات منتفحات كالإبقار بكل ما يعملن من الماكولات يخبئنها تحت الستر والتنووات .

وظهر أن لكاتيا شيئا من القوة . ليست هي قطيطة لا حول لها - ذات شهر هش وعينين جيبيلتين - ترسل صوتها الوائى عند أسرة الآخرين .

وجدت في نفسها شيئا من القوة منذ ذلك المساء الذي أعلن فيه الكسي خطوبته لها في غير توليق . نظرت كاتيا في التعممة المعدة لها كزوجة صاحب عانوت ريفي ، وتراجعت كرجل يرى في الطريق قبرا محفوراً له ، فيتوقف ، ويهتز استمرازا . لقد بدت لها عينها الكسي التهمتان المترعشان بالخبرة قبرا : الكسي رب البيت والزوج ا

واضطرب كل شيء في داخل كاتيا ، وتمرد ، وكان ذلك بالنسبة لها أكثر الأشياء مفاجأة وإبهاما ، مثل الاحساس بالقوة بعد مرض طويل . كما كان مفاجأة قرارها في الفرار إلى موسكو ، حين يكون الجو أكثر دفئا . كما وجدت في نفسها العيلسة لتخلي كل ذلك . فلم يلاحظ الكسي وماتريتا سوى أنها ابتهجت ، وأنها بدأت تعمل وتلنى .

أضحى الكسي الآن يفيز باستمرار سواء عند الغداء أو العشاء (وكان لا يرى في البيت في غير هذه الاوقات) : «خطيبتتسا هذه مرحة . . .» . وكان هو يبدو مبتهجا يصحوله على قرار من اجتماع القرية فك جناح ضيعة الامير ، ونقل خضبه وأجره إلى قطعة أرضه . حين استولى الجيش الأحمر على كييف في بداية كانون الثاني مرت وحدة عسكرية بقرية فلاديميرسكويه وكان الكسي أول من هتف للسوفييتات في اجتماع عام . ولكن الامور اتخذت اتجاهها آخر بعد وقت قصير .

جاء الرفيق باكوف إلى القرية . فصادر الدار الحنسة البناء التابعة لقس القرية ، ونقل القس وزوجته ليعيشا في الحمام . ودعا إلى اجتماع عام ، وطرح القضية على الشكل التالي : «الدين الجيئون الشعوب . ومن يعارض خلق الكنيسة يعارض السلطة السوفييتية . . .» وفي ذلك الاجتماع ودون أن يعطى كلمة لأحد اجري التصويت ، وعُضت الكنيسة بالتمسح . وبعد ذلك عزل العمال الزراعيين والمعدمين من الفلاحين والفلاحات - وكانوا زهاء اربعين في القرية - عن سائر الفلاحين الاخرين . وتظم من هؤلاء الاربعين لجنة الفلاحين الفقراء . وتكلم بحق دافق في اجتماع لها في بيت القس :

- الموجيك * الروسي وحش جاهسل - غاش الف عام في الروت . ليس له ولا يمكن ان يكون له غير العقد المكروم والجحس ، ونحن لا نثق بالموجيك ولن نثق به ابدا . سنستفك عليه ، ما دام سائرا معنا . ولكن بعد قليل سنكف عن ذلك . انتم - بروليتاريو الريف - يجب ان تتسلموا السلطة بقوة ، ويجب ان تساعدونا على قس جناحى الموجيك .

* فهدت استخدام اللفظة الروسية لرفع الانبياس بينها وبين كلمة فلاح التي لها لفظه اخرى مختلفة (اللا . - المترجم) .

واخاف ياكوف القرية كلها ، وحق اعضاء اللجنة . وكل كلمة تقال في القرية يعرفها الجميع ، وسرى تهامس في البيوت :

«لماذا يقول ذلك ؟ لسنا ووحشاً ، بل روساً ، ونعيش في وطننا ، وفجأة لا تجوز الثقة بنا .. ثم كيف تقض اجنعتنا ؟ قصوا جناح الكسي كراسيلنيكوف ، فهو ليس . قصوا جناح كوندراتنيكوف ، ولينتشيبوروف . ذلك حق ، لانهما معاصبا دعاء معروفان . . . فكيف يكسر جناحي عن قميص المالح ؟ لا ، ليس الامر كذلك ، خطأ . . .» وكان آخرون يقولون : « يا رب ، هذه هي السلطة السوفييتية . . . » وعندما كان ياكوف يخرج من الفناء لشأن من شؤونه السيئة فقرأ لم يعلق وجهه متذمراً بعيد ، في معطف جندي مزين ، وقبعة مغلوعة الظليلة - ولكنه في حذاء طويل جيد ، على اية حال ، والمعطف يخفي جيد اللباس - كان الجميع يراقبونه من التوافد ، وكان الفلاحون يهزون رؤوسهم في حيرة كبيرة ، وينظرون ماذا سيحدث بعد ؟ في آذار حين بدأ تقيل الروث من توه الى العفل دعا ياكوف الى اجتماع عام ، وطالب مهدياً مرة اخرى بتهمة معاداة الثورة بتسجيل رؤوس الخيل للفرد ، ومعاداة الخيول الزائدة ، واقامة استشارة جماعية على الفرض في ضيعة الامير . . . وقطع هذا الشيطان القذر اتصال الروث ، والحراثة الربيعية :

وبعد ذلك بوقت قصير وصلت الى القرية فرقة ترمين . وعرف في الحال ان ياكوف قدم لاعضائها قوائم لغنائس الحبوب ضخمة بحيث قيل انهم ينظروا ايديهم مندهشين . وطاق ياكوف بنفسه على البيوت ومعهم الشهود مؤثراً بالطباخيز على الابواب الكمية التي ستؤخذ من هذا البيت او ذلك .

وكان الفلاح يصرخ «في حياتي كلها لم تقع عينى على مثل هذه الكمية» وهو يحاول ان يمسح الرقم بكمه ، وكان ياكوف يقول لاعضاء الفرقة : «فتشوا في سردابي . . .» كان الفلاح يخاف ان يرسم علامة الصليب بحضور ياكوف ، فكان يشق فروته وهي عليه ذارفاً الدموع : «لا شيء هنا ، يا الهي . . .» فيأمر ياكوف «حطوا موقده ، فقد خبا شيئاً تحت الموقد . . .»

ونظمت جهود القرية الى الصفر ، وثقلت منها حتى تقاوى للحم . استلم ياكوف الكسي كراسيلنيكوف الى مكتبه في اللجنة ،

والتحق الباب الذي دقت عليه بالمسامير صورة رئيس المجلس العسكري الاعلى للجمهورية ، ووضع المسدس على الطاولة بالقرب منه ، ونظر ساخراً الى الكسي المتجم .

- حسناً ، هل تتبادل الحديث ؟ عندك حبوب ؟
- من اين لي الحبوب ؟ في الخريف لم احرق ولم ابلر .
- والى اين سفت الخيول ؟
- وزعتها على الضياع ، على المعارف .
- واين اخذت الفلوس ؟
- اية فلوس ؟
- المشهورة .

جلس الكسي مطرق الرأس ، سوى ان اصابع يده اليمنى كانت تنطوى وتنسبط دلالة على السماح والاعتذ . قال :

- سيكون هذا غير لطيف - حسناً ضريبة ، انها مفهومة . . . ولكن ذلك مثل امساك الانسان من رقبته ، وتخليعه لقميصه . . .
- سنضطر الى تحويلك الى اللجنة الاستثنائية . . .

ولكنني لا ارفض . الواجب هو الواجب . سأجلب الفلوس . عندما وصل الكسي الى البيت اندفع الى السرداب رأساً ، واخرج من هناك محفظات السفر وكرائب وصرر اقمشة . في احدى المحفظات كان يخفي الفلوس الصغيرة وقلوس الدون ، وقد حشرها في الجيوب تحت القميص ، واعطى محفلة اخرى لماتريتا مملوئة بعملة كيرينسكي ، فانها سقطت متاع لا تساوي شيئاً قالنا :

- خذها الى اللجنة ، وقول ليست عندنا غيرها . واذا لم يصدقوا ، وجاؤوا الى هنا ليرغموا شقاء السرداب لا تقاومي : القرى الساعات والبنائيل في البئر . وضمر القماش في العربة ، ونظفها بالثين ، وفي الليل خذى حسان الجد افاناسي ، وانقلبه الى ضيعة دميتريف ، سائظرك هناك .

- الكسي ، الى اين تنوي الذهاب ؟
- لا ادري . لا اعود في وقت قريب . وحين اعود ستسمعانني كلنا كما بطريقة اخرى .

سحبت ماتريتا متديلبها الصوق الى حاجبها ، ونظت باطرافه محفلة تقود كيرينسكي ، وهدمت الى اللجنة . التحق الكسي الياب

بالمزلاج ، والتفت نحو كاتيا التي كانت واقفة قرب الموقد . كانت
عيناه شامتتين ، ومتخراة متنفخين .

- ضمني عليك ملابس ادفأ ، يا يكاترينا دعيتريينا ، معظفا
فرائيا وجورين صوفيين . . . وفي الداخل ملابس دافئة . . . تم
اسرعى . . . ليس لنا وقت تضيقه . . .

وتنظر الى كاتيا موسعا عينيه ، وبدا وكأن شروا يقدح من حول
صدقته ، واحتر طرفا شاربيه القاسيان الكتانان فوق اسنان عارية .
اجابت كاتيا :

- لن اذهب معك لاي مكان . . .

- اهذا جوابك ؟ لا يوجد جواب آخر ؟

- لن اذهب .

تقدم الكسي منها ، وابيض متخراة المتنفخان .

- لن اتركك وحدك ، فلا تأمل ذلك . انا لم اطعمك يا كدبة
ليفستك شخص آخر . . . سيدة من خلوى . . . انا لم امسكك حتى
الآن ، وستائين ، ايها اليهينة ، حين الوى يديك وقدميك . . .

وامسك كاتيا بيدين حديدتين ، وشخر - اذ ضغطت كوعها
على لقاعة آدم من رقبته - وحملها بظلماتين الى السرير ، جمعت كاتيا
القوة التي لا تعرف كيف وانتها ، وغسلت نفسها مرعدة : « لا اريد ،
لا اريد ، وحش ، وحش . . . » ووثبت ، ولكنه سقط عليها من جديد .
وكان يشعر بالنقل والحز وهو في فروشه المحشوة بالنقود . واخذ
يضرب كاتيا خيط عشواء ، تحت كاتيا واسمها ، وراحت تكرر بكراهية
وحشيئة من خلال استنابها المصكوكة « افشلتني ، افشلتني ، وحش ،
وحش . . . »

تحرك المزلاج في الباب . وصاحت ماتريتا من الرواق « افتح ،
يا الكسي ! . . . » تراخسح عن السرير ، وامسك بوجهه .
اخذت ماتريتا تدق بقوة اشد ، ففتح الباب . قالت ماتريتا وهي
تدخل :

- احبتي . ارحل باسرع وقت . . . انهم قادمون الى هنا .

نظر الكسي اليها لعلته ، وادرك ، ولاح وجهه اكثر استيعابا
للامر . جمع صدر القماش والركائب وشخر . وركب الحصان الوحيد
المبقي في البيت ، وانصرف من الفناء الخلفي عبر نفور المسباح

الخارجي ، وهبط يعدو نحو النهر ، وعبر الى الجهة الثانية . واختفى
وراء الحرش .

بعد وقت قصير اخرجت ماتريتا من الصندوق ثنورة وبلوذة ،
والقنبا على السرير ، حيث كانت كاتيا ترقده ممزقة الثياب .
- البسي ، واذهبي الى حيث تشائين . انا انجول من النظر
اليك .

فتش ياكوف والشهود بيت الكسي من السرداب الى العلوية ،
الا انهم لم يجدوا الذي كان مخبئا في العربة . وفي الليل جلبت ماتريتا
الحصان ، وغادرت الى الشيعة . طلت كاتيا جالسة طوال الليل دون
ان تخلع معظفها في البيت العظيم البارد منتظرة بزوغ الفجر . وكان
عليها ان تقلب الفكر جيدا بكل الامور ، ستعادر ما ان يطلع الفجر .
الى اين ؟ وضعت كوعها على الطاولة وضغطت على رأسها ، واخذت
تنسج . فسدت الى الجردل عند الباب ، وشربت من المرفقة . الى
موسكو بالطبع . ولكن من بقي هناك من المعارف القدامى ؟ كلهم قد
تبعثروا . . . ولغمت على الطاولة ، وحين اخذتها ربة قويسة
واستيقظت ، كانت الدنيا قد تنورت . لم تعد ماتريتا حتى الآن .
سوت كاتيا المتدبل على رأسها ، ونظرت في العرابة على الحائط .
يا للقطاعة ! وذهبت الى اللجئة .

قضت وقتا طويلا على المدخل الخلفي تنتظر ان يستيقظ
الناس في بيت الكسي . واخيرا خرج ياكوف يحمل جردل الماء الفلتر ،
ودلغه على كومة ثلج وسخ ، وقال لكاتيا :

- كنت اتوى استعافك . . . تعالي . . .

وقاد كاتيا داخل البيت ، وطلب اليها الجلوس ، وبعث في جرار
الطاولة بعض الوقت .

- سنتزمي بالرضا من زوجك او لا اعرف من هو بالنسبة لك .
ودت كاتيا بسرعة :

- انه ليس زوجي . . . ارجو فقط ان توفر لي الفرصة للخروج
من هنا . اريد السفر الى موسكو . . .

كرور ياكوف ساخرا :

- « اريد السفر الى موسكو » وانا اريد ان اتفك من الرمي .
طلت كاتيا جالسة عنده حتى المساء واولوة له كل شيء عنها ،

وعن علاقتها بالكسى . وكان ياكوف يفرح بين العين والأخر مدة طويلة ، ويعود ليجلس مستلقيا ويدخن . قال :

- تلقى توجيهاً مفروضية الشعب للتعليم بشروية فتح مدرسة في القرية . انت غير ملائمة كثيراً ، ولكن على الأقل لتجرب . . .

وواجبك الثاني ان تغبريتى بكل ما يحدث في القرية . وستتفق فيما بعد على تفاصيل هذه المراسلة . واحذرك من العقاب الشديد اذا اخذت ثلثين بذلك . واصضح بان تنسى موسكو في الوقت الحاضر . وهكذا اصحت كاتيا معلمة دون توقع . خصص لها بيت صغير

فارغ قرب المدرسة . وكان المعلم السابق العجوز قد مات فيه في تشرين الثاني لاصابته بالتهاب الرئتين . وكان التيليبوريون الذين

اتخذوا المدرسة في وقت من الاوقات مقراً لوحدة عسكرية قد استهلكوا جميع الكتب والدفاتر وحتى الخارطة الجغرافية بلف

سيكارهم باوراقها . وكانت كاتيا لا تعرف الا شيء . تبدأ ، وذهبت لتستشير ياكوف . الا انه لم يعد في القرية . فقد غادرها فجأة مثلما

جاء اليها بعد ان تلقى برفقة رسالة بيد رسول خاص ، ولم يلحق ان يغير احداً غير الجد الماناسي الذي واح الآن يتردد على لجنة قراء

الفلاحين خائفاً ان يفقد لؤده :

- خبر الرفاق بان لا يتهاوتوا مع الفلاحين المويجيك ، ساعدوا واتحقق

وهذات القرية بعد مغادرة ياكوف لها . وكان الفلاحون لدى مجيئهم الى بيت القس يجلسون قليلاً عند مدخله ، ويقولون لاعضاء

الجنة :

- قسمت باشياء واشيياء ، يا رفاق . وكيف تتحملون المسؤولية عنها ؟ اي . . . اي . . .

وكان اعضاء اللجنة انفسهم يعرفون ماذا تعنى «اي . اي . .» وان القرية هادئة في الظاهر فقط . ولم يعد ياكوف وسرت سائعة عن الكسى كراسينيكوف تزعم انه جمع فضيلة في القضاء وتسلل الى

الانمان غريغوريف . وسرهان ما اخذت القرية كلها تتحدث عن غريغوريف هذا . الذي اصدر مرسوماً ، وهب للقضاء على السلطة السوفييتية . وعاد الناس من جديد ينتظرون تغيرات .

وعند العاملون في سوفيت القرية كاتيا بمساعدتها بشيء ما ، اصلاح الموائد ، ووضع الزجاج ، وقامت كاتيا نفسها بغسل ارض

المدرسة والتوافد . وصفت المقاعد المدرسية المغلخة . وكانت امرأة صافية الضمير ، وفي الامسيات كانت تبكي وحدها في بيتها

الصغير لانها كانت تفعل من خداع الاطفال ، اي شيء . كانت تستطيع ان تعلمهم دون كتب ودون دفاتر ؟ واي اصول الصلاح يمكن ان

تلقنهم ، بينما كانت تعتبر نفسها غير صالحة كلياً وجاء اليوم حين ارتفعت اصوات الصبيان والصبيات مرحة في بكرة الصباح قرب

المدرسة . واضطرت ان تجمع رباطها جاشها كلها . مشطت شعرها بتعومة ، وشدهته بعقصة قوية ، وغسلت يديها جيداً . وفتحت باب

المدرسة ، وايتستت ، وقالت للصبيان والصبايا الصغار الذين رفعوا اليها الوشم الصغيرة :

- على الرحب والسعة ، يا اطفال ، مرحباً . يكاترينا دعيتريشتا .

صاح الاطفال باصوات صافية رنانة مرحة حتى اصحت بتفتح من الصياح تسر على نفسها . اجلست الاطفال على المقاعد ، وضعت

المنصة ، ووقعت سبابتها وقالت :

- يا اطفال ، ما دعنا بلا كتب ولا دفاتر ولا شيء . نكتب به فساحدتمك انا ، واذا استصنى عليكم فهم شيء اسألوني . . . اليوم سنبداً برويك وستيوس وتروفور

كانت ادوات كاتيا المتزلية ضئيلة جداً . فلم ترد ان تاخذ شيئاً من بيت الكسى ، كما انه صعب عليها ان تلتقي بماتريش

بوجهها التحيل الكتيب . كانت في بيتها مكنتسة من العنايب قرب العتبة ، وقدردان فخاريان على الرف ، وحوض خشبي قديم للماء .

وكانت سلوونها حديقة صغيرة محاطة بسياج فيها شجرتا كرز ، وشجرة تفاح وعنب التعلب ، ووراء السياج يبدأ حقل .

وعندما ازهرت شجرتا الكرز اصحت كاتيا وكانها في السابعة عشرة من عمرها .

وكانت في العادة تهيئ دروسها في الحديقة ، وتقرأ الروايات الفرنسية من مكتبة صاحب معمل السكر ، وكثيراً ما تتذكر باريس في السندرم الازرق للاعوام الماضية . في عام ١٩١٤ كانت تعيش في

ماذا كانت تريد ؟ عفوت كاتيا عن غافريكوف بسرعة . ودخلت البيت . استقبلتها ماترينا بنظرة متفلسة غير لطيفة .
- هل سمعت ؟ الكسى في مكان قريب . . اسمعى . يا كاترينا .
لن أريد أن يتكرر ما حدث من قبل . انت لست منا . . . انه سيقتلك على أية حال . . اضعى وحشاً يسفك الدماء ! وانت مذبذبة في كل شيء . . . قبل برهة قال شخص أن الكسى قادم على عربات . . . ارحل . يا كاترينا عن هنا . ساعطيك عربة ولنودا .

كان لغاديم بيتروفيتش الوقت الكافي لمختلف الافكار خلال مكوثه في المستشفى في غاركوف . لقد وجد نفسه في الجانب الآخر من خط النار . وكان هذا العالم الجديد غير جذاب في ظاهره : دحمة غير مدقاة ، والثلج الرطب يتساقط وراء التوالف ، والطعام ردى - حساء رمادى اللون مع سمك - واحاديث المرضى اليومية عن الطعام والنتيح البيت وعن الحرارة وكبير الاطباء . ولا كلمة عن المستقبل غير المعروف الذى كانت روسيا تعدو نحوه ، ولا عن الاحداث التى تهزها ، والصراع الدموى الذى لم ينته والذى كان المشتركون فيه - هؤلاء المرضى والجرحى ذوو الرؤوس العليقة والمياذل القطنية المشخعة - يقضون اوقاتهم نائمين اياماً بكاملها ، او لايحيين على الاسرة بقطع الداما التى صنعوها بالسهوم ، او ان يلغى ابدعهم الفئحة شجبة يصوت خافض . لم يجتنب الناس غاديم بيتروفيتش ولكنهم لم يحسبوه من جماعتهم . فلم يكن امامه غير ان يعادت نفسه . لقد تراكم في نفسه الكثير مما لم يقب الفكر غير ، ولم بيت الراى ، وانتظمت عنه ذكريات جمة . مثلما تقطع من كتاب صفعلة في اشوق موضع . لقد قبل غاديم بيتروفيتش هذا العالم الجديد دون تردد ، لان ذلك قد حدث في وطنه . والان كان عليه ان يفهم كل شيء ، ويترى في كل شيء .

ذات مرة جلب كبير الاطباء اليه جرائد موسكووية . وقد قرأها غاديم بيتروفيتش بعينين مختلفتين كلياً . دون أن يهزأ بها بحيث مقصداً ، كما كان يفعل له انتشرت الثورة الروسية في السجر وفي المانيا وفي ايطاليا . وكانت سطور الجرائد مغممة بالجرأة والثقة والتفاؤل . ان روسيا المسحوقه بالحرب ، بالصراع الداخلى ،

صاحبة لباريس في شقة في الطابق العلوى تحت سقف متحن لها شرفة تطل على شارع هادى ضيق ، فوق سقف بيت صغير عاش فيه يلزاق في وقت من الاوقات ، وكانت نوافذ مكتبه لا تطل على الشارع ، بل على العداائق المتعددة نحو السين . وفي زمانه كانت هذه منطقة ريفية . وحين كان دائنوه يظهرون من جانب الشارع كان هو يبتعد عنهم عبر العداائق الى السين . والان صارت تلك العداائق مثلكا لامرأة امريكية تربية . وفي الاسميات ، حين كانت كاتيا تخرج الى الشرفة كانت تسمع الطواويس تصيح باصوات وببيحة حادة ، فكان يبدو لكاتيا - التى جاءت الى باريس بعد انفصالها عن زوجها - في وحشة وانعزال ان الحياة قد بلغت لهايتها .

احب الاطفال كاتيا ، وكانوا في الدروس يصغون اليها بانتباه شديد وهى تروى قصصاً من التاريخ الروسى تبدو كالحكايات . وبالطبع كانت مسائل الحساب وجدول الضرب والاملاء اكثر صعوبة بالنسبة للاطفال ، وبالنسبة لكاتيا نفسها ، ولكنهم تغلبوا على ذلك بالجهود المشتركة . وصارت معاملة اهل القرية لها افضل بكثير ، فقد عرف الجميع ان الكسى كاد يقتلها ، وكانت النساء يحملن اليها الحليب والبيض والخبز . فكانت كاتيا تفتت على ما يحملهن اليها . كانت كاتيا تصطح الدفاتر وهى جالسة تحت شجرة التفاح القديمة المغطاة بالصوفه . وكان حسى صغير ينتج منذ وقت طويل وراء السياج الواطى الواهن ايضا .
- يا عمه كاتيا ، لن افعل ذلك مرة اخرى .
- لا ، يا ايفان غافريكوف ، انا زعلانة عليك . ولا اتكلم معك

يوحى .
كان ايفان غافريكوف ذو العينين الزرقاوين اليربنتين كبير المشاكسة . كان يجرب الفتيات من ضلالتهم في الدروس ، وحين وبغوه على ذلك تتظاهر بالافشاء ، وهوى تحت المقعد . ومشاكساته الاخرى لا حد لها .
- لا ، لا ، يا غافريكوف . انا ارى تماما انك لن تندم على افعاك ، وانك جئت الى هنا لانه لا شيء لك تفعله .
- حق الا له ، لن افعلها مرة اخرى . . .
دخل شخص البيت من الشارع ، ونادى صوته ماترينا كاتيا ،

والمنظمة مقدما بين الدول الكبرى تأخذ بقيادة السياسة العالمية ،
وتصبح قوة يعتد بها .

اغذ فاديم بيتروفيتش بفهم الطمانينة اليومية لرفقائه ذوى
المبادل الرمادية ، فقد كانوا يعرفون أى قضية قد اجزت ، وانهم قد
استهوا في العمل ان طمانينتهم دائمة ثقيلة اليدين والقديمين
تأملية استغرقت خمسة قرون ، وما اكثر ما حدث في تلك المدة . . ان
تاريخ الشعب الروسى والدولة الروسية عجيب وله خاصيته . والافكار
الجارية غير المتخذة اشكالها تطوف فيه من قرن الى قرن ، افكار ذات
نطاق عظيم عن الحياة الحق . وتنطق بدييات خارقة جريئة تلتقي
العالم الاوربي ، وتنطلق اوروبيا بغير وشتق الى هذا العول الشرقي
الضخم والجبار ، والفقير والغنى غنى لا حد له ، المولد من بطونه
المعتمة توجهات بكاملها من الافكار والنظريات على نطاق البشرية
كلها .

واخيرا ان روسيا بالذات تختار طريقا جديدا لم يجريه احد
من قبل . ومنذ الخطوات الاولى يسمم العالم وقع خطاها على
هذا الطريق . . .

وطبعي ان فاديم بيتروفيتش لم يكن وهو بهذه الافكار ، ليعبا
لجداول المياه القذرة وراء النوافذ تحمل في الشوارع تلج اذار ، او
للمستخدم السويقي التكد المتسمر ذي الحذاء الطويل المتهرى . يجعل
كيس الطعام وصفيحة كروستين وراء ظهره ليشارك في اجتماع احدى
الهيئات التى لا حسر لها . ولم يكن ليكثر بالخساء الذى يجرحه ، ولا
يما فيه من سيم . ففسد كان يعضطهم بتفهاد الصبر ليعاون
بنفسه في هذه القضية بالقرب وقت .

بدأت اوكرانيا تظهر من البشليورين . وقبل مدة تصدرة استولى
الجيش الاحمر على يكاتريوسلاف . وما زال بشليروا متشبثا ببيليا
تسميركوف ، الا انه اخرج من هنا اخيرا ، فعبر الحدود مع فلوق وحدانه
اى غاليسيا . وكانت موجة واسعة من انتفاضات الانتصار قد سبقت
قوات الجيش الاحمر المهاجمة . وكانت تسعة نطاقها تصعب على
التعداد والسيطرة . كانت تتدلع كالحرائق في القرى والالاضية التى
يزقها صراع ضار بين الفلاحين ممن يشكلون قطعاً صغيرة من الارض

وبين الكولاك الاتوياء . وكان هؤلاء ، واولئك يشكلون الفضائل الخيالة
والمشاة التى كانت تشتبك في معارك دموية بكل خراوة . وكان العملاء
السريريون للبشليورين والدينيكين والبولونيين ولمنظمات سرية اكثر
غموضا يجربون في كل مكان متخلفين ومستغربين . وكانت السلطة
السوفييتية تقام في المدن وعلى طول الخطوط الرئيسية للسكك
الحديدية ، وعلى جانبي هذه الخطوط كانت العرب مستمرة على مدى
الاطلاق قذيفة من قطار مصفح .

واخيرا تلقى فاديم بيتروفيتش التعيين الذى انتظره طويلا - في
اركان لواء الطلبة المسكرين- كان تشوغاى مفوضا له ، وخرج من
المستشفى في اواسط اذار ، وهو ما يزال يعرج ويتكى على عصا ،
وسافر الى وحدته في كييف .

كانت عصاية زيلينى التى انفصلت عن الايمان لمرفوفيف
تقترب من كييف نفسها على مئات من عربات الرشاشات محطمة
سوفييتات القرى ومضيفة الشيوعيين . وقد خلف زيلينى وراءه
على طول الطرق التى سلكها اناسا مفلتة جلودهم ، واخرين ارمخوا
على الجولس على قرم حادة الاطراف . وكان يحرق اعضاء لجان قراء
الفلانين احياء في الامراء ، ويسمر اليهود بالسماير على الابواب ،
ويقترب بطونهم ، ويخيط قطة بها . وضعت خطة القضاء على هذه
العصاينة بمساعدة روتشين في مقرر مفوض الشعب للشؤون
العسكرية . ولم تكن القوات المخصصة لها كثيرة . خرج مفوض
الشعب للشؤون العسكرية لاوكرانيا من كييف على سفينة لويجه
العملية في مكانها .

كان الدنيسر ما يزال مشتلنا بالمياه . دارت ذوايب السفينة
في مياه صافية لا يعكرها غير دوامات دائية . ولم يستطع ضجج
الدوايب ، ولا اصوات الطلبة العسكريين ان تغشى على تفريد البلايل
على الضعاف المطرزة بالفضرة المتعاطرة اللزجة في بوادى الاوراق
والزغب والصفرة القائعة . وكان سطح السفينة حارا من وهج الشمس
التي نهضت فوق منبسط البهسان . كان فاديم بيتروفيتش يلف عنه
الحاجز ينظر في الماء المتلاقي .

لقد عاش فصول ربيع كثيرة ، ولكن لبذ الحياة لم يفر هذا
الفران في اعصافه لط . . . وفي وقت هو اقل الاوقات ملاسمة وابعدما
عن القبول . . . كان واسه غاملا بهوايس غير صافية . . . من
الخبر الا تبحت في جيبك عن سيكارة ، ايها الرجل الجاد ، ولا تقطب
حاجبيك ، ولا تنطش عنك المغائن المقبلة . . . هذا هو الغمضاش
الربيع ، يرتفع فوق مياه الفيضان ، فوق الجزيرات ، فوق البيوت
الريفية الغريقة وقد نفذت فيه الشمس الهائلة المتدلية ، وضوها
يرقد على الماء ، وعلى الاشجار واعكاساتها الشاحية الزجاجية ،
وعلى ظهور الابصار الداخلة في الماء حتى ركبها ، وعلى روبة
معشوشبة سعدت اليها احد الثيران ليشتعن في اعجوبة الربيع الغريدة
البر .

من الغريب ، ومن الغريب جدا ان كاتيا لم تحضر على بال روتشين
الا لقليل طيلة هذا الوقت ومنذ ان كان في يكاترينوسلاف . وكانها
رحلت مع ماضيها ، فقد كانت مرتبطة كليا بالحياة التي ينتقدها الآن
بشدة . . . حين كان فكره يعود الى كاتيا كان يعود لنفسه الى
روتشين ذاك الذي رآه مرة في مرآة العلق . حينذاك لم يكن له من
التفوق ما يكفي لاطلاق الرصاص على الصورة والبصق عليها على
الاقبل . بينما في امكانه ان يفعل ذلك الآن .

قبل ربيعين كانت عاطفته نحو كاتيا تيدو وكانها تملأ الكون كله ،
كل الكون خارج جيبته المجدد ، جيب رجل مبلبل ومتكدر بشكل
مبيت ، انذاك كان بحاجة الى حب كاتيا ، لا سيما في ساعة وحدته
في فندق يكاترينوسلاف ، حين كان ينظر الى مقبض الباب الذي كان
من الممكن ان يفتق نفسه منه . . . والان : لا حاجة له بها ؟
وكيف ذلك ؟ في روستوف خان كاتيا للمرة الاولى ، وفي يكاترينوسلاف
للمرة الثانية ؟

تطلع الى الضفاف المارة ، واستنشق بكل صدره الهواء
البليل المضعف بالمسل ، ولم يشعر بتأنيب ضمير ولا بندم . لا ،
لم تحدث شيانة في يكاترينوسلاف . . . فقد صفى هناك حسابه مع
الماضي . . . وكانت ماروسيا . . . تزمت باهتية قصيرة بريشة
عاطفية عن الحياة الجديدة ، عن هذا الفيضان الربيعي ، عن السعادة
التي لا تسبر ولم تلق .

جار التور الواقف على التل المشوشب ، وضحك الطلية
المسكرويون عند مؤخرة السفينة ، وجار واحد منهم محاكيا . الغض
روتشين عينيه ورعى البال . أمحا ان الموت ياس ؟ لقد كان موت
ماروسيا وضاه . لقد كان موتها بمثابة هتاف راحل للباقيين :
احبوا الحياة ، امسكوا بها بكل عنفوان ، واجعلوا منها سعادة . . .
انه لم يؤجل جهوده للبحث عن كاتيا . وبناء على طلبه ارسل
من مفوضة الشعب العسكرية الى اللجان التنفيذية في افضية
يكاترينوسلاف وغاركوف استفسار عن الكسي كراسيلنيكوف الا
انه لم ترد حتى الآن معلومات عن مكان وجوده . ولم يكن في وسع
قاديم بيتروفيتش الان ان ياقوم باكثر من ذلك . لقد كانت هذه
الساعات القليلة على ظهر السفينة هي وقت الفراغ الوحيد المتاح
له منذ شهر ونصف من العمل ثمانى عشرة ساعة في اليوم .

تقدم منه تشوغاي ومفوض الشعب للشؤون العسكرية . كان
الاخير رجلا تحيلا في سترة محزمة من الجنفاص له وجهه محمر من
الشمس وعينان نديتان كعيني السكران ، ورغم انه لم يشرب
الخمرة قط ، ويكره السكرارى حتى كاد يطلق النار على امر اللواء ،
وهو رجل طيب ، حين وجده في بيته مع زوجة من الفردكا . . . اشار
الى الضفة العالية حيث لاح برج جرس ابيض وقال :

- هذه قرى . . . كانت جدتي حين تسع صغير سفينة -
كانت عجوزا لا تهدأ - ترسلني في العال مع منقل مملوء بالاجاص
والكمثرى والجزر الى الرصيف لابنعه . . . ولكن لم اطلع تاجرا . . .
قال تشوغاي :

- اما جدتي فكانت تقيه . كانت تتردد دائما على الاماكن
المقدسة ، وحتى يلغى العاشرة كانت تأخذني معها للتسول . . .
قال مفوض الشعب دون ان يصغي :

- ثم اعطوني الى دكان حدادة لاتدرب ، ومن المحتمل انه
ما يزال هناك ، اسفل برج الجرس . وما زلت احب رائحة فحم
الخشب ، والغاز المتصاعد منه . وحينئذ كنت كفايتي من الضرب على
اللقا سافرت الى كينيف لاشتغل في مستودع القاطرات . . . هذا مما
حصل . . . ثم رحلت الى غاركوف ، الى مصنع ميكانيكي . . .
قال تشوغاي دون ان يصغي :

- كنت ماهرا في الغناء من انغلي في فناء الكنيسة - كنت اذا خدشت في مكان ما ، او الطخ وجهي بالدم ارفع عييتي - وانتد «الصلاوات» ... ثم كان يحدث ان اتغاصم مع جدتي على كوبيك - وكرر تشوغاي في سهوم :

- اتغاصم مع جدتي على كوبيك ...

ونظر الى الشاطىء الذي نتا الآن براس دار الدتيرير حوله نحو قبضة مقنورة بالماء - وتفرست عيناها الجاحلتان - وضرب بيده على قبضته ذات الشريطين ، وسار سريعا الى جسر القبطان - وصاح بالقبطان الذي كان عجوزا جاف العود مثدلى الشاريين :

- هاى ، يا جد - ابتعد نحو المروج !

- لا يمكن ، يا رفاق ، نحن نسير في الجزء الصالح للملاحة ، بينما الماء ضحل في العيسرة .

- لا تسر في الجزء الصالح - وضرب تشوغاي علسى غلاف مسدسه - استدر استدرة احد ا ...

استدارت السفينة حول الراس ، وشينا غسيتا تكشفت على الضفة المنحدرة قرية كبيرة لها برج جرس عال وطواحين وبيوت بيضاء ، وبساتين واطنة ذات خضرة لفضة .

كان ملغوش الشعب يقول لروتشين :

- انظر الى ذلك البيت الصغير الذي يرى وحده هناك ، يلوح بالكاد ، انه البيت الذي ولدت فيه .

صاح تشوغاي بلهجة جادة :

- هيا ، يا وياه ، ادر الدفة الى اليسار بعدة !

كسان جمح كبير من العربات يتق على الشاطىء ، وزوارق كثيرة عنده . وكان الناس يتزامون نحوها قافزين فيها ، بينما لحق احد الزوارق ان يتحقق - نزل تشوغاي السلم ، وسترتسه ترفرف ، وهبط الى ظهر السفينة - ازت طفقات من الشاطىء والزوارق مصوبة على السفينة في ان واحد تقريبا ، ولعلعلت الرشاشات من السفينة - وتناثر الناس من الزوارق الآنية واقعين في الماء - واضطرب الجمهور الزائف على الشاطىء متدفا الى عربات الرشاشات ، وعدا بها متعرا الغبار ، صاعدا الى الاعلى الى الشارع العريض . ودق جرس البرج دقات الإنذار .

لم يستمر التراسق والعدو لير يضع دقائق - وغلا الشاطىء -

صعد تشوغاي السلم وعيناه الجاحلتان تلمعان بمرح :

- انه زيليتى ! تسئل الى هنا ، ابن الكلبسة - يا قاديم بيتروفيتش يا لها من خطة للمحاصرة هذه ! حسنا ، ينا ملغوش الشعب ! لا يد من ان تلوم بانزال ...

واضطربت عصابة زيليتى في طوق الحصار مثل قطيع من الذئاب ، وضغطت اخيرا على سدة السكة الحديد تحت نار القطار المصفع ، وابتدت في حرش كثيف للجوز اندفعت اليه عربات العصابة آملتا ان تحدث ثغرة - وكان العقل كله قد حرق مقدما حطرا متفرقة فلطعت العربات الرباعية من حرش الجوز مزينة مذعورة بالرخاص والقنايل اليدوية - ارتدت الغيول التي في المؤخرة الى العربات ، وكسرتها وقلبتها - واندفع قطاع الطرق نحو الاجامت حيث كان الصوت بانتظارهم - ولم يحاول احد منهم ان يلتصق الرافة . وجدوا الامان زيليتى تحت كومة من عسايح العمام الماضى ، واخرجوه من هنا من قمعيه ، ودعش الطلاب العسكريون لانهم تصوروه عملاقا يتغر الذعر ، فاذا به نحيل مجذوب لا يستحق بصحة ، سوى ان عينيه الصغيرتين الناصلتين البغيضتين كانتا تمان عن اصله الذئبوى . لووا يديه ورجليه ليحلوه الى كييف حيا .

ومع ذلك فان احدى قصائله قد اخترقت الحصار في ناحية ، واتجهت نحو الشرق - ارسل ملغوش الشعب لملاحقتها فوجا مؤلغا من ثلثائة فارس ومعهم تشوغاي وروتشين . وبتات ملاحقة طويلة حذرة . كان قطاع الطرق يغيرون خيولهم في الضياع ، بينما سار الحمر في اترهم دون تغيير الغيول - وتبين ان قطاع الطرق يتجهون نحو قرية فلاديميرسكويه حسب ما رواه الفلاحون في قرية كان قطاع الطرق قد مروا بها قبل يوم واحد وصادروا الغيول فيها ، ونهبوا كل ما استطاعوا اخذه في مجالتهم .

وقال الفلاحون لتشوغاي وروتشين عند البئر حيث كان الفرسان يسبقون خيولهم :

- اقتضوا عليهم بأسرع وقت ممكن ، يا رفاق - نصارحكم باننا ضجرتا من العمليات العسكرية . ونحن نعرف اثمناهم جيدا ،

وهو من قرية فلاديميرسكويه ويدعى اليوشكا كراسيلنيكوف .
لقد كان فلاحا صالحا ، ولا جدل في ذلك ، ولكنه قسدا ، واضمح
عريضا ...

وهكذا وقع فاديم بيتروفيتش فجأة على اثر الكسي الذي كان
يلاحقه للاسبوع الثاني ، وقع على اثر كاتيا . واضطرب اضطرابا
شديدا . لم يعد يفصله عن كاتيا غير مسيرة يوم واحد . في اية حالة
سيجدنا ؟ معذبة متفجرة بشكل لا تعرف فيه ؟ بحيث لا يستطيع ان
يفعل سوى ان يضع رأسها الشاب على صدره ... الشاب ،
الشباب ... «حسنا ، يا كاتيا ، استريحى الآن ، سنعيش ، ويجب
ان نعيش ...» لا ، لا ، لا يعقل ان تكون قد اصبحت زوجة الكسي
الطبعة 1 والاكثر احتمالا ان يتوقف حصانه في نهاية مسيرة اليوم على
قبر كاتيا ... وربما ذلك افضل لها ... وتكون صورة كاتيا طاهرة
غير ملوثة ...

سار الفرج بسرعة في الطريق المترب . وكان فاديم
بيتروفيتش يتزلج على السرج . واحتضت صورة كاتيا وغامت
في ذاكرته الكالحة . سيعيدها الى حياته مهما تكن الحالة التي
يجدها فيها .

كانت البيوت المحترقة في قرية فلاديميرسكويه ما تزال ترمس
الدخان ، والاطفال ما يزالون ياتون لينظروا بقدر ابي برك الدعاء
التي لم يمتصها الرماد بعد ، والنساء مازلن في مخائهن في بيوت
الأخرين مرتجفات منتفحات الوجوه بالدموع حين اتهم تشوغاي
وروتشين القرية في تشكيلتين من طرفيها . ولكن كراسيلنيكوف لم
يكن هناك . فقد تبعه احد الناس فخرج مع شقائه قبل نصف ساعة
تقريبا من ظهور الحمر بعد ان لكل باعضاء لجنة فقراء الفلاحين ،
واعمل وشغاله الطمن بسببهم في سبعة عشر رجلا ، وجعلوا الجد
افاناسي تامن عشرهم لجزء اظهار الشقاوة .

كان حق الفلاحين عليه شديدا جدا حتى ان القرية طلعت عن
بكرة ابوها تقريبا ، واحاطت بالفرسان ، الذين كانت خيولهم تترنح
تحتم متعبة . وصاح الفلاحون :

- الحقوا به ، اقتلوا الكسي . فان قواه ضعيفة ، ولا
يملك عتادا ... لم يذهب بعيدا ، فنحن نعرف اين ذهب
اولئك الاوغاد ... تستطيعون ان تسكوهم بايدكم دون
سلاح .

سال تشوغاي :

- وهل تعلموننا شيئا مسترعبا ، يا رفاق ؟

- نعطيك ... لاجل ذلك لعطيك .

- كم ؟

- يمكن ان تجمع حسيين حصانا او نحوها ... اتركوا
خيولكم لنا ، وستبادل بعد ذلك ... يا الهي ، انه لا يتربنا
نعيش .

وبينما كانوا منتقلين بجلب الخيول ، ووضع السروج
عليها تقدم فاديم بيتروفيتش من النساء وليد الخطو . ولما راين
ان الرجل يريد ان يسأل عن شيء اقبلن نحوه . فقال فاديم
بيتروفيتش :

- كنت اعرف كراسيلنيكوف في الحرب الالمانية . كان له
اخ متزوج ، اما هو فيبدو لي انه كان اعزب ... فكيف هو الآن ؟
متزوج ؟

لم تكن النسوة يعرفن بعد ما يرمى اليه فقلن لهوقات :

- متزوج ، متزوج ...

- اي متزوج هو ! انها لم تكن زوجته ...

- حسنا ، كان يعيش معها فقط ..

- ليس كذلك ... ايها الفريق العسكري ، ساحكي لك ...
لقد كسب هذه المرأة من ماخو في لعبة ورق ، وجلبها معه الى هنا ،
وراد ان يتزوجها .. طبعاً قالت له : تزوجني ، ولكنني لم اتعود
على عيشة الفلاحين ... فقد كانت من الاعيان ، جميلة شابة ...
بينما الالمان احرقوا بيت الكسي في الربيع الماضي .. فانشأ بيتي
له بيتا ... ثم حصلت الامور مع ياكوف ...

تدافعت امرأت تالئة لتقترب من فاديم بيتروفيتش ، وكانت
اكثر معرفة :

- اسمع . ايها الفريق الأمر ، لقد ضربها ضربا شديدا ،

ولكن الشيطان اللعين لم يستطع ان يقتلها . . . وهي منذ شهر آذار تستغل معلمة عندنا .

- هكذا . اذن - قال فاديم بيتروفيتش ، وسعل - وهل هي الآن في القرية ؟

اخذت النسوة يتبادلن النظرات . عندئذ قالت امرأة رابعة اقتربت لثوبها :

- اخذها معه تحت الثين في احدى العريات ، ولا تعرف ان كانت ميتة ام حية . . .

كان صبي صغير ينظر بعينين مفتولتين الى روتشين - الى سيبه ذي القبض النحاسي ، والى جذائه المترب ذي المهماز ، والى الساعة الكبيرة في معصمه ، والى المسدس المثقل . وقد التى رأسه الى الخلف كليا لينظر الى وجهه ، وقال بصوت غليظ :

- آتون يكذبين ، يا عم . من لا يعرف شيئا عن العمة كاتيا .

الآن اعرف كل شيء .

وقالت صبية قبيحة نحيلة على شفها قرحسة كانت تلق وراءه :

- صدق به ، يا عم . هذا الصبي يعرف كل شيء .

- حسنا ، ماذا تعرف ؟

- ماترينا اخذت العمة كاتيا الى محطة القطار ، لم تكن العمة كاتيا راقية في اللعاب ، فبكت بكاء شديدا ، وكذلك ماترينا . . .

ثم قالت العمة كاتيا لي : « قل للاطفال انني ساعود . . . » وعندما دخل الكسي القرية مع عرباته غادرت ماترينا والعمة كاتيا من طرف القرية الآخر . وعندما صعدتا الى التل الزلتاني من العربة . . .

صاح تشوغاي :

- الى الخيول ! . . .

ولم يتح لفاديم بيتروفيتش الوقت ليمسح العذيت الى نهايته . غادرت الفصيحة القريسة على خيول مستراحة وعربات رشاشات . كان فلاح قصير دакن البشرة ، من اولئك الذين اضطروا

الى قضاء اليوم بطوله جالسين في البئر غاطسين الى سرورهم في الماء والطين يغب بحصانه الى جانب تشوغاي وروتشين واقفا مرفقيه .

وقد اعطى حصانه بلا سرج بالهيئة التي كان فيها حافيسا مزرق

القميص مقسى كله متفوش اللحية . قاد الفصيحة في حركة التلاف الى لغابة لاشجار البلوط ، كانت الطريق الوحيدة للشغاة في هذه الايام .

وصلوا قبل انقضاء النهار ، واخذوا يعيطون بالغابة تاركين مغرجا واحدا للشغاة ليتموا في كمين . كانت الشمس الواطئة تنفذ

باشعتها من وراء الاوراق الالامعة الى جذوع الشجر المعوجة . كان الحصان الذي ينتليه فاديم بيتروفيتش كثير الحركة ، يهز رأسه ويتوقف وبعض ركبته ، وضرب بطنه برجله . التي فاديم

بيتروفيتش المقود اخيرا ، وامسك التريونة بكلتا يديه على ايمه الاستعداد . كانت اشعة الشمس المبععة بسحب العوض الذهبية

تشمع الغابة وتشرطها ، فكان يصعب تبيان اي شيء الى الامام وعلى الجانبين ، حيث كان الطلبة العسكريون المترجلون يزحفون

يمينا ويسارنا في صف نحيل وهم يطاون العساليج المشخشة بعذر خلال الاجمات النامية والسرغس الطويل .

نبه الدليل الى انهم سيقعون في مكان ما هنا على كوخ حارس الغابة ، وعلى الطريق الوحيد الذي من الممكن ان يسلكه الشغاة

للنفاذ الى قلب الغابة . وقجاة ظهر للمعيان سقف مغطى بالصوف له حافة كالسرج على بعد خطوات من روتشين ، توقف فاديم بيتروفيتش

معدنا من تحت الاعشاب الكثيفة . وصفر صغيرا خافتا . كانت الافصان تتكسر بخشخشة اشد وعلى مسافة اقرب تحت اقدام

الطلاب العسكريين . همز الحصان من جديد ، وهر خلال الاحراش ، وشاهد الكوخ المتروك في فرجة صغيرة من الغابة كانت تقف بالقرب

منه بضع عربات محلوثة منها خيولها ، وتنتائر اسمال وخرق . لقد رحل الشغاة من هنا .

امسك فاديم بيتروفيتش قريبته في هيئة استعداد ، واخذ يدور حول الكوخ بعذر . وكان الكسي كرامينيكسوف يتراجع

امامه بعذر ايضا من ركن الى آخر ، وهو ينوي الاستيلاء على حصان هذا الفارس . تلمت روتشين ، وتوقف عند الحائط الجانبى . بينما

وقف الكسي عند الحائط الامامى يتقاذفه المعطلة وبابه المخلوع . ولكي يقوم بكل شيء دون ان يحدث ضجة امسك بسكينة فقط بهيئة

استعداد . وحينما خرج روتشين من وراء الركن ، هجم الكسي عليه

بسكينته الا ان روتشين استطاع ان يحس نفسه يقربينته ، وتب
الكسي الى الرواء فارتطم شهره بعناط الكوخ بشدة . وسقط السكين .
نظر الى فاديم بيتروفيتش ، وكأنه ينظر الى ميت يبعث حيا . وزعق
زعيق الهول ، ودكض منحنى القامة ، هازا ذراعيه بارتيباك .
- الكسي !

صاح روتشين ، وجذب المقنود وانطلق في الراء . وصل
الكسي الى شجرة ، والتي ذراعيه حولها فجأة ، وضغط وجهه على
جذعها . وتب روتشين من على السرج ، وراح يطلق الرصاص في
تسديد مباشر تقريبا على ظهر الكسي العريض المهتز .

- كانت تعيش هنا ؟

- اعا .

انحنى روتشين ، وتغلى العتبة الى كوخ صغير مائل ذي
نافذة صغيرة واحدة واطنسة جدا حتى ان الافطيون في الخارج كان
يغطيها تماما . راي روتشين دفاتر مصنوعة من ورق الحيطان وبعض
الكتب مرضوعة على متضدة صغيرة واطنة ايضا في الضوء المخضوضر
قرب النافذة . وكان احد الدفاتر مفتوحا وبالقرب منه مجبرة وريشة .
يعني ان كاتيا لحقت فقط ان تهرب بنفسها . قرص روتشين امام
المتضدة . غطى الطفل الصغير فبه يديه خلسة واخذ يكبت ضحكة .
ويصرى لروتشين بعينيه الى الموقد .

كان غراب قبيح صغير ذو عينين مستديرتين يلهواون يجلس
امام فتحة الموقد . ولعله سقط من المتخنة حيث كان عشه . ولما
راى الغراب الانتظار مصوبة نحوه تقفز داخل الموقد خافقسا
بجناحيه ليعين نفسه . قال الطفل :

- انها اربعة قربان قبيح هناك . وساسطادها كلها . . .
قلب فاديم بيتروفيتش الدفاتر الموضوعة على المائدة فوجد
دفتر يوميات كاتيا المدرسية ، حيث كانت تسجل فيه الدروس
وبعض الحوادث المعينة . وكانت كل يومية تقريبا تنتهي بما يلي :
«شاقب ايفان غافريكوف مرة اخرى . . . » او «انقطع على نفسي
هكذا بالا اكلم ايفان غافريكوف ثلاث ايام . . . » او «مرة اخرى

سار ايفان غافريكوف على حافة السطح ليخيف النبات . انسا في
يأس تام . . . »

سأل روتشين :

- من ايفان غافريكوف هذا ؟

- الا .

- ولماذا تشاقب ، وتزعج يكاترينا دميتريفنا ؟

زفر ايفان غافريكوف زفرة عميقة ، واكتست عيناه الزرقاوان
برامة تامة .

- يحصل . . . انسا مجتهد في الدراسة . . . انظر في دفاتر
الخط للنبات : خريشة . وهذا هو دفترى . مستنقص . وانا اعرف
جدول الضرب كله ، هل تريد ان تسأل ؟
وقلص عينيه بكل قوته .

- اصدق بك .

جلس فاديم بيتروفيتش على الارض وقد طوى رجلهيه ،
وواصل تقليب دفتر اليوميات . فلم يعثر فيه على كلمة عن كاتيا .
ولكنه احس وكان شباب كاتيا الدائم ورفتها النقية الواثقة بالآخرين
ينهضان من كل صفحة فيه ، وترات له يدها بعروقها الخفيفة
الزرقاء ، وعينها الدافئتان الصافيتان . . .

قال ايفان غافريكوف :

- تسعة في تسعة تساوى واحدا وثمانين ، اليس صحيحا ؟
- شاطر ، شاطر . . . اسمع ، ألم تقل لك ان اين سفارت ؟
- الى كييف .

- ربما تكذب ؟

- وما حاجتى الى الكذب ؟

- قد تكون لديها رسائل ودفاتر اخرى مخبأة في مكان ما ،
الا تعرف ؟

- كل شيء هنا . . . ساعدت هذه الى البيت الآن ، طلبت منى
ان احرض على الدفاتر ، والا فان الفلاحين سيلفون باوراثها
سيكاترهم .

قرأ روتشين في صفحة الدفتر الاخرة :

« . . . لا ادري لماذا انا مؤمنة بانك حية ، وستلتقى يوما

ما ... تصوري اني خرجت من ليل طويل طويل ... واود ان احدثك عن عالمي الصغير الذي اعيش فيه . توطنني الطيور وراء النافذة . فاذهب الى الجدول للاستحمام . ثم في طريق العودة اشرب الحليب عند العمة افاقيا . صرت مدينة لها يروبل وستين كويبكا ، ولكنها ستنتظر . ثم يتوافد الاطفال ، وندوس . ولا شيء يعيقنا ، وليست لنا اية هموم . تبين ان الانسان لا يحتاج ابدا الى ما كان يبدو لنا ضروريا ، ولم نستطع العيش بدونه . اشعر بالخجل الشديد حين اقول اني احس وكأنني قد عدت الى السابعة عشرة . وانا اعرف ، يا داتسكا ، انك تفهمين ما اريد ان اقول ... يضايقني فقط بعض الاحيان العصب العزيب على ايفان غاغريكوف ... انه فريد في ... "

واقطعت الرسالة عند هذا الحد لنفساد الفراغ في الدفتر . جذب فاديم بيتروفيتش الصبسي ايفان غاغريكوف . وحصره بين ركبتيه :

- ها بماذا تريد ان اهدى لك ؟

- طلبة .

- لا توجد عندي خرطوشة فارغة ...

- اطلق رصاصة . لنخرج الى الفناء .

نهض فاديم بيتروفيتش من الارض ، واطبق الدفتر ، واخذ يحشره وراء قميصه .

- سيأخذ هذا الدفتر . يا ايفان .

- لا ، ستوبيني .

- سارى العمة كاتيا قريبا ، واخيرها ياتني اخذته ... لنخرج الى الفناء لاطلق ...

كانت الشمس في الهواء الساكن تشوي شوارع تساريتسين المقفرة ، حيث كانت اكرام الفاذورات تتكدس عند مداخل البيوت يابواها المفتوحة على مصراعها . كان اهل المدينة مختبئين . وعلى منحدرات الفولغا فقط كانت العربات المثقلة بالممتلكات الحكومية

وارشيفات المؤسسات تدفع بضجيج . لقد كانت المدينة تعيش ساعاتها الاخيرة . وفي مشارفها كان الجيش العابر الذي استنزف كثيرا بعد مايتش لا يكاد يصمد لضغط جيش شمال القوقاس الحديث التشكيل بقيادة الجنرال قرانغل .

كانت محطة التلغونات ما تزال تعمل ، ولكن المدينة اضحت بلا ماء ولا كهرباء . وتوقفت المصانع . وفك كل ما يمكن ان يؤخذ منها وخلع وجمع وحمل الى رصيف النهر . ولم يسبق في المناطق العمالية غير الاطفال والشيوخ . فلم تكن بروليتاريا تساريتسين التي تحملت ضحايا فادحة في الدفاع عن المدينة خلال الشهور العشرة الاخيرة تنتظر رافة من البيض . فمن كان ما يزال ذا مقدرة انخرط في الجيش ليقاتل والاخرون سافروا على سطوح العربات وعلى ظهور السفن وبطونها . وكان الناس يرحلون شمالا الى مكان ما . وكانت مستودعات الاخشاب على سفة الفولغا تحترق ، وهدير المدافع يشتمه ويقترب اكثر فاكتر .

كانت كل حياة المدينة تتركز في محطات القطار وارضفة النهر . وامتلا شاطئ الفولغا بالاكياس والصدائق وقطع الآلات والمخارط ، وكان مئات الناس المتصبين عرقا يقلبون هذه الاشياء في صياح وسباب ، ويجريها على خشبات الصعود الى السفن . وكان آلاف الناس يقفون بانتظار الصعود الى السفن في صفوف كثيفة او يستلقون صامتين جياعا يعدقون خلال الغبار الساكن الى الماء المزيت الملتصق في اشعة الشمس . وكانت الفولغا العريضة في نهاية حزيران قد ضعفت حتى ان الجرف الرملي في الضفة الاخرى قد اقترب الى حد لا مثيل له ، فكان الناس يخوضون فيه عمراة ويسبحون فيه . كما كانوا يسبحون في هذه الضفة ايضا في الماء الفاتر بين المباني على الشاطئ ، ووسط النفايات العالمة ، ولكن حتى من صوب النهر لم تهب طراوة .

كانت المراكب المسلحة القادرة ترسو على الارصفة واحدا تلو الآخر ، وكانت ترتفع منها صيحات هادئة . كانت سطوح المراكب غاصة بالنازحين ومقاتلي الجيش الاحمر الاحياء وسط الجثث ، والمصابين بالثبوس المتوجعين المشتمين الهاذين . كانت عشرات المراكب والمقطورات تحتك بعضها ببعض وهي تنتظر

التفريع والشحن ، وتصفر صفرا مبهجا . وقد جاءت جميعا من الجنوب ، من استراخان وتشورتي يار .

كان رجال الاسعاف المخطون يبيع الكلس يركضون على ظهور المراكب ، ويتخطون عبر الرغيف الرافدين ، ويرفعون جث الموتى ، ويلقونها على الشاطئ ليوفروا مكانا للاحياء . كان الكلس يتناثر ، وحامض الكاربونيك يربش . وقد صدرت الاوامر بوضع الجثث في اكشاك بيع الرطبات والكماس . وبدأت الجثث تنتفع من الحر ، وتشتقت السقائف الخشبية المقامة على عجل ، ورائحة النتانة الغائفة بشكل خاص كانت تحمل الناس على مفاداة شاطئ تساريتسج . وكانت طائرات فرانغل تطير فوق المدينة كالظلال من خلال تقاب العيار . وكانت تلقى قنابلها على النهر . كان الناس يتسللون عبر نقاط حراسة الرصيف ، وركابهم تعلق بحراب الجنود الحمر ، ويهرعون الى ظهور المراكب . وكانت الصناديق والزكائب تنطير الى هناك مقرمة . فكان المركب يُسقل حتى يصل الماء الى مقربة من حاجزه .

بين هذا الجمع كانت عربة تقف على الشاطئ بالقرب من خشبات الصعود تماما وقد استلقت فيها انيسيا وادشا . وقد جلبها كوزما كوزميتش من الجبهة بسويج لمر صاروم لامر الفوج بان تجلس المرأتان لا عن طريق السكة الحديد ، بل في سفينة قطعا ، ولز كلفه ذلك حياته . قال تليفين له :

- يا رفيق تليفين ، انك لم تقم قط بهمة اكثر مسؤولية . الزلها في مكان الارساء ، واعتن بهما قدر وسعك . اسرق او اتل ، ولكن عليك ان تطمعهما جيدا . . . ستكون مسؤولا عن حياتهما . . . كانت المرأتان مستلقيتين في العربة على القش تغطيهما الخرق ، مثل هيكليين . وكانت انيسيا قد عادت الى وعبيسا ، ولكنها كانت واهنة بحيث لا تستطيع ان تفتح فيها . فكان كوزما كوزميتش يضطر الى ان يباعد بين صفى اسنانها باصبعه ليجعلها تشرب الماء الدافئ من زجاجة . وكانت داشا التي اصيبت بالتيفوس بعد انيسيا تهذى متممة دون انقطاع بصوت خافت غاضب .

* مشروب شعبي روسي غير كحول . (البيترجم)

حرت عدة مراكب دون ان يستطيع كوزما كوزميتش ركوبها . توسل والدعوى في عيته ، ولجا الى مختلف الحيل ، طالبا من الناس مساعدته في حمل المرأتين الى ظهر المركب ، ولكنهم في ذلك الوضع الصعب لم يكلفوا انفسهم حتى الاستماع اليه . انكا على العربة ، ومدق بعينين ملتفتين في ذلك السراب ، في انعكاسات الشمس المحمسة من خلال العيار على النهر الدافئ الوغرى ، والى المراكب الصاقرة يتفاد صبر محصلة بالجثث . وترامى من جديد هدير الحركات المتوعد ، واثارت القنابل التراب في هذه المرة على مسافة قريبة ، وغطى العيار الشاطئ كله .لقى الكتيرون انفسهم في التفرقا ، وسبحوا الى مركب مقبل صائحين : «القا الحبال . . . » الا ان الحبال لم تلق لهم ، فطلت الرؤوس تحوم طويلا قرب المركب مثل يطبخ اسود .

والآن لم يبق الا المركب الاخير تقريبا ، وهو مقطورة صفراء وأظنة ذات مراوح الدواليب المعوجة . لم تتجه نحو رصيف الرسو ، بل بالقرب منه ، الى رصيف خال من الناس . ادار كوزما كوزميتش العربة على الرمل العتيق ، وكان الاول في الوصول الى الرصيف عدوا وركض عليه ملوحا يلداعيه باستماتة :

- هاي ، يسا قبطان ، يسا رفيق - صاح بعجز مرید الهيئته من العهد القديم كان يقف على فنترة القبطان - معي زوجة قائد الجبهة واخته لاجلو بهيسا ، والتهانؤ في الموضوع يعرضك للرمي . ارسل لي اثنين من البحارة ليحملا المرأتين الى المقطورة . . .

وترك وجهه المنفعل وكلماته الحاسمة مفعولها . تخطى وقاد جهم قنر عاز الى النصف حاجز المقطورة ، ونزل الى خشبة الصعود . كان يرتدى بنطلونا مهلهلا :

- اين هما ؟
- لا تستطيع حملهما وحدك ، يا رفيق .
- وكيف لا . . .

تقدم الوقاد من العربة ، والقي نظرة الى المرأتين الرافدتين . وأشار الى انيسيا :

- اهذه زوجة قائد الجبهة ؟

- نعم ، هي ... وإذا حصل لها مكروه عوقب الجميع
بالرأي ...
قال الوفاة هادئا :

- لا تحاول ان تفشني ، انها طباحتنا انيسيا .
- ربما فقدت عقلك ، يا رفيق .. اية طبخة هي ا ...
- لا تصرخ بي يا مفلن .
واخرج انيسيا بسهولة من العربة ، والقاهما على كتفه ، وعدل
وضعا .

- ساعدني في اخذ هذه ايضا ...
حمل كلتا المرأتين بين ذراعيه ، وسار الى القطورة . انعكست
الالواح تحت ثقله حتى مست الماء .
سحب كوزما كوزميتش وراءه كيس الخبز وشحم الخنزير
المقدد ، وحقيبة الادوية وهو في غاية الرضا ...

في صباح الثالث من تموز اخرج ستيبان الكسيبيتش ، وهو
معلم مدرسة ، من مطبخ السرداب الى الفناء الصغير حشايا ووسائد
ومقاعد وثيسرة مفروشة بقماشية خضراء ، وورزما من الكتب
والمخطوطات . وحمل وهو يترشح اضعامة ملء ذراعيه من البناطيل
والستر المثربة والتنورات والفساتين الصوفية ، والتي كل حمله
على الارض ، وفتح له ماسنجا سيول العرق بكبسه . كان ميللا
بالعرق بكليته : شعره الاصفر ولحيته ، ويتلونه من قماش
القطب ، وقمصه المتسخ ، المتعلق مع حمالة البنطلون يدفن
كتفيه المكوثرين .

كانت امه المترهلة المرتدية ثوبا اسود تضرب سجادة بعضا
وهي جالسة على كرسي من الخيزران واخته المشلولة ذات الجبين
البارز يبيت يبدو سائر وجهها صغيرا متكشا تستلقى متلعة في
كرسي على عجلات في ظل شجرة الناسيا ، وكان العز شديدا حتى ان
العصافير نفسها كانت تفتح مناقيرها .

قال ستيبان الكسيبيتش :
- ماما ، هذا كل شيء ، على ما يبدو . ولن استطيع اكثر

من ذلك ! يا الهي ، كم سادفح الان لقاء قدح من البيرة المشلجة !
- يا ستيبان ، ليست عندنا قطرة من الماء . يتعين عليك
يا عزيزي ، ان تتناول الجردل وتذهب لملته .
- مستحيل ، يا ماما ! الا يمكن الاستغناء عن ذلك ؟ اما !
تلك هي اللعنة حقا !

ووقع ستيبان الكسيبيتش في يأس حاد . ان جلب الماء يعني
النزول الى شاطئ الفولغا ، حيث مسا تزال اكولم الرماد والجنث
المحروقة التي احترت في اكشاك الرطبات والكفاس ، ويعنى الدخول
في التهر الى الصدر ليصل الى ماء النطق . واغتراف جردل من الماء ،
وحمله على المرتفع خلال الرمل السميك في هذا الحسر
الجهنمي .

- لو استخدمنا احدا من الناس لدفعنا ، على ما يبدو عشرة
روبلات على الجردل الواحد . ان قلبي اتمن ، حسب ما اظن ...
- افعل ما تراه صالحا ...
- نعم ، ولكنك ، يا ماما ، تفضلين ان اجهد نفسي بهذه
الجرادل ...

لم تجب الام ، وتابعت ضرباتها الضعيفة على السجادة . اخذ
ستيبان الكسيبيتش يتنفس بعسر ، وهو ينظر الى وجهها الممثل
المخطط بخطوط العرق . سال خافت الصوت :

- اين الجردل ؟ اين جردلك هذا ؟
صرخ بالجملة الثانية بصوت تبيح ، حتى ان اخته المريضة
قالت متضرعة وهي في مكانها تحت الافاسيا :

- لا حاجة ، يا ستيبان .
- لا ، لازم ، لازم ! ساجلب لكما الماء ، وساجلب لكما
القصرينات ! وحتى آخر حياتي ساعمل مثل البغل الذي يجر عربة الماء !
ويلذهب الى الشيطان مستقبلي ، وتدبري في الحياة ، وطروحني !
كل شيء قد انتهى وتحلم ! فراغ مقمل ، جث محروقة ، مقبرة !
... لا دينكيين ولا غيره يستطيع ان يبعث شيئا ! ...
واخذ يقرع اصابعه الميللة بالعرق ، كما فعل ذات مرة امام
دانشا . وعزم ان يتخلص من جردل الماء بطريقة او باخرى . وفتاة
دق جرس برج الكاتدرالية الكبير رنانا بعد صمت دام اكثر من عام .

دق ، وسرى فوق المدينة المهجورة صوت مهتلل مهدى لكل
المخاوف . وتوقف ستيبان الكسييفيتش في منتصف الجملة ، ورف
هدوء مفاجئ على وجهه الناحل المرتعش ، بل لاح عليه قنبل من
البله بسبب ابتسامته . قالت الام :

- ستيبان ، على اية حال ينبغي عليك ارتداء اللباس الجيد
والذهاب لحضور القداس ايضا .

- انه لا يؤمن ، ملحد يا ماما .

قالت الامت الجالسة تحت الاشجار يبتحق غافت .

- وليكن . على الاقل ليتظاهرس ، فلا يصحبوننا من
الحمر .

صاح ستيبان الكسييفيتش بنكد :

- ما هذا الكلام ، يا ماما ؟ ما كدنا نتحرر من مسرات البلاشفة
حتى اخذت تدفعيتي الى مستنقع البرجوازية الصغيرة .. تماما ،
بالضبط ! - وكشر باتجاه الالاسيا ، حيث كانت اخته تغض
عينيها لكيلا تسمعه . وتابع قوله : - من يعتبرنى احمر ؟ اصحابك آل
شافيدوف ، وبريس ... البسوفة ، التافهون ... يا الهى ، ان
الزول الى مستواهم يعنى الضطرب على نفسك ذاتها ! لم تكن لنا
حاجة اذن الى التعلم والتفكير والتنى ! انا اكره البلاشفة ، لا لانهم
حسرونى في السرداب ، ولا لانهم اخذوا جميع اللحم من محلة اسالة
الماء ، بل لانهم داسوا على حريتي الذاتية . . . انا احب التفكير كما
يعلم ضميرى ، بعقريتى . وانا احب قراءة الكتب التى تلهمنى . ولكن
لا احب ان افرا كارل ماركس ، ولو كان على حق الف مرة . . . انا
هو انا ! . . . وبتفس القدر تماما لن القبل ، يا امن ويا اخى . يد
صاحبكما ويتبين . . . لنفس الاعتبارات تماما . . .

ويعد ان قال ستيبان الكسييفيتش كل ذلك بايمادات قوية
جدا في شمس حارزتها اربعون درجة مئوية . قام بلا تروابط كلنى
ايضا بسحب سترة طويلة وبطلونا من كومة الملابس ، ونزل الى
السرداب . وظهر بعد نصف ساعة في ملاسه الكاملة وفي قميص
مثنى ماسكا بيده قبعة رسمية وعصا . وبعد ذلك لم ينطق احد في
الفناء بكلمة واحدة . خرج ستيبان الكسييفيتش الى الشوارع وسار
في الجانب الطليل الى ساحة الكاتدرائية .

كانت اشجار الالاسيا الواطئة حول الكاتدرائية رمادية من
الغيار . وقد جلس تحتها بعض الاشخاص في ثياب مهلهلة . نظر
احدهم الى المعلم اثناء مرووه نظرة دعائية مصعدا بصره من الاسفل
ليتنفس في عينيه .

وقال بصوت عميق واضح :

- الوجه المدعش يزهر بعدد من التفورات السحرية .

وراء السياج كانت كوكبة من الخيالة القوزاق تقف مترجلة
في قصبان كاكبة ، بينما استلقت على العشب المسفوح حظيرة من
طلاب المدارس العسكرية في بزة الاستعراض التامة ، والمعاطف على
الاكتاف ، والقصعات والارفاش مقربة . . . وكان جمع من المدنيين
يقف على درجات الكاتدرائية . وقع بصر ستيبان الكسييفيتش على
تاجر الخردوات شافيدوف الجامل المتمسق في قميص روسى
مطرز ، ومعه زوجته وطفلاه ، وعلى بريس وهو صاحب مطبعة
صغيرة ضئيل الجسم مهمل الهدام كثير الحركة ، يهودى متنصر ،
ومعه زوجته والطفاله الستة . احنى ستيبان الكسييفيتش راسه
لهما بلا اهتمام ، ودخل الكاتدرائية الطرية الهوا . وجعلوه يسر دون
اعانة لسترته الرسمية بل وتحنى بعضهم ليقسح له الطريق .

على الرقم من ان اثار الالهال ما زالت تلوح على الكاتدرائية
وفي عهد البلاشفة استخدمت مستودعا للاطمسة) فقد كان زجاج
التوافذ الضخمة مهشما ، وبقيت على الجدران المسلوخة كتابات
من مثل «٩٤ كيس بطاطس . . . المسلم (غير مقروء)» الا ان الاله
الشموع العديدة على منصة الايقونات المذهبة ، والبخور المتصاعد
الى القبة ، وترديدات النحاس المتداح صداها كزئير الوحش تحت
عقود السقف ، واصوات الجوقة الطولية الغالية من الحرارة ، كل
ذلك قد ترك خليطا من الانطباعات في نفس ستيبان الكسييفيتش .
فقد احس بالهابة على مالوف العادة وفي نفس الوقت وبحكم العادة
ايضا عانى من الشعور بالضعة . فان ذليل المتكف البارز باستقلال
ذات قد انكسر بين رجلينه من تلقاء نفسه .

الى الالام ، كان الرؤساء العظام ، اصحاب السنوة يلقون
ووجههم الى المحراب : عشرة جترالات قصار وطوال ، همثلون
ونعاف ، في قصبان عسكرية ناصعة البياض ، وكثافيات ذهبية

وفضية عريضة ناعمة . وكان كل واحد منهم يمسك قبضته بيده اليسرى المطوية ، ويمسح بثلاث اصابع يده اليمنى على صدره مع ترديد الشماس : «لتصل للرب !» . وفي المقدمة ، وعلى يسار مفصول وثق جنرال متوسط القامة في قميص كاكي فضفاض ، ويتناولون طويل ذات شريط في موضع البروز . كان شعره نصف الاشبب المشط الى الخلف يبدو محكوكا عند الكفا . وكان يرفع يده الصغيرة المثلثة الشديدة البياض مرات اقل بكثير من الجنرالات الاخرين ، ويرسم علامة الصليب عريضة بيضاء ، واضعا اصمامة اصبعيه وسبابته بقوة على لفصون جيبة المنحدر قليلا .

وعرف ستيبان الكسييفيتش انه دينيكين . لغضبه منهم ، دون ان يرفع عن شفثيه الدقيقتين ابتسامته التشكك اللاذع ، ولكن عن غير وعي تماما في هذه المرة . كان احد الضباط يرتابه باهتمام ، وقد السبل مقتربا ووقف الى جانبه . كان ستيبان الكسييفيتش متفمرا باحساساته المتناقضة . وقد جذبته بشكل خاص يد دينيكين البيضاء تلك ، ومن لا يعرف يدى الجنرال ، ورخاوتها المتباطئة بشكل خاص ، والمرء ممسا حاول ان يستطبع ان يجعل يده هذه الامة الفريدة . وهذه المحاولات غير المجدية تجعل يد الجنرال مضحكة ، ولا سيما حين يدها الرئيس اليه متلفظا لتصافحها ، او حين يعطى اهمية لاصابعه الرخوة الشبيهة بالسجن ، وهو يوزع الرق على اللاعبين ، او حين يحترق الفتوة وراء ياقته . كل ذلك لا يقبل النقاش . ولكن يد دينيكين البيضاء امسكت بخناق التاريخ نفسه ، وحركتها ترسل الجيوش متدفقة الى الحركة الدامية .

وانقل ستيبان الكسييفيتش انفعالا شديدا بهذه الافكار حتى لم يلحظ كيف انتهت القداس ، وصعد الى المنبر فمسيس قصير القامة يضع نظارة . واخذ يتكلم ، وهو ينظر الى دينيكين :

« ان الامر التاريخي لزيعيما المحبوب القائد العام للقرات البيضاء لجنوب روسيا ، الفريق اتون ايفانوفيتش دينيكين قد طبع باحرف من نور في قلب كل ارثودوكس . والقائد العام يبدأ امره بالكلمات التالية : «بالنظر لان هدفنا هو الاستيلاء على موسكو ، قلب روسيا ، فاننى امر بيده الهجوم العام في هذا اليوم ، الثالث من تموز ... اياها السادة ، ان ذلك وكان السماء اشقت

فلونا ، وصوت القديس ميخائيل يدعو عسكريه الابيض الطاهر ... احس ستيبان الكسييفيتش بدغدغة في داخل افه ، وصدره يعلو ويهبط بسرعة تحت الفصيص المنش الميلل ، واستولى عليه الانشراح . وراى دينيكين يرفع كفه الى جيبيه ببطء . وادرك ستيبان الكسييفيتش فجأة انه يجب ان يقبل لمسك اليد ... وبعد بضعة دقائق حين كان دينيكين اول من قبل الصليب ، وسار جلس المنبر المروش ببساط بسيطا ذا لحة ومادية مثدبة مثل شيخ لطيف ، لمعرت النشوة ستيبان الكسييفيتش فتمتد منه متدفقا . تراجع دينيكين ، وحجب يده وجهه الذى تلوى بتقطيعة بالسة . وهرع الجنرالات لعجبه في الحال . وامسك شخص ستيبان الكسييفيتش برفقيه من الخلف ، وجذبه الى الاسفل بقوة شديدة حتى انحنت ركبتاه :

— اسمعوا ، كنت اريد ...

قلب الضابط الذى امسكه عينيه في وجهه :

— كيف جئت الى هنا ؟

— اردت ان اقبل يده فقط ...

— اين اذن الدخول ؟

وواصل الضابط دفع ستيبان الكسييفيتش نحو الجمهور دون ان يطلق قبضتيه عنه . وبالقرن من باب الفروج الجانبى دعسا الضابط بهزة من راسه طالبين فتين من طلبة المدرسة العسكرية يحلان بتدقيتين :

— خذ هذا الى امنية الموقع ...

« كما ترى ، اياها العزيز البجبل ايفان ابليتش ، اتنا وصلنا الى كوستروما لنفسها . ولم اجازف ان انزل في الطريق في اى مكان ، وحتى ليصنى نوفغورد لم تبد في مكانا مأمونا من ناحية الحوادث الطائرة العربية ، فنزلنا في ضاحية من كوستروما ، في بيت خشبي على الفولغا في حديقته العنبراء واشجار الحور . وكل شيء كما يجب ... والبلدة صغيرة طليقة تقع على تلال مثل روما ، نجدها ساكنة وثانية وهذا ما نحتاجه فعلا .

داريا ديميترييفنا تتماثل للشيفاء ، ولو ببسط ، وهي ما تزال ضعيفة جدا ، وانا اعملها كالأطفال الصغير من السرير واخرج بها الى الفناء ، وشهيتها ، على ما يبدو ، مثل شهية الذئب ، رغم انها لا تستطيع الكلام ، ولكنها عندما تريد ان تأكل تشير بعينها ... ولم يبق فيها غير عينيها ، على ما اعتقد - وجها صغير كقبضة اليد ، وغالبا ما تنبكي من الضعف - بلا صوت سوى الدموع تسيل على خديها . ظلت ثلاثة اسابيع تقريبا في حالة هذيان وانفاس ، طوال رحلتنا على الفولغا . وكان هذيانها مضطربا موحيا ، وروحها تصارع بلا انقطاع انبياح الماضي . هناك كنتُ ما ، بجواهر او شيء من هذا القبيل حصلت عليه بعد جريمة مزعومة . قد لعب دورا كبيرا في هذيانها ، مهما بدا ذلك غريبا . وكان كل الهذيان يتلخص في ان داريا ديميترييفنا كانت تتحدث بصوتين : احدهما كان يدين ، والاخر كان يبرر ، وهو صوت نجلى مولود . وما كنت اكتب لك عن ذلك لولا اكتشاف عرضي غير اعتيادي ...

لقد اتابني الجوع والذعر غير مرة ، وانا اراعي بشيات الامر الذي اصدرته باطعام مريضتنا جيدا ، وقد جعلت ذلك مهني الانسانية . ان الزمن مصيب . والناس اما يفكرون بمذاهب كبيرة ، ويحسون بمشاعر لا تقل عن الكثرة الاخرى راحة ، واما يخلصون جلدهم بكليية عارية . وكلتا العاليتين لتفتقران الى الرحمة الحياتية : هناك من تستطيع ان تعذبه ، وهناك من تستطيع ان تخفيه . ولكنك غالبا ما تفضل في تليين القلوب والتماس عشرة ابطال من الغضب بدموع الجوع وحدها .

بادلت كل التواضع الزائدة مما اخذناها معنا بالخير والبيض والسك . وكم من مرة وقعت في اقواء بيع معطف داريا ديميترييفنا السميك الذي عريت فيه من سامارا في الخريف . ولكنني امسكت نفسي ، لا بسبب الادراك السليم ، وانا انظر الى الخريف ، بل لان هذا المعطف قد شهد دائما في هذيان داريسا ديميترييفنسا كمتهم غير مفهوم لي ، ومعنى ذلك انني اضطررت الى اللجوء الى الجبل ، الى خداع النفوس المبالة الى التصديق ، والى السرقة المحضه . ومرة اخرى نلعت قراءة الكف . اصادف امرأة ريفية على رصيف النهر تحمل كيسا فاتر ثم معها وابحث عن نقطة ضعف . وهي موجودة دائما . فان

تجربة الحياة شان كبير . وادبر الحديث حول عدو المسيح ، والناس في الفولغا يتعدثون عنه كثيرا الآن ، ولا سيما الى الشمال من قازان . وهل نتعاجل الى الشيء الكثير لتخفيف امرآة بلها . ؟ احتاج الا لان اتال لغتها ، حتى يكون نصف كيسها لي ...

يوم امس فقط ، في صباح الاحد انشغلت في توضيب ملابس داريا ديميترييفنا . يبدو انني في كوستروما الشخص الوحيد الذي يملك بكرة خيوط كبيرة ، وهو امر لا يستهان به ، حتى ان الناس يحجون اليها لبيخوطوا زرا في بنطلون او ليرقصوا ... وانا اخذ على ذلك مختلف الماكولات دون خجل . كنت جالسا على مدخل البيت ، وقد نشرت معطف داريا ديميترييفنا ، وبطانته من الفانيلة المربعة كما تعرف ، على ما اظن . فيدور في ذهني : اخلع البطانة ، واصنع عنها تنورة رائعة . فان تنورتها القديمة مهلهلة كالمخال ... والبطانة الجديدة اصنعها من قماش اخر . وسحرتني هذه الفكرة فسالت انيسيا كونستنتينوفنا ، فقالت هي ايضا «ستكون تنورة جيدة ، فاخلمها .» فاخذت اخلع البطانة ، فاذا بالجواهر تندلع من هناك ، قيمة كبيرة ، اربعة وثلاثين حجرا ... وهكذا فان الهذيان تحول الى حقيقة ! وفي نفس اليوم عرضت الجواهر على داريسا ديميترييفنا ، وفجأة اراها تذكر ا ظهر في عينيها استعطف وفرح ، وعلى شفيتها شيء . تريد ان تقول ... لقد نسبت الكلام ... انانيت الى شفيتها المتعتين . فتمتعت بالكلمة الاولى خلال مرضها كله «ارمها ، لرمها ...»

انا بدون اشارتك ، يا ايفان ايليتش ، لا اجري على ان افعل شيئا . لا ادرى من اين لها هذا الكنز ولماذا يبدو كريها لها بهذا الشكل . وانا لا اعرف كيف انصرف ! فانا اخاف من الاحتفاظ به في البيت ، واعتبر رمية امرا غير معقول . حلفت لداريا ديميترييفنا بانني ركبتي زورقا ، وسبحت لمتصف الفولغا ، واقيت الجواهر فيها . فهذات في الحال . ولاح لمعان في عينيها ، وكانها تخلصت اخيرا من شيء لزوج .

اعفرتني ، يا ايفان ايليتش ، على كتابتي لك عن كل شيء . يمثل هذا الاسهاب . ولكنني دائما كثير الكلام ترارا . اعلمنا بطريقة من الطرق عن صحتكم ، وهل نلقى الشتاء هنا ، في كوستروما ، ام نساقي

الى موسكو؟ وانا باق على عهدي مخلصا الى آخر العمر لك ولدربا
ديميترييفنا . كوزما ليفيدوف . . . »

- جليت اليريسد معي - فقال سابوجكوف ، وصعد
الى العربية المستوعبة من الاغصان المضفورة واتخذ مجلسه على الشس
الى جانب تليفين قائلا - امثلك ، يا ايفان .
- كل ذلك معزول ، يا سيرغي سيرغييفيتش . لو كان الامر
بارادتي لقيت امر فوج كوتسلاين . اناس جدد ، وهووم جديدة ،
وليس ذلك كله في مسوري .

- لماذا تجعل من نفسك عجوزا ؟

- سينتهي ذلك ، تعبان بعض الشئ . . .

راح الحصانان يمدوان على الطريق الريفية ، كان جانبها العربية
المضفورة ان يهزان ، والى اليسار تلوح غابة بلوط والى اليمين ، في
حقل محصود كانت اكوام الحصاد المتصالية لا تكاد تلوح في الغسق .
وفي الجور راحة شس الفصح . وكانت نجوم المسطس تطلع .

- من سيكون رئيس الاركان في لواتك ؟

- سيعينون شخصا ما .

العرفت الطريق اترب الى الغابة حيث كانت تهب رطوبة خفيفة ،
وبدا الحصانان يحجمان . سال تليفين :

- لا توجد رسالة لي ، بالطبع ؟

- اوه ، اعذرني ، يا ايفان . لك رسالة .

كان ايفان ايليتش يجلس محتئ الظهر متعبا غافيا ، ولفجاة
دفع جسمه الى الامام :

- اوه ، يا سيرغي سيرغييفيتش ! اين هي ؟

نيس سابوجكوف في حقيبته وقتنا طويلا . اوقفا الحصانين ،
واشعلا اعداد الثقاب فهست واتخذت . اخذ تليفين الرسالة ، وكانت
من كوزما كوزميتش ، فقلبها باصابعه . قال سابوجكوف همسا :

- سمكة . كتابة كثيرة .

سال تليفين همسا ايضا :

- وماذا في ذلك ؟ اهو شي . سبي ؟

وقفز من العربية ، وسار الى حافة الغابة ، واخذ يكسر العساليج
بمعالجة ، واشعل يهود تقاب ، ونفخ على العساليج .

- خذ حزمة من الشس ، وستشعل في الحال .

وحمل سابوجكوف اليه حزمة من شس الفصح واكفها ، وابتعد
عنه . واشتمعت حزمة الشس على الفور . قرصش تليفين وراح يقرأ
الرسالة . راقبه سابوجكوف يقرأ ، ويمسح عينيه بكفه ، ثم يعود
للقرأة ثانية . القضية واضحة ، اذن . نشق سابوجكوف من افه ،
وصعد الى العربية ، واشعل سيكارة . كان العجوز الجالس على مقعد
السائق يريد ان يعود الى البيت بأسرع وقت فقال :

- اخشى ان تتأخر على الفطار ، والطريق بعد هذا سيكون
رعبيا بحتا ، ثم علينا ان نأخر على مكان لغرض فيه . . . نحن نضع
الوقت . . .

لم يعد سابوجكوف ينظر الى تليفين ، حين تقدم من العربية ،
ومالت العربية ينقله حين تساق عليها ، وسط على الشس . انطلق
الحصانان عدوا . كان درب الجفرة يمتد فوق رأس سابوجكوف على
مسافة ثلاثة ملايين سنة ضوئية . فرقت العجلة الخلفية المتراخية ،
الا ان العجوز السائق لم يعر لها التفاتا ، فلتكسر اذا كتب لها ان
تكسر . فنا في اليد حيلة . . .

قال تليفين بصوت مكتوم :

- ما اعظم قوة نفسها . . . صراع دائم من اجل إعادة القوى ،
من اجل النقاوة ، والكمال . . . انا منذهل تماما . . .

- هل هي حية ؟

- اها ، وما تظن ؟ انها في كوستروما ، وتتماثل للشفاء . . .
التفت سيرغي سابوجكوف نحوه بقوة ، وضحك الاثنان . دفعه

سابوجكوف بقبضته فدفعه تليفين ايضا . ثم قص عليه محتوى
الرسالة بالتفصيل ، تاركا قضية الجواهر قسط . انها نفس الجواهر
التي كنتت لايبها منها في الصيف الماضي ، حين كانت تصارع من اجل
الحياة بصورة سافرة ومحمطة نفسها في الوقت ذاته . والظاهر ان
داسا في ايام حيرتها تلك خاطت الجواهر في المعطف . ولم تذكرها مرة
واحدة لايفان ايليتش . ومن الواضح انها قد نستها وليس هذا بغير
عنها . نستها ثم تذكرتها في حالة هذيانها . وقلوبها «ارمها ، ارمها»

جعل الفاس تليفين تحتبس . . . بالطبع هناك الكثير من الغموض
بكتشف هذه القضية ، ولكنه لم يحاول قط ان يتوغل في فهم دائما الى
النهاية .

- هناك شيئا واحدا واضحا لي ، يا سيرغي سيرغيفيتش ،
هو ان اكون اهلا لحب امرأة مثل داشا ، مثلا ، انه مكسب كبير في
الحياة .

- نعم ، اسمك العظة كثيرا ، كنت اقول ذلك دائما . .
آه . كم يجب ان يرتفع الانسان دائما ، يا سيرغي
سيرغيفيتش ! وقد يسقط . . . وانت ايضا امن المحتمل ان تسقط ؟
- قضيت شي آخر . . .

- امن المعقول انك لا تحترق دائما الى العتور على امرأة مثل
داشاي ؟

- النساء لا يبلعن مثل هذا الدور في حياتي . . . انا انظر الى
هذه الاشياء ابسط بكثير . . . دون متاعب . . .

- كفاك حديثا معادا ! انا اعرفك . . . سيرغي سيرغيفيتش ،
حياتنا شائعة : التصرف الموت ، وكل شي منحصر في ذلك . ونحن
مديرو امورنا ، بل ونحن نحيا بكل ما في هذه الكلبة من معنى ا وفي
العلاقة مع النساء يجب ان تبعد كل الصفائر . . . ويجب الحرص على
الحب . . . وكن علي يقظة دائما ا هل جربت ان تحسق في عينين
محبتين ؟ تلك اعجوبة الحياة . . .

لم يجب سيرغي سيرغيفيتش . . . وبالتدرج انسرحت طاقته الى
قضاء كليا . و مرة اخرى نظر الى درب المجرة . وقال :

- في مكان ما في ذلك الجانب هناك تفرقة في الكون . مكان اسود
بلا نجوم ، له شكل رأس حصان . . . وهو في الصورة الجغرافية
مغيف جدا . وميائتي زمن تفهم فيه ببساطة تامة ووضوح ان الفضاء
اللانهاى لا يتفرع الرب . وكل ذرة من جسمنا هي الاخرى نظام نجمي لا
يسبر . وفي هذا وفي ذلك لانهائية . ونحن انفسنا لانهايون . وكل
شيء فينا لانهاى . وانا وانت نقائل في سبيل اللانهائية وضد
النهاية . . .

لاحت الى الامام ملامح مبهمة لاشجار ضخمة ، ولكنه تبين انها
اجسام واطنة عند الضامى* ، فاحت طراوة النهر . وانجذرت العربة

على المتحدر . وتهب الحصانان ، وحسما بصوت عال ، وخوضا في
الماء الضحل . قال العجوز :

- عسى ان لا تقع في حفرة .

الا انهم عبروا النهر الصغير يسلامة . . . وعندما وصلوا الى
الجانب الاخر قلن العجوز من مقدمه بغثة صبي ، وركض الى جنب
العربة هازا اللجام ، صائحا على الحصانين . انطلق الحصانان
على المرتقى الرملي وتوقفا لاهتين . صعد العجوز الى مقدمه .
لم يبق الا مسافة قصيرة للوصول الى المحلطة . التفت العجوز
وقال :

- لن يحصل على شي من كل هذه الامور . فقط ان يقتل
الناس عبتا . واهل قريتنا يقولون : انا في كل الاحوال لن ترجع
الارض التي اخذناها ، ولن تجدى القوة معنا . لا يقسه الامر الان ما
كان في عام ١٩٠٦ ، فالفلاح قوى ، ولا يهاب شيئا . في قرية
كولوكوتسييفكا - وأشار بسوجه الى الظلام - الفوا منشورات من
الطائرة ، وقراها الفلاحون . يعنى انه يريد ان يشتري الارض من
جديد . وصل الى هذا الحد . لم يعد يأمل بان نهيا له بلا ثمن . . .
لا بأس ، سننتظر : سيرحل من حيث اتى . . . آه ، دينيكين ،
دينيكين !

في الصباح وصل تليفين وسايوجكوف الى مقر قيادة الجبهة
الجنوبية في كوزلوف ، مملكة التفاح . تلك هي امنا روسيا ! بيوت
صغيرة ذات سطوح كالعة ، والجيرانيم في التوافة الصغيرة ، وعمود
متطاير من الغبار من تحت عجلات عربة متضعضة وهي تلث على
الطريق غير المستوى المرصوف بالحجارة على جانبيها اعمدة التلغراف
الموحشة التي تعلقت على اسلاكها مرق الطائرات الورقية ،
وكان مبنى بالاجر بظليلة ، وقد دقت على ابوابه خشبان
متصالبتان ، وفتاة حاقبة القدمين تعبر الطريق مذعورة وهي تجر
اخاها الصغير المعوج الساقين ، المترنح ، وحطام مهمل لبرج جرس
صغير مهدم بالقرب من مسلي عام في ساحة قلعة كانت من قبل
سوقا ، وهي الان خواء . ووراء الاسيجة المتزعزعة نصف المحطة
اشجار التفاح المنقلة بالثمار المحمرة والخضراء بلون الشمع . وفوق

البيساتين والسلموح يطير سرب مرح من الزراريب تظهر جميعا بطون اجنتها .

يبدو ان الناس هنا كان من الممكن ان يعيشوا خارج الزمن الكف سنة اخرى لو لم يقع هذا الحدث غير الاعتيادي ، الثورة ، وعلى كل حال لا يوجد هنا ما يحزن عليه ، فان الحياة مزيدة - فقط ان الناس ناموا كثيرا .

قال سابويجكوف ، وهو يهتز ال جانب تليفين في العربة المؤجرة :
- فقط فكر ان الثواني وراء البحر تتحول ال تقود ، والانسان يضغط في آلة حائلة ليكون ملائنا للنتاج ، والبضائع تنهال من المعامل كما في هذيان حمى ، ولزم الامر قتل عشرة ملايين انسان لتتابع جميع البضائع في فترة وجيزة . مدينة ا اما هنا فالطائرات الورقية تتدمل من اسلاك التلغراف . انظر ال ذلك الرجل في النافذة هناك يحك رأسه الاثمنت والنوم عالق في عينيه ونحن من هذه البقعة ذاتها نقلنا ال ما لا مثيل له ، تحقيق حلم الانسانية جمعاء تلك هي امانا روسيا ! اتمع عيشا ، يا ايفان الجرم مضمع برائحة تفاع قوية ، مثل رائحة التني قتيبة خيدا لو اعيش ال ذلك الوقت ! اشعر انني سأؤلف كتابا

اوصلهم العوذي ال مقر قيادة الجبهة ، وكانت طقطة الآلات الكاتبة تنسرب من كل نوافذ المقر .

عرف تليفين وسابويجكوف اثناء انتظارهما لدورهما في المقابلة ، كل الانباء العربية . وكان الوضع العام كالآتي : القوات العسكرية للقائد العام دينيكين توامسل الهجوم نحو موسكو بثلاث تشكيلات ، بعد توقف قصير . وجيش شمال القوقاس بقيادة فرانفل يتقدم على طول الفولغا قاطعا وسط روسيا عن مناطق الحروب - ما وراء الفولغا وسيبيريا - (وكان الجيش العاشر قد استطاع في تموز ان يفلت منه بعد ان ضمي بكامينشيف) والانماض سيندورين على رأس جيش الدون ، الذي اعاد تنظيمه بوغافينسكي اتمان الدون الجديد المشمول برعاية دينيكين يضغط باتجاه فورونيج يتقدمه فيلقان صداميان للخيالة بقيادة مامرنتوف وشكورو . وجيش المتطوعين بقيادة ماي - مايلسكي الجنرال الموهوب ، وان كان سكيريا دائما ، يقوم بهجوم على جبهة عرضة منطفا اوكرانيا من القوات الحمراء ، وفصائل الانصار ومستلطا

في نفس الوقت قبضته ، المتمثلة بفيلق الجنرال كوتيفوف على اوزيل وتولا وموسكو .

ان نجاحات دينيكين العسكرية واضحة وثمونه جيد ، وانواجه من المتطوعين رغم تلميعها الكثير بفصائل الفلاحين تقايل بشفة واقتدار . الا ان الشعور السائد في مؤخراته يزداد اضطرابا يوما بعد يوم (وهو يستهين بذلك بصورة خطيرة) - فكواين يريد الانفصال والاستقلال الكامل . وقد اضطر دينيكين لتثبيت سيادة الدولة الكبرى هناك ، ال شتى عضوين بارزين جدا في وادا كروبان . وفي تحريك مضادات دامية ، وقوزاق الدون حين اعلن الزحف على موسكو ضاروا يقولون : « لقد كان الدون الهادي لنا ، وسيتظل لنا ، فليستول دينيكين وحده على موسكو » ، والقضية الفلاحية في المناطق التي يستولى عليها جيش المتطوعين تحمل ببساطة عسكرية : بالعباب بالجلد . وحكام الولايات ورؤساء الاقضية والجنדרمة القيصرية يعادون ال مراكزهم والفلاحون يقطعون سبلمات باندتهم كما كانوا يفعلون في عهد الالمان وفي السنة الماضية ، وينتظرون الجيش الاحمر . اما ماخو فبعد ان تحايل لقتل بنفسه منافسه الرئيس الاتمان غريغوريف اعلن على الملا اقامة نظام قوضوي في كل مقاطعة يكاترينوسلاف ، وجمع زهاء خمسين الف من قطاع الطرق ، وهدد بان يقتلع من دينيكين ووستوف وتاغاروخ والقرم ويكاترينوسلاف واوديسا وظهر اتمانات خضر وهم نوع خاص من الاتمانات - هاربون مهوسون كانوا يهاجمون دينيكين في كل مكان اينما وجدت غابات وتلال .

عدل الجيش الاحمر خط الجبهة بعد التكتسات القاسية للجيشين الثالث عشر والتاسع والتراجع البطولي للجيش الثاني عشر من دينستر وبوخ . ومعنوته تحسن ، وقدراته القتالية تزداد لسبب وليس هو تدفق الشيوعيين الضخم من شرورفارد وموسكو وابانوفو والمدن الشمالية الاخرى ، وكان الرجال يتوعمون امر القائد العام بالهجوم المضاد من يوم لآخر .

بعد ان ثبت تليفين شعبيته الجديد كامر لواء مستقل ، وسابويجكوف كامر فوج كوتساليين عماد الاتمان في نفس اليوم ، واستغرقا الطريق كله في مناقشة الاخبار التي عرفاها ، وقد اتفق كلاهما على ان خطة دينيكين الشخصية صلبة في الفراغ . وانه لن

يستطيع ان يعيد في روسيا ما استطاع ان يخلقه في كويان في العام
الماضي . ففي كويان استطاع ان يدمر سوروكين ، اما هنا فعليه ان
ينازل ليتين نفسه ، والبروليتاريا الاصلية ذات التقاليد الموروثة ،
ثم ان الفلاح هنا عنيد معروف من احفاد الذين طردوا نابليون بالملحاة .

.....
- الزاوية الى الامام ! ارفع الغلاف !

تقدم حامل الزاوية الى الامام ومعها لاثونين وغاغين الوافقان الى
جانبه للحراسة . سلسم تليفين الفوج الى امره الجديد سيريغى
سيرغييفيتش سايرجوكوف ، وكان يادى الجد مستغرق الفكر مقطب
الجبين ، وحتى التورود المألوف قد زال عن وجهه الملوح . كانت في يده
ورقة خط فيها خطبة .

- يا رجال فوج كوتشالين !

قال ذلك ونظر الى المحاربين الحمر الوافقين بهيئة استعداد
والسلاح في ايديهم ، وكان يعرف كل واحد منهم ، ويعرف اياهم
ياى جرح اصيب ، وى هم يشغل باله . لقد كانوا رجاله الاقربين ؛
- ايها الرفاق ، لقد قطعنا معا اكثر من الف ميل في زمهرير

الشتاء وحضارة القبط . . . وتكلمتم بالمجد مرتين قرب تساريتسين . . .

ولا تراجعتم لسبب لا يخلصكم كيدتم العدو تمسنا باهتلا لقاء نصر

مؤلت واه . وكانت لكسم افعال معيضة كثيرة ، لم تذكر في بلاغات

مضخمة . وقد ضاعت التقارير عنها في خضم الالياه العامة . . . ولا

ياس في ذلك (ونظر تليفين يظرف عينه الى الورقة الموضوعه في

راحتة المطوية) احلركم من ان امامكم امعلا اخرى كثيرة ، فان العدو

لم يدمر بعد ، ولا يكلى صده بل يجب ابادته . . . في هذه الحرب

يجب ان يحرز النصر المؤزر ، ولا يجوز غير ذلك . ان الانسان ينازل

وحشا ، ويجب ان ينصر الانسان ، او لنضرب مثلا آخر : حين تطلع

سنايل القمح تكون لفضة رشوة ، ولكنها تشق الارض السوداء ،

تشق الصخر . وفي البذرنة النابتة تكمن كل قوة العياسة الجديدة

التي ستاتي ولا يمكن ايقافها . . . لقد خرجنا في صباح غائم بارد الى

القتال في سبيل نهار وضاه . بينما اعداؤنا يريدون ليلا داكنا ليلا

الشفارات . وسيتطلع النهار ، ولو تمزق العدو غيظا (ونظر ثانية الى

الورقة مشغول البال ودعكها) اعترف لكم ، ايها الرفاق ، اننى لست

فرحا ، وسافتقدكم كثيرا . انه لشيء كبير ان تقضى سنة كاملة معا
حول النيران هنا وهناك . سافادركم مردعا رايتكم القتالية . . . اود
واملب تكون دائما ان تقود فوج كوتشالين المجيد للانتصارات . . .

وخلع ايفان ايليتش طاقيته ، وتقدم من الزاوية . وامسك بظرف

قماشها الشاحل المتطب بالرصاص ، وقبله . وليس قبضته ، وادى

التحية العسكرية ، والعض بعينه ، وقلصهما بقوة جعلت كل وجهه

يتغضن .

.....

كان راس ايفان ايليتش يضح بعد التوديعات التي اقامها له

سايرجوكوف بالتعاون مع امراء الوحدات . جلس في عربة لفصان

مضفورة متابطا كيس المتاع (الذي كان يحتوى على قطة وكلب داشا

الغريجين الى جانب الاشياء الاخرى) وتذكر بمذوية الغضب العارضة التي

قيلت حول المائدة . وبدا وكان ليس في الامكان ان يحب الناس بعضهم

بعضا اكثر من هذا الحب . تعانقوا وتبادلوا القبل وتضافحوا بقوة .

آه ، يا لهم من اناس طبيين اصفياء مخلصين انهم امراء الوحدات

الشبان وشربوا نخب الثورة العالمية بكلمات بسيطة بل ومقتبسة ،

ولكنها قيلت بشفقة . وواتت احد امراء الكتائب ، وهو رجل متواضع

هادى ، ورغبة مفاجئة في ان يعتلى المائدة ، فقصده عليها ، ورقص رقصة

فوزانية عارمة بين عظام البطل المضفومة وقشور البطيخ . وضحك

ايفان ايليتش بكل قوته . اذ تذكر ذلك .

توقفت العربة عند مشافى القرية ، وتقدم ثلاثة هم لاثونين

وغاغين واذويشير ، وحيوه ، وقال لاثونين :

- اعتمدنا انك لن تنسانا ، ومع ذلك فقد نسيتنا .

- واكد غاغين :

- نعم ، لقد انتظركم .

- انتظروا ، انتظروا ، يا رفاق ، هم تتعدون ؟

- وضع لاثونين قدمه على عجلة العربة وقال :

- انتظركم . عشنا سنة واحدة سوية ، ووجب بعضنا بعضا

حياته . . . حسنا ، اذن وداعا اذا كان سنيان لديك .

وكان صوته حائقا مرتجفا .

- انتظر ، انتظر .

ونزل تليفين من العربية . قال زادويشير :

- ماذا تفعل هنا مع الشاة ؟ انهم صنف آخر ! هل ستعقر
اندامنا بالخيار الى الابد ؟

وقال لغالين وقد ابعث عيناه :

- نحن من رجال المدفعية البحرية ، فهل تجد مثلنا ؟

قال لاتوفين :

- عندما كنا في نيشني كنا اثني عشر ، فبقينا ثلاثة ، واثت

الرابع ... فاذا بك تجلس في عربة ، ومع السلامة . اما نحن فلنا

بشرا ، نحن ذوى المعاطف الرمادية ، نحن من سواد الناس ... كنا

معك ثم مضينا ... ولكن ما الفائدة من الكلام معك واثت سكران ؟

قال زادويشير :

- عندك الآن لواء ، يا ايفان ايليتش ، وستكون تحت قيادتك

مدفعية ثقيلة .

صاح لاتوفين :

- لتذهب ومدفيعتك الى جهنم . يمكن ان انظف المرحاض اذا

افتضت الضرورة ! ولكن بمن علي ان افقد انسانا ! ولتت بك ، يا

ايفان ايليتش ، واحببتك ... واثت تعرف ماذا يعني ان تحب انسانا ؟

فاذا انا بالنسبة لك غريبا . حسنا ، لنته الحديث ... ستفهم

البقية في الطريق ...

- يا رفائ - وحتى غدا الباحثة زايل ايفان ايليتش من هذه

الاحاديث - كنتم متسرعين في ادائتي . هذا ما تورته بالثبوت : ان

اسجلكم جميعا في مدفعتي حال وصولي الى اللواء .

تألق زادويشير وقال :

- شكرا على هذا .

اما لاتوفين فقد ضرب الارض بعذائه المهلهل شيئا :

- انه يكذب ! لقد لفق هذا الآن - ثم قال بلهجة اخف ، وان

هدد تليفين باصبع موعبة - الية وحدها لا تكفي ، يا رفيق ، لا

تستطيع ان تلعب بها بعيدا . ولو اشكر على ذلك ايضا .

ضحك تليفين ، وضربه على ظهره :

- يا لحدت طبعك ! كما انك لست شخصا منصفا ...

- ليذهب الانصاف الى الجحيم . فانا لا اتوى ان اخذع الناس .

ومن الممكن التسامح معك لسبب واحد ، لانك بسيط . ولهذا السبب

تحبك النساء . حسنا ، لا تزعل ، واصعد الى العربة - ثم امسكه من

كوعه بقوة ، وقال - اتعرف كيف يلقي الانسان نفسه على سيف

العدو من اجل رفيقه ؟ الم يحدث ذلك ؟ - وادار عينيه الرضاتين

المسعتين الباردتين والمضبوطتين عاطفلسة في وجه ايفان ايليتش

وعينه - الم تكذب ؟ ها ؟ الم تكذب ؟

قبط ايفان ايليتش ، وهز راسه قائلا :

- حسنا ، كذبت . واثتم فعلتم شيئا حين ذكرتموني . اشترتم

على بمرحج ...

- الآن ، تقول الشيء الصحيح ...

دندن لغالين :

- اتركه ... لا تثسبت به ... عدت لتكون ملك الطبيعة .

ودعهم ايفان ايليتش دون ان يقول كلمة اخرى ، وصعد الى

العربة ، وظل وقتسا طويلا في الطريق يبتسم مع نفسه ، ويهز

راسه .

كانت المسافة الى مقر اللواء المنفصل يمكن ان تستغرق في

الطائرة ساعة واحدة ، وعلى الحصان اكثر من اربع وعشرين ساعة

بقليل . ولكن ايفان ايليتش سافر بالسكة الحديد اربعة ايام متظفلا

من قطار الى آخر شجرا الى حد العيبوية في المحطات القذرة الغالية

من الطعام ، وبالطبع لم يجد عربة الصالون المنفصلة التي وعدوه

بها وعدا قاطعا ، واضطر ان يتطلع المرحلة الاضية من الطريق في عربة

مواش مملوءة الى النصف بطباشير لا احد يعرف لاي غرض يرسل في

مثل هذا الوقت . وفضلا عن ذلك وجد على احد الزوف مسافرا له

وجه سمعي كالجرة يرتدى نظارة انفية . وكان طوال الوقت يردد مع

نفسه مقاطع من اوبريت اوفينباخ : «لحم خنزير مقعد من تولوز ،

من تولوز ... سيكون عالجا بلا لبيد ...» . وحين بدأ الظلام يعتكر

اخذ يتشغل بالكاسه . ناقلا اشياء من هذا الكيس الى ذلك ، مخرجا

اشياء ليشمها ويحشرها ثانية .

كان ايفان ايليتش تعبنا الى حد الاعياء . واثنا قاعد يتشتم مميذا

بين روائح مختلف المأكولات . وحين بدأ هذا الوضوح يدق ببشلة

مسلوقة ناخرًا من انفه ويقتصرها ويأكلها لم يصطبر ايفان ايليتش فقال :

- اسمع ، يا مواطن ، بعد قليل سيكلف اللطاف ، فما عليك الا ان تنزل في الحال مع اكياسك هذه .

اوقف هذا تحريك فمه في الظلام على اللور ، ولم يبد حركة . وبعد قليل شم ايفان ايليتش رائحة سحج قوية قرب انفه ، ابعد ايفان ايليتش اليد الممدودة غير المرئية بحركة حاتكة .

قال هذا الرجل بصوت ناعم عالي التبرة :

- لم تفهمي شيئا ، ايها الرقيب العسكري ، لم ارد الا ان نتال شيئا من الشراب والطعام . آه - وآه ، واحس تليفين بالفه ثانية

ان السحج يمد اليه - اليوم ليس عندنا غير المبادئ ولا شيء غير المبادئ . ولكن ما علاقة المبادئ بسحج اوكرانيا ؟ مع التوم وشحم

الخنزير . وعندى خمرة - جرعة واحدة لكل واحد منا - وسكت منتظرا ، ولزم تليفين الصمت - اعدك تحسني مضاربا او مشتغلا

في السوق السوداء ؟ ارجو المعذرة انا فان . ربما نسيت بمستوى

كانشالوف ولا يوريف ولا ماموت دالسكي رحم الله روحه السوداء . كان مثلا تراجيديا عظيما . فنصورت نفسه . البهية - زعيم الفوضوية

العالمية ، وراق له ان ينهب بيوتات موسكو . وفي القمار كان من الصعب ان يكسب المرء في اللعب معه لقبى العالمى باشكيب

رازدورسكي لقب له صيت في الاقاليم . واسمى بيرز في عناوين ضخمة وانتظر ، لسيل تليفين يهتف : آه ! باشكيب

رازدورسكي ، بالطبع ، فرصة سعيدة ولكن تليفين ظل صامتا . -

مئلت موسمين في موسكو . في مسرح ارميتاج ومسرح كوروش واخذ فلاديمير ايفانوفيتش ليمعوفيتش دانشتنكو بعوم حولى . فاقول

له « لا ، دعنى ، يا فلاديمير ايفانوفيتش امضل حتى ارتوى ، نسيم خذنى وفي عام ١٩١٨ اقتنعتنا الموسم ب«موت دانتون» في مسرح

كوروش ، ومئلت انا دور دانتون ، اسم مزيج ، شخصية ياروة ، شفتان بارزتان ، تور ، وحش ، عبقري ، جنس ، حساس ياله

من تمثيل ! نجاح رائع ! بينما لا يوجد قود ، والظلام يسود موسكو ، ولا بيع في شباك التذاكر . ففتشنت الفرقة . وكنا خمسة تحولنا الى الاقاليم لنمثل «موت دانتون» كبلما اتفق . في موسكو منعنا

لوانتارسكي مفوض الشعب لتعليم من التمثيل ، فاخذنا حريتنا في الاقاليم . وفي الفصل الاخير حملنا المتصلة على خشبة المسرح ،

فصلت راسي عن جسدي والتذاكر تباع بسرعة ، ولا احسبك تصدق حين تسمع الجمهور يهتف : «القطع راسه مرة اخرى»

ومثلنا في خاركوف وكيبيف وكان الحمر مما يزالون هناك ، ثم في ارميان ، في سقيفة الحريق . وبعد ذلك في نيبولاف ، وخيرسون ،

ويكاتريوسلاف . وقادنا الشيطان الى روستوف على الدون . ومثلنا ، وكان النجاح هائلا . حتى ان احد الضباط اخذ يرمى من مقصودته على

وروسبير وفي اليوم التالي استعدنا عمدة المدينة ، وعرضت على وجهي حسب الطريقة القديمة قائلا : «ادع الله ليبارك القائد العام

ذيتكين ، لو كان الامر بيدي لشنتسك اخرج من روستوف حالا نعم ، حال الفن صعب الآن تنتقل من القليم ناه الى

آخر كالفجر ويذكورنا قد اضغى مرقا ، ومن العيب ان تضعه على مسرح وفي كوزلوف لم يسبحوا لنا في شحن المتصلة

باعتبارها شيئا لا تعرف الغاية من استعماله تفضلوا ! ليقلع راسي بقاس ! هل لديك علبة كبريت ؟ في امكاني ان اريك : راسي

موضوع في كيس . صنعه غازن ادوات التمثيل في مسرح «عالي» في موسكو . انه عبقري ثم تاتي الرقابة . تاخذ النص اليها فيظل

الرقيق يقرأ ويقرأ وتشرح له ان هذه حقيقة تاريخية فيعود لتقليب الصفحات «اين الايات على انها حقيقة تاريخية ؟» فتقدم

له عرضا ل«لوانتارسكي بيدي فيه اعجاب فيقرؤه ايضا ويقول «الا تستطيع ان تبتكر شيئا امرح من هذا ؟» وهكذا يخذل

اعصابك انا لا اعرف ماذا سيحصل لنا الآن نحن ذاهبون للشميل في مدينة «س» في قيادة اللواء المنفصل .

سال تليفين بصورة غير متوقعة له :

- واين فرقتك ؟

- في العربة المجاورة مع الديكور . وروسبير في الفاطرة ، وهو الممثل تينسكي . لا بد انك قد سمعت به طبعاً . احسن روسبير

في الجمهورية الممثلين على ذلك . انه يحصل على الكحول من تحت الارض . عبقري ! يركب القاطرة حالا فنسافر باطمئنان ما رايك

ايها الرقيق العسكري ، الا تاكل قليلا ؟ لا ترفض .

- ساكون معننا جدا - ونيش باشكين، رازدورسكى في الاكياس
 هاسا ومدعنا : « اين حشرته ... » ووقعت في يد تليفين بيضة
 وقطعة سنج وبقساسة وتابع باشكين، رازدورسكى قوله - حين
 تنتهي من التمثيل في مدينة «س» ستسافر الى موسكو ... شكرا ...
 كفانا تجولا ! في مقر تليفينى ، وفي فناء الدار رقم 5 ، اقام احد الارمن
 محلا لتناول الامطعة الخفيفة ، انه عبقري ! تجد التفاتك واللحم المقل
 مع البطاطس ، وكل ما تشاء . ورجال الميكسيا يلتشون كل يوم
 ما السبب ؟ لان جميع المترددين عليه تلوح منهم راحة الكحول .
 ويلتشون ، ولا يستطيعون ان يجيدوا كحولا ، ولن يجيدوا ... انه
 يحتفظ بصفحة في العلبة في الطابق الرابع مزبومة في ابواب الماء
 الفارغ . فينزل الكحول الى الاسفل ، الى محل الطعام حيث توجد خفية
 ومفسلة اعتيادية ، ولك ان تفتح العلبة ، وتصب لك قنعا من
 الكحول ، وتكون مرتاحا .

قال تليفين وهو يعضج السنج يثلثد شاعرا بعدوية من
 جرعة الكحول :

- سباحول ان ترتب كل وسائل الراحة . استريحوا وتمرتوا ،
 ولا تستعجلوا ، وقدموا لنا مرضا جيدا . ستكوتون ضيقو في
 مدينة «س» ، انا امر اللواه ...

فتعجب باشكين، رازدورسكى :

- آووو ! اذن فهذا انت ... وانا طوال الوقت انظر اليك ،
 واقول هذا هو حتفى ! كم اربعتنى ! اتكلم واتكلم ولا افهم لماذا لم
 اُرم من القطار ... يا عزيزي ، ستمثل لكم ، ستمثل من كل القلب ،
 كفنانين حقيقيين .

زل تليفين من العربة يحمل كيس متاعه . كان مصباح كبروسين
 مهشم يضىء بالكاد بضعة اشخاص عسكريين على الرصيف .
 - مرحبا ، يا رفائق - حيا ايفان ايليتش وتقدم منهم -
 انتظرون امر اللواه ؟ هذا انا ، تليفين . اعذرولى على هيتك هذه ...
 وصانحهم ونلثر بدعشة الى احدكم ، وهو رجل اشيب قصير
 القامة جاف العمود صارم ذو قياغة جيدة ... وحيشما ساروا عبر

المحلة الى ساحة مظلمة حدجه مرة اخرى من وراء كتفه بنظرة من طرف
 عينه ، ولكنه لم يستطع ان يبين وجهه . اجلسوا ايفان ايليتش في
 عربة ، فسارت به وقتا طويلا في حقل داسم تلوح منه راحة القاذورات .
 وتوقفت العربة عند بيت طويل كالسيف له سطح عال . وقد اعدت
 فيه لايفان ايليتش غرفة فارغة حديثة الطلاء . وقد وضعت على افرين
 الناقذة تسعة مضادة ومنح طعام مغطى بصحن آخر - القى كيس المتاع
 على الارض ، وخلع قميصه العسكري ، وتمطى ، وجلس على سرير
 ضيق مفروش بفراش نظيف ، واخذ يخلع حذاءه الملطخ بالطباشير .
 دق الباب دقة خفيفة . وفكر ايفان ايليتش بانزعاج : « كان
 يجب ان اطعم الشعمة في الحال . انهم سيأتون ، وتبدأ الاحاديث
 والساعة قد تجاوزت الرابعة الآن . اللعنة ... » ثم اجاب :

- نعم . ادخل ...

ودخل بسرعة ذلك الرجل العسكري القصير القامة الاشيب ،
 واغلق الباب من دونه ، وبحركة قصيرة رفع كفه المستقيمة الى
 صدره مؤدبا التحية العسكرية .

وقف تليفين على ساق الحذاء الطويل الذي كان قد خلعه الى
 النصف ، وقرس في هذا الشبيه ... وقال :

- اعذرني ، يا رفيق . حصل بعض الحرج على الرصيف ،
 ولكننى قررت ان اوجل التعارف والفضية كلها الى الغد ... اذا كنت
 غير مخطئ ، فانت رئيس اركانى ؟

اجاب العسكري بانتصاب ، وهو ما يزال واقفا عند الباب :

- بالضبط ...

- اعذرني ، ما اسمك ؟

- روتشين ، قادم بيتروفيتش .

اخذ تليفين يحوّل بصره فيما حوله في عجز من امره .

وقتح فمه وابتلع عدة جرعات من الهواه .

- اها يعنى ... - واشتج وجهه ، فتحول الى الهمس :

- قادم ؟

- نعم .

- افهم افهم غريب جدا انت من الحمير

انت رئيس اركانى .. رحمتك يا رب !

قال روتشبين بنفس الصلابة والجفاف :

- ايقان ، لقد عزمتم ان اتحدث اليك الآن ، لكي لا تكون في موضع محرج غدا .
- اها .. نتحدث ..

ليس ايقان ايليتش بسرعة هداه المخلوع الى النصف ، ورفق قيصمه من الارض واخذ يلجمه . ازل فاديم بيتروفيتش جيبته ، وتابع حركاته ، وكانه يراقبه بلا اى تفاد صبر ، ولا قلق .

- اغشى ، يا فاديم ، ان احدنا لا يفهم الآخر بعض الشيء .
- سنتفاهم ..

- انت رجل ذكي ... نعم ، نعم ... لقد احببتك بحرارة ، يا فاديم ... انا اذكر لقاءا قبل اكثر من عام في محطة روستوف ... لقد اظهرت شهامة كبيرة ... لقد كان لك دائما قلب حار ... آه ، يا الهى ، يا الهى ...

وشد حزامه ، ولوى ازراره ، وفتش في جيبه اما من قرط زهره ، واما ليؤجل قليلا حشمية حديث تقبل ..

- يبدو انك تمشي انسا قد تبادلنا الاماكن ، وان على ، بدورى ، ان اهدى عاطفة كبيرة ... ان مثل هذه العاطفة موجودة لدى نوح ، عاطفة كبيرة جدا .. كنا مرتبطين مع بعض اكثر من اى السائين آخرين ... ولكن ، فاديم ، ماذا تفعل هنا ؟ ولماذا انت هنا ؟ حدثنى ...

- لاجل هذا جئت ، يا ايقان ...

- جيد جدا ربما تظن اننى قادر على ان اغشى شيئا ... انت رجل ذكي ، فلتتفق : اننى لا استطيع ان افعل لك شيئا ... نعم هنا مختلفان بجدريا ...

وتجهم تليفين ، وصرف بصره عن روتشبين . اما هذا فقد سمع وابتمس .

- وراك شىء ما ... وذلك مفهوم ... والاشاعة حول موتك داخلية في هذه الخطة على ما يبدو ... حدثنى ... ولكن احذر من اننى ساعقلك ... آه ، كيف يحصل هذا ...

وهز تليفين يده علامة يأس منه ، ومن نفسه ومن حياته كلها التى اوضحت الآن محطمة . تقدم فاديم بيتروفيتش منه بحركة سريعة ، وعانقه ، وقبله من شفتيه بقوة :

- انت رجل طيب ، يا ايقان ... نفس بسيطة ... وانا سعيد بان اراك بهذه الصورة ... احببك ، لتجلس - وجذب تليفين الى السرير ، وكان مسا يزال فى عناده - لا تتصلب . انا لست من الاستخبارات ، ولست عميلا محسوسا .. فاطمن . انا فى الجيش الاحمر منذ كانتون الاول .

لم يكن ايقان ايليتش قد تخلص تماما من عزمه الذى هز كيانه حتى النخاع ، ولم يزال بين الشك واليقين ، فنظر فى وجه روتشبين الداكن الملوغ ، القاسم والرفيق معا ، ونظر فى عينيه السوداوين الذكيتين الجافتين . وجلس الاثنان على السرير وبداهما ما تزالان متشابكتين - واخذ فاديم بيتروفيتش يقص كل ما قاده الى هذا الجانب ، الى بيته ، الى وطنه .

وكان تليفين قد قطعها في بداية الفصة :

- واين كاتيا ؟ هل هي حية وفي عافية . واين هي الآن ؟

- آمل ان تكون كاتيا الآن فى موسكو ... تفاوتنا مرة اخرى . وصلت الى كييف في وقت متأخر ، قبييل الاجلاء .. ولكن وجدت اثرها ...

- وهل هي تعرف انك حي ، وانك معنا ؟

- لا ... وهذا الذى يخرجنى عن اطوارى ..

١٩

مضى شهران .

ولم يكن من الممكن ايقاف هجوم جيوش الجنرال دينيكين . وكان كورلتشاك حاكم روسيا الاعلى يضغط على الاورال باخر جهد مستميت . وفى منطقة البلطيق انالتت التواب على الجيش الاحمر السابع الذى تقهقر عبر الوحول اللزجة امام الجنرال يوديتش فاقدا بسكوف ولوغا وكانشينا ، فاصدر هذا الجنرال امره فى قواته «انتحام بتروغراد» .

وقطعت الجمهورية السوفيتية كليا عن مناطق الحروب والوقود . وكانت المواصلات لا تكاد تكفي لتقل القوات والغزوة . كانت سماء تشرين الاول تبرى على الارض الروسية . وعلى المدن الجامعة المشغولة ، حيث كانت الحياة تخمد في انتظار شتاء اكثر بعدا عن التفاؤل ، وعلى مداخن المصانع الخاملة والورش المهجورة ، التي تركها عمالها الى مختلف الجبهات ، وعلى مقابر القاطرات والعربات المحطلة ، وعلى السكون العريق للقرى ذات السقوف القشبية ، حيث لم يبق الا القليل من الفلاحين ، وحيث عادت المسارح ، كما كانت في زمن الاجداد ، وعاد التول البديوي يمدغم في بعض البيوت .
في ذلك الفصل الرديء الطقس اشترق الجنرال ماموتوف جبهة الجيش الاحمر للمرة الثانية وتوغل وبلغه القوزاق في غزاة عميقة محطما المؤخرة قاطعا جميع المواصلات .

كانوا في بيت الضيعة الذي اتخذ مقرا لهيئة اركان اللواء على بعد حوالي عشرة فراسخ من الجبهة . ولم يبق في كلا الفوجين الذين تسلمهما تليفين في آب ، اي قبل شهرين ، غير ما يقل عن ثلاثائة مقاتل ، اما الذين يرسلون للتعزيزات فقد كان من الصعب ان يسوا مقاتلين . فقد كانت القيادة العامة تشكلهم على عجل ، وبالدرجة الاولى من الهاربين من الجندية ، ملتطمة «الخضر» من المدن والقرى ، التي كانوا يأتون الى اليها خوفا من امطار الخريف . وكانوا يحشرون دون اعداد ولا تعيين في مداريا التعزيزات ، ويرسلون الى الجبهة ، حيث كان عليهم ان يتفقدوا مهمات مركبة لا تتحقق بدقة الا في حركة القلم الاحمر على خارطة العمليات في مكتب القائد العام الهادي المهيب .
- انا لا افهم - قال تشيستوكوف ونظر الى ظهر الورقة ، رغم انه لم يكتب عليها شي . - انا لا افهم الفكرة العامة ...

اجاب روتشين :

- وليس هناك شي لتفهمه . انه امر اكاديمي للجبهة . يبدو ان القائد العام اكل في فطوره بيضتين وشرب كوبا من الكاكاو ، ودخن سيكارة جيدة ، وتقدم من الخارطة . وكان رئيس اركانه ينتظر ان يزول في احد الايام هذا الكابوس المعين في قمضة عين ، كما في العلم ، فاخرج ياصعبه على الخارطة علم الاشارة الاحمر الذي يعلم فوجنا الـ ١٢٣ - وهو حسب معلومات قسم الملاكات مؤلف من الفين وسبعمائة محارب - وقرروا بحركة رشيقية الى بعد مائة فرسخ الى الجنوب «وبهذه الطريقة ، وبعد ان تحتل قرية درموفا ، ستهدد جناح العدو ...» ثم اخذ العلم الذي يعلم فوجنا الـ ٣٦ - وهو حسب معلومات قسم الملاكات مؤلف من الفين ومائة محارب - ونقله الى بعد خمسة وتسعين فرسخا الى الجنوب الشرقي «وبهذه الطريقة ستقوم الفرج التاسع والثلاثون بهجوم امامي ، وهكذا ...» عندئذ قلص القائد العام عينيه من خلال النخاع لينظر الى الخارطة ، ووافق ، لان رئيس الاركان ، على اية حال ، قد قضى الليل مترويا في كل شي ، وان الخطوط والنهائم قد شطت بدفة بالبحر الاحمر والازرق ، ولان النتيجة واحدة - مهما يكن موضع اعلام الاشارات - وهي اعاشي الحركة في الجبهة ... وهذا هو المطلوب ...
قاطعه تشيستوكوف وهو يهز راسه الكبير الاصلع :

كان تليفين وروتشين والموظف تشيستوكوف (وهو رجل جديد ارسل قبل فترة وجيزة الى اللواء ليعل محل ملوذه الذي اصيب بالتيفوس) متكبين على خارطة مطلقة لصحت بالحساب . كان تشيستوكوف عاملا من موسكو انهك صحته الاستغفال الشاقة في العهد القيصري ، وانحله الجوع ، وشاب قبل اوان الشيب . واح يمسد وجهه الصلحاء ، وكانه يحس بالم فوق حاجبيه ، ويقرأ للمرة العاشرة امر القائد العام عن العمليات .

كان تليفين يمس غلبونه . وكان في المدة الاخيرة قد ترك لف السيكار ، وتعلق بالقلبون الذي اهداه له لاتوغين وكان هذا قد حصل عليه من ضابط ابيض اثناء الاستطلاع . واصبح القليون لسرية ووسيلة للتهندة في اللحظات الصعبة - وما اكثرها في الايام الاخيرة - وكان اذا لم ينظفه مدة طويلة يصفر صفيرا مريحا كصفير السماور الموضوع على المائدة في امنية باردة .

انتصح لادام بيتروفيتش من النظرة الاولى كل ما ينطوي عليه الامر من هستيريا يائسة فكان ينتظر ان ينهي الموظف تأملاته في كتابة هيئة الاركان هذه متكلسا على الجدار مصنوع من كتل الخشب ، وكانت عيناه لتلمعان بعبث من تحت جلبتيه نصف المطبقين .

- اسمع ، ليس هذا نقدا ، يا اخ ، بل حقا . . .

- نعم ، حقا . . . ولماذا علي ان اسمت اذا كان هذا ما افكر فيه . وهذا ما يفكر فيه تليفين ايضا ، وما يفكر فيه مقاتلونا ، ويتحدثون عنه . . .

زفر تليفين زفرة قوية ، دون ان يرفع الغليون من فمه . وتضاعفت في نفس المفوض مرارة الشك والحيرة ، كل ما حاول ان يكيشه في نفسه . انه لم يتخلف عن العينة خلال عشرة اعوام من الاشغال الشاقة في العهد البصري ، بل ان احبائه كثيرة معقدة قد ظهرت فيهما ، دولامات ايضا يمت وجهك . . . وكان قلبه الذي طهرته سنوات العذاب يجد صعوبة في تقبل التشكك في الذين يقابلون في صف الثورة ، فكان يحب مثل هؤلاء الناس في الحال ، ولكنه كان يكتشف غير مرة ان بعضهم كان يظن الشر . وقد احب روتشبين ، لانه كان حادا مستقيما ولا يهاب شيئا ، حتى ولو وضعت بندقية بين عينيه . سال المفوض :

- وماذا يمكن ان يقول المقاتلون ؟ عن قريب سنوزع عليهم الستر المبطن والاحذية للبادية . فتدور احاديث اخرى . من الذي يهدر ؟ الهاربون ؟ ان المطر يندف الى عقابهم ، ويطولهم خالية ، فلماذا تصطك استناتهم . . .

سال روتشبين :

- عن سنوزع الستر المبطن والاحذية للبادية ؟

- مفوضية التموين وعدتني وعدا قويا . . . وقد رايت امر الصرف . . . وعدوني بالف وخمسائة مطة ، ونصف عربة من شعير الغنزير المقدد . . .

- ألم يعدوا يطبور محصنة من الجنة ؟

مدغم المفوض مع نفسه ، ولم يجب عن ذلك . وبالعمل لم يستطع ان يجلب اللوا غير وعود واوراق . وكان قد سافر الى سيربوخوف ، وتسامت في التلنول ، وقضى ليالي مؤرقة ذارعا حجراته من زاوية الى اخرى ، كمادته القديمة في السجن . . . لقد حدث شيء غير مفهوم ، فاينما دفعه فكره الثوري السليم وجد في طريقه عقبة مهمة تشريك كل شيء فيها واختلط .

سال المفوض :

- ماذا يقولون ، على اية حال ؟

نقر روتشبين ورقة الامر باصبعه محتدا :

- الامر يقول : ان تحتل قرية ميتروفانوفكا وضيعة دالني بيريئين ، ويحتفظ بهما . لقد احتلنا ذات مرة قرية ميتروفانوفكا وضيعة دالني بناء على امر القائد العام . وخرجنا منهما طالرين كاطلفة . وسيتكرر هذا بعدا فغيره بعد غد ، حين نندف ما كتب هنا .

- ولماذا ؟

- لانه . . . لان من التسجيل الاحتفاظ في هذا الموقع ، ولا ينبغي ان تقدم على ذلك .

قال تليفين هازا غليونه : صحيح .

- حيتي اننا اقدمنا على ذلك ، وخسرنا مائة مقاتل في هذه العملية . ولقدنا في جبهة البيض دون ان يكون لنا اتصال بقواتنا . عند ذلك سيطلقون علينا من اليسار واليمين ، فنخرج سراعا من هذا الكيس ، وفضلا عن ذلك سنسقط الى ان تعبر النهر ثلاث مرات حيث سنعرض للرمي عند العبور ، ثم هناك الارض المنبسطة حيث سيهاجمنا الغيالة ، والمستنقع حيث سيغطس نصف العربات . - ولكن هذه القرية وتلك الضيعة ضرورتان لنا في الخطة الاستراتيجية العامة .

- لا . . . انظر الى الخارطة . . . وهذا ما يقوله المقاتلون : لا توجد فكرة ولا هدف ولا خطة في كل عملياتنا خلال الشهرين الماضيين . . . نحن تراوح في مكاننا دون اي توقع مأمول . ولكيل ضربات لا معنى لها ، وتكيد سخائر في الرجال ، ونفسر الايمان في النصر . . . مسترى : اليوم ليلا سيفاندر يضع عشرات من الرجال الجبهة من تلقاء انفسهم . . . وبعد شهر سيحلبونهم البنا ثانية . . .

انا اتساءل : ما الذي حدث ، وماذا يحدث ؟ شلل !

قال تليفين بعد ان حشرج في غليونه :

- اليوم ابلغوني في كوكيتنا للخيالة - وانا لا ادري من اين يعرفون ؟ - ان امارتوف ، على حد زعمهم ، قد عبر الدون ثانية ، وهو يتوغل في مؤخراتنا .

اختطف روتشبين الأمير ، ومرر عليه بصره ، ثم القاه ، وانكأ على العائذ ثانية .

- محتمل جدا . . . وهذا الأمر خال حتى من التلميح الى ذلك . . .
ودخل المكلف بالحراسة وهو رجل كهل قصير القامة ملتج يحمل كيس عتاد قلدا :

- ايها الرفيق أمر اللواء ، بطلبوك على التلغون شخصيا .
نظر تليفين الى المفروض متدهشا ، والفر مطلقه على كتفيه
بمجاله ، وخرج . قال المفوض ، وهو يسمح جبينه مرة اخرى :

- انا صدق الانسان بك ، يا روتشبين ، فقد كل ايمانك . فما الذي يحصل ؟ هل هناك خيانة بيننا ؟

- انا لا افترض شيئا ، ولا اؤكد . ولكنني اعرف ان من المستحيل الاستمرار في القتال بهذه الطريقة .

- والامر العسكري يجب ان يتلذذ ؟
- نعم ، يجب . . . وسألتكده لدا . . .

فكر المفوض لحظة ، ثم ضحك بانتصاب :

- لعلك تبحث عن الموت ؟
- ان هذا لا يتعلق في المسألة كليا ، وابعد من ان يسبك . . .

وانا ، فضلا عن ذلك ، لا ابحت عن الموت . . . وحتى لو جئت اليها منذ فترة لا بأس بها لعرفت ، على اية حال ، ان اللوج لا يريد ان يتلذذ هذا الأمر . . . ولكن يجب ان يتلذذ . . . ان حياة الجيش هي في تنفيذ الامر الصادر اليه . فاذا اتفق ذلك كان مآله الى التحلل والفتور والموت . . . ساقرا الأمر بنسي ، وانود الفوج الى الهجوم . . . فاعتبر هذه العملية تجربة للتضيق . . . ولكنه الحديث بذلك . . .

عاد تليفين ، وجلس دون ان يخرج يديه من جيبه مطلقه .
وكانت عيناه مستديرتين .

- ايها الرفيقان ، رئيس المجلس العسكري الاعلى بطوف في الجبهة . وبعد ساعة سيكون عتدنا . . .

ومرت ساعة واخرى ، وتزل المطر رذاذا . وكانت كوكبة الخيالة في كامل نصابها ووحدة الموقع تصطفان في المرمى وراء بيت

الضيعة . وكانت قطرات المطر تلتصق على اعراف الخيول المتدلية ، وخصلها الممستطلة جيدا . وعلى معاطف الفرسان الناصلة اللون . وكانت الخيول تدوس الوحل يستابكها فتزداد شهبها بالخيوف المستخرجة من الماء ، فقد كانت ضلوعها بادية ، واكفانها تالفة ، واشفارها متدلية . وكان ايسرمان ، آمر الكوكبة ، وهو ملازم سابق في الخيالة القيصرية ، ذو وجه دمور ، وانف مرفوع كالف الصبي ، ينظر الى تليفين في ياس . فضيحة ا وعلاوة على ذلك ظهر من حيث لا يدرى جرو قلدر طويل القوائم وقبح امام الكوكبة يراقب مستغرقا بفصول رضى البال .

عش ايسرمان عليه هازا ذراعه ، الا ان الجرو وتر اذنيه فقط ، وعال برأسه الى جانب . وفي تلك اللحظة استدار الفارس المكلف بالاشارة ، والواقف على مرتفع غير بعيد بحصانه ولكزه بمجاله ، ويرتل في عذو سريع نحو تليفين نائرا الوحل .

لاحق مقدمة سيارة ضخمة لامعة يحف بهما مصباحان متتابعان صاعدة المرتفع في زاوية قائمة تقريبا ، ثم ظهرت السيارة مكتشوفة طويلة رعادية فاتحة .

اخذت الخيول ترفع اقدامها من هديرها الشديد وتهز رؤوسها . اصعد ايسرمان امره : «استعداد !» وتوقفت السيارة وهي تكاد تلمسح الجرو الذي لفز جانبها ، كتشلمة من القطر ، وقبح ثانية ، تقدم تليفين ، واما سيفه بالتحية معتارا حسبما اتفق احد الثلاثة العسكريين الجالسين في السيارة ، وكانوا جميعا يشعون غماطير صهباء فوق معاطفهم . نهض الجالس الى جانب السائق واشعا يديه على الزجاجة الامامية ، واستمع الى التقرير دون ان ينظر الى تليفين . ثم استدار نحو الكوكبة بحركة حادة . نهض العسكريان الجالسان في المقعد الخلفي - احدهما شاحب بلون الورق مبتدل اللحية ، والثاني منتفخ مثل منتفخ ضاري الهيضة - وادسا التحية العسكرية . واخذ الرجل يتحدث بصوت نابع دافعا رأسه الى الاعلى حتى لاح منغراه اسودين ، وواصلت نظارته الالفيه المبللة على قصبته انه :

- ايها المقاتلون ، باسم سلطة العمال والفلاحين آمركم بان تتحدوا سيوفكم اشد ، وتركزوا حرايكم بصلابة اعظم . من منكم لا

يريد أن يروي حصانه من مصب الدون الهادي؟ الجبان وحده لا يريد ذلك... لماذا ما تزالون هنا ، وليس هناك ؟ ان الجمهورية تتوقع منكم مآثر بطولية خارقة . قاتل الامام ! ادعوا العدو . وانتروا رماحه في سهينا الام ...

وظل يتحدث باندهاع اسمه على هذا المنوال . وانتهى من خطابه ، واجال بصره في الكوكبة ، وهتف «عورا !» رافعا فوق رأسه قبضته المطوية . فردد المقاتلون هتافه باصوات متناثرة . فقد اقلقهم خطابه . وكأنه وجل نازل عليهم من القمر . فوجدوا بان ينعثوا بالجباه . ولم يكونوا يتوقعون ذلك .

دعا تليفين يهزة من رأسه :

- لست راضيا عن وضع مقاتليك . انهم رعاغ على حيول ! ولست راضيا عن حالة حيولك . انها كدشمان لجر المربعات ! انبعث ...

وانهيد على المقعد قرب السائق . وانطلقت السيارة الضخمة من مكانها نحو الضيعة .

وتبعها تليفين على فرسه . متصورا في عجالة ان الامر ربسا يفسر احتمالا قويا برميته ...

توقفت السيارة عند مقر قيادة الميدان . ووصل تليفين وواصا وفي اثره تشيستوكوف ينط على سرج حصانه في غير اقتدار . وكان على مقعدة البيت جندي الخفارة على التفلون . وقد ادى التحية مرتبج اليد والفرع مرتسم على وجهه . وتوسل يمينه الى تليفين يطلب اذنا بالحدوث . وتكلم متلججا من الجهد ليلتزم بالرسيمات . وابلغه ان مقر اللواء قد تفلن يستدعيه قبل دقيقة (وكانت جميع اقسام اللواء وممتلكاته وخرائته والرضيقه في قرية فايفوروني على بعد حوالي اربعين فرسغا الى الشمال) . واستطاعوا ان يبلغوه بان دووية من البيض من رجال مايموتوف في الغلب الطن - قد هارت على القرية . وان الاتصال التلغرافي قد انقطع اثر ذلك .

زحف العسكري الممثل الجسم على ركبته لتليل الحركة - كان رئيس اركان القائد العام - وانحنى على المقعد الامامي . وانشد يمس لرئيس المجلس العسكري الاعلى . فجز هذا رأسه . وقال لتليفين عبر كتفه :

- مستسلم تعليماتي ببريد الميدان .
ظل تليفين وتشيستوكوف ينظران طويلا بصمت وذهول الى الطريق الاسود الذي انطلقت فيه السيارة الشبيهة بالغول وذابت كالشبح في عممة المطر .

اشتغلت داتشا في قسم تحسين الارض التابع للجنة التنفيذية كمساعدة ثانية لرئيس «مكتب المشاريع» . كانت في بعض الاحيان تقوم برسم البيع بالالوان المائية على خارطة ولاية كوستروما في الاماكن التي يفترض ان تجلب مستنقعاتها للحصول على الفحم النباتي وغام المستنقعات بكميات لا تنفد . وفي احيان اخرى كانت تستنسخ القوائم التي يعدها المهندس قريبوسولوف ليجهل اللجنة التنفيذية في حالة دائمة من التائر العصبي بشفاعة مشاريعه الغريبة تماما في واقع الحال . لان القسم لم يكن يحوي غير صندوق الاصباغ وبعض الفرش وكمية غير كبيرة من ورق وتمان . فلا ارفاش . ولا عربات . ولا حيول ولا مضغبات ماصة . ولا نفود . ولا ابد عاملة .

وحصلت داتشا على جراءة - هي ربع رطل من الخبز المغلوط باللش . واماينا بعض اوراق الغار او حب الغلغل . وكانت ايسيا تشتغل مراسلة في اللجنة التنفيذية . وكانت تحصل على جراءة اكبر لخدماتها القتالية . فالى جانب ثمن رطل من الخبز والغلغل كانت تتلقى سمكة ونصف من السمك الجفف . واماينا سمكة رنجة صغيرة بدون الصدا .

وكانت ايسيا الى جانب عملها الاصلي تعمل في حلقة التمثيل للهواة . وتتردد لسماع المحاضرات المبسطة في كلية الاداب والتاريخ التي اجليت من قازان الى كوستروما . وكانت ايسيا تنظر بترفع بالغ الى واجبهيا المباشر - ومع الجلوس في مقعد متداع عالي المتكا عند باب نائب رئيس اللجنة التنفيذية - فكانت اما ان تلطوق رأسها لتضم اذنيها باصبعيها . وتحنن نحو ركبتيها وتقرأ تراجميات شكسبير . وحين كانت تستدعي . كانت تحجب بفسهوم : «الآن . الآن .» بل وترد بعبدة على الطلبات المتكررة في ان تنقل هذا الطريق او ذلك الى احدى الفرق العديدة المزودة بالمشاهد . والمكتنفة

بالتناس الذين شغلوا انفسهم بعمل من الاعمال ، واما ان تنقيب عن مكانها . وذات مرة كانت احدى المشتغلات ، وهي امرأة ذات وجه مصفر ، ولغت نظرها بهذا الخصوص . فنظرت انيسيا اليها نظرة سوداء قائلة «لا تعرفى صوتك على» ، يا رفيقة ، فانا لم اخف حتى من سيوف القوزاق . . .» حتى ان هذه المستخدمة المتقنة التي عملت كثيرا من قبل في تقنية تحرير المرأة وجدت من الافضل الا تتورط مع هذه العاملة اللعاجة السليطة . . .

كانت داشا تعود الى البيت بعد الساعة العاشرة بينما كانت انيسيا لا تعود احيانا الا في ساعة متأخرة من الليل . وكانتا تمشيان في بيت غنسي مطل على القولغا . وكان كوزما كوزميتش يطعم داشا وانيسيا الى حد الشبع ملتزما بامر ايفان ايليتش تماما . ويتابع ، خلافا لضميره ، القيام باعمال غير صافية في الحصول على المأكولات والحطب ، رغم ان ذلك كان يشق عليه في بعض الاحيان : فقد كان كبير السن يثر فيه ، والطقس الخريفى يميل به من اللغب واللغظ الى التاملات الفلسفية الهادئة عند الموقد المشتعل ، والمطر يضح ضجيجا خفيفا فوق السطح .

وحين يزوروك الغيش الصبايح في النافذة كانت داشا وانيسيا تحسبان في العادة الشاي المصنوع من الجزر مع شيء من الادم ، وتخرجان الى العمل . وكان كوزما كوزميتش يغسل الالوان ، ويسكب جردل الماء القذر ، ويكنس بالمكنسة كلتا الغرفتين . ثم يبدأ على مهل ويذرفات في الغالب في تلقيب الفكر والتخمين ممن يمكن ان يقتنص اليوم يبيضن وقطعة من لحم الخنزير ، زجاجة من الحليب ، نصف قبة من البطاطس . . . وكان كوزما كوزميتش لا يستجدى ، لا يسمح الله ا بل كان يقوم فقط بتبادل الافكار الفلسفية والخلقية بالمأكولات تبادللا لا غبار عليه . وخلال هذين الشهرين عرفه كل اهالي كوستروما تقريبا ، بل طاف اكثر من مرة في القرى القريبة من المدينة .

وكان وهو يفكر يقوم في العادة برتق وخياطة شيء ما في الثور المتزايد عند النافذة . فالحيابة قوة جبارة . وحتى في زمن التحولات التاريخية العميقة والمحن الصعبة يخرج الناس من ارحام امهاتهم وذكورسهم في المدينة . وبضراح حائق يطالبون لهم مرضعا في هذه الدنيا سواء اكان يلائم هذا اباهم وامهاتهم ام لا . ويتعاقب الناس

دون اعتبار الى اثم يملكون من وسائل الدعم الخارجية اقل لسببها مما لدى الطاووس على سبيل المثال حين ينشر ذيله الترف . وهو يرتص على مرج الربيع . ان الناس ينشدون السلوى ، ومستعدون الى ان يقدموا نصف رغيفهم الى من يسكب طمانينة غير متوقعة في نفوسهم التي يمزقها الشك : «ماذا سيحل بنا ؟ هل سناكل العشب ، ونغطي عورتنا باوراق الكرنب ؟» وآخرون يكونون ممتنين لو وجدوا مستمعا فهما يمكن ان يكتشفوا امامه كل ما يفور في اعماقهم من غيظ دون ان يغافروا اللجنة الاستثنائية في الولاية .

وكان كوزما كوزميتش يفرج للطواف في البيوت . وكان يمسح قدميه في الاروفة المظلمة ، ويدخل المطبخ . وفي بعض الاحيان تصرخ ربة البيت عليه في غضب :

— جاء الطويل مرة اخرى الا يوجد شيء اليوم ، لا شيء ، لا شيء

— جئت اسأل عن ماريا سافيشنا — كان كوزما كوزميتش يرد بذلك هازا وجهه الاحمر بالتحية مقلصا شفتيه — اهي في حالة سيئة ؟

— ليس الموت بعد ذاته رهيبا ، يا انا ايفاتولنا . بل ما يرهق ارواحنا هو شعورنا باننا عشنا حياة عقيمة . ومن هنا يحتاج الانسان الى السلوان . ضعى يدك على جبهتها الباردة وقول : كانت حياتك شحيحة ، يا ماريا سافيشنا ، فلا تناسفي عليها . ولكنك كنت تكسفين مثل اصغر نملة وحملت قشك بلغب وبلا مسرة . والاعمال لا تذهب عبثا ابدا . وكل شيء يتجمع ، ويزداد بيت الانسان مسحة وعلوا ، ويكون لقشك شيء تستند . لقد ربيت اولادا واحفادا ، وما هو مساء حياتك قد حان . قاعضى عينيك ، وارقدى مطمئنة . ولا تأسى على شيء ، فانت لم تكوني ملومة في شغلك . . .

وترثر كوزما كوزميتش وهو يجلس على مقعد عند الباب . وكانت المرأة تكسر شطبا الخشب فاذا بها تلقى الفاس فجأة ، وتزفر عدة مرات متتالية ، وتبيلل خداهما بالدموع

— يسمى الانسان ليعيش . . . واذا فطس لا احد يقول له كلمة شكر . . .

- لان حياتنا ما زال فيها ظلم ... بينما يجب ان يقام لكل انسان نصيب جزاء على عمله ... وسيكون ذلك في المستقبل ، يا آنا ايقانوفنا ، في المستقبل ستكون الحياة طيبة ...

- ذلك في العالم الآخر ؟

- لا ، في هذا ...

- انت وحدك الابهه الطيب ...

- هذه مهنتي ، يا آنا ايقانوفنا ، ولكنني لست طيبا ... انا محب للاستطلاع ، والانسان لا يحتاج الى شفقة ، الانسان يجب حين يجد اهتماما من الناس به ، حسنا ، يعني يمكن ان ازور عاريا سافيشنا ؟

- اذهب ...

وكان كوزمسا كوزميتش لا يخرج من مثل هذا البيت خالي الوفاض ، وفي المساء كان ينشر ويكسر الخشب التي يكون قد اخذها من احد البيوت ، ويشعل الموقد في النصف الثاني من البيت ، وينفخ الرماد من السماور الغاز ، ويضعه على الطاولة ، ويقص على داشا وانيسيا عن روحاته ، فيقول وهو ينفخ في صحن الشاي :

- ظهر لي منافس ، صار عجوز يطوف على البيوت عالي القدمين لا يضع على جسده غير قميص من قماش الاكياس ، وقد نشر لحيته عن قصده ، وانه المهيب بشكل غير اعتيادي يملا وجهه ، وهو يدعى الاب اغل ، وقد اختلق هذا المحتال حكاية بسيطة ، فهو بلغ البيت ، ويجلس على الارض ويبدا بالترنح وتقسيم الذراعين ، ويقول : « هذا جزاؤك ، يا اغل ، وانت لم تصدق ، تفو ، تفو ... رايت بعينيك ، ولست بيديك ، تفو ، تفو ، تفو ... » والمستمعون اليه يفرغون افواههم ، فيمثل برهة اخرى ويقول : قبل اسام ، في ليلة الجمعة وضعت امرأة زوجها في الجيش الاحمر مولودا مشمتلا له اسنان ، وقد غسلوه وقطعوه ، ووضعوه على يدي امه ، فتخرج الام لديها ، وتقدمه له ، فلا يأخذه ، بل ينظر اليها نظرة ذات معنى ويقول : « اما ، اما ، ها انا قد جئت ! ... » - رشف كوزمسا كوزميتش من صحته بصوت عال وضحك - سيأخذ اغل زبائتي مني ، انه غيور ! اليوم التقينا في احد البيوت فاشار باصبعيه على صندفه اشارة ساخرة وقال :

هل جئت يا كوزمسا لناخذ فضلاتي ؟ اذا اخذت تتعقبني فستعرف طعم عصاي ...

قالت داشا بعفة :

- اترك كل هذه الحقايق ، يا كوزمسا كوزميتش ، والتحق في الغدعة السوفييتية ، لا بأس ، لا بأس ، مستدير امرنا على الجراية وحدما ... والا فقد بدأ الناس يتعدون عنك حديثا غير جميل ، وهذا يزعجني كثيرا ...

واقامت انيسيا من احلامها المعرفة كعادتها دائما وقالت : - اليوم تحدثت مع شخص ، انه خنزير - ولولت تعابير وجهها وتغامت صوتها - كنت جالسة اورا بالطبع ، فيأتي رجل يشتغل عندنا في قسم التتوير المدني ، مهمم رخو موعج الفم .

« اود كثيرا ان اعرف بعمك ... »

« اي عم ؟ »

« الذي تعيش معه ... بحاجة الى ان اسمع الى تصيحة روحية منه ... »

« انه لا يقدم اية نصائح ... »

« ولكنني سمعت العكس ، الكثيرون يأتون اليه ويجدون عنده تسرية ... »

« يا رفيق ، لا وقت لي لسماع سخافاتك ، ها انت ترائني مشغولة ... »

فيسر في ذاتي مع لعابي :

« ألم تسمعي بالطفل الذي يتكلم ؟ ... »

« اذهب الى الشيطان ... »

« لا حاجة الى الذعاب بعيدا ، نحن منذ زمان مع الشيطان ... وذلك الطفل اليس المسيح الدجال ؟ »

قالت داشا : - شيء مزعج جدا جدا .

- نعم ، وحشة - قال كوزمسا كوزميتش ذلك ، وصب لنفسه قدحا آخر من الماء الغاز وهو ساهم - وحشة تزوع الزنين في الاذان ، ومع ذلك فان الروس مولج بالاستقصاء ، وهو الى ذلك سريع التأثر ، وله رأس نفيس ، وكل ما يحتاج اليه هو المعرفة والطريق الصحيح للخروج من هذه الشبكة البيزنطية . منذ زمن

طويل تراودتي الرغبة ، يا صاحبي العزيزة النفستين ولكن دون ان
اعقد العزم ، تراودتي الرغبة في ان اتروح عليكما الانتقال الى موسكو .

- الى موسكو ؟

تساءلت انيسيا واتسعت عيناها الزرقاوان .

- الى التور ، الى الافكار ، اقرب الى القضايا العظيمة . واتطمع
لكما عهدا بان آف عن شيطنتي . . . فانا نفسي قد قررت منها منذ
زمان . . . ما ان رايت صورتي - الاب انقل - حتى اصابني الغم ،
وتملكني كليا . . .

قالت داشا :

- الى موسكو ، الى موسكو ! عندنا هناك مكان لتلجأ اليه ، فقد
بقيت لكاتيا شقة تعيش فيها ماريا كوندراتينا . . . ربما لم يبق
منها شيء الآن ؟ آه ، يا كوزما كوزميتش ، ايها العزيز ، دعنا لا نناضل
في الامر . . . فنحن هنا نعيش على ما يقع في اليد ، ونبيع ارض الاشياء
لدينا . . . وانت اصبحت هنا انسانا اخر اسوأ . . . اسمع ، في
موسكو ، ستدخل انيسيا مدرسة المسرح في الحال . . .

لم تقل انيسيا شيئا في الرد على ذلك ، سوى انها اعمرت ،
واسبلت جفניה .

- كوزما كوزميتش ، اذهب غدا لتعرف هل هناك سفن ذاهبة
الى ياروسلافل ؟ . . .

واستولى الانفعال على داشا ، فصمتت وتنهت . قوس كوزما
كوزميتش شهرة ، وضغط برأسيه على بطنه ، وفكر في ان من المحتمل
الا تكون في موسكو مجازفة تذكر بخصوص اطعام المراتين ، وعند
الضرورة التصوي فان لديهم جواهر داشا الغالية المغيبة سرا . . .
ثم ان في الامكان ان ياخذوا معهم من كوستروما زها ، بودين من طحين
الجراد . . . ثم كيف اقلت من لسانه موضوع السفر هذا ! ولكن الى
الاحسن ، بالطبع . . . واخذ يؤلف في ذهنه رسالة توضيحية لايفان
ابليتش الذي تلقى منه قبل فترة بطاقة بريدية قصيرة يعلن فيها
انه حي ومعافى مع الحب والقبل .

اتكأت انيسيا يمرقها على المنضدة ، وحدقت في الضوء الواهن
لتعديل الصفيح ، وترأى لها ذلك السلم (الشبيه بسلم اللجنة
التنفيذية) الذي يستزل فيه عارية الكتفين ساحبة ذيل فستانها

الحريزي وتفرق يديها المملطختين بالدم ، ثم الصندوق الطويل
المصنوع من خشب الصنوبر - الثابوت - الذي نستنهض منه وترى
روميرو ، وترى قارورة السم . . .

وهكذا ظل الثلاثة جالسين طويلا قرب السماور الهامس . وكان
الليل يرشق زجاج النافذة الصغيرة بدفقات حادة من المطر . ولكن لم
يكن تعينهم دماء الطقس ، ولا تعاسة الماوي ، ولا كل الحرمانات
العابرة ، فقد كانت قلوبهم تخفق بحرارة وثقة على عتبة الحياة ، وكانهم
واهبوا شيئا دائما . . .

كان ايفان ايلييتش يعتبر نفسه رجلا موزونا ، فانه لم يفقد
سواهما مهما يكن من شيء ، ولكن الذي حدث هو انه فتح زر قراب
مسدسه باصابع لم تطاوعه كثيرا وبدون تفكير ، وكانها اصيب بعص
فجائي ، وسحب مسدسه ، وصوبه على راسه ، وداس على الزناد .
ولكن رصاصة لم تطلق ، لان احد الاشخاص كان قد افرغ الرصاص
من مسدسه لغرض من الافتراض .

التفت اليه روتشين والمقوض تشيستوكوف واخذوا يعنفانه
بشدة ناعتين اياه بالغر الساذج ، وبالمثقف ، وبغرفة لا تصلح حتى
لمسح عجيذة حضان عجوز . وقد فعلا ذلك في حقل ، حيث ترجلوا من
خيولهم عند تل دريس اسود من المطر . وعلى مسافة لغير بعيدة
كانت تقف كوكبة الخيالة ووحدة المقر على صفوات الخيول . وكان
ذلك كل ما تبقى من لواء تليفين .

فقد نفذ فيلق ماموتوف الى مؤخرته بجبهة عريضة وقطع كل
اتصالاته ، وحطم وسائل الاتصال ودمر مستودعات التموين والذخيرة
في قرية غايغوروني وفي يوم واحد تحولت مؤخرة اللواء كلها الى فوضى
انعلم فيها كل اتصال بابة تقطة قيادة ، فتراجع الرجال في وحدات
مشتتة وفرادي واختابوا ، وراموا يهيومن على وجوههم .

ان كلا اللوجين لشماسة وجد نفسه في الصيفة قبل ان يفيق
على نفسه . فقد هاجمها رجال ماموتوف من الخيالة من المؤخرة ،
والخيالة التزواق المترجلون من المقدمة . وترك المقاتلون الحمر
الجهة ، وتشتتوا شذر مذر .

- اذهب الى الشيطان ! ليس الامر بضحك الآن ! - صاح روتشئين به وقد اختلجت عضلة غده - الى اين تقود الكوكبة ؟ الى الشرق او الى الغرب ؟ ما هي خطتك ؟ ما هي المهمة الآتية ؟ فكر ! - اعطني الخارطة ...

تناول تليفين الخارطة من يدي روتشئين في غضب ، وتمتم ، وهو ينظر اليها ، شامتا نفسه بشق العبارات الفاحشة ، وتراقصت امام عينيه اسماء المدن والقرى والضياع ، ولكنه تغلب على ذلك ايضا في آخر الامر . وبعد نقاش تقرر السير شرقا في محاولة للاتصال بوحدات الجيش الثامن .

وقضوا بقية النهار يسرون عدوا كلما كان ذلك ممكنا . وعين اذلهم الليل حتى لم يعودوا يرون اذان خيولهم ارسلوا رجال الاستطلاع للبحث عن قرية روجدستينسكويه التي امتفت غير بعيد في الظلام الدامس . وتوقفوا دون ان يترجلوا عن خيولهم وانتظروا طويلا . قرب فاديم بيتروفيتش حصانه من حصان تليفين ، وعسى ركبته بركبته وتساءل :

- حسنا ، ربما يمكن ان توضح الآن ؟ هل يمكن ان اتحدث اليك ؟

- ممكن .

- لماذا لمت بذلك المشهد المسرحي ؟

- اي مشهد مسرحي ، يا فاديم ؟

- مع السدس الفارغ ...

- ربما فقدت عقلك ... - ونحن ايفان ايليتش على سرجه نعود ، ولكنك لم يتبين في الظلام غير كتلة غامضة ذات عينين سوداوين - فاديم ، اذن لم تكن انت الذي افرغ الطلقات ؟

- لست انا الذي افرغ الطلقات من مسدسك ... بدأت افكر في انك اكثر مكرما مما تبدو ...

- انا لا افهم ... حيث ... لا علاقة للمكر هنا ... لو كنت في مكانك لما ذكرت ذلك ...

- لا تراوغ ، لا تراوغ ...

كانا يتحدتان بغفوت . وكان روتشئين يرتجف بكل كيانه مثل كلب صيد في طوق .

واتضحت جرم الكارثة شيئا فشيئا ، وبالتدريج ، سار تليفين ومعه كوكبة الخيالة ووحدة المقر في البحث عن لوائه . كان ما يزال يامل في ان يجمع بعض الفلول ، فقد زال الذعر ، وكان ماموتوف بعيدا ، الا انه سرعان ما اتضح ان من المستحيل ان يجمع اناسا من تحت السماء الرصاصية ، وبين اكداس الدريس المتشظية ، والعقول التي يتعمد فيها السير ، والمخلضات والاجساد حيث يغتسم الضباب ... فقد ذهب رجال للبحث عن إحدى وحدات الجبهة للانضمام اليها ، وراح بعضهم يجربون الضياع يسألون اهلهما من تحت النوافذ اذنا في ان يدخلوا ليدنوا انفسهم بينما اعتبل آخرون الفرصة فولوا هاربين بعيدا عن هذه الاماكن التي موافقتهم ورواجتهم وموافد بيوتهم . عثر تليفين وروتشئين والمفوض تشيسنوكوف مصادفة على رجلين من الفرج التاسع والثلاثين منكمين الى حد الاعياء ، حتى لم يبق لهما الا ان يجلسا وراء تل دريس ، وقد رويلا للثلاثة قصة بالسة جدا ..

قال احدهما :

- عيشا تعالكم في الحقل ، فانكم لن تعتروا على احد . كان هناك فوج وزال .

وبقي الآخر جالسا وظهره الى كومة الدريس وكشر عن اسنانه : - ياغونا ، وهذا كل ما في الامر ... انتظون اننا لا نفهم في الاوامر العسكرية ؟ نحن نفهم كل شيء .. ياغونا ... اللعنة على القيادة ! اعطونا العلة من الكارتون لاحدثنا ! - وحرك اصابعه البارزة من حذائه وقال : - انتهينا من القتال ... النهاية ... آمين ! وعند كومة الدريس هذه انهار تليفين . طالت في ذهنه مقدمة السبارة المرعبة بمصاحبتها المتباغدين . اين فرصة التبرير امام هؤلاء ! لقد ضيع كل شيء ، بسماحته الكسول ، وتركه يفلت من بين يديه ، وبزيغ ...

قال لروتشئين وتشيسنوكوف :

- كفاكما صياحا على . حسنا ، ضعفت ، حيث ، وانسا المولود ... ولخص وجهه بصورة عفرقة ، واخذ يضع مسدسه في جرابه - كنت مخلوطا طوال حياتي ، وكنت انتظر دائما الانهيار في يوم ما ... حسنا ، دعوا المحكمة العسكرية الثورية تصنع حكما ...

- ان رجال الكوكبية جميعا رأوا ذلك المشهد المقزز عند كومة
الدريس ... اعرف ماذا يقولون ؟ يقولون انك مثلت كوميديا ...
تريد ان تفلت حياتك عند المحاكمة العسكرية ...

- لا افهم ماذا تعنى في كلامك !

- لا ، يجب ان تصطى الى 1 - وبدا الحصان تحت روتشين
يضطرب ايضا - يجب ان ترد على بكل انلاص ... ففى مثل هذه
الايام يعرف معدن الانسان ... هل تحملت المحنة ؟ ادرك ان
لطفة قد غلقت بك ؟ ... وانت لا تملك الحق في ان تطلع نفسك ...
وتب حصانه ، وضرب وجه تليفين بذيله بقوة ، عندئذ قال
ايقان ايليتش بصوت مبحوح يكبته تسليح في حلوقه :

- ابتعد عنى ، والا طمعتك ...

وفى تلك اللحظة قال المفوض تشيسنوكوف في الظلمة :

- كلاكما شريرة ، ايها الرجلان . انا الذى اغرقت الطلقات ،
لم يرد روتشين ولا تليفين بشئ عن ذلك . كانا يتنفسان
تنفسا ثقيلًا احدهما من المساء الشديدة والثاني من امتلاء النفس
بالغضاء ، وكلاهما لا يرى الاخر . ومن الظلام تردد اصوات قصيرة
كالطلقات :

«قف ، قف !» «من انتم ؟» «اتركنى» «من اين انتم ؟» «نحن
رجالنا ، وانتم من اى جانب ؟ اللعنة عليكم» .

كان ذلك اصطدام دووية باخرى . دار الحياة بعضهم حول بعض
خالدين في هذه الظلمة العاتكة ان يجردوا اسلحتهم . وغير راغبين في
نفس الوقت من ان يتفصلوا لما تملكهم من الحساس العائق ،
قتضياحوا وتسانوا ، حتى احس الطرفان من قوة التعابير ان كليهما
من الحمر .

«لماذا تمسك لجام فرسى ؟»

«من اى وحدة ؟»

«لا شأن لك في هذا ، يا ابن ... نحن وحدة فرسان كبيرة» .

«اين وحدتكم ؟»

«تعالم معنا ...»

وتعبت كلتا الدورتين اخيرا ، وسارتا بهدوء الى الكوكبية .
وتبين ان قرية ووجدستيفيسكويه على مسافة غير بعيدة ، وراه

غابة ونهر صغير . وحين سئل احد رجال الدورية الاخرى عن الوحدة
الموجودة في القرية اجاب بغير كثير من الابد :

- ستصلون ، وتعرفون ...

كان سميون ميخائيلوفيتش بوديوني والثاني من قواد فرقه
يجلسون وراء طاولة في احد الاكواح يتشربون الشاي من سماور كبير .
وحين رآى سميون بوديوني الرجال الثلاثة - تليفين وروتشين
وتشيسنوكوف - يمشون قال بلهجة مرحة :

- وصلت تعزيتانا . اهلا وسهلا . اجلسوا واشربوا الشاي
معنا .

اقتربوا من الطاولة ، وتصافحوا مع بوديوني الذى كان ينظر
نظرة مبينة الى امر اللواء الهائم واركان حربه (وكان مطلعًا على كل
شئ) وتصافحوا مع قائد الفرقة الرابعة ، وهو رجل قصير القامة له
شاربان مهيبان يمكن ان يصل الى ما وراء اذنيه بسهولة - ومع قائد
الفرقة السادسة الذى مد لكل واحد منهم يدا كبيرة ، وضغط بها على
ايديهم بقوة وكأنه يلوى حذوة فرس ، وقد اطمعت على وجهه الفى
المورد طمانينة عميقة .

سأل سميون بوديوني عمسا اذا كان قد هبى لوحدهم
منيت جيد ، وهل لديهم شكاوى او طلبات . رد روتشين بانهم
قد تزلوا في احسن ما استطاعوا ان يوفروه ، وانهم لا شكاوى
لديهم .

- خير على خير ، اذن - اجاب بوديوني الذى كان يعرف جيدا
ان القرية التى نزل فيها فيلته لفضاء راحة قصيرة في الليل لا توفر
موضع راحة حتى لتبابة - ولماذا انتم والفون ؟ اسحبوا المصطبة
واجلسوا . انا اذكرك جيدا يا رقيق تليفين . ان رجالك استقبلوا
قوزاق الدون بعظام حار . آنذاك ... واجال يصره في الجالس حول
المائدة مقلصا عينيه في رضى شديد ، وهز قائد الفرقة السادسة
راسه مؤكدا ان القوزاق بالفعل قد استقبلوا بعظام حار ، بينما هز
قائد الفرقة الرابعة وجهه الكالمينكى بغض وجفاف ، وتابع بوديوني

قوله - اذن في هذه المرة عيث بكم ماموتوف بعض الشيء ... ماذا جلبتم معكم ، جماعة المقر او وحدة قتالية ؟

قال تليفين :

- وحدة قتالية ، كوكبة معززة .

- وما هي حالة خيولكم ؟

- في حالة ممتازة - اجاب روتشئين بسرعة - قوائمها الامامية بحذوات .

قال بوديوني متدهشا :

- تصوروا ، حتى القوائم الامامية بحذوات - اظن لا حاجة لكم في الذهاب للبحث عن الجيش الثامن ، فقد لا يكون في مكانه الان ...

قال تليفين :

- يجب ان ارفع تقريرا للقائد الجيش .

- قدم التقرير لي ... ماذا تقولان . يا قائدتي الفرقتين ، في ان نظم امر الماء وكوكبته المعززة ؟

هو - كلا القائدين رأسيهما خوفاقين . تناول بوديوني قبضة تبغ من علبة صفيح ، واخذ يلف سيكارة . وكرر قائلا :

- لا حاجة لكم في الذهاب بعيدا ، انضموا الينا . لقد جلسنا ذات مرة تفكر انا وقائدا الفرقتين وقررنا بعد التفكير بان خيولنا

اخذت تسمن ، ومقاتلتنا يضجرون ، فلنذهب شمالا للبحث عن ماموتوف .. وهكذا نجري ، هو يبتعد عنا ، ونحن نتلاحقه ...

اغلى لديهم من رؤوسهم . ولم يروا اتقاد موسكو الا في ملاحقة ماموتوف فورا ، ول قد فيلق الخيالة الذي هو افضل فيلق لدى البيض . وكانوا لا يشكون في ان هذا الفيلق لن يصمد لتجربات سبعة آلاف مقاتل بالسيف في فيلق بوديوني ، وانه سيصرخ لا محالة في مكان ما في الحقول المريضة بين تسنا والدمون . وكان عملا باسلا ان يُلحق بماموتوف الذي كان قد اخذ من قطاع الطرق عادة تبديل الخيول المنهكة المصابة في القرى والضياع .

كانت افواج ماموتوف من قوزاق الدون - وهي افواج جريئة اسكرتها الانتصارات - تضم عددا اكبر بكثير . ولكن ماموتوف كان لا يسعى الى الالتقاء ببوديوني ، فقد كان يخاف هذا العنصر المعنك الذي يلاحقه . اذ لم تكن القوة التي تصدى له خيالة من الانتصار بل ارفع قوة لا يعرف الا الله عقبة الالتقاء بها في ارض مكتسوفة . انها خيالة روسية نظامية . كان بوديوني يزحف باقل سرعة ، ولكن بذلك اشد . فتارة كان يختار طريقا اضراوا اكثر ملاءمة ، وتارة كان يحصر ماموتوف في اماكن كان من الصعب الحصول فيها على علف للخيول او على خيول مستراحة .

واستمرت هذه المطاردة ، هذه اللعبة الخطرة لقوتين جبارتين من الخيالة تسير من يوم الى يوم . وكانت الادخنة والجرائق في ضباب الخريف تشير الى الطريق الذي يسلكه ماموتوف . وكان ماموتوف يهاجم الوحدات الحمراء في الزمفرة ، وينسحب سريعا في ناحية . واغريا زاولغه بوديوني ولحق به . ففي صباح ياكرا ، وحالما لاحت معالم الصفصاف القديمة سوداء على خلفية حدائق الخضروات وتب سميون بوديوني ومعهم كوكبة الفرسان الى قرية بانسة كسان ماموتوف يقضى ليلته فيها .

الا ان عربة من ثلاثة خيول صهيا، خرجت في الحال من بوابة بيت في الطرف الاخر من القرية وراحت تبتعد . كان ماموتوف في هذه العربة المكتسوفة يتلفت على مقعده حاسر الراس محلول المعطف ، وقد اطلق عدة رصاصات على فارس في المقدمة ذي شاربيين وعباءة قوزاقية سوداء كان يلاحقه ، فقد عرف انسه بوديوني . ولكن القرية تراقصت في يديه . وطوردت العربة ، الا ان خيول الدون الصهيا حملتها بعيدا كالزنج .

كانت الصرخات الوحشية ومصلفة السلاح والطلقات المنفردة ما تزال تتردد في أذن البيوت . لقد كان حرس مامونتوف الشخصي من الفوزاق يقاتل باستماتة . طاف رجال بوديوني في القرية ، وأخذوا يفرجون من المخاض والزوايا إلى الشارع أناسا وركبهم الذعر ، منهم من خرج في لباسه الداخلي فقط ، ومنهم من خرج في حذائه لا غير . وتبين أنهم موسيقيون ، أحاطوا بهم ، وأخذوا يضحكون منهم . تقدم سميون بوديوني ، ولما عرف جلية الأمر طلب أن تجلب لهم آلاتهم الموسيقية .

ولما رأى الموسيقيون أن البلاشفة لا يقتلونهم بالسيف ، بل يضحكون منهم فقط ، تراكضوا وارتدوا ملابسهم بنشاط ، وجلبوا آلاتهم الهوائية - هيلوكونات خشبة ، وأبواقسا وترومبيطات - وكانت جميع الأيقاظ من الغضبة الخالصة . وأندعش رجال بوديوني ، وتطلقوا ، أها لغنيمة عظيمة !

قال سميون بوديوني :

- على الأقل حصلنا على شعرة من جلد خنزير ... أتعرفون

عزف «النشيد الأحمر» ؟

كان الموسيقيون يعرفون عزف كل ما يشتبه المرء ، فقد كان بينهم طلاب من كونترافاتور موسكو ، وقد قضوا عاما ونصف عام في البحث عن مورد رزق ، وخبز أبيض منتقلين من مدينة إلى أخرى ، عاربين من أعمال الإباحة والاستجابات وقتال الشوارع حتى وصلوا إلى روستوف فجندوا . بل إن قائدهم - وهو رجل ذو أذن أسننجي ومشبع بالكحول - أعلن أنه ثوري أصيل قديم ، نظروا إلى أنفه الموردة المزرق وصدقوا بأنه لن يلحق بهم أذى .

وتعلم مامونتوف مرة أخرى من التزال ، وخرج فيلقه بمنابرة سريعة من التماس . واستمرت الملاحقة ، ولكن مقصده أصبح واضحا ، وهو الخروج من خلال جبهة العمر إلى جبايته . وكان بوديوني يخشى ذلك أكثر من أي شيء آخر . ذلك لأن حملته كلها ستكون بلا جدوى ، وعند ذلك لن يقتصر الأمر على تحمل المسؤولية أمام القائد العام ، بل أسوأ من ذلك ، أمام رئيس المجلس العسكري الأعلى . كما شاء سوء الحظ الا يقلح في إقامة أي اتصال ويعرف ما يدور في العالم حوله في تلك الأيام . . . وأخيرا وصلوا إلى السكة الحديدية .

خرج بوديوني على حسانه إلى محطة القطار ومعه رئيس أركانها والمفوض ، وقعد إلى جهاز الإرسال . وتلقى عن طريق التلغون أخبارا جعلته يرسل في طلب قائدي الفرقتين وأمرأه الوحدات الكبار للوصول إلى المحطة على الفور .

واجتمعوا في مشرب المحطة ، حيث كانوا يرون من خلال النوافذ الكبيرة المحطمة تقدم كوكبات الخيالة ، ويعبورها سدة القطار . وإلى الخلف منها يستد غروب موحش ملاصق للأرض تحت ثقل السحب . صعدت صفوف الفرسان - والإشارات على رماحها - على المنحدر ، وبدت ممدودة من حديد ، شديدة البأس عن خيول قوية . ذهل تليغين من التعبير المرتسم على وجهه فاديم يتبرقش روتشين ، الذي كان ينظر في النافذة - في انعكاس الغروب . فقد كان وجهها ترتسم عليه الأمللة والجمود وكانما في حالة انفعال قوي .

- يجب أن تعرف أي شيء هي ... - قال بصوت كامد ، وتقدم تليغين ليسمع بشكل أوضح - لقد نسيتنا ... ليس هناك عقاب يساوي مثل هذه الخيالة ... قبل الأرض على غفرانها لك ... كان فاديم روتشين يتحدث على هذا النحو لأول مرة بعد الشجار عند كومة العريس . وكان تليغين يردد أنه يتعجب ، وأنه يضمت لا عن انفة ، بل عن يأس لأنه لم يكن في وسعه أن يطلب مغفرا من تليغين بكلمات عادية من مثل «اعلوني ، يا إيفان ...» . والآن ، وفي حالة التوتر الطويلة والتعب وصل إلى لحظة الأساس الطامع بوطئه الضماع والتمس والمكسوب من جديد ، وكان ذلك في نفس الوقت دعاء إلى الصلح عنه

سعل إيفان تليغين ، وأراد أيضا أن يقول شيئا طيبا لروتشين شاطبا على شجارهما الأحمق ، وكانه لم يكن وفي تلك اللحظة خرج بوديوني من قسم التلغون ، وأحاطوا به فقال :

- أيها الرفاق ، هناك أخبار كبيرة الشأن ولدينا بلاخبار المتفصصة - إن كوتيبوف استولى على أوريل . ودويواته قد بلغت مسافة قريبة من تولا . وهو في هذا الهجوم دق أسنينا عريضا في جبهتنا . وتراجع الجيشان الثامن والعاشر إلى الشرق ، والتاسع والثالث عشر إلى الغرب وكان ذلك في الأسبوع الماضي - وصمت بوديوني والتصت عيناها بألقى مرح - ومنذ ذلك الحين تغير الوضع

تقربا كبيرا ، يا رفاق . . . اولا يمكننا ان افرحكم بان القيادة العليا كلها قد استبدلت . ولم يعد رئيس المجلس العسكري الاعلى يتصرف في الجبهة الجنوبية . . . واسترجعت توتانا اوريل . . . ومزقت افواج كورنيلوف وماركوف وديزدوف الممجة شرًا تميزق ما بين اوريل وكرومي . . . ان ما انتظرناه طويلا قد بدأ . . . والتفاصيل غير معروفة حتى الآن . . . ولكن مجموعة مندامية خاصة تعمل بنجاح ضد كوتيبوف . . . وتوقف سميون بوديوني ثانياً مديراً في يدية قصاصة من شريط التلفزيون الاستلصي ، وتحرك شارياها ، ولقى نظرة ضاربة على امرء الوحدات الملتظن حوله .

— ان عمليات فيلقنا لم تجر وفق امر القائد العام . ولكن خلافا له . . . فقد امرنا بالتحرك جنوبا الى سهوب سالسكيه ، الى غانيتش ، حيث كاد الجيش العاشر ان يتحطم . وصعدنا الى الشمال . وبدلاً من ان نكون على الجانب الايسر من الدون كنا على جانبه الايمن . وبدلاً من ان نبتعد عن خيالة الدون ، تمسكنا في ذيلها . وهذا غير صحيح ، ولا يجدي شيئاً . . . اما بالنسبة لتفكيرنا البسيط ، فان لنا عقولاً فلاحية توتانية ، ولا يبدو ان يكون لنا تفكيرنا الخاص ، وبالمقابل فان في اركان القائد العام عقولاً متعلمة . مثورة . . . والتي حدث لنا سرنا واولامر القائد العام سارت وراينا واننا لم اتسلها ، ولم اقراها : فانت اذا بدأت تترقصها فان السيف سيسقط من يدك في قلب الظن . . . ومع ذلك ، فسواء اردت ام لم ارد فان الامر قد لحق بي . . . والامر خال من الكلمات المعولة — وسيط شريط التلفزيون حتى لا يلتفت حول نفسه ، وقرأ : — «الى قائد فيلق الخيالة بوديوني . . . تشير معلومات الاستطلاع الاخيرة الى تحرك خيالة العدو من منطقة فوروتيج الى الشمال . امر قائد فيلق الخيالة بوديوني بتحطيم خيالة العدو . . . وهكذا كل شيء باختصار ووضوح . يعني ان عقولنا قد اصابت بتفكيرها . . . والامر مرفوع من قبل رئيس المجلس العسكري الثوري للجبهة الجنوبية ستالين ، في مقر القيادة العامة في سيربوخوف .

عادت كاتيا الى موسكو ، الى نفس زقاق ستاروكوتيبوشني قرب شارع اربات ، حيث يقع البيت ذو الطابق العلوي (الذي انتقل اليه

ليقولاي ايفانوفيتش سموكوفيتشوف في بداية الحرب مع داشا قادما من بطرسبورغ والتي عادت كاتيا اليه من باريس) ونزلت في تلك الحجرة التي شهدت جزء حياتها الياس في ذلك اليوم الكتيب . يوم دفن ليقولاي ايفانوفيتش . انذاك استلمت على الفراش ، وتغطت بمعطها الفراشي ، وتمت ان تغادر الحياة ، وتنهت وانسلت من تحت معطها ، وسارت الى غرفة الطعام لتجلب شيئاً من الماء ، وتشرب المورفين ، وفي ضوء الغيبش رأت فجأة حياتها الثانية : كان قادم بيتروفيتش روتشين يجلس في انتظارها . . .

والآن انتهت هذه الدورة الثانية من حياتها ، مترعة بالجهد والحب والعذاب . وخلفت وراءها طريقاً طويلاً يبدأ من الخسائر التي لا ترد . وقد احست كاتيا بذلك احساساً حاداً حين خرجت في اواسط تموز من محطة كييف تحمل صرتها . . . رأت اطفالاً صغاراً يسبحون في نهر موسكو الناضب واصواتهم تتردد في السكون مججلة موشة ، ورجلا عجوزا يجلس على العشب الذابل عند الشاطئ ومعهم عود لصيد السمك . ولما خرجت الى شارع سادوفيا حيث اخلفت الاسيجة المشبكة التي كانت تحيط بالمشى الاوسط المشجر كله ادهشها السكون المخيم ، فلا صوت غير حفيف اشجار الزيزفون الهائلة مغطية الفيلات الصغيرة المقفرة يظلمها الاخضر المهيب . وفي شارع اربات الذي كان يزرع بالناس لم تجد تراماً ولا عربات اجرة ، بل وجدت بعض السابلة يعمرون عبر سكة الترام الصعدة مطرقى الرؤوس . سارت كاتيا حتى زقاق ستاروكوتيبوشني ، وانعلقت فيه حتى رأت بيتها ، فارتفعت رجلاها . وفتت طويلاً على الرصيف المقابل . كان هذا البيت يتراق لها في ذكرياتها بيتاً جميلاً ذا لون ذهبي واعمدية بيضاء مسطحة ، ونوافله لطيفة تسندل عليها الستائر . . . وخلفها كانت تعيش خلال كاتيا وقادمي روتشين وداشا . . . امن المعتول ان يخفى كل ما كان دون ان يترك اثرًا ؟ احقا ان الحياة تولى كالعلم في رأس على وسادة ، وبعد ان تخادع خداعاً عميقاً تتلاشى بعد زفرة الاستيقاظ لا ، لا ، لا ، في تلك الايام الغوالي تجمد اثنان : كاتيا في مكان ما في غرفة المسرة غير المتوقعة حينما التقت لارورة المورفين على البساط وتلدت فاقدة القوى على ذراع قادم بيتروفيتش روتشين المتصلبتين والثاني هو النقي كان يهمن لها بكلمات الحب وكاتيا قد اسودت من الانفعال . لا ، لم يكن

ذلك حلما ، ولم يختلف . انه ما يزال هناك وراء النوافذ السوداء وهناك ايضا لييلتهما المؤرقة الاولى ، في الليل الصامتة العميقة كالعذاب ، وفي الكدمات المتكررة والمتجددة ابدا والصميرة من الدمشقة من ان تكون هذه المعجزة الوحيدة على الارض ، المعجزة التي شايدت بمثل هذه القوة يدين سمراوين قويتين ويدين بيشاوين ريفيتين هما اكثر الاشياء رقة واكثرها رجولة . . .

كان البيت يقف معوجا يادي البؤس مسلوخ الجدران ، وليس فيه اصمدة بيشا . اختلقتها كاتيا اختلافا . كانت النافذتان الاخيرتان من الطابق الاول قد غطيتا من الداخل باوراق الجرائد . اما النوافذ الاخرى فقد تطلعت بسلطحات من الوحل اليابس مما يدل على خلوها من الساكنين . . . وكان زواج الطابق العلوي حيث كان مخدع داشا ، قد هشم كليا .

عبرت كاتيا الشارع ، ودقت الباب الخارجى الذى تعمتت في ملانه البنى خطوط طويلة ، دقت كاتيا طويلا حتى تنهت الى ان تقبا مغلقا بالخيار كان في موضع المقربض . عندئذ تذكرت ان الوصول الى الباب الخلفى يقتضى الانعطاف في شارع جاتس . كان باب العديلة مفتوحا ، وقد سارت منه عبر فناء صغير لما فيها العشب في مشى مطوس المعالم . اذن ، فالمنزل لم يكن خاليا ، على اية حال .

دقت كاتيا باب المطبخ . وبعد قليل فتح الباب رجل صغير القامة شاحب بلون الورق اشقر الشعر يرتدى نظارة له رأس كبير اشعث :

- صحت باعلى صوتي ان الباب غير مغلق . ماذا تريدان ؟
- اعفرتني ، اردت ان اسأل : اما تزال ماريا كوندراتيفنا العجوز تعيش هنا ؟
- نعم ، هنا - رد بصوت تتألف فيه المسائل الحسابية - ولكنها توفيت .

- توفيت ! متى ؟
- منذ زمن غير بعيد ، لا اتذكر بالضبط .
- ماذا سافعل الآن ، اذن ؟ - قالت كاتيا حائرة - وهل سألني مشغولة ؟
- انا لا اعرف ، سواء اكانت شفتك لم لا ، فانها مشغولة . . .

واراد ان يعلق الباب ، الا انه رأى عينى المرأة الجميلة مغرورتين بالدمع فترتب .

- انه لامر مزعج . . . انا قادمة من محطة القطار راسا . فابن ساذهب الآن ؟ ثبت عن موسكو عامين ، وقد عمدت الى بيتي ، فاذا . . .

- عدت الى بيتك ؟ - اعاد السؤال بدهشة - الى موسكو ؟ . . .
- نعم - قضيت الوقت كله في الجنوب ، ثم في اوكرانيا . . .
- عجيب ، انت عجنونة ؟
- كلا . . . ولماذا ؟ هل العودة الى البيت امر غير معقول ؟
اختلج احد طرفى شفتيه الريقتين في وجهه الناحل الشاحب كلون الورق ، وتلفظن خده الرخو :

- الا تعرفين ان الناس يموتون بجوعا في موسكو ؟
- سمعت ان الطعام عسير . . . ولكننى لا احتاج الى الكثير منه . . . ثم ان ذلك شيء مؤقت . حين تشمت الضائقة يجب ان يكون الانسان في بيته .

- من انت ، على اية حال ؟
- انا المعلمة يكاترينا روتشيننا . . . انتظر ، ساريك . . .
واخذت كاتيا تلك عقدة كيس الجفانس باسمائها . واخرجت شهادة مفوضية الشعب للتعليم .

- عملت في مدرسة روسية للاطفال الصغار في كييف حتى الجلاء . . . ثم طلب مفوض الشعب منى الا ابقى مع البئسب منها كلف الامر . . . انا نفسى ما كنت اريد ان ابقى . . . واعطاني هذه الرسالة لمفوض الشعب لوانشارسكى . . . ولكنها مسدودة بالغتم . . .
قرأ الرجل الشهادة ، وقرأ العنوان على طرف الرسالة . وكانت كل حركاته متباطئة .

- في الحق ان غرفة العجوز غير مشغولة . فاذا كنت تودين ان تسكني هنا بالذات . . . فانتقل اليها . . . ولكن كل شيء هنا متاكل ومتعطم . . . في موسكو يمكنك ان تنزل في اى فيلا فارغة . . .
وتحس ، وترك كاتيا تدغل المطبخ شبه المظلم الذى تكدم فيه اثاث محطم . وأشار الى مفتاح غرفة العجوز المتدمل من مسمار في السمر الملطخ بالسخام ، وانصرف بخطوات بطيئة الى غرفته (الى

كانت من قبل مكتب نيولاي إيغانوفيتش). فتحت كاتيا بصعوبة باب غرفة محبوسة الهواء لها نافذتان تطلعت من الخارج بملطحات جافة . كانت هذه غرفة نومها . وسريرها ما يزال في موضعه . وكان صندوق الادوية المحلور الذي تناولت منه المورفين آنذاك ما زال معلقا على الحائط وعلى صفاقيه صورتان بامتتان من الفولكلور الروسي . وكانت المرجومة عارية كروتاتينا قد جلبت الى الغرفة احسن ما في الشقة من اشياء - ارائك وكراسي ورفوفيات مكدسة بعضها فوق بعض ومعضضة ومغطاة بنسيج العنكبوت والغبار .

واستور الياس على كاتيا . فقد كان عليها ان تبعا العيش . ان تبدأ الدورة الثالثة من حياتها في هذه الغرفة المكتومة الهواء المكسدة بالانات الزائد عن الحاجة ، في موسكو الهائلة الغاوية الجامعة المتلظية شمس سوز . جلست على الحشية العارية ، وبكت بصمت . كانت متعبة جدا وجائسة . وبدت البصامب المقيسة والتعليقات اترى من ان تمنعها قواها الهزيلة . وتذكرت كوخها الصغير المتداعي الحبيب المعبود بالقرب من المدرسة . والحديقة الصغيرة . والحقل ذا التلال الممتد وراه السياج . . . المكسدة عند عتبة الباب . ويرميل الماء في الرواق . والضوء المخطوط المشرى عبر اوراق الشجر الى النافذة الصغيرة والساقط على دقات الاطفال . . . والاطفال المرحين اللقلاء . وطلها المفضل ايفان غاغاريكوف . . .

لماذا لم يكن من الممكن ان تبقى هناك مدى العمر ؟
زلت كاتيا من السرير لتجلب لها شيئا من الماء لتبلل الخبز الجاف الذي جلبته من كيبف . ولكنها لم تجد حتى قدما تبدأ الحياة معه ! مسحت كاتيا عينيها وقد تملكها الغضب . وذهبت الى الرجل الشاحب .

دقت يابه دقا خفيفا ، وقالت بصوت ناعم :
- اعذرتي ، ارجوك . ما زلت اضايك . . .
سار ببطء . وفتح الباب ، وتفرس في كاتيا وكانها صعب عليه ان يلمح .
- اعذرتي ، ارجوك . . هل لديك قدح ؟ اريد ان اشرب ماء .
- اسمي ماسلوف ، الرقيق ماسلوف ، اي قدح تريدين ؟
- قدما زائدا . . .

- حسنا . . .

وذهب الى اسواق الحجر تاركا الباب مفتوحا ، فرأت كاتيا كتبا كثيرة على رفوف تنوء بها مصنوعة من الخشب غير المسحوج ، وكتبا مفتوحة ومخطوطات على متضدة كتابة ، وسريرا حديديا بالنسا تناثرت الكتب عليه ايضا ، ووساعة على الارض ، وجرالد مصفرة تطفى النوافذ ، وعاد ماسلوف نحو كاتيا بنفس البطء ، واعطاها قدما قفزا .

- يمكنك ان تأخذه كليا . . .

في المطبخ وصلت كاتيا بجهد الى حوض الغسيل الذي تكندت فيه الفضلات ولكن الماء كان جاريا فيه . غسلت القدح ، وشربت الماء بتلذذ . وعادت الى غرفتها . ارادت كاتيا ان تفتح النافذتين ، وان تعشش قليلا قبل ان تأكل خبزها . ولكنها وجدت من الصعب فتح الصفحات المتصلصة . اشتغلت كاتيا طويلا . ونبتت . ودقت على المفصلات برجل مخلوعة من كرسى ، وؤفرت عالية . وجاء ماسلوف على الضجة ، ووقف بعض الوقت ينظر الى كاتيا بدهشة صامتة :

- لم تريدين ان تفتحي النافذتين ؟

- من الممكن ان يفتحق المرء هنا .

- اأنتين ان هواء الشارع سيكون احسن ؟ غبار وسخام . والعمرة تتصاعد من كل افنية البيوت . . . انا لا اضحك بذلك - استمعت كاتيا لذلك وهي والفسة على افريز النافذة ، واليقت شفتيها ، وعادت تدق برجل الكرسى من جديد - لنفرض انسك ستلتحين النافذتين ، ولكن سيتمعن عليك ان تسدبهما في الليل من جديد . . . فلا ضرورة لتفسيح الجهد . . .

واستجاب المفصل اخيرا . وثبت كاتيا من افريز النافذة ، وفتحت النافذة . واطلت براسها وتنفست هواء الشارع بنهم .

قال ماسلوف باستغراق :

- نعم . نعم . لم تحل مشكلة المدينة بعد . - واهتزت ركبناه فجأة . وانطوتا ، فتلفت ليجد مكانا يجلس فيه . واتكا على عصابة الباب ، ودس اصابعه الكبيرة وراء العجل الذي يحزم رغو قميصه الجفامى المتسخ وقال - ذاب الثلج . وانتشر الوحسل وبقيت القاذورات وجثت الكلاب والقطط الميتة ، وحتى فطالس الخيول في

الشوارع والافتنية ... جرت الامطار بعضها ، ولكن هذا ليس حلا للمشكلة ...

فاطمته كاتيا :

- قل لي ، هل الحمام يعمل عندهم ؟

- لا علم لي به ... في احد الاوقات كان يعيش هنسا سمكري ... وكان في ايام الاحاد ينشغل في المطبخ والحمام بمبادرة تلقائية منه ، ولكنه رحل الى الجبهة ...

قالت كاتيا بحزم :

- من الافضل ان تتصرف - سائظك الغرفة بعض الشيء ، وغتسل واجري الى غرفتك ... قبل كل شيء ، احتاج الى ان اعرف بعض العناوين ... فانا لا اعرف شيئا في موسكو ... يمكنك ان تساعدني ؟

- نعم ، نعم - اليوم يوم احد ، وسائظلس طوال اليوم في البيت ...

وسحب جسمه من عصابة الباب ببطء ، وانصرف - ادلرت كاتيا مفتاح خلفه ، لقد كان من المهم ان تحتد ، عندئذ ستستفيد حمية العمل - خلعت بلوزتها ولتورتها خوفا من ان تلوثهما ، وبدت حملتها ضد الضبار - كانت الفرق متفرقة في مختلف الضناديق كيمية واقية - نبشت كاتيا ورات بياضات سريها مع العلامات التي وضعتها عليها - ثم وجدت قمصانها وسراويلها الداخلية ، وبعض الأزواج من الجوارب المرفوعة - ان ماريلا كولدراتيفنا امرأة طيبة ، قفلت احتفظت حتى بالاشياء القيمة هذه ... وبشكل عام كانت المعجزات المتوفاة نهاية وجشعة ... ولكن لا بأس ... لتستريح عظامها في التراب ...

في ذلك المساء اطلع ماسلوف كاتيا على مخطوطاته ، بل وقرا شيئا منها - كانت بحثا تاريخيا عن الاشتراكيين - اللطوبويين الكلاسيكيين - قال لكاتيا الجالسة على سريرها غير العرتب :

- ا يبدو لك غريبا ان من الممكن ان يدرس اللطوبويون في مثل هذا الوقت ؟ اللطوبوية في عهد الدكتاتورية البروليتارية ! اين اذن المنطق الداخلي ؟ اعترفي بانك مستغربة ؟

هرت كاتيا واسنها مؤكدة استغرابها ، وكانت لا تكاد تفصح عينها .

- ومع ذلك ففي الامر منطق ... انا اتوقف بالتفصيل على معادلات بعض الاشخاص وجماعات صغيرة في منتصف القرن التاسع عشر في تطبيق الافكار اللطوبوية - وهذه صفحة من اطراف صفحات تاريخ الحركة الاشتراكية ...

واستدار عن كاتيا ليحبب عنها ابتسامة ساحرة كشفت عن اسنانه الصغيرة -

- ولكنني مضطر الى الكتابة في ايام الاحاد فقط - فانا منقل بالعمل في لجنة المنطقة الحزبية ، ونحن قليلون اذ لم يبق في موسكو غير عدد ضئيل من الحزبيين ... وانا لم اعف من التعبية للجبهة الا بسبب صحتي الضعيفة للغاية ... انسا متعبك جسمانيا ومعنويا ...

وعلى رغم من اعتلال صحته وضموه الظاهري التام فقد كان على قدر كاف من النشاط - في اليوم التالي اصطحب كاتيا الى مفوضية الشعب للتعليم - وعرفها بالرفاق الضروريين لها ، وساعدها في التسجيل والحصول على بطاقات التموين -

ولولاء لضعاف كاتيا تماما في المفوضية الضخمة باقسامها المتعددة ومكاتبها ورؤساء الاقسام لا سيما وان روح الغلق والنفور من الروتين كانت تدفع المستخدمين مرة في الاسبوع على الاقل من مكان الى مكان ، ومن طابق الى طابق مع مكاتبهم ودواليبهم وارشيقاتهم ، بل وتغير النظام الداخلي للجمعية والارتيباط والمسؤولية -

حصلت كاتيا في الحال على وظيفة معلمة في مدرسة ابتدائية في منطقة بريستا - وفي المكتب الاخر سجلوها في عمل اجتماعي مجاني في الدورات المسائية لسحر الامة - وفي المكتب الثالث امسك بها رجل نحيل للغاية ذو بشرة زيتونية وعميقين هائلتين محجومتين ، وقادها عبر الممرات والسلاسل الى قسم الدعابة للفن - واضافوا لها هناك محاضرات خارجية في المصانع - وقال لها الرجل ذو البشرة الزيتونية :

- ستحدد مضمون المحاضرات فيما بعد - ستقدم لك الادبيات المناسبة والخطبة - ولا حاجة الى الفرع - فانت امرأة مثقفة ، وهذا يكفي - ماساننا اننا لا نملك غير عدد ضئيل جدا من المثقفين ، فان نصف المثقفين يقومون باعمال التخريب - وسيتقدمون على ذلك كثيرا -

والآخرون ابتلعتم الجبهة . ان جيشك ترك الطباعا طيبا جدا لدى الجميع . . .

واخيرا ، وفي احدى المرات التي بكاتيا رجل مكتنز شديد الحركة كليا ذو شفتين غليظتين يرتدى بلوذة من قماش الشيت مخضرة عن الايطين .

- هل انت مثثة ؟ اشاروا لي عليك الان - تكلم بجماعة ، ودون ان يلقى بالا الى جواب كاتيا بانها معلمة طوق كلفها بقرائه ، وقادها عبر العمر قاتلا- ساضك الى فريق ترقيسه منتقل ، ستسافرون الى الجبهة في عربة خاصة ، ولدى خروجكم من موسكو ستصلون على كمية غير محددة من الخبز والسكر واحسن الزبدة . . . البرنامج ، اما ! بقوامك هذا يمكنك ان تقني وترقص ، وسيصنف لك مقاتلو الجيش الاحمر . . . ارسلت الى الجبهة البيروفيسور تشيبوتكين ، وهو في الستين من العمر ، وهو كيميائى او فلكى . وهل اعرف ؟ الان يسونه «ملك فريق الترفيه» وهو بغنى المائتى من يوانجه . . . يمكنك الا تشكرى ، انا مجرد متحمس . . .

- اسمع ! - صاحت كاتيا ، وقد تحررت من تحت ذراعه - عندي مدرسة ومحاضرات وهو امية . . . لا تتحمل قواى الجسدية . . .

- ما يعنى قواك الجسدية ؟ وهل تتحمل قواى الجسدية ؟ شاليابين ايضا لا تتحمل قواك الجسدية . ومع ذلك فقد حصلت له على صندوق من زجاجات الكونياك ، وهو الان يسال بنفسه ان يرسل الى الجبهة . حسنا ، فكري في الامر . . . ساجدك . . .

سارت كاتيا الى البيت متقلبة بالمسؤولية ، كانت الريح العارة تعصف في الشوارع الغالية فتدير دوامات من الغبار والاوراق على الرصيف المرصوف بالحجارة . انعطت الى بولفار تيريسكويه . واخذت تحسب لتجد هل سيكفيها الوقت اذا نامت ست ساعات ؟ . . . يعنى ستبقى ثمانى عشرة ساعة . . . قليلة ! ساعات الدروس في المدرسة وتصبح الدفاتر ، وتحضير الدروس ليوم الغد . . . ولحق الامية ساعات على اقل تقدير . . . يا الهى ، والسبح ذهابا وايابا ؟ والقاء المحاضرات والذهاب الى هناك وطريقتى العود ؟ ثم يجب الاعتماد للمحاضرات . . . ثمانى عشرة ساعة لا تكفى !

جلست كاتيا في البولفار ، وتخيّل اليها انها تجلس في نفس المكان الذى التقت فيه - هي وداسا - ببيسونوف عام ١٩١٦ ، وقد سار معهما بالغباب كليا لا يكاد يجرى قدميه . يا لببلاعا ! ان امرأتين لا تصلحان لشيء ، ولم تكونا تعرفان ماذا تفعلان بالوقت الفائض ، مزنا بمناسبة مجهولة الهوية حين حياهما ببسونوف - وكانه خارج من احد قصائد بلوك : «ما اصعب على الميت ان يتحرك بين الاحياء متظاهرا بالحياة ويجيشان العاطفة !» - ومر بهما ببسطه ، فشنيعتا بنظرهما ، وبدا لهما بالنسا بشكل خاص ينظرونه شبه العسكرى الذى لاح وكانه سيسقط عنه . . .

يجب ان تنام اربع ساعات ، وتأخذ كفايتها من النوم في ايام الاحاد . ثم سيكون عليها ان تنقف في طوابير الطعام ! انقضت كاتيا عيشتها ، وانت . . . حركت الريح خصلات الشعر على رقبتهما النحيلة ، وضجت الاوراق بقوة على شجرة اليزوفون العتيقة فوق رأس كاتيا . . . وعلى هذا الضجيج كلفت كاتيا اخيرا من تعذيب نفسها بمشكلة كيف لها ان توفر اكثر من اربع وعشرين ساعة في اليوم الواحد . لا بأس ، ستدير امرها على نحو ما . . . ودارت افكارها حول هذا التغيير الغريب الذى حدث فيها ، والذى ما انفك يدها بالدهشة والفرح . حالما قالت : « لا . . . » وهي تنظر في وجه الكسى المقاطط والذمة عليها على جدار العوقد بدأ يشيع فيها توقع هادى ورائق لسعادة جديدة في حياتها . وقد احسبت بقليل من هذه السعادة في الربيع : في كل مساء قبل ان تنام كانت تتذكر اليوم المنقضى فلا تجد فيه شيئا مظلما مقبها للنفس . واعجبت كاتيا بنفسها ، وما هي الان تتوهم الفرغ والبأس بشكل مبالغ فيه ، وكان من المستحيل ان تنهش بالامياء الاجتماعية . . . المسألة تختلف تماما : ان القطيعة اليالسة المتفتلة تنقلب بين عشية وضحاها الى مغلوب مهم ، بل وصار الناس - على ما يبدو - محتاجين الى كاتيا ، وكسان الرفيق المسؤول ذو الوجه الزيتونى والعينين الجيئلتين جدا يتعدت معها باحترام كبير . . . وكان عليها ان تكون على مستوى المسؤولية في هذا كله ، سيكون قطعيا لو قالوا في مفوضية الشعب للتعليم : «نحن وضعنا املنا فيها . . . » ان الامر في موسكو يختلف كليا عن الجلوس في عربة

تسير وراء عربة الكس مهتزة في السهوب وهي تقدم قشة وتفكر :
 «ما الذي يجدي لك جمالك ، أينما الأسيرة ؟»
 طلب ماسلوف من كاتيا أن تقدم تقريرا مفصلا . وعندما نقلت
 له الحديث مع الرفيق ذي الوجه الزيتوني تجمع عند ماسلوف الأيمن
 في غضون مركزة لا يتسامح ساخرة موجة . وانساح وجهه عن كاتيا
 قائلا :

« نعم . نعم . مائة المثقلين هي نصف الضريبة . . . هناك
 ما هو أكثر مساوية منها . . . »

افتتحت كاتيا المدرسة في أول آب . وجاءت بهدوء صبايا
 صغيرات حافيات لهن ضفائر شددت يفرق أو تقطع من الخيوط
 السمكية ، وصبية حليقو الرؤوس كليا في قصصا مزقة ، وجلسوا
 على المقاعد بهدوء أيضا . وكانت وجوه الكثيرين شفافة تبدو شائعة
 من التحول .

قضت كاتيا اليوم الأول كله في التعرف على الأطفال ، والجنوس
 معهم على المقاعد ، والاستفسار منهم ودعوتهم إلى مبادلة الأحاديث .
 وكانت لها تجربتها غير الكبيرة في إثارة اهتمام الأطفال في قصر وقت
 ممكن . كانت تتناول كتابا وتفتحه وتقول : «هذا كتاب . صفحات
 بيضاء وحروف سوداء ، وسطور رمادية . مهما نعمت النظر فيه لن
 تجدوا شيئا آخر . ولكن إذا تعلمت القراءة والكتابة ثم عرفت التاريخ
 والجغرافية والحساب ، وأشياء كثيرة أخرى فإن الحياة تدب في هذا
 الكتاب فجأة . . . »

وتذكرت كيف كان الفضول يلتصق في عيون الصبايا والصبيان
 في مدرسة قرية فلاديميروسكويه . وكانت تتحدث بالانجذاب شديد عن
 «القيصر سلطان» :

«ما انت قد بدأت بالتعليم أب ت . ثم كتابة الحروف على
 اللوحة . ثم أخذت تنهج الكلمات ثم القراءة بصوت عال بالتأكيد
 كلمة وراء كلمة من البداية حتى النهاية . . . وفجأة . وفي أحد الأيام
 السمعية تأخذ السطور بالاختفاء أمام عينيك ، فتسرى يدلا
 منها بحرا أزرق وموجة زاحفة على الساحل ، وتسمع حتى تكسر
 الموج على الساحل ، حينذاك يخرج من زبد البحر أربعون عملاقا

في دروع حديدية وشوذا مرعبن مبللين ومعهم رجل ملتج هو
 تشيرنوخور . . . »

وكانت تسخر وهي تتحدث هنا ، في حي بريستا ، أن كلماتها
 تبدو وكأنها لا تقع في آذان الأطفال بل لتذبل بوحشة في الصف . حيث
 نصف مربعات التوافد قد ركمت بختشب الأبلكاشي ، والطبقة الخارجية
 للجدوان قد تماقت حتى لاح الأجر . وكانت الصبايا يديهن
 النجيلية جدا بحيث يمكن إمرارها بأسطوانة من فوطة الطعام ، والصبيان
 بغضونهم الصغيرة وكدماتهم يصغون بهدوء فلا تثرى في عيونهم شح
 التسامح . . . فقد كان الجحش يفكرون في شيء آخر .

في فترة الاستراحة الكبيرة كان الأطفال يخرجون إلى الفناء ، ولكن
 يضع فتيات فقط فن يجلسن على رجل واحدة ملغيات الحجارة ، وصبيهن
 فقط يديران شجارا شكسا . أما الغالبية فكانت تجلس في ظل السياج
 حيث نما الأرطليون ، وتظل جالسة هناك ولا أحد منهم قد جلب معه
 طعاما . فقد كانوا جميعا أبناء وبنات عمال يعيشون في ذلك الحي ،
 والكثيرون من آباءهم قد خرجوا إلى الجبهة . التي أحد الأطفال يديه
 على الأرض ، وحدث في السحابة المخيمة على بريستا كالمعال .
 جلست كاتيا على مقربة وسالت بلهجة جادة :

- أنت ميتيا يتروف . اليس كذلك ؟
- آها .
- أين يعمل بابا ؟
- بابا في الحرب منذ زمان .
- وماما ؟
- ماما في البيت ، مريضة .
- وهل يكتب بابا من الجبهة ؟
- لا .
- ولماذا لا يكتب ؟
- لا شيء يكتب عنه . . . الأخبار المرححة قليلة . . . عندما
 رجل قال لماما : سائلت عشرة جنرالات جزاء على مرضك من جزاء
 الكد . انه جرى للفاية .
- ماذا تريد ان تكون حين تكبر ؟
- لا ادري . . . ماما تقول أننا لن نعيش هذا الشتاء . . .

كانت جعافل البيض تزحف على موسكو ، وكان الخريف يزحف بسرعة اكبر ، وتالتت بعض الايام الذهبية الكثبية في بواكير الخريف ثم هبت ريح عتيد من الشمال تسوق السحاب بقطعان حائلة .

ولم يكن في المدرسة ما يدفاه به . ذهبت كاتيا لزيارة ذي الوجه الزيتوني في ملحوظية الشعب للتعليم لتشتكي له . فاكتمى بان هنر راسه دون ان يصرف بصره عن وجه كاتيا العلوي . «لهم ، يا كاترينا دبشيريفنا ، فلعلك واندر حرارتك ، ولكن نفس الوقود سيكون قطعيا في هذا الشتاء . وعدوا ملحوظية الشعب للتعليم بتقدريم الحطب . ولكن الحطب في ولاية فولوغدا يجب نقله من هناك بالعربات . . . وعلى العموم تكلس في الموضوع واضغط حيثما يمكنك ذلك . . .»

وكان الاطفال يأتون الى المدرسة مزقين ميللين في معاطف خفيفة ، او في ستر مهماتهم التي لا تصلح الاملتقيها في الحدائق لتخريف الطيور حتى ان كاتيا قررت اشيرا اللجوء الى طريقة النهب الصريحة . وعينت يوم عمل تطوعي لتعليم الاسيجة . وفي مساء داكن وتحت ضجيج الريح العاصفة قام حارس المدرسة - وهو عجوز اسم ذو رجل خشبية ، وكاتيا ، والاطفال (الذين جاؤوا جميعا تقريبا) بتعليم الاسيجة ، وحملوها جميعا الى رواق المدرسة . ونشر العجوز الخشب . وفي الصباح كانت غرفة الصف داكنة رطبة ، وخرج البخار من الجدران الرطبة ، وجلس الاطفال يشوشين . فحدثتهم كاتيا من متعتها عن الطاقة الشمسية (وكانت هي نفسها لم تعرف بذلك الا يوم امس من الكتاب المعيد «قوى الطبيعة») .

- كل ما تزول ، يا اطفال ، هذه النصة ، وتلك المقاعد والنار في الموقد ، وانتم انفسكم ، من الطاقة الشمسية . . . امتلاكها هي مهمة الانسانية . . . ولهذا الغرض يجب ان يتعلم الانسان ويتعلم ، ويتناضل ويتناضل . . . والان لتتحول الى درس اللغسة الروسية . . . ان اللغة الروسية هي ايضا طاقة شمسية ، ولهذا يجب امتلاكها جيدا . . .

وكان الاطفال في فترات الاستراحة يروون لكاتيا مختلف الاخبار . فقد كانوا يعرفون ما كان يجري في حي بريستا في موسكو ،

وحتى عند اللوردات وراء الحدود . واستتبطلت كاتيا الشيء الكثير من هذه الحكايات . وهكذا عرفت قبل ان تعرف من الصحف عن الشفرة التي احدثها البيض عند اوريل التي اخذ الجرحي يصلون منها . وذهبت صبيتان الى عائلة ميكولين لغرض تقص الاخبار حيث سمعتا ان صبيتان ميكولين الغراط قد عاد من توه الى بيته وقد تقب الرصاص جسده . رفع المسكين جسده على السرير قتيلا - وكان الاطباء قد الزموا الزاما قاطعا بالاستلقاء على السرير - وسمعت الصبيتان باذانهما يصرخ في حضور زوجته وامه بصوت موحش :

- عندنا خيانة في الجبهة ، خيانة ! اعلميانى ورقا وحريرا لاكتب لغلامي ايليتش لينين ! ان افضل البوليتازيين يشبهون دما ، وتفظيهم الارض الرطبة . ولكتمهم لا يريدون ان يسموا موسكو للجنرال الابيض . . . لسنا المولومين في سقوط اوريل ، بل الخيانة .

وحين سمع ميخا بتروف بحكاية الصبيتين امتنع لونه فصار بلون العاقل المجهض ، وامتعت عيناه معدبتين حتى ان كاتيا جلست الى جانبته على مقعده ، وضمت راسه الى صدرها ، الا انه حر نفسه سامتا ، فلم يعد مكتنكا بالشرية والمداعبة .

هطل المطر غزيرا لعدة ايام . وبدت بريستا غاطسة الى الركبة يوخل سائل بلون كامد . وكان الاطفال يأتون مدهولين تماما من الاشاعات الرعبة التي كانت تنتشر في المدينة كالمطايون . وكان من الصعب حمل الاطفال على تركيز اذهانهم على الدروس . لم تحضر الفتاة الصهباء كلافديا للجمع والطرح فالتجرت باكية برارة في منتصف درس الحساب . دلت كاتيا منفتحتها بالقلم :

- كلافديا ، اضبطي نفسك حالا .
- لا افهم ، يساع ك يا

- ماذا حصل ؟
اجابت الفتاة بصوت فيه حشجة :
- تقول ماما : على اية حال لا جدوى لك من تعلم الحساب ، يا كلافديا . . .

- ما هذه البلاهة ! امك لم تقل ذلك قط .
- لا ، انها قالت : لا فرق في الامر . خرجت من الوحنل

وستعودين الى الرجل . . . الضباط سيدوسوننا جميعا يخيولهم . . .
عند هبوط الظلام ذهبت كاتيا الى دورة نحو الامية منسلة في
درب الصق ما يكون بالاسميعة لكيلا تيلل فعميها قدر الامكان ، وتوقفت
يباس عند مفترق طريق غير عارفة كيف تعبر الشارع . في ذلك المساء
لم تأت اية امرأة من بين النساء العشر التي كانت تعلمهن في شقة
العامل تيسستوكوف الذي ارسل الى الجبهة قبل فترة قصيرة ليكون
مفوضا . قالت لها زوجته التي تزوجته قبل ستة اشهر ، وهي الآن
حبل وتحفة للغاية تنتشر البقع الصفرة على وجهها كله :
- توفني عن البحر ، اليانا وانتظري قليلا . مالنا ولهذا الامر
الآن . . . ثم ان ذلك سيكون افضل لك .

واطلعت كاتيا على رسالة صغيرة لزوجها من الجبهة : «لونيا ،
هيش اترك اذا استولوا على تولا ، فاننا لن نتخل عن موسكو الا عبر
آخر جنة . . . اكتب لك على عجل مع شخص ذاهب الى موسكو . . .
ربما ياتي اليك ضابط هو الزيفي روتشين ، كوني على ثقة به .
سيخبرك بكل شيء - ولطيف لو يسمعه وفاننا . . . وليساعدوه اذا
احتاج الى شيء . انا ورسم كل شيء ، حي ومعالي ، وقد تعلمت ركوب
الخيول ، وذلك ما لم يخسر على بالي قط .»

- نحن في انتظار الزيفي روتشين هذا . ولا ادري لماذا لا
يأتي - قالت زوجة تيسستوكوف وهي تنظر الى النافذة المبللة -
عندئذ تعالي واستمعي . . . سارسل صبيحة لتستدعيك . . . من
روتشين هذا ، لهله زوجك ؟

اجابت كاتيا :

- لا ، زوجي قتل منذ زمان .

ولدى عودتها الى بيتها اشعلت النار في الموقد العديدي الصغير
بديخته المتصلة بفتحة في نافذة التوبة - كان يسمى «التحفة» لان
هذه الموقد المسماة بهذا الاسم كانت كالنحل تخرج حين تشعل بقضبان
الخشب - وقد صنعه عمال بريستا ، وتصبوه بالفضة في حجرة
كاتيا ، فترضين ان عملتهم ستكون اكثر مقدرة على العمل اذا نامت
في غرفة فيها شيء من الدف . شعلت كاتيا حذاءها المبلل وجوزيها
وتنورتها المبللة بالوخل ، وغسلت قدميها في ماء شديد البرودة ،
وليست ملابس جافة ، وصبت الماء في السخان ووضعت على «التحفة»

واخرجت من جيب معطفا قطعة من الخبز الرمادي الخشن وقطعتها الى
قطع صغيرة ووضعتها على قوطة نظيفة الى جانب كوب الشاي وملعقة
فضية . وقامت بكل ذلك وهي في ذمول . وحين انصسق باب المطبخ
وترددت في الدهليز خطوات ماسلوف الشاحطة البطينة بشكل لا
يحتمل ، سارت كاتيا ودقت باب غرفته .

- اها ! احتراماتي ، يا كاترينا ديميتريفنا . تفضل اجلسي .
طقس شربير . . . بينما اترك تزدادين ملاحا . . . نعم . . .

ولسبب ما كان مقتضا في ذلك المساء بشكل غير مألوف وحين
سالته كاتيا : ما الذي يحدث ولماذا هذا الفزع في كل مكان ؟ لم يسمع
بوجهه عنها . ورسم على شفثته الرقيقتين ابتسامة من اكثر ابتساماته
الهازقة مسخرة :

- يهكم ان تعرفي الاخبار الحزبية ام شيئا آخر ؟ الجبهة ؟
رجالنا يضرهون . وماذا يمكنني ان اقول لك بعد ؟ يضرهون ! اعا في
موسكو فهناك مزاج تفاؤفي بشوش ، كما هو دائما . . . تعينة عامة
للمشروعين ضد دينيكين . . . وفي پتروغراد تفششات عامة في الاحياء
البرجوازية . واتخذ قرار بالغلاق جميع المعامل والمصانع بسبب نقص
الوقود . . . ثم الخير الاخير المشجع كليا : اعلن عن اعادة تسجيل
البطاقات الحزبية ، اي التطهير التام . . . وبهذه الطريقة نحسب
اننا سننتصر على دينيكين ويودينيتش ، وكولتشاك . . .

وجرجر قدميه في الغرفة التي تنازرت فيها اعقاب السيكلار ، وقد
تمل شريطا سرواله الداخ السهلولان على رسميه من تحت بنطلونه
المبلل القلر . . . كان اثناء سيره يظلمن بسلاميات اصابعه مطلقلة
موهنة بسبب وخاوته . وكرر بصوت هازي :

- وبهذه الطريقة نحسب اننا سننتصر . طبيعي ان هذا كله
غير مفهوم لك . . . ولا غرابة في ان يكون غير مفهوم لك . . . والاغرب
من ذلك بكثير ان يكون غير مفهوم لي ايضا . . . انا لا افهم شيئا
بعد الآن . . . الاشتراكية تقام على قاعدة من الحضارة المادية . . .
الاشتراكية اعل شكل لانتاجية العمل . . . نعم . ومن الضروري وجود
طبقة عاملة عالية التطور كثيرة العدد ؟ وكيف لا ! لقد قرأنا كارل
ماركس . قرأناه بتمعن . . . لا ياس ، سنستغل انفسنا باعادة
التسجيل . . . ما تزال لنا فضلة من قوة . . .

وهكذا لم تعرف كاتيا منه شيئا ذا جدوى . وفي مفوضية الشعب للتعليم ، حيث ذهبت في اليوم التالي لتتلقى التعليمات كان هناك تيار من الهواد البارد في العمر الرئيسي ، وذلك شيء لم يحدث من قبل قط (فعلنا نافذة تعطلت او فتحت عن عمد) ومع ذلك فقد كان المستخدمون يجتمعون في كل مكان في جماعات متهامة . ولم تجد كاتيا طائلا من تنقلها من غرفة الى اخرى ، الا ان مستخدمة واحدة فقط ابلغتها ، وهي تخلص انها في يانتها المحكومة من فرو الثيران : -
 - لعلك ما زلت نائمة ، يا مواطنة ، فلا تعرفين ان من المحتمل ان نجلو الى فولوغدا .

ثم حدث تغير حاد بنفس الفجأة . في الصباح ، وحالما تورت الدنيا ، هربت كاتيا الى المدرسة . وفي شارع سادوقيا اضطرت الى التوقف والانتظار . مررت فصائل مسلحة من العمال على الوحل المتحجر محطة البرك المتجمدة تحت اشجار الزيزفون الضخمة الجرداء والريح تمول فيها كما تمول في الشتاء . ومرت وراهم عربات ثم طوابير اخرى متكاثفة الصدفوس تسير ببطء ، وكانها تحت تعويذة من السحر . وهنا وهناك كانت اصوات خشنة نازحة تنشد «التشيد الاممي» . وكانت قطع القماش الحمراء التي يحملها قد كتبت عليها بجمالية وبحروف معوجة : «الجيش الى الضلال ضد عصابات دينيكين البيضاء» ، «عاشت الثورة البروليتارية في جميع العالم» ، «الموت للبرجوازية العالمية» . وظلت الطوابير تتابع طالعة من طلعة صباح غائم . حدثت كاتيا في تلك الوجوه غير الحليقة التحيلة المرهقة الداكنة ، وبدا وكأنها الطبع على عيونهم وشفاهم المطبقة تماما تعبير واحد عن عذاب مقهور وتصميم ورادة لا تغلب . . .

وفي المدرسة ما لبثت الاطفال حتى فصول الاخبار لكاتيا : بالامس كان لينين في المصنع الميكانيكي في بيرستا ، وبدا اسبوع الحزب .

على مسافة غير بعيدة عن فوزوليج انضم فيلق كوبان تحت قيادة تشكورو الى فيلق ماموتوف . فاضع ماموتوف ست فرق خيالة مقابل فرقتين لدى بوديوني . توقف ماموتوف واخذ ينتظر بوديوني . كان ماموتوف حذوا . خصص جزءا من القوات لتعريض

الدفاع عن فوزوليج واعاد تنظيم الفيلقين وشكل منهمما ثلاثة طوابير واختار موقع المعركة الذي ستطوق فيه خيالة الحمر ولباد - وكان حقا شاسعا ينتهي بسدة خط جديد يسير عليه قطار مصفح كالمسحاة الفولاذية ذات مدافع من ست بوصات .

كان بوديوني جريئا وشديد الاحتراس في الوقت ذاته . وقد تلقى معلومات مفصلة عن جميع استعدادات الجنرال ماموتوف ومناوراته كانت احدى الفتيات الصغيرات تخفي تحت منديل رأسها تحت الضفيرة مذكرة يخط مغربس او احدى العجائز المسكينات تحمل كيسا لقطع الفضلات تعبران نقاط حراسة البيض - وما اقل من تعويذة فتاة فقيرة او عجزو يعافها اي فوزالي باسمزاز - وتتصلان برجال بوديوني للاستطلاع وتقديم لهم المعلومات .

توقف بوديوني بين الغاية والمستنقعات دون ان يتقدم الى الحقل العريض الذي بين الهلاكه . وامر بان تطعم الخيول حتى الشبع ، وان تخلص مدواتها فحسا جيدا وكانت الحذوات مدفوعة في قوائم الخيول الامامية فقط . وامر بان تستكمل عدة الذخيرة وان تستبدل عصيدة الدخن التي ضجر المقاتلون منها . وان يقدم لهم اللحم المملح المغنوم مع الفول ، والعليب المملح المحلى والبسكوت المسكر من مختلف الانواع ، والتبغ العمق لينعموا حول التيران . وكل ذلك قد اخذ من «الترسالة المتنقلة» وهو الاسم الذي اطلق على طوابير عربات البيض الترية . وكانت في تلك الآونة تخرج ليلا ونهارا من فوزوليج الى ماموتوف . وكان سميرون بوديوني حريصا بشكل خاص على الاستيلاء على البنادق البياتانية الجديدة لتستبدل بها ، حسب الامكان ، البنادق القديمة التي استهلكت في المعارك ، وعلى ادوات الكتابة ايضا .

وبالاحتماء بالغاية والمستنقعات كان من الممكن ان ياخذ المقاتلون قسما وافيا من النوم قبل العملية الخطيرة . ولكن هذه العملية - الاشتباك بالسلاح الابيض مع ست فرق من فرق الدون - بدت للمقاتلين خطيرة جدا حتى ان القليل منهم اخذوا للسكينة . فنهضوا خيولهم تنظيفا لاما جدا ، لا تنظيفا عابرا واصلحوا المروج ، وشحذوا السيوف . ولم تسمح في الوحدات امان ولا اكورديونات ، وجرت

كتافياتهم - بل في خط مائل على جذوعهم ... وهكذا خلقت الافواج
الاربعة مطروحة في التل مطنونة مغرورة بالرياح في الارض
شي، فطبع ا

كان لاتوغين يتضايق حين يتحدث شخص بحضوره بشكل
جذاب ، فقاطع المحارب القديم هذا :

- اها ، كان ، وما اكثر ما كان ، انها مجرد صدفة ... ولكن
حدثنا كيف استولى ثلاثة من رجالنا الحمر على كتيبة المانية ... لا
تعرف ؟ اها ! كان يجب عليك ان تعرف ...

- حيا ، حدثنا ، يا لاتوغين .

ترددت اصوات بذلك ، فزكع على ركبتيه قرب النار ، ولبس
جمراته التي اضاءت وجهه الناحل الذي لم يبق فيه غير العروق بعد
لثلاثة اسابيع من التقلب على السرج : وكان تليفين منذ البداية قد
سجده في كتيبة المقر مع مخافين وزادويش ، وخلال شهرين امتلات
خدودهم بعض الشيء ، وهم الآن فرسان في الكوكبة .

- كان معنا في الجيش العاشر رجل يدعى لونكا شور لا تكاد
تجد مثيلا له في الطعن من ولو احسنت التفتيش - بدأ لاتوغين حديثه ،
وقد وضع يديه على مقبض سيفه الذي اغرست نهايته في الارض -
في الشريف الماضي ، وقبل ان يخرج من لواله الاوكراني ، طلع في
دورية استطلاعية مع رفيقين له ، وبينما هم سافرون ودون ان يخطر
لهم على بال اصطداموا بالالمان ، وبكتيبة كاملة منهم لا اكثر ولا اقل .
الزوى الالمان في مكان قصي يطبخون لهم حساء ...

قال احد المستمعين :

- ما هذا الكذب ا الماني يطبخ حساء في مكان قصي ...
التي لاتوغين نظرة ثقيلة على هذا الرجل :

- هل اشرح لك لماذا كانوا يطبخون الحساء ؟ .. حسنا ..
كان الالمان في طريقهم الى وطنهم ، فقد قامت ثورة هناك ... وفي
اوكرانيا حيث جميع القرى في تلك الانحاء ولصبت الرشاشات في كل
مكان ، ولطموا الطرق ، فجاج الالمان ... هل فهمت الآن ؟ وقبل ان
يستطيع الالمان ان يتهايوا للقتال ، اخرج لونكا من حقيبته قطعة
نظيفة من لقافة الساق ، ونحزها بالسيف ، وسار نحوهم بجراة قائلا
«استسلموا . انتم محاصرون بقوة كبيرة من الفرسان ، ونحن لا نؤي

احاديث صنيقة العائى ، وعين تقع ابصارهم على المفوض يلحون له
قائلين «تعال هنا ، يا شيوبي . فل لنا ايها الرفيق العزيز ... اذا
قضينا على ماموتوف فهل نستولى على فورونيج ، فان لهم هناك ثروة
لا تخسر على بال ...» وكان المفوض يرد بان سميون بوديوني لم
يصدر امرا حتى الآن بخصوص فورونيج - وعند ذلك كانت المناقشات
تبدا : هل تستطيع الخيالة الاستيلاء على متعلقة معصنة ؟ فكان بعضهم
يقول : ممكن بالحاس الشديد ، والبعض الاخر يؤكد ان ذلك مخالف
لكل احتمال .

كانت كوكبة تليفين المكلفة بواجب الحراسة تتخذ مواقعها
عند حافة مستنقع . وال الجنوب خط كانت تلوح فيه دوريات البيض
بين الاوتة والاخرى ، وكان معروفوا ان احد طوابير ماموتوف الثلاثة
يتجمع في تلك الناحية . وفي المساء كانت السحب تعكس ويمضا
خافتا لثيراتهم .

في هذه الكوكبة ايضا كانت تدور احاديث كثيرة حول المعركة
المقبلة التي حصدت لها من الخيالة هذه الحشود الجبارة الضخمة على
نحو لا مثيل له . وقد ذكر فارس قديم يدعى غوربوشين ان معركة
واحدة مثل هذه قد وقعت في عام ١٩١٤ قرب برودى . اذا هاجمت
فرقة خيالة نمساوية مؤلفة من اربعة افواج فرقة خيالة خفيفة روسية
هجومًا متحفا ولكن النمساويين بعد هذه المعركة سحروا كل خيالاتهم
الى المؤخرة ... قال الفارس القديم : قد هاجموا من الاعلى ، من تل
يريدون ان يحصروا جماعتنا في واد . الا ان رجالنا خرجوا للقائهم من
الوادي الى التل ، وعلى كل جناح اربع كوكبات من الخيالة القوزاق من حملة
الرياح ، والاولايون في الوسط حاملين الرياح والفرسان الاختريون
(الهورسار) بقعاتهم ذات الاشرطة الصفراء والحواشي الصفراء لثياتهم -
وقد كانوا فرسانا جسورين ا ثم يدرك رجالنا ان النمساويين لن
يستطيعوا ان ينطلقوا بخيولهم من التل بتلك السرعة . وحين بدأوا
يقتربون منا ، يوشوا بوجبة من العرامة من جانبنا لم يكونوا
يتقوهمنا فحاولوا ايقاف خيولهم ، ولكن الوقت قد فات ! وهاجمهم
وجالنا بالرياح من الاسفل مما يسهل الامر . تزوق نمساويا برمح
ولتركة ، ثم تنطلق مخترفين صدفهم ، وتتحول ولطنع بالسيف
ليش على الكتفين - فقد كانوا يضعون صفائح فولاذية تحت

زهاء اربعمائة رجل - والعلم الاحمر في المقدمة . . . بهذا الشكل اعجبه
تحريض لوكا . . .

وعندما انتهى لاتوغين من قصته - وهي اروع بكثير من قصة
غوروشين - قصة المعركة عند برودي - اخذ المقاتلون يضحكون
ضحكا شديدا ، فبينهم من سهل وابدى كل استانه ، ومنهم من منح
دموعه ، ومنهم من تاه فقلط هازا ذراعه . وتقدم روتشين من النار ،
واحتس نحو لاتوغين وقال :

- ابحت عن لغافين وزادوفيتش ، وتعال معهما الى الخيمة .

في الضباب الصباحي الابيض المنطبق على العقل كله انطلق
خمس قرسان : كان روتشين على فرس كبيت مصوص العرق وعلى
مسافة ذراع امامه كان دونديتش الضعيف الجسم امر احدى
كتائب بوديوني يتطلى جواد اسحم . كان دونديتش خلال طريق حياته
الصلب قد وجد وطنه الثاني ، والحرم بروسيا الشاسعة الاطراف
وتوتها المترامية الحدود بكل حماسة رجل بسيط النفس محب للحياة
شديد الجراءة . كان دونديتش وروتشين يرتديان عطفين ضباط
فاتح اللون بكتافيات ذهبية . والى الخلف منهما لاتوغين ولغافين
وزادوفيتش يرقلون على افراسهم في تبعات مائلة بشدة وستر من
فراء الغنم ، وعلى اكتافهم كتافيات برتية رقيب .

لقد اعطيت لهم مهمة النفاذ الى فورونيج . ومعانضة مواضع
المدفعية ومقدار قوات الخيالة المشاة ، ومن بعد ذلك تسليم
الجنرال شكورو قائده الدفاع طرفا مختوما فيها رسالة من بوديوني .
كان دونديتش يحب الحياة ، ويحب الدخول معها في لعبة خطيرة .
اما في ايام تدمير الاول المتسلطة هذه حيث كانت العضلات تتوتر من
تلقاء نفسها تحت القنبص العسكري من مجرد استنشاق الهواء
المتعش المملوء بمختلف الروائح الزكية في الضباب الصباحي فقد كان
يجه البقاء بلا عمل شيئا لا يحتمل ايضا . وقد تبرع ب نفسه ان يسلم
شكورو الظرف المختوم . راح يبحث عن روتشين حتى وجده وقال له :
- قادم بيتروفيتش ، انت رجل ملام كليا لمغامرة صغيرة .
فانت تعرف عادات الضباط ومختلف تسلكاتهم . لعلك توافق على
الذهاب معي الى فورونيج ؟ ان ذلك يستغرق يوما واحدا . وسيكون

حتى تلويت سيوفنا بالدم ، بل ندوس عليكم بخيولنا . . . وكان
بينهم مترجم ترجم لهم هذه الكلمات . رد على لوكا : « انتك في صحة كلماتك . . .
رقيب برتية ضابط صف ، رد على لوكا : « انتك في صحة كلماتك . . .
فقال له لوكا : « انت محق في شكك . امتط حصانك ولذهب الى مقر
الاركان ، وهناك ستفترح عليك شروطا معتبرة . . . تشاور الالمان
فينسا بينهم بشكل جندي ، وقال الامر « لا بأس ، ستخرج ثلاثة
مقابلك ، وفي حالة اكتشاف تحايل منك ، ستقتل في الطريق . . .
قال لوكا له « تفصل ، لن يكون هناك اي تحايل . انت تتعامل مع
مقاتلي الثورة . . . وخرجوا ، ووصلوا الى مقر الاركان . وتبدأ
المفاوضات مع الالمان . ويطلبون بالسماح لهم بالمرور على السكة
الحديد ، وباعطائهم خمسة وعشرين بودا من الدخن . ويطلب رجالنا
بان يسلم الالمان اسلحتهم ومدفعين . ويعانده الالمان ، ويعانده
رجالنا . ولوكا يحضر طوال الوقت ويقول : « ياها الرقيب امر اللواء ،
انهم جياح ، ولهذا السبب يصعب الاتفاق معهم . . دعني احرصهم ،
اطلب لهم شيئا من لحم الخنزير الجيد وخبز القمح » اما عن الخمرة
فان الشيطان لم يذكرها بشكل رسمي . فقد كان مدير الميرة صديقه
الحميم ، فاقطع منه ربع جردل . وجلس مع الالمان في احد الاكواح ،
وقطع شحم الخنزير والخبز ، وصب الكحول في فدح . وبدأ يتحدث
عن هذا وذاك : كيف ان الناس عندنا في اوكرانيا ياكلون ويشربون
بشكل جيد . ثم ان الشعب بشكل عام يميل الى التعاطف . ومدح الالمان
ايضا لانهم اطاحوا بغيوم . وعلى الرغم من ان حديثهم كان يجري بلا
مترجم في هذه المرة فان الالمان فهموا كل شيء . ربت لوكا على
ظهرهم ببيضته بطريقة ودية ، وامسك اذانهم ، وقبلهم . وبعد
قليل لم يبق وراء المائدة غير اثنين : هو وامرهم ضابط الصف .
لوكا يبذل كل جهده ، والالمان يكتفون بالضحك ومن الاصعب . . .
ويجاد رسول من مقر الاركان ليعرف كيف يجري الامر ؟ ويجيب لوكا
« بشكل سيئ » . الامر لا يستجيب للتحريض . تحتاج الى ربع جردل
آخر . . . ومن فرغا من الربع الثاني لم يبق وراء المائدة غير لوكا
وحده . وفض الالمان ليبتهم هناك ، وفي الصباح ابقى ضابط الصف
رقيقه رهنتين - على اية حال لم يكونا قادرين على امتطاء فرسيهما
بعد تلك السكر - وخرج مع لوكا . وفي المساء قاد الكتبية كلها -

ذلك مسيرة طيبة على ظهور الخيل . وقد وعدنا بوديونى بفرسيت لنا
هما بيتوشوك وافرورا . . .

وكان من المضحك ان يغير بين ان يوافق او لا يوافق . الا ان
فاديم بيتروفيتش تضايق فقط من تذكيره بتسلكات الضباط . ولكنه
في واقع الامر اضطر ان يقضى المساء كله بتعليم رفاقه كيف ينبغي على
ذوى الرتب الواطنة ان يلقوا بهيئة استعداد ، ويؤدوا التحية العسكرية
ويردوا ، وما هو المظهر الخارجى لضباط جيش المتطوعين ، وكيف
ان رجال درزوف بسحرة التكم البادية على وجوههم يجوبون ليس
النظارات الانية تكريما لرئيسهم الراحل ، وان رجال كورنييلوف
يتميزون في العادة بنظرات كابية ، وعن وجوههم غيبة امل مشتمزة ،
وان رجال ماركوف يتباهون بمعاطف قفزة ولغة قاحشة .

وانفق على انهم اذا اوقفوا وسئلوا فانهم سيردون : «نحن نحمل
طرفا سريانا الى فورونيج من امر الفوج الاحتياطي التطوعي الذي وصل
الى منطقة كاستورتايا من الجنوب» . فان ذلك جواب مبهم ومقنع .
وبعد زهاء ثلاث ساعات من السير الحثيث ، لاحت فورونيج في
الضوء الصباح الذي كان يقلت لفترة قصيرة من تحت سحب رصاصية ،
فبغت القباب وابراج الحريق والسطوح الضاربة الى العمرة . لم
تعرضهم دورية واحدة خلال الطريق كله . فقد كان رجال العورية
ينظرون في منقاراتهم الى الفرسان الغمسة الذين يجوبون بالفراسمهم
باتجاه المدينة . ويراصلون طريقهم بدون عجل . وقد حصل التأخير
الاول عند الجسر . فقد كان هذا الجسر الخشبي غير المتين موضوعا
تحت الحراسة يسير عليه رجال مهيبون يرتدون طبايات بلا طليقات ،
ومعاطف بيضاء من فراء الاغنام كتلك التي ترتديها النساء في اوكرانيا ،
وجميعهم قد ارسلوا لعاهم لسبب ما . وفي الجانب الآخر وقت
جماعة من طلاب المدارس العسكرية قرب خنادق رأس الجسر
تدخن .

اوقف دونديتش فرسه ، ووقف منه ، واخذ يشد ازمته . وقال
بصوت خفيض :

— ليس من المستحسن تماما ابراز الهويات المؤلفة . تم ان
الشهر ممثل بالمياه . وخوضه في موقع ما ، والتبطل حتى الرقبة امر
ينطوي على عاقبة اسوأ . ستضطر الى عبور الجسر على خيولنا .

قال لاتفين بلهجة كنيية :

— حسنا . سنتخلص منهم بالشتائم .

وهنا قال زادوفيتش وهو يكاد يختنق بضحكته :

— اوى ، يا رفاق . احساب بالعنسى اذا لم يكن اللذين على

الجسر قسما ، اصحاب اللحم . . .

— الى الامام سر ، واضطر المرع .

قال دونديتش ، ووقف الى سرجه كالقط . ضج ذوو اللحم
على الجسر باصوات متناغرة : «قف ، قف» . اتجه دونديتش نحوهم
مسكا العنان بقوة لاكزا بيتوشوك بهمازيه . الا انهم رفعوا اصواتهم
بصياح شديده ملوحج بالبنادق حتى ان فرسه اخذ يتراجع على رجليه
الغلغيتيين خرابا بذيذه في غيظ . اضطر دونديتش الى التوقف .
ارتفعت بعض الايدي لتمسك باللبجام . فصرخ لاتفين دافعا
بخصائه :

— جننتم ! تمسكون بلجام سيادته ! من اتم على اية حال ؟

اروتى الوفاق !

— سكوت ! اوقف خصانك ! — قال دونديتش له بهدوء وعبر
كتفه ، ثم التحى على سرجه نحو ذوى اللحم وقد ابتسم عن اسنان
بيض من تحت شاربيه البارزين :

— هل تطالبون ترخيصا لعبور الجسر ؟ ليس لدى . . . انا

المقدم دونديتش ، ومن حراسي . هل يكفيكم هذا ؟ شكرا لكم . . .

واطلق بيتوشوك الى الامام ضامكا حتى ان الحصان حطم وشب

على رجليه الغلغيتيين ميديا يطنه الرماذي المغلبي ، ووقف مارا

بشوى اللحسي ، وهم لا يكادون يجيدون الوقت لان يشتحوا . الا ان

دونديتش شد على العنان في الحال ، وتحول الى السير الوتيد ، وعلى

السامر الاخر يسما فرج . القسي الطلاب العسكريون

سيكارتهم وتراكضوا نحو الخنادق الطينية واذايل معاطفهم الطويلة

حتى الارض تتشايك بين ارجلهم ، ومن هناك وجهوا قوهم وشامتتين

نحو الفرسان . وصاح امر استحكام الجسر — وهو ضابط طويل له وجه

رغو مشبوب — ماطا الكلمات ببطء بصوت وقع مألوف جعل روتشين

يطبق اسناله باشمترزا :

- هاي ، يا من على الجسر ، ترحلوا واعدوا الوثائق ...
 ساعد الى اثنين ، واقنع النار ...
 فتح دونديتش فمه باتجاه روتشين :
 - لا مقر من الهجامة ...
 وامتدت يده الى سيفه . فاولفه روتشين بحركة سريعة .
 - تبلوف - نادي روتشين علسي الضابط الطويل -
 اترك الرشاشين .. هذا انا ، فاديم روتشين ...
 وترجل عن حصانه على مهل ، وقاده من مقوده . وسار عبر
 الجسر وحده . كان هذا الضابط هو نفس الشخص السهمي فاسكا
 تبلوف السكير المتباهي الاحمق - الذي كان في فوج روتشين في
 الماضي - والذي حلقه روتشين ذات مرة من جذع من انه سيحطمه
 وجهة على تخرسه وبذاته . نظر تبلوف بارتباب الى روتشين وهو
 يقترب . معيدا مسدسه الى قرابه ببطء .
 - لم تعرفني ... ربما من قرط السكر ؟ مرحبا ، يا فتى -
 ومد روتشين له يده دون ان يخلع القفاز - ماذا تعمل هنا ؟ اراك
 قد جمعت لنفسك جماعة من ذوي الكروش واللعى ، يا للحفاقة !
 لقد حان الوقت لان تكون امر فوج ... انزلت وتبتك مرة اخرى ؟
 على السكر ، بالطبع ؟
 - اوه . يا للشيطان ! - قال تبلوف صافرا بالحروف بسبب
 الغررة السوداء التي لاحت تحت شاربيه بدلا من الاستان الامامية -
 فاديم روتشين ا ... - واخترج الكيسان الصغيران الاحمران تحت
 عينيه . يا للسماه التي انزلتك ... اعتبرناك حاربا ...
 - شكرا ا ...
 وحقق روتشين في عيني تبلوف تحديفة صلبة حادة (شعر
 تبلوف بالحرج من هذه النظرة ، فرأى من الافضل الا يستمر في
 الحديث عن الهروب) وقال روتشين :
 - ان لكسم رايسا جيدا جدا عنى ... كنت طوال الوقت
 في اوديسا عند فريشين - المازوف ... وانسا الان رئيس
 اركان الفوج الاحتياطي العادي والحسين . ربما تريد ان اريك
 واثاقى حقا - سال روتشين متحديا واستدار ولوح متاديا -
 دونديتش . تعال .. تستطيع ان تبقى على فرسك ..

لغر تبلوف في غضب لا غير ، وكان دائما يتوجس من روتشين :
 - كف عن التصديق ... اراك قد انفلتت طريفة خاصة في
 التحدث معي ، يا روتشين ... الى اين انت ذاهب ؟
 - الى الجنرال شكورو .. جلبنا لكم فوجا ليعاونكم . يقولون
 انكم خائفون من بوديوني كثيرا ...
 - عندنا فوضى ... جندنا جميع المدنيين ، والجنرالات
 المتقاعدين ، والوطنيين البهايم ... وحتى القساوسة البسوم
 البرذات العسكرية ، وارسلوهم لي .
 اخرج روتشين علبه السيكاكز ، وكانت فيها سيكاكز اجنبية
 استولى عليها يوم امس من طابور مقر القيادة . دخن تبلوف ونفت
 الدخان الزكي الرائحة على شاربيه . وقال متعجبا :
 - هذه السيكاكز الاجنبية الحقيقية ! من اين هي ؟ اما نحن
 نقدمون لنا التبغ البينى ... وهو يسبب حرقة جهنمية . اعطيني
 ارجوك سيكاكزتين على الاقل للاحتياط ...
 - كيف تعيش ، يا فاسكا ؟
 - اعيش عيشة الخنازير . بلا تقود .. شجرت من كل شىء -
 والتي من تحت حاجبيه نظرة جانبية الى دونديتش الذي قلز من
 حصانه ، والى الفرسان الجهين الثلاثة وراءه . وقال - اذا كنتم
 تظنون يا سادة ، انكم مستقضون وقتنا متعنا في فورونيج فانتم على
 خطأ ... الاوغاد الحمر اتوا على كل شىء . ما عن حالة واحدة ، ولا
 ماخور واحد . لا مكان للراحة مطلقا ...
 قال روتشين :
 - لافتركما : المقدم دونديتش .
 - الكابتن تبلوف .
 وتبادلا التحية العسكرية . غص دونديتش بضحكة وجهه
 الاسمر وعيناه تنقلبان بسرعة ، وقال :
 - مع الاسف ، مع الاسف . بينما كنا نعلم في الواقع بان
 تلقى وقتنا متعنا . عندنا ما يكفي من التقود ...
 - طبعا توجد فتيات في الشفق الخاصة ، ويمكن الحصول على
 الفودكا الممتازة ، والشمبانبا مخفية عند المضاربين . فمن
 الزجاجاة غمسامة روبيل اقطاعة ا - وترادى العنق في عينيه

المترجمين اللذين تسحان دعما باستمرار - السلطة العسكرية تعامل هؤلاء المضاربين معاملتها للقديسين ... منتقلو الوطن ... في تامبوف صادف ان شربنا كثيرا ، وكانت قائمة الحساب فظيعة ، وليس لنا ما ندفعه ، فخرت صاحب المحل في وجهه وانصرفت .. فانزلوا رتبتي .. وهكذا ، يا فاديم ، يسود شعور الكبت في وحداتنا ، اننا ، على اية حال ، نضحى بحياتنا .. والشباب يزول .. وماذا ينتظرنا في المستقبل ؟ موسكو المهيمه ؟ افلاس .. من حسن حالك انك انهيت الجامعة . يمكنك ان تخلع البزة العسكرية الثقيلة وتلقى محاضرات ايا كانت .. لما انا فسامفي في هذا العمل الرتيب المشجر .. وفضلا عن ذلك لن يسعوا لنا بالاحتفاظ ببعض حيتي ...

قال دونديتش :

- انت بحاجة الى تغيير الجو ، يا كابتن . لنذهب الى المدينة ، ليس لنا من عمل سوى ان نسلم الطرف للقائد . وبعد ذلك نرحل طوال الليل .. انا مسؤول عن الشيشانيا ..

- اوه ، اللعنة ! - قال تبيلوف ذلك وحك ما وراء اذنه - لا يلبق ان اترك موقعي بدون سبب معقول ...

قال روتشين :

- سلم القيادة الى الاقدم في الخطورة .. وقل لامر الموقع انك اشتبهت بان تكون رجال استطلاع حمرا متخفين .. في اسوأ الحالات سينتعلونك بالمغفل ...

فتح تبيلوف فمه الخالي من الاسنان ، ووقفه وقال وهو يمسح عينيه :

- هذه فكرة ! بل وحتى اردت ان اعتقلكم ...

- عين الصواب ...

- يا ضابط الصف الاقدم غوزديف 1- صاح تبيلوف بصوت مرح رنان ، واستدار نحو الخندق ، حيث عاد الطلاب العسكريون يتجرون حول الرشاشة . وعندما تقدم ضابط الصف الاقدم - وهو غلام في نحو الثامنة عشرة ذو عيشين زرقاوين وتحيتين - وادي التحية بخلعة رافعا كوعه بسوازاة كتفه ، سلمه تبيلوف القيادة ، وامر بتهيئة فرس .

في الطريق الى المدينة روى تبيلوف ، وهو يتقلب على سرجه من نفاذ الصبر ، كل المعلومات المطلوبة : ما هي الوحدات العسكرية الموجودة في غورونيج ، ولم يوجد فيها من مدفعية ، واين مواقعها ... - فزع حيواني ، ولا شيء غير ذلك ... اريد ان اخبركم بان

كوتيبوف اصيب بالفشل بالقرب من اوريل ، حتى ان رجالنا اصيبوا بهزة فظيعة .. ان ذلك لم يحدث من قبل قط .. انت تذكر الحملة الجليدية ، يا فاديم ! ليس عندنا الآن غير تعبير واحد يتكرر : «لقدنا العزيمة ... نعم ، نعم ، ان شيتا قد فقد - الحاس السابق .. ثم ان الفلاحين هنا اتقنوا اوغادا . ينظرون كالذئاب .. ان الجنرال كوتيبوف على حق تماما ، يقولون انه رد على القائد العام بحد : «يمكن الاستيلاء على موسكو بشرط ان يقدم للسكان الاصلاح الزراعي والمشتقة ... بحيث لا يبقى عمود تلغراف واحد فارغا ... ان يعبري الشنق كما حدث ايام يوغاتشيف ليشمل قري بكاملها ... كل ذلك على اية حال ، قصة مشجرة .. اعطوني احد العناوين : اثنان خدمتان للغايسة تعزقان على القيثارة وتغنيان الاغاني الرومانسية .. تغليان اللب ، يا فتى ! دعولنا نذهب اليهما راسا ...

والظاهر ان تبيلوف كان معروفا جدا ، فان بعض الدوريات التي التقت بهم اكتفت بإداه التحية حتى دون ان تغلف نظرة جانبية على دونديتش وروتشين . وفي الشارع الرئيسي اعطلوا ال مدخل حديدي لاحد الفنادق . نزل تبيلوف من فرسه ، ومد رجله ، وقال بشيء من العجل :

- لا احب ان اؤذي العين اكثر من اللازم . من الافضل ان انتظر كما هنا ... القيادة العامسة في الطابق الثاني .. فقط ان تستعجلوا ، يا سادة ... تم توجه بكلامه الى الفوزافي الكوياني الجدد الوجه ذي الشاربين القصيرين الواقف عند المدخل وقال بحد - دعهما يدخلان ، يا ابله ...

ارتقى دونديتش وروتشين سلمسا من الحديد . كان قد كتب على طرف رسالة يوديني «الى اللواء شكورو . شخصي ومسر ..» وكان قد تقرر ان يسلم الطرف عن طريق المرافق . كان ديوان الاوراق يحتل قاعة المطعم ذات النوافذ مغلقة الملائ . دخل

دونديتش وروتشين القاعة ، وفي نفس اللحظة ومن الباب الاخر دخل شخصان : احدهما طويل ضخم في وجهه الجميل الخشن الملامح سيلتان غزيرتان . وكان يسير على عكازة نغمت ابط معطفه الرمادي الفاتح ، معطف الجذالات . وقد عرف روتشين انه الجنرال مامونتوف . اما الثاني الذي كان يرتدي سترة بركسية بنية فقد كان له وجه ملتهب عالي الوجنتين شقبي الملامح ففتحنا متفريسه واستعان ، وانفقه مرتفع . لقد كان ذلك الجنرال شكورو . وتوقفا عند منضدة كان يجلس اليها شابك ارکان صغير في بنطلون لركوب الغيل عريض كجناسي خفاس ، يمل شيئاً على فتاة شقراء حلوة السمات كانت تشمر يديها عالياً وتطبع على الآلة الكتابة .

اشار روتشين لدونديتش على شكورو سائلاً ما العمل الان ؟
وفي تلك اللحظة التفت مامونتوف فوقف بصره على شابطين غير معروفين له ، فامر بصوت عالي النبرة :

تقدموا ، ايها السيدان . . .

انخد روتشين هيئة الاستعداد عند الباب ، وتقدم دونديتش من شكورو :

لدي رسالة لاسلمها الي فخامتكم .

كان شكورو يقف وظهره الي دونديتش تقريبا ، ولم يلتفت ، واكتفى بان حرك رقبته القوية الحمراء التي اغرقت فيها ياقته المطرزة ، ورفع شفته العليا كالذئب ، وسال دون ان ينظر الي وجه محدته :

من اين الرسالة ؟

من امر الفوج الاحتياطي الحادي والخمسين الذي وصل الي الشاطئ الايمن للعدون انتظارا لاوامركم . . .

من اين هذا الفوج الحادي والخمسون ؟ - واستنداد

شكورو ، الا انه ظل على جفاته ، وتناول الرسالة ، وادارها في يده وقال : من الامر ؟

احس فاديم روتشين الذي كان واقفا عند الباب ببرودة غير مريحة ، وانزل يده في جيب معطفه الي مقبض مسدسه ، لقد تحلرت الامور الي درجة عالية من الحماقة والتفكك واللاجئوي . الان سينطلق دونديتش باسم سخيف . . . يا لانس ! كان من الممكن ان يتلقوا ليوديوني معلومات قيمة .

- يقود الفوج الحادي والخمسين الكونت شامبرتن - رد دونديتش بذلك على السور ، وجابه بنظرة مرحة نظرة شكورو الجائبة الناعمة العابسة : هل تسمح لي بالانصراف ، يا صاحب الضخامة ؟

- انتظر ، انتظر ، يا مقدم - قال مامونتوف واخذ يستدير نحوه على عكازته بحركة غير متقنة - يبدو لي انه اسم مالوف - ولجأت لوي الامم وجهه الجميل اللعيم ، فان حركته غير المتقنة جعلت الجيرة تحتك بسائفه التي حطمتها رصاصة في الاسبوع الماضي ، حين كان يهرب من يوديوني على عربتسه . وتمتم : - اوه ، اللعنة ، اللعنة . يمكنك ان تصرف ، يا مقدم . . .

اذي دونديتش التحية العسكرية ، وقام بنصف استدارة متقنة ، واتجه نحو الباب . وراى روتشين شكورو يتحدث الي مامونتوف الذي ما يزال متلوي الوجه من الامم ، ويطش ببطء الطرف الذي يحتوي على رسالة سميون بوديوني التي كان روتشين ودونديتش على علم بحتواها : «٢٤ تشرين الاول ، في الساعة السادسة صباحا ساكون في قودوتيج - آمرك ، يا جنرال شكورو بان تصف جميع القوات المعادية للثورة في الساحة ، عند السوق ، حيث شنت العمال ، وآمرك بان تقود الاستعراض بنفسك . . .»

هبط السلم الحديدى ، قابلهما طلاب عسكريون يعملون البنادق ويسيروا في خط واحد . وسيدا روتشين ان دونديتش الصغير الذي يسير امامه مرفوع الرأس مصلصلا يهتمازيه يسير على مهل شديد للغاية . وتلك شجاعة فارغة حقا ، لا ضرورة لها . . .

في الطابق الثاني في الاعلى ترددت صيحة حادة مبحوحة . خرج دونديتش وروتشين الي مدخل القنق ، ومن الرصيف اندفع تيلوف نحوهما . كان وجهه الرخو يشاربيسه المتدليين يتعطش الي الشمباتيا ، والاقاني الرومانسية ، والفيتيات . . .

- الخد لك ، يا سادة . . . لتذهب . . .

دس قدما واحدة في الركاب وحجل علسي القدم الاخرى قرب الحصان الحرن . كان روتشين على سرجه . اخرج دونديتش غلبة السيكاتر ، واشتمل سيكارة - كانت اصابعه السمراء الجافة

ترتجف قليلا - والقي عود الثقب المشتعل ، وتناول المقود من لاتفين وقال بصوت حاد :

- اول زقاق الى اليسار انطلق عدوا !

كان الزقاق الاول لا يبعد غير مسافة عشرة بيوت . كان لاتفين ومقافين وزادوفيتسر اول من استدار اليه ضاربين بلاط الشارع بسنابك خيولهم . زعق تبلوف وهو يشد عتار فرسه وبلتفت :

- يا سادة ، يا سادة ... الزقاق التالي ، الى اليمين ... الا ان حصانه انطلق به مع الجميع الى اليسار . التفت روتشين عند الزاوية ، وهو يستدير ، ورأى طلابا عسكريين يفرجون والكفين من مندمل المنطق ، ويتلفتون عجالي ساحبين ترابيس اسلحتهم .

- روتشين ، ما هذه اللعنة ؟

صاح تبلوف وهو يكاد يبكي منتقلا الى العدو مع الجميع . التصق دونديتش بحصانه اتداء العدو وانحنى ، وقبض على مشطه بيه بقوة ، وقلع حبل مندسه ، وسحب المندس من غلافه .

- وصاح كاشفا عن أسنانه :

- انا مدين لك بشبابيا !

الآن كان هو وروتشين والمقاتلون الثلاثة ينطلقون في الزقاق الملتوي بكل سرعة خيولهم مارين بالبيوت الصغيرة والاسيجة واشجار اليزوفون المعمرة التي كانت انفصافها العارية تحتك بقبعاتهم . وترددت طلقات الى الخلف - عبروا حفلا دون ان يخفوا من سرعتهم ، وبالقرب من الجسر تحولوا الى الغيب الخفيف ، ثم الى السير عند خنادق اول الجسر - نادى دونديتش مرتبا على عنق الفرس المتصاعد منها البغار :

- يا ضابط الصف الاقدم غوفزديف ! - وعندما اقترب هذا يغني سيكارته في ودله اضاف - طلب الكابتن تبلوف مني ان اتقل لك انه سيعود بعد نصف ساعة . سمعوه نحن الى هنا في صباح الرابع والعشرين ، فلا تخفنا بالرشاشات ...

- سمعا ، يا حضرة المقدم ...

وعندما صار الجسر بعيدا خلفهم ، وقد هبط المساء .

اعطوا فترة استراحة لخيولهم المزينة التي بدأت تتعثر . عند ذلك قال دونديتش لروتشين :

- انا محرج جدا امامك وامام الرفاق ... كثيرا ما لعنت نفسي على اظهار القوة . العطر يسكر ، والعقل يحد . وانسا العاشق نفسي انسى الغايصة والمسؤولية . وبعد ذلك احس بالندم ... لو ان الرفاق الآن نزلوا من خيولهم ، وسحبوني من زجلي ، وضربوني لما احسست بالتكبر ، بل وكشعرت بالتنفيس ... دفع روتشين راسه الى الخلف وتهيقه عاليا . فقد كان هو الآخر يحتاج الى تنفيس التوتر الطويل الذي ارقعه تماما .

- هذا صحيح ، يا دونديتش ، تستحق ان تضرب بشكل جيد ، لا سيما على السيكرة في المدخل ...

ونجح دعاه بوديوني . فبعد ان قرأ هاموتروف وشكورو رسالته التي سلمت الى ايديهما شخصيا بعثت تلك الواقعة المنقطعة النظر استرل عليهما غيظ لا يوصف . فان كتابة مثل هذه الرسالة وتعيين اليوم والساعة لاحتلال فورونيج يحتاجان الى ثقة . ومعنى ذلك ان بوديوني كان يملك مثل هذه الثقة . وفقد الجنرالان الاحساس بالتوازن .

كانت خطة بوديوني في دحر الغيالة البيض مبنية على ان تقوم كل قواته المتركزة بشن هجوم مضاد مباشر ضد الطوابق الثلاثة للرفق الدون وكوبان الساعيتين لتطويقه . ايضا الاعداء بالهجوم واقتصرنا على اعمال الاستطلاع . والان اضحي بوديوني وانسا انهم سيهجون عليه دون ان يحفلوا بالعواقب .

في ليلة الثامن عشر من تشرين الاول اشار رجال الاستطلاع الي بدء تحرك للعدو . وحات ساعة المعركة الدموية . قال سميون بوديوني وهو متكئ مع قائده فرقتيه على الخارطة في ضوء شمعة : «حظا سعيدا» واصدر امره الى الفرقتين والافواج والكوكبات : «الى الغيول !»

ورنت تلفونات الميدان سواء في كوخ مظلم او في حقل ، في خندق مغطى بالافصان والثلج او تحت كومة دريس . وسمع رجال الاتصال من الساعات ما كان الجميع ينتظرونه من ساعة الى اخرى .

هرج المراسلون الى صهوات خيولهم ، وانطلقوا في الظلام وهم يسمعون اقدمهم على الهاميز اثناء العدو . كان المقاتلون نائمين يتياهم في تلك الليلة العاتكة كالنيسر ، الساكنة الريح فاستيقظوا على الصباح الممدود : «الى الخيول ! » ووثبوا على اقدامهم نافذين النوم عنهم ، واندفعوا الى مراكب الخيل ، واسرجوا خيولهم على عجل ، واولقوا السيور بقوة جعلت الخيول تتروح .

تجمعت الكوكبات في القوسل ، ومن صيحات امرأ الوحدات المتراصة في الجبهة ، وجدت مكائفا في الظلام . انتظمت في صفوف ، وانتظرت طويلا مقلية بابصارها الى الناحية التي يوشك الفجر ان يطلع منها . كانت الخيول ما تزال تنفس بشق من اثر النوم . وكانت برودة رطبة تنفس من خلال الستر المبتلة وفروات الاغنام ومعاطف الجنود الخفيفة . وصمت الرجال ، وكفوا عن التدخين .

وها هي الطلقة الاولى تصدم مبريرة من بعيد . وترددت اصوات المفروضين : «ايها الرفاق ، امرنا سيبون ميخائيلوفيتش بوديوني بتحطيم العدو . ان ماجوري البروجازية يسعون الى شق طريقهم الى موسكو - الموت لهم ! كللوا سلاح الثورة بالمجده .

لم ينور الفجر العليل بسبب جنوم الضباب . انطلق سيل ثمانية افواج بوديوية على امتداد فرانسج في كركبة ثقيلة وصعوف متلاصقة . وفي الضباب الكثيف لم يكن السحاب يرى غير رفيقه الى اليسار ورفيقه الى اليمين . وعجائز الخيول امامه تنطق في الضباب الحليبي المتخلخل .

كان العدو على مسافة قريبة تتناقص . وصارت طلقاته تسمع مترددة بلا نظام . واخذ المقاتلون وهم يحثون خيولهم بلهفة يشعرون رفايهم ساعين الى ان يروه . ثم سرت في السيل كله صيحة راحت تتردد اعلى واكثر خنقا وخرابة . فان الصفوف الامامية قد رآته اخذت تطلع من الضباب اشباح فرسان يتعطفون على خيولهم . لم يستطيع قوزاق الدون . فاندفعوا لتلقاهم بنفس السيل العارم الا انه يبدو ان الشيطان جعلهم بهذا البعد عن اقراهم الاصلية ليظاعوا هؤلاء الشياطين الحمر . سمعوا هدير الحقل كله وارتجاجه فادركوا اية قوة رهيبية توشك ان تعصف بالخيول والرجال وتخلط وتلف .

وتتعالي اقوام الاجساد المدمعة . . . وليت ذلك لسبب وبجبه ! ركن القوزاق الى خيول الدون الوثابة الخفيفة الحركة فاختلوا يرتدون ويجولون وليليون منهم فقط ، المستميتون للغاية ، السكارى من الجراة خرقوا سيل اليبوديونين طاعنين بالسيف في تهور وخبث عشواء

ولم تنفذهم خيول الدون الوثابة . والذين استداروا اصطموا بالذين ما زالوا يندفعون الى الامام اوقع بعضهم بعضا راح رجال بوديوني يبطعون ويذسون ويضادون بدأت صيحات وحشية في الضباب لم يرى غير فارس منكب على عرف فرس ، وآخر يلاحقه محتثا على السرج لتوجيه ضربة بسيفه سهلت الخيول المهشجة قاصمة باستانها

الآن استمدات جميع افواج القوزاق لتتولى الادبار . الا ان عريات الرشاشات التي انغرزت عميقا في جناحها قطعت الطريق عليها ، ودفعتها يتيرانها الى ناحية ، حيث اخترفت كوكبات جديدة من خيالة بوديوني كتلها المختلطة المرتبكة وهي تسمى الى الفراغ . استمرت معارضة فرقت ماموتوف حتى طلوع النهار . وتناثرت في الحقل آلاف الجثث في الستر القوزاقية الزرقاء ، وفي السراويل المزيطة بالاشرطة الحمراء عند خطوط الدرز ، وانطلقت الغيول المدعورة بلا فرسانها .

في وقت الغدا ، تجمع رجال بوديوني كعسكر هائل في قفل منيسط متجمهرين حول مصابيح ميدان جيدة من التحاسن الصاق انتزعوها من العدو . واصماع البخار من ففور صعيدة الدخان المعتادة المطعنة قطع من شحم الخنزير ، وقد اضيفت ، هذه المرة ، الكرونة والرز والقول واللحم المملح واشياء اخرى من هذا القبيل خلطها الطباخون لتحسين نكهتها .

وبعد ان شبع المقاتلون تماما دخنوا وقفاخروا فيما بينهم بما نغموا في القتال من سيف فرسان من الفضة او قريبيسة يابانية ، او جواد من خيول الدون اصعب محجل وذى لمة . ولم يهدا الهياج الذي خلفته المعركة ، وما كان له ان يهدا ! عزفت الاكورديونات في كل مكان . وترددت اصوات تناغمها اخرى انتشرت السحب تعجب السماء ، وجثم الضباب على وجهه

الحقل . . . « وعلى انعام البلايكا حق الرقصون الارض بكعوبهم
وسط الصفيح مشمرين اذرعهم كما يشمر البجع جناحيه ، مرفوضين
وضاربيين الارض شربات متتابعة .
ولكن الابواق تضدح من جديدة داعية الى القتال ، الى العمل
الصعب . من بعيد مر بوديوني على فرسه في عيافته القوزاقية
وقبحة من فراء الاستراخان النضى ، ومعها قائدا فرقتيه كلاهما .
وبدا الافواج تضلّف من جديد ، وتوغلت في صفوفها ثمانى رايات
حمر ورفافة .

ان الاندماج القويح للطايور الاول اجبر البيض على التخلي
عن تطويق بوديوني ، واحبطت خطتهم الاولى ، وسارع بوديوني
بالاستفادة من الارتباك . ففى تلك الليلة عند الفجر هاجم رجال
بوديوني الطايور الثانى من رجال ماموتوف ، ولم يتحمل الضربة
هذا الطايور ايضا وتراجع الى سدة السكة الحديد تحت حماية
القطار الضمخ . خرج القطار من فورونيج قليلا مقرّفا عبر الجسور .
كان الضباط المدفوعون تحت الابراج الغولاوية وقرب مدافعه من
عيار ٦ بوصات ورشاشاته يمتنون النظر في الضباب الاخذ بالتحول
يبسط ، وبين العين والآخر كان يظهر على السدة رجل من رجال
الاتصال يلوح بعلم صغير ، فيتوقف القطار دقيقة ليتلقى المعلومات .
وهكذا اضحى معروفًا الوضع الحرج للطايور الثانى الذى رده رجال
بوديوني الى سدة السكة الحديد .

زاد القطار الضمخ في سرعته . وظلت الصافرة المبحوحة في
قاطرته تزعق بلا انقطاع لتنبئ رجال ماموتوف بعمونة عاجلة .
لحم المدفوعين الذين كانوا يعاينون من خصام الابراج
شبحا غير واضح في الضباب . وقد انطلق على السدة للقاء القطار
الضمخ . اوقف القطار حركته ، وعاد يتحرك الى الوراء . واطلقت
المدافع ثقلاتها على الشبح المتنامى بسرعة . ولكن الوقت كان قد
فات . فان قاطرة بضائع كبيرة اطلقت باقصى سرعتها خالية من الناس
ارتطمت بالعربة الغولاوية الامامية للقطار الضمخ . وكانت القاطرة
كلها قد عثبت بالتدانيات من امام ومن الجالين . ودوى انفجار . ووقفت
وفى الحال تعجرت القذائف في العربة الضمخة من التماس . ووقفت

العربة المصلحة على طرفها في دوامة من التراب والرمل والشار
والدخان والبخار ، وتدرجت مسحوقا ساحبة على منحدر السكة
السحلقة الغولاوية الضخمة برمتها .

وهرب الطايور الثانى من رجال ماموتوف الى فورونيج .
وبدا الطايور الثالث يتراجع الى هناك ايضا - بدون قتال الا انه
اجبر على خوض المعركة في اليوم الرابع من هذه المذبحة التي لا
سابق لها ، وعظم كليا ، وتناثرت جثث القوزاق المطعونة على
مسافة فراسخ من الحقول والتلال .

وتراجعت الى وراء التهر جميع فرق الدون وكوبان مدحورة
متكبة في بعض افواجها ما يصل الى النصف من عدد رجالها . وفى
الصباح الباكر من الرابع والعشرين تحركت قوات بوديوني الرئيسية
الى هناك ، حيث وجدت الجسر الخشبي الذى كان معروضا من قبل
القناوسة والطلاب العسكريين بقيادة تبلوف متروكا لم يلحقوا ان
يستقوه . كانت بعض البطاريات تطلق النيران من ناحية المدينة
رافعة اعمدة من الحول والماء . . . وصل بوديوني الى الجسر ، ورأى
الجسر واهى البناء . استدعى الموسيقيين ذوى الابواق الغضية ،
وامرحم بان يعبروا الجسر الى الجانب الاخر من النهر ، وان يعزفوا
هناك امرح الالغان واكثرها اثاره من موسيقى المارش والرقصات .
كان طلاب الكونسرفاتور بالهيئة التي اخذوا فيها آنذاك - في معاطف
قصيرة ذات تطريزات صفراء وحمرها على الاكاتف - وقد تراكفوا
عبر الجسر ، وما كادوا يعبرونه حتى اصابته قنبلة فانهار . وفى
وسط هدوء الانفجارات اخذ الموسيقيون شبه الاحياء من الفزع
ينفخون في ابواقهم الغضية ويصدحون . . .

وسلم كل مقاتل قذيفة مدفع ليجملها في يده . وصاح امره
الوحدات والمقوضون «الى الامام !» وقذفوا بانفسهم قبل وحدانهم
في الماء القارس البرودة العائر المتطاير من القذائف المتفجرة . وفى
وسط النهر اترق الرجال عن سروج خيولهم وسبحوا وقد وضع
كل فارس يدا على عرق فرسه ، ورفع القذيفة على الاخرى . وفقرت
خيول المدافع الى النهر الغاضب ساحبة المدافع على قاع النهر .
وعبر رجال بوديوني النهر واخذوا يعاجون فورونيج بحرارة غضايا
مبللين وعلى خيول مبللة . الا ان فرق ماموتوف وشكورو هنا

أيضا لم تغلب المعركة ، وابتعدت بسرعة إلى ما وراء الدون بالجاه
كاستورنايا .

كان دسر احسن خيالة البيض والاستيلاء على فورونج احد
العمليات الاولى لخطة عسكرية ضخمة وضعتها القيادة الجديدة
للجبهة الجنوبية .

وقد تلقى قواد الجيوش والفيالق والفرق والالوية وامراء
الافواج نسخا من هذه الخطة مطبوعة على ورق مرقق وموقعة بتوقيع
ستالين . وصفت فيها - بالتفصيل ، وبشكل مفهوم لكل مقاتل احمر
ويمكن التنفيذ فعليا - عمليات جميع وحدات الجبهة الجنوبية ابتداء
من منطقة اوريل وكرومي ، (التي كان يتراجع عنها تحت ضربات
التشكيلات الخاصة بقيادة سيرغي اوردجونيكيدزه فرسان دينيكين
المسحوقون تحت قيادة الجنرال كوتيبوف الذي اتهم بان يكون اول
من بلغ الى موسكو) وعن عمليات منطقة فورونج وكاستورنايا
(حيث اعطيت لفيلق يودويو مهمة شطر جبهة البيض عند نقطة
التقاء جيش الدون بجيش المتلوعين) وانتهاء باحتلال روستوف -
على الدون التي كان الطريق اليها يستد غير النفرة التي احدثت خلال
منطقة دولباس المتجمعة البوليتارية .

وخلافا لتوقعات الجميع سواء اولئك الذين كانوا جالسين في
المنادق المنتهية على حقائقهم في امة السفر والتميز من ان الفرنسيين
سيجلبون الى موسكو في عيد العام الجديد الشمالي والمجاز وحسب
ينفسخ بازما . او اولئك الذين كانوا يقضون الساعات في غرفة
استقبال حاكم اوربا في باريس ، وهم الآن مرفوعو الرؤوس ،
وروسيا الدستورية في ايديهم تقريبا . حتى انهم لم يشغلوا القسطنطينية
فدخلوا في مكتب كليمانصو حيث يشتغل موقد ، وحسب جلس
الديكتاتور الضئيل المكرر الكفتين وحاجباه الانسيبان متدليان على
مشروع مكتوب كالتبر يعم العالم ، ونهض الفرنسي ليقدم اصابعه
المعقدة للروس الذي كان يضغط عليهما من شدة الفرح ، بل
وخلافا لما توقع انتون ايلانوفيتش دينيكين نفسه الذي هجر منذ
زمان لعبة «القيت» في ايام الجمع ، والذي بالرغم من ضعفه الذي
يشارك فيه مع الجميع احد يؤمن بان له رسالة سامية - قام

البلانشة الذين كانوا في آخر رمق بشيء لا يتصوره العقل ، وتلقوا
هجومًا مضادا جبارا رغم تقش التيفوس والمجاعة الحادة للغاية
والدمار الاقتصادي الكلي ، حتى تصدعت كل السياسة العالمية
لخلق وتقطيع اوصال روسيا الحمراء ، تلك البلاد المترامية الاطراف
التي كانت تمثل - اذا اردت الحق - لغزا لعقول اوربا الغربية .

وكانت لغزا يتابع الهام الشعب الروسي . كما ان افكار
السعادة للجميع والنظام الاجتماعي العادل - تلك الافكار التي
ظن انها قد انقهرت الى الابد تحت ثقل جثت الحرب العالمية - قد
انتشرت وكان عاصفة نشرت بذور سمرة الجنة في روسيا المعدمة
المخرقة ، حيث ما يزال الريفيون الاثيون يقض بعضهم لبعض حكايات
اسطورية عن ايفان الابله ، وعن الساحرة بابا بالغا ، وعن الاسبطة
الطائرة ، والشيوخ العميان - رجالا ونساء - يشهدون لشعار الملاحم
المطولة عن معارك الجابرة وماذهب وحللات زفافهم .

وريت هذه الافكار في شعوب روسيا مرونة وصلابة التصل
الفرلادي . ان الفلاحين الذين ما يزالون يحكون الحكايات ، وعمال
المعامل تصف المتهدمة التي صعدت مداخلها منذ زمان ، من خلال
تعليهم على المجاعة والتيفوس والخراب الاقتصادي التام يدحرون
ويطاردون جيش دينيكين ، وهو جيش من الدرجة الاولى ، وقد
اوقفوا عند مشارف بيرتوفراد جيش يودنيتش الضعاف ودفعوه
الى استونيا ، وطولوا وتشتوا في تلوج سيبيريا جيش كولتشاك
الكبير العدد ، وقبضوا على حاكم عموم روسيا هذا ، واعدموه رميا
بالرصاصة ، وهم الآن يدحرون ويطاردون اليابانيين في الشرق
الاقصى . انهم ، المهلمون بافكار لينين - بالاقتدار فقط لان في روسيا
لا شيء يؤكل ولا شيء يلبس - يؤمنون بانهم اقوى من جميع من في
العالم ، وانهم سينتصرون على خراب دولتهم المعدمة ، وفي الرب
وقت مجتمعا شيوعيا عادلا .

٢٠

خيل الى كاتيا ان معدتها الآن ، لا تزيد على الارجح عن حجم
محفلة صغيرة لحفظ قطع النقود المعدنية ، ليس فيها ما يكفي الا

لما يزيده قليلا عن خمسين غراما من الخبز، ولقطعة من سمك الفريلا المسلوق، وليضع ملائق من الحساء. وكانت المصيبة التي تجاهاها هي في الثنورات التي أضحت فضفاضة عليها وليس لها ما تخطيطها بها، ولا الوقت الذي يسمح لها بذلك. وبمقابل ذلك أضحت عينا كاتيا أوسع بكثير مما كانتا في الخريف الماضي، حيث كانت ماترنا تعلمها القطائر السمسة عن قصد.

كانت الصبايا في المدرسة يقلن لها أحيانا: «ومن يلويين افواههن الجائعة»:

«يا عمة كاتيا، ما احلاك...»

وكان ذلك يعث السرور في نفس كاتيا، لأن كل الحياة كانت في المستقبل. والذكاء الوحيد عن الماضي - خاتم زمردى وبوغشته الخضراء الساطعة - قد ضاع وهي ما تزال في قرية فلاديميرسكويه. اما الاشباح المحبوبة التي كانت تسكن هذا البيت المتداعى في زقاق ستاروكوتوشني، فلم تعد تخطر في ذاكرتها بينما كانت تتصور المستقبل الذي تتجه نحوه كل الآمال، كل افكار الناس المعذبين بالجوع وشدة القرمس والخراب والحرب طريفا عريضا لامعا كزجاجة في الشمس، وسط العروج الخضراء والحيوات الخشبية المعاملة يكتل الاشجار الناعمة - طريفا يزدى الى معالم مدينة خفيفة الزرقاء معقدة فاخرة رائعة يجد الجميع ضالتهم من السعادة.

ذات مرة تحدثت كاتيا عن ذلك في المدرس، واصفى الاطفال وقد اخلدوا للهدوء. والصبايا العاطفيات اعجبن بشكل خاص بان الطريق الى المستقبل يتلوى عبر العروج الخضراء، حيث من الممكن ان يطارن الفراشات، ويجمعن باقات من الزهور المصقوفة، على شكل لعبات. ووجد الاولاد الحكاية غير مرضية. فان كاتيا لم تنقل شيئا عن القطارات المتطلقة في كل مكان خلال هذه العروج، مارة بمؤنترات الانحاء، وعبر الجسور المشبكة والانفاق، ولم تذكر المداخل الضخمة التي يتصاعد منها الدخان مرصا. وانفق الجميع على ان مدينة المستقبل زرقاء بالطبع، لها بيوت عالية تناطح السحب، وتراموايات شديدة السرعة، ومرآجيس في جميع البوليفارات، واكتشاف تبسيع القطائر والسحق. سألت كاتيا: «والدندرسه؟» - الا انه تبين ان الاطفال لم يتدقروا

الدندرسه قط، او ربما تلوقوها عندما كانوا صغارا ونسوها. وكان على كاتيا ان تعرض كثيرا على قوتها. قبل فترة قصيرة حملت جردلا مملوا الى الفناء، وأحست فجأة بانها لا تستطيع ان تمضي به، فوضعتها على الأرض، وانكأت على العائط مغالية الغشاوة التي غطت على بصرها. ومن حين الحظ ان المعاضرات عن الفن ظلت مؤجلة، فقد اقررت موسكو تماما، وكان من الممكن ان يسرع العمء من ارباب التي شارع ستراستنيا دون ان يلتقي بعاير سبيل. ومع ذلك فقد كانت «اللازفتيا» تنشر في كل يوم انباء انتصارات عسكرية، وتدفقت الجيوش الحمراء الى الدولباس في سبيل عرض عبر نهره في الجبهة عند كاستورونيا، واتدعت انتفاضات اللاعن في مؤخرة البيض. والان لاحت للنظر نهاية للحرب والنكبات.

في المساء، والساعة تقترب من الثامنة، كانت كاتيا جالسة في حجرها، دون ان تشعل القليل. فقد كان الموقد «التحلة» يلقى ضوا كاتيا من خلال بابها نصف المفتوح. جلست كاتيا على مقعد اطل، والفت قطع الحطب بحدو، فاشتعلت بضوء ساطع، وقرقت فرقة لطيفة لانها كانت من نفس الطاقة الشمسية التي تحدثت كاتيا عنها في المدرسة.

كانت كاتيا تقرأ «الجريمة والعقاب». يا الهي، التي اى حد كانت تلك الحياة بلا مخرج! وضعت كاتيا يدها على الكتاب، وحدقت في النار. ما اربح القليلة التي قضتها سفيدريفابلوف في العانة الخشبية، في الجادة الكبيرة! لقد كان نفس المطعم التي جلست فيه كاتيا مرة واحدة في حياتها مع بيسونوف، ورايما في نفس الحجر التي كسان سفيدريفابلوف يزجس فيها الوقت ساعة بعد ساعة وقد عرف انه غير قادر على قهر الرعب والثبور من الحياة.

ان هذه اللعنة قد حطمت واحرقت وبددت. والان يستطيع العمء ان يجلس هذه الجلسة ويقرأ بهدوء عن الماضي، ويكوم الحطب في الموقد، ويؤمن بالمستقبل. ترددت في المرشخطوات غير متوازنة، ومن الارجح انهم عادوا مرة اخرى الى ماسلسوف للقتساور. في العدة الاخيرة اخذ الناس

بترددون عليه باستمرار في قبس السماء . وكانت اصواتهم الغاضبة تسمع حتى في غرفة كاتيا . ومهما كانت الساعة التي ينشئ فيها الاجتماع كان ماسلوف يوصل الناس الى المطبخ . ويذيق باب كاتيا بعذر :

«معتولك اذيت الى الفراش ؟ عيب ، عيب ان يتام المرء منكرا . . . وانت امرأة عصرية . . . اي واي . اي . . . »

وكان يدير مقبض الباب بالحاج ، وكانت كاتيا ترتجف من الغيظ . فقد كان ماسلوف عنودا ومعتدا بنفسه بشكل فظيح ، ويستطيع ان يبقى وراء الباب حتى الصباح .

«يكاتريشا ديميتريينسا اريد فقط ان اجلس بهدهو قرب موقدك . . . اعصابي توترت . . . اسحق لي بطريقة رفاقية . . . »

وكان من الدخف الاستمرار في الصمت ، وفي آخر الامر تفتح كاتيا الباب . فيجلس امام الموقد ويأخذ يوضع قطع الخشب -

وكانت كل قطعة منها اغلى من الذهب - وكان يضحك بغموض وبمد كفيه الضيقتين فوق حديد الموقد الحامي ، ويشروع في الحديث عن موضوع قوة الجنس الرهيبة كالفضاء . . . والاستجابة لهذه القوة

جمال ! وسائر الاشياء بيورنيانية عفنة . وفضلا عن ذلك فان كاتيا جميلة ووسيدة ، ومتحررة من الابواء على حد تعبيره . وكان واتفا

ثقة لا تتزعزع من انها ستسمح له ان لم يكن اليوم فعلا بان ينسل تحت لحافها .

واليوم ، وقد قرأت كاتيا دستويينسكي كانت الاصوات في غرفة ماسلوف تترامى الى سمعها موحشة . فقد كانت تردد هناك

هناقات عنيفة ، لم تسقط بين الحين والآخر اشياء تبدو وكأن كاتيا تلقف على الارض . واليوم لا بد انه سيأتى لتهنئة نفسه .

سمعت خريشة على الباب ، وانسل صوت خفيف عبر ثقب الباب : «يا عمة كاتيا ، هل انت في البيت ؟» انها صبية ، كلافديا

في حذاء لبادي ضخم ربط بعجل .
- ارسلتني زوجة تشيسنوكوف لاستدعالك . عندها روتشين من الجبهة .

- وهل الجو بارد في الخارج ؟
- فطاعة ، يا عمة كاتيا ، ربح شديدة تجعل العين تزغزل ،

ليت الثلج يتساقط . ولكن لا تلج . . . شتاء جنوني ، ولكن عرفتك دافئة ، يا عمة كاتيا . . .

كانت كاتيا غير راغبة في الخروج الى البرد وجرجرة نفسها الى بيت زوجة تشيسنوكوف في بريستا ، وكان الشرى الاكثر ارهاقا

انها مستنظرة الى حديث حتمى في الليل . ارتدت معظفها ، واقت لفاعا دافئا على راسها فوقه . وخرجت مع كلافديا الى الشارع

بعذر لكيلا يتنبه ماسلوف . اندفعت الريح الليلية نحوها من الزقاق المظلم بقوة جعلت كاتيا تغطي الفتاة الصغيرة باطراف

مديلبها . وكان الغبار يلذخ الوجه ، والسطوح العديدة تفرقع . كانت الريح تعول وتصفر وكان كاتيا وكلافديا آخر مخلوقين على

الارض . فقد مات كل شيء . ولن تخرج الشمس بعد لتلطف على العالم .

بالقرب من نافذة شاحبة الضوء في بيت خشبي صغير ادارت كاتيا ظهرها للريح لتلتقط الفاسها . ومن خلال شق بين ستارتي

لم توصلا بعضهما بعض بشكل محكم رأت كاتيا حجرة مكتظة بالاناث ، ومدخنة سوداء متصلة في موقد بشكل ملتوي ، وفي وسط

الحجرة ضوء «تحلة» وقد جلس بعض الاشخاص في مقاعد وثيرة . وكان الجميع قد استندوا رؤوسهم على اكفهم ، وراحوا يصغون الى

شاب واثق امامهم يقرأ شيئا في كراسة وقد رفع يشمم الفه المتجه الى الاعلى . وكان يرتدى معظفا مهلهلا مفتوحا على صدره العاري

وحذاء لباديا مللوقا بجعل رفيع ، كعداء كلافديا . ومن حركة يديه والطريقة البطولية التي يهز بها شعره الكثيف غير المشط عرفت

كاتيا انه يلقى اشعارا . واحست كاتيا بصدق في قلبها ، وايتسمت وادارت وجهها للريح ، وهرعت الى اريات دون ان تدع

كلافديا تخرج من تحت مديلبها .

كان بيت زوجة تشيسنوكوف حافلا بالناس - جميع زوجات العمال الذين خرجوا الى الجبهة ، وبعض الشيوخ يجلسون مجلس

الصدارة عند طاولة ، حيث كان القادم يتحدث عن الشؤون العسكرية . اخذت النساء يمانلننه والبعض يقاطع بعضا : هل سينفق وضع الخبز عن قريب ؟ هل يمكن توقع وصول الوقود

الروسكو في عيد الميلاد ؟ وهل توزع الاحذية اللبادية والمعاطف
القرابية في وحدات الجيش ؟ وذكرنا أسماء أزواج وأخوان ليعرفن
على مسم أحياء معافون ، وكان هذا العسكري كان قادرا على
ان يعرف بالاسماء جميع العمال المقاتلين بالالوف في جميع
البيئات .

لم تستطع كاتيا ان تشق طريقها في الحجرة فوقفست عند
الباب ، ولذت على اطراف اصابعها ووقع بصرها شظفا على القام
يسجل شيئا في ورقة صغيرة ، وقد انزل رأسه المفلوف بضادة .
وسأل :

— اهذه كل الاستئلة ، يا رفاق ؟

وسرت رجعة في جسد كاتيا ، وكان هذا الصوت الواطئ
الفاغ الشيرة قد نفذ فيها مزمنا قلبها . واستدارت في الحال
لتتصرف . لم يرغب عن ذاكرتها شيء ، على ما يبدو . . . ان رنين
الصوت الشبيه بذلك الرنين الحبيب الذي صممت الى الابد اثار في
للسيا اسمي قديما ، العا قديما غير مدعو وعدم التفع . . . وبهذا
الشكل تعود في العلم الى ذاكرة انسان وحيد ذكرى ماضيه البعيد ،
غيري بيتا صغيرا في غابة لم يقع عليه عيناه قط ، متوارا بوضو
بانع ، وبالقرن من البيت امه المتوفاة تجلس وتبتسم كمن
في الطفولة البعيدة ، فيود ان يمد لها ذراعيه ، ويدعوها من العلم
الى الحياة ، ولكنه لا يستطيع ان يمسه ، وتظل هي صامتة تبسم .
تندد بذكر ان ذلك مجرد حلم ، فتتخدر دموع نابضة من الاعماق
على صدر النائم .

ولعل وجه كاتيا كان بهذا الشكل ، بحيث ان احدي النساء عند
الباب قالت :

— يا مواطنات ، افسحن الطريق للمعلمة لتتقدم ، ضيقتن
عليها تماما . . .

وفسحن الطريق لكاتيا لتتقدم الى الامام . فدخلت ورفع
الريل الجالس الى الطاولة رأسه المضمسد فرات وجهه الصارم .
وتلى ان يضيء الفرح ويوسع عينيه الداكنتين ترتعت ، واخذت
الدوار يطلو برأسها ، والوعي يتغل عنها شيئا فشيئا ،
وتلحن الاصوات المتصاعدة يتبعده ، والضوء يحتم ، كما حدث لها

حين كانت تحمل الجردل في الرواق . . . ابتمست كاتيا في احساس
بالذنب ، وتنايمت الفاسها ، وشجبت ، واخذت تتهاوى . . .
— كاتيا ! - صاح هذا الرجل شاقا طريقه بين الاشخاص -
كاتيا !

امسكتها عدة ايد ، ولم تدعها تسقط على الارض . ووضع
فاديم روتشين بين كليهما وجهها المنكس الحبيب الفاتن حيث الفم
حامد نصف مفتوح ، والفتلتان مختلفتان وراء الجفنين .
— هذه زوجتي ، يا رفاق ، هذه زوجتي .
كرر روتشين محركا شفثيه المرتجفتين .

سارا والريح تمه على طهرهما . كان فاديم روتشين يضغط
كاتيا عليه من كتفها الواهتين . وكانت كاتيا تبتكي طوال الطريق ،
وتترقب وتقبل روتشين . اخذ يحكي لها لماذا اعتبره الجميع ميتا ،
بينما كان طوال عام يبحث عنها في كل روسيا . الا ان ذلك كان
حدثنا مشربكا طويلا ولا حاجة له الآن على الاطلاق . وكانت كاتيا
تقول لحيانا «قف ، سرتا في غير طريقنا . . .» ويستديران ، ويجويان
شوارع جانبية مظلمة عالية ، حيث كانت ديك الرياح الصدنة
تصرف على المدائن ، وترقع صفائح العديد نصف المغلوعة على
السطوح ، وتحرك شجرة زيزفون عتيقة بعويل يمزق القلب الحضانها
السود من وراء سياج مهمم . . .

في رفاق ستاروكوتيروشني قالت كاتيا:

— هذا بيتنا ، هل تتذكركه ؟ ولكن كنت تدخل من الباب
الامامي فقط . انا اميش في نفس الغرفة ، يا فاديم .
عبرا الفناء وكفا . كان باب المطبخ مغلقا .
— آه ، غير لطيف . . . مستظطر الى ذق الباب . . . اطرقت
بافضي ما تستطيع . . .

ضحكت كاتيا ، ثم بكت قليلا ، وقيلت فاديم وعادت تضحك
من جديد ، ذق فاديم الباب بشدة بكتها فيضيتها .
— من هناك ؟ من هناك ؟

سأل ماسفلوف متعلقا وراء الباب .

- افصح ، انا كاتيا .

فتح ماسطوف الباب ، وكان القنديل الصفاحي يرتعش في يده
بفضائه الزجاجي . وجين راى مسكريا وراء كاتيا تراجع خطوات .
وقد انكش خداه في غشون طولية ، وتقلصت عيناه ببغضاء .
- شكرا .

قالت كاتيا ، وهرعت الى حجرتها دون ان تطلق يد قادم .
ودخلا الحجره ، حيث ما تزال بقية من دفة . سألت كاتيا هامسة :
- هل معك اموال نقاب ؟

وكان شديد الانفعال ، حتى انه اجاب بهمس ايضا :
- معي

واشعلت الضوء ، وهو قبس صغير في علية كان يلكيها تماما
لان يصدق احدكما في الاخر طوال الليل . فكت لفاها دون ان تصرف
بصرها عن قادم . وكان قد شاب تماما ، بل كانت في حاجبيه بعض
الشعرات البيض . وظهرت الرجولة على وجهه ، واكتسى مسحة غير
مألوفة لها من الصرامة والسكينة . وقد سحرها ذلك . فقد كان
اكثر شيانا ورجولة ووسامة من ذلك الذي كانت تتذكره في
روستوف . رأت الضمادة وفتحت قفها ، وتنهت قائمة :

- هل انت جريح ؟

- خدش ولكن بسببه حصلت على اجازة اسبوعين في
موسكو كنت اعرف انك عشا ولكن هل كان يمكن ان
اجدك ؟ (ابتسمت ابتسامة فرح ذات معنى ضمني وقد رفعت
طرفي قفها) كنت ان الحق بك وانت في القريسة لقد طردت
كراسيلينيكوف (اختلج حنك كاتيا ، وهزت رأسها بعفسيه)
كاتيا ، لقد قتلتها (اسبلت جفنيها واحنت رأسها) كاتيا ، كنت
قد بدأت ان اروي لك الملابس التي جعلتك تتلفن نيا موني
في الحقيقة انني قد مت (اخذت كاتيا تنظر اليه بلزع ،
وامتلأت عيناتها الواسعتان بالدموع مرة اخرى) . كنت مسافرا في
عربة قطار في الليل . وقد فقدت كل ما اعيش من اجله ، وكنت
مخطئا في الشيء الرئيسي ، وكان واضحا لي انني سأقتل او
اتحر اعلميني ، يا كاتيا ، ذلك شيء مرهق وقاس ،
ولكنني اريد ان ارويها كنت افكر فيك ، لم يكن ذلك حيا ، اذ لم

يبق في نفسي ما احب به ، ولكنه تفكير مجهد فيك ، كما يفكر المرء في
شيء لا يمكن تزيقه ، وتركه ونسيانه ، لا يمكن ان يخاف . وهذا
هو الشيء الوحيد الذي يرتبطني كانت تلك الليلة في عربة القطار
تحليما لكل شيء في والان ، حين اتعرف في الطرف الاخر من
ينديقتي على وجوه مألوفة ، ادرك اي نفس سوداء محطمة ساصيب
برصاصتي

وضعت كاتيا ذراعها على كتفيه ، وضغطت خدعا على قلبه
وهو يبق دقائق قوية متتابعة . ظلا واقفين وسط الغرفة ، هو في
معطفه غير المزود ، وهي في معطفها الفرائس ، كانت تعرف انه
سيحدث الآن عن الشيء الاهم الرجل العزيز الرابع انه
يريد ان يبرز نفسه امامها لتحب فيه ذلك الشيء الجديد النزيه
الصارم المشبوب العاطفة عندما خرج في روستوف عن
اطواره ، وهجرها كانت تعرف انه سيتعذب عذابا قاسيا ، ولطم
كل شيء استمعت وهي تضغط نفسها عليه ، الى كلماته
المبهمة المتقطعة ، وكأنه يخطط على عجل هيروغليفيه عذابات
الجسيمة ولكن كاتيا كانت تفهم كل شيء بدون كلمات

- كاتيا ، المهمة جبارة فوق كل مقياس لم تعلم قط
باننا مستقلعا انت تذكرين - فقد تحدثنا عن ذلك كثيرا - كم
يدا لنا مرفعا وبلا معنى دوران التاريخ ، وانهايار الحضارات
العظيمة ، والافكار التي تحولت الى محاكاة تهكمية بالنسة لها
تحت القميص المنشي لسثرة السهرة نفس الصدر المشعر للسان
البدائي كتب ا ان الفسافة تزقت عن العين كل حياتنا
الماضية جريمة وكذب ا روسيا خلقت الانسان والانسان
طالب بحق الانسان في ان يكون انسانا ان ذلك ليس حلما .
انه فكرة ، وهي على رؤوس خرابنا وقابلية للتحقيق
والضوء الباهر اعضاء الانبيسة نصف النهمدة لجميع العصور
الماضية كل شيء قائم على اساس ، كل شيء طبيعي
والهدف قد وجد ويعرفه كل مقاتل احمر كاتيا اتفهميني
الآن قليلا ؟ بودي لو اعين لك عن كل ما في نفسي يا فرح .
يا قلبى ، يا معشوقتي ، يا تجمعي

وفجأة عصرها بين ذراعيه بقوة حتى طلقت كل عظامها .

فزادت من انضغاطها على موضع القلب من صدره ، ولا غير ،
ذق الباب ، وضوت ماسلوف :

- يكاترينا ديميترييفنا ، هل تسمحين للحظة واحدة . . .
- ولما لم يرد عليه احد ، اخذ يدبر مقبض الباب على
عادته - الساعة انك تعرفين حالة الطوارئ في المدينة . وفي غرفتك
رجل بعد الساعة العاشرة . . . ولما كنت مسؤولا . . .
- انتظري . سأحدثك معه .

قال روتشين وهو يزل ذراعي كاتيا عن كتفيه .

- فادام ، لا تخرج عن اطوارك ، سأتكلم مع بنفسى . . .
اتوسل اليك ، ارجوك . . .

وخرجت وراء الباب في الحال ، واغلقته وراءها . كان ماسلوف
يلف مبسما ابتسامته الساخرة وهو ما يزال يمسك بالقتديل .

- لا يمكن ان تدخل في غرفتي ، يا رفيق ماسلوف .
قالت بلهجة صليبية لم تتحدث بها معه قط . اخذ ماسلوف
يتراجع عن الباب مشيرا اليها بان تتبعه متفرسا فيها بهستيرية .
سالت ، وهي تسير وراءه :

- ماذا ؟ ما تريد ؟ انا لا افهم . . .

- اريد ان اتيك ، يا يكاترينا ديميترييفنا ، بان لا تلقى
اهمية لكارتى . . . لا وجود لها . . . لقد ابلغوك ، بالطبع . . . في
المنطقة كلها استهشار واحتفال بالنصر . . . ما زال الوقت مبكرا
للاحتفال والاستهشار . . .
ابابت كاتيا غاضبة :

- انا لا افهم شيئا . باختصار ارجو الا تدق بابي . . .

- لا تكذبي ! انت تلهفين كل شيء . . . آه ، كم جريتك ا
اسمعي ، اولاً : استمري في الحديث مع كسما وكان البطاقة

الجزئية لم يأخذوها مني . . . سيكون ذلك اكثر تيسرا . . .
(واصدرت حنجرته غرغرة ، رغم انه كان يتكلم بخلوت وخمول)

لم يتغير شيء يكاترينا ديميترييفنا . . . كاتيا : ان شيفك الليلي
يجب ان يخرج في الحال . . . تريدان ان تسالي : لماذا اصر على

ذلك ؟ هذا هو جوابي . . . (ووضع يده في الجيب الصدري لسترته
المنطشة المنطشة الازرار واخرج مسدسا منطحا ، وامسكه في

واحتسه ، لترات كاتيسا) وبعد ذلك ، سئستس في علاقائنا
السابقة . . .

تمسكت كاتيا رجفة شديدة ، حتى انها لم تستطع غير ان ترمش
رمشا بطيئا . دفع روتشين الباب ، وخرج :

- ماذا تريد من زوجي ؟

تغضن وجه ماسلوف حين اذنيه ، وقرصن ليضع القتديل على
الارض ، والمسدس يدور في يده .

- اي ، اترك هذا - قال روتشين وهو يتقدم منه ، وانتزع
المسدس من يده ، ووضعوه في جيب معطفه - فدا سأسلكه الى

اللجنة الاستثنائية في المنطقة . ويمكنك ان تتسلمه هناك . واذ
التزيت من بائنا مرة اخرى سنالوي رقيبك . . .

وعادا الى الغرفة . طمطقت كاتيا باصابعها صامتة . خلع
روتشين معطفها عنها .

- كل شيء مفهوم ، يا كاتيا . وهو لن يعثرلفسه هنا بعد
الآن . الغلب الظن انني سمعت عن ماسلوف هذا وانا في الجبهة .

انه من اولئك الذين يفسدون الجيش . . .

وخلع معطفه . وحط بالقرب من كاتيا الجالسة على مقعد
ذاهلة ، ووضع راسه على ركبتيها . اخذت يدها تمران على

شعره وخديه ورقبته . وكلاهما قد نسي فورا حادثة ماسلوف
الحقاه . جلسا صامتين . واخذ يعتل في نفسيهما قلق جديد

وتشديد وغريب الى الابد ويكر - في نفسه فرح استهائها . وفي نفسها
فرح الاحساس بفرحه . . .

- اقوى بمليون مرة ، يا كاتيا .

- وانا ايضا . . . رغم انني دالنا ، دالنا ، يا فاديم . . .
- انتصحين بالبرد ؟

- لا ، لا . . . مجرد انني احمك جدا . . .

جلس الى جانبها في المقعد العريض القديم وقبل عينيها وفهما
وطرفي شفتيها . وقبلها من صدرها ، وتذكرت كاتيا ان في ثديها

الايسر شامسة الولادة التي كان معجبا بها لسبب ما . فكت الازرار
بلوزتها الصوفية ليقبل الشامة .

برد الموقد «التحلبة» بالفعل ، وصارت الغرفة باردة .
فركص فاديم عند الموقد ، وهو يلقي نظراته الى كاتيا طوال
الوقت ، ويشتم من اسنان منظومة ، وتفخخ في الجمر واضعا كتل
الخشب المقطوعة من قوائم وظهور المقاعد من الخشب الاحمر .
وعاد الدفء من جديد . واحمرت كاتيا وهي تلغغ ملايسها ،
وضحك فاديم ، واحتوى وجهها براحتيه ، وقبله .

طلت الريح تمول في المذخنة طوال الليل ، وتلخق في صفائح
الحديد . نهضت كاتيا عدة مرات كالزبابة التي امها كيوبيد وعدلت
فتيلة المصباح ، وهي لا تصرف بصرها عن وجه فاديم التامس .
كانت ممثلة بالسعادة وعارفة انه ممثل سعادة ايضا ، ولهذا
السبب كان وجهه على هذه السكينة والرخصة .

- كاتيا ، كاتيا - صاحت دانا وهي تندفع في المطبخ -
كاتيا ، حبيبتي كاتيا !

وتردد في المرر وقع حدائها اللبادي المتجمد . واندفعت نحو
كاتيا ، وطوقتها ، وقبلتها ، وابعدت عنها ، ونظرت مشبوبة
العاطفة . وعادت تحتسنها وتسد لها . كانت تفوح منها رائحة
تلج وفراء الغنم وخيز اسود . وكانت ترتدى سترة من فراء الاغنام ،
متديلا ريفيا ، وقد تدلت صرة وراء ظهرها .

- كاتيا ، حماقتي ، عزيزتي ، شقيقتي . . . كم اشتقت لك
وحلمت بك . . . لا ، تصوري فقط اننا اضطررنا ان نشقى على
الاقدام من محطة يارسلافسكي . ان موسكو كالقرية : هبوب وغربان
زوع وتلج ، ودروب علمتها الاقدام في الشوارع . . . مسافة
بعيدة ، ورجلاي تكادان تنطويان . . . اما كوزما كوزيميتش فيحمل
بودين من الطحين . . . وصلنا الى ستاروكونيوخستني . . . ولم
استطع ان اجد البيت ا قطعنا هذا الزقاق بطوله ثلاث مرات . . .
ويقول كوزما كوزيميتش ليس هو الزقاق المصنود . . . وتملكني
الغيبط ، فقد نسيت البيت . . . وفجأة . . . لا ، تصوري فقط ان
الركن خرج رجل في لباس عسكري . تقدمت منه : «من فضلك ، يا
رفيق . . .» اما هو فقد تفرس في «يمل عينيه . . . فتحت فمي

دهشة ، وجلست على الثلج . . . قادم ا واتصور ان عقلي قد
غاب عني ، الموتى صاروا يمشون في شوارع موسكو الخلفية . . .
والغرب هو في الضحك ، وقبلني . . . ولم استطع ان انهي . . .
كاتيا يا حسنتي ، يا شقيقتي الذكية . . . نحن بحاجة الى عشر
ليال لكي تروي الواحدة للآخرى ما لديها من اخبار . . . يا ربي ،
انا اعرف هذه الغرفة . . . والسرير وصندوق الادوية . . . حدثني
فاديم عن ايفان . بعد ايام سيتوجه قطار اسعاف الى وحدتهم وقد
قوتت ان اسافر عليه كمبرضة ، وستصحبني انيسيا وكوزما
كوزيميتش . . . لن نتركة وحده هنا ، فيتفرت . . . كاتيا ، فريد
اولا ان ناكل . . . ضعي السخان . . . ثم نغتسل . . . قضينا
اسبوعا في عربة بضائع قادمين من يارسلافل . . . يجب ان نلغغ
ملايسنا كلها ونغلبها . سنهبطي الآن في المطبخ ولا نصل الى
غرفتك . . . تعالي اعرفك بصديقي . . . اسانان والمان ، يا كاتيا !
وانا مدينة لهما بحياتي وبكل شيء . . . سنسفن الموقد بانفستا ،
ونغلي الماء . هناك عدد كبير من مختلف الائنات . . . كاتيا ، امن
المعقول انك لم تشبني قط ؟ يا الهي ، تبدين اصغر سننا مني
بعشر سنين . . . انا والفة من ان اليوم سيجمع فيه تسملنا
قريب ، قريب جدا . . .

في موسكو كان الشوفان يوزع ببطاقات التموين . ان عاصمة
الجمهورية لم تسقط بوقت عاصيب يشابه شتاء عام ١٩٢٠ . فان
هجوم الجيوش الحمراء قد ابتلع كل القوي الحية . ولقدت بسرعة
احياطات القمح والذرع المسئول عليها من البيض . وكانت
الولايات الغنية التي مر بها القوزاق وجيش المتطوعين قد خربت .
فكانت فصائل التموين العمالية لا تجد فيها غير فواشس هزيلة من
القمح .

في الذكرى السنوية للحملة الجليدية حرب جيش المتطوعين
الى نوفوروسيسك نائرا في وحول كوبان المتعدرة الاجتياز العربات
الهائلة المحملة بالامتعة والمدافع الغاطسة في الوحل . وجيف
الخيول . انتهى كل شيء . وهاجر التون ايطافونيتش دينتيكين على

ظهر بأثة الغام فرنسية وقد تفتى الشيب في شعره وأحدوب ظهره ، يكتب مذكراته في الهجرة . وعبرت الفلول الهزيلة لاقواج المتلويين على سفن النقل الى الغرم . وادرك قوزاق الدون وكريان اغرا انهم قد خدعوا بقسوة ، ودفع القوزاق ثمن عنادهم بقبورهم المجهولة المنتشرة من فورونيج الى نوفوروسيسك .

كان الشتاء ما يزال في موسكو . وزوابع آذار ترمي المدينة بالثلوج . وقد استنفلت الولايد جميع الاسيجة والاثاث الزائده . وتوقفت المعامل والمصانع . وكان المستعملون في الدوائر يجلسون الى مكاتبهم في معاطفهم وينفقون بالانفسهم على اصابعهم المتنتفخة لكي يستطيعوا ان يحتفظوا بالاقلام بايديهم بطريقة من الطرق . وقد تجمد الخبز في المحابر تماما في انتظار الايام الدافئة . وكان الناس يشون ببطء ، وهم يحلون على الدوام حقائبهم الطهيرة . وقليلون منهم كانوا قادرين على السير من بيوتهم الى اماكن معلوم دون ان يتوقفوا ليستربحوا في كومة ثلج او يتكثروا على مناخل البيوت اثناء من الريح . وكانت المجاعة رهيبة وكان الناس يعلمون في نومهم بخنوس مسلوق موضوع في صحن ، وقد وضعت في فمه قطعة بقدونس . وفي الحلم كانوا يعضون باسنان فاذعة لحم الخنزير المقدد الدم والبيض المسلوق . الا ان افكار الجميع كانت متاجعة ، فقد دمر غول العدا ، للثورة العتيد الدموي الخائق ، والعباية تاخذ خطأ صاعدا ، ولم تبق الا شهور قليلة من الحرمان والعذاب ، وسياتي قمع جديد ، وتشغل الجيوش الحمراء المسرح والعمل السلمي ، يترهم جميع الاشياء المغربة وبناء ذلك الشيء الجديد الذي ستشئس فيه جميع العذابات ، كل مرارة المساءات الماضية . . .

تحلقت رغبة داشا . فقد اجتمع شملهم من جديد - حصل ايفان ايليتش وروتشيف على اجازة قصيرة فسافرا الى موسكو في قطار الاسعاف الذي تعمل فيه داشا ، ووصلوا اليها في صباح تمام من آذار . حين كانت السحب الرمادية تقلب فوق المدينة ، والثلج

ينحدر من السطوح ، وتتساقط دلايات الجمد الضخمة ، والهواء الثقيل فواح ومناز بالثلج .

استقبلتهم كاتيا في محطة القطار . كان روتشيف اول من رآها من بسطة العربة ، فقفز والقطار لم يتوقف بعد . ركضت كاتيا نحوه مثالفة بالفرح - في عشيها وابسامتها - خلال دخان القطار المتلوي بين الاعمدة الحديدية . قدمت له اعلى مما بدت له في لقاءها في كانون الاول . وكانت كل حياة جيبها في هذه المقاعد القصيرة . ازويا فورا في ناحية تحت الساعة . الا ان داشا الغيور جرت زوجها تليفين اليها . وكانت تريد ان تسمع شقيقتها تبعد اعجابها بايفان ايليتش بصوت عال :

- كاتيا ، انظري اليه . . . اناحطين كيف تغير ؟ في بطرسبورغ كان في وجهه عدم اكتمال . . . كما كانت عيناه ايضا مختلفتين . . . ارجو المعذرة ، يا ايفان . . . ولكن عندما كنا في السفينة التي اقلتنا الى سامارا كانت لك عينان زرقاوان فاتحتان ، بل بمسحة من الحماقة حتى ان ذلك القلبي . . . اما الان فهما بلون الفولاذ . . .

كان ايفان تليفين يثق امام كاتيا ، وقد زفر بتسنج من امتلائه بالاخاميس . بهذا لكاتيا ايضا جذابا جدا اليها هادئا ومتزنا . - واليك صورته كاملة ، يا كاتيا . . . اثناء المسيرات - بل تصوري - حتى حين كان يلطرد هامونتوف علسي ظهر حصانه كان يحمل معه في عدل سرجه - احزري ماذا ؟ - صميتين خزقيتين لقطعة ولكلب كان قد اعداهما في في يوم زفافنا الثاني في تساريتسيف . . . لانني قد اعجبت بهما كثيرا . . .

هرع كوزما كوزميتش نحو كاتيا ، وقد قفز من العربة لدليقة . وظل يئن بعدها يكتفا يديه وقتا طويلا والتمع وجهه الاحمر العليلق تماما سرورا ووقاء . وكان يبدو في مريوله الابيض مثلثا حتى ان الناس التحاف المارين به على الرصيف نظروا اليه بعداه . - احبيتك ، يكاترينا ديميتريفنا خلال ايام لصيرة قدر محبي لدلريا ديميتريفنا . . . انا اقول دائما ليس في العالم نساء اروع من الروسيات . نقيات في مشاعرهن ومتفانيات ، ويعشقن الحب وشجاعات حين تقتضى الشجاعة . . . انا في خدمتك دائما ، يكاترينا ديميتريفنا . . . ما ان انتهى من شؤوني حتى اهرع

اليك عند الغداء لاجلب لك اشياء جديتها من روستوف . . . الفصل
ربيع عندنا في روستوف . . . ومع ذلك فان الشمال احمى على
القلب . . . حسنا ، اعزيتي . . .

والبلت انيسيا في مريول ايضا . كانت خيبة الامل تبدو على
وجهها بعينيه الواضعتين . فقد كانت تريد ان تبقى في موسكو في
هذه السفرة ، الا ان كبير اطباء - بطريقتة غير سوفيتية على
الاطلاق - وحتى دولنا رغبة في الاصفاء قال : «اي مدارس مسرحية
هذه ا عن قريب ستحدث معارك كبيرة مجددا ، وتخلف الجرحى .
لا اسبح لك ا »

- لا باس ، سانتظر حتى الخريف - قالت لداشا ومسحت
انفها بلطف مندبها - الاموم تم ، وانا اقدتها ، وهذا هو
المؤسف . . . لاتوقن حسنا ، وقد جاء لاستقبالي ، عفرست
ايضا . . . جاء مندوبا الى المؤسس - اصبح فقورا وجديا . . . وهو
يقول انه ليوم الثالث يهرع الى محطة القطار ليستقبل قطارنا
للاسعاف . . . ذهب ليقنع كبير اطباء ليسمح لي باجازة ليوم
واحد . . . داريا ديمترييتنا ، حدثني عن اغريبيشا ، انها في
ساراتوف ، وقد وضعت مولودا لا اعرف ان كان ولدا او بنتا
ومرحت مدة طويلة . . . وعادت الى الفوج مع وليدها . . . مسكينة ،
لها خلق صعب . لا تحب الا مرة واحدة . . .

خرجوا من محطة القطار ومشوا خلال موسكو كلها على الاقدام
الى زقاق ستاروكوتوشسكي ، فقد اعدت هناك غرفة لداشا وتليفين ،
وهي نفس غرفة ماسلوف . وقد انقضت شهران وهو غائب . في
بداية الامر حمل كتبه ، ثم اختلف هو الآخر . . . ساروا ببطء بسبب
كاثيا . اراد فاديم روتشين ان يضعها على يديه ، ويحملها تحت
هذه السحب الزميصة الشعثاء المخيمسة على موسكو . وتأخر
تليفين وداشا عنهما لكيلا يشافياهما . قالت لداشا :

- انا اغشى على كاثيا ، موسكو وهذه المدرسة مستفضيان
عليها . وهي لا تاكل شيئا . . . خلال ثلاثة اشهر صارت نحيلة
جدا . . . يجب ان نلدها معنا في القطار . . . سيكون في امكانتي ان
اطعمها . . . اما هنا فهي لا تاكل شيئا ، وهذا غير معقول .

قال تليفين بخفت وبدلالة :

- نعم ، ثم ان فاديم يتعذب بدونها ايضا . . .

ولحق بهما لاتوقن وانيسيا بعد قليل . وكانت انيسيا قد
خلعت مريولها ، وقد توردت وجنتاها . سلم اربع لاتوقن الجهم الجدي
بطريقة متعطفة ، واخرج من رذن مغطلة اربع تذاكر للتصنيف الى
مسرح البولشوي ، في اعلى طابق . وقال وهو يوزع التذاكر :

- نعم ، في الجهة اسهل مما عندكم في موسكو . كان على
ان اغرض معركة كبيرة من اجل هذه التوافه . . . ومن حسن الحظ
ان الملاحظ كان من بعارتنا على الطراد «القروراه» . . . ولهذا يجب
الا تتأخروا . اليوم اجتماع مهم . حسنا ، يا انيسيا ، لنذهب . . .

كانت مئات الصبايح الكهربائية لا تكاد تضيء بضوئها
المعمر الداكن صالة مسرح البولشوي بطابقه الخامسة حيث
ارتفع الضباب المتخلف من الفانس العاضرين . وكانت الصالة
باردة ، وكانها قبر . وعلى المسرح الواسع الذي سمت مؤخرته
بالوامس من الجفانس جلس اعضاء الرئاسة حول منضدة قائمة في
الجانب ، وقرية من اشوا، مقدمة المسرح الشاحبة . اتجهت رؤوس
الجالسين جميعهم الى نهاية المسرح حيث عدلت على كلاليب الديكور
في اعلى المسرح خارطة روسيا الاوربية وقد تفتت بقع ودوائر من
مختلف الالوان تكاد تملأ كل سطحها . امام الخارطة وقف رجل
صغير الجسم في معطف فرائس حاسر الرأس . وكان شعره المتدلي
من جبينه الواسع يلقى ظلا على الخارطة وكان يسك في يده عصا
يليارد طويلة ، يشير بطرفها من حين لآخر ، وهو يعرك حاجبيه
الكثيفين الى هذه البقعة الملونة او تلك فكانت تضاهي في الحال بضوء
ساطع حتى ان ذهب الطوابق الكامدة في الصالة يأخذ بالتلاؤل . وتبدو
للعيان الوجوه النحيلة المهجدة بعينها المتسممة باهتمام .
وتكلم بصوت عال ليتردى في السكون المتوتر :

- عندنا في روسيا الاوربية وحدها من العث المجفف بالهواء
مسا يقدر بعشرات التريلونات من البودات . ونحن نملك من
استباطياتها ما يكفي لقرون . والثت وفرد عملي . ومن فدان واحد
من مستنقع العث يمكن ان نحصل من الطاقسة على ما يزيد حسنا
وعشرين مرة على ما نحصل عليه من فدان واحد من الغابة . ويحتل
العث المرتبة الاولى تليه القوة المائية والحم ، وكلها تحمل المشكلة

التي تجابهنا ، مشكلة البناء الثوري . لان الثورة التي انتصرت في ميدان القتال فقط ولم تنتقل الى التحقيق الفعلي لافكارها ، ستخمد مثل عصفرة ربح . لقد اشار فلاديمير ايليتش لينين الجالس بيننا ، والذي الهمني تقريرى لهذا اليوم قد اشار الى الخط العام للثورة الخلافة : الشيوعية هي السلطة السوفيتية زاندا الكهربائية . . .

- اين لينين ؟

سألت كاتيا ، وهي تطل من علو الطابق الخامس . كان روتشين يسك بيدها التحيلة طوال الوقت ، فاجاب همس ايضا : - انه هناك ، صاحب المعطف الاسود . انظرى ، انه يكتب بسرعة ، ها قد رفع راسه ، ويلقى تصاوة ورق عبر الطاولة . . . انه هو . . . اما الشخص التحيل ذو الضاربين الاسودين عند العانة فهو ستالين ، الرجل الذي هزم دينكين . . .

وكان الغطيب يقول :

- في الاماكن التي تكمن فيها ميليارات البودات من الخت في صمت روسيسا المزمسن ، وفي الاماكن التي تهبط عليها الضللات او يسوق نهار جبار مياهه ستنبي المحطات الكهربائية ، وهي الفناوات الحقيقية للعمل الجماعي . لقد تحررت روسيا الى الابد من نير المستعمرين ومهمتها ان تضيقها بوجه لا يغبو من النار الكهربائية . ان لعنة العمل الماضية يجب ان تصبح سعادة العمل . ووقع عصاه وانشار الى مراكز الطاقة القليلة ، وعروها على الغارطة واسمسا الدوالس التي كانت تسمى الى مرافق الحضارة الجديدة القليلة ، وتالقت البقع كالتجمد في اغبياش المسرح الواسع . لقد كلفت اضاءة الغارطة بهذه الاضاءة ولهذه اللحظات الضار تجميع كل طائفة المحطة الكهربائية في موسكو ، وحتى في الكريملين فكت جميع المصابيح في مكاتب مفوضي الشعب ما عدا واحدا بقوة ١٦ شعة .

في القاعة كان الناس الذين كانوا يحملون في جيوب معاطفهم العسكرية وسترهم المثلية بالرصاص فحسنة من الشوفان وزعت عليهم اليوم بدلا من الخبز يستمعون مبهوري الانفاس الى آفاق الثورة العظيمة والقابلسة للتحقيق بالفصل على الرجم من ذلك ، فالدورة تدخل الآن في طريق الخلق .

كان تليفين يقول لداشا خافت الصوت :

- تقرير مفيد . اننا اعرف المهندس كرميجانوفسكى هذا بشكل جيد . سننهي الحرب واعدد الى المصنع ، فالنا ايضا عندي الفكارى . . . لدى رغبة شديدة في العمل ، يا داشنكا . . . اذا كانوا يضعون مثل هذه القاعة الكهربائية ، فسيكون في الامكان القيام بكل شيء . فما اعظم ثروتانا ! واذا قمنا بعمل حقيقي في هذه البلاد الجبارة ، فاننا سنثفوق على امريكا ! نحن اكثر غنى . . . سنذهب سوية الى الاورال . . .
قالت داشا له :

- وستعيش في بيت من جذوع الشجر نظيف تماما ، فيه قطرات من صمغ الصنوبر ، ونوافذ واسعة . . . وفي صباحات الشتاء سنشعل الموقد . . .

وهمس روتشين في اذن كاتيا :

- اتدركين اى معنى ستتخذ جهودنا كلها والتم الذي ارقناه ، وجميع عذاباتنا الصامتة غير المعروفة . . . سنحول العالم بجهودنا الى مكان للخير . . . وكل الذين في هذه القاعة مستعدون للتضحية بحياتهم من اجل ذلك . . . ليس هذا مجرد خيال انهم يستطيعون ان يروك التدوب والبيع الزرق التي خلقتها الرصاص . . . وهذا في وطني ، هذه روسيا . . .

- لقد استقر العزم ! - كان الرجل عند الغارطة يقول متكنا على العصا وكأنه يتكى على رمح - اننا نقاتل وراء المتاريس من اجل حقنا وحق العالم في ان نقضى مرة والى الابد على استثمار الانسان للانسان .